محاضرات حول

مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم

ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى

وفي مقدمتها صفحات في ترجمة الشيخ الإمام

رضي الله تعالى عنه

تقديم وجمع

ولده

محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط

تلميذه

محمد علي الادلبي

الجزء الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات حول

مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

مع العالم

ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى

وفي مقدمتها صفحات في ترجمة الشيخ الإمام

رضي الله تعالى عنه

تقديم وجمع

ولده

محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط

تلميذه

محمد علي الإدلبي

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه صفحات ، فيها قبسات من سيرة والدي وسيدي ، الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ، ولم أكن أجرؤ يوماً أن يخط قلمي كلمات ، أو يجري على لساني عبارات ، تحمل معاني المدح والثناء ، على صاحب ذلك المقام العظيم ، الراسخ في العلم والمعرفة بالله تعالى ، الفاني في محبة الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. إلا أني إذا عجزت عن إدراك جميع ما هنالك ، فإن كثرة الإلحاح من بعض الأصحاب والأحباب ، لذكر بعض مناقب ذلك الجناب ، جعلتني أسمح لنفسي أن أذكر شيئاً يسيراً عن ذلك الإمام الهمام ، الذي نطق جميع أهل زمنه بفضله ، وأذعن علماء عصره لعلمه ، وتَصَدَّعت القلوب لفقده ، وذرفت العيون لفراقه ، الذي كان يؤثر الخفاء صدقاً مع الله تعالى ، وإخلاصاً له سبحانه وتعالى.

ويرحم الله القائل:

وإنّي أُمَنِّي النفسَ لَثْمَ بَنانِه ... وما كانَ مثلي للسحائب لاثِمُ

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لجمع كتاب خاص بمناقب والدي وسيدي شيخنا الإمام رضي الله عنه، لتكون سيرته الحميدة نِبراساً لكل مؤمن، يتعرف من خلاله على حياة ومآثر أهل العلم والفضل، لَعَلَّه يتأسى بهم، ويسلك طريقهم الموصل إلى رضا الله تعالى، ورضا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

ولادته ونشأته العلمية

ولد الشيخ الإمام سيدي الوالد عبد الله بن محمد نجيب سراج الدين رضي الله تعالى عنه في بيت عُرِف ببيت الفضل والكرم والعلم ، وذلك لما اشتهر عن والده رضي الله عنه بحل المعضلات العلمية ، وبيان ما التبس فهمه واشتبه أمره من العلوم والمعارف العالية. حيث إنّ كبار علماء ذلك الوقت كانوا يقصدونه ، فإذا قال لهم قولاً أذعنوا له ، وكان قوله هو القول الفصل ، ولذلك كانوا يتساءلون فيما بينهم: ماذا قال الشيخ محمد نجيب في ذلك؟ رضي الله عنه ونفعنا الله بعلومه وبركاته.

وقد عرف عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه عُلو المكانة ، ورِفعة المقام والمنزلة في قلوب أهل عصره ، فقد درج على ألسنة كثير منهم كلمات التكريم والتعظيم لمقام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه إنْ هم ذكروه؛ أو سمعوا شيئاً من كلامهْ؛ أو عن مناقبه.

في هذا البيت العامر باليمن والبركة ، المشهور بالعلم والمعرفة ، كانت ولادة مولانا الإمام الشيخ عبد الله رضي الله تعالى عنه سنة (١٣٤٢) للهجرة الشريفة.

وفي هذا البيت الفاضل ، المعروف بالنسب والحسب ، نشأ شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وتربىٰ في أحضان والده العارف الكبير الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، ووالدته السيدة خديجة

المكتبي بنت الشيخ وحيد المكتبي ، الذي استُشْهد في أيام الحرب العالمية الأولى ، فكفلها عمها العلامة الكبير ، فقيه عصره السيد الشيخ أحمد المكتبي رحمه الله تعالى.

وقد حظي شيخنا الإمام رضي الله عنه منذ صغره بدعوات وبركات من العلماء والأولياء والصلحاء ، الذين كانوا يزورون مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، أو يزورهم؛ لأنه كان بصحبته في غالب الأحيان.

وقد تعلم شيخنا الإمام رضي الله عنه تلاوة القرآن الكريم وتجويده في كُتَّاب جامع سليمان الأيوبي ، عند الشيخ عثمان المصري رحمه الله تعالى ، ويقع قريباً من دار الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

كما قرأ عند الشيخ المذكور رحمه الله تعالى شيئاً من قواعد اللغة العربية.

ولما أتقن تجويد القرآن الكريم حَبَّبَ إليه والده رضي الله عنه استظهار القرآن ـ يعني: حفظه عن ظهر قلب ـ فشرع شيخنا الإمام في ذلك عند الشيخ عبد الوهاب المصري رحمه الله تعالى[(١)] في كُتَّاب قَريب من جامع العثمانية ، فاستظهر القرآن الكريم وله من العمر اثنتا عشر سنة.

وكان في تلك الفترة يذهب إلى معهد الفلاح في جامع السلطانية ، الذي كان يديره الأستاذ الكبير الشيخ محمد خير الدين إسبير ، وقد تعلم في تلك السنوات القراءة والكتابة ، وتوسع قليلاً

---

(١) ولد سنة /١٣٢٠/ هـ ، وتوفي سنة /١٤١٢/ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

في علوم اللغة العربية، وحفِظَ نصوصاً في البلاغة والشعر كقصيدة: «بانت سعاد» للصحابي كعب بن زهير رضي الله عنه، وقصيدة البردة للبوصيري رحمه الله تعالى، وحفظ شيئاً من القصائد والمدائح النبوية، كما حفظ طائفة كبيرة من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وكان في ذلك كله يحوز على الدرجة الأولى، ويتفوق على مَنْ معه بأسبقية شَهِدَ بها كل من درَّسه أو سمع له.

دراسته للعلوم الشرعية

كان من جملة أَنظمة المدرسة الخسروية التي تُعنى بتدريس العلوم الشرعية: أن لا يُقبل إلَّا من تجاوز الخامسة عشرة من عمره، ويخضع فيها الطالب لامتحان قبول، يُعرَض فيه على لجنة من العلماء والمدرسين، بحيث يُمتحن الطالب في القراءة والكتابة ومبادىء اللغة العربية وتجويد القرآن الكريم.

وقد قبلت إدارة المدرسة شيخنا الإمام ولم يبلغ الثالثة عشرة من عمره بَعْدُ، وذلك لما وجدوا فيه من الاستعداد الكامل، والأهلية التامة؛ لمتابعة العلوم الشرعية، وكان من المتفوقين في فحص القبول.

أمضى ما يقرب من ست سنين في المدرسة الخسروية، استمع فيها إلى دروس كبار العلماء والمشايخ منهم: الشيخ محمد سعيد الإدلبي[1]، والشيخ إبراهيم السلقيني الكبير، والشيخ أحمد الحجي الكردي أمين الفتوى وقتئذ، والشيخ عيسى البيانوني،

---

(١) ولد سنة /١٢٩٢/ هـ، وتوفي سنة /١٣٧٠/ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والشيخ فيض الله الكردي ، والشيخ عمر مارتيني ، والشيخ راغب الطباخ[1] مدير المدرسة الخسروية وقتها ، وغيرهم من المدرسين أهل الفضل والعلم رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم.

وكان في تحصيل العلم من المتفوقين ، حاز الدرجة الأولى في جميع سني دراسته ، والتفت إلى حفظ متون أمهات العلوم؛ وإن لم تكن كلها من مقررات المدرسة وقتها ، إلاّ أنّ رغبته الصادقة في تعلم العلوم الشرعية حملته على ذلك:

فحفظ متن الجزرية في علم التجويد ، ومتن الجوهرة ومتن السنوسية في علم التوحيد ، ومتن السلم في علم المنطق ، ومتن البيقونية في علم مصطلح الحديث ، وألفية ابن مالك في علم النحو والصرف ، وعقود الجمان في علم البلاغة ، ثم حفظ ألفية الحافظ العراقي في السيرة ، والرحبية في علم الفرائض وغيرها.

اشتغاله بعلم التفسير والحديث

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه:

«لقد حَبَّب الله تعالى إليَّ حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ صغري. ولما كنت في الصف الثاني الإعدادي في المدرسة الخسروية ، رأيت في مكتبة والدي رضي الله عنه كتاب «تيسير الوصول»[2] ويقع في أربع مجلدات ، تناولت المجلد الأول

---

(١) ولد سنة /١٢٩٣/ هـ ، وتوفي سنة /١٣٧٠/ هـ رحمه الله تعالى ورضي الله عنه.

(٢) إلى جامع الأصول ، وهو مختصر «جامع الأصول لأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» للإمام عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبع الشيباني ، ولد سنة /٨٦٦/ هـ وتوفي سنة /٩٤٤/ هـ رحمه الله تعالى.

منها في العطلة الصيفية ، وشرعت في الحفظ ، حَتّى حفظت في كل عطلة مجلداً ، وأنهيت الحفظ في آخر عطلة من دراستي في المدرسة الخسروية ، وكنت لا أَشرع في حفظ شيء جديد حتى أتمكن وأتقن محفوظاتي السابقة.

وكنت أتناول كتب تفسير القرآن الكريم ، وأحاول فهم آيات الله تعالى من خلال أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي في الحقيقة بيانات لمعاني القرآن الكريم ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ولم يكن يخطر في بالي مرة أني سأتصدر مجلساً للتدريس ، أو أصعد منبراً للخطبة ، بل إنَّ الباعث لي على ذلك كله هو حبي لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورغبتي الشديدة في تعلم آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنني بعد ذلك وَجَدْت قيمة ذلك وأثره ، لَمَّا استلمت الخطبة والتدريس عن والدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وعلمت أَنّ سلاح طالب العلم هو: قال الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبدون ذلك أنّى للعالم أن يتكلم؟!» اهـ.

قلت: وفي ذلك إعداد من الله تعالى لشيخنا الإمام ، وإمداد له منذ صغره ، ودليل على صدقه وإخلاصه في طلب العلم ، فلم يك يبتغي من وراء ذلك منصباً ولا جاهاً ولا وظيفة ، وقد تجلّى ذلك لما خرج من المدرسة الخسروية ولم يُكمل الصف السادس فيها ، ولم يحصل على شهادة منها ، وكان ذلك بسبب أَن إدارة المدرسة أدخلت جُملة واسعة من العلوم الكونية في المقررات ، وأجبرت طلاب الصف السادس على الرجوع إلى الصف الرابع لدراستها.

مطالعته وتدريسه

ثم إنَّ مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أَشار على شيخنا الإمام أَنْ يقوم بالتدريس بدلاً عنه ، بسبب الوهن والمرض الذي أصاب الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه. فقام شيخنا الإمام رضي الله عنه بذلك خير قيام ، مستعيناً بالله تعالى وتوفيقه وتأييده ، وقد قارب العشرين من عمره ، ثُمَّ إنه حصل على غرفة والده الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى في المدرسة الشعبانية ـ وكان يقال لها: أزهر حلب ـ ، وكان الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى قد جاور فيها أيام طلبه للعلم.

وبقي شيخنا الإمام يتردد إلى تلك الغرفة ، يقضي أوقاته في مطالعة الكتب العلمية ، ويتناول المطولات منها في علم التفسير والتوحيد ، وشروح الحديث ، والفقه ، وغيرها ، وبقي على ذلك ما يقرب من سنتين.

ولما اقتضى الأمر أَنْ تكتسب دروسه صفة رسمية لدى الجهات المسؤولة، تقدَّمَ إلى مسابقة أعلنت عنها دائرة أوقاف حلب، لدرس وقفي شاغر ، وكان لشيخنا الإمام الفوز والأسبقية في النجاح.

أما دروسه العامة فنهج فيها نهج والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، من حيث توقيت الدرس والأبحاث العرفانية العالية

التي كان يتناول الكلام عنها، بأسلوب مُبسَّط يسهل على الحاضرين فهمه، ويفهمونه على حسب علمهم وفطانتهم، خاصة أنه يكثر من ذكر الآيات والأحاديث التي تُؤيد الموضوع الذي يبحث فيه.

فكان هناك درس في جامع بانقوسا بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، يبحث فيه في القضايا الإيمانية العلمية.

وهناك درس في الجامع الكبير بعد صلاة الظهر في كل يوم اثنين، يتناول فيه الكلام حول قضايا الإيمان الغملية.

ولا يخفى على مَنْ كان يحضر دروسه أَنها كانت متسلسلة في الأبحاث، يبتدأ الشيخ الإمام فيها بتذكير الحاضرين بالدرس المتقدم، ليستجمع الحاضر فكره وقلبه إلى ما سيلقي شيخنا الإمام من بيانات وأبحاث.

وكان له صباح كل يوم عدا يوم الجمعة دَرس في جامع الحموي، يقرأ فيه أبحاثاً من السيرة النبوية، والتفسير، والحديث، والفقه وهكذا، ثم اختصر تلك الدروس على أيام الأحد والأربعاء والخميس، وذلك بسبب كثرة مشاغله، خاصة أنّه وُكِّل إليه تدريس التفسير، والحديث وعلومه، والفقه؛ في الثانوية الشرعية ـ وكانت تعرف من قبلُ بالمدرسة الخسروية ـ.

كما كان شيخنا يخطب الجمعة في جامع سليمان الأيوبي، الذي كان يخطب فيه قبله والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

* * *

افتتاحه للمدرسة الشعبانية
وتأسيسه لجميعة التعليم الشرعي

لما عُدِّلت مناهج المدرسة الخسروية ، وقُرِّر فيها دراسة كثير من المواد الكونية على حساب المواد الشرعية ، تأثر لذلك كثير من العلماء الأفاضل في ذلك العصر ، ومنهم الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، الذي رأى حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو يأمره أن يفتتح مدرسة تُخصص لدراسة العلوم الشرعية على النهج القديم.

وبحث مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ذلك الأمر مع أصحابه ، إلا أنّ الوهن والمرض الذي أصابه حال دون تحقيق رغبته ، حتى توفاه الله تعالى سنة /١٣٧٣/ هـ وبقيت الفكرة قائمة لدى شيخنا الإمام ، إلى أن وَفَّقَه الله تعالى إلى ذلك سنة /١٣٨٠/ هـ بالتعاون مع بعض المدرسين والعلماء؛ الذين كانوا قد تركوا التدريس في المدرسة الخسروية. وكان افتتاح الصف التحضيري والصف الأول في غرفتين في جامع الحموي ، حتى حصل شيخنا الإمام على المدرسة الشعبانية ، التي كانت قد أُغلقت وأُلْحِقُ طلابها بالمدرسة الخسروية.

وكان شيخنا الإمام قد أشار على بعض المحسنين الموسرين ممن يحضرون دروسه أن يسعوا لإنشاء جميعة خيرية ، تقوم

بالإنفاق على طلاب العلم الذينَ يدرسون في المدرسة الشعبانية.

وقد تحققت رغبة شيخنا الإمام، وأَسَّس جمعية التعليم الشرعية، وأشهرت لدىٰ الجهات الرسمية. حتى إنّ المسؤول الذي وافق على ترخيصها وقتئذٍ ـ وقد نظر في أعمالها وأهدافها ـ قال: هذا ما أرجو الله تعالى أن ينفعني به إذا صرت في قبري.

ولما اكتملت صفوف المدرسة ست صفوف، مِنْ مرحلتين إعدادية وثانوية، رأى أحد خاصة تلامذة الشيخ محمد نجيب، وأحد خاصة مدرسي المدرسة الشعبانيه، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن محمد آل الغشيم رحمه الله تعالى [١٣٢١ ـ ١٣٩٨] في المنام، رأى الشيخ نجيب رضي الله عنه وأثر التعب على وجهه والعرق في جبينه، فقال له: مِمَّ هذا يا سيدي؟!!.

فقال الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه له: «انظر... الآن لقد أتممت لكم رصف الطريق الموصل إلى باب المدرسة الشعبانية» فنظر الشيخ الغشيم فرأى الطريق مُعبدة مرصوفة نظيفة.

ولما قص تلك الرؤيا على شيخنا الإمام قال:

«رحِم الله تعالى والدي، وجزاه عنا خير الجزاء، فإنّ فكرة إنشاء المدرسة كانت بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له، ولا يزال يعمل على تحقيق ذلك حتى حصلت رغبته، وحقق الله مراده، والحمد لله رب العالمين، والأمر كله في كتاب أعماله الصالحة إن شاء الله تعالى».

وبقي شيخنا الإمام رضي الله عنه يدير المدرسة، ويرعاها بعنايته وتوجيهاته ودعواته حتى توفاه الله تعالى، ولا زالت بفضل

الله تعالى تُخرج طلاب العلم الأكفاء ، لمتابعة الدراسات العليا في شتى المعاهد والجامعات ، ومنهم الأئمة والخطباء والمدرسون.

وقد كان رضي الله عنه يقول: «لقد تشعَّب عن المدرسة الشعبانية كل خير والحمد لله ، فقد تفرع عنها دار لتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم القراءات ، وحلقات لقراءة الحديث الشريف. وكم من مدرسة شرعية أُنشئت بعد المدرسة الشعبانية ، وقد استعانت بمناهجها والحمد لله».

وكان رضي الله عنه يقول: «لقد عَمَر المدرسة الشعبانية حساً ومعنىً أكابر الرجال من العلماء والأولياء ، ومنهم مَنْ جاور فيها لفترات طويلة ، ولا تزال بركاتهم وآثار طاعاتهم وعباداتهم لله تعالى مشهودة عند أهل التقى والصفاء».

ويقول رضي الله عنه: «وإن المدرسة الشعبانية وإن كانت حسب الظاهر متواضعة بجدرانها وبنيانها، إلا أنها شامخة بمن عَمَرها ودَرَس أو دَرَّس فيها ، ولها مكانتها وعُلُوُّ مرتبتها عند الله تعالى» اهـ.

قلت: وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه لا يترك في دعائه الدعاء للمدرسة الشعبانية وما يتبعها ، وللعاملين عليها ، والمدرسين فيها ، ولطلابها وإدارتها.

وكان يوصي المدرسين فيها كلما زاروه ، يُوصيهم بالاهتمام وببذل الجهد في التعليم ، وأن يحافظوا على حلقات السلسلة العلمية الشرعية ، ولا يَدَعُوا النقص والضعف والتفكك يَسْري إليها ، فكما أخذوا العلم عن مشايخهم بقوة؛ فعليهم أن يوصلوه إلى من بعدهم بقوة وهكذا. . .

وكان يشحذ همة المدرسين والطلاب أيضاً ، ويبشرهم بأنّ الشعبانية محفوفة بالأنظار المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن عمل فيها أو أسدىٰ إليها معروفاً فقد ناله من النفحات والأنظار المحمدية؛ على حسب صدقه وإخلاصه لله تعالى.

قلت: وقد قص شيخنا الإمام مرة أنه رأى حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ، وهو يصلي إماماً في ساحة المدرسة الشعبانية ، وقال رضي الله عنه: «لقد عمرتها أنوار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنوار العلماء والأولياء والصالحين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين».

وكان من عادته رضي الله عنه في شهر رمضان المبارك أَن يصلي العشاء والتراويح إماماً في جامع الحموي ، وبقي على ذلك سنين ، ثم نقل ذلك إلى جامع المدرسة الشعبانية ، حباً فيها ، وإحياءً لها ، وخاصة أيام العشر الأخير من رمضان ، ويطيل الدعاء بعد الصلاة؛ لِما لتلك الليالي المباركة من عظيم الفضل ومضاعفة الأجر.

* * *

كلمات
حول ميزات دروسه العامة

كانت مجالس دروسه مجالس صفاء ونقاء ، وسَمُوٌّ وارتقاء ، ينشرح لها الصدر ، ويصفو بها القلب ، وتسمو النفس في مراتبها ، ويشعر المرء فيها بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، إذ تنساب إلى قلبه معاني آيات الله تعالى ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسلوب سهل العبارة ، رقيق الكلمة ، خاصة أنه رضي الله عنه كان يُكثر من ضرب الأمثلة التي تبين للسامع ما أراد ، ولا يلجأ إلى الكلمات العامية المنتشرة على ألسنة الناس؛ إلا إذا أراد أن يبين غُموضَ كلمة ، أو توضيح جملة دقيقة المعنى.

وكان أسلوبه في الدرس أسلوب الإلقاء ، فلا يقرأ من كتاب أمامه ويشرح عباراته ، بل كان قبل أَنْ يذهب إلى الدرس يجمع في صدره ما يريد إلقاءه ، ثم يأتي به كالوابل الصيب ، بكثرة الأحاديث النبوية ـ التي يأتي بها على وجهها لفظاً وتخريجاً ، مع ذكر اسم الصحابي الراوي لها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان يحذِّر من طريقة كثير من المدرسين والخطباء الذين يأتون بالحديث على معناه ، ويقولون في آخر الدرس أو

الخطبة: أو كما قال. بل كان يستهجن هذا العمل ـ التي تدور في موضوع المحاضرة ، وقد أحصى بعضهم عدد الأحاديث التي أتىٰ بها في بعض محاضراته فبلغت سبعاً وعشرين حديثاً برواتها. وكان في درسه يَضع أمامه على الطاولة الصغيرة المعروفة (بالرحلة) يضع كتاب (صحيح البخاري) متبركاً به، وليكون موضع نظره خلال سكتاته القليلة حين إلقائه المحاضرة ، وعلى هذا جرى فضيلة مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «كنت في بداية دروسي قد تناولت البحث في قصص الأنبياء عليهم السلام؛ بدءاً من آدم عليه السلام ، حتى انتهيت في البحث حول بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته وشمائله ، ووقفت على بابه صلى الله عليه وآله وسلم ولم أَجِدْ عنه. . . ووفقني الله تعالىٰ إلى البحث حول مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ، وفصَّلت الكلام على ذلك ولم أنتهِ بَعْدُ.

وأما أبحاثي حول قصص الأنبياء عليهم السلام فكانت مُفَصَّلَةً ، أعتمد فيها على ما ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حول قصصهم ، ومناظراتهم لأقوامهم ، والأدلة والبينات التي أيدهم الله تعالى بها، وكثيراً ما كنت أَرَدُّ أباطيل وأدفع شبهات ذُكرت في بعض الكتب تتنافىٰ مع عصمة الأنبياء ، وجلالة قدرهم عليهم السلام».

وقال رضي الله عنه: «لما رأيت في بداية الأمر تزاحم الناس على سماع دروسي ، سألت الله تعالى أن يُبَشرني بأَنَّ دروسي مقبولة مرضية عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، خاصة أَنَّني كنت لا أبغي من دروسي أجراً ولا منصباً

ولا شُهرة ، بل إنّ غايتي ومقصدي هو رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، بتعليم الناس أمور دينهم ، ونشر وبيان شريعة الله تعالى».

قال رضي الله عنه: «فنمت تلك الليلة فرأيت نفسي إلى جانب بستان كبير ، تحيطه أشجار خضراء زاهية ، ووقع في نفسي أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم داخل غرفة في البستان يُدرس أصحابه ، فجعلت أبحث عن باب الدخول ، فإذا أنا بسيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه يُقْبِلُ عليّ ويقول لي: هيا بنا نحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخذني ودخلت البستان ، ولما أردنا الاستئذان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمعناه يقول: «ادخلا ، ادخلا» فدخل أبو بكر رضي الله عنه فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مجلسه ورد عليه السلام ، ثم تقدمت وسلمت على حضرته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أمامه صلى الله عليه وآله وسلم طاولة صغيرة ، تشبه تلك التي توضع أمامي أثناء الدرس ، والبهاء والأنوار مشرقة في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إنني لم أتمكن من التحديق في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم. . . . . فارتميت على أقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، وجعلت أُقَبِّل هذه وهذه ، وأكرر ذلك وأقول في نفسي: هاتان القدمان شَرّفتا السموات ليلة المعراج ـ وغلبني البكاء حتى استيقظت فَرِحاً مستبشراً مطمئناً ، وقلت في نفسي: إنّ انكبابي على أقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم دليل الاتباع الصادق إن شاء الله تعالى ، ونسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه».

ولقد كانت محاضراته في جامع بانقوسا تَدور حول أبحاث التوحيد والقضايا الإيمانية العلمية الاعتقادية ، وبقي يبحث حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ما يزيد على عشرين سنة ـ أي: حتى عام /١٣٩٩/ هـ ـ وهذا الكتاب من تلك الدروس التي ألقاها في هذا الجامع قبل سفره.

ولما رجع من المدينة المنوَّرة التي جاور فيها ثلاث سنوات ونصف السنة ، افتتح محاضراته في جامع بانقوسا بالكلام حول تفسير سورة الفاتحة ، على أثر بشارة كان قد رآها أيام مجاورته في المدينة المنوَّرة ، وبقي واستمر يبحث حول تفسير سورة الفاتحة ما يزيد على سنتين ، ثم شرع في تدريسه حول تفسير خواتيم سورة البقرة ، وخواتيم سورة آل عمران ، إلى أن تَوَقَّفَ عن التدريس في جامع بانقوسا بسبب اعتلال صحته ، ووهن جسمه ، واقتصر على التدريس في الجامع الكبير المعروف بجامع سيدنا زكريا عليه السلام.

واستمر في التدريس فيه حتى عام /١٤١٠/ هـ ، وكانت أبحاثه فيه تدور حول قضايا الإيمان العملية ، ويفتتح الدرس ـ في هذا الجامع من حين ابتدائه التدريس به ـ بقول سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان»[١] وكان يرويه بإسناد الإمام البخاري رحمه الله تعالى ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم.

فيقول: أما بعد: فبالسند المتصل إلى الإمام أبي عبد الله، محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه، قال: حدثنا....

وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «ولقد لمست في الناس في السنوات الأخيرة جَهلاً شديداً في أمور دينهم، حتى صارت القضايا الفطرية المسلمة تحتاج إلى دليل وبيان، وسبب ذلك قِلّة مجالس العلم، والتفات الناس إلى أمور الدنيا وزينتها، كل ذلك جعلني أقتصر في دروسي على بيان أمور الدين الضرورية التي لا بد للمؤمن من معرفتها والإحاطة بها؛ اعتقاداً وعملاً وتخلقاً وأدباً، وتناولت ذلك بأسلوب سهل، وكلمات مألوفة، لأنّ قصدي انتفاع الناس بما يسمعون».

ثم لزم البيت واعتزل فيه لأمر يريده الله تعالى، وعكف على جمع وتصنيف الكتب العلمية الدينية، وفيها ما يحتاجه الناس لفهمِ أمور دينهم.

وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يجلس في الدرس كهيئة جلوسه في الصلاة، وذلك في مقدمة السدة المعروفة في كلٍ مِنْ جامع بانقوسا والجامع الكبير، ويجلس متوجهاً إلى القبلة، وأمامه رحلة صغيرة كتلك التي يُوضع عليها المصحف أثناء التلاوة في المسجد.

وكان إذا شرع في الدرس استغرق فيه، وارتفع صوته، واحمر وجهه، ولا يشعر بمرور الوقت، فلا يتعب ولا يسأم، لكنه يراعي أحوال الحاضرين في الدرس، وكان قد كلف بعض أصحابه أَنْ يمر أمام المحراب إذا مضى من الوقت خمسون دقيقة، فإذا

وقع بصره عليه راحَ يشرع في ختم الدرس ، وكثيراً ما كانت تتجاوز فترة الدرس الساعة وربع الساعة ، ولا أحد من الحاضرين يملُّ أو يكلّ ، بل يراهم الناظر مصغين خاشعين ، متوجهين بقلوبهم إلى كلام الشيخ رضي الله عنه ، وبأبصارهم إلى وجهه المنير رضي الله عنه.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «وكنت قد رأيت سيدنا زكريا عليه السلام في المنام فقال لي: إنك إذا جلست إلى الدرس جعلتُ أنظر إليك حتى تنتهي من درسك».

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «وهذه من البشائر المتوالية عليّ بفضل الله تعالى ، وأننا محفوفون بأنظار سيدنا زكريا عليه السلام ، كما أَنّ أنظار خير البرية وإمام الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تنقطع عنا ، كما أتتني البشارة بذلك في عدة مناسبات ، وعلى لسان من لقينا من أهل الله تعالى ، ومنهم السيد الكبير ، العارف بالله تعالى ، الشيخ أحمد الحارون الدمشقي وغيره رضي الله عنهم أجمعين».

وأما دروسه في جامع الحموي فكانت مجالس تفسير وحديث ، وقد اقتصرت على أيام الأحد والأربعاء والخميس بعد شروق الشمس بنصف ساعة تقريباً.

فيقرأ صباح الأحد درس تفسير لكلام الله تعالى ، أما صباح الأربعاء فيقرأ من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه ما تيسر له من أحاديث على حسب الأبواب ، ثم يشرع في بيانها ، وكذلك صباح الخميس فيقرأ عدة أحاديث من كتاب رياض الصالحين

للإمام النووي رضي الله تعالى عنه ، ثم يتناول البحث في معانيها ومقاصدها.

قلت: وكان يحضر مجالس تدريسه عَدَد من مشاهير العلماء آنذاك ، فضلاً عن طلاب العلم ، وصلحاء الناس على اختلاف مراتبهم ، وذلك لأن دُروسه وأبحاثه فيها تميزت بأنها عامة وليست لعوام الناس فقط ، وكان كل من الحاضرين ينهل من هذا المعين الفياض على حسب طاقته وفهمه وعلمه.

حضر درسه يوماً العلامة المحدث ، الشيخ السيد عبد القادر السقاف الحضرمي أمتع الله به ، وكان قد قدم من بلاد الحجاز لزيارة شيخنا الإمام صيف سنة /١٣٩٦/ هـ فكان من كلامه لأصحابه لمّا فرغ شيخنا الإمام من درسه: «لقد سمعت من هذا السيد العارف بالله تعالى كلاماً لم أسمعه من أحد قبله ، ولم أقرأه في كتاب» اهـ إنه فتح من الله تعالى ، وفيض منه سبحانه على هذا الشيخ الإمام ، خاصة أنه يأتي بالمعاني العرفانية العالية ، ويدلل عليها ، ويؤيد كلامه بآيات من كلام الله تعالى ، وأحاديث من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولا يعرف قدر هذا إلا من كان من أهل العلم والمعرفة والصفاء والتقى..

* * *

نفحات محمدية
صلى الله عليه وآله وسلم
آثارها - بركاتها

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه:

«كان سيدي الوالد رضي الله عنه قد قص علينا أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وأمره أن يفتح فمه، فتفل صلى الله عليه وآله وسلم فِي فِيْهِ ريقاً من فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أَمَره صلى الله عليه وآله وسلم أن يَفْتح فمه مرَّة أخرى، فأخرج صلى الله عليه وآله وسلم من صدره الشريف نخامة وتَفلها في فم سيدي الوالد فابتلعها، ثم ضرب على ظهر سيدي الوالد وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: لا بأس عليك يا شيخ نجيب، لا بأس عليك يا شيخ نجيب».

وكان الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يتأول هذه التفلات المحمدية بالعلوم الشرعية الظاهرة، والعلوم العرفانية العالية، وهي ما يعرف بعلم الحقائق والمعارف الإلٓهية، وقد اشتهر عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه براعته فيها وتمكنه منها.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «وإن لهذه التفلات المحمدية آثاراً نورانية، تسري في ذرية الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه،

وقد أكرمني الله تعالى بأني رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ، وذلك بعد وفاة والدي رضي الله عنه بفترة وجيزة ، رأيت والدي الكريم وقد أخذ بيدي ضمن حشد من العلماء والأولياء ، وكلهم ينتظرون قدومه صلى الله عليه وآله وسلم ليتشرفوا بالسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما أقبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بطلعته البهية ، وأنواره الزهية ، ومعه عدد من صحابته الكرام ، وإلى جانبه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهي في غاية الحشمة والوقار ، فلما سلمتُ عليه صلى الله عليه وآله وسلم تَفَلَ ، فَوقَعتِ التفلة المباركة على كتف السيدة عائشة رضي الله عنها ، فتقدمت وأخذتها وابتلعتها؛ والحمد لله تعالى على ذلك ، ثم التفتُّ فلم أَرَ سيدي الوالد رضي الله عنه ، ثم استيقظت فرحاً مستبشراً ، وعلمت أن سيدي الوالد رضي الله عنه هو الذي قد أوصلني إلى حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، ونلت تلك التفلة المحمدية بأسرارها وأنوارها ، وفي ذلك قلت:

صلاة الله تترا كل حين ... على من حُبُّه روح لروحي
ويصحبها السلام بلا انتهاء ... على من ريقه منه فتوحي

* * *

سلوكه طريق العبادة
والتقرب إلى الله تعالى

لقد حَبَّبَ الله تعالى إليه منذ صغره تلاوة القرآن الكريم ، وقراءة (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام الجزولي رضي الله عنه[١] .

وبعد أن استظهر القرآن الكريم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، كان يختم القرآن كل سبعة أيام ختمة ، وربما في ثلاث؛ خاصة في الأيام الفاضلة كأيام رمضان وعشر ذي الحجة ، وهكذا. . . لأنه كان أيضاً يُراجع محفوظاته من الأحاديث الشريفة وأمهات المتون .

وكان يقرأ كل يوم أيضاً مجموعة الصلوات الإدريسية. وهي عدة منظومات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، من نظم الإمام العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن إدريس رضي الله عنه. وكانت هذه المجموعة وشروحها موجودة في مكتبة والده الإمام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وتُعجبه كثيراً ، وينشرح لقراءتها لما فيها من أسرار ومعان عرفانية عالية .

(١) أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الإمام ولد سنة /٨٠٧/هـ وتوفي سنة /٨٧٠/هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم وفقه الله تعالى إلى قراءة أوراد السادة الرفاعية رضي الله عنهم، خاصة كتاب: (السَّيْر والمساعي في أوراد سيدي أحمد الرفاعي) رضي الله عنه، وكذلك حزب الفَرَجِ لسيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه أيضاً. ثم جمع رسالة في الأذكار والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصباح والمساء، وكانت هذه من جملة أوراده اليومية رضي الله عنه.

وكانت له أوراد في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعداد كبيرة، وأوراد خاصة بباقي الطرق: كالطريقة القادرية، والطريقة البدوية رضي الله عنهم أجمعين.

وكان يدير حلقة الذكر بأسلوب يتفق مع جميع الطرق الموصلة إلى الله تعالى، وذلك ليلة الثلاثاء من كل أسبوع في جامع سليمان الأيوبي، ثم نقله إلى جامع العثمانية لاتساعه؛ بسبب إقبال الناس على حضور حلقة الذكر.

وأما عن قيامه في الليل للتهجد، فلم يدعه منذ صغره حتى آخر أيام عمره المبارك، كما أخبرتنا بذلك الوالدة الكريمة أمدها الله بمدده وعونه.

وكان يجهر في قيامه بتلاوة القرآن، وبالأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قلت: وكثيراً ما كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يُحَرِّضُ على قيام الليل ويرغب فيه في مجالسه العامة والخاصة، ويقول: «لقد دلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الواردة في ذلك على أن من أراد خير الدنيا والآخرة، والوصول السريع إلى

مقامات القرب من الله تعالى: فعليه بالمواظبة على قيام الليل ، ولو قبيل الفجر بشيء يسير ، لئلا تفوته ساعة التجلي الأكبر على العباد بالجود والعطاء».

وكان رضي الله عنه إذا أراد أن يختم القرآن الكريم جَمع من كان في البيت من أولاده وأحفاده وشرع في الختم ثم الدعاء ، وذلك عملاً بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وكان رضي الله عنه في السنوات الأخيرة من عمره المبارك يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أو أربعة أيام. ويا ليتَ عين كل مؤمن تنظر إلى تلألؤ وجهه بالبهاء والنور ، خاصة حينما كان يقرأ القرآن أو يدعو الله تعالى.

* * *

---

(١) ينظر كتاب تلاوة القرآن المجيد للشيخ الإمام ص / ١٣٤/ وما بعدها.

بعض كراماته

كانت صفة الذل والانكسار لله تعالى ظاهرة عليه ، لا تخفى على من اجتمع به ، وكثيراً ما كان يقول: «أنا عبد الله اسماً وصفة وتحققاً ، وإنّ شرفي وعزتي بعبوديتي وعبادتي لله تعالى ، وخدمتي لكتاب الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم».

وكان متواضعاً مع عباد الله تعالى ، امتثالاً لأمره سبحانه بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] واتباعاً لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله تعالى»[١].

وكان يقول: «مهما حاول المرء أن يأتي بجملة فيها معنى غاية التواضع للمؤمنين؛ لما استطاع أن يقول جملة أبلغ وأفصح وأدق من قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]».

وكان رضي الله عنه يؤثر الخفاء والتستر على التظاهر والتفاخر، ويذكر الحديث الذي رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي[٢] ، عن

---

(١) رواه الإمام مسلم في (الصحيح) /٢٥٨٨/ (٥/٢٥٢٧) والترمذي في (السنن) /٢٠٣٠/ (٦/ ٢٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ابن ماجه /٣٩٨٩/(٢/ ١٣٢٠) والحاكم (١/ ٤) و(٣/ ٢٧٠) البيهقي في الزهد الكبير (١٩٥).

سيدنا معاذ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إنْ غابوا لم يُفْتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة».

أي: أن الله تعالى يحفظهم من الفتن التي يُضَلُّ بها غيرهم.

وكان إذا سمع من أحد مدحاً وثناءً عليه ، أو ذِكْراً لبعض كراماته بادر إلى القول:

«اللهم استرنا اللهم استرنا» ، ويردد ما جاء عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه: «اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واغفر لي ما لا يعلمون».

ومن كلامه رضي الله عنه: «إنّه من خلال ٱطلاعي الواسع على حياة الصحابة رضي الله عنهم وسيرتهم؛ لم أجد أحداً منهم تظاهر يوماً بكرامة ، أو تَحدث عن أمر خارق للعادة ظهر على يده ، بل كان شأنهم الخفاء والتواضع؛ لأنهم صادقون مخلصون لله تعالى ، يخافون من الرياء والسمعة ، مع أن الله تعالى شهد لهم بالإخلاص له تعالى فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] فلا غاية ولا قصد لهم إلا فضل الله ، ورضاه سبحانه وتعالى».

قلت: ومن كراماته الشهيرة التي اعترف بها كل من جلس معه ، أنّه يحدثك بكلام فيه أجوبة عن كل ما جال في فكرك من أسئلة واستفسارات ، وكثيراً ما يجد طلاب العلم عنده ما التبس عليهم

فهمه من أمور علمية ، وقضايا شرعية ، بادرهم بالحديث عنها وبيانها؛ قبل أن يسألوه عنها.

قلت: وقد حصل معي هذا مرات عديدة ، حتى إنه مرة أجابني عن تسعة أسئلة كنت أُعِدُّ نفسي لسؤاله عنها رضي الله عنه ، وكان إذا أخبره أحد عن ذلك يتبسم ويقول: «اللهم استرنا ، اللهم استرنا ، الفضل كله لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم».

ومن كراماته التي تواترت ونقلت عنه ، أن الله تعالى يجيب دعاءه لمن شكا له العقم أو عقر زوجته ، فكم مِنْ أشخاص تعبوا وقاسوا ، وعجز الطب عن دوائهم ، حتى يئسوا من الولد ، أمرهم شيخنا الإمام رضي الله عنه بتلاوة بعض الأسماء الإلّهية بأعداد معينة ، وبدعوات مأثورة؛ فأجابهم الله تعالى ووهبهم أولاداً.

وكم من مريض مُجِبٍّ شفاه الله تعالى بسبب شَربة ماء كان شيخنا الإمام قد قرأ ونفث فيها.

قلت: ويضيق المجال بنا في هذه الكلمات اليسيرة الموجزة عن حياة شيخنا الإمام رضي الله عنه أن نستقصي جُل ما ظهر على يده من كرامات ، وما أجرى الله على يده من خوارق عادات ، وأكتفي بذكر بعضها ، على أني سأسهب الكلام على ذلك في مؤلف واسع يتضمن ذكر مناقب شيخنا الإمام رضي الله عنه إن شاء الله تعالى.

خرج مرة كعادته في نزهة مع بعض أصحابه في السيارة (حول البلدة) ، وفي طريق العودة أسرعت طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها لتقطع الطريق ، ومرت أمام السيارة ، ولم يتمكن السائق من إيقاف السيارة فدهس الطفلة بالعجلات الأمامية والخلفية ، حتى

ذكر من كان مع شيخنا الإمام أنهم سمعوا اختلاف أضلاعها والعجلات تمر فوقها ، وصاح الشيخ رضي الله عنه: الله أكبر. ولما توقفت السيارة نزلوا منها ، ونظروا فإذا بالطفلة تنهض وتركض ولا بأس بها ، فتزاحم الناس على سيارة الشيخ لما سمعوا صوت المكابح ، ورأوا ما حصل ، وقد أخذتهم الدهشة ، ولما رأوا شيخنا الإمام داخل السيارة جعلوا يسلمون عليه ، ويقبلون يده ، فما كان منه إلا أن حمد الله تعالى على خفي لطفه سبحانه ، ودعا لهم ، وأمر بإكرام الطفلة وأهلها.

قدم أحد المهندسين من السودان للعمل في الدراسات والأبحاث الزراعية في شركة أجنبية تعرف باسم (إيكاردا) وقد استأجر داراً من رجل صالح مُحب لشيخنا الإمام ، مواظب على سماع دروسه ومجالسه ، وكان هذا المهندس قد شكا من حصىً في إحدى كليتيه وأجمع الأطباء وقتها على صعوبة وخطورة العمل الجراحي لاستئصالها ، فرأى مرة في نومه شيخاً مهيباً ، منير الوجه ، حسن السمت ، يناوله كوب ماءٍ ، ويأمره بشربه فشربه ، فاستيقظ من نومه حاقناً ، وأسرع لقضاء حاجته ، فاندفعت الحصى ولم يبق في كليته شيء منها ، فأخبر جاره الرجل الصالح ـ مالك الدار ـ عن هذه الحادثة ، ووصف له ذلك الشيخ العظيم الذي رآه في المنام ، فقال له: سأصحبك معي لتتعرف عليه ، ومضى معه لسماع درس شيخنا الإمام في جامع بانقوسا ، فلما نظر المهندس إلى وجه شيخنا الإمام صاح: الله أكبر ، والتفت إلى جاره وقال له: هذا هو الذي أتاني في المنام ، وناولني كوب الماء ، وشفاني الله تعالى به.

ولما ذكر ذلك لشيخنا الإمام رضي الله عنه قال له: «إنك ممن تحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحب الصالحين، وقد أكرمك الله تعالى بذلك. اللهم استرنا».

ولما توجه إلى بلاد الحجاز سنة /١٣٧٥/ هـ، قاصداً حج بيت الله تعالى وزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تواتر عمن كان معه من أصحاب وأحباب كرامات كثيرة، أكرم الله بها شيخنا الإمام رضي الله عنه، أكتفي بذكر واحدة منها: وهي أن واحداً من أصحابه المتقدمين، ألمّ به مرض شديد، فخشي عليه أهله أن يموت معهم في الطريق، وشكوا أمرهم إلى شيخنا الإمام، فدعا الله تعالى له متوسلاً بسيدنا محمد رسول الله صلى الله وآله وسلم أن يرفع عنه هذا البلاء، ويرده إلى أهله وبلده سالماً غانماً، فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقدم إليه صحيفة فيها أسماء.

قال شيخنا الإمام: «فنظرت فيها فقرأت فيها أسماء أصحابي الذين قدموا معي وسيعودون معي؛ وبينهم ذلك الذي كان يعاني من المرض».

ثم إنّ شيخنا الإمام بشر أصحابه بذلك، وما لبث ذلك الرجل أن عافاه الله تعالى ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان ممن عاد مع شيخنا الإمام إلى بلده وأهله.

وكذلك لما حج سنة /١٣٨٥/ هـ وصحبته السيدة الفاضلة والدتي أمدها الله تعالى وأكرمها ـ ومعه جمع من أصحابه ـ وجدوا أيضاً من الكرامات المتعددة ما أدهشهم وزادهم إيماناً، كان أولها:

أنهم لما كانوا في الطائرة ، وكانت من النوع القديم ، وتبلغ مدة الطيران من دمشق إلى جدة خمس أو ست ساعات زمنية ، تضررت بعض أسلاك الكهرباء في الطائرة ، وكان قائد الطائرة وأعوانه من الأوربيين ، حتى جعل بعضهم يمس سقف الطائرة فيجد فيه التوتر الكهربائي ، وظهر عليه الفزع والقلق ، وأعلم الركاب بذلك ، وأنهم على خطر ، فما كان من شيخنا الإمام إلا أن أخذ بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، والتوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال لأصحابه: لا تفزعوا فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قال: «الحجاج والعمار وفد الله ـ أي: ضيوف الله ـ إن دَعَوْه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم»[1] وقال شيخنا الإمام: «وحقاً على المزور أن يُكْرِمَ الزائر ، فكيف بمن قصد حج البيت الحرام ، وزيارة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!».

ثم إن الطائرة هبطت بسلام في مطار جدة ، وخرج قائدها من غرفته وقال للركاب: إن فيكم رجلاً عظيماً ذا شأن أنجانا الله تعالى بسببه.

وقبل وفاته رضي الله عنه بثلاث سنوات ، قدم إليه وفد من دولة بعيدة ، وشكوا إليه أن ابناً لأحد وجهاء البلد قد أصيب بمرض نفسي ، أعيا الأطباء علاجه ، وقد طاف به أهله البلاد ، حتى بلغوا بلاد الحجاز ومصر وغيرها؛ فلم يسمعوا من علماء وفضلاء هذه البلاد إلا قولهم: ما عليكم إلا أن تقصدوا رجلاً في حلب ، لو أنه بصق عليه أو نظر إليه لشفاه الله تعالى ، وهو العلامة العارف الشيخ

---

(١) رواه النسائي (٥/١١٣) وابن ماجه/ ٢٨٩٢/ (٢/٩٦٦) وابن خزيمة / ٢٥١١/ .

عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ، وقد جئناك لهذا الغرض .

فقال شيخنا الإمام رضي الله عنه : «اللهم استرنا وأكرمنا وأكرم ضيوفنا ، ومن حسّن ظنه بنا ، ولا تخيبنا» ثم قرأ على ماء وأمرهم أن يَشرب منها ، وأوصاهم بتلاوة بعض الآيات القرآنية ، والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أوقات معينة ؛ مع المواظبة. ومضت عدة أشهر ، ما لبث فيها أن تماثل الولد للشفاء. والحمد لله رب العالمين.

* * *

إجازات وشهادات

نظراً لما كان يحفظه شيخنا الإمام رضي الله عنه من أحاديث كثيرة ، واطلاعه الواسع على كتب الحديث ، بادر كبار العلماء والمحدثين إلى إجازته للرواية عنهم بما أجازهم به شيوخهم ، واستجازته بما يرويه عن شيوخه ، وكان أول من أجاز شيخنا الإمام رضي الله عنه والده الإمام العارف المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى بجميع ما أجازه به شيوخه ، ومنهم الشيخ الكبير المحدث العلامة مسند الديار المغربية ، السيد أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني المغربي الفاسي [١٢٧٤ هـ ـ ١٣٤٥ هـ] ، ومنهم شيخه المحدث ، العلامة المسند ، الشيخ بدر الدين محمد بن يوسف الحسني الدمشقي ، المعروف بالمحدث الأكبر [١٢٦٧ هـ ـ ١٣٥٤ هـ] ، ومنهم شيخه المحدث العلامة الشيخ بكري بن أحمد الزُّبري الحلبي [١٢٤٠ هـ ـ ١٣١٢ هـ] ، ومنهم شيخه المحدث ، العلامة الشيخ كامل المؤقت الحنبلي الحلبي [١٢٧٠ هـ ـ ١٣٣٨ هـ] وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين.

ثم توالت الإجازات على شيخنا الإمام رضي الله عنه ، من كبار

العلماء والأولياء والمحدثين ، في بلاد الشام والحجاز والمغرب والهند ، كان منهم العلامة المحدث الشيخ السيد محمد مكي بن السيد محمد بن جعفر الكتاني الحسني المغربي ثم الدمشقي ، والعارف المحدث الشيخ علوي المالكي الحسني شيخ الحجاز في عصره [١٣٢٥ ـ ١٣٩١] ، والشيخ محمد خير الدين إسبير الحلبي ، والإمام المحدث العلامة الشيخ أبو علي حسن بن محمد بن عباس بن علي المَشَّاط المكي المالكي ، وغيرهم من الأئمة والمحدثين ممن أجاز شيخنا بإجازات خطية وشفهية ، وأجازهم بما أجازه به الإمام العارف المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.

وسأذكر بالتفصيل إن شاء الله تعالى إجازات شيخنا وأسانيده العالية؛ في كتاب حول مناقب شيخنا الإمام رضي الله عنه.

قلت: وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ من الأحاديث النبوية ما يزيد على مئة ألف حديث ، فضلاً عن اطلاعه الواسع على كتب الحديث كلها.

وحصل مرة أن تَلاحى رجلان من أهل العلم من أحباب شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وممن كان يحضر دروسه ، وهما من أهل مدينة حماة ، حتى قال أحدهما للآخر: امرأتي طالق إن لم يكن شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ أكثر من مئة ألف حديث ، ثم انطلقا إلى المدرسة الشعبانية ، لسؤال شيخنا الإمام واستفتائه عما جرى بينهما ، فأطرق شيخنا الإمام رضي الله عنه ثم قال للرجل الذي صدر منه لفظ الطلاق: «امرأتك لا تطلق ، وأعظك أن تُجَنِّب لسانك ألفاظ الطلاق والحرام».

ولقد حفظ شيخنا الإمام رضي الله عنه أيام طلبه العلم في المدرسة الخسروية كتاب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» بمجلداته الأربع ، إلى أن حصل على كتاب «جامع الأصول» وهو كتاب يقع في إحدى عشر مجلداً ، جمع فيه صاحبه[1] الموطأ ، والصحيحين ، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي.

ثم شرع في الاطلاع على كتب الحديث الأخرى كالسنن والمسانيد والمعاجم ، وحفظ منها جملة واسعة ، وفهرس طائفة واسعة لأحاديث مسند الإمام أحمد رضي الله عنه. وكان يعتمد في تفسير آيات الله تعالى على أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «إن أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم كلها بيانات لمعاني القرآن الكريم ومقاصده ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]» ويسوق لذلك أدلة كثيرة قد ذكرها في بعض مؤلفاته ومحاضراته.

وإني أذكر في هذه المناسبة كلماتٍ يسيرةً مما امتدحه بها كبار العلماء والمحدثين: لما حج سنة /١٣٨٥/ هـ خرج لاستقباله إلى مطار جدة العلامة المحدث الشيخ علوي المالكي وقال: «هذا رجل يُمشَىٰ إليه ولو على رموش العين».

ولما أرسل كتاب «سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة وخصاله المجيدة» إلى السيد الشيخ محمد

---

(١) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ولد سنة /٥٤٤/هـ وتوفي سنة /٦٠٦/هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

أبي عبد العزيز ابن عبد الدائم الفلالي الموريتاني الشنقيطي صاحب كتاب (النور المحمدي ﷺ) ـ وكان ممن جاور في المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ثم اجتمع به لما ذهب إلى العمرة والزيارة ـ قال له الشيخ محمد أبي عبد العزيز: «لقد عرفتك من كتابك» يعني: لقد عرفت مقامك ومحبتك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال قراءتي لكتابك الذي أرسلته هدية لي.

وقال الشيخ الكبير، المحب الزاهد الورع، السيد محمد أمين الكتبي، لما لقي شيخنا في المسجد الحرام، وسأله شيخنا الإمام أن يوصيه قال له: «أوصيك بما أنت عليه».

وقال السيد الشيخ عبد القادر السقاف: «يجب على كل عين أن تراه» يعني: أن ترى شيخنا الإمام رضي الله عنه.

وقال العارف الكبير الشيخ أحمد الحارون الدمشقي لشيخنا الإمام رضي الله عنه: «أنت محفوف بأنظار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وقال له مرة أخرى: «شمسك إذا طَلَعَت غَطَّت على الكل».

وكان المحب الزاهد، ذو الكرامات الشهيرة، الشيخ حسين العبد السلام، المعروف (بالمُجَدِّمي) [١٣٢٦ هـ ـ ١٤٠٤ هـ] إذا قدم لزيارة شيخنا الإمام رضي الله عنه، ينشد مع أصحابه إذا خرج شيخنا لاستقباله عند باب الدار:

أتيناكم أتيناكم ... وللأعتاب جئناكم
وفي أمرٍ قصدناكم ... فشدوا عَزْمَنا بالله

ويكرر ذلك حتى يجلس.

وكان همه أن يسأل كل من وفد إليه عن صحة شيخنا الإمام رضي الله عنه، ويحمِّله السلام، ويسميه: «سراج حلب».

* * *

مؤلفاته رضي الله تعالى عنه

لقد بلغت مؤلفاته خمسةً وعشرين كتاباً ، في مختلف قضايا الإيمان الاعتقادية والعملية ، والقولية والخلقية والأدبية ، وقد تصدر هذه المؤلفات كتابه الشهير «سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة وخصاله المجيدة» الذي كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يفخر به ، ويحتسبه من أعظم الذخائر عند الله تعالى ، وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «يجب على على كل مؤمن أن يقرأ هذا الكتاب ، لأني ذكرت فيه ما لابد منه لكل مؤمن أن يعرفه عن خصال وأخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وقد نال هذا الكتاب العظيم انتشاراً واسعاً في شتى البلاد ، وأقبل المسلمون على قراءته رغبةً في التعرف والاطلاع على بعض شمائل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وخصاله المجيدة صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد تطرَّق شيخنا الإمام رضي الله عنه في هذا الكتاب إلى دفع شبهات بأدلة قاطعة حول عصمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الخطأ والخطيئة ، ولَمَّا فرغ من جمع هذا الكتاب المبارك ؛ حظي بإكرام كبير من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ رآه في المنام وقد وظَّفه

خادماً ملازماً له صلى الله عليه وآله وسلم ، وسأبيِّن ذلك في الكتاب الموسع حول شيخنا الإمام إن شاء الله تعالى.

وقد توالت مؤلفاته رضي الله عنه ، وانتشرت بين المسلمين في شتى بقاع الأرض ، حتى إنّ بعضها تُرجم إلى لغات أجنبية ؛ لأهمية أبحاثها ومكانتها العلمية.

وكان كلما فرغ من جمع كتاب جاءته البشائر والمكرمات من الله تعالى ، ونال من العطايا والنفحات المحمدية المتواصلة ، ما يجعله يترقىٰ في مقامات القرب والمحبة.

وقد تميزت مؤلفاته بسهولة العبارة ، ورقة الكلمة ، بحيث يتيح للقارىء مهما كانت درجة فهمه وعلمه أن يَعِيَ ما يقرأ.

وكان يقول: «غايتي وقصدي أن ينتفع الناس بها على مختلف طبقاتهم ، ولو تكلفت صياغة العبارة وانتقاء الكلمة ؛ لكان الفهم والنفع مقتصراً على أهل العلم فقط».

كما تميزت كتبه بكثرة سرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، حتى يقرأ الناس آيات الله تعالى ويفهمون معانيها ببيانات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رضي الله عنه يقول: «إني دوماً أسأل الله تعالى أن يجعل في كتبي نوراً محمدياً صلى الله عليه وآله وسلم يجده القارىء لها في قلبه ؛ فيزداد إيماناً وهدى وصلاحاً ، وقرباً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم».

❊ ❊ ❊

عطايا إلـهية
ومنح محمدية صلى الله عليه وآله وسلم

كان شيخنا الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يتردّد على لسانه الدعاء المأثور عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وتولني فيمن توليت»(١) ، والدعاء: «ولا تكلني إلى نفسي ـ ولا إلى أحد من خلقك ـ طرفة عين»(٢) ، ومن دعائه المشهور في ختم المجالس: «وتولنا بما توليت به عبادك الصالحين بقولك: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]».

فلقد كان رضي الله عنه يتوجه إلى الله تعالى في أموره كلها، ويعتمد عليه ويتوكل عليه، ويولي أمره كله إليه؛ فتولاه الله تعالى بعنايته ورعايته الخاصة، فترى أن حركاته وأقواله وأفعاله كلها صائبة سديدة.

---

(١) هذا طرف من الحديث الذي علمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، أن يقوله في الوتر. وهو عند الترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر /٤٦٤/ (٢/ ١٨٤) وعند أبي داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

(٢) الحديث في (سنن) أبي داود كتاب الأدب /٥٠٩٠/(٥/ ٣٢٥) ونصه: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إلّه إلا أنت».

إذ كان لا يقدم على أمر له شأنه إلا بإذن صريح من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يأتيه ذلك إما بإشارة غيبية ، أو رؤيا منامية صالحة صادقة.

ولقد رهن نفسه وحياته لخدمة كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان يكثر من الدعاء: «اللهم واجعلنا أنصاراً لدينك وشريعتك ، وسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم» ولقد كانت مِنَنُ الله تعالى عليه عظيمة ، وهباته جليلة ، ظهر ذلك في فيض الله تعالى عليه بالمعارف الإلٓهية ، ورسوخه في العلوم الدينية ، وأن أيده سبحانه ببراهين وأدلة الكتاب والسنة.

وألقى محبته وإجلاله في قلوب العباد ، فلا يُذكر عند أحد إلا ترافق ذلك بالمدح والثناء ، ونال ثقة الناس كلهم ، فإذا تكلم أنصتوا ، وإذا أمرهم امتثلوا ، وقد ذاع صيته في شتى البلدان ، وجرى ذكره على لسان أهل العلم والعرفان ، تصديقاً لقول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المِقَةَ[1] من الله عز وجل والصيت من السماء».

وكثيراً ما يلجأ إليه العلماء لحل معضلات ، وبيان شبهات.

وقد أكرمه الله تعالى بنيل مراتب متعددة بشرف خدمته للنبي الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، جاء ذلك في عدة مناسبات رأى فيها حضرةَ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) المقة: المحبة ، وهي بكسر الميم وفتح القاف ، والحديث رواه الإمام أحمد والطبراني بالثقات عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، (مجمع الزوائد) (١٠/ ٢٧١).

في المنام ، وقد وظَّفه خادماً له صلى الله عليه وآله وسلم ، ولمن يلوذ به صلى الله عليه وآله وسلم.

خدمته لماء وضوئه وغسله صلى الله عليه وآله وسلم

رأى شيخنا الإمام النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ، وقد وظَّفه خادماً لماء غسله ووضوئه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد استلم شيخنا الإمام هذه الوظيفة وقام بها.

إذ رأى في المنام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قَدِمَ مع أصحابه من سفر ، وعليه غبار السفر ، فأمر شيخَنا الإمامَ وأحدَ الصحابة معه أن يُحضرا له ماءً ليغتسل به صلى الله عليه وآله وسلم ، قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «فانطلقت مع الصحابي ، وغالب ظني أنه سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، الذي كان يخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحياة الدنيوية ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة»(١).

قال: «فانطلقنا إلى طَسْت ماء كبير ، وحملناه على مِرْجل حتى إذا صارت حرارته مناسبة؛ جئنا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنظر إليه وأعجبه ، فالتفت إليّ وقال: أنت خادم لي ملازم». قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «فقلت في نفسي: يا لها من سعادة وكرامة محمدية ، إن الناس يتمنى أحدهم لو يخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو ساعة ، وقد وظَّفني رسول الله

---

(١) ينظر (صحيح) مسلم /٤٨٩/(٢/٦٣٨) و(المسند) للإمام أحمد (٤/٥٩) و(مجمع الزوائد) (٢/٢٤٩).

صلى الله عليه وآله وسلم خادماً ملازماً له!! ولم يكن فرحي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعادله شيء».

خدمته لحجرات
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وتعهُّده بيت المؤنة

رأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وظَّفه خادماً عنده لبيت المُؤْنة، فاستلم تلك الوظيفة، وقام بها خير قيام، فأقبل صلى الله عليه وآله وسلم ونظر في المكان المخصص للمُؤنة، وسره ما فيه، فنظر إلى شيخنا الإمام متبسماً، وعلى وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم علامة القبول والرضا.

خدمته للبيت الذي يجتمع فيه الأنبياء
عليهم صلاة الله وسلامه

ورأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وظَّفه خادماً لبيت يجتمع فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقام بتلك الوظيفة، وهيأ البيت وأعده، واجتمع الأنبياء عليهم السلام ينتظرون تشريفه صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أقبل صلى الله عليه وآله وسلم بطلعته البهية، وأنواره الزهية، قام شيخنا الإمام لاستقباله، ومشىٰ بين يديه مِشْية الخادم بَيْن يدي سَيّده.

قال شيخنا الإمام: فنظرت في المكان فرأيت سَلّة فيها أشياء مُهملة، فقلت في نفسي: مِنْ أين أتت هذه؟ فأسرعت ورميتها بعيداً من نافذة المكان.

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي: أين خليل الله إبراهيم؟

قلت: لما يأتِ. ثم طُرِقَ البابُ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاستقبال خليل الله عليه السلام وأنا خلفه، فسلّم عليه وعانقه، وطال الحديث بينهما، ثم التفت إليَّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي: سلّم على خليل الله ثم اتبعني، فأقبلت إليه وكان وضيء الوجه، مهيباً جليلاً، فقبّلت يده، ووجهي عند صدره، أتمسح به، وأطلب منه الدعاء، حتى غلبني البكاء فانتبهت».

قلت: وقد نظم شيخنا الإمام رضي الله عنه أبياتاً يذكر فيها نعمةَ الله عليه، ويشكر فضل الله عليه بهذه المراتب في خدمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها:

عبد ذليل تحت راية مجدكم ... مِنْ شأنه الإطراق والإصغاء
لا تحرموني فضل جودكم الذي ... شهدت به الخضراء والغبراء
أرجوكم يا سيدي مِنْ فضلكم ... نفحات وصل ليس فيه جفاء
لكُم الأيادي البيض حيث قبلتموني ... خادماً شكري لكم وثناء
فَلَكَمْ وكَمْ أكرمتموني عطفكم ... فلنعم ذاك العطف والإيواء
بجواركم شرفي وغاية منيتي ... وبقربكم حقاً يزول الداء
أشهدتموني نور وجهكمُ الذي ... إشراقة للشمس منه ضياء
أنا خادم لبيوتكم وضيوفكم ... وَامُنيتي ومَسَرَّتي وهناء
عن بابكم لا أنثني طول المدى ... أرجو القبول فأنتم الكرماء

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يقص هذه الرؤى على أصحابه

وأحبابه ويقول: «إن خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعني خدمة دينه وسُنَّته صلى الله عليه وآله وسلم؛ بنشر العلوم الشرعية ، وتعليمها للناس على وجه يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن العلوم الشرعية أمانة في أعناق العلماء ، عليهم أن يُؤدوها بصدق وإخلاص ، كما كان عليه الصحابة وسلف هذه الأمة رضي الله عنهم».

وذكر رضي الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وظَّفه مُؤذناً عنده ، وقد أذَّن رضي الله عنه لصلاة الظهر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصلى إماماً في عَدد من الصحابة ، وفيهم سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهم.

قال شيخنا الإمام: «ووقفت في الصلاة خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة ، وجعلت أنظر إليه... ولما فرغ من الصلاة وَسَلَّم يميناً وشمالاً بَهَرتني أنوار خديه صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أنظر إليها».

وكان رضي الله عنه يفتخر بتلك الوظيفة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «الأذان هو دعوة العباد إلى الله تعالى ، وإلى عبادته بالصلاة ، وإني أدعو الناس إلى الله للتمسك بدينه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك من خلال الدروس ، والمجالس العلمية ، وتأليف الكتب التي فيها ما يحتاجه الناس لفهم أمور دينهم».

جواره الحبيب الأعظم
صلى الله عليه وآله وسلم
في المدينة المنورة بأنواره ﷺ

كان ذلك في شهر ربيع الأنور من عام /١٤٠٠/ للهجرة الشريفة ، وحتى شهر شعبان من عام /١٤٠٣/ للهجرة الشريفة فجاور في المدينة المنوَّرة ما يزيد على ثلاث سنوات ونصف السنة.

كان سفره للحجاز لأداء العمرة المباركة والزيارة الشريفة لخير خلق الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم مكث في المدينة المنوَّرة تلك المدة ، امتثالاً لأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. جاءه ذلك في رؤيا منامية وإشارات غيبية ، إذ لم يكن يُقدم على أمر ذي بال حتى يأتيه الإذن به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان فَرَحُه وبهجته بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يوازيه شيء ، إذ كان ذلك غايته ومُنْيته ، وكان جوابه إذا سأله أحد من أحبابه عن حاله يقول: «الحمد لله الذي أحلّنا دار المقامة من فضله ، فلا دار بعد دار رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم ، ولا إقامة ترجى بعد الإقامة بجوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

ومن أقواله رضي الله عنه في بعض مخطوطاته:

وقلت إذ حللت في المدينة المنورَّة بأنواره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم:

يا قلب بشراك أيام الرضا رجعت
وهذه الدار للأحباب قد جمعت
أما ترى نفحات الحي قد عبقت
من طيبة وبروق القرب قد لمعت
فعش هنيئاً بوصل غير منفصل
مَعَ مَنْ تُحب ، فحجب الهجر قد رُفعت
واشهد جمال الذي مِنْ أجل طلعته
قلوب عشاقه من نوره انصدعت
وابشر بنيل الذي قد كنت تأمله
من طلعة المصطفى شمس السما طلعت
صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً

وكان رضي الله عنه يقول: «إذا كان جار الكرام لا يضام ، بل يكون في رَغَدٍ وسلام ، فكيف حال من جاور سيد الكرام سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين». وقد حرّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة المنورة ، ودعا لها ولأهلها بالخير والبركة ، ودفع الشدة والبلوى عنها ، ووعد صلى الله عليه وآله وسلم بالشهادة والشفاعة الخاصة لمن جاور فيها أو مات فيها ، كل ذلك جاء في أحاديث

وردت عنه صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد توالت عليه الكرامات والنفحات الإلٓهية المحمدية، مما جعله يترقىٰ في مقامات القرب من الله تعالى، وتواردت عليه البشائر بالرؤى المنامية، وعلى لسان المحبين الصالحين من أهل المدينة وغيرها..

وقصَّ علينا عدة رؤى سأذكر تفصيلها في كتاب مستقل حول مناقبه رضي الله عنه إن شاء الله تعالى. ومنها أنه رأى أن شهادته بأن لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقبولة عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد خُطَّ على باب الكعبة المشرَّفة أن شهادة عبد الله سراج الدين مقبولة. ورأى أنه دخل المسجد النبوي من باب السلام، فاستقبله جمع من الأولياء رضي الله عنهم، وأجلسوه في مكان مهيءٍ لجلوس القطب في غرفة واسعة.

ورأى مرة السيدة الكبرى فاطمة رضي الله عنها وقد بسطت لحافها، وهو لحاف كبير واسع، ومنادٍ ينادي: مَنْ يضم رأسه تحت هذا اللحاف ينال السعادة والأمان، فتقدَّمَ رضي الله عنه والسيدة الزهراء رضي الله عنها تنظر إليه، وأدخل رأسه وجسمه كله تحت اللحاف. وارتفعت الأصوات: لقد فاز.. لقد فاز..

ورأى النبيَّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وهو يأمر سيدنا علياً رضي الله عنه؛ أن يأتي بعباءته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ليخلعها على شيخنا الإمام رضي الله عنه.

وقد تفرَّغ أيام مجاورته في المدينة المنوَّرة لعبادة الله تعالى، وتصنيف الكتب العلمية الدينية، وكم كان رجاؤه عظيماً أن يخدم

بلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعمل خير يبقى نفعه وأثره جارياً ، فحقَّق الله تعالى رجاءه ، إذ جعله سبباً وواسطة في إنشاء مدرسة لتلاوة القرآن الكريم وتحفيظه وقراءاته ، وقراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يزال هذا الصرح باقياً ، يقوم عليه خيرة أهل العلم والصلاح ، ويخرِّج عدداً من طلاب العلم وحَفَظَة القرآن الكريم. والحمد لله رب العالمين.

وكان رضي الله عنه يُكثر الذهاب إلى مسجد سَيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة فيه ، ولزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيدخل من باب السلام ، ويتوجه إلى الروضة الشريفة ، فيصلي ما يسر الله تعالى له.. ثم يتقدم ماشياً بأدب وخضوع ، ويقف إلى سارية أمام المواجهة الشريفة ، ويطيل الوقوف بذل وانكسار بين يدي من أرسله الله رحمة للعالمين ، وبالمؤمنين رؤوف رحيم صلى الله عليه وآله وسلم ، ويكثر الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدعو الله متوسلاً به. حتى إذا أُذِن له بالانصراف؛ تراجع بأدب وتواضع ناحية الروضة الشريفة ، وصلى فيها وسأل الله تعالى ودعاه ، ثم يتوجه من حيث أتى ، ويخرج من باب السلام وقد اكتسى حلة نورانية محمدية يراها كل ذي بصيرة.

وحصل مرةً أن تبعه أحد المسؤولين عن خدمة الحجرة الشريفة وما حولها ، تبعه إلى خارج المسجد وسلّم عليه وعانقه ، وبذل جهده في تقبيل يده ، لكن شيخنا الإمام لم يمكِّنه من ذلك أدباً وتواضعاً في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال هذا الرجل لشيخنا الإمام: والله لقد رأيت نوراً يخرج من الحجرة

الشريفة ، ويمتد إليك ، ويمضي معك حيثما توجهت؛ ولهذا لحقت بك لأبشرك وأتبرك بك ، فدعا له شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وسأله الدعاء له خاصة أمام المواجهة الشريفة.

ولم يكن حديثه في مجالسه يخلو من التذكير بالآداب الواجبة على مَن أقام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو جاور فيها ، أو قصدها لزيارة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، والصلاة في مسجده عليه الصلاة والسلام. ويذكر في هذا السياق ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة المجتهدين ، فكان يمشي في سِكك المدينة المنوَّرة حافياً ، ولا يركب مركوباً ، وإذا أراد قضاء حاجته ابتعد خارج أسوار المدينة ؛ أدباً مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتكريماً لأرض وطئتها أقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم. .

وإذا أراد التحديث في المسجد النبوي توضأ وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً ، ولبس ساجاً وتعمم ، وإذا شرع في رواية الحديث خشع وأَخذه الوَجَل والمهابة ، وتغير لونه إجلالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا سائر علماء السلف رضي الله عنهم.

ولم يرجع شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى حلب إلا بعد أن جاءه الإذن من الحضرة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم بالعودة.

وكان يقول: «ذهبت بإذن ، وأقمت بإذن ، ورجعت بإذن ،

ونسأل الله تعالى أن يتولانا في جميع قضايانا».

وقد استأنف دروسه المباركة بعد عودته ، وَجَعلت المدرسة الشعبانية تزهو برعايته وعنايته. وإن لم تنقطع توجهاته ودعواته لها وللعاملين فيها طيلة فترة إقامته في المدينة المنوَّرة.

وقد اكتست مدينة حلب بعودته حُلة البهاء والجمال ، وشعر أهلها بالأنس وراحة البال ، بعد أن بسط شيخنا الإمام مائدته فيها وأقبل الناس عليها.

ويرحم الله تعالى القائل مخاطباً شيخنا رضي الله عنه:

قدمت قدوم الغيث في المَهْمَهِ[1] الصعب
أيا ابن سراج الدين جئت على الرحب
وهَلَّلــت الأصحــاب فيــك وكبــرت
وزالــت عــن الأحشــاء فــادحــة الكــرب
أضــاء علــى الشهبــاء نــور ســراجــه
ولاح عليهــا مــن سنــاه ضيــا الشهــب
وعــاد عليهــا خيــرهــا وســرورهــا
بتشــريفــه ، يــا منيــة الــروح والقلــب
فــأهــلاً وسهــلاً فيــك ثــم ومــرحبــاً
فــلا زلــت مَــرعيــاً علــى البعــد والقــرب
وصــلِّ إلَهــي دائمــاً أبــداً علــى
رســول الهــدى المبعــوث للعجــم والعــرب

---

(١) المفازة البعيدة ، والبلد المقفر.

وآلٍ وصحب كلما قال قائل
قدمت قدوم الغيث في المَهْمَهِ الصعب

ثم إنه اعتزل الدروس العامة في أوائل عام / ١٤١٠/ هـ بسبب اعتلال صحته ، وكان قد رأى في المنام مرات عديدة ما يشير إلى ذلك ، فالْتزم بيته متوجهاً إلى الله تعالى ، واشتغل بجمع الكتب التي تنفع الناس في أمور دينهم.

وكان رضي الله عنه في هذه الفترة يختم القرآن الكريم كل ثلاث أو أربع ليال ، ويُكثر من ذكر الله تعالى ، والتفكر والتدبر في كلامه سبحانه ، وقد أخبر أن الله تعالى تجلى عليه بالرؤيا في المنام عدة مرات ، قص علينا إحداها ، وذلك أنه رأى نفسه في بيت الله الحرام ، فألهمه الله تعالى أسماء إلَهية راحَ يَذْكره بها ، فتجلىٰ عليه بالنور فقام وسجد له سبحانه . .

* * *

خصائص وفضائل

لقد غَرس الشيخ الإمام رضي الله عنه محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلوبنا وقلوب كل من لزمه ، أو لزم دروسه ومجالسه ، وحرّضنا وحَرّضهم على بذل الجهد لاتباعه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإكثار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، كلماتٌ جرت على لسان كل من استمع إلى دروس شيخنا الإمام رضي الله عنه ، أو حضر مجالسه ، أو قرأ بعضاً من كتبه.

وإذا كانت ألسنة الخلق أقلام الحق ، فلقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه حقاً من المحبين الصادقين ، الذين كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلوبهم فوق محبة كل مخلوق ، وقد ظهر ذلك في أقواله وأفعاله وسائر شؤوناته ، فلم يك يخلو مجلس من مجالسه عن ذكر بعض شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخصائصه وفضائله ، كما أنه لم يَدَعْ موضوعاً أو بحثاً مِن الأبحاث التي تكلم عنها في كتبه إلا وضمَّنها ذكر بعض صفاته وخصاله صلى الله عليه وآله وسلم ، حسب ما تقتضيه المناسبة وهكذا. .

وكان رضي الله عنه يعتبر ذلك من مقتضيات الإيمان الصحيح ، إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين»(١).

وقد أسهب رضي الله عنه في الكلام على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عدد من كتبه منها: كتاب (حول تفسير سورة الكوثر) وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) وكتاب (حول تفسير سورة الحجرات) وغيرها. وذكر فيها وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كل مؤمن ، وفضائلها وآثارها ، وسرد في ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة من المحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رضي الله عنه يقول: «من زعم أننا بالغنا في محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم فقد أخطأ خطأ كبيراً ، وكشف عن جهله بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإننا لم نبلغ الحد الأدنى المطلوب منا في محبته وتوقيره والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يقال: لقد بالغنا».

واعلم أن قضايا الإيمان كلها إنما هي مَعْقولة مقبولة عند أصحاب العقول المجردة من الأهواء والشبهات؛ إن هم تفكروا وتبصروا ، ولما كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق محبة كل مخلوق أمراً هاماً من قضايا الإيمان: سلَّمَ به وأذعن

---

(١) رواه الشيخان والنسائي وأحمد ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

له العقلاء الفطناء ، لأنهم علموا وأدركوا أن سبب المحبة يعود إلى أمرين هما: الكمال والنوال ، فلو بحث العاقل عن صفات الكمال كلها لوجدها مجتمعة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجه فريد لا يساويه فيها غيره ، بل إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُفيض على الناس صفات الكمال والمحاسن ، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١] والتزكية هي: التخلي عن النقائص والرذائل ، والتحلي بالكمالات والفضائل.

وأما صفة النوال وهو الكرم والجود والسخاء ، وهي صفات محبوبة لدى كل إنسان ، فإنَّ خير من جاء بها وأمر بها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي: لكل العالمين ، في جميع العالمين ، أي: العوالم التي يمر عليها كل إنسان..

وإذا وُجِد هناك إنسان عظيم يُريد لك الخير أكثر مما تريده لنفسك ، ويحرص على سعادتك ، وَيَشقّ وَيَصعب عليه ما فيه إحراجٌ ومشقة عليك؛ ألا يجب أن تُحبه أكثر من محبتك لنفسك؟!! بلى إن هذا أمر معقول مقبول عند من أنصف وتفكر.. وفي هذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يصعب عليه ما فيه عنت لكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم وصلاحكم ونفعكم، وسعادتكم في الدنيا والآخرة ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: يسعىٰ في دفع الأذىٰ والضر عنهم ، ويجلب الخير بأنواعه لهم.

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ـ أي: أحق بهم من أنفسهم ، وأرحم بهم من أنفسهم ـ ولذلك قال

صلى الله عليه وآله وسلم[1] لما نزلت هذه الآية: «ما من مؤمن وإلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فَلْيَرِثه عصبته مَن كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».

ولقد نال شيخنا الإمام رضي الله عنه مقامات كبيرة في محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واتباعه في الأقوال والأفعال والأخلاق والآداب، لأن المحبة الصادقة وإنْ كانت من أعمال القلوب لا بد أن يظهر أثرها على الجوارح، وذلك باتباع المحبوب في جميع ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جعل رضي الله عنه نفسه رهن إشارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان لا يَقْدُم على أمر ذي بالٍ حتى يأتيه إذن صريح به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكان رضي الله عنه كثيراً ما يُحرض ويدعو إلى قراءة كتابه (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة ـ خصاله المجيدة) ويقول: «لا لأنه كتاب مِنْ جمعي وتأليفي، بل لأني ذكرت فيه جوانب متعددة من شمائله صلى الله عليه وآله وسلم، وخصاله وفضائله وخصائصه، والتي يجب على كل مؤمن أن يَتَعرف عليها؛ لتزداد محبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويصحّ ويكمل إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

كما كان رضي الله عنه كثيراً ما يحرض الناس على الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لِما

(١) رواه الإمام البخاري، كتاب التفسير / ٤٧٨١/ (٨/٥١٧).

لها من فوائد وآثار وفضائل ، وأن يجعلوا ذلك من جملة أورادهم اليومية ، بالإضافة إلى قراءة جزء من القرآن الكريم ، وبقية الأذكار التي ندب إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رضي الله عنه يقرأ قصة المولد النبوي الشريف للإمام البرزنجي رضي الله عنه بمناسبة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم ، في شهر ربيع الأنور ، وذلك وقت الدرس في جامع بانقوسا والجامع الكبير وجامع الحموي ، وفي جلسة خاصة لطلاب العلم في المدرسة الشعبانية ، ويُرَغِّب الناس في إقامة تلك الحفلات التي تعبِّر عن الابتهاج والفرح بمولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مع مراعاة الآداب الشرعية في تلك المجالس ، لأنها مجالس عبادة ، تنطوي على تلاوة آيات من القرآن الكريم ، وذكرٍ لله تعالى ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وسماع لدُرَرٍ من شمائله وأخلاقه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، فينبغي على كل مؤمن أن يلتزم جانب الأدب في تلك المجالس.

ومن نظم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم المأثورة عنه رضي الله عنه:

(اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تُرضيك وترضيه ، وترضى بها عنا يا رب العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

اللهم صل على سيدنا محمد بقدر حبك فيه ، وفَرِّج عني وعن المسلمين ما نحن فيه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

والفَرَجُ يتضمن معنى رَفع الكرب والشدائد والمصاعب والهموم والغموم.

ومنها: (اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة تَغْفر بها ذنوبنا، وتشرح بها صدورنا، وتفرج بها كروبنا، وتنور بها قلوبنا، وتلهمنا بها رشدنا، وتحفظنا بها من كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة يا رب العالمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

ومنها: (اللهم يا دائم الفضل على البرية، يا باسط اليدين بالعطية، يا صاحب المواهب السنية، يا غافر الذنب والخطية، صَلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد خير الورى سَجِيَّة، وعلى آله وأصحابه البرَرَة النقيّة، في كل لمحة ونفس وغدوة وعشية، وفرّج عنا كل شدة ورزية، بجاه إشراقات الطلعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم، وأسرارها البهية، يا رب البرية).

ومنها: (اللهم صلى على سيدنا محمد مفتاح خزائنك، اللهم افتح لنا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أغلق علينا، من خزائن أسرارك وأنوارك ومشاهداتك وتجلياتك، يا رب العالمين اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

ومنها: (اللهم صل على سيدنا محمد حق قدره ومقداره العظيم، صلاة دائمة مقبولة تُؤدي بها عنا حقَّه العظيم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

ومنها: (اللهم صل على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

بشائر وحقائق

كان شيخنا الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يقول في مجالسه: «إنما نحن وقوف على باب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نلتمس من أسراره وأنواره، وبركاته ونفحاته صلى الله عليه وآله وسلم» ويشير إلى صورة المواجهة الشريفة للحجرة النبوية وهي معلقة فوق أريكة جلوسه، ويردّد هذه الأبيات:

عَبـد بـالبـاب يَـرتِجـي لَثْـم الأعتـاب
جُـد بـالجـواب مَـرحبـاً قـد قبلنـاك

وكان رضي الله عنه حَريصاً كل الحرص على اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعمل بسنته، فيما جاء عنه من أقوال وأفعال وأخلاق وآداب، وأَخْبَرَنا مرة أنه كان يضع العمة على رأسه دون أن يضع فوقها طيلسان، فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وعلى رأسه العمة الشريفة وفوقها الطيلسان، وقال لشيخنا: «هكذا»، قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «فلم أدع وضعه فوق العمة شتاء ولا صيفاً».

قلت: فكان الطيلسان أيام الشتاء من الصوف، وأيام الصيف من القطن الرقيق.

وكان قد أخبر قبل وفاته رضي الله عنه بسنوات قليلة أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو يقول له: «إني مسافر إلى المدينة المنورة، ومتى فرغتَ من عملك فاتبعني»، قال شيخنا الإمام: «وكنت وقتئذ مشغولاً ببعض الأمور، وقد استبشرت لتلك الرؤيا، وسألت الله تعالى أن أكون متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن أكون معه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم».

وأخبر شيخنا الإمام رضي الله عنه قبل وفاته بأشهر قليلة أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة، وقد دخل عليه من الباب الغربي لغرفته التي كان يجلس فيها، وَهي تطل على الجهة الجنوبية القبلية، ثم استبطأ الكلام وغلبهُ البكاء، وقد منعنا الحياء والأدب من سُؤاله مرة أخرى عن تفصيل ذلك. إلا أنه رضي الله عنه أكَّدَ على أن الأمر كان يقظةً. وكان قد رآه صلى الله عليه وآله وسلم يقظة قبل سفره إلى المدينة المنورة بنحو سنتين.

وكان يردد هذه الأبيات من نظمه:

يا ليت عينيَّ تنظرا	جمال ذاك المظهرا
حتى أكون نيِّرا	مُهَلِّلاً مستبشرا
فجر الضيا تفجّرا	من ثغر سيد الورى
والشمس فيها أشرقت	أنواره بلا امترا
سار الجمال تائهاً	لَمّا بدا تحيّرا
خَرَّ ذليلاً ساجداً	مُهلِّلاً مكبِّراً
يا ربنا بجاهه	أسعد فقير الفقرا
وامنحه دوماً عطفه	والطف إلٓهي واسترا

بفضـــل مـــن أرسلتـــه خيـــر رســـول للـــورى
ثـــم الصـــلاة دائمـــاً عليـــه مـــا تـــالٍ قـــرا
وآلـــــه وصحبـــــه ســـاداتنـــا غـــرِّ الـــذُّرى

* * *

تبركه بالأثر النبوي الشريف وتعظيمه له

وكان من عادته رضي الله عنه كل ليلة قبل أن يقوم إلى النوم يتناول الأثر الشريف بكلتا يديه ، ويتوجه إلى القبلة ، ويقبله ويمسح به عينيه ووجهه ورأسه وصدره ، ثم يبدأ الحاضرون من أولاده وأحفاده بالتقدم لتقبيله والتمسح به ، والأثر في يديه رضي الله عنه ، والألسنة تلهج بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إذا فرغ الحاضرون من تقبيل الأثر الشريف والتبرك به ، بدأ شيخنا الإمام بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى متوسلاً بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. . ، وكان من دعائه : «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأزواجه وذريته وآل بيته ، وعلينا معهم أجمعين ، كما صَلَّيت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، صلاة تشفينا بها من كل داء ، وتُعافينا بها من كل بلاء ، وأفض علينا يا مولانا من بركاته صلى الله عليه وآله وسلم وأنواره وأسراره ونفحاته ، نفحاتٍ محمدية تُسعدنا بها في الدنيا والآخرة».

وكان إذا اجتهد في الدعاء يردّد هذه الأبيات :

إلـى بـابـك العـالـي مَـددت يـد الـرجـا
ومـن جـاء ذاك البـاب لا يختشـي الـرَّدى
سـألتـك يـا ألله مستشفعـاً بمـن
ضيـا وجهـه الـوضـاء يبـرق فـي الـدجـى
صلـى الله عليـه وآلـه وسلـم أبـداً أبـداً

ويقول أيضاً:

بـالـذل قـد وافيـت بـابـك عـالمـاً
أن التـذلـل عنـد بـابـك ينفـع
وجعلـت معتمـدي عليـك تـوكـلاً
وَبَسطـت كفِّـيْ سـائـلاً أتضـرع
فبحـق مـن أحببتـه وبعثتـه
وأجبـت دعـوة مـن بـه يَتَشفـع
اجعـل لنـا مـن كـل هـم مخـرجـاً
والطـف بنـا يـا مـن إليـه المـرجـع
ثـم الصـلاة علـى النبـي وآلـه
خيـر الـورى ومـن بهـم يُتَشفـع

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه؛ عدد خلقك ، ورضاء نفسك ، وَزِنَةَ عرشك ، ومِداد كلماتك ، كلما ذكرك وذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون ، وعلينا معهم أجمعين ، وعلى والدينا ، ومشايخنا ، ومن له حق علينا ، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، آمين ، والحمد لله رب العالمين.

وكان إذا مرض أو شكا ألماً لجأ إلى الأثر الشريف وقبّله

وتمسّح به ، ودعا الله تعالى مُستشفياً بأثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفياض بالخيرات والبركات.

والأثر النبوي الشريف هو شعرة من شعر لحيته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم من موضع العنفقة الشريفة ، لأنها في لونها إلى الشيب أقرب ، وما شاب من شعره الشريف إلا شعرات من عنفقته الشريفة المباركة صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ورثها شيخنا الإمام عن مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنهما ، التي كان جدي الفاضل السيد الحاج محمد ططري رحمه الله تعالى ، قد استوهبها من الشيخ عوني خلاصي رحمه الله تعالى ، وأهداها إلى مولانا الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى ، ويؤيد صحة تسلسها سند مرفق معها ، وهي موضوعة في زجاجة محكمة الإغلاق ، وفي نهايتها قليل من الشمع متصل بها ، ثم إن هذه الزجاجة موضوعة في أسطوانة مصنوعة من الذهب ونقش عليها: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهذه الأسطوانة ملفوفة بقطعة قماش أخضر وتفوح منها رائحة العطر الزكية دون أن يمسها أحد بطيب.

وإن شيخنا الإمام رضي الله عنه كان يُعظم هذا الأثر النبوي الشريف ، ويضعه في أعلى مكتبته الخاصة به رضي الله عنه.

* * *

مجالس تذكير ونصح

لما اعتزل شيخنا الإمام رضي الله عنه في بيته في السنوات الأخيرة من عمره المبارك ، لم يعد يستقبل إلا بعض أهل العلم والأحباب والأصحاب ، ومَن وفد عليه من خارج مدينة حلب للتبرك به ، والسماع لموعظته ، أو استجازته في الحديث الشريف وأوراد الطريق وغيره.

ولا يتيسر لأحد من هؤلاء لقاؤه إلا مَن كان ذا حظٍّ وافر ، لما سيناله من دعوات وبركات ، ونظرات من شيخنا الإمام رضي الله عنه.

ولا يطول حديثه رضي الله عنه في المجلس عن نصف ساعة تقريباً ، ثم يختم بالدعاء وقراءة الفاتحة ، ويتقدم الحاضرون للسلام عليه ، وربما شكا إليه أحدهم أمراً أهمّه ، أو استفتاه في حكم شرعي ، أو استفهمه عن مسألة علمية ، فيجيب رضي الله عنه كل سائل عن مسألته ، ويجد عند شيخنا الإمام رضي الله عنه ما يطمئن به قلبه ، وتسكن إليه نفسه.

وكان جُلُّ كلامه رضي الله عنه يدور حول وجوب التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما كان

عليه الصحابة رضي الله عنهم وسلف هذه الأمة. ثم يُذَكِّرُ الحاضرين بالأخلاق الفاضلة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والآداب والمحاسن والكمالات التي ندب إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكثيراً ما كان يُحرض الناس على المواظبة على قراءة القرآن الكريم ، ويَذكر لهم بعض الأحاديث الواردة في ذلك.

ومن عادته رضي الله عنه أن يُكرم أهل الشيبة في الإسلام ، عملاً بما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجلسهم إلى جانبه أو أمامه ، ويكرمهم وَيجعلهم موضع نظره ، ويذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[1] . ويقول: «من كثر شيبه في الإسلام أضاء له ولغيره». ويقول لهم: «كيف حالكم يا شباب؟ كلنا شباب في طاعة الله تعالى». ولا يترك في مجلس من مجالسه أن يُذَكِّرَ الحاضرين بكثرة الصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأي صيغة كانت ، ويقول: «من كان يريد أن يكون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلة فليكثر من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من صلى عليّ بلغتني صلاته وصليت عليه»[2] ، فأنت تصلي على رسول الله صلى الله

---

(١) عزاه في (مجمع الزوائد) (١٥٨/٥) إلى البزار والطبراني عن سيدنا فَضَالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٢) عزاه في (مجمع الزوائد) ، (١٦٢/١٠) إلى الطبراني عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

عليه وآله وسلم وهو يصلي عليك ، وكفاك بهذا شرفاً وفضلاً وفوزاً وقرباً من حضرته صلى الله عليه وآله وسلم».

كما كان يُذَكِّرُ الحاضرين بالاشتغال بالدعاء والإكثار منه ، وأن لا يقتصر أحدهم على الدعاء لنفسه فقط ، بل يدعو لنفسه وأهله وأحبابه والمسلمين أجمعين في مشارق الأرض ومغاربها.

وكان يختم المجلس بالدعاء ومن جملته: «اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تُرضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين ، لأنك يا مولانا قلت وقولك الحق: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] فنسألك اللهم رضاك ورضا رسولك صلى الله عليه وآله وسلم رضاً لا سخط بعده.

اللهم صلاة تُفيض بها علينا من أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن أنواره ونفحاته وبركاته ، صلاة تعطف بها علينا قلبه الشريف ، اللهم واجمع بيننا وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً ، يقظة ومناماً ، واجعله يا ربنا يا ربنا يا ربنا روحاً لذاتنا من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم».

وإذا أطال في الدعاء كان يستمر فيه بقوله: «يا عظيماً يرجى لكل عَظيم ، قد سألناك وتوسلنا إليك بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذي الخلق العظيم ، أن تُفرج عنا الكرب العظيم ، وأن تحقق رجانا يا مولانا ، وتتولانا في جميع قضايانا بما توليت به عبادك الصالحين بقولك: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] ، يا من لا يرد سائله ولا يخيب آمله.

إلَهي: يا خير مَن مُدّت إليه الأيادي ، سألناك بخير من مد يديه

إليك صلى الله وعليه وآله وسلم ، فأعطنا مُنانا ، وحقق رجانا ، وقد بلَغَنا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنَّ ربكم حيي كريم يستحي أن يبسط العبد يديه إليه فيردهما صفراً خائبتين»(١) ، وها نحن قد رفعنا إليك أكُفَّنا ، سائلين متوسلين بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تستجيب دعانا ، فإنك قلت وقولك الحق، ووعدت ووعدك الصدق: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا إنك لا تخلف الميعاد.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى أزواجه ، وأصحابه ، وآل بيته ، وعلينا معهم أجمعين ، وعلى والدينا ، ومشايخنا ، ومن له حق علينا ، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، في كل لمحة ونَفَسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم ـ آمين.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] والخاتمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» ويقرأ الحاضرون الفاتحة ، ثم يمسح وجهه بيديه المباركتين ، ويلتفت إلى الحاضرين ليؤانسهم بكلمات البشر والرجاء ، ثم يتقدموا للسلام عليه ووداعه ، وكلهم رجاء وشوق إلى لقاء آخر معه رضي الله تعالى عنه.

* * *

---

(١) رواه أبو داود في (السنن) ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء /١٤٨٨/ (٢/ ١٦٥) ، والترمذي في الدعوات ، باب /١١٨/ حديث /٣٥٥١/ (٩/ ٢٠٥).

نسيم الوصل يؤذن بكشف الحجاب
ولقاء الأحباب

كان كلامه رضي الله عنه مع أهله وأصحابه في الأسابيع الأخيرة من عمره المبارك يحمل معاني الوصايا والتوجيهات، والتنبيهات إلى بعض الأمور والقضايا العائلية الخاصة والعامة، ولم يكن أسلوبه في الكلام يُشعر أحداً بقرب أجله أو غير ذلك، بسبب رقّته رضي الله عنه ولطفه العجيب. ولم يَغفل يوماً عن كلمات الرضا والتسليم، وتفويض أمره كله إلى الله تعالى.

وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الاثنين في العشرين من شهر ذي الحجة سنة /١٤٢٢/ من الهجرة الشريفة.

وقد حصلت أيام مرضه ووفاته من العجائب والكرامات ما تُوجب علينا ذكرها، ويضيق بنا المجال لاستقصائها، على أننا سنأتي على ذكر جملة واسعة حول ذلك في الكتاب الموعود إن شاء الله تعالى. ومن ذلك: أن أحد الأطباء الذين كانوا يُشرفون على العناية بشيخنا الإمام رضي الله عنه، والرعاية الصحية به، وقد قدم من بلد آخر لهذا الغرض ـ وجزاه الله خير الجزاء ـ هذا الطبيب الماهر لفت نظره بيتان من الشعر كتبا على فراش شيخنا الإمام

رضي الله عنه ، من الجهة اليمنى قريباً من رأسه ، وهما:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها رأيت رسول الله فيها باقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ويلقى المؤمن ربه راضيا

وقد استحوذ ذلك على إعجاب ودهشة الأطباء والحاضرين ، إذ لم يتيسر لأحد أن يمد يده لملامسة شيخنا الإمام رضي الله عنه فكيف حصل ذلك؟!.

وفي هذا نعي لشيخنا الإمام بخط القدرة الإلٓهية ، كما أخبر أحد الصالحين من أهل المدينة المنورة أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو ينعىٰ شيخنا الإمام لأهل البرزخ.

وقد أخبرنا أيضاً بعض الصالحين أنه كلما توجه إلى الله تعالى داعياً بشفاء شيخنا الإمام رضي الله عنه ، رأى شيخنا الإمام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال: فكيف أطلب من هو في الأحضان المحمدية يحيا وينعم.

ولا غرو في ذلك ، فإن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عطفاً وحناناً وعناية خاصة بأحبابه المتقين في جميع العوالم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما أرسله والياً إلى اليمن ، قال له وهو يودعه: «إنَّ أولى الناس بي المتقون ، مَن كانوا وحيث كانوا»[1].

ولا يخفى على كل مؤمن قول الصحابي الجليل سيدنا بلال رضي الله عنه ، وهو على فراش الموت؛ وقد رأى من أهله الحزن

---

(١) الحديث في (مسند) الإمام أحمد (٥/ ٢٣٥).

والبكاء فأنكر عليهم وقال: (غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه).

وقد رأى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام قبل أن يُستشهد ـ وكان رضي الله عنه صائماً ـ فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنك ستفطر عندنا».

ولله در القائل:

عليكم وإلا فالبكاء مَضيع وفيكم وإلا فالرجاء قطيع
وعنكم وإلا فالأحاديث ضِلَّةٌ ومنكم وإلا فالنّوال وضيع

ولقد عزّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته في مصائبهم بقوله: «ليعزِّ الناس في مصائبهم المصيبةُ بي»[1].

ويرحم الله تعالى القائل:

إمام الرسل أكرمهم خصالا وأقربهم لدى المولى وصالا
فيا مَنْ هام فيه هوىً وحالا محمد رحمة أَجْرت نوالا
به لمحبه كَمُلَ الكمال

قلت: وقد دفن شيخنا الإمام رضي الله عنه في مدفن جامع المدرسة الشعبانية، بناءً على وصيته، ولما لها من منزلة عنده، وقد ازداد المكان بهاءً وجلالاً وأنواراً بمرقد شيخنا الإمام فيه، ويشعر الزائر له بالأنس والسكينة، وكأنه في روضة جنانية، وهذا هو شأن عباد الله المتقين المخلصين، المحبين لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ.

وإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ، بجاه رسوله ذي القدر العظيم صلى الله عليه وآله وسلم أن يَرفع مقام شيخنا الإمام في أعلى المقامات ، وأن يُعلي منزلته في أعلى الدرجات ، وأن يجمعنا معه في الحضرة المحمدية في جملة الأحباب ، مع ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠] آمين. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، حمداً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم رسله وأنبيائه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ، وبعد:

فقد سمعت من حضرة مولانا الوالد رضي الله عنه مَراتٍ عديدةً رغبته في جمع كتاب واسع حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم.

وكنت قد علمت أنه رضي الله عنه قد تناول البحث في ذلك في دروسه في جامع بانقوسا ، واستغرق البحث في مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم سنوات عديدة ، إذ كان له درس بعد العصر من كل يوم جمعة ، فقلت له: حبّذا لو جمعنا ما حصلنا عليه من تسجيلات لتلك الدروس ـ والأجدر بنا أن نسميها محاضرات لشموليتها ومكانتها العلمية ـ وقمنا بترتيبها لطباعتها ونشرها.

وقد تمّ هذا الأمر بفضل الله تعالى وتوفيقه ، وكان مولانا الوالد رضي الله عنه يدعو لي بالتيسير والتوفيق كلما عرضت عليه جزءاً

مما جمعته وكتبته ، وفي شهر شوال من عام / ١٤٢١/ هـ عرضت عليه جزءاً واسعاً من هذا الكتاب ، فقرأه في عدة أيام ، وسَرَّه هذا العمل ، وأرشدني إلى بعض التوجيهات ، ودعا لنا بالتوفيق والسداد.

وكم كنت أودّ أن يصدر هذا الكتاب ويراه مولانا رضي الله عنه وَقد طبع ونشر ، إلا أنّه أجاب دعوة ربه فانتقل من الحياة الدنيوية إلى الحياة البرزخية العالية ، في العشرين من ذي الحجة لعام / ١٤٢٢/ هـ والحمد لله على كل حال ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسيكون هذا العمل إنْ شاء الله في صحيفة حسناته الواسعة ، لأنه من العلوم التي وَرَّثها ويُنْتَفَعُ بها إلى يوم الدين ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

وإن هذه المحاضرات بما احتوت عليه من أبحاث علمية واسعة ، وتحقيقات علمية مؤيدة بنصوص الكتاب والسنة ، تُعتبر من جملة ما ورَّثه مولانا الوالد رضي الله عنه من علوم يَنتفع بها الناس إلى يوم الدين ، وتندرج أيضاً في جملة مؤلفاته العلمية التي زادت على خمسة وعشرين كتاباً في بيان أصول الدين ، وما يحتاجه الناس لمعرفة مبادىء دينهم ، ودفع شبهات ورد أباطيل.

وإني أسأل الله تعالى أن يَجعل هذا العمل المبارك منار هَدْي ونفع لكل من قرأه إلى يوم القيامة ، وأن يكون ذلك في جملة

---

(١) رواه مسلم /١٦٣١/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

حسنات مولانا الوالد رضي الله عنه ، وأن يُكتب ذلك في كتاب أعماله الصالحة.

وأسال الله تعالى أن يجمعنا معه في الحضرة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم ، حتى ندخل الجنة بسلام برفقة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن من جملة إكرام الله تعالى لأحبابه وأوليائه ، أنْ يكرمهم بالاستمرار على ما أحبوه وتولعوا به في الدنيا من عبادات وأعمال صالحة ، وذلك على سبيل الولع والتلذذ دون تكلف ومشقة. فقد ثبت في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها. فأتى ـ ذلك الصحابي ـ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ضَربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هي المانعة ، هي المنجية ، تُنجيه من عذاب القبر»(١).

فأكرمه الله تعالى بقراءتها بعد وفاته ، لأنه كان مواظباً على قراءتها كل ليلة ، كما دل على فضل قراءتها أحاديث وردت عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد رؤي ثابت البناني يُصلي في قبره ، ولما سئلت ابنته عن ذلك قالت: كان يقوم الليل خمسين سنة ، فإذا كان السحر قال في

(١) رواه الترمذي / ٢٨٩٠/ وقال: حسن غريب.

دعائه: (اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره فأعطنيها)[1].

ولقد سمعت من مولانا الوالد رضي الله عنه، أنه رأى مرة في منامه مولانا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه وهو يشير إليه لتعديل عنوان كتاب كان الوالد رضي الله عنه بصدد طباعته ونشره، وسمعت منه مرة أنه رأى الشيخ الكبير العلامة الفاضل، السيد محمد سعيد الإدلبي بعد وفاته رحمه الله تعالى ورضي الله عنه، رآه بهيئة مَهِيبة، ولِباس جميل، وهو يُدرِّس في الجامع الكبير. قال مولانا الوالد رضي الله عنه: «وقد حضرت درسه حتى فرغ منه».

قلت: ولما قدمت الجزء الأول مِنْ هذا الكتاب للسيد الأستاذ محمد علي الإدلبي للعمل على ضبطه وإخراجه جزاه الله تعالى خير الجزاء، وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر رجب عام /١٤٢٣/ هـ، رأيت بعد ذلك بثلاثة أيام في أول ليلة من شهر شعبان، رأيت مولانا الوالد رضي الله عنه وهو جالس في فُسْحة واسعة لدار من الدور القديمة، فجلستُ أمامه وإلى جانبي الأستاذ الشيخ محمد علي، فقال لي الوالد رضي الله عنه: «هات ما عندك» فتقدمت إلى جانبه ومعي جزء واسع من هذا الكتاب، فنظر إليه وقال: «لقد رأيت هذا من قبل». فقلت له: لم نَفرغ بعد من الباقي، فقال: «سأراه متى فرغتم من جمعه إن شاء الله تعالى» ودعا لنا، وعلامات الرضا مقروءة في صفحات وجهه المشرق رضي الله عنه، وقد علمت من ذلك قبوله لهذا العمل ورضاه عنه،

---

(١) أورده أبو نعيم في (الحلية) (٢/٣١٩).

وأن الأمر قد عُرض عليه وهو في البرزخ ، وأسأل الله تعالى أن يَرفع مقامه ، ويُعلي درجته ويكرم منزلته ، وأن لا يحرمنا دعاءه ، وأن ينفعنا ببركاته وأسراره ، وأن يَحشرنا معه في زمرة عباده الصالحين ، تحت لواء سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

وإني أشكر كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب وطباعته ونشره ، ومنهم الأستاذ الفاضل صاحب الأيادي البيضاء في طباعة كتب مولانا رضي الله عنه ونشرها ، وخدمة العلم وأهله السيد الشيخ محمد علي الإدلبي ، أجزل الله له المثوبة.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

كتبه

محمد محيي الدين سراج الدين

المحاضرة الأولى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمدُ لله رَبِّ العَالَمينَ ، وأَفضَلُ الصَّلاةِ وَأَكمَلُ التَّسلِيمِ ، عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّدٍ وَعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ ، سُبحَانَكَ لا عِلمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمتَنا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

أَمَّا بَعدُ:

فلقدْ أَرسَلَ الله تَعالَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى العَالَمِ ، وَلَهُ مَعَهُم مَواقِفُ تَتوقَّفُ عَلَيهَا سَعَادَتُهم فِي الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَعَظِيمَةٌ ، وَمِن تِلكَ المَواقِفِ: المَواقِفُ الأَربَعَةُ ، التي جَاءَ بَيَانُها فِي الآيات الكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَولُهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقَولُهُ تَعالَى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولًا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وَهذه المواقفُ هيَ دَعوَةُ سَيِّدنَا إبرَاهِيمَ عليَهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إذ قَالَ اللهَ تَعَالَى إخبَاراً عَن سَيِّدنَا إبْراهيمَ عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَلَقَد حقَّقَ الله تَعَالَى دَعوَةَ سَيِّدِنَا إبرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فكَانَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنِّي عَندَ الله لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُنبِئُكم بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعوَةُ أَبِي إبرَاهِيمَ ، وبِشَارَةُ عِيسَى بِي»[(١)].

وَقالَ الله تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فَقَد امتَنَّ الله تَعَالَى فِي هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى عِبَادِهِ بِبِعثَةِ النَّبِيِّ الأَكرَم صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ ، وَبَيَّنَ الحِكمَةَ في إرسَالِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى أرسَلَهُ لأَجلِ أَن يَتلُوَ عَلَى النَّاسِ آيَاتِ الله تَعَالَى ، ويُزَكِّيهُمْ ، وَيُعَلِّمَهُمُ الكِتَابَ والحِكمَةَ.

وَسَنَأتِي عَلَى بَيَانِ هَذِهِ المَواقِفِ مَفَصَّلَةً إن شاءَ اللهُ تَعَالَى.

* * *

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١٢٧/٤) عن العرباض بنِ سارية رضي الله تعالى عنهُ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّي عندَ الله لخاتمُ النَّبيِّين وإنَّ آدم لمنجدلٌ في طينته ، وسأنبئكم بأوَّل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورُؤيا أمِّي التي رأت ، وكذلك أمَّهات النَّبيِّين ترينَ» (وإنَّ أمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشَّام).

مَوقِفُ تِلاوةِ آيَاتِ الله تَعَالى

مَعنَى الآيَاتِ الكَونيَّةِ والآيَاتِ الشَّرعِيَّةِ:

إنَّ آيَاتِ الله تَعَالى تَتَضمَّنُ الآيَاتِ الشَّرْعِيَّة ، التي تَتَعلَّقُ بالأَحكَامِ والأوَامرِ وَالمَنَاهي ، والآيَات الكَونيَّةِ ، أي: التَّكوِينيَّة الخَلقِيَّة.

وَلَقَد جَاءَ سَيِّدُنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وآلِهِ وسَلَّمَ يَتلُو عَلَينَا آيَاتِ الله تَعَالى الشَّرعِيَّةَ والكَونِيةَ.

أَمَّا الآيَاتُ الشَّرعِيَّةُ: فَكَانَ سَيِّدنا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ يَتلُو القُرآنَ الكَرِيمَ عَلى الصَّحَابَةِ الكِرَام عَامَّةً وَخَاصَّةً.

قَالَ الله سُبحَانَهُ وتَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: بِصِفَة أَنَّهُ قُرآنٌ يُقرَأُ[1] ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ

(١) لأنَّ التِّلاوة قد يراد منها المتابعة ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ أي: اتَّبع ما أوحي إليك ، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتَّبعونهُ حقَّ اتِّباعه ، علماً وعملاً ، ومن جملة العمل به: قراءته ، أمَّا قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: أقرأ القرآن ، ولم يقل: أتلو الكتاب ا هـ.

وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٣].

فَلَقد أمرَهُ الله تَعَالى أَن يَقرَأَ عَلَيهِم هَذَا القُرآنَ الكَريمَ؛ حَتَّى يُسمِعَهُم كلامَ الله تَعَالى، ويُدخِلَ نُورَ هَذَا القُرآن فِي قُلُوبِهم، فَمَن كَان في قَلبِهِ استِعدَادٌ وَقَابليَّةٌ لِهَذا النُّور القُرآنِيِّ استَنارَ قَلبُهُ واهتَدى إلَى الله تَعَالى، ومَن لَم يَكُن فِيه هَذا الاستعدَادُ بَقِي عَلى مَا هُوَ عَلَيهِ.

ولِهَذا قَالَ: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: وَبَعدَ التِّلاوةِ ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: بِنُورِ هَذَا القُرآنِ ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الذي أَنزَلَ هذِهِ الآيَاتِ الشَّرعِيَّةَ هُدَىً وَبَيَاناً وَشفَاءً ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أَي: الكَونِيَّةَ ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

أَي: أَنَّكُم جَحَدتُم بِآيَاتِه الشَّرعِيَّةِ، فَسَيُريكُم آيَاتِه الكَونِيةَ المَرئِيَّةَ لَكُم؛ حَتَّى تَعرِفُوا أَنَّ مَا أَخبرَ عَنهُ القُرآنُ الكَرِيمُ هُوَ الحَقُّ.

وَذَلكَ لأنَّ الآيَاتِ الكَونِيَّةَ مُطابِقَةٌ وَمُوَافِقَةٌ للآيَاتِ الشَّرعيَّة تَماماً، كَما قَالَ الله تَعَالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أَنَّ هَذا القُرآن الكَريمَ هُوَ حَقٌّ.

فَالآيَاتُ الكَونيَّةُ والآفَاقِيَّةُ والنَّفسِيَّةُ كُلُّها شَوَاهِدُ عَلى أَنَّ هَذا القُرآنَ الكَرِيمَ هُو حَقَّاً كلامُ الله تَعالى، وأَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً هُو رَسُولُ الله حَقَّاً صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِه وسَلَّم.

وَقالَ بَعضُهُم: إنَّ الضَّمِيرَ فِي قَولِه تَعَالى: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ عَائِدٌ

لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أَيْ: سَيِّدُنَا مُحمَّدٌ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

وَيَكُوْنُ المَعْنَى: حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً هُوَ حَقَّاً رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ولاَ تَنَافِي فِيْ هَذَا، لأَنَّهُ مَتَى ثَبَتَتِ الشَّوَاهِدُ عَلَىٰ حَقِّيَّةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، ثَبَتَ صِدْقُ سَيِّدِنَا رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهُ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَمَتَى ثَبَتَتِ الشَّوَاهِدُ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثَبَتَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ هُوَ كَلاَمُ اللهِ تَعَالَى حَقَّاً.

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أَي: الكَوْنِيَّةَ، بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أَيْ: فِيْ مَا حَوْلَهُمْ وَفِيْ الأَطْرَافِ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالآيَاتُ الدَّالَّةُ علَى قُدرةِ الله تعالَى ووَحدَانِيَّتِهِ وَكَمالاتِهِ، مِنْهَا آياتٌ تَدوينيَّةٌ تَفصِيليَّةٌ، وَمِنهَا تكوينيَّةٌ مُنتَشِرةٌ في العَالَم.

والعَالَمُ عَالَمَانِ: إِنسانٌ وَآفاقٌ.

فالله تَعالَى تكَفَّل أَنْ يُريَ آيَاتِه الدَّالَّةَ عَليهِ في الآفَاق وَفي النَّفسِ، فإن تَعامَى الإنسَانُ عَن نَفسِه فَلْيَنظُر في الآفَاقِ، لأَنَّ العَالَمَ لَدَى الإنسَانِ هُوَ نَفسهُ، ومَا يَراهُ مِن سَماوَاتٍ وأَرضٍ وما فِيهما.

ولَقدْ كَانَ صَلَّى الله علَيهِ وَآلهِ وسلَّم يَجْهَد كُلَّ الجُهدِ في تلاوةِ

هذا القُرآنِ الكَريمِ على الصَّحَابَة الكِرامِ عامَّةً وخاصَّةً، حَسبَ ما يَرى المَصْلَحة في ذَلِكَ.

فمِنْ جُملَة ذَلك: ما جَاءَ في الحَديث الذي رَواهُ البُخاريُّ[1] عَن أَنس بنِ مَالكٍ رضيَ الله تعالَى عَنهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْه وآلهِ وسَلَّم لأُبَي[2]: «إنَّ الله أمَرنِي أَن أَقرأَ عَليكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾».

قال: وَسمَّاني ـ أي: ذَكَرَني الله تَعالَى باسمِي ـ؟.

قالَ: «نَعمَ» فَبَكَىٰ.

وَفي رِوايَةٍ لَه أيضاً[3]: «إن الله أمَرني أَن أقرَأَ عَليكَ القُرآنَ».

قَالَ أُبَي: آلله سَمَّاني لَك؟.

قالَ: «الله سَمَّاكَ لِي» فَجَعل أُبَيٌّ يَبكِي.

وَفي رِوايَةٍ للطَّبرانِيِّ[4]: «نَعم بِاسمِكَ ونَسَبِكَ في المَلأ الأعلَى».

وَفي رِوَايَةٍ عِندَ الإمَام أحمَدَ فِي (المُسند)[5] عَن عَبدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ أَبزَى، عَن أبيهِ، عَن أُبي بنِ كَعبٍ رضيَ الله تَعالَى عَنهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ: «يَا أُبَيُّ أُمِرْتُ أَنْ أقرَأَ عَلَيكَ سُورةَ كَذَا وكَذَا».

---

(١) في كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه /٣٨٠٨/ (١٢٦/٧).

(٢) أي: للصَّحابيِّ الجليل أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه.

(٣) كما في كتاب التَّفسير، باب تفسير سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ /٤٩٦٠/ (٨/ ٧٢٥).

(٤) (مجمع الزوائد) (٩/ ٣١٢).

(٥) (٥/ ١٢٣).

قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ الله وقَدْ ذُكِرتُ هُنَاكَ؟.

قَالَ: «نَعَم».

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا المُنذِر فَفَرِحتَ بِذَلك؟.

قَالَ: وَمَا يَمنَعُنِي، والله تَبارَكَ وَتَعالَى يَقولُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَجَاءَ فِي رِوايَةٍ أُخرَى فِي (مُسنَد) الإمَام أَحمَدَ[١] عَن أَبِي حَبَّةَ البَدرِيِّ رَضِيَ الله تَعالى عَنهُ قَالَ: لَمَّا نَزلَتْ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾[٢].

قَالَ جِبرِيلُ عَلَيهِ السَّلامُ: يَا مُحَمَّد ـ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ ـ إنَّ رَبَّكَ يَأمُرُكَ أَن تُقرِىءَ هَذِهِ السُّورَةَ أُبَي بنَ كَعبٍ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِه وسَلَّمَ: «يَا أُبَي إِنَّ رَبِي عَزَّ وجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُقرِئَكَ هَذِهِ السُّوْرَةَ».

فَبَكَى، وَقَالَ: ذُكِرتُ ثَمَّة؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فَقَرَأَ عَليهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وآلَه وسَلَّمَ سُوْرَةَ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾[٣].

---

(١) (٣/ ١٨٩).

(٢) أي: سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾.

(٣) والسِّرُّ في هذا التَّخصيص: أنَّ أُبيّاً رضي الله تعالى عنه كان إذا قرأ القرآن الكريم يلاحظ أنَّه يتلقَّى عن روحانيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أنَّه سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أُذناً وقلباً، أي: أنَّه كان شديد الإصغاء حين الإلقاء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان عندما يقرأ القرآن الكريم يلاحظ تلقِّيه وأخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأراد الله تعالى أن يكرمه، بأن يجمع له السَّمعين من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: القلبيَّ والأُذنيَّ، فأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام أن يقرأ عليه سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ التي جاء فيها: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ١ ـ ٢].

وَقَد قَرأَها صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّم علَى الصَّحَابَةِ الكِرَام عَامَّةً.

ومِنْ ذَلكَ: مَا جَاءَ في (سُنَنِ) التِّرمذيِّ[1] وَغَيرِهِ، عَنْ أَبيْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رَضِيَ الله تَعالَى عَنهُ قَالَ: كُنتُ عِندَ رَسُولِ الله صلَّى الله عَليه وآله وسَلَّمَ، فأُنزلَت عَليهِ هَذهِ الآيَةُ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّى الله عَليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «يَا أَبا بَكرٍ ألا أُقرِئُكَ آيَةً أُنزلَت عَليَّ»؟.

قُلتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله ـ صَلَّى الله عَلَيهِ وآلَهِ وسَلَّمَ ـ.

قَالَ: فأَقْرَأَنيهَا، فَلاَ أعلَمُ إلا أَنِّيْ قَد كُنتُ وَجَدتُ انقِصاماً في ظَهرِي، فتَمَطَّأتُ لَها.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عليه وآلِه وسَلَّمَ: «مَا شَأْنُكَ يَا أَبَا بَكرٍ»؟.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بِأَبِيْ أَنْتَ وأُمِّيْ، وأَيُّنَا لَم يَعْمَل سُوْءاً، وإنَّا لَمَجْزِيُّونَ بِمَا عَمِلنَا؟.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «أَمَّا أَنْتَ يَا أبَا بَكْرٍ والمُؤْمِنُونَ[2] فَتُجْزَونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا؛ حَتَّى تَلْقَوا الله وَلَيسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وأَمَّا الآخَرُونَ فَيُجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وقَدْ سَمِعَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أيْضاً مِنَ الصَّحابَةِ الكِرَامِ

---

(١) في كتاب التَّفسير، بابٌ ومن سورة النِّساء / ٣٠٤٢/ (٨/ ٢٠٩).

(٢) أي: المؤمنون الكُمَّلُ.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُم تِلَاوَتَهُمْ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ ، تَحْرِيضاً لَهُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ.

فَمِنْ ذَلِكَ: سَمَاعُهُ مِن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ سُورَةَ النِّسَاءِ إلَى قَولِهِ تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيَّ».

قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟!.

قالَ: «نَعَم ، إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِيْ».

فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ ، حَتَّى أَتَيْتُ إلَى هَذِهِ الآيَةَ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾.

فَقَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ»[1]. فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[2] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَلبَيَانِ مَعْنَى الآيَةِ الكَوْنِيَّةِ: فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

هَلْ هَذَا يَعْنِي آيَةً شَرْعِيَّةً فِيْهَا أَمْرٌ وَنَهْيٌ؟! أَمْ آية كونية ـ يَعنِي: أَنَّ تَكوِينَهُ وإِيجَادَهُ لِعِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ آيَةٌ؟ ـ

ولاَ شكَّ أَنَّ الآيَةَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ كَلمَات ، والكَلمَاتُ مُؤَلَّفَةٌ مَنْ حُرُوفٍ؛ فكَمَا أَنَّ الآيَاتِ التَّدوينِيَّة مُؤَلَّفَةٌ مِن كَلمَاتٍ ، والكَلِمَاتُ

---

(١) أي: كافي ، ولم يقل: لا تقرأ لأنَّ هذه اللَّفظة موهمةٌ. فافهم.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ /٤٥٨٢/ (٨/ ٢٥٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل استماع القرآن الكريم / ٨٠٠/ (٢/ ٨٧٧).

مُؤَلَّفةٌ مِنْ حُرُوف ، وَبِهذَا التَّأْلِيف ظَهَرَت المَعاني ، فَكَذلك لَوْ دَقَّقْتَ في هَذا العَالَمِ ، لَرَأَيْتَ أَنَّ هذَا العَالَم بَلْ كُلُّ العَوالِم المُمكِنَة حُرُوفٌ كَونيَّةٌ ، وكَلِمَاتٌ كَونيَّةٌ ، وآيَاتٌ كَونيَّةٌ؛ وَبتَألُّف الحُرُوف مَعَ بَعْضِها تَنْشَأُ الكَلِمَةُ الكَونِيَّةُ، وبِتألُّف الكَلِمَة مَعَ الكَلِمَة تَنْشَأُ الآيَةُ الكَونيَّةُ ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]. وَلَمْ يَقُلْ: وَجَعَلْنَا ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَتَيْنِ!! فَهُمَا آيَةٌ.

فَعِيْسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كَلِمَةُ الله تَعَالى ، والكَلِمَة الأُخْرَى هِيَ مَرْيَمُ ، فَبِالانْضِمام مَعهَا وإِلَيْها صَارَا آيَةً.

ولِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

والكَلِمَةُ مُؤَلَّفةٌ مِنْ حُرُوفٍ ، والحُرُوْفُ الكَوْنِيَّةُ في عِيْسى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هِيَ أَعْضَاؤُهُ وأَجْزَاؤُهُ وحَوَاسُّهُ التي مَجْمُوْعُها كَلِمَةٌ. وبانْضِمَامِها إلى تَخْلِيقِ مَريَمَ وكَلِمَةِ مَريَمَ صَارَ آيَةً ، قَالَ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ أي: آيَةً كَوْنيَّةً دَالَّةً على وُجُوْدِ الله تَعَالى وقُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّ مِثلَ هذا التَخْلِيقِ على هذه الكَيفيَّةِ لا يَصْدُر إلا عَمَّنْ يَعْلَمُ التَّخليقَ بأيِّ نَوع كَانَ ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] أَي: بِكُلِّ نَوعٍ مِن أَنواعِ التَّخلِيقِ والتَّكوِينِ والإِيْجَادِ عَليمٌ سُبحَانَهُ وتَعَالى.

فهُو سُبحَانَهُ عَالمٌ وقَادرٌ عَلى أَنْ يَخلُقَ إنسَاناً من أَبٍ وأُمٍّ، وهَذِهِ عادَتُهُ سُبحَانَهُ فِي الخَلْقِ، كَمَا أَنَّهُ عالِمٌ وقَادرٌ على أَنْ يَخلقَ إنسَاناً مِن غَيرِ أَبٍ ولا أُمٍّ؛ كَمَا خَلَقَ آدمَ عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهُوَ سُبْحَانَهُ

عالِمٌ وقادرٌ على أَنْ يَخْلُقَ إِنْسَاناً منْ أَمٍّ بلا أب كمَا خَلقَ عيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أَي: تَخليقٍ ﴿عَلِيمٌ﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذه الكَلمَات الكَونيَّةَ المشْهُودَةَ، ما هيَ إلا مَظَاهِرُ للكَلماتِ الإلَهيَّةِ الأمريَّة، والله سُبْحَانَهُ وتَعالَى يَقُولُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمُرَادُ بالكَلِماتِ في هَذِهِ الآيَةِ: كَلِمَاتُ التَّكْوينِ بالأَمْرِ، لأَنَّهُ مَا مِن شَيءٍ مِن العَالَمِ الإمْكانيِّ، سَواءٌ كَانَ مَحْسُوساً أَوْ معقُولاً أَو مَوْهُوماً؛ إلا وَهُوَ مَوْجُودٌ بِقَوْلِ الله تَعالى: ﴿كُن﴾، بِدَليلِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ أي: مَحْسُوسٍ أو مَعْقُولٍ أَو مَوْهُوم ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُوداً وأَرَادَ الله تَعالَى إيْجَادَهُ ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فَهَذَا الشَّيءُ الذي صَارَ مَوجُوْداً إنَّمَا وُجدَ بالكَلِمَةِ التَّكْوينيَّة الأمريَّة الإلٰهيَّة، وهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كُن﴾، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ لَهُ صُورَةٌ وَمظهَرٌ وُجُودِيٌّ، والله تَعَالَى يَقُوْلُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَقالَ الله تَعالَى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أَيْ: كُلُّ شَيءٍ مُتَلاشٍ مُضْمَحِلٌّ إلا مَا تَوَجَّهَ عَلَيهِ أمرُ الله تعالَى، وهُوَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿كُن﴾.

وَما صَارَ للأَشياءِ وجُودٌ إلا بِقَولِ الله تَعالَى: ﴿كُن﴾، وهِيَ مُفتَقِرَةٌ إليهِ في كُلِّ لَحْظَة، لأَنَّ الكَلِمَاتِ الأَمْرِيَّةَ التَّكوينيَّةَ هيَ رُوْحُ الأَشياءِ وقِوَامُهَا، ولَو انْقَطَعَتْ عَنهَا لصَارَتْ إلى العَدَمِ.

كمَا أَنَّ كَلِمَةَ ﴿كُنْ﴾ تُعْطِي الشَّيء وُجُوداً لَمْحيّاً لَحظيّاً ، بدَلِيْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فَفِي اللَّحظَةِ الثَّانِيَةِ والثَّالِثةِ يَحْتَاجُ إلَى كَلِمَةٍ تكوينِيَّةٍ أمْرِيَّةٍ أُخرَى لِيَبقَى عَلى هَذا الشَّيء وجُوْدُهُ؛ وهَكَذا.

فَسَيِّدُنَا عِيْسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّمَا وُجِدَ بِقَوْلِ الله تَعالَى: ﴿كُنْ﴾ أَيْ: بالكَلِمَةِ الأمريَّةِ التَّكوِيْنِيَّة ، كَمَا قَالَ جَلَّ وعَلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فَمَظْهَرُهُ صُوْرَةٌ خَلْقِيَّةٌ قِوَامُهَا قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿كُنْ﴾.

وَفِي الحَقيقَةِ فَإنَّ جَمِيعَ المَخْلُوقَات هِيَ كَلِمَاتُ الله تعالَى ، أَيْ: مَا وُجِدَتْ إلا بِقَوْلِ الله تَعَالى لَهَا: ﴿كُنْ﴾.

وَإنَّمَا سُمِّيَ عِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِكَلِمَةِ الله ، باعْتِبَارِ أَنَّهُ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى عَلى غَيْرِ الأسْبَابِ المُعْتَادَةِ ، فَكَانَ أحَقَّ أَنْ يُسَمَّى بكَلِمَةِ الله مِنْ غَيْرِهِ.

وقَولُهُ سُبحَانَهُ وتَعالَى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٧] أي: الأمْرِيَّةُ التَّكْوينيَّةُ ، لأَنَّ سِلسِلَةَ العَوالِم المُمْكِنَة لا نِهَايَةَ لَهَا ولا حَدَّ ، إذاً كَلِمَاتُ الله تَعَالَى لا تَنْفَد.

وَهَذَا مَا يُعرَفُ مِن الآيَة قَبْلَهَا ، وهِيَ قَولُهُ سُبحَانَهُ وَتَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

أي: مَا يَطلُبُونَ التَّحَوُّلَ عَنْهَا لا اسْتِعْداداً ولا اخْتِيَاراً ، أَيْ: أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيسَ عِنْدَهُم استِعْدَادٌ أَنْ يَطْلُبُوا التَّحَوُّلَ إلَى الفَنَاء أَوِ

العَـدَمِ، بَـلْ اسْتِعْدَادُهُم وَنَشأَتُهُم أَبَـدِيَّـةٌ بَاقِيَـةٌ بِإِبْقَـاءِ الله تَعالَى ، لا أَنَّهُمْ بَاقُـون مَعَ الله تَعالَى ويُشَارِكُونَـهُ في وُجُـوْدِهِ ، بَلْ بَـاقُـوْنَ بِإِبْقَاءِ الله تَعالَى لَهُمْ؛ فَافْهَمْ.

وَهُنَـا قَـدْ يَـقُوْلُ قَائِلٌ: كَيفَ أَنَّ أهلَ الجَنَّـة بَـاقُـونَ هَذِهِ الآبَـادَ والمُدَدَ السَّرمَدِيَّةَ اللامُتَنَاهِيَةَ؟!.

فَيقَالُ في الجَوابِ: قَالَ الله تَعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

فلا عجَبَ فِي أَنَّ أهلَ الجَنَّـةِ بَاقُونَ أبَـدَاً ، لأَنَّ مَدَد اللهِ تَعالَى لَهُمْ لا يَنقَطِعُ أبَدَاً.

ومِنَ الآيَات الكَونيَّةِ: مَا أخبَرَ الله تَعالَى عَنْ زَكَرِيَّا عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عِندَمَا سَأَلَ اللهَ تَعالَى وَلَدَاً ، وبَشَّرتْهُ الملائِكَةُ عَليهِمُ السَّلامُ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤٠ ـ ٤١].

فَقَوْلَهُ تَعالَى: ﴿ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ أي: علامة ، والمُرَادُ مِنهَا آيَـةً كَونيَّـةً تُعلِمُني أنَّ زوجَتي قَد حَملتْ بيحْيَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَذلكَ حَتَّى يَشكُر الله ويُثنيَ عَلَيه تَعالَى ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ وَهَذه هي الآيَةُ.

أيْ: أنَّ علامَـةَ بَدءِ الحَملِ: أنَّكَ تُصبحُ في بَعضِ الأيَّامِ تُحَاوِلُ أَنْ تُـكَلِّمَ النَّـاسَ فلا تَستَطِيعُ ، وتَبقَى كَذَلِكَ ثَلاثَةَ أيَّـامٍ.

إلا أنَّـهُ ما حُجِبَ عَنِ الكَلامِ كُلِّـهِ ، فَكَـانَ يَـذكُـرُ الله تَعـالَى ويَحْمَدُهُ ، لَكِنَّـهُ لا يستَطِعُ تكَلِيمَ غَيرِهِ.

فَأَصْبَحَ في بَعضِ الأَيَّامِ كَذَلِكَ فَصَارَ هَذَا آيَةً مُؤَلِّفَةً مِنهُ ومِنهُم. وَقولُهُ تَعالَى: ﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾ أَيْ: إِشَارَةً، فَأَشَارَ إِلَيهِمْ إِشَارَةً أَنَّ زَوجَتَهُ قَدْ حَملَتْ بيَحيَى عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاحمَدُوا الله تعالى عَلَى ذَلكَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أَيْ: أَومأَ وأَشارَ إِليْهم ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ١١] أَيْ: احْمَدُوا الله تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ.

وَلَقَدْ قَدَّمَ سُبْحَانَهُ وتعالَى لِقَضِيَّةِ خَلْقِ عِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مُقَدِّماتٍ سابقةً ومَهَّدَ لَهَا.

فَتَرى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلاَمُ لَمَّا تَقَدَّمَ في السِّنِّ، وكَانَتْ زَوْجَتُهُ عَجُوزاً عَقِيماً، فَقَدْ خَرَقَ الله تعالَى لَهُ العَادَةَ ووهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهَذَا مِنْ آيَاتِ الله تَعالَى الدَّالَّة عَلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهِ وتَعالَى.

ونَسَبُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ يَرجِعُ إِلَى إِسْحَاقَ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولَيْسَ إِلَى إِسماعِيلَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَظَهَرتِ الآيَةُ فِي جَدِّه الأَعْلَى، ثُمَّ لَمَّا قَرُبَ زَمَنُ عِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ظَهَرَتِ الآيَةُ الأُخرَى في يَحْيَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، كَما تَقَدَّمَ.

وَلَقَدْ جاءت الآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَّفقةً تَمامَاً ومُطابِقَةً للآيَاتِ الكَوْنيَّةِ، فَلا يُمكِنُ أَنْ يَأتي القُرْآنُ بِخبرٍ أَو نَبأ ويَكُوْنَ الوَاقعُ مِنَ الآيَاتِ الكَوْنيَّةِ مُخَالِفاً لَها، لأَنَّ خَالِقَ العَالَمِ هُوَ مُنْزِلُ هَذا القُرْآنِ، ومِنْ جُمْلَةِ مَا جَاءَ فِيهِ: أَنَّهُ تَرجُمَانٌ للعَالَمِ وجامِعٌ لِما فِيهِ، ويَصِفُ

لَكَ ما في العالَمِ مِنْ عَوَالِمَ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَيُبيِّنُ خصائصَ العَوالِمِ عَلى وَجهٍ مُفصَّلٍ.

كَما إِذَا اشْتَريتَ مَصنعَاً فإِنَّكَ ستَحصُلُ بالضَّرورةِ مَعَ المَصْنَعِ عَلى كِتَابٍ فِيهِ مَيِّزاتُ وصِفاتُ هَذا المَصْنَعِ ، وكُلُّ مَا تَقرَؤُهُ في هَذَا الكِتابِ مَوجُودٌ في المَصْنَعِ.

وَهَذَا العَالَمُ والكَوْنُ خَلقُ الله تَعالَى ، وصُنعُ الله تَعالى ، وهَذا القُرآنُ الكَريمُ يَذكُرُ لكَ ما فِي هَذا العالَمِ مِنْ سَماوَاتٍ وَأرضينَ وكَواكِبَ وهَكَذا. . .

وَلذَلكَ قالَ سُبحانَهُ وتَعالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : الكَوْنيَّة ﴿ فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] أيْ : هَذا القُرْآنُ الكَريمُ.

وقال جَلَّ وَعلا : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : الكَونيَّة ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل : ٩٣] أَيْ : لأَنَّها مُصدِّقَةٌ لمَا أخْبَرَ الله تعالَى عَنهُ في قُرْآنِهِ الكَرِيمِ سُبْحَانَهُ وتَعالَى.

ولقد تلا صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ الآياتِ القرآنيَّةَ التي تأمُرُ بالنَّظرِ في الآياتِ الكونيَّةِ.

قالَ الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ أي : نظرَ اعتبارٍ وتفكُّرٍ ، لا نظراً إلى ظاهرِ الشيء ، لأنَّه قال : ﴿ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٥].

وقال جلَّ شأنهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: أينما توجَّهتمْ يظهر لكم النُّورُ الدَّال على الله تعالى.

وقالَ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ففي كلِّ أمرٍ سلكتَ فيهِ انتهيتَ إلى الله تعالى، فالنِّهايةُ بحثاً، والنِّهايةُ إثباتاً، والنِّهايةُ سؤالاً وحساباً، والنِّهايةُ رجوعاً، كُلُّها إلى الله تعالى جلَّ شأنهُ.

فإنْ أخذتَ ورقةً من شجرةٍ، وتأمَّلتَ فيها، وفي صُنعها وخلقها، لانتهيتَ بعقلكَ إلى إثباتِ عظمةِ الله تعالى وقدرتهِ.

وَلو توجَّهتَ في نفسكَ وتأمَّلتَ فيها لشاهدتَ نورَ الله تعالى ظاهراً فيكَ، ولانتهيتَ إلى الله تعالى بحثاً وإثباتاً، قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥].

كلُّ هذا إذا كان التَّفكيرُ والتَّأمُّل على منهجِ العقلِ الصَّحيح والحكمة، مجرَّداً عن تأثير شياطين الإنس والجنِّ وضلالاتهم.

قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن لقمان عليه السلامُ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

قولهُ تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: يأتِ بها للحسَابِ، ويأت بها الله ـ أيْ: يأتِ بها نُورُ الله تعالى ـ.

لأنَّ هذه الذَّرَّة تدلُّ على الله تعالى، كما قال جلَّ وعلا: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقال سبحانَهُ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

وقالَ سبحانهُ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا [١] فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: فماذا بقي بعدَ ذلك؟!!.

ومن الآياتِ الكونيَّة التي أمر الله تعالى رسولهُ سيِّدنا محمَّداً صلى الله عليه وآلهِ وسلم أن يتلوها: قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١].

وقولُه سبحانهُ وتعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

الحكمُ والفوائدُ من تلاوتهِ صلى الله عليه وآلهِ وسلم لكتاب الله تعالى

أوَّلاً: إنَّ في تلاوتهِ صلى الله عليه وآله وسلم لهذا القرآن بياناً على أن هذا القرآن معجزٌ، ولا يمكن للبشر أن يقرؤوه من تلقاء أنفسهم[٢]، إنَّما يأخذون ويتلقَّون كيفيَّة تلاوته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ هذا القرآن الكريم هو كلامُ الله تعالى

---

(١) أي: باستمرار إلى ما شاء الله تعالى.

(٢) ألا ترى أنَّك في غير القرآن لا تستطيع التَّمييز في قراءة ﴿الٓمٓ﴾ بـ ألف، لام، ميم؛ وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ أمَّا في كتاب الله تعالى، وإن كان كلٌّ منهما رسمهما واحدٌ، إلاَّ أنَّ قراءتهما تختلف، وهذا لا يُعرف إلاَّ بالتَّلقِّي والأخذ من قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم عن جبريل عليه السَّلام عن الله تعالى.

على الحقيقه، وليس من كلام رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: إنَّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلَّم لهذا القرآن إيصالاً لنور هذا القرآن إلى قلوب السَّامعين؛ فمن كان في قلبه استعدادٌ لتلقِّي هذا النُّور اهتدى إلى الله تعالى، ومن أعرض وحجبَ قلبه عن نورِ القرآن الكريم ضلَّ.

وهذا كما قال سبحانهُ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ أي: قل يا محمَّدُ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٢].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم في تلاوته للقرآن الكريم يوصلُ النُّور الإلَهيَّ النَّازل مع هذا القرآن إلى القلوبِ، فتنصبغُ القلوب المستعدَّة بهذا النُّورِ؛ فتكون تلاوتهُ صلى الله عليه وآله وسلَّم قلماً، والقلوب المستعدَّة ألواحاً، لأنَّ شأن المتقبل أنَّه لوحٌ، وشأن المسطر والقارىء أنَّه قلم مُمْلٍ.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يخطُّ في القلوبِ معاني كلام الله تعالى.

ثالِثاً: إنَّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلَّم إسماعَاً لكلام الله تعالى، فهُم يسمعُون كلام الله تعالى بواسطة رسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: بقراءته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم للقرآن الكريم.

فهو صلَّى الله عليه وآله وسلم الواسطةُ عن الله ، والنَّاطق عن الله تعالى.

وفي هذا يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ أيْ: طلبَ الجوار والأمان ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أيْ: أعطِهِ الأمان ثمَّ أتلُ عليه كلام الله تعالى حتَّى يسمعهُ منك يا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلَّم.

رابعاً: إنَّ في تلاوته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تنزُّلاً لروحانيَّة القرآن الكريم ورحمته وسكينته ونوره ، لأنَّ في القرآن الكريم نوراً ورحمةً تنزلُ معه حينَ تلاوته ، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فأخبرَ سبحانه أنَّه يُنزِّلُ من القرآن الكريم شيئاً عظيماً ، أشارَ إليه بقولِهِ: ﴿مَا هُوَ﴾ ثمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أيْ: باعتبار أنَّه قرآنٌ يقرأُ ، ولم يقل: من الكتاب ، ممَّا يدلُّ على أنَّ في قراءة القرآن أو سماعهِ استنزالاً للرَّحمة والشِّفاء.

ولهذا قال بعضهُم: إنَّ للقُرآن تجدُّد نُزولٍ ، بمعنى: أنَّ أنوارَهُ ورُوحانيَّته وسكينتهُ متجدِّدة النُّزول كلَّما قُرِئ.

فهوَ متجدِّد النُّزول بهذا المعنى ، لا من حيثُ الكلمُ والنَّصُّ.

ومن أدلَّتهم على ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ولمْ يقُل: وأنزلنَا من القرآن ، فكلَّما قرىء القرآنُ تنزلُ الرَّحمةُ والشِّفاء والنُّور والهدى ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وممَّا يدلُّ على أن للقرآن تنزُّلاً بأسرارِهِ وأنوارِهِ وسكينته عندَ قراءته ، ما جاء في الحديث الذي رواهُ البُخاريُّ[1] وغيرهُ ، عن البراء بنِ عازبٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رجلٌ يقرأُ سورة الكهف ، وإلى جانبه حصانٌ مربوطٌ بشطنين[2] ، فتغشَّتهُ سحابةٌ فجعلت تدنُو وتدنُو ، وجعَلَ فرسُهُ ينفِرُ؛ فلمَّا أصبحَ أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فذكرَ ذلك له ، فَقالَ: «تلكَ السَّكينةُ تنزَّلت بالقُرآن».

ومن ذلكَ قولُهُ صلى الله عليه وآله وسلَّم: «وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسُونه بينهم: إلا نزلَت عليهم السَّكينةُ ، وغشيتهم الرَّحمة ، وحفَّتهم الملائكةُ ، وذكرهُم الله فيمن عندهُ»[3] .

ومن هذا قولُ أبي يَزيد البسطاميِّ رضي الله تعالى عنه لمَّا سمع قارئاً يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قالَ أبو يَزيدَ رضي الله تعالى عنهُ: فأينَ مريدُ الله؟! .

فَقد قصدَ بذلك أهل زمانهِ ، لأنَّه لاحظ أنَّ هذه الآية لمَّا قرئتْ تنزَّل معناها ، فأخذ هذا الإنزالُ حكمه ، فكان الخطابُ لأهل زمانهِ.

---

(١) في كتاب فضائل القُرآن ، بابُ فضل سورة الكهف / ٥٠١١/ (٩/ ٥٧).
(٢) الشَّطن: الحبل الطَّويل تشدُّ به الدَّابة.
(٣) الحديث رواه مسلمٌ في كتاب الذِّكر والدُّعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذِّكر / ٢٦٩٩/ (٥/ ٢٦٠٠).

خامساً: لقد أخبر الله تعالى أنَّه ما مِنْ رسولٍ أرسلهُ إلى قوم إلا وأمرهُ أن يتلو عليهم آيات الله تعالى ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾[1] [القصص: ٥٩].

لأنَّه حينمَا يتلُو عليهم الآياتِ تتنزَّلُ أنوارُ هذه الآياتِ ورُوحانيَّتُها بواسطةِ ذلك الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلَّم، وتنعكسُ على القُلوب ، فأيُّ قلب تقبَّلها أضاء واستنارَ واهتدى إلى الله تعالى.

ولقدْ كان هذا سبباً في إسلام كثيرٍ من الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم ، وما ذاكَ إلا لأنَّ هذا القرآن الكريم كما وصفهُ الله تعالى بأنَّه بصائرُ تبصِّر القلوب والعقول وتنوِّرُها ، فيهتدي الإنسان إلى معرفَةِ حقائق الأمورِ.

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فمِن ذلكَ إسلامُ عثمانَ بنِ مظعونٍ رضي الله تعالى عنهُ.

فقد روى الإمامُ أحمدُ في (مسندِهِ)[2] عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: بينما رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بفناء بيته بمكَّة جالِسٌ ، إذ مرَّ به عثمانُ بن مظعونٍ ،

(١) قوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: عاصمةُ القرى؛ وهذه سنَّةُ الله تعالى في بعثة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام ، أن يبعثهم من المدن الحاضرة العامرة بالسُّكان ، وهي العاصمة ، وتسمَّى أُمّاً ، أي: قلب القرى ، فالقلبُ يأتي إلى القلب؛ ولمَّا كانت مكَّةُ أُمَّ القرى كلِّها ـ أي: عاصمة العواصم وقلب القِوالب ـ بُعث فيها قلب القلوب وإمامُ الرُّسل والأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) (٣١٨/١).

فتكشَّر[1] إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالَ له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا تجلسُ»؟ قال: بَلى.

قال: فجلس رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مستَقبلَهُ ، فبينَما هو يحدِّثهُ إذ شخص رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ببصرِه إلى السَّماء ، فنظر ساعةً إلى السَّماء فأخذ يضع بصرهُ حتَّى وضعهُ على يمينه في الأرض ، فتحرَّف رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم عن جليسه عُثمان إلى حيث وضع بصرهُ ، وأخذ ينفُضُ رأسهُ كأنَّه يستَفْقِهُ ما يُقالُ له ، وابنُ مظعونٍ ينظرُ ، فلمَّا قضى حاجتهُ واستَفقهَ ما يُقالُ لَهُ ، شخصَ بصَرُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم إلى السَّماء كما شخص أوَّل مرَّةٍ ، فاتبعه بصرهُ حتَّى توارى في السَّماء ، فأقبلَ إلى عثمان بجلْستِه الأولى.

قالَ: يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيمَ كنتُ أُجالسك وآتيك ما رأيتكَ تفعلُ كفعلك الغداة.

قال: «وما رأيتني فعلتُ»؟.

قال: رأيتُ تشخصُ ببصرك إلى السَّماء ، ثمَّ وضعته حيث وضعتهُ على يمينك ، فتحرَّفت إليه وتركتني ، فأخذت تنفُض رأسك كأنَّك تستَفقهُ شيئاً يقال لك.

قال: «وفَطنتَ لِذلك» ؟. قال عثمانُ: نعم.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتاني رسولُ الله آنفاً وأنتَ جالسٌ». قال: رسولُ الله؟!.

---

(١) الكشرُ: ظهورُ الأسنان للضَّحك.

قال: «نعم». قال: فما قالَ لك؟.

قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال عثمانُ: فذلِك حين استقرَّ الإيمانُ في قلبي، وأحببتُ مُحمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وهذا عَمرُو بنُ الجَمُوحِ رضي الله تعالى عنهُ أيضاً.

فقد أخرجَ أبُو نُعيمٍ في (الدَّلائِلِ)[1] عن رجُلٍ من بني سلمةَ قال: لمَّا أسلم فتيانُ بني سلمةَ، وأسلمَ ولدُ عمرو بنِ الجَموحِ، قالت امرأةُ عمرو لهُ: هل لكَ أن تسمعَ من ابنكَ ما روى عنهُ.

فقالَ: أخبِرني ما سَمِعتَ من كلامِ هذا الرَّجلِ[2].

فقرأَ عليهِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلَى قولهِ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

فقالَ: ما أحسنَ هذا وأجملَهُ، وكلُّ كلامِه مثلَ هذا؟!.

فقالَ: يا أبتَاهُ، وأحسن من هذا).

ثُمَّ أسلمَ رضي الله تعالى عنه وحَسُن إسلامهُ.

وكذلكَ إسلامُ سيِّدنا عُمر بن الخطَّاب رضيَ الله تعالى عنهُ.

فعنْ أنسٍ رضيَ الله تعالى عنهُ قال: خرجَ عُمر مُتقلِّداً بالسَّيفِ،

---

(١) انظر (الدُّرَّ المنثور) عند الكلام على سورة الفاتحة.

(٢) أي: سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم.

فَلَقِيَهُ رجلٌ من بني زُهرةَ[١] فقالَ لهُ: أينَ تغدُو يا عُمر؟.

قال: أُريدُ أن أقتُل محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قالَ: وكيفَ تأمنُ بني هاشمٍ وبني زُهرةَ؟.

فقال له عمرُ: ما أراكَ إلا قد صبأت وتركت دينَك!.

قالَ: أفلا أدُلُّك على العجبِ؟!، إنَّ أُختكَ وختَنكَ[٢] قد صبأا وتركا دينكَ[٣].

فمشَى عُمرُ ثائراً حتَّى أتاهُما، وعندَهُما خبَّابُ بنُ الأرتِّ رضيَ الله تعالى عنه[٤]، فلمَّا سمعَ خبَّابٌ بحس عمرَ[٥] توارى في البيتِ، فدخلَ عليهما فقال: ما هذهِ الهينَمَةُ[٦] التي سمعتُها عندَكُم؟.

وكانُوا يقرؤُونَ ﴿طه﴾[٧]، فقالا: ما عدا حدِيثاً تحدَّثنا به.

قال: فلعلَّكما قد صبأتُما.

فقَالَ لهُ ختَنه: يا عُمر، إنْ كان الحقُّ في غيرِ دينكَ؟!!.

فوثَب عمرُ على ختَنهِ فوطئهُ وطأً شَديداً، فجاءت أُختهُ لتدفَعهُ عنْ زوجها، فنفحَهَا نفحَةً بيَدِهِ فدمَى وجهُهَا.

---

(١) وذُكر في بعض الرِّوايات أنَّه نُعيمُ بنُ عبد الله النَّحَّامُ رضي الله تعالى عنهُ، وكان قد أسلم وهو يُخفي إسلامَهُ.

(٢) أي: أُختهُ فاطمة بنتُ الخطَّاب، وزوجُها سعيدُ بنُ زيد بنِ عُمَرَ رضيَ الله تعالى عنهما. والختنُ: هو زَوجُ الأُخت.

(٣) وقد أخبرهُ بذلكَ يُريدُ أن يصرفَ أذاه عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) وكانَ يقرئُهما القرآن الكريمَ.

(٥) أي: صوتِهِ.

(٦) الهينمَةُ: صَوتٌ وكلامٌ لا يُفهَمُ.

(٧) أي: سُورةَ طَهَ.

فقالَ عُمرُ: أعطُوني الكتابَ الذي هوَ عندَكُمْ فأقرأَهُ[1].

فقالتْ أختُهُ: إنَّك رجسٌ، وإنَّهُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، فَقُمْ فتوضَّأ[2]، فقامَ فتوضَّأ[3] ثُمَّ أخَذَ الكتاب، فقرأَ: ﴿طه﴾ حتَّى انتهَى إلَى ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

فَقال عُمرُ: دُلُّوني على مُحمَّدٍ[4] ـ صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ.

فلمَّا سمعَ خبَّابٌ قولَ عمرَ، خرجَ من البيت فقال: أبشرْ يا عُمرُ، فإنِّي أرجُو أن تكُونَ دعوَةُ رسُولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لك ليلةَ الخميس: «اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بعُمرَ بنِ الخطَّاب، أوْ بعمرو بنِ هِشام» فخرج رضيَ الله تعالى عنهُ حتَّى أتى رسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلمَ[5].

وفي روايةٍ أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم خصَّص عُمرَ بن الخطَّاب رضيَ الله تعالى عنهُ بالدُّعاءِ.

فقدَ روى ابنُ ماجه والحاكمُ[6] وغيرُهُما، عن السَّيِّدة عائشة

---

(١) وفي روايةٍ: أنَّه لمَّا رأى ما بأُخته من الدَّم ندم على ما صنع، فارعوى وطلب منها الصَّحيفة ليقرأ ما فيها.

(٢) وكانت قد طمعت رضي الله تعالى عنها بإسلامه.

(٣) وكفى بهذا دليلاً على حرمةِ مسِّ القُرآن الكريم بغيرِ وُضوءٍ.

(٤) أي: حتَّى يُسلمَ على يديهِ صلى الله عليه وآله وسلم، كما دلَّ على ذلك بعض الرِّوايات.

(٥) أي: فأعلن إسلامَهُ أمام رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال في (الدُّرِّ المنثور): أخرجهُ ابنُ سعدٍ، وأبُو يَعلى، والحاكمُ، والبيهقيُّ في (الدَّلائل) اهـ.

(٦) أخرجهُ ابنُ ماجه في المُقدِّمة، باب فضلِ عُمر رضي الله تعالى عنهُ /١٠٥/ (١/٣٩)، والحاكمُ في كتابِ معرفةِ الصَّحابة، باب ومنْ مناقب أميرِ المؤمنينَ =

رضي الله تعالى عنهَا قالت: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهمَّ أعزَّ الإسلامَ بعُمر بنِ الخطَّاب خاصَّة».

وفي رواية للحَاكم[1] عن ابنِ عُمر رضي الله تعالى عنهُما قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهمَّ أيِّد الدِّين بعُمر بنِ الخطَّاب».

ولا تَنافيَ في هذا، إذ إنّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم دعا أوَّلاً بإسلام أحبِّ الرَّجلينِ، ثُمَّ لمَّا أطلعَهُ الله تعالى أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنهُ سيُسلِمُ خصَّهُ بالدُّعاء.

قَالَ عُمرُ رضي الله تعالى عنهُ: فَأتيتُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في دارِ الصَّفا، فجلستُ بينَ يديه، فأخذ بمجمعِ قميصي ثُمَّ قال: «أسلِم يا بنَ الخطَّاب، اللَّهُمَّ اهْدِهِ».

قالَ: فقُلَتُ: أشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأشهدُ أنَّك رسُولُ الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قالَ: فكبَّر المسلمُونَ تكبيرةً سُمعتْ في طُرقِ مكَّة[2].

وَمن فوائدِ تلاوتهِ صلى الله عليه وآله وسلم لآياتِ الله تعالى:

التماسُ العبد ذكْرَهُ وَوَصْفَهُ فيه، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] أيْ: إنَّ الله

= عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنهُ (٣/ ٨٣).

(١) ذكرَها الحاكمُ في كتاب معرفةِ الصَّحابَة، باب ومنْ مناقبِ أميرِ المُؤمنينَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنهُ (٣/ ٨٣).

(٢) رواهُ أبو نُعيمٍ في (الحلية) (١/ ٤١) وانظُر شرحَ المواهبِ اللَّدُنيَّة للحافظ الزُّرقانيِّ عندَ الكلام على إسلام سيِّدنا عُمرَ رضي الله تعالى عنهُ.

تعالى ذكرَ في هذا القرآن الكريم أوصافكُم، وأوضاعكُم، ومراتِبكُم، وعواقِبَكُم، أفلا تتلُونهُ وتنظرونَ فيه وتتعقَّلونَ، حتَّى تنظُروا ذكرَ الله تعالى لكُم في هذا الكتاب؟!.

فلينظُر أحدُكم وليلتمِس ذكرهُ في القرآن الكريم، وفي أيِّ فرقةٍ ذكرهُ الله تعالى، أمع الفُجَّار أم مع الأبرار، أَمِنَ الصَّالحين، أم الأشرار، أمِنَ الصَّادقين، أم من المُنافقين؟.

فالغَنيُّ مثلاً ينظرُ: هل هو مذكُورٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] أيْ: لا يُؤدِّي زكاةَ مَالهِ؟.

أم هو مذكُورٌ في الآية: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

والمُصلِّي ينظُرُ: هل هوَ من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

والفقيرُ ينظرُ: هل في قلبهِ حسدٌ وحقدٌ على سيِّده الذي يعملُ أجيراً عندَهُ، فهوَ من الذين قال الله تعالى فيهمْ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

ومن كان ربَّ عملٍ ـ كمن كان عندهُ مَصنعٌ وعندهُ أُجراءُ ـ فلينظُر: هل هو من فرقة الظَّالمين الذين يُشدِّدون على الأجير، ويُنقصُهُم أُجُورهم، أو يمنعُهُم عن أداءِ الصَّلوات في وقتها رغبةً في زيادة الإنتاجِ وكثرة المالِ؟ فهوَ من الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩].

وكذلك الأجيرُ فهو مؤتَمنٌ على مالِ سيِّدِهِ ، فعليه بأداءِ ذلكَ ، وإلا فهو من الذين ذكرهُم الله تعالى بالخيانة.

فما من أحدٍ إلا وقد جاء ذكرهُ في القرآن الكريمِ ، فليَنظُر الإنسان في أخلاقه وعقيدته وملَّته ، وفي حقُوقه وواجبَاته، وليعرِف ذلكَ، وليجدْهُ في القرآن الكريم، وهذا لا يكُون إلا بتِلاوته.

وقد ذكر الحافظُ محمَّدُ بن نصر المروزيُّ في جزء (قيام اللَّيل) عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى ، أنَّه كان جالساً يوماً ، فعرضت له هذه الآية: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] فانتبَه.

فقال: عليَّ بالمُصحف لألتَمس ذكري اليومَ ، حتَّى أعلمَ مَنْ أنا ومن أُشْبِهِ - يعنِي: لمَّا علم أنَّ القُرآن قد ذكر جميع صفات البشرِ وبيَّن صفاتهم ومراتِبهم ، أراد أن يبحث عن نفسه في أيِّ الطَّبقات هوَ -.

فنشر المُصحف ، فمرَّ بقوم: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٩].

ومرَّ بقوم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

ومرَّ بقوم: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ومرَّ بقوم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ومرَّ بقوم: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٧ ـ ٣٨].

فوقفَ الأحنف ثمَّ قال: اللَّهمَّ لستُ أعرفُ نفسي ها هنا ـ يعني: لم يجد هذهِ الصِّفات في نفسه، حتَّى يعدَّ نفسهُ من هذهِ الطَّبقة ـ.

ثمَّ أخذ الأحنفُ السَّبيل الآخر، فمرَّ في المصحف بقوم: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦].

ومرَّ بقوم قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

ومرَّ بقوم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٧].

فوقفَ الأحنفُ ثمَّ قال: اللهمَّ إنِّي أبرأ إليك من هؤلاء!.

فما زال الأحنف يقلِّب ورق المصحف، ويلتمس في أيِّ الطَّبقات، حتَّى وقعَ على هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] فقال الأحنفُ: أنا من هؤلاء.

فانظر أيُّها المُسلمُ موضعَ نفسك من كتاب الله تعالى، وفي أيِّ

الطَّبقات أنت ، واحذر أن تكُونَ ممَّن تنطبقُ عليهم صفاتُ المنافقين أو الفاسقين ، عياذاً بالله العَظيم.

واعلم أنَّ من لم يَعْمَل ويتحقَّقْ بأمرٍ جاءَ في آيةٍ ، سواءٌ كان نهْياً أو أمراً ؛ فقد هجر هذه الآيةَ ، ويكُون من الذين ذكَرهمُ الله تعالى بقولهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾(١) [الفرقان: ٣٠].

ومن هذا أيضاً: فإنَّ المرأة التي لا تلتزمُ الحجابَ الشَّرعيَّ الذي جاء ذكرهُ في الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فقدْ هجرت هذه الآيةَ وارتكبت إثماً كبيراً.

ولبيان معنى ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ فانظر إلى ما فهمهُ ابنُ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما ، إذ قال(٢) لمَّا نزلت هذه الآية: (أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهنَّ في حاجة أن يُغطِّين وجوههنَّ من فوق رؤوسهِّن بالجلابيب(٣) ، ويُبدين عيناً واحدةً).

وجاء(٤) عن السَّيِّدة أُمِّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: (لمَّا

---

(١) وهجرُ القرآن الكريم على أنواعٍ: فمن النَّاس من هجر الإيمان به وهم الكُفَّارُ، ومنهم من هجَرَ العمل به أو العَمَل ببعضه وهمُ الفسقةُ والعصاة ؛ ويكفرُون إذا استحلُّوا ذلك ، ومنهم من هجر تلاوتهُ وخالفَ أمر الله تعالى بالأمر بتلاوته.

(٢) ذكرَهُ في (الدُّرِّ المنثور) عند الكلام على هذه الآية الكريمة ، وقال: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ا هـ.

(٣) أي: أن تُلقي بجلبابها على رأسها وسائر جسمها.

(٤) كما في (سنن) أبي داود ، كتاب اللباس ، باب في قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ /٤١٠١/ (٤/٣٥٧).

نزلت هذه الآيةُ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرجَ نساءُ الأنصار كأنَّ على رؤوسهنَّ الغربانُ؛ من أكسيةٍ سُودٍ يلبسْنَها).

ولينظرِ المؤمنُ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

أي: احفظ نفسكَ، واحفظ أهلك أيضاً، وهم زوجتك وأولادُك، بأن تأمرهم بما أمر الله تعالى، وتنهاهم عمَّا نهى الله تعالى، وإلا فهو قد هجر هذه الآية.

ومن هجر القُرآن الكريم بترك تلاوته، أو بترك العمل بما جاء به أو هجر آيةً منه، وقد اتَّخذ القرآن وراءهُ ظهريّاً، كان ممَّن توَّعدهمُ الله وهدَّدهم بقولهِ: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وقد ذمَّ الله تعالى اليهودَ الذين نبذوا القرآن ولم يعملوا به، بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

كما يَنبغي على المُؤمن أن يكون له في كلِّ يوم حصَّةٌ يتلو فيها من كتاب الله تعالى، لأنَّ هذا القرآن الكريم عهدٌ بين الله وبيننا، وفيه عهود الله تعالى وشرعُهُ إلينا.

ولِهذا كان الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم يعكُفُون على تلاوة هذا القرآن، ولابدَّ لكلِّ واحدٍ منهم أن يفتح المصحفَ كلَّ يومٍ ويقولَ: (عهدُ رَبِّي).

فعنِ ابنِ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: (كان عُمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه إذا دخل البيت نشر المصحف فقرأ فيه)[1].

وروى ابن الإمام أحمد في زوائده على كتاب (الزُّهـد) عن عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه قال: (ما أُحبُّ أن يأتي عليَّ يومٌ ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله تعالى)[2] يعني: القراءة في المصحف.

وعن عثمان رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: (إنِّي لأستحي من ربِّي تعالى أن يمرَّ عليَّ يومٌ لا أنظرُ في عهدِ ربِّي)[3].

وجاء في روايةٍ أخرى عنه رضي الله تعالى عنهُ أنَّهُ قال: (لو أنَّ قُلُوبنا طهرت ما شبعت من كلام ربِّنـا ، وإنِّي أكرهُ أن يأتي عليَّ يومٌ لا أنظرُ فيه في المُصحف)[4].

وما مات عثمانُ رضي الله تعالى عنه حتَّى خرقَ مصحفهُ من كثرة ما كان يُـديـمُ النَّظر فيه[5].

وهكذا كان أبُـو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهُ ، وكان يقُولُ: (إنِّي لأستحي أن لا أنظرُ كلَّ يومٍ في عهد ربِّي مرَّةً).

مرادهُ أن ينظر في المصحف أكثر من مرَّةٍ في اليومِ.

---

(١) رواه ابن أبي داود وهو في (المنهاج في شعب الإيمان) (٢/ ٢٣٣).
(٢) (الزهد) ص / ١٨٨ .
(٣) رواه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٠٩).
(٤) كما في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٠٩).
(٥) كما في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٠٩).

ورَوَى البيهقيُّ بسند حسنٍ ، عن ابنِ مسعُودٍ رضيَ الله تعالى عنهُ أنَّهُ قالَ: (أديموا النَّظر في المُصحف)[1].

وكان عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله تعالى عنْهُما ، كان يأخذ المصحف كلَّ غداةٍ ويُقبِّله ويقولُ: (عهدُ ربِّي ، ومنشورُ ربِّي عزَّ وجلَّ)[2].

وكان تميمٌ الدَّاريُّ رضي الله تعالى عنهُ كلَّما أصبحَ فتح المُصحف وقبَّله ، وقال: (هذا عهدُ الله إلينا) ، وكان يقولُ: (أرأيْتم لو أنَّ عاملاً[3] أرسل إليه الخليفة الأوامر ، ألا يجب عليه أن يفتح هذه الأوامر ويُطبقها)؟!.

ونقلِ الحليميُّ في (شعب الإيمان)[4] عن يُونس بنِ عُبيد رحمه الله تعالى أنَّهُ قال: (كان خُلُقاً للأوَّلين النَّظر في المصحف).

واعلم أنَّ النَّظر في المصحف عبادةٌ ، فينبغي على المؤمن أن يقرأ بالمصحف وإن كان حافظاً للقرآن.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ[5]، عن أوس بن أوسٍ رضي الله تعالى عنهُ ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «قِراءة الرَّجل في غير المُصحفِ ألفُ درجةٍ ،

---

(١) (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨).
(٢) نقل هذا في: (الدُّر المختار).
(٣) أي: والياً.
(٤) (٢/٢٣٣).
(٥) الطبراني (مجمع الزوائد) (٧/١٦٥) ، البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨).

وقراءته في المُصحفِ تُضعَّف على ذلك إلى ألفي درجةٍ»[١].

وعنِ ابن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنهُ مرفُوعاً: «من سَرَّه أن يُحبَّ الله ورَسولهُ فليقرأ في المُصحف»[٢].

وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ أن يُنشر هذا المصحف الذي فيه كلامه وعهدهُ.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «أفضلُ عبادة أمَّتي القراءةُ نظراً»[٣] أي: نظراً في المُصحف.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعطوا أعينُكم حظَّها من العبادة».

قالُوا: يا رسول الله وما حظُّها منها؟!!

قالَ: «النَّظر في المُصحف، والتَّفكُّر فيه، والاعتبارُ عند عجائبِه»[٤].

ففي فتح المصاحفِ ونشرها والقراءة فيها استنزالٌ لرحمة الله تعالى، وخيرِه وبركاتِه وأنوارِه سبحانهُ وتعالى.

* * *

---

(١) أي: لابدَّ لحافظ كتاب الله تعالى أن يكون له حصَّة يقرأ فيها بالمصحف لينال الأجر والفضيلة.

(٢) رواه أبو نعيم، والبيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨).

(٣) رواه الحكيم التِّرمذيُّ عن عبادة بن الصَّامت رضي الله تعالى عنه، كما في (فيض القدير).

(٤) رواه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨)، والحكيم التِّرمذيُّ في (نوادر الأصول) الأصل الثالث والخمسون والمائتان.

سلطان الوحي الإلٓهيِّ وعظمتهُ
تنزُّلاتُ القرآن الكريمِ على القُلوبِ

الخُشوعُ وآثــارهُ:

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ١ ـ ٥].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿حمٓ﴾ تعني: الله.

﴿عٓسٓقٓ﴾ تعني: العليم السَّميع القديرُ.

أي: أنَّ الله السَّميع العليم القدير، أنزل عليك الوحي كما أنزل على من قبلك يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي: يتشقَّقن من أجل الأمر الوارد عليهنَّ من فوقهنَّ من عالم العرش، وهذا الوارد عليها هو الوحي الإلٓهيُّ التَّشريعيُّ أو التَّكوينيُّ، ومن جملةِ ذلك: الوحي القرآنيُّ.

قولهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي: تتشقَّقُ حينما ينزل عليها من الكلام الإلٓهي، وهذا لعظمة هذا الوارد عليها وقوَّته،

كمَا قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ويدلُّ على هذا ما جاء في الحديث، عن النَّوَّاس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أراد الله أن يوحي بأمرٍ تكلَّم بالوحي، فإذا تكلَّم بالوحي أخذت السَّماءَ رجفةٌ شديدةٌ من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السَّماوات صُعقُوا وخرُّوا سُجَّداً، فيكونُ أوَّل من يرفعُ رأسهُ جبريلُ عليه السَّلام، فيُكلِّمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه السَّلام على الملائكة عليهم السَّلام، كلَّما مرَّ بسماءٍ سماءً سألهُ ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟.

فيقول: قال الحقَّ وهو العلي الكبير.

فيقولونَ كلُّهم مثل ما قال جبريل عليه السَّلام؛ فينتهي جبريل عليه السَّلام بالوحي حيثُ أمرهُ الله من السَّماء والأرض»[(١)].

أي: فينفُذُ هذا الأمرُ في السَّماء أو الأرض على حسب ما أراد الله تعالى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ومعنى ﴿فُزِّعَ﴾: زال الفزعُ، وهكذا فالسَّماواتُ ترتعدُ وترتجفُ حينما يردُ عليها الوحي الإلٰهيُّ.

---

(١) قال في (الدر المنثور): رواه ابن جرير، وابنُ خزيمة، وابن أبي حاتم، والطَّبرانيُّ (مجمع الزوائد) (٧/ ٩٤)، وأبو الشَّيخ في (العظمة)، وابن مردويه، والبيهقيُّ في (الأسماء والصِّفات) اهـ.

وقد روى مسلمٌ في (صحيحه) ، وأحمد في (مسنده)[1] ـ واللَّفظُ لهُ ـ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً في نفرٍ من أصحابه ـ قال عبدُ الرَّزَّاق: من الأنصارِ ـ فرمي بنجمٍ عظيمٍ فاستنارَ.

قال صلى الله عليه وآله وسلَّم: «ما كنتم تقولونَ إذا كان مثل هذا في الجاهليَّة»؟.

قال: كُنَّا نقول يولدُ عظيمٌ أو يموت عظيمٌ.

ـ قلت للزُّهريِّ: أكان يُرمى بها في الجاهليَّة؟. قال: نعم، ولكن غلِّظت حين بُعث النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنَّه لا يُرمىٰ بِها لموت أحد ولا لحياته، ولكنَّ ربَّنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً، سبَّح حملة العرش، ثمَّ سبَّح أهل السَّماء الَّذين يلونهم، حتَّى يبلغ التَّسبيح هذه السَّماء الدُّنيا، ثمَّ يستخبر أهلُ السَّماء الَّذين يلون حملة العرش، فيقول الَّذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربُّكم؟ فيُخبِرونهم:

ويخبر أهلُ كلِّ سماء سماءً، حتَّى ينتهي الخبر إلى هذه السَّماء، ويخطف الجنُّ السَّمع فيُرْمون[2]، فما جاؤوا به على وجهه فهو حقٌّ، ولكنَّهم يقذفون ويزيدون».

فقد أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ الملائكة يُصعقون عندما

---

(١) أخرجهُ مسلمٌ في كتاب السَّلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهَّان/ ٢٢٢٩/ (٤/ ٢٢٦٥)، وأحمدُ في (المسند) (١/ ٢١٨).

(٢) أي: بالشُّهب.

يَرِدُ عليهم الوحي الإلَهيُّ ويُغشى عليهم، وأخبر في حديث آخر أنَّهم يُسَبِّحون، والتَّوفيق بينهما أنَّهم يسبحون بعد ما يزول عنهم الفزع والغشية.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥] لأي شيء؟! لِنزول الوحي الإلَهي القرآني وغيره.

وهذا دليل عظمة القرآن الكريم وسلطانه، حتَّى أنَّ السماوات تكاد أن تتشقَّق، وفي هذا بيان للإنسان وموعظةٌ له، إذ إنَّ السماوات تكادُ أن تتشقَّق. فما بالك أنت معرضٌ عن القرآن؟!!.

ولهذا كان كثيرٌ من الصَّحابة والتَّابعين رضوان الله تعالى عليهم يُصعقون عندما يقرؤون القرآن الكريم.

فلقد جاء أنَّ عمر رضي الله تعالى عنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ ـ ٨] فأُغمي عليه، فحملوه إلى بيته ثمَّ أفاق وهو مريض الجسم، حتَّى عادهُ بعضُ الصَّحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم.

ونُقل عن الإمام الشَّافعي رضي الله تعالى عنهُ أنَّهُ سمع قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] فأُغمي عليه.

وقال الإمامُ الجُنيدُ رضي الله تعالى عنه: دخلتُ على خالي سري السَّقطيِّ رضي الله تعالى عنه، فرأيتُ عنده رجلاً مغميَّ عليه، فقلت: ما لهذا؟.

فقال: تَلَيْتُ عليه آيةً فأُغمي عليه.

فقال الجُنيدُ: اقرأها عليه ثانيةً. فقرأها عليه ثانيةً فأفاق.

فقال السَّريُ للجُنيد رضي الله تعالى عنهما: ومن أين لك هذا؟.

قال: ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى عن يَعقُوب عليه الصَّلاة والسَّلام، فلقد كُفَّ بصرهُ لأجلِ يُوسُف عليه الصَّلاة والسَّلام، فلمَّا جاءته البشارةُ من المخلُوق بيُوسفَ عاد بصرهُ إليهِ، فيُوسفُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام هوَ سببُ الدَّاء وهو سبب الدَّواء.

فكان فراقهُ داءً، ولقاؤُهُ دواءً.

فكان كثيرٌ منهم رضي الله تعالى عنهم تتنزَّل عليهم المعاني القُرآنية بقوَّة فلا يتحمَّلوْنها فيصعقون، لأنَّ القرآن له تنزُّلٌ روحانيٌّ أثناء قراءته أو سماعه.

ومن هنا قال عروةُ بن الزُّبير رضي الله تعالى عنه[1]: دَخَلْتُ على عائشة رضي الله تعالى عنها في أوَّل النَّهار، فرأيتها قائمةً تصلِّي وهي تقرأ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ١٧] وجعلتْ تكرِّرها وتدمع عيناها، فذهبتُ إلى السُّوق وقضيت حاجةً لي، ثمَّ رجعت بعدما ارتفع النَّهار فإذا هي قائمةٌ تُصلِّي وتقرأ الآية نفسها.

فانظر هنا!!

فلو أنَّها في تكرارها للآية ترى المعنى واحداً لما كرَّرتها ولملَّت، ولكنَّها كلَّما كرَّرتها وجدت معنى آخر، ونزلت روحانيَّة القرآن على قلبها، وراحت تبكي أثناء تلاوتها.

وهذا من شأن الكمَّل أن يبكوا إذا قرؤوا القرآن أو سمعوه.

فلما سمع عليه الصَّلاة والسَّلام القرآن من ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: «حسبك الآن».

---

(١) والسَّيِّدةُ عائشةُ رضي الله تعالى عنها خالتُه، وأمُّه السَّيدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنهما.

قال ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه: فإذا عيناهُ تذرفان ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فبيَّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة قوَّة أثر القرآن الكريم بأنَّه روحٌ، ومن شأن الرُّوح أن تعطي الحياة.

وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أيْ: بالقُرآن ومعانيه، فإذا نزل الرُّوح القرآنيُّ على القلب صار هذا القلب حيّاً حياة الأبد.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

وَقَد أنزل الله تعالى هذه الآية لمَّا استبطأ القلوب الخاشعة، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين[1].

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ /٣٠٢٧/ (٥/٢٨٢٧).

وفي هذه الآية الحثُّ والتَّحريض على الخشوعِ ، كما أنَّ فيها التَّهديد والتَّحذير من قسوةِ القلبِ وعدم خشُوعه.

قولهُ تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: ألم يقترب زمنُ خشوعِ قلوبِ المؤمنين لله تعالى.

قولُه تعالى: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: القُرآنِ الكريم.

كمَا قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقال سُبحانه: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قولهُ تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهي بياناتُ القرآن الكريم التي جاءت على لسان سيِّد الأنام صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وهو الحديث الشَّريف.

وقال بعضهم: إنَّ المُراد من ذكرِ الله في الآيةِ: هو القُرآنُ والحديثُ الشَّريفُ ، أمَّا قولهُ تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: من معارفِ وأسرارِ هذا القرآن النَّازلة على القُلوب ، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

فلمَّا سَمعُوا القُرآن الكريم تنزَّلت روحانيَّتهُ على قُلوبِهم ، وتنزَّلَتْ معارفه وأنواره على قلوبهم؛ فخشعت قلوبهم لله تعالى ، وظهر أثرُ ذلك الخشوع بفيض الدَّمع من أعيُنِهم.

واعلم أنَّ القرآن الكريم نزل بروحه ولفظه وجوهره ومعانيه على قلب سيِّد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن بعد ذلك له

تنزُّلاتٌ روحيَّة بالمعاني على القلوب حين تلاوته أو سماعه.

قولهُ تعالى ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد: ١٦] أي: لا يليقُ بهذه الأمَّة المحمَّديَّة ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يكُونُوا كالأمم السَّابقة في قساوة قلوبهم.

ثمَّ بيَّن سبحانه السَّبب الذي قست به قلوب الأمم السَّابقة، وهو طول الأمل، فقال: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأنَّ طول الأمل والانشغال في الدُّنيا يجعل القلب في غفلة عن الله تعالى؛ فيقسو القلب.

وقد يتساءل الإنسان هنا: ما السَّبب الذي يحمل القلب على الخُشوع؟.

فالجواب: إنّ الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم منبِّهاً لك على الاستعانة به، وطلب الرَّحمة والفضل منهُ، بأن يمنَّ عليك بهذا، أي: بأن يُنزلَ على قلبك روحَ القرآن وسلطانه فيخشع القلبُ، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

فالمراد من الأرض هنا أرضُ القلوب، لأنَّ الأرض التُّرابيَّة وإحياء الله تعالى لها بماء المطر؛ أمرٌ معقولٌ مشهودٌ لدى كل إنسانٍ، فما وجه التَّعقل في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إذاً؟.

نعم إذا أردتَ أن يحيا قلبك بروح القرآن؛ ويخشع لذلك؛ فعليكَ أن تسترحم الله وتطلب منه هذا الفضل: أن يُنزل هذا الرُّوح القرآنيَّ على قلبك ليخشع لذكر الله.

فاعرض قلبكَ القاسيَ الميّت على ربِّ العزَّة جلَّ وعلا ، ليُحييه ويرحمهُ.

كما أنَّ هذه الأرض لمَّا ماتت وجفَّت ، وتشقَّقت وتصدَّعت ، عرضت نفسها على ربِّها خاشعةً منكسرةً إليه؛ فرحمها الله تعالى وأنزلَ عليها المطر وأحياها ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وفي هذا دليلٌ على الخشوع ، وهو انكسار القلب لله تعالى ، وليس فقط حضورهُ مع الله ، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩].

وخُشوعُ الأرض بتصدُّعها وتشقُّقها ، وكذلك انكسارُ القلب يظهر أثرهُ على الجوارح من بكاءٍ ونحوه.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فأثرُ الخشوعِ في الجبلِ: التَّصدُّع والتَّشقُّق.

وأثر خشوعِ القلب: أن يظهر على الجوارح ، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلامَ عندما رأى رجلاً يعبثُ بلحيتهِ في الصَّلاة: «لو خشع قلبهُ لخشعت جوارِحهُ»(١).

أي: يظهرُ أثر خشُوعه على جوارحه بأن يقف في صلاته بأدبٍ

---

(١) رواهُ الحكيمُ التِّرمذيُّ في (نوادر الأصولِ) الأصل الخامس والأربعون والمائتان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهُ ، ولعل الأرجح أنه من كلام سيدنا سعيد بن المسيب ، انظر سنن البيهقي (٢/ ٢٨٥).

وسكينةٍ ووقار بين يدي ربِّه الكبير المتعال.

وكما أنَّ للأرض ربيعاً عندما يحييها المطرُ، فإنَّ للقلب ربيعاً عندما تنزلُ روحُ القرآن ومعارفه عليه، وهذا كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام في دُعائه: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي»[1].

وفي هذا قال مالكُ بنُ دينارٍ رضي الله تعالى عنه: يا أهل القرآنِ، أينَ ربيعُ القرآن؟ ماذا زرع ربيعُ القرآن في قلوبكم؟

فإن للقرآن ربيعاً كما أنَّ للغيث ربيعاً.

وربيعُ القرآن: بأن يثمر الطَّاعات، والقربات، والنَّفحات الزَّكية.

ونسأل الله التَّوفيق، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

* * *

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمدُ في (المسند) (١/ ٣٩١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أصاب أحداً قطّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللَّهمَّ إنِّي عبدُك، ابنُ عبدكَ، ابنُ أمتكَ، ناصيتي بيدكَ، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي؛ إلا أذهب الله همَّهُ وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً».
قال: فقيلَ: يا رسول الله، ألا نتعلَّمُها؟.
فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلَّمها».
وعزاه في (الترغيب) إلى البزار وأبي يعلى (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٨٦)، وابن حبان في (صحيحه) / ٩٦٨/ (٢/ ١٥٩).

المحاضرة الثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ ، وأَفضَلُ الصَّلاةِ وأكْمَلُ التَّسْليمِ ، على سيِّدنَا محَمَّد وعَلَى آلِهِ وصَحْبِه أجْمَعينَ ، سُبحانَكَ لا عِلمَ لَنا إلا ما عَلَّمْتَنا إنَّك أَنْتَ العَلِيمُ الحكيمُ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أمَّا بعدُ:

فقد تقدَّم الكلامُ على قَول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فقد امْتنَّ الله تَعالى عَلى عِبادِه ببعثَةِ النَّبِيِّ الأكْرَم صَلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ، وبيَّن الحِكمةَ في إرسالِه عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذَلِكَ أنَّ الله تعالى بَعَثَهُ إلى العَالمِ ولَهُ مَعَهُم مَواقِف؛ تتوَقَّفُ عليهَا سَعَادَتُهمْ فِي الدُّنْيا والآخِرةِ.

ومِن جُمْلةِ مواقِفهِ صَلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: هَذِه المَواقِفُ الأَرْبعَةُ المَذْكُورةُ في الآية المُتقدِّمَةِ؛ ومِنْها: أَنَّهُ صَلَّى الله عليْهِ وآلهِ وسلَّمَ جَاءَ يتلُو على النَّاسِ آيَاتِ الله تعالى، ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحِكْمَة.

وقَد تقَدَّمَ مَعَنا بَعْضُ الكلام علَى مَعْنَى الآياتِ الشَّرْعيَّة المتلُوةِ، ومَعْنَى الآياتِ الكَوْنيَّة المشهُوْدةِ، وعَلى الحِكمَةِ مِن تلاوَتِه صَلَّى الله علَيْه وآله وسلِّم لآياتِ اللهَ تعالى، وأَثَرِ ذَلِكَ في قُلُوبِ السَّامِعيْنَ، إِذْ إِنَّ لِلقُرْآنِ الكَريمِ رُوْحَاً تَسْرِي في قَلْبِ السَّامِعِ، فإِنْ هُوَ أَصْغَى واستَجَابَ انْشَرَح صَدْرُهُ وآمَن قَلْبُهُ، وإِن هُو أَعْرَض واسْتكبَرَ فَقَد دَخلَ رُوحُ الإيمَانِ قَلْبَهُ وَخَرَج، لأَنَّهُ لم يَجِد مِن صاحِبِه قابِليَّةً، كَمَا يدخُلُ السِّلكُ فِي الخَرزَاتِ ويَخْرُجُ مِنْها.

وسنُتمِّمُ البَحث إِن شاءَ الله تعالى على الحِكَم والفَوائِد مِن تلاوَتِه صَلَّى الله عليه وآلهِ وسَلَّمَ لآيَاتِ الله تعالى، ثمَّ نأتِي عَلى بَعْض الكَلام حَولَ موقِفه صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّم فِيْ تَعْلِيمِ النَّاسِ الكِتَّابَ والحِكْمَةَ.

* * *

الحِكَمُ والفوَائِدُ المُتَرتِّبَة عَلَى تلاوَتِه صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ لآيَاتِ الله تَعالى

إنَّ الحِكَمَ والفَوائِدَ المُترَتِّبَة على تِلاوَتِهِ صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ لآيَاتِ الله تَعالى تتلَخَّصُ فِيمَا يَلِي:

أَوَّلاً: حتَّى يُبَيِّن للعَالَم أَنَّهُ رَسُولُ الله حَقّاً صَلَّى الله علَيْه وآلِهِ وسلَّمَ، وذَلِكَ لأَنَّهُ صَلَّى علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ نَشأَ أُمِّيّاً لَمْ يَتعلَّم القِرَاءةَ ولا الكِتَابةَ مِن مُعلِّمٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أنزلَ الله علَيْهِ هَذَا القُرْآنَ، الذِي ذَكَرَ الله تعالى فيهِ العُلومَ والعوَالِمَ كُلَّها، وعلَّم سُبحَانَهُ وتعالى رَسُوْلَه صلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ تلاوَةَ هذَا القُرآنِ الكَريمِ، وإِذَا بِهِ يَقْرؤُه على النَّاسِ.

فلْيتأمَّلِ العَاقِلُ في هذا!!.

فمِنْ أَينَ له صَلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ هذهِ العلوْمَ؟ وكيْفَ جاءَ بهذَا القُرآنِ؟ وكَيْفَ عَرَفَ أن يتْلُوَ هَذا القُرْآنَ في حَيْنِ أَنَّهُ صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ نَشَأَ أُمِّيّاً؟!.

ومِنْ هُنَّا يَعْلَمُ العَاقِلُ عِلْماً يقينيّاً جازِماً، أنَّ سيِّدنا مُحَمَّداً صَلى الله علَيْه وآلِهِ وسلَّمَ هوَ رَسُولُ الله حقّاً صلى الله علَيْه وآلِهِ وسلَّمَ،

وأنَّ هذَا القُرآنَ هوَ كلامُ الله تعالى ، أنزلَهُ على رسُولِه صلَّى الله علَيْه وآله وسلَّمَ.

وفِي هذا يَقُولُ سُبْحانهُ وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: ما كنت تقرأ كتباً ولا تكتب ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩] أيْ: ما هذَا القُرْآنُ إلا كلامَ الله تعالى، أنزَلهُ على قَلْبِ النَّبيِّ صَلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ ، وجمعَهُ له فِيْ صَدْرِه، وَعن قلبِهِ صَلَّى الله عليْهِ وآلِهِ وسلَّم أخَذَت وتأْخُذُ القُلوبُ إلى يومِ القِيَامةِ.

فمن فكَّر وتأمَّلَ في أَمرِ هَذا الرَّسُول صَلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَلِم عِلمَ يَقِين أنَّ هذَا القُرآنَ ليْسَ مِن تِلْقَاء رَسُولِ الله صَلَّى الله عليهِ وآله وسلَّمَ ، أو مِنْ عِنْديَّاتِهِ؛ فقَد لَبِثَ صَلَّى الله عليهِ وآله وسلَّمَ أربَعِينَ سَنَةً ولم يأتِهِم بآيَةٍ واحِدَةٍ ، ثُمَّ عَلى تَمَامِ الأَرْبعينِ إذا به يَقْرأُ عليهِمُ القرآنَ بأُسلُوبٍ خاصٍّ ، وعلى وجهٍ مُعجزٍ.

وفي هذا يَقُولُ سُبحانهُ وتعالى: ﴿قُل﴾ أيْ: قُل لهم يا رَسُولَ الله: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

أيْ: لبثتُ فيكُم أربَعينَ سنةً ولم آتِكم بآيَةٍ ولا سُورَةٍ ، ولا عِنديْ عِلمٌ بذَلِك ، ثُمَّ بَعد تَمَام الأربعينَ جئتُكُم بهذا القُرآنِ الذي فيهِ علمُ الأوَّلِينَ والآخرينَ ، والَذِي أعجَزَ الخَلائِقَ بوُجُوهٍ من الإعجَازِ ، فَهُوَ مُعجزٌ من حيثُ نصُّه وتلاوَتُهُ ، وَهُو معجزٌ من حيثُ

معانِيهِ وإخبَارَاتُهُ ، وهوَ مُعجِزٌ من حَيثُ أسرَارُهُ وأنْوارهُ ورُوْحُهُ وهكذا.

كما أنَّ القُرآنَ الكريمَ هُوَ حُجَّةُ الله تعالى على خَلقِه كلِّهِم بِمُختلفِ طَبقاتِهِم وأصنافِهِم ، لأنَّ هذا القُرآنَ نَزَلَ على صاحبِ الرِّسالةِ العامَّةِ ، المُرسلِ لجميعِ طَبقاتِ البَشرِ ، وهوَ سيِّدُنا مُحمَّد صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ.

فالقُرآنُ الكريمُ حجَّةٌ على جميعِ خلقِ الله تعالى ، لكنْ لِمَنْ تَعقَّلَ وتبصَّر.

ولذلك خاطبَ الله سُبحانه وتعالى أُولي الأَلْباب والعُقولِ والأبصار: بالتَّبصُّر والتَّفكُّر والتَّأمُّلِ.

فمن تعقَّل عقلَ ، ومن تَفَهَّم فهمَ ، ومن بَحَث فيهِ وجَد الدَّليلَ ، ومن نظرَ فيه قامَت عليهِ الحجَّةُ.

ثانياً: لقَد أنزلَ الله تعالى القُرآن الكريمَ وله حقائِق قُرآنيةٌ ، ومِن جُملَتها: أنَّه جاءَ بالرُّوح ، وإنَّ في تلاوتِه صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لآيَات الله تعالى إيصَالاً للرُّوحِ القُرآنيِّ إلى القُلوب ، وفي هذا يقُولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فوصفَ الله تعالى القُرآنَ بأنَّه روحٌ ، ومن المعلُوم أنَّ الرَّوح سببُ الحياةِ ، ولمَّا كانتِ الحياةُ أنواعاً كانت الرُّوحُ أنواعاً ، فهناكَ الرُّوحُ الإنسانيُّ الذي به يحيا جسمُ الإنسانِ.

ولمَّا كان القرآنُ روحاً فهو يحيي الأرواحَ الإنسانيَّة والقلوبَ.

فالرُّوح الإنساني إنَّما تحيا بالرُّوح القرآنيِّ الذي جاءَ به سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أمرَ الله تعالى نبيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم أن يوجِّه هذا الرُّوح القُرآنيَّ على قلوبِ العالمِ ، فأي قلبٍ مستعدٍّ للحياةِ تقبَّل هذه الرُّوح ، وسرت إليه ، ودبَّت فيه حياةُ الإيمانِ ، وعرف الله تعالى؛ وأمَّا القلبُ المعرضُ الجاحدُ فيمرُّ عليه الرُّوحُ القرآنيُّ؛ ولكنَّه لا ينتفعُ به.

وفي هذا يظهرُ لكَ وجهٌ من وجوهِ الحكمةِ في تلاوتِه صلى الله عليه وآله وسلم لآياتِ الله تعالى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٣].

والمعنى: قل لهم يا رسولَ الله: أمرني الله تعالى أن أتلُو القرآنَ عليكم؛ وذلك حتَّى تسري روحُ القرآنِ إلى قلوبهم، وبعدَ سريان هذه الرُّوح إلى القلوب ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي: بعدما سرى روح القرآن إلى قلبه، إلا أنه أبى وأعرض ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل: ٩٢] أي: لقد بلَّغت وأنذرتُ، وأقمتُ الحجَّة، وما لكم حجَّة عندَ الله تعالى.

وقد بيَّن سبحانه وتعالي أثرَ سريانِ الرُّوح القرآنيِّ إلى القلوبِ بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي: أن أعظم روح ملكيٍّ، وهو جبريل عليه السلام، نزل بأعظم روح أمريٍّ ربَّانيٍّ، وهو القرآن الكريمُ، على أعظم روح إنسانيٍّ، وهو سيِّدُ الأنامِ صلَّى الله عليهِ وآله وسلَّم: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٦] أي: أن هذا القرآن محدَّثٌ ومخبَرٌ عنه في التَّوراة والإنجيلِ.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: أنَّ الدَّليل على صدقك يا رسول الله وحقِّية هذا القرآن، أنَّ علماء بني إسرائيل وأحبارهُم يعلمونَ ذلك حقّاً، لأنَّه مبشَّر به في التَّوارة والإنجيل؛ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ أيْ: باللُّغة الأعجميَّةِ ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: أدخلنا هذا القرآنَ في قلوبِ المجرمين حتَّى يؤمنوا به، وإذا بهم يُعرضون ولا يؤمنونَ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧ ـ ٢٠١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ أي: القرآنُ ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر: ٩ ـ ١٣] أي: هذه عادةُ مَنْ قبلهم من الأمم، فكانَ كلامُ الله تعالى يسري إلى قلوبهم لمَّا يسمعونَه من أنبيائهم؛ إلا أنَّهم يُعرضون عنهُ كبراً وعناداً.

ثمَّ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥].

وإن مناسبةَ هذه الآية لما قبلها هي: إعراضُ الكفَّار وتكبُّرهم عن الإيمان بعد سريانِ الرُّوح القرآنيِّ إلى قلوبهم وتذوُّقهم حلاوتَه.

ونظيرُ هذا: لو أنَّ الله تعالى فتح لهم باباً من السَّماء وجعلوا

يصعدون إليْه ، ويدخلونَ في السَّماء ، ويرونَ من عجائبها ، وما فيها من ملائكَة؛ لأنكَروا ذلك ولقالُوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: أنَّنا لا نرى شيئاً ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] أي: أصابَنا السِّحر ، وهذا من كبرِهم وإعراضهم وعنادِهم.

وكذلِكَ فإنَّ الحقَّ يتراءى لهم بنور القرآن الكريم ، إلا أنَّهم يكفرون ويُعرضون ، كما أنَّهم يعرضون ويكفرون لو كشف الله لهم عن أُمورٍ غيبيَّة ورأوها بأبصارِهم.

ولذلك كان النَّاسُ في زمَنِ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، منهم من يسمع القرآن فيسري روح القرآن إلى قلبه؛ فيُذعن ويؤمِنُ ومنْهم من يعرفُ الحقَّ لكنهُ لا يعترفُ به كبراً وعناداً.

ومن جملتهم: أبو جهل وجماعته ، لمَّا سمعوا القرآن من النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ورقَّت قلوبهم ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا إلى سماعهِ ، إلى أن قالَ أبُو جهلٍ: تنازَعنا نحنُ وبنُو عبدِ منافٍ الشَّرف ـ أي: صار كلٌّ منَّا يُنافسُ الآخرَ ويتعالى عليه بالشَّرف ـ أطعموا فأطعمنا ، وحملُوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتَّى إذا تجاثَيْنا على الرُّكب، وكُنَّا كَفَرسي رهانٍ قالُوا ـ أي: بنو عبدِ منافٍ ـ: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السَّماء.

فقالَ أبو جهلٍ: فمتى ندركُ مثلَ هذهِ؟ ـ أي: فمن أينَ نأتي بنبيٍّ حتَّى ندركهم في هذه الفضيلة ونتساوى معهم؟ ـ والله لا نؤمن أبداً ولا نصدِّقه ـ أي: وإن كان نبيَّاً حقَّاً ، حتَّى لا تفتخر عليهم بنُو عبد منافٍ ـ أيْ: وهذا سببُ كُفره وعنادِه ، فقد عرفَ الحقَّ وجحدهُ[1].

---

(١) ونص الواقعة كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام ، عن الإمام محمد بن إسحاق=

= قال: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حُدِّثَ: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطَّريق ـ أي: حين عادوا إلى بيوتهم ـ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا ـ أي: إلى بيوتهم ـ حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كلٌّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتُوا يستمعون له صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: لأنَّ روح القرآن جذَبت قلوبهم، فأرغمهم أن يعودوا ويستمعوا؛ لما ذاقوا من الحلاوة ـ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطَّريق، فقال بعضهم لبعض مثلَ ما قالوا أوَّل مرَّة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلٌّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطَّريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا، فلمَّا أصبح .. الأخنسُ بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفتَ به كذلك ـ أي: مثلك ـ قال: ثمَّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: ماذا سمعت!! ـ أي: سمعتُ كلاماً عظيماً حكيماً ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام ربِّ البشر، نازلٌ على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن هناك المانعُ التَّعصبيُّ الجاهلي الذي يحولُ دون الاعتراف بذلك، والإذعان إلى ذلك ـ ثمَّ بيَّن أبو جهل ذلك فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرف ـ أي: صار كلٌّ منَّا يُنافس الآخَر ويتعالى عليه بالشَّرف ـ أطعموا ـ أي: بنو عبد مُناف ـ فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب، وكنَّا كفرسي رهان ـ أي: متساوين في المفاخر ـ قالوا ـ أي: بنو عبد مناف ـ: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السَّماء ـ أي: نحن نفخر ونعلو =

ومن هؤلاءِ الذين سرى روحُ القرآن إلى قلوبهم ؛ إلا أنَّهم أعرضوا وجحدوا: عتبةُ بن ربيعة ، وكان يُلقَّب أبَا الوليدِ.

فقد روى الحافظُ ابنُ كثير[١] عن الإمام محمَّد بن إسحاق ، بإسنَاده عن محمِّد بن كعب القُرظيِّ قال: حُدِّثت أنَّ عتبة بن ربيعة وكان سيِّداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قُريشٍ ـ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جَالسٌ في المسجد وَحْدهُ ـ: يا معشَر قُريشٍ ، ألا أقومُ إلى محمَّد فأكلِّمَه وأعرض عليه أموراً لعلَّه أن يقبلَ بعضها ، فنعطيه أَيَّهَا شاء ويكفَّ عنَّا؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله تعالى عنه ، ورأَوْا أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم يزيدون ويكثرونَ ـ فقالوا: بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلِّمه.

فقام إليه عتبةُ حتَّى جلس إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالَ: يا بنَ أخي إنَّك منَّا حيثُ علمتَ من البسطة في العيش ، والمكان في النَّسب ـ أي: أنتَ المعروفُ في النَّسَب والحسب والمكانة العلياء والرُّتبة العصباءِ ـ ، وإنَّك قد أتيتَ قومكَ بأمرٍ عظيمٍ: فرَّقت به جماعتهم ، وسفَّهتَ به أحلامهُمْ ، وَعِبْت به

= على غيرنا بالشَّرف والفضل ، بسبب أنَّ الله تعالى بعثَ منَّا نبيَّاً يُوحى إليه ، وهذا شرفٌ وفضلٌ لا يعادله شيءٌ ـ قال أبو جهل: فمتى نُدركُ مثل هذه؟ ـ أي: فَمِنْ أين نأتي بنبيٍّ حتَّى ندركهم في هذه الفضيلة ونتساوى معهم؟ ـ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه ـ أي: وإن كان نبيَّاً حقَّاً ، حتَّى لا تفتخر عليهم بنو عبد مناف ، أي: وهذا سببُ كفره وعناده ، فقد عرفَ الحقَّ وجحدهُ ـ قال: فقامَ عنه الأخنسُ وتركه.

(١) في تفسيره عند الكلام على أوَّل سورةِ فصِّلتْ.

آلهتَهُمْ ودينهم ، وكفَّرتَ به من مضى من آبائهِم ، فاسمَعْ منِّي أعرِضْ عليك أُموراً تنظرُ فيها لعلَّك تقبلُ منها بعضها.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قُل يا أبا الوليدِ أسمعُ».

قالَ: يَا بن أخي ، إن كنتَ إنَّما تريد بما جئتَ به من هذا الأمرِ مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكونَ أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتَّى لا نقطع أمراً دونَك ، وإن كنت تريدُ به مُلكاً ملَّكناكَ علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردَّهُ عن نفسكَ ؛ طلبنا لك الأطبَّاء ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نبرئَك منه ، فإنَّه ربَّما غلبَ التَّابعُ على الرَّجل حتَّى يداوى منه ـ يريدُ بذلك الجنَّ ـ ، حتَّى إذا فرغ عتبةُ ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمعُ منه ، قال: «أفرغتَ يا أبا الوليد؟» قالَ: نعم.

قال: «فاستمع منِّي». قال: أفعلُ.

فقالَ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٤].

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها ، وهو يقرؤُها عليه ، فلمَّا سمع عتبة أنصتَ لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمعُ منه ، حتَّى انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السَّجدة منها فسجد ، ثمَّ قال: «قد سمعتَ يَا أبا الوليد ما سمعت ، فأنتَ وذاك».

فقامَ عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعضٍ : نحلفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليدِ بغيرِ الوجهِ الذي ذهَب به .

فلمَّا جلسَ إليهم قالُوا : ما ورَاءكَ يا أبَا الوليدِ؟ .

قالَ : ورائِي أنِّي سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثلَه قطُّ ، والله ما هو بالسِّحر ، ولا بالشِّعر ، ولا بالكهانةِ ، يا معشر قريشٍ أطيعونِي واجعلوها لي ، خلُّوا بينَ الرَّجُل وبين ما هو فيه ، فاعتزلُوه ، فوالله ليكونَنَّ لقولِه الذي سمعتُ نبأً ، فإن تصبهُ العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكُه ملككم ، وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسعدَ النَّاس به .

قالُوا : سحركَ والله يا أبَا الوليدِ بلسانِه .

قالَ : هذا رأيي فيه ، فاصنعُوا ما بَدا لكُم .

وفي رواية(١) أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأَ عليه من أوَّل سورة فصِّلت ، حتَّى وصل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت : ١٣] .

فَلمَّا سمع عتبةُ ذلك أمسكَ فِيْهِ ، وناشدهُ الرَّحم ـ أي : حتَّى يمسك عن التَّهديد والوعيد ـ ورجع إلى أهله ، ولم يخرجْ إلى قريشٍ واحتبس عنهم ، فلمَّا استبطؤُوه جاؤوا إليه يستعلمون منه الخبَر ، فقصَّ عليهم ما حصلَ معه وما سَمِع ، وبيَّن لهم أن ما سمعهُ ليسَ شعراً ولا سحراً ولا كهانةً ، لكنَّ جماعتَهُ أخذُوا يُلحُّون عليه ويضلِّلونه ، حتَّى بقي على الكُفر وعاد إلى ما كان عليه .

---

(١) نفسُ المرجعِ السَّابق .

وكذلك لمَّا سمع الوليد بن المغيرةِ القُرآن من رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم قال لقومـه: واللهِ إنَّ لقوله الذي يقول لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمثمِرٌ أعلاهُ، مغدقٌ أسفلُه، وإنَّه ليعلُو وما يُعلى عليه، وإنَّه ليحطمُ ما تحته ولكنَّ أبا جهلٍ لم يزلْ يُضلِّله. حتَّى غيَّر كلامه وقال ـ أي: الوليدُ ـ: إن هو إلا سحرٌ يؤثَـرُ[١].

وهناك من سمع القرآنَ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآمَن واعترفَ بالحقِّ؛ ومنهم عثمان بن مظعونٍ رضي الله تعالى عنه، لمَّا قرأ عليه صلى الله عليه وآله وسلم قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال رضي الله تعالى عنه: (فذلك حين استقر الإيمانُ في قلبي

(١) ونصُّ الواقعة أخرجها الحاكم وصحَّحها، والبيهقيُّ في (الدَّلائل) من طريق عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما، أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القُرآن، فكأنَّهُ رقَّ له، فبلغ ذلك أبَا جهلٍ فأتاهُ فقال: يا عمِّ، إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتعرض لِمَا قِبَلَهُ، قال: قد علمت قريشٌ أنِّي من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغُ قومك أنك منكرٌ أو أنَّك كارهٌ له، قال: وماذا أقولُ؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشِّعر منِّي، ولا برجزه ولا بقصيده منِّي، ولا بشاعر الجنِّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمثمرٌ أعلاه مغدقٌ أسفله، وإنَّه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك، حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر، ففكَّر، فلمَّا فكَّر قال: هذا سحرٌ يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾. اهـ. انظر (الدرَّ المنثور) للسُّيوطيِّ عند الكلام على قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ المدثر: ١١.

وأحببتُ محمَّداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ)[١].

ومنهم جبيرُ بن مطعمٍ رضي الله تعالى عنه، لمَّا سمعَ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة الطُّور.

فقد روى البخاريُّ في (صحيحه)[٢] عن محمَّد بنِ جبير بن مُطعم، عن أبيه رضي الله تعالى عنهُما قال: (سمعتُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأُ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير).

وفي رواية له أيضاً[٣] قال رضي الله تعالى عنه: (سمعت النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في المغربِ بالطُّور، وذلك أوَّلَ ما وقرَ الإيمانُ في قلبي).

ومنهمُ النَّجاشيُّ ملكُ الحبشة وجماعته، لمَّا قرأ عليهمْ جعفرُ ابنُ أبي طالبٍ رضي الله تعالى عنه أوَّلَ سُورةِ مريمَ، جعلُوا يبكُونَ حتَّى ابتلَّتْ لحاهُم، ثم آمنَ النَّجاشيُّ وجماعَتُهُ؛ وفيهم نزلَ قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾[٤].

---

(١) كما في (مسند) الإمام أحمد: (١/٣١٨).

(٢) كما في كتاب تفسير القرآن، باب سورة ﴿وَٱلطُّورِ﴾ / ٤٨٥٤/ (٨/٦٠٣).

(٣) في كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً / ٤٠٢٣/ (٧/٣٢٣).

(٤) فقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في (الحلية) والواحديُّ من طريق ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن =

ولقد ضربَ سبحانه مثَلاً لأَثَر الرُّوح القرآنيِّ على القُلوبِ ، كماءٍ نزَلَ من السَّماء على الأرض ، فقالَ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ أي: أنَّ القرآنَ النَّازل من عند الله تعالى هوَ الحقُّ ، أمَّا الباطلُ فهو ما خالَفَ القرآنَ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ونُقل[١] عن ابنِ عبّاس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعنيْ: قُرآناً.

= الحارث بن هشام ، وعروة بن الزبير قالوا: (بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمرو بن أمية الضَّمريَّ ، وكتب معه كتاباً إلى النَّجاشيِّ ، فقدم على النَّجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ دعا جعفر بن أبي طالبٍ والمهاجرين معه ، وأرسل النَّجاشيُّ إلى الرُّهبان والقسِّيسين فجمعهم ، ثمَّ أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ عليهم سورةَ مريم ، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدَّمع ، وهم الذين أُنزلَ فيهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ إلى قوله ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. اهـ. انظر (الدرَّ المنثورَ) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٣].

وأخرجه أحمد وابن أبي حاتم ، والبيهقي في (الدلائل) عن أمِّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ النَّجاشيَّ قال لجعفر بن أبي طالب: هل معك ممَّا جاء به ـ يعني: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الله من شيءٍ؟ قال: نعم ، فقرأ عليهم صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، فبكى النَّجاشيُّ حتَّى أخضلَ لحيتهُ ، وبكت أساقفته حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم ، ثم قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، كما في (الدُّر) أيضاً عند الكلام على أول سورة مريم.

(١) انظر تفسير الخازن عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧].

أي: أنَّ هذا تمثيلٌ لنزولِ القرآن الكريم على القلوبِ.

فضربَ الله مثلاً في نزولِ القرآن الكريمِ على القلوب كنزولِ الماءِ من السَّماء.

فلمَّا ينزِلُ الماءُ من السَّماء تسيلُ الأوديةُ وتمتلىء بقدرِهَا، فهُناك الوادي الكبيرُ، وهناكَ الوادي الأصغَرُ والصَّغيرُ، وهناكَ الوادي النَّظيف، وهُنَاك الواديْ الممتَلىءُ بالأَقْذَار والأَوخامِ.

فالأَوديةُ مثلٌ للقلوبِ، والمرادُ بالقلبِ: اللَّطيفةُ الرَّبانيةُ التي أقامها الله تعالى في موضعِ القلبِ الجسمانيِّ الصَّنوبريِّ الشَّكل، وهيَ موضعُ الإدراكِ والتَّعقُّلَ والعلمِ والفهمِ.

فلمَّا يمرُّ ماءُ السَّماء على الوادي الممتلىء بالأَقذَارِ والأوخامِ لا يمكثُ فيه شيءٌ من الماءِ.

وأمَّا الوادي الذي حوى في أسْفَله بعضَ الأوخام والأوساخِ، فإنَّ الماءَ يحرِّك مافي بطنِ الوادي، حتَّى إذا امتلأ الوادي بالماء صارَ الزَّبدُ يطفو على وجه الماء، حتَّى يطرحه على جانب الوادِي.

فلمَّا ينزلُ الرُّوح القُرآنيُّ في القلبِ، فإنَّه يحرِّكُ الشُّبهات والشُّكوك الموجودة فيه، حتَّى يغلبها ويطرحَها خارجَ القَلب، قالَ الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وعندها يمتلأ القلب بحقائقِ القرآنِ ويكملُ الإيمانُ.

وقد شكا بعضُ الصَّحابةِ الكرامِ في أوَّل أمره ما يجدهُ في قلبهِ، شكا أمرهُ إلى رسول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد روى مسلمٌ[1] عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه قال: جاءَ ناسٌ من أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فسألوهُ: إنَّا نجدُ في أنفسنَا ما يتعاظمُ أحدنَا أن يتكلَّم به؟!!.

قال: «وقد وجدتُموهُ»؟.

قالوا: نعَمْ.

قال: «ذاكَ صريحُ الإيمانِ».

وأخرجَه الإمامُ أحمدُ في (مسندِهِ)[2] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسولَ الله إنِّي أحدِّث نفسي بالحديثِ؛ لأن أخرَّ من السَّمَاء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّم به؟.

قال: «ذَلِكَ صريحُ الإيمانِ».

وفي روايةٍ لَهُ أيضاً[3] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّهم قالُوا: يا رسولَ الله إنَّ أحدنا يحدِّثُ نفسَه بالشَّيء ما يحبُّ أنَّه يتكلَّم به؛ وإنَّ له ما على الأَرضِ من شيءٍ؟.

قال: «ذاكَ محضُ[4] الإيمانِ».

---

(١) كما في كتاب الإيمان، باب بيانِ الوسوسة في الإيمان؛ وما يقوله من وجدها /١٣٢/ (١/ ٢٨٣).

(٢) (٢/ ٣٩٧).

(٣) كما في (المسند) (٢/ ٤٥٦).

(٤) أي: ذلك خالص الإيمان.

وفي روايةٍ[1] عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهُمَا قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ: يا رسول الله إن أحدنا يجدُ في نفسه يعرِّض بالشيءِ؛ لأنْ يكونَ حممةٌ أحبَّ إليهِ من أن يتكلَّمَ به؟.

فقال: «الله أكبرُ، الله أكبرُ، الحمدُ لله الَّذي ردَّ كيدهُ[2] إلى الوسوسةِ».

أي: فما دامت قلوبُكُم تُنكِرُ هذه الأمورَ؛ فهذا دليلٌ على قوَّةِ الإيمانِ، ولابُدَّ لهذه الوساوسِ أن تزُولَ، ولابُدَّ أن تصفو قلوبكُم من هذه الأكْدَارِ، كما يصفُو الوادي من الزَّبد حينَ ينزِلُ عليهِ ماءُ السَّمَاء.

وكذَلك الذَّهب الذي يُرادُ أن يتَّخذ منهُ الزِّينة، فإنَّه يدخلُ في البُوْدَقَةِ حتى يتخلَّص من الشَّوائب، ويخرج إبريزاً ذهباً خالصاً، وهذا مَثَلٌ أيضاً لتمحيضِ الإيمانِ في القلبِ.

وقد جاء في الحديث الذي علَّم فيه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أمَّته ما فيه تفريجُ الهمِّ والكربِ، فقد روى الإمامُ أحمدُ[3] عن عبد الله بنِ مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قالَ عبدٌ قطُّ إذا أصابهُ همٌّ وحزنٌ: اللهمَّ إنِّي عبدكَ، وابنُ عبدكَ، وابنُ أمتكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسأَلُكَ بكُلِّ اسْمٍ هو لك، سمَّيت

(١) أخرجهاأبو داود في كتاب الأدب، باب في ردِّ الوسوسة / ٥١١٢/ (٥/٣٣٦).
(٢) أي: كيد الشيطان.
(٣) في (مسنده): (١/٣٩١).

به نفسكَ ، أو أنزلتهُ في كتابك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندكَ ، أن تجعل القُرآن ربيع قلبي ، ونور صدرِي، وجلاء حُزني، وذهابَ همِّي، إلا أذهَبَ الله عزَّ وجلَّ همَّه ، وأبدله مكانَ حُزنهِ فَرحاً».

قالُوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلَّمَ هؤلاءِ الكلماتِ؟.

قال: «أجلْ ، ينبغي لمنْ سمعهُنَّ أن يتعلَّمهنَّ».

والرَّبيع هُوَ الماء ، لأنَّه إذا نزل في أرضٍ أعشبت واخضرَّت ثمَّ أينعت وأثمَرَت ، وكما أنَّ حياة الأرضِ بالماء فحياةُ القلبِ بالقُرآنِ وروحِه.

ثالثاً: إنَّ للقُرآن فعاليَّة وسيطرةً وهيمنةً على القُلوب ، وهذا ما تشعرُ به القُلوبُ حين سماعِ القُرآنِ أو تلاوَتهِ.

وفي هذا يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي: قرآناً يقرأُ ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] فأيُّ قرآن له هذه القُوَّة والفعَّاليَّةُ ، والمعنى: لكانَ هذا القُرآنُ ، وهوَ تقديرُ جوابِ لَوْ.

فلو نزلَ هذا القُرآنُ بنصِّه أو بمعناهُ على صُمِّ الجبالِ الرَّواسي لتصدَّعَت وتشقَّقت ، ولما تحمَّلت القوَّة القرآنيَّة.

كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي: جبل عظيمٍ ، والتَّنكيرُ للتَّفخيم ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فيعتبرونَ من ذلك ، وأنَّ هذا القرآن لو نزل على جبلٍ لتصدَّع وتشقَّق!!.

فكيف لا تتأثَّر قلوبهم وتخشع وقد نزل القرآن عليها ، فقد بلغت قسوة قلوبهم ما هو أشدُّ من الجبلِ وقسوتِه ؟!!.

ولذلك كان الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم إذا سمعوا القُرآن خشعُوا وبكوا ، ومنهم الخلفاءُ الأربعةُ رضي الله تعالى عنهم.

ومن هذا ما جاءَ عن عبد الله بن عُروةَ بن الزُّبيرِ رضي الله تعالى عنهُم قال: قُلْت لجدَّتي أسماء رضي الله تعالى عنها: (كيف كان يصنعُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرؤوا القرآنَ؟.

قالتْ: كانوا كما نعتهمُ الله تعالى: تدمعُ أعينهمْ ، وتقشعرُّ جلودهمْ)[1].

وكان الصِّدِّيق الأكبر رضي الله تعالى عنه لا يملكُ دمعهُ إذا قرأ القرآنَ ، فقد روى مسلمٌ في (صحيحه)[2] عن السَّيدة الكبرى ، الصِّديقة بنتِ الصِّديق ، السَّيدة عائشةَ رضي الله تعالى عنها قالتْ: (لمَّا دخل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بَيْتي قال: «مُروا أَبَا بَكْرٍ فليصَل بالنَّاسِ».

قالتْ: فقلتُ: يا رَسُولَ الله ، إنَّ أَبَا بكرٍ رجُلٌ رقيق ، إذا قرأَ القرآنَ لا يملك دمعهُ) الحديثَ.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، كما في (الدر المنثور) للسيوطيِّ عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

(٢) في كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس /٤١٨/ (٢/ ٥٩٢).

ولمَّا قدمَ أهلُ اليمنِ زمانَ أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وسمعُوا القُرآن[(١)] جعلُوا يبكونَ ، قال: فقالَ أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنهُ: (هكذا كنَّا[(٢)] ثمَّ قستِ القُلوبُ)[(٣)].

وهكذا كان الفاروقُ عمر رضي الله تعالى عنه ، فقد قال عبدُ الله بن شدَّاد رضي الله تعالى عنه ـ وهو من كبارِ التَّابعينَ ـ سمعتُ نشيجَ[(٤)] عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله تعالى عنهُ ، وإنِّي لفي آخر الصُّفوفِ في صلاةِ الصُّبح ، وهوَ يقرأُ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(٥)] [يوسف: ٨٦].

ولقدْ خطَّتِ الدُّموعُ خطوطاً في وجهِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهُمَا[(٦)].

ولمَّا نزَل قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾[(٧)] [النجم: ٥٩ ـ ٦١] ، قرأَها النَّبيُّ صلى الله

---

(١) أي: حين تلاه عليهم رضي الله تعالى عنهم.

(٢) أي: هكذا كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سمعنا القرآن منه عليه الصلاة والسلام.

(٣) كما في (حلية الأولياء) عند الكلام على مناقب الصِّديق الأكبر رضي الله تعالى عنه (١/ ٣٤) ، و(مصنف) ابن أبي شيبة.

(٤) أي: بكاء.

(٥) أخرجه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٦٤) ، وأخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب إذا بكى الإمام في الصَّلاة (٢/ ٢٠٦).

(٦) فقد جاء في (حلية الأولياء) (١/ ٣٢٩) ، عن أبي رجاء قال: كان هذا الموضع من ابن عباس رضي الله تعالى عنه ـ مجرى الدُّموع ـ كأنَّه الشِّراك البالي.

(٧) أي: معرضون لا هُون عن القرآن ، وهذا تعنيفٌ للمشركين وتوبيخٌ لهم.

عليه وآله وسلم على أهلِ الصُّفة رضي الله تعالى عنهم فجعلُوا يبكونَ.

فقد أخرجَ البيهقيُّ في (شعب الإيمانِ)[1] عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا نزلت ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦٠] بكى أصحابُ الصُّفة حتَّى جرت دموعهم على خدودهم، فلمَّا سمع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم حنينهم بكى، فبكينا ببكائهِ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يلجُ النَّارَ من بكى من خشية الله، ولا يدخلُ الجنَّة مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقومٍ يذنبونَ فيغفرُ لهم».

ولذلك أمر الله تعالى رسولهُ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلُوَ القرآنَ على الناس، لأنَّ القرآنَ له هيمنةٌ وسيطرةٌ على القلوبِ، ولذلك إذا سمعه أيُّ إنسانٍ عن قلبٍ حيٍّ تحرَّك القلب وتذكَّر، أمَّا إذا كان قلبه مريضاً بداءِ الغفلة والهوى فما عليه إلا أن يلقي سمعه ويحضر قلبه ما استطاع، فلابُدَّ له حينئذٍ من فائدةٍ وأن يحيا قلبُه.

وفي هذا يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سبقَ، وهي قولُهُ سبحانه في أوَّل السُّورة: ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾.

---

(١) /٧٩٨/ (١/٤٨٩).

والمعنى: إن في القرآن ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ومعنى ﴿قٓ﴾: قلبُ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهيَ لغةُ الفصاحة والبيانِ عندَ العربِ كما هو معروفٌ، أن يؤتَى بالحرفِ ويرادُ منه كلمةٌ.

فقد أقسمَ سبحانهُ بقلبِ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأقسَمَ بالقُرآنِ المجيدِ النَّازلِ على قلبهِ الطَّاهر، ولِمَا بينهُمَا من المُناسبة والأُلفة والارتباط، كما قالَ سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] أي: خاصَّةً من بينِ سائرِ القُلوبِ.

رَابِعَاً: ومن جُملَةِ الحِكَمِ في تلاوته صلَّى الله عليه وآله وسلم القُرآنَ على النَّاسِ، أنَّ القرآنَ هو كلامُ الله تعالى، وهذا الكلامُ الإلَهيُّ أنزلَهُ الله تعالى إلى عبادِهِ، وأرسَلهُ رسائِلَ وكتباً حتَّى يقرؤُوه ويسمعوهُ، فهذا القُرآن إنَّمَا هو رسَائِلُ رَبِّ العالمينَ إلى كُلِّ مكَلَّفٍ منَ الإنْسِ والجِنِّ، إلا أنَّهم عاجزونَ عن الأخذ عن الله تعالى مباشرةً، وإنَّمَا هناك من اصطفاه الله تعالى وخصَّهُ بهذه القوَّة، وهو سيِّدنا محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزلَ عليه القرآنَ وأمرهُ أن ينشرَهُ على النَّاس، وأن يقولَ هذا كتابُ الله إليكُم.

قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

فالكتابُ مرسلٌ إلى كُلِّ مكلَّفٍ بواسطةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣].

أي: فيها كُتُبٌ ورسَائِلُ من الله تعالى إلى عباده، وهذا هو القُرآنُ الكريمُ، وهوَ الكتابُ الجامعُ الذي جمعَ العلومَ كلَّها، وجمع ما جاءت به الكتبُ السابقةُ كلِّها، وإنَّ كلَّ سورةٍ فيه هي كتابٌ بحدِّ ذاتها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٢].

وقد وصفَ الله سبحانهُ وتعالى هذه الكتبَ التي جاء القُرآنُ بها بأنَّها قيِّمةٌ، أي: مستقيمة لا اعوجاجَ فيها.

وقال الحسنُ البصريُّ رضي الله تعالى عنه: (إنكمُ اتَّخذتُم قراءة القُرآنِ مراحِلَ، وجعلتم الليلَ جَمَلاً تركبونه، فتقطعون به المراحلَ، وإنَّ من كان قبلكم[1] رأوهُ رسَائِلَ إليهم مِن ربِّهم، فكانُوا يتدبَّرونه باللَّيْلِ، وينفِّذونه بالنَّهار)[2].

خامسَاً: ومن الحكمة في تلاوتِهِ صلى الله عليه وآله وسلم القرآنَ على النَّاسِ، أنَّ تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم بابٌ في الدَّعوة إلى الله تعالى، وذلك لأنَّ هذا القرآن حججُ الله تعالى على خلقِه، وفيه البراهينُ السَّاطعة.

وإنَّ حجج الله تعالى لا تقبل الردَّ، فهي الحجَّةُ البالغةُ والقاطعةُ، ولا ينكرُها إلا من لم يتعقَّل فيها، ومن تعقَّل ثم أنكر فهو جاحدٌ جاهِلٌ.

---

(١) أي: من الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم.

(٢) كما في تفسير الثعالبيِّ.

وانْظُر تفاصيلَ ذلِكَ في كتابِ: (هديُ القرآنِ الكريم إلى الحُجَّةِ والبُرهانِ).

سادِساً: إنَّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم القرآنَ استعراضاً لآياتِ الله الكونية، فأمرَ الله تعالى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يَتْلو القرآنَ على النَّاسِ، لأنَّ فِي تلاوةِ الآياتِ القرآنيَّةِ استعرَاضاً للآيَاتِ الكونِيَّةِ الخَلقيَّة: السَّماويَّة والأرضيَّةِ، والعرشيَّةِ، وما هُنالك من عَوالمَ.

ولهذا قالَ الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي: بعد سماع القُرآن من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الذي نزَّل هذا القرآن الجامعَ للعلوم والمعارفِ كما قال سبحانهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] ـ ثمَّ قال جل ذكرهُ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٢ ـ ٩٣] أي: سيريكم آياته القرآنيَّة عياناً مشهودة لكم في الأكوان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: سنريهم آياتنا القرآنية مشهودة لهم عياناً في الآفاق ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أنَّ هذا القرآن حقٌّ، وأن الذي نزَّله هو الله الحقُّ، وأنَّ الذي نزل عليه هو رسولُ الله حقاً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وإنَّ في قولهِ سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ضماناً من الله تعالى بأن يُريَ عبادهُ ما أخبرهُم عنهُ في الآيات القرآنية، ولذلك ترى أنَّ القرآنَ يستعرض دائماً الآيات الكونيَّة والنَّفسية.

ومن هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٧] فقابلَ سُبحانه الآياتِ الكونيَّة بالنَّفس الإنسانية ، لِمَا حوى الإنسان من آيات كبرى دالَّة على قدرة الله تعالى.

وإنَّ جميع ما أخبرتْ عنهُ الآياتُ القرآنيَّة لابدَّ للإنسان من أن يراه عياناً في العوالم الكونيَّة الدنيويَّة أو الأخرويَّة ؛ حسب ما أخبر القرآنُ الكريمُ.

فمن الأمورِ التي ظهرتْ في الدُّنيا قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ، فقد نزلت هذه الآية في مكة المكرمة ، وتلاها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين ، فأنكروا ولَم يصدِّقوا ، ثمَّ بعدما هاجر إلى المدينةِ المنوَّرة ووقعت وقعةُ بدرٍ ، وإذا به صلى الله عليه وآله وسلم خرجَ وذكَّرهم بالآيةِ ، وقرأ قول الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فرأوا الآيةَ القرآنيَّة عياناً إذ انهزمُوا وقُتِّلوا[١].

ولمَّا قرأ صلى الله عليه وآله وسلم على اليهودِ قوله سبحانَه وتعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ

---

(١) فقد أخرج البخاريُّ / ٤٨٧٥/ (٨/ ٦١٩) ، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو في قُبَّة له يوم بدرٍ: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده فقال: حسبكَ يا رسول الله ، ألححت على ربِّك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥ ـ ٤٦].

﴿ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] لم يصدِّقوا وأنكروا ذلك، فلم تمضِ مدَّةٌ إلا ورأوا هذه الآية عياناً، إذ أجلاهُم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المدينة، وشتَّت شملَهُم، وأخرجهم من أرضِ الحجازِ(١).

ولقد أخبرَ القرآنُ عن دابَّةِ الأرضِ التي ستخرجُ قُبيلَ الساعة، ومن أدركه ذلك الزَّمن سيراها، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وهناك إخبارات قرآنيَّة عن أمورٍ أخرويَّة: كسؤالِ القبرِ، ونعيمِ القبر، ومواقفِ الحشر وغيرها؛ ولابدَّ للإنسانِ أن يراها كما أخبر سبحانه وتعالى.

ومن جملة ذلك: سؤالُ القبرِ، قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهوَ قولُ لا إلَه إلا الله سيِّدنا محمَّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولابدَّ أن يرى المؤمن ذلك حين يسألُ، ويثبِّتهُ الله

---

(١) فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، والبيهقي في (الدلائل) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا أصاب من بدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشر يهودٍ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً».
فقالوا: يا محمد، لا يغرَّنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً، ولا يعرفون القتال، إنك والله لو ما قاتلتنا لعرفت أنا نحن النَّاس، وأنك لم تلق مثلنا.
فأنزلَ الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾).
انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

تعالى على الإيمانِ ويجيبُ ، ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فالكافرُ يضلُّ عن الجواب ، ويرى قوله سبحانه: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ﴾ يراهُ عياناً.

ولابدَّ للإنسانِ أن يرى أهوال السَّاعة والقيامة والبعثِ والنَّشر وهكذا.

ولهذا كان الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم؛ إذا سمعوا القُرآنَ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجدُوا من أنفُسهم خضُوراً وخشوعاً ؛ لا يجدُون مثلَهُ في حالٍ آخر.

ولهذا قال قائلهم ـ وهو أُسَيدُ بن حضيرٍ رضي الله تعالى عنه ـ: (لو أنِّي أكونُ كما أكونُ محلَّ حالٍ من أحوالٍ ثلاث ؛ لكنتُ من أهلِ الجنَّة وما شككت في ذلك[1]:

حين أقرأُ القُرآنَ وحينَ أسمعهُ[2] ، وإذا سمعتُ خُطبةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا شهدتُ جنازَةً ، فما شهدتُ جنازةً قطُّ فحدَّثت نفسي سوى ما هو مفعولٌ بها، وما هي صائرةٌ إليه)[3].

فما أعظمَ أثر تلاوةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم في القلوبِ ، وما أعظمَ أثَرَ خُطبته صلى الله عليه وآله وسلم؟!!.

---

(١) أي: لو أنه يقبض على حال من أحوال ثلاثة لجزم أنه من أهل الجنة ، وذلك لما يرى من صفاء وإنابة.

(٢) أي: من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد في (مسنده): (٤/ ٣٥٢) ، والحاكم في (المستدرك) ـ واللفظ له ـ في كتاب معرفة الصَّحابة ، باب ذكر أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه (٣/ ٢٨٨).

فلقد كانت خطبته صلى الله عليه وآله وسلم تهزُّ القلوبَ وتحرِّكُ الجماداتِ.

روى الإمامُ أحمدُ(١) عن عبدِ الله بن عمرَ رضي الله تعالى عنهُما، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ هكذا بيده ويحرِّكها، يقبلُ بها ويدبرُ: «يمجِّد الرَّب نفسهُ، أنا الجبّار، أنا المتكبِّر، أنَا الملكُ، أنا العزيزُ، أنا الكريمُ».

فرجف برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبرُ حتَّى قلنا: ليخرَّنَّ به.

وفي روايةٍ لمسلمٍ(٢): قال ابن عمرَ رضي الله تعالى عنهما: حتَّى نظرتُ إلى المنبر يتحرَّك من أسفلِ شيءٍ منه، حتى إنِّي لأقولُ: أساقِطٌ هو برسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!.

وفي روايةِ البزّار(٣) فقالَ المنبر هكذا، فجاءَ وذهبَ ثلاث مرَّاتٍ.

ونسألُ الله التَّوفيق. وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) في (مسنده): (٢/ ٧٢).

(٢) في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار / ٢٧٨٨/ (٥/ ٢٦٧٥).

(٣) انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

موقفهُ صلى الله عليه وآله وسلم في تعليمِ النَّاسِ الكتابَ والحِكمةَ

أمَّا موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تعليمِ النَّاس الكتابَ والحكمةَ ، فقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: معانيَ الكتابِ.

أما تعليمه الناس تلاوة الكتاب ، فقد حصل من خلال تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم لكتاب الله تعالى ، وهو بمقتضى قوله جل وعلا: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فَمِنْ مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: تعليمُ الكتابِ ، أيْ: معانيه ، باعتبار أنَّه كتابٌ جامعٌ للعلوم كلِّها ، ومتضمِّن لذكرِ العوالم كلِّها ، وعلومُ هذا القرآن لا تتناهى ، وكلُّ علمٍ فيه بمنزلة كتابٍ.

قال الله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣].

وفي هذا إعجازٌ من القرآن بإخباره عن أمر غيبيٍّ ، وهو كتابةُ هذا القرآن في الصُّحف ، إذ إنه لم ينزل صُحفاً بل وحياً على قلب

رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويبقى ما شاء الله مطهَّراً عن التَّلاعُبِ والتَّغيير.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣] لأن كلَّ علم جاء به القرآنُ الكريمُ بمنزلةِ كتابٍ ، وهذه الكتب قيمةٌ ـ أي: مستقيمةٌ ـ فيها بيانُ حقائقِ الأمورِ وغوامضِهَا.

قال عبدُ الله بن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنه: (من أرادَ العلمَ فَلْيُثَوِّرِ القُرآنَ ، فإنَّه فيهِ علمُ الأوَّلينَ والآخريْنَ)[1].

ولذلك قال مسرُوقٌ أحدُ التَّابعينَ رضي الله تعالى عنه: كان عبدُ الله رضي الله تعالى عنه يقرأُ علينا السُّورة ، ثمَّ يحدِّثُنا فيها ويُفسِّرُها عامَّةَ النَّهار ـ أيْ: ولم ينتهِ من الكلام والتَّفسيرِ ـ.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهُمَا قال: (إنَّ القرآنَ ذو شجونٍ وفنونٍ ، وظُهورٍ وبطونٍ؛ لا تنقضي عجائبُهُ ، ولا تُبلغ غايتهُ ، فمن أوغلَ فيه برفقٍ نجا ، ومن أوغلَ فيه بعُنفٍ غوى) أي: يجبُ ردُّ المعاني والمفاهيمِ القرآنيَّة إلى ما جاء عن سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأحاديث النبويَّة ، ومفاهيمِ الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ثمَّ قال رضي الله تعالى عنهما: (أخبارٌ وأمثالٌ ، وحرامٌ وحلالٌ، وناسخٌ ومنسوخٌ، وَمُحْكمٌ ومتشابهٌ، وظهرٌ وبطنٌ؛ فظهرُه

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٧/ ١٦٥) ، والبيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٣٢). ومعنى فليثور: فليبحث.

التِّلاوة وبطنُهُ التَّأويل ، فجالِسُوا به العلماءَ ، وجانبُوا به السُّفهاءَ ، وإيَّاكم وزلة العالم)[1].

ولذا كان أصحابُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعهدونَ هذا القُرآنَ بكثرَةِ التِّلاوة ، والتَّدبُّر في آيات الله تعالى.

ومنهم أهلُ الصُّفة رضي الله تعالى عنهم.

والصُّفَّة مكانٌ مرتفعٌ في المسجد النَّبويِّ ، يأويْ إليها من وقفَ نفسهُ على أمرِ الجهادِ ومصَالحِ المسلمينَ ، وليسَ لهُ علاقاتٌ ماليَّةٌ من زراعةٍ أو تجارةٍ أو غيرِها؛ ولم يكُن أهلُ الصُّفة رضي الله تعالى عنهم عالةً على غيرهم ، أو أنهم تركوا التَّكسُّب كسلاً وإهمالاً ، بل أرادوا بذلك أن يجعلُوا أنفسهم رهينةَ الجهاد ، ونشر الدِّين ، وتعلُّمَ وتعليمَ القُرآنِ الكريمِ ، وأنَّ يكونوا في ذلك حسبَ أوامِرِ الرَّسولِ الكريمِ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا كان عليه الصلاة والسَّلام إذا أرادَ أن يبعثَ إلى بعضِ الأطرَافِ من يعلِّمُ القرآنَ من المُقرئينَ اختارَ منهُم ، وقد بعثَ منهُم سبعينَ قارئاً إلى ناحية اليمنِ ، وغُدِرَ بهم وقتلُوا رضي الله تعالى عنهم[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في (الدُّر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

(٢) فقد أخرج البخاريُّ في كتاب المغازي ، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوان / ٤٠٩٠/ (٧/ ٣٨٥) ، عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: (أنَّ رعلاً وذكوان وعُصيَّة وبني لِحيان ، استمدُّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عدو ، فأمدَّهم بسبعينَ من الأنصار ، كنَّا نسمِّيهم القرَّاء في زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنَّهار ، ويصلُّون باللَّيل ، حتَّى كانوا ببئر معونةَ قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقنت شهراً يدعو في الصُّبح على أحياءٍ من أحياءِ =

وكان من عَملهم الدُّنيويِّ: الاحْتطابُ في النَّهار ، والقراءةُ في اللَّيل؛ وإذا لم يتيسَّر لهم عملٌ أو لم يكفِهم ما عملوا ؛ فكان صلَّى الله عليه وآله وسلم يأمُرُ الصَّحابة بأن يستضيفُوا عدداً من أهل الصُّفة ، فيوزِّعهم على الصَّحابة كلَّ مساءٍ حتَّى يذهبُوا للعشَاءِ ، وكان هوَ صلى الله عليه وآله وسلم يدعو عدداً منهم للعشاءِ ، ولهذا كان أهلُ الصُّفة يسمَّون: أضيافَ الإسلامِ(١) .

= العرب: على رعلٍ وذكوان وعصيَّة وبني لِحيان).
قال أنسٌ رضي الله تعالى عنه: فقرأنَا فيهِم قُرآناً ، ثمَّ إن ذلك رُفعَ: «بلِّغُوا عنَّا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضي عنَّا وأرضانا».

(١) روى البخاري في كتاب الرِّقاق ، بابٌ كيف كان عيشُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه / ٦٤٥٢/ (١١/ ٢٨١) ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه كان يقولُ: (أللهِ الذي لا إلَه إلا هو ، إن كنت لأعتمدُ بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدتُ يوماً على طريقهم الَّذي يخرجون منه ، فمرَّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، فسألته عن آيةٍ من كتاب الله ؛ ما سألته إلا ليشبعني ، فمرَّ ولم يفعل ، ثم مَرَّ بي عمر رضي الله عنه ، فسألته عن آية في كتاب الله ؛ ما سألته إلا ليشبعني ، فمر فلم يفعل ، ثم مرَّ بي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم ، فتبسَّم حين رآني ، وعرف ما في نفسي ومافي وجهي ، ثم قال: «يا أبا هرٍّ» قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «اِلحق» ومضى فتبعتُه ، فدخلَ فاستأذَن ، فأذن لي ، فدخل فوجد لبناً في قدحٍ ، فقال: «مِنْ أينَ هذا اللَّبنُ؟» قالوا: أهداهُ لك فلانٌ ـ أو فلانةٌ ـ قال: «أبا هرٍّ» قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «الحقْ إلى أهلِ الصُّفَّة فادعُهُم لي» ـ قال: وأهلُ الصُّفة أضيافُ الإسلامِ ، لا يأوُونَ إلى أهل ولا مَالٍ ولا على أحدٍ ، إذا أتتهُ صدقةٌ بعث بها إليهم ؛ ولمَ يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديةٌ أرسل ، وأصاب منها وأشركَهُم فيها ـ فساءني ذلك؛ فقلتُ: وما هذا اللَّبن في أهل الصُّفة؟ كنتُ أحقُّ أنا أن أُصيبَ من هذا اللَّبن شربةً أتقوَّى بها ، فإذا جاء أمرَني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلُغني من هذا اللَّبَن ، ولم يكن من طاعةِ الله وطاعة رسُوله صلى الله عليه وآله وسلم بُدٌّ؛ فأتيتُهُم فدعوتُهم، فأقبَلُوا فاستأذَنُوا ، فأذِنَ لهم ، وأخذوا مجالسهم من البَيت ، قال: «يَا أبَا هرٍّ» قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «خُذ =

فكانَتْ الصُّفَّة مدرسةً للقرآنِ الكريم ، وكان الصَّحابة يسمعون دويَّ قراءتهم في اللَّيل.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يحثُّ الصَّحابة الكرام على قراءة القرآن وحفظه ، ويحذِّرهم من نسيانه.

فقد روى البخاريُّ ومسلم[1] ـ واللفظُ له ـ ، عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله تعالى عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تعاهدوا هذا القرآن ، فوالَّذي نفس محمد بيده ؛ لهو أشدُّ تفلُّتاً من الإبل في عُقُلِها».

ولقد علَّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الصَّحابة من علومِ القرآنِ: الشَّريعة، والتَّوحيد، والآداب، والمعاملة بأنواعها، وبحث لهم في كلِّ شيءٍ ، وأخرجَ لهم من القرآن إخبارَه عن كلِّ شيءٍ.

كما جاء في (صحيحِ) مسلم[2] عن عمرو بن أخطبَ رضي الله

= فأعطِهِمْ»، قال: فأخذتُ القَدَح ، فجعلتُ أُعطيهِ الرَّجُل فيشربُ حتَّى يروَى ، ثمَّ يرُدُّ عليَّ القدَحَ ، فأعطيه الرَّجل فيشربُ حتَّى يروى ، ثمَّ يرُدُّ عليَّ القدَح فيشربُ حتى يروى ، ثمَّ يردُّ عليَّ القدح ، حتى انتهيتُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وقد رويَ القومُ كلُّهم ، فأخذَ القدحَ فوضعه على يده فنظرَ إليَّ فتبسَّم؛ فقال: «أبا هرٍّ» ، قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «بقيتُ أنا وأنتَ». قلتُ: صدقتَ يا رسول الله ، قال: «اقعُد فاشرَب» فقعدتُ فشربتُ ، فقالَ: «اشربْ» فشَربت ، فمَا زال يقولُ: «اشرَب» حتَّى قلتُ: لا والَّذي بعثكَ بالحقِّ ، ما أجدُ له مسلكاً ، قال: «فأَرني» فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة).

(١) أخرجه البُخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن وتعاهده /٥٠٣٣/ (٩/٧٩)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب الأمر بتعهُّد القرآن /٧٩١/ (٢/٨٧٠).

(٢) في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يكون /٢٨٩٢/ (٥/٢٧٣٨).

تعالى عنه قالَ: (صلَّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الفجرَ وصعد المنبر ، فخطبنا حتَّى حضرت الظُّهر ، فنزل فصلَّى ، ثم صعد المنبرَ فخطبنا حتى حضرت العصرُ ، ثم نزل فصلَّى ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتَّى غربت الشَّمس ، فأخبرنا بما كان ، وبما هو كائنٌ ، فأعلمُنا أحفظنا[1]).

وروى البخاريُّ[2] وغيره ، عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: (قام فينا النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً ، فأخبرنا عن بدءِ الخلقِ حتى دخل أهل الجنَّة منازلهم ، وأهلُ النَّار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه).

وقدْ بيَّن صلَّى الله عليه وآله وسلم أن أحاديثهُ هي بياناتٌ للقرآنِ الكريم وملازمةٌ له ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فقد روى التِّرمذيُّ[3] وغيره ، عن المقدامِ بن معدي كرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) وقد انطوت في هذا معجزاتٌ كثيرةٌ ، من جملتها: إخباره عليه الصَّلاة والسَّلام عن المغيَّبات ، وقوَّته صلى الله عليه وآله وسلم على الخطابة ، وثباتُه طيلة النَّهار على ذلك ، وإمداده للصَّحابة الذين هم في مجلسه ، فما أحد منهم قام لحاجة أو لوضوءٍ ، أو غير ذلك ، بل ظلُّوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم في غاية التأدُّب في مجلسه عليه الصَّلاة والسَّلام.

(٢) في كتاب بدءِ الخلقِ ، بابُ ما جاءَ في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] / ٣١٩٢/ (٦/ ٢٨٦).

(٣) في كتابِ العلمِ ، بابُ ما نُهي عنه أن يقال عند حديث النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم / ٢٦٦٦/ (٧/ ٣١٠).

«ألا هل عسى[(١)] رجلٌ يبلغهُ الحديثُ عنِّي ، وهو متّكئٌ على أريكته ، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه[(٢)]. وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما حرَّم الله».

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وبيَّنَ سبحانه وتعالى أنَّ ردَّ الأمور إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو ردٌّ إلى الله تعالى ، فقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلى أحاديثه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قولهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو الكتابُ الجامعُ ، لأن الكتاب يعطي معنى الجمعِ.

فقد اشتمل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم على جميع الكتب السّماوية السابقة ، وهو جامع لجميع العلوم ، ولهذا وصفه الله

---

(١) وفي رواية عند ابن ماجه: «يوشك الرَّجل متّكئاً على أريكته ، يحدَّث بحديث من حديثي ، فيقول: بينا وبينكم كتابُ الله عزَّ وجلَّ ، ما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألا وإن ما حرَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما حرَّم الله» أخرج هذه الرّواية في المقدِّمة ، بابُ تعظيمِ حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتَّغليط على من عارضه /٢/ (٦/١).

(٢) يعني: أنه لا يقبل إلا من القرآن، ولا يأخذُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً.

تعالى بأنه كتبٌ قيمة ، قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣].

كما أن هذا الكتاب مكتوبٌ في صحف الملائكة ، كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦].

فالملائكة تقرأ في هذا الكتاب على حسب ما كُتِب في صحيفتها ، وكلُّ ملك يدرسُ طائفةً من هذا الكتاب على حسبِ ما كُتِب في صحيفتهِ.

ومن جهةٍ أخرى: كان صلَّى الله عليه وآله وسلم يأمُرُ بكتابةِ ما ينزلُ عليه من آياتِ الله تعالى في الصُّحفِ امتثالاً لأمر الله تعالى له.

ثم في عهد الصِّديق رضي الله تعالى عنه جُمعت هذه الصُّحف إلى بعضها وسمَّاها مصحفاً ، لأنَّه كان مكتوباً في صحفٍ ، منها من جلدٍ ، ومنها من عسيبِ النَّخلِ وهكذا.

وفي هذا إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ بأنَّ هذا القرآن سيكتب في الصُّحف.

قوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة: ٢] أي: من أيدي المتلاعبين من شياطين الإنس والجنِّ ، ومن التَّحريف والتَّبديل.

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ٣] لأنَّ هذا القرآن يشتمل على الكتب السَّابقة من التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وصحف إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسَّلام.

ولقد أخبر الله تعالى عن أوصافِ الكتب السَّماوية ، وليس هناك كتاب يأتي بالفضل بعد القرآنِ إلا التَّوراة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا

ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فاستحفظهم الله تعالى التَّوراة، فما حفظوها بل بُدِّلت وغيِّرت وحرِّفت.

ثمَّ وصف الله تعالى ما فيها ـ أي: التَّوراة ـ من الأحكام الشَّرعيَّة فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ثم ذكر سبحانه الإنجيلَ فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

ثم بعد هذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨].

فهذا الكتاب مصدِّق لما سبقه من الكتاب ـ أي: من الكُتبِ ـ وله الهيمنةُ عليها، فهو الحاكم والشَّاهد عليها، أي: أنَّه جامعٌ لما جاءت به التَّوراة والإنجيلُ، فيبيِّن ما فيها، ويبطل ما ليس فيها ممَّا نُسِبَ إليها.

ومعنى المهيمن: هو الشَّاهد على الشَّيءِ بما هو له أو عليه.

وبهذا يعلمُ أن هذا الكتاب نزل من حضرة اسمه تعالى (المهيمن) وهي حضرةٌ إلَهيَّةٌ، ما نزلَ منها كتابٌ سماويٌّ إلا هذا الكتابُ العظيمُ.

وقد نزل هذا الكتابُ المهيمنُ على من له الهيمنةُ صلى الله عليه وآله وسلم، على أُمَّة لها الهيمنة على باقي الأمم، فنزل على الرَّسول المهيمن صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يشهدُ للأنبياءِ السَّابقين أنَّهم قد بلَّغوا الرِّسالة، ويشهد على أممهم المكذِّبين أنهم قد بلَّغتْهم رسلهم.

وأما أمَّته صلى الله عليه وآله وسلم فهي الأمَّة المهيمنة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

فهذه الأمَّة تشهد على الأُمم السَّابقة بالتَّبليغ، روى البخاريُّ(١) وغيره، عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدعى نوحٌ يوم القيامة، فيقولُ: لبَّيك وسعديك يا ربِّ.

فيقول: هل بلَّغت؟.

فيقول: نعم.

فيُقال لأمَّته: هل بلَّغكم؟.

---

(١) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] /٤٤٨٧/ (٨/ ١٧١).

فيقولون: ما أتانا من نذيرٍ.

فيقولُ: من يشهدُ لكَ؟.

فيقولُ: محمدٌ وأمَّته، فتشهدون أنه قد بلَّغ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوَسطُ: العدلُ».

فالأمَّة المحمَّدية تشهد على أن الأمم السَّابقة قد بلَّغتها رسلها، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يزكِّيهم ويعدِّلهم.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣] أي: بما اشتمل عليه من معانٍ، لأنَّه تبيانٌ لكل شيء، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال جل وعلا: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: على اختلافِ أصنافِهم.

واعلم أنَّه لابدَّ لفهم القرآن من نُورٍ من عندِ الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أي: زدني علماً بهذا القرآن الذي يوحى إليَّ، زدني علماً بكَ، لأن العلومَ الإلَهيَّة تؤخذُ من القرآنِ الكريم.

كما لابدَّ لفهم معاني القرآنِ من ميزانٍ توزنُ به صحَّةُ المفاهيمِ، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يفسِّر القرآنَ برأيه دونَ الرُّجوع إلى أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم، التي هي بياناتٌ للقرآنِ الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

طرقُ التَّفسير

أوَّلاً: تفسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ:

وهذا ما فعله سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفتح هذا البابَ للصَّحابة رضي الله تعالى عنهُم.

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ[1] عن عبدِ الله بن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على المُسلمينَ، فقالُوا: يا رسُولَ الله، أيُّنا لا يظلمُ نفسهُ؟.

قال: «ليسَ ذلك، إنَّما هو الشِّركُ، ألم تسمعُوا ما قال لُقمانُ لابنه وهو يعظهُ: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣].

فقد فهم الصَّحابة الكرامُ رضوان الله تعالى عليهم من ظاهرِ الآية أنَّ المؤمن لا يأمن إلا إذا خلا عن كلِّ الذُّنوب بأنواعها، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطُوا إيمانَهُم بذنبٍ ولو

---

(١) في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] /٣٤٢٩/ (٤٦٥/٦).

كان صغيراً ، فذكرُوا ذلك للنَّبي عليه الصَّلاة والسلام ، فبيَّن لهُم أنَّ المراد من: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، أي: لم يخلطوا إيمانهُم بالشِّرك.

ويدُلُّ هذا الحديثُ أيضاً على أنَّه لا يجوزُ للإنسان أن يقتصر على اللُّغة العربيَّة وقواعدها في فهم معاني القُرآن الكريم ، وأنَّه لابدَّ من الرُّجوع إلى أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ، التي هي بيانَاتٌ للقُرآنِ الكَريم ، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ، وهذا بعد أن بيَّن سبحانه لرسُوله صلى الله عليه وآله وسلم معاني القُرآن الكريم ومقاصِدهُ بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩] أيْ: بيانه لك يا رسُولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث المتقدِّم فهمَ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم من الظُّلم العمومَ ، لأنَّها نكرةٌ جاءت بعد نفي ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: ولم يخلطوا إيمانَهم بظُلمٍ أي: بذنبٍ ولو كان من الصَّغائر؛ هذا ما فهمه الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم فشقَّ ذلك عليهم ، ولمَّا سألُوا النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بيَّن لهم أنَّ المراد من الظُّلم في الآيَة هُو الشِّركُ ، ولم يُوافِقهُم على فهمِهم؛ وإن كان مُوافقاً لأُصُول اللُّغة العربيَّة ، ثمَّ تلا عليهم قولَه تعالى مخبراً عن لُقمان عليه السَّلام: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فقد فسَّر لهم القرآنَ بالقرآنِ ، وبيَّن لهم أنَّ المُراد بالظُّلم في

الآيَةِ هو الشِّرك ، وهذا ما سلكهُ الصَّحابة الكرام في فهمِ القُرآنِ الكريمِ.

ومن هذا استدلالُ حبرِ الأمَّةِ عبد الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنهُما بقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] استدلالُه بهذه الآيَة الكريمة على إثباتِ عذاب القبرِ.

ففهِمَ أنَّ العذابَ نوعَانِ: العذابُ الأكبرُ ، وهو عذابُ الآخرةِ؛ وأمَّا الأدنى ـ أيْ: الأَقْرَب ـ فهذا بعضُه في الدُّنيا وبعضُه في البَرزخِ.

استدلَ على ذلك من قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أيْ: بعضِ العذابِ الأدنَى ، فالعذابُ الأدنَى موزَّعٌ على عالمينِ: عالَمِ الدُّنيا ، وعالم البرزَخِ.

ودليلهُ على ذلك أيضاً قولهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦] أيْ: نُريك يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعض العذابِ الذي نعدهُم وأنت في الدُّنْيا؛ فهذا تفسيرٌ لقوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١] أي: بعض العذاب الأدْنَى.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وهو العذابُ الدُّنيويُّ ، الذي هو بعضُ العذاب الأدنى الذي منه عذابُ القبرِ؛ وهو غير العذاب الأكبر الذي يكونُ يومَ القيامة.

وهكذا فبعرض هذه الآيات على بعضها يُستدلُّ على أنَّ عذاب

القبر ثابتٌ بالنَّص ، كما أنَّ هناك آياتٍ وأحاديثَ أخرى تدُلُّ عليه.

ثانياً: تفسير القرآنِ بالحديث (السُّنَّة المطهرة):

كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ»[1] أي: ومثلهُ وحياً من الله لبيانِ معاني هذا القُرآنِ، وهو السُّنَّة والحديثُ.

ثمَّ هناكَ مفاهيمُ الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم وتفاسيرهُم، فهي معتمدةٌ، لأنَّهم عاصروا فترة نزولِ القُرآنِ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا ما فسَّره وفهمهُ عمرُ بن الخطَّابِ رضي الله تعالى عنه لمَّا قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أي: عُلُوّاً ومُضايقةً.

فقدْ رُويَ[2] أنَّ عمرَ رضي الله تعالى عنه قرأ هذا الآيةَ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بنصب الرَّاء، وقرأها بعضُ من عنده من أصحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿حَرِجًا﴾ بالخفضِ.

فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: أبغُوني رجلاً من كنانَةَ،

---

(١) أخرجه أبو داود عن المقدام بن معدي كربَ في كتابِ السُّنَّة، بابٌ في لزومِ السُّنَّة / ٤٦٠٤/ (٥/ ١٠).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ جرير، وابنُ المنذرِ، وأبو الشَّيخ، كما في (الدرِّ المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

واجعلُوهُ راعياً ولكن مُدْلجيّاً[١] ، فأتوهُ به؛ فقالَ لهُ عُمرُ رضي الله تعالى عنه: يا فتى ، ما الحرجةُ فيكُم.

قال: الحرجةُ فينا ، الشَّجرةُ تكونُ بينَ الأَشجَارِ التي لا تصِلُ إليها راعيةٌ ، ولا وحشيَّةٌ ، ولا شيء.

فقال عُمر رضي الله تعالى عنه: كذلِكَ قلبُ المنافقِ ، لا يَصِلُ إليه شيءٌ من الخيرِ.

فمن هذا المثلِ القُرآنيِّ فهمَ عُمَر رضي الله تعالى عنه بأنَّ الإيمانَ لا ينتهي إلى قلبِ الكافرِ والمُنافقِ.

وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ من طُرقِ التَّفسير: أن تفسِّرَ القُرآنَ بمُوجبِ اللُّغة العربيَّة ومفاهيمها ، إن لم يرد نصٌّ ـ أيْ: آيةٌ تفسِّر آيةً ، أو حديثٌ يفسِّرها ، أو فهمٌ عن أحد الصَّحابة أو أتباعِهم ـ فلتكنِ الحقائقُ اللُّغويَّة ، أمَّا التَّفسير على غير هذا فهو تأوُّلٌ وافتراءٌ على الله سبحانه وتعالى.

وقد يعطي الله عبداً في فهمِ آية ما لم يُعطِ غيرهُ ، كسيِّدنا عُمرَ وسيِّدنا عليٍّ وسيِّدنا عبد الله بن عبَّاس وغيرهم رضي الله تعالى عنهم ، فإنَّ الله تعالى قد يخُصُّ من شاء ببعضِ المفاهيمِ.

ومن هذا ما رواهُ البخاريُّ[٢] وغيرُه ، عن أبي جُحيفةَ رضي الله تعالى عنه قال: (سألتُ عليّاً رضي الله تعالى عنه: هل عندكم شيءٌ ممَّا ليس في القُرآنِ[٣]؟.

---

(١) وذلك لأنَّ بني مُدلجٍ فيهم الفصاحةُ في لُغتهِمْ.

(٢) في كتاب الدِّيَاتِ ، بابٌ لا يُقْتَلُ المسلمُ بكافر / ٦٩١٥/ (١٢/ ٢٦٠).

(٣) وكان غرض أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه من هذا السؤال إزالة إشكالِ من =

فقالَ: والَّذي فلقَ الحبَّة ، وبرأ النَّسمة ، ما عِندنا إلا ما في القُرآنِ ، إلا فهماً يُعطى رجلٌ في كتابه ، وما في الصَّحيفةِ.

قلتُ: وما في الصَّحيفةِ؟.

قال: العقْلُ ، وفكاكُ الأسير ، وأن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافِرٍ).

وهذه أُمورٌ عامَّةٌ ليستْ خاصَّةً بأهلِ البَيتِ.

فقد يفهَمُ البَعْضُ من القُرآنِ ما لا يفهمُهُ غيرهُ ، وبهذا اختلفت مقاديرُ العُلَماءِ ، لأنَّهُم كلُّهم يستنِدُون إلى قولِ الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليه وآله وسلم ، ولكن اختلفتْ مراتبهم في الفهمِ.

قولهُ سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الحكمةُ تأتي على معانٍ كثيرةٍ ، فهنُاك الحكمةُ القُرآنيَّةُ ، وهناكَ الحكمةُ النَّبوية ـ أي: نزلت بالوحي النَّبويِّ لا بالوحي القرآنيِّ ـ.

فمن الحكمِ القُرآنيَّة قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥].

أي: جاء كفَّارُ قُريش وغيرهم من الأخبار الإلٓهيَّة التي نزلت عليك يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والتي فيها أخبارُ من قبلهُم ، وعنادهم وكفرهم؛ وكان هذا لمَّا طلبت كفَّارُ قريشٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آيةً كونيَّةً أن يشُقَّ لهمُ القَمر ، وحصلَ هذا ، ولكنَّهم بقَوا على عنادِهم وجحودهم ، وقالوا:

= ادَّعى ذلك ، وهو أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قد خصَّ أهلَ البيتِ بشيءٍ دون الناسِ.

سحرٌ مستمرٌّ ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ـ ٣].

ثمَّ وبَّخهم سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أي : مِنْ أخبار مَنْ قبلهم ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي : ما فيه موعظةٌ لهم ، ففي هذه الأنباء ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ بلغتِ القلوبَ والصَّميم ، ولكن لِمَنْ كانَ له قلبٌ ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي : لقدْ بَلَغَتْهم أخبارُ من قبلهم من الأمم السَّابقة ، كيف جاءتهُم رسلهم بالآيات الكونيَّة ، ولكنَّهم بقَوا على كُفرهم وعنادهم ، فأهلكهمُ الله تعالى ، فليعتبروا ! ! .

ومن الحكم القُرآنيَّة أيضاً قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٩].

فقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: باعتبار أنَّه الرَّبُّ وأنتم عبادهُ، فيجبُ عليكم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وعبادته تعالى على حسب ما شرع، لا كما تهوى أنفسكم، وإنَّ مَنْ عَبَدَه على حسب ما يهوى فقد عبد هواه، ولم يعبدْ ربَّه سبحانه؛ وهذا كلُّه من حِكَمِ الرُّبوبيَّة.

وهناك الحكمُ النَّبويةُ التي جاءت عن طريقِ النُّبوَّة، فما من نبيٍّ إلا وعلَّمه الله تعالى الحكمة، أي: الحكمةَ النَّبويَّة على حسب مقام نبوَّته.

والحكمةُ تقتضي العلم الصَّحيح، والعمل الصَّائب، فلا يُقالُ عن أحدٍ حكيمٌ، إلا إذا كان عندَه علمٌ صحيحٌ بالحقائق والدَّقائقِ، وعمل بمُوجب هذا العلم فأصابَ؛ فالحكمةُ هي صحَّةُ العلمِ وصوابُ العملِ.

ويدلُّ على أنَّ كلَّ نبيٍّ قد أعطَاه الله تعالى الحكمةَ، قولُه جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: عامَّةً ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال سيِّدنا عليُّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: (لم يبعث الله نبيّاً؛ آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد صلَّى الله عليه وآله وسلم، لئنْ بُعِثَ وهو حيٌّ ليؤمننَّ به، ولينصرنَّه، ويأمُرُه فيأخذُ العهدَ على قومه، ثمَّ تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾)[1] [آل عمران: ٨١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهُمَا في هذه الآية: (ثم ذكرَ ما أُخِذَ عليهم ـ يعني: على أهلِ الكتابِ ـ وعلى أنبيائهم من الميثاقِ بتصديقِهِ ـ يعني: بتصديقِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا جاءهم، وإقرارهم به على أنفُسهمْ)[2].

وإنَّ الحكمة التي أعطيها سيِّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعةٌ لجميع حكم النَّبيين قبلَهُ.

قال الله تعالى في داودَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]،

---

(١) أخرجه ابنُ جرير، انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٢) قال في (الدر المنثور) عند الكلام على هذه الآية الكريمة: أخرجه ابن جرير وابن المنذر. اهـ.

حكمةَ تدابير المملكة لأنَّه كان ملكاً.

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في المقامِ لا في الأملاكِ.

أمَّا فصلُ الخطابِ: فهو القولُ الفاصلُ بين الحقِّ والباطلِ، الذي من جملته القولُ البليغُ، وقد أُوتي هذا عليه الصَّلاة والسلامُ: «وأوتيتُ جوامعَ الكلِمِ»[١].

ومن جملةِ فصْلِ الخطابِ: إعادةُ الكلامِ على حسب المصلحةِ، وكان عليه الصَّلاة والسلام يعيد الحديثَ ثلاث مرَّات، إذا كانَ الحديثُ يقتضيْ الإعادةَ، وليسَ في هذَا إملالٌ، ففي المرَّةِ الأُولَى يسمعُها مَنْ سمعَها، وفي المرَّةِ الثَّانية يسمعُها من لَمْ يسمعهَا أولاً، ومن سمع أوَّلاً استفاد من الثَّانيَة زيادةَ ضبْطِ الكلمَةِ وفي المرَّةِ الثَّالثة تزيدُهُ معنى وفهماً[٢].

وكذلكَ سيِّدنا عيسى عليه الصَّلاةُ والسلامُ، فقد أُعطِيَ من الحكمَةِ على حسب نبوَّتهِ ورسالَتهِ، وقد نُقِلَ من كلامهِ حكمٌ كثيرةٌ.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «نصرتُ بالرُّعب على العدوِّ، وأوتيتُ جوامع الكلِمِ، وبينما أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض؛ فوضعت في يديَّ» رواه البخاري في كتاب التَّعبير، باب المفاتيح في اليد /٧٠١٣/ (١٢/ ٤٠٠)، ومُسلمٌ ـ واللفظُ لهُ ـ في كتاب المساجد ومواضع الصَّلاةِ /٥٢٣/ (٢/ ٦٦١).

(٢) فقد جاء في (صحيح) البخاري، في كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه /٩٤/ (١/ ١٨٨)، عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه، عَنِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: (أنه كان إذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلَّمَ عليهم؛ سلم عليهم ثلاثاً).

وأُعطِيَ الحكمةَ أيضاً فيما يتعلَّقُ بالعلاجَاتِ ومُداواةِ المرضى ، قالَ تعالى: ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: ١١٠].

فكلٌّ منهم له علاجٌ خاصٌّ وإن كان علاجُهُ لهم بالمسحَةِ النَّبويَّة ، إلا أنَّ هذا يحتاجُ إلى علم نبويٍّ وحكمةٍ؛ فيقرأُ على هذا كذا وكذا من الأسماء ، ويمسحُ على هذا ، مع مُلاحَظَةِ عدم تعطيلِ الأَسبابِ الظَّاهرة من العلاجَات ، لأنَّه لا يمكنُ لنبيٍّ أن يعطِّل الأَسبابَ التي شرعها الله تعالى ، فهُم يأخذونَ بالأسبَابِ الظَّاهرَةِ والبَاطِنَةِ؛ وهذا من الحكمةِ التي أُوتُوْهَا.

أمَّا أن تقولَ بالأخذِ بالأَسْبَابِ الباطِنَةِ دونَ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ ، فيقالُ لكَ: إنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ خاضَ المعارِكَ مع أصحابِهِ الكرامِ ، فبدَلاً من ذلك فإنَّ دعوةً واحدةً منه تُهلِكُ الكُفَّارَ كلَّهُم!!.

فهذا ليس من الحكمة في شيءٍ ، لأنَّ فيه تعطيلاً للأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ من جهادٍ وغيرِهِ ، فالحكمةُ النَّبويَّةُ مصحوبَةٌ بالعلم الصَّحيح ، الذي من جملَتِه معرِفَةُ أمزِجَةِ النَّاسِ.

ومن هذا ما كان صلَّى الله عليه وآله وسلم يفعلُه مع من يسألُهُ: «أيّ الأعمالِ خيرٌ»؟ فيُعْطِي الجوابَ على حَسَب حالِ السَّائلِ ومزاجِهِ ومصلحتِهِ.

فقد قال لأحدهم: «الصَّلاةُ لوقتِهَا»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ في كتاب التَّوحيد ، بابٌ وسمَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم الصَّلاة عملاً / ٧٥٣٤/ (١٣/ ٥١٠) ، عن ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «الصَّلاة =

وقال لآخرَ: «تُطعِمُ الطَّعام ، وتُقْرِئُ السَّلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرِفْ»(1) ، وهكَذَا. . .

وقال لِرَجُلٍ عندما قال له: أوصني ، قال: «لا تغضَبْ»(2) .

وقال لمعاذٍ رضي الله تعالى عنهُ لمَّا قال له أوصني: «أُوصيكَ بتقوى الله»(3) .

ونسأل الله التَّوفيقَ ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

= لوقتها ، وبِرُّ الوالدين ، ثمَّ الجهادُ في سبيل الله».

(1) رواه الإمام أحمد في (المسند): (٢/١٦٩) ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما ، أنَّ رجلاً سأل النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الأعمالِ خيْرٌ؟ قال: «أن تُطعِمَ الطَّعام ، وتُقرِئَ السَّلام على من عرفْتَ ومن لم تعرِفْ».

(2) رواه البخاريُّ في كتاب الأدبِ ، بابُ الحذَرِ من الغضَب /٦١١٦/ (١٠/٥١٩) ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قال للنَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أوْصني ، قال: «لا تغضب» ، فردَّدَ مراراً ، قال: «لا تغضب».

(3) رواه الإمام أحمد في (مسنده): (٢/٢٣٦) ، عن معاذٍ رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: يا رسولَ الله أوصني، قال: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ» أو «أينما كنت» قال: زِدْنِي. قال: «أتبعْ السَّيئةَ الحسنةَ تمحُهَا» قال: زدني ، قالَ: «خالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ».

المحاضرة الثالثة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وأفضلُ الصَّلاة وأكمل التَّسليم ، على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سُبْحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أمَّا بعدُ:

فقد تقدَّم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فقد امتنَّ الله تعالى على عباده ببعثة النَّبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيَّن الحكمة في إرساله عليه الصَّلاة والسَّلام ، وذلك أنَّ الله تعالى بعثه إلى العالم ، وله معهم مواقف تتوقَّف عليها سعادتُهم في الدُّنيا والآخرة.

ومن جملة مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: هذه المواقف الأربعة المذكورة في الآية المتقدِّمة؛ ومنها: أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى ، ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة ، ويزكِّيهم.

وقد أجملنا الكلام على موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تلاوة آيات الله تعالى ، وموقفه في تعليم النَّاس الكتاب والحكمة ، وسنذكر الآن جملاً حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تزكية العالم ، لأنَّ من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنَّه جاء مزكِّياً لهم ، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

* * *

موقفهُ صلى الله عليه وآله وسلَّم في تزكية النُّفوس

لقد أرسلَ الله تعالى رسولهُ سيِّدنا محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلَّم إلى العالم وله معهم مواقفُ متعدِّدةٌ ، تتوقَّف عليها سعادتُهم في الدُّنيا والآخرة ، ومن جملة هذه المواقف وأجمعها ، ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله : ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وإنَّ الله تعالى سيسأل الإنسان عن مواقفه مع هذا الرَّسول الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وماذا عمل فيما جاء به؟ وهل أنَّهُ تزكَّى بتزكية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل أنَّه تذكَّر بتذكير النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم؟ وهكذا. . .

وفي هذا يقول سبحانهُ وتعالى : ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فمن مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم : أنَّه جاء يُزكِّي العالم ، فما هي التَّزكية ، وما هي مراتِبها ، وأهمِّيتها ، وفضائلها؟ .

اعلم أيُّها الإنسان ، أنَّ التَّرقِّي في مقامات القرب ، والارتقاء

إلى الدَّرجات ، متوقِّف على مقام التَّزكية ، ولا يدخلُ الجنَّة إلا من كان ذا نفسٍ زكيَّة طاهرة نقيَّة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٥ ـ ٧٦] أي : من تزكَّى بتزكية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنَّ التَّزكية لا تنالُ إلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله سبحانه فيه : ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ .

ومن هنا يفهم العاقل أنَّه لا غنى له عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيجب أن يحقِّق الارتباط الوثيق بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء يُبيِّن طُرُق السَّعادة في الدُّنيا والآخرة .

وإنَّ حياة الإنسان وسعادتهُ وسيادته ، وزكاة نفسه وصحَّة عقْلهِ ، كُلُّ هذا منوطٌ باتِّباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولهذا فإنَّ الإنسان أحوجُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم من حاجته إلى والده ، لأنَّ والدهُ كان سبباً في حياته الجسميَّة الدُّنيويَّة ، أمَّا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء بالحياة الحقيقية الأبديَّة ، التي قال الله تعالى فيها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

فلا غنى للإنسان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدُّنيا ولا في الآخرة ، فَلْيُحْكم الصِّلة بينهُ وبين رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ليحيا حياة الأبد ، وينال سعادة الأبد .

وإنَّ حياةً لم تؤخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ،

ولم تُستمدَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إنَّما هي حياةٌ بهيميَّةٌ حيوانيَّةٌ ، وليست حياةً إنسانيَّةً كاملةً.

وإنَّ نفساً لم تتزكَّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم؛ إنَّما هي مجمعُ خبائث وقبائح.

وإنَّ قلباً لم يتزكَّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّما هو مجمعٌ للآفات والمفاسدِ.

وذلك لأنَّ الله تعالى خلق الإنسان ، وأودع فيهِ الصِّفات الملكوتيَّة العلويَّة ، وفيه الصِّفات البهيميَّة الحيوانيَّةُ.

ولذلك جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُزكِّي النُّفوس والقُلوب من بواعث الشَّرِّ والفساد ، وينهضُ بها إلى الكمالات الإنسانيَّة.

فمن لم يتزكَّ عن صفة الحقد مثلاً ؛ صار حقوداً كالجمل ، ومن لم يتزكَّ عن صفة الحرصِ صار حريصاً كالفأرِ ، ومن لم يتزكَّ عن صفةِ الأذَى والشَّرِّ صار عقرباً مؤذياً . . . وهكذا.

ورُبَّما أصبح في البغي والظُّلم كالسَّبع المفترس ، وقد يصيرُ في بلادَتِه كالحِمار وهكذا. ولا يتخلَّص الإنسانُ من هذه الصِّفات البهيميَّة الحيوانيَّة إلا إذا تزكَّى بتزكية سيدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك وصف الله سُبحانه وتعالى الكُفَّار الذين لم يستجيبُوا لرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصفهُم بالأنعام ، فقال جلَّ وعلا: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] لأنَّهم مجمعُ القبائح والرَّذائل.

وإنَّ من شأن النَّفس أن تأمرَ بالسُّوء: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن لم يُزكِّ نفسه بتزكيةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم اجتمعتْ فيه الصِّفات السَّيئةُ والأخلاقُ الذَّميمة.

ولمَّا كانت حاجةُ الإنسان إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم حاجةً ملحَّةً قويَّةً، تتوقَّفُ عليها حياتُهُ وسعادتُهُ، فإنَّ أوَّل ما يُسألُ عنه الإنسانُ إذا صار في قبرِهِ؛ يُسألُ عن صِلتهِ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتباطه معه.

فيقال له: «ما كنت تقولُ في هذا الرَّجل»(١)، ولا يكفي أن يُقال إنَّه عبدُ الله ورسولهُ، بل هل أجبتهُ واتَّبعته، أم أنَّك شهدتَ لهُ بالرِّسالة فقط؛ دونما انقيادٍ وطاعةٍ لما جاء به؟!.

لأنَّ الله سُبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

---

(١) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ في كتاب الجنائز، باب الميِّت يسمع خفق النِّعال /١٣٣٨/ (٣/٢٠٥)، ومسلم في كتاب الجنَّة، باب عرض مقعد الميِّت من الجنَّة أو النَّار عليه /٢٨٧٠/ (٥/٢٧٢٤) عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «العبد إذا وضع في قبره وتُولِّي وذهب أصحابهُ، حتَّى إنَّه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرَّجل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فيقول: أشهد أنَّه عبد الله ورسوله. فيقال: انظر إلى مقعدك من النَّار، أبدلك الله به مقعداً من الجنَّة».

قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «فيراهما جميعاً».

«وأمَّا الكافر ـ أو المنافق ـ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقولُ النَّاس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ثمَّ يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أُذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثَّقلين».

ولهذا كان جوابُ المُؤمنِ الكاملِ: «هُو مُحمَّدٌ رسولُ الله، جاءنَا بالبَيِّنات والهدى، فأجبنا واتَّبعنا، هو محمَّدٌ ـ ثلاثاً»[1].

ثُمَّ لمَّا يصيرُ الإنسانُ في الحشر والحساب، فإنَّ الله تعالى يسألهُ عن موقفه مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيقول: «ألم أبعث إليك رسولاً فيبلِّغك»[2]؟ أي: فما هو موقفك معه؟.

---

(١) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ في كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرَّأس /٨٤/ (١/ ١٨١)، ومسلمٌ في كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنَّة والنَّار /٩٠٤/ (٢/ ٩٦٣) عن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: أتيتُ عائشة رضي الله تعالى عنها وهي تُصلِّي، فقلت: ما شأن النَّاس؟ فأشارت إلى السَّماء، فإذا النَّاس قيامٌ. فقالت: سبحان الله. قلت: آيةٌ، فأشارت برأسها ـ أي: نعم ـ فقمتُ حتَّى تجلاني الغشيُ، فجعلتُ أصُبُّ على رأسي الماء، فحمد الله عزَّ وجلَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وأثنى عليه، ثمَّ قال: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي حتَّى الجنَّة والنَّار، فأوحي إليَّ أنَّكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريب ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ من فتنة المسيح الدَّجَّال، يقال: ما علمك بهذا الرَّجل؟ فأمَّا المؤمنُ أو الموقن ـ لا أدري بأيِّهما قالت أسماء ـ فيقول: هوَ محمَّدٌ رسول الله، جاءنا بالبيِّنات والهدى، فأجبنا واتَّبعنا، هو محمَّدٌ (ثلاثاً) فيقال: نم صالحاً، قد علمنا إن كنت لموقناً به؛ وأمَّا المنافِق أو المرتاب ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيقول: لا أدري، سمعت النَّاس يقولون شيئاً فقلته».

(٢) كما في الحديث الذي رواه البُخاريُّ في كتاب المناقب، باب علامات النُّبوَّة في الإسلام /٣٥٩٥/ (٦/ ٦١٠) عن عديِّ بن حاتم رضي الله تعالى عنه، وفيه قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «وليلقينَّ الله أحدُكم يوم يلقاهُ، وليس بينهُ وبينهُ ترجمانٌ يترجم له، فليقولنَّ له: ألم أبعث إليك رسولا فيبلِّغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأُفضل عليك. فيقول: بلى. فينظرُ عن يمينه فلا يرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يساره فلا يرى إلى جهنَّم». قال عديٌّ رضي الله تعالى عنه: سمعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «اتَّقوا النَّار ولو بشقَّة تمرةٍ، فمن لم يجد شقَّة تمرةٍ فبكلمة طيِّبة».

ولهذا يجب على الإنسان أن يفهم ويُوقن أنَّه لا غنى له عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم أبداً.

ويجبُ عليه أن يُحكِمَ الصِّلةَ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم والارتباط معه، وذلك بالاقتداء العمليِّ، والتَّزكية النَّفسيَّة، والاهتداء بهديه صلى الله عليه وآله وسلم، حتَّى يؤهِّل نفسه ويكون ممَّن يقول: «فأجبنا واتَّبعنا».

ولمَّا قال الله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] دَلَّ على أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم جُمعت له العلومُ والمعارفُ كلُّها، ونال أعلى مقام في زكاة النَّفس والقلب على وجه خاصٍّ، لأنَّه لا يكونُ معلِّماً إلَّا من كان عالماً، ولا يكون مزكِّياً إلا من كان في أعلى مراتب التَّزكية، وهي الطُّهرُ النَّفسيُّ، والبعدُ عن الخبث والدَّنس: الخُلقيِّ والعقليِّ والنَّفسيِّ.

فتأمَّل واعتبر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ حتَّى تعلمَ أنَّه لا أعظمَ من زكاة نفس رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أعظم من المقام الذي ناله في التَّزكية، حتَّى صار يُزكِّي العالمين كلَّهم؛ ولا شكَّ أنَّ الله تعالى هو الذي تولَّى تزكيةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد خلق الله تعالى الرُّسل وربَّاهُم تربيةً خاصَّةً، واصطفاهُم وزكَّى نُفوسَهم وطهَّرها من صغرِهم، ثمَّ نشؤوا وهم يترقَّون في مقامِ التَّزكية، وأعظمُهُم سيِّدُنا مُحمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد نالَ الأنبياءُ عليهم الصلاة والسَّلام تزكية النَّفس من

صِغرِهم ، وهي تطهيرُ النَّفسِ من رُعوناتِها وأدنَاسها ، وتزكيةِ القلبِ من الغِشِّ والمكرِ والحقدِ والغلِّ والحسدِ وما وراء ذلك.

ونالُوا التَّزكية العمليَّة بالقُربُات والطَّاعات لربِّ العالمين ، والتَّزكية الخُلقيَّة وهي الأخلاقُ الفاضلةُ العاليةُ.

إنَّ هذه التَّزكية بأنواعها فَطَرَ الله تعالى أنبياءهُ ورُسُلَهُ عليها من صِغَرهم ، وأنشأهم نشأةً زكيَّةً طاهِرةً ، ثمَّ جعلُوا يترقَّونَ في هذهِ المقاماتِ بحيثُ لا ينالُ مقامَهُم غيرُهُم ممَّن ليسَ بنبيٍّ ولا رسولٍ صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين.

وممَّا يدُلُّ على أنَّ الله تعالى توَلَّى تزكيةَ نُفُوسِ رُسُله من صِغرهم، وأنشأهُم نشأةً زكيَّةً طاهرةً ، قولهُ سُبحانَهُ وتعالى: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] ، والحُكم هو الإصابة في القول والعمل ، وقد أعطى الله تعالى هذا ليحيى عليه الصَّلاة والسَّلام منذُ كان صَبيَّاً ﴿وَحَنَانًا﴾ أي: آتيناهُ حناناً ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: عطفاً خاصَّاً منَّا عليه ، ومن حناننا عليه صارَ يحنُّ ويعطفُ على خلقِ الله تعالى ﴿وَزَكَوٰةً ۖ﴾ أي: آتيناهُ زكاةً من صغره حين كان صَبيَّاً ، وهي زكاةُ النَّفس والقلبِ والعقلِ والخُلقِ ، وليس زكاة المال لأنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا زكاة مَالٍ عليهم.

وقال الله سُبحانَهُ وتعالى في سيِّدنا عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] أي: بمراتِب الزَّكاة ، فهو زكيُّ القلب فلا غِشَّ ولا حسدَ ولا حِقدَ ، وزكِيُّ النَّفسِ فلا تأمُرُه نفسُهُ إلا بالخَيرِ ، وزكيُّ الخُلقِ ويتحلَّى بالأخلاقِ الكريمةِ العاليَةِ.

وقال سُبحانه في سيِّدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] أي: من قَبل أن يُنبَّأ حين كان صغيرَ السِّنِّ، آتيناهُ رشدهُ فلم يضلَّ ولم يغوِ ولم يفسُق.

قولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: كُنَّا في آزالِ الآزالِ عالمينَ بصدقِ إبراهيم، ولياقتِهِ واستعداده للرِّسالة ومقام الخلَّة.

وإنَّ أعظمَ الأنبياء زكاةً في النَّفس، وأعلاهُم مقاماً في طهارةِ وطيب القَلب والخُلق، هُو سيِّدُنا محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلَّم الذي قال الله سُبحانه وتعالى فيه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢] أي: بَل هو على الهداية والرَّشاد[1] منذُ صغرِهِ، وهذا باعترافكُم، لأنَّه نشأ بينكم، وما جرَّبتم عليه إلا الصِّدق والأمانة والعفَّة والنَّزاهة.

ولمَّا كان رَسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أزكى العالمين نفساً، وأزكاهُم قلباً وخُلقاً، بل نال من مقام التَّزكية الإلَهيَّة أعلى مقام فيها، صار أهلاً أن يُفيضَ على العالمين، وأهلاً أن يُزكِّي العالَمينَ كُلَّهُم، ولذلك كان من مواقفه مع العالم أنَّهُ جاء مُزكِّياً لهم، كما قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

وجوب حاجة الإنسان إلى تزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

اعتبر أيها العاقل وتفكر في قوة زكاة نفسه صلى الله عليه وآله

---

(١) والغواية ضدُّ الرَّشاد، والرُّشدُ هو الإصابة في القول والعمل والخُلُق.

وسلم ، وطهارة قلبه ، وطيبه ، وقوة معناه ، لأنّ الذي جاء يزكي العالم لابد أن تكون نفسه أزكى النفوس ، وقلبه أطهر وأطيب القلوب. فما أعظم زكاة نفسه صلى الله عليه وآله وسلم وما أطهرها وما أقدسها!!.

وقد دل على هذا ما رواه الدارمي[١] ، عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف علمت أنك نبي حين نبئت[٢]؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «جاءني ملكان ، قعد أحدهما في الأرض والآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما للآخر: أهو هو؟ قال: نعم هو هو ـ أي: هذا هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم المعروف في الأعلى ، والمعلن شرفه في الملأ الأعلى ـ.

فقال أحدهما للآخر: زنه ، قال: فوزنت برجل ـ أي: كبير ـ من أمتي فرجحته ـ وهذا وزن المعاني والفضائل لا وزن المباني ـ.

قال: فزنه ، فوزنت بعشرة فرجحتهم ، قال: زنه بمائة ، فوزنت بمائة فرجحتهم ، قال: زنه بألف ـ أي: من خيار أمته ـ قال: فوزنت بهم فرجحتهم.

ثم قال الملك: لو وزن بأمته كلهم لرجحهم».

فلو وضعت كمالات العالمين في كفة ، ووضعت كمالاته صلى الله عليه وآله وسلم لرجح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولهذا أرسله الله تعالى يزكي العالمين ، لما فيه من أهلية

---

(١) (١/٩).

(٢) وهي من جملة علامات نبوته التي ظهرت وعرفها صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوة في زكاة النفس، وطهارة القلب، وكمال الخلق. حتى إن فيه القوة أن يفيض على العالمين كلهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إذاً فقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يدل على شرف مقامه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه أطهر العالمين وأزكاهم وأفضلهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢] فالطاء للطيب والطهر، والهاء للهداية، والمعنى: يا أيها النبي الطيب الطاهر المطهر، والهادي للعالمين.

ولا تنكر أن حروف فواتح السور تدل على معانٍ سامية كبيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يدل أيضاً على شدة حاجة الناس إلى تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم، ولأن يتزكوا بتزكيته صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليتخلوا من الدنس والرجس، ويتحلوا بالفضائل والكمالات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتزكوَ نفوسهم، وتتحقق لهم الإنسانية الكاملة الفاضلة.

وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] أي: فلا تزكوا أنفسكم بالأقوال، بأن يمدح أحدكم نفسه ويثني على نفسه، ويرى لنفسه شأناً واعتباراً، وإنْ بلغ من المراتب والمقامات ما بلغ، فما له أن يمدح نفسه ويدَّعي طهارتها وطيبها فهو سبحانه العالم بكل إنسان، وبما انطوت عليه نفسه.

ولقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من قبضة قبضها من جميع تراب الأرض، وكل بني آدم إنما هُم فروع منه، فهو سبحانه يعلم

الأرض والتراب الذي خُلق منه كل إنسان، وهل أنه من الأرض الطيبة أم الخبيثة، وهل هو من الأرض السهلة أم الوعرة، وهل هو من السوداء أم البيضاء وهكذا...

وقد جاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم السهل والحزن، والخبيث والطيب، والأحمر والأسود وبين ذلك، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وهو سبحانه العالم بكل إنسان لمَّا كان في بطن أمه، وتتوارد عليه المعاني على حسب استعداده وهو جنين ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ﴾ [النجم: ٣٢] بالمدح والثناء على أنفسكم، ومن رأى في نفسه صلاحاً وتقىً فليحمد ويثني على الذي تفضل عليه بذلك، ووفقه لذلك، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا من باب التحدث بنعمة الله تعالى بأن يقول للمؤمنين: لقد أنعم الله عليَّ بالإيمان، وأكرمني بالتقوى، وتفضل عليَّ ووفقني لفعل الصالحات وهكذا...

وأما قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] أي: تطهر بتزكية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بأن تحقق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أوامر عملية وقولية وخلقية وأدبية.

وأما الأسباب التي توجب على الإنسان أن يتزكى بتزكية النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتتلخص فيما يلي:

لقد خلق الله الإنسان وجعل نفسه مجمعاً كبيراً لأمور عديدة، وقوى متناقضة.

فشعرُ الإنسان الذي يَنْبت في جسمه هو بمنزلة العشب الذي

ينمو على وجه الأرض ، وكما حوت الأرض جملة من المعادن فإنّ في جسم الإنسان: الحديد والنحاس والكلس وغيرها ، لكنه بشكل متطور ملائم لجسم الإنسان.

وقد حوى الإنسان أيضاً على القوى الحيوانية البهيمية والغضبية والشهوانية ، وفيه الروح الإنسانية التي هي من عالم الأمر الرباني ، فلقد اجتمع في الإنسان عالمان: عالم علوي وعالم سفلي ، وهذا العالم السفلي فيه القوى المتشاكسة ، التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١ ـ ٢].

والمعنى: لقد أتى على كل إنسان زمن طويل لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ـ أي: معروفاً تذكره الناس ـ إلى أن خلقه الله وصار يُذكر ، ففي الآية استفهام تقريري ـ أي: أنّ الأمر هكذا مُقرٌّ به لا ينكره عاقل ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلف الدواعي والقوى ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: خلقناه من نطفة حوت أخلاطاً من الدواعي والقوى لنبتليه ـ أي: نختبره بالتكاليف الشرعية ـ فهل هو يميل إلى الرذيلة أم إلى الفضيلة؟ وهل هو يميل إلى الدنس والنجس فيتسفل إلى الصفات البهيمية ؟ أم يرقى بنفسه إلى مستوى المَلَكِيَّة العلوية.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: ومن أجل ذلك التكليف جعلناه ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ذا عقل يُفكر ويتعقل به ، إذ إن السمع والبصر لا ينفعان صاحبهما إلا بالعقل ، فهو ينظر فيتعقل ، ويسمع فيتعقل، فيعرف ما ينفعه وما يضره ، ولما كان الإنسان بعقله قاصراً عن إدراك كثير من الأمور بسعادتها وشقائها ، فلقد بين له سبحانه

طريق الخير وطريق الشر، وطريق السعادة وطريق الشقاء، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] أي: بَيَّنَّا له طريق الخير والحق بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسله الله هادياً فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبين للإنسان طريق الخير والسعادة، ويبين له القوى المجموعة فيه، وكيف يتحكم فيها، وما هو مقياس شرف الإنسان واعتباره.

فإذا كنت تعتبر أن شرفك بجمع المال ومنعه، فإنَّ جبال الذهب أشرف منك، فاذهب إليها وَقَبِّلها، وامنع الدواب أن تطأها بأقدامها.

وإذا كنت تعتبر أن الشرف بضخامة الجسم والهيئة؛ فإن الفيل والجمل أشرف منك، لأنهما أضخم منك جسماً.

وإذا كنت تعتبر أن الشرف بجمال الهيئة والزخرفة؛ فإن الطاووس أشرف منك.

وإذا كنت تعتبر أن الشرف بكثرة إتيان النساء؛ فإن العصفور أسرع وأقوى...

فما هو إذاً مقياس الشرف والاعتبار؟.

نعم إنَّ شرف الإنسان واعتباره يكون على حسب تحققه بالتكاليف الشرعية، وتمسكه بما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إن الشريعة فيها صلاح الإنسان وسعادته، فكلما تمسك بها كلما ازداد ارتقاءً في الكمال الإنساني، ونال شرف التقرب والكرامة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

﴿عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أغناكم أو أقواكم أو أجملكم، وإنما للإنسان من هذه الصفات والقوى ما حدَّد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبين له مصارفها.

ولقد خلق الله تعالى الإنسان شريف الأصل، وشريف الفصل، وشريف البداية، فليحرص على ذلك، وليرجع إلى ربِّه كريماً مُكرَّماً كما خلقه.

أما شرف أصلك فلقد خلق الله تعالى جسم آدم بيديه، كما قال لإبليس لما امتنع عن السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] أي: سجود تكريم وتعظيم.

ولقد أدركت الملائكة سر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فسجدوا كلهم لآدم، وأما إبليس فقد عمي عن ذلك السر وامتنع عن السجود، واعترض على حكمة الله تعالى، وراح يقرن النار بالطين، فظهر له أن الشرف لمن خلقه الله من نار؛ فَضَلَّ وَكَفَر والعياذ بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: روحاً بداية خلقها مشرفة مطهرة، وأوصلتها إلى جسم آدم، ثم إلى ذريته من بعده.

فيجب على من عرف شرف أصله أن يحافظ عليه، ولا يدنس نفسه، بل يزكيها بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيرتقي في مدارج الكمال حتى يحل ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

ومن أعرض وبقي على دنسه وخبثه ، فيهوي أسفل سافلين ، وصار في مستوى البهيمية التي أخبر عنها سبحانه بقوله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد وصف سبحانه بَلْعَم بن باعوراء لما انسلخ عن الأوامر الشرعية التي جاء بها موسى عليه السلام: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

فلا بد لكل إنسان أن يتزكى بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى تتحقق له الإنسانية الكاملة العالية ، ويصير إنساناً كاملاً بالمعنى كما هو إنسان بالصورة والمبنى.

ومن أعرض عن تزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وانسلخ من شريعته صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد تجرد عن حقيقته الإنسانية ، وصار إنساناً بالصورة فقط ، ولكنه من حيث المعنى والحقيقة حيوانٌ بهيميٌّ شهوانيٌّ ، لا يعرف من الدنيا إلا الأكل والشرب والشهوة ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [القتال: ١٢].

واعلم أن العبرة من الأشياء للصفة والحقيقة وليس للصور والشكل ، فالسيارة مثلاً لم تسم سيارة إلا لأنها تسير ، ولو أصيبت بضرر وعطل ولم تعد قادرة على السير صارت في صورتها واسمها سيارة ، ولكنها في معناها وحقيقتها كتلة حديد ومعادن.

وكذلك الإنسان إنْ هو لم يتحقق بالكمالات الإنسانية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو في صورته إنسانٌ لكنه حيوانٌ في الحقيقة ، ومَنْ تحقق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد كملت له إنسانيته ، وصار إنساناً في الصورة وإنساناً في المعنى ، يحيا إنساناً ويموت إنساناً ، ويُحشر إنساناً ، ويرقى في المقامات الإنسانية ، حتى يدخل الجنة على أجمل صورة إنسانية.

ومن وجوه الحاجة إلى تزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا لمَنْ طهّر نفسه من الدنس والرجس ، وعالج قلبه من الأمراض والشبهات ، وإن ذرّة فساد في نفس المؤمن تمنعه عن دخول الجنة حتى يتطهر منها ، وتطيب نفسه ، ومن لم يُحصِّل ذلك في الدنيا ، ومات ولم يتب؛ فسيمر على برازخ الآخرة ليطهر ويطيب ، ومن كان الفساد والخبث متمكناً فيه؛ فلا بد له من غمسة في جهنم ، حتى إذا تطهر وطاب صار أهلاً لدخول الجنة ، لأن الجنة لا يدخلها إلا طاهر طيب كما قال تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[(١)].

---

(١) كما في (صحيح) الإمام مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه / ٩١/ (٣١٠/٤).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الديوث، والرَّجِلَةُ من النساء، ومدمن الخمر»[١] - وفي رواية: «والعاق لوالديه»[٢].

والديوث هو الذي يرضى السوء والعار، ولا يبالي ولا تأخذه الغيرة على أهله؛ إن نظر أحد إليها أو لامسها أو شم ريحها...

والرجلة من النساء هي: المرأة التي تتشبه بالرجال، في كلامها وفي أفعالها.

كما أن دنس النفس يحجب الإنسان عن التقرب إلى الله تعالى، ولذلك أخبر سبحانه عن موسى عليه السلام لما ذهب إلى فرعون فقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩] فعليك أولاً أن تتزكى بأن تتطهر من تكبرك وعلوك، ودعواك الربوبية، ثم ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

وقد بين سبحانه صفة أهل الفلاح والفوز فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥] وصفة أهل الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].

واعلم أيها الإنسان العاقل أن للذنوب ظلمة تحجب القلب عن الله تعالى، فلا يرى صاحب القلب المذنب حلاوة في عبادته، ولا يجد خشوعاً في قلبه إن هو صلى أو قرأ القرآن أو ذكر الله تعالى.

---

(١) رواه الطبراني، قال الحافظ المنذري في (الترهيب): ورواته لا أعلم فيهم مجروحاً، وانظر (مجمع الزوائد) (٤/ ٣٢٧).

(٢) عند البزار انظر (مجمع الزوائد) (٨/ ١٤٧).

وقد أخبر سبحانه عن احتجاب الكفار عن الله تعالى بسبب ظلمة ذنوبهم ؛ حتى يتنبه المؤمنون ويتجنبوا خطر الذنوب ، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] أي: خيَّم وأحاط بقلوبهم ظلمة ذنوبهم ، فحجبت قلوبهم عن ربهم في الدنيا ، وكانت النتيجة في الآخرة: أن احتجبوا عن رؤية الله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه»[١] الحديث.

وفي الحديث أيضاً: «تعرض الفتن على القلوب كالحصى عُوداً عُوداً[٢] ـ أي: تعود مرة بعد مرة ـ فأي قلب أشربها[٣] نكت في قلبه نكتة سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها نُكت في قلبه نكتة بيضاء ، حتى تَصِيرَ قلوب الناس على قلبين: على أبيض مثل الصفا ، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز[٤] مُجخِّياً؛ لا يَعْرِف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه»[٥].

---

(١) رواه الترمذي وصححه في كتاب تفسير القرآن ، ومن سورة المطففين ، برقم /٣٣٣١/ (٩/٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) بفتح العين، وفي رواية بضم العين، كعود الحصير واحداً بجانب الآخر... وهكذا.

(٣) أي: شربها واستحلاها.

(٤) أي: كالكوز المقلوب رأساً على عقب.

(٥) ينظر (صحيح) مسلم كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب /١٤٤/ (١/٢٩٥) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

فلابد إذاً لكل مؤمن لكي يحفظ قلبه من زوال الإيمان ، أو زيغه ، لابد له أن يُحاسب نفسه ، ويبادر إلى التوبة والاستغفار ، عملاً بوصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاده ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(١) .

وقوله: «دان نفسه» أي: حاسبها ، والكَيِّسُ هو الفطن اللبيب.

والمحاسبة تقتضي التوبة ، والتوبة هي أول مقامات الإيمان الكامل، كما قال تعالى في أول صفة من صفات المؤمنين: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] أي: وهؤلاء هم أهل الإيمان الكامل ، أهل البشائر من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) رواه الترمذي / ٢٤٦١/ (٧/ ١٦٥) وابن ماجه / ٤٢٦٠/ (٢/ ١٤٢٣).

علاقةُ التَّزكية ومعناها

إنَّ التَّزكية تتعلَّق بالنَّفس ، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٩].

فالأصلُ في التَّزكية هو النَّفس ، ثمَّ يظهرُ أثر ذلك على الخلق ، فبتزكية النَّفس تترقَّى النَّفس في مراتبها ؛ من الأمَّارة بالسُّوء ، إلى اللَّوَّامة ، إلى المُطمئنَّة.

وأمَّا معنى التَّزكية فيشملُ التَّخلية والتَّحلية.

فيقال فلانٌ زكَّى ماله: أي: طهَّره ممَّا دخل فيه ، ثمَّ نمَّاه وزادهُ بركةً ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما نقص مالُ عبد من صدقة»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣١) والتِّرمذيُّ في كتاب الزُّهد ، باب ما جاء مثل الدُّنيا مثل أربعة نفر / ٢٣٢٦/ (٧/ ٨١) عن أبي كبشة الأنماري رضي الله تعالى عنه ، أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ثلاثةٌ أقسم عليهنَّ ، وأحدِّثكم حديثاً فاحفظوه» قال: «ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمةً فصبر عليها إلا زاده الله عزّاً ، ولا فتح عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقرٍ ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه» قال: «إنَّما الدُّنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتَّقي فيه ربَّه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقّاً؛ فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النِّيَّة يقول: لو =

فالزَّكاة تدلُّ على أمرين: إبعادٍ عن النَّقصِ والخلل، وتكميلٍ بالفضلِ.

فالتَّزكيةُ: تخليةٌ عن القبائح والرَّذائل، ثُمَّ تحليةٌ بالكمالات والفضائل.

ويقالُ: زكى الشَّيء إذا نما وزادَ؛ ولكنَّهُ لا ينمو إلا إذا صحَّ في نفسه من كلِّ نقصٍ وخللٍ، كما لا تنمو حبَّةُ الحنطة إلا إذا صحَّت في نفسها من العُفونَةِ والفساد، وفي ذلك عبرةٌ لأولي الأبصار.

فلمَّا قال الله تباركَ وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ دلَّ ذلك على أنَّهُ يجب على الإنسان أن يكون موقفهُ موقف من تزكَّى بتزكية رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، بأن يتطهَّر من المفاسد، ثمَّ يتكمَّل بالفضائل التي أرشد إليها وبيَّنها صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: أفلحَ من تحقَّقَ بمقامِ التَّزكية، وهو الطُّهرُ النَّفسيُّ والطُّهرُ القلبيُّ.

ثُمَّ بيَّن الله سُبحانَهُ وتعالى أنَّهُ قد يعترضُ الإنسان شواغِلُ، فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تُفضِّلونها على تزكية النَّفس، وتعطوا نفوسكم ما تريد من شهوات الدُّنيا ونعيمها ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] أي: خيرٌ من الدُّنيا، وأدوم نعيماً، وأسعد حالاً، ولا تتأهَّلون لتلك الحياة السَّعيدة، والنَّعيم الدَّائم،

= أنَّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته فأجرهما سواءٌ. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً؛ فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيَّته فوزرهما سواء».

إلَّا بأن تتزكَّوا بتزكية رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويقول سبحانه وتعالى في وصف أهل الإيمان الكامل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣] أي: عن فضول الكلام المباح الذي لا فائدة منه في الدُّنيا والآخرة.

وليس المُرادُ باللَّغو في الآية الحرامُ، لأنَّ سياق الآيات في وصفِ أهلِ الكمال، فهم من بابٍ أولى مُعْرِضون عن الحرام.

ويقال عن صوتِ العصافير: لغي، لأنَّ الإنسان لا يفهم معناه، فاللَّغو هو الكلامُ الذي لا فائدة منه في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ أمَّا الكلام الحرامُ فلا يجوزُ أصلاً الاشتغال به.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] أي: فاعلون ما أمرهم الله تعالى به لتزكية نفوسهم، لأنَّ هذه الآية في سورة المؤمنون، وهي مكيَّة النُّزول، ولم تكن زكاة المال مفروضة في مكَّة قبل الهجرة.

وهُناك من قال: كانت زكاة المال مفروضَةً في مكَّة؛ ولكن بمقدارٍ غير معيَّنٍ، ثمَّ حدِّدت المقادير في المدينة المنوَّرة.

وعلى كلٍّ يقال: إنَّ كلَّ عملٍ يقرِّب إلى الله تعالى، فيه تزكيةٌ للنَّفس وتطهيرٌ وتكميلٌ لها، ومن جملة ذلك: زكاةُ المال، ومن أدَّى زكاة ماله حقَّاً كاملاً فإنَّه قد زكَّى نفسهُ وطهَّرها من البُخل والشُّح، ثمَّ إنَّ نفسهُ تنحُو وتطمعُ لعملِ الخيرات، فزكاةُ المال هي من جملة الأمورِ التي يفعلُها أهل الإيمان.

أمَّا قولهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] فلا

يتنافَى مع قوله سُبحانَهُ وتعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

لأنَّ المُرادَ من قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ المراد بها التَّزكية العمليَّة، وهي التَّحقُّق بالأعمال الصَّالحة، والأخلاق المرضيَّة التي أمر بها النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: بالأقوال، أي: لا تذكُر ما فيك مادحاً لنفسك بالكلام ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال سُبحانه وتعالى في بيان تزكية النَّفس وفضلها: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أي: نورها وضيائِها ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ تبعها حينما يكون بدراً، فإنَّه يظهر فور غروب الشَّمس ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: إذا جلَّى الأرض وأظهرها ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ يغشى الأرض ويغطِّيها ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٥] أي: والذي بناها، لأنَّ كلَّ بناء لابدَّ له من بان، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقدرةٍ وقوَّة إلَهيَّة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وإنَّا لواسعون في القدرة، وموسعونَ البناء والخَلْق، وهذا ما ترونه في السَّماء والأرض لأنَّ قدرتنا لا تتناهى ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٦] أي: والذي مهَّدَها ودحاها، و﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١].

وبعد ما ذكر سبحانه وتعالى الآفاق الكونيَّة ذكر الإنسان، فقال

سُبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] فقابل الإنسان بالأكوان، ليدلَّ على أهميَّة خلق الإنسان وخطر شأنه، وكأنَّ الأكوان في كفَّة، والنَّفس الإنسانيَّة في كفَّة ثانية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: والذي جعلها سويَّةً مستقيمة الخَلْق، في أكمل اعتدالٍ، وأحسنِ تقويم، حِسَّاً وصورةً ومعنىً ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] أي: دلَّها على الخير والشَّرِّ، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ثمَّ أثنى سبحانهُ وتعالى على أهل النُّفُوس الزَّكيَّة ثناءً خاصَّاً فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] أي: أفلحَ من زكَّى الله تعالى نفسهُ، وأفلح من زكَّى نفسه بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن سعى وزكَّى نفسه بتزكية رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّ الله تعالى يزكِّيه، ويخلقُ فيه التَّزكية، وهذا أمرٌ معروفٌ، وهوَ من باب الأخذ بالأسباب التي لابُدَّ منها، والمُزكِّي على الحقيقة هوَ الله تعالى، كما أنَّ الرَّزَّاق على الحقيقة هو الله تعالى، إلا أنَّـهُ لابُـدَّ للإنسان من سعي وطلبٍ للرِّزق.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: من رزق الله تعالى ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [تبارك: ١٥].

فالله سبحانه وتعالى هو يُزكِّي النُّفوس، وعلى العباد أن يسلكُوا طريق التَّزكية لينالوا ذلك.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] وهذا لأنَّ من زكَّى نفسهُ حتَّى صارت نفساً زكيَّةً ارتقت حتَّى صارت ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٥] وأمَّا من دسَّ نفسهُ بأنْ أهانها وارتكب ما حرَّم الله؛ فقد خابَ وخسرَ، لأنَّ الدَّسَّ والتَّدسيسَ بمعنىً واحد، وهو وضعُ الشَّيء في مكان حقير، وهذا شأنُ من لم يتزكَّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ضيَّع نفسه وأهانها، وكأنَّهُ وضعها في مواضع الرَّذائل والقبائح.

وكان صلَّى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ هذه الآيات جهر بهذا الدُّعاء، ليُعلِّمَهُ الصَّحابة الكرام ومن بعدَهُم: «اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها»(١).

وقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم طريق التَّزكية، ومن جملة ذلك ما قاله للرَّجُلِ الذي سألهُ: ما تزكيةُ المرء نفسه يا رسول الله؟ ـ أي: ما هو طريقُ التَّخلِّي والتَّطهُّر من الرَّذائل، والتَّحلِّي بالفضائل؟ ـ قال: «يعلمُ أنَّ الله معهُ حيث ما كان»(٢) أي: كنْ على خشيةٍ منهُ، ومراقبةٍ لعظمته وجلاله سبحانه، ممَّا يحملك على الكفِّ عن الرَّذائل والميل إلى الفضائل.

ويقول سبحانهُ وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] أي: إلا الذين رحمهُمُ الله تعالى ففطرهُم على

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب التَّعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل /٢٧١٦/ (٥/٢٦١١) عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اللَّهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر؛ اللَّهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

(٢) أخرجه البخاري في (تاريخه)، والبيهقي في (السنن الكبرى) في الزكاة، باب لا يأخذ الساعي فيما يأخذ مريضاً ولا معيباً، كما أخرجه في (الشعب) أيضاً.

تزكية النَّفس ، وهم الرُّسل والأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام ، وهناك من رحمهم الله تعالى بأنِ زكَّى نفوسَهُم فحفظهم سبحانه وهم الأولياء.

وهذه الآيةُ إخبارٌ عن كلام زَليخا ، وليس عن يُوسف عليه الصَّلاة والسَّلامُ ، لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام رسولُ الله ، وهوَ زكيُّ النَّفس بأصل فطرته وخلقته ، كما تقدَّم أنَّ الأنبياء والرُّسل أزكياء النُّفوس بأصل فطرتهم.

ومن ارتقى بنفسه الأمَّارة إلى النَّفس اللَّوامة ، وهي التي تفعل الطَّاعات ، وقد تقع في المعاصي وتلومُ نفسها وتتأسَّف وتتوب إلى الله ، ثمَّ ترتقي إلى النَّفس المطمئنَّة ؛ وهي التي اطمأنَّت على أوامر الله وانشرحت لها ، وتكرهُ المحرَّمات كراهية النَّار.

وسنذكر إن شاء الله تعالى وُجوهاً من تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للنُّفوس ، أي: تطهيرها من الرُّعونات والقبائح ، وتحليتها وتَطييْبها بالفضائل والمكارم؛ ونسأل الله تعالى ذلك من فضله ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المحاضرة الرابعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وأفضلُ الصَّلاة وأكملُ التَّسليمِ ، على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليمُ الحكيمُ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أمَّا بعدُ:

فقد تقدَّمَ الكلامُ على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فقد امتَنَّ الله تعالى على عباده ببعثة النَّبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وبيَّن الحكمةَ في إرسالِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وذلك أنَّ الله تعالى بعثهُ إلى العالمِ وله معهُم مواقفُ تتوقَّف عليها سعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

ومن جُملَةِ مواقفه صلَّى الله عليه وآله وسلم: هذه المواقِفُ الأربعةُ المذكُورةُ في الآيَةِ المتقدِّمة؛ ومنهَا: أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلُو على النَّاسِ آياتِ الله تعالى، ويعلِّمهُم الكتاب والحكمةَ، ويزكِّيهم.

وقد تقدَّم بعضُ الكلام على موقفه صلَّى الله عليه وآله وسلم في تلاوَةِ آياتِ الله تعالى، وموقفه في تعليم النَّاسِ الكتابَ والحكمةَ، وتقدَّم بعضُ الكلام على موقفه صلَّى الله عليه وآله وسلم في تزكيَةِ العالمينَ، وسنُفصِّلُ الكلامَ إن شاءَ الله تعالى على معنى التَّزكية وآثارِهَا وفضائِلهَا.

* * *

معنى التَّزكية

قولُه تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ التَّزْكيةُ هي: التَّطهيرُ، وفيها معنى النَّمَاءِ أيضاً، فهيَ تخليَةٌ وتحليةٌ كما تقدَّمَ بيانُ ذلكَ.

ولقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يزكِّي النُّفوس حسَّاً ومعنى، ظاهِراً وباطناً، خَلقاً وخُلُقاً، رُوحاً وجسماً، فكرَاً واعتقاداً.

وتتضمَّنُ تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للعالمينَ: تطهيرَ النُّفوسِ وتنظيفَها من الدَّنَسِ والرِّجْسِ، ومن النَّجَسِ والخَبَثِ، ومن الأدواءِ والعللِ القلبيَّةِ.

فلقد أمرَ صلَّى الله عليه وآله وسلم بالنَّظافة من الدَّنَسِ، وبيَّنَ أنَّ النَّظافة من الإيمَان، كما في قوله: «إنَّ الإسلامَ نظيفٌ، فتنظَّفُوا، فإنه لا يدخلُ الجنَّة إلا نظيفٌ»[1].

وهناكَ النَّظافةُ الأقوى، وهي النَّظافةُ من النَّجس، بالتَّطهُّر عن الأَبْوالِ والأقْذارِ، وعن كُلِّ ما ثَبتَتْ نجاستُهُ شرعاً.

وهناكَ الطَّهارةُ والنَّظافةُ من الرُّعونَات القلبيَّةِ، والشَّهواتِ

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) كما في (مجمع الزوائد) (٥/ ١٣٢) بلفظ «الإسلام نظيفٌ فتنظَّفوا، فإنَّه لا يدخل الجنة إلا نظيفٌ» عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الخطيب (٥/ ١٤٣) بلفظ: «إن الإسلام...».

الحيوانيَّة، وهي طهارةُ القلوبِ حتَّى تستعدَّ للتلقِّي من علَّامِ الغيوبِ سبحانه وتعالى.

ولا يُعرفُ طريقُ الطَّهارةِ هذا إلا عن سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

فلقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم بالعلاجَات والأدوية الشَّافية للأمراض القلبيَّة والنَّفسيَّة ، كما بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم كيفيَّة الطَّهارة الشَّرعيَّة من الأنجَاس والأقْذارِ ، وأمرَ بالطَّهارة الحسِّية للأجسام ، والتَّباعُدِ عن الأوسَاخِ والأوخَامِ.

* * *

تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للنُّفوسِ

لقد طبعَ الله تعالى النَّفْسَ الإنسانيَّةَ على صِفَاتٍ مختلفَةٍ، وجعلَ فيها صِفاتٍ حيوانيَّةً بهيميَّةً ، ففيها صفةُ المكرِ ، وهي موجودةٌ في الثَّعلبِ ، والحقدِ ، وهو عند الجملِ ، وصفةُ الإفراط في الشَّهوَةِ وعدمِ الحيَاءِ ، وهي أكثرُ ما تكونُ عندَ الكلبِ ، وصفةُ استحلالِ المحرَّمَات والقبائح كما هُوَ شأن الخنزيْرِ ، وصِفَةُ الشُّحِ والطَّمَعِ ، كما هُوَ صِفَةُ الفِئْرَانِ ، وغَيْرِ هذا من الصِّفَاتِ والطَّبَائِعِ .

ولكي يترقَّى الإنْسَانُ في الكَمالات الإنسانيَّة ، ويتخلَّصَ من هذه الصِّفَاتِ البهيميَّةِ ، عليْه أن يَصْرِفَ هذهِ الصِّفات والأخلاقَ في مصارِفِهَا التي بيَّنها، وجاء بنظامِهَا وكمالاتِهَا سيِّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مُقْتَضى قوله تعالى : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ .

والخُلُقُ هو صِفَةُ الخَلْقِ ، فما يصدُرُ عن خَلْقِ الإنْسَانِ ـ أي : ذاتِه ـ يسمَّى خُلُقاً ، والذي أعْطَى الإنْسانَ خلقَهُ هو الذي أعْطَاهُ خُلُقَهُ؛ فهُمَا مُتلازِمَان ، أي : الخَلْقُ والخُلُقُ؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الأخلاق أمورٌ جبلِّيَّةٌ .

فكما أنَّه سبحانه فطَرَ الإنسانَ على التَّوحيد ، فطرَهُ أيضاً على الأخْلاقِ الحميدةِ الكاملةِ ، لكنَّه بعد ذلك اتَّبع هواهُ وضلَّ ، وسلكَ بخُلُقِه نحوَ الشَّهواتِ البهيميَّةِ ، والأهواءِ الفاسدةِ ، فأرْسَلَ

الله تعالى الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسلام حتَّى يردُّوا النَّاسَ إلى الصِّراط المستقيم ، وأن يعُودوا بهم إلى الأخلاق الفاضلة الحميدة ، وأن يصرفُوا ما أودعَ الله تعالى فيهم من طبائعَ وغرائِزَ في مصارِفِها المُناسِبَةِ.

فمن الأخْلاقِ والطَّبائع التيْ جَبَلَ الله تعالى علَيْهَا الإنْسانَ:

الحِرْصُ ، والحسَدُ ، والغَضبُ ، والغيبةُ ، والنَّميمةُ ، والبَطْشُ ، والتَّكبُّر ، والعُجالةُ ، وغيرُها.

لكنَّ الله تعالى بيَّنَ مصارِفَ هذه الطَّبائع ، فهُناك الحسدُ المذْمُومُ ، وهُناك الحسدُ المحمُودُ ، وهُناكَ الغضبُ المذمُومُ ، وهناك الغضبُ المحمُودُ ، وهكذا. . .

فلقدْ جاءتِ الشَّرائعُ تُعرِّف الإنسان وتُرشدهُ إلى كَيفيَّة التَّصرف بهذه الطَّبائع والأخلاقِ ، وأن يصرفها في مصارفها ، وإلا فالإنسان لا يستطيع أن ينتزعَ من نفسهِ هذه الأوصافَ والطَّبائع ، لأن الله تعالى خلقها فيه وجبله عليها ، وقد بيَّن سبحانه مصارف هذه الطَّبائع والقوَّات والشَّهوات بواسطة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام وشرائعهم.

وأعظمُ من جاء ينهضُ بالأخلاق والطَّبائع الإنسانيَّة إلى كمالاتها، هُو سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم ، كما بيَّن ذلك صلَّى الله عليه وآله وسلم بقوله: «بعثتُ لأتمِّم مَكارم الأخلاق»[١].

---

(١) قال العلامة الزُّرقاني في شرحه على المواهب ، في الفصل الثاني فيما أكرمه الله تعالى من الأخلاق الزكية: رواه مالكٌ في الموطأ بلاغاً. اهـ ، وأخرجه بلفظ «إنما بعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً =

وممَّا يدلُّ على أنَّ الأخلاق جبلِّية ، ما رواهُ الإمام أحمد في (مسنده)[1] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله قسمَ بينكم أخلاقكم كما قسمَ بينكم أرزاقكم ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطي الدُّنيا من يحبُّ ومن لا يُحبُّ ، ولا يعطي الدِّين إلا لمن أحبَّ ، فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه ، والَّذي نفسي بيده لا يُسلم عبدٌ حتَّى يُسلم قلبُه ولسانه ، ولا يؤمن حتَّى يأمن جارهُ بوائقهُ».

قالُوا: وما بوائقهُ يا نبيَّ الله؟.

قالَ: «غشمُهُ وظلمهُ[2].

ولا يكسبُ عَبْدٌ مالاً مِنْ حرامٍ فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدَّق به فيقبل منه ، ولا يتركُ خلف ظهره إلا كان زادهُ إلى النَّار ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يمحو السيِّىءَ بالسَّيِّىءِ ، ولكن يمحو السَّيِّىءَ بالحسنِ ، إنَّ الخبيثَ لا يمحو الخبيث».

فنهى صلى الله عليه وآله وسلم عن إيذاء الجار ، فهناك الجار في الدَّار ، وهناكَ الجارُ المجاور للجسمِ كالملائكة ، وهناك الجارُ المجاورُ للإنسانِ وهو أقربُ إليه من نفسه ، وهو الله العظيمُ سبحانهُ وتعالى.

= البيهقي في(السنن الكبرى) في كتاب الشهادات ، باب بيان مكارم الأخلاق ، والشهاب القضاعي في (مسنده) ، وجاء في (مسند) الإمام أحمد: (٢/ ٣٨١) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(١) (١/ ٣٨٧).

(٢) أي: أذاهُ وطغيانه.

وأمَرَ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتقرَّب الإنسان إلى هؤلاءِ كلِّهم بما فيه المرضاة والرِّضا.

فالإيمانُ يوجب على الإنسانِ أن لا يؤذي جاراً.

جاء في (الصَّحيحين) عن ابنِ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنِ الوَفْدُ» ـ أوْ «منِ القوْمُ»[١] ـ؟. قالُوا: ربيعَةُ.

قالَ: «مَرْحَباً بالقَوْمِ ـ أو بالوَفدِ ـ غير خزايَا ولا ندامىٰ».

قال: فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا نأتيكَ من شقَّةٍ بعيدةٍ، وإنَّ بيننا وبينكَ هذا الحيَّ من كفَّار مُضَرَ، وإنَّا لا نستطيعُ أن نأتيكَ إلا في شهرِ الحرامِ، فمُرْنَا بأمر فصلٍ نُخبر به من وراءنا، ندخلُ به الجنَّة.

قال: فأمرهم بأربعٍ، ونهاهم عن أربعٍ.

قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، وقال: «هل تدرون ما الإيمانُ بالله»؟. قالوا: الله ورسُولُه أعلمُ.

قال: «شهادةُ أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمدا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإقام الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، وصومُ رمضان، وأن تؤدُّوا خُمُسَاً من المغنمِ...» الحديث[٢].

---

(١) الشكُّ من الراوي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب تحريضِ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وفد عبدِ القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم /٨٧/(١/١٨٣)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدين والدُّعاء إليه /١٧/(١/١٣١).

وفي روايةٍ لمسلمٍ[1]: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم للأَشجِّ أشَجِّ عبدِ القيسِ: «إنَّ فيكَ خصلتينِ يُحبُّهما الله: الحلمُ والأناةُ».

وفي (سُننِ) أبي داود[2] عن الزَّارعِ بن عامرٍ رضي الله تعالى عنه ـ وكان في وفد عبد القيس ـ قال: لمَّا قدمنا المدينة فجعلنا نتبادَرُ من رواحلنا، فنقبِّل يد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ورجله، قال: وانتظر المنذِرُ الأشجُّ حتَّى أتى عيبته[3] فلبس ثَوبيهِ، ثمَّ أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ لهُ: «إنَّ فيك خَلَّتين يحبُّهما اللهُ: الحلم والأنَاةُ».

قالَ: يا رسولَ اللهِ، أنَا أتخلَّق بهما أم الله جبلنِي عليهما[4]؟.

قالَ: «بل اللهُ جَبَلَكَ عليْهِمَا».

قالَ: الحمدُ لله الَّذي جبلني على خلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُهُ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وسببُ قولِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك له، ما جاء في

---

(١) كما في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدِّين والدعاء إليه /١٧/ (١/ ١٣٧).

(٢) كما في كتاب الأدب، باب في قُبلة الرَّجل /٥٢٢٥/ (٥/ ٣٩٥).

(٣) العيبةُ: وعاء من جلد ونحوه يكون فيه المتاع.

(٤) وفي رواية في (مسند) أبي يعلى الموصلي (١٢/ ٢٤٢) وغيره، و(مسند) الإمام أحمد (٣/ ٤٣٢ و٤/ ٢٠٦): قال: (يا رسولَ الله كانا فيَّ أم حدثا؟ قال: «بل قديم» قال: قلت: الحمدُ لله الذي جبلني على خلقينِ يحبهما الله ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ) وانظر شرح النووي على مسلم، في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه، عند ذكر وفد عبد القيس /١٧/ (١/ ١٣٧).

حديثِ الوفدِ ، أنَّهم لمَّا وصلوا المدينة بادروا إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقام الأشجُّ[1] عند رحالهم ، فجمعها ، وعقل ناقته ، ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرَّبه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وأجلسه إلى جانبه ، ثمَّ قال لهمُ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «تُبايعونَ على أنفسكم وقومكم»؟ فقالَ القومُ: نعم.

فقالَ الأشجُّ: يا رسول الله إنكَ لم تُزاول الرَّجلَ عن شيءٍ أشدَّ عليه من دينه ، نبايعك على أنفسنا ، ونرسلُ من يدعوهم ، فمن اتَّبعنا كان منَّا ، ومن أبى قاتلناه.

قال: «صدقت[2] ، إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ. .» الحديثَ[3].

وقَدْ يُقالُ: إذا كانت الأخلاق جبلِّية فعلامَ جاءتِ الشَّرائعُ؟.

فيقالُ: إنَّ الدِّين والإيمانَ أمرٌ جبلِّي فطريٌّ أيضاً ، لكن هناك من غَيَّرَ فطرته وبدَّل دينه ، فكذلك هناك من بدَّل أخلاقه واتَّبع شَهوتهُ وهواهُ الفاسدَ ، ولذا جاءت الرُّسل عليهم الصلاة والسلام بالشَّرائع التي فيها مصالحُ وسعادة الإنسان ، وفيها بيانُ أمراضِ القلوبِ وعلاجاتها ، فالرُّسل عليهم الصلاة والسلام جاؤوا أطبَّاء

---

(١) وكان زعيم الوفد ، واسمه المنذر بن عائذ رضي الله تعالى عنه.

(٢) وقد أراد عليه الصلاة والسلام بذلك امتحانهم ، ولكنهم استعجلوا الجواب ، ورأى من الأشج حلماً وأناةً ، وأقرَّه على جوابه.

(٣) كما في شرح مسلم للإمام النووي ، في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه ، عند ذكر وفد عبد القيس /١٧/ (١/١٣٨).

يداوون المرضى ، مرضى القلوب والنُّفوسِ ، وإلا فالأصلُ في الجسم والخُلُقِ أنَّهما صحيحان ، لكن اعتراهما المرض فجاءت الرُّسل عليهم الصلاة والسَّلام بعلاجٍ لمن كان فيه استعدادٌ وقابليَّة للطِّبابة والنَّجاح.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الأخلاق جبليَّة ، ما جاء في الحديث عن ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى وجهه في المرآة قال: «اللَّهمَّ أنت حسَّنت خَلْقِيَ فحسِّن خُلُقِيْ»[1].

وفي روايةٍ[2] عن أمير المؤمنين سيِّدنا عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا نظر في المرآةِ قال: «الحمد لله ، اللهمَّ كما حسَّنت خَلْقِي فحسِّن خُلُقِي».

وكذلك ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهمَّ اهدني لأحسنِ الأعمالِ وأحسنِ الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنتَ، وقنِي سيِّئَ الأعمالِ وسيِّئَ الأخلاقِ؛ لا يقي سيّئها إلا أنت»[3]

---

(١) أخرجه ابن حبان في (صحيحه) / ٩٥٥/ (٢/ ١٥٤) ، وانظر (المسند) (١/ ٤٠٣ و٦/ ٦٨ ، ١٥٥) ، ومجمع الزوائد (١٠/ ١٧٣).

(٢) أخرجها ابن السني في كتابه ، انظر (الأذكار) للإمام النووي ، باب ما يقول إذا نظر في المرآة.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح ، نوع آخر من الدعاء بين التكبير والقراءة (٢/ ١٢٩) ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا استفتح الصلاة كبر ثم قال: «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وقني سيىء الأعمال وسيىء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت».

أي: بصرفِ الطَّبائع والأخلاق إلى مصارفها التي شرعها الله تعالى.

فالخُلُقُ أمرٌ جبليٌّ، لكنَّ صرفَ الخُلقِ في مصرفهِ ووضعَهُ في موضعه أمرٌ تكليفيٌّ يعود إلى الإنسان واختياره.

فمن ذلك: قُوَّة الغضب، فهي أمرٌ مجبولٌ عليه الإنسان، إلا أنَّ الشَّارع يقولُ له: لا تغضبْ إلا فيما يُغضبُ الله تعالى، أمَّا لشيءٍ نفسيٍّ أو دنيويٍّ: فلا تغضبْ.

فقد روى البُخاريُّ[1] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: أوصني، قالَ: «لا تغضب» فردَّد مراراً، قال: «لا تغضب».

أي: لا تغضب فيما أنت عليه من مواقع الغضب لحظٍّ نفسيٍّ أو لأمرٍ دنيويٍّ، بل ليكن غضبُكَ لله تعالى.

ومن ذلك أيضاً: قوَّة الشَّهوةِ، فلقد أمر الشَّارع بصرفِها في نكاحٍ مُباحٍ، ونهى عن وضعها في سفاح كَزِنَا ونحوهِ.

وكذلك صفة العُجالة، فلم ينهه الشَّارع عن كبحِ هذه الصِّفة من نفسه؛ بل أمره أن يصرفها في مصرفها بالتَّعجُّل إلى الصَّلوات وفعل الخيرات.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

---

(١) في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب /٦١١٦/ (١٠/٥١٩).

وروى التِّرمذي في (سننه[1]) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بادروا بالأعمالِ سبعاً: هل تنتظرونَ إلا فقراً مُنسياً ، أو غِنىً مُطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنِّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدَّجَّال فشرٌّ غائبٌ ينتظرُ ، أو السَّاعةَ فالسَّاعة أدهَى وأمَرُّ»؟ .

وكذلِك صفةُ الحرص ، فهي صفةٌ جبليَّةٌ في الإنسان ، إلا أنَّ الشَّارع نهاه أن يحرصَ على حُطامِ الدُّنيا وزخارفها ، بل أمرهُ أن يحرص على المنافع الحقيقية ، ولم يأمرهُ بالقضاءِ على قوَّة الحرصِ الموجودة فيه ؛ بل بصرفها في مصارفها الحسنة .

فلقد جاء في الحديث الذي يَذُمُّ فيه صلى الله عليه وآله وسلم الحرص على الدُّنيا وزينتها: «لو أنَّ ابنَ آدمَ أُعطِيَ وادِياً ملآنَ من ذهبٍ أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أُعطي ثانياً أحبَّ إليه ثالثاً ، ولا يسدُّ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التُّراب ، ويتوبُ الله على من تاب»[2] .

أمَّا الحرص على الأمور النَّافعة ، فقد جاء في (صحيحِ) مسلمٍ عنه عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعيف ؛ وفي كُلٍّ خيرٌ ، احرص على ما ينفعك[3] ، واستعنْ بالله[4] ولا تعجز ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أنِّي

---

(١) في كتاب الزهد ، باب ما جاء في المبادرة بالعمل /٢٣٠٧/ (٧/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري عن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما ، في كتاب الرِّقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال /٦٤٣٨/ (١١/ ٢٥٣).

(٣) أي: احرص على كل شيءٍ ينفعك في دنياك ولا يضر بدينك ، واحرص على كل شيءٍ ينفعك في دينك.

(٤) أي: لا تعتمد على نفسك وذكائك ومهارتك.

فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل: قدَر الله وما شاءَ فعل ، فإنّ لو تفتحُ عملَ الشَّيطانِ»[1] .

وكذلك صفةُ الحسدِ ، فهي أمرٌ جبليٌّ ، وهي محبَّة الإنسان أن يكون عنده ما عند الغير.

ولقد نهى الشَّارع عن الحسد المذموم ، وهو تمنِّي زوال النِّعمة عن الغير ، أو تمنِّي انتقالَ نعمة الغيرِ إلى الحاسد؛ جاء في الحديث «ولا تحاسدوا»[2] .

وأمر بصرفِ هذا إلى الحسدِ المحمود ، وهو حسدُ الغبطة ، أي: أن يرجو من الله أن يعطيه ما أعطى غيره.

جاء في (الصحيحين[3]) ـ واللفظ للبخاريِّ ـ عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: رَجُلٌ آتاه اللهُ مالاً فسُلِّطَ على هلكته في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها».

وفي روايةٍ لهُما[4] ـ واللَّفظ للبخاريِّ ـ عن عبد الله بن عمر

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ، في كتاب القدر ، بابٌ في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله / ٢٦٦٤/ (٥/ ٢٥٧٨).

(٢) كما في صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتباغض / ٦٠٦٥/ (١٠/ ٤٨١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة / ٧٣/ (١/ ١٦٥) ، ومسلمٌ في كتاب صلاة المسافرين ، باب فضلِ من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم الحكمة من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلَّمها / ٨١٥/ (١/ ٨٨٤).

(٤) ذكرها البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد ، باب قول النبي صلى الله عليه =

رضي الله تعالى عنهما ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهو يتلوهُ آناءَ اللَّيلِ وآناء النَّهار ، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهار».

وقد جاء في (الصَّحيحين) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إياكُم والظّن ، فإنّ الظَّن أكذبُ الحديث ، ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً»[1].

زادَ مسلمٌ في روايةٍ: «وكونوا إخواناً كما أمركم الله».

وفي رواية له: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظرِ إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وفي رواية لمسلمٍ[3] أيضاً: «المسلمُ أخو المُسلمِ ، لا يظلمهُ ، ولا يخذله ، ولا يحقره - وفي رواية التِّرمذي «ولا يخونه

= وآله وسلم «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» /٧٥٢٩/ (١٣/ ٥٠٢) ، ومسلمٌ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضلِ من يقوم بالقرآنِ ويعلمه ، وفضل من تعلم الحكمة من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلمها / ٨١٥/ (١/ ٨٨٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر / ٦٠٦٤/ (١٠/ ٤٨١) ، ومسلم - واللفظ له - في كتاب البر والصلة والآداب ، بابُ تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها / ٢٥٦٣/ (٥/ ٢٠١٢).

(٢) أخرجها مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله / ٢٥٦٤/ (٥/ ٢٠١٤).

(٣) في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله / ٢٥٦٤/ (٥/ ٢٠١٣).

ولا يكذبهُ»[1] - التّقوى ههُنا - ويُشير إلى صدره ثلاث مرّاتٍ - بِحَسب امرئٍ من الشّر أن يحقر أخاه المُسلم ، كلُّ المسلم على المُسلم حرامٌ: دمُه ، وماله ، وعرضهُ».

وزاد أيضاً في روايةٍ: «ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ»[2].

وفي رواية للشَّيخين: «ولا يحلُّ لمُسلمٍ أن يهجر أخاهُ فوق ثلاثٍ»[3].

فنهى صلى الله عليه وآله وسلم عن سوء الظَّنِّ بالمسلمين ، وإنَّ سوءَ الظَّنِّ بالمسلمين دليل خبْث الباطن؛ فعلى المسلم أن يحسِّن الظَّن بالمسلمين ، إلا إذا ظهر له علامة ظاهرةٌ على ظنِّه ، فإنَّه عندئذ قد ظنَّ بشيءٍ ظاهرٍ.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] أي: لا تقعوا في الإثم نتيجة ظنّكم السَّيِّىء بالمسلمين ويكون الأمر خلاف ما ظننتم.

كما يجب على المسلم أن يحسِّن ظنَّه بالله تعالى وبأفعاله سبحانه ، ولكن في أفعال النَّاس فقد تظُنُّ سوءاً إذا ظهرتْ علامةٌ

---

(١) أخرجها الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم /١٩٢٨/ (٦/ ١٧٤).

(٢) أخرجها مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها /٢٥٦٣/ (٥/ ٢٠١٣).

(٣) أخرجها البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، في كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر /٦٠٦٥/ (١٠/ ٤٨١) ، ومسلم - واللفظ له - في كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر /٢٥٥٩/ (٥/ ٢٠١٠).

سيِّئةٌ منهم ، أمَّا في مقام ربِّ العالمين ومعاملته فيجبُ على المسلم أن يحسِّن ظنَّه دائماً في ذَلك كلِّه.

جاء في (الصَّحيحين) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «يقولُ الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي»[1].

وفي رواية عند الإمام أحمد[2]: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي فليظُنَّ بي ما شاء».

فإنْ ظنَّ المرء بالله خيراً عامله سبحانه بما ظنَّ ، وإن ظنَّ به غير ذلك عامله على ما ظنَّ كما قال الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] أي: أنَّ ظنَّكم السَّيِّىء بالله تعالى هو الذي أهلككمْ.

وقال عليه الصلاة والسَّلام قبل وفاته بثلاثٍ: «لا يموتنَّ أحدكمْ إلاّ وهو يُحسِّن بالله الظّنَّ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] /٧٤٠٥/ (١٣/٣٨٤) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله تعالى /٢٦٧٥/ (٥/٢٥٨٧) ، ولفظُ البخاري: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبرٍ تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرَّب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً».

(٢) أخرجها في (مسنده) (٣/٤٩١) عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه.

(٣) رواه الإمام مسلمٌ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تَعالى عنهما ، في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت /٢٨٧٧/ (٥/٢٧٢٨).

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تحسَّسوا» فالتَّحسُّس بالأذنِ والسَّماعِ ، والتَّجسُّس بالعين والبصر ، وبعد ذلك يذهب يُشهِّر بالآخرين ، ويشيعُ وينشر هفواتهم بين النَّاسِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولا يَجُوزُ التَّحَسُّس أو التَّجَسُّس إلا للحاكم ، وذلك لدفعِ منكرٍ وفسادٍ.

روى الترمذي ، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبرَ ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ ، فقال: «يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبهِ ، لا تؤذوا المسلمين ، ولا تعيِّروهم ، ولا تَتَّبِعوا عوراتهم ، فإنَّه من تتبَّع عورةَ أخيه المسلم تتبَّع الله عورته ، ومن تتبَّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»(١).

قال: ونظرَ ابنُ عمرَ رضي الله تعالى عنهما يوماً إلى البيتِ ـ أو إلى الكعبة(٢) ـ فقالَ: ما أعظمكِ وأعظمَ حُرمتكِ ، والمؤمنُ أعظمُ حرمةً عند الله منكِ(٣).

ثمَّ قال عليه الصلاةُ والسَّلامُ: «ولا تجسَّسُوا» لأنَّ الظَّنَّ السَّيِّىء بالآخرينِ يحملُ على التأكُّد مما ظنَّه فيهم ، فيذهب يتجسَّس

---

(١) أي: داره.

(٢) الشك من الراوي.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في تعظيم المؤمن /٢٠٣٣/ (٦/ ٢٣٢).

بالبصر ، بأن يتتبَّع عورات المسلمين وزلاّتهم ، أو يتحرَّى أن يسمع عنهم ما يسوؤهم بالتَّحسُّس.

وإنَّ سوء الظَّنِّ والتَّحسس والتَّجسُّس والغيبة أمورٌ متلازمة ، يجرُّ بعضها إلى بعضٍ ، فمن أساء ظنَّه بالآخر حمله ذلك على التَّحقُّق من سوء ظنِّه ، فيذهب يتجسَّس عليه أو يتحسَّس منه ، حتَّى إذا عثر على زلَّةٍ أو هفوةٍ أخذ يغتابه ويشيعُ ذلك بينَ النَّاسِ؛ ومن وجد في نفسه سوء ظنٍّ ؛ فليدفع ذلك وليستعِنْ بالله تعالى.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواهُ الطَّبرانيُّ في (الكبيرِ)[1] عن حارثةَ بن النُّعمانِ رضي الله تعالى عنه قال: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثٌ لازِمَاتٌ أُمَّتِيْ: الطِّيَرَةُ ، والحَسَدُ ، وسوءُ الظَّنِّ».

فقالَ رجُلٌ: ما يُذهِبهُنَّ يا رَسُولَ الله ممَّن هُنَّ فيه؟.

قال: «إذا حسدتَ فاستغفرِ الله ، وإذا ظننتَ فلا تُحَقِّقْ ، وإذا تطيَّرت فامْضِ» أيْ: إذا تشاءمتَ في أمرٍ فادفع ذلك واعزِم الأمرَ ، وتوكَّل على الله تعالى.

وجاء في الحديث الذي رواه ابنُ ماجه[2] عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: رأيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يطوفُ بالكعبةِ ويقولُ: «ما أطيبكِ وأطيبَ ريحكِ ، ما أعظمكِ وأعظمَ حرمتكِ ، والذي نفس محمَّد بيده لحُرمةُ

---

(١) انظر (الدر المنثور) للسيوطي عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] ، و(مجمع الزوائد) (٨/٧٨).

(٢) في كتاب الفتن ، باب حرمة دم المؤمن وماله / ٣٩٣٢/ (٢/١٢٩٧).

المؤمنِ أعظمُ عند الله حُرمةً منك؛ ماله ودمه ، وأن نَظُنَّ به إلاَّ خيراً» فانتهاكُ حُرْمةِ المؤمن أعظم من انتهاك حُرمَةِ الكعبةِ.

وأخرج ابن مردويه(١) عن السَّيِّدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالتْ: قال: رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أساءَ بأخيه الظَّنَّ ، فقد أساء بربِّه ، إن الله يقول: ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾» [الحجرات: ١٢].

فلما يظنُّ المؤمن ظَنّاً سيِّئاً بأخيه ، فقد وقع فيما نهى الله تعالى عنه ، فقد ساء ظنُّه بربِّه.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «من ستر عورة مُؤمنٍ فكأنَّمَا استحيا مَوْءُوْدَةً من قبرها»(٢).

وقد جاء في النَّهي عن التَّحسُّس ، ما روَى البُخاريُّ(٣) عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون(٤) ؛ أو يفرُّون منه: صُبَّ في أذنيه الآنكُ(٥) يوم القيامة».

وأمّا ما كان من التَّجسُّس أو التَّحسُّس في سبيل دفع ضُرٍّ أو جَلبِ خير للمسلمين ومصالحهم فجائزٌ شرعاً ، كما قال الله تعالى

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه: (٤/١٥٣).

(٣) في كتاب التعبير ، باب من كذب في حلمه / ٧٠٤٢/ (١٢/٤٢٧).

(٤) أي: لا يريدون أن يسمعهم أحد.

(٥) الرصاص المذاب.

مخبراً عن يعقوب على نبيِّنا وعليه الصَّلاة والسلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وجاء في بيان معنى الغيبةِ، ما رواهُ مسلمٌ[١] وغيرهُ، عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنهُ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرونَ ما الغيبةُ»؟.

قالوا: الله ورسولهُ أعلمُ.

قال: «ذكركَ أخاكَ بما يكرَهُ».

قِيلَ: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟.

قالَ: «إن كان فيه ما تقولُ فقدِ اغتبتهُ، وإنْ لم يكنْ فيهِ فقدْ بهتّه» أيْ: جئتَ بما هُوَ أعظمُ من الغيبَةِ وهوَ البُهتانُ والافتِرَاءُ.

وإنَّ قباحة الغيبةِ كقُبحِ من يأكُلُ لحم أخيهِ ميتاً، فكما لا تشتهي النَّفس فعل ذلك فيجبُ عليها أن تترُكَ الغِيبةَ، لأنَّ حقيقتها كذلِكَ؛ ولو كُشِفَ الحجاب عن المُغتاب لأخيه لرأى أنَّه يأكلُ لحمَهُ ميتاً، إلا أنَّ كثافةَ وظُلمةَ ذنوبِهِ حالتْ بينه وبينَ مشاهدةِ ذلك، ولذلك لمَّا ينكشفُ الحجابُ في البرزخِ يُعرضُ على المُغتابِ لحمُ الميِّتِ ويأكُلُه رغمَ أنفِهِ.

ولهذا جاء في (سُنَنِ) أبي داودَ[٢] عن أنَسِ بنِ مَالكٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لمَّا عُرِجَ بي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ، يخمشُونَ وجوههمْ

---

(١) في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة /٢٥٨٩/ (٥/٢٥٢٨).
(٢) في كتاب الأدب، باب في الغيبة /٤٨٧٨/ (٥/١٩٤).

وصدورهم ، فقلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ .

قال: هؤلاءِ الّذين يأكلونَ لحوم النّاسِ ويقعونَ في أعراضِهِم» .

وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ[1] عن السُّدِّي ، أنَّ سلمان الفارسيَّ رضي الله تعالى عنه كان مع رجلين في سفر يخدمهما ، وينالُ من طعامهما ـ وهذه عادةٌ في العرب وأقرَّها الإسلامُ ، وهي أن يُؤْكِلَ القومُ في سفرهم من يقومُ بشأنهم ، ولو كان ذلك على طريق المناوبة بينهم ـ وأنَّ سلمانَ رضي الله تعالى عنه نامَ يوماً ، فطلبَهُ صاحباه فلم يجداه ، فضربا الخباء وقالا: ما يريد سلمانُ شيئاً غير هذا ، أن يجيءَ إلى طعامٍ معدودٍ وخباءٍ مضروبٍ؛ فلمَّا جاء سلمانُ رضي الله تعالى عنه ، أرسلاهُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم يطلبُ لهما إداماً ـ لأنَّه لم يهيِّىء طعاماً ـ فانطلق ، فأتاهُ فقال: يا رسولَ الله بعثني أصحابي لتُؤدمهُم إن كان عندك .

قال: «ما يصنعُ أصحابكَ بالأُدُمِ قد ائتدَموا»؟!! .

فرجعَ سلمانُ رضي الله تعالى عنه فخبَّرهما ، فانطلقا فأتيا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالا: والذي بعثك بالحقِّ ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا .

قال: «إنَّكما قد ائتدمتُمَا سلمانَ[2] بقولكُمَا» فنزلتْ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] .

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ في (مسندهِ)[3] عن عبيدٍ مولى رسول الله

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ .

(٢) أي: أكلتما من لحمه .

(٣) (٥/ ٤٣١).

صلى الله عليه وآله وسلم ، أنَّ امرأتينِ صامتا ، وأَنَّ رجُلاً قالَ: يا رسولَ الله إنَّ هَهنا امرأتينِ قد صامتا ، وإنَّهُما قد كادتا أن تمُوتا من العطشِ ، فأعرضَ عنه أو سكت ، ثمَّ عاد ـ وأراه قال: بالهاجرةِ ـ قالَ: يا نبيَّ الله إنَّهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا.

قال: «ادعهُمَا» ، قال: فجاءتَا.

قالَ: فجيءَ بقدَحٍ أو عُسٍّ[1] ، فقالَ لإحداهمَا: «قيئي» ، فقاءت قيحاً ـ أو دماً ـ صديداً ولحماً ، حتَّى قاءت نصفَ القَدحِ ، ثمَّ قالَ للأُخرى: «قيئي» ، فقاءت من قيحٍ ودمٍ وصديدٍ ولحمٍ عبيطٍ[2] وغيرِهِ ، حتَّى ملأتِ القدحَ ، ثمَّ قال: «إنَّ هاتينِ صامتا عمَّا أحلَّ الله ، وأفطرَتا على ما حرَّمَ الله عزَّ وجل عليهما ، جلست إحداهُما إلى الأُخرى ، فجعلتا تأكُلانِ من لحومَ النَّاسِ».

وإنَّ إثمَ من يسمعُ الغيبةَ كإثمِ من يحكِيْ الغيبة:

فقد جاء في (سننِ) أبي داوُدَ[3] عن جابرِ بن عبدِ الله وأبي طلحة ابن سهلٍ الأنصاريِّ رضي الله تعالى عنهمْ ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من امرئٍ يَخذلُ امرءاً مُسلماً في موضعٍ تُنْتهكُ فيه حرمتهُ ، وَيُنْتقصُ فيه منْ عرضهِ؛ إلاَّ خذلهُ الله في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرَتَهُ».

قولُهُ صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تنافسُوا» أي: ولا تنافسُوا بالمُزاحَمَةِ على أمُورِ الدُّنْيا.

---

(١) العسُّ: هو القدح الكبير.

(٢) اللحم العبيط هو الطري.

(٣) في كتاب الأدب ، باب من رد عن مسلم غيبة / ٤٨٨٤/ (٥/١٩٧).

ومعنى المُنَافَسَةِ: مزاحمةُ نفسٍ لِنفسٍ على أمرٍ ما.

فالمُنافسةُ على أمورِ الدُّنْيا منهيٌّ عنها، أمَّا في أُمورِ الآخِرَةِ وطاعةِ الله تعالى وعبادتِهِ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

فإذا بلغكَ أنَّ فلاناً يصلِّي في الليل عشر ركعاتٍ، فزِد عليه بأن تُصلِّي أكثرَ منه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تباغضُوا» أي: لا يُبغِضْ أحدكم الآخَرَ، إلا في أمرٍ يُغْضِبُ الله تعالى.

قولُهُ صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تدابروا» أيْ: ولا تقاطعُوا بالهجرِ فوقَ ثلاثٍ لأمرٍ دُنيويٍّ.

فقد روى البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ ومسلمٌ[١] عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحلُّ لرجلٍ أن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ، يلتقيانِ فَيُعرِضُ هذا ويعرضُ هذا، وخيرهما الذي يبدأُ بالسَّلام».

وأمَّا الهجرُ لأمرٍ ديني حتَّى ينزجِرَ ويرتدِع عمَّا فعلَ فيحلُّ ولو فوْقَ ثلاثٍ، كما هجرَ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام الذين تخلَّفوا عن تبُوْك خمسين ليلةً[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الهجرة، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث» /٦٠٧٧/ (١٠/ ٤٩٢)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاثٍ بلا عذر شرعي /٢٥٦٠/ (٥/ ٢٥١١).

(٢) أخرج هذه الحادثة البخاري عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه في كتاب =

ولا يحلُّ هجرُ المؤمنِ لأمرٍ ديني إلا إذا كان في هجرِه منفعةٌ ، بأنْ تعلمَ أنَّه في هجرك له سينزجِرُ عمَّا هُوَ فيهِ.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركمُ الله» أيْ: كما أمركُم الله بقولهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وشأنُ الأخِ أن لا يُريدَ لأخيهِ إلا الخيرَ ، فلا يظلمُهُ ولا يحقرُه ، ولا يكذبهُ؛ وإنَّ أخُوَّةَ الدِّينِ هي الأخوَّةُ الحقيقيَّةُ التي اعتمدها الشَّارِعُ وحثَّ عليها ، وأمَّا أخوَّةُ الطِّين فلا عِبرَةَ لها إذا لم يكنْ هناكَ أخوَّةٌ في الدِّين ، وإذا فُقِدَتْ أخوَّةُ الدِّين بطلتْ أخُوَّةُ الطِّين ، فإذا كان هناكَ أخٌ لك في النَّسب ، وهو مؤمنٌ ، فإنَّ له حقوقاً عليكَ ، ولَكَ حقوقٌ عليه ، كالإرثِ والمدافعةِ والصِّلَةِ ، أمَّا إذا كفر وارتدَّ فقد خرج عَنْ أخوَّةِ الدِّين فبطلت أخوَّةُ الطِّين ، فلا توارثَ بينكُما ولا صِلةَ ولا غيرها.

جاء في الحديثِ الذي رواهُ البُخاريُّ في (صحيحهِ)[1] عَنْ أنسٍ رضي الله تعالى عنهُ ، عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «انصُرْ أخاكَ[2] ظالِماً أو مظلوماً».

= المغازي ، باب حديث كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه /٤٤١٨/ (١١٣/٨) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله تعالى عنهم /٢٧٦٩/ (٢٦٤٦/٥).

(١) في كتاب الإكراه ، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه /٦٩٥٢/ (٣٢٣/١٢).

(٢) أي: المسلم.

قال رجل: يا رسول الله أنصره إن كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟!!.

قال: «تحجزُهُ ـ أو تمنعهُ[1] ـ من الظُّلمِ، فإنَّ ذلك نصرُهُ».

أي: لمَّا منعتَ الظَّالم عن الظُّلم فقد نصرتَ قوَّتَه على نفسه، ونصرتَ إيمانَهُ على نفسه الأمَّارة بالسُّوء.

قولُه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله لا ينظرُ إلى صورِكم وأموالِكُم، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُمْ» أيْ: أنَّ موضعَ نظرِ الله تعالى هو القلبُ وآثارهُ، وهوَ العملُ الصَّالحُ، وليس في هذا ما يدلُّ على أنَّ الدِّينَ في القلبِ فقط كما يدَّعِي بعضُ الزَّنادقَةِ، فإنَّ الإيمانَ ولاشكَّ موضِعُه القلبُ، ولكنَّ آثارَهُ ترشحُ وتظهَرُ على الجسمِ بالعملِ الصَّالح والقولِ الطَّيِّبِ.

وفي هذا يقولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «ألا وإنَّ في الجسَدِ مضغَةً، إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه؛ ألا وهي القلبُ»[2].

قولُه صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا يحقرُهُ» أيْ: بالمقالِ أو الحالِ، أيْ: إنَّ من شأنِ المُسْلمِ أن لا يُهينَ أخاهُ بالكلامِ ولا يترفَّع عليه.

---

(١) الشك من الراوي.

(٢) أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه /٥٢/ (١/١٢٦)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشُّبهات /١٥٩٩/ (٣/١٦٤٧).

روى مسلمٌ في (صحيحه[1]) عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: «إذا قالَ الرّجُلُ: هلكَ النّاسُ ، فهوَ أهلكهم».

فمن نظرَ في نفسِه ورأىٰ الفضلَ لها على غيرِهِ ، ورأى على النَّاسِ ذنوباً فقالَ: هلكَ الناسُ ـ أي: فسقَ النَّاسُ ـ إلا نَفْسَهُ ، فهوَ أفسقهم وأرذلهم ، لأنَّه زكَّى نفسه واحتقر الآخرين.

أمَّا إذا قال الإنسان: هلك النَّاسُ ، ولا يريدُ استعلاءً عليهم ، أو أنَّه ما فعلَ مثلهم ، وإنَّما قال هذا تأسُّفاً عليهم لشدَّةِ ما يرى من المُنكراتِ، فهذا جائِزٌ كما قال الإمامُ مالكٌ[2] رضي الله تعالى عنهُ.

---

(١) في كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي من قول: هلك الناس /٢٦٢٣/ (٥/ ٢٥٥٠).

وقال الإمام النَّووي في (الأذكار) باب في ألفاظٍ يكره استعمالها: قلتُ: روي أهلكهم برفع الكاف وفتحها ، والمشهور الرفع ، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في (حلية الأولياء) في ترجمة سفيان الثوري: «فهو من أهلكهم».

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله الحميدي في (الجمع بين الصحيحين) في الرواية الأولى: قال بعض الرواة: لا أدري هو بالنصب أم بالرفع؟ قال الحميدي: والأشهر الرفع ، أي: أشدهم هلاكاً ، قال: وذلك إذا قال على سبيل الإزراء عليهم والاحتقار لهم ، وتفضيل نفسه عليهم ، لأنه لا يدري سر الله تعالى في خلقه.

وقال الخطابي: معناه لا يزال يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول: فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك ، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي: أسوأ حالاً فيما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم ، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن له فضلاً عليهم ، وأنه خير منهم فيهلك . هذا كلام الخطابي فيما رويناه عنه في كتابه (معالم السنن). ا هـ.

(٢) قال الإمام النووي في (الأذكار): بابٌ في ألفاظ يكرهُ استعمالها ـ بعد أن ذكر سند الحديث عند أبي داود ـ: قال مالكٌ رحمه الله تعالى: إذا قال ذلك تحزناً لما =

وأمَّا قولُهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «التَّقْوى ههُنَا» أيْ: أنَّ تقوى الأعمالِ مصدرُهَا القلبُ، فمتى امتلأَ القلبُ بالتَّقوى ظهرَ ذَلك على الجوارحِ بالأعمالِ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ منبعَ التَّقوى كُلِّها إنَّما هو قلبُ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال: «ههنا» مُشيراً إلى صدره الشَّريفِ صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا وإن جميعَ أنواعِ التَّقوى وفروعها إنَّما تتفرَّعُ وتُسْتمدُّ عن قلبِ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»[1].

وهكذا فقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يزكي الأخلاق، ويبين مصارف الأخلاق الحسنة، كما جاء صلى الله عليه وآله وسلم يهذِّبُ الأخلاقَ، ويميِّز حسنها من خبيثها، فقد يتخلَّقُ الإنسان بخلق يظنُّه حسناً وأنَّه على حقٍّ فيه، كأنْ يغتابَ غيرهُ، فهوَ يغتابُه وما يقولُ فيه إلا الحقَّ، فظاهِرُ الأمرِ أنَّه ما يقولُ فيهِ إلا الحقَّ، فهوَ على حقٍّ إذاً في غيبتهِ، لكنَّ الشَّارِعَ جاء يبيِّنُ أنَّ الغيبةَ خُلُقٌ مذمومٌ ونهى عنهَا؛ وإن كان الإنسانُ يغتابُ الآخر بحقٍّ

= يرى في الناس، قال: يعني من أمر دينهم، فلا أرى به بأساً، وإذا قال ذلك عجباً بنفسه وتصاغراً للناس فهو المكروه الذي يُنْهىٰ عنه.

قلتُ: فهذا تفسيرٌ بإسناد في نهايةٍ من الصحة، وهو أحسنُ ما قيل في معناه وأوجز، ولاسيما إذا كان عن الإمام مالكٍ رضي الله تعالى عنه. اهـ.

(١) أخرجه مسلم عن عمر بن أبي سلمة رضي الله تعالى عنهما، في كتاب الصيام، باب بيان أنَّ القبلة في الصوم ليست محرَّمة على من لم تحرك شهوته /١١٠٨/ (٣/ ١١٣٥).

وصدقٍ؛ وذلك لأنَّ فيها ذكراً للآخرِ في غيبتهِ وهو يكرَهُ ذلِكَ.

وكذلك النَّميمةُ، وهِيَ: نقلُ الكلامِ الذي سمعهُ من شخصٍ إلى آخرَ، فالنَّمَّامُ ما ذكر إلا الحقَّ، لكنَّ نقلَ الكلامِ هذا أمْرٌ حرامٌ نهى عنهُ الشَّارع، لما يترتَّبُ عليه من مفاسِدَ وعداوَةٍ بين الطَّرفينِ.

وعلى المؤمن أن يَنُمَّ النَّميمةَ المحمودة، بأنْ ينقُلَ إلى فُلانٍ أنَّ فلاناً ذكر عنك كلاماً حسناً طيِّباً حتَّى يُلْقِيَ المحبَّةَ والمودَّةَ بينهُمَا.

وكذلك النُّصح للآخرينَ، فعلى المؤمنِ أن ينصحَ أخاهُ المؤمنَ إذا رأى منهُ أمراً مخالفاً للشَّرع، لكنْ بشرطِ أنْ يكونَ النُّصحُ بينهمَا في خفاءٍ عن النَّاسِ، أمَّا إذا راحَ يقرِّعه بين النَّاس ويوبِّخه على فعلهِ فقد ارتكبَ أمراً شنيعاً، بأن فضحَ أخاهُ، وخرجَ فعلهُ عن كونهِ نصيحةً، فإنْ كانَ ولابدَّ ناصحاً فسرّاً، وإلاَّ فالنَّصيحَةُ بين الملأ فضيحَةٌ.

ويرحمُ الله تعالى القائلَ:

احــذر عــدوَّكَ مــرَّةً ... واحـذرَ صديقـك ألـفَ مـرَّة

فلـربَّمـا انقلـبَ الصَّـديـقُ ... فكـان أعـرفَ بـالمضـرَّة

وقد بَيَّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أَحْبِبْ حبيبكَ هَوْناً ما؛ عسى أن يكونَ بغيضكَ يوماً ما، وأبغضْ بغيضكَ هوناً ما؛ عسى أن يكون حبيبكَ يوماً ما»(١).

وهذا إذا لم تستحكمِ الصَّداقةُ والأخوَّةُ، أمَّا الصَّداقةُ المبنيَّة على تقوى الله تعالى فإنَّها لا تتقلَّبُ.

(١) أخرجه الترمذي، في كتاب البر والصلة، بابُ ما جاء في الاقتصاد في الحُب والبغض /١٩٩٨/ (٦/ ٢٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنَّ أعظمَ من جاءَ بالأخلاقِ الفاضلةِ ، وهذَّبها وأوصلها إلى كمالاتِهَا من الرُّسل ، هو سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بحيث لم يبقَ بعد الأخلاقِ التي جاء بها ، لم يبقَ خُلُقٌ أحسنَ منها أبداً.

ولهذا قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاقِ»[1] أيْ: أنَّ الأخلاقَ التي جاء بها الرُّسل كلُّهم عليهم الصَّلاة والسَّلام كانتْ أخلاقاً كريمةً تامَّةً فاضلةً ، وإنَّما جاءَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ليوصِلَ الكريمَ فيها إلى الأكرَمِ ، والفاضِلَ إلى الأفضلِ ، والتَّامَّ إلى الأتمِّ.

كما أنَّ شرعَهُ صلى الله عليه وآله وسلم بلغَ أوجَ الشَّرائعِ وأكملَهَا ، وإنْ كانتِ الشَّرائعُ كلُّها كاملةً متمِّمة ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أيْ: لم يبقَ فوقَ هذا الكمالِ الشَّرعيِّ كمالٌ ، فجمعَ صلى الله عليه وآله وسلم محاسنَ الأخلاقِ التي تحلَّى بها الرُّسلُ والأنبياءُ كلُّهم ، وزاد عليهم بالخُلُقِ المحمَّديِّ الخاصِّ به صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا ما يُفهم من قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] أيْ: إنَّ هدْيَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام الذي هداهُم الله إليه ، سواءٌ كان في الشَّرع أو في الخُلُقِ أو في النُّبوَّة ، كُلَّه مجموعٌ لك يا رسولَ الله ، وزادهم رسولُ الله صلى الله عليه

(١) تقدم تخريجه ص/٢١٢/ .

وآله وسلم هدْياً وخلُقاً ، ومقَامَاً خاصًّاً لائقاً به صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنَّ الله تعالى أعطى رسولَهُ سيِّدنا محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم رسالاتِ جميعَ الأنبياءِ قبلَهُ ، فقد أرسلَ الله تعالى سيِّدنا مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى بني إسرائيلَ ، وأرسلَ سيِّدنا إسماعيلَ عليهِ الصَّلاة والسَّلام إلى العربِ ، أمَّا سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فقد أرسلهُ الله تعالى إلى بني إسرائيلَ والعربِ وإلى النَّاسِ كافَّةً ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

روى الشَّيخان[١] ـ واللَّفظ لمسلمٍ ـ عن جابرِ بن عبدِ الله الأنصاريِّ رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي: كان كُلُّ نبيٍّ يبعثُ إلى قومهِ خاصَّةً؛ وبعثتُ إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تُحلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعلَتْ لي الأرضُ طيِّبَةً طهُوراً ومسجداً ؛ فأيُّمَا رجُلٍ أدركتْه الصَّلاةُ صلَّى حيثُ كان ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بيْنَ يديْ مسيرَةِ شهْرٍ ، وأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ».

وجاء في (الصَّحيحين[٢]) أيضاً ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم ، بابُ قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» /٣٣٥/ (١/ ٤٣٥) ، ومسلمٌ في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة /٥٢١/ (٢/ ٦٦٠).

(٢) أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب المناقب ، باب: خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم /٣٥٣٤/ (٦/ ٥٥٨) ، ومسلمٌ في كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النَّبيين /٢٢٨٦/ (٥/ ٢٣١٥).

عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: «إنَّ مَثَلي ومثل الأنبياءِ من قبلي ، كمثَلِ رجلٍ بنى بيتاً فأحسنهُ وأجملَهُ ، إلا موضعَ لبنَةٍ من زاويَةٍ ، فجعلَ النَّاسُ يطوفُونَ به ، ويعجبُونَ له ، ويقولونَ: هلاّ وُضِعَتْ هذهِ اللَّبنَةُ».

قال: «فأنا اللَّبنةُ ، وأنا خاتِمُ النَّبيِّين».

فهُوَ صلَّى الله عليه وآله وسلم جمالُ الأنبياءِ وفصُّ خاتِمِهِمْ ، وما تمَّتِ النُّبوَّاتُ إلا به ، إذ هو قلبُ بيتِ النُّبوَّةِ وركنُهُ الأسعدُ.

فإنْ كانَ الأنبياءُ قبلَهُ صلى الله عليه وآله وسلم قد جاؤُوا بحسنِ الآدَابِ وحلوِ المنطقِ ، فلقد جمعَ الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جميع ذلك ، وزادَه بالهدي المحمَّديِّ الخاصِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذه المقارنة مثلاً: أنَّ سيِّدنا عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليه لقي خنزيراً بالطَّريقِ ، فقالَ لهُ: «انفُذْ بسلامٍ»[1].

فقيلَ لهُ: تقولُ هذا لخنزيرٍ؟.

فقال سيِّدنا عيسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام: «إنِّي أخافُ أن أعوِّدَ لساني النُّطق بالسُّوءِ»[2].

فالخُلُقُ العِيسَوِيُّ ينظرُ إلى الشَّيءِ من وجه المحاسنِ ، والعارفُ بالله تعالى من ينظر كذلك ، أي: إلى وجه المحاسِن من الشَّيءِ.

---

(١) أي: امض بأمانٍ.

(٢) ذكره الإمام مالك في (الموطأ) عن يحيى بن سعيد في كتاب الجامع ، باب ما يكره من الكلام.

جاء في الحديثِ المُتَّفقِ عليه[1] عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه تعالى عنهُ قال: كنَّا مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم في غارٍ فنزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١] وإنَّا لنتلقَّاهَا من فِيْهِ، إذ خرجت حيَّةٌ من جُحْرِها، فابتدرنَاها لنقتُلَها، فسبقَتْنَا فدخلتْ جُحْرَها.

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وُقيَتْ شرَّكُم كما وقيتم شرَّهَا».

وإنَّ هذا الخُلُقَ الذي أشار إليه سيِّدنا عيسى عليه الصَّلاة والسلام؛ قد انطوى في خُلُقه العظيم وهديه القويم صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تنَلِ الحيَّةُ منهُم بأَذَىً ولم ينالُوْا منْهَا.

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم ليِّنَ الكلام مُتواضِعاً، وانظُرْ تفاصِيْلَ ذلِكَ في كِتابِ: (سيِّدنا محمَّدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، شمائِلُهُ الحميدةُ، خصالهُ المجيدةُ).

ولقد كان خُلُقُ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم القُرآنَ، كما جاء في الصَّحيح عن السَّيِّدة عائشةَ رضي الله تعالى عنها، أنَّها تحدَّثت عن خُلُقِه صلى الله عليه وآله وسلم فقالتْ: (كان خُلُقُهُ القرآنَ، يغضبُ لغضبِهِ ويرضى لرضاهُ)[2] أيْ: كان

---

(١) أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب بدء الخلق، باب خمسٌ من الدواب فواسقُ يقتلن في الحرم/٣٣١٧/ (٦/ ٣٥٥)، ومسلمٌ في كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها / ٢٢٣٤/ (٤/ ٢٢٧١).

(٢) هذا الحديث ورد في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض /٧٤٦/ (٢/ ٨٣٥)، عن سعد بن هشام بلفظ: قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ =

يأتمِرُ بأوامِرِه ، وينتهي عن مناهيهِ.

فقد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم أوج الأخلاقِ وأعلاها، وأتمَّهَا وأزكاها ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

فَمِنْ أخلاقه العظيمة صلى الله عليه وآله وسلم: التَّواضعُ ، فلقدْ بلغَ عليهِ الصَّلاةُ والسلام أعلى درجةٍ ومنزلةٍ في التَّواضع بأنوَاعه ، كما أمرهُ الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وخفضُ الجناحِ كنايةٌ عن شدَّةِ التَّواضع ، لأنَّ الطَّائرَ إذا أرادَ النُّزول طوى جناحيهِ وخفضَ بهِمَا.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم متواضعاً في نفسه ، يُرقِّعُ ثوبَهُ ، ويخصفُ نعله بيده الشَّريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحلُبُ شاتَهُ ، ويسعى في خِدمة أهله ، وما يأنَفُ من هذا كُلِّه.

= قالت: ألستَ تقرأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى ، قالتْ: (فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان القرآن).

ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ، بابٌ في صلاة الليل / ١٣٤٢/ (٢/ ٨٧).

وأحمد في (مسنده) (٦/ ٥٣) ، وأخرجه الطبراني في (الأوسط) عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالت: (كان خلقه القرآن ، يغضبُ لغضبه ، ويرضى لرضاه).

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) في كتاب المناقب ، باب صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، عند الكلام على قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقاً» (٦/ ٥٧٥) قال: وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها (كان خلقه القرآن ، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه). ا هـ.

روى البخاريُّ[1] عن الأسودِ[2] قال: سألتُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها: ما كان النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يصنعُ في أهله؟.

قالت: (كان في مهنةِ أهله، فإذا حضرت الصَّلاةُ قام إلى الصَّلاةِ).

وروى الإمامُ أحمد في (مسنده)[3] عن السَّيِّدة عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنَّهَا سُئِلَتْ: ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يعملُ في بيته؟.

قالت: (كان يخيطُ ثوبَهُ، ويخصفُ نعله، ويعملُ ما يعملُ الرِّجالُ في بيوتهم).

ومن تواضعه مع المؤمنين أنَّه كان لا يُقابِلُ أحداً بما يكرهُ؛ ولو رأى ضُراً أو أذى منه.

روى الشَّيخان[4] ـ واللَّفظُ لمُسلمٍ ـ عن أبي حمزة أنسِ بن مالكٍ رضي الله تعالى عنه قال: (خدمتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرَ سنينَ[5]، والله ما قال لي أُفّاً قَطُّ، ولا قال لي

---

(١) في كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله /٦٠٣٩/ (١٠/ ٤٦١).

(٢) الأسود بن يزيد بن قيس رضي الله تعالى عنه، من كبار التابعين.

(٣) (٦/ ١٢١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل /٦٠٣٨/ (١٠/ ٤٥٦)، ومسلمٌ في كتاب الفضائل، بابٌ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن النَّاس خُلُقاً /٢٣٠٩/ ٢٣١٠/ (٥/ ٢٣٢٧).

(٥) وفي رواية لمسلم في نفس الموضع: «تسع سنين»، قال الإمام النووي في شرحه على مسلم عند الكلام على هذا الحديث: أما قوله: «تسع سنين»، وفي أكثر الروايات «عشر سنين» فمعناه أنها تسع سنين وأشهر، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقام بالمدينة عشر سنين تحديداً، لا تزيد ولا تنقص، وخدمه أنس رضي الله تعالى عنه في أثناء السنة الأولى، ففي رواية التسع، لم يحسب =

لشيءٍ: لم فعلتَ كذا وهلاّ فعلتَ كذا).

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «آكلُ كما يأكُلُ العبدُ، وأجلِسُ كما يجلِسُ العَبدُ»[1].

أيْ: لا يجلسُ جلسةَ المُلوكِ المتكبِّرينَ، ولا يأكُلُ كما تأكُلُ الملوكُ بملاعِقَ من ذهَبٍ أو غير ذلك.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يأنَفُ أن يركبَ الحمارَ العُريان ـ أيْ: بدُونِ أن يكون عليه بردعةٌ ـ[2].

كما جاء في الحديث[3] أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام ركب حماراً عُرِيَاً إلى قُبَاءَ، وأبو هريرة رضي الله تعالى عنه معه.

قال: «يا أبا هريرة أأحملكَ»؟.

قال: ما شئتَ يا رسولَ الله، فقال: «اركبْ» فوثَبَ أبو هريرةَ رضي الله تعالى عنه ليركب فلم يقدر، فاستمسك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوقعا جميعاً.

= الكسر، بل اعتبر السنين الكوامل، وفي رواية العشر حسبها سنة كاملة، وكلاهما صحيح. وفي هذا الحديث بيان كمال خلقه صلى الله عليه وآله وسلم، وحسن عشرته، وحلمه وصفحه. اهـ.

(1) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (1/ 381)، وأبو يعلى في (مسنده) (مجمع الزوائد) (9/ 19) وسنده حسن، وابن حبان في (صحيحه)، عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، انظر (الفتح الكبير).

(2) البردعة: ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه، كالسرج للفرس.

(3) ذكره المحب الطبري في مختصر السيرة، انظر (شرح المواهب اللدنية) للزرقاني، في الفصل الثاني: فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية ﷺ.

ثمَّ ركبَ صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ قال: «يا أبا هريرة أأحمِلُكَ» ؟ .

قال: ما شئتَ يا رسولَ الله ، فقال: «اركَبْ» فلم يَقدرْ أبو هريرة رضي الله تعالى عنه على ذلك ، فتعلَّقَ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فوقعا جميعاً.

فقال: «يا أبا هريرة أأحمِلُكَ» ؟ .

فقالَ: لا والذي بعثكَ بالحقِّ لأرميتُكَ[1] ثالثاً.

فكان لا يأنفُ صلَّى الله عليه وآله وسلم أن يُردِفَ وراءهُ أحداً ، وقد أردفَ وراءه زوجته السَّيِّدة صفيَّة رضي الله تعالى عنها[2] ، كما أردف بعض أصحابه أحياناً ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يَعرِضُ على صاحب الدَّابَّةِ أن يركبَ هو في المقدِّمة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلمَ وراءهُ.

روى أبو داودَ[3] عن قيسِ بنِ سعدِ بن عُبادةَ رضي الله تعالى عنهُما قال: زارنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في منزلنا ، فقال: «السَّلام عليكم ورحمة الله» فردَّ سعدٌ ردَّاً خفيَّاً.

---

(١) أي: لا أرميك ثالثاً.

(٢) كما جاء في (صحيح) البخاري في كتاب الجهاد والسِّير ، بابُ: ما يقولُ إذا رجع من الغزو /٣٠٨٥/ (٦/١٩٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا مع النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مقفله من عسفان ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على راحلته ، وقد أردف صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها.....) الحديث.

(٣) في كتاب الأدب ، باب كم يسلم الرجل في الاستئذان /٥١٨٥/ (٥/٣٧٢) ، وأخرجه الإمام أحمد في (مسنده): (٣/٤٢١).

قال قيسٌ: فقلتُ: ألا تأذنُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فقال: ذره يُكْثِرْ علينا من السَّلامِ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «السَّلام عليكم ورحمةُ الله» فردَّ سعد ردّاً خفيّاً.

ثمَّ قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «السَّلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ» ثمَّ رجعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم واتَّبعه سعدٌ، فقال: يا رسولَ الله، إنِّي كنتُ أسمعُ تسليمكَ، وأردُّ عليكَ ردّاً خفيّاً، لتكثر علينا من السَّلامِ.

قالَ: فانصرفَ معهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمرَ له سعدٌ بغسلٍ فاغتسل، ثمَّ ناوله ملحفةً مصبوغةً بزعفرانٍ ـ أو ورسٍ ـ فاشتملَ بها، ثمَّ رفع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه، وهو يقولُ: «اللَّهمَّ اجعل صلواتكَ ورحمتك على آل سعدِ بنِ عبادةَ».

قال: ثم أصابَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم من الطَّعام، فلمَّا أرادَ الانصِرافَ، قرَّبَ له سعدٌ حماراً قد وطَّأ عليه بقطيفةٍ، فركب رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال قيسٌ: فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اركبْ» فأبيتُ، ثمَّ قال: «إمَّا أن تركب وإمَّا أن تنصرف» قال: فانصرفتُ.

وفي رواية عند الإمام أحمد[١]: ثُمَّ أتيناه بحمارٍ ليركب، فقال: «صاحب الحمارِ أحقُّ بصدر حماره» فقلنا: يا رسول الله فالحمارُ لك.

وفي (سننِ) التِّرمذي[٢] وغيره، عن أبي بريدة رضي الله تعالى عنه قال: بينما النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يمشي، إذ جاءه رجلٌ[٣] ومعه حمارٌ، فقال: يا رسول الله اركبْ؛ وتأخَّر الرَّجلُ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأنتَ أحقُّ بصدرِ دابَّتك؛ إلا أن تجعله لي»[٤].

قال: قد جعلته لك، قال: فركِبَ.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُكرِمُ أصحابه، ويمشي معهم وهم ركوبٌ، كما فعل عليه الصلاة والسلام لما بعثَ معاذاً رضي الله تعالى عنه إلى اليمنِ، ومشى معه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعاذٌ رضي الله تعالى عنه راكبٌ على راحلته.

روى الإمام أحمد[٥] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمنِ، خرجَ معه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصيه، ومعاذٌ رضي الله تعالى عنه راكبٌ، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي

---

(١) أخرجها في (مسنده): (٦/٦).
(٢) كما في كتاب الأدب، باب ما جاء أن الرجل أحق بصدر دابته / ٢٧٧٤/ (٨/١٧).
(٣) هو سيدنا معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه.
(٤) أي: صدر الدابة.
(٥) في (مسنده): (٥/ ٢٣٥).

تحت راحلته ، فلمّا فرغ قال: «يا مُعاذُ ، إنَّكَ عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، أو لعلَّك أن تمُرَّ بمسجدي هذا أو قبري».

فبكى معاذٌ رضي الله تعالى عنه جشعاً لِفراقِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ التفت فأقبلَ بوجهه نحو المدينة فقال: «إنَّ أولى النَّاس بي المُتَّقُون مَنْ كانوا ، وحيثُ كانوا».

كما أردفَ عليه الصلاة والسلام مرَّةً معاذَ بن جبلٍ رضي الله تعالى عنه ، عندما بيَّن له حقَّ الله على عباده ، وحقَّ العباد على الله إذا عبدوهُ.

روى الشَّيخان[١] ـ واللفظ لمسلمٍ ـ عن معاذِ بن جبلٍ رضي الله تعالى عنه قال: كنتُ ردفَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ليسَ بيني وبينه إلا مؤخِرَةُ الرَّحلِ ، فقالَ: «يا معاذُ بنُ جبلٍ» ، قُلتُ: لبيك رسولَ الله وسعديك.

ثمَّ سار ساعةً ، ثمَّ قالَ: «يا معاذُ بنُ جبلٍ».

قلتُ: لبَّيكَ رسُولَ اللهِ وسعديْكَ.

ثمَّ سار ساعةً ، ثمَّ قال: «يا مُعاذُ بنُ جبلٍ».

قلتُ: لبَّيك رسُولَ اللهِ وسعديك.

قال: «هل تدري ما حقُّ الله على العِباد»؟.

قالَ: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب اسم الفرس والحمار /٢٨٥٦/ (٥٨/٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة ، وَحَرُم على النار /٣٠/ (١٦٥/١).

قال: «فإنَّ حقَّ الله على العبادِ أنَّ يعبدوهُ ولا يُشرِكوا به شيئاً».

ثمَّ سارَ ساعةً، ثمَّ قال: «يا معاذُ بنُ جبلٍ»، قُلتُ: لبَّيكَ رسولَ اللهِ وسعديْكَ.

قالَ: «هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك»؟.

قال: قلتُ: اللهُ ورسولهُ أعلمُ.

قال: «أن لا يُعذِّبهم».

وأردفَ أيضاً ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما، روى التِّرمذيُّ في (سننه[1]) عن ابنِ عباسٍ رضي الله تعالى عنهما قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فقالَ: «يا غُلامُ، إنِّي أُعلِّمك كلماتٍ: احفظ اللهَ يحفظك، احفظ الله تجدهُ تُجَاهك، إذا سألتَ فاسأَل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليك، رُفعتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحف».

ودخل عليه مرَّةً رجلٌ فأخذتْه الخشيَةُ والمهابَةُ، فقال لَهُ: «إنِّي لستُ بمَلِكٍ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القديدَ» فقدَ روى ابنُ ماجه[2]، عن أبي مسعودِ البدريِّ رضي الله تعالى عنه قال: أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ فكلَّمَه، فجعل تُرعد

(١) في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٦٠) /٢٥١٨/ (٨/ ٢٠٣).
(٢) في كتاب الأطعمة، باب القديد /٣٣١٢/ (٢/ ١١٠١).

فرائصهُ ، فقال له: «هوِّنْ عليكَ ، فإنِّي لست بملكٍ ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القديدَ».

ولقد ظهرت آثارُ تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للنُّفوسِ ، ظهرَت آثارُهَا في الصَّحابة الكِرَام رضي الله تعالى عنهم ، الذين كانُوا مَثَلاً صالحاً لمن بعدهم ، وإليك وقائع عن خُلُقِ سيِّدنا عمر رضي الله تعالى عنه وتواضعه:

فقد روي أنَّه لما قَدِمَ رضي الله تعالى عنه الشَّام ، عَرَضَت له مخاضة[1] ، فنزل عن بعيره ونزع خفَّيه ، فأخذهما بيده وأخذ بخطَامِ راحلته ، ثمَّ خاضَ المخاضة؛ فقال له أبو عبيدة بنُ الجراح رضي الله تعالى عنه: (لقد فعلتَ يا أمير المؤمنين فعلاً عظيماً عند أهل الأرض ، نزعت خفَّيك ، وقُدْتَ راحلتك ، وخُضْتَ المخاضة)[2].

فصَكَّ عمرُ رضي الله تعالى عنه بيده في صدرِ أبي عبيدةَ رضي الله تعالى عنه ، ثم قال: (أوْهِ ـ يمدُّ بها صوْتَهُ ـ لو غيرُكَ يقولُهَا ، أنتُم كنتم أذلَّ النَّاسِ وأضلَّ النَّاسِ ؛ فأعزَّكُم الله بالإسلام ، فمهمَا تطْلُبوا العزَّةَ بغيرِهِ يُذِلَّكُمُ الله عزَّ وجلَّ)[3][4].

ونادى مرَّةً رضي الله تعالى عنه: «الصَّلاةُ جامعةٌ»[5] ، فلمَّا اجتمعَ النَّاسُ وكثروا ، صعدَ المنبرَ فحمدَ الله وأثنى عليه بما هُوَ

---

(١) المخاضة: الموضع القليل الماء ، الذي يعبر فيه الناس النهر مشاةً وركباناً.
(٢) وقد كان هذا على مرأى من جيش المسلمين ، وجيش الروم.
(٣) أي: لا تظن أن العزة في المراكب العالية ، والمواكب الحافلة.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص/٢٠٧/ ، والحاكم في (مستدركه) (٣/ ٨٢).
(٥) أي: هلموا إلى المسجد.

أهله ، وصلَّى على نبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ قال: (أيُّها النَّاسُ ، لقد رأيتُنِي أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزومٍ ، فيقبضن لي القبضة من التَّمرِ أو الزَّبيب ، فأظلُّ يومي وأيَّ يومٍ)؟! .

ثمَّ نزل ، فقال له عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله تعالى عنه: (ما زدتَ على أن قمَّأتَ نفسك) ـ يعني: عبتَ ـ.

قال: (ويحكَ[١] يا بنَ عوفٍ ، إنِّي خلوتُ فحدَّثتني نفسي ، فقالت: أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضلُ منكَ؟ فأردتُ أن أُعرِّفها نفسها)[٢][٣] .

ومن تواضعه رضي الله تعالى عنه: أنَّ نفراً قالوا لهُ: والله ما رأينَا رجلاً أقضَى بالقسط ، ولا أقولَ بالحقِّ ، ولا أشدَّ على المُنافقينَ مِنْكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فأنتَ خيرُ النَّاسِ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال عوفُ بنُ مالكٍ رضي الله تعالى عنه: (كذبتم والله ، لقد رأينا خيراً منه بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم) .

فقال: من هو يا عوفُ؟ .

فقال: (أبو بكر رضي الله تعالى عنه) .

فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: (صدقَ عوفٌ وكذبتم ، والله

---

(١) ويح: اسم فعل يدل على الترحم ، يقال: ويح فلان أي: يرحمه الله .
(٢) أي: أعرفها أنني ذلك الرجل في الجاهلية ، ولكن الله مَنَّ عليَّ بالإسلام وأكرمني ، فهذا من فضل الله تعالى عليَّ .
(٣) انظر (كنز العمال) عند الكلام على تواضعه رضي الله تعالى عنه .

لقد كان أبو بكرٍ أطيبَ من ريحِ المسكِ ، وأنا أضلُّ من بعيرِ أهلي)[١][٢] .

وروي عن ضبَّة بن مُحصنٍ العنزيِّ قال: كان علينا أبو موسى الأشعريُّ رضي الله تعالى عنه أميراً بالبصرةِ ، فكان إذا خطبنا حمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه ، وصلَّى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنشأَ يدعو لعمرَ رضي الله تعالى عنه؛ قال: فغاظَنِي ذلك منه ، فقُمتُ إليه فقلتُ له: أينَ أنتَ مِنْ صاحبِهِ[٣] ، تُفضِّلُه عليهِ؟ .

فصنع ذلك جُمعاً ، ثمَّ كتب إلى عمرَ رضي الله تعالى عنه يشكوني ، يقولُ: إن ضبَّة بن محصنٍ العنزيَّ يتعرَّض لي في خُطبتي .

فكتب إليه عمر رضي الله تعالى عنه أن أشخصهُ[٤] إليَّ ، قال: فأشخصني إليه ، فقدمتُ فضربتُ عليه البابَ ، فخرجَ إليَّ ، فقال: من أنتَ؟ . فقلتُ: أنَا ضبَّةُ .

فقال لي: لا مرحباً ولا أهلاً .

فقلتُ: أمَّا المرحب فمن الله عزَّ وجلَّ[٥] ، وأمَّا الأهل ، فلا أهل لي ولا مال ، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصي من

---

(١) أي: هذا لمَّا كان عمرُ رضي الله تعالى عنه في الجاهلية ، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه قد آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) رواه أبو نعيم في (فضائل الصحابة) قال ابن كثير: إسناده صحيح ، كما في (كنز العمال) عند الكلام على فضل الصديق رضي الله تعالى عنه.

(٣) يريد أبا بكر رضي الله تعالى عنه.

(٤) أي: ابعث به إليَّ.

(٥) والمرحب هو الأرض الواسعة.

مِصْري ، بلا ذنبٍ أذنبته ولا شيءٍ أتيته؟ .

فقال: ما الذي شجرَ بينكَ وبينَ عامليْ؟ .

قال: قلتُ: الآنَ أخبرُك به ، إنَّه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ أنشأ يدعو لك ، فغاظني ذلك منه فقمتُ إليه ، فقلتُ له: أين أنت من صاحبه تُفضِّله عليه ، فصنع ذلك جُمعاً ، ثمَّ كتب إليكَ يشكوني.

فاندفعَ عمرُ رضي الله تعالى عنه باكياً وهو يقول: أنت والله أوفقُ منه وأرشد ، فهل أنت غافرٌ لي ذنبي ؛ يغفرُ الله لك؟ .

قال: قلتُ: غفرَ الله لك يا أميرَ المؤمنين.

قال: ثمَّ اندفع باكياً وهو يقولُ: والله لليلةٌ من أبي بكرٍ ويومٌ ، خيرٌ من عمرَ وآلِ عمرَ ، فهل لك أن أحدِّثك بليلته ويومه؟ .

قلتُ: نعم.

قال: أمَّا اللَّيلة: فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا أراد الخروجَ من مكَّةَ من المشركين خرج ليلاً ، فتبعهُ أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه ، فجعلَ يمشي مرَّةً أمامه ، ومرَّةً خلفه ، ومرَّةً عن يمينه ، ومرَّة عن يساره ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما هذا يا أبا بكر ، ما أعرِفُ هذا من أفعالك»؟ .

فقال: يا رسولَ الله أذكرُ الرَّصد فأكونُ أمامكَ ، وأذكرُ الطَّلَب فأكونُ خلفَك ، ومرَّةً عن يمينك ، ومرَّةً عن يسارِك لا آمنُ عليك.

قال: فمشى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلته على أطرافِ أصابعه حتَّى حفيت ، فلمَّا رأى أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه أنَّهَا قد حفيتْ حملَهُ على عاتقه ، وجعل يشتدُّ به حتَّى أتى فم الغارِ

فأنزله ، ثمَّ قال: والذي بعثك بالحقِّ لا تدخله حتَّى أدخله ، فإنْ كان فيه شيءٌ نزل بي قبلك.

قال: فدخل فلم يرَ فيه شيئاً ، فحملَهُ فأدخله ، وكان في الغار خرقٌ فيه حيَّاتٌ وأفاع ، فألقمهُ أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه قدمَهُ مخافة أن يخرجَ منه شيءٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيؤذيه ، وَجَعَلْنَ يضربن أبا بكر رضي الله تعالى عنه في قدمه ، وجعلتْ دموعه تنحدرُ على خدَّيه من أَلِمَ ما يجد ، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ له: «يا أبا بكر لا تحزن إنَّ الله معنا» ، فأنزلَ الله سكينته عليه ، والطُّمأنينة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه . فهذه ليلته.

وأمَّا يومه: فلمَّا توفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ارتدَّت العربُ ، فقال بعضهم: نُصَلِّي ولا نُزَكِّي ، فأتيتهُ لا آلُوهُ نُصحاً ، فقلتُ: يا خليفةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم تألَّفِ النَّاسَ وارفقْ بهم.

فقال لي: أجبَّارٌ في الجاهلية خوَّار في الإسلام؟ فبماذا أتألَّفهم؟ قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتفع الوحي ، فوالله لو منعوني عِقالاً كانوا يعطونه رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم عليه.

قال: فقاتلنا عليه ، فكان والله رشيد الأمر . فهذا يومه.

ثمَّ كتب إلى أبي موسى رضي الله عنه يلومهُ(١).

---

(١) رواه البيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ٤٧٦).

وروى الإمامُ أحمدُ[1] وغيرهُ، عن عبيدِ اللهِ بن عبَّاسِ بن عبدِ المطَّلب أخي عبد الله رضي الله تعالى عنهم قال: كان للعبَّاسِ رضي الله تعالى عنه ميزابٌ على طريقِ عمرَ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه، فلبس عمرُ رضي الله تعالى عنه ثيابه يوم الجمعةِ، وقد كان ذُبح للعبَّاسِ رضي الله تعالى عنه فرخانِ، فلمَّا وافى الميزاب، صُبَّ ماءٌ بدم الفرخين، فأصاب عمر رضي الله تعالى عنه وفيه دم الفرخين، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه بقلعه، ثم رجع عمر رضي الله تعالى عنه فطرح ثيابه، ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلَّى بالنَّاس.

فأتَّاه العبَّاس رضي الله تعالى عنه فقال: والله إنَّه للموضع الذي وضعه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عمرُ للعبَّاس رضي الله تعالى عنهما: وأنا أعزِمُ عليك لَمَا صعدت على ظهري حتَّى تضعه في الموضع الَّذي وضعه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففعل ذلك العبَّاس رضي الله تعالى عنه.

ومن ذلك أيضاً: موقفه رضي الله تعالى عنه مع التَّابعيِّ الجليلِ سيدنا أويسٍ القرني، فقد روى مسلم في (صحيحه[2]) عن أُسَيْرِ بن جابرٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا أتى عليه أمدادُ أهل اليمنِ سألهم: أفيكم أُويسُ بن

---

(١) في (مسنده): (١/ ٢١٠).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أويسٍ القرني رضي الله تعالى عنه /٢٥٤٢/ (٥/ ٢٤٩٥).

عامرٍ؟ حتى أتى على أويسٍ فقال: أنت أويسُ بن عامرٍ؟ قال: نعم، قال: من مُرادٍ ، ثمَّ من قرنٍ؟ ، قال: نعم ، قال: فكان بك برصٌ فبرأتَ منه إلا موضِعَ درهمٍ؟ ، قال: نعم ، قال: لك والدَةٌ؟ ، قال: نعمْ.

قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «يأتي عليكم أويسُ بن عامرٍ مع أمدادِ أهلِ اليمنِ ، من مُرادٍ ثمَّ من قرنٍ ، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضعَ درهَمٍ ، له والدةٌ هو بها برٌّ ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» ، فاستغفِرْ لي ، فاستغفَرَ له.

فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: أين تُريدُ؟.

قال: الكوفَةَ.

قال: ألا أكتبُ لك إلى عاملها[1]؟.

قال: أكونُ في غبراءِ النَّاسِ أحبُّ إليَّ[2].

قال: فلمَّا كان من العامِ المقبلِ ، حجَّ رجلٌ من أشرافهم[3] ، فوافقَ عمرَ رضي الله تعالى عنه ، فسألَهُ عن أويسٍ ، قال: تركته رثَّ البيتِ قليل المتاعِ.

قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «يأتي عليكم أويسُ بنُ عامرٍ مع أمدادِ أهلِ اليمنِ ، من مُرادٍ ثمَّ من قرنٍ ، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدةٌ هو بها برٌّ ، لو

---

(١) أي: حتى يقوم بشأنك.

(٢) أي: لا أريد الشهرة والظهور.

(٣) أي: من أهل الكوفة.

أقسم على الله لأبـرَّهُ» ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل.

فأتى أويساً فقال: استغْفِر لي.

قال: أنت أحدثُ عهداً بسفر صالحٍ[(١)] ، فاستغفر لي.

قال: استغفر لي.

قال: أنت أحدث عهداً بسفرٍ صالحٍ ، فاستغفر لي ، قال: لَقِيتَ عمر؟.

قال: نعم ، فاستغْفِرْ لي ، ففطِنَ له النَّاس ، فانطلق على وجهه[(٢)].

قال أسيرٌ رضي الله تعالى عنه: وكسوته بُردةً ، فكان كلَّما رآهُ إنسانٌ قال: مِنْ أين لأوَيسٍ هذه البُردة؟.

وفي رواية عند الإمام أحمد[(٣)] لمَّا أقبل أهل اليمن ، جعل عمرُ رضي الله تعالى عنه يستقري الرِّفاق ، فيقولُ: هل فيكم أحدٌ من قرنٍ؟ حتى أتى على قرنٍ ، فقال: من أنتم؟.

قالوا: قرنٌ ، فوقع زمامُ عمر رضي الله تعالى عنه ، أو زمامُ أويسٍ فناوله أحدهما الآخر ، فعرفه ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اسمكَ؟ ، قال: أنا أويسٌ.

فقالَ: هل لك والدةٌ؟ قال: نعم.

---

(١) أي: الحج.

(٢) أي: ترك الكوفة وساح في الأرض ، خوفاً أن تتوارد الناس عليه وتطلب منه الاستغفار ، فلربما يأتيه من لا يليق له الاستغفار ، وأويس رضي الله تعالى عنه من أهل الدعاء المجاب.

(٣) أخرجها في (مسنده): (١/ ٣٨).

قال: فهل كان بك من البياضِ شيءٌ؟.

قال: نعم، فدعوتُ الله عز وجل فأذهبه عنِّي، إلا موضع الدِّرهم من سرَّتي؛ لأذكرَ به ربِّي.

قال له عمر رضي الله تعالى عنه: استغفر لي.

قال: أنت أحقُّ أن تستغفر لي، أنت صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إنِّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ خيرَ التَّابعين رجلٌ يقالُ له أويسٌ، وله والدةٌ، وكان به بياضٌ فدعا الله عز وجلَّ فأذهبه عنه، إلا موضع الدِّرهم في سرَّته»، فاسْتَغْفَرَ له، ثمَّ دخل في غمَارِ النَّاس، فلمْ يُدرَ أين وقعَ.

قال: فقدمَ الكوفَةَ. قال: وكنَّا نجتمع في حلقةٍ فنذكر الله، وكان يجلس معنا، فكان إذا ذكر هو وقع حديثه من قلوبنا موقعاً لا يقع حديث غيره.

وكان عمر رضي الله تعالى عنه قويَّ النُّور، شديداً في أمرِ الله تعالى، ولقد امتدحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «إيهاً يا بنَ الخطَّاب، والَّذي نفسي بيده ما لقيك الشَّيطانُ سالكاً فجّاً قطُّ؛ إلا سلك فجّاً غيرَ فجِّك»(١).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله تعالى عنه /٣٦٨٣/ (٧/ ٤١)، ومسلمٌ في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه /٢٣٩٦/ (٥/ ٢٣٩٥).

وكان من فراسته رضي الله تعالى عنه ، وقوَّةِ نوره ، أنَّه إذا حدَّثَهُ الرجلُ بحديث وكذب في كلامه ، كان يقول له : «احبسْ هذه»[1] .

ثمَّ يحدِّثه بالحديثِ ، فيقولُ : «احبسِ هذه» ، فيقولُ له[2] : كلُّ ما حدَّثتك به حقٌّ إلا ما أمرتني أن أحبِسَهُ[3] .

وهذا لأنَّ الصِّدق له علامةٌ نورانيَّةٌ ، تظهرُ لمن عمَّر قلبه بتقوى الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

ونسألُ الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

(١) أي : لا تقل هذه الكلمة ، فإنها ليست بصحيحةٍ .
(٢) أي : الرجل .
(٣) أخرجه ابن عساكر ، كما في (كنز العمال) ، في تتمة فضائل الفاروق رضي الله تعالى عنه .

جملة محاضرات

حول قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾

[الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

تقدم بعض الكلام حول مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ، والتي بيَّنها سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وذلك لأن الله تعالى أرسل رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف ، تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وسنأتي على تفصيل هذه المواقف فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما الآن فسنذكر شيئاً عن معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ .

والتي تضمنت جملة من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ويتضمن ذلك الموقف ثلاث مراتب.

وهي:

١ً ـ إنا أرسلناك شاهداً؛ أي: شاهداً لله تعالى بالوحدانية وأنه لا إلّه إلا الله.

٢ً ـ إناأرسلناك شاهداً؛ أي: شاهداً على أمتك وما يعملون.

٣ً ـ إنا أرسلناك شاهداً؛ أي: مزكياً تشهد بالعدالة والتزكية لمن اتبعك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإليك تفصيل هذه المراتب الثلاثة وأدلتها من الكتاب والسنة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي: شاهداً بأنه لا إلّه إلا الله، وذلك لأنَّ سيدنا محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم المخلوقات شهادةً، وأبينهم شهادة، وأولهم شهادة بأنه لا إلّه إلا الله، وقد بين هذا سبحانه بقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

فلَقد بيَّن سبحانه وتعالى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو البينة الكبرى، الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

وإنَّ من شأن البينة أن تكون ظاهرة في نفسها، ومظهرة للحق لغيرها.

وإن أقوى الشهادات الخَلْقية، وأقوى البينات الدالة على الله تعالى، وعلى قضايا الإيمان، إنما هي محمَّد رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم ، ولهذا سماه الله تعالى البينة ، وعلى البينات وقوتها تصح الشهادات.

فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي بأنه لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الشهادة إنما هي بقولك يا رسول الله ، وحالك وأخلاقك ، وعلومك ، وشمائلك ، ومعجزاتك وسائر شؤونك ، فكل هذا دليل شاهد؛ وبينة وبرهان قاطع؛ على أن الله تعالى حق وأن سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد خلق الله عوالم كثيرة تدل على وحدانيته وقدرته سبحانه وتعالى ، كالسماوات والأرض والأفلاك ، والأشجار والبحار وغيرها ، إلّا أن أعظم هذه المخلوقات دلالة على الله تعالى ، وأقواها شهادة ، وأبْيَنَها حجة ، إنما هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمَنْ نظر في علومه صلى الله عليه وآله وسلم عرف أنها ليست علوماً خَلْقِيَّة مكتسبة ، وإنما هي علوم أفاضها الله تعالى عليه.

وَمَنْ نظر في معجزاته المتنوعة عرف أن هذا لا يُنال بالقدرة البشرية ، وإنما هي أمْرٌ معجز خارق للعادة ، وشاهد على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَن نظر إلى أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم وشمائله وخصاله؛ عرف أنها ليست كالأخلاق العادية للبشر ، إنما هي أخلاق عالية عظيمة ، تدل على صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى أن الله تعالى هو الذي أمده وخصه بهذه الخصائص

والفضائل ، وأفاض عليه هذه العلوم والمعارف.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ظهر الأمر الخارق على يده ـ وهو المعجزة ـ كان يُردِفُها بالشهادة بأنه لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمِنْ هذا ما رواه مسلم في (صحيحه)[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مع أصحابه في مسير ـ أي: في بعض الغزوات ـ فنفدت أزواد القوم ـ أي: ولم يبق إلا الشيء القليل ـ حتى همّ الصحابة أن ينحروا حمائلهم ـ أي: جمالهم التي يحتاجونها للحمل عليها ـ فقال عمر رضي الله عنه: لو أمرت بما بقي في أزواد القوم فدعوت الله عليها يا رسول الله.

فجاء كلٌ بما بقي عنده من آثار ، فمنهم من جاء بتمرة واحدة ، ومنهم من جاء بنوى التمر ـ وكانوا يمصونها من شدة الجوع ـ ومنهم من جاء بشيء من الحنطة ، وهكذا ، ووضعت أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا الله تعالى وبارك عليها ، وإذا بالبر والتمر زاد وكثر حتى ملأ القوم مزاودهم كلها ، فلما امتلأت مزاودهم كلها بالتمر والبر ، قال عليه الصلاة والسلام: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقىٰ الله بهما عبد ـ أي: بالشهادتين ـ إلا دخل الجنة» أي: إما حالاً ، أو مآلاً إذا كان عنده كبائر وذنوب فلابد أن يتطهر منها.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم هو الشاهد الأكبر من الخلق

---

(١) كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً /٢٧/ (١/ ١٦١).

على أنه لا إلّه إلاّ الله وأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن دلائل صدقه صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة واضحة في أخلاقه وشمائله، وسيرته صلى الله عليه وآله وسلم، وصورته الخَلْقية لأن الخُلُق ملازم للخَلْقِ، فلما كان خلُقه عظيماً كان خَلْقه عظيماً.

فلقد كساه الله جل جلاله حُلل البهاء والجمال والكمال، حتى وصفه الصحابة فقالوا: (لم تر عين قبله ولا بعده مثله) صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول وراء كل صلاة: «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك» وهذا من الشهادات القولية العلمية.

«اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.

اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة ـ أي: عباد الله المؤمنين، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]ـ.

اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام، اسمع واستجب، الله نور السموات والأرض، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل» الحديث[١].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من الشهادة قولاً وعملاً،

---

(١) انظر (المسند) للإمام أحمد (٤/ ٣٦٩).

وحالاً وإخباراً ، لأنه الشاهد الأكبر على أنه لا إلّه إلا الله ، وعلى أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي: شاهداً على أمتك كلهم بما يعملون ، وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ . . .﴾ الآية [المزمل: ١٥ ـ ١٦].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يشهد على هذه الأمة بأعمالها من خير أو شر ، يقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ ـ ٤٢].

والمعنى: كيف حال الكفار يوم القيامة ، وحال العصاة المصرِّين؟! كيف حالهم يوم القيامة ، يوم تشتد عليهم الأهوال والكربات ، ويظهر أمرهم بين الخلائق كلها ؟!!.

وفي ذلك اليوم يجيء الله من كل أمة بشهيد ، وهو نبيها الذي أُرسل فيها ، حتى يشهد على من أطاعه ومن عصاه ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾على هؤلاء أي: على أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ لأن رسالتك عامة فشهادتك عامة.

فيشهد صلى الله عليه وآله وسلم على المؤمنين بالإيمان ، وعلى الكافرين بما عملوا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] أي: لو يُدفن أحدهم ويسوى فوقه التراب ، أو يكون هو والأرض سواء ، أي: يكون تراباً من جنس الأرض كما قال

تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [عم: ٤٠].

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] أي: وحينذاك لا يتكلمون إلاّ بالحق والصدق، ويعترفون بأعمالهم.

وقد جاء في الحديث، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليّ القرآن» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأ عليك وعليك نزل؟! فقال: «اِقرأ فإني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأ من أول سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ الآية [النساء: ٤١].

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حسبك الآن» أي: كافي كافي.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا عيناه تذرفان[١] ـ أي: تذرفان بالدموع لما هنالك من شدة الأهوال التي تعتري المخالفين، ولذلك بكى صلى الله عليه وآله وسلم تأثراً من شدة ذاك الموقف ـ.

وقد يقال: وكيف علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأعمال أمته من بعده؟.

فيقال لقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ / ٤٥٨٢/ (٨/ ٢٥٠) ومسلم باب فضل استماع القرآن / ٨٠٠/ (٢/ ٨٧٧).

فقد أخبر سبحانه في الآية الكريمة أنه يرى أعمال العباد ، ولا يخفى عليه منهم شيء سبحانه وتعالى ، وأن هذه الأعمال تُعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عَرضاً خاصاً ، وتعرض على المؤمنين وهم في البرزخ ، وهذا قبل يوم القيامة ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أما عرض الأعمال على المؤمنين ، فقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن أعمال الإنسان تُعرض على أقاربه وعشيرته ، كما في (مسند) الإمام أحمد، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأمْواتِ، فإنْ كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تُمتهم حتى تهديهم كما هديْتَنا»[1].

وجاء في(مسند الطيالسي)[2] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم في قبورهم ـ أي: على المؤمنين منهم ـ فإن كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم أَلْهِمْهُم أن يعملوا بطاعتك».

وجاء في حديث آخر أن الأعمال تُعرض على الآباء والأمهات كل يوم جمعة.

أما عرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهي تعرض عرضاً خاصاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (٣/ ١٦٥).
(٢) ص/٢٤٨/ .

وهناك عرض الأعمال على رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يرى العمل حين يعمله العبد ، إلاّ أن للعرض عليه سبحانه حِكَماً وأسراراً ـ كما هو مفصل في كتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى ذي العزة والجلال) للشيخ الإمام سيدي الوالد رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته ـ.

وَمِنْ هذا ما روى مسلم والترمذي ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تعرض الأعمال[1] في كل يوم خميس واثنين ، فيغفر الله تعالى لكل امرىء ـ أي: مؤمن ـ لا يشرك بالله شيئاً؛ إلاّ من كان بينه وبين أخيه شحناء فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»[2] أي: لا ترفعوا لهم عملاً إلى الله تعالى حتى يصطلحا.

وهذا يدل على أن الشحناء والبغضاء وأمراض القلوب تحجب رفع العمل إلى رب العزة تبارك وتعالى.

ومن حِكَمِ رفع الأعمال إليه سبحانه وتعالى ليباهي بها الملائكة ، وَيُثني على صاحبها خيراً ، وليحفظها سبحانه في خزائنه الخاصة ، ولينميها ويضاعفها سبحانه وتعالى.

أما عرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته:

فقد روى البزار بالسند الجيد، عن ابن مسعود رضي الله عنه ،

---

(١) أي: على الله سبحانه وتعالى كما في رواية الطبراني.

(٢) (صحيح) مسلم كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء، ٢٥٦٥/ (٥/ ٢٥١٤) و(سنن) الترمذي كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في التهاجر ٢٠٢٤/ (٦/ ٢٢٦).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تُعْرض عَلَيَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله، وما رأيت من شر استغفرت لكم»(١) أي: لأهل الإيمان. أما الكافر فإن الله لا يغفر لمن يشرك به.

كما أن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم تُعْرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم عرضاً خاصاً كما قال: «فإن صلاتكم معروضةٌ عليَّ»(٢).

وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: ما من يوم إلاَّ تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته غدوةً وعشياً، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم - وفي رواية: بسيماهم وأعمالهم - فلذلك يشهد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فالأمة نفسها تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تعرض عليه أعمالها.

---

(١) ونص الحديث: «حياتي خير لكم: تُحدثون ويُحدثُ لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت لكم» كما في (طرح التثريب) (٣/ ٢٩٧)، وانظر (مجمع الزوائد) (٩/ ٢٤).

(٢) فقد روى الإمام أحمد في (مسنده) (٤/ ٨) وغيره، عن سيدنا أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مِنْ أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة وفيه الصعقة؛ فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: يارسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْت -يعني: بليت- فقال: «إن الله عز وجل حَرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وقد يقال: كيف يُعرض الإنسان وهو في الدنيا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فيقال: يجب أن تعلم أن وجودك في عالم الدنيا وجوداً جسمانياً كيانياً، ولكن لك وجودات أخرى ليست جسمانية، ومن جملة هذه الوجودات وجودك في عالم المثال، وإن وجودك في عالم المثال وجود حقيقي، وبهذا تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتعرض أعمالك على الملأ الأعلى، وعلى أقاربك المؤمنين في البرزخ وهكذا....

وإليك ما يوضح مسألة تعدد الوجودات والاعتبارات، فالإنسان له وجود جسماني، وله وجود ذهني علمي، فمن ذلك لما تذكر فلاناً من الناس كنت قد رأيته، فإنَّ ذكرك له يدل على أن له وجوداً في ذهنك، وهذا هو الوجود الذهني أو العلمي، وهذا بالإضافة إلى الوجود الخارجي الجسماني.

وهناك الوجود الروحاني، وهناك الوجود المثالي، وهو وجود حقيقي ليس بوهمي، وإنّ أوسع العوالم الإلّهية إنما هو عالم المثال، وما من شيء يظهر في العالم الشهودي المادي إلا وقد سُبِقت له أمثلة متعددة في عالم المثال، ومن جملة ذلك رفع الأعمال إلى الله تعالى، فلها وجود مثالي عملي وليس جسمانياً، لأن العمل ليس بجسم وإنما هو أثر من آثاره، ولكن له وجوداً حقيقياً.

وإذا جادلت في هذا فيقال: أنت قبل أن تعمل العمل هل يقال: إن لك عملاً ؟؟.

نعم ليس لك عمل، ولما عملت هل صار لعملك وجود أم لا ؟

ولو قلت: لا. فما الفرق بين حالك قبل العمل وحالك بعد العمل؟ ولصار العامل وغير العامل سواء، وهذا ضرب من الجنون، فلما يقوم الإنسان بالعمل يقول الله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: العمل، وإنَّ كن تعطي وجوداً، وليست الموجودات على حد سواء، فهناك الوجود الجسماني، وهناك الوجود العملي وهكذا . . .

فالأعمال لها وجود، وكلها آثار قول الله تعالى: «كن» وإنَّ كُنْ تُعطي كل موجود نوعاً من الوجود، وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم، أي: بكل نوع من أنواع التخليق عليم، فهناك الخَلْق الجسماني، والروحاني والعملي، والله هو الخلاق، ويخلق ما يشاء، وهو بكل خلق عليم سبحانه وتعالى.

٣ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: شاهداً لمن اتَّبَعَكَ بالتزكية والعدالة، فتزكيهم وتعدِّلهم حتى تُقبل شهاداتهم على الأمم قبلهم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والمعنى: وكذلك جعلناكم؛ أي: يا أمة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعين له، جعلناكم أمة عُدولاً خياراً، كما جعلنا قبلتكم ـ وهي الكعبة ـ جعلناها أفضل القبل والبقاع، وهي أوسط بلاد المعمورة.

فأنتم يا أمة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعين له، أنتم أفضل الأمم كلها؛ لأنَّ الوسط ما جمع خير الطرفين.

ويقال: أوسطهم بمعنى: أعدلهم وأفضلهم، وفي الحديث: «خير الأمور أوساطها»[1] لأنّ الوسط يجمع خير الطرفين، ويترك شر الطرفين، وإليك توضيح ذلك:

هناك صفة الجبن وصفة التهور وهناك الشجاعة:

فالجبن هو: الإحجام في موضع الإقدام؛ وفي غير موضع الإقدام.

والتهور هو: الإقدام والجرأة في موضعها وفي غير موضعها.

أما الشجاعة فهي: الإقدام والجرأة في موضع الإقدام فقط.

فمن هذا ترى أن الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، لأنها أخذت من الجبن الصفة الحسنة وهي الإمساك عند موضعه، وأخذت من التهور صفة الإقدام في مواضع الإقدام، فالشجاعة جمعت كمال الطرفين، وتركت شر الطرفين، فهي وسط بينهما.

فلما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدولاً خياراً جمعتم كمالات من قبلكم من الأمم، وتركتم لها ما فيها من النقائص ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على الناس قبلكم، ولتكونوا شهداء على الناس في زمنكم ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فجعلناكم خياراً عدولاً لتشهدوا على الأمم قبلكم، ويزكيكم ويشهد لكم بالعدالة والتزكية أفضل رسول وهو سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بيَّن هذا صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح

---

(١) انظره في (كشف الخفا) للعلامة العجلوني.

والرواية للإمام أحمد وابن ماجه[1] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الثلاثة ـ أي: من آمن به واتبعه ـ وأكثر من ذلك.

فيقال له ـ أي: لنبيّ كل أمة ـ: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم. فَيُدْعىٰ قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا ـ وهم الذين كفروا به ـ فيقال له: مَنْ يشهد لك ـ لأنك تدّعي التبليغ، بينما الأمة الكافرة تنكر أنك بلغتها. والبينة على المدعي ـ فيقول كل نبي: يشهد لي محمَّد وأمته، فيدعىٰ محمد وأمته فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فصدقناه» الحديث. فيقولون: أخبرنا رسولنا عن كتاب ربنا أنّ الرسل قد بلغوا ـ أي: فآمنا به وبما جاء به ـ.

فقد شهدت هذه الأمة أنَّ الرسل قد بلغوا أممهم، مع أنهم لم يَرْوهم أو يدركوا زمنهم، والشهادة لا تكون إلا لِمَنْ شَهِدَ مَنْ سيشهد عليه؟!.

نعم إنَّ إيمانهم وتصديقهم بخبر القرآن الكريم، الذي جاء به سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم هو أقوى من رؤية العيان. لأن العيان يحتمل الخطأ في النظر والمنظور، ويتأثر بمزاج الإنسان وسلامته، أما هذا القرآن فقد حكم بصدقه العقل والذوق والفطرة والشرع، وعلى أنّه حقاً كلام الله تعالى، النازل على رسول الله

---

(١) انظر (المسند): (٣/ ٥٨) و(سنن) ابن ماجه / ٤٢٨٤/ (٢/ ١٤٣٢).

صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يحتمل غير ذلك.

فيشهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته المتبعة بالتزكية والعدالة، حتى تُقبل شهادتهم على الأمم قبلهم؛ وأن رسلهم قد بلغوا.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٦٩].

فلما تجلى سبحانه لفصل القضاء وأَمْرِ الحساب، أشرقت أرض المحشر بنور ربها، فلما أشرقت بنور ربها هناك علمت نفس ما قدمت وأخرت، وظهرت ضمائر القلوب ودقائق الأمور، لأنَّ شأن النور أن يُظهر الأمور، وكلما قوي النور أظهر خفايا الأمور ودقائقها.

وإذا كانت أرض الحساب قد أشرقت لتجلي ربِّ العالمين عليها، فاعلم أنه إذا تجلى رب العزة أشرقت له الأماكن والبقاع كلها، فإذا تجلى على أرض القلب أشرق القلب بنور ربه.

ولذلك فإنَّ قلوب المؤمنين الكمل هي في الحقيقة مشارق أنوار رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو كتاب الإحصاء، الذي أحصيت فيه جميع الأشياء، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالكتاب أحصى عليهم أعمالهم، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة كما أنهم وجدوا أعمالهم حاضرة؛ وآثارها الظلمانية موجودة عليهم فكيف ينكرونها؟! بل راحوا يَدْعُون على أنفسهم بالهلاك والموت: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يا موتتنا أحضري، ولكن لا موت يخلصهم، ولا حياة نعيم لهم، ونسأل الله العافية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: لا يترك ﴿صَغِيرَةً﴾ وهي التبسم ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ وهي الضحك والقهقهة ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ اهـ.

وإنّ ما تكتبه الملائكة في الصحف إنما هو نسخة جزئية عن كتاب الإحصاء، لأن كتاب الإحصاء جامع عام للكل، وهو غير كتاب القضاء.

قوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بالنبيين ويسألهم رب العالمين هل بلغتم؟ فيقولون: نعم، وتنكر الأمم الكافرة ذلك، فيؤتى بالشهداء، وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعيْن له، فيشهدون أن الأنبياء قد بلغوا أممهم، وزكاهم وعدلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقبلت شهادتهم فجرى الحكم أن الأنبياء قد بلغوا، وحينذاك ينفض الأمر إلى الحساب.

ومن هذا يتبين لك أنّ جميع الأمور موقوفة على شهادة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ موقفه صلى الله عليه وآله

وسلم موقف الشاهد، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ وعلى محور شهادته تعتبر الشهادات.

وإن في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بياناً لفضل الأمة المحمدية المتبعة لرسولها صلى الله عليه وآله وسلم، وأنَّ لها الفضل على بقية الأمم، في كمالاتها، وإيمانها ومعارفها، حتىٰ إذا جاء يوم القيامة ظهر ذلك لجميع الخلائق، كما بيّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أنا وأمتي ـ أي: المتبعة له ـ يوم القيامة على كوم ـ أي: مكان مرتفع ـ مشرفين على الخلائق، ما من أحدٍ من الناس إلا ودَّ أنه منّا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل»[1] ولما كان منصب الشهادة على الأمم منصباً كبيراً، ومقاماً عظيماً؛ كان جديراً بكل مؤمن أن يسأل الله تعالى هذا المنصب والمقام.

ولذلك دعا به النجاشي وجماعته لما أسلموا، كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] أي آمنا بأنه لا إلٓه إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنَّ هذا القرآن كلام الله تبارك وتعالى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع الشاهدين من أمة سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه، الذين يشهدون على الأمم قبلهم، وهذا لأن

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

هذه الأمة المتبعة الذين نالوا مقام الشهادة على الأمم قبلهم ، إنما زكاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وشهد لهم عند الله تعالى أنهم عدول خيار.

وما أشرف وأسعد من يشهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعدالة ، والتقى ، والصلاح والزكاة ، وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

أخبار النقل تُصحِّح أخطاء العقل وتُقوِّم اعوجاج الفكر

لقد أخبر سبحانه أنّ أهل الإيمان هم أهل العقل الصحيح ، لأنهم قوّموا عقولهم ، وصححوا أفكارهم بأدله القرآن الساطعة ، وبراهينه العقلية القاطعة ، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

ووصف سبحانه أهل الإيمان الكامل بأنهم أولو الألباب ، قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثم بين وصفهم وشأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٣].

لأن العقل الصحيح ، والفكر السليم من الأهواء والأسواء يقتضي الإيمان والتسليم بما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، هذا وإنَّ خبر القرآن وما ثبت عن سيد الأنام صلى الله وآله

عليه وسلم أقوى من رؤيا العيان ، وذلك لأن نور البصر لا يرى الأشياء على حقيقتها كما يرى الإنسان القمر صغيراً ، وكذلك سائر النجوم ، ولكنها في حقيقتها قد تكون قدر الأرض أو أكبر منها ، كما أنك ترى نور الكهرباء مستمراً متواصل لا انقطاع فيه ، ولكنه في الحقيقة ذبذبات متوالية ، ولكن لسرعتها لا يدرك البصر تواليها ويحسبها مستمرة ، كما لو نظرت إلى ماء ينسكب من إبريق لظننته قضيباً وهكذا.

فنور البصر يحتاج إلى نور آخر يُصحح له أخطاءه ، ويبين له الحقائق ، وما هذا إلاَّ بنور العقل.

فبالعقل اهتدى الإنسان إلى معرفة هذه الأمور التي لم يستطع نور البصر إدراك حقيقتها.

إلا أن العقل يتعامل مع الأمور المحسوسة ، سواء بالعيان أو بالسماع ، أو باللمس ، أو بالشم أو بالذوق ، ولكنه لا يدرك ما غاب عن هذه الحواس ، فالعقل وحده لا يكفي للتوصل إلى قضايا الإيمان وما أخبر عنه القرآن.

ولذلك وصف سبحانه هذا القرآن بأنه نور وهدى ، وبصائر للناس ، تستنير به العقول والأفكار ويبصِّرهُا ، ولذلك فإن أهل العقل الصحيح يتقبلون قضايا الإيمان بالتسليم ، والسمع والطاعة ، لأنهم أدركوا أنّ هناك نوراً أقوى من نور عقولهم ، بل هو نور لعقولهم وأفكارهم وأرواحهم وأشباحهم ، ألا وهو القرآن الكريم ومن نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة: ١٥] أما

النور فهو رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى في وصفه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] ـ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى ـ وأما الكتاب المبين فهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاء فيه بيان كل شيء.

ومن جملة ذلك أنّ هذه الأمة المتبعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقف يوم القيامة موقف الشهادة على الأمم قبلها ، وأن رُسُلَهم قد بلَّغتهم ، فيقال لهم: وما علمكم بذلك؟ ـ أي: ولم تدركوا بعقولكم أو بأبصاركم أن الرسل قد بلغوا أممهم ـ.

فيقولون: أخبرنا رسولنا عن ربنا تبارك وتعالى في كتابه أنَّ الرسل قد بلغت أممهم ـ أي: وإن خبر القرآن أقوى وأقطع من رؤيا العيان ـ كما تقدم بيانه ، فلا يصحح نظريات العقل إلاّ أخبار النقل عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالأصل والميزان والمصحح لنظريات العقل هو: ما ورد عن الله تبارك وتعالى بواسطة رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

* * *

من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم

الدعوة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فلقد أرسل الله تعالى الرسل صلوات الله عليهم دعاةً يدعون الناس إلى الله تعالى.

كما أخبر الله تعالى عن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] وإن أعظم الرسل دعوة إلى الله تعالى، وأعمهم وأوضحهم بياناً ودعوة إلى الله سبحانه، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وهذا موقف عظيم له صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، ويجب على العالم أن يقابلوا هذا الموقف بالاستجابة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

﴿وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦] أي: بمشيئته وتيسيره الخاص سبحانه وتعالى.

أما أنه صلى الله عليه وآله وسلم الداعي العام لجميع الأنام، فقد دعى الإنس والجن، وفي هذا يقول الله تعالى إخباراً عن الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١] أي: وهو سيدنا محمد صلى الله وآله عليه وسلم.

فلقد دعا الجن إلى الله تعالى، ووفدوا إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وذهب مرات إليهم، وجمعهم، وأرشدهم، وعلمهم، وسألوه فأجابهم وبين لهم الحلال والحرام[(١)].

ومما ورد في صفاته ومقاماته صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه الداعي المطلق إلى الله تعالى، ما ورد في (سنن) الدارمي وغيره[(٢)] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أُتِيَ ـ أي: أتاه ملكان ـ فقيل له: لِتنم عينك، ولتسمع أذنك، وليعقل قلبك، قال: فنامت

---

(١) قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي شيبة وابن منيع، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في (الدلائل). عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (هبطوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة) الحديث.

(٢) انظره في (السنن) (١/٧) وانظر (صحيح) البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم / ٧٢٨١/ (١٣/ ٢٤٩).

عيناي - أي: ولم ينم قلبه صلى الله عليه وآله وسلم - وسمعت أذناي، وعقل قلبي.

قال: فقيل لي - أي: فقال ملك للآخر -: مثاله - أي: في أمته - سيد بنى داراً، فصنع مأدبة، وأرسل داعياً - يدعو إلى الدار والمأدبة - فمن أجاب الداعي رضي عنه السيد، ودخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، وسخط عليه السيد.

قال: فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم».

وإن الإسلام هو دار السلام على الحقيقة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي: في الإسلام.

وضوح دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وطريقها:

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والمعنى: قل لهم يا رسول الله، قل لجميع خلق الله: إنسهم وجنهم: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي: طريقي ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على طريقة واضحة مستنيرة، لاخفاء فيها ولا التباس، وعلى شريعة ظاهرة النور والحق، وإن نور هذه الشريعة مُبصِّر للأرواح والعقول، بل مُبصر للأعين أيضاً.

وقد بين هذا صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث «لقد تركتكم

على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك»[1] أي: تركتكم على شرعة وشريعة عملية ، وملة اعتقادية مثل البيضاء ، لا خفاء ولا التباس ولا ظلام فيها ، بل كلها نور وهدى وبيان.

وروى ابن ماجه في (سننه)[2] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ـ أي: يتخوفون من عواقبه ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «آلفقر تخافون»؟ أي: تخافون الفقر وأنتم مؤمنون ، وأنتم على الله متوكلون؟!! «والذي نفسي بيده لتصبَّن عليكم الدنيا صباً» أي: تفتح عليكم الدنيا ، وهذا ما حصل عند الفتوحات الإسلامية ، وكثرة غنائم المسلمين «حتى لا يُزيغ قلبَ أحدكم إزاغة إلا هيه»[3].

وفي هذا تحذير للذين يأتون مِنْ بعد الصحابة أنهم سيفتنون في أموال الدنيا. وليحذر المؤمن من أن يطغيه المال مهما تكاثرت عليه الدنيا.

ثم بين عليه الصلاة والسلام فقال: «وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (صدق والله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لقد تركنا على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء).

---

(١) رواه ابن ماجه في (سننه) في المقدمة حديث رقم /٥ و٤٣/ ، والحاكم (١/ ٩٦)، والإمام أحمد في (المسند): (٤/ ١٢٦).

(٢) في المقدمة حديث رقم /٥/ .

(٣) الضمير يرجع إلى الدنيا ، والهاء في آخره للسكت ، أي: لا يميل قلب أحدكم إلا الدنيا.

ومعنى: «على مثل البيضاء» أي: على ملة مثل الأرض البيضاء التي لا يعكر لونها الليل، وإنما هي بيضاء في الليل والنهار.

أو المراد على قلوب بيضاء، فلا تعكروها وتغيروها بحطام الدنيا.

وجوه دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما دعا:

لقد دعا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان بالله تعالى، وإلى الإيمان برسل الله، وأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودعا إلى جميع ما أمر الله به سبحانه وتعالى.

وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

والمعنى: وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، فَلِمَ لا تستجيبون لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ﴾ أي: والحال قد أخذ الله ميثاقكم ـ أي: في عالم الذر قبل هذا العالم ـ أخذ ميثاقكم على أنه سيرسل إليكم رسلاً تؤمنون بهم، وبما يدعونكم إليه، فيجب عليكم وفاءً بالعهد والميثاق، وتصديقاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإيماناً به: أن تستجيبوا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ويشير بهذا سبحانه إلى العهد والميثاق الأول، وهو الميثاق يوم قال لهم الله عز وجل: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أنت ربنا.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد بين هذا صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في (زوائد مسند) أحمد وغيره[١]، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال في هذه الآية: إن الله تعالى جمع أرواح بني آدم ـ أي: للعهد والميثاق ـ وَصَوَّرهم ـ أي: جعل كل روح على صورة جسدها، وأخذ صور الذرات الحقيقية وألبسها الأرواح الإنسانية ـ فاستنطقهم وكلمهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وهذا هو قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ فقال لهم: فإني أُشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام، أن تؤمنوا بي ولا تكفرون، واعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب لكم غيري، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأُنزل عليكم كتباً.

قالوا: شهدنا على ذلك ـ وأقروا بذلك ـ وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ﴾ أي: وقد أخذ الله ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: يوم عالم الذر على أنه لا إله إلا الله، وأنه سيرسل الرسل ويذكرونكم بهذا العهد، وقد جاءكم هذا الرسول الكريم، وذكركم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين بالله وخبر الله، فالله يقول ذلك، وإن كنتم مؤمنين برسول الله، فيجب عليكم أن تصدقوه بما دعاكم إليه من عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره: رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم.

ولقد استجاب العقلاء لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمنوا بالله تعالى ، لأنهم تفكروا وتأملوا فيما دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فرأوه حقاً معقولاً ، فآمنوا واستسلموا لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى موقف العقلاء مع دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان بالله ، وأنّه لا إله إلا الله ، وأنه سبحانه حقاً واجب الوجود:

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهم أهل العقول الصحيحة ، الذين وصلوا إلى لباب الأمور ، وتفهموا الحكمة منها ، والسر في وجودها ـ فما هي صفة أولي الألباب ـ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما في السماوات من نجوم وكواكب ، والنظام الفلكي الذي أقامها الله تعالى فيه ، والمواقع التي أوقعها الله تعالى فيها ، وكذلك الأرض وما فيها من عوالم ، وماذا يقول أولو الألباب بعد التفكر: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: ما خلقت هذا عبثاً ولهواً ، بل كله بالحق والحكمة ، والإحكام والإبداع ، وكل شيء يا رب خلقته فكملته وتممته ، وأبدعته ، وأتقنته: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وما دام كل هذا الخلق بالحق والحقيقة ، والحكمة والعدل ، فلا بد له من حقيقة يرجع إليها ، وهي الآخرة ، التي تظهر فيها حكمة أحكامه سبحانه وتعالى ، وحكمة شرائعه ، وحسن عواقب

مَنْ مشى عليها ، وسوء عواقب من خالفها .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وإنّ أظلم الظلم هو إنكار وجود رب العالمين ، أو الإشراك به سبحانه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وإن أعدل العدل قول: لا إلّه إلا الله إيماناً بها ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٤٤] أي: بلا إلّه إلا الله ـ أي: لأنها أصل العدل وعنها يتفرع كل عدل ـ.

قوله سبحانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وهذا المنادي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي دعا إلى الإيمان بالله سبحانه ، لأنه الرب والخالق والممد لجميع الخلق سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: خالقكم ومربيكم ، ورازقكم وممدكم ، وهو حق واجب الوجود سبحانه وتعالى. وإذا كان كل تصديق وإيجاد يحتاج إلى دليل وبرهان حتى تُصدِّق به وتثبته ، فاعلم أنه ما من دليل ولا برهان تُثبت به وجود شيء إلا وذلك الدليل والبرهان يُثبت لك وجود الله تعالى ، وإذا

أنت أثبت الشيء الفلاني بدليل أو أكثر ، فإن جميع الأدلة النقلية والعقلية والسمعية والبصرية ، كلها أدلة على أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد نبه الله تعالى العقلاء إلى أنّ الإيمان بوجود الله أمر مُبرم معقول ، وهو أمر بديهي ضروري ، لا يحتاج إلى توقف أو إلى نظر ، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] أي: أنهم كانوا عدماً فصار لهم وجود ، فمَنِ الذي نقلهم من العدم إلى الوجود؟ العدم من نفسه لا يُعطي وجوداً ، فهل العدم أوجدهم ؟ أم أنهم خلقوا أنفسهم ؟، وَكِلا الأمرين لا يُتصور؛ فلا بد إذاً من خالق ، كما لابد للمصنوع من صانع ، وهذا هو الله تعالى رب العالمين.

ثم بين سبحانه وتعالى موقف العقلاء مع دعوته صلى الله عليه وآله وسلم فقال مُخبراً عنهم: ﴿ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي: بما فيهم المقربين ، لأنهم لم يقابَلوا بهم في سياق الآيات ، وفي هذا يسأل المؤمنون العقلاء ربهم حسن العاقبة، بعد أن سألوا المغفرة، وتوفنا حين تتوفانا مع الأبرار ، بما فيهم المقربين لأنهم لم يقابلوا بهم.

وفي هذا طلب لحسن العاقبة بعد طلب المغفرة وتكفير الذنوب والسيئات.

وإن الأبرار لهم البرّ والإحسان في كل العوالم ، لأنهم تحققوا بالبر ، وهو الإيمان بشعبه قال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أي:

ما وعدتنا به على ألسنة رسلك ، وأعظمهم وأجمعهم رسالةً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء بما وَعَدت به الرسل كلهم عن رب العالمين.

وإن لله وُعُوداً مع خلقه ، وله عهود معهم ، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف ميعاده ، ومن جملة ذلك: أنه وعد من استغفره أن يغفر له قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] فنحن نستغفرك فاغفر لنا يا ربنا ، وأنت يا رب وعدت من دعاك أن تجيبه فقلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦١] ، ونحن ندعوك فاستجب لنا ، وأنت يا رب لا تُخلف وعدك ، ولكن اجعلنا أهلاً لهذا الوفاء؛ بأن نكون مستغفرين لك حقاً ، سائلين لك صدقاً ، داعين لك ونحن موقنون بالإجابة ، حتى نتحقق بوفاء وعدك ـ آمين.

ومن جملة ما وعد الله به عباده قوله: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [القتال: ٧] أي: إن تنصروا دين الله ، وأول ما يشمل هذا أن ينصر الإنسان دين الله على نفسه ، بأن يلتزم دين الله تعالى ؛ فينصره الله تعالى بأن يلهمه رشده ، وينصره على أعدائه مِنَ الجن والإنس.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]. فطلبوا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم :

لقد كانت دعوته صلى الله عليه وآله وسلم عامة لجميع الإنس والجن ، فقد دعاهم إلى الله تعالى ، وإلى الإيمان بما جاء عن الله تعالى ، وقد قال سبحانه مخبراً عن الجن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ وهذا لما سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، رجعوا إلى قومهم وقالوا من جملة ما قالوا لقومهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١] أي: وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وضوح دعوته وطريقه الذي دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم :

قال سبحانه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالطريقة التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي طريقة واضحة ، فهي لا التباس فيها ولا غموض ، ولا ظلماء ولا عمياء ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»(١).

ولما مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريقه على بعض يهود بني قريظة ، قدَّم له أحدهم صحيفة فيها شيء من التوراة ، فأخذها عمر لينظر فيها ، ولما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال: «ما هذا يا عمر»؟.

---

(١) رواه ابن ماجه في (سننه) المقدمة حديث رقم/ ٥ و٤٣/ ، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٩٦) والإمام أحمد في (المسند) (٤/ ١٢٦).

قال: صحيفة أعطاني إياها بعض يهود بني قريظة لما مررت عليهم ـ أي: ومكتوب فيها شيء من التوراة ـ.

فتغير وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واشتد غضبه وقال: «أمتهوكون فيها؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى أصبح فيكم واتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنتم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً[1].

فلقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاء بنور واضح ساطع فقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية» أي: وفيها الغاية والنهاية، ولا حاجة لكم إلى هَدْيٍ غيري من آيات التوراة وغيرها.

فاعتبر أيها المؤمن في هذا البيان المحمدي، إذ لو أن موسى عليه السلام ظهر الآن بشريعته وتوراته واتبعه الناس لكانوا عند الله من الضالين.

ولو أنَّ موسى عليه السلام كان حياً بالحياة الدنيوية لترك شريعته وتوراته واتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إنه لا هدي ولا رشاد، ولا سداد ولا نور بعد ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلا من هديه وإرشاده ونوره صلى الله عليه وآله وسلم.

وسيظهر ذلك جلياً واقعياً لمَّا ينزل عيسى عليه السلام آخر

---

(١) انظر (المسند) للإمام أحمد (٣/ ٤٧٠ و٤/ ٢٦٥) و(سنن) الدارمي المقدمة ص/ ١١٥/.

الزمن ، ويعمل بشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدعو إلى اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ من جملة ما فَضَّل الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، أنه نال شرف وفضل صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فعيسى عليه السلام نبي من جملة الأنبياء ، ورسول من جملة الرسل ، صحابي من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنَّه لم يَمُتْ بَعْدُ ، بل رفعه الله تعالى إليه جسماً وروحاً ، وهو في السماء الثانية ، حَيّاً بالحياة الدنيوية ، وقد اجتمع به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج ، فنال مقام الصحبة ، وسوف يكون له في المحشر مقامان: مقام مع الأنبياء والرسل ، ومقام مع خاصة أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أَنْ يتبعني» أي: ولو كان إبراهيم حياً لما وسعه إلا أن يتبعه كذلك ، وكذا سائر الأنبياء والرسل ، لأنَّ شريعته هي الصالحة لكل زمان ، ومصلحة لكل قوم ، وهديه صلى الله عليه وآله وسلم هو الهدي العام ، إذ جَمَع الله تعالى له هَدْيَ مَنْ قبله من الرسل ، وزاده بالهدي المحمدي الخاص الذي لم ينله مَنْ قَبْله ، ولا حاجة بعد هديه وكتابه وشريعته صلى الله عليه وآله وسلم إلى هدي آخر ، أو كتاب آخر ، وقد قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] أي: ففي كتابه الغاية والكفاية، في جميع الأمور الاعتقادية والعملية ، والقولية والأخلاقية والأدبية ، وفيه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

مباديء دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم:

بيَّن ذلك الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ [الحديد: ٧ ـ ٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: لتؤمنوا وتصدقوا بربكم، وهذا أمر معقول مقبول عند أهل العقول، إذ لو نظر كل إنسان في نفسه وتفكر لأيقن أنه مخلوق مربوب، ولابد مِنْ خالق يُربيه ويمده، وهو الله تعالى الذي قال: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وَمَنْ زعم أنَّ أمر الخلائق إنما هو تحولات وتنقلات، وتطورات من ذاتها وبطبيعتها، فيقال له في أبسط رد عليه: انظر إلى امرأة ورجل تزوجها، فترى أولادها جاؤوا مختلفين في الصورة والهيئة، ومنهم الذكر ومنهم الأنثى، وهم مختلفون أيضاً في التفكير والطباع، كل هذا التباين والاختلاف مع أن ماء الرجل واحد، وأرض التربة واحد؛ وهو رحم المرأة، فمن أين جاء هذا الاختلاف؟! ولو كان الأمر بطبعه لجاء الكل على نمط واحد، وطبيعة واحدة، وصفات واحدة، إذاً لابد للطبيعة من طابع، كما لابد للتطور من مُطوِّر، ولابد للحركة من محرك، ولابد للمصنوع من صانع، ولابد للمخلوقات من خالق وهو الله تعالى الذي قال:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤].

ولو قلت: إن الأصل في الطبيعة معروف، ولكن قد تشذ شذوذات عن الطبيعة، ويحصل الاختلاف والتباين في الأشياء، والنواميس والنظم الكونية.

فيقال: لمَّا شذ هذا الأمر عن الطبيعة ما يَشُذُّ عنها إلا لتغلبه عليها بالقوة، وله طبيعة أخرى، وكذلك إنْ حصلت شذوذات أخرى وتغلبت على الشذوذ الأولى، وقد يتعدد الأمر مما يعني أن هناك تضارب الطبائع، وقد تصير الغالبة يوماً ما مغلوبة، وهذا يدلك على أنَّهم كلهم مغلوبون، والقادر والغالب هو الله تعالى.

فالطبعة خَلْقٌ من خلق الله، خَلَقها وَطَبعها كما يشاء سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي تتربون في خَلْقِهِ، وتحت سمائه، وفوق أرضه، وهو الذي يمدكم ويغذوكم، ويتصرف بكم كيف يشاء؛ بمقتضى علمه وحكمته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] أي: وقد أخذ الله ميثاقكم في عالم قبل هذا العالم، وهو الميثاق الأول الذي أخذه الله على عباده في عالم الذر، ولا تقوم الساعة حتى يُولد كل من أُخذ عليه الميثاق، فمن أدرك الميثاق الآخر بأن آمن بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووفى به: نفعه الميثاق الأول. ومَنْ لم يف بالميثاق الآخر لم ينفعه الميثاق الأول.

ومن لم يدرك الميثاق الآخر؛ بأن مات وهو صغير؛ لم يدرك

أوامر الشريعة ، ومات قبل سن التكليف ، فقد مات على الميثاق الأول ـ أي: على الفطرة المؤمنة ـ وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تُنْتِجُ البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء»[1].

فلقد فطر الله العباد على معرفته والإيمان به ، وجاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُذكر بهذا الميثاق ، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨] أي: وقد أخذ الله ميثاقكم على توحيده والإيمان به ، ومعرفته سبحانه؛ يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكركم بهذا الميثاق ، ويجدد العهد والميثاق معكم؛ بأن تبايعوه وتُسلِّموا له ما جاء به.

وكل من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستسلم له فقد بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد بايع الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] أي: إن كنتم عقلاء من أهل التصديق بما ينبغي التصديق به ، فمن باب أولى يجب أن تؤمنوا وتُصدقوا بما جاءكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الإمام البخاري عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه /١٣٥٨/ (٣/٢١٩) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة /٢٦٥٨/ (١٦/٢٠٧) والإمام أحمد في (المسند) (٢/٢٣٣).

وأهل التصديق هم أهل العقل والنظر ، الذين يتفكرون وينظرون في الأمر؛ فإن قامت الأدلة والبراهين على إثباته صدقوا واستسلموا.

وإنَّ العاقلَ يُثبتَ وجود النهار بمجرد أَنْ يرى أضواء النهار ، وأنوار الشمس الساطعة؛ الممتدة في الآفاق ، وإنْ لَمْ تر عينه عين الشمس.

فمن صدق بوجود النهار فهو بوجود الشمس أشد تصديقاً ، وإن لم يرها ، حتى وإنْ كانت محتجبة بالسحب والغيوم. ومن زعم أنّ النهار موجود ولكن الشمس غير موجودة؛ لأنها محتجبة عنه ولم ير عينها ، فقد طرق باباً في الجنون.

فلما قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم من أهل التصديق بما يجب التصديق به؛ فيجب أن تكونوا أقوى تصديقاً وإيماناً بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه مَا مِنْ دليل يُستدل به إلاّ ويدلك على وجود الله تعالى ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما مِنْ برهان يقوم على إثبات شيء إلاّ ويبرهن على وجود الله وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن زعم أنّه لا يرى ذات الحق جل وعلا ، وهو لا يصدق بوجوده حتى يراه.

فيقال له: أنت كالذي أثبت وجود النهار وأنكر وجود الشمس لأنها مخفية عنه بالسحب والغيوم. وإنَّ الإنسان محجوب بنفسه وحسه عن رؤية الحق تعالى في هذا العالم الدنيوي ، إلاّ أنّ آثار أسمائه سبحانه ظاهرة جلية في نفسك ؛ وفي الآفاق من حولك.

فإنْ كنت مؤمناً بوجود الشمس فيجب أن يكون إيمانك بخالق الشمس أقوى ، وقد بَيَّنَ سبحانه في موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين دعا الناس إلى الله ، واستجاب لدعوته من استجاب من أهل العقل والفطانة قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أهل العقول والحكمة والفطانة ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم بَيَّنَ سبحانه موقفهم بعد التفكر والنظر أن قالوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١] أي: إنَّ هذا عالم خُلِقَ بانتظام وإحكام يدل على أنك يا الله حق واجب الوجود ، وقد تنزهت وتعاليت أنْ تَخلق ذلك عبثاً ولهواً ، ولابد من رجوعٍ إليك لتثيب المحسن وتعاقب المسيء ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ .

ثم ذكر سبحانه قولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وهذا هو المنادي الذي قال فيه سبحانه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦] وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي نادى العالم كله للإيمان بالله ، إذ مهما يكن عندك من يقينيات ثابتة بالأدلة فإنّ وجود الله أقوى ثبوتاً وتحقيقاً وتَعَيُّناً ، ومهما يكن عندك من أمور صَدَّقْتَ بها لقوة الصدق فيها فإن أدلة وجود الله أعظم وأصدق. ولذلك فإن كلمة الإيمان إذا أطلقت فإنها تنصرف إلى الإيمان بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإن كنت تصدق بوجود نفسك فيجب أن يكون إيمانك وتصديقك بوجود الله أقوى من إيمانك بوجود نفسك وهكذا. . . لأن المخلوقات كلها آثار تدل على المؤثر ، ومتى

أثبت وجود الآثار فيجب أن تكون بوجود المؤثر أشد إثباتاً وتصديقاً.

وحين تمر على بناية تراها بعينك، ولا ترتاب في وجودها، بل أنت على يقين بوجودها، فأنت من باب أولى وأجدر أشد يقيناً وتصديقاً بوجود الباني الذي بناها؛ وإن لم تره عينك، بل تُثْبت أن هناك بنَّاءً بنى البناية دون أن تسأل أحداً هل أن هذه البناية قامت بنفسها أم أن أحداً بناها؟! بل ولا تجري بينك وبين نفسك محاكمة عقلية لإثبات وجود مَنْ بنى البناية.

وإلى هذا المعنى أشار سبحانه بقوله: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] والمعنى: أفي وجود الله شك؟!!! خالق السماوات والأرض، وهكذا كما تقول لمن ارتاب وشك في وجود من بنى البناية: أفي وجود الباني شك؟ فقد بنى البناية.

فانظر أيها الإنسان إلى هذا البناء الكبير مِنْ حولك، بما فيه مِنْ سماء وأرض، وكواكب وغير ذلك فَمَنِ الذي بناها؟!!.

قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

ولقد نبه سبحانه العقلاء إلى أنَّ الإيمان بوجود الله تعالى أمر مبرم معقول، لا يحتاج إلى توقف ونظر فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فلقد كانوا عَدَماً ثم انتقلوا إلى الوجود، فهل العدم أوجدهم وخلقهم؟ أم أنهم خلقوا أنفسهم؟! وكلاهما لا يُتصور، فالذي أوجدهم هو واجب الوجود سبحانه وتعالى، وهو خالق غير

مخلوق ، خلق الإنسان ، وخلق السماوات والأرض وما بينهما.

فإن كنت تُثْبت وجود السماوات والأرض وما بينهما؛ فيجب أن يكون إثباتك وتصديقك بوجود خالق السماوات والأرض أقوى وأعظم.

ولذلك كان من تلقين الله تعالى الحجة لموسى عليه السلام في مناظرته لفرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤] أي: إن كنتم من أهل التصديق واليقين بوجود شيء مُسلَّم بوجوده ، وقامت الأدلة والبراهين على وجوده ، فيجب أن يكون تصديقكم وإيمانكم بوجود الله خالق السماوات والأرض أقوى وأقطع ؛ طالما أنكم موقنون بوجود السماوات والأرض.

وقد قال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] فهو الذي بنى السماء والأرض، وهو الذي صنع السماوات والأرض ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وهو الذي خلق الإنسان وسواه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧].

وجوب الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباد إلى الله تعالى ، أي: إلى الإيمان بالله تعالى ، وأن الله تعالى حق واجب الوجود ، ودعا إلى الإيمان باليوم الآخر ، وإلى الإيمان بجميع قضايا الإيمان التي بيَّنها صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أخبر سبحانه عن موقف العقلاء من دعوته صلى الله عليه

وآله وسلم ، وأن موقفهم كان موقف الاستجابة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم. وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقد بين سبحانه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، وأنّ في هذه الدعوة الحياة الأبدية التي ينالها من استجاب لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن استجاب لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد حيي حياة الأبد ، ومن لم يستجب لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات ميتة الأبد.

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فجاء صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى الحياة الأبدية التي تتضمن الحياة السعيدة الطيبة في الدنيا ، والحياة السعيدة الطيبة في الآخرة ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن هنا يفهم الإنسان ضرورة الاستجابة لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه جاء بالحياة الطيبة الأبدية ، ولا غنى للإنسان عما فيه حياته ، فيجب عليه إذاً عقلاً وذوقاً وفطرةً أنْ يستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإن الإنسان إذا اشتد عليه الجوع أو العطش ، ثم دعاه إنسان إلى الطعام والشراب ، فتراه يستجيب لدعوته حتى يدفع عنه

الموت ، ولحاجته القوية إلى الطعام والشراب ليحافظ على حياته الجسمية ، فمن استجاب إلى الطعام والشراب حيي جسمه ، ومن استجاب إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حَيِيَ قلبه وروحه وجسمه حياة الأبد.

ومِنْ هنا يفهم الإنسان حاجته إلى الاستجابة لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه يحتاج إليها أشد من حاجته إلى من دعاه إلى الطعام والشراب وهو محتاج إليهما ، لأنه إذا لم يشرب الماء أو يأكل الطعام مات جسمه ميتة مؤقتة ، أما إذا لم يستجب لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات قلبه وروحه وتبعه جسمه ميتة الأبد.

ولهذا قال سبحانه وتعالى في الكفار الذين فقدوا هذه الحياة ، لما أعرضوا عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١] أي: إنهم على الحقيقة أموات ، ولو كانوا أحياءً بالصورة والجسم.

أما أهل الإيمان الكامل فهم أحياء غير أموات ، وإنْ مات جسمهم بمفارقة الروح للبدن صورة ، ولكنهم يتمتعون بالحياة الروحية القوية إلى أن يدخلوا الجنة ويحيون حياة الأبد.

وإن الله تعالى خلق الإنسان من أجل أن يَعرف ربه ويؤمن به ، ويعبده ويتقرب إليه ، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأول العبادة وأصلها أن يعرف الإنسان ربه ويؤمن به ، ولذلك

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفونِ ، فإذا عرفوا الله ربهم خالقهم ورازقهم، وجب عليهم أن يعبدوه، لأنهم عباده ، وإذا ترك الإنسان ما خلقه الله من أجله؛ فإنه لا يبقى إنساناً كاملاً حقيقياً ، لأنه مَنْ وُجِدَ لشيء وذهب عنه ذلك الشيء فَقَدَ حقيقة ذلك الشيء ، وبقي له الاسم والصورة فقط.

كما أنَّ السيارة وُجِدَت وأُعدت لأن تسير ، وإذا طرأ عليها ما جعلها عاجزة عن السير صارت سيارة بالاسم والصورة ، ولكنها على الحقيقة كتلة حديد ، فهي والصخرة سواء ، لأنها فَقَدت ما وُجدت من أجله وهو السير.

ومن اشترى فرساً ثم تبين له أنه لا يكرّ ولا يفرّ ، ولا يصلح للمسابقة والجري ، فإنه اشترى فرساً بالاسم والصورة ، ولكنه بغل في الحقيقة ، لأنه فقد ما وُجد من أجله وهو الكَرُّ والفرّ.

وكذلك فإنّ الإنسان إذا فَقَدَ ما خُلق من أجله ؛ وهو عبادة الله تعالى: انسلخ عن إنسانيته الحقيقية ، وبقي إنساناً بالاسم والصورة ، وصار مع البهائم في الحقيقة.

ولذلك وصف الله تعالى الكفار فقال سبحانه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

أما الإنسان الحقيقي الكامل ، فهو الإنسان الإيماني الرباني ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] إيماناً بالله تعالى وتقرباً إليه.

وهذا الإنسان الكامل هو اللائق أن يدخل جنة الله تعالى ، وأن

يحل ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥].

منهج دعوته صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباد بالمنهج الذي بينه الله تعالى له ، فقال سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] وبهذا انقسم الناس في الدعوة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهم أهل الفطرة السليمة والعقل الراجح الصحيح ، لم ينحرفوا بشبهات ضالة غيَّرت عقيدتهم ، ولم ينحرفوا بشهوات زائفة أفسدتهم؛ فوقعوا في المحرمات ، فهم على الحقيقة أهل حكمة ، فمتى عُرِضَت عليهم الحكمة وأنوار النبوة والرسالة ظهرت لهم حالاً ، وأبصروها بقلوبهم ، وعرفوا حقيقتها؛ فآمنوا بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك قسم من الناس تغيرت فطرتهم من حيث الأعمال ، ومالوا إلى اتباع الأهواء والشهوات والفسوق ، وبهذا يحتاج إلى وعظ وتذكير ، بأن يُذكر بعواقب ما يفعل. وإنّ عاقبة الفسق هلاك في الدنيا والآخرة ، وإن عاقبة أهل الإيمان الفلاح في الدنيا والآخرة ، فإذا وُعِظَ أحدهم وذكر بأنواع الوعظ والتذكير لان قلبه ، وسرى روح الإيمان إليه ، فأذعن وآمن وتاب إلى الله سبحانه.

وهناك قسم من الناس تغيرت فطرتهم وعقيدتهم ، فهم يحتاجون إلى الحجج والبراهين حتى ترتفع الشبهات الضالة من قلوبهم ، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس على حسبهم ، فدعا أهل الحكمة بعرض الحكمة عليهم ، ودعا أهل المخالفات العملية بالوعظ والتذكير ، ودعا أهل الشبهات والانحرافات الاعتقادية بالحجة والبرهان.

فَمِنْ جملة من دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعرض الحكمة واستجابوا لها ، ما جاء في حديث ضمام بن ثعلبة من بني تغلبَ كما ورد في (الصحيحين) وغيرهما[١] عن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد جاء رجل أعرابي ، على جملٍ له ، فأناخه في المسجد - أي: في ساحة المسجد من الخارج ، ثم عقله عند باب المسجد - ثم دخل وقال: أيكم محمَّد - صلى الله عليه وآله وسلم -.

فقلنا له: هذا الرجل الأبيض المتكىء ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يتكىء في مجلسه لتواضعه صلى الله عليه وآله وسلم . وفي رواية قلنا: هذا الأمغر المرتَفِقُ - والأمغر: أي: هو شديد البياض المشرب بحمرة ، غاية في الحسن والجمال والبهاء صلى الله عليه وآله وسلم ، والمرتفق: المتكىء -.

فقال الرجل: ابْنَ عبد المطلب - أي: يا بن عبد المطلب -.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «قد أجبتك».

---

(١) البخاري كتاب العلم ، باب ما جاء في العلم /٦٣/ (١/١٤٨) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام /١٢/ (١/١٢٤) وانظر لزاماً السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٧٤).

فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد عليَّ في نفسك.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «سل عما بدا لك».

فقال الرجل: فمن خلق السماء؟ قال: «الله».

قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله».

قال: فمن نصب الجبال ؟ قال: «الله».

قال: فمن جعل فيها المنافع ـ أي: جعل في الجبال المعادن وغير ذلك من المنافع ـ قال: «الله».

قال: أسألك بالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال ، وجعل فيها المنافع آلله أرسلك؟.

قال: «اللهم نعم».

قال: أسألك بالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل ، آلله أمرك أن نُصلي الصلوات الخمس في كل يوم وليلة؟ ـ وإنَّما سأل عن هذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إليهم من يدعوهم إلى الله ، فجاء هذا يستكشف الأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال: «اللهم نعم».

قال: أسألك بالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟.

قال: «اللهم نعم».

قال: أسألك بربك وبرب من قبلك ـ كما في رواية ـ آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتردها على فقرائنا؟.

قال: «اللهم نعم».

وفي رواية لمسلم: آلله أمرك أن نحج البيت إن استطعنا إليه سَبيلاً؟.

قال: «اللهم نعم».

فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي.

فلما رجع إلى قومه قال لهم: يا قومي بئست اللات والعزىٰ.

فقال له بعض المشركين: لا تقل هذا يا ضِمَام، لا يصيبوك بجذام أو برص أو جنون.

فقال: يا قوم لا يضراني ولا ينفعاني.

يا قوم: إن الله تعالى أرسل إلينا رسولاً، وجاءنا بكتاب من عند الله لأجل أن نتبعه، ونترك ما عليه آباؤنا ـ أي: من عبادة الأصنام ـ وهكذا نصحهم ووعظهم؛ فآمنوا. وما أمسى عليهم المساء إلا والصلوات تقام في بيوتهم.

وهذا من جملة أساليب عرض الحكمة، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم، كثيراً ما يعرض الحكمة، فيتراءى نورها لأهل القلوب الصافية فيؤمنون ويسلمون ويستسلمون.

ومن جملة من دخل في دين الله تعالى كما دعاه رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم، وقد ظهر له نور الحكمة: عدي بن حاتم رضي الله عنه[1].

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه ـ لما سأله بعض التابعين أن يحدثهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: لما بلغني ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبلغني ما جاء به من الأخلاق الحسنة، والآداب الفاضلة، قلت: أذهب إلى هذا الرجل، فإنْ كان صادقاً أتَّبعه، وإن كان كاذباً لا يضرني ـ وكان عدي على دين النصرانية ـ فجئت إليه وعنده سلمان وبلال وصهيب. فدخلت.

فقال لي حين دخلت: «يا عدي أسلم تسلم».

قلت: يا محمد إنني على دين.

قال: «أنا أعلم بدينك منك».

قلت: أنت أعلم بديني مني؟!!!.

قال: «نعم. ألست على دين الركوسية» ـ وهي النصرانية ومنها شيء من الصابئة ـ.

قلت: بلى.

قال: «ألست أنت تأكل مرباع قومك»؟ ـ أي: تأخذ من قومك ربع أموالهم ـ.

قلت: بلى.

---

(١) خبره في (السيرة) لابن هشام: (٥٧٩/٤) وما بعدها، وفي (طبقات) ابن سعد (٨٦/٢)، والسيرة الشامية (٥٧٧/٦).

قال: «هذا لا يحل لك في دينك ، أليس كذلك»؟ .

قلت: نعم يا رسول الله .

قال: «هذا يحل لك» ؟ . قلت: لا يحل لي .

قال: «هذا يحل لك» ؟ قلت: لا يحل لي .

فلما قالها لي ثلاث مرات تواضعت وتخاذلت في نفسي .

فقال لي صلى الله عليه وآله وسلم: «أسلم تسلم» .

فقلت: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله .

ثم بَيَّنَ له صلى الله عليه وآله وسلم أمور دينه .

قال: ما الإسلام ـ يريد الإسلام الاعتقادي بمعنى الإيمان ـ .

قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» .

قال: آمنت وأسلمت يا رسول الله .

ثم بقيت جالساً. فدخل رجل وشكا إليه صلى الله عليه وآله وسلم الفاقة ـ أي: القلة ـ ثم دخل رجل فشكا إليه إيذاء المشركين له .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أعلم أنه كان يمنعك عن الدخول في ديني أنك كنت تقول ـ أي: في نفسك ـ: إنَّ هذا الرجل أتباعه ضعفاء ، يا عدي بن حاتم لئن طالت بك حياة والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر ـ أي: لابد أن ينتشر هذا الدين في المشارق والمغارب ـ ولئن طالت بك حياة لترين الظعينة ـ أي: المرأة ـ تخرج من الحيرة هل تعلم الحيرة»؟ قلت: لم أرها ، ولكن أُخبرت

عنها «تأتي بيت الله الحرام لا تخاف أحداً إلا الله» ـأي: ينتشر الدين والأمان، ويرتفع خوف المسلمين من أعدائهم ـ.

«ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز».

قلت: كسرى بن هرمز؟؟!!! قال: «كسرى بن هرمز».

«ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملئ كفه من ذهبٍ أو فضةٍ يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه.

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان، فليقولن له: ألم أبعث فيك رسولاً فبلغك؟ ـ أي: فماذا كان موقفك مع رسالة وشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ. ألم أعطك وأوسع عليك؟ فينظر العبد أيمن منه فلا يرى إلا ما قَدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

قال عدي: والله رأيت الظعينة تخرج من الحيرة تأتي بيت الله الحرام لا تخاف إلا الله، وكنت من الذين فتحوا كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما أخبر به أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم، يخرج من أكفه ذهباً لا يجد أحداً يقبلها منه، وقد وقع نمط من هذا في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ولكنه سيحصل على وجه شامل زمن عيسى ابن مريم عليه السلام قبل الساعة.

وهكذا ترى أن عدياً رضي الله عنه أسلم واستسلم؛ لما بدا نور

الحق ، وظهرت له أنوار حكمة دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن جملة هذا ما ورد عن عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه[1].

قال عمرو بن مرة: كنا في الجاهلية ـ أي: قبل أن يدخل في الإسلام ـ فخرجت أنا وجماعة من قومي إلى مكة حجاجاً ـ عملاً بآثار شريعة إسماعيل عليه السلام ـ فلما انتهينا إلى مكة رأيت في النوم نوراً يسطع من جبال مكة ، وسمعت صوتاً من داخل النور يقول: انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وَبُعِثَ خاتم الأنبياء.

وهذا لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بنور من عند الله قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨].

وورد في التوراة ـ بعد التعريب ـ «تجلى الله من طور سيناء ـ أي: ظهر نور الله من سيناء. إشارة إلى رسالة موسى عليه السلام ـ وأشرق من ساعير ـ إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام ـ واستعلن من جبال فاران» ـ أي: جبال مكة ـ.

أي: ظهر نور الله مُستعلناً كما تُسْتعلن الشمس في كبد السماء وقت الظهيرة ، وهذا لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أعظم مظهر نوراني رباني ، وأعظم مجلىٰ إلٓهي تَجَلَّىٰ فيه نور الله ، فأشرق على العالمين كلهم.

قال عمرو: ثم انكشف لي نور حتى رأيت المدائن والحيرة ،

---

(١) خبره في (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٤٤).

وسمعت صوتاً من داخل النور يقول: ظهر الإسلام ، وَكُسِرَتِ الأصنام ، وَوُصِلَتِ الأرحام.

قال عمرو: فانتبهت وأنا فزع ، فقصصت الرؤيا على قومي. ثم حج ورجع إلى بلده.

قال: فما مضت مدة إلا وجاء أن هناك رسول قد بُعِثَ ، واسمه أحمد، فعملت جهدي وهاجرت إليه، وأخبرته بما رأيته في المنام.

فقال لي: «صدقت يا عمرو ، أنا رسول الله إلى العباد كافة ، وأنا أدعوك إلى الإسلام ، وحقن الدماء ، وصلة الأرحام ، وتعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتترك عبادة الأوثان ، وتصلي الصلوات الخمس» وبَيَّن له أوامر الإسلام.

قال عمرو: فقلت أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله ابعثني إلى قومي لعل الله يمن عليهم بي ، كما منَّ عليَّ بك ـ أي: كما منَّ علي بالإيمان بسببك ، لعل الله يمن على قومي بسببي وببركاتك وإذنك لي في ذلك ـ.

فقد طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأذن له بدعوة قومه ، وما راح يدعوهم من تلقاء نفسه ، لأن الصلة بالإذن والأمر لها تأثيرها ومددها.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اذهب إليهم فادعهم كما دعوتك ، ولكن عليك بالرفق ـ أي: اللين ـ والقول السديد ، ولا تكن متكبراً ، ولا فظاً ولا حسوداً».

قال: فأتيت قومي فقلت: يا معشر جهينة! جئتكم من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أدعوكم بما دعاني إليه من

الإسلام ، وحقن الدماء ، وصلة الأرحام ، وعبادة الله وحده ، وأن تتركوا الأوثان ، وأن تصلوا الصلوات الخمس ، وتصوموا رمضان ، وتحجوا البيت إن استطعتم إليه سبيلاً ، وتؤدوا الزكاة.

فأجابه بعض قومه ، وقال رجل منهم ـ وكان معجباً بنفسه ـ: يا عمرو أمرَّ الله عيشك.

قال: لِمَ ؟!!!

قال: جئتَ تُفَرِّق جمعنا ، وتفرق آلهتنا؟.

فقال عمرو: الكاذب مني ومنك أمرَّ الله عيشه ، وأبكم لسانه وأكمه إنسانه ـ أي: بصره ـ.

فقال عمرو: فما مضت على هذا الرجل مدة إلا وسقط فوهه ـ أي: هرم بسرعة وما عاد يستطيع الكلام ـ وعمي بصره ، وما عاد يطعم الطعام ولا يجد لذته.

ثم ذهب عمرو بقومه الذين أسلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرحب بهم ، وأكرمهم ، وأوصاهم بما أوصاهم.

ومما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم في عرض الحكمة ، وظهور نور الحكمة للقلوب والاستسلام لها.

ما جاء في وفد الأزد لما وفدوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1] :

كما روى أبو نعيم في (معرفة الصحابة) وغيره ، بالسند عن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه ، قال بسنده المتصل إلى

---

(١) كما في حاشية العلامة الزرقاني على (المواهب اللدنية) (٤/ ٦٣).

سويد بن الحارث رضي الله عنه قال:

كنت سابع ستة ـ أي: أنه مع ستة من أصحابه وهو سابعهم ـ وفدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فدخلنا عليه ـ وكان قد أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يدعوهم إلى الله ، وعقلوا أوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واستسلموا إليها، ثم جاؤوا يستتبعون أمرها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويستزيدون من العلم والمعرفة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال: فلما دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعجبه ما فينا من السمت والزي ـ أي: من الهدوء والسكينة وحسن المنظر من اللباس ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنتم».

فقالوا: نحن مؤمنون.

فقال: «إنّ لكل قول حقيقة». وفي رواية: «إنّ لكل حق حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم»؟.

أي: لكل أمر حق حقيقة ، أما الباطل فلا حقيقة له ، ولما كان الإيمان حق وحقيقة ، فمن ادعاه وجب أن يتحقق به ، وأن تظهر حقيقة الإيمان عليه ، وإلاّ فهو كاذب في دعواه ، كمن ادعى أنه ريّان وهو في الحقيقة عطشان وظمآن ، ولو أنه كان قد شرب الماء وارتوى به لظهر أثر ذلك عليه ، وتحقق بالري ، وكذلك أمر الإيمان فليس هو مجرد دعوى وكلام ، وإنما هو حقائق يتحقق بها المؤمن ، وفيها دلائل تدل على صدقه وإيمانه ، ولذلك قَبَّحَ

سبحانه من قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم كما هو شأن المنافقين.

فقالوا: يا رسول الله أَمَرَتْنا رسلكَ ـ أي: الذين أرسلتهم إلينا ـ بعشر، ونحن تخلقنا بخمس خصال منذ كنا في الجاهلية، وإن شئت بقينا عليها، وإن كرهت ذلك تركنا.

فنحن تخلقنا بخمس عشرة خصلة وهي:

إننا نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ونؤمن بالبعث بعد الموت ـ أي: بالآخرة ـ وأمرتنا رسلك أن نشهد أن لا إلّه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً.

وأما الخصال التي تخلقنا فيها منذ كنا في الجاهلية فهي: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والصدق في مواطن اللقاء، ـ وهي: الحرب مع العدو ـ والرضا بمُرِّ القضاء، وترك شماتة الأعداء.

وقد عرضوا هذه الخصال على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن وافقهم عليها بقوا عليها؛ وإلا تركوها.

فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «حكماء فقهاء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» أي: شهد لهم صلى الله عليه وآله وسلم بالمقامات العالية.

ثم قال لهم: «وأنا أزيدكم خمساً فيكمل لكم عشرون خصلة» وفي هذا ترقية لمقاماتهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فيما أنتم غداً عنه زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون؛ وعليه تعرضون، وارغبوا فيما أنتم عليه تَقْدُمون؛ وما أنتم فيه تخلدون».

أي: لتكن رغباتكم متوجهة إلى الآخرة وما تَقْدُمون عليه يوم القيامة، وفيما تخلدون فيه وهو الجنة، وجوار ربِّ العالمين.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تنافسوا» أي: ولا تزاحموا في أمرٍ غداً عنه زائلون ـ أي: ولا تتزاحموا على أمور الدنيا الفانية ـ وينبغي على المؤمن أن يصرف همته وعقله وعمله إلى الباقية.

والباقيات هي كما أخبر عنها سبحانه بأنها هي الأقوال والأعمال الصالحات: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦] وأما الفانيات فهي: كل ما سوى الصالحات المقربة إلى الله سبحانه.

وقد يظن الإنسان أمور الدنيا الفانية خير له من تلك الصالحات.

فيقال له: لقد قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾.

فمن رأى في الفانيات خيراً موهوماً ومزعوماً، فالباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً، وخيرٌ أملاً ـ أي: خيرُ ما تؤمل منه الخير والسعادة إنما هو الباقيات الصالحات ـ.

أما ما يُؤَمِّلُه الإنسان من أمور الدنيا الفانيات، فأمله خائب وموهوم، وإنّ الباقيات الصالحات هي خير ما يُرَدُّ على المؤمن يوم

القيامة ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

أي: إنّ خير ما يُرَدُّ عليك وتنال سعادته إنما هي الباقيات الصالحات، أما الفانيات المنقضية في الدنيا فلا يُرَدُّ خير عليك منها ، ولا أمل ولا رجاء لك فيها في الآخرة ، وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «استكثروا من الباقيات الصالحات».

قالوا: وما هن يا رسول الله.

قال: «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلّه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

فهي من الباقيات الصالحات القولية ، وهي باقية مع قائلها إلى أبد الآبدين ، ولها نورها ووزنها.

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان: خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[2].

وهكذا فينبغي على المؤمن أن لا ينافس غيره ويزاحمه على أمور الدنيا ، بل عليه أن يصرف حب التنافس إلى أمور الآخرة الباقية ، كما قال الله سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند): (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (١٣٨٤) وابن حبان / ٨٣٣/ (٢/ ١٠٢) والحاكم وصححه (١/ ٥١٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب فضل التسبيح (٦٤٠٦) (١١/ ٢٠٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) (٥/ ٢٥٩٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[المطففين: ٢٦] أي: على المقامات العالية، والدرجات العلى المقربة إلى رب العالمين، لأنَّ نهاية النهايات، وغاية الغايات عند أهل العقول الصحيحة، والفطر السليمة، إنما هو التقرب إلى رب العالمين، لأنَّ فيه كل خير وسعادة، وهو الذي يتنافس عليه أهل الحكمة، وأولو الألباب، كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: أيهم أقرب إلى الله سبحانه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تُعرضون» أي: أعدوا العدة ليوم الرجوع إلى الله رب العالمين، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] أي: خذوا حذركم من ذلك اليوم، وتعاطوا الوقايات لذلك اليوم، ولا يقي من شر ذلك اليوم إلّا تقوى الله؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

فأهل التقوى من الله تعالى هم أهل الوقاية والنجاة من سخط الله وعذابه.

وإن جهنم لتقول للمؤمن حين يجوز الصراط، الذي هو جسر داخل جهنم تقول له: «جُزْ يامؤمن فإن نورك يطفىء ناري»[(١)].

كما أن التقوى هي لباس الإنسان يوم القيامة، الذي يُعرض به

---

(١) الحديث رواه الطبراني عن يعلى بن مُنْيَة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تقول النار للمؤمنين يوم القيامة: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» كما في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٣٦٠).

على رب العالمين ، ومن أراد أن يُحسن لباسه ، وأن يُعرض على الله في زي الجمال والكمال ، فعليه بلباس التقوى في الدنيا ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وأما الكافر فيعرض بقبائحه وعوراته ، وَيُفتضح بين الخلائق وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «يا رُبَّ كاسية ـ أي: يا رب نفسٍ كاسية ـ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة»[1].

وروى ابن منده في التوحيد[2] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينادي الله تعالى يوم القيامة ـ حين يجمع الأولين والآخرين ـ فيقول لهم: يا عبادي إنني أنا الله لا إلَه إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ، وَيَسِّروا جوابكم ، فإنكم مسؤولون ومحاسبون».

ثم يقول سبحانه وتعالى: «يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب» فيصفون صفوفاً ـ أي: كل مع صفته: فالأتقياء مع الأتقياء ، والأولياء مع الأولياء وهكذا . . وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨].

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في مواضع من الصحيح أولها في كتاب العلم ، باب العلم والعظة بالليل ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أُنزل الليلة من الفتن ، وماذا فُتح من الخزائن ، أيقظوا صواحبات الحُجرِ ، فرب كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة» /١١٥/ (١/ ٢١٠).

(٢) كما في (الدر المنثور) للسيوطي (٤/ ٢٢٦).

اللهم اجعلنا في صف أتباع سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم بجاهه عندك ـ آمين.

ومن جملة الذين آمنوا به صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة عرض الحكمة: النجاشي ملك الحبشة وجماعته، واسمه أصحمة رضي الله عنه[1].

وهذا لما أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا موسى الأشعري، وجعفر بن أبي طالب، وما يقرب من ثمانين صحابياً إلى الحبشة، ولما دخلوا الحبشة سمع كفار قريش ذلك، فأرسلوا من قِبلهم رجلين لأجل أن يتَّصلا بملك الحبشة، حتى لا يمكِّن هؤلاء الصحابة من دخول أرضه.

فلما دخلا عليه سجدا له ـ على عادة الملوك وقتذاك ـ فسلم عليهم، وقالا له: قد دخل بأرضك أناس تركوا ديننا، وسبوا آلهتنا. وذكروا من أمرهم.

فأمر النجاشي بهم، فجاء عدة من الصحابة ومعهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم.

فقال لهم جعفر رضي الله عنه: أنا خطيبكم اليوم ـ أي: اتركوا الكلام لي ـ ولما دخلوا على الملك لم يسجدوا له. فقال لهم في ذلك.

فقال جعفر رضي الله عنه: أيها الملك إنّ الله تعالى أرسل إلينا رسولاً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فنهانا أن نسجد لأحدٍ غير الله

(١) انظر الخبر في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢١) وما بعدها.

تعالى ، أيها الملك: إنا قوم كنا في جاهلية نعبد الأوثان والأصنام ، وننتهك الحرمات ، ونئد البنات ، ونقع في الفواحش ، ولا نصدق في الحديث ، ونخون الأمانة ، ونقطع الرحم ، ونسيء إلى الجوار ـ وذكر من قبائح الجاهلية ما ذكر ـ فأرسل الله فينا رسولاً نعرفه بنسبه وحسبه ، وصدقه وأمانته ، وعفته وحصانته ، فأمرنا أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام ، ونهانا عن الفواحش ، وأمرنا بصلة الرحم ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحفظ العهد ـ وذكر له من محاسن دين الله تعالى ـ.

فقال له الملك: وهل معك شيء من القرآن الذي نزل عليه ؟.

قال: نعم.

قال: اقرأ علينا ـ وكان حوله القسوس والرهبان ، والمجلس مكتظ بأكابرهم ـ.

فقرأ جعفر رضي الله عنه من أول سورة مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ...﴾ الآيات.

فلما سمع النجاشي وَمَنْ حوله هذا القرآن جعلوا يبكون ، حتى اخضلت لحاهم من شدة البكاء.

ثم قال النجاشي: والله ما هذا والذي جاء به عيسى ابن مريم إلا من مِشكاةٍ واحدة ـ أي: من عند رب العالمين ـ ثم قال: أشهد أنّ هذا الرسول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مرحباً بكم ، وبمن جئتم من عنده. أشهد أن لا إلّه إلا الله ، وأن محمداً

رسول الله ، وإنّه الذي بشّر به عيسى ابن مريم ، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملته من أمور الناس ـ أي: في سياسة الرعية ـ لأتيته حتى أحمل نعليه.

وفي رواية للطبراني: حتى أقبل نعليه ، وفي هذا نزل قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣].

وإن ما وَدّه وتمناه النجاشي من أن يكون خادماً لنعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أمنية كل مؤمن عالم بخصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفضائله ، لأن هذا مقتضى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعرفة بمقاماته وخصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرصون كل الحرص على التبرك بآثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبكل شيء مَسّه جسده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يُتحف صحابياً ويدخل السرور عليه كان يُعطيه ما يتمنى ، وإن غاية أمانيهم أن يتبركوا بآثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا ما ورد في (صحيح) البخاري ومسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بقدح فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه ومج فيه صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال ـ لأبي موسى الأشعري

وبلال رضي الله عنهما ـ: «أن اشربا منه ، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما» ففعلا ذلك فنادتهما أم سلمة رضي الله عنها ـ زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ من وراء الستر: أفضلا لأمكما مما في إنائكما ـ أي: اتركا شيئاً من الماء حتى أتبرك به ـ فأفضلا منه طائفة رضي الله عنهما[1].

ومن جملة من دعاهم صلى الله عليه وآله وسلم بعرض الحكمة: الملوك والأكاسرة ، وقياصرة الروم ، الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وآله وسلم ، فمنهم من ظهرت له أنوار الحكمة ؛ وعرف الحق فاعترف وآمن ، ومنهم من عرف الحق ولم يعترف به فلم يؤمن ، لأن حبَّ الدنيا والزعامة وحب الظهور والكبرياء حال بينه وبين الإذعان للحق.

ومن ذلك دعوته صلى الله عليه وآله وسلم هرقل عظيم الروم إلى الإسلام.

فقد ورد[2] أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بكتابٍ يُكتب إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد حمل هذا الكتاب دحية بن خليفة رضي الله عنه ، وكان من أحسن الناس سمتاً وأجملهم صورة.

---

(١) (صحيح) البخاري كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤٣٢٨) (٨/ ٤٦) و(صحيح) مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أصحاب الشجرة /٢٤٩٧/ (٥/ ٢٤٧٠).

(٢) الخبر في (صحيح) البخاري كتاب بدء الوحي /٧/ (١/ ٣١) و(صحيح) مسلم كتاب الجهاد والسِّير باب كتب النبي ﷺ /١٥٧٣/ (٤/ ١٨٥٩) وانظر القصة في السيرة الشامية: (١٢/ ٣٤٧).

والتقى دحية رضي الله عنه مع هرقل في حمص ، وكان فتح الكتاب في بصرى الشام. ولما وصل الكتاب إلى هرقل أراد أن يتعرف إلى أوصاف هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يبحث عن سيرته وشمائله ، وهل هي تنبىء وتصدق أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فسأل عن أقرب الناس نسباً به من العرب الذي هم في الشام وقتئذ. فجيء بأبي سفيان بن حرب ومعه جماعته من عرب الحجاز ـ وكان أبو سفيان وقتئذ مشركاً ، لأن هذا الأمر جرى وقت صلح الحديبية؛ وقد آمن يوم فتح مكة ـ.

فأجلسهم هرقل أمامه ، وقال لهم: إني سائلٌ هذا ـ يعني أبا سفيان ـ عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ ، فإن كذبني فكذبوه. وأجلس أبا سفيان أمامه ، وطائفة العرب وراء أبي سفيان ، حتى إذا ظهر الكذب على أبي سفيان عرف هرقل ذلك من وجوه من خلفه. فراح أبو سفيان يتكلم بالصدق والواقع.

فقال هرقل للترجمان: قل لهذا: كيف نسب هذا الرجل فيكم.

فقال أبو سفيان: إنه فينا ذو نسب ـ أي: لا أشرف من نسبه صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقال: هل كان من آبائه من مَلِك؟.

قال: لا.

فقال: لو كان من آبائه من مَلِكٍ لقلت: هو رجل يطلب ملك أبيه ، وتقول هو ذو نسب ، كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها.

فقال: هل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟.

قال: بل ضعفاؤهم.

قال: هم أتباع الرسل.

قال: يزيدون أم ينقصون؟.

قال: يزيدون.

قال: كذلك أمر الإيمان حتى يتم.

قال: هل يرتد أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ ـ أي: هل هناك من آمن برسول الله حق الإيمان ثم استحسن ديناً آخر عدا الإسلام ـ؟.

قال: لا.

فقال هرقل: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ـ أي: إذا تذوق القلب حلاوة الإيمان فإنه لا يرتد أبداً ـ.

قال: هل يَغدِرُ.

قال: لا، ونحن معه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ـ مشيراً إلى صلح الحديبية الذي كان بينهما ـ.

قال: بم يأمركم؟.

قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، ونترك ما عليه آباؤنا من عبادة الأصنام، ويأمرنا بالصلاة والصدقة ـ أي: الزكاة ـ والصلة ـ أي: صلة الأرحام ـ والعفاف ـ أي: العفاف النفسي عن الزنا وما يتبعه ـ.

قال هرقل: فإن كان ما تقول حقاً فإنه نَبيٌّ، وقد علمت أنه سيخرج ـ أي: نبي آخر الزمن، وهذا باعتبار ما قرأ في الكتب

السابقة كالإنجيل والتوراة ـ ولكن لم أظنه منكم ـ أي: معشر العرب ـ ولو أني أعلم أني أخلص إليه ـ أي: أصل إليه بسلام ـ لتجشمت لقاءه ـ أي: لسعيت إليه على الأقدام ـ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ـ أي: لكنت خادماً له، ولآخذن غسالة قدميه وأتبرك وأتشرف بها، وأغسل بها وجهي ورأسي ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم أمر هرقل أن يُحضر كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس حافل، بعدما تبين له صدق هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فجيء بالكتاب وأمر هرقل الترجمان أن يقرأ فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام ـ وفي رواية: «أدعوك بداعية الإسلام» ـ أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنّ عليك إثمَ الأريسيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: نتساوى فيها كلنا ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾» [آل عمران: ٦٤].

ولقد كانت كتبه صلى الله عليه وآله وسلم مفتتحة ومصدرة بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كل أمرٍ ذي بال ـ أي: ذي شأن واهتمام ـ لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»[١] أي: مقطوع البركة.

---

(١) ذكره عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وروي أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال له: «هو اسم من أسماء الله تعالى ، وما بينه وبين اسم الله الأكبر ـ أي: الأعظم ـ إلا كما بين سواد العينين وبياضهما في القرب»[١].

«ولما نزل بسم الله الرحمن الرحيم إلى عالم الأرض ماجت البحار ، واضطربت السحب في المشرق والمغرب ، وتأثرت المخلوقات بـ بسم الله الرحمن الرحيم[٢]».

وكان من جملة الحاضرين وزراء هرقل ، ومن جملتهم ابن أخ له ، وله شوكة ، فلما سمع قوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى هرقل» غضب غضباً شديداً وقال لعمه: لا تقرأ الكتاب ، قال: لِمَ ، قال: لقد ذكر اسمه قبل اسمك. فقال: يا هذا وليس من العقل أن لا أقرأ الكتاب ، فإنَّ هذا الذي ينزل عليه الناموس الأكبر ـ أي: جبريل عليه السلام ـ حُقَّ له أن يقدم اسمه على اسمي.

وفي رواية: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى قيصر صاحب الروم» فقال ابن أخيه: انظر إنه لم يقل ملك الروم ـ أي: لم يعظمك ـ.

قال هرقل: صدق صدق يا بن أخي ، إني صاحب الروم ، ولكن مالكي ومالكهم هو الله سبحانه[٣].

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (١/٨) إلى ابن أبي حاتم ، والحاكم في (المستدرك) (١/٥٥٢) وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في (شعب الإيمان) وغيرهم.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) (١/٩) إلى سيدنا جابر رضي الله عنه موقوفاً عليه بمعناه ، ومن المعلوم أن له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه.

(٣) انظر (شرح المواهب) (٣/٣٣٩) وقد عزاه إلى (فتح الباري) (٨/ ٢٢٠).

أما هرقل فهو عظيم الروم ، لأنه مُعظَّم عندهم ، وكان يتصدى بالجواب المقحم على كل مَنِ اعترض على كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه أدرك صدق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه صاحب الحكمة ، وكل كلمة من كتابه دلّت على معانٍ ، وليس هناك مجازفة في الكلام ، إلا أنّ حب الرئاسة والمملكة منعه من الدخول في الإسلام.

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الكتاب: «من محمَّد عبد الله ورسوله» فقد ذكر من صفاته صلى الله عليه وآله وسلم أنه عبد الله ، وأنه رسول الله بالرسالة العامة لجميع الأنام ، وقد نال صلى الله عليه وآله وسلم أعلى مقامٍ في العبادة والعبودية والعبدية لله تعالى ، وانفرد بذلك.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم فرد في عبوديته لله تعالى ، وقد ذكره سبحانه بهذا المقام في أعلى المناصب والمواقف ، ومن جملة ذلك:

موقف التحدي بالقرآن: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي موقف تنزيل الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

وفي موقف الإسراء قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وكذلك في المعراج قال عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

قوله في أوله: «إلى هرقل عظيم الروم» ـ أي: المعظم عندهم ـ «أما بعد: سلام على من اتبع الهدى» ولم يقل سلام عليك، فإذا تبع الهدى دخل في السلام «فإني أدعوك بدعاية الإسلام» وفي رواية: «إني أدعوك بداعية الإسلام» أي: بالكلمة الداعية إلى الإسلام وهي «لا إله إلا الله محمّد رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم «أسلم تسلم» أي: في الدنيا وفي الآخرة، وفي هذه إشارة إلى هرقل أنه سيعرف الحق ويعلنه، ولكنه قد يخاف على نفسه من القتل، فكان قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أسلم تسلم» أماناً له من ذلك.

قوله: «يؤتك الله أجرك مرتين» لأنه إنْ أسلم أسلم معه قومه من الروم وكان ذلك في صحيفته، وإنْ أعرض عن الإسلام كان إثم قومه في صحيفته أيضاً.

وهذا كما ورد في الحديث: «من سن في الإسلام سُنة حَسَنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ـ أي: إلى يوم القيامة ـ من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة: فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده ـ أي: إلى يوم القيامة ـ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

---

(١) عزاه في (الفتح الكبير) إلى (مسند) الإمام أحمد (٤/ ٣٦١) و(صحيح) مسلم كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة / ٢٦٧٣/ (٥/ ٢٥٨٥)، والترمذي والنسائي وابن ماجه عن سيدنا جرير رضي الله عنه، وهو في (المعجم الكبير) للطبراني (٢/ ٣٢٩) بلفظ: «من سن في الإسلام سنة صالحة: كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة؛ لا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة؛ لا ينقص من أوزارهم شيء».

ولهذا قال له: «وإنْ توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين» أي: أتباعك، فإنّ إثمهم في عنقك وفي عنقهم.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: نتساوى فيها وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: فكيف اتخذتم عيسى رباً وهو من البشر ويأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: اشهدوا أيها الكفار من أهل الكتاب بأنا مسلمون، واشهدوا على أنفسكم بأنكم كافرون، حتى إذا جاء يوم القيامة وحشروا إلى الله تعالى؛ ووقفوا للحساب؛ فيأتي الكافر ويشهد للمسلم بأنّه مسلم، ويشهد على نفسه بأنه كافر.

وهذا لأنه لابد لكل مَنْ شاهد إسلام المؤمن وإيمانه لابُد له أن يشهد له يوم القيامة بذلك، ولذلك فإن الشهداء يوم القيامة على أنواع: فهناك شهادة الأحجار والأشجار، والحيوانات، والأرض، والإنسان، وغيرهم.

ومن ذلك شهادة الأرض التي احتضنت أجسام الأموات كلهم.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: الأموات التي حملتهم، فكما ولا بد للأرحام أن تدفع ما فيها، فكذلك الأرض تدفع ما فيها وذلك يوم القيامة كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤ ـ ٥] أي: أنها أصغت إلى أمر ربها وأجابت؛ وحق لها أن تجيب أمر ربها لَمَّا أمرها بأنْ تلقي وتطرح ما فيها.

وإن الأرض تُخرج ما فيها من معادن وزخارف قبل يوم القيامة ، ثم إنها تُخرج أثقالها يوم القيامة ، وهي ما حملته من أتربة الأجساد فيها ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤ ـ ٥] أي: أوحى لها أن أخرِجي أثقالك ، وأوحى لها أن تكلمي بما جرى عليك.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره[١] ، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ يوماً قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «هو أن تشهد على كل عبد وأمة ـ أي: ذكر وأنثى ـ بما عمل على ظهرها ، وتقول: عمل يوم كذا: كذا وكذا ، فهذه أخبارها» الحديث.

ولما قُرِىء كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس هرقل ارتفعت الأصوات ، وأراد هرقل أن يحمل جماعته على الإسلام ، فقام وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ووضعه فوق رأسه ، ثم قبله ، ثم دعا بقطعة من حرير ولفه فيها ، ثم أمر بسفط: ـ أي: صندوق ثمين ـ ووضع الكتاب فيه ، ورفعه إلى مكان محترم ، وأمر بجماعة العرب أن يخرجوا من المجلس ،

---

(١) الترمذي كتاب صفة القيامة ، باب الأرض تحدث أخبارها / ٢٤٣١/ (٧/ ١٤٤) ، وهو في (مسند) الإمام أحمد: (٢/ ٣٧٤) وعزاه في (الدر المنثور) (٦/ ٣٨٠) إلى عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه.

وأمر رجلاً أن يُكرم ويضيف دحية بن خليفة حامل كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه[1].

ثم لما كان الغد أمر بدحية فجاءه ، فأدخله هرقل غرفة واسعة ، فإذا فيها ثلاثمائة وثلاث عشرة صورة ؛ من صور الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال لدحية: انظر أين صاحبكم ـ أي: صورة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال دحية: فتتبعتها حتى رأيتها ، فرأيته صلى الله عليه وآله وسلم في صورة كأنه يتكلم وينطق ، قال: فقلت هي هذه.

فضحك هرقل وقال: نعم[2].

واعلم أن الصور إنما هي صور رسمها الروم ، على موجب الصفات التي وصف الله تعالى بها رسله في الكتب السماوية السابقة ، ولقد وصف الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفصلاً في التوراة ، ومنها في الإنجيل ، وعلى موجب تلك الصفات رسموا هذه الصور رسماً دقيقاً.

ويقال: إن هذه الصور نزلت مع آدم عليه السلام من الجنة ، وتوارثها الأنبياء ، إلى أن وصلت إلى دانيال عليه السلام ـ وهو من أنبياء بني إسرائيل ـ ثم توارثها الملوك.

ثم إن هرقل دعا جماعته ، وأمر بغلق الأبواب ، وقام خطيباً فيهم فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد إلى آخر

---

(١) شرح المواهب (٣/ ٣٣٩).
(٢) عزاه في شرح المواهب (٣/ ٣٣٩) إلى أبي نعيم وغيره.

الأبد ـ أي: في الدنيا والآخرة ـ وأن يَثْبُتَ لكم ملككم ، فتبايعوا هذا النبي ـ أي: على الإسلام والإيمان ـ.

قال: فحاصوا حَيْصَة حُمرِ الوحش للأبواب ـ حباً في الرئاسة والزعامة ـ فلما رأى هرقل نَفْرتهم خاف على نفسه أن يقتلوه فقال: رُدُّوهم عليَّ ، وقال لهم: أردت أن أختبر شدتكم على دينكم ، وقد رأيت منكم الذي أحببت. فسجدوا له ورضوا عنه.

وقد اعترف أن هذا رسول الله حقاً ، لكن لم يُعلن ذلك خوفاً على نفسه ومُلكه.

وفي السنة التاسعة للهجرة يوم تبوك ، كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل كتاباً آخر يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقال لمن معه: «مَنْ يحمل هذا الكتاب إلى هرقل وله الجنة»؟ لأنه كان بين المسلمين والروم قتال وحرب.

فقال دحية: أنا يا رسول الله.

فقال: «وإن لم يقبل» ـ أي: الإسلام ـ قال: وإن لم يقبل. وهذا كما ورد في زوائد (المسند) وغيره[1].

فلما أتى هرقل قرأه ، فإذا فيه دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له إلى الإسلام، وإلا عليه أن يدفع الجزية وإلا فالحرب.

وعرض هرقل هذا الأمر إلى جماعته ، وقال لهم: إن هذا الرجل يدعونا إلى الإسلام ، أو إلى دفع الجزية ، أو إلى الحرب ،

---

(١) عزاه في (مجمع الزوائد) (٨/٢٣٦) إلى أبي يعلى ، وعزاه في السيرة الشامية (١٢/٣٥٣) إلى أبي نعيم وابن عساكر.

وإنكم تعلمون صدق هذا الرجل ـ من خلال العلامات والأدلة ، وما ثبت وَنُقِلَ إليكم في التوراة والإنجيل ـ فتعالوا نبايعه على الإسلام . فنفروا أيضاً ، وتكبروا وتجبروا ، فتراجع هرقل عن ذلك ، وكتب كتاباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسله مع رجل يدعى التنوخي. وقال له: اذهب إلى هذا النبي ، فادفع إليه الكتاب ، فإذا قرأه فانظر واحفظ عليه هل يذكر كتابه السابق ، وهل يذكر النهار ، وانظر في ظهره هل ترى شيئاً.

فلما جاء التنوخي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «مرحباً يا أخا تنوخ ، ألا تدخل في الإسلام ، فإني أدعوك إلى الملة الحنيفية الإسلامية».

فقال: أنا رسول قومي ، وأنا على دينهم ـ أي: أنه لا يخالف قومه ـ.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما صاحبكم ـ أي: هرقل ـ فكنت أرسلت إليه كتاباً فحفظه وأمسكه ـ أي: احترمه وعظمه ـ فإنه لم يزل له بأس على الناس ما ذام الناس في خير» أي: لا يزال ملكه ثابتاً ما دام في العيش خير.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وكنت كتبت كتاباً إلى كسرى بن هرمز فمزقه. مزقه الله ومزق ملكه» ـ وكان الأمر كذلك ـ فلما سمع التنوخي ذلك حفظه ، وتذكر قول هرقل هل يذكر كتابه السابق قال: فكتبتها عندي.

ثم كان من جملة كلام هرقل في كتابه إلى رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أن قال: أنت تدعوني إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟.

فَقَال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار» أي: أنّ الجنة في أعلى عليين، وأنّ النار في أسفل سافلين.

ولما سمع التّنوخي ذكر النهار كتبها عنده.

ثم قال التنوخي: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً أن يضيفني عنده فذهبت معه، فلما بعدت ناداني رسول الله، «تعال يا أخا تنوخ» فجئت إليه فحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رداءه، وكشف ظهره وقال: «يا أخا تنوخ امض من هنا لِمَا أمرت» أي: مُر من وراء ظهري، وانظر إلى ظهري.

قال: فمررت وراء ظهره فرأيت خاتم النبوة عند كتفه الأيسر صلى الله عليه وآله وسلم.

قال التَّنُوْخي: فكتبت ذلك عندي، ولما رجع إلىٰ هرقل أخبره بذلك.

اللهم صلِّ على سيدنا محمَّد الذي ما استغاثك به جائع إلا شبع، ولا ظمآن إلا روي، ولا مريض إلا شُفي، ولا مبتلىً إلا عوفي، وإنّنا يا ربنا ظمآء جياع نستغيثك، ونستمطر رحمتك الواسعة، من خزائن جودك فأغثنا يا رحمن، يا من إذا نظر بعين حلمه وعفوه لم يظهر في جنب كبرياء حلمه وعظمة عفوه ذنب. اغفر لنا وارحمنا، وتب علينا، وتجاوز عنا يا كريم ـ اللهم آمين.

* * *

من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم
أنه السراج المنير
صلى الله عليه وآله وسلم

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

فلقد وصفه سبحانه بأنه سراج، بمعنى أنه له ضياؤه ونوره الظاهر، كما وصفه سبحانه في آية أخرى بالنور، قال جلَّ وعلا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

ذهب أكثر السلف إلى أنّ المراد بالنور في هذه الآية هو سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن شأن النور أن يضيء، وأن يكون ظاهراً في نفسه ومظهراً لغيره، ولذلك فإنَّ مَنْ نَظَر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى أمر نبوته ظاهراً، وعلامات صدقه ظاهرة بينة، في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كلامه وأخلاقه، وسائر شمائله، فهو نور ظاهر بَيِّنٌ، كما أن نوره يسطع على العالم فينور العقول والقلوب، والأرواح والأشباح، وينور العوالم كلها صلى الله عليه وآله وسلم؛ وفي هذا قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه:

أولُ ما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه ـ أي: أسرعوا إليه ـ فكنت فيمن جاءه، فلما نظرت إلى وجهه وتبينته ـ أي: تأملته ـ عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: أنّ وجهه له نور ظاهر، وضياء باهر، وجمال قاهر، يدل على صدقه ونبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فكان أول ما سمعته منه: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا في الليل والناس نيام: تدخلوا الجنة بسلام»[1].

ولقد أجمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حيث قوة نورانية وجهه بالشمس أو القمر ليلة البدر، ولو أنّهم رأوا ما هو أعظم من الشمس أو القمر نوراً من المحسوسات لوصفوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء في الترمذي و(المسند) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه»[2] صلى الله عليه وآله وسلم.

وتقول الرُّبَيّعُ بنت معوذ الصحابية رضي الله عنها، حين قال لها بعض التابعين: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب أفشوا السلام... /٢٤٨٧/ (٧/ ١٨٢).

(٢) (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب سرعة مشي النبي صلى الله عليه وآله وسلم /٣٦٥٠/ (٩/ ٢٦١) (المسند) (٢/ ٣٥٠ و٣٨٠).

فقالت: «ماذا أقول يا بني؟!!! إذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلت: الشمس طالعة»[١].

وليس هذا من باب المبالغات والتشبيهات، وإنما هو من باب الحق والحقيقة، لأنّ الصحابي إذا وصف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما ليس فيه؛ فقد افترى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وقد وصفه هند بن أبي هالة رضي الله عنه، لما سأله الحسن بن علي رضي الله عنهم عن حِلْيَةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وكان وَصّافاً - فقال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[٣].

ولما قيل للبراء بن عازب رضي الله عنه: هل كان وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ -أي: في لمعانه - قال: «لا بل مثل القمر»[٤].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم رئي النور يخرج من بين ثناياه.

---

(١) كما في (سنن) الدارمي المقدمة (١/ ٣١)، والتابعي هو أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر رضي الله عنهم.

(٢) قال الحافظ المندري: رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد روي عن غير واحد من الصحابة في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرهما حتى بلغ مبلغ التواتر اهـ الترهيب (١/ ١٤٥).

(٣) كما في شمائل الترمذي بشرح الإمام الباجوري ص/ ٢٣/.

(٤) كما في (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب ١٧ / ٣٦٤٠/ (٩/ ٢٥٤).

فهو صلى الله عليه وآله وسلم سراج ظاهر نوره في نفسه وذاته وجسمه ووجهه، وخُلُقه، وكلامه، وشرعه، وهكذا...

وقد يقال: لِم لمْ تُؤمن كفار قريش وقد رأوا هذا النور؟!!!

فيقال: لقد رأوا الآيات العجيبة وأنكروا، ولقد رأوا انشقاق القمر وأنكروا، وجحدوا بعدما عرفوا الحق ورأوه، ثم إنهم لا يريدون أن ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إنصاف وتبصر وتعقل، ويحاولون أن يحجبوا أبصارهم عن ذلك. قال تعالى ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

فكانوا يمنعون قلوبهم أن تنجذب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويحاولون أن تبقى في حيّز كفرها وضلالها، كمن أعرض عن نور الشمس وأنكر وجودها.

ومن ذلك محاولتهم أن لا يسمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى لا تتأثر قلوبهم، وتنجذب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيؤمنوا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لبعضهم ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أي: أكثروا من اللغو حتى لا تسمعوا القرآن.

أما مَن نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إنصاف وتبصر؛ فإنه يرى ذلك النور أقوىٰ من نور الشمس، ويعرف صدق رسول الله، ويؤمن به صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمِنْ ذلك قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه، وكنت فيهم، فلما نظرت إلى وجه سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم

عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: بل هو وجه رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

ثم لا يلزم من الكافر أنه إذا رأى هذا النور أن يؤمن ، قال عزّ وجل: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] بل يجحدون ويعرضون ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: إنهم يعتقدون صدقك يا رسول الله ، لكنهم يجحدون ذلك بعد علمٍ منهم.

كما أنه سراج منير ـ أي: منور للغير ـ فهو ينور القلوب بحقائق الإيمان ، وينور العقول بالحجة والبرهان ، وينور الأرواح بالعلوم والعرفان ، وينور الأشباح والأجسام بأنوار العبادات والطاعات.

ولا غرابة في هذا فإن الله تعالى وصفه بذلك ، والله تعالى إنما يقول الحق ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ولهذا يجب على الإنسان أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما من حدَّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حداً في عقله ، بحيث إذا سمع أوصاف وخصائص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق ما حده في عقله راح ينكرها ، فيقال له: أنت ما عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرباني؛ وإنما عرفتَ رسول الله العقلاني ، الذي اخترعه عقلك وحَدَّ له حدوداً ، وليس هذا من الإيمان في شيء.

فلما ذكر سبحانه من خصائصه ومواقفه أنه السراج المنير ، يجب على الإنسان أن يكون موقفه معه موقف المستنير بأنواره.

أما أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم ينور القلوب بحقائق الإيمان ، فإن حقيقة الإيمان في القلب نور من رب العالمين ، وإنَّ الذي أوصل هذا النور إلى القلوب هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي هذا قال في الحديث : «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل»[١] .

فما على الإنسان إلاّ أن يتعرض بقلبه لذلك النور حتى يصيبه ذلك النور ، ويهتدي به إلى الله تعالى ، وإنّ موضع إمدادات هذا النور وإشعاعاته على القلوب إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا قال سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها : مكتوب في التوراة بعض صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيها : «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إلّه إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً»[٢] .

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند): (٢/ ١٧٦ و١٩٧) والترمذي في (السنن) كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة / ٢٦٤٤/ (٧/ ٢٩٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير ، باب ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾/ ٤٨٣٨/ (٨/ ٥٨٥).

ولقد جعله الله تعالى واسطة في إيصال الهدى والنور والإيمان إلى القلوب، حتى إنه صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لأصحابه[1]: «ألَمْ أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟ ألم أجدكم أشتاتاً فألف الله بينكم بي».

وإن الذي ألف بين قلوبهم على وجه الحقيقة والاستقلال هو الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

أما أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء سراجاً منيراً ينور العقول بالبرهان والحجة، فلقد جاء بالبينات والبراهين القاطعة، التي تنقاد إليها عقول العقلاء الذين جردوا عقولهم عن هوى النفس وشهواتها. وأما من جعل هوى نفسه مسيطراً على عقله، وصرف تفكيره في إرضاء هوى نفسه، فقد حجب عقله عن التعقل والتفكر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من براهين ومغيِّبات وَمُبَصِّرَات للعقول والأفكار.

وإنّ من جاءه شيء موافق لهوى نفسه فصدقه وعمل به، وإذا كان مخالفاً لهوى نفسه أنكره وجحده، فإن هذا شأن من كان عقله أسيراً لهوى نفسه. وأما من أطلق عقله من أسر الشهوات والأهواء، فيتبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا محالة.

---

(١) كان هذا بعد غزوة حنين حيث كلم صلى الله عليه وآله وسلم الأنصار، انظر الخبر في سيرة ابن هشام (٤/٤٩٩) و(مسند) الإمام أحمد (٤/٤٢) و(صحيح) البخاري كتاب المغازي، باب غزوة الطائف / ٤٣٣٠/ (٨/٤٧) و(صحيح) مسلم كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة / ١٠٦١/ (٢/١٠٩٣).

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولهذا بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ شرعه الذي جاء به إنما هو شرع نيِّر ظاهر، معقول محكم، لا التباس فيه ولا غموض، فقد جاء في الحديث الحسن، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ـ أي: الشمس ـ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»(١).

أي: تركتكم على شريعة نيرة واضحة، لا يميل عنها إلى غيرها إلا هالك متبع هواه.

وجاء في (سنن) ابن ماجه(٢)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علينا ونحن في الصفة، وكنا نتخوف من الفقر. فقال: «آلفقر تخافون؟ والله لتصبَّنَّ عليكم الدنيا صباً، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلا هيه، وأيم الذي نفسي بيده لقد تركتم على مثل البيضاء ـ الشمس ـ ليلها كنهارها سواء» أي: ليس فيها أمر خفي مظلم كالليل، بل كلها ظاهرة واضحة كالنهار.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: صدق الله ورسوله لقد تركنا على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.

وجاء في (المسند) أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مرَّ في طريقه على بعض اليهود، فكتب عنهم شيئاً من كتبهم ـ أي: أملوا

---

(١) تقدم تخريجه ص/ ٢٩١.

(٢) المقدمة حديث رقم/ ٥ و٤٣/ وهو في (المسند) (٤/ ١٢٦).

عليه شيئاً من التوراة ـ وَقَصْدُه أن يزداد علماً واطلاعاً ، وجاء بذلك إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فعرض ذلك عليه ، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم واشتد غضبه وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ليلها ونهارها سواء» أي: إنّ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الكفاية والغاية ، ولا حاجة لشيء غيره.

وفي رواية: لما عرض ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر المنادي فنادى: الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر وقال: «يا أيها الناس إني قد أُوْتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، فلا تهوّكوا فيها ، ولا يغرنكم المتهوكون»[1] تَهوَّكوا: أي: تضطربوا.

وأما أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء سراجاً منيراً ، ينور الأشباح والأجسام والمحسوسات ، فلقد نَوّر الأشباح بنور الطاعات والعبادات ، ولهذا وصف الله تعالى أتباع النبي عليه الصلاة والسلام؛ وأولهم الصحابة رضوان الله عليهم فقال جلّ وعلا: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٩٢] والسيما هي: نور العبادة والطاعة.

فجاء عليه الصلاة والسلام يُنور الوجوه والأشباح بنور الطاعات التي بَيَّنَها وشرعها.

فلقد نور صلى الله عليه وآله وسلم القلب بالإيمان ، والجسم بالعمل الصالح ، والعقل بالبرهان والحكمة.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

---

(١) تقدم تخريجه ص /٢٩٩/.

﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦١] وقد نزلت هذه الآية في وفد نجران ـ وهم من النصارى ـ لما جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهم يجادلون في قضية عيسى عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُبين لهم أنَّ عيسى رسول الله وعبده، وهم يجادلون ويعارضون الحق بعدما تبين لهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

فأمره الله تعالى أن يدعوهم للمباهلة، وهي أن يجتمع الطرفان، ويبتهل كل منهما إلى الله على أن يَنصر الله المحق ويُهلك المبطل، ولما كان موعد ذلك، جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودعا علياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم، ولما جمعهم قال: «اللهم هؤلاء أهلي»[١]. ولما أقبل صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أهله[٢] ونظرت إليهم وفد نجران قال لهم رئيسهم: يا قومي والله لقد علمتم صدق الرجل ـ أي: لكن عاندتم ـ والله يا قومي لئن باهلتموه ليهلككم الله، والله يا قومي إني لأرى وجوهاً لو سألت ربها أن يزيل الجبل لزال من مكانه، يا قومي لا تباهلوه ووادعوه ـ أي: صالحوه على الجزية ـ وكان الأمر كذلك.

وقال الله تعالى في وصف الشمس الفلكية: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا

(١) الحديث في (صحيح) مسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل سيدنا علي رضي الله عنه /٢٤٠٤/ (٥/٢٤٠٢)، و(سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب أنا دار الحكمة /٣٧٢٦/ (٩/٣٠٨).

(٢) كما في شرح المواهب للحافظ الزرقاني (٤/٤٣) معزواً لابن أبي شيبة وأبي نعيم.

﴿وَهَّاجًا﴾ [عم: ١٣] وإن حاجة الإنسان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد من حاجته إلى تلك الشمس، التي يتوقف عليها نظام حياته، لكنه يستغني عنها في الليل، ولكن لا غنى له عن النور سواء في الليل أو النهار.

كما أن النجوم في السماء ما نجمت وظهرت إلاَّ بانعكاس أنوار الشمس عليها، كذلك فإن أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نَجْمٌ فيه نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتباعه بأنهم نجوم، ولكن النجوم تختلف عن بعضها بقوة نورها.

روى البيهقي[١] وغيره: «إن أصحابي بمنزلة النجوم، فأيما أخذتم به اهتديتم».

وجاء في الحديث: «أصحابي كالنجوم بأيهم ٱقتديتم اهتديتم».

كما أن العلماء العاملين نجوم يُهتدى بهم في ظلمات الضلال جاء في (المسند)[٢]: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أَوْشَكَ أن تضل الهداة» الحديث، وفي الحديث[٣]: «وإن العلماء

---

(١) ينظر في (كشف الخفا) (١/ ١٤٧) للإمام العجلوني.

(٢) (٣/ ١٥٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) الذي رواه أبو داود في (سننه) كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم / ٣٦٤١/ (٤/ ٥٧) والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة / ٢٦٨٣/ (٧/ ٣٢٥) وابن ماجه (المقدمة) حديث رقم (٢٢٣) إلى قوله ﷺ: «أخذ بحظ وافر»، والبيهقي واللفظ له كما في (الترغيب) في الترغيب في الرحلة في طلب العلم حديث رقم / ١٤٩/.

ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً؛ وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ـ أي: فجوة ـ وموت العالم نجم طُمِسَ».

وجاء في (الصحيحين) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة»(١) وما شمس هذه الأقمار والنجوم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله جل وعلا فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

* * *

---

(١) البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته / ٣٣٢٧/ (٦/ ٣٦٢) مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنة على صفة القمر ليلة البدر / ٢٨٣٤/ (٥/ ٢٧٠٣) ، والإمام أحمد في (المسند) (٢/ ٢٥٣).

موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم
أَنَّهُ رحمة للعالمين

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فلقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، في كل العالمين، على مختلف أنواعهم وأصنافهم، فَعَمَّت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم جميع العوالم، في كل العوالم، بوجوه من أنواع الرحمة.

وهناك رحمة خاصة بالمؤمنين، كما أخبر عنه سبحانه وتعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أما الرحمة العامة التي عمت كل العوالم؛ فإنّها تظهر وتنجلي في مواقفه عليه الصلاة والسلام، وفي شريعته، وأوامره التي أمر بها، كما تظهر في معاملاته، وفي مواقفه مع الكفار والمشركين، ومع المنافقين، ومع المذنبين المرتكبين، ومع المؤمنين الصادقين.

كما ظهرت هذه الرحمة في مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع

الصبيان والعيال ، وفي مواقفه مع الحيوانات والبهائم.

وكما ظهرت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالعوالم في عالم الدنيا فإنها ستظهر في العوالم البرزخية الأخروية ، حتى في عالم الجنة؛ فهو رحمة للعالمين في جميع العالمين.

وإليك بيان ذلك:

إن الشرع الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما فيه من أوامر ومناهي وحدود ، فإن في ذلك رحمة للعالمين ، فمن هذا: أن ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من العقوبات والحدود والتعزير والقصاص فإنّ ظاهره عذاب؛ ولكن باطنه رحمة ، فما الحد إلا حد للفاحشة ، وإيقاف للفحش أن يستشري في البلاد ، وينتشر بين العباد ، فإن قطع يد السارق مثلاً ظاهره أمر كبير؛ لكن حقيقته رحمة للسارق ولأهل الأرض كلهم. فَيُمْنَع السارق من الاستمرار في ظلمه وبغيه ، ويتأدب غيره من أن يجرأ على مثل هذا الأمر ـ وهذا رحمة.

وكذلك رجم الزاني فيه تطهير له ، وتطهير للمجتمع من التدنس بمثل هذا الأمر.

وَمَثَل هذا كمثل عضو فسد في الجسد ، فأعيا الأطباء شفاؤه ، وأجمعوا على بتره لئلا يستشري الفساد والضرر إلى سائر البدن. فإن بتر هذا العضو بحسب الظاهر أمر مؤلم ، لكن حقيقة ذلك رحمة لهذا الإنسان ، ومنع للداء أن يمتد إلى سائر بدنه فيهلكه. وكذلك حدود الله في أرضه من عقوبة وتعزير وقصاص؛ فإن ظاهرها العقاب وحقيقتها الرحمة ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ

أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولهذا يجب أن تعلم أن جميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أوامر ومناهي كلها رحمة خاصة وعامة.

أ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالكفار:

فلقد كان يرحم الكفار أكثر من رحمتهم بأنفسهم، ومن هذا: ما ورد في يوم أحد، لما كُسِرت رباعيته عليه الصلاة والسلام، وشج وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وسال الدم منه، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ادع الله عليهم ـ أي: بالهلاك ـ..

فقال: «إني لم أبعث لعاناً؛ إنما بعثت رحمة»(١) ـ أي: حتى للكفار ـ وظهرت رحمته بهم بأن دعا لهم بالهداية للإيمان، ولم يدع عليهم بالهلاك الشامل.

وإنّ حقيقة قتاله صلى الله عليه وآله وسلم الكفار ومحاربته لهم إخراج لعناد الكفر من رؤوسهم لعلهم أن يدخلوا في الإسلام.

وأما قتله للكفار المعاندين وأمره بذلك؛ فهذا رحمة بهم، حتى يوقف حد كفرهم، فإنّ الكافر إذا طال عمره زاد كفره فزاد عذابه في الآخرة.

ومن هذا أيضاً موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع الكفار والمشركين يوم الطائف، وقد قابلوه شر مقابلة، وأمروا صبيانهم أن يرموه بالحجارة، فرجع صلى الله عليه وآله وسلم وقد اعتراه

---

(١) الحديث في (صحيح) مسلم كتاب البر والصلة، باب النهي عن.... /٢٥٩٩/ (٢٥٣٣/٥).

الأذى والهَمُّ ، فجلس ودعا الله تعالى وقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، رب المستضعفين ، أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني؟ إلى عدوٍ يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم يكن منك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أنَّ عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أنْ ينزل بي سخطك ، أو يحلّ عليَّ غضبك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

فأظلته سحابة ، قال كما في (الصحيحين)[2]: «فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني ، فنظرت فيها فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فقال لي: يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إن ربك سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت».

قال: «فجاء ملك الجبال وَسَلَّم عليَّ ، وقال: يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إن الله بعثني إليك لتأمرني بما شئت ـ كما في رواية الطبراني ـ فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» ـ جبلي مكة ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بل أرجو أن يُخرج

---

(١) رواه الطبراني ، انظر (مجمع الزوائد) (٦/ ٣٥).

(٢) البخاري كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين / ٣٢٣١/ (٦/ ٣١٢) ، ومسلم كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أذى المشركين / ١٧٩٥/ (٤/ ١٨٩٢).

الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً».

ومن هذا الحديث يفهم: أن الذين قُتلوا في غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الكفار؛ لو أنهم عاشوا لما نَسلوا إلاّ كفاراً إلى يوم القيامة، ولو أنّ في أصلابهم أو ذريتهم مُسلماً واحداً لما قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوْ أمر بقتله.

٢ ـ أما رحمته بالمنافقين:

فلما نزل قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

فقال عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في عدة روايات ـ: «لأزيدن على السبعين»[(١)]. أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يفهم من الآية المنع عن الاستغفار، وإنما فهم أنَّه لو زاد لربما غفر الله لهم، فعمل بموجب الرحمة، وأنه رحمة للعالمين.

كما أن الآية لم تدل على منعه للاستغفار لهم، وإنما جاء المنع عن الاستغفار للمشركين، ولم ينزل بعد نهي عن الاستغفار للمنافقين.

فلما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] أمسك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستغفار للمنافقين لأن الآية نزلت فيهم.

أي: لما بيّن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن استغفارَه للمنافقين لا يفيدهم شيئاً، وفهم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٣/ ٢٦٤) إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وآله وسلم من الآية المنع عن الاستغفار لهم ، أمسك عن ذلك . في حين أنه قبل أن ينزل النهي عن ذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يعمل بموجب المقام الذي أقامه الله فيه، وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومن هذا أيضاً[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان في أول الأمر يُصلي على بعض المنافقين بموجب أنه رحمة للعالمين ، ومن الرحمة أن يرحمهم. فلما مات عبد الله بن أبي بن سلول ـ وهذا من كبار المنافقين ـ قال ابن عمر رضي الله عنهما: لما مات ابن سلول جاء ابنه ـ وهو مؤمن ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله أن يُعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار أنه رحمة للعالمين ، ثم طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُصلي على أبيه ـ ولم ينزل النهي عن ذلك بعد ـ فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي عليه ، فأخذ عمر رضي الله عنه بثوب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: أن عمر لا يريد من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصلي على رأس المنافقين ـ.

فقال: «إليك عني يا عمر» وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد عمل هذا صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى أنَّه رحمة للعالمين ، وليس هناك نهي عن ذلك ـ ثم نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) (صحيح) البخاري كتاب التفسير ، باب استغفر لهم أو لا تستغفر لهم / ٤٦٧٠ و٤٦٧١/ (٨/٣٣٣) و(صحيح) مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم / ٢٧٧٤/ (٥/٢٦٦٨).

وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

فلما نزلت الآية امتنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة على المنافقين.

٣ ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة مع أهل الكبائر:

فكان إذا ارتكب مسلم كبيرة تستوجب حَدّاً، وثبت ارتكابه لها بنصاب الشهادة، كزنا أو شرب خمر، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإقامة الحد عليه، مع الاحتفاظ بالشفقة والرحمة على هذا المحدود.

فلما جيء ببعض المرتكبين وحُدَّ، وقام بعض الصحابة يتكلم فيه قال عليه الصلاة والسلام: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان»[١]، وعند أبي داود قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه»[٢].

وجيء ببعضهم وقد تكرر منه شرب الخمر، وكلما شرب كان يحد، فقال بعض الصحابة: اللهم العنه؛ ما أكثر ما يُؤتىٰ به.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يُحبُّ الله ورسوله»[٣] صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما رُجم ماعز بن مالك الأسلمي بسبب الزنا، قال عليه

---

(١) البخاري كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال /٦٧٧٧/ (١٢/٦٦) وأبو داود كتاب الحدود، باب الحد في الخمر /٤٤٧٧/ (٤/ ٦٢٠).

(٢) كتاب الحدود، باب الحد في الخمر /٤٤٧٨/ (٤/ ٦٢١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، حديث /٦٧٨٠/ (١٢/ ٧٥).

الصلاة والسلام: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ـ الذنوب والكبائر ـ فمن ألمَّ بشيء منها فليستتر بستر الله ، وليتب إلى الله ، فإنه من يُبدِ لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله»[1] أي: من يُعلن بذلك ويثبت عليه بموجب الشهادة يقام عليه الحد الشرعي.

٤ ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع الصبيان بالرحمة:

كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا مر بالصبيان سلم عليهم ـ إن كانوا مُمَيِّزين ـ وكان يمسح خَدَّي أحدهم مسحاً ، ملاطفاً ومؤانساً لهم.

قال جابر بن سمرة رضي الله عنه: (صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأولى ـ الظهر ـ ثم خرج إلى أهله ، فاستقبله وُلدان ـ صبيان ـ المدينة ، فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً بعد واحد. قال: فجئت فمسح خديَّ ، فوجدت ليده برداً وريحاً طيباً ، كأنما أخرجها من جؤنة عطار)[2].

وهذا من الطيب المحمدي الذي هو فوق كل طيب.

وروى الطبراني في (الكبير والأوسط) عن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي رضي الله عنه قالت: (كنا عند عتبة أربع نسوة ـ أي: زوجات له ـ فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب؛ لتكون أطيب من صاحبتها ، وما يمس عتبة الطيب ، إلاّ أن يمسّ دهناً

---

(١) رواه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٢٤٤ و٣٨٣) ، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٨/ ٣٣٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) (صحيح) مسلم: كتابِ الفضائل ، باب طيب ريحه صلى الله عليه وآله وسلم / ٢٣٢٩/ (٥/ ٢٣٣٨).

يمسح لحيته، ولهو أطيَب ريحاً منا، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة.

فقلت له يوماً: إنا لنجتهد في الطيب ولأنت أطيب ريحاً منا، فَمِمَّ ـ أي: من أيّ سبب ذلك ـ؟!!.

فقال عتبة: أخذني الشرى ـ وهو مرض في الجلد يورث حكة ـ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتيته فشكوت ذلك إليه صلى الله عليه وآله وسلم، فأمرني أن أتجرد، فتجردت عن ثوبي وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي ـ يعني: أنه ستر عورته كلها ـ فنفث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يده، ثم مسح ظهري وبطني بيده، فعبق ـ لازمه ولزق له ـ بي هذا الطيب من يومئذ)[1].

٥ ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع زوجاته الطاهرات، وقراباته صلى الله عليه وآله وسلم:

فكانوا إذا جلسن عنده آنسهن وألان لهن المقال.

ومن هذا ما ورد في (الصحيحين)[2] عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده نسوة يتحدثن

---

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): (٨/ ٢٨٣) رجال الأوسط رجال الصحيح غير أم عاصم فإني لم أعرفها.

(٢) البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده / ٣٢٩٤/ (٦/ ٣٢٩) وكتاب الفضائل، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه / ٦٣٨٣/ (٧/ ٤١) وكتاب الأدب، باب التبسم والضحك، / ٦٠٨٥/ (١٠/ ٥٠٣) ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه / ٢٣٩٦/ (٥/ ٢٣٩٤).

معه ـ أي: من قراباته وأرحامه ـ فجعلن يرفعن أصواتهن ، فاستأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فلما استأذن سيدنا عمر رضي الله عنه ابتدرن الحجاب ـ أي: اختبأن وراء الحجاب ، لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجنبي عنهن ـ وخفضن أصواتهن.

فدخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجعل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضحك.

فقال عمر رضي الله عنه: مِمَّ تضحك يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أضحك الله سنك؟.

قال: «من هؤلاء النسوة اللاتي كن عندي ، لما سمعن صوتك خفضن أصواتهن ، وابتدرن الحجاب».

فقال عمر رضي الله عنه ـ من وراء حجاب ـ: أتهبنني يا عدوات أنفسهن ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!.

فقلن له: أنت أغلظ وأفظ[١].

فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إيه يا عمر إيه يا عمر ـ أي: زد يا عمر في جوابهن ـ والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً آخر».

---

(١) وليس المراد أنه صلى الله عليه وآله وسلم فظ وعمر رضي الله عنه أفظ ، بل المراد أن فيك الفظاظة والغلظة الشديدة ، وأفعل التفضيل هذا على غير بابه

وفي هذا دلالة قاطعة على مشروعية الحجاب ، وأنه لا يجوز لامرأة أن تختلط مع رجل أجنبي عنها ، ولو كان الأمر جائزاً لما ابتدرت النسوة بالحجاب لما استأذن عمر رضي الله عنه.

ولم تكن النساء تختلط مع الرجال إلا قبل نزول آية الحجاب ، وقد يجلسن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الطعام وَيُنظر إلى بعض الزوجات الطاهرات دون حجاب.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين يحتجبن ، ثم أنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء أن يحتجبن ، ولم يُسمح لهن باختلاط الرجال.

وإنّ من راح يتأول الحجاب على هواه. فيقال له: إنه لما نزل الأمر بالحجاب وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. ماذا فهم الصحابة من الآية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهم؟!!.

لقد فهم الصحابة من الآية الأمر بالحجاب ، وأقرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، ولهذا قال عَبِيْدة السَّلْماني[1]:

---

(١) التابعي الكبير عبيدة بن عمرو الفقيه ، أحد الأعلام ، توفي سنة /٧٢/ رحمه الله ورضي عنه.

لما نزلت هذه الآية خرجت نساء الأنصار وعليهن الجلابيب السود، كأنهن الغربان.

فكان لا يُرى من المرأة شيئاً إلّا موضع عينها اليسرى - وهذا ما فعلته النسوة عندما استأذن عمر رضي الله عنه -.

أما ما ورد من نظر رجل إلى امرأة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان قبل نزول آيات الحجاب والأمر به.

٦ - موقفه صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة مع الحيوانات والبهائم:

فلقد أوصى صلى الله عليه وآله وسلم بالحيوان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[١].

وَبَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الرحمة بالحيوان فيها أجر كبير عند الله تعالى، وأنّ تعذيب الحيوان فيه عقاب وعذاب عند الله تعالى، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «دخلت امرأة النار في هرة حَبَسَتْها، فلم تُطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[٢].

وكما يَعْلَمُ بعض المسلمين أن نتف ريش الهرة حرام، فليعلم

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب ما يكره من الخيل /٢٥٤٨/ (٤٩/٣) عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء /٢٣٦٥/ (٤١/٥) ومسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم تعذيب الهرة /٢٦١٨/ (٢٥٤٨/٥) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

أن نتف ريش المسلم أشد حرمة عند الله تعالى ، لأن المسلم أكرم عند الله من الحيوان، وما الغيبة والنميمة والسب والشتم للمسلم إلا كنتف ريشه. فمن كان يتورع بإيمانه عن نتف ريش الهرة ؛ فأولى به أن يتورع عن أذى المسلمين.

ودخلت هرة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمال لها الإناء وسقاها ، رحمة منه وشفقة صلى الله عليه وآله وسلم أبداً[1].

وبيَّن صلى الله عليه وآله وسلم «أن رجلاً عَطِشَ فنزل بئراً فشرب ، فلما خرج رأى كلباً يلهث من العطش فقال: هذا بلغ منه العطش كما بلغ مني ، فنزل وملأ خفه ماء وسقى الكلب؛ فشكر الله له فغفر له».

أي: إنّ هذا الرجل عمل هذا خالصاً لوجه الله ، مريداً بذلك التوبة إلى الله.

فقال الصحابة رضوان الله عليهم: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإن لنا في البهائم أجراً؟!!.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «في كل كبدٍ رطبة أجر»[2].

وما من رحمة تنزل على أهل الدنيا ، وعلى أهل الآخرة ، وأهل الجنة ، إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه

---

(١) عزاه في (نصب الراية) (١/ ١٣٣) إلى الدارقطني في (السنن)، وإلى الطحاوي في (شرح معاني الآثار) وانظر كشف الخفاء (١/ ١٩٧)، والتلخيص الحبير (١/ ٤٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب المساقاة ، باب فضل سقي الماء / ٢٣٦٣/ (٥/ ٤٠) ومسلم كتاب السلام ، باب فضل البهائم المحترمة / ٢٢٤٤/ (٤/ ٢٢٧٦).

رحمة للعالمين في جميع العالمين.

ولقد قال عليه الصلاة والسلام، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد(١) بالسند الحسن وغيره: «أُتيت مقاليد الدنيا ـ أي: مفاتيح الخزائن الأرضية أتاني جبريل ـ عليه السلام ـ على فرس أبلق» أي: جاء بها جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أن أهل الجنة لا ينالون نعيماً ولا رحمة إلا بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مقتضى مقام الوسيلة.

كما أخبر أنه أوتي مفاتيح الجنة: روى الدارمي والترمذي والبيهقي(٢)، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ـ من قبورهم ـ وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا شافعهم إذا حُبِسوا ـ أي: في الموقف ـ ولواء الحمد يومئذ بيدي ولا فخر، ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي ولا فخر، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وإنّ مقام الوسيلة الذي أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إنما هو مقام فَرْد لا يقوم به إلا هو صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سُمي هذا المقام بالوسيلة، والوسيلة هي: الوساطة.

---

(١) (المسند) (٣/ ٣٢٨).

(٢) (سنن) الدارمي المقدمة ص/ ٢٦/ (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أول من يُبعث / ٣٦١٤/ (٩/ ٢٣٧) (دلائل النبوة) (٥/ ٤٨٤).

فمقام الوسيلة هو أعلى مقام في الجنة ، وكل خير يصل إلى أهل الجنة من نعيم ومعرفة وتجلٍّ؛ إنما بواسطة صاحب الوسيلة صلى الله عليه وآله وسلم. ومن هنا ورد أنّ مقام الوسيلة له إشرافات على جميع غرف أهل الجنة.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا قاسم والله يعطي»[(١)].

وقد سمى نفسه صلى الله عليه وآله وسلم بنبي الرحمة: كما ورد في سنن الترمذي والنسائي وأحمد[(٢)] عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه ، أن ضريراً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله رد بصره.

فقال له: «قم فتوضأ وصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة ، يا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى؛ اللهم فشفعه فيَّ» ثلاثاً ـ فرد الله إليه بصره.

* * *

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً / ٧١/ (١/ ١٦٤) ومسلم كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة / ١٠٣٧/ (٢/ ١٠٧٤).

(٢) الترمذي كتاب الدعوات ، باب من أدعية الإجابة / ٣٥٧٣/ (٩/ ٢١٧) (المسند) (٤/ ١٣٨) وينظر لزماً (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٧٩) ففيه قصة حول الحديث الشريف.

من مواقفه
صلى الله عليه وآله وسلم
أنه صلى الله عليه وآله وسلم
إمام الأئمة وهادي كل أمة

فلقد أعطى الله تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام مقام الإمامة وأعطى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مقام إمام الأئمة ، وإن جميع الرسل أئمة لأممهم ، إلا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو إمام الأئمة ، وهادي كل أمة.

قال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ الآية [البقرة: ١٢٤] والمعنى إنَّ الله تعالى اختبر إبراهيم عليه السلام ، وكلفه بأوامر وهي ثلاثون أمراً ، أمره الله سبحانه وتعالى أن يتحقق بها ، وهي المذكورة في سورة التوبة: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

وعشرة في سورة المؤمنون ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١٠] ، وعشرة في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وكان

موقف الخليل عليه السلام مع هذه الأوامر والخصال أَنْ أتمها ، وتَحقَّقَ بها ، قال عز وجل: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

أي: لما جَمَعْتَ يا إبراهيم عليه السلام هذه الصفات والمقامات والكمالات؛ فحق لك أن تكون إماماً ، لأن شأن الإمام الحق أن يحوي على كمالات أمة ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] أي: في كمالاته وخصاله ، ومعارفه وعلومه ، وعباداته. وهكذا سائر الرسل صلوات الله عليهم أئمة لأممهم ، وأما سيدنا محمد صَّلى الله عليه وآله وسلم فهو إمام الأئمة كلهم. وهذا كما بيَّن الله تعالى في أخذه الميثاق على الأنبياء والرسل كلهم ، أنْ إذا أدركوا هذا الرسول الكريم أن يتبعوه وينصروه ، وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عهدي وميثاقي ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فأخذ الله العهد على جميع الأنبياء والرسل أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يتبعوه إن هم أدركوا زمنه ، وأن ينصروه ، وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك أيضاً.

وفي هذا قال سيدنا علي رضي الله عنه[١]: (لم يبعث الله نبياً إلا أخذ الله عليه العهد أن إذا أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) كما في الدر المنثور (٢/ ٤٧).

أن يؤمن به وينصره ، وأخذ العهد على كل نبي أن يأخذ العهد على قومه أن يؤمنوا برسول الله وينصروه).

ومن أجل هذا الميثاق قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني»[1] أي: لو كان في عالم الدنيا لما وسعه إلا اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلا فهو في البرزخ عليه الصلاة والسلام.

وجاء في (المسند) وغيره[2]، عنه عليه الصلاة والسلام: «لو كان موسى حياً بين أظهركم واتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» أي: متى وجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالإمامة له، والأسوة به صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا لأن الواجب المحتم على سيدنا موسى عليه السلام ـ وعلى كل نبي وكل أمة ـ إنْ أدركوا زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتبعوه. ولهذا فإنّ سيدنا عيسى عليه السلام لما ينزل في آخر الزمن ، فإنّه يأتي مُتَّبِعاً لشرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعمل بالقرآن الكريم وسنة خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

وذلك لأن العهد المأخوذ عليه وعلى كل نبي ؛ إنْ هو أدرك زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ أن يترك ما عنده ويتبع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ٣٨٧) وانظر (مجمع الزوائد) (١/ ١٧٣) و(٨/ ٢٦٢).

(٢) الحديث في (المسند) (٤/ ٢٦٥) ورواه الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (١/ ١٧٣) عن سيدنا عبد الله بن ثابت رضي الله عنه.

ولما كان صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة ، فإنّه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس ، كما ورد في (صحيح) مسلم[1] وغيره ، تقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصَلّىٰ بهم إماماً ، وذلك بأمر من الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام ، وإنّ الملائكة لا تعمل أمراً إلا بإذن الله وأمره ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٦٤] ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

كما وأنه صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة في جميع العوالم صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الترمذي وأحمد[2] وغيرهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر» أي: أنه يفتح لهم باب الشفاعة.

فهو إمامُهم وأمامَهم في كل البرازخ ، حتى عند دخول الجنة ، وهو الذي يخطب فيهم ويحاضرهم ، وعنه يأخذون ، ومنه يستمدون ويستفيضون.

وجاء في صحيح ابن حبان[3] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لكل نبي يوم القيامة منبراً من نور ، وإني لعلى أطولهم وأنورهم ، فيجيء منادٍ ـ أي: بعد ما تمضي مدة وتنقضي أمور وأمور ـ فيقول ـ أي: عن أمر الله تعالى ـ: أين النبي الأمِّي ؟ ثم

---

(١) كتاب الإيمان ، باب ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام / ١٧٢/ (١/ ٣٣٨).

(٢) (المسند) (٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨) (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين (٩/ ٢٣٩).

(٣) (الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان) / ٦٤٤٦/ (٨/ ١٣٧).

يعود الثانية فيقول: أين النبي الأمي العربي»؟ قال: فينزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المنبر، حتى يأتي باب الجنة فيقرع ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ باب الجنة.

وفي حديث (سنن) الدارمي[١]: «فآخذ بحلقتها فيقول ـ الخازن ـ مَنْ؟ فأقول: محمد» وفي رواية: «أحمد» صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً.

قال كما في رواية مسلم[٢]: «بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» فيفتح له صلى الله عليه وآله وسلم، فتصير أبواب الجنة مفتحة للداخلين ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] وقد فتحها فاتح الجود الإلٓهي على هذا الوجود صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: «فيدخلها صلى الله عليه وآله وسلم فيتجلى له الرب تبارك وتعالى، ولا يتجلى لنبيٍّ قبله» أي: تجلياً خاصاً جامعاً «فيخر لله ساجداً».

هذا كما ورد في أحاديث الشفاعة[٣]: «فإذا رأيته وقفت له ساجداً» فيحمده بمحامد لم يحمده بها أحد ممن كان قبله، ولا يحمده بها أحد ممن كان بعده، فيقال له: «يا محمَّد ارفع رأسك، وتكلم تُسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع».

أما مقامه صلى الله عليه وآله وسلم هادٍ لكل أمة: قال الله

---

(١) (١/ ٢٧ ـ ٢٨).

(٢) في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» /١٩٧/ (١/ ٣٨٥).

(٣) ينظر كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) لفضيلة الشيخ الإمام رحمه الله تعالى ورضي عنه.

تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: أنت منذر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لأنّ هديك هو الهدي الجامع الشامل، الصالح لجميع الأمم، وإنّ الهدي المحمدي قد اشتمل على هَدْي جميع الأنبياء والمرسلين، ولذلك فإنَّ الهدي المحمدي صالح ومُسْعِدٌ لكل أمة، وأنت ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

فإذا كان موقفه صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة، وهاد كل أمة، فماذا يجب أن يكون موقف العالم مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم؟! يجب أن يكون موقفهم معه موقف المقتدي، وأن يُحسنوا الاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة حسنة جامعة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن كان ممن يرجو الله، والثواب والعقبى عند الله تعالى فعليه أن يتأسى ـ أي: يقتدي ـ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا بيَّن الله تعالى، ماذا يجب على العبد أن يكون موقفه مع هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وهذا نداء من رب العالمين للذين آمنوا، وفيه التنبيه والتأييه ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: لا تتقدموا على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى التقدم على الله: أي: التقدم على كتاب الله؛ والتقدم على رسول الله هو: التقدم على شرعه وحديثه.

ولقد قال بعض المحققين: المراد لا تقدموا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإنما قدم سبحانه ذكر اسمه جَلَّ وعلا حتى يَقرن ذكر رسوله بذكره؛ رَفعاً لشأنه ، وعلواً لذكره صلى الله عليه وآله وسلم ، وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، وقوله في الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»[(١)].

وفيه معنى التبريك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً ، لأنه لا يُتصور التقدم بين يدي الله تعالى.

والمعنى: لا تتقدموا على رسول الله بقولٍ ولا عمل ولا رأي ولا عقيده ولا فهم ، بل كونوا متبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنَّ مَنْ فعل ذلك فقد بلغت به الوقاحة والقباحة كأنه تقدم في المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، متهاوناً متجرئاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد أمر سبحانه بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الأقوال والأعمال والحركات ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الأكبر ، والقدوة العظمى لجميع الأمم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: واتقوا الله أن تتقدموا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بعمل أو قول أو خُلُق أو فهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: بأقوالكم ، عليم بأعمالكم وقلوبكم.

* * *

---

(١) رواه أبو يعلى انظر (مجمع الزوائد) (٨/ ٣٥٤) وقال الهيثمي: إسناده حسن ، عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

نماذج من مواقف الصحابة رضي الله عنهم في الاتباع الكامل لسيدنا رسول الله صلى الله وآله وسلم والاقتداء المطلق به صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً

جاء في (الصحيحين)(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (توضأت يوماً في بيتي ، ثم قلت: لأكونن في هذا اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: أنه سيجعل طيلة يومه مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فخرجت إلىٰ المسجد ، فسألت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فقيل لي: إنَّه توجه ها هنا ـ أي: إلى جانب بئر أريس ـ فتتبعت أثره ، حتى رأيته دخل بئر أريس ـ وهو بستان فيه بئر ـ.

قال: فانتظرت حتى توضأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

---

(١) البخاري كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً» / ٣٦٧٤/ (٧/ ٢١) مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان رضي الله عنه / ٢٤٠٣/ (٥/ ٢٤٠٠).

ثم جاء وجلس على حافة البئر ودلى رجليه ، وكشف عن ساقيه صلى الله عليه وآله وسلم ـ والساق هو: ما تحت الركبة ـ.

قال: فجئت فسلمت عليه ، فردَّ عليَّ السلام ، ثم قلت: لأجعلن نفسي بواباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجلست وراء الباب ـ والباب مِنْ عسيب النخل ـ

فجاء رجل فقلت: لعله أخي ـ لأنه ترك أخاه يتوضأ وقال له: اِلحقني حتى نقضي اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقلت: إن يرد الله خيراً بأخي يأتِ به في هذا الوقت. فقلت: مَنْ؟ قال: أبو بكر رضي الله عنه.

فقلت: على رسلك حتى أستأذن لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فجئت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أبو بكر في الباب أتأذن له؟.

قال: «اِئذن له وبشره بالجنة» فجئت فقلت: قد أذن لك رسول الله وبشرك بالجنة.

فدخل أبو بكر رضي الله عنه ، وسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم جلس إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودلى رجليه ، وكشف عن ساقيه ـ بلا سؤال أو استفهام عن ذلك ، بل اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الله يقول: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: اتباعاً مطلقاً. وهذا ما فهمه الصحابة من الاتباع ، وهم يعلمون أن

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أُوتي الحكمة ، فأفعاله كلها مسددة محكمة ، وهو صاحب النبوة الجامعة ، فأفعاله وحركاته إنما هي بوحي من الله؛ وهي تدل على أمور فيها غاية الحكمة ـ.

ثم طُرق الباب ، فقلت: إن يرد الله خيراً بأخي يأتِ به. فقلت: مَنْ؟ قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قلت: على رسلك حتى أستأذن لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقلت: يا رسول الله عمر بن الخطاب في الباب أتاذن له؟.

قال: «اِئذن له وبشره بالجنة» فأخبرته بذلك.

فدخل عمر رضي الله عنه ، وسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم جلس إلى جانب أبي بكر ، ودلى رجْليه وكشف عن ساقيه ـ كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون استفسار أو اعتراض ـ.

قال أبو موسى رضي الله عنه: ثم طرق الباب فقلت: مَنْ؟.

قال: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فقلت: على رسلك يا عثمان حتى أستأذن لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فاستأذنت له فقال: «اِئذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه».

قال: فأخبرته بذلك. فقال: (اللهم صبراً).

فدخل عثمان رضي الله عنه ، وسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد امتلأ القُفُّ ـ أي: الجانب الذي جلس فيه

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فجلس عثمان تجاههم ـ أي: أمامهم، أي: أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ودلى رجليه وكشف عن ساقيه) الحديث.

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه ـ وهو من خيار التابعين ـ: فتأولناها أنها قبورهم. ـ أي: إنّ التابعين فهموا ـ وهذا فهم الصحابة أيضاً ـ أنّ هذا العمل، وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم جلس ودلى رجليه، ثم أبو بكر وكذلك عمر، ومن ثَمَّ عثمان، أن الوفيات ستكون على هذا الترتيب.

وَكَانت قبورهم أيضاً على هذا الترتيب، إذ إن قبر الصديق إلى جانب قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقبر عمر إلى جانب قبر أبي بكر، أما قبر عثمان فأمامه في البقيع، وهذا من باب أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم الإنبائية، فقد يتكلم مخبراً عن أمور وأمور، وقد يفعل فعلاً ينبىء عن أمر.

وهكذا أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم في غاية الحكمة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فحكمته صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة في: أفعاله وأقواله، وآدابه وأخلاقه، وسائر شؤوناته صلى الله عليه وآله وسلم، ومن هذا تفهم أيها العاقل ما كان يبذله الصحابة من جهود لمتابعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فيما عرفوا حكمته أم لم يعرفوا، وهذا واجب كل مؤمن مع إمام الأئمة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيّدنا عثمان

يوم الحديبية إلى مكة ، بعد أن شاع عند أهل مكة أنّ الرسول جاء لمحاربتهم ، فأرسله يقول لهم: إنه جاء للعمرة ، وليس للحرب ، وأمره أن يُبَشِّر المستضعفين في مكة بالقوة والنصر القريب ، فلما دخل عثمان مكة ، وبلّغ كفار قريش ذلك ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء لمحاربتهم بل للعمرة. قالوا له: ما نأذن له ، ولكن في العام القادم نأذن له. وأنت يا عثمان نأذن لك أنْ تطوف حول الكعبة ، فتعال طف.

فقال عثمان رضي الله عنه: ما أنا بطائف حول الكعبة حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قالوا: نراك خالفت عادتنا يا عثمان! وهي عادة في الجاهلية في لبس الثياب الطويلة على الأرض.

فقال: هكذا يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما يفعل نفعل.

وهنا قال بعض الصحابة ـ وهم في الحديبية ـ: هنيئاً لعثمان دخل بيت الله الحرام الآن ، وهو يطوف حول الكعبة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أظنه يطوف بالبيت ونحن محصورون» أي: لا يطوف هو حتى نطوف معاً[(١)] وكان الأمر كذلك.

ثم شاع أن عثمان رضي الله عنه قد قتل ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينفي هذا الخبر ، فلما بايعه الصحابة ـ وهي

---

(١) انظر الخبر في (دلائل النبوة) للبيهقي (٤/ ١٣٣) وفي السيرة الشامية (٥/ ٧٨).

البيعة على الموت ، المعروفة ببيعة الرضوان تحت الشجرة ـ فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُشرك عثمان بن عفان رضي الله عنه بهذا الفضل والأجر ، ويشيرَ إلى أنه لم يُقتل ، رفع يديه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «هذه عن عثمان» ووضعها على يمينه.

فقال الصحابة: فكانت شمال ـ أي: يسار ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير لهم من أيمانهم التي مدوها مبايعين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده اليسرى مُقام عثمان رضي الله عنه.

ويجدر بنا في هذه المناسبة ، أن نذكر شيئاً حول تفسير أوائل سورة الحجرات ، التي ذكر الله تعالى فيها مجامع الأدب مع الله تعالى ، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع المؤمنين كافة.

* * *

بعض الكلام
حول تفسير أوائل سورة الحجرات

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة أصول مجامع الآداب مع الله سبحانه وتعالى ، ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وآداب المؤمنين مع بعضهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] [الحجرات: ١].

---

(١) كان من جملة أسباب نزول هذه الآية كما في (الدر المنثور) (٦/ ٨٤) ما ورد في الحديث ، أن قوماً ذبحوا قبل صلاة عيد النحر - استحساناً منهم لذلك حتى يستقبلوا العيد ولا أمر يشغلهم - فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنكر عليهم وقال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم ننحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل أن يُصلي فإنما هو طعام لأهله ؛ ليس من النسك في شيء» أي: لا تعتبر ذبيحته أضحية شرعاً ، ونزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
وقال بعض السلف رضي الله عنهم: وكان من جملة أسباب النزول لهذه الآية: أن قوماً قالوا: لو نزلت فينا كذا وكذا لكان كذا وكذا.. ومرادهم لو أنزل الله فينا آيات فيها أحكام استحسنوها لكان أصلح وأحكم على ظنهم ، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لأنكم لستم أعلم بالمصالح والمنافع من الله ورسوله ، وإنّ الذي خلقكم أعلم بكم وبمصالحكم ، وبما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الآية [الملك: ١٤].
كما أن خالقهم هو الحاكم عليهم والمتصرف بهم ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فما عليهم إلا اتباع ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

إن هذه السورة مدنية ، وإن غالب السور المدنية نزلت بالأحكام العملية والأدبية ، أما الأمور الاعتقادية فإنّ غالبها نزل في مكة.

وقد افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ. . . ﴾.

معنى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ إنَّ أصل الفعل الثلاثي المؤلف من القاف والدال والميم له ثلاثة معانٍ:

يقال: قَدِم من سفره يقدَم قدوماً ، على وزن فَعِل يَفْعَلُ.

ويقال: قَدَمَ يقدُمُ قُدْماً. كقولك: فعلاً ، والمعنى: يتقدم كقوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: ٩٨] أي: يتقدمهم.

ويقال: قَدَم يقدُم قِدَماً ـ أي: مضى عليه زمان طويل ـ.

أما الفعل في قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ فقد جاء مُثَقَّل الوسط ، وهو من باب فعَّل[1] ، وأصله قدَّم ، وقد يأتي متعدياً كما هو الأصل في الثلاثي الذي زيد فيه حرف ، والمراد منه التعدية.

فإما أنَّ المراد: لا تُقدموا أي: لا تُقدموا شيئاً ، سواء كان أمراً أو قولاً أو رأياً ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ والمعني: كونوا متبعين لا مبتدعين ، وقد حذف المفعول به ـ وهو ما يعرف بحذف المعمول لأجل العموم ـ لأنه لو ذَكَرَ شيئاً لربما توهم أنه هو المقصود فقط ، كما لو قيل: لا تقدموا قولاً ، فقد يُفهم عندئذٍ

---

(١) لأن الثلاثي المزيد بحرف واحد يكون على ثلاثة أبواب: أفعل ـ فعَّل ـ فاعل.

جواز التقدم بعمل أو أمر ، لكن حذف المعمول[1] ليدل على النهي عن التقدم بأيّ شيء كان.

أو ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ لا تقدموا فعل لازم غير متعدٍ ، والمعنى: لا تتقدموا ، كما يقال: قدِّم يا فلان ، أي: تقدم أنت يا فلان ، ومنه مُقدمة الجيش أي: متقدمة الجيش[2].

ويقال: مقدمة العلم ، وهي: ذكر تعريف العلم وثمرته وفضله ، أمّا مقدمة الكتاب فهي البسملة والحمدلة ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمقدمة هنا هي: الكلام المتقدم بين يدي العلم الذي تبحث فيه.

قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هل هذا التعبير من باب المجاز أم الحقيقة؟ أي: يَدَان حقيقتان أم مجاز، فإنْ أريدَ يَدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ هذا من باب الحقيقة، وقد يقال: كيف المراد من الآية رسول الله وقد ذكر سبحانه وتعالى اسمه؟!!.

فاعلم أنَّ المقصود من الآية ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تقدموا بين يدي رسول الله ، ولكنه سبحانه قدم اسمه ليرفع ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تشريفاً وتعظيماً ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وكما جاء في الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»[3].

---

(١) قد يحذف معمول العامل لتعميمه كما هو معروف في البلاغة.

(٢) وكان الجيش يسمى بالخميس ، كما قالت اليهود في غزوة خيبر: «محمَّد والخميس» أي: جاءكم محمَّد والخميس معه. والجيش الخميس هو الجيش المخمس الأطراف كالطير ، فهناك: المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة والقلب ، وقيادة الجيش يكون موقعها في قلبه ـ وسطه ـ.

(٣) وقد تقدم تخريجه ص / ٣٦٧/ .

ونظير ذلك قولك: سرني زيد وحسن أخلاقه ، أي: سرني حسن أخلاق زيد.

فما هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؟ أي: لا تقدموا أمراً من الأمور ، وعليكم باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَثَلُ مَنْ فعل شيئاً لم يفعله صلى الله عليه وآله وسلم فقد بلغت به الوقاحة ؛ وكأنه تجرأ على المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنَّ المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجرأة أمر مشين مذموم؛ إلاَّ إذَا أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالخادم والأجير. وفي هذا غاية التنفير من الابتداع ، وغاية الإغراء والإلزام بالاتباع.

وإذا كان المراد بقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما جاء في كتاب الله ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ما جاء في أحاديثه ، فإن هذا يكون من باب المجاز والاستعارة ، لأن الله تعالى منزه عن الجوارح ، وهذه الاستعارة تمثيلية ، أي: شُبِّه من يتقدم بأمر لم يشرعه الله في كتابه كأنه بلغ في الوقاحة بالتجرىء على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا الأمر بالتقوى فيه معنى التهديد ، وتأكيد التحذير والنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد جاء النهي ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وسطاً بين أمرين فيهما غاية التأكيد السابق واللاحق ، فقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: يا: للتنبيه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ للتأييه ـ التنبيه

أيضاً ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾أي: إنَّ إيمانكم يُوجب عليكم أنْ لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله.

أما التحذيرات اللاحقة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ توَقُّوا غضب الله وسخطه، فلا تتقدموا بأمر لم يشرعه الله ورسوله، ثم حذر سبحانه ونبّه على تقواه سبحانه أمام الناس، أو في الخفاء ـ أي: في الجهر والسر ـ والظاهر والباطن فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: سميع لأقوالكم، سواء كانت سراً أو جهراً، عليم بأفعالكم وقلوبكم.

واعلم أن الأسماء الإلَهية في نهاية الآية تأتي وفيها المناسبة لما ذُكِرَ في الآية، فلم يقل هنا: إن الله غفور رحيم، ولو كانت كذلك لما بقي من التأكيد السابق والتحذير اللاحق معنىً أو فائدة. فافهم.

واعلم أن الله تعالى قد يُخاطب عباده ويناديهم بصيغ مختلفة من الخطابات، بحسب المناسبة، وبحسب الأمر الإلَهي، فإذا كان الأمر يتعلق بإرشادات عامة للعباد؛ فقد يأتي الخطاب بقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] من آدم عليه السلام إلىٰ يوم الدين ولا تقبل النسخ كقوله: ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ وهو سَتْر العورة عند الصلاة.

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [يس: ٦٠] أي: تشريع عام لجميع بني آدم.

وقد يأتي الخطاب بصيغة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وكثيراً ما نزلت في مكة، لأن النداء إلى مختلف أصناف الناس. وقد نزلت آيات قرآنية فيها الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نزلت في المدينة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ من سورة البقرة. وسورة البقرة مدنية النزول.

وإذا كان الخطاب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لجميع أصناف الناس؛ فإنّ المراد من الناس وهم الذين يؤنسون أي: يُرون كقوله: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: ١٠] أي: رأيت ناراً.

وقد يُراد من الناس: ما يُرون ويؤنس بهم، وهم المؤمنون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ﴾ أي: للكفار ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾[1] [البقرة: ١٣] لأن الكفار يؤنس بهم ـ بمعنى: أنهم يُرون ـ ولا أُنس عندهم لأنهم متصفون بالوحشية والبهيمية كما قال تعالى: ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد يكون الخطاب للناس أو المؤمنين، فيكون الأمر متعلقاً بأحكام تشريعية خاصة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ . . . ﴾ [الحجرات: ١].

أما أداة النداء (يا) فتكون للبعيد حِسّاً أو معنىً كما قيل:

وللمنادى النائي أو كالنائي يا وأي وآ كــذا أيــا ثُــمَّ هيــا

والمراد: بمَنْ كالنائي: البعيد حساً.

فالله تعالى ينادي عباده بـ(يا) نظراً لعلو مقام الربوبية عن مستوى العبودية.

والعبد ينادي ربه بقوله: يا رب إذا نظر في نفسه وذنوبه، ورأى نفسه بعيداً عن حضرة ربه، أما إذا استشعر قرب ربه منه كما هو حال الأنبياء أو المؤمنين فيقول: رب، كما جاء ذلك في كثير

---

(١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] والمراد بالناس هنا المؤمنون، دل عليه قوله: ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذه الرحمة الخاصة لا تكون إلا للمؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

من الآيات ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: ٢٥] وغيرها.

وبعدما بَيَّنَ سبحانه وأشار إلى الأدب مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بوجوب اتباعه، أمر بالأدب الاجتماعي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية [الحجرات: ٢].

وقد أعاد سبحانه افتتاح هذه الآية بصيغة الخطاب والتأييه والتنبيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ولم يعطف على ما قبلها بقوله: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ ﴾ وذلك ليدل على أهمية هذا الأمر، وبيان أن هذا الأمر مقصود بذاته، وليس تبعاً، كما أن هذا مقتضى الإيمان: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ يجب أن تكون أصواتكم دون صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكما أنكم مأمورون بالمتابعة له؛ فيجب أن تكون أصواتكم تابعة له، ومنخفضة عن صوته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يقال: لِمَ ذكر في هذه الآية كلمة النبي، وذكر في الآية الأولى كلمة الرسول ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم؟؟.

وذلك لأن كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ تدل على أمرين من حيث الاشتقاق اللغوي: فكلمة النبي مشتقة من النبُوة وهي المكان المرتفع، ومن النبأ، نَبيءٌ وهو على وزن فعيل يستوي فيه الفاعل والمفعول، فهو نَبِيٌّ أيْ: مُخبَرٌ مِنَ الحق ومُخْبِرٌ عن الحق: ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: ٣] مُخْبَرٌ.

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم ﴾ [آل عمران: ١٥] ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ ﴾ [الحجر: ٤٩] مُخبِر.

وليست القاعدة التي تنص على أنه يجب أن يكون المراد من كلمة واحدة معنىً واحداً؛ ليست هذه القاعدة مسلمة على إطلاقها، لأنه لا يجوز لنا أن نتحكم في آيات الله، بل الآيات تتحكم بنا في مفاهيمها.

فلما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرتفعاً عن غيره بالرتبة والمقام والفضل، فلا يصح ولا يجوز أن تُرفع الأصوات فوق صوته صلى الله عليه وآله وسلم. فافهم هنا سر ومناسبة الإتيان بكلمة ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

أما في الآية الأولى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فذكر كلمة ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ليبين أنه رسول الله، وأن تشريعه من الله، فكيف يصح أن تتقدموا بين يديه؟!.

وإن التقدم عليه تقدم على مُرسله وهو الله تعالى.

فلما أمر بوجوب اتباع شرعه صلى الله عليه وآله وسلم وصفه بالرسالة ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، ولما أمر بالأدب معه وصفه بالنبي، لأنه أرفع مستوى وأعظم قدراً.

ولما نهى سبحانه عن رفع الصوت فوق صوت النبي، فمن باب أولى(١) يُفهم النهي عن رفع الرأي فوق رأيه صلى الله عليه وآله

---

(١) وهذا ما يعرف بالاستدلال الأولويّ، وهذا أقوى أنواع الأدلة، وهي البرهان الحملي والبرهان الشرطي، لأن الأدلة القياسية المنطقية تكون قوتها على حسب صحة المقدمات، أما الدليل الأولوي فيؤخذ من نص العبارة، كقوله تعالى في الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإذا نهى عن التأفف فيهما فمن باب أولى نهى عن سبهما أو ضربهما.

وسلم ، أو رفع الفهم أو العقل فوق فهمه وعقله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كره العلماء ـ فهماً من هذه الآية ـ أن ترفع الأصوات في مجلس حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن حديثه صفته ، والوصف لا يفارق الموصوف ، وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم حاضر في مجلس حديثه ، فينبغي التأدب وعدم رفع الصوت.

كما نصّ العلماء على وجوب الأدب في مسجده صلى الله عليه وآله وسلم ، وعدم رفع الأصوات فيه ، لأن حرمته ميتاً كحرمته حياً صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما ولي الخلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، سمع مَرَّة شابين يرفعان أصواتهما فحَصَبهما ـ ألقى عليهما الحصى ـ وهما يرفعان أصواتهما في المسجد النبوي الشريف.

فقال لهما: مِنْ أيْن أنتما؟ أما تدريان أين أنتما؟!! ومراده أنتما جالسان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالا: من الطائف.

فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً[1].

وقد أمر الله تعالى بِغَضِّ الصوت كلياً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي حضرته فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ، وأما فيما بين المؤمنين فقد جاء الأمر بالغض من

---

(١) أي: إنهما من مكان بعيد ، وقد يجهلون بعض الأحكام والآداب.

الصوت، قال تعالى مخبراً عن وصية لقمان لابنه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

ولما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار[١] ـ أي: سراً وهمساً خفياً ـ.

وجعل عمر رضي الله عنه إذا أراد أن يكلم رسول الله يخفض صوته حتى يستفهمه ـ أي: يقول له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارفع قليلاً يا عمر ـ.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يُعلم الوفود كيفية مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأدب معه.

وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه[٢] جهوري الصوت خِلْقَةً، فلما نزلت هذه الآية خاف والتزم بيته وقال: أنا من أهل النار ـ أي: لقد حبط عملي ـ.

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه رجلاً من الصحابة وقال له: «قل له: أنت لست منهم، أنت من أهل الجنة».

فقال أنس رضي الله عنه: فكنا نرى أنه رجل من أهل الجنة يمشي على الأرض[٣].

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٦/ ٨٤) إلى البزار وابن عدي والحاكم وابن مردويه.

(٢) خبره في (صحيح) البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام /٣٦١٣/ (٦/ ٦٢٠) وفي (صحيح) مسلم، كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله /١١٩/ (١/ ٢٧٠).

(٣) وقد استشهد ثابت رضي الله عنه في وقعة اليمامة، عندما حارب المسلمون جيش مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله =

ويستثنى من هذا النهي في الآية الكريمة: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] يستثنى رفع الصوت إن هو أمر بذلك صلى الله عليه وآله وسلم ومن ذلك:

لما أمر العباس رضي الله عنه[(١)] يوم حنين، أمره أن ينادي في الذين وَلّوا الأدبار، وجعل العباس يرفع صوته وينادي: يا أصحاب السَمُرَة ـ الشجرة. وهم المؤمنون الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الشجرة ـ.

كما كان الصحابة رضي الله عنهم يتناشدون في المعارك وينادي بعضهم بعضاً يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، والتي فيها قوله جل وعلا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وذلك تثبيتاً لأنفسهم، وتحريضاً لهم على الجهاد والإقدام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والمعنى: لا يكن قولكم معه كقولكم مع آحاد الناس ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ

= وسلم، فلبس كفنه وأقدم يقاتل حتى قتل شهيداً، رضي الله عنه وعنا به. انظر (الدر المنثور) (٦/ ٨٥) ففيه أخبار عجيبة عنه رضي الله عنه.

(١) كان العباس رضي الله عنه جهوري الصوت؛ حتى إنه لما كان في الجاهلية وغارت عليهم مرة بعض القبائل نادى في أهل مكة يا صباحاه؛ مستنفراً قومه فدوت مكة كلها حتى إنه بعض الحوامل من النساء وضعن حملهن من شدة الصوت.
وكان إذا صاح في الغنم قعدت.
وقيل لابنه عبد الله رضي الله عنهما: ما بال أغنامه لا تقعد إذا صاح فيها؟ فقال: لأنها تعودت صوته.

بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾[1] [النور: ٦٣] بل يجب أن يكون كلامكم ومقالكم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الاحترام والتعظيم، وهذا يقتضي منكم أن لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً، بل يجب أن يكون ذلك بصُفات التكريم والتعظيم، كقولكم: يا رسول الله، يا نبي الله، كما ينبغي أن يكون بلفظ السيادة: يا سيدي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما كيفية كلامكم معه صلى الله عليه وآله وسلم؛ فيجب أن يكون بصوت منخفض عن صوته صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم، لأنكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوته صلى الله عليه وآله وسلم؛ أو جهرتم له بالقول كما يجهر بعضكم لبعض؛ فإن ذلك سيحبط أعمالكم وطاعاتكم من صلاة وزكاة وحج، ولكي تحافظوا على ثواب أعمالكم وعباداتكم؛ فالزموا جانب الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أمركم الله تعالى.

وهذه الآية تدل على أن الذنب إذا عَظُمَ فإنه يُحبط بعض الأعمال، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[2] أي: عمله في ذلك اليوم.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فإن الصدقة يَحْبُط ثوابها إذا مَنَّ صاحبها على مَنْ تَصَدَّق عليه.

---

(١) أي: لئلا تحبط أعمالكم.

(٢) الحديث رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب في ترك العصر /٥٥٣/ (٢/٣١).

وأما الشرك فإنه يُحبط العمل كله كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥].

وَمِنْ هنا يفهم العاقل أنّ إساءة الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أعظم الجرائم، حتى إنه سبحانه يُحبط أعمال من أساء الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

ثم حَرَّض سبحانه على التزام الأدب بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي مجلسه، وذلك بخفض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: ولو كان كلام الصحابة مع بعضهم بعضاً يجب أن يكون بصوت منخفض ـ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ احتراماً وتعظيماً لجنابه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ لأن عنديته صلى الله عليه وآله وسلم لها أسرارها وأنوارها، فينبغي مراعاة آدابها وأحكامها.

وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم، وعاينوا أسرار هذه العندية وأنوارها، فقال بعضهم[1]: (نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا عن الجنة والنار كأنا رأي عين) لأن مجلسه صلى الله عليه وآله وسلم مجلس شهود، تنجلي فيه القلوب، وتصفو فيه السرائر، فيظهر للجالسين من الأسرار

---

(١) هو سيدنا حنظلة الأسيِّدي رضي الله عنه، والخبر في صحيح مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر / ٢٧٥٠/ (٥/ ٢٦٣١).

والمعارف ما لا يظهر لهم خارج مجلسه صلى الله عليه وآله وسلم، وما ذلك إلا بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن شأن النور أن يُظهر خفايا الأمور، ولا ريب في هذا، فقد وصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالنور والسراج المنير:

فقال عزَّ وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقد أشار إلى هذا صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر: لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم»[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ[2] أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) كما في (صحيح) الإمام مسلم / ٢٧٥٠/ (٥/ ٢٦٣٢).

(٢) وهي حجرات نسائه التسع رضي الله عنهن، إذ كان عدد الحجرات تسعاً، ولكل منهن حجرة تحتجر فيها، وقد كانت هذه الحجرات من عسيب النخل، كانت سقوف بعضها من المسوخ ـ الجلود ـ.
وقال الحسن البصري رضي الله عنه: كنت أدخل الحجرات على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فأمد يدي فتصل إلى السقف.
وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: فلما أرادوا أن يضموها إلى المسجد ورفعوها حزنت، ووددت أنهم لو تركوها كما كانت، حتى يأتي المسلمون فيما بعد ويروا ويعرفوا كيف كان عيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أي: في زهده وتواضعه صلى الله عليه وآله وسلم، مع أن الجبال راودته أن تكون له ذهباً فأبى. وقد أوتي مفاتيح خزائن الأرض.

﴿يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

وكان سبب نزول هذه الآية، أنَّ قوماً من الأعراب، وعلى رأسهم الأقرع بن حابس، وفَدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسألوا عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل لهم: إنه في أحد حجرات نسائه صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل الأقرع بن حابس ينادي من وراء جدران الحجرات: يا محمَّد أُخرج إلينا. فلم يُجبه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم نادى الأقرع: يا محمَّد أُخرج إلينا فإنّ حمدنا زين وذمنا شين(١). فنزلت الآيات وفيها عتابهم وتوبيخهم، وفيها تعليم الأدب مع جناب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أن الآداب الشرعية جاءت وفق العقل الصحيح، وَمَنْ خالف شيئاً منها أو استحسن غيرها فقد سلك ضرباً من الجنون؛ ودخل تحت قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

وبعد أن وبخهم سبحانه وتعالى وعاتبهم على إساءة أدبهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتح لهم باب التوبة والاعتذار إنْ هم تابوا من فعلهم هذا فقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثم بيَّن سبحانه جملة من آداب المؤمنين مع بعضهم بعضاً، وبيَّن

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/٤٨٨) وانظر (الدر المنثور) (٦/٨٦).

سبحانه ما يترتب على ذلك من أحكام وآثار، فأمر سبحانه المؤمنين بالتثبت والتحقق في نقل الأخبار، لئلا تقع بينهم المفاسد والفتن فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾(1) [الحجرات: ٦].

---

(١) كان سبب نزول هذه الآية كما في (الدر المنثور) معزواً إلى الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده وابن مردويه بالسند الجيد. أن رجلاً يقال له الحارث ابن ضرار الخزاعي، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأسلم على يديه، وحسن إسلامه، وأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة والزكاة. ثم استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرجع إلى قومه ويبلغهم الإسلام، وقال: (يا رسول الله أذهب إلى أهلي فأدعوهم إلى الإسلام، ثم ترسل إليَّ رسولاً من قبلك يبّان كذا ـ في موعد معين ـ حتى يأخذ الزكاة التي سأجمعها من قومي).
ومضى الرجل إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه، ثم جمع منهم الزكاة.
ولما حضر الموعد الذي حدده مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل ينتظر رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أرسل إليه الوليد بن عقبة بن أبي نعيم، وبينما كان الوليد في طريقه إليهم وقع في نفسه الخوف منهم ـ لأمور كانت بينهم قبل الإسلام ـ في حين أن الحارث استأخر وصول الرجل في الموعد المعين، فخرج مع سادات قومه، يريدون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غضب عليهم، أو أن أمراً قد حصل، وقال لقومه: (إن الرسول لا يُخلف وعده، فأنا أخشى أن أكون قد سخط عليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك خرج مع سادات قومه ومعهم أموال الزكاة، قاصدين المدينة، وهنا لما رآهم الوليد كذلك ظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا رسول الله إني أتيتهم فخرجوا يقتلوني ـ يريدون قتلي ـ.
فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض الصحابة أن يقفوا مترصدين للحارث؛ فلما أقبل الحارث وجماعته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التقوا بالبعث، فقال لهم الحارث: إلى مَنْ بُعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟، قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليك الوليد فزعم أنك منعته =

الفسق في اللغة: خروج الشيء من الشيء على وجه الفساد، ويقال عن هوام الأرض المؤذية فواسق لأنها تخرج من جحورها للأذى.

ويقال عن فلان: بأنه فَسَق وهو فاسق، إذا خرج عن الطاعة بارتكابه ذنباً، ثم جرى الاصطلاح على إطلاق الفاسق على مرتكب الكبائر.

وعلى هذا فإنَّ الوليد رضي الله عنه فسق بارتكابه ذنباً وليس بارتكاب الكبائر، وإنَّما كان ذنبه أنه ظن أنّ القوم خرجوا يريدون قتله لأمور كانت بينهم أيام الجاهلية، ولما تبين غير ذلك تاب إلى الله، وندم على فعله، لأن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول ثقات بشهادة الله تعالى لهم، وشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم(1).

وإن وقع من أحدهم ذنب فقد تاب منه وأناب إلى الله تعالى.

وفي هذه الآية تنبيه للإنسان أن لا يلتفت إلى الأخبار الواهية، وأن لا يأخذ بسوء الظنون.

ثم إنه سبحانه وتعالى لفت العقول إلى معرفة مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفضله، وأنه وإن كان بينهم لكنه صلى الله

الزكاة وأردت قتله؟! قال: لا والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق ما رأيته ولا رآني. وهنا ظهرت قضية الوليد الذي ظن أنهم يريدون قتله فنزل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦].

(1) انظر مقدمة (الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر، وانظر كتاب الشيخ الإمام (حول تفسير سورة الكوثر) العلامة السادسة الدالة على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!!

عليه وآله وسلم ليس كآحادهم أو ساداتهم بل رسول الله ، وشرف الرسول على شرف مرسله ، فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وهم يعرفون أنه رسول الله ، لكن المراد اعرفوا مقامه صلى الله عليه وآله وسلم وفضله ، وعلو شأنه ، ورفعته عليكم؛ حتى تتأدبوا معه كما علمكم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].

أي: عليكم بطاعته صلى الله عليه وآله وسلم، والعمل بأوامره، ولا تُمْلُوا إرادتكم وأهواءكم عليه ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أعلم بمصالحكم ومنافعكم ، ولو وافقكم على آرائكم لأصابكم العنت؛ وهو الحرج والمشقة ، ولرجع الأمر عليكم بالخسران.

وإنما قد تعرضون الآراء عليه ، وقد يُوافق عليها وقد لا يوافق حسب ما تقتضيه مصالحكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جعل الإيمان بأنواعه محبوباً عندكم ، وجعل أنواره منصبغة في قلوبكم قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ [البقرة: ١٣٨] فعلامة الإيمان أن يُحب المؤمن الأعمال الصالحة ، ويكره المعاصي والذنوب ، ومن كان كذلك فهو على هدى ورشاد من الله تعالى ، كما قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] وما هذا إلا بفضله ونعمته عليهم قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ عليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨] عليم بحال واستعداد كل إنسان ، فألهمه ذلك على مقتضى حكمته سبحانه ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ [النساء: ٣٢].

وهنا قد يقال: لِمَ نَهىٰ الله تعالى عن التقدم بأمر أو رأي أو قول بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!!.

فيقال: لأن ما جاء عن الله ورسوله ـ وهو الكتاب والسنة ـ بلغ الغاية والنهاية في بيان مصالح العباد ومنافعهم، والتحذير من مضارهم ومفاسدهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أقوم الأخلاق، وأقوم المعاملات، وأقوم النظم في سعادة الأبد.

وقد قال الله تعالى في مدح كتابه، ووصفه بأنه أتى على ذكر كل شيء: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] والتفريط في الشيء هو: التقصير فيه، فبيّن سبحانه أنه ما ترك شيئاً فيه مصلحة للإنسان إلا وبينه في كتابه، وما ترك شيئاً فيه مفسدة له إلا وحذر منها، كما أنه أتى بذكر جميع العلوم والمعارف، وأتى بذكر جميع العوالم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»(١).

وروى مسلم في (صحيحه)(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب احمر وجهه، وارتفع صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش ـ أي: كأنه يُخوف أصحابه من جيش سيغير عليهم ـ.

---

(١) تقديم تخريجه ص /٢٩١/.

(٢) في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة /٨٦٧/ (٢/٩٢٣).

ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة».

ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أولى بكل مؤمن ومؤمنة ـ أي: أحق بنفعهم وخيرهم ـ مَنْ ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ» من مات وعليه دين أو ترك عيالاً فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤدي دينَهُ ، ويتكفل عياله. ومن هنا يفهم العاقل حرص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مصالح العباد ، ومنافعهم الدنيوية والأخروية ، فلا حاجة لهم أن يأتوا بشيء أو رأي أو نظام؛ زعماً منهم أن في هذا مصلحة لهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي[١] في بطونكم وفروجكم ، ومضلات الهوى» الحديث[٢].

ومعنى مضلات الهوى: اتباع الأهواء الباطلة الموصلة إلى الضلال.

وجاء في (سنن) أبي داود[٣] ، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة: وجلت

---

(١) وهو الإفراط في تعاطي الشهوات مما يؤدي إلى ارتكاب الحرام. ومن شهوة البطون أكل الربا ، ومن شهوة الفرج الزنا.

(٢) رواه الإمام أحمد في (مسنده) (٤/٤٢٣) والطبراني في معاجمه الثلاثة والبزار ، انظر مجمع الزوائد (١/١٨٨) عن سيدنا أبي برزة رضي الله عنه.

(٣) في كتاب السنة ، باب لزوم السنة /٤٦٠٧/ (١٣/٥) والترمذي في (سننه) ، في كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ في السنة /٢٦٧٨/ (٣١٩/٧).

منها القلوب ، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مُوَدِّع فأوصنا.

فقال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة ـ أي لأميركم ـ وإنْ تأمر عليكم عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين مِنْ بعدي؛ عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنّ كل بدعة ضلالة».

فحذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مُحدثات الأمور ، وهي: أنْ يُحدث المرء في دينه أمراً ليس منه؛ كعمل أو رأي أو حكم؛ وذلك ليماشي أهل الزمان على أفعالهم.

وفي هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تكونوا إمَّعة ، تقولون: إن أحسن الناس أحْسَنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطِّنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[(١)] وهذا يكون باتباعكم لشرع الله وليس لأهواء الناس.

تنبيه:

لا تطلق البدعة في الشرع إلاَّ على الأمور المحدثة الضالة ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وكل بدعة ضلالة» والبدعة: ابتداع أمر ليس له أصل من الدين[(٢)] ، وفي هذا يقول عليه الصلاة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الإحسان والعفو /٢٠٠٨/ (٦/ ٢١٥).

(٢) والبدعة من الابتداع كالرفعة من الارتفاع ، والإبداع: خلق الشي لا عن مثال كقولك: أبدع الله الخلق ، وأبدعت الشيء وابتدعته إذا أحدثته ، وفلان بدعٌ في هذا الأمر أي: هو أول من فعله ، فيكون اسم فاعل بمعنى مبتدع ، ومنه قوله =

والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[1] أي: مردود.

وهذا هو معنى البدعة: «ما ليس منه» ولم يقل: من أحدث في أمرنا هذا أمراً فهو رد.

فقوله: «ما ليس منه» أي: ليس له أصل من الدين، أما ما كان له أصل من الدين يرجع إليه فهو من الدين، وليس من البدعة في شيء. ومن هذا: ما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه مِنْ جمع الناس على صلاة التراويح في المساجد.

وما سَنَّهُ سيدنا عثمان رضي الله عنه من الأذان الأول لصلاة الجمعة، إذ إن الأذان لصلاة الجمعة كان فور صعود الإمام المنبر، وفور دخول وقت الظهر، وإنما سنَّ سيدنا عثمان رضي الله عنه الأذان الأول قبل دخول وقت الصلاة، حتى يُسرع الناس إلى المسجد، استعداداً للصلاة فور دخول وقتها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

* * *

= تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: ما أنا أول من جاء بالوحي والرسالة من عند الله، بل أرسل الله قبلي رسلاً مبشرين ومنذرين، وأما قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أبدعهما لا عن مثال سابق؛ وفيه معنى التعجب.

(1) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور /٢٦٩٧/ (٥/٣٠١) ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور /١٧١٨/ (٤/١٧٩٨) وأبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، /٤٦٠٦/ (٥/١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

جملة محاضرات حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في هدي العالم مراتبه - مقاصده - أنواعه

لقد أرسل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم ، وله معهم مواقف متعددة ، تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة ، ومن هذه المواقف يعلم العاقل وجوه الحاجة إلى بِعثَةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن جملة هذه المواقف ، أنه جاء إلى العالم هادياً لهم. فهو هادٍ لكل أمة ، وهو إمام الأئمة صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ _ ٥٣].

وإنّ هذا الموقف المحمدي مع العالم ، يتطلب من الإنسان أن يهتدي بهديه صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن الله تعالى لما جمعَ ذُريةِ آدم عليه السلام في عالم الذَّر ، وأخذ منهم العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

فقد استخرج الله ذُرية آدم من ظهر آدم عليه السلام أمْثال الذَّر ، ولبَّسهم الأرواح ، واستنطقهم ، وأخذ منهم العهد والميثاق ، وقال: اعلموا أنه لا إلٓه غيري ، ولا ربَّ سواي ، وسأرسل إليكم رسلاً يُذكرونكم بهذا الميثاق والعهد ، وأُنزل عليكم كتباً.

وقال لهم كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره[1]: «فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، وأُشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا: إنَّا كنَّا عن هذا غافلين».

وقد شهدوا كلهم أن لا إلَه إلا الله، وأعطوا العهد والميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم أخذ سبحانه عليهم العهد والميثاق أنه سيرسل فيهم رسلاً يُذكرونهم ذاك العهد والميثاق الأول، فمن وفَّىٰ بالميثاق الآخر؛ واتبع الرسل عليهم السلام: نفعه الميثاق الأول، ومن نقض وكفر بعد إيمانه بالميثاق الأول: لم ينفعه الميثاق الأول ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

واعلم أنه سبحانه لما أهبط آدم وحواء إلى عالم الأرض خاطبهم وذريتهم ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

فلما أهبط الله سبحانه البشرية إلى عالم الأرض، تعهدهم بالهدي لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم.

ولقد جاءت الرسل صلوات الله عليهم بالحُجج والأدلة والبراهين على أن الله حق، وأنه لا إلَه إلا الله، وأن دينه حق، وأن الآخرة حق وهكذا.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٢/ ١٤٣) إلى عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، وغيرهم.

ولهذا قال سبحانه عن الكفار لَما أنكروا الرسالات الإلٰهية: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] أي: هؤلاء الرسل بشر مثلنا فكيف يهدوننا؟! وزعموا أن الملائكة يجب أن تنزل عليهم وتهديهم، لكن الله تعالى ردَّ عليهم ـ ومن جملتهم بعض كفار قريش ـ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الهدي المحمدي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] أي: بل يجب أن يكون مَلَكاً على زعمهم، لكن الله تعالى ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول البشري مَلَكاً ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

والمعنى: لو أرسلنا إلى البشر من جنس الملائكة فلا يرونهم، لأن الملائكة لا تُرى للطافتهم إلا إذا تمثَّل المَلَك، وإذا تمثل بصورة رجل لقالوا: هذا رجل مثلنا، ولا يصدقون أنه ملك، ولعاد عليهم إشكالهم، ولو بقي مَلَكاً لَمَا رأوه ولَمَا سمعوه، فما هي الفائدة منه عندئذٍ؟!!.

واعلم أن الملائكة تحيط بالإنسان ولا يراها، كالكرام الكاتبين والحفظة وغيرهم، وهو لا يراهم إلا إذا تَمَثَّلوا.

وعلى هذا فإن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول إلى البشر بشراً، لكن مستواه فوق مستوى البشر، وذلك حتى تراه الناس ويسمعون كلامه، ويقتدون بأفعاله، ويهتدون بهديه، فَيُصَلُّون كما صلّىٰ، ويحجون كما حج، ويصومون كما صام، ويسيرون على سيرته وعاداته، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ـ٩٥] أي: يجب أن يكون الرسول إلى الملائكة ملكاً، والرسول إلى البشر بشراً، لكن مستواه فوق عادات البشر المألوفة، بل خصَّصه الله تعالى بالخصائص العالية والمناقب السامية.

والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الهدي النازل من عند الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] أي: هدىً يُنزله الله على رسله.

وإنَّ الهدى هو ضد الضلال، وإنَّ الذي ضلَّ في طريقه يحتاج إلى هاد يمشي أمامه، فيمشي عندئذٍ على بيِّنَةٍ ونور.

فلقد جاءت رسل الله بهدي من عند الله تعالى، يُعرِّفون الإنسان ما يجب عليه وما يجب له؛ من حقوق وواجبات تجاه الله وتجاه عباد الله تعالى، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم، كما روى أحمد والترمذي(١): «إن الله تعالى خلق الخلق في ظُلمة ـ أي: في ظلمة الدنيا والهوى ـ ثم ألقى عليه من نوره ـ أي: ببعثته الرسل وإنزال الهدى عليهم ـ فمن أصابه من ذلك النور ـ بأن تعرض له واستجاب لدعوة الرسل، وعمل بهديهم ـ اهتدى إلى الله، ومن أخطأه ضل» بأن أعرض وتعامى عن رسالة الرسل وهديهم.

---

(١) المسند (٢/١٩٧)، السنن، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٧/٢٩٧).

وإن أعظم الرسل نوراً ، وأجمعهم هدياً ، الذي جمع الله تعالى له هدي الأنبياء كلهم ، وزاده بالهدي المحمدي ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ كان كل رسول يأتي بهدي خاص لقومه ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء هادياً لجميع الأمم والأقوام ، على مختلف طبقاتهم إلى يوم الدين ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: أنت هادٍ يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكل قوم.

أما هدي الله تعالى النازل على رسل الله فهو هدي البيان مع البرهان ، وهو بيان ما فيه صلاح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وبيان ما يوصلهم إلى الله تعالى ، وهذا الهدي هو حجة الله على خلقه ، فمتى أرسل سبحانه رسولاً إلى قوم قامت الحجة عليهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ الآية [النساء: ١٦٥] فمن كفر بعد ذلك فلا عُذر ولا حجة له عند الله تعالى ، لأن الحجة قامت عليه من الله تعالى ، قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] ، وهذا من عدل الله وحكمته أنه لا يعذب كافراً في جهنم حتى يقيم عليه الحجة ، ببعثة الرسل ، والهدي النازل عليهم ، ومن بلغته الدعوة قامت عليه الحجة ؛ وما له عذر عند الله تعالى.

وأما أهل الفترات ـ وهي: قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأهل الشّواهق والأماكن المنقطعة الذين ما بلغتهم دعوة رسلهم ، فهؤلاء ناجون لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

لكنَّ الله سبحانه أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

للعالمين كلهم ، وعمَّت دعوته المشارق والمغارب ، وتذاع رسالته وهو القرآن العظيم ، تراه يذاع ويشاع في المشارق والمغارب ، وهذا حجة الله تعالى على خلقه ، لأنَّ الله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿قُلْ﴾ أي : يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي : أكبر شاهد يشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي : وقل لهم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي : لأنذركم به يا معشر من كان في زمني ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] أي : وأنذر به من بلغه هذا القرآن ممن يأتون بعده صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين .

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم : «من بلغه القرآن فكأنما شافهته»(١) أي : كأني رأيته وبلَّغته القرآن الكريم .

وقد بيَّن الله تعالى أنه لا يُعذب الكفار ظلماً بل بحق : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ ما جاءت به الرسل ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ نتعقل ما جاءت به الرسل ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ٨ ـ ١١] .

وقال تعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن مردويه ، وأبي نعيم ، والخطيب ، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

﴿رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

فاعترف الكفار أنّ الرسل جاءت بالهدي والبيان، والحجة والبرهان؛ ولكنهم أعرضوا وكفروا، ولذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لأنهم كفروا بعد علم وبيان وتبيان.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يوماً أي: زمناً كبيراً ولو يوماً من أيام الدنيا. فقال لهم الخزنة وهم القائمون على تعذيب الكفار في جهنم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ﴾ أي: ادعوا أنتم لأنفسكم، أما نحن الملائكة فلا ندعو إلا لمن أمرنا الله أن ندعو له ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

وروى الترمذي وغيره(١)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُلقى على أهل النار الجوع، حتى إنه يعدل ما بهم من العذاب ـ أي: إنَّ شدة الجوع تعادل ما بهم من عذاب النار ـ فيستغيثون، فيقدم لهم طعام من ضريع: لا يُسمن ولا يغني من جوع، فيأكلون فلا يشبعون، فيستغيثون، فيقدم لهم طعام ذو غُصة، فتعتريهم الغُصة، فيتذكرون أنهم لما كانوا في الدنيا إذا اعترتهم الغُصة يشربون الماء فتزول، فيستغيثون بالماء، فيُقدم لهم الماء الحميم الحار، فلما يشربون يُصْهر به

---

(١) السنن كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٩) (٧/ ٢٥٥)، والبيهقي في (البعث والنشور) (٦٠٠).

ما في بطونهم والجلود ـ أي: تُصهر جلودهم لما يقرب إليهم ، وتصهر به أمعاؤهم لما يشربون ـ ثم ينادون في خزنة جهنم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآية ، فبعد ألف سنة تجيبهم خزنة جهنم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أي: بالبراهين، والأدلة العقلية ، والمعجزات الحسية المشهودة ، الدالة على صدق الرسل وصدق ما جاؤوا به ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ [غافر: ٤٩] فلما يئسوا من دعاء الخزنة قالوا لبعضهم: ندعوا ربنا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾» وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: جاءهم الجواب من الحق بعدما انقضى عُمُر الدنيا مرتين: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ الآيات [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧]. ولما يئسوا راحوا يدعون بالويل والثبور والهلاك.

واعلم أنّ الله تعالى رَبٌّ حكمٌ عدلٌ رحيمٌ ، لا يظلم أحداً ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] وَمَن مات صغيراً فهو على العهد الأول ممن شهد ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [الإسراء: ١٧٢] وهذا حكم أهل الشواهق.

واعلم أن الله تعالى جَمَع لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جَمِيع مراتب الهدي الذي جاءت به الرسل قبله ، وزاد عليه بالهدي المحمدي الخاص به صلى الله عليه وآله وسلم ، فما عندهم هو عنده ، وأما ما هو عنده فليس عندهم ، يدل على هذا ما قال سبحانه بعدما ذكر جملة من الرسل صلوات الله عليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: كل نبي أنزل الله عليه هدياً خاصاً به ولقومه ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩] ولم يقل بهم اقتده ،

ولـم يأمـر الله تعالى رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلـم أن يقتدي بأحد من الرسل قبله ، بل أمره بقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: وهديهم هو من عند الله ، أي: بهداهم كلهم النازل عليهم من الله ، وأنزل عليك هدياً محمدياً فاعمل بهذا الهـدي الجامع ، الذي نَزَّله الله عليك ، وانطوى فيه هدي جميع الرسل صلوات الله عليهم ، ولهذا اقتضت الحكمة الإلٓهية أن تكون رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامـة لجميع البشريـة ، وباقية إلى يوم الدين ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الهدي العام إلى جميع الأنام.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ما هو هذا الصراط المستقيم؟ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] أي: طريق الله. أي: فمن أراد الوصول إلى الله سلك طريق الله ، أي: صراطه الذي مَنْ مشى عليه وصل إلى الله ، وهو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء يهدي الناس إليه ، وإن الهادي للقوم يمشي أمامهم ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم الهادي إلى الصراط المستقيم ، وهو الإمام الذي يمشي وراءه كل من اتبعه على هذا الصراط المستقيم ، حتى إنه لما يتمثل هذا الصراط المستقيم صراطاً موصلاً إلى الجنة في الآخرة ، فإنَّ أول من يمشي عليه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم «فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته»[(١)].

---

(١) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الصلاة ، باب فضل السجود /٨٠٦/ (٢/٢٩٢) ومسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية / ١٨٢/ (١/٣٥٢).

فمن أراد أن يصل إلى الله تعالى كما أمره الله تعالى؛ فعليه أن يتبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. ولا يصح السلوك على الصراط المستقيم إلا بالتمسك بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: في الأعمال والأقوال والأخلاق والآداب.

وروى الترمذي وأحمد[1] وغيرهما، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا في معنى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: «إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوقه، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

فالأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله، لا يقع أحد في حدود الله حتى يَكشف ستر الله، والذي يدعو من فوقه واعظ الله عز وجل».

فأما الصراط فهو الإسلام، وأما الداعي على رأس الصراط فهو كتاب الله تعالى ـ أي: وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحامل للقرآن ـ فهو ينادي: أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تعوجوا ـ أي: إلى المحرمات ـ وإلا فيصعب وصولكم، كمن مشى على طريق وهو فيه يتشعب كل حين فأنى له الوصول؟!!!

ولقد بين صلى الله عليه وآله وسلم أنّ من سلك صراطه

---

(١) (المسند) (٤/ ١٨٣) واللفظ له، و(السنن) كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الله لعباده / ٢٨٦٣/ (٨/ ٧١).

المستقيم فقد نال سعادة الدنيا والآخرة ، فقد روى أحمد[1] وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى فيما رأى النائم ـ أي: حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رأى ، وإن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حكم اليقظة ـ قال: «أتاه ملكان ـ وهما جبريل وميكائيل ـ فقام أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه. فقال أحدهما للآخر: ما مَثَلُ هذا النبي في أمته؟ فقال الآخر: مثله كمثل قوم سَفْر ، انتهوا إلى رأس مفازة ـ صحراء ـ فنفذ طعامهم وشرابهم ، فما يستطيعون المضي ولا الرجوع ، فبينما هم كذلك ـ في حالة حَيْرة وهلاك ـ خرج عليهم رجل من بطن الوادي ، عليه حلة حَبِرَة ـ رجل جليل القدر ـ فقال لهم: أرأيتم إن أخبرتكم أنّ هَهنا رياضاً مُعشبة ، وحياضاً رواء ، أتتبعونني؟ قالوا: نعم.

فمشى أمامهم واتبعوه ، فأوصلهم إلى حدائق وبساتين وأنهار ، فتركهم حتى أكلوا وشربوا وسمنوا ، ثم قال لهم: يا قوم ألم أُلفِكُم على الحال التي كنتم عليها ، ألم أصدقكم فيما قلتُ لكم؟ قالوا: صدقت. قال: فإن وراء هذه الحياض حياضاً أروى منها ، ورياضاً أعشب منها ، فاتبعوني إذاً على ذلك. فقال قسم: نتبعك لأنك صدقتنا ، وقال قسم: بل نقيم هَهنا».

وهذا مثال لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مصالح الدنيا ومصالح الآخرة ، وسعادة الدنيا والآخرة. فأهل الإيمان أخذوا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من سعادة

---

(١) (المسند) (١/ ٢٦٧).

الدنيا والآخرة ، وهناك من أخذ بأمور الدنيا وترك الآخرة.

واعلم أنّ هذا الصراط المحمدي إنما هو صراط مستقيم ، فهو مستقيم في عقيدته الإيمانية المشار إليها بقوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١ ـ ٢] وهذا هو صراط العقيدة الإيمانية، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: أي: إنه سبحانه لا شَبيه له ولا مثيل ، فالعقيدة الإيمانية مُنزهة عن التمثل والتعطيل ، ولما طلب الكفار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: صف لنا ربك؟ نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يكن أحد كفواً أو نظيراً أو شبيهاً له. فهو أحد لا شبيه ولا نظير له ، ولا أحد قبله ، وإذا كان الواحد العددي لا أحد قبله في الرتبة سابق عليه ؛ فكيف بالواحد الحقيقي؟!.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ أي: المصمود إليه ، وهو المقصود في الحاجات، والعالَمُ كله صامد أي: قاصد محتاج إلى ربه في أمورهم كلها: الدنيوية والجسمانية، والسماوية والأرضية والفلكية وهكذا. . .

واعلم أنه أول ما يُسأل عنه الميت في قبره: «ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟ فأما العبد المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، جاءنا بالبينات

والهدى فأجبنا واتبعنا ، هو محمد ، هو محمد ، هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[1] .

فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبينات المنوِّرة للعقل ، وجاء بالهدي ، وعلى هذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: مستقيم في عقيدته وسيرته وأخلاقه ، وعاداته وأحكامه. فمن مشى وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشى على الصراط المستقيم ، وانتهى إلى رب العالمين. وهذا هو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه ، أي: حَقِّقنا به إيماناً وعملاً ، وقولاً وخُلُقاً ، وأدباً وحالاً .

واعلم أن للهدي مراتبَ قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦] ولذلك أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهكذا. أي: زدنا هدىً فوق هدى ، ويشمل هذا التثبيت على ما أنت عليه من الهدى ، ودوام زيادته.

* * *

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب الميت يسمع خفق النعال /١٣٣٨/ (٣/٢٠٥) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه /٢٨٧٠/ (٥/٢٧٢٤).

حول هدي النبي ﷺ للعالمين

وهذا يتطلب البحث في:

- أنواع الهدي الإلّهي للعالم.
- أنواع الهداية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم.
- مراتب الهداية.
- وجوه هديه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأسلوبه وطريقته في ذلك صلى الله عليه واله وسلم.

أنواع الهدي الإلّهي للعالمين

اعلم أن الله تعالى هدى جميع الخلق إلى ما فيه بقاء حياتهم وصلاح وجودهم ، ويشمل هذا الهدي الإنسان والحيوان ، وجميع المخلوقات من الجن والملائكة وغيرهم. وهذا هو الهدي الذي أقامه الله تعالى حجة على وجوده ووحدانيته سبحانه ، ولقد أعطى ذلك البرهان والحجة لموسى عليه السلام لما أرسله إلى فرعون فسأله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠].

والمعنى: ربنا هو الذي أعطى كل شيء مخلوق كمال شكله

الصوري ، ثم هداه إلى ما فيه مصلحة وجوده وبقاءِ نوعه ونسله.

وراح فرعون يفكر في هذا الجواب أصحيح واقعي أم لا؟ فرأى أن الإنسان مثلاً خلقه الله تعالى في أكمل صورة ، وأكمل اعتدال ، وأحسن قوام ، ولا شيء يعيبه أو ينقصه في خَلْقه ، ولا يحتاج إلى شيء يزيد عليه في صورة خَلْقه. ثم نظر في البهائم والطيور وسائر الحيوانات فرأى أَنَّ كل نوع قد أخذ حد كماله في خَلْقه ، ثم رأى أن كل مخلوق قد هُدِيَ إلى البحث عن غذائه وشرابه ، وما فيه بقاء حياته وتناسله ، فترى أن النملة مع صغر حجمها تبحث عن غذائها ، وعندها علم في تقنين غذائها والاحتفاظ بمؤنتها السنوية، بعيداً عن رطوبات الأرض وماء المطر لئلا يَفْسُد غذاؤها ، كما أنها تقسم الحبة نصفين حتى لا تنبت إن أصابها ماء المطر ، وإن أصابها شيء من الرطوبة أخرجتها في يوم مشمس وعرضتها للشمس والهواء ، ثم أعادتها وهكذا ، فقد هدى الله النملة إلى ما فيه مصلحة وجودها وبقاء حياتها ، وهدى سائر المخلوقات كذلك.

كما أن للنملة نظاماً في معيشتها وقيادتها وقعودها كما أخبر سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فقد خافت على النمل أن تُحطمهم أقدام جنود سليمان عليه السلام ، ولهم العذر في ذلك لأن الجيش كبير ، وهم يمشون وينظرون أمامهم ولا يشعرون بما تصيبه أقدامهم ، فالتمست العذر لهم إن هم فعلوا ذلك ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٩].

وَتَدَبَّرْ وتأمل أيضاً في النحلة ونظامها ، وصنعها للعسل ، وبناء بيوتها على أشكال معينة ، وهكذا هداها الله تعالى إلى جميع ذلك

كما هدى سائر الخلائق ، وهذا شأن الرب الحكيم أن يخلق الخلق ويهديه لما فيه مصلحة وجوده وبقائه ، وهذا هو الهدي العام الذي أشار إليه أيضاً سبحانه بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: خلق كل شيء ، وسوّى خلقه وكمّله ، وهدى ذلك الشيء لما فيه بقاؤه ووجوده ونسْله.

وهناك **هَدْيٌ للمكلفين** ، وهو هَدْيُ البيان مع الدليل والبرهان ، وبه تقوم حجة الله تعالى على العقلاء والمكلفين ، وهذا الهدي فيه سعادة العالم في الدنيا والآخرة ، وفيه يقول سبحانه منذ أهبط البشرية إلى عالم الأرض: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ آدم وذريته ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ تعاليم وإرشادات من الله تعالى ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وفي سورة طه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: تذكيري وهديي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: معيشة ضيقة بائسة في الدنيا ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ الآية [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وقد تكفل سبحانه لعباده أن يبين لهم ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

ولقد أنزل الله تعالى هذا الهدي على رسله ، وأمر الرسل أن يهدوا الناس ويبينوا لهم ، وبذلك قامت الحجة عليهم ، حتى إذا جاؤوا يوم القيامة فلا يُعذب سبحانه الكافرين إلا بحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [النساء: ١٦٥] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: يبين لهم البيان التام مع البرهان.

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بيّنا لهم طريق الحق من طريق الضلال، وطريق السعادة من طريق الشقاء، على لسان رسولهم صالح عليه السلام، إلا أنهم أعرضوا وكفروا وتعاموا، واستحبوا العمى على الهدى، فَطُبع على قلوبهم بسبب كفرهم وإعراضهم. كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ مالوا عن سماع الحق وقبوله ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الآية [الصف: ٥]. وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا﴾ أي: لما ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وهذا من عادته سبحانه أن يرسل الرسل، ويلقنهم الحجة والبرهان، والأدلة القاطعة، ومنها آيات تكوينية، ومنها براهين تدوينية، وهي الآيات النازلة على الرسل، حتى أشهدوهم الحق عياناً وقلوباً، فَمَنْ كان من أهل الإنصاف آمن لأن الحق ظهر له، ومن كان من أهل العناد أعرض، فَذُكِّر فأعرض وذكر فأعرض وعاند، فضرب الله الكفر على قلبه: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥] أي: بسبب كفرهم. لأن من عادة رب العالمين أنّ من جحد نعمته سلبه إياها، فهؤلاء ظهر لهم الحق وعاينوه وشهدوه لكنهم جحدوا، وهذه نعمة ردّها وأصر على ردّها فسلبه الله إياها، وضرب الكفر على قلبه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

واعلم أن أعظم هاد جاء للعالم، وأهدى هادٍ جاء للعالمين

كلهم ، الذي جمع الله له جميع أنواع هَدْي مَنْ قبله وزاده هدياً فوق هَدْي مَنْ قبله ، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال تعالى له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: هاد لكل قوم.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهُدَاهم مِنَ الله منزل عليهم ، وجمع له هدي مَنْ قبله وزاده هدياً مُحمدياً فوق هديهم صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك كان حقاً عليهم إن أدركوه أن يتبعوه ، وأخذ عليهم سبحانه العهد على ذلك: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

فأمر الله تعالى جميع الأنبياء والرسل أن يؤمنوا برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يعينوه وينصروه ، وأممهم كذلك إن هم أدركوه ، ولذلك صلَّى بهم إماماً ليلة الإسراء والمعراج ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر»(١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»(٢) وقال: «لو كان موسى حياً لما وسِعه إلا أن يتبعني»(٢).

---

(١) رواه الترمذي في (سننه) كتاب المناقب /٣٦١٧/ (٩/ ٢٣٨).

(٢) تقدم تخريجه ص /٢٩٩/ .

ولما ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام آخر الزمن ينزل حَكَماً مُقسطاً ، يعمل بشرع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو ظهر جميع الرسل لما وسعهم إلا أن يتبعوا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه صاحب الهدي العام لجميع الأنام ، وعنده ما ليس عندهم صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن قضايا الإيمان ليست تسليمية؛ بأن تتقبلها عن إغماضٍ دون تفكر وتدبر ، وليست قضايا الإيمان قضايا عاطفية ، كما لو ألحَّ عليك إنسان ورجاك أن تتقبل أمراً فقبلته عطفاً منك؛ وإنما قضايا الإيمان التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي قضايا إيمانية عقلية قطعية ، لها أدلتها وبراهينها ، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٤] وذلك حتى يكون المؤمن على يقين وبينة مما جاءه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا ما ستُبْصر بيانه في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى في هدي البيان: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣].

أمشاج يعني: أخلاط فيها القوى المتشاكسة المُتنافرة ، والبهيمية الحيوانية، والعلوية الملكوتية، وذلك حتى نَخْتَبِرَه ونكلفه. فلقد أعطيناه عقلاً ، وجعلنا لعقله أبواباً كالسمع والبصر ، ثم كلفناه واختبرناه بالتكاليف الشرعية ، ومَنْ وُلِدَ أصمَّاً أعمى فلا تكليف عليه. ونسأل الله العافية.

ثم أرسل سبحانه الرسل، وبينوا طريق الحق والسعادة، وطريق الضلال والشقاوة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ والنتيجة بعد ذلك: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ شكر نعمة الله عليه فآمن بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أعظم نعم الله على العالم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤] ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ كفر نعمة الله تعالى، وكفر برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠] أي: بيَّنا له طريق الحق من طريق الضلال؛ وذلك بواسطة الرسل، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبهذا الهدي قامت حجة الله تعالى على خلقه، ولا عذر للكافر عند ربه.

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع الأمور التي فيها مصالح البشر، وبيّن لهم ما يضرهم، حتى لما كان يوم حجة الوداع قام خطيباً وقال في آخر ما قال: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني ـ أي: سيسألكم ربكم عني: هل بلغتكم وهديتكم؟ ـ فما أنتم قائلون»؟.

فقالوا: نشهد يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنك قد بلَّغت وأديت ونصحت.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»(١).

---

(١) رواه الإمام مسلم، وهو من حديث سيدنا جابر رضي الله عنها الطويل في صفة =

ولما خطب في الأنصار بعد غزوة حنين قال: «يا معشر الأنصار أَلَمْ أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي»؟[1] قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. أي: المِنَّة والفضل لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم علينا.

وهكذا بلَّغ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسالة ربه على أكمل الوجوه، وهدى ونصح الناس، ولم يترك شيئاً إلا بيَّنه، وأمر الصحابة بالتبليغ فقال: «بلغوا عني ولو آية»[2] أي: بلغوا عني ما تسمعون من كلامي، فمن يحفظ فليبلغ ولو آية من كتاب الله تعالى، ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن يبلغ بعده بقوله: «نضَّر الله امرءاً ـ اللهم جَمِّل ونَضِّر وجه امرئٍ ـ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع»[3].

وذلك لأنَّ الهديَ كله مجموع في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم فضل هذا العلم الذي جاء به

= حجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه، في كتاب الحج /١٢١٨/ (٣/ ١٢٧٠).

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف / ٤٣٣٠/ (٨/ ٤٧) ومسلم كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام / ١٠٦١/ (٢/ ١٠٩٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/ ١٥٩ و٢٠٢ و٢١٤) والبخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل / ٣٤٦١/ (٦/ ٤٩٦) والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل / ٢٦٧١/ (٧/ ٣١٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٤٣٧) والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع / ٢٦٥٩/ (٧/ ٣٠٦) وابن حبان في (صحيحه) انظر (الإحسان) / ٦٦/ (١/ ١٤٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

صلى الله عليه وآله وسلم ، ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج يوماً إلى المسجد ، فإذا هناك مجلسان: قوم جلسوا يدعون الله تعالى ويسألونه ، وقوم جلسوا يتفقهون في الدين. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلٌّ على خير ، هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله تعالى ؛ فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ويُعَلِّمون ، وإنما بعثت معلماً» فجلس معهم. إشارة لقوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

واعلم أنَّ مِمَّا يُقربك إلى الله تعالى حضورك مجالس العلم ، فقد روى الطبراني مرفوعاً: «ما انْتَعَلَ عبد قط ولا تَخَفَّفَ ـ أي: لبس نعلاً أو خُفاً ـ ولا لبس ثوباً في طلب علم: إلا غفر الله له ذنوبه حيث يخطو عتبة بابه»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن الرجل ليخرج من بيته وعليه من الذنوب أمثال جبال تهامة ـ مكة وما حولها ـ فيجلس في مجلس علم فيسمع العلم؛ فيخاف من الله ويتوب ، فلا يرجع إلى منزله إلا ولا ذنب عليه).

النوع الثالث من أنواع الهدي الإلَهي: هَدْيُ التوفيق للإيمان ، ومراتب الإيمان ، ومقامات القرب إلى رب العالمين.

وقد ذكّر الله تعالى عباده بهذا الهدي حتى يشكروه على هذه النعمة بأن وفقهم للإيمان: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ

---

(١) في المقدمة باب فضل العلماء /٢٢٩/ (١/٨٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(٢) مجمع الزوائد (١/ ١٣٢) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. وهذا لما جاء جماعة من الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليؤمنوا على يديه، فسألوا عنه فلم يجدوه في المسجد، فذهبوا إلى حجراته صلى الله عليه وآله وسلم، وصاروا ينادونه بأصوات مرتفعة: اخرج إلينا يا محمد، جئناك من شقة بعيدة، وصاروا يَمْتَنُّوْنَ. فنزلت الآيات تؤدبهم وتعنفهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واجتمع بهم، صاروا يمنون عليه بأنهم جاؤوا من مكان بعيد ليسلموا؛ وهكذا فنزل قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم في قلوبكم فالمنة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليكم. فلما مَنُّوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ فقد امتنوا على الله تعالى، فجاء الجواب: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بل الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم يمن عليكم أن هداكم للإيمان.

وعلى المؤمن الذي آمن بقلبه أن يعتبر في هذه الآية، إذ إنها بشارة من الله تعالى إلى أنه موضع مِنَّةِ الله تعالى، بأنْ مَنَّ عليه مِنّةً كبرى عظيمة لا تعد ولا تحد، وهي نعمة الإيمان بالله تعالى، ولولا أن الإيمان نعمة كبرى وفضل عظيم لما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وبسبب الإيمان صار قلب المؤمن مرآة تنعكس فيه أنوار رب العالمين، ولولا أن نور الله أشرق في قلب

المؤمن لما آمن ، فليستبشر المؤمن بأن هذا الإيمان نور من الله انجلى في قلبه ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥] وهو نور الإيمان النازل من عند الله تعالى على قلب المؤمن ، فأشرق قلبه بنور الإيمان فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢] ولما قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية على الصحابة قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وما معنى ذلك؟.

قال: «نور يُقذف ـ أي: يقذفه الله ـ في القلب فينشرح وينفسح».

قالوا: وما أمارة ذلك؟ ـ أي: وما علامة ذلك النور ـ؟.

قال: «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»(١) وهذه حقيقة يتحقق بها من انفسح قلبه ، وانشرح لنور الإيمان الذي ألقاه الله تعالى في قلبه.

وإن قلب المؤمن صَدفٌ لمعرفة الله تعالى؛ أعظم من صدف الجواهر ، وصار آنية من آنية الحق ، تتنزل عليه المعارف والأسرار كما في الحديث: «إن لله آنية من أهل الأرض».

قالوا: وما آنية ربنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٥/ ٣٢٥) إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه.

قال: «آنية ربكم قلوب عباده الصالحين»[1] اللهم اجعلنا منهم.

وإنما تعد الآنية ليملأها الإنسان على استعدادها، فهناك آنية للحلاوة، وآنية للفواكه، وآنية للماء؛ وهكذا، ومن فعل غير ذلك فقد ناقض الحكمة.

إذا عرفت هذا، وإذا عرفت أن قلوب الصالحين هي آنية رب العالمين، فاعلم أن الله تعالى قد أعدها ليملأها بأسراره وأنواره سبحانه، فما عليك إلا أن تُفرغ قلبك عما سوى الله تعالى، وتنظف قلبك من الأغيار؛ حتى يملأها الله مما عنده من أسراره وأنواره ومعرفته سبحانه.

كما أن لله المِنَّة عليك أيها المؤمن، لأن الإيمان الذي في قلبك يجعلك مُحِبّاً ومحبوباً ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥] فما أشرف المؤمن وأكرمه على الله تعالى؟!!.

وإن قلب المؤمن موضع نظر الله تعالى: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وإن قلب المؤمن مهبط خشية الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [تبارك: ١٢].

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وقد غاب عن أبصارهم، ولكن

---

(١) عزاه في (الفتح الكبير) إلى الطبراني.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله / ٢٥٦٤/ (٥/ ٢٥١٤).

قلوبهم شاهدته فهم يخشونه ، أو أنهم يخشون الله بالغيب عن الناس في سرهم وخلواتهم كما يخشونه مع الناس أيضاً ؛ فهم يخشونه في السر والعلن ، وهذا شأن المؤمن.

ولقد نبه إلى هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، وثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات:

أما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السبرات ـ شدة البرد ـ والجلوس في المساجد بعد الصلوات ـ وفي رواية: «انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وعلى قدر جلوسك يكفر عنك من ذنوبك ـ ونقل الأقدام إلى الجماعات.

وأما الدرجات: فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة في الليل والناس نيام.

وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية.

وأما المهلكات: فهوى مُتَّبَع ، ودنيا مُؤْثرة ، وإعجاب المرء بنفسه»[(١)].

ولما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجلسون معه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويرون من الصفاء والنقاء والارتقاء

---

(١) رواه البزار والطبراني في (الأوسط) ببعضه ، (مجمع الزوائد) (١/ ٩١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، وانظر (الترغيب) (١/ ٣٦٢) لزاماً.

الروحي ما لا يرونه في بيوتهم ، خافوا على حالهم أن يكون هذا من النفاق.

فقد روى أهل الصحاح والرواية للبزار[1] ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نكون عندك على حال ، وإذا خرجنا من عندك صِرْنا على غير حال.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم وربكم» أي: في خلواتكم؟.

قالوا: ربنا الله في السر والعلانية ـ أي: نحن على مراقبة وخشية الله تعالى ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس ذلك النفاق» الحديث.

وإن المؤمن قد أكرمه الله تعالى بالإيمان حتى يُعده لدخول دار كرامته وضيافته ، وحظيرة قُدْسه ، وأن يَحِلَّ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وفي الصحاح (وسنن) الترمذي[2] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً ـ أي: من النار ودخولاً الجنة ، وهو أعصى أهل

---

(١) مجمع الزوائد (١/ ٣٤).

(٢) البخاري كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار / ٦٥٧١/ (١١/ ٤١٨) مسلم كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً / ١٨٦/ (١/ ٣٦٤) الترمذي كتاب صفة جهنم باب / ١٠/ ٢٥٩٨/ (٧/ ٢٦١).

الإيمان وأفسقهم ، وليس عنده إلا ذرة إيمان واحدة ـ رجل يخرج منها زحفاً ، فيقال له: انطلق فادخل الجنة. فيذهب ليدخل فيجد الناس قد أخذوا منازلهم ، فيرجع فيقول: يا رب قد أخذ الناس منازلهم !! فيقول الله تعالى: أتذكر الزمان الذي كنت فيه ـ أي: الدنيا التي كنت فيها ـ فيقول: نعم رب أذكر ، فيقول الله تعالى: تمنَّ فيتمنى ، فيقول الله: تمنَّ تمنَّ. حتى إذا انقضت به الأماني ، ذكَّره الله تعالى: تمنَّ كذا وكذا ، فيقول الله تعالى له: لك ذلك كله وعشرة أضعاف الدنيا. فيقول العبد: أتسخر بي وأنت الملك»؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه ـ أي: من قول هذا الرجل ـ.

فلقد أعطاه الله تعالى قدر الدنيا وعشر أمثالها مقابل هذه الذرة الإيمانية التي عنده؛ والتي أخرجته من النار من حد الكفر ، فما بالك بمن عنده ذرتين وأكثر ، وما بالك بمن إيمانه أمثال الجبال ، وما بالك بإيمان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟!!.

فافهم الإيمان ، وافهم قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧] وفي الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد[١]: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره ونعيمه مسيرة ألفي عام؛ يرى أقصاها كما يرى أدناها».

(١) (السنن) كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى /٢٥٥٦/ (٧/ ٢٣١) وكتاب التفسير ، ومن سورة القيامة /٣٣٢٧/ (٩/ ٩٧) ، (المسند) (٢/ ١٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلاهم منزلة؟.

قال: «من ينظر إلى وجه ربه غُدْوَةً وعشياً» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

* * *

أنواع الهدي الإلٰهي للعالم

أولاً: **الهدي العام لجميع المخلوقات** المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣].

وهو سبحانه خلق كل شيء وأعطاه صورة خلقه اللائقة به، ثم هدى هذا الشيء لما فيه مصلحة وجوده، واستمرار بقائه.

ثانياً: هَدْيُ البيان والدلالة لما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا الهدي قائم على الحجة والبرهان إلى ما يهديه إليه، وهو بواسطة الرسل عليهم السلام، وهم حجة الله على المكلفين، وإنّ الله تعالى قد أوجب هذا الهدي على نفسه وحتمه على نفسه فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢ ـ ١٣].

وإنَّ الهدي الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو أفضل الهدي وأجمعه كما تقدم بيانه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: هاد لكل قوم.

وهذا الهدي المحمدي قائم على الحجة والبرهان القاطع، وهي البينات العقلية؛ والبينات الحسية المشهودة، ولذلك كان

جواب المؤمن لَمَّا يُسأل في قبره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «نبيي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه» الحديث[١].

واعلم أن الهدي المحمدي وهو القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنما نشرها بين الصحابة رضوان الله عليهم؛ وأمرهم أن يبلغوها عنه، وقد بلغها الصحابة رضي الله عنهم، ونشروا القرآن وبلغوه، كما نشروا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبلغوه لِمَنْ بَعْدَهُم، وهكذا حتى وصل إلى جميع العالم، وبهذا قامت حجة الله على جميع العالمين المكلفين، وهذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء هادياً للعالمين كلهم.

وإنّ العلماء العاملين الذي نشروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبلَّغوا أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم إنّ لهم عند الله لأجراً كبيراً، ومن ذلك ما رواه الترمذي[٢]، أنه ذُكِرَ للنبي صلى الله عليه وسلم رجلان: عالم وعابد. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم فضل العالم الذي يبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض؛ حتى النملة في جُحرها وحتى الحوت؛ ليصلون على مُعلِّم الناس الخير».

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) بالسند الحسن عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، انظر مجمع الزوائد (٣/ ٥٢).

(٢) في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة /٢٦٨٦/ (٧/ ٣٢٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

وفي الحديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في جوف الماء ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] وهو هدي البيان والدلالة ، وهو حجة الله على المكلفين ، ولا عذر لهم يوم القيامة عند ربهم ، ولا حجة لهم على الله تعالى.

وإنّ جهل المؤمن في بعض أمور دينه لا يُعْذر عليه يوم القيامة ، طالما أنه كان في زمنه علماء ودعاة صادقون؛ بلّغوا ونشروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً: هدي التوفيق وهو أنه سبحانه وفَّق المؤمن للإيمان بربه ، بعد أن بيَّن له وأرشده إلى ما فيه صلاحه في الدنيا؛ وسعادته في الآخرة؛ بياناً مصحوباً بالأدلة والبراهين. وقد أشار سبحانه إلى هدي التوفيق بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: وفقكم للإيمان فآمنتم إيماناً من قلوبكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: صادقين بإيمانكم من قلوبكم.

وهذا هو هدي التوفيق للإيمان ، وهو منة الله الكبرى ، ونعمته العظمى سبحانه على المؤمن ، وقد أمره سبحانه أن يسأله ويدعوه

---

(١) رواه أبو داود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم / ٣٦٤١/ (٤/ ٥٧) ، والترمذي في كتاب العلم ، باب فضل الفقه على العبادة / ٢٦٨٣/ (٧/ ٣٢٥) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.

به في كل صلاة ، التي يطالَبُ فيها العبد أن يقرأ سورة الفاتحة التي تسمى: سورة المسألة ، لأن فيها تعليم العبد كيف يسأل ربه ويدعوه ، فأولاً الحمد والثناء والتمجيد ، ثم الدعاء بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: وفقنا للصراط المستقيم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن مشى عليه من أصحابه وَمَنْ بعدهم مِمَّنْ أنعمت عليهم ووفقتهم لذلك يا رب.

وإذا قلت: إني على هدىً وأنا مؤمن فما معنى: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ ؟!.

فيقال: إن الله تعالى لما هداك للإيمان ، ووفقك للإيمان ، وصرت مؤمناً ، فلا يَعني أنك استغنيت عن ربك سبحانه ، ولا يعني أنك ملكت الهداية والإيمان على نفسك ، ولا يعني أنك صرت في أمان من الزَّيغ والضلال ، بل أنت مُحتاج في كل لحظة أن يَهديك الله للإيمان ، وأن يُثَبِّتَهُ عليك. وإذا التبس عليك فَهْم ذلك فيقال: إنَّكَ لَمّا تقول: اللهم أطعمني اللهم اسقني. ثم سخَّر لك غذاءً وشراباً بأن أطعمك فأكلت وشربت ، ثم إذا صار المساء قلت: اللهم أطعمنا اللهم اسقنا؛ وهكذا فأنت بحاجة أن يطعمك الله تعالى ويسقيك على الدوام ، وهكذا أنت محتاج إليه أن يُمدك بالماء والهواء والغذاء في كل لحظة.

وكذلك فأنت محتاج إلى هديه في كل لحظة ، فيحفظك من الزيغ والشبهات ، والضَّلالات والوساوس. أنت محتاج إلى هذا أشد من حاجتك إلى الطعام والشراب ، لأن حاجتك إلى الطعام والشراب ليست حاجة مُستمرة في كل لحظة ، بل ربما تكفيك الأكلة يوماً كاملاً. وإن حاجتك للهداية والإيمان وحفظه عليك أنْ

لا تضل ولا تزيغ؛ أنت بحاجة إلى هذا في كل لحظة ، ومِنْ هنا تعلم أنّ حاجتك إلى هدي الله لك أقوى من حاجتك إلى أن يمدك بالطعام والشراب ، وهذا يقتضي منك أن تقول دائماً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فافهم.

ومن ناحية أخرى: فاعلم أن الهدى على مراتب ودرجات ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦].

فلما تقول: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ أي: زدنا هدى فوق هدى ، ولا يكون هذا إلّا بأن يُثبتك على الهدى ويزيدك هدى. ومن لم يزدد إيمانه فهو في نقص ، لأن الإيمان لا يقف على حد كما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

ومن ناحية أخرى لما تقول: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ فإنّ هذا يشمل الهدي في العقيدة الإيمانية ، والهدي في العمل ، والهدي في الأقوال ، والهدي في الأخلاق والآداب وهكذا..

فقد تكون على هدى في عقيدتك ، وقد تكون على ضلال في أقوالك مثلاً[1] ، وقد تكون ممن يتكلم كلاماً لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فسل الله تعالى أن يهديك الهدي العام ، في أقوالك وأفعالك

---

(١) وفي الحديث: «من تعظَّم في نفسه أو اختال في مشيته: لقي الله وهو عليه غضبان» رواه الإمام أحمد (٢/١١٨) والطبراني في (الكبير) انظر (المجمع) (١/٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٦٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وهذا الحال لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
فسل الله تعالى أن تكون على هدىً في أحوالك وهذا بقولك: ﴿ ٱهْدِنَا﴾.

وإيمانك وأخلاقك ، ولاحظ هذا في قولك: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وعلى هذا فلا غنى للمؤمن عن هداية الله له في سائر أحواله وحركاته وسكناته وأقواله وآدابه.

وقد علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا كله ، فَمِنْ هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اهدني لصالح الأعمال والأخلاق إنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت»[1] الحديث.

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا الحسين ابن سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين. إذ علمه دعاءً يدعو به ، تعليم مُحب لمحبوبه ـ إذ إنَّ الحسن والحسين رضي الله عنهما ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء ذلك في الحديث[2] ـ قال له: «قل: اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت»[3] والمراد بالهدى هنا أن يزيده الله هدى فوق هدى وهكذا. . .

---

(١) رواه الطبراني بالثقات من حديث عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٧٣).

(٢) الذي رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب الحسن والحسين / ٣٧٥٢/ (٧/ ٩٥) عن سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٢٠٠) وهو عند أبي داود في كتاب الصلاة ، باب القنوت في الوتر / ١٤٢٥/ (٢/ ١٣٣) والترمذي في كتاب الصلاة باب ما جاء في القنوت في الوتر / ٤٦٤/ (٢/ ١٨٤) وهكذا عند النسائي وابن ماجه ونص الحديث: «اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يُقْضىٰ عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت».

وإن في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] بياناً وإعلاناً أن أمر الإيمان أمر كبير، وَمَنْ وفقه الله للإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقد نال فضلاً كبيراً من الله تعالى. ولله المنة الكبرى عليه.

فما مقدار هذه النعمة؟ وما الذي جُعل لها؟ وهي نعمة الإيمان. جُعِلَ لها هذا الفضل الكبير والمنة الكبرى.

فاعلم: أن الله تعالى قال في بيان فضل نعمة الإيمان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

فإنَّ حب المؤمن للإيمان فضل كبير من الله عليه، ونعمة عظمى من الله عليه، وعلى المؤمن أن يفرح بهذا فرحاً أيما فرح، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والمراد بفضل الله هنا الإيمان، والمعنى: بفضل الله عليكم يا مؤمنون أن تفضل عليكم بنعمة الإيمان، وبرحمته بكم وهي أن بعث فيكم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وهو الرحمة المهداة للعالم ـ فبذلك فليفرحوا.

ومن جملة رحمة الله تعالى القرآن الكريم، الذي أنزله على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا سيدنا

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فهمت القرآن ، بل ولما وصل إليك.

وينبغي أن يكون فرحكم أيها المؤمنون بفضل الله عليكم أنْ وفقكم للإيمان ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨] وكذلك فرحكم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم الذي جاء به ، ينبغي أن يكون فرحكم بذلك لا يعادله فرح ولا يساويه ، لأنّ الإنسان يفرح إذا حصل على خير ، فهو يظن أن في المال خيراً ويرجو منه الخير ، فتراه يفرح لما يربح شيئاً من المال ، ويزداد فرحه كلما زاد ربحه من المال ؛ رجاء خيره من المأكل والملبس والمسكن.

ولكن المال قد يُفضي إلى خير ، وقد يعود بالشر على صاحبه إن أسرف على نفسه في مأكله مثلاً وأضر نفسه ، وعلى هذا فالخير المتأتي من المال غير مضمون ، كما أن هذا الخير إن حصل فهو محدود مقيد ، سيتركه الإنسان ويمضي.

أما الخير الدائم المستمر الباقي ، تنتفع منه كلما ازددت منه؛ فهو الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم[1] فيجب عليك أن تفرح بالإيمان أكثر من فرحك بالمال ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١) ويطلق الخير ويراد به الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ الآية [الأنفال: ٧٠]. وفي الحديث: «فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة ـ ذرة ـ من خير» الحديث ، أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب خروج الدجال / ٢٩٤٠/ (٥/ ٢٧٧٣).

ولقد نبه الله تعالى المؤمن أن يشكره على نعمة الإيمان التي أنعم الله بها عليه، وذلك بقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، وإنّ النعمة تتطلب من المؤمن أن يشكر مَنْ أنعم بها عليه، ومنْ شكر الله على نعمه زاده الله منها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فلقد علمنا دعاء شكرها، وبين لنا نتيجة شكرها فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ والمراد منه الإنسان المؤمن بدليل الآية بعدها ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فكانت نتيجة هذا الدعاء، ونتيجة حال هذا المؤمن الشاكر لرب العالمين على نعمة الإيمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهو زمن نضوج العقل بكماله ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ وفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ وهي نعمة الإيمان، التي قال الله تعالى فيها: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، وقال فيها: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ فكما أنعمت عليَّ ووفقتني للإيمان؛ وفقني أن أعمل صالحاً ترضاه، أي: عملاً خالصاً لوجهك، وَفْقَ ما شرعت على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما يرضاه الله تعالى، وهذا العمل الصالح يُرفَعُ إلى الله، وإذا عُرِض عليه سبحانه رضيه سبحانه بدليل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ويحسن بالمؤمن أن يدعو بهذا الدعاء وراء كل صلاة.

وإذا قلت: ماذا يُعطي الإيمان من مكرمات حتى صار مِنَّةً وفضلاً كبيراً من الله على المؤمن؟!!.

فاعلم أنك ما آمنت بالله تعالى إلا لمَّا أنزل الله تعالى على قلبك نوراً من عنده، وأشرق له قلبك فآمنت، كما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية [النور: ٣٥].

ولما أعطاك سبحانه الإيمان فقد تمسكت بالعروة الوثقى، وصار بينك وبين الله صلةٌ محكمة قوية، وهي العروة الوثقى التي طرفها بيد الله وطرف بيدك ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والعروة الوثقى هي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

كما أن الله سبحانه لَمَّا أعطاك الإيمان صار قلبك مزرعة لحبه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وما أشرف وأعظم قلبك الذي زُرع فيه حب الله، ولما أحببته أحبك، ولما أحبك حَبَّبك إلى أحبابه جل وعلا، ورفع من شأنك وذكرك في الملأ الأعلى، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: حباً ثابتاً في قلوب الخلائق كلها، فهو سبحانه يحبهم، ويلقي محبتهم في أهل السماوات وأهل الأرض، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء»، فتسمع ذلك القلوب والأرواح،

ولا تنكر هذا ، لأن هذا يمر على قلبك وتنساه كما تنسى ما تراه في منامك البارحة وقبلها ، وَصَدَقَ خَبَرِ من لا ينسى صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض» ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦] الحديث[١] .

وإنَّ من أحبه الله وحببه إلى أحبابه فقد ضمن له سعادة الأبد ، وحاشاه سبحانه أن يسلبه صالح ما أعطاه من إيمان وغيره.

ولما آمنْتَ برب العالمين شَرَّفك بعبادته ، وطالبك بها حتى يُصبغك بالصبغة الإيمانية النورانية: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: الزموا صبغة الله تعالى ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي: ونحن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم العابدون لله حق عبادته. اللهم اجعلنا منهم.

وهذه الصبغة الإيمانية النورانية الربانية تنصبغ بها الحواس والمدارك ، والقلب والروح ، ويظهر ذلك جلياً في الآخرة ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦]. ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وإن الأعضاء السبعة التي تشرَّفت بالسجود لله تعالى قد صار لها

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة /٣٢٠٩/ (٦/٣٠٣) ومسلم ـ واللفظ له إلى ثم قرأ ـ في كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبداً /٢٦٣٧/ (٥/٢٥٥٦) وانظر الفتح (١٠/ ٤٦٢) لزاماً.

حصانة ونورٌ خاصٌ بها يوم القيامة ، حتى لو ارتكب المؤمن المصلي ذنوباً؛ ومات ولم يتُب منها ولم يتطهَّر منها في برازخ الآخرة ؛ ولم تنله شفاعة الشافعين ؛ وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم دخل جهنم ليُطَهَّر من تلك الذنوب لكثرتها ، فإنّ النار لا تأتي على الأعضاء التي سجد لله عليها ، وإن الملائكة لتعرفه بذلك ، وفي الحديث: «وإن الله تعالى حرَّم على النار أن تأكل مواضع السجود من بني آدم» الحديث[1].

وذلك لأنها مصبوغة بنور الله ، ولا تأتي النار على قلب المؤمن لأن فيه الإيمان بالله تعالى ، أما الكافر فإن النار تَطّلِعُ على فؤاده ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ الآية [الهمزة: ٧].

وَلَمَّا شرفك الله سبحانه بالإيجاد ، وبعبادته والصلاة والسجود له ، فقد شرَّفك أيضاً بالتقرب إليه ، كما في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[2] وقال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [الأعلى: ١٩].

ولما وفقك سبحانه للإيمان فقد شرفك بذكره ، وحين تذكره يذكرك ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٥٢] وإذا كان ذكرك لله شرف عظيم؛ فإن ذكره لك سبحانه أعظم وأكبر ، ولا مناسبة بين ذكرك له وذكره لك ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الأذان ، باب فضل السجود /٨٠٦/ (٢/ ٢٩٢) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية /١٨٢/ (١/ ٣٥٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٢/ (٢/ ٦٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» الحديث(١).

ثم إنه سبحانه شرفك وتفضل عليك بسبب إيمانك ، أنه سيتجلى عليك بالرؤية والمكالمة، وشرفك بجواره في دار كرامته ، مع دوام تحياته وتسليماته ، وتبريكاته ورضوانه. وتحيات ملائكته عليهم السلام المتواصلة. فما أعظم نعمة الإيمان ؟!!! ولله المنة كل المنة؛ وكذلك لرسوله صلى الله عليه واله وسلم على المؤمن أن وفقه للإيمان ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] لأن للإيمان آثاراً وفضائلَ ومكرماتٍ لا تُحصى.

ومن ذلك: أن المؤمن يدخل جوار ربه ، ويكون في دار ضيافته وكرامته كما قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ﴾ [البينة: ٨] ذكر العندية قبل ذكر الدار ، لأن الجار قبل الدار ـ وهذا كلام له اعتبار في الدنيا وفي الآخرة فافهم ـ وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فسألت الجار قبل الدار. ولا أشرف ولا أعظم من جوار رب العالمين ، فاشكر الله على نعمة الإيمان التي أعَدَّتْك لذلك ، وأَنْزَلَتْكَ ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٥].

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ /٧٤٠٥/ (١٣/ ٣٨٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر اللهِ تعالى /٢٦٧٥/ (٥/ ٢٥٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنَّ التسليمات الإلٓهية ، والهدايا والتحف ، والتبريكات تتوارد عليك من حضرة الله تعالى باستمرار ، وعلى الدوام ، كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] أي: سلام من الله عليهم ، وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] أي: سلام يتوارد على أهل الجنة من الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤] أي: إن الملائكة تقول لهم: سلام عليكم بما صبرتم ـ أي: في الدنيا على أوامر الله كالصلاة[١] وغيرها ـ وقد جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن للمؤمن في الجنة خيمة من دُرَّة ـ أي: لؤلؤة ـ مجوفة ، طولها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ـ صور ـ ومال ، لها أربعة آلاف مِصراع ـ باب ـ من ذهب ، على كل باب ملائكة من عند الله يأتونه بالهدايا من عند الرحمن ، كل هدية لا تشبه الهدية الثانية ، لا يدخلون عليه إلا بإذن»[٢] أي: بإذن من الحُجَّاب.

وقد جاء بيان هذا عن أبي أمامة رضي الله عنه ـ ومثل هذا له حكم المرفوع إذ لا مجال للرأي فيه ـ قال: «إنَّ للمؤمن قصراً في الجنة، وعلى باب قصره سماطان من الحُجّاب والخدم، فيأتي المَلَك من رب العالمين فيقول للحاجب الأول: استأذن لي من السيد الجالس في صدر القصر حتى أحييه ـ وأقدم له هدية الرحمن ـ فيقول الحاجب الأول: اصبر ، فيسأل الحاجب الأول الحاجب

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية [طه: ١٣٢]. وقال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ الآية [مريم: ٦٥].

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن أبي حاتم.

الثاني أن يستأذن له ، وهكذا للثالث والرابع حتى ينتهي الاستئذان لصاحب القصر فيقول: ائذنوا له. ويأتي الخبر واحداً بعد واحد ، فيدخل الملك وَيُحَيِّي المؤمن ويسلم عليه ، ويقدم له هدية من رب العالمين[1]». وهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بعد الاستئذان من الحجَّاب ويقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ...﴾ الآية [الرعد: ٢٤].

كما أن الله تعالى شرفك أيها المؤمن بمكالمته ورؤيته في الجنة ، ففي الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأخذوا منازلهم في قصورهم ، أرسل الله إليهم الملائكة ويقولون لهم: إن ربكم يستزيركم - أي: يطلب منكم أن تزوروه - لتنظروا إليه وينظر إليكم ، وتكلموه ويكلمكم ، وتحيوه ويحييكم ، وليزيدكم من فضله، فيذهبون إلى عالم الكثيب، ويأخذ كل منهم ناحية مجلسه ، ويتجلى عليه رب العزة ، وما من أحد إلا ويحاضره الله محاضرة - أي: يكلِّمه مكالمة - ويقولون: اللهم أنت السلام ومنك السلام ولك حق الإجلال والإكرام ، ويحييهم سبحانه ويقول: أنا السلام ومني السلام، ولي حق الإجلال والإكرام، فرحاً بعبادي الذين حفظوا وصيتي ، ورعوا عهدي ، وحفظوني بالغيب ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الآية [ق: ٣٣] ثم يقول سبحانه: سلوني يا عبادي ، فيسألونه، فيقول: سلوني. حتى إذا انتهت بهم الأماني فتح لهم باباً: لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» الحديث[2].

بعد هذا كله أليس حقاً لله عليك أن يذكِّرك بنعمته عليك أن

---

(١) انظر (الدر المنثور) (٤/ ٥٨).
(٢) انظره في (الترغيب) للمنذري (٤/ ٤٥٩).

وفقك للإيمان، ويمتن به عليك؟!! ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحجرات: ١٧]، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ الآية [يونس: ٥٨].

أما التجلي بالرؤيا فقد ورد في الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا ألم تُبيض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة؟ ألم تنجنا من النار؟ فَيُكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»(١) ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحديث.

وفي الحديث: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته فيهم»(٢) فيحيونه ويحييهم، فتبقى بركاته وأنواره في ديارهم. وهذا قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] اللهم اجعلنا منهم.

* * *

---

(١) رواه الإمام مسلم في (صحيحه)، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى في الآخرة /١٨١/(١/٣٤٩) والترمذي كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى /٢٥٥٥/ (٧/ ٢٣٠) عن سيدنا صهيب رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه في السنن، المقدمة رقم /١٨٤/ وعزاه في الدر المنثور (٥/ ٢٦٦) إلى البزار، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

حول هدي النبي ﷺ للعالمين

بيان فضل الإيمان وأنه أعظم النعم الإلٓهية على العبد

تقدم الكلام على مراتب الإيمان وأنواعه ، ومنه الهدي العام لجميع الأنام والمخلوقات ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: هداه لما فيه مصلحة وجوده وبقاء نسله ونوعه.

وهناك **هدي البيان** ، وقد حَتَّمَهُ سبحانه وأوجبه على نفسه ، وهو بواسطة الرسل عليهم السلام؛ وإنزال الكتب عليهم ، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] أي: وعلى الله بيان السبيل القصد ـ الوسط ـ الجامع لكل خير ، والبعيد عن كل شر.

وإنّ أعظم الرسل هدياً وبياناً وتبياناً ، هو صاحب الرسالة العامة لجميع الأنام ، إلى آخر الزمان ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] والبرهان المراد من الآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد هدى وبيّن صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقام الحجة

والبرهان على العالمين ، وأمر الصحابة أن يبلغوا عنه؛ وكذا مَنْ بعدهم إلى يوم الدين .

وهناك **هدي التوفيق** ، وهو أن يهدي الله العبد؛ بمعنى: أَنْ يوفقه للسير على الصراط المستقيم ـ شرع الله تعالى ـ وهذا الهدي مرتب على هدي البيان والبرهان ، وهو الذي امتن الله به على عباده المؤمنين: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧] وهو هدي التوفيق الإلَهي للإيمان .

وقد أمر سبحانه عباده أن يسألوه دوماً هَدْي التوفيق للإيمان ، وأنزل ذلك في أعظم سورة في القرآن ، وتُسمَّى سورة الشفاء وسورة الدعاء ، لأن الله تعالى علَّمنا فيها كيف ندعوه ونسأله ، ففيها الحمد أولا ، ثم الثناء ، ثم التمجيد ، ثم الاعتراف له بأنه الإلَه الحق المعبود ، ثم سؤاله سبحانه هداية التوفيق: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: وفقنا للسير على الصراط المستقيم ، وهو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي هو صراط ربِّ العالمين الذي قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] أي: الموصل إلى الله تعالى .

واعلم أنَّك محتاج إلى هدي الله في كل لحظة ، كما أنك محتاج إلى إمداده وتغذيته سبحانه في كل لحظة ، ولذلك أمرنا أن نقول دائماً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱهْدِنَا﴾ في الصلاة وقراءة الفاتحة كما تقدم بيانه .

كما أنَّ نعمة الإيمان الذي وفقك الله إليه إنَّما هي أعظم النعم

الإلَهية عليك ، فاشكر الله على هذه النعمة ، حتى يزيدك إيماناً فوق إيمان ، وهدى فوق هدى ، واعرف فضل الله عليك بنعمة الإيمان ، وإذا أردت أن تعرف قَدْر عظمة نعمة الإيمان فيجب أن تفهم الأمور الآتية ـ وقد تقدم بيان بعضها ـ:

أولاً: يجب عليك أن تَتَدَبَّر في وجه الامتنان الذي امتن الله به عليك أيها المؤمن في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وتدبر في مقدار هذه النعمة حتى تعرف أنَّ لله حقاً عليك ومنة عليك.

واعلم أنه سبحانه لما هدى قلبك للإيمان جعل قلبك مُشرقاً بأنواره ، وجعل قلبك بيت أسراره ومعرفته ، فصار قلبك مشرقاً مضيئاً مملوءاً بنور رب العالمين ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥] ، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولما سمى سبحانه المساجد بأنها بيوت الله ـ أي: بيوت عبادة الله ـ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ [النور: ٣٦] فقد ذكر قبلها بيوتاً أعظم منها وأشرف، وهي قلوب المؤمنين بالله تعالى ، فقال: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نور الله في قلب المؤمن ، فذكر أوَّلاً بيت قلبك الذي فيه نور الله ، ثم ذكر بيته الذي هو بيت عبادته والصلاة له سبحانه ، وإذا لم يعمر بيت قلبك بالإيمان لا يعمر المسجد بالصلاة والعبادة.

فأبشر أيها المؤمن أنَّ قلبك أكرم عند الله من المسجد ، وأنه

مشرق بنور الله تعالى. إذاً أليس لله عليك حق أن يمتن عليك بهذه النعمة فيقول: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

واعلم أنَّ الله تعالى لما هداك للإيمان فقد أكرمك بإكرام أهل الإيمان، ونلت الخير من كل جانب، ونلت الثناء والدعاء من كل مؤمن، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩] فقد نلت الفوز العظيم بإيمانك.

وقد ذكر سبحانه هذه الآيات في سورة المؤمن، لأنه سبحانه ذكر فيها كرامة أهل الإيمان، وبيان فضائل المؤمن لمن يتدبر، ومن جملة هذا الفضل والكرم، أنَّ حملة العرش وهم أهل الشرف والفضل الكبير، وهم أشراف ورؤساء الملائكة، ومَنْ حَوْلَ العرش من الملأ الأعلى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يعبدون الله تعالى بالقول والفعل ـ وهو الإيمان العملي ـ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهم يستغفرون للمؤمنين لأنهم مؤمنون مثلهم، وبينهم ولاء ووفاء، فما أشرفك يا مؤمن، فأنت على وجه الأرض وحملة العرش يستغفرون لك! ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ لأنَّ هناك عالم الأعراف

بين الجنة والنار فدعوا لهم بدخول الجنة ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ...﴾ الآية [غافر: ٧ـ٨].

وقد وعد الله المؤمنين بالجنة بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ...﴾ الآية [التوبة: ٧٢].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: أكرمهم يا رب بدخول الجنة، وأكرمهم أيضاً بأن تُلحق بهم آباءهم وأزواجهم وذرياتهم؛ وإن كانوا في الإيمان والصلاح ليسوا مثلهم، ولكن إكراماً لهم، وحتى يَتِمَّ لهم سرورهم ونعيمهم أدخل معهم ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أي: ولو صلاحاً إجمالياً ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

فقد دعوا الله لك، ودعوا لأبويك وأزواجك وذريتك من بعدك؛ أن يكونوا معك في الجنة، كل هذا بسبب إيمانك، أليس لله حقٌّ عليك أن يمتن عليك بنعمة الإيمان؟!

ولقد جاء في الحديث: «أن الرجل المؤمن يدخل الجنة ـ المؤمن الكامل ـ فإذا دخلها قال: أين أبي أين أهلي؟ فيقولون له: إنهم لم يعملوا مثلك، فيقول: أنا كنت أعمل في الدنيا لي ولهم، فيلحقهم الله تعالى بدرجته» الحديث[1].

---

(١) رواه الطبراني وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ١١٩) ونص رواية الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (٧/ ١١٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك! فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بإلحاقهم» وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية [الطور: ٢١].

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: واجعل بينهم وبين السيئات وقاية، فلا يقعون في الذنوب بعد أن تابوا منها، واحفظهم أيضاً من المعاصي والذنوب، ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: المساوىء في الآخرة، بأن لا يروا سوءاً ولا مكروهاً بل نعيماً وسروراً.

كما أنه بسبب إيمانك فإنَّ الله تعالى يرفع أقوالك الطيبة، وأعمالك الصالحة إليه، حتى تشفع لك عند الله، وحتى تُسجل في ديوان أهل الإيمان، وحتى يُعلن هذا في الملأ الأعلى، ويثنى عليك في الملأ الأعلى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

والكلم الطيب: هو الذي خرج عن قلب طيب، ولا يطيب القلب إلا بالكلمة الطيبة، التي هي مصدر كل طيب، التي قال الله تعالى فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وهي كلمة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» وهي كلمة الإيمان والشهادة، وهي بمنزلة الشجرة الطيبة التي استوت في الأرض، كما استوت كلمة الإيمان في القلب، وصارت تثمر كلاماً طيباً، وأعمالاً صالحة، تصعد إلى الله تعالى.

والعمل الصالح هو: العمل الخالص لوجه الله تعالى، والموافق لما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. فلابد للصلاح من أمرين: أن يكون مشروعاً، ومُخْلَصاً فيه لله تعالى.

فما أشرف المؤمن وما أكرمه على الله تعالى، حتى رفع أعماله وأقواله الطيبة إليه؟! فاعرف فضل الله عليك بالإيمان.

أما رفع الأعمال وصعود الأقوال: فهناك الرفع اليومي ـ في كل يوم وفي كل ليلة ـ فقد روى مسلم[1] ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: خطيباً ـ بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» أي: لا يصح له ذلك واقعاً ولا عقلاً ولا ذوقاً ولا. . . «يخفض القسط ويرفعه» أي: يخفض بالقسط، ويرفع بالقسط ، فيتصرف في شؤون العباد بالعدل والقسط «يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

فَيُرفع عمل الليل قبل الفجر ، وَيُرفع عمل النهار بعد العصر ، بواسطة ملائكة الله تعالى. فأَصْلِحْ أيها المؤمن العمل مع الله ، وأحكم الصلة بينك وبينه ، بأن تجعل أعمالك تصعد إلى الله ليلاً ونهاراً ، ولا تقطع ذلك ولا تتقاعس عن طاعة الله ليلاً ولا نهاراً.

وهناك الرفع الفوري للأعمال الصالحة: فقد روى الإمام أحمد والترمذي ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يُصلي قبل الظهر بعد الزوال ـ أي: قبل فريضة الظهر وهي سنة الظهر القبلية ـ كان يصلي أربع ركعات ، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء ، فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح» الحديث[2].

---

(١) في صحيحه كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام» /١٧٩/ (١/٩٤٦).

(٢) المسند (٣/٤١١) ، والسنن كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة عند الزوال /٤٧٨/ (٢/١٩٩) عن سيدنا عبد الله بن السائب رضي الله عنه.

وهذه الساعة ساعة إجابة ينظر فيها سبحانه إلى عباده المؤمنين نظر الرضا والرحمة ، كما روى البزار[١] عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، أنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أراك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تستحب هذه الركعات قبل الظهر ـ أي: بعد الزوال ـ فقال: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء ، وينظر الله عز وجل بالرحمة إلى خلقه، وهي صلاة كان يحافظ عليها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى» صلوات الله عليهم.

وإذا علمت هذا أيها المؤمن فكن ممن ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا في ذلك الوقت ، ولا تعمل عملاً يحجبك عن الله تعالى ، فقد روى أحمد في (مسنده)[٢] وغيره: «إن لله تبارك وتعالى عباداً لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم».

قيل: من أولئك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قال: «مُتَبرٍّ من والديه راغب عنهما ، ومُتَبرٍّ مِنْ ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم».

فلا تنسَ إحسان من أحسن إليك ، وَٱرعَ الذمة والعهد مع خلق الله تعالى.

ومن الرفع الفوري ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: بينما نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ قال رجل

---

(١) (مجمع الزوائد) (٢/ ٢١٩).

(٢) (٣/ ٤٤٠) عن سيدنا معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: لما فرغ من الصلاة ـ: «مَن القائل كلمة كذا وكذا»؟.

فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: «عجبت لها، فُتِحَت لها أبواب السماء» وعند النسائي «لقد رأيت اثني عشر ملكاً يبتدرونها أيهم يرفعها» أي: إلى الله تعالى. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك[1].

ولا تنكر هذا فإنّ للكلام معانيَ، وهناك من يحملها، فكما تَحمل المحسوسات في يدك، فكذلك تحمل المعنويات والمعلومات في عقلك ـ فافهم ـ وهذا ما حملته الملائكة ورفعته إلى رب العالمين.

وهناك عرض للأعمال على رب العالمين في كل يوم اثنين وخميس: فقد روى مسلم في (صحيحه)[2] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تُعرض الأعمال ـ أي: على الله عز وجل ـ في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله تعالى في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة /٦٠١/ (٢/ ٧٢٥) والترمذي في كتاب الدعوات، باب /١٣٧/ في دعاء أم سلمة رضي الله عنها /٣٥٨٦/ (٩/ ١٢٣) والنسائي في الصلاة، باب الدعاء بين التكبيرة والقراءة (٢/ ١٣٢).

(٢) في كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر /٢٥٦٥/ /٣٦/ (٥/ ٢٥١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

بالله شيئاً؛ إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ـ أي: بغضاء وحقد ـ فيقال ـ أي: فيقول الله تعالى للملائكة ـ: اتركوا هذين حتى يصطلحا» أي: لا ترفعوا لهما عملاً إلى الله تعالى.

وفي الحديث الذي رواه الحكيم الترمذي[1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تعرض الأعمال في يوم الاثنين والخميس على الله تعالى، وتعرض على الأنبياء؛ وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم، ويزدادون بياضاً وإشراقاً في وجوههم؛ فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم» أي: بعمل السوء الذي يُعرض عليهم فيحزنون له.

وروى أحمد في (مسنده)[2] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من قول لا يُسمع، وعمل لا يُرفع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع».

وقد بَيَّنَ صلى الله عليه وآله وسلم أن هناك أموراً تحجب العمل عن الرفع، فقد روى ابن حبان في (صحيحه) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أَمَّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[3] أي: لا ترفع صلاتهم مع أهل الكمال، وإنْ كان قد سقط الفرض عنهم.

---

(١) في الأصل السابع والستين ص /٢١٣/.

(٢) (٣/١٩٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) هذا لفظ ابن ماجه في (سننه) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب مَنْ أم قوماً وهم له كارهون /٩٧١/ (١/٣١١) ولفظ ابن حبان في الصحيح، (الإحسان /١٧٥٤/ (٣/١٢٦) «ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة....».

وإذا قيل: ما هي الفائدة من رفع العمل إلى الله تعالى؟.

فاعلم أن الله تعالى لما ذكر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ذكر ذلك للمؤمنين على طريق البشارة والمنة، والنعمة والفضل عليهم. وإذا عرف المؤمن فوائد ذلك الرفع وحكمته ازدادت هِمَّتُهُ، وقوي نشاطه للعمل الصالح، والكلم الطيب.

ومن حكمة ذلك: أنَّ هذه الأعمال والأقوال الطيبة ترتفع وتجتمع عند عرش الرحمن تبارك وتعالى، وتشفع بصاحبها عند الله الآن وغداً، وكم من بلايا ورزايا رُفعت عنك ودفعت بسبب شفاعة أقوالك وأعمالك الصالحة؟!!.

وفي هذا روى ابن ماجه في (سننه) والحاكم في (المستدرك) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن مما تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتهليل والتحميد ـ أفردتها أو جمعتها ـ ينعطفن ـ أي: يجتمعن ـ حول العرش، لهن دويٌّ كدويّ النحل، يُذكِّرْن ـ أي: يشفعن ـ بصاحبهن، أما يحب أحدكم أن يكون له ـ أو «لا يزال له» ـ من يذكر به»[1] أي: يشفع به.

ومن الحكمة في رفع الأعمال والأقوال إلى الله تعالى: هي أن يَذْكُرَك الله تعالى في الملأ الأعلى، وَيَذْكُرك الملأ الأعلى بالمدح والثناء «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله

---

(١) ابن ماجه كتاب الأدب، باب فضل التسبيح /٣٨٠٩/(٢/١٢٥٢) (المستدرك) كتاب الدعاء (١/ ٥٠٠).

تعالى ويتدارسونه بينهم: إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» الحديث[1].

ومن ذلك حتى يباهي الله تعالى ملائكته، ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه[2]، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلينا المغرب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما فرغ من صلاته رجع مَنْ رجع، وعقَّب من عقَّب ـ أي: جلس عقب الصلاة ـ فبينما نحن كذلك، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسرعاً فقال: «أبشروا! هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة يقول: انظروا إلى عبادي، قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى».

وقد سمع ذلك صلى الله عليه وآله وسلم ورآه وَحَدَّث به، لأنه القائل: «إني أرى ما لا ترون وأسمع مالا تسمعون»[3].

كما وترفع الأعمال والأقوال إلى رب العزة حتى يعلم الملائكة بما عليه هذا المؤمن، وأقواله وأعماله ـ يصيرون على علم بذلك ـ فلما يقولون له في سؤال القبر: «ما كنت تقول في هذا الرجل؟

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه الإمام مسلم في الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر /٢٦٩٩/ (٥/ ٢٦٠٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه وهو في (المسند) (٢/ ٢٥٢).

(٢) كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة /٨٠١/ (١/ ٢٦٢).

(٣) هذا طرف من حديث طويل رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ١٧٣) والترمذي في (السنن) كتاب الزهد، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو تعلمون ما أعلم» /٢٣١٣/ (٧/ ٧٤) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

فيقول: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاءنا بالهدى والبينات؛ فأجبنا وآمنا واتبعنا ـ كما في رواية ـ فيقولون له: نم صالحاً قد علمنا إن كنت لموقناً به» ـ أي: نحن على علم أنك مؤمن متبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد علموا بذلك من خلال رفع أعمالك وأقوالك إلى الله تعالى[1].

ومن جملة حِكَم رفع الأعمال والأقوال إلى الله تعالى: حتى تُسجل تسجيلاً لا يُمَحىٰ ولا يبدل، في الديوان الأكبر، وهو ديوان أعمال البر والتقى، ومتى سجل الله لمؤمن عملاً في ذاك الديوان فلا يبطل ذلك العمل أبداً، ولا يزيغ قلب ذاك العامل أبداً بل يموت على كمال الإيمان.

نسألك اللهم ذلك من فضلك العظيم، بجاه صاحب الخُلُق العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢١] من الملأ الأعلى، فينظرون ماذا يتطلب هذا العمل أو القول من ثواب وأجر، لأنَّ الأعمال ما بين كفارات ودرجات، فكم يُكَفِّر هذا العمل من سيئات؟ وكم يرفع من درجات؟ ويجري البحث بينهم.

---

(١) الحديث في البخاري ومسلم وغيرهما، انظر الفتح كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس /٨٦/ (١/ ١٨٢) وشرح مسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الكسوف /٩٠٥/ (٢/ ٩٦٥).

كما بَـيَّـنَ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث اختصام الملأ الأعلى ، ويرفعون الأمر إلى الله تعالى فيحكم بينهم بالحق ، ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى(١) .

ومن أعظم الكفارات والدرجات ما جاء في الحديث: «**الكفارات**: نقل الأقدام إلى الجماعات ـ وفي رواية: «الجمعات» ـ والجلوس في المجالس بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. **والدرجات**: إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة في الليل والناس نيام».

ثم قال: «يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سل ـ لأنَّ التجلي تجلي إجابة ـ قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك» الحديث(٢) .

وكل هذا الفضل مُرتب على الإيمان الذي امتن الله به عليك: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] لأنَّ الإيمان له فوائد ومنافع لا تعد ولا تحصى ، فاشكروا نعمة الله عليكم.

ومن جملة ذلك الفضل العظيم ، مرافقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء والصالحين: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ

---

(١) حديث اختصام الملأ الأعلى ذكره فضيلة الشيخ الإمام برواياته في كتابه الممتع «صعود الأقوال ورفع الأعمال».

(٢) كما في (سنن) الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة ص / ٣٢٣٣/ (٨/ ٣٦٥).

﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

وإن مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومَعِيَّتَهُ هي موضع حرص أهل الإيمان وَهَمِّهِم، كما قال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ـ أحد خدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سلني أعطك» ـ مكافأة له ـ قال: أسألك مرافقتك في الجنة.

قال: «أَوْ غير ذلك يا ربيعة»؟.

قال: هو ذاك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لبعض الصحابة: «يا أبا فاطمة إن أردت أن تلقاني فأكثر السجود»[2] أي: من الصلاة لله تعالى.

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سل تعط، سل تعط» راح يدعو فيقول: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد[3].

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه /٤٨٩/ (٢/٦٣٨) وهو في (المسند) للإمام أحمد (٤/٥٩) وينظر (مجمع الزوائد) (٢/٢٤٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/٤٢٨).

(٣) كما في (مسند) الإمام أحمد (١/٤٠٠/٤٤٥).

معرفة الأشياء بربها وتسبيحها له

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ الآية [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الآية [الفتح: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

إن البحث في موقف الهدي المحمدي عليه الصلاة والسلام يقوم على ثلاثة أمور وهي: مراتب وأنواع الهدي، ثم بيان الذي جاء يهدي إليه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم منهج هديه صلى الله عليه وآله وسلم.

أما مراتب الهدي فهناك الهدي العام لجميع المخلوقات، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: أعطاه صورة خلقه اللائقة به، ثم هداه إلى معرفة خالقه وبارئه سبحانه، ثم هداه إلى ما فيه مصلحة بقائه ووجوده. وفيه يقول سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

وهناك هدي البيان القائم على الحجة والبرهان: وهو هدي الله تعالى لعباده إلى ما فيه مصالحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظمهم وأجمعهم هدياً سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا الهدي يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢ ـ ١٣]

وقد أوجب على نفسه سبحانه هدي الناس ، وبيان ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهناك هدي التوفيق: وهو أن يوفق الله العبد للإيمان فيؤمن ، وهذا الهدي على مراتب ، ولذلك أمر الله عباده أن يسألوه دوماً ذلك: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وامتن عليهم سبحانه بهذا الهدي: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

واعلم أنه بمقتضى الهدي العام لجميع الخلائق ، فقد فطر الله سبحانه جميع المخلوقات على معرفته سبحانه ، ولقد فطر الله تعالى الإنسان على معرفته سبحانه؛ يوم جمع ذرية سيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام على هيئة الذر ، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم لما جاؤوا إلى هذا العالم نسوا ذلك ، فجاءت الرسل تُذكرهم ، فهناك من تذكر ، وهناك من جحد فقامت عليهم الحجة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: يقال لهم: أكفرتم بعد أن آمنتم في عالم الذر ، وكفرتم بعد أن بيَّنت لكم الرسل؟!!.

فكل شيء مفطور على الدين والإيمان ، ثم تبدلت بعض الفِطَرِ بعارضٍ من عوارض الدنيا.

ولقد هدى الله تعالى الطير والوحش ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب؛ إلى معرفة خالقها وبارئها ، وهداها أيضاً لما فيه بقاؤها واستمرار وجودها.

وقد يقال: أنى للجماد والحيوان والبهائم أن تعرف ربها ؟!.

فيقال: تأمل في القرآن الكريم، وانظر في الوقائع التي جرت، وأقرنها بما أخبر الله تعالى، ترَ أنّ الأمر حق برهاناً وعياناً، ومن هذا ما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١] أي: كل من الطير وممن في السماوات والأرض قد علم صلاته لله وتسبيحه لله؛ قد علم ذلك بهدي وتعليم من الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ أي: سجدوا لله وهم أهل الإيمان ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ ـ أي: كفروا وما سجدوا ـ الآية [الحج: ١٨].

وإذا كنت لا تسمع تسبيح الأحجار والأشجار والتراب؛ فلا يعني أنها لا تسبح؛ فاعلم أنَّ تسبيحهم ليس كتسبيحك. فعالم الإنسان له أحكامه وخصائصه، وعالم الجماد له أحكامه وخصائصه، وكذلك كل عالم.

وإذا كنت لا تسمع فيجب عليك أَنْ تُصَدِّق مَنْ سَمِع، فقد أخبر الله سبحانه أنه سخر الجبال لداود عليه السلام يسبحن معه بالعشي والإشراق: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٨] فكانت الجبال تُسَبِّح مع داود عليه السلام، ويسمع ذلك كل من كان في مجلسه.

ولقد سمع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسبيح الحصى ، وتسبيح الطعام ، والماء ، في حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد روى الطبراني والبيهقي ، أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخذ سبع حصيات في كفه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم فسبحت ، ثم أعطاها لأبي بكر رضي الله عنه فسبحت في كفه ، ثم في كف عمر رضي الله عنه ، ويسمع ذلك من حضر من الصحابة[1].

واعلم أنَّ الحصى تُسَبِّح على الدوام ، ويسمع ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كشف ذلك للصحابة رضوان الله عليهم فسمعوا ذلك؛ بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد روى البخاري في (صحيحه)[2] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي رواية النسائي وغيره ، وأصله في البخاري ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم نجد ماءاً ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم فأتي بماء في إناء صغير - والصحابة في عطش وحاجة للماء - فوضع كفه صلى الله عليه وآله وسلم في الإناء الصغير؛ فجعل الماء ينبع من بين أصابعه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حَيَّ على الطهور المبارك ، والبركة من الله تعالى» أي: أقبلوا على الطهور المبارك.

---

(١) (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٩٩) ، (دلائل النبوة) (٦/ ٦٤).

(٢) كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام / ٣٥٧٩/ (٦/ ٥٨٧).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (فجعلنا نشرب ونملأ، وكنا نسمع صوت الماء وتسبيحه عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: لا تسمعون تسبيحهم، وقد تسمعون ولكن لا تفقهون، كما هو في صوت الطير وغيره.

ولقد عَلَّم الله تعالى سليمان عليه السلام منطق الطير وفهم لغة النمل: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ ﴾ الآية [النمل: ١٨].

وإنّ النمل هو من جملة الأمم التي تسبح الله تعالى، كما روى البخاري، عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله»![1].

وهذه النحلة: فلقد فطرها الله تعالى على معرفته، وعلمها طرق جمع غذائها وصنع العسل، وذلل لها الصعوبات في ذلك ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ الطرق التي هداك إليها ﴿ ذُلُلًا ﴾ [النمل: ٦٩] أي: مذللة لك.

وكذلك الجبال تسبح وتعرف خالقها: فقد صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرة أُحُداً ومعه الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم فاشتد طرب أحد وفرح فاهتز.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «اثبت أُحُد فإنَّما عليك نبي

---

(١) (الفتح): كتاب الجهاد، باب /٣٠١٩/ (٦/ ١٥٤) (المسند) (٢/ ٤٠٣).

وصديق وشهيدان»[1] فسكن. فلقد عرف أُحُدٌ ربه وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الجذع الذي كان يخطب مستنداً إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحَنَّ لفراقه لما تركه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المنبر[2]، فهو يعرف الله، ويعرف أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا حديث متواتر.

وجاء في صحيح ابن خزيمة[3]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يسمع صوته ـ أي: المؤذن ـ شجر، ولا مدرٌ، ولا حجر، ولا جن، ولا إنس إلا شهد له» فلها شهادة ومنطق لائق بها ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ونُطْق الجلد واليد والرجل تختلف عن نطق اللسان، ولكل أحكامه وخصائصه.

وإنَّ ربَّ الأشياء لهو قادر على أن يُنطق ذات الأشياء، وسينكشف لك هذا جلياً في عالم الآخرة. وما عليك إلا أن تُصَدِّق من سمع وأخبر بذلك صلى الله عليه وآله وسلم، على أنه مِنَ الحكمة والرحمة بك أنَّكَ لا تسمع ذلك الآن، لضعف قوتك ونشأتك عن قبول وتحمل ذلك في الدنيا. وقد يُعطي الله تعالى

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» / ٣٦٧٥/ (٧/ ٢٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر /٩١٨/ (٢/ ٣٩٧) وانظر في السيرة الشامية (١٠/ ١١٣).

(٣) (١/ ٢٠٣).

بعض أوليائه قوة لتحمل ذلك ، ويكشف له عن تسبيح بعض الأشياء فيسمعها.

وروى الترمذي والدارمي ، عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال: (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)(١) وقد سمع ذلك سيدنا علي رضي الله عنه.

وإنّ في قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام لعبرةً وفوائدَ ، وأدلة على علم هذا الطائر بربه ومعرفته وتوحيده ، فلقد قال لسليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما تؤتاه الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهذا أمر عجيب ، فهي ملكة ولها جنودها ومملكتها وتفعل ذلك؟! فأين العقل السليم والتفكير الصحيح؟! ثم قال الهدهد: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦].

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تسبيح الأشياء ، وأوتي العلم بمنطق الطير ، ويسمع تسبيح السماوات والأرض. فما عليك إلا التصديق .

---

(١) الترمذي كتاب المناقب ، باب الشجر والحجر يسلمان على النبي ﷺ / ٣٦٣٠/ (٩/ ٢٤٧)، والدارمي في (سننه)، المقدمة ص /١٢/ ، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٢٠) وصححه ووافقه الذهبي.

وهناك هدي البيان الذي جاءت به الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] وقد أمدهم الله تعالى بالبينات الحسية ، والبراهين العقلية على صدق ما جاؤوا به وهدوا إليه ، وهذا الهدي هو حجة الله على عباده كما تقدم.

وأما هدي التوفيق فهو أن يوفقك الله تعالى للإيمان برب العالمين ، وأن تعمل بموجب ما هداك إليه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا هو أعظم نعمة لله عليك ، ولا غنى لك عنه ولا لحظة ، ولذلك فأنت مطالب دائماً أن تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه الذين مشوا عليه.

وسل الله دوماً كما علمك: الثبات على الهدى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ الآية [آل عمران: ٨] ، ولا غنى لك عن تثبيت الله لك على الهداية ، وأن يزيدك هدياً فوق هدى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ الآية [مريم: ٧٦].

وقد ذكَّر الله تعالى عباده المؤمنين بهذه النعمة والفضل ، الذي تفضل به عليهم وهو أن أنعم عليهم ووفقهم للإيمان: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: في إيمانكم.

ولما تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالإيمان. مما يدلك على أن الإيمان أعظم نعمة لله على عبده ، وأنا يا رب أسألك أن تنعم عَلَيَّ كما أنعمت عليهم ،

وهذا السؤال من باب الاستجداء والاستعطاء.

ولاحظ في ذلك معنى دعائك وكأنك تقول: يا رب أنْعِمْ عَلَيَّ بكمال الإيمان كما أنعمت على الذين وفقتهم للسلوك على هذا الطريق المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، وحاشاك وأنت الكريم أن تُنعم بالإيمان على أمم وأمم وتحرمني فضلك؛ فأنت أجل وأكرم.

وكفى بالمؤمن شرفاً وتكريماً أن جعل الله تعالى قلبه صدفاً لأنوار الإيمان به: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٢٢].

وقد بين هذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض»(١) الحديث. فقلب المؤمن وعاء يملؤه الله بنوره.

ولقد شرفك الله تعالى أيها المؤمن بعبادته، وبزيارته، وبالوفادة عليه، وبمناجاته وبذكره وبحبه وبقربه، وهذا كله ما نلته إلا بالإيمان.

روى الطبراني بإسنادين أحدهما جيد، عن سلمان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر الله، وحقٌّ على المزور أن يكرم الزائر»(٢) وإذا كان زائر الكرام لا يُضام فما بالك برب الكرام وأكرم الأكرمين؟!.

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/ ١٧٧) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وانظر (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٤٨).

(٢) (مجمع الزوائد) (٢/ ٣١).

وروى الطبراني وغيره، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن داود عليه السلام قال: إلٰهي ما لعبادك عليك إذا هم زاروك في بيتك؟ قال: يا داود إن لكل زائر حقاً على المزور، وإنَّ حقاً عليَّ أنهم إذا زاروني أن أُعافيهم في الدنيا، وأغفر لهم إذا لقيتهم»[١] وهذا في الحاج والمعتمر.

وفي الحديث الذي رُوي بسند الثقات: «الحجاج والعمار وفد الله؛ دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»[٢] فلقد شرف الله المؤمن بالوفادة عليه.

أما عن مناجاته سبحانه، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أحدكم إذا صلى يناجي ربه»[٣] الحديث، وقد جاء بيان ذلك في الحديث الآخر: «إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم ـ أي: في الصلاة ـ قال الله: تعالى ذكرني عبدي» إلى تمام الحديث كما في رواية البيهقي[٤].

كما شرفك الله سبحانه بذكره ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] إذ إن الصلاة جامعة لكل الأذكار: أفعالاً وأقوالاً وأحوالاً، وتسبيحاً وتحميداً، وقرآناً، وصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (مجمع الزوائد) (٣/٢٠٨) عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٢) قال في (مجمع الزوائد) (٣/٢١١): رواه البزار ورجاله ثقات، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري، كتاب المواقيت، باب المصلي يناجي ربه عز وجل /٥٣١/ (٢/١٤).

(٤) في (السنن الكبرى)، كتاب الصلاة، باب تعيين القراءة بفاتحة الكتاب (٢/٣٩).

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] أي: لذكرك لي ولذكري لك، كما قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: إنَّ ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لربه.

فسبحان من تشرفت بذكره الأفواه، وتشرفت بالسجود له الجباه.

ولما أثنى سبحانه على جملة من الأنبياء وأتباعهم، وذكرهم بالمدح والثناء قال بعد ذلك: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ [ص: ٤٩] أي: هذا ذكرنا أنبياءنا بالثناء والمدح في الملأ الأعلى والأدنى.

ولقد رفع الله تعالى ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل مذكور، ورفع مدحه فوق كل ممدوح فقال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ وفي الحديث: «إنني لا أُذكر إلا ذكرت معي»[1].

وإذا أردت أن تعرف شرف القلب الذي حوى القرآن أو بعضه، فانظر في تلك الصحيفة البيضاء التي كانت كغيرها في الفضل والاعتبار، ثم إذا طبع عليها شيء من آيات الله تعالى رُفعت فوق الرأس، لأنها صارت مصحفاً.

كما شرفك أيها المؤمن بحبه وقربه، ففي الأثر: «من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أراد مرادي أعطيته فوق المزيد، أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير وغيرهم.

كرامتي ، وأهل معصيتي لا أُقنطهم من رحمتي ، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب» وما ذلك إلا لأنه سبحانه يحب قربك «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» الحديث[١] .

* * *

---

(١) هذا طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب التواضع /٦٥٠٢/ (١١/ ٤٣٠).

حول هدي النبي ﷺ للعالمين

تقدم البحث في أنواع الهدي الإلٓهي ومراتبه ، ومنه هدي التوفيق إلى الإيمان ومقاماته ، وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بأن وفقهم ـ أي: هداهم ـ للإيمان فآمنوا ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] فما أعظم قدر نعمة الإيمان حتى امتن الله بها عليك أيها المؤمن؟!.

فاعلم أولاً أنه سبحانه لما أنعم عليك بالإيمان فقد شَرَّف قلبك وجعله مرآة لأنواره ، ومشرقاً لأسراره ، فما أشرف هذا القلب الذي أشرق فيه نور الله؟!! وإن المرآة الصافية إذا وُجِّهت إلى نور الشمس ظهر فيها نور الشمس ، فما بالك بمرآة قلبك التي ظهر فيها نور الله تعالى.

وأما الدليل على ذلك فهو ما ذكره سبحانه في سورة النور ـ ومن شأن النور أن يُظهر حقائق الأمور وخفايا الأمور ـ فقال سبحانه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن ﴿ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ... ﴾ الآية [النور: ٣٥] ، أما المشكاة: فهي صدر المؤمن ، وأما الزجاجة: فهي قلبه ، وأما

المصباح المضيء: فهو نور الإيمان في قلب المؤمن ، فما أشرف هذا القلب الذي استنار بنور الله؟!!.

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره» الحديث كما تقدم[١] ، وهذا قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٢٢].

وبسبب إيمانك أيها المؤمن فقد شرفك ربك وصرت أهلاً أن يصلي عليك ويسلم عليك ، وما أشرف صلاة رب العالمين عليك! وما أكرم سلامه عليك!!

فقد جاء في (المسند)[٢] أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أما يرضيك يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن ربك يقول: إنه لا يصلي عليك أحد مرة إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد مرة إلا سلمت عليه عشراً» صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]. فَذِكْرُك لله وتسبيحك له أيها المؤمن هو سبب لأن يصلي الله وملائكته عليك ، أما المضاعفة فيها فبالصلاة على حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولاحظ هذا حين تصلي وتسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ص /٤١٤/.
(٢) (٤/ ٣٠) عن سيدنا أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

وفي الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول» ـ أي: في الصلاة ـ.

فقال بعض الصحابة: وعلى الثاني يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أي: إذا لم يتمكن أن يكون من أهل الصف الأول.

قال: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول».

قالوا: وعلى الثاني يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قال: «وعلى الثاني»[١] أي: إنّ الثاني في الدرجة الثانية من صلاة رب العالمين وملائكته.

وفي الحديث «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»[٢] فإذا تمكنت أن تكون على يمين الإمام فهو خير لك من يساره؛ بشرط أن لا تجعل فرجة في الصفوف، وأن لا تخل في استقامتها واعتدالها.

وروى ابن خزيمة في (صحيحه)[٣] «إن الله وملائكته يصلون على الذين يَصِلُوْنَ ـ مِنْ وصلَ يَصِلُ ـ الصفوف الأُول» جمع أول فعليك أيها المؤمن أن تسد الفرجة التي أمامك في الصف وهكذا. . . مَنْ سدها صلى عليه رب العالمين.

وقد جاء في فضل التشهد في الصلاة، أن المصلي لما يقول:

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ٢٦٢) وعزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٢/ ٩١) إلى الطبراني في الكبير عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف، وكراهية التأخر / ٦٧٦/ (١/ ٤٣٦) وابن ماجه رقم / ١٠٠٥/.

(٣) (٣/ ٢٦) باب ذكر صلوات الرب وملائكته على واصلي الصفوف الأُوَل / ١٥٥٦/.

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أصابت ـ أي: هذه التحية والسلام ـ كل عبد صالح في السماء والأرض»[(١)].

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك في صلاته، فلقد نال سلامه كل عبد مؤمن، ونالك أيضاً إن شاء الله تعالى، وما هذا إلا بسبب إيمانك الذي وفقك الله إليه، فله إذاً المنة عليك ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: لأن الإيمان له منافع وثمرات وفوائد ومكارم، وفضائل وخصائص، مهما علمتم منها فالله أعلم.

وقد شرفك الله سبحانه أيها المؤمن أن الأنبياء استغفروا لك، وأن إمامهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم استغفر لك، وأن الملأ الأعلى وملائكة السماوات وأولياء الله يستغفرون لك.

وقد تقدم[(٢)] الكلام أن من جملة وظائف حملة العرش ومن حوله: الاستغفار والدعاء للمؤمنين: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيات من أول سورة غافر.

وقال تعالى مخبراً عن سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية [نوح: ٢٨]، وشمل هذا كل مؤمن ومؤمنة إلى

---

(١) كما في البخاري كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة /٨٣١/ (٢/٣١١)، ومسلم كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة /٤٠٢/ (٢/٥٧٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ص /٤٤٨/.

يوم الدين ، وينفع هذا الاستغفار من الذنوب التي بينك وبين ربك ، وأما حقوق العباد فلابد من القصاص.

وقد استغفر الخليل عليه السلام للمؤمنين والمؤمنات: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لك أيها المؤمن: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية [القتال: ١٩].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم ، في الحديث الذي رواه البزار وغيره بإسناد جيد ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم ، تُعرض علي أعمالكم: فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم»(١).

ولقد شرفك الله أيها المؤمن أنه يُقبل عليك إذا أقبلت عليه ، وما أشرف إقباله وأكرمه سبحانه عليك!.

فقد روى أهل السنن والمسانيد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال الله تعالى مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا صرف وجهه انصرف عنه»(٢).

ولقد حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم المصلي من الالتفات

(١) (مجمع الزوائد) (٩/ ٢٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ١٧٢) ، وأبو داود كتاب الصلاة ، باب الالتفات في الصلاة / ٩٠٩/ (٢/ ٥٦٠) والنسائي كتاب السهو ، باب التشديد في الالتفات في الصلاة (٣/ ٨) وغيرهم عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

بعنقه وعينه أو بقلبه فقال: «إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله تعالى عليه بوجهه ، فإذا التفت ـ أي: العبد ـ قال الله تعالى: يا بن آدم إلى مَنْ تلتفت؟ إلى من هو خير لك مني؟ أقبل إليَّ ، فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك ، فإذا التفت الثالثة صرف الله تعالى وجهه عنه»[(١)].

وروى الترمذي وصححه ، وابن خزيمة ، وغيرهما ، عن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ ، وإنَّه كاد أن يبطىء بها.

فقال له عيسى عليه السلام: يا يحيى إما أنْ تأمرهم أو أن آمرهم أنا بذلك!.

فقال له يحيى عليه السلام: بل أُبلغ أنا ، أخشى إن سبقتني أن يُخسف بي أو أُعذَّب.

فقام يحيى عليه السلام وجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ حتى جلسوا على الشُّرفات ، فقام فيهم خطيباً فقال: إنَّ الله تعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وأن آمركم أن تعملوا بهن:

آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإنَّ مثل ذلك! كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله: ذهب أو وَرِق ، وجعله في داره وقال له: اعمل وأدِّ إلي ، فكان هذا العبد يعمل ويُؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك»؟!.

---

(١) رواه البزار عن سيدنا جابر رضي الله عنهما ، (مجمع الزوائد) (٢/ ٨٠).

وفي رواية ابن خزيمة قال يحيى عليه السلام: «فإن الله هو خالقكم ورازقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً».

«قال: وآمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإنّ الله تعالى ينصب وجهه لوجه عبده ما دام في صلاته».

وفي رواية ابن خزيمة: «فإن الله يُقبل على عبده ما دام العبد في صلاته»[1] إلى تمام الحديث.

ولقد شرفك الله تعالى أيها المؤمن بالتقرب منه، وأمرك بالتقرب حتى يُقربك فقال: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ وقرن به السجود ليدلك أن أعظم ما يُقربك إليَ الله تعالى هو السجود، ففي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء»[2].

أي: وحاشا ربكم أن يُخَيِّب دعاءكم وقد تقربتم إليه.

وقد أخبر الله سبحانه عن أوليائه أنهم يبذلون جهدهم في التقرب إلى الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

أما طريق التقرب إلى الله تعالى: فهناك التقرب بالأقوال، والتقرب بالأعمال، والتقرب بالأحوال أي: النفسية والقلبية.

أما التقرب بالأقوال: فهناك ذكره سبحانه، وأعظم الذكر تلاوة

---

(١) (سنن) الترمذي كتاب الأمثال /٢٨٦٧/ (٨/٧٦)، (صحيح) ابن خزيمة (٢/٦٤).

(٢) رواه الإمام مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٢/ (٢/٦٣٤).

القرآن الكريم الذي هو كلامه سبحانه: «وما تقرب العباد إلى الله تعالى بمثل القرآن» الحديث[(١)].

وروي أنَّ الإمام أحمد رحمه الله تعالى لما رأى ربه في المنام وسأله عن أفضل ما يتقرب به المتقربون إليه ـ أي: من حيث الكلام والذكر ـ قال: بكلامي. قال: ربّ بفهم أم بغير فهم؟ ، قال: بفهم وبغير فهم[(٢)].

واعلم أنَّ الأصل في ذلك ما رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف»[(٣)].

وقد ذكر صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الٓمٓ﴾ ولم يذكر غيرها من الآيات ، ليبين أنّ المضاعفة تكون للقارىء بفهم أو بغير فهم ، لأن أكثر الناس لا يعلمون معنى ﴿الٓمٓ﴾ فافهم.

وأما باقي الأذكار فعليك أن تعطي كل وقت ما يستحقه ، لأنَّ لكل وقت وظيفة يُطالبك بها.

وأما التقرب بالأعمال: فقد جاء في الحديث القدسي: «أنا عند

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب ثواب القرآن الكريم ، باب ما تقرب العبد بمثل القرآن الكريم / ٢٩١٣/ (٨/ ١١٦) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) ذكر القصة الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) بإسنادين (١١/ ٣٤٧) فلتنظر هناك.

(٣) رواه الترمذي ، كتاب ثواب القرآن الكريم ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر / ٢٩١٢/ (٨/ ١١٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» الحديث[1] ، فهو سبحانه يتقرب إليك ويقربك أضعاف ما تتقرب إليه.

وروى البخاري[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الله عز وجل: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به. . . » الحديث. أي: إنَّ من تحقق بمقام قرب النوافل نال مقام المحبوبية ، فإن الله تعالى عندئذٍ يتولاه تولية خاصة في حواسه ومداركه كلها ، فيتولى سمعه فلا يوجهه إلا إلى ما يرضيه ، وهكذا بصره ويده ورجله ولسانه وفؤاده ، وهذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وفي الحديث الذي علمه صلى الله عليه وآله وسلم للحسن رضي الله عنه: «وتولني فيمَن توليت»[3] الحديث.

فلا شيءَ أحب إلى الله تعالى من التقرب إليه بالفرائض التي

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ /٧٤٠٥/ (١٣/ ٣٨٤) ومسلم كتاب الدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى /٢٦٧٥/ (٥/ ٢٥٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الرقاق ، باب التواضع /٦٥٠٢/ (١١/ ٣٤٠).

(٣) تقدم تخريجه في /٤٣٤/.

فرضها سبحانه على عباده المؤمنين ، وما أجهل وما أحمق من اشتغل بالنوافل وكثرة الأوراد وأهمل ما عليه من واجبات تجاه زوجه وولده ووالديه وغير ذلك!!!.

أما النوافل فهي زيادات على الفرائض ، ولا تصير النافلة زيادة على الفرض إلا إذا كان الفرض تاماً كاملاً ، أما من ادعى أنه يصلي النوافل كالسنن وقيام الليل وصلاة الضحى وغيرها؛ وأنه صاحب نوافل فيقال له: لا تنال هذا إلا إذا كانت فرائضك مستقيمة كاملة ، لا ينقصها شيء من الآداب والسنن ، ولا ينقصها شيء من الخشوع لله والحضور والمراقبة.

فلا تَدَّعِ أنك صاحب مقام قرب النوافل ولم تحصل بَعْدُ على مقام قرب الفرائض . وكذلك فريضة الصوم والزكاة والحج وصلة الرحم وغيرها. . .

ومن كانت فرائضه ناقصة ـ كما تقدم ـ فتأتي النوافل لتكمل هذا النقص ، ولا تُعتبر عندئذٍ زيادات على الفرائض ، بل مكملات ومتممات لنقص الفرائض من خشوع وحضور وآداب ونحو ذلك. ففي الحديث: «إنَّ أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خَاب وخسر ـ ولم يَقُلْ تركها بل صلاها ولكنها ناقصة أو فاسدة ، أي: فقد تفسد لجهله في بعض أحكامها ـ وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تبارك وتعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ ـ أي: نوافل ـ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة»[1]: أي: فلا تكون

(١) رواه الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم =

صاحب نوافل إلا إذا زادت نوافلك على فرائضك. فافهم.

وتشمل النوافل بالأعمال والأقوال، ومن أعظمها تقريباً إلى الله تعالى قيام الليل، وهو من أفضل نوافل الصلاة، ففي الحديث «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم ـ أي: ينهى صاحبه ويحفظه عن الوقوع في الإثم ـ ومطردة للداء عن الجسد»[1] الحديث. أي: ليعطيك قوة وصحة في الجسد. فإن أهل الصلاح الخاص هم الذين يواظبون على قيام الليل، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقيام الليل ورغبنا فيه، حتى قال: «صلوا في الليل ولو ركعة واحدةً»[2].

وأفضل قيام الليل التهجد، وهو القيام بعد النوم في الثلث الأخير من الليل، والصلاة لله تعالى فيه.

وفي الحديث: «رحم الله رجلاً قام من الليل يصلي فأيقظ امرأته، فإن استيقظت وإلا نضح الماء في وجهها ـ وفي رواية: «رش الماء على وجهها» ـ ورحم الله امرأة قامت تصلي من الليل فأيقظت زوجها، وإن لم يستيقظ نضحت الماء على وجهه»[3].

= القيامة الصلاة /٤١٣/ (٢/ ١٣٧)، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث في (المسند) (٢/ ٤٢٥) وغيرهما.

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب سؤال العافية /٣٥٤٣/ (٩/ ١٩٩)، والطبراني في (الكبير)، (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٥١) عن سيدنا سلمان رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في (الكبير والأوسط)، (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٥٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب قيام الليل /١٣٠٨/ (٢/ ٧٣) والنسائي فيه أيضاً (٣/ ٢٠٥) وابن ماجه برقم /١٣٣٦/ وابن حبان في (صحيحه) /٢٥٥٨/ =

ومن قام الليل مواظباً سُجل في ديوان الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، ففي الحديث: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا جميعاً؛ كُتبا من الذاكرين الله والذاكرات»[1] ، وفي الحديث: «أشراف أمتي - أي: أعلاهم رتبة في الآخرة - حملة القرآن وأصحاب الليل»[2].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نستغفر الله وقت السحر سبعين استغفارة)[3] أي: بعد الانتهاء من صلاة القيام ، وهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وهو وقت يتجلى فيه رب العالمين على عباده ، ففي الحديث: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[4].

وفي المسانيد: «ألا من مسترزق فأرزقه؟ ألا من مبتلى فأعافيه؟

= (٤/ ١١٨) والحاكم في (المستدرك) (١/ ٣٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث له طرق متعددة بألفاظ متقاربة عند النسائي وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم ، والنسائي في الكبرى ، ابن ماجه /١٣٣٥/ وابن حبان /٢٥٦٠/ والحاكم في (المستدرك) (١/ ٣١٦).

(٢) رواه الطبراني عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، (مجمع الزوائد) (٧/ ١٦١) ، وانظر تخريجه موسعاً في (الترغيب والترهيب) (١/ ٤٨٥).

(٣) عزاه في (الدر المنثور) (٢/ ٢١١) إلى ابن جرير وابن مردويه.

(٤) رواه البخاري كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة في آخر الليل /١١٤٥/ (٣/ ٢٩) ومسلم في صلاة المسافرين ، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه /٧٥٨/ (٢/ ٨٤٢) والترمذي في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في نزول الرب عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة /٤٤٦/ (٢/ ١٦٤).

ألا سقيم فأشفيه؟ حتى يطلع الفجر» الحديث[1].

وإن الرب إذا تجلى فعلى العبد أن يتحلى، وذلك بالقيام والصلاة وقراءة القرآن والدعاء؛ لينال من خير ذلك التجلي.

وإن المؤمن لما يصير في عالم البرزخ تنكشف له أسرار الأوقات في عالم الدنيا، ويطلع على فضائلها وأنوارها، فإذا كان من قوام الليل ومرت تلك الأوقات عليه فرح بها ونال من أنوارها، ولكن الحسرة كل الحسرة على من ضيع تلك الأوقات بالنوم والغفلة.

وقام بعض الصالحين من الليل فسمع المُذَكِّر يذكر ويقول:

يا رجال الليل جدوا ... رب داع لا يرد

ما يقوم الليل إلا ... من له عزمٌ وجد

ليس شيء كقيام الـ ... ـليل للقبر يُعد

فقال له الرجل الصالح بعد أن فرغ من الصلاة: زدني زدني.

فقال:

قد مضى الليل وولى ... وحبيبي قد تجلى

فلا تحتجب عن حبيبك إذا تجلى، فهذا سوء أدب وقلة حياء، فمن أحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فعليه أن يَسلك طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحديث: «عجب ربنا من رجلين ـ وفي رواية: «إن الله ليضحك إلى رجلين» أي: إنه يرضى كل الرضا ـ رجل ثار عن

---

(١) انظر مجمع الزوائد (١٠/١٥٣ و١٥٤).

وطائـه ولحافـه من بين أهله وحِبِّـه ـ أي: زوجـه وأولاده ـ إلـى صلاته ، فيقول ربنا: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه مِنْ بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي» الحديث(١) .

وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون ،
وكلما غفل عن ذكره الغافلون صلاة وسلاماً دائمين
إلى يوم الدين آمين
والحمد لله رب العالمين

❊ ❊ ❊

---

(١) وتمامه «ورجل غزا في سبيل الله فانهزم الناس ، وعلم ما عليه في الانهزام ، وماله في الرجوع ، فرجع حتى أُهريق دمه ، رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه» رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/٤١٦) وانظر (مجمع الزوائد) (٢/٢٥٥) وابن حبان في (صحيحه) فصل في قيام الليل /٢٥٤٨/ (٤/١١٤).

المحتوى

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب ـ مدخل لترجمة الشيخ الإمام رضي الله عنه . .	٥
ولادته ونشأته العلمية	٧
دراسته للعلوم الشرعية	٩
اشتغاله بعلم التفسير والحديث	١٠
مطالعته وتدريسه	١٢
افتتاحه للمدرسة الشعبانية ـ وتأسيسه لجمعية التعليم الشرعي	١٤
كلمات حول ميزات دروسه العامة	١٨
كلمة حول دروسه في جامع الحموي	٢٣
نفحات محمدية ﷺ: آثارها وأنوارها	٢٥
سلوكه طريق العبادة والتقرب إلى الله تعالى	٢٧
بعض كراماته رحمه الله تعالى	٣٠
إجازات وشهادات	٣٧
مؤلفاته رضي الله عنه	٤٢
عطايا إلٓهية ومنح محمدية ﷺ	٤٤
خدمته لماء وضوء النبي ﷺ	٤٦

خدمته لحجرات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعهده بيت المؤنة ٤٧
خدمته للبيت الذي يجتمع فيه الأنبياء عليهم صلاة الله وسلامه ٤٧
جواره للحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنوَّرة وبيان ما نال من المكرمات ٥٠
خصائص وفضائل ٥٧
بشائر وحقائق ٦٣
تبركه بالأثر النبوي الشريف وتعظيمه له ٦٥
مجالس تذكير ونصح ٦٨
نسيم الوصل يُؤذن بكشف الحجاب ولقاء الأحباب ٧٢
مقدمة المحاضرات ٧٦

المحاضرة الأولى ٨١
مقدمة المحاضرة الأولى ٨٣

موقف تلاوة آيات الله تعالى ٨٥
معنى الآيات الكونية والشرعية ٨٥
سماع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن الكريم من الصحابة رضوان الله عليهم ٩٠
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ مفصلاً .. ٩٢
الكلام حول قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ .. ٩٣

الحكم والفوائد من تلاوته ﷺ لكتاب الله تعالى ٩٩
١ ـ بيان أنّ هذا القرآن الكريم معجز ٩٩
٢ ـ إيصال نور القرآن الكريم إلى قلوب السامعين ١٠٠

٣ ـ إسماع كلام الله تعالى ١٠٠
٤ ـ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم تنزلاً لروحانية القرآن الكريم وسكينته ونوره ١٠١
٥ ـ أخبر الله تعالى أنه أمر كل رسول أرسله بتلاوة كتابه سبحانه على قومه ١٠٣
قصة إسلام عثمان بن مظعون رضي الله عنه ١٠٣
قصة إسلام عَمْرو بن الجموح رضي الله عنه ١٠٥
قصة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٠٥
ومن فوائد تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم لآيات الله تعالى التماس العبد ذِكرَهُ ووصفه في القرآن الكريم بيان ذلك مفصلاً . ١٠٨
الأحنف بن قيس يلتمس ذِكْرَهُ في القرآن الكريم؟!! ١١٠
بيان معنى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ ١١٢
التحذير من هجر القرآن الكريم ١١٣
بيان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع المصحف الشريف ١١٣
النظر في المصحف عبادة ١١٥
سلطان الوحي الإلۤهي وعظمته ـ تنزلات القرآن الكريم على القلوب ١١٧
الخشوع وآثاره ١١٧
بيان حال الصحابة والتابعين عند سماع القرآن الكريم ١٢٠
بيان السبب الذي يحمل القلب على الخشوع عند سماع القرآن الكريم ١٢٤
المحاضرة الثانية ١٢٧
مقدمة المحاضرة الثانية ١٢٩

الحكم والفوائد المترتبة على تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم لآيات الله تعالى ١٣١
١ ـ حتى يبين للعالم أنه رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم ١٣١
٢ ـ إيصال الروح القرآني إلى القلوب ١٣٣
بيان حال الناس حين سماع القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ١٣٦
قصة سماع أبي جهل القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ١٣٦
قصة سماع عتبة بن ربيعة القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ١٣٨
قصة سماع الوليد بن المغيرة القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ١٤١
ضرب الله تعالى مثلاً لأثر الروح القرآني على القلوب؟! ... ١٤٣
علَّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته ما فيه تفريج الهَمِّ والكرب ١٤٦
٣ ـ القرآن الكريم له هيمنة وسيطرة على القلوب حين سماعه ١٤٧
بيان حال الصحابة عند سماع القرآن الكريم ١٤٨
٤ ـ القرآن الكريم رسائل من رب العالمين إلى كل مكلف من الإنس والجن ١٥١
٥ ـ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن الكريم على الناس دعوة إلى الله تعالى ١٥٢

٦ ـ في تلاوته للقرآن الكريم استعراضاً لآيات الله تعالى الكونية
. . . . ١٥٣
بيان جملة من إخبارات القرآن الكريم ١٥٤
موقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تعليم الناس
الكتاب والحكمة.. الكلام حول ذلك مفصلاً ١٥٨
بيان حال أهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم ١٦٠
سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه وأهل الصفة الكرام؟!!! . . . ١٦١
حث صلى الله عليه وآله وسلم على تلاوة القرآن الكريم وحذر من
نسيانه ١٦٢
علّم صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة من علوم القرآن الكريم:
الشريعة ـ والتوحيد ١٦٢
القرآن الكريم اشتمل على جميع الكتب السماوية السابقة ـ ذكر
أدلة ذلك ١٦٤
أمر صلى الله عليه وآله وسلم بكتابة ما ينزل عليه من القرآن
الكريم ١٦٥
أخبر الله تعالى عن أوصاف الكتب السماوية ١٦٥
القرآن الكريم له الهيمنة على الكتب السابقة ١٦٦
الأمة المحمدية لها الهيمنة على الأمم قبلها ١٦٧
لابد لفهم القرآن الكريم من نور من عند الله تعالى ١٦٨
طرق تفسير القرآن الكريم ١٦٩
١ ـ تفسير القرآن بالقرآن ١٦٩
٢ ـ تفسير القرآن بالسنة المطهرة ١٧٢
٣ ـ مفاهيم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ١٧٢

ذكر جملة من الحكم القرآنية ١٧٥
المحاضرة الثالثة ١٨١
مقدمة المحاضرة الثالثة ١٨٣
موقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تزكية النفوس ١٨٥
بيان حاجة الإنسان إلى تزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٨٦
يجب على المسلم أن يُحكم الصلة بينه وبين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٩٠
بيان وجوب حاجة الإنسان إلى تزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٩٢
شرف الإنسان واعتباره على حسب تحققه بالتكاليف الشرعية ١٩٧
التحذير من الذنوب لأن لها ظلمة تحجب القلب عن الله تعالى ٢٠١
علاقة التزكية ومعناها ٢٠٤
المحاضرة الرابعة ٢١١
مقدمة المحاضرة الرابعة ٢١٣
معنى التزكية ٢١٥
أمر صلى الله عليه وآله وسلم بالنظافة من الدنس ، وبيَّن أن النظافة من الإيمان ٢١٥
تزكيتهُ صلى الله عليه وآله وسلم للنفوس ٢١٧
نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن إيذار الجار ـ بيان الجار؟ . ٢١٩
ذكر قدوم وفد عبد القيس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٢٠

جاءت الرسل بالشرائع التي فيها بيان أمراض القلوب وعلاجها ـ بيان ذلك مفصلاً ٢٢٢
الكلام المفصل حول حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والظن» ٢٢٧
جميع أنواع التقوى وفروعها تُسْتَمَدُ من قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢٤٠
ذكر بعض خصائص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢٤٣
كان خُلُقُه صلى الله عليه وآله وسلم القرآن. . . ذكر جملة من محاسن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم ٢٤٥
بيان حق الله على عباده وحق العباد على الله تعالى ٢٥٢
وصيته صلى الله عليه وآله وسلم سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ٢٥٣
ذكر جملة من آثار تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم في الصحابة رضوان الله عليهم ٢٥٤
بين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضبة بن محصن العَنزي؟ ٢٥٦
سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا العباس رضي الله عنهما والميزاب ٢٥٩
سيدنا عمر رضي الله عنه مع سيدنا أويس القرني رحمه الله تعالى ٢٥٩
جملة محاضرات حول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ . . . ٢٦٥

مقدمة المحاضرات ٢٦٧
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يتضمن ثلاث مراتب ٢٦٨
١ ـ شاهداً لله بالوحدانية ٢٦٨
٢ ـ شاهداً على أمتك وما يعملون ٢٦٨
٣ ـ شاهداً مزكياً لمن اتبعك بالعدالة ٢٦٨
الكلام المفصل حول هذه المراتب الثلاثة ٢٦٨
كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على
يده يُرْدِفه بالشهادة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ـ ذكر أدلة ذلك ٢٧٠
مما كان يقوله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وراء كل
صلاة ٢٧١
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشهد على هذه الأمة
بأعمالها ٢٧٢
أعمال العباد تُعرض على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم، وعلى أقارب الميت وعشيرته ـ ذكر أدلة ذلك مفصلاً . ٢٧٤
هناك عرض للأعمال على رب العزة سبحانه وتعالى ٢٧٥
الجواب المفصل عما يقال: كيف يُعرض الإنسان وهو في الدنيا
على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢٧٧
أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم زكاها وعَدّلها صلى الله
عليه وآله وسلم لتقبل شهادتها على الأمم قبلها ٢٧٨

في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بيان فضل الأمة المحمدية المتبعة
لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢٨٣
أخبار النقل تصحح أخطاء العقل وتقوِّم اعوجاج الفكر ٢٨٥
من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم:
الدعوة إلى الله تعالى ٢٨٨
عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم ٢٨٨
وضوح دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وطريقها ٢٩٠
وجوه دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما دعا ٢٩٢
طريقة الذي دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم ٢٩٨
مما فضل الله تعالى به سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام؟!!!
.... ٣٠٠
مبادىء دعوته صلى الله عليه وآله وسلم ٣٠١
وجوب الاستجابة لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم ٣٠٧
منهج دعوته صلى الله عليه وآله وسلم ٣١١
انقسم الناس في الدعوة إلى ثلاثة أقسام: ٣١١
١ ـ أهل الفطرة السليمة والعقل الراجح الصحيح ٣١١
٢ ـ من تغيرت فطرتهم من حيث الأعمال ومالوا إلى اتباع
الشهوات ٣١١
٣ ـ قسم تغيرت فطرتهم فهم يحتاجون إلى الحجج والبراهين ٣١١

من جملة من دعاهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعرض الحكمة فاستجاب ضمام بن ثعلبة ـ ذكر قصة إسلامه رضي الله عنه ٣١٢
ومن هؤلاء عدي بن حاتم رضي الله عنه ـ ذكر قصة إسلامه . ٣١٥
ومن هؤلاء عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه ـ ذكر قصة إسلامه ٣١٨
ومن هؤلاء وفد الأزد ـ ذكر قصة إسلامهم رضي الله عنهم . ٣٢٠
ينبغي للمسلم أن ينافس على أمور الآخرة وليس الدنيا وما فيها ٣٢٤
ومن هؤلاء النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه ـ قصته مع سيدنا جعفر رضي الله عنه ٣٢٧
تبرك الصحابة بماء غَسَلَ ومجَّ فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٣٢٩
ومن جملة من دعاه صلى الله عليه وآله وسلم بعرض الحكمة: الملوك والأكاسرة ٣٣٠
دعوته صلى الله عليه وآله وسلم هرقل عظيم الروم إلى الإسلام ـ ذكر خبر ذلك مفصلاً ٣٣٠
بعض فضائل بسم الله الرحمن الرحيم ٣٣٤
ذكر الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ووصفهُ بالعبودية لله تعالى في أعلى المناصب والمواقف ـ ذكر أدلة ذلك ٣٣٥
الأرض تشهد وتُحدِّث بأخبارها ٣٣٧

ذكر خبر التنوخي رسول هرقل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٣٤١
من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنه السراج المنير صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أدلة ذلك مفصلاً ٣٤٣
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سراج ظاهر نوره في نفسه وذاته وجسمه وخلقه وشرعه وهكذا ٣٤٦
الجواب عما قد يقال: لِمَ لَمْ تؤمن كفار قريش وقد رأوا هذه الأنوار؟!!!! ٣٤٦
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سراج مُنَوِّرٌ للقلوب والعقول ـ بيان ذلك مفصلاً ٣٤٧
ذكر بعض صفات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة ٣٤٨
ذكر خبر وفد نجران مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٣٥١
العلماء العاملون نجوم يُهتدى بهم في ظلمات الضلال ٣٥٣
من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنه رحمة للعالمين ٣٥٥
سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين في جميع العالمين ـ ذكر أدلة ذلك مفصلاً ٣٥٦
١ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالكفار ٣٥٧
٢ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالمنافقين ٣٥٩
٣ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الكبائر ٣٦١

٤ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالصبيان ٣٦٢
٥ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالزوجات الطاهرات وقراباته
صلى الله عليه وآله وسلم ٣٦٣
بيان مشروعية الحجاب ـ وعدم جواز اختلاط النساء بالرجال ٣٦٥
٦ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالحيوانات والبهائم .. ٣٦٦
ما من رحمة في الدنيا والآخرة إلا بواسطة سيدنا محمد صلى الله
عليه وآله وسلم ـ أدلة ذلك ٣٦٧
من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه إمام
الأئمة وهادي كل أمة ٣٧١
بيان الأوامر التي كلف الله تعالى بها سيدنا إبراهيم عليه السلام
.... ٣٧٣
أَخَذَ الله العهد على جميع الأنبياء والرسل أن يؤمنوا بسيدنا محمد
صلى الله عليه وآله وسلم ٣٧٤
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة في جميع
العوالم ٣٧٦
نماذج من مواقف الصحابة رضوان الله عليهم في الاتباع الكامل
لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٣٨٠
بعض الكلام حول تفسير أوائل سورة الحجرات ٣٨٦
تنبيه؟ ٤٠٦
جملة محاضرات حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في هدي
العالم: مراتبه ـ مقاصده ـ أنواعه ٤٠٩

جمع الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جميع مراتب الهدي الذي جاءت به الأنبياء ، وزاده بالهدي المحمدي الخاص به صلى الله عليه وآله وسلم ٤١٨
من أراد الوصول إلى الله تعالى فعليه أن يتبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ٤٢٠
حول هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين ٤٢٤
١ ـ أنواع الهدي الإلَهي للعالمين ـ ذكر أدلة ذلك ٤٢٤
٢ ـ هدي البيان مع الدليل والبرهان هو هدي المكلفين ... ٤٢٦
٣ ـ هدي التوفيق إلى الإيمان ـ وبيان مراتب الإيمان ، ومقامات القرب لله تعالى ٤٣٢
أنواع الهدي الإلَهي للعالم: ٤٤٠
١ ـ الهدي العام لجميع المخلوقات ٤٤٠
٢ ـ هدي البيان والدلالة لما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ٤٤٠
العلماء العاملون الذين نَشَروا دعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحاديثه لهم عند الله أجر عظيم ٤٤١
٣ ـ هدي التوفيق ٤٤٢
الإنسان محتاج في كل لحظة إلى أن يهديه الله تعالى للإيمان ـ أدلة ذلك ٤٤٣
من وفقه الله تعالى للإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقد نال فضلاً كبيراً من الله تعالى ٤٤٦
من جملة رحمة الله تعالى القرآن الكريم ٤٤٦
نبه الله تعالى المؤمن أن يشكره على نعمة الإيمان ٤٤٨

بيان ما يعطي الإيمان من مكرمات مفصلاً مع الأدلة ٤٤٩
حول هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين ـ بيان فضل الإيمان وأنه أعظم النعم الإلّهية على العبد – ذكر أدلة ذلك مفصلاً مع الأدلة ٤٥٦
معرفة الأشياء بربها وتسبيحها له ـ ذكر أدلة ذلك مفصلاً . . . ٤٧١
حول هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين ـ بيان فضل التوفيق للإيمان بالله تعالى ٤٨٣
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ٤٨٣
جملة من المكرمات التي ينالها المؤمن بسبب إيمانه ٤٨٤
شَرَّفَ الله تعالى المؤمن بالتقرب إليه سبحانه ٤٨٩
بيان طريق التقرب إلى الله تعالى ٤٨٩
الترغيب بقيام الليل، وذكر الله تعالى في السحر ٤٩٣

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
والحمد لله رب العالمين

* * *

كتب للشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- حول تفسير سورة قٓ .
- حول تفسير سورة الملك .
- حول تفسير سورة الإنسان .
- حول تفسير سورة الكوثر .
- حول تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ .
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- شهادة لا إلٰه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
- التقرب إلىٰ الله تعالىٰ : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
- الصلاة علىٰ النّبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلىٰ الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالىٰ .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
- مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح ـ حلب : هاتف ٣٢١٧٣٠٠ - ٣٦٢٣٧٥٧

محاضرات حول
مواقف سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم
مع العالم
في الوعظ والتذكير

ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رحمه الله تعالى

تقديم وجمع
ولده
محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط
تلميذه
محمد علي الإدلبي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام الحافظ المفسر المحدث

الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

كلما قرأت في كتاب من كتبه، أو سمعت بخبره

وجزاك الله خيرًا

بسم الله الرحمن الرحيم

مُحاضراتٌ حوْلَ

مَواقِف سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ

صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مع العالم

في الوعظ والتذكير

أَلقاها العلَّامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى

تقديم وجمع

وَلَدِهِ

محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط

تِلميذِهِ

محمد علي الإدلبي

الجزء الثاني

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ـ ٢٠٠٥م

مطبعة الصباح

دمشق ـ هاتف ٢٢١٥١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنّي أحمد الله تعالى أنْ وَفّقني لتقديم جزءٍ آخر من الآثار العلمية الطيبة المباركة، التي وَرَّثها مولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه، ويتجلى ذلك في الكتاب الذي حوى مجموعة من المحاضرات، التي ألقاها شيخنا الإمام رضي الله عنه في جامع بانقوسا، الواقع في محلة باب الحديد، في مدينة حلب حرسها الله تعالى؛ وسائر بلاد المسلمين.

وقد كان لشيخنا الإمام رضي الله عنه درس في هذا الجامع بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، بالإضافة إلى دُروسه الأخرى في الجامع الكبير، وجامع الحَمَوي وحلقاته العلمية في التفسير والحديث في مدرسة التعليم الشرعي، التي تعرف بـ المدرسة الشعبانية.

وكانت مدة الدرس في الجامع تزيد عن ساعة زمنية، يستغرق فيها الشيخ الإمام رضي الله عنه في البحث والبيان، وسرد الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة، بأسلوب الإلقاء؛ دون أن يقرأ من كتاب أو صحيفة.

وكان قد تناول البحث حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم فترة قاربت عشرين سنة، وقد أطال وفصّل الكلام في ذلك، خاصة حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تعليم الكتاب، وسيأتي ذكر ذلك في أجزاء أخرى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقد قَدَّمت في الجزء الأول من هذا الكتاب جملة واسعة من محاضـرات شيخنا الإمام رضي الله عنه، حول موقفه صلى الله عليه وآلـه وسـلم في تـلاوة آيات الله تعالى على العالم، وفي تزكية العالم، وفي تعليم الكتـاب والحكمـة، وفي موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة إلى الله تعالى، وأَنَّـه صـلى الله عليه وآله وسلم رَحْمَةُ الله الكبرى للعالمين في جميع العـالمين، وأَنَّ الله تعـالى أرسله سِراجاً منيراً، وإماماً وهادياً للعالمين إلى يوم الدين.

وإنّي قد جمعت ما يَسّره الله تعـالى لي مـن محاضـرات حـول مواقـف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم مـع العـالم في الـوعظ والتـذكير، والتي كان شيخنا الإمام رضي الله عنه قد أتى على بيانها في دروس كثيرة لفتـرة طويلة، وقد أفاد وأجاد الكلام حول ذلك، مفصلاً بأدلة من الكتاب والسّنة.

وَبيَّنَ أنواع الوعظ والتذكير، ومراتب كل منها، فهناك الوعظ والتذكير القرآني، وهناك الوعظ والتذكير المحمدي النبوي.

وبيَّن فضائل الوعظ والتذكير وأثرها في القلوب.

وفي هذا يقول سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾.

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.

فهناك التذكير القـرآني بآيـات الله تعـالى، والتـذكير بـآلاء الله تعـالى، والتذكير بأيام الله تعالى... وغيرها مما يجده القارئ الكريم في هذا الكتاب.

ولقد كانت دروس ومحاضرات شيخنا الإمام رضي الله عنـه متسلسـلة في الأبحاث والمواضيع، ولذلك كان يفتتح كـل محاضـرة بمقدمـة جامعـة يجمل فيها الكلام على ما تقدم بيانه في محاضراته السابقة مُفَصَّـلا، وذلـك حتى يتذكر السامع ويستجمع فكـره، ويـرتبط البحـث بمـا قبلـه، فتنسـاب

العلوم إلى قلب السامع بأسلوب علمي سهل، مقبول لـدى جميـع طبقـات الناس، على اختلاف درجاتهم في الفهم والعلم.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يذكّر السامع أثناء محاضـراته بـأمور هامـة كان قد ذكرها من قبل، وذلك لبيان أهميتـها ومنزلتـها في ديـن الله تعـالى، وليس ذلك مِنْ قبيل الإعادة أو التكرار الذي لا فائدة منه، إذ قد يذكر الآيـة أو الحديث أو طرفاً منه عدة مرات حسب ما يقتضيه سياق البحث، ويتناول الكلام حول الموضوع ذاته في كل مرة من جانب ؛ ولا يخفى مـا في ذلـك من الفوائد على كل ذي نباهة وروِيّة.

وإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم، بجاه نبيـه ورسـوله سـيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذي الخلق العظيم، أن يجعـل هـذا العمـل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به أصناف العبـاد في آفـاق الـبلاد إلى يـوم المعاد، وأن يجعل ثواب ذلك في صحيفة حسنات مولانا الشيخ الإمـام رضـي الله عنه، وأن يجعله نوراً في كتاب أعماله الواسع.

كما وأسأل الله تعالى القريـب المجيـب متوسّـلاً إليـه بالسـيد الشـفيع الحبيب صلى الله عليه وآله وسـلم، أن يرفـع مقـام والـدنا وشـيخنا الشـيخ الإمـام رضـي الله عنـه إلى أعلـى المقامـات، وأن يكرمـه بـأعلى المنـازل والدرجات، وأنْ يجمعنا معه في زُمرة الأحبـاب في حضـرة أكـرم الأولـين والآخرين على رب العالمين، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آمين.
﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين

جملة محاضرات حول
الوعظ والتذكير القرآني
التذكير بآيات الله تعالى ـ التذكير بآلاء الله تعالى
التذكير بأيام الله تعالى

ويليها محاضرات
حول بعض المواعظ القرآنية
والتذكير ببعض أسرار الصلاة * والصيام * والحج

المحاضرة الأولى

في

الوعظ والتذكير

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الوعظ والتذكير من مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ، لأن الله تعالى أرسل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وله مع العالم مواقف ؛ تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومن هذه المواقف: المواقف الأربعة التي ذكرها الله تعالى بقولـه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن جملة هذه المواقف موقف الوعظ والتذكير، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢٢].

ولقد وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس وذكرهم بالقرآن وآيات القرآن قال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وهذا هو الوحي القرآني النازل عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

كما وعظ صلى الله عليه وآله وسلم وَذَكّر بأحاديثه وبياناته صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الوحي النبوي الذي أوحاه الله تعالى إليه.

واعلم أيها المؤمن أنَّ كل موقف من هذه المواقف المحمدية يتطلب منك جواباً وموقفاً، وإنّ الله تعالى سوف يسأل كلَّ فرد من هذه الأمة عن

موقفه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وماذا عمل بتزكيته ؟ وما عمل ببشائره صلى الله عليه وآله وسلم وماذا عمل بتعاليمه، وماذا عمل بمواعظه وتذكيره صلى الله عليه وآله وسلم، وماذا كان موقفه مع هذه المواقف التي وقفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، وبَلَّغهم رسالة الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وإن كل موقف وقفه صلى الله عليه وآله وسلم - من مواقفه التي جاء بها - وكل ما بَيَّنَهُ من المراتب إنما هي أمور تتوقف عليها مصالح العالم، وسوف يسأل الله تعالى العالمَ عنها.

فائدة الوعظ والتذكير :

إنّ للوعظ والتذكير أثراً كبيراً في النفوس، لا يستغني المؤمن عنها أبداً، وينتفع كل مؤمن على حسب المقام الذي هو فيه.

ومن فوائد الوعظ والتذكير وأثرهما على النفوس أنّه بهما تُقْهر المدارك الظلمانية بذكر الأنوار الربانية القدسية العالية، ويزول عن القلب ما فيه من ظلمات وغفلات وشهوات، ويحيى هذا القلب بنور الوعظ والتذكي الإلهي ولذلك قال سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وقال سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه: وَعَظَنَا رَسُول الله صلى

الله عليه وآله وسلم مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الدُمُوع [1].

وفي رواية [2]: وَمَضّت مِنْهَا الجلُود ـ أي: تألمت حتى كادت أن تحترق من خشية الله سبحانه ـ.

* * * * *

(١) الحديث في (سنن) أبي داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة /٤٦٠٧/ (١٣/٥)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع /٢٦٧٨/ (٣١٩/٧) وهو الحديث الثامن والعشرون من أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى.

(٢) في (مسند) الحارث بن أبي أسامة، باب اتباع سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم /٥٥/ (١٩٧/١).

أنـواع القلـوب
بالنسـبة للـوعظ والتـذكير

هناك القلب الذي يتمتع بالحياة الكاملة، وهناك القلب الحـيّ، ولكنـه يعاني من أمراض وأسقام، وهنـاك القلـب الميـت، المعـرِضُ صـاحبُهُ عـن الحق، وفي هـذا يقـول سـبحانه في سـورة ﴿قٓ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾. والمعنى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾؛ ولكن مَنْ هُـوَ الـذي ينتفع بهـذه الـذكرى؟ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أي: قلـب حـي سـليم. ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧] وهو صـاحب القلـب الحـي؛ لكنـه مـريض سقيم بمرض من أمراض القلوب كالغفلة، ولكَي ينتفع صاحب هذا القلـب بالوعظ والتذكير، عليه أن يُلقي سمعه، أي: يتوجه بسـمعه ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ أي: حاضر القلب.

فإذا أحضر قلبـه، وألقـى سمعـه أحيـاه الله تعـالى، وَسَـلِمَ قلبـه مـن المرض، أما مَنْ لم ينتفع بالتذكر والوعظ؛ فقـد ألقـى سمعـه ولكـنَّ قلبـه غافل غير شهيد، أو حضر ولم يسمع.

أما مَنْ حَقَّـقَ الأمـرين فـلا بُـدَّ مِـنْ منفعتـه وصـلاحه، وشـفاء قلبـه من الأمراض.

وإنَّ للقلوب أمراضاً لا تُعالج إلا بالقرآن ومواعظه وتذكيره.

ومن جملة هذه الأمراض مـرض النفـاق، قـال سـبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم

﴿مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال سبحانه في مرض الشهوة: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وإن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: له قلب حيٌّ سليم من الأمراض القلبية، وهو المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ـ٨٩] والقلب السليم يقابله القلب السقيم بمرض من أمراض القلوب، كالشبهات والغفلات، فلمّا يَرِدُ نور الوعظ والتذكير الإلهي إلى القلب الفطري الإيماني السليم، يستنير هذا القلب ويضيء حتى يَلتقي فيه نور على نور، وهذا القلب السليم هو المعنيُّ بقوله سبحانه: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نور الإيمان في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥] أي: التقىٰ نور الوحي المحمدي النازل من عند رب العالمين، على نورٍ إيماني فطري في قلب المؤمن، وصاحب هذا القلب هو صاحب القلب الحيِّ الذي قال فيه سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] أي: بقلبه.

وإنّ صاحب هذا القلب يرى كل ما يرد عليه من جانب الحق يراه هو الحق، قال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

وتأمل في قوله سبحانه: ﴿وَيَرَى﴾ ولم يقل ويسمع، لأنهم يسمعون ويرون نور كلام الله النازل على القلوب، يرونه واضحاً حقاً، وفيه صار قلبه قلباً حياً سليماً، رأى نور الله تعالى، وذلك بأن تنكشف لصاحبه أنوار الذات وأنوار الصفات، وأنوار الشؤونات الإلهية.

أما انكشاف أنوار الذات لصاحب القلب السليم ففي هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم في صاحب مقام الإحسان: «أَنْ تَعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ»(١) أي: تشهده ببصيرة قلبك كأنك تراه ببصرك.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «اعبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاه، وكن في الدُّنيا كأنَّك غَرِيْبٌ أو عَابِرُ سَبِيل»(٢).

ولقد تحقق الصحابة الذين أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، تحققوا بهذا المقام.

ومن هذا: لما كان ابن عمر رضي الله عنهما يعبد الله بطوافه حول الكعبة، ومرَّ رجل فسلم عليه ولم يردَّ، فشكاه إلى أبيه سيدنا عمر رضي الله عنه ـ لأنّ السلام حق إيماني ـ.

فقال ابن عمر لأبيه: يا أبت كنا نطوف حول الكعبة كنا نتراءى الله تعالى، وقد شَغَلنا ذلك، ولم نلتفت إلى غيره سبحانه.

فلقد انكشفت له الأنوار بالقلب، حتى كأنه يراها بعينه.

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم /٥٠/ (١/١٤٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في أول كتاب الإيمان /٩/ (١/١١٦) عن سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الحديث في (المسند) للإمام أحمد (٢/١٣٢) وينظر (مجمع الزوائد) (٢/٤٠).

وأما انكشاف أنوار الصفات لصاحب القلب السليم فهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أي: بمقتضى نور اسم الرقيب، وهو من صفاته سبحانه.

وأما انكشاف أنوار الشؤونات لصاحب القلب الحي السليم، فقد ورد عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما رواه الترمذي وأحمد[1] عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنه قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ـ أي: نحن الصحابة، قلنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: مَا لَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا، وَزَهِدْنَا فِي الدُّنْيَا، وكنا من أهل الآخرة، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ آنَسْنَا أَهَالِينَا، وَشَمَمْنَا أَوْلَادَنَا: أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنَا. أي: تغير الحال معنا.

(رَقَّتْ قلوبنا): تلطفت، وإذا رقَّ الشيء انعكس فيه ما أمامه.

(وكنَّا من أهل الآخرة): أي: كأنهم يُعاينون أمور الآخرة. وهذا من باب انكشاف الشؤونات في المجالي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ أَنَّكُمْ تكونون إِذَا خَرَجْتُمْ من عندي، كُنْتُمْ عَلَى حَالكم ذلك لَصَافَحَتْكُم الْمَلَائِكَةُ بأكفهم، ولَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ».

قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قَالَ: «مِنْ الْمَاءِ». وهو ماء الحياة الذي خلق الله منه الخلق.

فقلت: يا رسول الله الْجَنَّةُ مَا بِنَاؤُهَا؟

فقَالَ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ، ولَبِنَةُ فِضَّةٍ ـ أي: من ذهب وفضة الجنة الباقي ـ

---

(١) السنن كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها /٢٥٢٨/ (٢١٠/٧)، و(المسند) (٣٠٤/٢).

وَملاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللؤلؤ وَالْيَاقُوتُ، وتُرْبَتُهَا ـ التي توطئ بالأقدام ـ الزَّعْفَرَانُ».

فما أعظم المؤمن عند ربه، وما أكرمه على الله سبحانه، حتى راح يطأ بقدمه تربة الجنة، التي هي الدر والياقوت والزعفران ؟!

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلاَ يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُم ولاَ يَفْنَى شَبَابُهمُ» اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ » أي: أيَّ مظلوم كان؛ ولو كان فاسقاً «يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول سبحانه: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

وروى مسلم في (صحيحه)(١) عن حنظلة بن الربيع الأسَيِّدي رضي الله عنه، وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أحد كُتَّاب الوحي ـ قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ لي: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟

قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ.

قَالَ: سُبْحَانَ اللَّه مَاذَا تَقُولُ ؟!

فقَالَ حنظلة: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ عَافَسْنَا ـ خالطنا ـ الأَزْوَاجَ والأولاد وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيراً.

---

(١) في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة /٢٧٥٠/ (٥/ ٢٦٣١) وانظر: (سنن) الترمذي /٢٥١٦/ وابن ماجه /٤٢٣٩/.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: فوالله إنا لنلقى مِثْلَ هَذَا ـ أي: أنه يجد شيئاً مِنْ تغير الحال، لأنه أعلى في الرتبة والفضل ـ.

فَانْطَلَقْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وذكرا له ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه إنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ: لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثلاث مرات.

فلقد شهدوا ذلك، وانكشفت لهم هذه الأنوار، لأنهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو مجلس له شأنه وأحكامه وأسراره، كما أنّ قلوبهم قلوب حية سليمة، تنعكس فيها هذه الأنوار فتشهد ما شهدت، ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يذكر أصحابه ويعظهم، وهذا التذكير ليس للصحابة فحسب، وإنما للأمة كلها، وفي هذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَتَخَوَّلُنَا بالموعِظَةِ كَراهِيَةَ السآمة علينا)[1] أي: يعظنا أياماً وأياماً حتى لا نمل ونسأم.

وهذا عملٌ بأمره سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) كما في (المسند) (١/٤٢٧).

المحاضرة الثانية

التذكير القرآني

أنواعه ـ مراتبه

جاء في القرآن الكريم أنواع من التذكير وهي: التذكير بالله وكمالاته سبحانه، وهناك التذكير بآلاء الله ونعمه سبحانه، وهناك التذكير بأيام الله تعالى.

ولا بد للتذكير مِنْ نفع وفائدة لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله سبحانه ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٨].

فصاحب القلب المؤمن الحي يزداد يقيناً ومعرفة، وصاحب القلب الغافل يصير من أهل الشهود، وإذا كان القلب سقيماً صار سليماً.

والتذكر قد يُطلق على الذكر باللسان، أو الفكر بالجَنَان، وهذا الأخير هو المراد من التذكير.

التذكير بالله تعالى: وهو ما ورد في القرآن من آيات تذكر الإنسان بمقام رب العالمين، وبعظمة الله وكبريائه وجلاله، ورقابته على عباده سبحانه، وإحاطته بهم، وشهوده لهم.

أما التذكير بأيام الله تعالى: فهو التذكير بأيام عهوده ومواثيقه، ووعده، ووعيده، ونعمه، ونقمه. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وفي هذا يقول سبحانه لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ومن جملة التذكير بالقرآن: **التذكير بأيام الله**، لأنه سبحانه يقول في القرآن: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

ومن جملة أيام الله تعالى: أيام المحن، وأيام المِنَح؛ من الأيام الماضية، والأيام الآتية.

وأيام المحن هي: أيام العقوبات الإلٓهية لأعداء الله سبحانه، كقوم نوح وعاد وثمود.

وأيام المنح هي: أيام النعمة ورحمته سبحانه بأحبابه وأوليائه، إذ إنه سبحانه أهلك مَنْ كفر من قوم نوح عليه السلام؛ ونجى المؤمنين به، وكذلك موسى وإبراهيم عليهما السلام، ثم هناك أيام أخرى فهي أيام منح لأهل الفضل، وأيام مِحَنٍ وعقوبات للكفار والمشركين.

أما التذكير بآلاء الله تعالى: فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فذكر أولاً سبحانه التذكير بالله فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١].

ثم ذكر التذكير بآلاء الله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مَنْ هُو الرزاق لكم؟ إنْ هو سبحانه أمسك المطر، وأقحط الأرض، فَمَنْ غَيْرُهُ يُنزل المطر ويُنْبِتُ الأرض؟ ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النحل: ٦٤].

وفي هذا يتحدى الله عباده على أن يأتوا بخالق أو رازق لهم إنْ هُوَ مَنَع عنهم رزق السماء والأرض، فإذا عجزوا فليوقنوا أنه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: تُصرف عقولكم وأفكاركم.

ثم ذَكَّـرَهُم سـبحانه بأيـام الله فقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

ثم ذَكَّرَهُم سبحانه به وبكمالاتـه فقـال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي: أنتم الفقـراء إلى الله فقـراً ذاتياً اضطرارياً، فلو لا أنه أفاض عليكم الوجود لبقيتم في العدم، ثم أفاض عليكم الكمالات كالسمع والبصر والمـدارك قـال سـبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان]. فليذكر الإنسان ذلك بأن يعرف نفسه بالفقر، ويعرف ربه بالغنى، ويعرف نفسه بالعجز، ويعرف ربه بالقدرة.

ومن عرف نفسه بالفقر والضعف والعجز، عـرف ربـه بـالغنى والقـوة والعظمة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

فهو سبحانه وحـده ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ بذاتـه وكمالاتـه، ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: ولـيس الله غني ذميم، وهذا تعريض بأهل الدنيا، إذ أنهم إذا اغتنوا أمسـكوا حـتى ذمهـم الناس، إلا أن الله تعالى غني حميد، يحمد على نواله وعطائه سبحانه وتعالى.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [فـاطر: ١٦] أي: أنـه سـبحانه تفضـل علـيكم بنعمـة الوجـود فأوجـدكم، إلا أنكـم لا تملكـون وجودكم، فهو سبحانه الذي تفضل عليكم بالإمـداد بـالوجود، و﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بأن يقطع عنكم مـدد الوجـود، ولـيس هـذا بالأمر الصعب عليه سبحانه، فقال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٧].

ولقد ذكر سبحانه في سورة ﴿قٓ﴾ أنواعاً من التذكير، فهناك التذكير بالله، وبآلاء الله، وبأيام الله تعالى وقال في آخرها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القرآن كله، لأنه سبحانه افتتح هذه السورة بقوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

وقد بَيَّن سبحانه أن الذكرى تنفع المؤمنين فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتذكير يرقق القلب ويلطف الأفئدة، حتى تنكشف الحقائق عياناً لصاحب القلب الحي السليم، كما أنّ التذكير يُزيل الظلمات عن القلب السقيم، حتى تنعكس فيه الأنوار الربانية ليلتحق بصاحب القلب الحي ويرتقي في المقامات.

ولذلك افتتح سبحانه سورة ﴿قٓ﴾ بالقلب، ثم بَيَّن فيها وعظ القلب، وتذكير القلب، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

ومعنى ﴿قٓ﴾: قلب النبي عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم الذي نزل عليه القرآن المجيد، والذي فيه الاستعداد الخاص والقابلية لنزول هذا القرآن عليه.

فأقسم سبحانه بالقلب وهو: المنزل عليه، وأقسم بالنازل وهو: القرآن المجيد، لِمَا بينهما من المناسبة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ١٩٤] دون غيره من القلوب، لقوة استعداده، وقابليته صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أنه لا بد للفاعل من قابل على التمام.

فلقد أقسم سبحانه بقلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبالقرآن المجيد النازل على هذا القلب الزكي النقي الطاهر، ثم أفاض على القلوب من قلبه الشريف، دون أن يَغيض ما فيه. وهذا ما يعرف بالنور المفاض، كما تَمتد الشمس على الجدران والأسطحة دون أن ينقص من نورها شيئاً، إذ أن نورها ليس بالنور المنفصل كتطاير الشرار مثلاً.

وإن فواتح السور المفتتحة بالحرف كقوله: ﴿قٓ﴾ إنما هي لغة بين الأحباب، يفهمها أولوا الألباب، فَمِن حَرْفٍ يفهمونَ حروفاً، وربما دل الحرف على حروفٍ، وربما دلت الكلمة على كلمات.

ثم ذكر سبحانه ما يذكر الإنسان بآلاء الله ونعمه فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩].

ثم ذكر سبحانه عواقب الأمم السابقة **وهذا من التذكير بأيام الله تعالى**، فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [ق: ١٢].

ثم ذكَّر سبحانه بمقامه وعظمته فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [ق: ١٦].

فلقد ذكر سبحانه مبدأ هذا الإنسان، ووسطه وعواقبه وخواتمه. ونسأل الله حسن الخواتيم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: وهذا باعتراف الإنسان، إذ أنه لم يخلق نفسه، ولم يخلقه أبوه، أو جَدّه؟ إنما هو سبحانه وتعالى الخالق الذي خلقه وخلق كل شيء.

ولو كنت أيها الإنسان أنت الخالق لنفسك لخلقتها على ما تريد، وعلى أجمل صورة وأحسن صفة، ولجعلت نفسك طويلاً بديناً غنياً صحيحاً، ولأبقيت نفسك شاباً قوياً، لكن الأمر غير ذلك، فالأمر ليس لك، إنما هو لمن بيده الأمر، تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، لأننا نحن الذين خلقناه، وخالق الشيء أعلم به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] فما مِنْ شيء فيه إلا ونعلمه حتى ما يمر على قلبه من خواطر، وعلى نفسه من وسوسة وهواجس، فَمِنْ باب أولى أننا نعلم ما استقر في قلبه من نيات وعزائم، وما صدر على جوارحه من أعمال وأقوال !!.

وفي هذا تنبيه للإنسان أن لا يغفل عن الله تعالى، وأن يكون دوماً على مراقبة لله تعالى، وأنه سبحانه هو الرقيب عليه، وأنه سبحانه العليم بما أضمره في نفسه، أو أخفاه في صدره.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] والوريد ما يَرِدُ فيه من القلب إلى الرأس، وهما عِرقان محيطان بالعنق، إذا انقطعا مات الإنسان وليس هذا القرب قرباً جسمانياً أو روحانياً، وإنما هو قرب لائق بجلاله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ـ ١٨] يُخبر سبحانه عن الملكين اللذين وكِّلا بكتابة أعمال كل إنسان وأقواله، وهما ملك اليمين الذي وكل بكتابة أعمال الخير، وملك الشمال الذي وكل بكتابة أعمال الشر، **وكل منهما** ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: وهذا الوصف لكل ملك. أي: أن كلاً منهما مراقب لك أيها الإنسان على حركاتك وسكناتك، وجميع أقوالك وأعمالك.

وكل منهما عتيد. أي: حاضر العتاد للكتابة، وقد سماهما سبحانه بأنهما متلقيان، ليبين أنَّ موقف كل منهما مع الإنسان هو موقف المتلقي والمستملي عن هذا الإنسان، والإنسان هو الذي يملي عليهما الكتابة، فهما يُسطران ويصنفان جميع ما يُملي عليهما هذا الإنسان، فهو المؤلف وهما الكتبة.

قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١ـ١٢] حتى إذا جاء يوم القيامة يقال لهذا الإنسان: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ الذي أمليته على الكرام الكاتبين عليك ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفي هذا تنبيه للإنسان أَنْ يراقب ربه في أعماله وأقواله، وليعلم أنَّ هناك ملكين موكلين به، يتلقيان جميع ما يصدر عنه، ويسطرانه عليه؛ ولو كان صغيراً، لأن الله تعالى يقول: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ أي: ولو كان كلمة غير مفهومة، ولا معنى لها، فينبغي على الإنسان أن يُحَسِّن أقواله وأعماله، أي: أن يجمِّل ويحسن ويجيدَ تأليف كتابه الذي يؤلفه حتى إذا قيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ قرأه وهو عنه راض، دون أن يفضح نفسه على رؤوس الأشهاد.

وجاء في الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تعالى مَا كان يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يكتب اللَّهُ تعالى له بها رضوانه إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله، ما كان يَظُنُّ أن تَبْلُغُ مَا بَلَغَتْ، يكتب الله له بها سخطه إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[١].

وقالوا رضي الله عنهم: إنَّ كل ما يصدر من القول فهو مكتوب، سواء كان مفهوماً أم غير مفهوم.

ولهذا لما اشتد مرض الإمام أحمد رضي الله عنه وجعل يَئِنُّ، فقيل له ـ يعني بلغه ـ عن التابعين: أَنَّ الأنين مكتوب. فأمسك نفسه عن الأنين.

---

(١) رواه الإمام مالك في (الموطأ) كتاب الجامع، ما يؤمر به من التحفظ في الكلام /١٨٠٤/ والترمذي في كتاب الزهد، باب في قلة الكلام /٢٣٢٠/ (٧/٧٨)، وابن حبان في صحيحه /٢٨٧/ (١/٢٥٢) والحاكم في (المستدرك) (١/٤٥) عن سيدنا بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه.

واعلم أن الأنين يُكتب، لكنَّ الحساب عليه يكون على حسب حال من يئنّ، فإن كان أنينه صادر عن شكوى لله تعالى، ورضاً بما قضى الله عز وجل: فأنينه في صحيفة الحسنات، وإن كان أنينه صادراً عن سخط لقضاء الله تعالى، وضجر وعدم رضاً عنه: فإنّ أنينه يكون في صحيفة السيئات.

وبعد ما كَتب الملكان أعمال الإنسان وأقواله، وانقضى أجله، وانتهى أمره إلى الموت، وتَم تصنيفه لكتابه طوي الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] أي: مهما طال عمر الإنسان فلا بد له من الموت.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ وهو: الذي يَفر من الموت حباً في الدنيا، أما المؤمن فَيَلْقَى الله تعالى وعليه الفرح عند الموت، لأنه سيلقى ربه سبحانه وتعالى.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] وهذا بعدما مات الإنسان وانتقل إلى البرزخ، ومضت عليه مُدة في عالم البرزخ، ثم ينتقل إلى عالم الحشر.

واعلم أنَّ حال الإنسان في البرزخ هو حال أعماله في الدنيا، وصور الأرواح في برازخها إنّما هي صور أعمالها في الدنيا، فمن كان عمله في الدنيا صالحاً فحاله في البرزخ صالحٌ، وصورته حسنة وصالحة ، وَمَنْ كان سيئ العمل في الدنيا ساءت صورته في البرزخ، وساء حاله في البرزخ. ونسأل الله العافية.

و﴿ٱلصُّورِۚ﴾: هو مجمع الأرواح، فلما يُنْفخ فيه، يُحشر الناس إلى أرض المحشر.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢٠] وهذا يشمل الفجار والأبرار، لقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يسوقها إلى أرض المحشر، وإلى مقرها فيه، ﴿وَشَهِيدٞ﴾ يشهد عليها.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: يقال لهذا الغافل ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢] وهذا يقال لمن كان غافلاً في الدنيا، وصار في البرزخ، ثم انتقل إلى المحشر.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: ولم تكن تحسب للآخرة حساباً، ولا تبالي بها فيقال له في البرزخ: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: الغطاء الجسماني المحدود، المقيد في عالم الدنيا وانفصلت عنه الروح؛ فصار يرى مالا يَرىٰ مِنْ قبل.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: حاد نافذ، ترى أموراً ما كنت تراها في عالم الدنيا، كالملائكة والأرواح وغيرها.

ولما جاء للحشر؛ وقُدِّم للحساب والسؤال، قال القرين الملكي للإنسان؛ قال لرب العالمين: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر بذاته وأعماله.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ وهذا هو القرين الملكي الموكل على كل إنسان، وهو غير الكاتب، فيقول لرب العالمين: يارب هذا ما لدي حاضر، وهو الذي أمرتني به، ووكلتني به.

فيقول سبحانه: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ وهذا الخطاب للمَلَكَيْنِ الكرام الكاتبين، أو الخطاب موجه للقرين الملكي ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾

على عادة العرب قد تُطْلِقُ الأمر بالتثنية وتُرِيْدُ الواحد، أو المراد (ألقِيَنْ) أي: أنه مقلوب عن نون التوكيد، والخطاب للقرين الملكي.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ كثير الكفر والجحود ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند معرض عن الحق بعد ما ظهر له ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لا يفعل خيراً مع خلق الله ﴿مُعْتَدٍ﴾ عليهم بالظلم ﴿مُّرِيبٍ﴾ مُشَكِّكٍ فيما أخبر الله تعالى به. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

ولما أمر الله تعالى الملائكة أنْ تسوق الكافر إلى جهنم، راح الكافر يحتج وقال يا رب: إنَّ هذا القرين الشيطاني الجني قد أضلني، فقال قرينه الشيطاني: ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: أنا لَمْ أُجْبره على فعل المعاصي والفسوق، وإنما وسوست له بذلك، فقام وارتكب المخالفات.

هذا لأن كل إنسان له قرينان موكلان به: قرين من الملائكة يدله على الخير، وقرين من الجن والشياطين يدله على الشر.

كما جاء في الحديث(١): «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ، وقَرِينُهُ مِنْ الملائكة».

قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّه ؟

قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلاَ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأمرني إِلاَ بِخَيْرٍ».

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/٤٠١) والإمام مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياهُ لفتنة الناس /٢١٨٤/ (٥/٢٦٩٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذه الرواية «فأسلمَ» هي الراجحة على رواية: «فأسلمُ»، لأن قوله: «فأسلمُ» أي: من شروره ووساوسه، فكيف يقول: فلا يأمرني إلا بخير، والشياطين لا تأتي إلا بالشر(١).

فالرواية الراجحة هي رواية: «فأسلمَ» أي: أن هذا القرين الشيطاني أسلم وصار من المسلمين، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما كانت الملائكة لا تأتي إلا بالخير، ولا تدعوا إلا بالخير فكيف والحديث: «مَا مِنْ يوم يَطلعُ يصبح العباد فيه إلاَ مَلَكَانِ ينزلان فيَقُول أحدهما: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقول الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفاً»(٢) فالمراد تلفاً في الخير.

أي: يُتلف مالَه في عمل الخيرات، فَوَفِّقْهُ يارب لذلك! وهذا محض الخير.

أو أعط ممسكاً تلفاً أي: أتلف ماله حتى لا يستمر في شحه وبخله، ويقف عند حده في معصية الله. وهذا محض الخير. اهـ

فلما جرى الخصام بين الكافر وقرينه الشيطاني، قال الله سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨ـ ٢٩].

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لقد ذَكَّرتكم، وجاءت الرسل وَبَيَّنَتْ لكم

---

(١) كما في شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢٦٩٣/٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ /١٤٤٢/ (٣٠٤/٣) ومسلم في كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك /١٠١٠/ (١٠٥٢/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الحق، فالقول حق، والحق حق، والله يحكم بالحق، ومن يحكم بالحق فليس بظالم، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠] وهذا تذكير بأيام الله تعالى، وهو من أيام وعيده سبحانه، والمعنى: اُذكر لهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾.

وجهنم اسم من أسماء النار، والعرب تقول عن البئر العميق السحيق الذي لا يوصل إليه بسلام تقول عنه: بئر جهنام.

فمن صفات النار: أنها جهنم أي: سحيقة عميقة مظلمة ضيقة، ولذلك يتكدس أهلها فوق بعضهم تكديساً، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣] أي: حشراً وتكديساً فوق بعضهم.

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ هل هذا القول منها استزادة أم استكفاء ؟أي: هل أنها.

تطلب الزيادة، أم أنها اكتفت، وقالت: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: هل بقي من زيادة ؟

ذهب الجمهور إلى أنَّ قولها من باب الاستزادة، أي: تطلب الزيادة حتى تمتلئ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى مخبراً عن النار ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: ما بقي فيها مكاناً فارغاً فقد امتلأت بأهلها كلهم.

والحق أنّ كلا الأمرين حق: فإن الله سبحانه وعد جهنم أن يملأها: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وجاء في الصحاح [1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ تَزَالُ جَهَنَمُ يُلْقَى فِيْهَا وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ حَتَى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيْهَا قَدَمَهُ، فَينزوي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَدْني قَدْني» أي: كافي كافي.

كما أنه سبحانه وعد الجنة أن يملأها، كما جاء في (المسند) و(الصحيحين)[2] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «احْتَجَّتْ النَّارُ وَالجَنَّةُ ـ وفي رواية: «تَحَاجَّتْ الجَنَّةُ وَالنَّارُ» ـ فَقَالَتْ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارون والْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الجَنَّة: فِيَّ ضُعَفَاء النَّاسِ وَمَسَاكِينُهم».

ومعنى «الْمُتَكَبِّرُونَ» أي: المتعاظمون في نفوسهم.

«وَالْمُتَجَبِّرُونَ» المتعالون على الله، وعلى خلق الله، فلا يقبلون الحق، ولا يعترفون بالحق، ولا يُعاملون الناس بالحق، ولا يدينون لله بالحق.

ومعنى قول الجنة: «فِيَّ ضُعَفَاء النَّاسِ وَمَسَاكِينُهم» ليس المراد مساكين الفقر، وإنما المراد مساكين النفس، أي: بالتواضع واللين، وإلا قد يكون رجلاً فقير المال جبار النفس متكبراً.

---

(١) (مسند) الإمام أحمد (٣/٢٣٤) واللفظ له، وصحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ /٤٨٤٨/ (٨/٥٩٤) ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء /٢٨٤٨/ (٥/٢٧١١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه وينظر (المسند) (٣/٧٨).

(٢) (المسند) (٣/٧٨ـ٧٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، البخاري كتاب التفسير/ ٤٨٥٠/ (٨/٥٩٥) مسلم في كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، /٢٨٤٦/ (٥/٢٧٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

«فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي ـ اللهم اجعلنا منهم ـ وقال للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تعالى قدمه عليها، فهناك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض فتقول: قطْ قطْ» أي: كفى.

ومعنى يضع الله تعالى رجله: أي: يخلق لها خلقاً مناسباً يقدمهم لجهنم وهم أهل لها.

فَقَدَم: أي خَلْقٌ مقدَّمُون إلى جهنم، يخلقهم الله تعالى، مِنْ هِمَم وَنيات وعزائم الكفار، لأنك لو سألت الكافر في الدنيا هل تنوي الإسلام يوماً ما ؟ فيقول: لا. فيخلق الله من نيته وعزيمته خلقاً يُحشرون مع الكافر إلى جهنم، ليزداد في عذابه.

قال: «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة» وهم مخلوقون من هِمَم وعزائم أهل الجنة، لأن نية أهل الجنة البقاء على الإيمان والعمل الصالح أبد الآبدين.

وعلى هذا تمتلئ الجنة بأهلها، وتمتلئ النار بأهلها، ولكل واحدة منكما ملؤها، كما وعدهما سبحانه.

واعلم أن قَدَمَ أهل النار المقدمون إلى النار هم مظهر اسم الجبار، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حَتَى يَضَعَ الله تعالى فِيْهَا قَدَمَهُ».

وأما المقدمون إلى الجنة فهم مظهر اسم الرحمن الرحيم، ولهذا قال للجنة: «أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي».

وعلى هذا فالنار لا تمتلئ وتطلب الزيادة ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ استزادة، حتى يُقدم لها الله تعالى لها خَلَقاً ثم تمتلئ، فبعد ما تمتلئ تقول:

﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ استكفاءً، أي: ما بقي فيها موضع، وهذا ما يُحمل عليه كلام ابن عباس رضي الله عنهما، وأما كلام الجمهور فيحمل على الحالة الأولى قبل أن تُملأ.

ومن هنا تفهم أنَّ أهل الجنة يتنعمون بذواتهم ونياتهم الصالحة، كما أن أهل النار يعذبون بذواتهم ونياتهم السيئة.

والجنة إنما هي: مظهر الفضل الإلّهي، والنار هي: مظهر العدل الإلّهي.

وإن الجنة أوسع من النار بما لا يقاس، وإن أقل المؤمنين في الجنة له من الملك قدر الدنيا وعشر أمثالها.

وبعد أن ذكر سبحانه يوماً من أيام الوعيد، وذكَّر به، وَخَوَّف منهُ وهو قوله: ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ...﴾ ذكر سبحانه يوماً من أيام وعده للمؤمنين، وذكَّر به، حتى يسارع الإنسان إليه فقال سبحانه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] أي: قُرِّبت لهم في جميع العوالم، حتى دخلوها سالمين آمنين.

ففي الدنيا تتراءى لهم بقلوبهم، حتى إذا انتقل الإنسان إلى القبر وهو مؤمن غير مصر على المعاصي؛ تراءت له جنة المأوى، وفُتح بينه وبينها طاقات واسعة، فيرى مقعده في الجنة، وتَهب عليه نسيم الجنة ورياحينها العليلة، وهو في جنة البرزخ في عالم البرزخ.

وهذا التقريب هو من باب التنزلات في العوالم، وإلا فإن جنة المأوى في مكانها عند ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤].

ثم ينتقل إلى جنة البرزخ في الحشر، ثم إلى جنة برزخ الصراط، وكلما انتقل إلى عالم دخل جنته المناسبة له، وكلها متصلة بجنة المأوى، حتى يأوي إليها أبد الآبدين.

وقد بَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ المـؤمن في قـبره يُعـرض عليـه مقعده في النار، ومقعده في الجنة، ويراهما جميعاً[(١)]، وإنما يُريه الله مَقعده في النار حتى يحمد الله تعالى، إذْ لو كان كافراً لدخل النار، وحـتى يعـرف فضل الله عليه، وأَنْ جعله مؤمناً من أهل الجنة.

ولا يعرف الإنسان فضـل الشـيء وَقَـدْره ونعيمـه إلا إذا رأى ضـده. وبضدها تتميز الأشياء.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ في عـوالمهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

ولما صاروا في المحشر تراءت لهم جنـة المـأوى، وصـاروا يمشـون على الصراط بسرعة ونشاط، لأن المقصود أمامهم غير بعيد عنهم.

والمتقـون هـم الـذين تَوَقَّـوْا غضـب الله وعـذاب الله، بامتثـال أمـره واجتناب نهيه، وقيل لهـم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] هـذا أي: الجنة وما فيها من ألوان النعيم.

والأواب هو: الرَّجَّاع إلى الله تعالى في أوقـات غفلـة النـاس عـن الله، فمن رجع إلى مولاه في وقت غفلت الناس عن ربها فهو أوَّاب.

وهناك مرتبة عالية في الأوب إلى الله سبحانه، وهو الـذي يـؤثر طاعـة الله في أوقات اعتراك العمل وانشغال الناس ومن هذا قيام الليـل، فَمَـنْ قـام الليل وصلى لله فيه والناس في غفلة النوم فهو من الأوابين.

---

(١) كما في البخاري، كتاب الجنائز، بـاب الميـت يسـمع خفـق النعـال /١٣٣٨/ (٢٠٥/٣) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت مـن الجنة أو النار /٢٨٧٠/ (٢٧٢٤/٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن صَلَّى وقت الضحوة الكبرى فهو من الأوابين، لأن الناس في غفلة وانشغال في أسباب الدنيا.

ومن صَلَّى لله تعالى بين المغرب والعشاء فهو من الأوابين، لأنه صَلَّى لله تعالى في وقت غفلة الناس عن ربهم، بسبب انشغالهم في آخر النهار وانصرافهم إلى بيوتهم.

واعلم أَنَّ مراتب الأوابين مختلفة، وبَيَّن سبحانه وأثنى على داود عليه السلام أنه أواب، فقال سبحانه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ مَنْ هُو الحفيظ ؟

قال: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] ولم يقل سبحانه لكل أواب حافظ، بل حفيظ، وذلك لعموم معنى الحفظ، وشموله على مراتب الحفظ كلها.

والحفيظ هو: مَنْ حفظ أوامر الله تعالى، وأهم الأوامر العملية البدنية الصلاة، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

كما أَنَّه حافظ على طاعاته وصلواته من الضياع، لئلا يحبط ثوابها وأجرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] يحافظون عليها في أوقاتها، ويحافظون عليها من الضياع، وذلك بحفظ حدودالله تعالى.

والحفيظ هو الحافظ لحدود الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

والحفيظ هو: الذي حفظ حقوق الله، وحفظ العهود بينه وبين خلق

الله، وانظر تفصيل ذلك في بيان منزلة الرعاية عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] أي: يرعون حق الله وحق عباده، ويحفظون العهود مع الله ومع خَلْقِهِ.

أما العهود مع خلق الله تعالى: فهناك العهود القولية كالبيع والشراء، وهناك العهود بحفظ الحرمة، وحسن العشرة، ووفاء الوعد، وهذا لابد منه في الإيمان.

وإن أحفظ العالمين وُداً، وأحسنهم عهداً، وأوفاهم وعداً، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وَمِنْ هذا ما جاء في الحديث(١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو عندي، والسيدة عائشة جالسة. أي: لا خلوة هناك فافهم.

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم: «كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ ؟ كَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدَنَا» ؟ وأقبل عليها مُرحباً وملاطفاً.

فقالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فلما خرجت قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟!!

فقال: «يَا عَائِشَةُ إنها كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَانَ خَدِيْجَة، وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيْمَان».

---

(١) الذي رواه الحاكم في (المستدرك) كتاب الإيمان، باب حسن العهد من الإيمان (١/ ١٦) والبيهقي في (شعب الإيمان) الشعبة الثانية والستون، باب في المكافأة بالصنائع /٩١٢٢/ (٦/ ٥١٧).

فَبَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن هذه المرأة كانت تتردد إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، حين كان في مكة، وإنّ حسن العهد وحفظ الود من الإيمان، وليس من باب الامتنان.

والحفيظ هو: مَن حفظ ما أعطاه الله تعالى من النِّعَمِ، وصرفها في مواضعها، كالسمع والبصر والحواس والمدارك كلها ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ».

قَالُوا: يا رسول الله إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ للَّه.

قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»(١).

ومعنى: «**أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى**» أي: احفظ رأسك عن الحرام، كما تحفظ يدك، واحفظ ما وعاه رأسك عن الحرام ـ أي: ما جمعه الرأس ـ ولقد جمع الرأس سائر المدارك والحواس.

ففيه العقل، والسمع والبصر، والشم واللسان والذوق، فاحفظها أن تقع في حرام.

وأن تحفظ «الْبَطْنَ وَمَا حَوَى» من مآكل ومشارب، فاحفظ بطنك عن أكل الحرام، وعن الشهوات المحرمة، بأن تصرفها في مصارفها المشروعة.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب /٢٥/ حديث رقم /٢٤٦٠/ (١٦٤/٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومن تحقق بمراتب الحفظ كلها كان حفيظاً، ومن كان حفيظاً حفظه الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»(١).

والمعنى: احفظ الله في كل أمر ونهي، واحفظ حدود الله، واحفظ حقوق الله، بأن لا تنسى الله سبحانه، وعلى قدر حفظك له يكون حفظه لك سبحانه وتعالى.

أما حفظه لك سبحانه وتعالى: بأن يحفظ عليك دينك، ويحفظك من آفات دنياك.

وإن أحوج ما يكون إليه الإنسان المؤمن أن يحفظ الله تعالى عليه دينه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ دِيْنَكَ دِيْنَكَ، إِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ، فانظر عمن تأخذ، خُذْ عَنْ الَّذِيْنَ اسْتَقَامُوا، وَلاَ تَأْخُذْ عَنِ الَّذِيْنَ مَالُوا»(٢) الحديث.

أي: احفظ دينك احفظ دينك، أشد من حفظك وحرصك على لحمك ودمك، لأن دينك هو لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا على شرع الله، ولا تأخذ عن الذين مالوا للأهواء والآراء.

وإن السبيل لكي يحفظ الله على المؤمن دينه، وأن لا تدخل عليه الشبهات والضلالات هو أن يحفظ الله تعالى.

ولقد كان من دعاءه عليه الصلاة والسلام في الصباح والمساء، وفي هذا تعليم للأمة: «اللهمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللهمَّ إِني أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِيِنِي وَدُنْيَايْ، وَأَهْلِي وَمَالِيْ، اللهم استر

---

(١) رواه الترمذي من حديث طويل في كتاب صفة القيامة، باب /٦٠/ حديث رقم /٢٥١٨/ (٧/٢٠٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أورده الخطيب في (الكفاية) باب ما جاء في الأخذ عن أهل البدع والأهواء.

عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني مِنْ بَيْن يديَّ وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[1].

ولما سأل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبيَ صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلمه دعاءً قال: «قل: اللهم احْفَظْنِي بالإِسْلاَمِ قَائمَاً، اللهم احْفَظْنِي بالإِسْلاَمِ قَاعداً، اللهم احْفَظْنِي بالإِسْلاَمِ رَاقِداً، اللهم لاَ تُشَمِّتْ فِيَّ عَدُوّاً ولا حَاسِداً»[2].

أي: أن يحفظ الله عليك الإسلام في جميع حالاتك، وأن تكون جميع حركاتك وسكناتك إسلامية إيمانية، ومن حفظ الله حفظه أيضاً من الآفات والعاهات والبليات الدنيوية، كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

قوله تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾ [ق: ٣٣ـ ٣٤].

والمعنى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ وإن كان لم ير الرحمن بعيني بصره، وإنما يُشاهده ببصيرة قلبه، ويوقن به، فهو يخشاه وإن لم تره عيناه، بل يشهده بقلبه ويعرفه بعقله، ويوقن أن لا إله إلا الله.

أما رؤية الذات في عالم الدنيا فالبصر عاجز عن ذلك، إلا ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة.

---

(١) كما في (المسند) (٢/٢٥) وسنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح /٥٠٧٤/ (٥/٣١٥)، وابن ماجه /٣٨٧١/ (٢/١٢٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) كما في (المستدرك) كتاب الدعاء (١/٥٢٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وينظر (فيض القدير) للعلامة المناوي.

وقد أحال الله النظر والبصر إلى الآيات لا إلى الذات، لأنَّ رؤية الذات تحتاج إلى إعداد وإمداد، ولها موقف خاص في عالم خاص.

ومن جملة معنى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: عن الناس كما يخشاه بين الناس.

وجاء في الحديث: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّه يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَ ظِلُّهُ...» وذكر منهم «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(١).

ويجب على المؤمن أن يكون عنده خشية من الله تعالى، ولا ينال هذا إلا من كان على مراقبة لله تعالى دوماً.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: جاء الآن إلى الله بقلب منيب، فلا يدخل المؤمن حضرة رب العالمين حتى يأتي إلى الله بقلب منيب إليه.

ومن أراد الوصول على الأصول دون ادعاء ولا فضول فعليه بالقلب المنيب، ولهذا يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

والقلب المنيب هو القلب المتعلق بالله تعالى والسليم من الآفات والداءات القلبية، ومن سلم قلبه وأناب إلى ربه فقد تَهيّأ للدخول إلى حضرة رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] أي: يقال

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٤٣٩) والبخاري في كتاب الأدب، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد /٦٦٠/ (٥/١٤٣) ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة /١٠٣١/ (٢/١٠٦٩) وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

لهم ادخلوها بسلام، والقائل هو الله سبحانه، ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، والملائكة تقول لهم: ادخلوها بسلام، فيدخلونها بسلام من الله عليهم، وبسلام من الملائكة عليهم.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ لا نفاد له ولا انقطاع فيه، وإنما أبدٌ في آباد، **وهل هم في خلودهم متنعمون بنعيم متجددٍ ؟ أم في نعيم محدد ؟!**

قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥] أي: لهم ما شاؤوا، ولهم ما يشاؤون وعلى طول الآباد، فيحصل لهم كل ما يتمنون ويريدون، فهم دائماً في الترقي في النعيم والازدياد منه.

وفي هذا جاء الحديث: «يُقَالُ لصاحب القرآن: اقْرَأْ وَارْقَ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[(١)].

﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ أي: زيادة على ما يريدون، وزيادة على ما يشتهون ويطلبون، لأنَّ المشيئة والطلب تابع للعلم، وعلومهم مهما كانت عظيمة فإنها متناهية، فالله تعالى يفيض عليهم وَيُذَكِّرهم بطلبات، وَيُعرفهم أموراً فيطلبونها، ويزيدهم من فضله سبحانه، وأعظم فضل يتفضل به سبحانه على أهل الجنة، ويزيدهم نعيماً فوق كل نعيم؛ إنما هو رؤية رب العالمين سبحانه.

وقد ورد في الحديث[(٢)] أنّ يوم الجمعة يُسمى في الملأ الأعلى وفي الجنة: يوم المزيد، لأنّ فيه زيادة فضل وإكرام من الله تعالى على أهل الجنة، وهي أن يتجلى على جميع أهل الجنة بالرؤية.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة /١١٦٤/ (١٥٣/٢) والترمذي في كتاب ثواب القرآن الكريم /٢٩١٥/ (١١٧/٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) كما روى الطبراني بالثقات انظر (مجمع الزوائد) (١٦٣/٢).

واعلم أن في الجنة زمان مناسب لعالم الجنة، وليس كهذا الزمان القائم على حركة الشمس والقمر، وهذا كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

فهناك يمر عليهم يوم المزيد وهو يوم الجمعة، وهناك التجليات الخاصة لأهل الجنة على حسب مراتبهم، وهذا يكون في أيام خاصة.

وهذا التجلي بالرؤية كما ورد في الحديث[١] يكون في عالم الكثيب ـ تلال المسك ـ في واد أفيح، وفيه المراتب المرتبة، فالمنابر النورانية للأنبياء، والمنابر الذهبية المكللة بالياقوت للصديقين والشهداء، والمنابر المجوهرة لمن دونهم في المقام، وهكذا كل منهم يأخذ مقامه المعين له، ثم بَعد ذلك يتجلى رب العالمين.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الشافعي بسنده، ورواه ابن جرير[٢] وغيرهما، أنّ الله تعالى يقول لأهل الجنة وقد تجلى عليهم: «إِنِيْ أَنَا رَبُّكُمْ، وَقَدْ صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ».

قال: «فيقولون: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ » أي: رضوانك الأكبر كما قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

«فيقول سبحانه: رَضِيْتُ عَنْكُمْ، وَأَعْطَيْتُكُمْ مَا تَمَنَّيْتُمْ، وَلَدَيَّ مَزِيْد».

واعلم أنَّ الله تعالى يعدهم ويمدهم بالقوى والقابلية، لأنهم يرون ربهم وكل منهم يَرىٰ بمنظار إيمانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ـ٢٣].

---

(١) الذي رواه الطبراني وأبو يعلى، (مجمع الزوائد) (١٠/٤٢١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ينظر (الدر المنثور)، للحافظ السيوطي عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

وجاء في الحديث [1] أنَّ أهل الجنة يُحبون يوم الجمعة ـ يوم المزيد ـ لِمَا يعطيهم الله فيه من الخير الكثير.

روى مسلم في صحيحه [2] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تبارك وتعالى لَهُم: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ـ ظاهراً وباطناً ـ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل» ثم تلا صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: للذين أحسنوا الحسنى مقابل إحسانهم وأعمالهم، وزيادة. أي: وزيادة فضل من الله تعالى، وهي التجلي بالرؤية.

واعلم أنَّ أهل الجنة قبل أَنْ يذهبون إلى عالم الكثيب الذي يتجلى الله عزَّ وجل فيه عليهم بالرؤية، يَمُرُّون على أسواق لا بيع فيها ولا شراء، ويتحلون بأجمل الهيئات والصور، لأنه لابد لكل تجلي مِن تَحَلِّي.

كما أن تجلياته سبحانه بالرؤية على مراتب: فهناك تجليات تأخذ بهم عن نفوسهم، وهناك تجليات يبقون فيها في صحو، وهناك وهناك ولذلك قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ـ ٢٣].

واعلم أن رؤية الله تبارك وتعالى لا تُشبه رؤيتك للمخلوقات، وإنما ترى بعينك وبكل ذرة فيك، لأنَّ كل ذرة فيك لها حظها في رؤية رب العالمين، لأنه هو خالقها وبارئها، فهي تحبه وتحب أن تنعم برؤيته.

---

(١) انظر (الدر المنثور) (٧/٦٠٥).

(٢) في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى /١٨١/ (١/٣٤٩) عن سيدنا صهيب رضي الله عنه.

ومن هنا تعلم أن نعيم رؤية رب العالمين ليس لها حد تُحد به، ولذلك فإن نعيم الرؤيا فوق كل نعيم، ولذلك قال: «فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم» اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: الكفار ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: طافوا البلاد، ولكن ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦] أي: هل من مفر وخلاص لهم من لقاء رب العالمين، والوقوف بين يديه سبحانه.

وبعد ما ذكر سبحانه هذه الأمور قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكير من الله ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فليتذكر المؤمن بتذكير الله تعالى حتى يَرِقَّ بها قلبه، وتتلطف نفسه، ويدخل نور كلام الله إلى قلبه، وتنكشف له الحقائق.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّرُ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بأيام الله تعالى، وفي هذا تذكير للأمة كلها، لأن الصحابة وجه هذه الأمة، وقد نقلوا ذلك إلينا رضوان الله تعالى عليهم.

وفي هذا يقول سيدنا علي رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّرُنَا بِأَيَّامِ الله تَعَالَى، حَتَى يُعْرَفَ ذَلِكَ فِيْ وَجْهِهِ الشريف صلى الله عليه وآله وسلم)(١).

أي: حتى يُرى أثر التذكير والخشية من الله سبحانه؛ يُرى على وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن مَرْدويه، عن سيدنا علي أو الزبير رضي الله عنهما.

وإنّ أيام الله سبحانه التي ذَكَّرَ بِهَا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي يجب علينا أن نَتَذَكَّرها، ونعتبر بها هي أيام عهوده ومواثيقه، وأيام وَعْده ووعيده.

فكل عهد وميثاق هو من أيام الله، وكل وعد ووعيد جرى في الدنيا أو سيجري، أو في الآخرة سيجري إنما هو من أيام الله سبحانه.

والله تعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

المحاضرة الثالثة حول

التذكير القرآني

التذكير بآيات الله * وبآلائه سبحانه

وبأيام الله تعالى

لقد تقدم الكلام على أن الله تعالى أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم، وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هذه المواقف أنَّ الله تعالى أرسله مذكِّراً وواعظاً للعالمين، قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يشمل التذكير بآيات الله تعالى، والتذكير بآلاء الله ونِعَمه، والتذكير بأيام الله تعالى، ولكل نوع من التذكير أثره في النفس، وأثره في القلب.

قال تعالى في بيان التذكير بِنِعَم الله تعالى وآلائه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وهناك الآيات القرآنية المتلوَّة، وهناك الآيات الكونية المشهورة، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨] يعني: أنّ القرآن بآياته يُذكِّر ويُنبِّه الغافل، ويُعَلِّمُ الجاهل، ويرقق القلوب.

وهناك التذكير بأيام الله كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وهي: أيام وَعْده وبشائره للمؤمنين، وأيام وعيده وتهديده للكافرين، وأيام عهده ومواثيقه، وأيام نِعمه ونقمه، نعمه ونصره وفضله على المؤمنين، وأيام انتقامه وإهلاكه للكافرين.

كما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكِّرُ الناس بآيات الله الكونيَّة، ومنها آيات السماوات وآيات الأرض، وآيات البحار، وآيات

النبات، وهكذا، فما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً إلا ذكره، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (لقد تَرَكَنَا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَما في السَّماء طَائِرٌ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْه إلاّ ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمَاً)(١).

ولقد جاء في القرآن الكريم ذِكر الآيات الكونية، وقال سبحانه لرسوله الكريم: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف من الثمار: الحلو والحامض والأحمر والأصفر، والمتنوّع في أشكاله ومذاقه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٥ـ٨] أي: إن في ذلك تبصرةً لكل صاحب بصر، وذكرى تذكِّر كل عبد منيب.

ثم ذكر سبحانه آيات النفس فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فهو سبحانه وتعالى أعلم بما يجول في نفس الإنسان من نفس الإنسان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] أي: أقرب إليه علماً وقدرة وإحاطة، وسمعاً وبصراً، قرباً يليق بجلال الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وهما: الملكان الموكلان بالإنسان ليكتبا ما يصدر منه.

ثم ذكر سبحانه ما يعتري الإنسان من سكرات الموت ثم الحشر والنَّشر، ثم مآله إما إلى الجنَّة إن كان مؤمناً صالحاً، وإما إلى النار إن كان

---

(١) عزاه في (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٦٤) إلى الطبراني وله شاهد عند الإمام أحمد (٥/ ١٥٣) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

فــاجراً. ثم قــال ســبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعـني: إن في القـرآن وآياتـه الكونيـة والنفسية والتدوينية المتلوّة إن في ذلك لذكرى تذكر الإنسان بربِّه، وبقدرتـه سبحانه، وكلها مذكِّرات تدل على عظمة علمه سبحانه وإحاطته.

ولكـن هـذه الـذكرى لا ينتفـع بهـا إلا مـن كـان قلبـه حيـاً سـليماً، وهـذا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلـب حـيٌّ يَقِظ ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

والناس في انتفاعهم من الذكرى على ثلاثة مراتب:

١ـ **رجل قلبه حيٌّ بالإيمان الفطري لم يتغيَّر**، ولم تتبدَّل فطرته الإيمانية التي فطره الله تعالى عليها، فهـذا حـين يسـمع آيـات الله المتلـوّة، أو يُـذكَّر بآيات الله الكونية: يزداد إيماناً على إيمان، ونوراً علـى نـور وهـذا صـاحب القلب الحي السليم.

٢ـ **وهناك رجل اعترى قلبه الداء والسقم والغفلة، ولم يمت قلبه** فهـذا يحتاج إلى علاج قلبه ليبرأ ويَسلم، وذلك بأن يُلقي سمعه لمن يذكِّره بآيـات الله تعالى، وآلائه، وأيامه سبحانه، ويحضِّر قلبه حتى يبرأ شيئاً فشيئاً من داء الغفلات والشبهات والضلالات، ويَسلم بإذن الله تعالى ويصح ويستنير.

٣ـ **ورجل مات قلبه بالضلال والكفر بسبب إصراره وإعراضه**، فمهمـا سمع وذُكِّرَ بآيات الله تعالى تراه يُعـرض ويجحـد، قـال تعـالى في فرعـون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

فقولـــه تعــالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] يدل على أن التـذكير بآيـات الله تعـالى، وبـنعم الله وآلائه، والتذكير بأيام الله تعالى؛ كل ذلك ينفع الإنسان بنص القرآن الكـريم ومن زعم أن حضور أو سماع دروس العلم، ومجالس التذكير والـوعظ، لا فائدة منها فقد كـذّب كـلام الله تعـالى الـذي قـال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

* * * * *

أثر التذكير المحمدي في النفوس

لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَحرصون كل الحرص على سماع تذكير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا سمعوا تذكيره رقّت قلوبهم، وتلطّفت نفوسهم، وعرجوا في معارج الملكوت العالية، كما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: (قلنا يا رسول الله: مَالَنَا إِذَا كُنَّا عندك رقّتْ قُلُوبُنَا، وَزَهِدْنَا فِيْ الدُّنْيَا، وَرَغِبْنَا فِيْ الآخِرَةِ)؟[1].

وعن حنظلة بن الربيع رضي الله عنه قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ لي: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟

قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ.

قَالَ: سُبْحَانَ اللَّه ماذا تَقُولُ؟!

قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ـ وهذا من جملة التذكير بأيام الله تعالى، أيام وعده ووعيده ـ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ عَافَسْنَا[2] الأَزْوَاجَ وَالأَولاَدَ. وفي رواية[3]: فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ ضاحكت الصِّبْيَانَ، ولاعبت المرأة.

فذكرا ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إن لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ ـ أي: في حال التذكّر

---

(١) تقدم تخريجه ص /١٩/.

(٢) أي: خالطنا.

(٣) عند الإمام مسلم (٥/ ٢٦٣٢).

الدائم ـ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً»[1].

يعني: لا بد من ساعة تسمو بها النفس، ويصفو بها القلب حتى يشهد ما يشهد، ولكنه باعتباره بشراً يعيش بين الناس فلا بدَّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، فيتغير عليه الحال.

ومن جملة التذكير بآيات الله تعالى قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ـ ٦٤].

وفي هذه الآيات القرآنية التدوينية المتلوّة، يُذكِّر سبحانه العباد بالآيات الكونية والآفاقيَّة التي يشهدونها مِنْ حولهم.

فهذه الأرض الواسعة بما فيها من جبال ووديان وسهول، وما أودع

---

(١) تقدم تخريجه ص /٢٠/.

الله تعالى فيها من المعادن والمنافع للإنسان والحيوان... هذه الأرض مَنْ الذي خلقها ؟!!

وإن بني آدم لا يستطيعون خلق أرض ولو اجتمعوا، فلا بُدَّ إذاً مِنْ قُدرة فوق قدرة البشر، تقدر على خلق الأرض والسماوات وما بينهما، وهذه قدرة الله تعالى التي لا تتناهى.

ومَنْ زعم أن هذه الأرض وما فيها، والسماوات وما فيها، قد وُجِدتْ بنفسها من نفسها ـ وهذا ما يعبِّر عنه الجاحدون الملحدون بالطبيعة ـ فيُقال في سياق الرد والجواب:

إذا مررتَ بمصنع كبير، ورأيت ما فيه، فَلِمَ لا تَزعم أنّ هـذا المصـنع قد وُجِد بنفسه مِن دون صانع ومخترع ؟!

بل في الواقع أنّـك تثبـت وجـود المختـرع والصـانع بمجـرد رؤيتـك للمصنوع، ولا يتبادر إلى ذهنك إطلاقاً، أنّ هذا المصـنع قـد وُجِـد بنفسـه دونما مخترع وصُنّاع.

فانطلق بفكرك إلى عالم السماوات والأرض، وإلى هذا المصنع الكبير، وتساءل بعقلك: كيف وُجِد ؟ ومن أوجَدَه ؟

نعم لقد أشار إلى ذلك ربنا سـبحانه بقولـه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وانظـر إلى الأشـجار المتنـاثرة علـى وجـه الأرض في الغابـات الـتي لا يصلها الإنسان، وفي الأشجار التي غرسها الإنسان، مَنْ الذي أنبتها ؟!

هذا هو الله الذي أنزل من السماء ماء فأنبت بـه، فهـو المنبِـتُ ولـيس الماء أو الإنسان.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي: ليس بقدرتكم أن تنبتوا الأشجار من بطن الأرض، وتجعلوها تنمو وتُزهر وتثمر.

وهل لأحد شركة مع الله تعالى في ذلك ؟! لا إنّه الله وحده الحيُّ القيُّوم الباقي الذي لا يموت، وهو الذي يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وَمَنْ زعم غير ذلك فقد عدل عن الحق، وهذا قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَرون الحق ويعدلون عنه، ولا يعترفون به.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: لا تضطرب ولا تميد، رغم أنها في فضاء واسع تحيط بها السماء الأولى من كل جانب، فهو سبحانه الذي أقرّها وَثَبّتَها، ولو شاء لزلزلها بأهلها كما يوقع ذلك في بعض أطرافها، حتى إذا جاء يوم القيامة زلزلها الله تعالى كلها، وهذا قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقرة لا تضطرب ولا تهتزّ، بحيث تمشون عليها، وتزرعون أرضها، وتبنون فوقها.

وهذا قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: عن أماكنهما ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: تغيّر مكانهما ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما عن الزوال والاضطراب ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فلا أحد غير الله تعالى يقدر على أن يمسك الأرض إن هي مادت أو تزلزلت أو تحركت عن موقعها الذي أوقعها الله فيه من الفضاء، ولكنه سبحانه يمسك السماوات والأرض عن الزوال حلماً بعباده ورحمةً بهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ فهو سبحانه الذي فجّر الينابيع من الأرض، وأجرى الأنهار خلال الأرض لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات.

وهو سبحانه الذي خلق في الأرض حواجز تفصل بين الأبحر الكبيرة، وهي الجزر المعروفة في بقاع الأرض وغيرها، فلا يطغى ماء البحر عليها، وقد يكون مستوى الحاجز الأرضي أخفض من مستوى ماء البحر ومع ذلك فلا يغرقه، فمن الذي أمسكه وحبسه عن الطغيان على اليابسة ؟ هذا هو الله رب العالمين.

كما أنه سبحانه جعل بين ماء البحر المالح وماء البحر العذب حاجزاً، فلا يختلط أحدهما بالآخر، بل يمر عبره كالانبوب المعزول . ويعرف ذلك أهله.

فهناك الحاجز المشهود، وهناك الحاجز المعقول، ولكنه غير مشهود بالأبصار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ والمضطر هو الذي استحكم به الضُرُّ، وانقطعت عنه أسباب الفرج والنجاة فلجأ، إلى الله تعالى داعياً، وهو يُوقن أنه لا منقذ ولا مجيب ولا مغيث له إلا الله تعالى، فيجيبه الله تعالى، ويكشف الضر والسوء عنه.

وقد ذكر أهل الصلاح والتقوى في هذا الباب عدة وقائع جرت معهم أو مع غيرهم، وقد ظهرت فيها إغاثة الله تعالى لمن استغاثه ولجأ إليه، وهو مضطر قَدْ فَقَدَ الأمل والرجاء إلا من الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ما نقله الحافظ ابن كثير في تفسيره[١] عن ابن عساكر: أنّ رجلاً كان يُكاري على بَغْل له مِنْ دمشق إلى بلد الزبداني.

---

(١) عند تفسير الآية /٦٢/ من سورة النمل.

قال الرجل: فركب معي ذات يوم رجل، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ من هذه الطريق فإنها أقرب.

فقلت: لا خبرة لي فيها.

فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر، وواد عميق وفيه قتلى كثيرة.

فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمّر وجمع ثيابه، وسلّ سكيناً معه وقصدني، ففرت من بين يديه، وتبعني فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه.

فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك. فخوّفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه، وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين.

فقال: عجّل، فقمت أصلي فأُرتج - أي: أُغلق - عليَّ القرآن، فلم يحضر لي منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيّراً وهو يقول: هَيَّه افْرُغ - أي: عجّل - فأجرى الله تعالى على لساني قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فإذا بفارس قد أقبل من فم الوادي، وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخرَّ صريعاً، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت ؟

فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً.

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: عَلَّمَني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دُعاءً: «اللهم فَارِجَ الْهَمِّ، كَاشِفَ الْغَمِّ، مُجِيْبَ دَعْوَةِ المَضْطَرِيْنَ، رَحْمَنَ الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، أَنْتَ تَرْحَمُنِي فَارْحَمْنِي رَحْمَةً تُغْنِينِي بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِوَاكَ»[1].

ومن فوائد هذا الدعاء قضاء الديون لمن أثقلته هموم الديون كما ورد ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى أحمد في (مسنده)[2] أَنَّ أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يَا محمد إِلَى مَ تَدْعُو؟

قَالَ: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، الَّذِي إِنْ كَان بك ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وإن أصابك عام ـ أي: قحط ـ فَدَعَوتَه أنبت لك، ومَنْ إذا كنتَ في أَرْضٍ قَفْرٍ فأضللت ـ أي: دابتك ـ فَدَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْكَ» أي: رَدَّ عَلَيْكَ دَابَّتَكَ إن أَنْتَ أَضْلَلْتَهَا فِيْ صَحْرَاءَ لاَ دَلِيْلَ فِيْهَا.

قَالَ: آمَنْتُ بِكَ، فَأَوْصِنِي.

قَال صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ تزهد في المعروف، وَلَوْ ببسط وجهك إلى أخيك» يعني هذا من الصدقة.

ومن جملة **التذكير بآيات الله تعالى** قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ـ٢١] أي: فذكِّر يا رسول الله بهذه الآيات، وذكِّر أيضاً بأيام الله تعالى، وبآلاء الله تعالى.

---

(١) كما في (مجمع الزوائد) (١٠/١٨٦).

(٢) (٤/٦٥و٥/٤٦ـ٣٧٧).

فانظر أيها العاقل في جبال الأرض لترى اختلاف أشكالها وارتفاعها وألوانها، فَمَنِ الذي نَصبها ؟ لقد نصبها الله تعالى بقدرته، وأقامها بقيُّوميّته، ولذلك أدرك هذا عقلاء العرب والعجم وغيرهم فصدقوا وآمنوا.

فمن ذلك ما جاء عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال[1]: بَيْنا نَحْنُ مع رسول الله فِي الْمَسْجِدِ إذ دخَلَ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ له فَأَنَاخَهَا، ثُمَّ عَقَلَهَا، ثُمَّ دخَلَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ؟ وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجلس مع أصحابه فلا يعرفه الداخل لأول مرة، لأن دهشة الدخول تغلبه، خاصة أن أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسطع في وجوه الصحابة الجالسين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فَقُلْنَا: هَذَا الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ. وفي رواية: هَذَا الأَمْغَرُ الْمُرْتَفِقْ ـ يعني: الأبيض المشرب بحمرة، وهذا غاية في الحسن والجمال، ولذلك أشار إليه الصحابة بصفة الجمال والبهاء.

فَقَالَ لَهُ ـ يعني: الأعرابي ـ : ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِب !

فَقَالَ لَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وآله وَسَلَّمَ: «قَدْ أَجَبْتُكَ».

وقد ناداه الأعرابي: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لأن عبد المطلب كان معروفاً بين قبائل العرب بذكائه ونجدته وكرمه وفطانته، وذلك أن الله تعالى يبعث الرسل في أفضل وأشرف الأنساب والأحساب.

أما النسب فهو طهارة الآباء والأجداد، وأما الحسب فهو مفاخر

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/١٦٨) ورواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام /٤٦/ (١/١٠٦) ومسلم في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام /١٢/ (١/١٢٤) والترمذي في كتاب الزكاة، باب ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك /٦١٩/ (٢/٣٨١) وانظره برواياته مفصلاً في السيرة الشامية (٦/٥٣٨).

وفضائل الآباء والأجداد، ولا نسب ولا حسب أفضل وأشرف من نسب وحسب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك افتخر رسول الله بأنه ابن عبد المطلب يوم غزوة حنين، عندما تقدَّمَ جهة الأعداء وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد الطلب».

يعني: أنا ابن ذلك الرجل الشهم المعروف بفضله وكرمه، والمشهور بسخائه ومروءته.

ثُمَّ قَالَ الأَعْرَابِيُّ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» (١).

فقال: أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آلله أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِم ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم نَعَمْ».

وفي رواية مسلم: قَالَ الرَّجُلُ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاء ؟ قال: «الله».

قال: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ ؟ قال: «الله».

قال: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيْهَا مَا جَعَلَ ؟ قال: «الله».

وكان هذا الأعرابي يعترف بذلك، ولكن سؤاله عن ذلك من باب الإقرار والتأكيد والقسم.

---

(١) قال سيدنا أنس رضي الله عنه: نُهينَا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء، وهذا النهي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، لئلا يُشدَّد عليهم في الأحكام، فكان يُعْجبنا أن يأتي الرجل الأعرابي العاقل من أهل البادية فيسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: فَبِالَّذِيْ خَلَقَ السَّمَاء، وَخَلَقَ الأَرْضَ، وَنَصَبَ الجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيْهَا مَا جَعَلَ: آللهُ أَرْسَلَكَ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم نَعم».

وفي رواية البخاري: أن الأعرابي سأله عن الصلوات الخمس والصيام والصدقة.

وفي رواية الترمذي: وسأله عن الحج أيضاً.

ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِيْ مِنْ قَومِيْ، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ... الحديث.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكِّر بآيات الله تعالى، وأيام الله تعالى، وآلاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

المحاضرة الرابعة

في التذكير القرآني

التذكير بأيام الله تعالى

التذكير القرآني

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

فلقد كان من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أن الله تعالى أرسله مذكِّراً لهم، يذكِّر الناس بآيات الله تعالى، ويذكر الناس بأيام الله تعالى، ويذكِّر الناس بآلاء الله تعالى ونعمه سبحانه، ولكل ذلك أثره في النفوس، وله اعتباره في دين الله تعالى.

أما التذكير بأيام الله تعالى، فلقد قال الله تعالى لموسى عليه السَّلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وهذا يدخل تحت قوله سبحانه لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ فقد أمره سبحانه بالتذكير المطلق، ودخلت أنواع التذكير كلها، ومنها التذكير بأيام الله سبحانه.

أما المراد بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فهي أيام وعده ووعيده، وأيام ميثاقه وعهوده، وأيام مِنَحِه ومِحَنِه، وأيام نِعَمِه ونِقَمِه.

وهذا ما دلت عليه الآيات القرآنية من أيام الوعد الماضية والآتية، وأيام وعيد الله الماضية والآتية.

فمن جملة أيام الوعيد الآتية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] وغير ذلك مما تقدم بيانه والحمد لله.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يذكِّر الناس بأيام وعده ووعيده سبحانه، فيذكرهم بالجنة والنار، فإن الجنة وعد، والنار وعيد.

ومن جملة ما جاء في أيام وعده سبحانه في الآخرة، وما جاء في بشائر أهل الإيمان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤].

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يوم يلقى المؤمنون الذاكرون ربَّهم، فإنّ تحيتهم منه سبحانه هي: السلام عليهم، فذاك يوم من أيام وعد الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ليكن ذكركم لله تعالى مُستغرقاً أوقاتكم كلها، بحسب ما يقتضيه كل وقت من أنواع الذكر، من التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن، وصلوات النافلة، وصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كل ذلك كما جاء بيانه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيأتي بيانه ضمن البحث حول ذكر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: أن هذا ما يترتب من جزاء المؤمنين المكثرين لذكر الله تعالى، إذ ينالون صلاة الله تعالى عليهم، وصلاة ملائكته سبحانه عليهم.

وما أعظم صلاة رب العالمين على عبده، وما أعظم صلاة ملائكة الله على العبد المؤمن الذاكر !! نعم قال سبحانه: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الدنيا وهمومها وكُرُباتها وشدائدها إلى النور.

و﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في عالم البرزخ إلى النور، و﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في مواقف الآخرة إلى أن تلقوا ربكم ويحييكم بالسلام. قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾.

وأول لقاء يلقى العبد ربه هو حين موته، إذ تصعد روحه إلى بارئها ويَلقى ربه.

ونعمت الروح التي تلقى ربها وهو عنها راض، وبئست روح الكافر التي تلقى ربها وهو عليها غضبان.

إذاً فأيام لقائه سبحانه هي من جملة أيام وعده سبحانه للمؤمنين، إذ يُقبل عليهم سبحانه ويتلقاهم بالتحية والسلام عليهم.

ومن جملة أيام الوعد للمؤمنين وأيام الوعيد للكافرين قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧ـ٧٠].

يعني أنه سبحانه ينادي المؤمنين يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ ويطمئنهم أنهم في أمان الله وسلامه، فهذا يوم من أيام وعده تعالى للمؤمنين بالأمان والاطمئنان والنعيم.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: أَنَّ كل خليل لم تقم خلته ومحبته على تقوى الله تنقلب هذه الخلة يوم القيامة إلى عداوة وبغضاء.

وقولـه تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل، والمراد الأحباب المتـوادون فيما بينهم، المجتمعون على بعضهم، ستنقلب خلَّتهم ومحبتهم وصداقتهم إلى عداوة، وتلاعن وسبّ وشتم يوم القيامة، إذ لم تكـن خلتـهم لبعضـهم مبنيّة على إيمان بالله وتقوى له سبحانه.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين بنوا محبتهم على تقـوى الله، واجتمعـوا علـى تقـوى الله، وطاعـة رسـوله صـلى الله عليـه وآله وسلم.

وفي هذا قال سيدنا علي[1] رضـي الله عنـه وكـرم الله وجهـه: **خلـيلان مؤمنان، وخليلان كافران:**

فأما الخليلان المؤمنان: ـ أي: رجـلان مؤمنـان متحابـان في الله تعـالى ـ مات أحدهما فلقي الله تعالى وهو عنه راضٍ، وأكرمه ربـه فقـال: اللـهم إنَّ لي أخاً في الدنيا اللهم لا تُمِتْه حتى تُرضيَه كما أرضـيتني ـ يعـني: أن تتوفـاه علـى الإيمان وتكرمه ـ حتى إذا مات صاحبه جمع الله بين أرواحهمـا، فقـال تعـالى: لِيُثْنِ كل منكم على صاحبه، فيقول كل منهم: نَعم هذا الخليل خليلـي، ونَعَـمْ هذا الصاحب صاحبي، كان يأمرني بطاعـة الله، وبطاعـة رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسلم، ويثني كلٌّ على صاحبه بما يعلمه من خير.

وأما الخليلان الكافران: فإذا مات أحدهما ولقي العذاب وسـخطَ اللهِ، فيقول: يارب إنَّ لي خليلاً في الدنيا كان يضلّني، ويطغـيني، ويمـنعني مـن الصلاة والإيمان، اللهم أضله كمـا أضـلّني، واسـخط عليـه كمـا سـخطت

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والإمـام عبـد الـرزاق وغيرهـم، كمـا في (الـدر المنثور) للسيوطي، ومثل هذا لـه حكم المرفوع.

عليَّ، فيموت ذاك الكافر، فيجمع الله بين أرواحهما، ثم يقال: لِيُثْنِ كلٌّ منكم على صاحبه، فيقول كلٌّ منهم: بئس الخليل أنت خليلي، بئس الصاحب أنت صاحبي، كنت تمنعني من طاعة الله ورسوله، كنت تضلّني وتزيّن لي المعاصي.

فتنقلب المحبة بينهما في الدنيا إلى عداوة يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فأول ما تنقلب المحبة بينهما إلى عداوة في عالم البرزخ.

وأول ما تظهر آثار المحبة الإيمانية بين المؤمنين في عالم الدنيا في عالم البرزخ، فالمحبة الإيمانية تنفع في الدنيا، وبعد الموت، وفي الحشر والنشر، وفي عالم الجنة، ولقد جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة تُبيّن فضل التحابب بين المؤمنين وخطر التباغض والشحناء بينهم.

فَمِنْ ذلك أنَّ من أراد أن يحبَّه الله تعالى فليحبَّ المؤمنين والصالحين من عباد الله تعالى؛ مَحَبَّةً إيمانية لصلاحهم وتقواهم.

روى مسلم في (صحيحه)(١) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِيْ قرية أخرى، فَأَرْصَدَ لَهُ على مدرجته مَلَكاً ـ يعني: بصورة رجل ـ.

فلما أتى عليه قال: أَيْنَ تُرِيد ؟

قَالَ: أُرِيْدُ أخاً لي في هذه القَرْيَةَ.

---

(١) في كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الحب في الله تعالى /٢٥٦٧/ (٥/٢٥١٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر في مصنف الحافظ عبد الرزاق (١١/٢٠٣).

قال: هَلْ لَكَ عليه من نعمة تَرُبُّها ؟

قَالَ: لاَ. غير أني أحببته فِيْ الله عز وجل.

قال: فَإِنِي رَسُولُ الله إِلَيكَ، بأَنَّ الله تَعَالَى قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَبْتَه فيه».

ومن أراد أن تثبت له محبة الله تعالى على وجه لا يمحى ولا يبدّل؛ فعليه أن يحب أولياء الله تعالى في الله، وليحبَّ المؤمنين لإيمانهم وصلاحهم لا لأغراض شخصية أو دنيويّة.

وقد روى أحمد والترمذي، وأصله في صحيح مسلم[(١)]، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ رضي الله عنه ـ وهو من التابعين ـ قَالَ: دَخَلْتُ جامع دِمَشْق فإذا فتىً شابٌ، براق الثنايا، وإذا الناس معه، وإذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصدروا[(٢)] عن قوله، فسألت عنه، فقيل: هذا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ ـ أي: ذهب باكراً إلى الجامع ليجتمع به بدون زحام ـ قال: فرأيته قَدْ سَبَقَنِي بالتهجير، فَجِئتُ إِلَيْه فَسَلَّمْتُ عَلَيْه وَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّكَ لله ـ يعني: لأنه من أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وله شأنه ومقامه ـ.

فَقَالَ لـه معاذ رضي الله عنه: آللَّهِ ـ أي: بالله تحبني في الله ؟ ـ.

قال: والله. فاستحلفه ثلاثاً.

قال معاذ رضي الله عنه: أبشّرك بأني سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

---

(١) (المسند) (٥/٢٤٧) (السنن) في كتاب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله /٢٣٩١/ (٧/١١٩) و(صحيح) مسلم في كتاب البر والصلة والأداب، باب في فضل الحب في الله تعالى /٢٥٦٦/ (٥/٢٠١٥) وكلهم بمعناه، ونصه هنا في (الموطأ) للإمام مالك رحمه الله تعالى، باب ما جاء في المتحابين في الله.

(٢) أخذوا واعتمدوا.

عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قال اللَّهُ تبارك وتعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فِيَّ ـ أي: يزور بعضهم بعضاً في الله ولله تعالى ـ والمتَبَاذِلِينَ فِيَّ» أي: يبذلون النفس والنَّفيْس في الله ولله.

وهذه المحبة الإلّهية أوجبها سبحانه على نفسه لهؤلاء، ومن أوجب الله تعالى محبته على نفسه فلا تُمحى ولا تبدّل أبد الآبدين. اللهم اجعلنا منهم ـ آمين.

وكذلك من أراد أن ينال حق المحبة من الله تعالى فليحبَّ أولياء الله تعالى، والمؤمنين بالله في الله ولله.

وليحذر كل مؤمن أن يبغض غيره من المؤمنين الصالحين، إذ أن إيمان المؤمن يُطالبه أن يُحب المؤمنين كلهم لإيمانهم، والصالحين لصلاحهم، وإلاّ فمحبة كلٍّ منهم على حسب إيمانه وصلاحه وتقواه.

روى الإمام أحمد[1] عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ قال: «حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَزَاوِرِيْنَ فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِيْنَ فِيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَواصِلِيْنَ فِيَّ».

ومن المواصلة في الله أن تصل أخاك في الله، وتتفقد أحواله، وتسأل عن حاجاته، وتُعينه في الملمات وهكذا.

ومن أراد أن يُدخله الله في ظلال أنواره ورحمته: فعليه أن يتحقق بالمحبة في الله تعالى.

وإن لله تعالى ظلالاً كثيرة متنوعة: منها ظلال الأنوار، وظلال الأسرار، وظلال الرحمات، وظلال البركات. ولكلٍّ منها اعتباره وأحكامه.

---

(١) (المسند) (٥/٢٣٩).

ففي الحديث[1]: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ الْيَومَ أُظِلُّهُم فِيْ ظِلِّي يَومَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي».

فهم في ظلال رحمة الله تعالى وأنواره يوم تشتدّ الأهوال والشدائد على غيرهم من أهل الموقف.

وروى البخاري ومسلم[2] أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم الله في ظله يَومَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّه: الإِمَامُ الْعَادِلُ» يعني: الحاكم العادل «وَشَابٌ نَشَأَ بعِبَادَةِ الله» لأنه جاهد نفسه وأوقفها عند حدود الله؛ رغم قوة شهوته وميوله.

قال: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ» أي: يحب الصلاة فيها، والجلوس فيها لذكر الله تعالى، وما حبُّه للمساجد إلا حبٌّ لرب المساجد، ألا ترى إلى ذلك الذي يحبُّ بيت فلان، فما أحبَّ بيته إلا لحبِّه صاحب البيت.

وإن المساجد هي بيوت الله تعالى، فيها يُعبد الله تعالى ويُذكر، وهي مواضع تجلِّياته وأنواره سبحانه، فمن أحبَّها لهذا السَّبب فقد أحبّ الله تعالى.

قال: «وَرَجُلاَنِ تَحَابّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْه وَتَفَرَّقَا عَلَيْه» يعني: أنَّ كُلاًّ منهما أحب الآخر لإيمانه وصلاحه، وكان ذلك سبب اجتماعهما وتواصلهما، ولم تجمع بينهما شهوات الدنيا وما فيها.

قال: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ـ أي: إِلَى نَفْسِهَا ـ فَقَالَ:

---

(١) الذي رواه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والأداب، باب فضل الحب في الله تعالى /٢٥٦٦/ (٥/٢٥١٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد /٦٦٠/ (٢/١٤٣) مسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة /١٠٣١/ (٢/١٠٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إِنِي أَخَافُ اللهَ» أي: امتنع عن فعل المعصية خوفاً من الله تعالى، بعد أن تهيَّأت وتيسَّرت له أسباب الفجور.

قال: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُه يَمِيْنُه» أي: ابتعد عن الرياء والسمعة وأخلص في صدقته لله تعالى.

قال: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله تَعَالَى خَالِياً ـ أي: عَنِ النَّاسِ، فَخَشَعَ قَلْبُهُ ـ ففَاضَتْ عَيْنَاهُ» أو أنه ذكر الله تعالى خالياً قلبُه عن الأغيار؛ وإن كان بجسمه بين الناس، فَخَلّى قلبه مع الله فذكر الله فخشع قلبه وفاضت عيناه، فَمِثْل هذا يُكرمه الله تعالى يوم القيامة، ويجعله في ظلاله.

واعلم أيها المؤمن العاقل أن دخولك الجنة موقوف على صفاء قلبك تجاه خلق الله المؤمنين، وطهارة قلبك من الغل والحقد، والغش والحسد والبغضاء.

فمهما صليت وصمت، وذكرت الله، وتصدقت، إلا أنك تحمل على فلان وفلان، وتتكلم في فلان؛ فإنّ ذلك يمنعك من دخول الجنة حتى تطَّهر من هذه الصفات الذميمة، ومَنْ لم يتب في الدنيا وَيَطْهُر ويطيب فإنّ أهوال البرزخ تطّهره، وَمَنْ لم يَطْهُر لكثرة وتحكم صفات الحقد فيه، فإنَّ أهوال الحشر تطهِّره، وهكذا إن لم يطهر على الصراط، فإن غمسات جهنم تطهره، حتى إذا طهر وطاب أُذن له بدخول الجنة، وهذا ما بيّنه صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره(١): «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قبلكم الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وهِيَ الْحَالِقَةُ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ؛ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم: أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

---

(١) الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب /٥٧/ حديث رقم /٢٥١٢/ (١٩٩/٧). والبزار (مجمع الزوائد) (٨/ ٣٠) عن سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه.

واعلم أن مما يجب على كل مؤمن إذا بلغه شيء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصغي بسمعه، ويتفهَّم بعقله ما يرد عليه من آيات الله تعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيها مصالح العباد وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

ففي الحديث المتقدم يخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر غيبيّ سيقع في هذه الأمّة، وخاصة آخر الزّمن، وهو الحقد والحسد والبغض، الذي سينتشر فيما بينهم، وسيكون من أسباب ضعف شوكتهم وتمزّقهم وتشتّتهم، وهذا ما حصل في الأمم السابقة.

فلقد نبّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته إلى ذلك، وحذّر من خطورة البغض والحسد بين المؤمنين، وأيّ سعادة أو هناء تُرجى لمجتمع انتشرت بين أفراده البغضاء والتنافر ؟!!

ثم بيّن صلى الله عليه وآله وسلم خطورة ذلك على الأمة، ودلَّ على سبيل انتشار المحبة والمودة فيما بين المؤمنين فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا» وكأنه قيل: نحن مؤمنون يا رسول الله.

فبيّن الرسول أن الإيمان يشمل الاعتقادات القلبيّة، والأمور العمليَّة كالصلاة وغيرها، ويشمل أيضاً الأخلاق والآداب.

وَمَنْ لم يتحقَّق بشُعَب الإيمان كلها فإنَّه ممنوع من دخول الجنة حتى يطهر ويطيب.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا» أي: لا تؤمنوا حق الإيمان، وإن صليتم وصمتم وتصدقتم «حَتَّى تَحَابُّوا» أي: يحب بعضكم بعضاً.

ثم بيّن صلى الله عليه وآله وسلم طريقة تحقيق ذلك فقال: «أفلاَ أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

فإذا انتشر وشاع السلام فيما بين المؤمنين، صفت قلوبهم، وكان ذلك مَدعاة للتحابب والتناصح فيما بينهم.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم خطورة البغض والشحناء، وأنها تمنع العبد عن الإجابة والقبول عند الله تعالى، ومَنْ أراد أن يُفتَح له باب العطاء فليحبَّ كلَّ مؤمن لإيمانه، وَمَنْ لم يتحقَّق بذلك فيُقال له: ما الفرق عندك بين المؤمن والكافر ؟!!

روى الطبراني، وابن حبان في (صحيحه)(١) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَطَّلِعُ الله تعالى إلى جَمِيع خَلْقِه لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لجَمِيع خَلْقِهِ ـ أي: أهل الإيمان ـ إلاَ لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ».

والمشاحن هو: مَنْ كان بينه وبين أخيه شحناء وبغضاء لأغراض شخصية أو دنيوية.

ومما جاء في فضل ليلة النصف من شعبان :

ما رواه البيهقي(٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنه قالت: قَامَ رسول

---

(١) الطبراني (مجمع الزوائد) (٨/٦٥) برجال الثقات، ابن حبان /٥٦٣٦/ عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) انظر (الترغيب) للحافظ المنذري في باب الترغيب في صوم شعبان.
أما اللفظ المشهور: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك، من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» فهو عند الإمام مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٦/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وأبي داود في كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر /١٤٢٧/ عن سيدنا علي رضي الله عنه، والترمذي في كتاب الدعوات /٣٤٩١/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل، فصلى فَأَطَالَ السُّجُودَ، وَسمعته يَقُولُ فِيْ سُجُودِهِ: «أَعُوذُ بعفوك مِنْ عقابك وأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ إليك، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» وبعد أن سلَّم وفرغ من صلاته قال: «يا عَائِشَةُ أَتَدْرِيْنَ أَيَّ لَيْلَةٍ هَذه» ؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هَذِهِ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، إن الله عز وجلّ يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان: فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخر أهل الحقد كما هُمْ».

وروى ابن ماجه في (سننه)[1]، عن سيدنا علي رضي الله عنه وكرّم وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا يَومَهَا ـ أي: اليوم الذي يليها ـ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: أَلاَ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، أَلاَ من مُسْتَرْزِقٍ فَأَرْزُقَهُ، أَلاَ من مُبْتَلًى فَأُعَافِيَهُ، أَلاَ كَذَا أَلاَ كَذَا حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ».

وإنَّ ليلةَ النصف من شعبان ليلةٌ يتجلى الله تعالى فيها على عباده بالغفران والرحمة والعطاء والفضل.

ويبدأ التجلي من أول الليلة من غروب الشمس؛ حتى طلوع الفجر.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَقُومُوا لَيْلَهَا» ليس المراد إحياء تلك الليلة بعدم النوم مطلقاً، وإنما نَدَبَ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان /١٣٨٨/ (١/٤٤٤).

وسلم ورغَّبَ إلى قيام ليلها ـ يعني: إلى جزء واسع من الليل ـ ويحسن للإنسان أن يقوم أول تلك الليلة وآخرها، وَمَنِ استطاع إحياءها فليفعل.

أما ليلتا العيد، فقد رغَّب صلى الله عليه وآله وسلم إلى إحياء ليلتي العيد بقيام تلك الليلة كلّها، فقال: «مَنْ أَحْيَا ليلة الفطر وليلة الأضحى: لم يمت قَلْبُهُ يَومَ تَمُوتُ القُلُوبُ»[1] يعني: يكون في أمان الله من الفتن والضلالات.

واعلم أن الله تعالى أجلّ وأكرم من أن يدعوك إلى سؤاله ودعائه ثم يحرمك الإجابة والعطاء. وما على الإنسان إلا أن يتوب من الذنوب التي تحجبه عن الفضل والعطاء الإلهي، وهي: قطيعة الرحم، والشحناء بين المؤمن وأخيه، وعقوق الوالدين، والإدمان على الخمرة.

ونسأل الله تعالى التوفيق للعمل الصالح، والكلم الطيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (١٩٨/٢) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوة تذكيره ووعظه

صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبذل جهده في التذكير والوعظ، حتى يتذكر الغافل، ويرتقي المؤمن المتذكِّر، إذ لا بدّ للتذكير من أثر في النفس كما قال سبحانه: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ٤] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتذكير إن كان للغافل فيتنبه، وإن كان للجاهل فيتعلم ويعتبر، وإن كان للعالم فيزداد فهماً وترقِّياً وكمالاً.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرصون كل الحرص على سماع تذكيره ووعظه صلى الله عليه وآله وسلم، مع صفائهم وطيب قلوبهم ورقة نفوسهم، ولا يستغنون عن تذكير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل إذا سمعوا تذكيره الشريف سمت نفوسهم، وارتقوا في مدارج الكمالات.

وإن لتذكير ووعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثراً كبيراً في النفوس والقلوب، وذلك أولاً لأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنّ لكلامه صلى الله عليه وآله وسلم روحاً تسري في القلوب، كما أنَّ حاله صلى الله عليه وآله وسلم عند التذكير والوعظ يَبعث الخشية والمهابة والوجل في قلوب الصحابة.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكّر تأثروا بتذكيره صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا ذَكّرَ ذَكّرَ عَلَى مَرأى وشهود، وليس تذكيره صلى الله عليه وآله وسلم تذكير الغافلين أو المحجوبين.

بل كان يُذكّر بالنار والجنة وما هنالك من أيام الله، وهو على مرأى ومشهد منها، ولذلك كان له صلى الله عليه وآله وسلم حالٌ عجيبة حين يُذكّر الناس أو يعظهم.

ومن ذلك ما روى أحمد في (مسنده)[1]، عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب في أصحابه يذكّرهم بأيام الله تعالى، وكأنه منذر جيش، يُعرف ذلك في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ـ يعني: أن الصحابة كانوا يرون أثر التذكير في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وفي الصحيحين[2] عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أن رسول الله قال يوماً: «اتَّقُوا النَّارَ» ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ـ أي: التفت ـ.

ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ» ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ.

ثم قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ».

قال عدي: فلقد عرفنا ذلك في وجهه، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ ينظر إليها.

ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

---

(١) (المسند) (٣/ ٣١١) وهو عند مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة /٨٦٧/ (٢/ ٩٢٣).

(٢) البخاري في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب /٦٥٤٠/ (١١/ ٤٠٠) ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.. /١٠١٦/ (٢/ ١٠٥٦).

فكان صلى الله عليه وآله وسلم تتمثل له العوالم الغيبية فيراها، فَيُـذكّر ويعظ عن مشاهدة ومعايَنَةٍ، ويظهر أثر ذلك عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

المحاضرة الخامسة

في

التذكير بآلاء الله تعالى

التذكير بآلاء الله تعالى

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكّر الناس بآيات الله تعالى، وبأيام الله، وبآلاء الله، يعني: بفضل الله ونعمه على عباده، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣] وقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تنكروها بل اذكروها بشكر الله عليها.

وإنّ نعم الله على الإنسان لا تحصى كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وإن أعظم النعم الإلهية على المؤمن هي نعمة الإيمان.

ولا يعرف الإنسان ذلك إلا إذا تذوّق حلاوة الإيمان، ورأى عاقبة الإيمان، وجزاءه في الآخرة، فيعرف عندئذ قيمة وفضل نعمة الإيمان.

وهناك نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة الصحة والعافية من الأمراض والبلاء، وهناك نعمة المال إنْ أَحسن الإنسان التصرف فيه على وجه مشروع.

ولا تظنّنَّ أَنَّ نعمة المال لمن وسّع الله عليه في ماله أنها أعظم النِّعم، إذ لو أنَّ غنياً فَقَدَ بصره أو سمعه، وأنفق جميع ماله في العلاج والدواء لَمَا استطاع أن يردّ بصره أو سمعه حتى يشاء الله تعالى.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّر الناس بآلاء الله تعالى، ويذكرهم بفضل الله تعالى عليهم، ويذكرهم بكرمه تعالى، فمن ذلك ما رواه الشيخان[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَمِينُ الله مَلأَى، لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاء اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيْزَانَ يَخْفِضُ ويَرْفَعُ».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَمِينُ اللَّهِ مَلأَى» أي: بالخيرات كلها.

«لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ» أي: لا تنقص مهما أنفق على الخلائق كلها.

«سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» أي: تسحّ يمينه جلّ وعلا في الليل والنهار بالفضل والنعم والكرم على خلقه، وهي تسحّ عليهم سحّاً بلا شحّ ولا انقطاع، منذ خلق الخلق إلى ما شاء الله، ولا ينقص ذلك مما في يمينه تعالى أبداً.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم سَعة فضل الله وكرمه على خلقه، وأنَّ كرم الله تعالى وجوده واسع كبير لا حد له ولا انتهاء.

فقد روى مسلم في (صحيحه)[2] عن أبي ذر رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: فيما يرويه عن ربه جلَّ وعلا أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَ مَنْ هَدَيْتُهُ ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» مِنْ هذا تعلم أنَّ

---

(١) البخاري في كتاب التفسير باب ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود/٧] /٤٦٨٤/ (٨/٣٥٢)، ومسلم كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف /٩٩٣/ (٢/١٠٤١).

(٢) في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم /٢٥٧٧/ (٥/٢٥٢١).

الكافر لو سأل الله تعالى الهداية بصدق لهداه الله تعالى، ولكنه لا يريد الهداية، بل يُحِب أن يبقى على شهواته وهوى نفسه الفاسد، ويريد أن يبقى على ما هو عليه من الضلالة، فيزيده الله ضلالاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

أما أهل الإيمان، الذين يسألون الله الثبات عليه والزيادة منه، فيزيدهم الله إيماناً وهدىً، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] اللَّهُمَّ اهْدِنا فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنا فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لنا فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنا وَاصْرِفْ عَنا شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي بِالحَقِ وَلاَ يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لاَ يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، ولا يَعِزُ من عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا قَضَيْتَ، نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ.

قوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ» يعني أَنَّ كل إنسان على حسب مقامه لا يخلو عن الوقوع في الصغائر والهفوات والغفلات، ومن ذنوب أخرى، فلا غنى لكل إنسان عن مغفرة الله تعالى، وسبيل ذلك أن يستغفر الله تعالى، كما بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَ مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَ مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» يعني: أن حسنات العبد له وسيئاته عليه، والله تعالى غني عن ذلك كله، كما قال سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ - وفي رواية

الترمذي[1]: «وَحَيِّكُمْ وَمَيِّتِكُم، وَرَطْبَكُم ويابِسِكُمْ» - قَامُوا فِي صَعِيْدٍ وَاحِدٍ» أي: في أرض واحدة «فَسَأَلُونِي» أي: سألوا الله تعالى كل حاجاتهم في زمن واحد. قال: «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

وقد يقال: إنه ينقص شيء من الماء لا يذكر، ولكن يمكن تصوره في العقل؟

فيقال: إنّ هذا الشيء الصغير الذي نقص سيعود في الحقيقة إلى البحر بتبخره وتكثفه، فهو نقص تصوّري لا نقص حقيقي.

فلما أمر سبحانه العباد أن يذكروا نعمته عليهم فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١] ولما ذكّر رسولُ الله بآلاء الله ونعمه: ينبغي على العاقل عندئذ أن يسرع إلى سؤال الله من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] فهو سبحانه ذو الفضل العظيم الذي لا ينقص ما عنده.

وقد أمر سبحانه عباده بالدعاء، وفتح لهم باب الرجاء، وعلى قدر همّة العبد وسؤاله يعطيه الله تعالى من الأجر والفضل، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣] ومَنْ زَعَمَ أنه سأل الله ودعاه في كذا وكذا من حاجاته ولم يجد إجابة أو عطاءً؟

فيُقال له: إنّ إجابة الله تعالى لك تكون على مقتضى علمه وحكمته سبحانه، وبما فيه نفْعُكَ وصلاح أمْرِكَ، وَلو أَجَابَكَ لِمَا تُرِيدُ أحياناً لكان

---

(١) في كتاب صفة القيامة /٢٤٩٧/ (١٨٧/٧).

في ذلك ضرر لك؛ لا يبدوا لك أنت، لكنه هو العليم الحكيم، الذي يعلم مصالح عباده، ويجيبهم لِمَا فيه صلاحهم ونفعهم.

وإليك مثالاً للتقريب إلى الفكر والاعتبار به لا للتشبيه والمماثلة :

لو أَنّ ولداً صغيراً غَير مميز رأى مال والده الغني، فطلب منه أن يُعطيه شيئاً كثيراً، فما هو موقف الوالد منه ؟ إنْ أعطاه فهو جاهل أحمق، لأنّ الولد سيبعثر المال ويضيّعه، وإنْ منعه ولم يعطه شيئاً فقد أحزنه وأبكاه، نَعم إنّ التصرف اللائق في مثل هذا الموقف أن يعطيه شيئاً يسيراً من المال، يشتري به الولد حلوى مثلاً، أو يدّخرها ويفرح بها، أَو أَنّ الوالد قد يَعد ابنه بالكلام الطيب، ويدخل السرور على قلبه بشيء آخر، حتى إذا كبر الولد شيئاً فشيئاً، وراح عقله ينمو في مراحل النضوج والكمال، فإنّ الوالد يتعامل مع ذلك بزيادة العطاء لابنه، حتى إذا بلغ أشده، ورأى والده منه حسن التصرف فربما أعطاه الوالد سؤاله وزاده.

وهكذا ـ ولله المثل الأعلى ـ فإنّ الله تعالى يُعطي عبده السائل حاجاته بنسب معينة، حسب ما يعلم من مصلحته، حتى يرتقي به الحال شيئاً فشيئاً وهكذا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

المحاضرة السادسة

في

التذكير بأيام الله تعالى

وعده للمؤمنين بالجنة، ووعيده للكافرين بالنار، وقد ذكَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة، ورغَّب فيها، وذكر نعيمها وأوصافها، وذكّر بالنار وخوَّفَ منها، وأمر الصحابة أن يسألوا الله الجنة، ويستعيذوا به من النار.

وكان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إِنِي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَولٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَولٍ وَعَمَلٍ»(١).

ومن ذلك أيضاً بيانه صلى الله عليه وآله وسلم لأوصاف الجنة، فقد رَوى الإمام أحمد والترمذي(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله الجنة ما بِنَاؤُهَا ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وحَصْبَاؤُهَا اللُّؤلؤ وَالْيَاقُوت، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانَ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلاَ يَيْأس، ويخلد ولا يموت، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُم، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُم».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ» أي: مِن فضةِ وذهبِ الجنة، والملاطُ هو الطينة التي تُمسك اللبنتين إلى بعضها،

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٦/١٤٧) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) (المسند) (٢/٣٠٤) السنن في كتاب صفة الجنة /٢٥٢٨/ (٧/٢١٠) في حديث طويل.

وهذا الملاط هو المسك الأذفر، وهو من مسك الجنة، والأذفر هو الخالص القوي الرائحة.

«وحَصْبَاؤُهَا» وهي: حصى أرض الجنة، التي يطأ عليه أهل الجنة، فهو من اللؤلؤ والياقوت، وترابها الناعم بين الحصباء هو من الزعفران.

وتفكر أيها العاقل في كرامة المؤمن على الله تعالى، وفضل نعمة الإيمان، فإن أهل الجنة يطؤون بأقدامهم فوق اللؤلؤ والياقوت، الذي يحرص أهل الدنيا على اقتنائه والحفاظ عليه في الخزائن الخاصة، ويتفاخرون و يتباهون به.

وذلك لأن الجنة دار ضيافة الله تعالى ربِّ العالمين، وهي دار السلام، وسقفها عرش الرحمن، وهي مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

وفي الجنة مُرافقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفيها تجليات الله تعالى ومحاضراته وسلامه جلَّ وعلا، فهو سبحانه يحاضر أهل الجنة، أي: يكلمهم كِفاحاً بلا حجاب ولا ترجمان، ويُغدق عليهم ألوان النعيم والعطاء الذي لا ينفد.

وفي الجنة تجليات رب العالمين على أهل الجنة بالرؤيا والرضوان، وفيها من النعيم مالا يعلمه إلا الله تعالى.

وَمَنْ عَلِمَ هذا وآمن به فينبغي عليه أن يسارع إلى أن يكون من أهل الجنة، بأنْ يعمل عمل أهل الجنة، ويتحقق بصفاتهم حتى يدخلها، وينال الفوز العظيم.

وينبغي على كل مؤمن أن يسأل الله الجنة، كما علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، في كثير مما ورد عنه في أدعيته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن[1] ذلك أنَّ الأعرابي لَمَّا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان معاذ رضي الله عنه معه قال: يا رسول الله إِنِّي لاَ أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، إِني أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ النَّارِ. يعني: أنه لا يعلم ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا ما دعا به معاذ رضي الله عنه، غير أنه سأل الله الجنة واستعاذ به من النار.

فَقَالَ لـه رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «حَوْلَهَا نُدَنْدِن» يعني: كلنا نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُذكر الصحابة بالجنة والنار، وليس أمر التذكير والوعظ يقتصر على عوامِّ الناس فقط، فإنَّ في الصحابة العرفاء والأولياء والصالحين، والصديقين والأكابر رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الترمذي[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ[3] أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ، وَبَشِّرْهُم أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله الْعَلِيِّ العَظِيْم».

---

(١) ينظر الحديث في (المسند) (٣/٤٧٤) و(سنن) أبي داود في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة /٧٩٢/ (١/٥٠١).

(٢) في كتاب الدعوات /٣٤٥٨/ (٩/١٤٨) إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «والله أكبر» وعند الطبراني زيادة: ولا حول ولا قوة إلا بالله» كما في الترغيب /٢٢٩٣/.

(٣) وقد أراد بهذا النداء الوصف لا الاسم العَلَمي المجرد، والمعنى: يا صاحب المقام المحمود الذي يَحمده الأولون والآخرون.

فلقد أرسل سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، أرسل لهذه الأمة المحمدية، ولكل مؤمن ومؤمنة سلاماً وبشارة، بواسطة حبيب الرحمن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما ردُّ السلام فأن نقول: على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وقوله: «وَأَنَّهَا قِيعَانٌ» أي: أراضٍ واسعة كبيرة صالحة للزراعة، ومَن أراد الغرس فيها والزراعة فليكثر من قول: «سُبْحَانَ اللَّه، وَالْحَمْدُ لِلَّه، وَلاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إِلاَ بِالله الْعَلِيِّ العَظِيْم».

وَمَن ثبّت الله تعالى له غرسة في الجنة: فقد ثبت عليه الإيمان حتى يموت على الإيمان، ويدخل الجنة، ويتمتع وينعم بغراسه الذي غرسه فيها لمَّا كان في الدنيا.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يكثر من قوله: «سُبْحَانَ اللَّه، وَالْحَمْدُ لِلَّه، وَلاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إِلاَ بِالله الْعَلِيِّ العَظِيْم» خاصة في شهر رجب، لأنّ الإسراء والمعراج وقع في شهر رجب، وجاءت هذه البشارة في هذا الشهر الأغرّ.

وكلمة رَجَبَ من الترجيب وهو: التكريم والتعظيم، وإن الملائكة تُكْثر من الترجيب لله تعالى في هذا الشهر، أي: تكثر من تسبيح الله وتقديسه سبحانه.

وينبغي للمؤمن أن يتشبه بملائكة الرحمن عليهم السلام، ويكثر من هذه الصيغة في هذا الشهر.

* * * * *

ومن التذكير بأيام الله تعالى

التذكير بأيام وعده ووعيده

وهي وعده للمؤمنين بالبشائر والمكارم، ووعيده للكافرين بالعذاب والخذلان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: واذكر لهم يا رسول الله وذكِّرهم بذلك اليوم الذي ﴿تَجِدُ﴾ فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ فيتمثل عمل الخير بصورة حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: تجد أيضاً ما عملت من سوء محضراً ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾ أي: النفس ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي: ذلك اليوم.

﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: حينما ترى النفس عملها السيئ، تودُّ لو أن بينها وبين ذلك اليوم زمناً طويلاً لا آخر له.

وتتمنى النفس أيضاً أن يكون بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً، فالضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهَا﴾ عائد للنفس.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ عائد إما إلى اليوم، أو إلى العمل السيئ، ويكون المعنى: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير في الدنيا تجده يوم

القيامة محضراً، وما عملت من سوء في الدنيا تجده أيضاً محضراً، وَتَوَدُّ لو أن بينها وبين عملها السيئ المحضر أمامها أمداً بعيداً.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومن رأفته بالعباد أن ذكّرهم بذلك اليوم، وأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يَذكُر لهم ذلك اليوم، ويبين لهم عما يجري في ذلك اليوم، قبل أن يأتي عليهم ذلك اليوم؛ رأفة ورحمة بهم.

واعلم أيها المؤمن أن الأعمال والأقوال، والأحوال والهمم، والنيّات والمعاني، كل ذلك يتمثل بصور محسوسة، يراها الإنسان في عالم الآخرة، وهذا يرجع إلى عالم المثال.

وأول برزخ من برازخ الآخرة تنكشف فيه الأمور الغيبية، ويرى فيها صور المعاني، والأقوال والأعمال، والعقائد، إنما هو عالم القبر، الذي يكون بعد الموت ومن الأدلة على ذلك:

ما رواه ابن حبان وغيره[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إِنَّ المَيتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، إِنَهُ لَيَسْمَعُ خفق نعَالِهِم حِيْنَ يُوَلُّون مُدْبِرِيْنَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنَاً ـ أي: كامل الإيمان صالح الأعمال ـ كَانَتْ الصَّلاَةُ عِنْدَ رَأْسِهِ ـ أي: وقفت صلاته عند رأسه ـ وَالصِّيَامُ عِنْ يَمِيْنِهِ، وكَانَتْ الزكَاةُ عَنْ شماله، وكان فِعْلُ الخَيْرات مِنَ الصَّدقة والصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ والإحسان إِلَى النَّاسِ عَنْدَ رِجْلَيه» وأما الفقير الذي لا زكاة عليه فإنّ نيته الصادقة أَنْ لو كان غنياً لأدّى الزكاة؛ هذه النية تتمثل، وتكون عن يساره وهكذا.

---

(١) (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) /٣١٠٣/ وقد رواه الطبراني بالسند الحسن (مجمع الزوائد) (٣/٥١ـ٥٢).

يعني: أنَّ الميت قد أحاطت به أعماله القلبية والعملية والقولية.

قال صلى الله عليه وآله وسلم «فَيُؤتى من قِبَلِ رأسه ـ أي: تأتي الأهوال والكربات القبريّة حتى تحزنه وتؤلمه ـ فتقول الصلاة: مَا قِبَلِي مدخل ـ أي: لا مدخل للشدائد من قِبَلي عليه، فقد كان رجلاً مصلِّيًا ـ ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: مَا مِنْ قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: مَا مِنْ قِبَلي مَدْخَلٌ، ثم يؤتى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْه، فَيَقُولُ فعل الخَيْرات من الصدقة والصلة والمعروف وَالإحسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ».

وهذا يعني: أنّ أعمال الإنسان تُحافظ عليه في قبره، وتحيط به، وتدافع عنه، وهي أمان وحرز له، وهو يراها كلها بصُورةٍ نورانية محسوسة.

وَمَنْ لم يكن من أهل الصلاح والتقوى، تسرّبت إليه الأهوال والشدائد من جهاته، ولقي من العذاب على حسب ذنوبه.

وروى أحمد وغيره(١) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تَجِيء الأَعَمَالُ يَومَ القِيَامَة ـ أي: تحضر الأعمال ويراها صاحبها ـ فَتَجِيء الصَّلاَة فَتَقُولُ: يَارَب أَنَا الصَّلاَة ـ يعني: أنا صلاة فلان ـ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: إِنَّك عَلَى خَيْر، فتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصِّيَامُ فَيَقُولُ: أي يَارب أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ».

ثم قال: «ثم يجيء الإِسْلاَمُ»: أي: الاعتقاد بدين الإسلام «فَيَقُولُ: يَارب أَنتَ السَّلاَمُ، وَأَنَا الإِسْلاَمُ، فَيَقُول عز وجل: إِنَكَ عَلَى خَيْر، بِكَ

---

(١) (المسند) (٢/ ٣٦٢) وعزاه في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٣٤٥) إلى أبي يعلى والطبراني عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

اليَومَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي» يعني: المسؤولية والمحاسبة هي على عقيدة الإسلام، وعلى أعمال الإسلام. ثُمَّ قَرَأَ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمرآن: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: يحذركم عذابه وعقابه، ومِنْ رَأفته سبحانه بكم أن ذكَّركم بذلك اليوم قبل وقوعه، حتى تستعدوا وتعملوا لذلك اليوم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فيه نهي عن البحث في حقيقة ذات الله جلَّ وعلا، فإنَّ حقيقة ذات الله تعالى لا تدركها العقول، ولا تحيط بها الأفكار، وإنما على الإنسان أن يبحث ويتعرف إلى الله تعالى بأسمائه وكمالاته التي ذكرها سبحانه في القرآن، وبيَّنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه.

وإنّ أسماء الله تعالى وكمالاته لا نهاية لها، وإنما ذَكَرَ سبحانه للعباد من أسمائه ما ظهر أثرها في عالم الدنيا، وهناك أسماء سيظهر أثرها في برازخ الآخرة، وهكذا فأسماء الله تعالى وصفاته لا تتناهى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «أسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي...»(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في موقف الشفاعة يوم القيامة:

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/٣٩١) عن سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

«ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي»[١].

وفي رواية[٢]: «ويُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي» يعني: أن الله تعالى يعلمه تلك الأسماء الإلٓهية في ذلك العالم الأخروي.

وإذا كان الإنسان عاجزاً عن إدراك والإحاطة بأسماء الله تعالى كلها، فَمِنْ باب أولى أنه عاجز عن إدراك حقيقة ذات الله تعالى.

وقد قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا من غاية معرفته القصور عن معرفته. يعني: أنّ اعتراف العبد بقصور عقله عن إدراك حقيقة ومعرفة ذات الله تعالى هو غاية المعرفة.

ولقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بروايات متعددة[٣] وأسانيد متعددة قوله: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ، ولاَ تَفَكَّرُوا فِي الخالق، فَإِنَّكُم لاَ تَقْدِرُونَ قدره».

قوله «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ الله» أي: في مخلوقاته سبحانه.

وفي رواية: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ الله، ولاَ تَفَكَّرُوا فِي الله فَتَهْلَكُوا».

وفي رواية: «تَفَكَّرُوا فِي كل شيء، ولاَ تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله تعالى،

---

(١) الحديث في البخاري في كتاب التفسير /٤٧١٢/ (٨/٣٩٥) ومسلم في كتاب الإيمان /١٩٤/ (١/٣٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر (الفتح) (١١/٤٣٧).

(٢) في (المسند) (٢/٤٣٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تنظر في (الفتح الكبير) للعلامة النبهاني رحمه الله تعالى.

فإن مَا بَيْنَ السَّمَاء السَّابِعَةِ إلى كرسيه سَبْعَةُ آلاَفِ نُورٍ» أي: سبعة آلاف حجاب نوراني، فأنّى للعقل أن يعرف ما هنالك؟

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فلا أحد مِنْ خلقه تعالى من مَلَك مقرّبٍ أو غيره، لا أحد يستطيع معرفة كُنْهِ الله تعالى، أو الوقوف على معرفة ذاته سبحانه.

وهذا من التكبير الذي أمر الله به عباده بقولهم: الله أكبر. أي: أجلُّ وأعظم مما يتصورون.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

أي: اذكر لهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك اليوم، فإنّه من أيام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: أن كل إنسان يرى في ذلك اليوم ما قدّمت يداه في الدنيا ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [عم: ٤٠] يعني: يتمنى الكافر لو بقي في الدنيا تراباً، ولم يُخْلَق بشراً، أو يتمنى لو أنه صار تراباً، والمعنى: ياليتني صرت تراباً.

وذلك لمّا رأى أهوال الآخرة ودقّة الحساب والجزاء، حتى إنّ البهائم لَيُقْتَصُّ منها، حتى يَقْتَصَّ سبحانه من الشاة القرناء للشاة الجمّاء، كما ورد ذلك في أحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم(١).

وفي (مسند) أحمد(٢): «وحتى الذَّرَّة من الذرة» أي: من النملة الصغيرة إذا بَغَتْ على نملة أخرى.

---

(١) ينظر (الدر المنثور) للإمام السيوطي عند تفسيره لآخر سورة ﴿عم﴾، و(المسند) (٢/٢٣٥و٣٢٣و٤١١).

(٢) (٢/٣٦٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن جبلاً بغى على جبل لَدُكَّ الباغي.

فتفكَّر أيها العاقل أنه إذا كان القصاص يجري على سائر المخلوقات والجمادات، أفلا يقتص من الإنسان إذا بغىٰ على غيره؟! كيف لا وقد جاءت شرائع الله لتهذيبه وتزكيته.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا»[1] يعني: لا بُدَّ من أداء الحقوق إلى أهلها في الدنيا.

وروى أحمد في (مسنده) وغيره[2]، عن جابر بن عبد الله، أنه رحل إلى عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه مسيرة شهر في حديث واحد، لأنه فاته أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحدَّثه به عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يَحْشُرُ الله العِبَادَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً بُهْمَاً»[3] يعني: لا شيء من الدنيا معهم «فَيُنَادِيْهِمْ؛ فَيَسْمَعُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُ مَنْ قَرُبَ، فَيَقُولُ سُبْحَانَه: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ» يعني: أنه سبحانه هو المالك لرقابهم، والمتصرف فيهم بالعدل، لأنه الملك الحق، وهو الديَّان سبحانه، يعني: المحاسب والمجازي لهم «لاَ يَنْبَغِيْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ، و لاَ يَنْبَغِيْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِحَقٍ؛ حَتَى أَقْتَصَّ مِنْهُ، حَتَى اللَّطْمَةَ».

---

(١) كما في (المسند) (٢/٣٢٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (المسند) (٣/٤٩٥) والحاكم في (المستدرك) (٢/٤٢٧) وانظر طرقه وتخريجه مفصلاً في كتاب (الرحلة في طلب الحديث) للخطيب البغدادي.

(٣) كالليل البهيم الذي لا يرى فيه شيء.

قالوا: يا رسول الله كيف وهم بُهْمٌ ؟. أي: ليس شيء من الدنيا وأموالها معهم ؟

قال: «بِالحَسَنَاتِ وَالسَيِّئَاتِ».

ولما رأى الكافر أن الله تعالى قد أعاد البهائم والوحوش تراباً بعد أن جرى القصاص فيما بينها، تمنى الكافر أن يكون تراباً مثلها، لكن الله تعالى قد أقام الحجة على عباده وبعث الرسل فيهم، وبلّغوا شرعه سبحانه، فما للكافر عذر ولا حجة عند الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة السابعة

في

التذكير القرآني بأيام الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ـ ١٠٧].

والمعنى: واذكر لهم يا رسول الله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فذاك يوم تبيضّ فيه وجوه أهل الإيمان والأعمال الصالحة، وتسودّ فيه وجوه الكفرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا لما آمنوا بربهم في عالم الذرِّ، لَمّا أخذ الله عليهم العهد والميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أنت ربنا، فاعترفوا وآمنوا كلهم بالله في ذلك العالم، ولَمَّا جاؤوا إلى الدنيا كفروا، مع أن الله تعالى أرسل رُسله تذكِّرهم بذلك العهد والميثاق الأول؛ لكنهم أعرضوا وعاندوا.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ إذ نوّر الإيمان والعمل الصالح وجوههم، لأنّ الأعمال لها أثر في العامل. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: في الجنَّة. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن للأعمال الصالحة آثاراً نورانية، ينصبغ بها العامل، فقد روى ابن حبان في (صحيحه)،

وأحمد في (مسنده)[1]، عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذَكَرَ الصَّلاَةَ - أي: الصلوات المفروضة وعظَّمَ شأنها - وقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ، وكان يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ».

وفي الحديث الآخر: «وَالصَّلاَةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ...» الحديث[2].

فالصلاة نور يظهر أثره على وجه المصلي، ويظهر له ذلك في برازخ الآخرة، فيضيء له على الصراط.

وهي برهانُ صدقٍ على إيمانه تدافع عنه.

وهي نجاة له. أي: أمان له من المخاوف والشدائد في الآخرة.

وروى مسلم في (صحيحه)[3]، عن صهيب بن سنان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تبارك وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟، أَلَم تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، ثُمَّ قَرأ قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ

---

(١) ابن حبان /١٤٦٥/، (المسند) (٢/١٦٩) (مجمع الزوائد) (١/٢٩٢).

(٢) طرف من الحديث الذي رواه مسلم في أول كتاب الطهارة /٢٢٣/ (١/٤٠٤) والترمذي في كتاب الدعوات /٣٥١٢/ (٩/١٧٩) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى /١٨١/ (١/٣٤٩) وهو عند الترمذي /٢٥٥٥/.

وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: للذين أحسنوا مع الله، أي: آمنوا وأحسنوا في عبادتهم لله، وفي معاملتهم مع خلق الله، فجزاء هؤلاء الحسنى أي: الجنة.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ فالحسنى مقابل أعمالهم، والزيادة هي زيادة فضل الله عليهم، بالتجلّي عليهم برؤيته سبحانه.

ومن التذكير القرآني بأيام الله تعالى: أيام وعده ووعيده، فمن أيام وعده للمؤمنين قوله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] وهذا لَمّا يَحشر الله تعالى الخلائق كلهم، وتشتد على الكافرين الأهوال والمخاوف، يُنادي سبحانه أهلَ الإيمان ويبشرهم بالسلامة والأمن والنجاة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وَمَنْ هُمْ هؤلاء العباد ؟ وما هي صفاتهم ؟

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩] أي: آمنوا بآيات الله القرآنية المتلوّة، النازلة على رسلهم صلوات الله عليهم وأعظمها الآيات التي جاء بها سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهؤلاء العباد آمنوا أيضاً بآيات الله الكونية: الآفاقية، والسماوية، والأرضية. والبحرية والنباتية، فأيقنوا أنها آيات تدل على الله تعالى، خالقها رب العالمين، وأنها مظهر قدرة الله تعالى، ومظهر علم الله وحكمته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الدالَّةِ على قدرة الله وعظمته وحكمته وكمالاته ﴿فِى ٱلْأَفَاقِ

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] يعني أن الله تعالى حق، وأنَّ هذه العوالم كلها تدل عليه، وأنها مظهر كمالاته وأسمائه فكيف يُنكره الجاحدون ؟!! وقد رأوا آياته ومصنوعاته ومخلوقاته، وَمَنْ رأى الآيات بعيني بصره فقد رأى رب الآيات ببصيرة قلبه، فيا عجباً كيف يَعصيه العاصي، ويجحده الجاحد.

وللهِ في كُلِّ تحريكـة وَتَسْكينة أبداً لـه شَاهدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ علـى أَنَّـه واحِـدُ

فكيف ينكر الجاحد وجود الباني وهذا بناؤه قد رآه وعاينه ؟!! وكيف ينكر الجاحد وجود الصانع وقد رأى مصنوعاته ؟!!.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [السجدة: ٧].

فقوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: التدوينية والتكوينية. ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مستسلمين لأمر الله عز وجل، فيعملون بما أمر به، وينتهون عما نهى عنه.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

أما الصِّحاف فهي الأواني الواسعة، وهي من ذهب الجنة، وفيها المآكل المتنوِّعة.

وأما الأكواب فهي للشرب من شرابات الجنة، وفيها ما تشتهيه الأنفس من كافة المشتهيات، وفيها ما تلذ الأعين بالنظر إليه، ويختلف الأمر على حسب الناظر.

ففي الحديث الذي رواه الترمذي وأبو يعلى [1] عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجنَّةِ منزلة ـ أي: أضعف أهل الجنة مرتبة ونعيماً ـ لمَنْ يَنْظُرُ إِلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه، وخَدَمه، وسُرُرِه مَسِيْرَةَ أَلْفِ سنة، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى الله تَعَالَى: مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وجهه غُدْوَةً وَعَشِيًّا».

* * * * *

---

(١) الترمذي في كتاب صفة الجنة /٢٥٥٦/ (٧/٢٣١) وأبو يعلى /٥٧١٢/ وانظر: (مجمع الزوائد) (١٠/٤٠١).

ومن جملة أيام الله تعالى وعداً ووعيداً قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٧]

والمعنى: ذَكِّرهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واذكر لهم يوم ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ ...﴾ الآيات.

فقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ فيه وعد للمتقين، وهو من أيام الله تعالى، ثم ذكر يوم وعيد فقال: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فلقد نُشروا، ثم حُشروا إلى الحضرة الرحمانية، الجامعة لكل خير وبر وفضل، ووفدوا إليها مكرَّمين مُعظَّمين.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم غير المتقين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عِطاشاً، لا يملكون الشفاعة، فلا يملكون أن يشفعوا، ولا أن يُشفع بهم. لأنهم كفار مجرمون.

ثم نبه سبحانه وتعالى من الذي يَشفع ويُشفَّع. أي: من يُشفع به، و يَشفع بغيره؟

فقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فإن هذا يشفع به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَيُؤذن له أن يشفع بغيره.

وأعظم شفيع، وأعظم مُشفع، وهو الذي يفتح باب الشفاعات، إنما هو الشفيع الذي لا شفيع له، هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فما هو عهد المؤمن عند رب العالمين، والذي يُخَوِّل المؤمن أن يُشَفع به، ويَشْفَع بغيره ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهد بين العبد وبين ربه هو: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ

وهذا العهد انطوت تحته سائر العهود، وتفرعت عنه جميع العهود الإيمانية، والمواثيق العملية، ومن ذلك عهد الصلاة.

كما جاء في السنن[1]، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى العِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ ولَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا، اسْتِخْفَافًا بِحقِّهِنَّ: كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ» أي: هذا راجع لمشيئة رب العالمين، والمشيئة حسب الحكمة، والحكمة ترجع إلى العلم، والله أعلم بخلقه سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فأصل العهد هو الإيمان الذي مبدؤه: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتفرع عنه جميع الشعب الإيمانية.

وإن قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ المراد بالمتقين أهل التقوى الكاملة، لأن الإطلاق يقتضي الكمال دائماً، فهم الذين تحققوا بأنواع ومراتب التقوى.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فيمن لم يوتر /١٤٢٠/ (٢/ ١٣٠)، والنسائي في باب المحافظة على الصلوات الخمس (١/ ٢٣٠)، وابن حبان في (صحيحه) /١٧٢٩/عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

وتأمل أيها الإنسان في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي: أنهم حُشروا من عالم الحشر إلى الجنة، إلى رب العالمين، إلى الحضرة الرحمانية، فأين هُم من الحساب والسؤال ؟! مِمَّا يدل على أنهم دخلوا الجنة بغير حساب !!

نعم لقد حُشِروا من قبورهم إلى الجنة بغير توقف على الحساب والسؤال، لأنهم أهل التقوى الكاملة، وجمعوا مراتب التقوى كلها: القلبية والقالبية، في السِّرِّ والعلانية.

رُبَّما يقال: إن الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هم الذين جاء ذكرهم في الحديث: «سَبْعُونَ أَلْفَاً، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفَاً»[(١)]، وفي رواية[(٢)]: «مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفَاً».

فاعلم أَنَّ هؤلاء هم الزمرة الأولى، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، إلا أَنَّ هناك أُناس يدخلون الجنة بغير حساب بسبب أعمالٍ عملوها وتحققوا بها.

كما ورد في صفة السبعين ألف: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ».

قيل: مَنْ هُم يا رسول الله.

قَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ»[(٣)].

---

(١) الحديث في (المسند) (٥/ ٢٥٠و٢٦٨)، والترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٤٣٩/ (٧/ ١٥١) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) ينظر (الفتح) (١١/ ٤١١) وحاشية صحيح مسلم (١/ ٣٩٥).

(٣) البخاري في الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب /٦٥٤١/ (١١/ ٤٠٥) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب /٢١٨/ (١/ ٣٩٦).

أي: أن أول زمرة تدخل الجنة بغير حساب هم أهل التوكل الخاص، ثم هناك أهل الزهد الخاص يدخلون الجنة بغير حساب، وهناك أهل الورع الكامل يدخلون الجنة بغير حساب.

كما أن قُوَّام الليل المتهجدون فيه يدخلون الجنة بغير حساب أيضاً، وإليك أدلة ذلك:

روى البيهقي[1] عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُحْشَرُ الناس فِيْ صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَومَ الْقِيَامَةِ، فيُنَادِيْ مُنَادٍ فيقول: أين الَّذِيْنَ كَانُوا تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ، فيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيْلٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

كما أن أهل الورع الذين يتورعون عن فعل الحرام، وأكل الحرام، والمال الحرام، ويتركون ما يُوصِلُ إلى الحرام؛ فإنهم يدخلون الجنة بغير حساب.

روى الطبراني والأصبهاني[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الله تعالى نَاجَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِمَائَةِ أَلْفٍ وأَرْبَعِيْنَ أَلَف كَلِمَةٍ؛ فِيْ ثَلاَثَةِ أَيَامٍ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلاَمَ الآدَمِيِّيْنَ بَعْدَ ذَلِك مَقَتَهُمْ» لأنه ذاق حلاوة كلام رب العالمين، وَسَرىٰ ذلك في مسامعه وذراته، فلما رجع إلى قومه وسمع كلامهم مقتهم، لأنه تَعَوَّد أن يسمع كلام الله تعالى.

ومعنى: «مَقَتَهُم» نفر منهم، وبقي مدة على ذلك.

---

(١) في (شعب الإيمان) /٣٢٤٤/ عن السيدة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها.

(٢) الطبراني (مجمع الزوائد) (٢٩٦/١٠) والأصبهاني في (الترغيب والترهيب) /٤٧٩/.

وكان فيما ناجاه سبحانه: «ياموسى إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا» أي: لم يصنع العابدون معي صنعاً مثل الزهد، وذلك أن يزهدوا فيما يُشغلهم عن الله تعالى.

«ولم يتقرب إليَّ المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد لي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي» فالبكاء من خشية الله عبادة من أعظم العبادات. فافهم.

«فقال موسى عليه السلام: يا رب البرية كلها، يا مالك يوم الدين، وياذا الجلال والإكرام، ماذا أعددت لهم» ؟ أي: للزهاد والورعين والبكائين من خشيتك.

«قال: أما الزهاد في الدنيا: فإني أبحتهم جنتي يتبوؤون منها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم: فأدخلهم الجنة بغير حساب».

والوَرِعُ هو: الذي تَورَّع عن الحرام، وعمَّا يَجُرُّ إلى الحرام من مشتبهات، فقد حاسب نفسه في الدنيا فعلام يحاسب يوم القيامة ؟!!

«وأما البكاؤون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى».

والبكَّاء هو: كثير البكاءِ من خشية الله تعالى، فتراه تدمع عيناه كلما ذُكِّرَ بآيات الله سبحانه.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيري البكاء من خشية الله سبحانه، حتى خَطَّت دموعهم خطوطاً في وجوههم، ومنهم الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم أجمعين، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣] فلا تظن أن البكاء ودمع العين صفة العوام، وإنما هي صفة الأكابر والعارفين والعلماء العاملين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩] وعلى هذا فهناك زُمَرٌ يدخلون الجنة بغير حساب لأمور وأسباب رتبها الله سبحانه، ومنهم أهل التقوى الكاملة، وهذا قولـه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ أي: بغير حساب.

ما هي التقوى وما هي آثارها:

التقوى هي: توقي سَخط الله وعذابه، وطريق ذلك بامتثال ما أمر به سبحانه، واجتناب مانهى عنه.

وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم في أول خطبة جُمعة لـه حين قدم المدينة، قال عليه الصلاة والسلام: «أُوْصِيكُمْ بِتَقْوَى الله تعالى، فَإِنَّهُ خَيْرُ مَا يُوصِيْ بِهِ المُسْلِمُ المُسْلِمَ، أَنْ يَحُضَّهُ عَلَى الآخِرَةِ، وأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوى الله تعالى، وَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُم الله مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لاَ نَصِيْحَةَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، وَلاَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرَى ـ أي: أنَّ هذا أفضل التذكير والنصائح ـ اتَّقُوا الله فِيْ عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلِهِ بِالسرِّ وَ العَلاَنِيَةِ، فَإِنَّ تَقْوَى الله تَقِيْ غَضَبَهُ، وَإِنَّ تَقْوَى الله تَقِيْ سَخَطَهُ، وَإِنَّ تَقْوَى الله تَقِي مَقْتَهُ جلَّ وعَلاَ» الحديث [(١)].

فالتقوى وقاية للمتقي من سَخَطِ الله، وعذاب الله ومقت الله، سبحانه، وَمَنْ لم يَتَّقِ لا وقاية لـه من غضب الله، ولا وقاية لـه من عذاب الله.

وقال رجل من التابعين لأبي هريرة رضي الله عنه: ما هي التقوى؟

فقال: أما سلكت طريقاً فيه شوك؟

قال: بلى.

---

(١) كما في البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢١٣).

قال: فماذا فعلت ؟

قال: إذا مررتُ على الشوك كنت أتوقى فأبتعد من هنا وهنا، وآخذ بثيابي حتى ما يصيبني الشوك.

فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: هذا هو التقوى(١).

إن الإنسان في عمره وحياته الدنيا إنما يمشي في طريق نتيجته الآخرة، فعليه أن يُعامل نفسه معاملة الذي يمشي في طريق شائك، فكيف يتجنب الشوك؛ ولو كانت صغيرة، لأنها ربما أخذت به وأفسدت عليه جسمه.

وكذلك التقوى فهي التوقي عن المحارم بكبائرها وصغائرها، ولا يستصغر ذنباً، فربما أصر عليه وأفسد دينه بذلك.

مراتب التقوى :

هناك تقوى الجوارح والأعضاء، كاليد والرجل، والسمع والبصر واللسان، وهي تقوى الأعمال، وذلك بالسر والعلانية.

وهناك تقوى القلوب، وذلك بتخلية القلب عن الشهوات والغفلات والأمراض، كالحسد والغل، والحقد والكبر والعجب وغيرها من الآفات الذميمة.

ومن ارتكب واحدة منها فقد وقع في الإثم القلبي قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ومن جملة تقوى القلوب تعظيم شعائر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

---

(١) هكذا الخبر في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبيلي، وينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠).

وشعائر الله هي معالم دينه ومواضع عبادته كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وإن أعظم شعيرة جامعة لشعائر الله كلها، تدل على الله تعالى، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فَمِنْ تقوى القلب أن يُعظِّم المتقي سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يحترمه ويوقره كما أمر سبحانه بذلك.

ومن جملة ذلك تعظيم العلماء العاملين، وتوقيرهم واحترامهم، وتعظيم كلام الله تعالى، وبيوت الله تعالى.

وكذلك احترام أهل الإيمان لإيمانهم وصلاحهم.

ومن تقوى القلوب الحب في الله، والبغض في الله، وتعظيم ما عَظَّم الله، وأن يكره المؤمن ما يكرهه الله من الفسوق والمعاصي.

فَمَنْ جَمع مراتب التقوى كلها، وتحقق بها، كان مِمَّن قال الله فيهم: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾.

* * *

من آثار التقوى :

واعلم أنّ التقوى هي الميزان في القيمة والاعتبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢]، كما أن سبب السلامة والنجاة هو التقوى، فبينما يمر الإنسان على الصراط والصراط هو داخل جهنم تكون النجاة لأهل التقوى، لأن عليهم وقاية من العذاب ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أن هذا حُكْمٌ رباني مبني على حكمة ربانية، فجميع المربوبين من عالم التكليف لا بد أن يمروا على هذا الصراط، حتى تظهر النتائج والعواقب. قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٤].

كما أنّ حسن العواقب وخير العواقب في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالتقوى، قال سبحانه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] أي: أن حسن العواقب المحمودة إنما هي للمتقين في الدنيا وفي الآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فمن أراد أن تحسن عواقبه في الدنيا وفي الآخرة فعليه بتقوى الله تعالى، وقد يَمر عليه بعض أمور يكرهها في الدنيا، لكن العبرة للعواقب، وحسن العواقب هي للمتقين.

اللهم حَسِّنْ عاقبتا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وإنّ أمراً يجري على الإنسان ويُسَرُّ به، ويفرح من أجله، لكنه ليس

مبنياً على تقوى الله فعاقبته الندامة والحسرة، أما إذا كان مبنياً على تقوى فالعاقبة للتقوى.

وإن التقوى هي وصية رب العالمين لعباده:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وأنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وقد أوصى بذلك صلى الله عليه وآله وسلم في كثير من أحاديثه: «أُوْصيكم بِتَقْوَى الله» الحديث (١).

من فضائل التقوى:

١ـ إن من تحقق بتقوى الله سبحانه ظفر بولاية الله الخاصة له: قال سبحانه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ـ٦٣].

كما أنه يكون من أولياء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: أحبابه والمقدمون عنده، ورفقاؤه صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِيْ المتَّقُونَ مَنْ كَانُوا، وَحَيْثُ كَانُوا» (٢).

---

(١) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة /٤٦٠٧/ (١٣/٥) والترمذي /٢٦٧٨/ وغيرهما عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) الحديث في (المسند) للإمام أحمد (٢٣٥/٥) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وروى البخاري في (الأدب المفرد)(١)، والبزار وغيرهما(٢)، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اجْمَعْ لِيْ قَوْمَكَ» ـ أي: قريشاً ـ فَجَمَعَهُم.

فَخَرَجَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلامُ فقال: «إِنَّ أَوْلِيَائِيْ مِنْكُمْ المُتَّقُونَ، لاَ يَجِيء النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالأَعْمَالِ، وتأتون بِالأَثْقَالِ» وهي: الذنوب والمعاصي.

فبين لهم صلى الله عليه وآله وسلم أن أولياءه ـ أي: أحبابه والمقربين عنده ورفقاءه ـ إنما هم المتقون.

٢ـ كما أن التقوى سبب التأييد الإلهي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] أي: معهم بالنصر والتأييد.

٣ـ التقوى فيها النجاة:

قال سبحانه: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الإسراء: ٦١].

معنى التقوى: التَّوقي من غضب رب العالمين وعقابه سبحانه، **وأما السبيل إلى ذلك** فبأخذ الوقايات، وهي الأعمال الصالحة، وترك المحرمات، ولهذا تفسر التقوى بأنها: امتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

---

(١) في باب مولى القوم من أنفسهم، حديث رقم /٧٥/ عن سيدنا رفاعة بن رافع رضي الله عنه.

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/٢٦).

وهـذا التفسـير لازم معناهـا، وإلا فـالتقوى هـي: تـوقي غضـب الله وعقابه، وَمَنِ امتثل الأوامر واجتنب المناهي وقاه الله غضبـه وعذابـه، كمـا بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته: «وإِنَّ تَقْوى الله تُوقِيْ مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سَخَطَهُ»[1].

وقد سُئِلَ سيدنا علي رضي الله عنه ما هي التقوى ؟فقـال: (هـي الخـوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا من الدنيا بالقليل ـ أي: لا تكـن طماعـاً في الدنيا ـ والاستعداد ليوم الرحيل). وهو يوم ترحـل عـن أهلـك وأصـحابك ومالك، ترحل إلى الله سبحانه، ولا بد لهذا الاستعداد من عمل وتقوى.

قال الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨].

وقوله رضي الله عنه: (العمل بالتنزيل)، هـو مـا نَزَّلـه الله تعـالى علـى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي القرآني والوحي النبوي.

ومن هنا تفهم أنه لا تقوىٰ للمتقي إلا بعد العلم بما نـزل علـى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسـلم، وَتَفَهّـم بياناتـه صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم وإرشاداته.

مراتب التقوى. أي: الأمور التي يجب توقِّيْها:

أولاً: تقوى الكفر وما يجر إليه:

وتشمل تقوى الكفر العملي والقـولي، لأنّ هنـاك أعمـالاً تكفـر، وهنـاك أقوالاً تكفر، وهناك أمور قلبية اعتقادية تكفر، كمن استحل حراماً قطعيـاً جـاءت حرمته بنص القرآن؛ أو بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كفر.

---

(١) طرف من أول خطبة خطبها صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم في المدينـة المنـورة كمـا في (البداية والنهاية) لابن كثير (٣/٢١٣).

ومثال هذا: كمن استحل ترك الصلاة، أو استحل عمل الربا، أو عمل الميسر، أو استحل الخمر والزنا.

فإن قيل: كيف تكفره وهو يصلي ويصوم.

فيقال: إنَّهُ باستحلاله لأمر حرَّمَهُ الله تعالى لم يدخل في الإسلام حتى نخرجه عنه، لأن من جملة اعتقاد الإسلام أن تعتقد بحلال ما أحل الله، والاعتقاد بحرمة ما حرمه الله، فمن استحل حراماً قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة فقد خرج عن الملة.

ثانياً: تقوى المعاصي:

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: أهل البلاد العامرة، وما حولها ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي: أنهم بالإيمان خرجوا عن الكفر، وهذا قوله سبحانه: ﴿ءَامَنُواْ﴾.

أما معنى: ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي: تركوا ما حرم الله تعالى، وامتثلوا ما أمر به سبحانه وتعالى.

وفي هذا يقول عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»(١).

---

(١) الحديث في (المسند) (٢/ ٣١٠) و(سنن) الترمذي في كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس /٢٣٠٦/ (٦٩/٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ» أي: ما حرَّم الله تعالى. والسبيل إلى ذلك أن تتفهم وتتعلم ماذا حرم الله تعالى، فلا بد للمؤمن مِنْ عِلْمٍ تصح به عقيدته، ويعلم منه فرائض دينه وواجباته، حتى يقوم بها، وأن يعلم ما حرَّم الله تعالى حتى يتجنبها، وهذا يدل على أنه لا تقوى بدون علم.

«وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ» فليس أغنى الناس من هو أكثر الناس جمعاً للمال، وإنما أغنى الناس مَنْ قَنع ورضي بما أعطاه الله تعالى.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[(١)].

«وَلاَ تُكْثِرْ الضَّحِكَ» أي: اضحك إذا كانت الأسباب الحاملة على الضحك مشروعة، ولكن لا تكثر الضحك «فإن كثرة الضحك تميت القلب» أي: الجسماني، وتميت القلب الروحاني المودع في القلب الجسماني، بأن تستولي عليه الظلمة والغفلة.

ثالثاً: تقوى الشبهات:

وهي الأمور التي تُشبه من وجه أنها حلال، وتشبه من وجه أنها حرام، فالتقوى هي ترك هذه الأمور المتشابهة والابتعاد عنها، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في الصحيحين[(٢)] عن النعمان بن

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٢٦١)، والبخاري في الرقاق، باب الغنى غنى النفس /٦٤٤٦/ (١١/٢٧١)، ومسلم /١٠٥١/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه /٥٢/ (١/١٢٦) ومسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات /١٥٩٩/ (٣/١٦٤٧).

بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الْحَلاَلُ بَيِّنٌ والْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَات فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِه وَعِرْضِه، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَام، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِك حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّه مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَد مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ».

«الْحَلاَلُ بَيِّنٌ والْحَرَامُ بَيِّنٌ» أي: عند المسلم، أما الكافر فلا يعلم الحلال من الحرام.

فالواجب عل المسلم أن يتعلم ما أحلَّ الله تعالى، وأن يتعلم ما نهى الله عنه، أمَّا أنْ تَرَى مسلماً وتسأله هل الخمر وسائر المسكرات التي تضر بالعقل والجسم حرام أم لا ؟ فيقول: ليس بحرام، لأنه لم يَرِدْ نَصٌّ في القرآن على تحريمه، ولم يقل سبحانه صراحة في كتابه حرمت عليكم الخمر أو نحو هذا، فيقال له: أنت في وادٍ والإسلام في واد.

أَلَمْ يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] فلو قال: إنّ الاجتناب لا يدل على التحريم، فيقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: اجتنبوا الأصنام، وعبادة الأصنام، فالاجتناب يدل على التحريم، وإلا لكانت عبادة الأصنام ليست بحرام، لأنه لم يقل: حرمت عليكم الأوثان.

وإنّ معنى الاجتناب يكون أحياناً أقوى من التحريم، لأن الاجتناب يعني المباعدة. أي: أن تجعل نفسك في جانب، والحرام في جانب آخر.

ثم من ناحية أخرى إنَّك تزعم أن كلمة الاجتناب لا تدل على التحريم.

فاعلم أنَّ الذي نَزَل عليه القرآن هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب البيان عن القرآن قد حرَّم الخمر، وَحَدَّ شارِبَهُ، فهل أنت أفقه وأعلم أم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!

فلا يجوز لك أن تفهم شيئاً من القرآن وتستقل به، إلا بعد الرجوع إلى صاحب البيان عن القرآن، الذي قال الله له: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] أي: أن نبين لك معاني القرآن الكريم، وقال له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فالأمور المشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، أي: بل يعلمهن قليل من الناس، وهم أهل العلم وذلك بعد البحث والنظر والتحقيق.

فَمَنِ اشتبه عليه أمر ولم يجد دليلاً يرجح فيه تحريمه أو تحليله، فما عليه إلا بترك هذا الأمر، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ» أي: برَّأ دينه عن النقص والخلل.

«أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ - جسمياً صلح الجسم، وإذا صلحت إيمانياً - صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» فمن صلح قلبه بالإيمان تحركت أركانه إلى فعل الطاعات، وهذا لأنَّ القلب بمنزلة المَلِكِ، وأما الأركان فبمنزلة الرعية.

رابعاً: تقوى المباحات:

وهي ترك المباح خوفاً من أن يجر إلى المكروه أو المحرم، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم، كما روى الترمذي وغيره [(١)]: «لا يَبْلُغ

---

(١) الترمذي، كتاب أبواب صفة القيامة /٢٤٥٣/ (٧/١٦٠) وابن ماجه في كتاب الزهد باب الورع والتقوىٰ / ٤٢١٥/ (٢/١٤٠٩) والحاكم في (المستدرك) وصححه (٤/٣١٩) عن سيدنا عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه.

العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ» أي: الكُمَّل «حتى يَـدَعَ» أي: يتـرك «مَـالاَ بَـأْسَ بِهِ، حَذَراً مِمَّا بِهِ البأس» أي: يترك المباحات خوف الوقوع في المكروهـات أو المنهيات.

خامساً: تقوى الله حق تقواه:

وفي هذا يقول سـبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ومعنى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فقد رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً[(١)] ـ أي: مَرّة رفعه إلى جناب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومرة حكاه عن نفسه. ولكن مثل هذا الكـلام لا يُـدرك بـرأي، ولا بـد أنـه سمعه من بيانات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فله حكم المرفوع ـ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه في معـنى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هـو: «أَنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى، وأَنْ يُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَر، وأَنْ يُذْكَر فَلاَ يُنْسى».

سادساً: من مراتب التقوى:

وهي تقوى الأغيار كلها، بأن لا ينشغل القلب بغير الله سبحانه، وهذه من صفات أهل الكمال، وأهل القرب الخاص.

* * * * *

---

(١) هذا نص رواية الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (٦/٣٢٦) وينظر (المستدرك) (٢/٢٩٤) و(الدر المنثور) للسيوطي عند تفسير هذه الآية الكريمة.

الأسباب التي تحمل الإنسان على تقوى الله سبحانه

أولاً: أن يراقب العبد مراقبة الله عليه، وأن لا يغفل عن ذلك أبداً، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] فَمَنْ راقب مراقبة الله عليه: حمله ذلك على تقوى الله، ومن أعرض عن الله وغفل عنه: أعرض عن تقواه.

ثانياً: أنْ يوقن العبد أَن الله مُطَّلع عليه أينما كان وكيفما كان، وهو يراه ومحيط به، وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد، وإن ملاحظة هذه الأمور، ومراقبة الله في ذلك: تحمل العبد على أن يتقي الله في جميع أموره، وأن يجعل الله أمامه دائماً، وإلا كان كمن قال فيهم سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وسُئل الحارث المحاسبي رضي الله عنه عن معنى مراقبة الله تعالى فقال: هو علم القلب بقرب الرب.

أي: أن تعلم علماً قلبياً جازماً أن الله تعالى قريب منك، فإنّ هذا يحملك على الحياء والخوف من الله تعالى.

وقيل للإمام الجنيد رضي الله عنه ـ أي: قال له بعض المريدين ـ: بم أستعين على غض البصر ؟ أي: عن المحرمات.

قال: أن تعلم أَنَّ نظر الله إليك، هو أسبق إلى ما تنظر إليه. اهـ

أي: راقب أنك في نظر الله تعالى، مما يحملك على تقواه والخشية منه سبحانه، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ»[1] أي: بالسر والعلانية، وبالخلوات والجلوات.

وقد أَثَّرَتْ هذه الموعظة المحمدية في معاذ رضي الله عنه، وتحقق بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رجع من بني كلاب أيام خلافة عمر رضي الله عنه وقد بعثه ساعياً عليهم، قالت له امرأته: بماذا جئتنا ـ من هدايا ومال ـ؟

فقال لها: كان معي ضاغط ـ موهماً لها أنّ عمر رضي الله عنه بعث معه رقيباً، والحال هو يريد أن الله تعالى رقيب عليه ـ فراحت تشكو عمر رضي الله عنه إلى نسائها[2].

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مراقبة لله سبحانه في أمورهم كلها، حتى قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كُنَّا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هيبة أن ينزل فينا القرآن)[3] أي: لأنّ فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والوحي ينزل عليه، فربما كَشف حالهم، ولهذا كانوا يراقبون أنهم في مراقبة الله، وأنهم في نظر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم أولياء، وكلهم أكابر رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس /١٩٨٨/ (٦/ ٢٠٤).

(٢) الخبر في كنز العمال (١٣/ ٥٨٤) معزواً إلى الحافظ عبد الرزاق، والمحاملي في (أماليه).

(٣) كما في (المسند) (٢/ ٦٢) ـ واللفظ له ـ و(صحيح) البخاري في كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء /٥١٨٧/ (٩/ ٢٥٣).

وقد بين الله تعالى طريق الولاية الكبرى:

فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الآيات من سورة يونس عليه السلام].

والمعنى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في أيّ شأن من الشؤونات ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ ثم عمَّ فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: حينما تدخلون في العمل وتتلبسون فيه، فإن الله شاهد عليكم، وغير غائب عنكم، يعني: حتى إنه سبحانه يخبركم بأعمالكم يوم القيامة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] عن أخبارهم وأعمالهم التي عملوها في الدنيا بعلم منا، فالله محيط بهم، ونقول لهم: ما كنا في الدنيا غائبين عنكم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ أي: وما يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أنَّ من لا حظ هذه الأمور، وراقب مُشاهدة الحق له حمله على التقوى فهو من المتقين ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وقال بعض العارفين رضي الله عنهم : منذ أربعين سنة ما تحركت بحركة نفسانية إلا عن مراقبة لله تعالى. اهـ

أي: لم يتحرك حركة دفعته نفسه إليها إلا بعد أن يزن الحركة على ميزان الشريعة، ويُحسن النية فيها. لأن الرقيب قريب.

فعلى المؤمن أَنْ يُراقب ربه في جيمع حركاته وسكناته، وأعماله وأقواله، ونياته. ونسأل الله التوفيق لذلك، ونسأله سبحانه أن يجعلنا مِمّن يخشاه وكأنه يراه، واجعلنا يا مولانا من أهل المراقبة، حتى نرتقي إلى مقام المشاهدة اللهم آمين.

وصلىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

المحاضرة الثامنة

في التذكير بأيام الله تعالى

من التذكير القرآني بأيام الله تعالى
والتي أمر الله تعالى رسوله سيدنا محمداً
صلى الله عليه وآله وسلم
أن يُذكر بها

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] [١] أي: هم الكفار لا يخافون أيام الله، أي: أيام وعيده لهم، ولا يرجون ثواب الله، وهي أيام وعده للمؤمنين، وأيام الله تعالى هي: أيام وعده ووعيده الماضية والآتية، والتي ستقع يوم القيامة،

(١) ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه الآية مكية النزول قبل أنْ يُفْرَض الجهاد، وفيها يأمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقابلوا أذى المشركين، وأن يصبروا على ذلك، ولا ينتصروا لأنفسهم.

وهناك من قال: بأنها نسخت بعد ما فرض الله الجهاد، والحق: أنها بقيت محكمة، وهي من باب: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وذلك بالصبر على أذى المشركين، دفعاً لتوسع الفتنة، وسداً لذريعة الضرر والأذى، إلا إذا ابتدأ المشركون الأذى ومحاربة المسلمين، فعند ذلك ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] .

لأن يوم القيامة يشتمل على أيام ومواقف، وعوالم وأحوال، لا بد أن يمر عليها الإنسان.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّر الصحابة بأيام الله تعالى، حتى قال الزبير رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطبنا فيذكرنا الله حتى نَعرف ذلك في وجهه الشريف» كما رواه الإمام أحمد[1].

ومن أيام وعده للمؤمنين، ووعيده للكافرين قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ...﴾ الآيات من سورة الحديد.

والمعنى: اذكر لهم يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم وعد الله للمؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: نور إيمان المؤمن يسعى من بين يديه وبأيمانه، بمعنى أنه مُحيط به من كل جهاته، ويمشي مستنيراً بهذا النور حتىٰ يدخل الجنة.

ونور كل مؤمن على حسب إيمانه، فهناك الإيمان الكامل والأكمل والأكمل وهكذا.

وهذا لأنّ حقيقة الإيمان في قلب المؤمن هو: نور من عند الله تعالى، والنور هو: اسم لكل ظاهر وبه الظهور.

ولَمّا كان البصر يريك الأشياء ويظهرها لك سُمِّيَ نوراً، إلا أن هناك أمر يُظهر لك ما وراء الحجب، وهو العقل؛ فهو أولى أن يُسمى نوراً.

---

(١) (١/١٦٧).

ثم إنّ العقل محدود ومقيد بظواهر الأمور، فإذا وجد هناك شيء يُنور العقل وينفذ به إلى ما وراء الأشياء المعقولة المحسوسة، فهو أولى أن يسمى نوراً، وهو الإيمان بالله سبحانه، لأنه يُعرفك بالمغيبات، والعوالم الكثيرة التي أخبر الله تعالى عنها.

وعلى هذا فإن حقيقة الإيمان في القلب نور من عند الله تعالى، إلا أنَّه يتجلى علانيةً ويظهر حساً في العالم المطلق، لا في عالم الدنيا المقيد.

فإذا انطلق الإنسان من هذا العالم المحدود، ودخل في برازخ الآخرة، وأوَّله عالم القبر ظهر له نور الإيمان ورآه نوراً باهراً قوياً يسعى من بين يديه ومن حوله، ويرى أنوار طاعاته وصلواته وعباداته واضحة جلية، ويرى أنوار المؤمنين، ويرى ما لم يكن يرى في الدنيا، لأنه دخل في العالم المطلق.

وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة الإيمان في القلب فقال: «إِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ خَلقه فِيْ ظُلْمَةٍ» ـ أي: ظلمة النفس والهوى والدنيا «ثُمَّ» أي: ما تركهم بل «أَلقَى عَلَيْهِم مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلكَ النُّورِ اهْتَدَى» إلى الله، لأن النور شأنه الهداية، كما يهديك النور الحسي في طريقك «وَمَنْ أَخْطَأَه ضَلَّ»(١).

أي: فاحذر أيها الإنسان أن يخطئك النور، بل عليك بالتماسه وطلبه عند مهبط نور الله تعالى، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال تعالى فيه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ [التغابن: ٨]

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/١٧٦) والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراف هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٧/٢٩٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فإذا حل النور في القلب عرف المؤمن ربه وآمن، فيُذْعن ويصدِّق ويعتقد بما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وهو نور الإيمان الذي قال فيه سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ممتداً أمامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: محيط بهم وبجهاتهم كلها.

ولم يذكر سبحانه لهم شمال لأنهم كلهم يُمن وبركة، وكل جهاتهم أيمان، أي: يُمن وبركة، فقال: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾.

وإنّ هذا النور يظهر لهم في القبور، ويظهر لهم في الحشر، ويظهر لهم حين يمشون على الصراط، وكل على حسب مقامه في الإيمان.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إنَّ مِنَ المُؤمِنِيْنَ مَنْ لا يُضِيء لَهُ نُورُهُ» أي: نور إيمانه «إلا مَوْضعَ قَدَمَيْه، والناس منازل بأعمالهم»[1] أي: أمامه فقط، ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يستزيد من النور، ويُعَلِّم الصحابة وَمَنْ بعدهم أن يطلبوا النور ويزدادوا نوراً على نور، وهو نور الإيمان.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه.

ومن هذا دعاؤه صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه إلى المسجد: «اللهم اجْعَل فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِيْ سَمْعِي نُوراً، وَفِي بَصَرِيْ نُوراً، وَعَنْ يَمِيْنِي نُوْراً، وعَنْ شِمَالِيْ نُوراً، وأمامي نوراً، وخَلْفِي نُوراً، وفوقي نوراً، وَتَحْتِيْ نُوراً، وَفِيْ شَعْرِيْ نُوراً، وَفِيْ لَحْمِيْ نُوراً، وَفِيْ عَظْمِيْ نُوراً، وَفِيْ دَمِيْ نُوراً» الحديث[1].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يدعوا بهذا الدعاء أيضاً إذا فرغ من صلاة الليل.

والمعنى: أن يعم نور الإيمان جميع المدارك والحواس والجهات، فنور القلب هو التصديق والاعتقاد، ونور السمع والبصر والحواس هو الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة وهكذا.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ثم ذكر سبحانه يوم وعيده للمنافقين فقال: ﴿يَوْمَ﴾ أي: واذكر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس يوم ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ والمنافق هو: الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر في نفق قلبه. والنفق: هو المخبأ.

فلما مشى الناس على الصراط، وأضاء لأهل الإيمان نور إيمانهم، وأضاءت للمنافقين في أول خطوة خطوها أضاءت لهم كلمة لا إله إلا الله،

---

(١) كما في (المسند) (١/٣٤٣) و(صحيح) مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه /٧٦٣/ (٢/٨٥٢) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فظنوا أَنَّ النور سيرافقهم ويستمر معهم، إلا أنه انقطع عنهم في الخطوة الثانية، وهذا مَكْرٌ بهم، لأنهم مكروا في الدنيا، وهذا خداع لهم، لأنهم كانوا يخادعون الله ورسوله، فكان الجزاء من جنس العمل، وإنّ الظلمة بعد النور أشد وأصعب من الظلمة ونسأل الله العافية.

فلما طفئ نور المنافقين، ورأوا أهل الإيمان يمشون بنور إيمانهم، قالوا: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ لا تسرعوا في السير، وتمهلوا حتى نمشي على نوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي: كُلٌّ يمشي على نوره. فإذا كنتم تريدون النور فارجعوا إلى الدنيا، وصحِّحُوا إيمانكم، وأخلصوا دينكم، حتى تلتمسون النور وتمشون عليه. وهذا من باب التهكم عليهم، لأنه لا رجعة إلى الدنيا، وقد فات الأوان، ومضت الدنيا وصار أهلها في الآخرة.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ حاجز كبير محكم ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: داخله وما وراءه فيه الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهي جهنم، أي: فُصِلَ ما بين المنافقين، وما بين المؤمنين بهذا السور، فصار المنافقون ينادون أهل الإيمان ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ألم نكن معكم في الدنيا، ونجتمع بكم، وربما صلينا معكم وهكذا، فكيف تركتمونا ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بأهل الإيمان إذ كنتم تتربصون بهم الدوائر والأذى ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت والقيامة، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان.

واعلم أن المؤمنين وهم ما شون على الصراط، و رأوا أن المنافقين قد طفئ نورهم جعلوا يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي: لا تفعل بنا ما

فعلته بالمنافقين، وإن كان عندنا خطايا وذنوباً ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية أي: أنت القادر على أن تغفر للمذنب والمقصر ولو كان ماشياً على الصراط.

ومن هنا تفهم أنَّ الدعاء والتوجه إلى الله لا ينقطع بعد الموت، وأن الله تعالى يُحِّب ذلك، ويتقبله بعفوه وكرمه سبحانه.

ولو كان دعاؤهم لا ينفعهم، أو أنَّ الله لا يجيبهم لَمَا ذكر الله عنهم الدعاء وكَرَدّه عليهم.

وهذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: حتى يُنْعِمَ عليكم بحسن العواقب وتمام الإيمان والنور.

ومعنى التوبة النصوح أي: توبة كاملة غير ناقصة، خالصة لا شائبة فيها، لأن النُصْحَ معناه عدم الغش، ومنه: نَصَحَ العسل، إذا صفا من الشوائب.

ودليل التوبة النصوح أن يندم القلب على فعل الذنب، والندم توبة كما جاء في الحديث(١)، والندم هو: احتراق القلب وأسفه على مافرط في جنب الله تعالى.

---

(١) عند ابن حبان في (صحيحه) /٦١٣/ عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وعند الحاكم في (المستدرك) (٢٤٣/٤) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والتوبة النصوح هي التوبة الكاملة، أي: توبوا إلى الله من كل ذنوبكم، كالثوب الناصح. أي: الثوب الكامل الذي لا شق ولا خروق فيه، كما هو في (لسان العرب).

وَيُسمى الخياط في لغة العرب ناصحاً، وتسمى الإبرة التي يخاط بها منصحَة، لأنها تنصح الثوب وترقعه.

فَمَنْ تحقق بالتوبة النصوح إلى الله سبحانه، حلَّ في مقام الرجاء الصحيح بدليل قوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وذلك يوم يُخزىٰ فيه من يُخزىٰ، ويُكْرَم فيه من يكْرَم، وهم أهل الإيمان ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: لا ينجوا من الخزي والذل والخذلان إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين معه.

أما الكفار والفجار والفساق المصرون فهم في خزي وذل وهوان.

والخزي هو: حقارة النفس وصغارها، بسبب انكشاف عارٍ ونقص فيها، أو بسبب قهرٍ من الغير لها.

وأما الكفار فيخزون يوم القيامة بأنواع الخزي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية [النحل: ٢٧] وذلك لأنه ظهر ما في قلوبهم من خبث وفساد، بعد ما كانوا مستترين في الدنيا لأنهم صاروا في يوم ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٦] أي: تُمتحن وتختبر فتظهر، وإذا ظهر على الإنسان عار وهو في مَجمع أصابه الخزي والذل، فكيف في يوم الجمع الذي جمع الله فيه الأولين والآخرين، وتظهر فيه السرائر واضحة كالعلائن.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يكون ظاهره باطنه، وباطنه ظاهره خوفاً من ذلك اليوم الذي قال فيه سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ

خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. أي: تظهر فيه الخافية التي كانت في الدنيا تُخفى عن غيركم، فصارت الخفايا ظاهرات، وصارت الظاهرات أشد ظهوراً.

فلما ظهر ما في نفوس الكفار من فساد وخبث، ثم جاءهم القهر والغضب الإلهي، اعتراهم الخزي الأكبر، في الوقت الذي أكرم الله به المؤمنين بسبب نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: بل له الحمد والثناء الحسن، وله المقام المحمود الذي يَحمده عليه الأولون والآخرون، ويظهر مقامه صلى الله عليه وآله وسلم مُحمَّد، ويظهر مقامه أحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى **أحمد**: أي: أنَّه أحمد الحامدين لرب العالمين، فهناك يقوم مقاماً يَحمَد فيه رب العالمين، ويثني عليه بمحامد جامعة كما قال: «فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ، يُلْهِمُنِيْها الله تَعَالَى» ثم يقال له: «يا محمَّد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع»(١)، ويظهر مقامه المحمدي، وهو شفاعته في أهل الموقف، ويُنْقِذُهم من أهوال الموقف، وينفض أمرهم إلى الحساب، فصاروا يحمدون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويثنون عليه، فهو محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: النبي المعروف، الذي هو عَلَم الأعلام، ومعرفة المعارف، والذي هو أول نبي وخاتم الأنبياء، والذي فرض الله على الأولين والآخرين أن يعرفوه ولا يجهلوه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: أن الله تعالى لا يخزيهم لأنهم معه، فلهم المقامات العالية، إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعيتهم له.

---

(١) تقدم تخريجه ص /١٠٥/.

فكان الإيمان أماناً لهم من الخزي، وكانت معيتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبباً لإكرام الله لهم، وتفضله عليهم بالدرجات والمقامات.

وإن قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ بشارة للمؤمنين بمعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا شرف وفضل كبير من الله عليهم.

وإنّ أول ما تشمل الآية أهل الإيمان الكامل الأكمل وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ على مراتب في إيمانهم، وإن أعلاهم إيماناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين أدركوه وكانوا معه في عالم الدنيا مؤمنين به.

وفي هذا بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم فضل أصحابه وقوة إيمانهم وإخلاصهم فقال: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَو أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيْفَهُ»(١) أي: قدر كفه أو نصفه شعيراً، وهذا لقوة الإيمان والإخلاص مع الله سبحانه.

وجاء في (سنن) الترمذي(٢)، و(مسند) أحمد(٣) وغيرهما، عن سعيد

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/٥٤)، والبخاري في فضائل الصحابة، باب لو كنت متخذاً خليلاً /٣٦٧٣/ (٧/٢١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم /٢٥٤٠/ (٥/٢٤٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب، مناقب سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة /٣٧٤٩/ (٩/٣١٩).

(٣) (١/١٨٧و١٨٨).

ابن زيد رضي الله عنه ـ أحد العشرة المبشرين في الجنة ـ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ـ وَسَعيد يحدث التابعين ـ «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بن مالك فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ» وسكت عن العاشر وهو نفسه رضي الله عنه، تواضعاً منه، فقيل من العاشر فقال: «سعيد بن زيد»، وأشار إلى نفسه.

ثم قال سعيد: والله لمشهد رجل يُغَبِّرُ فيه وجهه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منْ عَمَلِ أحدكم؛ ولو عُمِّرَ عُمْرَ نوح عليه السلام. اهـ

أي: لو أن خياركم أيها التابعون عُمِّرَ عُمُر نوح عليه السلام، وشغل عمره بالطاعة والعبادة، لا يبلغ فضل صحابي شهد مشهداً، أو حضر غزوة، أو مخمصةً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتَغَبَّر فيها وجهه.

وما هذا إلا لقوة إيمان الصحابة وإخلاصهم، وشدة الحال التي لقيها الصحابة رضي الله عنهم في مواقفهم مع المشركين والمنافقين وغيرهم من الكفار.

وروى البيهقي في (الدلائل)[1] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن جماعة من التابعين دخلوا عليه فقال بعضهم له: هنيئاً لك، أدركت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنتمنى أن نكون أدركنا ما أدركت.

فقال حذيفة رضي الله عنه: يا أخي لا تتمنى أن تشهد مشهداً غَيَّبك الله عنه، فإنك لا تدري حالك فيه، أهل تكون مع المؤمنين أم مع الكافرين.

ثُمَّ بَيَّن لهم أنَّ الصحابة لاقوا من الشدائد، وبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الله، ونصرة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (٤٤٩/٣) وما بعدها وانظر سيرة ابن هشام (٢٣١/٣).

فقال: والله لقد بتنا ليلة الخندق، وهي ليلة شديدة مخيفة، إذ تجمعت فيها أحزاب الكافرين والمنافقين واليهود، وكانت ليلة شديدة البرد، لم يتمكن فيها أحدنا أن يخرج من خيمته، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَقُمْ منكُمْ فَيُعْلِمَنَا عِلْمَ الْقَوْمِ» ؟ وفي رواية: «فَيَأتِيْنَا بِخَبَرِ القَوم» ؟ قَالَ: فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ.

فَقَالَ: «مَنْ يَقُمْ فَيُخْبِرُنَا خَبَرَ القَوم، وَيَكونُ رَفِيْقَ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيه السَّلام يَومَ القِيامَةِ» ؟ فَلَمْ يَقُم مِنَا أَحَدٌ . وذلك لشدة الخوف من الأعداء.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَقُمْ مِنكُم وَيُخبِرُنَا خَبَرَ القَومِ يَكونُ رَفِيْقِي».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابعث يا رسول الله حذيفة . ولا شك أن الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم مستعدون لنداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُريد غيرهم. أي: رجلاً غير معروف لدى الأعداء.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قُمْ يَاحُذَيْفَةُ».

فقلت يا رسول الله: إني أخاف أن أؤسر.

فقال: «إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ».

قال حذيفة رضي الله عنه: والله كانت الليلة باردة، وكنت أخشى أن أترك الخيمة من شدة البرد، فقمت والبرد في جسدي، فلما خرجت من الخيمة صِرت في حَمَّام، فتسربت حتى دخلت في خِيَم القوم، وقد أرسل الله رياحاً باردة شديدة، نسفت خيمهم، وقدورهم، وتطايرت الأحجار على عيونهم، فَدَخَلْتُ فيهم وقد اجتمعوا . أي: اجتمع صناديدهم حتى يُقَرِّرُوا ماذا يفعلون ؟

فدخلت بينهم والليل مظلم، فقالوا لبعضهم: كل منكم يأخذ بيد صاحبه حتى لا يكون فيكم رجل من غيركم، قال: فأخذت بيد جليسي قبل أن يأخذ بيدي، وقلت له: من أنت ؟ وهذا من باب الحيلة والمكر، لأنّ الحرب خدعة، فقرروا أن يرجعوا، وانهزموا في الليل.

ورجع حذيفة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بذلك، ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان مراد حذيفة رضي الله عنه أن أحدكم أيها التابعون قد لا يستطيع الثبات على هذا الموقف، أو غيره من المواقف الشديدة.

ودخل[١] جماعة من التابعين على المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وقد شهد بدراً وغيرها، فقال له بعضهم: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَدِدْنا أنا كنا نشهد ما شهدت، وندرك ما أدركت.

فلما سمع المقداد رضي الله عنه قوله: وددنا أنا كنا نشهد ما شهدتم، أي: من الغزوات والمعارك، قال له: لا يتمنى أحدكم أن يشهد مشهداً لو شهده ما يدري أنّىٰ يكون في ذاك الوقت، وكيف يكون حاله، وهل يكون من المؤمنين أم من الكافرين ؟

وقال: يا أخي إن الله تعالى بعث النبي عليه الصلاة والسلام على أشد حالٍ بُعث فيها نبي، وهي كثرة المشركين، وكانوا أفضل ما يرون عندهم عبادة الأوثان، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفرَّق بين الحق والباطل، فكان الرجل منا ـ أي: من الصحابه ـ يفتح الله قُفل قلبه للإيمان، ولكن يبقى أبوه كافراً، وأمه كافرة، وولده كافراً، وزوجته كافرة، وأخوه

---

(١) ينظر الخبر في (الحلية) (١/١٧٥).

كافراً ـ أي: هذا ما حصل أحياناً ـ فهو يتحسر في نفسه، ويقول: إن هلكوا على الكفر صاروا في النار، ثم عليه أن يقاطعهم. أي: فَمَنْ منكم يتحمل ذلك ويصبر عليه؟ ولهذا كان أحدنا يدعو: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فاحمدوا الله تعالى أن الله أخرجكم من آباء مؤمنين، وأنكم صدقتم نبيكم، وكفاكم البلاء بغيركم، أي: بالصحابة رضي الله عنهم.

أي: فليس عند كل أحد استعداد وقابلية أن يكون من الصحابة، وليس عند كل أحد ذلك التصديق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والامتثال لأمره، لا سيما أنَّ أمره صلى الله عليه وآله وسلم أمر مطاع لا تَخَلّف فيه، كهجر المال والعيال، والنهوض إلى الغزوات وغير ذلك، وَمَنْ تخلف خرَج عن الملة، وَمِنْ هنا تعلم فضل الصحابة، وعلوّ مكانتهم على سائر هذه الأمة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

وهو نور الإيمان الذي اقتبسوه من سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، واستناروا بنور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفتح الله قلوبهم لأنواره، فأحبوا الإيمان وتعشقوا به، حتى أحاط نور الإيمان بجهاتهم كلها يقولون: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

المحاضرة التاسعة

في

التذكير القرآني

قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ
﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾
فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ
نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ
أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ
وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا
كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا
لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾
وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾
فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾.

ولقد ذكر سبحانه في هذه السورة المبدأ والمعاد، وعواقب أهل الجنة، وعواقب أهل النار، وما مر على هؤلاء وهؤلاء في الدنيا، وما سيمر عليهم في برازخ الآخرة، بعد ذلك قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ

رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: فذكر يا رسول الله بهذا القرآن، وبهذه السورة، لما في التذكير من نفع لمن ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أما معنى الآيات:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بعظائم القدرة الإلهية ومظاهرها، كالبحر وما فيه من عوالم، أو السماء المرفوعة وما فيها من الكواكب والشموس والأقمار، ثم هناك البيت المعمور الذي عَمَره أهل الإيمان من أهل السماوات والأرض، ثم هناك جبل الطور وآثار التجلي عليه، وكل هذا مظاهر لقدرة الله تعالى، ومجالي لحكمته سبحانه.

ولقد أقسم سبحانه بهذا كله على أن أمر الساعة حق لا بد منه، وأن خراب عالم الدنيا أمر حق، وأن العذاب لابد للكافرين منه، وأن الذي رفع بقدرته السماء المرفوعة وما فيها من عوالم، ونصب بقدرته البحر المحيط لقادر على أن ينقل هذا الإنسان إلى عالم آخر، وأن يقيم الساعة.

﴿وَٱلطُّورِ﴾ هو: الجبل الكبير، والمراد في الآية جبل الطور الذي كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام عنده، وإنما سميَّ طوراً لتطوره بعد أن تجلىٰ عليه رب العزة، لأن لتجليات الله تعالى آثاراً، ومنها التطور والترقي، وفي هذا إشارة: وهي أنه إذا كانت تجليات رب العالمين تطور الجبال، فمن باب أولى أنها أشد تأثيراً على قلوب المؤمنين.

وقد ورد أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يتجلى عند جبل الطور ويكلم موسى عليه الصلاة والسلام، أوحى الله تعالى إلى الجبال إني متجل على جبل

منكم، فتشامخت الجبال وتطاولت ورأت في نفسها قابلية واستعداداً لذلك التجلي، إلا جبل الطور فتواضع لله تعالى، وقال: أنا راضٍ بما قسمه الله لي.

فتواضع لله فرفعه الله تعالى، فخص الله تعالى جبل الطور بالتجلي بسبب تواضعه وانكساره لرب العالمين جل جلاله.

وقد حصل للجبل تطور عجيب، وتأثر بالتجلي وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فصار موسى عليه الصلاة والسلام في طَور، والجبل في طور آخر وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ المراد منه أعظم الكتب، وهو القرآن الكريم المسطور في اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

وهو مسطور في صحف الملائكة: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس١٣ـ١٦].

كما أنه مسطور في عالم الأرض كما هو معلوم، وإنما وصف الله تعالى هذا القرآن بأنه كتاب مسطور ليُبيِّنَ أن هذا القرآن مسطور في كل العوالم، ولا يقبل المحو ولا الزيادة ولا النقص، لأنه مسطور، أي: مسطور بأمر رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ لا في رقٍ مهجور، والرق: هو الصحيفة، فالملائكة وأهل السماوات يقرؤون هذا القرآن، ويتقربون به إلى الله سبحانه.

وفي هذا إشارة وتحذير لك أيها المؤمن من أن تتخذ هذا القرآن صحيفة مهجورة مطوية، بل انشره. أي: افتحه واقرأه، كما هو منشور عند أهل السماء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ المراد جنس البيت المعمور ونوعه، أي: البيت المعمور في كل عالم لأن كل عالَم، فيه بيت معمور، فالسماء السابعة فيها البيت المعمور الذي عَمَرته الملائكة والأرواح العالية بالعبادة والطاعات، وقد رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج فقال[1]: «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، فقلت: يا جبريل ما هذا؟، قال هذا البيت المعمور يَدْخُلُهُ كُلَّ يوم سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إذا خرجوا منه لم يَعُودُوا إليه آخر ما عليهم» لأن الدور والنوبة لغيرهم من الملائكة، الذين لم يدخلوا البيت المعمور بعد. فما أكثر ملائكة الله تعالى صلوات الله عليهم أجمعين ؟!!.

وإنّ البيت المعمور هو قبلة السماء السابعة، وقد أسند إبراهيم عليه السلام ظهره إليه، كما رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ويخرجون من الباب الأخر، ولا يتيسر لهم أن يدخلوه مرة أخرى لأن الدور لغيرهم.

واعلم أن لكل سماءٍ بيتاً معموراً هو قبلتها، وبيت العزة هو قبلة السماء الأولى، والبيت المعمور في عالم الأرض هو الكعبة المعظمة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] فإليه يتوجه المؤمنون في صلواتهم وحجهم والطواف حوله.

---

(١) طرف حديث الإسراء وهو في (المسند) (٤/٢٠٧) وعند البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة /٣٢٠٧/ (٦/٣٠٢) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم /١٦٢/ (١/٣٢٠) عن سيدنا مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

كما أن الإنسان عالم وفيه بيت معمور، إذا عمره صاحبه بالإيمان؛ وهو القلب.

فلا تترك أيها الإنسان قلبك مهجوراً، وإلا أَوَتْ إليه الشياطين، كما تأوي الحشرات والثعابين إلى البيت المهجور، بل عليك أن تعمر قلبك بالإيمان بالله، وتُخَلِّيه عن الأكدار والخبائث، وتُحَلِّيه بالفضائل والنيات والعزائم الحسنة، وعند ذلك يصير قلبك مأوى للملائكة عليهم السلام.

قوله تعالى ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ ويشمل السقف المرفوع بالنسبة لعالم الأرض وهو السماء ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٢].

كما يشمل السقف المرفوع بالنسبة لعالم السماوات وهو العرش، كما جاء: «وَسَقْفُ الجَنَّةِ عَرْشُ الرَّحْمنِ»[١].

ومعنى المرفوع: برفعته وإحكامه وإتقانه وشرفه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: في العالم كله، ففي عالم الأرض هو البحر المحيط، لأن أبحر الأرض متصلة مع بعضها، و﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ هو المملوء بالماء، ومنه الباخرة المسجورة، أي: المملوءة بالأمتعة.

والمعنى الآخر لقوله: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ المحبوس المكفوف، كما تدل عليه هذه المادة في اللغة.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء ماءً، لكنه ممنوع ومكفوف عن أن يسترسل ماؤه إلى اليابسة، ولولا أن الله تعالى يكف البحر ويحبس ماءه فيه لطفا على البر، وأغرق أهل الأرض.

---

(١) كما في تفسير ابن كثير، والفردوس /٣٥٢٧/ وغيرهما.

وهناك مناطق في الأرض تكون أخفض من مستوى البحر، فَمَنِ الذي أمسك البحر عن التدفق والانهيار إلى البر، هذا هو الله سبحانه الذي خلق البحر بقوله: ﴿كُن﴾ فكان، فعرف ربه، لأنه هو خلقه وكوّنه، ولذلك فإن البحر حين يرى الكُفر والمعاصي في بني آدم تأخذه الغيرة الإلهية، ويحاول أن يُهلك بني آدم، لكنه تعالى يكفه عن ذلك.

وفي هذا جاء الحديث الذي رواه الإمام أحمد في (مسنده)[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس مِنْ لَيْلَةٍ إلاَ وَالْبَحْرُ يُشْرِفُ فِيهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ» أي: يتعالى «يَسْتَأْذِنُ الله أن ينتضح عليكم» أي: يغرق أهل الأرض بكفرهم «فَيَكُفُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ قال بعض الصحابة رضي الله عنهم، أي: المتوقد المملوء ناراً، كما يُقال: سجر التنور فهو مسجور، أي: متوقد، ولا تنافي في هذه المعاني، لأن البحر تَمر عليه أحوال قُبيل الساعة، فيمر أولاً عليه حالة تَطفُ البحور على بعضها، ثم بعد ذلك تشتعل ناراً، بسبب ظهور مادة محرقة فيها، ثم تجف وتيبس، لأن السَّجْرَ في اللغة أيضاً يدل على التضاد، أي: الاشتعال واليُبْس.

وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: المملوء المحبوس في حالة أولى، ثم هو المشتعل المتوقد، وسمي بالمسجور بمعنى اليابس، وهي الحالة الأخيرة التي تمر عليها، وهذا من علامات الساعة، وتخريب هذا العالم حينما يأتي أمر الله سبحانه.

---

(١) (١/ ٤٣) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم بَيَّن سبحانه جواب القسم عليه فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: أن الذي ظهرت آيات قدرته، وعجائب حكمته فيما ذكر من آيات، قادر على إقامة الساعة، ليميز الله الخبيث من الطيب، وأن العذاب على الكافرين حق، ومتى وقع فليس له من دافع يدفعه عن الكفار.

ومتى يكون هذا العذاب نسأل الله العافية ؟ ومتى تقوم الساعة ؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ أي: تتموج وتضطرب تموجاً وهيجاناً كأمواج البحر.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تسير في الجو، كما قال سبحانه ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [عم: ٢٠] كالسراب المتحرك الذي يراه الإنسان من بعيد، فإن الجبال مع صلابتها وقساوتها فإنها يوم القيامة تتلاشى، وتضمحل وتنتشر في الأجواء، حتى يراها الإنسان كالسراب، وكالهباء المنثور، كما بين الله سبحانه ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ وهذا من جملة التذكير بأيام الله تعالى، وهو يوم وعيده للمكذبين.

ثم بعد ذلك ذكر سبحانه المتقين، وما وعدهم من ألوان النعيم، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وإن الذي يتذكر هو الذي ينظر في العواقب، ويتفكر بها. وهم أهل الإيمان.

ولذلك لما سمع سيدنا عمر رضي الله عنه هذه الآيات و هي ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ لما سمعها من قارئ وكان يتجول في سكك المدينة، ويتفقد أحوال الرعية، أخذت هذه

الآيات من قلبه مأخذاً كبيراً، حتى نزل عن حماره، واستند إلى جدار، ثم أمر من كان معه أن يحمله على الحمار، وذهب إلى بيته، وبقي شهراً مريضاً ـ يعوده الناس لا يدرون ما مرضه ـ من شدة تذكره وتأثره بهذه الآيات، وكأنه لم يسمعها من قبل[1].

وهذا لأنّ للقرآن تنزلات بأنواره وأسراره كلما قُرِئ.

وقال جبير بن مطعم رضي الله عنه: أتيت المدينة حتى أكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أسرى بدر، ـ وكان مشركاً وقتئذ ـ فقيل لي إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد، فأتيت المسجد فرأيته صلى الله عليه وآله وسلم يُصلي في أصحابه صلاة المغرب، فسمعته يقرأ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾.

قال: والله لما سمعت هذا خشيت أن ينزل العذاب فيَّ، فأدخل الله عليَّ الإسلام من ذاك الوقت.

وقال أيضاً: والله ما سمعت أحسن صوتاً وقراءة من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي رواية قال: حتى كاد أن يطير لها قلبي. وأسلمَ رضي الله عنه[2].

قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾.

---

(١) كذا في تفسير ابن كثير معزواً لابن أبي الدنيا، وأخرجه الإمام أحمد في (الزهد) كما في (الدر المنثور).

(٢) الخبر في البخاري/٧٦٥ و٣٠٥٠ و٤٠٢٣ و٤٨٥٤/ ومسلم /٤٦٣/.

أي: يكذبون بيوم الجزاء والحساب، وهم يخوضون في مخاضات اللهو واللغو في مجالس الأباطيل، التي لا فائدة منها في الدنيا والآخرة، وما خوضهم هذا إلا لعب، لأن كل أمر لا ينفع في المستقبل فهو لعب، والمستقبل الذي لا مفر منه إنما هو الآخرة.

وفي هذا تحذير للمؤمن أن يخوض في الباطل، وأن يتجنب مجالس اللهو واللغو، وأنَّ من شأن العاقل أن يشتغل بما ينفعه، وهو ذكر الله تعالى، والكلام الجد الذي فيه نفع في أمور الدنيا والآخرة، وإذا صلحت الدنيا كما شرع الله تعالى، صلحت للإنسان آخرته، ولا يجوز للمؤمن أن يخوض ويجلس مع أهل الباطل، وإن لم يتكلم بكلامهم الباطل، أو يستمع إليهم، وفي هذا روى الطبراني[1]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَحَبُّ العمل إِلَى الله تَعَالَى سُبْحَةُ الحَدِيْثِ، وَأَبْغَضُ الأَعَمَالِ إِلَى الله التَحْرِيفُ».

قلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما سبحة الحديث ؟

قال: «يَكُونُ الْقَوْمُ يَتَحَدَّثُونَ ـ أي: باللهو واللغو ـ والرجل بِهِ يُسَبِّحُ».

قلنا: يا رسول الله وما التحريف ؟

قال: «الْقَوْمُ يَكُونُونَ بِخَيْرٍ، فَيَسأَلُهم الجَارُ والصَّاحِبُ كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ يَقُولُونَ: نَحْنُ بِشَرٍ».

أي: أنهم ينكرون نعمة الله عليهم، ويجحدونها بسبب شيء اعتراهم أو ضيق مرَّ بهم.

وإنما كانت سُبْحَةُ الحديث أحب الأعمال إلى الله تعالى، لأنه ذكر الله تعالى حين غفل الناس عنه، وهذه صفة الأوابين.

---

(١) (مجمع الزوائد) (١٠/ ٨١) عن سيدنا عصمة رضي الله عنه.

ولهذا كان كثير من السلف رضي الله عنهم يذكرون الله تعالى في مُزدَحَم الأسواق، أي: ولو سراً، وذلك حتى يتحقق وينال ثواب الذاكر بين الغافلين.

ولا بأس أن يُذكِّرهم بالله تعالى، بتحريضهم وحثهم على ذكر الله تعالى.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

وقد روى البيهقي في (الشُّعَب)(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ كالمُقَاتِلِ خَلْفَ الفَارِّينَ، وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ مَثَلُ الشَّجَرَةِ الخَضْراءِ في وسط الشَّجَرِ اليَابِس، وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ مثَلُ المِصْبَاحِ فِيْ البَيْتِ المُظْلِمِ، وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ يُرِيْه الله مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ وَهُوَ حَيٌّ» أي: ولو كان قبيل الوفاة «وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ يَنْظُرُ الله إِلَيْهِ نَظْرَةً لاَ يُعذِّبُه بعدها أبداً» الحديث.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾:

﴿دَعًّا﴾ أي: جرّاً وسحباً، فهم يُدْفعون إلى جهنم دفعاً ويُجرون جراً، ويقال لهم: هذه النار التي كنتم تكذبون بها ولا تؤمنون بوجودها، وعندما أخبركم الله ورسوله عنها اتهمتم رسول الله بالسحر، وقلتم: إنه كلامه، وما جاء به إنما هو سحر وأساطير، والآن قد شاهدتم النار وعاينتموها، فماذا تقولون؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها في قرارها ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) تنظر روايات الحديث في (الشُّعَب) (١/ ٤١١) وما بعدها عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهو في (ترغيب) المنذري /٢٥٢٦/ (٢/٥١٨).

وبعد ما ذكر سبحانه وَصْفَ الكفار وعواقبهم في الدنيا والآخرة، ذكر المؤمنين وما أعدَّ لهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

والمعنى: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مُغتبطين، مِنْ فَكِهَ: إذا سُرَّ واغتبط، ومنه الفكاهة وهي: ما يدخل السرور على الإنسان.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الذي هو ضد النعيم، فوقاهم العذاب مع الإكرام لهم والإنعام عليهم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

وفي هذا ألوان من النعيم الجسماني والقلبي، ومن جملته زياراتهم إلى بعضهم، وهم على الأسرة العالية المصفوفة والمتقابلة.

وقد جاء في الحديث: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض» أي: أصحابهم المؤمنين في الدنيا «فَيَسِيْرُ سَرِيْرُ هَـذَا إِلَى سَرِيْر هذا» الحديث[1].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قَرَنَّاهم بالحور العين، وليس المراد تزويج العقد، بل تزويج الجمع والقَرْن.

والحور أي: يحار النظر في جمالها وبياضها.

و﴿عِينٍ﴾ أي: واسعة الأعين، وفيها شدة في بياض البياض، وسواد السواد.

---

(١) عزاه في (الترغيب) (٤/٤٥٤) إلى ابن أبي الدنيا والبزار، وينظر (مجمع الزوائد) (١٠/٤٢١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

واعلم أن أزواجهم في الدنيا إنما هي معهم في الجنة، كما أن أزواجهم في الدنيا أعلى مرتبة وأحب إليهم من الحور العين، لأن منزلة المرأة المؤمنة في الجنة فوق مرتبة ومنزلة الحور العين بما لا يقاس، وقد قال سبحانه في إقرار أعين الأهل بأهلهم ومن يلوذ بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: إيماناً كاملاً ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: ولو دون إيمان الآباء ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآيات [الطور: ٢١].

وهذا لأن نعيم أهل الجنة لا يتم لهم إلا إذا قرت أعينهم بآبائهم وأبنائهم وأزوجهم، وإن الله تعالى يتفضل عليهم بذلك، ويلحق الفروع بالأصول حتى تقرَّ أعين الأصول، إكراماً للأصول، ودون أن يُنقص من مرتبتهم ومنزلتهم شيئاً.

وفي هذا دليل على أن النسب الصالح ينفع، وأن أولاد الصالحين يُكرمهم الله بسبب صلاح آبائهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله ليرفع ذرية العبد المؤمن يوم القيامة حتى تقر عينه. وقرأ هذه الآية: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم...﴾ الآيات.

ومن هنا كان الحسن البصري رضي الله عنه وسعيد بن المسيب رضي الله عنهما كانا يجتهدان في قيام الليل ـ أي: يكثران العمل والصلاة في الليل ـ فسُئل عن ذلك؟

فقال: أنا أعمل لي ولأولادي.

واعلم أن الله تعالى يُكرم الأبناء لصلاح الآباء، يكرمهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] فأكرم الوَلَدَيْن، وحفظ لهما الكنز بسبب صلاح أبيهما.

وأما في الآخرة فيرفع الله الأبناء إلى منزلة الآباء إكراماً للآباء، لتقر أعينهم بهم، كما تقدم[1]، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «إِذَا دَخَلَ الرجل الجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبَوَيْهِ وَزَوْجَتِهِ وولده.

فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك.

فيقول: يارب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بإلحاقهم»[2]

وفي الحديث الآخر[3] قال: صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته؛ وإن كانوا دونه في العمل لتَقَرَّ بهم عَيْنُهُ» وهذا من باب الفضل الإلهي.

وكما أنه سبحانه يكرم الأبناء بالآباء، فإنه يكرم الآباء بالأبناء أيضاً، وهذا إذا كان الولد صالحاً، ودعا لوالده دعوة صالحة، فيرفع الله والده، كما ورد في الحديث[4]: «إِنَّ الله عز وجل لَيَرْفَعُ الدرجة للعَبْدِ الصالح فِي الجَنَّةِ، فَيَقولُ: يا ربِّ أَنَّى لِيْ هَذَه ؟

فيقول: باستغفار ولدك لك».

وفي الحديث[5] أيضاً: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَ مِنْ ثَلاَثَة: إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أوعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أووَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له».

---

(١) أي: قبل قليل.

(٢) الحديث رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٧/١١٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه،.

(٣) رواه البزار (مجمع الزوائد) (٧/١١٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٥٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته /١٦٣١/ (٣/١٦٨٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

أما من ناحية المؤاخذة على الذنوب، فإنه سبحانه لا يؤاخذ الآباء بالأبناء، ولا الأبناء بالآباء فقال الكريم جلّ وعلا: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ففي مقام الفضل ألحق المقصر بالكامل، وأما من حيث المؤاخذة على الذنوب فهي بموجب العدل، فلا يؤاخذ الأب بجريمة ابنه، ولا الولد بجريمة أبيه، بل ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ﴾ من الذنوب ﴿رَهِينٌ﴾ أي: محبوس بذنوبه، ولا تتعدى المؤاخذة إلى غيره.

وهذا لا ينافي أنَّ المتسبب في ضلال غيره يكتب ذلك في صحيفته، ويؤاخذ عليه، لأن هذا من جملة كسبه وعمله و﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

فذكر سبحانه أولاً مقام الفضل، ثم العدل والمؤاخذة على الذنوب، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: يُقدم لهم الكؤوس وهم في مجالسهم، ويشربون من خَمرة الجنة وهم يتعاطونها بينهم، فيشرب هذا ويقدم لذاك وهكذا على وجه المسامرة.

قوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: أن خمرة الجنة لا تؤثر في شاربها تأثيراً قبيحاً، فتجعله يعربد في الكلام كالسب والشتم؛ كما هو حال خمرة الدنيا.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: ولا أفعال أثيمة فاجرة، كما هو حال شاربي خمرة الدنيا، فتراهم عندما يشربونها يقومون بأفعال أثيمة قبيحة، وربما قام الرجل إلى زوجة صاحبه ونحو هذا والعياذ بالله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ وهـؤلاء الغلمان من خَلْق الجنة، يطوفون على أهل الجنـة بالخدمـة والضـيافة، وإذا كان هؤلاء الغلمان في نظافتهم وجمالهم كاللؤلؤ المكنون وهم خـدم لأهـل الجنة، فما بالك بجمال وطيب أهل الجنة ؟!!

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وهذا من باب أحـاديثهم في مجالسهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين.

قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير البر، رحيم بعباده المؤمنين.

وقرأت السيدة عائشة رضي الله عنها هذه الآية فقالت: اللهم قنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم.

فَمَنْ خاف الله تعالى في الدنيا أَمَّنه الله يوم القيامة، ثم قال سـبحانه في آخـر السـورة: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: أن هذا من جملة تذكير القرآن، وقد ذكَّر النبي عليـه الصـلاة والسـلام ووصـل تذكيره إلينا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة العاشرة

ومن مواقفه

صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم

أنه جاء واعظاً لهم

من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم
أنه جاء واعظاً لهم

قال الله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣] وقال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

والوعظ هو: التذكير بعواقب الأمور.

وقد وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالوعظ القرآني الذي سنذكر طائفة منه.

وهناك المواعظ النبوية، وهي أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم، ومواعظه التي وعظ بها الصحابة رضي الله عنهم، ووصل ذلك إلينا.

ولقد كانت مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تؤثر في النفوس، وترقق القلوب، وتبعث على الخوف والخشية من الله تعالى.

كما جاء في الحديث[(١)] عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ موعظة وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، ومَضَّت مِنْهَا الجُلُود ـ أي: تألمت حتى كادت أن تحترق من أثر الوعظ، والخشية من الله ـ فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنها موعظة مودع فأوصنا.

قَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ».

وفي رواية: قالوا: كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟

---

(١) تقدم تخريجه في أول الكتاب (ص: ١٥).

قال: «أنِ اتَّقُوا الله، وَإِيَاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة» أي: اتبعوا ولا تبتدعوا شيئاً من أفكاركم وآرائكم، بل اتبعوا سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وما جرى عليه التابعون اتباعاً لهم، وما ذكره السلف الصالح اتباعاً لهم.

وأفْهَمَ هذا الحديث مدى أثر وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصحابة رضي الله عنهم، وأن الوعظ له نفع وأثر كبير في النفس، وأن المسلم يجب أن يستمع إلى مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه لا غنى له عن ذلك مهما بلغ في إيمانه وعلمه، لأنّ للوعظ المحمدي أثراً في القلوب: «وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ»، وأثراً في النفوس: «وذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ»، وأثراً في الخشية: «ومَضَّت مِنْهَا الجُلُود».

ولقد كانت مواعظه صلى الله عليه وآله وسلم تهز قلوب الصحابة رضي الله عنهم، بل كانت تهز الجمادات.

كما ورد في (المسند)(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صعد المنبر، فجعل يُعظم رب العالمين ويذكر جلال الله تعالى ويقول: «يُمَجِّدُ الله نَفْسَهُ: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم».

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فرجف برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر، حتى قلنا: ليخرنّ به.

فقد اهتز المنبر متأثراً بوعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلامه، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثابت عليه.

---

(١) (٢/٧٢و٨٨).

وهذا الجذع حنَّ لفِراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه كان يتأثر بكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووعظه.

فما بالك أيها المسلم تزعم أنه لا حاجة بك لسماع مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في الوقت الذي كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يحرصون كل الحرص على سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووعظه وتذكيره، ويعتريهم حال أهل الجنة عند سماعهم ذلك.

ومن هذا قال أسيد بن حضير رضي الله عنه: لو أنِّي أكون على حالٍ مثلَ ما أكون عند سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكنت من أهل الجنة. اهـ[1] أي: أنه يرى حال أهل الجنة عند ما يسمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلامه.

وهذا يدل على الصفاء والنقاء والارتقاء والمشاهدة، التي تعتري الصحابة عندما يسمعون كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فسارع أيها المؤمن لسماع مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتذكيره وأحاديثه، حتى تصفو نفسك، وتنجلي الظلمات عن قلبك، ولترتقي في مقامات الإحسان.

ومن المواعظ القرآنية قوله سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَعِظْهُمْ﴾، ثُمَّ بَيَّنَ بعد ذلك بآيات فائدة الوعظ، وأثر الوعظ في المؤمن ـ فيما إذا سمع الموعظة واتعظ بها ـ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

---

(١) رواه الطبراني، مجمع الزوائد (٩/٣١٠) وأحمد في (المسند) (٤/٣٥٢) بنحوه.

قال سبحانه: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٣ـ٦٧].

لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالوعظ بقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ذكر آيات فيها موعظة، ثم ذكر الآيات التي تدل على أثر الوعظ في قلوب المتعظين.

والمعنى: وعظهم بهذه الآيات يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقل لهم قولاً مُؤثراً في أنفسهم، بليغاً يبلغ قلوبهم، ويُوصِل المعاني إليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: ليطاع فيما أَمَرَ، ويُنتهى عما نهى، فَلم يرسل الله تعالى الرسل إلى الأمم حتى تشهد لهم باللسان فقط، وتخالفهم في العمل.

وفي هذا موعظة من الله تعالى، أن يكون موقف المؤمن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقف المتبع المطيع، وأنه لا تكفي الشهادة على صدق الرسول باللسان فقط، دونما اتباع وانقياد لأوامره.

فلقد كان المشركون يعرفون أن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦] ولكنهم لم يطيعوه لا إيماناً ولا عملاً، فليسوا من الإسلام في شيء.

بل الإيمان هو الطاعة والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصديقاً وعملاً.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بأمر الله، وإرادته ومشيئته سبحانه، ومن لم يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما جاء به بل أخذ من الشرع ما وافق هواه وآراءه، فيقال له: أنت لست مطيعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل مطيع لعقلك وهوى نفسك، لأن الطاعة تستلزم الانقياد التام للمطاع وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتبعونه إتباعاً كلياً مطلقاً، سواء ظهر لهم حكمة الأمر أو لم تظهر، لأنهم أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ينطق إلا عن حق وحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢-٤] ولم يُعْمِلوا أفكارهم وآراءهم تجاه أمره ورأيه صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا يحاولون اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم حتى في عاداته، وسَيْره وجلوسه وما هنالك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: بارتكاب ذنب ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: جاؤوا إليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: لأنك وسيلتهم إلى الله تعالى، فعنك أخذوا الإيمان، وبواسطتك يكون لهم الغفران يارسول الله، إذ لولا رسول الله ما عرفوا الله جل وعلا.

وإنَّ قوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ﴾ يُثبت واسطته صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه الوسيلة العظمى إلى الله في جميع العوالم.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾: أي طلبوا المغفرة من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: سألوا الله تعالى أن يقبل استغفارهم، فيغفرَ لهم ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وهذه مواجيد قلبية حقيقية، إذ أنه لم يقل لغفر الله لهم، وذلك لأن مجيئهم إليه صلى الله عليه وآله وسلم يُذهب الظلمات عن قلوبهم، وينورها، ويرفع عنها الحجب والأكدار، فإذا جاؤوا مستغفرين صادقين، واستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لوجدوا الله وجداناً قلبياً، بصفة التوبة والرحمة: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقد أثبت الشارع أثراً كبيراً للمواجيد القلبية ومن ذلك:

روى مسلم في (صحيحه)(1) يقول الله تعالى يوم القيامة: «يَاابنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي.

قَالَ: يَارَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العَالَمِيْنَ؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِيَ فُلاَنَاً» أي: المؤمن الصالح «مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ» الحديث.

---

(1) في كتاب البر والصلة الآداب، باب فضل عبادة المريض /٢٥٦٩/ (٢٥١٧/٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا باعتبار أنّ هذا العبد المؤمن الصالح لَمّا مرض، فإنّ حاله وشأنه كله قد توجه إلى الله تعالى، وإنّ الله تعالى مَع مَنْ ذكره، وجليس مَنْ ذكره، فمن عاده وجد نور الله عنده، ووجد الرحمة الإلهية الخاصة عنده، وُجْداناً قلبياً.

ومن ذلك أيضاً: ما ورد أن سيدنا موسى عليه السلام قال: «يارب أَيْنَ أَجِدُكَ ؟ قال: أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم مِنْ أَجْلِي»(١).

أي: تجد الله وجداناً قلبياً مطلقاً عن القيود، وذلك بأنواره وأسراره سبحانه، ولا شك أن أعظم الحضرات التي يتجلى فيها رب العالمين بأسراره وأنواره ورحماته وبركاته، إنما هي حضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك قال سبحانه: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

ومن أجل ذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلسوا معه في مجلسه انكشفت لهم الأمور وعاينوا الحقائق، ومن ذلك سماعهم تسبيح الحصى والطعام والشراب في مجلس رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما روى البخاري(٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أجل ذلك أيضاً قالت الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما لنا إذا كنا عندك رقَّتْ قُلُوبُنا، وكأننا نرى الجنة والنار رؤية عين.

واعلم أن حكم المجيء إليه صلى الله عليه وآله وسلم حكم عام، لا

---

(١) ينظر (كشف الخفاء) للإمام العجلوني.

(٢) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام /٣٥٧٩/ (٦/٥٨٧).

ينقطع في الدنيا عندما كان صلى الله عليه وآله وسلم في حياة الدنيا، ولا ينقطع بعد انتقاله إلى حياة البرزخ صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ...﴾ ولم يقيدها بزمن أو بحال معين خاصة، وقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لأمته عندما تعرض عليه أعمالها، وفيها ذنوب وتقصير.

هذا ما فهمه السلف رضي الله عنهم، أن حكم الآية عام لا ينقطع، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم حيٌّ بحياة برزخية أقوى من الحياة الدنيوية، وأن حرمته صلى الله عليه وآله وسلم ميتاً كحرمته حياً.

ومن هذا ما جرى بين الإمام مالك والخليفة أبي جعفر المنصور وقال له الإمام مالك: واعلم يا أمير المؤمنين أن حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميتاً كحرمته حياً[1].

ثم قال: وَلِمَ تصرف وجهك عنه ؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستشفع به، يُشفِّعه الله تعالى فيك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ...﴾ الآية.

ومن ذلك ما ذكره العلماء والمحدثون، عن قصة العلامة العتبي والأعرابي، الذي تلا الآية الشريفة عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنشد الأبيات المعروفة، ثم إنّ العتبي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نومه وقال له: «الْحق الأَعَرَابِيَّ وَبَشِّرْهُ أَنَّ الله قَدْ غَفَرَ له»[2].

---

(١) أورد الخبر بتمامه القاضي عياض في (الشفا) (٢/ ٩٢).

(٢) ينظر الخبر في تفسير ابن كثير و(القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع =

ومن ذلك ما نقله العلماء عن سيدنا علي رضي الله عنه، أن أعرابياً جاء إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحثا التراب على رأسه، وقرأ الآية السابقة ثم قال: وقد جئت مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي.

قال سيدنا علي كرم الله وجهه: فهتف هاتف من القبر الشريف أن قد غفر الله لك[(١)].

وروى الدارمي بإسناده[(٢)]، عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، أنّه كان يعرف أوقات الصلاة من أذان يسمعه من قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لَمَّا التزم المسجد النبوي أيام الفتنة. ولا تُنْكر ذلك فإن الله قد يُسمع من شاء ما شاء.

وإذا أنت لم ترَ الهلال فسلم　　　لأناس رأوه بالأبصار

ثم بَيّن سبحانه ما يجب أن يكون موقف المؤمن مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، بعد ما بين وجوب الانقياد له والطاعة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآيات [أول سورة الحجرات].

أي: لا تتقدموا بأمر أو قول، أو فهم أو عمل، مخالف لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧] ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو القرآن و ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ هو السنة النبوية المتضمنة أحاديث وأفعال سيدنا رسول الله

= صلى الله عليه وآله وسلم) للحافظ السخاوي ص /٣٢٨/.

(١) كما في تفسير القرطبي.

(٢) (١/ ٤٤).

صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الحكمة المحمدية التي قال فيها تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وعلى هذا فلا يَصح لأحد أن يَتقدم بفهم أو برأي إلا بعد وزنه بهذا الميزان المحمدي.

ثم نبه سبحانه إلى وجوب الانقياد الكامل، والطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، دون توقف أو اعتراض، بل التسليم الكلي المطلق فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

أي: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وربك أعلم بك، وبما أعطاك من سداد الرأي وصواب العمل ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: حتى يجعلوك حكماً ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ثم بعد التحكيم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقاً وكراهية ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ لهم به ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: بل ويجدوا في حُكمك وأمرك الراحة والطمأنينة مع غاية التسليم.

وروى ابن أبي حاتم وغيره[1]، أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أحدهما منافقاً، فحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الآخر، فلم يَرض الآخر بالحكم.

وذهبا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعرضا عليه الأمر، وأنهما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرض هذا بحكمه.

---

(١) كما في (الدر المنثور) للحافظ السيوطي عند تفسير هذه الآية الكريمة.

فقال عمر رضي الله عنه: أنت لم ترض بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال: لا.

قال: انتظر قليلاً، فدخل سيدنا عمر وأخرج دُرَّتَهُ وضرب رأس الرجل الذي لم يرض بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى قتله.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ماَ كُنْتُ أَرَى عُمَرَ يَقْتُلُ نَفْساً مُؤْمِنَةً» أي: أن هذا الرجل كافرٌ منافقٌ، ولذلك قتله سيدنا عمر رضي الله عنه.

ونزل قول الله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾.

ولهذا قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه:

لو أنّ قوماً عبدوا الله تعالى، وصلوا وصاموا وزكوا وحجوا البيت، ثم قال أحدهم في أمر صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليته لَمْ يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو وجدوا في نفوسهم حرجاً مما حكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لو قال أحدهم ذلك لكان من المشركين، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

لما نزلت هذه الآية قال الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله والله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت.

فقال عليه الصلاة والسلام: «صَدَقْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ»[2] أي: أنت من هؤلاء القليل.

---

(١) كما في تفسير العلامة الآلوسي.

(٢) كما في (الدر المنثور) (٢/٥٨٧).

وورد عن الحسن رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية، قال ناس من الأنصار: والله لو كتبه الله تعالى علينا لقبلنا، الحمد لله الذي عافانا، ثم الحمد لله الذي عافانا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «الإيْمَانُ أَثْبَتُ فِيْ قُلُوب رجال من الأنصار مِنَ الجِبالِ الرواسي» الحديث.

أي: أن الجبال الرواسي تزول والإيمان في قلوبهم لا يزول.

ومن جملة من قال هذا سيدنا عمر وعبد الله بن رواحة وغيرهما رضي الله عنهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ في هذا بيان فائدة الوعظ، وفائدة من يَتَّعظ بوعظ الله ووعظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: لكان خيراً لهم في دنياهم وآخرتهم، ولتدفقت أبواب الخير عليهم.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: تثبيتاً للإيمان في قلوبهم، لأن الإيمان في القلب كالبنيان، فإذا لم تُشَيَّد أركانه فربما انهار، فالأعمال الصالحة والعمل بوعظ الله ووعظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يثبت الإيمان في القلب، ويقويه، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] أي: تثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم في قلوبهم.

ومن لم يعمل بوعظ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو يسعى لزوال الإيمان من قلبه والعياذ بالله تعالى.

---

(١) كما في (الدر المنثور) (٢/٥٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا الأجر اللَّـدنِّيُّ لا يعلم قدره إلا الله سبحانه، لأن الشيء اللدني لا يدخل تحت حساب الحاسبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: أنهم إذا عملوا بما وعظهم الله تعالى، وبما وعظهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لهداهم الله تعالى إليه صراطاً خاصاً في الهداية، وفيه قربهم وشرفهم كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] أي: سبلنا الخاصة، وهي سُبُل معرفة الله تعالى، والقرب منه قرباً خاصاً، لأن الهداية على مراتب.

وروى أبو نعيم وغيره، عنه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ».

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

وهذا بعد ما بَيَّن سبحانه وجوب طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، بَيَّنَ ثواب الطائعين وأجرهم العظيم، بأن لهم مرافقة ومعية النبيين، وسيدهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يذكر سبحانه ألوان نعيم الجنة الأخرى لعَظَمَة هذا اللون من النعيم، وهي مرافقة ومعية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إمام النبيين، وخاتم المرسلين، ولا

يُنال هذا إلا بفضلٍ من الله تعالى، والله عز وجل أعلم بمن هو أهل لهذا الفضل الكبير.

وإنّ المرافِقَ ينال من خير المرافَق من الأنوار والأسرار التي تتنزل على المرافَق صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك لما ذاق أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضل صحبته ومرافقته في الدنيا، راحوا يحرصون عليها في كل العوالم، ويطلبونها على وجهٍ دائم.

كما جاء في الحديث(١) أن رجلاً قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إِنَّكَ والله لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِيْ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَالِدِيْ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِيْ، وَإِنِيْ أَكُونُ فِيْ البَيْتِ فأَذْكُرُكَ فَلاَ أَصْبِرُ حَتَى آتِيْ فَأَنْظُرُ إِلَيكَ، وَإِنِي ذَكَرْتُ مَوْتِيْ وَمَوتَكَ يَارسول الله، وَأَنَّكَ يَومَ القِيَامَةِ تَكُونُ مَعَ النَّبِيِّيْنَ، وَإِنِي خَشِيْتُ أَنْ لا أَرَاكَ فِي الجَنَّةِ.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

وكذلك فإن ثوبان رضي الله عنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفس الأمر، وشكا كثير من الصحابة هذا الأمر، فنزلت الآية تبشرهم وتطمئنهم أنهم مع من أحبوه، وأنهم من جلسائه ورفقائه صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك كانوا يتحرون الدعاء في مواطن وأوقات الإجابة، أن يعطيهم الله مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة.

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية الكريمة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٦٩].

ومن ذلك[١] لما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ابن مسعود رضي الله عنه وهو يصلي في المسجد قيام الليل، وقرأ فيها سورة النساء، فلما فرغ أخذ بالدعاء، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقال عليه الصلاة والسلام: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ سَلْ تُعْطَهُ» فَرَاحَ يَدْعو بغاية رغبته وأمنيته فقال: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد.

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما فرغ ابن مسعود جاء عمر إلى ابن مسعود يبشره بقبول دعائه، فرأى أنّ أبا بكر قد سبقه إلى ابن مسعود، وبشره بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سَلْ تُعْطَهُ» وقبول دعائه.

وكذلك ما ورد[٢] عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه خادم ماء الوضوء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عندما طلب مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

(١) كما في (مسند) الإمام أحمد (١/ ٤٤٥).

(٢) كما في (صحيح) مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه /٤٨٩/ (٢/ ٦٣٨).

المحاضرة الحادية عشرة

في

المواعظ القرآنية

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وذلك بعد أن ذكر سبحانه جملة من الآيات التي فيها ذكر صفات أهل الجنة وعواقبهم، وفيها الوعظ بالإسراع إلى التوبة والأعمال الصالحة فقال سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يأمر سبحانه بالمسارعة إلى تعاطي أسباب المغفرة، وهي المبادرة إلى التوبة النصوح، وكثرة الأعمال الصالحة، لأنَّ كل عمل صالح يُكَفِّر الله به عن المؤمن من الذنوب ما شاء، على حسب صلاح العمل والإخلاص فيه.

وفي هذه الآية يمتدح الله تعالى نفسه بسعة مغفرته للقاصدين، وأنّ مَنْ أسرع إلى مغفرة الله تعالى نالها لا محالة.

وفي الآية تنبيه للمؤمن أيضاً أن يسارع إلى التوبة؛ لينال المغفرة قَبل أن يأتيه الموت وتفوته المغفرة.

ولهذا كان من خطبته صلى الله عليه وآله وسلم يوماً[(١)]: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا»أي: يعتريكم الشواغل عن الطاعات، كالهرم والمرض ونحو هذا «وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ» أي: أحكموا الصلة بينكم وبين ربكم، ولا تكونوا منقطعين عن ربكم، ولا هاجرين أو مهجورين، بل كونوا واصلين

---

(١) كما في (سنن) ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب في فرض الجمعة /١٠٨١/ (١/٣٤٣) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

موصولين، وما هو طريق ذلك ؟ قال: «بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ، وكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، تُرْزَقُوا وتُنْصَرُوا وتُجْبَرُوا» الحديث.

أي: افعلوا ذلك، فإنْ أردتم النصر نصركم الله، وإن أردتم الرزق رزقكم الله، وإن أردتم المدح والثناء نالكم ذلك، وإن أردتم جبر قلوبكم جبر الله ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فهو سبحانه يغفر الذنب ويمحوه، ويكرم المؤمن التائب بدار ضيافته، وهي الجنة دار السلام، التي مِنْ سعتها وعظمتها أن عرضها السماوات والأرض، أي: سماوات وأرض الآخرة لأن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وما هذه السماوات والأرض في تلك الآخرة إلا كحلقة في فلاة، وإنّ من جملة ما يُحشر في أرض المحشر أرض الدنيا، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

فتأتي الأرض ومَنْ عليها إلى أرض المحشر، وتشهد على مَنْ عليها، وإنّ أقل مُؤمن يدخل الجنة له قدر الدنيا بسماواتها وأرضها وعشر أمثالها، مما يدل على عظمة الجنة وسعتها.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت للمتقين، فقد خلقها الله وأعدها للمتقين، وهذا يدل على أنها مخلوقة موجودة والمتقون على مراتب وكلٌّ ينال نصيبه على حسب مقامه في التقوى.

وجاء في (السنن)(١) أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَمَّا

---

(١) عند أبي داود في كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، /٤٧٤٤/ (٥/١٠٨)، والترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات /٢٥٦٣/ (٧/٢٣٧)، والنسائي في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله تعالى (٧/٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

خلق الله تعالى الجنة قال لجبريل: اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَلَمَا رَجَعَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يا رب لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَ دَخَلَهَا» أي: إلا سعى في دخولها، لما فيها من ألوان النعيم. قال: «فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ» أي: التكاليف الشرعية المكروهة عند أهل النفوس الخبيثة «ثُمَّ قَالَ ياجِبريل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فذَهَبَ فَنْظَرَ إِلَيْهَا، فلَما رَجَعَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِشيْتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» أي: لأنه قلَّ مَنْ يقتحم عَقبة المكاره، ويتحقق بالتكاليف الشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال: «فلما خلق الله النار قال يا جبريل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فذهب فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثم جاء فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا» أي: أنَّ كل من يسمع بأوصاف النار ابتعد عنها «فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ» أي: الشهوات التي تَطمح إليها أهل النفوس الخبيثة «ثم قَالَ يا جبريل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فذهب فنظر إليها فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَ دَخَلَهَا» الحديث.

والمتقون هم الذين نظروا في العواقب، فتوقوا سخط الله وعذابه، وتوقوا سوء العاقبة، وسوء الدار، فنالوا حسن العاقبة، وعقبى الدار. اللهم اجعلنا منهم.

فالمتقي هو: صاحب العقل الصحيح، لأنه نظر في عواقب الأمور، وتوقى سوء العواقب.

ثم بَيَّن سبحانه صفات المتقين، وأنهم على مراتب: فهناك السابقون بالخيرات وهم المقربون، وهناك أصحاب اليمين وهم الأبرار.

وقد ذكر سبحانه أوصاف المقربين أوّلاً فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أي: يبذلون وينفقون مما أعطاهم الله من قوى

مالية وجسدية وعملية، وذلك في حالة الخير واليسر والسعة، وفي حالة الضر والشدة والقلة، فإذا كانوا في حالة سعة أنفقوا الكثير، وبذلوا مما عندهم، وإذا ضاق الحال عليهم فإنّهم لا ينقطعون عن الإنفاق، بل أنفقوا مما عندهم ولو قليلاً، ثم إنّهم ينفقون في حالة السراء التي تصيب الناس، وينفقون في حالة الشدة التي تعتري الناس أحياناً.

وقد ورد في الحديث[1]، عن أُمِّ بُجيد رضي الله عنها قالت: يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن المسكين ليقوم على بابي، فَمَا أَجِدُ شَيْئاً أُعْطِيْهِ إياه. أي: الشيء النفيس.

فَقَالَ: «إِنْ لَمْ تَجِديْ شيئاً إِلاَ ظِلْفَاً مُحْرَقاً فادفعيه إليه في يده».

والظلف هو: ما يُستعمل للبقر والغنم، كالحافر بالنسبة للفرس، وهو شيء يُشبه العظم، يُوضع عند حوافر البقر والغنم. وفي هذا موعظة للمؤمن أن لا يرد سائلاً محتاجاً ولو بشيء قليل.

وجاء في الحديث أيضاً[2]: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ» أي: نصف تمرة، أي: أكثروا من الصدقات، فإن لم تجدوا الكثير فتصدقوا ولو بنصف تمرة. قال: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» أي: لا تنهر السائل، ولاطِفْهُ بكلام حسن.

وفي الحديث[3] يقول عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مَائةَ أَلْفِ دِرْهَمْ».

---

(١) عند الترمذي في كتاب الزكاة، باب ما جاء في حق السائل /٦٦٥/ (٣/٢٦) وهو عند ابن حبان /٣٣٦٢/ واسم السيدة أم بُجيد: حواء رضي الله عنها.

(٢) الذي رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد /١٤١٣/ (٣/٢٨١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة /١٠١٦/ (٢/١٠٥٦) عن سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) الذي رواه النسائي في كتاب الزكاة، باب جُهد المقل (٥/٥٩) وابن حبان /٣٣٣٦/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قال: «رَجُلٌ له مال كثير، أَخَذَ مِنْ عُرْضه مائة ألف درهم تصدَّق بها» أي: أنفق شيئاً قليلاً من جانب ماله الكثير «ورَجُلٌ ليس له إلا دِرْهَمَانِ، فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فتَصَدَّقَ بِهِ» لأنّه تصدق بنصف ماله، فسبق درهمه المائة ألف درهم التي أنفقها ذلك الرجل الكثير المال.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وهذا كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] فلا ينتقمون لأنفسهم إنْ أحد آذاهم أو أغضبهم، إلا إذا كان الأمر فيه انتهاك لحرمات الله، وإنّ كظم الغيظ يكون عند المقدرة على الانتقام، أما إذا لم تكن هناك مقدرة على ذلك فلا يُسمى كظم غيظ، بل عجز عن الانتقام.

يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ كَظَمَ غَيْظَاً وَهُوَ يقدر على إنفاذه» أي: على الانتقام والبطش «مَلأَ الله قَلْبَهُ أمناً وإيماناً»(١) لأن الجزاء من جنس العمل، فلما امتلأ قلبه غيظاً، وانتفخت أَوْدَجُهُ، إلا أنه كظم ذلك وحبسه؛ كان جزاؤه أن يملأ الله قلبه الأمن والإيمان يوم القيامة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ دفعَ غَضَبَهُ دفع الله عَنْهُ عَذَابَهُ»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ وهو أن يعفو المؤمن عن غريمه

---

(١) عزاه (الفتح الكبير) إلى ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.
وانظر (سنن) أبي داود في كتاب الأدب، باب من كظم غيظاً (٥/ ١٣٧).

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط) (مجمع الزوائد) (٨/ ٧٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

ما دام الحق يتعلق به، وليس له علاقة بانتهاك أمر شرعي، وفي الحديث[1] يقول عليه الصلاة والسلام: «ثم نادى مُنَادٍ ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة.

قال: ومن ذا الذي أجره على الله؟

قال: العَافُونَ عِنِ النَّاسِ، ثم نادى الثالثة: ليقم مَنْ أجره على الله فليدخل الجنة. فقام كذا وكذا ألف فدخلوها بِغَيرِ حِسَابٍ» لأنّ رب العزة هو أَحقُّ أن يعفو عمن عفا عن عباده.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أَنّ هناك مقاماً أعلى وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك. فَأوّلاً كَظَم غيظه، ثم عفا عنه، ثم أحسن إليه وأكرمه، وهذا من مقامات الإحسان التي يقال فيها: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ»[2] فهناك إحسان العبادة لله، وهناك إحسان المعاملة مع خلق الله تعالى، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أدلك على أكرم الأخلاق في الدنيا والآخرة؟، أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيْ مَنْ حَرَمَكَ، وَأن تَعفو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[3].

وَرُوي أن جارية مملوكة للإمام زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، أنها كانت تَصُبّ له الماء يوماً وهو يتوضأ، فوقع إبريق

(١) طرف من حديث رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (١٠/٤١١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن... /٥٠/ (١/١١٤)، ومسلم أول كتاب الإيمان /٨/ (١/١١٦) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٨/١٨٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

الماء منها، وأصاب جبهته حتى سال الدم منه، فنظر إليها غاضباً، فقالت له: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ فقال: كظمت غيظي، فقالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، فقال: عفوت عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى(١).

ثم ذكر سبحانه زُمرة الأبرار الذين هم دون المقربين في الرتبة والمقام، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: ما فحش من المحرمات، وهي الكبائر ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بارتكاب صغيرة ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لم يستمروا على فعل الذنب بل فوراً تذكروا عظمة الله وكبرياء الله، أو تذكروا وقوفهم بين يدي الله، أو تذكروا عذاب الله جل وعلا وذلك على حسب مقامهم في التقوى ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: أن نتيجة تذكرهم لربهم وخوفهم منه، حملهم على الاستغفار والتوبة، وذلك لأنّ الإنسان متى وقع في ذنب توجَّه عليه اسم المنتقم، لأنّ للأسماء الإلٓهية آثاراً في الكائنات الخلقية، فاسم الخالق ظاهر في المخلوقات، واسم المصور ظاهر في المصورات، واسم الرزاق في المرزوقين وهكذا... سائر الأسماء الإلٓهية.

وإن الذي يُنجي العبد من الانتقام ومن عذاب الله وسخطه هو التوبة إلى الله تعالى، فلما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: تابوا إلى الله تعالى فغفر لهم، بأن ستر عليهم الذنوب، ووقاهم العقاب، فأصبح اسم المنتقم لا ينفذ إليهم، وكأنهم لبسوا مغفراً واقياً لهم من السهام.

---

(١) كما في (الدر المنثور) وتفسير الآلوسي.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ومن يقدر على محو آثار الذنوب الظلمانية من القلب، وَمِنْ لوحة النفس ومِن الأرض والمخلوقات التي شهدت ذلك الذنب، ومِنْ صحف الملائكة، مَنْ يقدر على محو ذلك وإزالته إلا الله سبحانه.

واعلم أن للذنوب آثاراً ظلمانية في القلوب، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره [(١)]: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ هُو نزع وَاسْتَغْفَرَ وتاب صُقِلَ قَلْبُهُ، وإِنْ عَادَ زِيْدَ فيها» أي: نكتة بعد نكتة «حتى تعلُو قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذيْ ذَكَرَهُ الله تعالَى بِقَولِه: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤] أي: أظلم وخيَّم على قلوبهم ما كانوا يعملون من المعاصي والفجور، وهم الكفار والفساق المصرون على المعاصي، وكان عاقبة ذلك أن حُجبوا عن ربهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لم يستمروا على الذنب، بل تابوا وأنابوا، وهم يعلمون أنهم إذا تابوا تاب الله عليهم، وَيعلمون أنّ الذنوب قبائح ونقائص، فكيف يرضونها لأنفسهم، وهم يعلمون أنهم سيعرضون على ربهم يوم العرض الأكبر، ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨] فلا يرضون أن يعرضوا وعليهم آثار الذنوب وظلماتها.

---

(١) الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة المطففين /٣٣٣١/ (٦٩/٩)، وابن ماجه /٤٢٤٤/، وابن حبان /٩٢٦/، والحاكم (٥١٧/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

واعلم أن ذلك اليوم يومٌ تظهر فيه الحقائق، وتُبلى فيه السرائر ولا يستطيع الإنسان أن يتكلم إلا بالحقيقة التي تَحقَّقَ بها، فمن كان مذنباً وادعى أَن لا ذنب عليه فإنّ حاله يكذبه، لأن ظلمات الذنوب وآثارها القبيحة ظاهرة عليه قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

كَمَنْ يدّعي النظافة وهو مُلَطّخ بالأقذار، وعلى هذا فهم لا يرضون لأنفسهم الصفات القبيحة، لأنها صفات البهائم والحيوانات، لأنّ كل ذنب هو في حقيقته تَشَبُّه بفعل من أفعال الحيوانات الناقصة.

ولما نزلت هذه الآية صاح إبليس بالويل والثبور على نفسه، فسأله جماعته عن ذلك ؟ فقال: نزلت آية من كتاب الله ما يَضر المؤمن بعدها ذنب إن هو استغفر وتاب.

فقالت له جماعته: إذاً نرميهم بالأهواء والبدع(١). أي: فهم يفعلونها كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] أي: بالأهواء والبدع الضالة، وهم يزعمون أنهم على حق، ونسأل الله العافية.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بيانٌ من الله تعالى لسعة مغفرته، وأن من استغفر وتاب تاب الله عليه، قال عليه الصلاة وأكمل التسليم: «التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ، وَالمُسْتَغْفِرُ مِنْ الذنب وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ كالمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّه»(٢) أي: أنَّ من استغفر لذنبه وهو مُصِرٌّ عليه كالمستهزئ بربه والعياذ بالله.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى الحكيم الترمذي.

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» رواه ابن ماجه /٤٢٥٠/، والطبراني (مجمع الزوائد) (١٠/٢٠٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه بزيادة: «والمستغفر...» البيهقي في (شعب الإيمان) /٧١٧٨/ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

واعلم أن الإصرار على الذنوب بريد الكفر، إذ أن إصراره وتماديه في فعل الذنوب رُبّما يحمله على استحلال ما حرم الله، فيخرجُ عن الملة ويمرق عن الدين.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم[(١)]: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغفِرُوا يَغْفِرِ اللَّهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وأقماع القول: هم الذين يسمعون المواعظ ولا يعملون بها، فجعلوا أنفسهم كالأقماع التي يُفرغ بواسطتها العسل والسمن والزيت، ولكن القمع لا يستفيد شيئاً، ولا يستقر شيء من العسل أو السمن فيه. وفي هذا تنبيه للمؤمن أن لا يكون قِمَعاً، بل أن يجعل نفسه آنية تئن في قلبه المعاني والمواعظ الإلٓهية، وَيستفيد منها، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لله آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، وآنية ربكم قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ»[(٢)].

فتنزل فيها أنوار رب العالمين، كما ينزل الماء في الإناء، ويستقر فيه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: فليثق المؤمن وليطمئن، أنه إذا استغفر وتاب تاب الله عليه، وشملته مغفرة الله سبحانه، لأنّ وعد الله لا يتخلف أبداً.

ولقد كان العبد في الأمم السابقة إذا أذنب ذنباً صغيراً فلا تُضْمَنُ له التوبة والمغفرة، حتى ينزل الوحي على نبي ذاك الزمن، أنْ قُل لفلان

---

(١) الحديث في (مسند) الإمام أحمد (٢/١٦٥و ٢١٩) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه.

المذنب أن يتصدق بنصف ماله مثلاً، وإذا كان الذنب كبيراً فيأمره بقطع بعض أطرافه، حتى يَضمن المغفرة. وهكذا على حسب الذنب.

أما رحمة الله الواسعة بهذه الأمة المحمدية، وإكراماً لرسولها صلى الله عليه وآله وسلم، شرع لها أنّه مهما فعل الإنسان من كبائر ثم تاب توبة نصوحاً تاب الله عليه، وَغَفر له ذنوبه وكبائره كلها.

قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ يمتدح الله سبحانه نفسه بسعة فضله وإكرامه للعالمين، وما أعطاهم من الأجر العظيم.

ثم قال سبحانه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ أي: عادات إلهية في الأمم السابقة، وكيف أن الله أهلك الكافرين ونَجّىٰ المؤمنين ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سيراً جسمانياً، أو سيراً عقلياً بأفكاركم ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وأن الله أهلكهم ودمرهم.

أي: أنكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لستم أول الأمم في عالم الدنيا، فقد خلت ومضت أمم كثيرة، وقد ظهرت في تلك الأمم سنن الله وعاداته، فانظروا فيها في عواقب تلك الأمم، فلقد كانت عاقبة المؤمنين النجاة، وعاقبة الكافرين الهلاك، وذلك مثل قوم نوح وصالح...

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ فلقد بين سبحانه للناس سعة مغفرته وخطر الإصرار على الذنوب، وعواقب المؤمنين وعواقب الكافرين.

﴿وَهُدٗى﴾ هداهم الله لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَوۡعِظَةٌ﴾ لكن الذي ينتفع بالمواعظ هم المتقون، فقال: ﴿وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينظرون في العواقب، فيتوقون سوء العواقب، وذلك بتقوى الله كما ورد في الحديث[1]: «وإنَّ تَقَوى الله تَقِي غَضَبَهُ، وإنَّ تَقْوَى الله تَقِيْ عَذَابَهُ».

* * * * *

(١) تقدم ص/١٢١/.

ومن المواعظ الإلٓهية في القرآن الكريم

قوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۞﴾ [النحل: ٩٠].

لَمّا نزلت هذه الآية تلقاها الصحابة بالقبول والاستجابة، وأثرت في قلوبهم كلٌّ على حسبه، فازداد المؤمنون إيماناً وموعظة وخشية من رب العالمين، وهناك قسم كانوا كفاراً فأثرت في قلوبهم وكانت سبب إسلامهم.

ومن هؤلاء ما ورد في (المسند) وغيره(١)، عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَمُرُّ بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وَأَنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ كَشَّرت في وَجِهِهِ ـ أي: أنظر إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ نَظرَةً لاَ احْتَرَامَ فِيها ولاَ تَوْقِير ـ قال فمررت به يوماً وهو جالس في فناء داره، فَدَعَانِي إِلَى الجُلُوسِ، فَرَأَيتُه صلى الله عليه وآله وسلم قد تغير وجهه واحمرَّ وجهه، ثُمَّ جعل ينظر فَوْقَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَعلمُ مِنْ إِنْسَانٍ يُكَلِّمُهُ، وشَخَّص ببَصَرِهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَلَمَّا مَضى هَذَا قُلْتُ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رَأَيْتُ مِنْكَ شَيْئاً مَا كُنْتُ أَرَاهُ، قال: «ومَاذَا» ؟

قال: رأيتك ترفع بصرك وكأنك تستعلم من إنسان ـ أي: تسأله ويجيب ـ.

---

(١) (المسند) (٣١٨/١) وعزاه في (الدر المنثور) إلى البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم، والطبراني (مجمع الزوائد) (٤٨/٧) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فقال: «هَلْ رَأَيْتَ ذَلِكَ» ؟ قَالَ: نعم.

قال: «أَتَانِي رَسُولُ رَبِّي» أي: جبريل عليه السلام.

قَالَ: رسول ربِّكَ ؟قال: «نعم».

قال: فَمَاذا قَالَ لَكَ ؟ قال: «جَاءَنِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ تَعَالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآية.

قال عثمان بن مظعون فأخذتِ الآية من قلبي، فكنت أستحي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذاك حين استقر الإيمان في قلبي، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أي: أنه بعد ما سمع هذه الآية وأثرت في قلبه، وأنه ندم على مقابلاته السابقة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل يستحي منه.

ومن هذا ما ورد أيضاً[(١)] عن أكثم بن صيفي، لما بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان رئيساً في عشيرته، وقد كبر سنه، فأراد أن يذهب بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له قومه: نحن نكفيك الجد.

فانطلق منهم اثنان، وقيل هما أولاده، فقال لهما: اذهبا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقولا له من أنت ؟ وما أنت ؟ وبم جئت ؟

فلما ذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبراه أنهما من طرفِ أكثم بن صيفي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمَّا مَن أَنَا ؟ أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ»

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن منده، وابن السكن، وأبي نعيم في (معرفة الصحابة) (١/٣٠٩).

أي: لستُ بملك «وَأَمَا قَوْلُكُمْ بِمَ جِئْتُ؟ جِئتُكُم بِقَولِ الله سبْحَانَهُ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾» الآية.

قَالا: ردِّد علينا هذا القول. فَأَعَادَ الآيَة صلى الله عليه وآله وسلم، حَتَى حَفِظُوهَا وكَتَبُوهَا عِنْدَهُم، وَرَجَعَا وَأَخبَرَاهُ الخَبَرَ.

فقالا له: هَكَذَا سَأَلْنَاهُ، وَهَكَذَا جَوَابَهُ لَنَا.

فقالَ: يَا بَنِيَّ ـ يا أولادي ـ إنّ هذا نَبيٌّ حَقَاً، فَتَعَالَوا فَادْخُلُوا فِيْ الإِسَلامِ، وكُونُوا فِيْ الأَمْرِ رُؤوسَاً، ولاَ تَكُونُوا أَذْنَاباً ـ أي: سارعوا وادخلوا في الإسلام قبل غيركم ـ فَإِنَّ هَذَا النَّبِيَّ يَأْمُرُ بِمكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلائِمِهَا.

وأسلم أكثم وأسلم بنوه وقومه، ويقال إنه هاجر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأدركه الموت في الطريق، فرفع يديه وصفق بهما، وقال: اللهم هذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بايعته، وفيه وفي غيره نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابن مسعود رضي الله عنه [(١)]: أجمع آية في الخير ـ أي: في الأمر بالخير ـ وأجمع آية في التحذير من الشر هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾.

وفي هذه الآية موعظة من رب العالمين لعباده حتى يتعظوا ويتذكروا

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى الطبراني (مجمع الزائد) (٧/٤٩) والحاكم في (المستدرك) (٢/٣٥٦) وغيرهما.

فقال: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: من أجل أن تتذكروا وتتحققوا بما جاء في الآية من أوامر، وتنتهوا عما فيها من مناهي.

أما الأوامر فهي: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ أي: في كل شيء، أي: بالعدل اعتقاداً، بالعدل عملاً، وبالعدل قولاً ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ أي: في كل شيء كما قال عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ»[1] فهناك إحسان العبادة لله سبحانه وتعالى، وهناك إحسان المعاملة مع خلق الله، كما سيأتي تفصيله.

قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إعطاء ذوي القربى حقوقهم، وهي صلة الرحم بما تتضمن من حالٍ وقالٍ، ومالٍ وعيادةٍ وزيارةٍ... إلخ وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] ولا يعني هذا في المال فقط، بل بمواصلته وزيارته وعيادته وهكذا.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو ما فحش من مشتهيات النفس الخبيثة، وهذا لأن الإنسان فيه الدواعي والقوى الشهوانية البهيمية، وفيه القوى السبُعية الغضبية، وفيه القوى الوهمية الشيطانية، وفيه الاستعداد الملكوتي العلوي الرباني، وإذا تغلبت الصفات الملكوتية العلوية صار الإنسان مؤمناً كاملاً ربانياً، كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ الآية [آل عمران: ٧٩].

وهذا الذي هو أهل لأن يحل: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/١٢٣)، ومسلم في (صحيحه) في كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة /١٩٥٥/ (٤/٢٠٢٦) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

وأما **الفحشاء** فهي: إفراط النفس في الشهوات البهيمية على وجه يُخرج عن حد الشريعة والاعتدال كالزنا مثلاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما تدفعه النفس بدافع السَّبُعية الغضبية، فيتسلط على الناس بكلام مؤذٍ لهم، كما هو شأن البهائم المؤذية، فَيَسُبّ ويشتم ويلعن، ويأتي بمنكرات الأفعال أيضاً.

ومن ذلك ما يحصل في المجالس من منكرات كالقهقهة المستغرقة، ورفع الأصوات بالضحك، وأخبر سبحانه عن قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وكان من جملة منكراتهم أنهم يتضاحكون ويسخرون في مجالسهم، ويخرجون من أدبارهم ما هو مستقبح فعله.

كما نهى سبحانه عن منكرات الأحوال، وهو أن يقابل الإنسان أخاه بوجه منكر عابس، ومن واجب الإيمان أن يقابله بطلاقة وبشاشة، أما التعالي والتغالي فهو شأن الحيوانات، كما يمر الذئب على الذئب فهو ذئب عليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ وهو ما تدفع إليه القوة الشيطانية الوهمية، وهو أن يقع في نفسه كِبْر وعجب، فيبغي على غيره، ويسطو على غيره متجبراً متكبراً.

وقد يكون بغيه على غيره في العِرض، أو المال أو الدم، وقد نهى الله عن ذلك كله.

أما قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالعدل في كل شيء، ومن هذا العدل في الاعتقاد، وأول العدل أن تقول: لا إله إلا الله موحداً لله،

مؤمناً به، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما[1] في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إلّه إلا الله، أي: بالإيمان بالله، وأن الله حق، وأنه واحد أحد، فمن أنكر وجود الله أو أشرك معه فقد ظلم ولذا قال سبحانه: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أما التوحيد والإيمان فهو العدل المستقيم.

وهناك العدل في الأعمال، وهي عبادة الله سبحانه، لأنّ العدل في الأركان والحواس والمدارك يقتضي منك أن تصرفها في إرضاء من خَوَّلك إياها، وليس من العدل أن تستعين بجوارحك على معاصيه سبحانه، وَمَنْ فَعَلَ ذلك فهو ظالم لنفسه، وظالم لجوارحه وأركانه.

ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالفرائض الدينية، وهي الأعمال التي أمر الله تعالى بها.

فمن أسدى إليك معروفاً، أو صنع معك جميلاً، فليس من العدل أن تُقابل ذلك بالإساءة والأذى ؛ وإلا كنت ظالماً لنفسك.

فإن رب العالمين قد أعطى الإنسان وخَوَّله من النعم ما لا يُحصى، فليس من العدل أن يصرفها في غير ما شرع الله تعالى، وإلا لظلم أركانه وجوارحه، وعرَّضها لسخط الله وعذابه، ولهذا يقال للكافر أو الفاسق: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومن جملة ما يتضمنه العدل : العدل في الحكم والتحاكم، والكلام، والمدح والذم، فإذا مدحت مَنْ يستحق المدح فامدحه بما يليق، وإذا ذممت فلا تُفرط في الذم وهكذا...

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم.

واعلم أن الله تعالى قد بَيَّن أن كل ما صدر عنه إنما هو بالحكمة والعدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهو سبحانه واحد أحد متصرف بالعدل والقسط، وليس في تصرفاته ظلم أو هضم حق.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالى لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»، أي: يخفض الخفض القسط، ويرفع الرفع القسط، فإنْ خَفَضَ خفض بالقسط، وإنْ رفع رفع بالقسط «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ» أي: فليستح العبد من ربه، لأن أعماله تُرفع إلى الله ليلاً ونهاراً «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» الحديث[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومن جملة ذلك صلة الرحم، وجاء في الحديث[٢] عنه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ يوم القيامة مِنْ: الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/٤٠١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينام» /١٧٩/ (١/٣٤٦) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/٣٦و٣٨) وأبو داود في كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي /٤٩٠٢/ (٥/٢٠٨)، والترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٥١٣/ (٧/١٩٩) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه.

وقد نصَّ العلماء على أنَّ صلة الرحم واجبة، حتى ولو كان من هو من أرحامك مقاطعاً لك، فيجب أن تواصله، وليست الصلة بالمكافأة، كما جاء في الحديث: «لَيْسَ الْواصِلُ بِالمُكافِئ، وَلكِنْ هُوَ الَّذِيْ يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ» كما في البخاري[1].

أي: أن من واصلك من أرحامك فواصَلته فذلك مكافأة ـ أي: مقابلة لمواصلته ـ ولكن المواصلة أن تصل من هجرك وقطعك.

واعلم أن صلة الرحم تزيد في العمر، وتزيد في الرزق، وتزيد في الإيمان، وتقرب من الرحمن، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وأَن يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ» أي: يؤخر له في أجله «فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[2].

وقد يقال: كيف يؤخر له أجله، ويطيل عمره والعمر محتوم؟

فقل له: وكيف يُوَسَّع له في رزقه والرزق محتوم، فهذه من الأسباب، وقد ربط الله سبحانه الأسباب بالمسبَّبَات، وإلا فكل شيء بقضاء الله وقدره، وقد ربط سبحانه الأمور بالأسباب، فمن فعل السبب ـ والفعل بقضاء الله ـ أعطاه الله المسبَّبَ، وهو بقضائه أيضاً.

فقدَّر الشفاء، وربطه بتعاطي الدواء، وكل منهما بقضائه وقدره،

---

(١) في كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ /٥٩٩١/ (١٠/٤٢٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو عند أبي داود /١٦٩٧/ والترمذي /١٩٠٨/.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم /٥٩٨٥/ (١٠/٤١٥)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم /٢٥٥٧/ (٥/٢٥٠٩) عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا أنس رضي الله عنهما.

وقدَّر لك الحياة بسبب الأكل والغذاء، وإلا لقُلْتَ: إنّ العمر محتوم، فما فائدة الأكل والشرب، طالما أن الإنسان مقدر له أن يعيش كذا وكذا.

ومن سلك هذا فقد سلك ضرباً من الجنون، فهو سبحانه قدر لك أن تحيا سنين، وَقَدَّر لك أن تأكل وتشرب، وكلها أسباب في بقائك وحياتك بقضائه وقدَرِه سبحانه.

أما الإحسان: فهناك الإحسان في العبادة، وهناك الإحسان مع خلق الله.

أما الإحسان في عبادته سبحانه وتعالى: فهو أن يعبده الإنسان عبادة المحسنين الذين تحققوا بمقام الإحسان.

وهذا ما جاء في الحديث(١): «أنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ» أي: تعبده مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك، فإن لم تبلغ هذه الرتبة فكن من أهل المراقبة، أي: راقب أن الله رقيب عليك، وناظر إليك، وَمَنْ لم يكن مشاهداً أو مراقباً لله في عبادته فعبادته عبادة الغافلين، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين أوصى معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال له: «وَالله إنِّي لأُحِبُكَ، لا تَدَعَنَّ في دُبرِ كُلِّ صَلاة أنْ تَقُولَ: اللهمَّ أعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسنِ عِبَادَتِكَ»(٢).

أي: أن تكون عبادتي لك عبادة المحسنين، أي: ما بين مشاهدة أو مراقبة.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة بالتحقق بهذا، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: أوصاني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم أنْ أَعْبَدَ الله كَأني أَراهُ، فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَرَاهُ فإِنَّهُ يَرانِي(٣).

---

(١) طرف من حديث تقدم تخريجه ص /١٩٦/.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) /٥/٢٤٥/، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في الاستغفار /١٥٢٢/ (٢/١٨١) وغيرهم.

(٣) عزاه الحافظ ابن رجب الحنبلي في (جامع العلوم والحكم) إلى إبراهيم الهجري.

ولما قال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله أوصني.

قال له: «اعبْد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، واعْدُدْ نَفْسَكَ فِيْ المَوْتَى، وَاذْكُرِ الله عِنْدَ كُلِّ حجَرٍ وعندكل شجر، وإذا عَمِلتَ سَيئَةً فَافْعَل بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا. السِّرُ بالسِّرِ، والعَلاَنِيَةُ بالعلاَنِيَةِ»(١).

وقوله: «اعبد الله» أي: في سائر أمورك مع الله ومع خلق الله، «كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وليكن عملك خالصاً لله، وفي حالٍ كأنك تراه، وإنَّ مَنْ شاهد الله بقلبه أثناء عمله فلا يلتفت إلى غيره سبحانه.

وعندما حضرت الوفاة سيدنا أبا الدرداء رضي الله عنه قال: أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ، واعْدُد نَفْسَكَ فِيْ المَوْتَى» انظر الطبراني(٢).

كما أوصى صلى الله عليه وآله وسلم سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال ابن عمر رضي الله عنهما: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ، فَإِنَّكَ يَا عَبْدَ الله ما تَدْرِي أين اسْمُكَ غَداً»(٣).

أي: أين يكون اسمك غداً في الآخرة، في كتاب الفجار في سجين، أم في كتاب الأبرار في عليين.

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٤/٢١٨).

(٢) (مجمع الزوائد) (٢/٤٠)

(٣) هذه رواية الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في قصر الأمل /٢٣٣٤/ (٧/٨٦) والجملة الأولى: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» في البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كن...» /٦١١٦/ (١١/٢٣٣) وينظر (المسند) (٢/٤١و١٣٢).

وقد تحقق سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بوصية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت عباداته عبادة المحسنين، كما قال لأبيه: كنا نطوف حول الكعبة، كنا نتراءى الله تعالى.

واعلم أنه لا يصل المؤمن إلى مقام الإحسان إلا إذا أزال الحجب عن قلبه، حينئذٍ يشاهد أنوار ربه، وتكون عبادته عبادة المشاهدين لله تعالى ببصيرة قلوبهم، وحجاب القلب هو غفلته عن الله، فإذا سيطرت الغفلة على القلب حجبته عن نور رب العالمين.

ولما كان القلب من عالم الغيب فإنه إذا انجلى وصفا شاهد الأشياء الغيبية التي غابت عن الحس.

ومن هذا ما ورد عن حارثة الأنصاري حين قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عَزَفَتْ نَفْسِيْ عَنْ الدُّنْيَا ـ أعرضت عنها ـ فَأَسْهَرْتُ لَيْلِـيْ، وَأَظْمَأتُ نَهَارِي، وكَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّيْ بَارِزاً، وكَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّة يَتَزَاوَرُوْنَ فِيْهَا، وكَأَنِي أَنْظُرُ إِلى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَونَ ـ يصيحون من شدة الجوع ـ فِيْهَا.

فَقال عليه الصلاة والسلام: «عَبْدٌ نَوَّرَ الله قَلْبَهُ، عَرَفتَ فَالزمْ»(١) أي: عن الدنيا، فالزم هذا الأمر.

وإن الذي يوصل العبد إلى مقام الإحسان هو: أن يقلع عن الذنوب، ويتوب منها توبة نصوحاً، ثم يحفظ نفسه من الوقوع فيها بأنواعها، ثم الإكثار من ذكر الله تعالى، ومراقبته سبحانه، ومن مراتب المراقبة: أن يراقب معية الله له على الدوام.

---

(١) ذكره في (مجمع الزوائد) (١/٥٧) وعزاه للطبراني في الكبير، والبزار.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «ثَلاَثَةٌ فِيْ ظِلِّ الله تَعَالَى يَومَ لاَ ظِلَّ إلاَ ظِلُّهُ: رَجُلٌ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ عَلِمَ أَنَّ الله تعالى معه، وَرَجُلٌ دَعَتهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ فَتَرَكَهَا مِنْ خَشْيَةِ الله، وَرَجُلٌ أَحَبَّ لِجَلاَلِ الله»[1] أي: أحب الصالحين والمؤمنين في الله ولله.

ومتى انجلى القلب صار يشاهد الأمور بنور الله سبحانه، كما جاء في الحديث[2]: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله» الذي هو في قلبه.

ومن هذا ما روي أن رجلاً دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان قد وقع نظره على أجنبية، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا.

فقال الرجل: أَوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قال: لا، ولكن فراسة مؤمن صادقة[3].

وقال الإمام الجنيد: أمرني خالي سَرِيٌّ السقطي: أن أتكلم على الناس ـ أي: لَمّا بلغ مبلغ الرجال ـ قال: فاستحييت، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال: يا جنيد تكلم على الناس.

فذهبت إلى الجامع قَبل الفجر، ومررت في طريقي على بيت خالي سَرِيٍّ، فقال لي من وراء الباب: ما صدقتنا حتى أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٢٧٩/١٠) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) الذي رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الحجر /٣١٢٥/ (٢٨٣/٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الخبر في (الرياض النضرة) للمحب الطبري.

ومضيت إلى الجامع، وجلست أُحَدّث الناس وأَعِظُهم، فدخل رجل مُتَنَكِّر، فقال لي: ما معنى: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»؟

فقلت: أسلم فقد آن وقت إسلامك، فأسلم[1]. وكان كافراً متنكراً بلباس المسلمين، وأعطاه الجواب عن سؤاله عملياً وقولياً.

وَمَنْ أبصر قلبه بنور الله، فإن نور الله لا يحجبه حجاب، وقال عليه الصلاة والسلام لزيد بن أرقم رضي الله عنه: «كُنْ كَأَنَّكَ تَرَى الله» أي: كن في حالاتك كأنك ترى الله تعالى، وخاصة في عباداتك لله تعالى «فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

أما الإحسان مع خلق الله: فهو على مراتب، فهناك إحسان واجب مُحَتَّمٌ على كل مؤمن، وهناك إحسان هو رتبة كمال في حق مَنْ تحقق به، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ الآية [النساء: ٣٦].

فلقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى هؤلاء. قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾: أي أحسنوا بوالديكم إحساناً في تمام البر والطاعة.

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهم الأرحام، بمواصلتهم وعيادتهم ومساعدتهم كما تقدم.

---

(١) كما في (وفيات الأعيان).

(٢) كما في (الفردوس) /٤٨٤٣/ و(الحلية) (٨/٢٠٢).

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أن تحسنوا إلى اليتامى، وتتفقدوا أحوالهم، وتُدخلوا السرور عليهم، ومن الإحسان إلى اليتيم أن تمسح رأسه ملاطفاً له.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ وهم: الفقراء.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو الجار القريب رَحِماً منك.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ وهو الجار الذي لا قرابة بينك وبينه.

وذلك بأن تقدم له طعاماً إذا كان فقيراً، وأن تساعده في شدته وهكذا أن لا تعمل في بيتك عملاً يؤذيه، وإنّ أول خصمين يقفان بين يدي رب العالمين جاران اختلفا في أمر الدنيا.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: أحسن إلى صاحبك بالجنب، وهو الذي صاحبك بمجالسته إلى جنبك، وأول ما يشمل هذا زوجتك، كما أنك أيضاً صاحبها بالجنب.

ومن جملة الصاحب بالجنب الذي صحبته لأنه جانبك وهو من جالسك في المجلس، أو رافقك في السفر، فلا تضايقه في جلوسك أو بدخانك أو بغلظتك، بل كن لطيفاً، وجليساً مؤانساً.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي: من العبيد المملوكين ـ حين كان هناك مماليك ـ ومن الإحسان إليه أن تطعمه مما تأكل، وتُلبسه مثل ما تلبس.

وجاء في الحديث، أنّ المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه بالرَّبذَة ـ اسم بلدة ـ وعليه حلة، وعلى مملوك له ـ أي: عبد ـ حلة ـ أي: مثل حلة أبي ذر ـ قال: فقلت كيف هذا يا أبا ذر؟

قال: لقد سابت يوماً رجلاً ـ أي: مملوكي ـ فعيرته بأمه، فراح العبد وشكاه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعاني صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «يَا أَبَا ذَر أعيرته بأمه إِنَّكَ امْرُؤ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكمْ خَوَلُكُم جعلهم الله تحت أيديكم، فمنْ كَانَ أَخُوهُ تَحتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلْ، وَلْيَلبِسْهُ مِمَّا يَلْبِس، وَلا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1].

فامتثل أبو ذر رضي الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيته بالمماليك.

وترى هنا أنه سبحانه أوصى بالمماليك وأوصى بالأحرار، وأوصى بالمساكين، فمن بقي من الناس لم يوص الله به ؟ لأن الناس ما بين هذا وهذا.

وهناك الإحسان مع الحيوانات، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتلَةَ» أي: إذا قتلتم حيواناً مُؤذياً مشروعاً قتله فأحسنوا قَتْله «وَإِذَا ذَبَحْتُمْ» حيواناً مشروعاً ذبحه «فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَة، وَلِيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ»[2].

وقد مرَّ صلى الله عليه وآله وسلم على أعرابي يريد أن يذبح شاة، فأضجعها وجعل يحد شفرته، فناداه صلى الله عليه وآله وسلم: «أفلا قبل

---

(١) الحديث في (المسند) (٥/١٦١) والبخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية /٣٠/ (١/٨٤)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل /١٦٦١/ (٤/١٧٢١)، وأبو داود /٥١٥٧/، والترمذي /١٩٤٦/.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/١٢٣)، ومسلم في كتاب الصيد والذبائح باب الأمر بإحسان الذبح والقتل /١٩٥٥/ (٤/٢٠٢٦) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

هذا، أَتُرِيدُ أنْ تُمِتْهَا موتتين، هلاَّ أحددت شَفْرَتَكَ قَبْلَ أنْ تُضْجِعَهَا»[1].

وليس ما يفعله بعض المسلمين في زمننا حين يقدم الحاج، ويريدون أن يذبحوا له ذبيحة، فتتقلب بين أيديهم، وهم ينتظرون الحاج، حتى إذا قدم ذبحوها، ومرَّ فوقها، وهذا ضلال في ضلال، وليس من الإسلام في شيء.

ولا بأس أن تَذبح شكراً لله أَنْ وفقك لأداء فريضة الحج على الوجه المشروع، لا الوجه الشائع بين الناس.

ومن جملة مراتب الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، كما قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد أثبت سبحانه لأهل الإحسان معيته الخاصة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وأثبت لهم محبته الخاصة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ثم قال سبحانه: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] أي: أن هذه الآية المتقدِّم بيانها هي من مواعظ الله تعالى لكم في القرآن الكريم، وذلك من أجل أن تعتبروا وتتذكروا فتنفعكم الذكرى، ونسأل الله التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزائد) (٤/٣٣) والحاكم (٤/٢٣١) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

جملة
محاضرات حول
التذكير
ببعض أسرار الصلاة

مشروعيَّة الصلاة

لقد فرض الله تعالى الصلاة في جميع الشرائع السماوية على جميع الأمم[1]، إلا أنّ كَمّها وكيفيتها يختلف من أمة لأخرى حسب حكمة الله تعالى.

وإنّ أعظم صلاة وأجمع صلاة لله تعالى إنما هي الصلاة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفُرِضت في شريعته عليه الصلاة والسلام.

أما فرضية الصلاة في شريعة سيدنا شعيب عليه السلام: قال الله تعالى إخباراً عن شعيب وقومه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧].

قالوا: هذا على وجه السخرية من صلاة شعيب عليه السلام.

والجواب: نعم إن صلاتي تأمرني أن أفعل الخير وأترك المنكرات.

وأما في شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد أخبر الله عنه قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقال الله تعالى في ذرية سيدنا إبراهيم ويعقوب وإسحاق: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ

---

(١) وما مِنْ خَلق مِنْ خلق الله تعالى، من الإنس والجن، والملك، والوحوش والجمادات والنباتات، وغير ذلك إلا قد شَرَع الله له الصلاة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ أي: كلٌ ممن في السماوات والأرض من مَلَكٍ وبشر، وطير، وجماد وغيره ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾[النور: ٤١].

إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] أي: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات وأعظمها الصلاة.

وأما في شريعة سيدنا موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وقد أفرد سبحانه ذكر الصلاة عن العبادة، مع أن الصلاة من العبادة، وذلك ليُبين أن الصلاة هي أجمع العبادات كلها، وأفرضها، وأشملها وأعظمها، ولذلك خصها بالذكر.

وأما في شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد فرض الله تعالى الصلاة بعد أن مَضى على النبوة مدة قليلة، فإنّ أول ما نزل من الوحي الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَقِ، ثم أنزل سبحانه أول المدثر، وأول المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾.

ففي هذه الآية فرض الله تعالى الصلاة في الليل، فرضها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، بأن يقوموا جزءاً من الليل ويصلون فيه لله تعالى.

وهذا أول ما فرض الله تعالى من الصلاة وهي الصلاة في الليل، وإنَّ الحكمة من ذلك أن المسلمين في أول الأمر كانوا قلة لا يستطيعون الجهر بإيمانهم، فأمرهم الله أن يصلوا له خفية في الليل، حتى لا يشعر بهم المشركون.

ثم نسخ سبحانه فريضة الصلاة في الليل بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبين في آية أخرى أن الصلاة

المفروضة هي في أول النهار وآخره بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [طه: ١٣٠] ففرض سبحانه صلاة في الغداة وصلاة في العشي.

ثم بعد ذلك انتهى الأمر إلى خمس صلوات، وكان هذا ليلة الإسراء والمعراج، فهي خمس صلوات عَمَلية، ولها في الأجر والثواب قوة خمسين صلاة.

وقد ذكر سبحانه في سورة الإسراء الآيات التي فيها الإشارة إلى تلك الصلوات الخمس المفروضة بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ هو زوالها، أي: ميلها عن كبد السماء وهو وقت صلاة الظهر.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلاة العصر والمغرب والعشاء، ﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وهي الصلاة الخامسة صلاة الفجر.

وإنّ أول ما أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة عَمَلياً هي صلاة الظهر، وسميت بالظهر لأنها أول ما ظهرت، أي: ما ظهر من الصلاة.

وكان هذا ليلة الإسراء والمعراج، بعدما فرض الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الصلوات الخمس.

ففي اليوم الذي يلي تلك الليلة، جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصلى صلاة الظهر إماماً برسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم، ليعلمه كيفية الصلاة، وتوالى الأمر حتى صلاة الفجر، يُصلي جبريل عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقتدياً به.

ومما يدل على أن الصلوات خمساً، ما جاء في حديث المعراج قال: «ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاَةً، فَلَمَّا رَجَعْتُ مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عليه السَّلام، فَقَالَ لِيْ: ارْجِع إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيْفَ لأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيْقُ ذَلِكَ، قال: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَوَضَعَ عَنِّيْ عَشْراً» وهكذا إلى أَنْ قَالَ الله تعالى له: «هُنَّ خمسٌ وَهُنَّ بِخَمْسِيْنَ، لاَ يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ»(١).

وقد بَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الصلوات المفروضة هي خمس، فقال: « خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ ولَمْ يُضَيِّعْ شَيْئًا منهن اسْتِخْفَافًا بِحقهن، كَانَ لَهُ عهْدٌ عِنْدَ الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ» كما في رواية (الموطأ) والنسائي(٢).

ومما يدل على ذلك أيضاً، ما جاء في البخاري(٣)، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء /٣٤٩/ (١/٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات /١٦٢/ (١/٣٢٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) (الموطأ) (١/١٢٣) وأبو داود في كتاب الصلاة، باب فيمن لم يوتر /١٤٢٠/ (٢/١٣٠)، والنسائي (١/٢٣٠) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الإيمان، باب الزكاة في الإسلام /٤٦/ (١/١٠٦) وهو عند مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام /١١/ (١/١٢٢).

وسلم، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حتى دنا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنْ الإِسْلام؟

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس صلوات في اليوم والليلة».

قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: «لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وصيام رَمَضَانَ».

قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ: «لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ».

قال وذَكَرَ له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الزَّكَاةَ، فقَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: «لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ».

قال: فأدبر الرَّجُلُ وهو يَقُولُ: وَاللَّهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلا أَنْقُصُ منه.

فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفلح إِنْ صَدَقَ».

الأمر بالصلاة

اعلم أنّ الله تعالى أمر بالصلاة، وأمر بالأمر بالصلاة، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: صلاة الظهر ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الآيات من سورة طه].

قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي لعل الله يعطيك العطاء حتى ترضى، لأنّ المصليَ يسعى إلى رضوان الله في صلاته.

وفي قراءة متواترة سبعية: ﴿لَعَلَّكَ تُرْضىٰ﴾ أي: لعل الله يعطيك حتى يرضيك، كما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري[1]، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال وقد نظر يوماً إلى القمر ليلة البدر: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تضامون في رؤيته، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الآية.

فمن كان مواظباً على صلواته، محافظاً عليها، فهو يُعدُّ نفسه لرؤية ربه، وإلى تجليات الحق سبحانه في الآخرة، وهو يسعى إلى أن يكون من الذين يعطيهم الله حتى يرضيهم.

ولهذا جاء في الحديث[2]: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، فيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، والْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَالَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يارب وأيّ شيء أفضل من ذلك؟!! فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِيْ فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

---

(١) في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر /٥٥٤/ (٢/٣٣) وهو عند مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة /٦٣٣/ (٢/٧٥٠) عن سيدنا جرير ابن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) الذي رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار /٦٥٤٩/ (١١/٤١٥)، ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة /٢٨٢٩/ (٥/٢٧٠١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد في (مسنده) [1]: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ في مُلْكِهِ مَسِيْرَةَ أَلْفَي سَنَةٍ، يرى أَقْصَاهُ كَمَا يَرى أَدْنَاه».

فهم أُعطوا قوة في أبصارهم فيرون البعيد كما يرون القريب.

وإن أعلى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى الله تعالى في كل يوم مرتين بكرة وعشياً.

ثُمَّ بَيَّن سبحانه السبب الذي يحمل المصلي على الحضور والخشوع في صلاته فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾.

قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من أهل الدنيا من الكفرة والفجرة.

قوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يدل على أن تمتعهم بملذات الدنيا وشهواتها مؤقت قليل، لأن الزهرة لا تبقى بنضارتها وبهجتِها، بل لابد أن يعتريها الذبول والاضمحلال، فما متاع الدنيا إلا كذلك، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

ثم بَيّن وجوب أمر الأهل من زوجة وأولاد بالصلاة، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ ومن لك الرعاية عليهم.

قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: صبِّر نفسك على إقامة الصلاة بآدابها وخشوعها، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

فلكي تقي نفسك من النار، يجب أن تقي أهلك أيضاً من النار.

---

(١) (١٣/٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ولما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا سول الله نَقِيْ أَنْفُسَنَا مِنَ النَّارِ، وَلَكِنْ كَيْفَ نَقِي أَهْلِيْنَا مِنَ النَّارِ ؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «تَأْمُرُوهُنَّ بِمَا أَمَرَكم الله به، وَتَنْهُوهُنَّ عَمَّا نَهَاكُمُ الله عنه، فَيَكُونُ ذَلِكَ وِقَايَةً لَهُمْ مِنَ النَّارِ»[1].

فمن وعظ أهله وأمرهم بما أمر الله، ونهاهم عما نهى الله: يجمعهم الله تعالى معه في الآخرة في الجنة ليكمل نعيمه فيها.

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام كما في (سنن) أبي داود[2]: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْصَلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سنين، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُم فِي المَضَاجِعِ».

ومن لم يأمر ولده بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فهو مؤآخذ عند الله تعالى، وهكذا ضرب الولد وهو في العشر بيدٍ لا بخشبة، من باب التأديب والتحريض، لا الشدة والغلظة.

أما إذا بلغ الولد وكان الأب قد هدده ووعظه وزجره ولم يَرَ في ولده قبولاً، أصبح البالغ هو المسؤول عن نفسه.

كما يجب على المؤمن أن يأمر أولاده وبناته أن يتخلقوا بآداب الشريعة وهم في الصِّغر، لئلا يصعب الأمر عليهم إذا بلغوا وكبروا، وهذا كله من لوازم الرعاية، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، فَالرَّجُلُ رَاعٍ على أهله وَهو مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ

---

(١) كما في تفسير الآلوسي عند هذه الآية الكريمة.

(٢) في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة /٤٩٥/ (١/ ٣٣٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

راعية فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالرجل راعٍ فِي مَالِ أبيه ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»[1].

قوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا تُضَيِّع من أوقات الصلاة شيئاً، وحافظ عليها وعلى آدابها، ولا تظن أنّ ذلك يُذهب من رزقك الذي قسمه الله لك، فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ولم نطلب منك أن تَرزق نفسك، فأنت قم بحسن خدمتنا، ونحن نقوم بإيصال قسمتنا.

* * * * *

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن /٨٩٣/ (٢/٣٨٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل /١٨٢٩/ (٤/١٩٣٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

من أسرار الصلاة

لقد حوت الصلاة على عدة عبادات متنوعة، منها العبادة القولية، ومنها العبادة القلبية، ومنها العبادة الركنية الجسمية.

فقوام الصلاة هو العبادة لله تعالى، والتعظيم له بالقلب، ثم باللسان، ثم بالأركان.

أما تعظيم الأركان أي: الأعضاء، فلقد اشتملت الصلاة على الوقوف والركوع، والانحناء والسجود، فهذه التنقلات الركنية إنما هي من باب الترقي والتدرج في خضوع العبد لربه، وتعظيمه له، وانكساره له.

فالقيام: قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] إنما هو وقوف على هيئة معينة، فيها كمال الأدب والذل لرب العالمين، وهو وقوف امتثال لأمر الله تعالى، إذ يتوجه فيه العبد حيث وجهه ربه إلى الكعبة المشرفة، وليس للعبد اختيار أن يتوجه إلى جهة يختارها لنفسه، وإنما يمتثل أمر الله تعالى بأن يتوجه إلى الكعبة ملاحظاً أن الله تعالى، يتجلى على الكعبة، المشرفة عند كل صلاة، فهو يتوجه بقلبه إلى الله، ويتوجه بجسمه إلى حيث تجلى الله، وكأن الله تعالى يقول إذا دخل وقت الصلاة: يا عبادي قوموا فصلوا وتوجهوا إليَّ، لأنني توجهت إليكم في قبلتكم هذه.

ويجب أن يكون الوقوف في الصلاة وقوفاً خاصاً، على أكمل الوجوه التي يقف فيها إنسان كامل بين يدي رب العالمين.

حتى إن الشارع أمر أن تكون حركات الإنسان من ركوع وسجود وغيرها، أن تكون محفوفة بالوقار والسكينة والأدب، وأن لا يكون فيها

تَشبه بحركات نوع من الحيوانات، ومن ذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسجد الإنسان سجوداً يشبه نقر الديك، أو أن يقعي بيديه إقعاء الكلب، أو أن يفترش افتراش السَبعُ، وعند تنقله من سجوده إلى قيامه يحتفز وينهض احتفاز الثعالب، وهو القفز، أو أن يبرك حينما يهوي للسجود بروك الجمل فيحط يديه قبل ركبتيه[1].

فقد ذكر ذلك كله، حتى تكون هيئة الإنسان في صلاته هيئة إنسان كامل، بعيد الشبه عن البهائم.

ثم إن المصلي يجب أن يقف بصلاته وهو عاقد اليدين، ناظراً إلى موضع سجوده، وهي وقفةُ معظم لله، لأن تنكيس الرأس شأن المتواضعين المتذللين، أما رفع الرأس والعنق وهو التيه، فهو شأن المتكبرين الجبارين، قال الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

يعني هؤلاء الكفار إذا لم يخضعوا لله اختياراً، فإن الله يُخضعهم اضطراراً وإجباراً، بأن يُنزل عذاباً من السماء ينكِّسون له رؤوسهم خاضعين.

وأما الركوع: فيجب أن يكون انحناء الظهر فيه مستوياً مع الرأس، وليس فيه تحدب أو شبه بالألاعيب.

ثم هناك السجود: وهذا كله ترقٍ في التعظيم لله والانكسار له، فالوقوف تذلل وخضوع، ثم الركوع أشد من الوقوف تذللاً، إذ ينحني فيه

---

(١) كما في (المسند) (٢/٢٦٥) و(مجمع الزوائد) (٢/٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري (١/٤٢٢).

الظهر بحيث يتساوى الرأس مع آخر الظهر، ثم هناك منتهى الخضوع لله والتعظيم له، بأن تضع جبهتك وأعضاءك السبعة عِلى الأرض، فهكذا الانتقال من حالة إلى حالة، مترقياً بالتعظيم لله سبحانه خاضعاً له.

جاء في الحديث الذي رواه البزار في (المسند)[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تبارك وتعالى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاَةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يِسْتَطِلْ» أي: يتكبر «عَلَى خَلْقِيْ، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرّاً عَلى مَعصِيَتِي، وَقَطَعَ النَهَارَ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ المِسْكِيْنَ، وَابْنَ السَبِيلِ، والأَرْمَلَةَ، ورحم المُصَابَ، فَذَلِكَ نُورُهُ» أي: عند الله «كَنُورِ الشَّمْس، أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِي، وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلاَئِكَتِي، أَجْعَلُ لَهُ فِي الظُّلْمَةِ نُوراً، وَفِي الجَهَالَةِ حِلْمَاً، ومَثَلُهُ في خَلْقِي كَمَثَلِ الْفِرْدَوسِ فِي الجَنَّةِ» الحديث.

وروى الترمذي[2] عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى، تَشَهَّدُ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وتَخَضَعَ وتَخَشَعُ وتَمَسْكَنُ، ثُمّ تُقْنِعُ يَدَيْكَ» أي تَرْفَع بهمَا داعياً بعد ما فرغت من الصلاة «تَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، فمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِيَ» أي: صلاته «كَذَا وكَذَا»، وفي رواية: «خداج» أي: ناقصة.

وجاء في الحديث الذي رواه الطبراني[3] عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أسوأ النَّاسِ سرقة الَّذِيْ يَسْرِقُ مِن صَلاَتِه».

---

(١) (مجمع الزوائد) (٢/١٤٧) وينظر (كشف الأستار) /٣٤٨/.

(٢) الحديث في (المسند) (٤/١٦٧)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في التخشع في الصلاة/٣٨٥/ (٢/٩٣).

(٣) (مجمع الزوائد) (٢/١٢٠) وهو في (المسند) للإمام أحمد (٥/٣١٠).

قَالوا: يا رسول الله كَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلاَته ؟

قال: «لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهَا، وَلاَ سُجُودَهَا» أو«لاَ يُقِيْمُ صُلْبَهُ فِيْ الرُكُـوع ولا السجود».

وقد جعل الشارع السرقة من الصلاة أسوأ السرقات، لأن السارق منها يسرق من حظ نفسه، وهذا أقبح من السرقة من حظ غيره.

وورد في الحديث[1]، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن الـنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خمس صلوات افترضهن الله عز وجل، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له عند الله عهد أن يغفر له، ومن لمن يفعل فليس له على الله عهـد؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه».

أما عمل القلب في الصلاة، فيجب على المصلي أن يلاحظ أنه يطـرق باب الحضرة الإلهية حتى إذا فُتح له دخل على الله تعالى.

ويرحم الله القائل:

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع ... لأن بهـا الأربـاب[2] لله تخضـع
وأول فـرضٍ مـن شـريعة ديننـا ... وآخـر مـا يبقـى إذا الـدين يرفـع
فمـن قـام للتكـبير لا قتـهُ رحمـةٌ ... وكـان كعبـد بـابَ مـولاه يقـرع
وكان لرب العرش حـين صـلاته ... نجيًّا فيا طوبـاه لـو كـان يخشـع

فإذا فتح لك الباب حَيَّيْتَ رب العزة بالثناء عليه مـن أدعيـة الاسـتفتاح الواردة.

(١) رواه أبو داود في كتـاب الصـلاة، بـاب فـيمن لم يـوتر /١٤٢٠/ (٢/١٣٠)، والنسائي في كتاب الصلاة، باب المحافظة على الصلوات الخمس (١/٢٣٠).
(٢) أي: العباد.

ثم تلاحظ وقوفك بين يدي الله تعالى الذي هو رب الأرباب، والذي عَنَت له الوجوه، والذي ذَلَّت لعظمته الأرض والسماوات، والذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفكار.

وإذا تمكنت من ملاحظة هذا تراءى لك في قلبك، وشاهدته بقلبك كأنك تراه ببصرك، وإذا لم يكن عندك هذه القوة في الشهود فلاحظ أنَّ الله تعالى يراك ويشاهدك، ولا تلتفت إلى غير الله تعالى، ولاحظ أنك إذا التفت إلى غيره بقلبك أعرض عنك، وليس هناك أقبح ولا أشنع من عبد يتوجه ربه إليه وهو يُعرض عن ربه.

جاء في الحديث(١): «لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته مالم يلتفت، فإذا صرف وجهه انصرف عنه»

وفي هذا يجب عليك أن تكون في محاربةٍ مع نفسك، ولذا سمي مكان الصلاة المحراب، وأعظم مواقف العبد أن يقف في هذا المحراب.

ولذلك لما بَشَّر الله زكريا عليه الصلاة والسلام بيحيى، جاءته البشارة وهو على أكمل الأحوال، وهو قائم يصلي في المحراب.

وجاء في الحديث المرسل، الذي رواه محمد بن نصر، عن الحسن البصري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لِلْمُصَلِّي ثَلَاثُ خِصَالٍ: يَتَنَاثَرُ الْبِرُّ مِنْ عَنَانِ السَّمَاءِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ» أي: وهو الخير الإلهي الجامع المتنوع «وَتَحُفُّ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِن لَدُنْ قَدَمَيْهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، وَيُنَادِيهِ مُنَادٍ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُصَلِّي مَنْ يُنَاجِي مَا انْفَتَلَ إِلَى غَيْرِهِ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/١٧٢)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة /٩٠٩/ (١/٥٦٠)، والنسائي (٣/٨) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل في الصلاة يسمع له أزيز كأزيز المرجل، وهذا من شدة خشوعه عليه الصلاة والسلام، ومدافعته للبكاء، فيُسمع من صدره الشريف صوت كغليان المرجل على النار.

وقد أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: «يا عيسى إذا وَقَفْتَ بين يدي فقف موقف العبد الحقير الذليل الذامِّ لنفسه، وإذا دعوتني فادعني وأنت تنتفض أعضاؤك» أي: من الرهبة والخشية.

وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى إذا دخل في الصلاة اصفر وجهه وذهب دمه، كأنه ما في وجهه قطرة دم؛ خشيةً وخوفاً من الله تعالى.

وكان بعض السلف يقول: لأن أُضرب بالخناجر بين كتفي وأنا في الصلاة أحب إليَّ من أن ألتفت إلى أمرٍ دنيوي.

وفي الحديث الذي رواه الحاكم والبيهقي[1]، أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل عندما قال له أوصني وأوجز. وفي رواية: عظني وأوجز لي، فقال عليه الصلاة والسلام له: «عَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ، وإِيَّاكَ وَالْطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ، وَصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنت مودع» أي: مودع لما سوى الله، وكأنك إذا دخلت في الصلاة وَدّعت العالم كله، وأقبلت على رب العالمين، أَوْ لعل هذه الصلاة هي آخر صلواتك، فلا تدري متى أجلك، فكل صلاة تُصليها يحتمل أن تكون هي آخر صلواتك، فلو تحققت أنها

---

(١) الحاكم في (المستدرك) (٤/٣٢٦)، والبيهقي في (الزهد) (١٠١) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والطبراني من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما (مجمع الزوائد) (١٠/٢٢٩).

آخر صلواتك فكيف تُتقنها وتؤديها حقها وخشوعها، فكذلك اجعل كل صلاة تصليها، اجعلها صلاة المودع، معتبراً أنها آخر صلواتك، لأنك تجهل وقت وفاتك.

الصلاة دليل الإيمان

لقد جاء في كثير من الآيات القرآنية ذكر الإيمان وأريد منه الصلاة، فمن ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم.

وقد نزلت هذه الآية عندما تحولت القبلة إلى الكعبة، بعدما كانت إلى بيت المقدس، وقد توفي عدد من الصحابة قبل أن تُحول إلى الكعبة المشرفة، فسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بال إخواننا الذين كانوا يصلون إلى بيت المقدس أي: هل أن صلاتهم مقبولة عند الله تعالى.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ أي: صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال كثير من السلف رضي الله عنهم: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي: القرآن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ يعني: الصلاة بتفاصيلها وأحكامها.

هذا لأن الله تعالى قرن الصلاة بالقرآن في كثير من الآيات ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ففي الآية لما قرن الإيمان بالكتاب دل على أن المراد من الإيمان الصلاة.

والمعنى: ما كنتَ قبل أن يَوحي الله إليك ويعلمك يا رسول الله ما كنت تدري الكتاب تفصيلاً، ولا أحكام الصلاة تفصيلاً، حتى أوحى الله إليك وعلمك ذلك، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ الآية [النساء: ١١٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] قال كثير من السلف رضي الله عنهم: معنى ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يصلون لله سبحانه، فوصفهم بكثرة الصلاة لله تعالى، وسُمِّيت الصلاة إيماناً لأنها إيمان عملي، وإيمان قولي، وإيمان اعتقادي، وهي أعظم عبادات العبد لله تعالى.

وما حقيقة الإيمان في القلب إلا نور من رب العالمين، تجلى به على عباده المؤمنين، وهو نور الهداية، وبهذا النور يهتدي العبد إلى رب العالمين، وَمَن لم ينل التجلي النوراني على القلوب لم ينل الهدى إلى الله تعالى.

وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ» أي: ظلمة النفس والهوى والدنيا «ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُورِ اهْتَدَى» أي: إلى الله «وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»(١) إذاً لا يُعرف اللهُ تعالى

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد (٢/١٧٦و١٩٢)، والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٧/٢٩٧) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

ولا يمكن الوصول إلى الإيمان بالله تعالى إلا بنور من عند الله، فإذا تعرض العبد لنور الله تعالى الذي تجلى به على عباده أصابه ذلك النور وأشرق في قلبه، وعرف الله تعالى بنوره سبحانه.

وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: لا يتساوى هذا وذاك.

وهذا كما بين سبحانه أن الإيمان نور في القلب بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] أي: مَثَلُ نور الله في قلب عبده المؤمن، جاء في الحديث: «تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيْتَ»[١] أي: هديت بنورك إليك «فَلَكَ الحَمْدُ».

وعلى هذا جاء في الحديث: «والصَّلاَةُ نُورٌ»[٢] أي: ينصبغ المصلي بأنوار الصلاة، وتظهر عليه هذه الأنوار في جميع العوالم.

الصلاة هي أفضل الأعمال الإيمانية

قال عليه الصلاة والسلام: «اسْتَقِيْمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، واعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَة، ولاَ يحافظ عَلَى الوضُوء إلاَ مُؤمِنْ» الحديث[٣].

---

(١) طرف من حديث رواه أبو يعلى (مجمع الزوائد) (١٠/١٥٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

(٢) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في أول كتاب الطهارة /٢٢٣/ (١/٢٠٣) والترمذي في كتاب الدعوات /٣٥١٢/ (٩/١٧٩)، والنسائي (٥/٥) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء /٢٧٧ و٢٧٨و٢٧٩/ (١/١٠١و١٠٢) عن سيدنا ثوبان وابن عمرو بن العاص وأبي أمامة رضي الله عنهم، وهو في (المستدرك) (١/١٣٠).

والمعنى: استقيموا على الإيمان بالله، وعلى قولكم ربُّنا الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٢٠] أي: قالوا ربنا الله عندما كانوا في عالم الذر يوم أخذ الله العهد عليهم، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أنت ربنا، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: بعد أن انتقلوا إلى هذا العالم استقاموا على ما قالوا.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اسْتَقِيْمُوا» أي: على عهدكم الذي عاهدتم الله عليه لما أخذ عليكم العهد. وكأنهم قالوا: فما طريق الاستقامة ؟ فقال: العمل، أي: بتحقيق الأمور الإيمانية والعملية والقولية، وكأنهم قالوا: وما هو أفضل الأعمال الإيمانية؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَاعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُم الصَّلاَةُ» أي: أنه للتحقق بمقام الاستقامة لابد من أداء الأعمال التي بَيَّنَها الشارع، وأهم هذه الأعمال وأفضلها الصلاة.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلَنْ تُحْصُوا» أي: مهما استقمتم فإنكم لن تحصوا قدر الله تعالى وحقه سبحانه وتعالى.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١).

وأنتم مهما استقمتم لن تحصوا أنواع الاستقامة وتستقصوا مراتبها لأن للاستقامة مراتب لا حد لها، وكل مقام منها فوقه مقام أعلى وأكمل، وهكذا.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٦/ (٢/٦٣٦)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود /٨٧٩/ (١/٥٤٧)، والترمذي /٣٤٩١/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

وفي هذا تنبيه على أن لا يغتر المؤمن بمقامه، وإن بلغ حداً عالياً في الاستقامة، فليعلم أنّ وراء مقامه مقامات أعلى وأكمل، وهذا قوله: «وَلَنْ تُحْصُوا» أي: أنواع ومراتب الاستقامة ومقاماتها.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولاَ يحافظ عَلَى الوضُوء» أي: في كل الأوقات «إلاَ مُؤمِنْ» أي: كامل الإيمان حتى يكون دائماً في مجالسة الملائكة، وحتى يكون دائماً أهلاً أن يذكر الله تعالى.

ولما كانت الصلاة خير الأعمال وأفضلها، جمع فيها أفضل الأقوال، واشتملت على أفضل الأعمال، وأفضل التسبيح والثناء على الله تعالى، وأفضل صيغة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الصلاة الإبراهمية.

ولقد جاء ذكر الصلاة في القرآن الكريم في أكثر من مائتي آية، مما يدل على أهميتها وفضلها وعلوِّ شأنها عند رب العالمين.

وما سميت الصلاة صلاةً إلا لأنها صلة العبد بربه، وقربه إليه ولذلك قال بعضهم: إن أردت أن تُكثر الولوج على حضرة الله فعليك بالصلاة.

فالصلاة دخول على حضرة رب العالمين، ولهذا كان الإمام زين العابدين رضي الله عنه لما يأتي باب المسجد للصلاة يقف عند باب المسجد ويقول: إلهي عُبيدك بِفِنائك. أي: أتأذن له بالدخول؟.

الصلاة فيها مناجاة لرب العالمين

جاء في (صحيح) مسلم[1]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

---

(١) في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة /٣٩٥/ (٢/٥٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

«يَقُولُ الله عزَّ وجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي قِسْمَيْن، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي».

وفي رواية للبيهقي[1] زيادة: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ الله تَعَالى: ذَكَرَنِي عَبْدِي».

«وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» لأن تكرير المدح ثناء «فَإِذَا قَالَ العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ الله تعالى: مَجَّدَنِي عَبْدِي» وفي رواية: «فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي».

«فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ الله تعالى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» أي: أن العبادة من العبد هي لله، وإذا طلب العبد الإعانة من الله يعطيه جل وعلا ذلك «فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ الله تعالى: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

أهم مطالب الصلاة الحضور والخشوع

إن أسباب الحضور في الصلاة ودواعي الخشوع فيها متنوعة، ولكي يحمل المصلي نفسه على الخشوع في صلاته والحضور فيها، يجب عليه أولاً أن يلاحظ معنى ما يقول ـ وهو أول مراتب الحضور ـ من تكبير، وتسبيح، وتلاوة قرآن وتشهدٍ وغير ذلك.

ثم بعد ملاحظة المعاني هناك مراتب المراقبة، ثم المشاهدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

---

(١) في (السنن الكبرى)، كتاب الصلاة، باب تعيين القراءة بفاتحة الكتاب (٢/٣٩).

(٢) تقدم تخريجه ص /١٩٦/.

وهذا يقتضي من العبد أن يكون في صلاته مودعاً لما سوى الله تعالى، مقبلاً على الله تعالى مناجياً مشاهداً له.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «وصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ» الحديث[1].

ولقد شُرع الأذان قبل الصلاة، وهو سنة مؤكدة، وفيه إعلام بأن الله تعالى تجلى على عباده في هذا الوقت فعليهم أن يقابلوا هذه التجليات بالصلاة له سبحانه، فإذا حان الوقت نادى المنادي بدعوة التوحيد، فقال: الله أكبر، الله أكبر، لأن شأن العظيم الكبير إذا ظهر بكبريائه وعظمته أن تقول: الله أكبر.

ثم دعوة إلى الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، وإلى الشهادة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاء بالصلاح والنجاح، وأهم ذلك الصلاة فقال: حي على الصلاة، ثم قال: حي على الفلاح، لأنّ فلاح العبد وصلاحه ونجاحه بإجابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيامه إلى الصلاة.

ثم هناك الوضوء وهو تَخلية من الذنوب الصغائر، كما أن الوضوء تخلية من الأوساخ الظاهرة، وذلك بغسل الأعضاء، وتنظيفها حتى يدخل العبد في الصلاة نظيفاً طاهراً، ثم يدخل العبد في صلاة السنن التي سنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والسنن تُكَيّف وتهيِّئ النفس للحضور في صلاة الفرض والخشوع فيها.

وهذا من حكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي أن يصلي العبد قبل الفرض سنة لتُكَيِّفَهُ وتعده للدخول في الفرض، حتى يكون في

---

(١) تقدم تخريجه ص /٢٣٥/.

الفرض حاضراً مع الله خاشعاً له، والسنن البعدية مكملات لنقص الفرض من آداب وخشوع، فجزى الله عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أهله.

ثم إذا دخل العبد في الصلاة قال: الله أكبر، أي: الله أكبر من كل شيء، وهو أكبر مما تتصور، فالأكبر على الحقيقة هو الله تعالى، وكل شيء سوى الله لا كبرياء له مع الله، وإنما الأكبرية المطلقة لرب العالمين، فقولك: الله أكبر، أي: أكبر ممَّا رأيت، وأكبر مما عرفت، وأكبر مما أتصور من كبريائه وعظمته، ولذلك فهو سبحانه الأكبر الأكبر، ولهذا كان من دعائه عليه الصلاة والسلام بعد الصلاة المكتوبة، كما جاء في سنن أبي داود وغيره[(١)]: «اللهمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ اجْعَلْنِي مُخْلِصًا لَكَ[(٢)] وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ من الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَام» ثم يقول عليه الصلاة والسلام: «الله أَكْبَر الأَكْبَر» وفي رواية: «الله أكبَر الله أكبَر».

وفي رواية: «الله الأَكْبَر الله الأَكبَر» أي: الأكبر هو الله تعالى.

أما رواية: «الله أَكْبَر الأَكبَر» أي: أكبر مما عرفت وكبرت.

وإنما دعا بهذا صلى الله عليه وآله وسلم بعد الصلاة لأنه بعد ما كبره العبد في صلاته وسبحه ومجده ليدل على أنه سبحانه أعظم وأكبر مما كبره العبد وعظمه، وهذا كما قال سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] أي: تكبيراً مطلقاً.

---

(١) أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلّم /١٥٠٨/ (١٧٤/٢) و(مسند) الإمام أحمد (٣٩٩/٤) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أي: اجعلني خالصاً لك، أي: اجعلني متوجهاً إليك في كل لحظة.
وليس المراد الإخلاص في العمل، لأن قوله في الدنيا والآخرة يدل على ذلك، لأنه لا يتصور ألا يُخلص أحد عمله في الآخرة، بل الكل مخلصون في الآخرة.

الخشوع في الصلاة

إنّ مِنْ أهم مطالب الصلاة الخشوع فيها، ولهذا أخبر سبحانه عن أهل الظفر بسعادة الدنيا والآخرة وهم المفلحون، وأول ما وصفهم سبحانه وصفهم بالخشوع في صلواتهم، ثم اختتم وصفهم بأنهم محافظون على صلواتهم.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ولما نزلت هذه الآيات العشر قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصحابة، ثم رفع يديه وهو يستقبل القبلة وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَارْضِنَا وَارْضَ عَنَّا» ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الْجَنَّةَ»(١). وذلك لأنه خاص بأوصاف أصحاب المقامات العالية، ولهذا قال: «زِدْنَا» أي: في رفعة المقامات والدرجات، وأكرمنا بالعبادات والقربات، وأعطنا ما أعطيت عبادك الصالحين، وفي هذا تعليم للأمة.

وقد اختلف العلماء في الخشوع في الصلاة هل هو شرط صحة أم

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٣٤)، والترمذي في التفسير /٣١٧٢/ (٨/ ٣١٧) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

شرط قبول وكمال: قال بعضهم هو شرط صحة، بحيث إذا لم يخشع في نصفها وأكثرها لا صحة لصلاته.

ولكن جمهور العلماء على أن الخشوع في الصلاة إنما هو شرط قبول وكمال، يترتب عليه الثواب بحيث من صلى ولم يخشع في صلاته فقد سقط عنه الفرض، ولا ثواب له، وإنما الثواب على حسب الخشوع.

وقد جاء في الحديث [١]: «لاَ يَقْبَلُ اللهُ من عَبْدٍ عملاً حَتَى يُشْهِدَ قَلْبَهُ مَعَ بَدَنِه» أي: حتى يحضر قلبه في عمله، فحين ذاك يكون مقبولاً مأجوراً مضاعفاً في الثواب.

وقد حرضَّ صلى الله عليه وآله وسلم على الخشوع في الصلاة فقال: « الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى» أي: ركعتين ركعتين، أي: تكون ركعتين منفصلتين، وقد تكون أكثر لكن عند كل ركعتين تشهد.

«تَشَهَّدٌ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وتخشع، وتضرع، وتمسكن، وتذرع، وتقنع يديك» أي: بعد الفراغ من الصلاة ترفع يديك «وتقول: يا رب يارب».

وفي رواية تقول: «اللهم اللهم فَمَنْ لم يَفْعَلْ ذَلكَ فَهِيَ خِدَاج» وفي رواية: «فَهِيَ كَذَا وكَذَا»[٢].

أما الحضور فهو ملاحظة القلب، وأما الخشوع فهو انفعال القلب حين توجهه إلى رب العالمين، فيخضع القلب وينكسر حين يبرق في القلب نور عظمة الله وكبريائه.

---

(١) كما في (الفردوس) حديث رقم /٦٣٥٣/ عن سيدنا أُبَي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب صلاة النهار /١٢٩٦/ (٢/٦٥)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في التخشع في الصلاة /٣٨٥/ (٢/٩٣) عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما.

ولما خضع القلب وانكسر خشع، ولما خَشَعَ خشعت الجوارح كلها، ولابد لخشوع القلب من علامات وآثار تظهر على الجوارح.

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»(١).

أسباب الخشوع في الصلاة ودواعيه

إن الأسباب متنوعة مختلفة، تختلف من إنسان إلى آخر.

فمن ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، لأن كل إنسان يأخذ من هذه العلاجات على حسب حاله ومقامه ومشاغله.

فقد روى الطبراني والبيهقي(٢)، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أوصني، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرف ما هو أحوج ما يكون إليه، فقال له: «صَلِّ صَلاَتَكَ كَأَنَّكَ مُوَدِّعٌ، وعَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ».

وفي رواية: «وإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ».

وقوله: «كَأَنَّكَ مُوَدِّعٌ» أي: لاحظ أنّ الصلاة التي تصليها أنها آخر صلاة تصليها وستلقى الله بها، وَمَنْ لاحظ هذا فقد دخل في صلاته مودعاً

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في الأصل /٢٤٥/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، كما ذكره الحافظ أبو نعيم في (الحلية) (١٠/ ٢٣٠) مرفوعاً، وكذلك القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٠٣) وابن قدامة في (المغني) (١/ ٣٧٠) وأورده الحافظ ابن أبي شيبة في (المصنف) موقوفاً على سيدنا سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى.

(٢) تقدم تخريجه ص /٢٣٥/.

لما سوى الله، ومقبلاً عليه بكليته، وَمِنْ هنا يُعرف أن طول الأمل في الدنيا يؤدي إلى قسوة القلب وعدم الخشوع في الصلاة.

وَمن أسباب الخشوع في الصلاة أن يلاحظ المصلي أنه يناجي ربه في صلاته، وقد نبه إلى هذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه ابن خزيمة في (صحيحه)[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى بهم الظهر يوماً، فلما فرغ من صلاته نادى رجلاً في آخر الصفوف فقال له: « يَا فُلاَن: أَلا تَتّقي الله ؟ أَلا تَنْظُرُ كَيْفَ تُصَلِّيْ ؟ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي إنما يقوم يُناجي رَبَّه، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيه ! إنكم ترون أَنِّي لاَ أَرَاكُمْ، وَالله إِنِي لأَرَى مَنْ خَلْفَ ظَهْرِي كَمَا أَرَى مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ».

وأن يلاحظ أن الله تعالى أمامه في صلاته، متجلٍّ له في قبلته، كما جاء في الحديث: « إِنَّ أَحَدكُمْ إذا قَامَ إِلَى الصَلاة فإنما يستقبل ربه، والملك عن يمينه، فلا يبصق بين يديه ولا عن يمينه»[2].

ومن جملة أسباب الخشوع ملاحظة معنى ما يقول العبد في صلاته من تكبير وتسبيح وقراءة قرآن.

وإن من خصائص كلام الله أن كل من قرأه لابد أن يفهم شيئاً من معناه، سواء كان أمياً أو متعلماً أو عربياً أو أعجمياً.

وإن أعلى ما يكون في الحضور والخشوع هو ما قاله صلى الله عليه

---

(١) ١/ (٢٤١).

(٢) طرف من حديث رواه أحمد في (المسند) (٣/ ٢٤)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في كراهية البصاق في المسجد /٤٨٠/ (١/ ٣٢٤)، وابن خزيمة (٢/ ٦٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وآله وسلم: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ ـ وفي رواية: «أَنْ تَخْشَى الله» ـ كأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١).

أي: حَضَّرَ القلبَ ولاحظ المناجاة، حتى صار في مقام يشهد ربه بقلبه، كأنه يراه بعينه، ومن لم يبلغ هذا المقام فليراقب أن الله رقيب عليه ويراه.

فيجب على العبد أن يكون في العبادة ما بين شاهد أو مراقب، وإنّ قوة المراقبة تؤدي إلى المشاهدة.

وفي الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وما كتب له إلا عشر صلاته» أي: لأنه حضر مقدار عشر الصلاة « تِسْعُهَا، ثُمُنُهَا...نِصْفُهَا» (٢).

وهناك مَن يقتحم هذه العقبة، ويخشع في أكثر صلاته، وهناك من يكون خاشعاً في صلاته كلها.

من فضائل الصلاة وأسرارها

إن الله تعالى ذكر مقامات كمال الإيمان، وأثنى على المؤمنين المتحققين بها، ومدحهم بالفلاح ووراثة الفردوس.

فقد ذكر سبحانه أول صفاتهم الخشوع في الصلاة، واختتم صفاتهم بالمحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [أول سورة المؤمنون] أي: يحافظون عليها في أوقاتها لاغتنام عظيم أجرها، ويحافظون عليها بعد أدائها من الضياع.

---

(١) تقدم تخريجه ص /١٩٦/.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة /٧٩٦/ (١/٥٠٣)، وابن حبان /١٨٨٦/ عن سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

فيجتنبون الأعمال المخالفة التي ورد أنها تأكل الحسنات، كالحسد، والغيبة، والوقوع في أعراض الناس.

وليس هناك عمل يقرب العبد إلى الله أعظم من الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [سورة اقرأ: ١٩]. فقرن سبحانه الاقتراب بالسجود، ليبين فضل الصلاة، وخاصة حال السجود فيها.

وجاء في الحديث [١]: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» وهذا لأن السجود فيه غاية العبودية لله تعالى.

وكلما تحقق العبد بالعبودية تقرب من الله تعالى، لأن الرب لا يُتقرب إليه بصفات الربوبية كالعظمة والاستكبار، بل يتقرب إليه بصفات العبودية كالفقر والذل والانكسار.

وإنّ مَنْ حافظ على صلواته وخشوعها، وكانت صلاته صلاة المشاهدين ـ أي: مشاهدة الرب بالقلب ـ كان له يوم القيامة الحظ الأوفر من رؤية الله تعالى، كما جاء في الحديث [٢]: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها فافعلوا».

ولما وبخ الله تعالى بني الإنسان بأجمعهم وعنفهم لم يستثن أحداً

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٢/ (٢/٦٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر /٥٥٤/ (٢/٣٣)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما /٦٣٣/ (٢/٧٥٠) وأبو داود /٤٧٢٩/ والترمذي /٢٥٥٤/ عن سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

منهم إلا المصلين، فقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [الآيات من سورة المعارج] فَمَنْ حافظ على صلاته فقد خرج من هذا الذم والتوبيخ الإلهي.

كما وبخ سبحانه وذمَّ القرون التي تلت من قبلهم من قرون صالحة فقال: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ولما قرن سبحانه اتباع الشهوات بترك الصلاة، دل على أنّ أعظم سبب يجعل العبد يترك صلاته هو اتباعه لشهوات نفسه، كشهوة النوم، أو الأكل المفرط، وهو الشبع المذموم الذي يَثقل فيه الجسم للقيام للصلاة، أو شهوة الجلوس في مجالس القيل والقال، بحيث يمر الوقت وهو منغمس في ذلك.

واعلم أن من ضَيَّعَ الصلاة التي هي أعظم حق لله تعالى ضَيَّعَهُ الله تعالى، وجعل الغيّ لقياه، والغي: هو الضلال والحيرة والضياع.

كما أنهم يَلقون يوم القيامة غياً، فقد جاء في الحديث أنَّ الغيَّ والأثام نهران في جهنم. كما روى الطبراني، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لَوْ أَنَّ صَخْرَةً وَزَنَتْ عَشْر خَلِفَات،[1] قُذِفَ بها من شفير جَهَنَّمَ؛ مَا بلغت قَعْرَهَا سبعين خَرِيْفَاً، حتى تَنْتَهِيْ إِلَىٰ غيٍّ وأَثَامٍ».

قَالوا: ومَا هُوَ الغيُّ وَالأَثَامُ؟

قال: «بئران فِيْ جَهَنَّمَ، فِيهِمَا صَدِيْدُ أَهْلِ النَّارِ»[2] والعياذ بالله من ذلك.

---

(١) الخلفة: الحامل من النوق.

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/٣٨٩) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ هذا يكـون في آخر الزمان، يتبعون شهواتهم ويُعرضون عن صلاتهم، حتى إنهم من كثـرة شهوتهم يركب بعضهم بعضاً، وعلى الطرق والشوارع كالبهائم والأنعام.

الصلاة أهم الأعمال الشرعية

قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

التلاوة تأتي على معنيين: فهناك التلاوة القولية، وهناك التلاوة الفعليـة العملية.

فيقال: تلوت القرآن أو الكتاب يعني اتبعته.

ولقد جاء الأمر بالتلاوة قولاً وعملاً كما قال جلَّ وعلا: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اعمل بما جاء في القرآن من أوامر؛ ومن جملتـها تلاوته قولاً، ثم خصص سبحانه ذكر الصلاة فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنها أعظم الأوامر الإلٓهية وأشملها.

وجاء في (مسند) أبي يعلى(١)، قوله صلى الله عليه وآلـه وسـلم: «إنَّ أَوَّلَ مَا افتَرَضَ اللهُ عَلَى النَّاسِ من دينهم الصَّلاةَ، وَآخِرُ مَـا يَبْقَـى الصَّـلاةَ، وَأَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يومَ القِيَامَةِ الصَّلاَةَ».

---

(١) (مجمع الزوائد) (١/٢٨٨) و(مسند) الإمام أبي يعلى /٤١٢٤/ عن سيدنا أنس ابن مالك رضي الله عنه.

الصلاة تكفر الخطايا والذنوب

لما روى الطبراني(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذَا صَلَّيْتُمْ الصّبْحَ غَسَلَتْهَا» أي: تمحو آثار تلك الذنوب والخطايا الموجبة للاحتراق «ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذَا صَلَّيْتُمْ العَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُون تَحْتَرِقُونَ، فإذَا صَلَّيْتُمْ المَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذَا صَلَّيْتُمْ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ، فلاَ يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حتى تستيقظوا».

ولذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يكره الكلام بعد العشاء إلا بخير، من قرآن أو حديث أو موعظة، وذلك حتى يختم الإنسان آخر صحيفة يومه بخير.

وجاء في الحديث(٢) أنَّ هناك ملكاً ينادي عند كل صلاة «يَا بَنِيْ آدَمَ قُومُوا إِلَى نِيْرَانِكُمْ الَّتِيْ أَوْقَدتُمُوها فَأَطْفِئُوهَا» أي: أطفئوا نار ذنوبكم بنور صلاتكم، لأنَّ الصلاة نور كما جاء في الحديث: «وَالصَّلاَةُ نُورٌ»(٣).

وإنَّ شأن النور أن يزيل الظلمات، وأن يُظهر الأمور، فَمَنْ دخل في الصلاة زج نفسه في النور، فتظهر له أمور كان يجهلها، ويرى أموراً كانت عنه خفية، وإذا قوِيَ هذا النور صاحب المصلي خارج صلاته.

---

(١) (مجمع الزوائد) (١/٢٩٩).

(٢) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (١/٢٩٩) عن سيدنا أنس بن مالك.

(٣) طرف من حديث رواه مسلم /٢٢٣/ وقد تقدم.

فمن وقع في حَيْرة الشكوك أو حيرة الكَرْب فعليه بالصلاة، فإنها نُور تهديه إلى أقوم الطرق، وترشده إلى ما فيه صلاحه.

ومن هنا شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الاستخارة، وصلاة الحاجة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا كربه أمر قام إلى الصلاة، وإن للمؤمن أُسوةً حسنةً في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الصلاة معونة كبرى للإنسان على أمور دينه ودنياه

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [الآيات من سورة البقرة].

يُبين الله تعالى في هذه الآية أن في الصلاة معونة ربانية للعبد، فيجب أن يستعين بها في سائر أموره الدنيوية والأخروية.

أما الاستعانة بالصبر، فهي أنّ يستعين العبد بالصبر على أوامر الله تعالى في اجتناب ما نهى، وامتثال ما أمر.

كما أنه يستعين بالصبر على ما قَدَّر الله وقضى عليه مما يكره العبد أو يحب.

وقد يقال: في الصبر مرارة ومشقة، فكيف يستعين العبد بالصبر، أي: بالمشقة على مرارة ومشقة ؟

فلقد بَيّن سبحانه وجه المعونة بالصبر، وأن الإنسان في صبره تسهل أمامه المصاعب والمتاعب، وتنقلب مرارتها ومشقتها إلى لذة وحلاوة يجدها في قلبه، وما هذا إلا لأن الله تعالى بَيّن أن معيَّته الخاصة محيطة

بالصابرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي: فليعلموا وليوقنوا أن الله معهم في صبرهم، وليحتسبوا أجر صبرهم على الله تعالى، فيكون صبرهم لله وبالله، وتكون العاقبة لهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: باعتبار أنكم آمنتم فيجب عليكم أن تمتثلوا أمر الله، فهو يأمركم أن تستعينوا بالصبر في أموركم كلها: الدينية والدنيوية والأخروية.

وَمَنْ فعل ذلك فقد انضم إلى صفوف الصابرين الذين أحاطت بهم معية الله بالعناية والرعاية.

فالصلاة تحتاج إلى صبر في أدائها، والمحافظة على آدابها وسننها، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] أي: على الصلاة.

والزكاة تحتاج إلى صبر، لأنّ النفس تمانع في دفعها، والحج يحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر، وسائر العبادات كذلك قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: على سائر أموركم، لأنّ في الصبر لجوءاً إلى معية الله تعالى، وفي الصلاة يتوجه المصلي إلى الله تعالى، ويصير في كنف الله تعالى، فلا شك أنَّ مَنْ هذا شأنه فإن الأمور كلها تسهل أمامه، والمصاعب كلها تهون عليه.

ولقد بين سبحانه أنّ أعظم أمر يحتاج فيه العبد إلى الصبر هو الجهاد

في سبيل الله، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ وفي هذا بيَّن سبحانه إلى أنَّ أعظم ما يحتاج العبد أن يستعين به بالصبر والصلاة هو الجهاد في سبيل الله، فالجهاد يحتاج إلى صبر، لأنّ فيه بذل النفس والنفيس، فليستعن المؤمن في ذلك بالصبر والصلاة.

أما الجهاد في سبيل الله فهو على أنواع: هناك جهاد في سبيل الله بالقلب والجنان، وهناك الجهاد باللسان، وهناك الجهاد بالسيف والقوة والسِّنان.

أما جهاد النفس: فهو الوقوف بها عند حدود الله تعالى من أوامر ومناهي، وفي مجاهدتها صعوبة على الإنسان، لكن الله أمره أن يستعين بالصبر والصلاة.

روى الترمذي[1] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لله تَعَالَى» الحديث.

وروى البيهقي[2] عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسل سرية، فلما رجعوا قال لهم عليه الصلاة والسلام: «مرحباً بكم، قدمتم منَ الجِهَاد الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ»

قالوا: ومَا الجِهَادُ الأَكْبَرُ يَارَسُول اللهِ ؟

قال: «جهاد النفس».

فلقد سمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جِهَادَ النَّفْسِ بِالجِهَادِ الأَكْبَرِ، لأَنَّ مُجَاهَدَةَ الأَعْدَاءِ أَمْرُهُ مُؤَقَّتٌ، وينقضي في زمن محدد حسب ما يقتضيه الأمر، أما النفس فما تنفك عن صاحبها، وهو مأمور أن يُجاهدها على الدوام.

---

(١) في أول كتاب الجهاد /١٦٢١/ (٥/٣٤٤) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٢) في كتاب (الزهد) كما في تخريج الإحياء للحافظ العراقي.

ولقد جاء في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع: «سأخبركم من المسلم: **المُسْلِمُ**: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وِيَدِهِ، **والْمُؤْمِنُ**: مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِم وأنفسهم، **وَالمُهَاجِرُ**: مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، **وَالمُجَاهِدُ**: مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِيْ طاعة الله تَعَالَى» الحديث[1].

ولقد ذكر سبحانه هذا النوع من الجهاد، وهو مجاهدة النفس في قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

فلقد فهم بعضهم رضي الله عنهم من هذه الآية: جهاد النفس، لأن هذه الآية مكية، وما كان الجهاد بالسيف مفروضاً في مكة.

وهناك الجهاد باللسان: وهو مجاهدة أعداء الدين بإقامة الحجة والبرهان، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن وآياته وبراهينه ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢] هذا لأنّ حجج القرآن وبراهينه حجج إلهية ربانية، لا تُرد ولا تُنقض.

وهناك الجهاد بالقوة والسيف: وهذا على الأمة دفاعاً عن الدين، ودفاعاً عن المسلمين وبلادهم.

أما الاستعانة بالصلاة على سائر الأمور الدنيوية والأخروية:

فمن تعسرت عليه أمور الدنيا: فليستعن عليها بإكثار الصلاة لله تعالى.

---

(١) كما في (المسند) للإمام أحمد (٦/٢١و٢٢) و(مجمع الزوائد) (٣/٢٦٨) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

ومن تقاعست هِمَّته عن الطاعات: فليستعن على ذلك بالصلاة لله تعالى.

ومن سولت له نفسه، ووسوس له شيطانه بارتكاب المخالفات: فليستعن على ذلك بإكثار الصلاة لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فَمن أكثر الصلاة لله تعالى، حَفِظه الله تعالى عن الوقوع في المحرمات على قدر محافظته على الصلاة.

أما كون الصلاة تُعين الإنسان في المصاعب والمتاعب الدنيوية، فلقد ورد(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه كان إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة. أي: إذا أهمه أمر من الأمور قام إلى الصلاة.

وأما أَنَّ الصلاة تعين الإنسان على الجهاد في سبيل الله، ومحاربة الأعداء، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج للغزو أكثر من الصلاة لله تعالى.

ففي غزوة بدر لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثرة المشركين، وقلة المسلمين، لجأ إلى مكان ـ وكان قد نُصِبَ له عريش ـ وراح يصلي صلى الله عليه وآله وسلم، ويستغيث بالله في سجوده، ويكثر من دعائه: «اللهم آتِنِيْ مَا وَعَدتَنِيْ»(٢) أي: من النصر والظفر «يَا حَيُّ يَا قَيُّوم».

---

(١) في المسند (٥/ ٣٨٨) وأبي داود /١٣١٩/ عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

(٢) طرف من الحديث الذي في (مسند) الإمام أحمد (١/ ٣٠) و(صحيح) مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر /١٧٦٣/ (٤/ ١٨٤٧) وغيرهما، عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. مع اختلاف في بعض اللفظ.

قال سيدنا علي رضي الله عنه: فانتظرته فلم يفرغ، ثم عدت إليه ثانياً رأيته ساجداً، يقول: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوم» وهكذا ثالثاً ورابعاً [1].

قال: حتى إذا فرغ من صلاته وقف عليه الصلاة والسلام وأبو بكر رضي الله عنه عن يمينه، وبيده السيف خشية أن يَغتال الأعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو: «اللهم أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدتَنِيْ، اللهم إِنْ تَهْلِك هَذِه العِصَابَةَ» الطائفة المؤمنة «لاَتُعْبَدَ فِي الأَرْضِ» وَلَمْ يَزَلْ صلى الله عليه وآله وسلم يَهْتِفُ بِرَبِّهِ وَيَسْتَغِيثُ بِرَبِّهِ حَتَى سَقَطَ رِدَاؤه عن كتفيه صلى الله عليه وآله وسلم.

فجاء أبو بكر رضي الله عنه ورد عليه رداءه وقال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] أي: متتابعين، ألفاً بعد ألف بعد ألف، متوالية في المدد.

ونصر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأَيَّدَه، وبَدَرَ بَدْرُ الإِسلاَم.

ولقد كانت سُنة الأنبياء والمرسلين كلهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة:

فَمِن ذلك: أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام لما قدم أرض الجَبَّار، وكان هذا يغتصب النساء الحسان من أزواج الرجال، أما إذا كانت أخت رجل أو ابنته فلا يغتصبها، وكانت زوجة إبراهيم عليه السلام سارة ذات جمال ونضار، فقال لها: إنّ هاهنا جبَّاراً، إذا بلغه أنك زوجتي يأخذك، فإذا سألك فقولي: إنك أُختي في الإسلام، ولا يعلم أنّ في الأرض مسلماً غيري وغيرك.

---

(١) كما في (طبقات) ابن سعد (٢/٢٦).

ولما بلغ الجبار خبر سارة أرسل إليها وأخذها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت سارة على الملك أراد أن يمسها فَقُبِضَتْ يد الملك، فقال لها: ادعي الله أن يبسط إليَّ يدي ولا أمسك بسوء، فدعت الله فأطلق الله يده. وهكذا حاول ثانياً فلم يقدر أن يمسها، حتى قال الملك لجماعته: أنتم جئتموني بشيطان ولم تأتوني بإنسان.

ثم أمر بإخراجها، وأمر لها بهدية، وكانت هذه الهدية هي هاجر حتى تخدمها، فلما رجعت إلى إبراهيم عليه السلام، وكان يصلي، فلما فرغ قال لها: مَهْيا . أي: ماذا صار بالأمر.

فقالت: كفَّ الله يد الجبار، وأَخْدَمَنَا خادمة.

وقالت له: هذه هاجر هدية لك يا إبراهيم، فتزوجها إبراهيم عليه السلام وولدت منه إسماعيل عليه السلام.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: تلك أمكم يا بني ماء السماء [(١)] أي: يا معشر العرب. وسموا ببني ماء السماء، لأنّ معظم أعمالهم في الزراعة والماشية التي تعتمد على ماء السماء.

وهكذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] أي: أنكم إذا صبرتم فإنّ العاقبة لكم، وَمَنْ قُتِلَ منكم فليعلم أنه حَيٌّ عند الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤].

---

(١) كما في صحيح البخاري، في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/١٦٥] /٣٣٥٨/ (٦/٣٨٨).

وروى الترمذي(١) أنَّه لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما يوم أحد، قال جابر رضي الله عنه: لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: «يَا جَابِر ما لي أراك منكسراً»؟

قلت: يا رسول الله استشهد أبي، قُتل يوم أحد، وترك عيالاً وديناً.

قال ﷺ: «ألاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لقي الله به أباك»؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «ما كلم الله تَعَالَى أَحَداً قط إلاَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وأحيىٰ أَبَاكَ فكَلَّمَهُ كِفَاحَاً، فَقَالَ: يَا عَبْدِيْ تَمَنَّ عَلَيَّ أعطيك.

قَالَ: يَارَبِّ تحييني فأُقْتَلَ فِيْكَ ثَانِيَةً.

فَقَالَ الرب تبارك وتعالى: إِنَّهُ قد سَبَقَ القَولُ مِنِّيْ أَنَّهُم إليها ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾» قَالَ وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ولقد كان هذا طلب جميع شهداء أحد(٢)، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لَمَّا أُصِيْبَ إِخْوَانُكُمْ يومَ أُحُد، جعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ فِيْ جَوف طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّة، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِيْ إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِيْ ظِلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيْبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وحسن منقلبهم» أي: راحتهم «قَالُوا: مَنْ يبلغ إِخْوَانَنَا عنا أنا أَحْيَاءٌ فِيْ الجَنَّة نُرزَقُ، لِئَلاَ يَزْهَدُوا فِيْ الجهاد، وَلاَ يَنْكُلُوا عِنْدَ الحَرْبِ ؟

(١) في كتاب التفسير /٣٠١٣/ (١٨٧/٨) وينظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي.

(٢) كما في (مسند) الإمام أحمد (٢٦٦/١)، و(سنن) أبي داود في كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة /٢٥٢٠/ (٣٢/٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والترمذي في التفسير /٣٠١٤/ عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فقَالَ الله تعَالى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، وأَنْزَلَ قَولَه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ...﴾» الآية.

وكفى بالجنة نعيماً أنها جوار الرحمن وسقف الجنة عرش الرحمن، والجار مقدم على الدار، كما قال تعالى مخبراً عن امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ الآية [التحريم: ١١]. فطلبت الجوار قبل الدار.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

جملة

محاضرات حول

التذكير

ببعض أسرار الصيام

لقد فرض الله تعالى الصيام على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، التي هي أفضل الأمم، لأنه أرسل فيها أفضل الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فرض عليها أن تصوم أفضل شهر وهو شهر رمضان.

وقد خصَّها سبحانه بهذا الشهر دون غيرها من الأمم لأنه أفضل الشهور عند الله تعالى، فلقد كان صيام الأمم السابقة في غير هذا الشهر.

كما أنه سبحانه أنزل في هذا الشهر أفضل كلام إلٰهي وهو القرآن العظيم، في أفضل ليلة من هذا الشهر وهي ليلة القدر، وجعل لهذه الليلة المقدار والفضل على غيرها من الليالي، وجعل العمل الصالح فيها أفضل من العمل في ألف شهر.

كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: بل هي خير وأفضل.

وهذا من رحمة الله تعالى بهذه الأمة.

فقد اقتضت حكمته جلَّ وعلا أن تكون أعمار هذه الأمة أقصر من أعمار الأمم السابقة، فخص سبحانه هذه الأمة بمواسم للعبادة تتضاعف فيها الأجور والثواب، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَفْطَرَ يوماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ ولاَ مرَضٍ؛ لَمْ يَقْضِهِ صَومُ الدَّهرِ وإن صامه»[1].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصوم، باب التغليظ في من أفطر عمداً /٢٣٩٦/ (٢/٧٨٩)، والترمذي /٧٢٣/ (٣/٧٤)، وابن ماجه/ ١٦٧٢/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

يعني: أن الصيام في هذا الشهر مضاعفُ الأجر والثواب لفضل هذا الشهر على غيره، فمن ترك صيام يوم منه بدون عذر شرعي ثم قضاه فقد سقط عنه الفرض، لكنه لا ينال ذلك الثواب والأجر المضاعف فيما لو صام في رمضان.

وكثيراً ما خصَّ الله تعالى هذه الأمة بفضائل بواسطة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم.

ونظير هذا ما روى الترمذي وابن ماجه، وغيرهما[1]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ المَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِيْنَهُنَّ بِسُوءٍ: عُدِلَنَ بِعِبَادَةِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً».

أي: لو أَنَّ عابداً من الأمم السابقة عَبَدَ الله تعالى اثنتي عشرة سنة، وعابداً من الأمة المحمدية صلى بعد المغرب ستَّ ركعات لم يتكلم بينهن بسوء، لعَادَلَتْ عِبادَةَ ذَلكَ العابِدِ عِبادَةَ هَذَا المحمدي.

وهكذا العبادة في ليلة القدر تزيد في فضلها وثوابها على العبادة في ألف شهر.

فإن شهر رمضان موسم للعباد يتجلى الله فيه عليهم بالمغفرةومن حُرم ذلك فقد فاته خير كثير كما جاء في الحديث: «بَعُدَ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَر له»[2].

---

(١) الترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في التطوع وست ركعات بعد المغرب /٤٣٥/ (٢/١٥٧) ابن ماجه /١٣٤٧/ ابن خزيمة (٢/٢٠٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الحاكم في المستدرك (٤/١٥٣) عن سيدنا كعب بن عجرة رضي الله عنه، ولهذا الحديث روايات متعددة انظرها في (كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) لفضية الشيخ الإمام رحمه الله تعالى.

وأما أجر الصيام، فقد جاء في الحديث القدسي: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِيْ بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي» الحديث[1].

أي: إن ثواب الصائم ومقدار جزائه عند الله تعالى لا تعرف الملائكة حَدّه، ولم تُحط به علماً.

فالملائكة قد يعلمون مقدار ما للعبد من ثواب من تسبيحه، أو تحميده، أو صلواته وهكذا. أما من جهة الصيام فهم لا يعلمون ذلك، لأن التسبيح والتحميد والصلاة وغيرها أمور تعبدية، وقربات إلى الله تعالى هم أيضاً يعملون بها، ويتذوقونها، ويتحققون بها، أما الصيام الإنساني بترك الطعام والشراب الذي هو مقتضى طبيعة الإنسان الجسمانية فهذا أمر ما ذاقته الملائكة، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون. بحكم نشأتهم التي فطرهم الله عليها.

فالملائكة عليهم السلام ما ذاقوا صيام بني آدم، وما يقاسيه من مخالفة النفس، وكبح جماحها بترك الطعام والشراب والشهوة، فلذلك لا يعلمون ثواب هذا الصائم وجزاءه، فما جزاؤه وثوابه إلا أمر مفوض إلى الله سبحانه.

وكم لهذا الأمر من نظائر لا تعلم الملائكة حقيقة ثواب العاملين عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

يُبين الله تعالى أَنَّ فرضية الصيام موجودة في كل الشرائع، وواجبة

---

(١) طرف من الحديث الذي رواه الإمام مسلم في كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم /١١٥١/ (١١٦٨/٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر (الفتح) (١٠٣/٤).

على سائر الأمم، فكما فَرَضَ على هذه الأمة الصيام فرضه على جميع الأمم التي قبلها، إلا أنَّ هذه الأمة المحمدية خُصِّت بصيام شهر رمضان، لأنّه أفضل الأشهر، فحق أن يكون لأفضل الأنبياء وأفضل الأمم.

كما أَنّ الصيام الذي جاءت به الشرائع السابقة يختلف عن صيام هذه الأمة بالمقادير والأوقات كما اختلفت أوقات الصلاة وكيفيتها، ومقدار الزكاة وكميتها، كما اقتضت الحكمة الإلّهية.

فقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: أَنّ الصيام هو من مُوجبات الإيمان بالله تعالى، فباعتبار أنكم آمنتم بالله فيجب عليكم أن تصوموا، فالصيام واجب الإيمان بالله تعالى.

ووجه هذا الوجوب والإلزام هو: أَنَّ الله تعالى قد عاهد المؤمنين، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم، وهم باعوها لله تعالى على أن يُقدموا نفوسهم وأموالهم لله تعالى، والله تعالى يُعطيهم في مقابل ذلك الجنة، فالإيمان عهد بين المؤمن وربه، على أنْ يسلِّمَ نفسه لله تعالى.

فنفس المؤمن وماله وجسمه وكله لله تعالى، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثُم بين الله تعالى صفة المبايعين المعاهدين لله تعالى، فهم تحت مراد الله تعالى، فإذا اقتضى منهم الجهاد سارعوا إليه بأموالهم وأنفسهم، وإذا اقتضى منهم الصلاة بادروا إليها، وهكذا سائر ما يتطلبه منهم إيمانهم بالله

وعهدهم معه، فقال الله تعالى مبيناً حقوق البيعة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

فهذه حقوق المعاهدة، وواجبات البيعة، بأن يتوبوا إلى الله تعالى، فتابوا ورجعوا إلى الله، وتركوا ما سوى الله تعالى.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ المتضرعون المنيبون إلى الله ظاهراً وباطناً.

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على السراء والضراء رضاً بما قضى وقدَّر.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ قال جمهور السلف رضي الله عنهم كابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: الصائمون[1]، وورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنَّ سياحة هذه الأمة الصيام[2].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان[3].

وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره[4]، عنه عليه الصلاة والسلام قال: «﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هم الصائمون».

---

(١) كما في تفسير ابن جرير، وعزاه في (الدر المنثور) إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم وغيرهم.

(٢) كما في تفسير ابن جرير.

(٣) كما في (الدر المنثور).

(٤) عزاه في (الدر المنثور) (٤/٢٩٨) إلى ابن مردويه، وابن النجار، وأبي الشيخ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي سند آخر(١)، سأل رجل النبي عليه الصلاة والسلام عن: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾؟ فقال: «هم الصَّائِمُونَ».

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٤ـ٥] فالمراد هنا بالسائحات: الصائمات.

وإنما سميَّ الصوم سياحةً لأنّ فيه مفارقة المألوفات والعادات، بهجران المأكولات والمشتهيات مِنْ مَشرب ومنكح.

ففي الصوم تسيح النفس عن هذه الأمور، وتترك الروح مألوفات الجسم وقيوده وروابطه، وفي هذا سياحة إلى الله عن الأجساد.

وهكذا فلما سمع المؤمنون بهذه البيعة الإلهية والمعاقدة الربانية، وعلموا أن الله لا يُخلف وعده، تقدموا للمبايعة، بأن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. الذي هو الواسطة الكبرى عن الله، والذي أخذ منهم المعاهدة عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

فالإيمان عهد بين العبد المؤمن وربه، بأن يُسلم نفسه وماله لله تعالى، والله يتصرف به كما أراد، ويحكم فيه كما يشاء من أمر ونهي.

---

(١) كما في (الدر المنثور) (٤/٢٩٧) عن سيدنا عبيد بن عمير وسيدنا أبي هريرة رضي الله عنهما.

فالمؤمن ليس لنفسه إنما هو لله تعالى، يعني: ليس له أن يتبع هوى نفسه، بل عليه أن يتبع أوامر ربه جلَّ وعلاَ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لأنكم لما آمنتم عاهدتم الله بأن تُسلموا أنفسكم وأموالكم له، فالله تعالى يأمركم أن تصوموا لأن أجسادكم ليست لكم بل هي لربكم، فما صيامكم إلا بمقتضى إيمانكم بالله تعالى.

ومن وجه آخر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بصفة أنكم مؤمنون يجب عليكم أن تصوموا، إذ لا تتحققون بصفة الإيمان إلا إذا كان حبكم لله فوق كل محبة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فهم يحبون الله فوق كل محبوب ومرغوب، كالمال والولد والطعام والشراب.

فناداهم سبحانه بما يقتضي منهم أنهم مؤمنون، فيجب عليهم أن يَتخلّوا عن محبوباتهم، ويتركوا شهوات أنفسهم من طعام وشراب ومناكح، تحقيقاً لصفة الإيمان التي فيهم، والتي تقتضي منهم أن يكون الله هو محبوبهم الأعظم وفوق كل محبوب.

فمن كان صادقاً في محبة الله، وَجَب عليه أن ينتهي عن شهوات النفس ومرغوباتها، بأن يصوم لله تعالى، وفيه برهان على صدق إيمانهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فمن لم يصم وأكل وشرب فقد قَدَّمَ حُبَّ الطعام والشراب على حبه لله تعالى.

وفي الصيام تشبّهٌ بالملائكة، وترفُّعٌ عن دنس النفس وأهوائها وشهواتها.

قوله جل وعلا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه بيان لحكمة الصيام، كما أن في صدر الآية بيان سبب وجوب الصيام.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني: أنكم بصيامكم تنالون مقام التقوى على اختلاف مراتبها. ولما كانت التقوى على مراتب كان الصيام على مراتب.

فهناك التقوى عن المعاصي والمحرمات، وهناك التقوى عن المباحات والشهوات، وهناك التقوى عن ما سوى الله تعالى، والصيامُ سبب موصل إلى مراتب التقوى كلها.

فهناك الصيام عن الطعام والشراب والمنكح، وأعلى منه صيام بقية الجوارح، كصيام الأذن عن أن تسمع ما لا يرضي الله تعالى، وصيام العين عن أن تنظر إلى مالا يرضي الله تعالى. وصيام اللسان عن التكلم بما لا يرضي الله تعالى. وهكذا الجوارح، وهناك صيام القلب عن ما سوى الله تعالى.

فكل نوع يوصل صاحبه إلى مرتبة من مراتب التقوى.

ولهذا جاء في الحديث[1]: «والصِّيَامُ جُنَّةٌ» أي: وقاية.

إذ أن الإنسان لَمَّا يخوض معركة مع الأعداء لابد له من وقايات تمنعه من ضربات الأعداء، وذلك بالتدرع بالمِجَنّ.

ولما كان المؤمن سائراً إلى الله على الصراط المستقيم، فلا بد في سيره أن تعتريه الأهواء والوساوس الشيطانية، فإذا لم يتخذ له مِجَنّاً ووقاية فإنه سيضل الطريق وينقطع به.

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شُتِمَ /١٩٠٤/ (٤/١١٨)، ومسلم /١١٥١/ (١١٦٨/٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الترغيب) أول كتاب الصوم.

فما هذه الجُنَّةُ إلا الصيام. كما أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه البخاري وغيره[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والصيام جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَومُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ» أي: بالأقوال «وَلاَ يَجْهَل» أي: بالأعمال «فَإِنْ سَابَّهُ أحد أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امرؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيْحِ المِسْكِ، للصائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ».

ولقد روى ابن ماجه وغيره[(٢)]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ للْصَائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً لاَ تُرَدُّ».

قال أبي مُليكة: فكان عبد الله بن عمرو بن العاص إذا أفطر قال: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي ذنوبي.

وأما صوم القلوب عما سوى الله تعالى فهو شأن المؤمنين الكاملين رضي الله عنهم، فإذا دخل شهر رمضان صامت قلوبهم إلا عن الله تعالى.

وإنما صامت قلوبهم عن غير الله تعالى حتى لا يزاحم أحد في قلوبهم الله تعالى، إذ أنهم سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الحديث «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين»[(٣)].

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذاشتم /١٩٠٤/ (٤/١١٨)، ومسلم /١١٥١/ (٣/١١٦٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الترغيب) أول كتاب الصوم.

(٢) الحديث في (سنن) ابن ماجه كتاب الصيام /١٧٥٣/ (١/٥٥٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/٤٢٢).

(٣) تمام الحديث: «إن لله تعالى آنية من أهل الأرض» عزاه في (الفتح الكبير) إلى الطبراني.

فسارعوا إلى التحقق بهذا.

فقد عرف قلب المؤمن من الله، من صفاته وكمالاته، مالا تعرفه السماء والأرض.

واعلم أن تقوى الجوارح والأعضاء محدودة، فتقوى الرِجل ألا تمشي إلى معصية الله، وتقوى اليد ألا تؤذي ولا تبطش فيما لا يرضى الله وهكذا.

أما تقوى القلب بأن يتقي غير الله تعالى، بأن لا يسكن ولا يتمكن في قلبه غير الله تعالى، ودليل تحقق المؤمن بتقوى القلب عما سوى الله تعالى أنه يعظم شعائر الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فهذا القلب لما امتلأ بمعرفة الله وعظمته وحبه، صار يُعظم كل شعيرة وعلامة دالةٍ على الله وهي معالم دين الله تعالى، كالمساجد والمواضع المباركة، وعلماء الشريعة لأنهم من شعائر الله تعالى. ولا يُعظم شعائر الله إلا من كان في قلبه تقوى الله تعالى.

وإذا تحقق المؤمن بهذا ذلَّ قلبه وخشع لله، وَمَنْ خشع قلبه لله وانكسر لعظمته فإن الله عند قلبه.

كما قال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: يارب أين أجدك؟

قال يا موسى: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي[(١)].

ولهذا لَمّا تَدْخُلُ على أحد من أحباب الله تعالى تقول: ذهبنا إلى فلان وليس عنده إلا الله تعالى.

---

(١) ينظر: (كشف الخفاء).

ومن هـذا لَمَّـا كـان حـال المـؤمن المـريض الرجـوع إلى الله تعـالى، والتضرع إليه سبحانه وتعالى، فمن زاره وعاده في مرضه وجد الله عنده.

كما جاء في (صحيح) مسلم[1]، عن أبي هريـرة رضـي الله عنـه قـال: قال رسول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم: «إن اللهَ عـز وجـل يَقُـولُ يـوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي.

قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْـتَ أَنَّـكَ لَـوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟

يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي.

قَالَ: يَا رَبِّ وكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنه اسْتَطْعَمَكَ عبدي فلان فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»؟ أي: ثواب إطعامك لـه.

«يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي.

قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عبدي فلان فَلَمْ تَسْقِهِ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِـكَ عِنْدِي».

وكذلك فإن العبد المؤمن التائب، الذي انكسر قلبه لله تعالى، وخضع لعظمته، معترفاً بذنبه، مستغفراً منه، فـإن هـذا القلـب المنكسـر المسـتغفر المستعفي تجد الله تعالى عنده.

---

(١) في كتـاب الـبر والصـلة والأداب، بـاب فضـل عيـادة المـريض /٢٥٦٩/ (٢٥١٧/٥).

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي: كبيرة ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بارتكاب الصغائر ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: تائباً إلى الله، فإذا وجدك مستغفراً حقاً وجدته ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤].

ولما كان في الإنسان القوة الحيوانية، والقوة المَلَكية، جاءت الشرائع تأمره أن يُلطِّفَ ويقلل من قواه الحيوانية البهيمية، وينهض بالقوة الملكية الروحية، فجاء الصيام يُعالج القوة الحيوانية البهيمية الشهوانية، حتى لا تَطغىٰ على القوة الروحية الملكية، فتكون الغلبة للقوة الملكية الروحية، ويتشبه بالملائكة عليهم السلام.

ومن هنا تجد اختلاف مقادير وكميات الصيام حسب الأمم وشرائعهم، فإن قوم نوح عليه السلام كانوا أصحاب أجسامٍ قوية، يعمرُ أحدهم أكثر من ألف سنة.

فإن مثل هؤلاء القوم لا يكفيهم من علاج الصيام أن يصوموا شهراً من السنة، ولذا اقتضت حكمة الله تعالى بأن يشرع لهم صيام الدهر كله، لإضعاف قواهم الحيوانية، وتقوية القوىٰ الملكية فيهم.

وأما هذه الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام، فإنها ضعيفة أجسامها وأبدانها بالنسبة للأمم السابقة، فَعِلاجها أنه يكفيها صيام شهر من السنة، وليس من الحكمة صوم أقل من شهر.

أما إذا قال قائل: إذا كان المقصود من الصيام كسر شوكة النفس، وكسر القوى الحيوانية، وتنشيط القوى الروحية الملكية، فَلِمَ لم يترك الشارع اختيار وقت وكمية الصوم لنا؟

فاعلم أن الشارع لو ترك الصيام لأهواء النفوس وأفكارهم، من حيث الأوقات والكميات، لاختل النظام، وانفتح عندئذٍ باب المعاذير الباطلة، مما يؤدي إلى ترك هذا الأمر والفوضى في تطبيقه.

ففي عمومية الصوم على جميع المسلمين في وقت واحد يُسر وسهولة على النفس، وعونٌ لها على امتثال الأمر.

وأما قولك: إن هذه القوة الحيوانية تنكسر في أقل من شهر.

فيقال: إنّ خالق الشيء هو أعلم بالشيء، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] فإنّ أقل من شهر يقال له: حِمْيَةٌ.

وأما قولك: لِمَ نصوم النهار كله؟ ولا نصوم نصفه مثلاً؟

فاعلم أنّ صومك نصف النهار يُعتبر جوعاً بالجملة، وليس هو صوماً كاسراً لشهوة النفس، فإنّ الإنسان قد يكون في أعماله وما يأكل حتى المساء.

ولقد شرع الله تعالى أن نصوم في وقت، ونفطر في وقت، على وجه مخالف لعادة الإنسانية حتى يبين في ذلك وجه التكاليف والانقياد لأمره سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فإن الملائكة يجالسون الصائمين ويَشَمُّون رائحتهم، لأن هذه الرائحة من فم الصائم وإن كانت كريهة بالظاهر، ولكنها عند الله وملائكته أطيب من ريح المسك، ولو كُشِفَ لك هذا الحجاب الجسماني وشممت ريح الصائم لوجدته أطيب من ريح المسك، ولكن هذا لا يُشَمّ بالأنف؛ بل بالقلب والروح، كما قال الله تعالى إخباراً عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو في بيت المقدس، عندما شمَّ ريح يوسف وهو في مصر: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] فلو كان شَمَّهُ بالأنف لشم من حوله معه ريح يوسف، ولكنه شَمم بالقلب.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَشمون رائحة الجنة عندما يخوضون المعارك والغزوات في سبيل الله تعالى.

ومن هذا[1] ما جاء عن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما، لما فاتته غزوة بدر حَزن على نفسه، وقال: لئن أبقاني الله ـ أي: إلى غزوة ثانية ـ لأُرِيَّنَ الله ورسوله ـ أي: عملاً وجهاداً عظيماً في سبيل الله ـ فلما حضرت غزوة أحد استعد لها، وذهب ناحية جبل أحد، فقال له ابن أخيه أنس بن مالك رضي الله عنه: ياعم إلى أين تذهب؟ فقال: إني أشم رائحة الجنة من جبل أحد. وراح وقاتل وطُعِنَ بضعاً وثمانين طعنة في جسمه حتى استشهد رضي الله عنه.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ...﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣].

ولقد كان الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه يشم الأولياء، فيعرف مقام كل واحد منهم.

* * * * *

---

(١) الخبر عند البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قوله الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ﴾ الآية /٢٨٠٥/ (٦/٢١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد /١٩٠٣/ (٤/١٩٨٥).

الصيام سبب عظيم لتقوية الروح وصفاء القلب

لقد جاء في الحديث الذي رواه النسائي[1] عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلتُ: يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِأَمْرٍ ينفعني الله به.

فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: «عَلَيكَ بِالصَوم فَإِنَّهُ لاَمِثْلَ لَهُ» أي: لا مثل له في جلاء القلوب، وتنشيط الأرواح وترفعها.

ولذلك جاء في (لسان العرب): أن الصيام يطلق على الارتفاع، كما قال قائلهم: حتى إذا صام النهار وهجَّرا. أي: ارتفع النهار.

فالصيام فيه معنى الإمساك، وفيه معنى الترفع، إذ فيه ترفع عن دنس النفس وأهوائها، بحيث يجعل صاحبه مع صفوف الملائكة، ولقد جعل الله تعالى شهر الصوم هو شهر رمضان لأنه أفضل الأشهر.

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء، وهذه الشريعة المحمدية أفضل الشرائع الإلهية، وهذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس، جعل الله صيامها في أفضل الأشهر، فقال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهو من الرَّمَض، أي: شدة الحر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أُنزل فيه القرآن بصفة أنه قرآن يقرأ، ولم يقل أنزل فيه الكتاب. أو الفرقان.

ومن هنا يعلم العاقل: أن الآية فيها تنبيه إلى الإكثار من قراءة القرآن في هذا الشهر أكثر من غيره من الأشهر.

---

(١) (٤/١٦٥).

وقد نزل القرآن بصفته يُقرأ في ليلة القدر من شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما من حيث كونه كتاباً فرقاناً، فقد أنزل في ليلة التقدير المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

ومن هنا يُعلم أن ليلة القدر ليلتان: فهناك ليلة القدر أي: المقدار والفضل المشار إليها بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢].

وهناك ليلة قدر، أي: ليلة التقدير المشار إليها بقوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١ـ٤].

وهذه الليلة قد تكون في رمضان وقد تكون في نصف شعبان، وقد تكون في سائر السنة، إلا أن الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن اجتمعت فيها الليلتان، فكانت تلك الليلة: ليلة القدر والفضل، وليلة التقدير أيضاً، ولهذا وصفها الله تعالى بالوصفين: بالمقدار والفضل ووصفها بالتقدير أي: بالمحو والإثبات.

* * * * *

نـزول القـرآن الكريم

اعلم أن الله تعالى أنزل جميع الكتب السماوية على المرسـلين علـيهم الصلاة والسلام في شهر رمضان.

فقد جاء في (المسند) وغيره[1]، عنه عليه الصلاة والسلام أنه سـبحانه أنزل الصحف على إبراهيم عليـه السـلام في أول ليلـة مـن شـهر رمضـان، وأنزل التوراة على موسى عليه السلام في ستٍ مـن شـهر رمضـان، وأنـزل الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام في ثلاث عشر خلـت مـن رمضـان، وأنزل هذا القرآن الكريم لأربع وعشرين خلت من رمضان.

أما عن تنزل القرآن، فهناك تنزل كتابي، وهناك تـنزل تـلاوي قـرآني؛ بصفة أنه قرآن يُقرأ.

أما التنزيل الكتابي، فقد كتبه الله عنـده في أم الكتـاب، كمـا قـال الله تعـالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ـ٣] فأخبر سبحانه أن هذا القرآن نزل في ليلة هـي ليلة التقدير.

أما نزوله إلى أم الكتاب فقد أشار إلى هذا بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ﴾

(١) (المسند) (٤/١٠٧) عن سيدنا واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وانظر (مجمـع الزوائد) (١/١٩٧) و(الدر المنثور) للحافظ السيوطي (١/٤٥٦) فقد عـزاه إلى ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (الشعب) وغيرهم.

أي: هذا القرآن ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ـ٤] فأخبر تعالى أن هذا القرآن موجود ومكتوب في أم الكتاب.

كما أخبر أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١ـ٢٢].

فأول ما نزل القرآن إلى أم الكتاب واللوح المحفوظ، كما أخبر الله تعالى بأنه كَتب جميع الأشياء التكوينية والتشريعية في أم الكتاب.

ثم نزل هذا القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر في شهر رمضان، وبيت العزة هو قبلة أهل السماء الأولى.

وعند نزول القرآن إلى السماء الأولى مرَّ على جميع أهل السماوات السبع، وذلك حتى يُطلع الله تعالى على هذا القرآن الكريم ملائكته الذين هم في السماوات السبع، ويكون لهم علم به، وَيكتب في صحيفة كل ملك ما أمره الله تعالى به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١ـ١٦].

فكل مَلك كُتب في صحيفته من القرآن ما أمره الله تعالى به، وكلٌّ يتقرب إلى الله تعالى بما في صحيفته.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه بكتابة الآيات التي تنزل عليه، فور انقضاء الوحي عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فكان كل صحابي عنده من القرآن ما أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يَكتبه في الصحف قال الله تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ [البينة: ٢].

أما التنزل القرآني بصفته قرآناً يُقرأ، فقد ابتدأ نزوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً في ليلة القدر من شهر رمضان، بواسطة جبريل عليه السلام، آخذاً عن حضرة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

واستمر نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدريجياً في مدة ثلاث وعشرين سنة.

أما تلك الليلة التي نزل فيها القرآن فتسمى ليلة القدر، **وليلة القدر ليلتان:**

هناك ليلة القدر بمعنى المقدار والفضل، أشار إليها بقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: ليلة المقدار والفضل على غيرها من الليالي، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١ـ٢].

وهذه الليلة لا تكون إلا في رمضان، وفي العشر الأخير منه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الْتَمِسُوْهَا فِي العَشْرِ الأواخر»[(١)].

وهناك ليلة القدر بمعنى التقدير، فقد تكون في رمضان، وقد تكون ليلة النصف من شعبان، وقد تكون في سائر الليالي، وقد أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ﴾ [الدخان: ١ـ٥].

---

(١) البخاري في كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السَّبْع الأواخر /٢٠١٦/ (٤/٢٥٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر /١١٦٥/ (١١٨٣/٣) عن سيدنا عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

ففي ليلة التقدير تُفْرَق الأمور عن الأصل الذي هو اللوح المحفوظ، فتفرق عنه طائفة من الأحكام يريد الله تعالى تنفيذها في تلك السنة.

وهذا المعنى في ليلة التقدير، ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن كثير من السلف رضي الله عنهم.

وقال بعضهم: إن المراد من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] الأمر الحكيم هو الأمر المحكم تنزيله، وهي الآيات القرآنية المحكمة، التي نزلت تدريجياً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهذا المعنى المشار إليه يدل عليه سياق الآيات، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٥-٦].

أما ليلة القدر بمعنى المقدار والفضل، فلها من الخصائص أنها في فضلها وعظمتها والعمل فيها خيرـ أي: أكثرـ من العمل والأجر في ألف شهر.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ فالأرواح العالية والملائكة تباشر الأرض، وتخالط أهل الأرض، فينال المؤمنون من أهل الأرض ما ينالهم من الخير والرحمة، يعني: أن عالم الملكوت يتصل بعالم المُلك.

والمراد من الروح هنا: الأروح العالية وأعظمهم جبريل عليه السلام.

حتى قال بعضهم: إن أرواح المؤمنين تتنزل لزيارة إخوانهم المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالتدرج، فتنزلِ طائفة ثم تصعد، وتنزل أخرى، وهكذا إلى طلوع الفجر، وينزل فيها جبريل عليه السلام

ومعه سبعون ألف ملك من عالم سدرة المنتهى، ومعهم ألوية نورانية، فيضعون لواءً فوق الكعبة، ولواءً فوق قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولواءً عند بيت المقدس - أُوْلَىٰ القبلتين ـ ولواءً في مسجد طور سيناء، ثم يأتي الملائكة إلى بيوتات ومواطن المؤمنين حيث كانوا، وتسلم عليهم وتبارك عليهم.

ويوحي الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن يقسم في تلك الليلة ما ينزل من رحمة الله تعالى، فيقسمها على الأحياء، ثم يبقى منها، فيأمره الله تعالى أن يقسمها على الأموات المؤمنين ويبقى هناك رحمات كثيرة[1].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: لتنفيذ كل أمر أمرهم الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] وتنزل ملائكة التنفيذ حتى تُعِدَّ العدة، وتضع الأهلية، والقابلية حتى إذا جاء وقت تنفيذه نفذوه مباشرة.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي: أمان، وتسليم من الملائكة على المؤمنين.

واعلم أن تلك الليلة التي نزل فيها القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، جمعت ليلة القدر بمعنى المقدار والفضل، وليلة القدر بمعنى التقدير، ولهذا وصفها الله تعالى بالقدر، أي: بالفضل، ووصفها أيضاً بأنها ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أي: بالتقدير.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) انظر تفسير العلامة الآلوسي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة.

والمعنى: أن هذا القرآن يُبين لك الحق، ويدفع عنك الباطل، ويفرِّق بين الحق والباطل بالأدلة والبراهين، فهو يأتي بالبينة والدليل على أن الذي أخبر به القرآن هو الحق، وما سواه باطل، ثم يفرِّق لك بين ما أخبر به وبين ما جاء به غيره، ويُثبت أن الباطل هو ما خالف هذا القرآن وخبرَه.

ومن ذلك: فقد هدى القرآن إلى وحدانية الله وتوحيده، فقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ففي هذا هديٌ للتوحيد.

ثم بيّن الدليل والبرهان على هذا الهدي إلى الوحدانية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] مشيراً إلى أن تدبير هذا العالم لابد له من خالق وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم بَيَّن الفرقان أنه لا يمكن أن يكون هذا الخالق أكثر من واحد فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وأنت لا ترى في العالم اختلافاً؛ بل تراه بانتظام، مما يدل على أن الإلٓه واحد.

فهداك سبحانه إلى التوحيد، وأقام الدليل عليه، ثم أتاك بالفرقان بأنه لو كان الأمر غير ذلك لكان عبثاً وفساداً.

ومن ذلك أيضاً: أنَّ الله تعالى أخبر أنه لابد من القيامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩]. فهذا هديٌ إلى إثباتها.

ثم أتى بالدليل والبرهان على أن إقامة الساعة أمر لابد منه، وأنَّ الله تعالى قادر على ذلك، فقال جلَّ وعلاَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فبين سبحانه أن آيات البعث والحشر مرئية للإنسان، فالله تعالى دائماً يبعث الأشجار من بطون الأرض ويحشر الزروع أيضاً من بطون الأرض، وما حَشْرُ الإنسان إلا مثل هذا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

ثم جاء بالفرقان على أنه لو لم يكن هناك حشر وبعث لكان أمر العالم عبثاً وباطلاً، إذ يتساوى الظالم مع المظلوم، والمُحِقّ مع المبطل، والمحسن مع المسيء وهكذا. لكن الله منزه في حكمته عن ذلك فقال جلَّ وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

عبثاً: أي بلا سؤال ولا حساب ولا تكليف، فتعالى الله الملك الحق.

وهكذا فالقرآن هدىً للناس، ففيه الهديُ إلى أقوم الطرق، في جميع الأمور الدنيوية والأخروية، [وانظر تفصيل ذلك في كتاب: هدي القرآن إلى الحجة والبرهان، لفضيلة سيدي الشيخ الإمام رضي الله عنه].

* * * * *

الحِكَمُ في نزول القرآن الكريم منجماً

اعلم أَوَّلاً أنّ للقرآن تنزلات ثلاثة من حيث الجملة، فنزل أولاً إلى اللوح المحفوظ، ثم أنزله سبحانه من اللوح المحفوظ إلى السماوات سماءً بعد سماء، حتى بلغ السماء الدنيا، ونزل إلى بيت العزة الذي هو قبلة أهل السماءالدنيا، ثم بعد ذلك بدأ ينزل تدريجياً على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذكر سبحانه هذه التنزلات الثلاثة في كثير من الآيات على حسب المناسبات.

أما نزوله إلى اللوح، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ـ٢٢].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣ـ٤].

ثم نزل إلى السماوات لبيان علو شأنه وعظمة أمره ولتتقرب الملائكة إلى الله تعالى بتلاوته حتى نزل إلى بيت العزة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى القرآن جملة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزة.

في هذا قال الله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ـ١٦].

ولما نزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وصار قريباً من عالم الدنيا، أشرق إليه قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانعكست

أنوار هذا القرآن في فؤاده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، فراح صلى الله عليه وآله وسلم يتشوق ويتطلع إلى نزوله، ولهذا كان كثيراً ما ينظر إلى السماء ابتغاء أن تنزل آية، أو ينزل الحكم أو الفصل، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ثم بدأ ينزل هذا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آيات بعد آيات، خلال ثلاث وعشرين سنة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: جملة واحدة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزة، وبدأ ينزل في تلك الليلة تدريجياً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: ليلة المقدار والعظمة والفضل على غيرها من الليالي.

ولقد نزل هذا القرآن في ليلة فيها التقدير للأمور قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١ـ٤] ففي تلك الليلة تنزل الأمور القضائية السنوية إلى السماء الدنيا.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يُفصل عن أصله وهو أم الكتاب، وينزل إلى السماء الدنيا، وفي تلك الليلة فُرِق هذا القرآن من اللوح حتى نزل إلى بيت العزة.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: من أم الكتاب واللوح ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أما المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: إنّا بأسمائنا وصفاتنا أنزلناه،

إنا بعلمنا وحكمتنا، إنا بعزتنا وعلمنا، إنا بمشيئتنا وتدبيرنا ﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فلقد نزل هذا القرآن من حضرات الأسماء الإلّهية، كما قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢].

فهذا الكتاب نازل من حضرة العزيز وحضرة العليم، والعلم الإلّهي له مظهر في القرآن.

وقال أيضاً: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لمن قال: لا إلّه إلا الله ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ ممن قال: لا إلّه إلا الله ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل: لا إلّه إلا الله ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ الفضل والإنعام الخاص، على من قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصير مَنْ قال: لا إلّه إلا الله، ومَصير مَن لَمْ يَقُلها.

وفي هذه الآية دعوة من الله تعالى لعباده أن يمدوا أيديهم إليه بالمغفرة، فهو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، وهذا ما فهمه سيدنا عمر رضي الله عنه لما أرسل كتاباً إلى أحد الأعراب، وكان كثيراً ما يشرب الخمر، ولَمّا قرأ الأعرابي هذه الآية تاب إلى الله ورجع إليه، وقال عمر رضي الله عنه: هكذا عاملوهم ـ أي: المسرفين ـ ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم. أي: بالغلظة والقسوة [1].

---

(١) كما في (الدر المنثور).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: أنك من نفسك لا يمكن أن تُدرك تفاصيل فضلها، إلا أن نعرفك ونوحي إليك.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ في فضلها ومضاعفة الأجر فيها، وإنّ العمل فيها خير من ألف شهر.

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي: ما نزلناه دفعة واحدة ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومن الحِكَم أيضاً ما بينه سبحانه في قوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فالحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. أي: حُجّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته وشرعه، كما أن تثبيت فؤاده صلى الله عليه وآله وسلم يشتمل نصر الله له، والانتقام ممن يريد إيذاءه صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: لما جهر صلى الله عليه وآله وسلم بدعوته، راح المشركون واجتمعوا، كما قال جابر رضي الله عنه(١): اجتمعت قريش فقالوا: من يذهب إلى محمد فإنه فَرّق جمعنا، وسب آلهتنا، وشتم ديننا، واختاروا رجلاً منهم وهو عتبة بن ربيعة، وقالوا له: يا أبا الوليد أنت لها. وكان من دواهيهم وأفصحهم وأشعرهم. فذهب عتبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا محمد أنت خَيْرٌ أم عبد الله؟ ـ أي: أبوك.

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند تفسيره لأول سورة فصلت، فقد ذكر طرق هذه الحادثة مفصلاً.

فسكتَ عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: أنتَ خير أم عبد المطلب؟

فسكت عليه الصلاة والسلام.

فقال: إن كان هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة ـ على زعمه ـ وإن كنتَ خيراً منهم فتكلم حتى نسمع قولك، فلقد عبت آلهتنا وفرقت جمعنا وشَتَّتَّ أمرنا، حتى طار بين العرب أنَّ في قريش ساحراً، وفي قريش كاهناً وهكذا.

فإن كنت تريد المال جمعنا لك مالاً، وإن كنت تريد الباءة ـ أي: الزواج ـ زوجناك أحسن قريش.

وهكذا عتبة يتكلم، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ساكت، لأن الوحي ينزل عليه، ثم قال له: «أفَرَغْتَ يَا أَبا الْوَلِيد»؟ قال نعم.

قال اسمع: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ـ٣] إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

فلما سمع عتبة هذا الكلام أخذته الرعدة والمهابة وقال: أُنا شدك الله يا محمد إلا سكت عن هذا. لأنهم يعلمون حقاً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما قال شيئاً إلا وصدق.

ثم خرج عتبة وراح بيته، وأبو جهل وجماعته ينتظرونه.

فقال أبو جهل: ما أرى أبا الوليد إلا قد صبأ لمحمد، لقد أعجبه طعامه. ثم إن عتبة جاء إلى قريش وقال لهم: يا معشر قريش لقد علمتم أني

أكثركم مالاً، والله لقد سمعت منه كلاماً ليس هو كلام شاعر، ولا كلام ساحر، ولا كلام كاهن.

يامعشر قريش أجيبوا الرجل وكفوا عنه واتركوه وأمره، واقبلوا هذا نصيحة مني. فراحت قريش تتكلم في عتبة، ولم يؤمن ويعترف بالحق بعدما عرفه.

فكانت هذه الآيات تأييداً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيتاً لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

الحكمة الثانية في نزول القرآن مفرقاً آيات بعد آيات : تلقين الحجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والرد على المشركين.

فمن هذا: لما جعل أمية بن خلف يهزأ ويسخر بالنبي عليه الصلاة والسلام، نزل قوله جلَّ وعلا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الهمزة].

والهماز هو: الذي يسخر بالناس، ويهزأ بهم بالإشارة، سواء بيده أوبعينه.

واللماز هو: الذي يسخر ويهزأ بالناس بلسانه من قدح وشتم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: أن الذي حمله على السخرية والاستهزاء بالناس هو فخره واعتزازه بماله.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: أن ماله سَيَبْقى وَيُخَلِّده.

﴿كَلَّا﴾: زجراً له، فلا خلود ولا بقاء، ولابد من رجوع إذا إلى الله تعالى.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ فمن دخلها حَطَّمَتْه.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ فهي تَطَّلع اطلاعاً علمياً بإطلاع الله لها على قلوب مَن دخلها، وتحرقهم وتحطمهم، وتعذبهم على نسبة ما في قلوبهم من الكفر. والعياذ بالله.

ولا عجب في هذا، فإنّ جهنم لها رؤية ولها اطلاع، ولها كلام كما أخبر الله تعالى عنها: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٦٤] فأثبت لها جلَّ وعلا كلاماً ورؤية واطلاعاً.

وهذا لأنّ جميع ما في الدار الآخرة له حياة وإحساس وإدراك لائق به؛ وإنْ كان هذا موجوداً في الدنيا، إلا أنه سيظهر واضحاً في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فتراب أرض الجنة فيه حياة، وأرض جهنم كذلك، وجميع ما هنالك.

ومن ذلك لما سمع أبو جهل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر فيما نزل عليه شجرة الزقوم، فقال أبو جهل مستهزئاً: أَتروْن ما هو الزقوم، إلا عجوة على الزُبْدِ[1].

وفي رواية: إلا عجوة يُثرب على الزبد، وإن تمكنت لأَتزَقَّمَنَّهُ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: الآثم ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أي: عكَر الزيت ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: اطرحوه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسط جهنم، ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ

(١) كما في (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية الكريمة.

عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ﴾ أي: يا أبا جهل ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣ـ٤٩] أي: كنت عزيزاً كريماً في قومك.

وفي هذا أنواع من العذاب، فهو يُسقى من العكر المغلي الذي يُصهر بطنه، ويقطع أمعاءه في وسط جهنم، تلفحه النار ويصب فوق رأسه من عذاب الحميم، ويقال له إهانة وخذلاناً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فأين عزتك وكرامتك الآن؟

ومن ذلك لما زَعم النضر بن الحارث ـ وهو من شياطين قريش ـ أن هذا القرآن هو من كلام محمد (صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) وما هو إلا حكايات عن السابقين، نقلها وجمعها فهو يقرؤها عليكم، وقال لجماعته: أنا آتيكم بمثل ما جاء به، وراح يحدثهم عن ملوك الروم والفرس وغير ذلك.

فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥ـ٦] أي: قل لهم: ليس هذا أساطيراً، أو تَقَوُّلاً عن السابقين، بل هو كلام رب العالمين أنزله عليَّ ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي: اِعلم أيها النضر بن الحارث أن الله سمع مقالتك، وهو لا يخفىٰ عليه شيء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إن هم آمنوا وتابوا. وفي هذا بيان لسعة رحمته سبحانه، إذ أنه هددهم، وردَّ عليهم، ثم فتح لهم باب التوبة.

وكذلك لما راحت قريش تحاول إيذاء النبي صلى الله عليه وآله

وسلم، واغتياله، أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]وهذا في مكة.

فمهما حاولوا إيذاءك، ومهما لاقيت منهم، فإنك محفوظ معصوم مُؤَيَّدٌ، لأنك بعين عنايتنا فلا يهمنك أمرهم.

وفي هذا تحدٍ صريح للمشركين، بأنهم مهما حاولوا مِنْ قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو إيذائه فلن يستطيعوا، مِمَّا يدل على أن هذه الآيات هي كلام الله تعالى حقاً.

وكذلك فإن المشركين في مكة لما رأوا أنهم كلهم مجتمعون لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجه دعوته، قالوا كما أخبر الله عنهم ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ فقال تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥] أي: قل لهم ذلك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حَقّق الله ذلك، لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، ووقعت غزوة بدر، هُزِمَ المشركون وَقُتِلَ صناديدهم، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ الآية: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

واعلم أنّ غزة بدر وقعت في موقع اسمه بدر، وَبَيْن الموقع والوقعة مناسبة عظيمة، فقد بَدَرَ بدر الإسلام بعد غزوة بدر، وارتفعت راية الإسلام، حتى وقع الخوف والرعب في قلوب اليهود الذين كانوا آنذاك.

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة قال لليهود الذين هم في المدينة: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِكُفَّارِ قريش»(١).

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في (الدلائل) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

فقالت اليهود خبثاً من أنفسهم: يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يغرنك أنك قاتلت أغماراً لا خبرة لهم بالحرب، إنك إذا قاتلتنا عرفتنا أننا نحن الناس.

فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: اليهود ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ﴾ أي: يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي: وهم المشركون ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾ [آل عمران: ١١ـ ١٢] أي: أن الكفار يَرَوْنَ المؤمنين ضَعْفَي عددهم، وهذا لَمّا يستحكم القتال، وبذلك يدبّ الرعب والخوف في قلوب المشركين، أما في أول الحرب فقال تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: في أعين الأعداء.

وهذا حتى يوهم الكفار بقلة عدد المسلمين وَعِدَّتهم؛ فيقدموا على الحرب، حتى إذا استحكم القتال جعل الله الكفار يرون المسلمين ضِعْفَي عددهم، وهذا مما يسبب نصر المؤمنين وهزيمة الأعداء.

وهكذا شَرَّدَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اليهود من المدينة، وَفَرَّق جمعهم، فانتشروا في نواحي الأرض، وكانوا وبالاً على أهل الأرض، وتحقق قوله سبحانه: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ فقد غُلبوا وهزموا.

ومن الآيات النازلة في تثبيت فؤاده صلى الله عليه وآله وسلم، وتأييده بنصر الله وحفظه له، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُحرس في المدينة خوفاً من اغتيال اليهود وأذاهم، فنزل قوله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

ﭐلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه من القبة ـ وكان حولها الحراس ـ وقال: «يَا أيها النَّاسُ انْصَرِفُوا، فَقَدْ عَصَمَنِيْ الله تعالى»[1] وفي هذا تحدٍ لليهود وغيرهم من المنافقين بأن الله قد عصم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أذاهم، فمهما حاولوا فلن يستطيعوا إيذاءه أو اغتياله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: من حيث الحجة والدليل أيضاً، بحيث لو سُئل صلى الله عليه وآله وسلم عن أمور ووقائع غيبية آتية أو ماضية، نزلت الآيات الحقّ في ذلك، وتُبين صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا: ما حصل مع أهل مكة، فلقد حاول كفار قريش أن يكذبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يقدروا وعجزوا عن ذلك، حتى راح بعضهم إلى اليهود في المدينة، وسألوهم عن أمور حتى يسألوا عنها رسول الله وَيكذبوه على زعمهم، فقالت لهم اليهود: سَلوا محمداً عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم عنها كلها فليس برسول، وإن لم يجبكم عنها فليس برسول، وإن أجاب عن بعضها فهو رسول.

سلوه عن رجل طاف الأرض ـ وهو ذو القرنين ـ وَعَنْ فِتْية غابوا عن أهلهم ـ أصحاب الكهف ـ وسلوه عن الروح.

---

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سور المائدة /٣٠٤٩/ (٨/٢١٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وانظر (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية الكريمة.

فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسألوه عن ذلك، فوعدهم بالجواب، ونزل عليه الوحي بالآيات تبين ما سألوه تفصيلاً وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ الآيات [الكهف: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية [الإسراء: ٨٥][(١)].

الحكمة الثالثة في نزول القرآن آيات بعد آيات، ما فيه منفعة الأمة وصلاحها، وهذا كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فلقد بين سبحانه الحكمة في ذلك وهو قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وإنّ الحكمة في قراءته صلى الله عليه وآله وسلم للآيات النازلة؛ عليه أن يتحقق بها الصحابة، ويطبقوا ما جاء فيها من أمر أو نهي، أو خلق أو أدب، أو غير ذلك على حسب الآية، وفي هذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يتدرج بهم في مراتب الكمال والصلاح والإيمان.

وفي هذا قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم كانوا: يقترؤون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل. اهـ [(٢)].

ولهذا فإن القرآن الكريم جاء بالقضايا التشريعية على تدريج، بحيث لا يصعب ولا يشق تطبيقها على الصحابة.

---

(١) كما في سيرة ابن هشام.

(٢) كما في (المسند) (٥/ ٤١٠).

ومن جملة ذلك: كان هناك عادات كثيرة قبيحة مستحكمة في الجاهلية، جاء القرآن بآياته يستأصلها واحدة، بعد واحدة على طريقة التدريج، ومن هذا عادة شرب الخمر، ولقد كان شربها شائعاً ومستحكماً وَقَلَّ من لا يشربها كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

فأوَّل ما أنزل سبحانه في بيان ذلك قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: أن فيها بعض المنافع، إلا أن الأضرار المرتبة على شربها أكثر، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً[١].

فنزلت تلك الآية التي فيها التعريض على وجوب تركه حيث أن ضرره أكثر من نفعه، وقد تركه بعض الصحابة، إلا أن معظمهم بقي على شربه، لأنّه لم يَحْرم تحريماً باتاً بَعْدُ، ثم نزل تحريم شرب الخمرة قبل الدخول في الصلاة، لئلا يَخلط الإنسان في صلاته وهو في حالة سكر، وهذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ أي: بنوع من السكر ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فهناك سَكرة الخمرة وسكرة الدنيا، وربّ إنسان أخذت به الدنيا فراح قلبه وعقله فيها، حتى أنه لا يدري ما يقول في صلاته.

ولقد سأل عمر رضي الله عنه ربه أيضاً فقال: اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل تحريم الخمر تحريماً باتاً، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ

---

(١) كما في (المسند) ١/٥٣) وأبي داود /٣٦٧٠/ والترمذي /٣٠٥٣/ وغيرهما.

وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]. فتليت هذه الآية على عمر رضي الله عنه فقال: اللهم انتهينا انتهينا.

وقوله جلّ وعلا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: إلى متى ستدومون على شربها، وكيف لا تنتهون عنها، وقد رأيتم ضررها وقبحها.

ولا يظن المرء أنه إذا أعطى نفسه ما تتمناه أنه مُكرِمٌ لها، بل هو مُهين لها إذا خالف عمله أوامر الله تعالى.

جاء في الحديث [1]: «ألاَ يا رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ في الدنيا، جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يومَ القِيَامَةِ.

ألا يا ربَّ مكرم لنفسه وهو لها مُهين.

ألاَ يا رُبَّ مُهِيْنٍ لنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ.

ألاَ وإِنَّ عمل الجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، وَإِنَّ عمل النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ» الحديث.

«حَزْن»: صعب.

«بِرَبْوَةٍ»: بمكان مرتفع.

أما طريق النار فهو سهل لأنها بِسَهْوة، وهي الأرض اللينة التربة.

وهكذا فإنّ في نزول القرآن تدريجياً تَدَرُّجاً بالصحابة، للتحقق في أعلى مقامات الإيمان، فلما وقعت غزوة بدر، ونزلت فيها الآيات، وأراهم سبحانه أن النصر حقيقة من عند الله، وتحققوا بقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ

---

(١) أورده ابن سعد في (الطبقات) (٤٢٣/٧)، والبيهقي في (الشعب) /١٤٦١/ (١٧٠/٢) وهو في (الترغيب) للحافظ المنذري في باب الترهيب من الإمعان في الشبع /٣١٦٧/ عن سيدنا أبي البجير رضي الله عنه.

يَنصُرْكُمْ﴾ [القتال: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ثم هناك في غزوة أحد أراهم حقيقة أنَّ من خالف أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه يناله من الضرر والفساد ما يناله. فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢].

* * *

من خصائص ليلة القدر

قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ طائفة بعد طائفة، والروح هو جبريل عليه السلام، إلى عالم الأرض، يتنزلون بأمر الله تعالى، وَخُصّ جبريل بالذكر لأنه ينزل إماماً للملائكة وقائداً لهم.

فكما ورد في الحديث الذي رواه البيهقي[1] وغيره: أنهم ينزلون إلى الأرض ويأتون إلى كل مؤمن ومؤمنة، ما بين قائم وقاعد، وذاكر ومصل لله تعالى، فيسلمون عليهم ـ والملائكة إنما تسلم عن أمر من الله تعالى ـ ويدعون لهم، ويستغفرون لهم، إلا أربعة: مدمن الخمر، وعاق لوالديه، وقاطع الرحم، وبينه وبين أخيه شحناء. أي: بغضاء وعداوة.

قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أمرهم الله به، وهو قوله ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: من رب العالمين على عباده المؤمنين والمؤمنات.

قوله تعالى: ﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: أن أمر ليلة القدر أمر عظيم، فهو منظم مؤقت، يبدأ من أول الليلة بالسلام والرحمة من الله تعالى، وينتهي عند الفجر.

---

(١) في (شعب الإيمان) في باب الصيام، فصل في ليلة القدر /٣٦٩٥/ (٣/٣٣٦) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعزاه المنذري في (الترغيب) إلى أبي الشيخ في كتاب (الثواب).

ولهذا ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَإِذَا صَارَ آخِرَ اللَّيْلِ ـ أي: دنا الفجر ـ نَادَى جِبريلُ عَلَيه السلام بِالمَلاَئِكَةِ: يَا مَعْاشِرَ المَلاَئِكَةِ الرَّحِيْلَ الرَّحِيْلَ.

فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: وَمَاذَا صَنَعَ اللهُ تَعَالى يا جبريل فِي حَوائِجِ المُؤْمِنِيْنَ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيل: إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ ـ أي: نظر رحمة ورضا ـ فَعَفَا عَنْهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ ـ أي: وأجابهم على ما سألوا ـ إِلاَّ أَرْبَعَة». كما تقدم[1].

وفي هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[2] أي: إيماناً بالله تعالى، وإيماناً بأن الله تعالى وعد على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الأجر، وحباً بالله تعالى، لأنه سبحانه يُحب من المؤمن أن يعبده في تلك الليلة، فَمَنْ فعل ذلك امتثالاً لأمر حبيبه أعطاه ما يحبه.

ومعنى: «احْتِسَاباً» أي: ادخاراً للأجر عند الله تعالى.

وأما موعد ليلة القدر: فهو في العشر الأخير من رمضان، ولاسيما في الأوتار[3]، وعلى الإنسان أن يترقبها في هذا العشر معتبراً أن كل ليلة منه هي ليلة القدر، وليغتنمها بالطاعة والعبادة.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر الأخير أيقظ أهله

---

(١) ص /٣٠٣/.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونِيَّة /١٩٠١/ (٤/١١٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان /٧٦٠/ (٢/٨٤٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر الفتح (٤/٢٦٠)، ومسلم (٣/١١٨٩).

وشد مئزره[1]، وقال: «الْتَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَواخر»[2].

أما **أماراتها السابقة** كما ورد في الحديث[3]: أنه تكون الليلة هادئة ساكنة، ولها نور، ويظهر هذا بعد المغرب ويستمر إلى الفجر، ولا يشعر بهذا إلا من كان لطيف البصيرة.

أما **علامتها المتأخرة** وهي بعد طلوع الشمس: كما ورد في الأحاديث الصحيحة[4]: أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاعَ لها ـ أي: لا شعاع قاهراً قوياً لها كعادتها ـ والسبب في ذلك أنه لما تنزلت الملائكة في تلك الليلة بأنوارهم وأسرارهم وروحانيتهم، فامتلأت الأرض بأنوارهم، فلما طلع نور الشمس طلع وهناك نور عمَّ وجه الأرض، لذلك أصبح شعاعها بالنسبة للنور الموجود ضعيف.

وفي هذا فائدة لمعرفة تلك الليلة، لأن اليوم الذي يأتي بعد تلك الليلة له فضله وشأنه وخيره، لأن الخير الذي يتنزل في تلك الليلة تعم آثاره على ما وراء تلك الليلة.

ولهذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم يُكثرون من العمل الصالح في اليوم الذي يلي ليلة القدر، لينالوا من الأسرار والمضاعفات على حسب ذلك اليوم.

وجاء في الحديث[5]: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضانَ خَمْساً:

---

(١) كما في (صحيح) البخاري /٢٠٢٤/، ومسلم /١١٧٤/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.
(٢) تقدم تخريجه ص /٢٨٣/.
(٣) ينظر (مجمع الزوائد) (١٧٨/٣).
(٤) ينظر (صحيح) مسلم (١١٩٠/٣).
(٥) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) /٣٦٠٣/ عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

أَمَا وَاحِدَةً فَإِذَا كَانَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ نَظَرَ الله تعالى إِلَيْهِم. وَمَنْ نَظَرَ الله إِلَيْهِ لمْ يُعَذِّبه أبداً.

وَأَمَا الثانِيَةُ: فَإِنَّ خلُوفَ أَفْواهِهِم حِينَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيْحِ المِسْك.

وأَمَا الثَّالِثَةُ: فإنَّ المَلائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّ يوم وَلَيْلَةٍ.

وأما الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ الله تَعَالى يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا: اسْتَعِدِّيْ وَتَزَيَّنِيْ لعِبَادِي، أَوشَكَ أَنْ يَسْتَرِيْحُوا مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلى دَارِي وكَرَامَتِي.

وأما الخَامِسَةُ: فَإِذَا كَانَ آخرَ لَيْلَة غَفَرَ الله لَهُمْ جَمِيْعَاً».

قَالَ رَجُلٌ: يَا رسُولَ الله أَهيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟

قال: «لاَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى العُمَّالِ يَعْمَلُونَ حتَى إِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُم».

وهي ليلة العيد ولذلك يسمى يوم العيد يوم الجائزة، لأن الصائمون يعطون جوائزهم[1].

فالجائزة الأولى أُعطوها آخر ليلة وهي المغفرة، وأعطوا الجائزة الثانية وهي القبول والرضا من الله في يوم العيد، الذي يَعُود الله فيه على عباده بالبر والرضا والقبول والمغفرة.

ولذلك شُرعت صلاة العيد، حتى يقابل المؤمن التجلي الإلهي بالصلاة والدعاء.

وليحرص المؤمن على هذه المواسم بالتوبة النصوح إلى الله تعالى،

---

(١) ينظر (مجمع الزوائد) (٢/٢٠١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] أي: كاملة، كالثوب الناصح الذي لا نقص فيه ولا عيب ولا ثقب.

فالتوبة النصوح هي: التوبة العامة الشاملة للأجزاء كلها: من ذنوب السمع والبصر واليد واللسان والرجل وسائر الأركان.

ومن اكتسى حلة التوبة النصوح العامة الشاملة لسائر أجزائه، كان جزاؤه كما قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: كلها ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾[التحريم: ٨].

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين. آمين

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

من فضائل شهر رمضان

نزول القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى فضل شهر رمضان، وأنّ هذا الشهر هو الشهر الذي أنزل الله تعالى فيه القرآن، وإن نزول القرآن في هذا الشهر ترك فيه آثاراً، لأن القرآن نزل وله روح، ونزلت معه أسرار وأنوار، ونزلت معه رَحَمَات وملائكة الله وبركاته، وجميع هذه حين نزلت تركت أثرها في الشهر الذي نزل فيه هذا القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

وإن نزول القرآن الكريم بروحه وبأسراره وأنواره، وبرحماته وبركاته، وبشفائه وخيراته، قد ترك أثراً في هذا الظرف وهو الزمن.

وهذا لأنّ التنزلات القرآنية تترك أثراً في ظروف الأزمنة، كما أن التجليات الإلهية تترك أثراً في الأوقات، وكذلك النفحات الإلهية لها آثارها في أوقاتها، ومِنْ هذا ما جاء في الحديث[1] في بيان فضل وقت السحر،

---

(١) عند البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة في آخر الليل /١١٤٥/ (٣/٢٩)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب والذكر آخر الليل /٧٥٨/ (٢/٨٤٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنّ أوقات الأسحار لها فضل على غيرها، لأنّ الله تعالى يتجلى فيها على عباده، تنزل رحماته وأسراره وأنواره إلى السماء الدنيا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيْمٍ وَلاَ ظَلُوم».

ولهذا كان لوقت السحر فضل على غيره من الأوقات، لأن الله تعالى يتجلى فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والإحسان والعطاء، وتتنزل رحماته وبركاته سبحانه إلى السماء الدنيا، حتى ينعكس أثرها على عالم الأرض.

فمعنى هذا أنّ تنزلات الرحمات وتجليات الحق لها آثارها في الأوقات، كذلك أيضاً النفحات الإلّهية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لِربِّكُمْ فِيْ أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعل أحدكم أنْ يُصِيْبه منها نَفْحَةً لاَ يشقىٰ بَعْدَهَا أَبَدَاً»[1].

فلله تعالى نفحات ينفح بها عباده المؤمنين، فتنجذب قلوبهم إلى الله تعالى، إذ تمر هذه النفحة الإلّهية على قلب المؤمن فيشتمّها فيستطيبها، فيتعشق بها، فينجذب قلبه إلى الله تعالى، ومتى انجذب قلب المؤمن إلى الله تعالى لا يشقى بعدها أبداً.

فعلى المؤمن أن يتعرض لنفحات الحق على مدى الزمن، ومِنْ أعظم أوقات النفحات الإلّهية إنما هو شهر رمضان المبارك، إذ أنه شهر رحمات وبركات وخيرات، نزل فيه القرآن بروحه ونوره وأسراره وبركاته، وترك أثراً في الزمن إلى أبد الآبدين.

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط والكبير) عن سيدنا محمد بن مسلمة رضي الله عنه كما في (مجمع الزوائد) (١٠/٢٣١).

ولهذا بَيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لهذا الشهر تجلياً خاصاً ورحماتٍ إلهية خاصة، فقال: «أَتَاكُمْ شَهْرُ رَمَضانَ، شَهْرُ بركة، يَغْشَاكُم الله تَعالى فِيهِ» أي: يتجلى عليكم «فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ الخَطَايَا، وَيَسْتَجِيبُ فيه الدُّعاءَ».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَرُوا الله مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْراً، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فيه رَحْمَةَ اللهِ عز وجل»[(١)].

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ يعني: أن هذا القرآن لما نزل نَزَل وله رُوح تحيا بها الأرواح، وله نور تستنير به العقول والقلوب، وله رحمات وبركات، وقد نزل بهذا القرآن أفضل ملك مع حاشية كبرى من الملائكة لا يعلمها إلا الله تعالى.

فلقد نزل هذا القرآن في أفضل زمن، على أفضل قلب، وهو قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نزل به أفضل ملك وهو جبريل عليه السلام، ونزل في أفضل البقاع وهي مكة والمدينة وما حولهما، فَمِنْ هنا تفهم فضل هذا القرآن، فقد نزل في أفضل ظرف زمني، وهو شهر رمضان، على أفضل مخلوق وأعظم قلب وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي خُصَّ من بين القلوب كلها، وعن قلبه الشريف استنارت القلوب واستمدت.

وإن لهذا القرآن روحاً تحيا به الأرواح الإنسانية كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] ومن شأن الروح أن بها

---

(١) الحديث رواه الطبراني في (الكبير) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كما في (مجمع الزوائد) (٣/١٤٢).

الحياة، ومتى أطلق ذكر الروح دل على الحياة، فروحك الإنسانية يحيا بها جسمك، ولكن لا بد لروحك الإنسانية من روح أخرى تحيا بها، وما هذه الروح إلا الروح القرآني، التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا حييت روحك فأنت حَيٌّ حياة الأبد، وإذا ماتت روحك فأنت ميت مِيْتة الأبد، فالمؤمن هو الذي حييت روحه بالقرآن الذي جاء بالإيمان، ومن آمن بالقرآن أحيا الله روحه، ومن أحيا الله روحه فلا يموت أبداً ولو مات جسمه. ومن لم يُؤمن بالقرآن بل أعرض عنه وكفر به، فإنّ روحه ميتة ولو كان جسمه حياً، وإنّ موتته موتةٌ أبدية كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠ـ ٢١].

فالكفار أموات لا من حيث الجسم بل من حيث الروح، لأنهم فقدوا روح القرآن فماتوا ميتة الأبد. أما المؤمنون فهم أحياء غير أموات، كما هو مفهوم المقابلة.

وَمتى سرت روح القرآن في قلب وروح؛ صار هذا القلب والروح حياً.

وإذا لم يتقبل صاحب القلب روح القرآن لِكبْر نفس، أو عناد منه، فَرَدَّ واستفرغ روح القرآن عاد للموت الأبدي.

وقد قال تعالى في الكفار: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ [الحجر: ١٢ـ١٣] أي: لا بد لهذا القرآن أن يدخل في كل قلب يسمعه صاحبه، ومتى دخلت روح القرآن في القلب يجب على القلب أن يحيا، لكن إذا استفرغ صاحب القلب ما شربه قلبه، ورده عناداً وكبراً: فإنّه لا يستفيد شيئاً من القرآن.

كما لو أنك قَدَّمت ماءً بارداً لإنسان عطشان منصفٍ، فشربه وتركه يستقر في جوفه، حتى رُويَ وانتعشت أركان جسمه، ويقال عن هذا الإنسان: إنه قد رُوي وعادت إليه الحياة.

وهناك إنسان آخر عطشان، ولكنه منكر معاند جبار، فتقول له: اشرب هذا الماء البارد، وأنت محتاج إلى هذا الماء وبه حياتك، فأعرض وعاند، فإذا قلت له: لا بد أن تشرب ولو بالقوة، فشرب ولكنه مِنْ كبر نفسه وعناده راح يستفرغ ما شرب، وَرَدّ ما دخل إلى معدته، فلم ينفعه الماء شيئاً.

وكذلك الروح القرآنية فهي تسري في كل قلب يسمع هذا القرآن: فأما المؤمن فأنصف واعترف وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وذاق حلاوة القرآن، وأدرك حقِّيَّتَهُ.

وأما المعاند المعارض الذي سمع القرآن، ودخل في قلبه، وذاق حلاوته، ولكنّ كبر نفسه وعناده ردّ هذا الذي دخل في قلبه فلم يؤمن، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي: نُدخل القرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فينبغي أن يؤمنوا، ولكنهم كما قال: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: لكبر نفوسهم وعنادهم، ولو أنهم أنصفوا لآمنوا لأن الماء البارد يَروي الشارب منه.

وَمِنْ هنا لَمَّا سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه، وكثير من الصحابة رضوان الله عنهم لمّا سمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل في قلوبهم فآمنوا، بينما هناك أبو جهل وغيره من المشركين سمعوا القرآن، وذاقوا حلاوته بقلوبهم، وأدركوا حقِيَّتَهُ، إلا أنهم ردّوه وأبوا أن يعترفوا، فلم يؤمنوا كِبْرَ نفسٍ وعنادٍ.

ومن ذلك: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجت يوماً ـ أي: حين كان في الجاهلية ـ أَتَعَرَّضُ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأذى، فرأيته دخل المسجد فتبعته، فوقف يصلي صلى الله عليه وآله وسلم، فقرأ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، فقلت في نفسي هذا كلام شاعر. فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر السورة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾. فقلت في نفسي هذا كلام كاهن. فتابع صلى الله عليه وآله وسلم قراءته: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال عمر رضي الله عنه: فوقع الإسلام في قلبي منذ سمعت هذه الآيات[(١)].

ثم إنه مرَّ على أخته ـ وكانت قد أسلمت قبله مع زوجها ـ فسمع هيلمة ـ أي: صوت قرآن خفي من وراء الباب ـ فطرق الباب، فأخفوا صحيفة القرآن، فدخل: فقال ماذا كنتم تفعلون؟ فعرَّضوا له، فبعد ذلك طلب الصحيفة.

فقالت له أخته: لا تمسها لأنك رجس، وهذا لا يمسه إلا المطهرون، قم فاغتسل وتوضأ. وهذا يدلك على أن الصحابة كان معروفاً عندهم أنه لا يجوز أن يمس المصحف مَنْ هو محدث: حدثاً أصغراً أو أكبراً، وأنّ هذا الأمر كان معروفاً بين نساء الصحابة ورجالها رضوان الله عليهم، فلا تدع للشيطان سبيلاً إليك بفهم آخر.

فقام عمر رضي الله عنه فاغتسل وتوضأ، فأعطته الصحيفة فقرأ في وجه الصحيفة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فاهتز قلبه، ثم تلا: ﴿طه (١) مَآ

---

(١) انظر الخبر في (المسند) للإمام أحمد (١/١٧).

أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ١ـ٥].

فكلما مرَّ على اسم من أسماء الله تحرك قلبه ودمعت عيناه.

ثم قلب الصحيفة فقرأ فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] إلى قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحديد: ٧].

ثم خرج وقصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأعلن إسلامه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١].

فقد دخل القرآن قلب عمر رضي الله عنه، ولم يكن معانداً أو معارضاً، بل كان منصفاً تقبل روح القرآن ولم يردها، فآمن وأسلم.

وكذلك عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فقد روى أحمد في مسنده[٢] عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً أمام حجرته، فمر عثمان بن مظعون وكان مشركاً، فجعل يهزأ ويومي إلى رسول الله بالهزء، فأشار صلى الله عليه وآله وسلم أن اجلس فجلس، فقرأ عليه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ الآية [النحل: ٩٠].

قال: عثمان فدمعت عيني، وطار لها قلبي، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما ذهب وفد من الصحابة مهاجرين إلى الحبشة ودخلوا على

---

(١) انظر الخبر في سيرة ابن هشام.

(٢) (١/٣١٨) وانظر (مجمع الزوائد) (٧/٤٧).

النجاشي، وقال النجاشي لسيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: هل معك شيء مما نزل على هذا النبي؟ قال: نعم، قال: فأقرأه عليَّ، وكان النجاشي في قصره وحوله البطارقة والقسوس، فقرأ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤] فجعل النجاشي وأصحابه ـ وكانوا من البطارقة ـ جعلوا يبكون حتى ابتلت لحاهم من دموعهم وآمنوا، وقال النجاشي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيت هذا النبي حتى أحمل نعليه[١]، وفي رواية: حتى أقبل نعليه.

وهناك من سمع القرآن وذاق حلاوته ولكنه لم يعترف ولم يؤمن جحوداً وعناداً وتكبراً.

ومن هؤلاء أبو جهل، والوليد بن المغيرة وغيرهما، ولما اجتمع أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق، وراحوا يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الليل، وهو يقرأ في بيته صلى الله عليه وآله وسلم، وكلٌ منهم يَظن أنَّ أحداً لم يره، حتى جمعتهم الطريق، فتلاوموا وتواصوا أن لا يعودوا لسماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنهم عادوا في اليوم الثاني والثالث فاجتمعوا فقالوا له: يا أبا الحَكَم ـ وكانوا يسمونه أبا الحَكَم ولكن الإسلام سماه أبا جهل ـ فقالوا له: ما تقول فيما سمعته من محمد؟ أي: هل هو شعر أم سحر أم كهانة؟

---

(١) ينظر (المسند) للإمام أحمد (١/ ٤٦١) و(دلائل النبوة) للإمام البيهقي (٢/ ٢٩٨و٣٠٠).

فقال: لا. فقالوا: إذاً ما هو ولِمَ لا تؤمن به؟

فقال: يا هؤلاء تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ـ أي: أن القضية هي أن محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن هذا القرآن حقاً كلام الله، ولكن الذي يمنعني من الإيمان جهلي وجاهليتي وعصبيتي ـ فأطْعَمَتْ بنو هاشم فأطعمنا، وسقوا فسقينا ـ أي: الحجيج ـ وأجاروا الضعفاء فأجرنا، حتى كنا كفرسي رهان ـ أي: في الفضائل ـ ثم افتخرت علينا بنو هاشم فقالوا: فينا نبي ينزل عليه الوحي من السماء، قال أبو جهل: فمن أين نأتي بنبي؟[1].

وما درى هذا المعاند المتكبر لو أنه أنصف وآمن ودخل تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنال عز الدنيا والآخرة، ويكون في الفضل كغيره ممن آمن، ولكنه أبى واستكبر وأعرض، مع أنه عرف صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: لا يعتقدونك كاذباً يا رسول الله، بل يعتقدونك صادقاً، ولكنهم يجحدون ذلك كبراً وعناداً، لأنّ الجحود لا يكون إلا بعد علم.كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

ونسأل الله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا إتباعه.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: بروحه ونوره وأسراره، فترك أثراً في الظرف النازل فيه، ففي رمضان تحيا القلوب والأرواح بتلاوة القرآن الكريم.

---

(١) ينظر الخبر في سيرة ابن هشام.

كما أنه نزل بنوره كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلقد جاء القرآن بنور يُنَوِّر القلب وينور العقل، ينور المدارك والحواس، وينور الوجه، وذلك لما احتوى من أوامر وعقائد وأخلاق وآداب، فمن تحقق بها استنار قلبه وسمعه وبصره وعقله ووجهه.ومن فَقَدَ التحقق بالإيمان والعمل بالقرآن فإن الظلمة تحيط به وتعلوه نسأل الله العافية.

وقد نَبَّه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حقيقة نور القرآن للقلب والبصر والمدارك، في الحديث الذي رواه أحمد في (مسنده)(١) وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا أَصَابَ أحداً قط هَمٌّ ولاَ حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْعَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي» ـ وفي رواية: «بصري» ولا بأس أن تجمع بينهما لعموم الفائدة ـ «وَجَلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي: إِلاَّ أذهب اللَّهُ هَمَّه وحزنه، وأبدله مكانه فَرَجاً» الحديث.

فتأمل في هذا التوسل الكبير بأسماء الله كلها، على أمر عظيم، وهو أن يجعل الله تعالى القرآن العظيم ربيع قلبك، وإذا ربَّع قلبك بالقرآن فإنه سيثمر حقائق الإيمان، وفعل الصالحات والقربات، كما إذا ربعت الأرضُ بالمطر، فإنها ستخضر وتزهر وتثمر.

---

(١) (١/٣٩١) وهو عند البزار وأبي يعلى كما في (مجمع الزوائد) (١٠/١٨٦)، وهو عند ابن حبان /٩٧٢/، والحاكم (١/٥٠٩).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَنُورَ صَدْرِي وبَصَرِيْ» أي: نوراً لمداركي وحواسي، حتى تكون مستنيرة بنور القرآن.

وإذا عرفت أن لهذا القرآن روحاً ونوراً تحيا به الأرواح، وتستنير به الظواهر والبواطن، فاعلم أنه قد نزل بروحه ونوره وعلومه وأسراره على أعظم قلب آدمي، وهو قلب السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال فيه سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] أي: على قلبك يا رسول الله من بين القلوب كلها، فلا قلب يستطيع أن يحمل هذا القرآن بما فيه إلا قلبك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن قلبك فيه القابلية والاستعداد الكامل، أما غيرك فلا يستعد لذلك.

ولذلك فإن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم القلوب، كما قال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١ـ٢].

والمراد هنا بقاف قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمقابلته بالقرآن المجيد، النازل على قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، وعن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم استفاضت واستمدت القلوب.

يدلك على هذا ما ذكره سبحانه بقاف، قلب رسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى في سورة ﴿قٓ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: إن في ذلك القرآن ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فمن كان له قلب حَيٌّ استفاض عن قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واستنار عن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، وأصغى وتقبل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أحيا الله قلبه.

فلقد أقسم سبحانه بالمَنْزِلِ وهو قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والنازل عليه وهو القرآن المجيد، وذلك للمناسبة والارتباط الوثيق بينهما.

فما أعظم قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!! وأوسع نوره، حتى وعى واتسع لهذا القرآن المجيد، بعلومه وأسراره وأنواره!

نعم إنّ قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القلب الأول، وهو القلب الجامع، وهو القلب المنير المنور لكل قلب، حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقد وصف سبحانه هذا القرآن بأنه القرآن المجيد أي: له مجده وعلوه وفضله وشرفه في تلاوته، وفي معانيه، وفي إعجازه، وفي هديه وأحكامه، وفي شريعته، فله المجد على جميع الشرائع، وله الفضل على بقية الكلام، كما جاء في الحديث[١]: «وفَضْلَ كَلاَمِ الله عَلَى سَائِرِ الكَلام كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِه».

فلا وجه للنسبة بين كلام الخالق وكلام المخلوق، لأنّ له المجد والتفوق على جميع الكلام، في تلاوته وأحكامه، وهديه وإعجازه.

وقد نزل القرآن الكريم في أفضل ليلة من شهر رمضان، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وبدأ نزول القرآن فيها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ونزل كله جملةً واحدة إلى بيت العزة في السماء الأولى في ليلة القدر أيضاً، وبيت العزة هو قبلة أهل السماء الدنيا، إذ أنّ لكل سماء قبلة كما أن قبلة أهل السماء السابعة هو البيت المعمور، وأما قبلة أهل الأرض فهي

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن وفضائله /٢٩٢٧/ (١٢٥/٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الكعبة المشرفة. ونسأل الله أن يجعلها قبلتنا أحياءً وأمواتاً، إذ هناك من تكون قبلته حسب الظاهر الكعبة، ولكنه في القبر يُحول إلى غير جهة الكعبة؛ بسبب نفاقه أو ارتيابه في الإيمان. ونسأل الله العافية.

وجميع هذه القِبَل متوازية فوق بعضها، أي: على مستقيم واحد، فلو صَعَدت روح مؤمن من سطح الكعبة على خط مستقيم لانتهت إلى بيت العزة في السماء الأولى، وهكذا إلى قبلة كل سماء حتى البيت المعمور.

فلقد نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، إلى أشرف بقعة في السماء الدنيا وهي بيت العزة، أما نزوله إلى عالم الأرض فكان في مدة ثلاث وعشرين سنة، على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بدأ تنزيله في ليلة القدر أيضاً، لأنّ القاعدة أنّ جميع الأمور التي تَظهر في الأرض لا بد أن تجتمع في السماء الأولى، ثم تظهر أحكامها في عالم الأرض.

وجاء في الحديث[1]، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان قد حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، في كل سنة شهراً، وجاء في رواية ابن إسحاق: كان يخلو في غار حراء شهرَ رمضان.

وكان غار حراء مُطلاًّ على الكعبة، وإنَّ النظر إليها عبادة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يَهجر قومه من ضلالهم وشركهم ويعبد الله تعالى، حتى إذا تم له أربعون سنة، وجاء شهر رمضان، جاءه الحق، فجاءه المَلَك، وقد نُبئ صلى الله عليه وآله وسلم على تمام الأربعين، وذلك في شهر ربيع الأول، لأنه ولد في شهر ربيع الأول، وقد بدأت نبوته بالرؤيا الصادقة، والبشارات الصالحة، إلى أن جاء رمضان ذلك العام، وأتاه جبريل عليه السلام، وذلك بعد ربيع بستة أشهر.

---

(١) في (صحيح) البخاري، كتاب بدء الوحي /٣/ (١/٢٢) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم /١٦٠/ (١/٣١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

فقال له: اقرأ، قال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قال: «فغطني» أي: ضمه إليه، وهذا الضم إنما هو إفاضات يُفيض جبريل على رسول الله ما ألقاه الله عليه من أسرار وأنوار، وعلوم ومعارف، حملها جبريل من حضرة الله تعالى وأفاضها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّ في الإفاضات معاني لا تحيط بها العبارات.

«ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثانيةَ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقالَ: اقرأ. فقلتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَالِثَةَ، ثمَّ أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾» [العلق: ١] أي: أنت ما تقرأ بدراسة وعلم سابق، إذ أنك أمّيٌّ، بل اقرأ باسم ربك الذي ربّاك، فأنت تقرأ باسم الله تعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: خلق كل شيء ثم ذكر أشرف المخلوقات﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: فالذي خلق هذا الإنسان الفصيح العاقل من علقة، وطوّره، لهو قادر على أن يُفيض عليك يا رسول الله، ويعلمك العلوم والمعارف؛ وإن كنتَ أمّياً بالظاهر.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣] أي: أن الله تعالى كريم على خلقه كلهم، ولكنه عليك يا رسول الله أكرم.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] أي: علم غيرك بالقلم، فهو قادر على أن يعلمك بما هو أعظم، وبواسطة أفضل من القلم، وهو جبريل عليه السلام.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وهذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم توارد الوحي في فترة ثلاث وعشرين سنة.

فضائل ليلة القدر
وفضائل تلاوة القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يُبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة فضل شهر رمضان، الذي فرض الله تعالى على هذه الأمة أن تصومه، وذلك أنه سبحانه فرض على هذه الأمة أن تصوم أفضل شهر في السنة وهو: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾.

فلقد بَيّن سبحانه أن هذا الشهر هو ظرفٌ لتنزل القرآن فيه، فلقد أنزل الله تعالى القرآن بأنواره وأسراره وبروحه ومعارفه، وبمعانيه وهديه، أنزله في هذا الشهر، بل في أفضل ليلة من هذا الشهر وهي ليلة القدر، ولهذا بين الله تعالى فضلَ ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

فلقد أنزل سبحانه القرآن في أفضل شهر وهو شهر رمضان، وفي أفضل ليلة من شهر رمضان، وهي ليلة القدر؛ التي هي أفضل الليالي، أنزله على أفضل خلق الله وهو سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، نزل به أفضل الملائكة، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ

قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] وهو جبريل عليه السلام، ونزل في أفضل شهر وفي أفضل الليالي جملةً واحدة إلى السماوات ثم إلى بيت العزة في السماء الأولى، وأشرقت أنواره على الأرض، ثم بدأ ينزل أيضاً في ليلة القدر على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أي: بأنواره ورحماته ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: أنها ليلة ذات قدر وفضل، ولها شأن ومقدار كبير، وقد وصفها سبحانه في سورة الدخان بقوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١ـ٤].

فليلة القدر هي ليلة قدر وفضل وشرف وفخر ومضاعفة أجر، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: أنّ العمل الصالح فيها خير من العمل الصالح في ألف شهر، وكذا التسبيحة فيها خير من التسبيحات في ألف شهر، وهكذا الأعمال الصالحة تُضاعف في تلك الليلة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: ليست هي كألف شهر بل أعظم، وإنما كانت هذه المضاعفة في هذه الليلة لأن الله تعالى وصفها بالبركة بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] فهي ليلة مباركة، يبارك الله في مضاعفة الأعمال أضعافاً كثيرة؛ تفوق العمل في ألف شهر، لأن فيها بركة لا يعلم حدَّها إلا الله تعالى، فلما صادف عمل المؤمن تلك الليلة؛ صادفَ ليلة فيها بركة ومضاعفة كثيرة لا يعلم حدها إلا الله تعالى.

ألا تراك إذا أخذت حبة حنطة وزرعتها في أرض كثيرة الماء، طيبة الهواء، فإنها تعطي أضعافاً كثيرة، أما إذا زرعتها في أرض أقل خصوبة

وماءً فإنها تعطي أضعافاً لكن ليست كتلك الأرض، ومِنْ هنا تفهم سرّ مضاعفة الأجر إلى أضعاف كثيرة في ليلة القدر، إلى ما هو خير من ألف شهر، لأنه وافق ليلة ذات قدر وفضل، وفيها بركة من رب العالمين لا يعلمها إلا الله تعالى.

وهذا من باب الفضل والمِنّة على هذه الأمة، أن الله تعالى تفضل على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لما كانت أعمار هذه الأمة أقصر من أعمار السابقين من حيث الجملة، تَفَضَّل سبحانه على هذه الأمة فأعطاها ليلة في كل سنة؛ إن عملوا فيها صالحاً فقد عملوا عملاً أعظم من العمل في ألف شهر.

فلا تُضَيِّع نصيبك من تلك الليلة أيها المؤمن، والتمس تلك الليلة في العشر الأخير من رمضان، من ليلة الواحد والعشرين إلى ليلة العيد.

وعلى هذا فليلة القدر ليلة مقدار وفضل، دل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ كما أنها ليلة تقدير للأمور والحوادث الكونية، لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أي: فيها يُفصل عن اللوح المحفوظ إلى صحف الملائكة في السماوات، حتى السماء الدنيا كلُ أمر محكم تدبيره وتنفيذه.

وقد فهم كثير من السلف أن ليلة القدر ـ أي: المقدار والفضل، والتي هي في العشر الأخير من رمضان ـ هي ليلة التقدير كما تقدم بيانه، إلاّ أن ليلة التقدير قد تفترق عن ليلة القدر في رمضان إلى ليلة أخرى، غالباً ما توافق ليلة النصف من شعبان، كما ورد عن بعض الصحابة بيان ذلك، وقد تكون في أحد ليالي السنة، إلا أنّها غالباً ما تكون في ليلة القدر التي هي في رمضان، فتكون ليلة قدر وتقدير.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ ففي ليلة القدر مضاعفات للعمل وتنزلات ملكية، وانفتاح باب الروح الملكوتي الرباني على عالم الدنيا الشهودي، فترتفع الحجب، ويتصل عالم الشهود بعالم الغيب، وعالم الخلق بعالم الأمر، وعالم المُلك بعالم الملكوت، دل عليه قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: تتنزل تدريجياً ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: أن تنزلهم بأمر من الله، ولأجل أيِّ شيء تنزل ملائكة الله في تلك الليلة؟ قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: من أجل كل أمر أمرهم الله بتنفيذه، فتتنزل ملائكة بعد ملائكة، وجماعات بعد جماعات إلى عالم الأرض، من أجل تنفيذ كل أمر أمرهم الله بتنفيذه. وما هو ذلك الأمر؟!

قال تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي: أن هذا الأمر هو السلام، وهو أن يُبلغوا من حضرة القدوس السلام إلى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فتتنزل الملائكة بقيادة جبريل عليه السلام، وتأتي إلى بيوتات المؤمنين والمؤمنات، كما جاء في الحديث[1] «فَيأْتُونَ إلى المُصَلِّينَ وَالعَابِدين، والدَّاعِينَ والذَّاكِرين الله تعالى، وَيُبَلِّغُونهم سلاَمَ الله تعالى، وَيُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعائهم» أي: يؤمِّن جبريل ومن معه من الملائكة، وإذا أمَّن مَلك واحد على دعائك فهو مجاب، فكيف لو أمن جبريل ومن معه !.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا قال الإمَامُ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولوا: آمينَ، فإنه من وَافَقَ قَوْله قَوْلَ الْمَلاَئكَةِ غُفِرَ لَهُ ما تقدم من ذنبه»[2].

---

(١) تقدم تخريجه ص /٣٠٣/.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب جهر المأموم بالتأمين /٧٨٢/ (٢/٢٦٦)=

وذلك لأن تأمين الملائكة مجاب، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكة فاسألوا الله من فضله فَإِنَّها رَأَت مَلَكاً»[1]. أي: ادعوا الله وسلوه عند صياح الديك، فإنه رأى ملكاً، ومن دعا بحضرة مَلَكٍ ـ أي: بحضوره وشهوده ـ أَمَّن الملك على دعائه، وتأمينه مجاب فافهم.

وقد ورد في (شعب الإيمان) للبيهقي، وفي كتاب الثواب لأبي الشيخ[2] في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: الملائكة مع جبريل عليه السلام، أنهم ينزلون إلى الأرض، ويأتون إلى بيوت المؤمنين ويسلمون على العابدين، ويُؤَمِّنون على دعائهم، حتى طلوع الفجر، لأن الله تعالى يقول: ﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: أن ليلة القدر ليست محدودة بجزء من الليل، بل إنما هي ممتدة من أول الليل إلى طلوع الفجر، وذلك حتى لا يفوت المؤمن حَظُّهُ منها «فإذا طلع الفجر نادى جبريل عليه السلام: يا معاشر الملائكة الرحيل الرحيل» أي: فليرجع كل منكم إلى سمائه.

«فتقول الملائكة: وماذا صنع الله تعالى يا جبريل في حوائج المؤمنين من أمة أحمد صلى الله عليه وآله وسلم»؟

أي: أنه في تلك الليلة قد تَوجّه المؤمنون إلى الله بحاجاتهم، وطلبهم المغفرة والرضوان من الله تعالى، ولهم حاجات في الدنيا والآخرة.

=واللفظ له، ومسلم في كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين /٤١٠/ (٥٨٤/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه الإمام أحمد (٣٢١/٢) والبخاري في كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم.. /٣٣٠٣/ (٣٥٠/٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة /٢٧٢٩/ (٢٦١٧/٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخرجه ص /٣٠٣/.

«فيقول جبريل عليه السلام: إن الله تعالى نظر إليهم ـ أي: نظرة رضا ـ فعفا عنهم، وغفر لهم جميعاً إلا أربعة: مدمن خمر، وعاق لوالديه، وقاطع رحم، ومشاحن» أي: بينه وبين أخيه المؤمن شحناء وبغضاء، فلم ينل هؤلاء رحمة الله ومغفرة الله تعالى في تلك الليلة.

وإن في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ بياناً وإعلاناً لشرف هذا القرآن وعلوه، وأنه أفضل الكتب الإلهية، ولذلك أنزله الله تعالى في أفضل الأشهر، وفي أفضل الليالي، على أفضل خلق الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بواسطة أفضل ملك وهو جبريل عليه السلام، وقد نزل في أشرف البقاع وهي مكة والمدينة وما حولهما.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أنْ يُعَظِّمَ القرآن الكريم، لأن له الشرف الأعلى والأكبر، ومن جملة تعظيمه اتباع أوامره، واجتناب مناهيه، والعمل بهديه، وهذا هو تعظيم المعاني القرآنية، وعلى المؤمن أيضاً أن يعظم القرآن بحروفه ونصوصه وآياته، فالمصحف مكرم معظم يجب على المؤمن أن يعظم صحف القرآن، لأن الله تعالى قال في وصفه وبيان علوه وشرفه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ـ١٦].

فالصحف القرآنية محترمة مكرمة في السماوات بين أيدي الملائكة، ويجب أن تكون كذلك في عالم الأرض.

ويقول تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ـ ٣] فالصحف القرآنية مطهرة مكرمة معظمة، يجب توقيرها واحترامها.

وليحذر المؤمن أن يتهاون في تعظيم المصحف، أو أيّ صحيفة كتب فيها آية من آيات الله، أو اسم من أسمائه سبحانه، أو أسماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليحذر المؤمن أن يُلقي ذلك في الأرض، فإنه إذا رأى ذلك أو فعله ورضي به، فقد خرج عن الإسلام[1]، ويأثم إثماً كبيراً إذا رآها ولم يُزلها وهو قادر على إزالتها.

ولما جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل عظيم الروم، وفيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مِنْ مُحمدٍ رَسُولِ الله إِلى هرقل عَظِيْم الرُوم» قام هرقل وأخذ الكتاب، وقبَّل اسم رسول الله، ووضعه على رأسه، توقيراً وتعظيماً لكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

ولما مر الشيخ الكبير بشر الحافي رضي الله عنه ونفعنا به[3]، مر في طريقه فرأى ورقة فيها اسم الجلالة وقد أصابها التراب والغبار، فأخذها ومسحها وقبلها، وطيَّبها ورفعها في مكان عالٍ، فلما نام تلك الليلة أُتي في منامه فقيل له: رفعت اسمنا لنرفعن ذكرك في الملأ الأعلى.

[وقد فصل الكلام على هذا مولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه في كتابه حول تفسير سورة الفاتحة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فارجع إليه].

---

(١) انظر (التراتيب الإدارية) للحافظ الكتاني (٢/ ٢٩٤).

(٢) ينظر (شرح المواهب) للحافظ الزرقاني عند أول الحديث عن مكاتبته صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملوك وغيرهم. وانظر (فتح الباري) (١/ ٤٤).

(٣) الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، ولد سنة /١٥٢/ وتوفي سنة /٢٢٧/ رحمه الله تعالى ورضي الله عنه.

واعلم أن تلاوة القرآن من أعظم القربات إلى رب العالمين وفيها رفعة للدرجات، وكثرة للحسنات، ونزول للخيرات، وانجلاء للأنوار، وفتح باب الأسرار، ففيها قرب بعد قرب حتى تكون من أهل الله وخاصته.

ولقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم آيات متوالية، تتعلق بفضل القرآن الكريم وهي في سورة فاطر فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ـ ٣٠].

وتسمى هذه الآية والتي تليها آيات القراء لأنه فيها بياناً لفضلهم وشرفهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يقرؤونه نصاً، ويحققونه عملاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذ أن أهم الأوامر الشرعية القرآنية هي الصلاة والزكاة، تتبعها بقية الأوامر والمناهي الشرعية.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: هذه هي التجارة التي لا تبور، أي: لا تهلك ولا تخسر بل إنها رابحة مضاعفة.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: في مقابل أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ ومن جملة هذه الزيادة أن يشفعهم في عشرة من أهل بيتهم قد استحقوا العذاب، فيشفع القارئ بهم حتى يدخلوا الجنة.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم ــ أي: في شأن القارئ العامل ــ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَهُ، فَأَحلَّ حَلاَلَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، أَدْخَلَهُ

اللهُ الجَنَّةَ، وشَفَّعَه فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهم وَجَبَتْ لَهُمْ النَّارُ»[1] ويشمل هذا قراباته من العصاة.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ بأن يتجلى لهم بالرؤيا سبحانه وتعالى، وهذا أعظم جانب للفضل الإلهي.

ثم بين سبحانه فضل هذا القرآن فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [فاطر: ١١] أي: أن هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك يا رسول الله هذا هو الحق إذ يخبر عن حقائق الأمور ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فما ترك أمراً إلاَّ وبينه، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ أي: من التوراة والإنجيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١] أي: أن الله تعالى خبير بعباده فهو يعلم أن هذا القرآن لا يليق أن ينزل إلا على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن التوراة تنزل على موسى عليه السلام فهو أهل لها، والإنجيل ينزل على عيسى وهو أهل له، وأما هذا القرآن الكريم فليس هناك من هو قابل له، ومستعد إليه، وأهل لأن ينزل عليه إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلقد نزله الله تعالى عن علم وخبرة بقلوب عباده واستعداداتهم وقابلياتهم.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن /٢٩٠٧/ (١١٢/٨)، وابن ماجه /٢١٦/ عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١] فهو الذي نَزَّل عليك القرآن خاصة يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنك أهل لذلك.

وَمِنْ علمه سبحانه وخبرته أنّ الأمة التي ترِث هذا القـرآن عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنّما هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآلـه وسلم، فهو سبحانه العليم الخبير أنه لا يرث هذا الكتاب عن سيدنا محمـد صلى الله عليه وآلـه وسـلم إلاّ هـذه الأمـة، الـتي هـي أفضـل الأمـم علـى الإطلاق فقال تعـالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ [فـاطر: ٣٢] أي: ورَّثْنَا هذا الكتاب النازل عليك يا رسول الله، ورثناه أفضل أمة قـد اصطفيناها على غيرها، وهي أمتك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأورثناها هذا الكتاب عنك يا رسول الله.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ أي: حكمنا أَنّ هذه الأمة هي التي ترث عنك القرآن والكتاب يـا رسـول الله. أو المـراد بقولـه تعـالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ أي: ثم نُورِّثْ، أطلق الماضي وأراد الاستقبال.

ويا نِعمَ هذا الميراث الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم في أمته، فما على الأمة إلاَّ أَنْ تُحافظ عليه: اعتقاداً، وعملاً، وتخلقاً، وأدباً.

ولما مر أبو هريرة رضي الله عنه، وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليـه وآله وسلم، مر في السوق، فرأى جماعة مـن التـابعين تجـاراً يشـتغلون في تجاراتهم ـ لكنه اشتغال فيه انشغال كلي ـ فقـال لهـم: أنـتم هاهنـا ومـيراث محمد صلى الله عليه وآله وسلم يُقْسَمُ في المسجد؟!

فانطلقوا إلى المسجد، فرأوا جماعة من الصحابة يقرؤون القرآن فيمـا بينهم، فرجعوا إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقالوا: مـا رأينـا ميراثـاً يقسـم، رأينا قوماً يقرؤون القرآن!

قال: ويحكم، ذلك ميراثُ نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع[2]: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قد تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعتصمتم بِهِ فلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أبداً، كِتَابَ الله تعالى، وسُنَّةَ نَبِيِّهِ» صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا هو ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي ورثة للأمة حتى تعمل به، ولا شك أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملازمة للقرآن لأنها بيان للقرآن، ولا بد للقرآن الكريم من بيان، ولا يؤخذ بيان القرآن إلاَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ولقد بين الله تعالى القرآن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمره أن يُبينه للناس، ولهذا كان القرآن والسنة متلازمين لا ينفكان عن بعضهما.

ولقد سلَّم الله تعالى على هذه الأمة المتبعة سلاماً خاصاً، كما سلم على الرسل سلاماً خاصاً، وَسَلّم سبحانه على جميع المؤمنين سلاماً عاماً.

أما سلامه سبحانه على الرسل فقال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨١-١٨٢].

وقال تعالى في أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النحل: ٥٩] أي: وهم اتباع

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) (مجمع الزوائد) (١/١٢٣و١٢٤).

(٢) كما في (المستدرك) (١/٩٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين قال فيهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وسلّم سبحانه على جميع المؤمنين، وجميع الأمم سلاماً عاماً فقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] وهم المؤمنون الذين يَلدون من أولادك، لأنّ البشرية محصورة في أولاد نوح عليه السلام، ولم يحصل نسل ممَّنْ ركب في السفينة إلا من أولاد نوح عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وقد تفرعت الأمم كلها من أولاد نوح عليه السلام، كما في الحديث(١): «سَام أبو العرَبِ، وَ حَامٌ أَبُو الحَبش، ويَافث أَبُو الرُوم».

فالمؤمنون من هذه الأمم إلى يوم الدين لهم سلام الله تعالى، وأما الكافرون فقال تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢].

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: أن هذه الأمة التي ورثت القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان منهم ظالم لنفسه، وهو الذي لم يعمل بموجب الميراث، فارتكب بعض مناهي القرآن، أو ترك بعض أوامره، فيقال: إنه ظالم لنفسه، لأنّ الظالم لنفسه هو مَن فوّت على نفسه ما ينفعها، وما فيه سعادتها، أو عَرَّض نفسه للهلاك والعذاب.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/٩و١١)، والترمذي في كتاب المناقب، في فضل العرب /٣٩٢٧/ (٩/٤١٨) عن سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه.

ألا ترى إلى الذي أُتيحت له أرباح طائلة في تجارته؛ ولكنه أعرض عن بيعها، حتى فسدت بضاعته وهلكت؛ فباعها بخسارة، وكان بوسعه أن يبيعها بربح، ألا يقال عن هذا: ظالم لنفسه؟ لأنّه فوَّت على نفسه الفائدة والربح.

وكما لو أتيح لرجل مُضْطّر إلى الغذاء، أتيح له طعام شَهِيّ متنوع وأعرض عنه، فيقال: إنه ظالم لنفسه، لأنه فَوّت على نفسه ما ينفعها وعرضها للضرر والفساد.

فالظالم هو الذي يَحرم نفسه ما ينفعها، وإذا كنت لا تفهم هذا إلا بالأكل والشرب والمال، فاعلم أنَّ هذا القرآن هو مأدبة رب العالمين، وفيه أنواع من المنافع والسعادة للبشر، وإذا تركت واحدة منها أضررتَ بنفسك، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله فَاقْبَلُوا مَأْدبته مَا استَطَعْتُمْ»[1].

أي: أَقْبِلْ على مأدبة رب العالمين التي فيها ألوان من الأطعمة والأغذية، والسعادات الروحية والنفسية، والفكرية والعقلية والجسمية، والدنيوية والأخروية، ولا تحرم نفسك واحدة منها، بل أَقْبِلْ عليه ما استطعت، وإذا تركت لوناً نافعاً لك فيقال: أنتَ ظالم لنفسك. وهذا وصف كل مَنْ ترك أمراً من أوامر القرآن، أو ارتكب نهياً من مناهيه؛ لأنه فوَّت على نفسه ما ينفعها ويُسعدها، وَحرَم نفسه من مأدبة الله تعالى، والمأدبة هو المكان الذي فيه كل ما ينفع النفس من ألوان الأطعمة والأغذية والأشربة.

---

(١) طرف من حديث رواه الحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٥٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وإنما ذكر الظالم لنفسه أوّلاً لأجل التحذير والتنفير، وحتى يتجنب هذا الإنسان الذي جعله الله مِن الأمة المصطفاة، الذين ورثوا الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتجنب الوقوع فيما نهى الله، أو الترك لما أمر الله تعالى، وما أقل حياء من أكرمه الله تعالى، بأن جعله من هذه الأمة المصطفاة، ثم راح يُضَيِّع هذا الميراث العظيم، الذي وَرِثَتْهُ هذه الأمة عن رسولها صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي تمسك بالأوامر، وانتهى عن المناهي، وليس عنده كثرة نوافل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يعمل بالأوامر وينتهي عن المناهي ويعمل بالنوافل، ويتخلق بأخلاق القرآن، ويتأدب ويسعى في طُرق القرب إلى الله تعالى، فهو من السابقين المقربين، وهو في أعلى المراتب.

ففي هذه الآية بيان من الله تعالى لهذه الأمة عن شرف ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن تحافظ على هذا القرآن: تلاوةً وعملاً وتخلقاً وتأدباً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ ما يدل على أن تلاوة القرآن قُربة إلى الله تعالى، لأنّه سبحانه خَص التلاوة بالذكر، ثم قال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [فاطر: ٢٩].

وَمَنْ قرأ القرآن أعطاه الله تعالى بكل حرف يقرؤه حسنة، وَتُضاعف إلى عشر حسنات، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قَرأَ حَرْفاً مِنْ

كِتَابِ الله تعالى فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا»[1] وتكون المضاعفات فوق العَشر على حسب الفهم والتدبر والخشوع في التلاوة.

كما أنّ تلاوة القرآن قربة إلى الله تعالى، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ للهِ أَهْلِيْنَ مِنَ النَّاسِ».

قِيْل: مَنْ هُم يا رسول الله؟

قال: «أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»[2].

فإذا أردت أن تكون من أهل الله، بل من خاصة أهل الله تعالى فقد أرشدك إلى طريق ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي المواظبة على تلاوة القرآن الكريم.

كما أنّ في تلاوة القرآن قضاءً للحاجات الدنيوية والأخروية، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الرب تبارك وتعالى: مَنْ شَغَلَهُ القُرآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وفَضْلُ كَلاَمِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلامِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ»[3].

أي: من انشغل بتلاوة القرآن عن سؤاله لله في حاجته، فإن الله تعالى يعطيه أفضل ما يعطي السائلين له، لأنّ تلاوة القرآن هي دعاء وسؤال الله، واستنزال لرحماته سبحانه.

ومن فضائل تلاوة القرآن الكريم أنه يشفع في قارئه في القبر والحشر

---

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر /٢٩١٢/ (١١٥/٨) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه /٢١٥/ والحاكم (٥٥٦/١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن /٢٩٢٧/ (١٢٥/٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والحساب، وفي الحديث (1): «إن سُورَةً مِنْ الْقُرْآنِ ثَلاَثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وهي سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» أي: سورة الملك.

وقال فيها صلى الله عليه وآله وسلم: «هِيَ المَانِعَةُ هِيَ المنجية تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» (2).

وفي الحديث (3): «يَجِيءُ صاحِبُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَيَقُولُ الْقُرْآنُ» أي: تلاوته للقرآن: «يَا رَبِّ حَلِّه» أي: هذا القارئ «فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، فيَقُولُ الْقُرْآنُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ثم يقول: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ. فيقال له: اقْرَأْ وَارْقَ، وتزاد بِكُلِّ آية حَسَنَةً».

وتلاوة القرآن تُنزِّل ملائكة الله تعالى على البيت الذي يُقرأ فيه:

فقد روى الدارمي وغيره ـ ما بين موقوف ومرفوع (4) ـ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ البَيْتَ إذا قرئ فِيهِ القُرْآنُ حضرته المَلاَئِكَةُ،

---

(1) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في عدد الآي /1400/ (2/119)، والترمذي /2893/، وابن ماجه /3786/ وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) كما في (سنن) الترمذي في كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك /2892/ (8/103) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولورود الحديث قصة تنظر هناك.

(3) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن /2916/، والحاكم (1/552) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) رواه الدارمي في (سننه) في كتاب فضائل القرآن الكريم (2/409) عن سيدنا أبي هريرة موقوفاً ـ وله حكم المرفوع لأنه لامجال للرأي والاجتهاد فيه كما هو معروف عند السادة المحدثين ـ ورواه الإمام محمد بن نصر المروزي في كتابه قيام الليل ـ واللفظ له ـ مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه. انظر مختصر كتابه للقزويني ص /74/.

وَتَنَكَّبت عَنْهُ الشَّيَاطِينَ» أي: تباعدت «واتسع عَلَى أَهْله، وكَثرُ خَيْرُهُ، وَقَلَّ شَرُّهُ، وإِنَّ البَيْتَ إذا لم يُقْرأ فِيهِ القُرْآنُ حضرته الشَّيَاطِينُ، وَتَنَكَّبت عَنْهُ المَلاَئِكَةُ، وضاقَ عَلَى أَهْلِه، وقل خيره، وكثر شَرُّهُ».

ولما رأى الصحابة أنواراً كهيئة المصباح فوق دار ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال لهم: «لَعَلَّهُ قَرَأَ اللَّيْلَةَ سُورَةَ البَقَرَةِ» ولما سألوا ثابتاً كان الأمر كذلك[1].

كما أن الملائكة تزور قبر قارئ القرآن الكريم، فقد روى الحافظ السِّلَفيّ في البُلدانيات - أي: أربعون حديثاً سماها البلدانيات. لأنه تلقاها عن أربعين شيخاً من شيوخ المحدثين، من أربعين بلداً - روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَعَلَّمْ القُرْآنَ وَعَلِّمْهُ النَّاسَ، فَإِنَّكَ إِذَا مِتَ وَأَنْتَ كَذَلِكَ زَارَتِ المَلائِكَةُ قَبْرَكَ كَمَا تَزُورُ البَيْتَ العَتِيْقَ».

ولا عجب في هذا، فكما أن الملائكة تزور بيت القارئ في الدنيا، فإنها تزور قبره في البرزخ.

وإن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن تَشِعُّ فيه أنوار الحق، وتضيء إلى أهل السماوات، وينتهي نورها عند عرش الله تعالى، كما تقدم في حديث ثابت بن قيس رضي الله عنه[2].

ولا يرى هذه الأنوار إلا أصحاب البصائر النافذة، كالصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

---

(١) الخبر من تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسيره لأول سورة البقرة.

(٢) قبل أسطر.

وروى الحكيم الترمذي[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن في بُيُوتَاتِ المُؤمِنِيْنَ لمصابيح إلى العرش ـ أي: لمصابيح تضيء إلى العرش ـ يَعْرِفُهَا مُقَرَّبو الملائكة من السَّمَاوَاتِ السبْعِ ، يَقُولُونَ: هَذَا النور مِنْ بِيُوتَاتِ المُؤمِنِينَ الَّتِي يُتلى فِيْهَا القرآن».

فليكثر المؤمن من تلاوة القرآن في بيته، ويَحْسُنُ أن يجهر به حيث لا مانع ولاضرر على مريض أو نائم.

وإن الله تعالى يستمع لقارئ القرآن، لأنه كلامه سبحانه، وأحب ما يكون إلى الله أن تقرأ القرآن بصوت حسن مقبول، مع مراعاة الأحكام والترتيل، ففي الحديث[2]: «للهُ أَشَدُّ أَذَنَاً ـ أي: استماعاً ـ للرَّجُلِ الحَسَنِ الصوتِ بالقُرآنَ مِن صَاحِبِ القَينَة إلى قينته».

والقَيْنَة هي: الأمة المملوكة التي تُغني لسيدها.

ومن استمع الله تعالى لتلاوته فقد رضي عنه، وغفر له، وأحسن إليه، وما طريق هذا إلا بتلاوة القرآن وتحسين الصوت فيه.

ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا وأبصارنا، ونوراً محيطاً بنا من كل الوجوه والاعتبارات، وأن يوفقنا للعمل به وتلاوته، حتى نلقى الله وهو راض عنا. اللهم آمين .

* * *

---

(١) في كتابه (نوادر الأصول) في الأصل التاسع، عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا أبي الدرداء رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢٠)، وابن ماجه /١٣٤٠/، وابن حبان /٧٥١/، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٧١) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

ومن فضائل شهر رمضان

مضاعفة الأجر فيه

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ٨٥].

فلقد بَيَّن سبحانه في هذه الآية الكريمة، بين لعباده فضل شهر رمضان، وفضل هذا القرآن الذي أنزله في شهر رمضان، وأمر في هذه الآية بصيام شهر رمضان، وفي هذا بيان للأمة أنّ شهر رمضان هو الذي أُنزل فيه القرآن، فنال فضلاً على سائر الأشهر، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سَيِّدُ الشُّهُورِ شَهْرُ رَمَضَانَ، وأعظمها حرمة ذو الحجة»(١).

وقد فرض الله سبحانه صيام سيد الشهور على أفضل أمة وهي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإن لشهر رمضان عدة من الفضائل والخصائص، فهو شهر الرحمة والغفران، وشهر الكرم الإلهي والإحسان، وشهرٌ نزل فيه القرآن بروحه وأنواره وأسراره، وبرحماته وشفائه، ووعظه وتذكيره، وهديه وبَيِّنَاته، وجميع هذه المناقب التي جاء بها القرآن إنما نزلت في شهر رمضان، ولهذا صار هذا الشهر ظرفاً جامعاً لآثار أنوار القرآن وأسراره وخصائصه، وهذا لأن تجليات الحق سبحانه وتنزيلاته للأوامر الإلهية، لها آثارها في الأيام والشهور.

---

(١) رواه البزار عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما في (مجمع الزوائد) (٣/١٤٠) وفيه قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (سيد الشهور شهر رمضان، وسيد الأيام يوم الجمعة) وعزاه للطبراني في (الكبير).

فالزمان ظرف للمعاني، كما أن المكان ظرف للماديات والمحسوسات، كما أن الأواني المعروفة ظروف للماديات، ولهذا كان ظرف القرآن الذي نزل فيه بأسراره وأنواره هو شهر رمضان، ونال الفضل على غيره من الشهور.

وإن لله تجليات على عباده في رمضان، يتجلى بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء، والإحسان إليهم، وإعتاقهم من النار، وبترقية الدرجات، وبتكفير السيئات، فهو سبحانه يتجلى فيه ما لا يتجلى في بقية الأشهر.

ولقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا الموسم الكبير وهو موسم شهر رمضان، أن يغتنمه المسلم، وأن لا يضيعه بالقيل والقال، والملاهي الباطلة، أو بالنوم الكثير، أو الانشغال بتهيئة الأطعمة والأشربة.

وليعلم المؤمن أنّ شهر رمضان موسم للتجارة التي لا تبور، ينهض فيه أصحاب الجد والعزائم إلى الإكثار من عبادة الله وطاعته، وفعل الخيرات، لأن الثواب يَتضاعف في هذا الشهر، وإنّ تسبيحة في شهر رمضان تُعادل سبعين تسبيحة في غير رمضان، وركعة في رمضان تعادل سبعين من النوافل في غير رمضان، وهكذا فإذا كان أهل الدنيا حريصين على اغتنام أيام المواسم لتزيد أرباحهم، وتنمو تجاراتهم، فعلى المؤمن أن يَعلم أن الدنيا وما فيها باق فيها، ومصيره إلى الهلاك، ولا ينفعه إلا ما ابتغى به وجه الله تعالى.

وينبغي على العاقل أن يغتنم مواسم مضاعفات الأجور، وأوقات تجليات الحق سبحانه على عباده بالمغفرة والرضوان، وهذا ما يكون في شهر رمضان.

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد أقبل شهر رمضان ـ بعد أن صعد المنبر فقال: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ، شهر بركة، يَغْشَاكُمْ اللهُ تعالى فيْه» أي:

يتجلىٰ عليكم ويتغشاكم برحمته وغفرانه «فَيُنَزِّلُ الرَّحْمَةَ، وَيَحطُّ الخَطَايَا، وَيَسْتَجِيْبُ الدُّعَاء، يَنْظُر الله إِلى تَنَافُسِكُم» أي: إلى تسارعكم في فعل الصالحات «وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلاَئِكَتَهُ» وكفى المؤمنُ الصائم مَفخرة أَنْ يباهي الله به ملائكة السماوات وحملة العرش، لأنَّ مَنْ باهى الله به الملائكة فقد ثَبتت له السعادة أبد الآبدين.

ثُمَّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَرُوا الله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْراً، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فيه رَحْمَةَ الله عز وجل»[1] أي: أن الشقي وهو المحروم الحقيقي مَنْ حُرِم رحمة الله في هذا الشهر، لأنه أضاعه في الشهوات والأباطيل، وحَرَمَ نفسه خيرات ورحمات رمضان، ولم تشمله مغفرة الله لعباده في شهر رمضان.

وروى البيهقي[2]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضانَ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ نبي قبلي - وفي رواية «أمة قبلهم»ـ: أَمَّا وَاحِدَةً: فَإنه إذا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شهر رَمَضَانَ نَظَرَ الله عز وجل إِلَيْهِم» أي: نظرة رضاً ورحمة «وَمَنْ نَظَرَ الله تعالى إِلَيْهِ لم يُعَذِّبه أبداً».

وإذا قيل: كيف ينظر إليهم وهم في أول ليلة لم يصوموا بعد؟

فيقال: إن الله تعالى يَعلم القلب الذي نوى الصيام وعزم عليه.

«**وأَمَّا الثَّانيةُ**: فَإِنَّ خلُوفَ أَفْوَاهِهِم حِيْنَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيْح

---

(١) رواه الطبراني في (الكبير) كما في (مجمع الزوائد) (٣/١٤٢) عن سيدنا عبادة ابن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في (شعب الإيمان) /٣٣٠٣/ (٣/٣٠٣) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وله شاهد عند الإمام أحمد (٢/٢٩٢) وانظر (مجمع الزوائد) (٣/١٤٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر (الترغيب) للحافظ المنذري (٢/٢٠و٢١).

المِسْكِ» أي: أن رائحة الفم المتغيرة والتي يكرهها الصائم ومن حوله، لكنها عند الله وملائكته في ذلك العالم أطيب من ريح المسك، وإن كان مظهرها الآن كريه، إلا أن معناها وحقيقتها طيبة.

«وَأَمَّا الثالثة: فإنَّ المَلائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ في كُلِّ يَوم وَلَيْلَةٍ» واستغفار الملائكة محقق الإجابة، لأنهم لا يفعلون إلاَّ ما يؤمرون.

«وأمَّا الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها: اسْتَعِدِّيْ وَتَزَيَّنِيْ لِعِبَادِي، أَوشَكَ أَنْ يَسْتَرِيْحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلى دَارِي وكَرَامَتِي» فيأمر سبحانه الجنة بالتهيؤ تكرمة للصائمين العابدين.

«وأمَّا الخَامِسَةُ: فَإِنه إذا كَانَ آخِرَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضانَ غَفَرَ اللهُ لَهُمْ جَمِيْعَاً» الحديث.

هذا وعلى المؤمن أن يصوم ممتثلاً أمر ربه، وأن يكون صيامه مبنياً على الإيمان بالله، ولأن الله تعالى أمره بالصوم، وأن يعلم أن أوامر الله تعالى فيها مصالح ومنافع البشر في الدنيا وفي الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] أي: خير لكم في دنياكم وآخرتكم، وهذا عندما كان الصوم بالتخيير لمن أراد أو بدفع الفدية، ثم نسخ هذا الحكم وفرض صيام رمضان إلا على المريض والمسافر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] يصومونها في غير رمضان.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في إرشاد الأمة إلى استكثار الخيرات وفعل الطاعات في شهر رمضان، فقال يوماً للصحابة: «احْضُرُوا المِنْبَرَ».

قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: فحضرنا.

فلما ارتقىٰ درجة قال: «آمين»، فلما ارتقىٰ الثانية قال: «آمين»، فلما

ارتقى الثالثة قال: «آمين» فلما نزل قلنا: يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه.

فقال: «إن جبْرِيل عَرِضَ لِيَ فَقَال: بَعُدَ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قلت: آمين» أي: أن رجلاً أدرك رمضان ولم يتب إلى الله ولم يستغفر الله، بل بَقِيَ مُصِراًّ على ذنوبه ومعاصيه، ولم يغتنم هذا الموسم الكبير للمغفرة والإحسان والقرب من الحنّان المنان، فمثلُ هذا بعيدٌ عن رحمة الله تعالى.

«فلما رَقِيْتُ الثَانِيَةَ قَالَ: بَعُدَ مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: آمين» وهذا لأن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم قربة إلى الله تعالى، بل هي من أعظم القربات، وَمَنْ ترك القُرب صار في البعد، إذ بَعُدَ عن رحمة الله تعالى.

«فلَمَّا رَقِيْتُ الثَالِثَةَ قَال: بَعُدَ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ الكبر أو أَحَدُهُمَا عِنْدَهُ فَلَمْ يُدْخِلاَهُ الجَنَّةَ، قلت: آمين»[1] أي: من أدرك أبويه الكبر أو كلاهما وقصَّرَ في حقهما أو عصى أمرهما، أو صدرت منه جفوة نحوهما، ولم يبتغ رضاهما ودعاءهما، فمثل هذا بعيد عن الله وعن رحمة الله، لأن الله تعالى أمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، وإنَّ من أعظم مقامات القرب إلى الله تعالى أن يَبَر المرء أبويه ضمن حدود الشريعة. أما إذا كان أمرهما فيه مظالم تتعلق بزوجك أو ابنتك أو ولدك فليست طاعتهما حينئذٍ واجبة، وليست من البر، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل»[2].

---

(١) رواه الحاكم (٤/١٥٣) وله شواهد كثيرة انظر (الترغيب) للحافظ المنذري، وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) للشيخ الإمام، فقد جمع رحمه الله تعالى فيه طرق هذا الحديث الشريف.

(٢) الحديث في (المسند) (١/٤٠٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه و(٥/٦٦) عن سيدنا الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه.

ومن فضائل شهر رمضان أن الله تعالى يستجيب فيه الدعاء، كما روى الترمذي(١) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِيْنَ يُفْطِر»

وفي رواية(٢): «الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ» أي: مادام صائماً فدعاؤه مجاب، وإذا أفطر فدعاؤه مجاب، فكان إجابة فوق إجابة.

«وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُوم».

فعلى الصائم أن يدعو ربه حين إفطاره، ولا يُشترط الدعاء في أول شَربة يُفطر بها، إذ أنَّ الله تعالى وعده بإجابة دعوته حين يفطر، فله أن يدعو في أول إفطاره أو آخره، فلا تُضيِّق رحمة الله عليك، إذ لو نسيت الدعاء أول إفطارك فادعه متى ذكرت، في أول إفطارك أو آخره، وليكن دعاؤك وسؤالك لله تعالى لأعظم أمر تحتاجه، وهو طلب العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وأن يُثبِّتَ عليك إيمانك، وأن يزيدك إيماناً وصلاحاً وقوة على عبادته، ثم تسأله سبحانه تيسير وقضاء حاجاتك الدنيوية، حتى لا تشغلك الدنيا عن عباداتك وطاعاتك لله تعالى.

واحرص أن تعمم في دعائك كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وعلى هذا: فشهر رمضان نزل فيه القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾

---

(١) في أول كتاب صفة الجنة ـ جعلنا الله من أهلها آمين ـ باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها في حديث طويل /٢٥٢٨/ (٧/٢١٠) وفي كتاب الدعوات /٣٥٩٢/.

(٢) عند الإمام أحمد (٢/٤٤٥) وابن ماجه /١٧٥٢/ كلهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[البقرة: ١٨٥] فنزل هذا القرآن بروحه وأسراره وأنواره، وشفائه ورحماته، وهديه ووعظه وتذكيره وبيناته.

وقد نزل جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ـ أي: من سماء إلى سماء إلى السماء الدنيا ـ وهذا كله ليلة القدر، وبدأ ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة القدر أيضاً.

وقد بدأ تنزله إلى عالم العرش، ثم الكرسي، ثم السدرة، ثم سماء فسماء حتى السماء الدنيا، وفي هذا الإنزال إعلام لجميع الملائكة عن هذا القرآن، وإطلاع لهم، لأنهم مأمورون أن يتعبدوا ربهم ويتقربوا إليه بتلاوة القرآن، ومنهم المأمور بتنفيذ أوامر القرآن، وعقوبات القرآن للظالمين، وإعطاء خصائص القرآن لِمَنْ قرأه، فكان من الحكمة أن يتنزل من سماء إلى سماء حتى تطلع عليه ملائكة السماوات.

ويقول تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ الآية [عبس: ١٥ـ١٦٥] أي: إن هذا القرآن في صحف مطهرة ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ﴾ أي: بين أيدي الملائكة يقرؤونه ويتقربون به إلى الله تعالى.

ولقد بَيّن صلى الله عليه وآله وسلم معنى قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ وهو: صاحب البيان عن القرآن فقال: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فيهِ وهو عليه شاق له أجران».

وفي رواية: «وَالَّذِي يَقْرَأُ يشتد عليه لَهُ أَجْرَانِ»[1]. أي: أن الذي يقرأ

(١) رواه البخاري في التفسير، تفسير سورة عبس /٤٩٣٧/ (٨/٦٩١)، ومسلم ـ واللفظين له ـ في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن /٧٩٨/ (٢/٨٧٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها وهو مروي عند أصحاب السنن.

القرآن بمهارة وسهولة، بضبطه وإتقانه، فهو مع الملائكة الذين يقرؤون القرآن، وأما الذي يقرؤه وهو شاق عليه بمخارجه وإتقان حروفه، فله أجران: أجر التلاوة وأجر الصعوبة والمشقة، إلا أنّ ذلك أفضل وأعلى، إذْ هو مع السفرة الكرام البررة. ومن أراد أن يلتحق بهم فليقرأ القرآن بضبط وإتقان، وتجويد وإحكام.

وقد نزل القرآن هُدى للناس، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾.

فهو هدىً للناس كلهم، يهديهم للتي هي أقوم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أي: يهديهم للخصلة التي هي أقوم الخصال القيمة المستقيمة، ويهديهم إلى العقيدة التي هي أقوم العقائد القيمة المستقيمة، التي نزلت على من قبلنا.

ويهديهم للتي هي أقوم العقائد، وأقوم الأعمال، وأقوم الأخلاق وأقوم المعاملات، وأقوم الأحوال، فهو يهدي للتي هي أقوم على الإطلاق.

فماذا تتصور من أمر مستقيم قَيّم خلقي أو عملي، أو اعتقادي إلا والقرآن جاء يهدي لما هو أقوم وأحسن وأعظم، فلا هدي فوق هدي القرآن، وقد جاء القرآن بالهدي للتي هو أقوم، مع الدليل والبرهان على حَقِّيَّة ما جاء به، وفَرّق بين حَقِّيَّة ما جاء به وبطلان غيره، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥] فالقرآن يهديك إلى الشيء، ثم يقيم الحجة والبرهان والبينات على ما هداك إليه، ويفرق لك بين الحق الذي جاء به، وبين الباطل الذي ينافيه.

ومن جملة ذلك هدي القرآن إلى توحيد الله، وأنه لا إله إلا الله،

وَيُبرهن لك على أنه حقاً لا إله إلا الله، بأنواع من الأدلة والبراهين، ويفـرق لك بين الحق الذي هو لا إله إلا الله، وبين الباطل وهو الشرك بـالله وتعـدد الآلهة، ويُريك أنَّ لا إله إلا الله هو الحق، وأن ماعدا ذلك هو باطل.

وهذا البيان هو أحسـن مـا يكـون في الهـدي، وأقـوم مـا يكـون، إذ أنه جاء بالهدي والدليل والبينات على الهدى، وبالفرقـان بَـيْنَ مـا جـاء بـه وهو الحق، وأن غيره هو الباطل، وأن كل ما خـالف القـرآن فـلا دليـل ولا برهان عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وإذا علمت هذا فما عليك إلا أن تتمسك بهذا القرآن، وتعمل بهديه، كما بَيَّن لك ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرشـدك إليـه. فمـن أراد أن يهتدي بهدي القرآن فعليه باتبـاع سـيد الأنـام صـلى الله عليـه وآلـه وسلم، الذي كان خُلُقُه القرآن، وفي هذا يقول تعـالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعـراف: ١٥٨] أي: إذا أردتم الهـدي بـالقرآن فعلـيكم باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو أعظم مـن تحقـق بمـا جاء به القرآن، عملاً وهدياً، وخلقاً وأدباً.

واعلـم أنـه لا يمكـن للإنسـان أن يفهـم القـرآن أو يهتـدي بهديـه إلاَّ بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واتباعـه صـلى الله عليـه وآلـه وسلم، فلقد أنزل الله تعالى عليه القـرآن، وَبَيَّنَـهُ لـه ثم أمـره أن يُـبين ذلـك للناس، ويعلمهم أمر دينهم وأحكام شريعتهم. فالقرآن يأمرك بالصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يـذكر لـك القـرآن كيفيـة الصـلاة، وعـدد

ركعاتها وأوقاتها، ولكن الله علم ذلك رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له قل للناس: «صَلُّوا كَمَا رأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» الحديث[١]، وهكذا في الحج فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خُذُوا عني مَنَاسِكَكُمْ»[٢].

وكذا في الصيام والزكاة وغيرها من الطاعات والعبادات. ومن هنا تفهم أنه لا غنى لك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهديه وإرشاده، وَمَن اتّبع رسول الله حقاً فقد اتبع القرآن حقاً.

روى ابن حبان، والطبراني في (الكبير)[٣] أنه صلى الله عليه وآله وسلم خرج يوماً على الصحابة فقال لهم: «أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إله إِلاَ الله وَأَني رسول الله» ؟

قالوا: بَلى.

قال: «فَإِنَّ هَذَا القُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ الله، وَطَرَفُهُ»أي: الآخر «بِأَيْدِيكُم، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فإنكم لن تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدَاً».

وَمَا طريق التمسك بهذا الحبل إلا باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم.

ومن عمل بهدي القرآن واتبع أوامره قاده إلى الجنة، ومن هجره ولم

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة /٦٣١/ (١١١/٢) عن سيدنا مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣٣٧/٣)، ومسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر /١٢٩٧/ (١٣٣٣/٣)، وأبو داود /١٩٧٠/ عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) ابن حبان /١٢٢/ (١٦٦/١) والطبراني (مجمع الزوائد) (١٦٩/١) عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

يعمل به ساقه إلى النار، ففي الحديث(١): «القُرْآنُ شَافِـعٌ مُشَـفَّعٌ، وَمَاحِـلٌ مُصَدَّقٌ» أي: مدافع عن صاحبه ومحام عنه بحق، ويدافع عن صاحبه بالحجج والبراهين فهو مصدَّق الحجة «فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ للجَنَّـةِ، وَمَـنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلى النَّار».

فاعتبر أيها الإنسان وانظر ما هو موقفك مع هذا القرآن، فما نزل القرآن للهجران، ولكنّ الله تعالى أنزله للتلاوة والعمل بموجب ما تقرؤه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] أي: قراءة وعملاً.

واعلم أن هذا القرآن نزل معه نور من الله تعالى، بل ونزل وفيه النور، لِيُنَوِّر القلوب والعقول والأشباح والوجوه، وَمَنْ عمل به نوَّر الله قلبه وعقله، ونور الله سمعه وبصره، ووجهه وجسمه، وهذا أمر لا يخفى على كل ذي بصيرة، ألا ترى إلى وجوه أهل التقى والصلاح كيف استنارت بأنوار الإيمان والقرآن، وكذا آثار الظلمة الظاهرة على وجوه أهل الفسوق والفجور.

فإذا كان الأمر كذلك، وهو بَيِّنٌ ظاهر في المظاهر، فما بالك في القلوب والبواطن، إنه أعظم وأكبر.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ [التغابن: ٨] وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) رواه ابن حبان /١٢٤/ والبزار (مجمع الزوائد) (١/١٧١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقد عَلَّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمة دعاءً فيه توسل بالأسماء الإلهية كلها، على أمر عظيم وهو أن يجعل الله تعالى القرآن العظيم ربيع قلبك، ونور صدرك وبصرك، وجلاء حزنك، وذهاب همك وغمك، كما تقدم في الحديث(١).

وإذا صار ربيع القلب بالقرآن أينع وأثمر، وصار فيه الخَضار والنضار، والبهجة والجمال، وإذا ربَّع قلبك بالقرآن أنبت النبات الحسن، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨] وقلبك بلدٌ كبير في جسمك، فإذا ربع بالقرآن أعطى الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة، واستنار بأنوار القرآن، حتى انجلت له المعارف والعلوم والأسرار، وهذا معنى: «ونُورَ صَدري».

وإذا جعل الله تعالى نور بصرك نوراً قرآنياً ربانياً، فإنك ترى الأمور بحقائقها، بخلاف مَنْ فَقَدَ هذا النور، فهو يرى كما ترى الحيوانات، وهذا شأن مَنْ عَمِيَ بصره عن القرآن، وَفَقَدَ نور القرآن.

ولقد نبه صلى الله عليه وآله وسلم إلى عظمة نور القرآن في القلوب، وعظمة نور القرآن على الوجوه، وعظمة نور القرآن في كِسْوة الجسم.

فاعتبر وفكر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث الذي رواه أبو داود في (السنن) وأحمد في (مسنده)(٢): «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا به، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْؤهُ أعظمُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ في بيوت الدنيا، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِ» الحديث.

---

(١) ص /٣١٧/.

(٢) (المسند) (٣/٤٤٠)، أبو داود في كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن /١٤٥٣/ (٢/١٤٨) عن سيدنا معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

أي: أنّ الله تعالى يكرم قارئ القرآن الذي عمل به إكراماً كبيراً ويتفضل عليه في نفسه، ويكرم الله والديه من أجله وبسببه، فيلبسهما تاجاً ضوؤه أعظم من ضوء الشمس لو كانت في بيوتكم. فما ظنك بنور القارئ العامل؟ إنّ نور قلبه أعظم من نور الشمس، وإنّ نور حلله وتيجانه يوم القيامة أعظم وأكبر، وهذا لأنّ نور القرآن انعكس في قلبه انعكاس النور في المرايا، وإن نور القرآن لا يُحَدُّ بِحَدٍّ ولا بكيفية، ومهما تصورت فهو أعظم وأجل.

وإذ عرفت هذا فافهم أن العمل الصالح وتلاوة القرآن تنفع والديّ القارئ فيكرمهما الله بسببه، ويُلبسهما تاجاً ضوؤه أعظم من ضوء الشمس. وكفاك بهذا دليلاً على انتفاع الأموات بما يُهدىٰ إليهم من تلاوة للقرآن، أو بعض سورة وأعظمها الفاتحة.

وإذا كان القارئ العامل الذي قرأ لنفسه قد أكرم الله والديه بسببه، فما بالك إنْ هُو وهب ثواب تلاوته لهما؟ فلا شك أن الفضل والثواب أعظم من باب أولى.

وَمِنْ هذا تَفْهم أيضاً عظمة نور قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونور عقله الشريف صلى الله عليه وآله وسلم من كل الوجوه والاعتبارات، إذ أنه كان أول مَنْزل للقرآن، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] فلا شك أن نوره صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من نور الشمس والقمر بما لا يقاس، بل أعظم من كل النَيِّرات، وعن نور قلبه صلى الله عليه وآله وسلم استفاضت واستمدت القلوب، فاستنارت بأنوراه صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال تعالى في وصفه صلى الله عليه وآله وسلم وموقفه مع العالم: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] لغيره من العالمين صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره [1]، أن عمر بن الخطاب جاء يوماً ـ في أول أمر إسلامه ـ ومعه صحيفة فيها شيء من التوراة، وعرضها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنظر صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيفة وغضب، وتغير وجهه، فخاف عمر رضي الله عنه وعرف أن هذا لا ينبغي وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً، وبالقرآن إماماً، ونعوذ بالله من الفتن.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ كان مُوسَى حياً لَمَا وَسِعهُ إِلاَّ أَنْ يَتْبَعَني، وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ كان مُوسَى حياً بَيْنَ أَظْهُرِكُم وَاتَّبَعْتُمُوه وتَركْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ» أي: تكونوا ضالين «أنتم حَظِّي مِنْ الأُمَم وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ» صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

أي: أنتم أيها الأمة المتبعة، أنتم نصيبي من الأمم. وفي هذا يفتخر صلى الله عليه وآله وسلم بأتباعه ـ اللهم اجعلنا منهم ـ وأَعْظِمْ وأنعم بهذه النعمة والفضل الإلهي علينا، أنّ نبينا ليس كبقية الأنبياء، بل نبينا هو إمام الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم، فالفخر لنا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويجب علينا أن نحمد الله ونشكره على هذا الفضل، وهو أنْ جعلنا من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث [2]، أنه صلى الله عليه وآله وسلم مَرّ على رجل يقول: الحمد لله على دين الإسلام، وأن جعلني من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (المسند) (٣/٣٨٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه و(٣/٤٧٠) عن سيدنا عبد الله ابن ثابت رضي الله عنه، وعزاه في (مجمع الزوائد) (١/١٧٣) لأبي يعلىٰ والطبراني.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) (١/٣٧٤) إلى الخرائطي والبيهقي في (الدعوات) عن سيدنا منصور بن صفية رضي الله عنه.

فقال لـه صلى الله عليه وآله وسلم: «لَقَدْ شَكَرْتَ عَظِيْمَاً» أي: لقد شكرت الله وحمدته على نعمة وفضل عظيم تفضل به عليك، وهو أن هداك للإسلام، وجعلك من أمة سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى هذا فالقرآن فيه الكفاية والغاية، ويكفيك ويغنيك عن كل ما سواه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] أي: وفيه الغاية والسعادة والسيادة، وصلاح الدنيا والآخرة.

وإذا عقلت هذا فكيف تهجر القرآن وتبتغي الهدى في غيره؟!!

أما يكفيك أن الله تعالى قد بَيَّنَ لك فيه ما تحتاجه في سعادة دنياك وآخرتك، وذكر لك فيه من العلوم والحقائق التي يعجز المخلوق عن الإحاطة بها، فقال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد بين ذلك صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث كثيرة ، وأن من ابتغى الهدى في غير القرآن أضله الله، لأن خالق الخلق هو أعلم بمصالحهم ومنافعهم فشرع لهم ما فيه سعادتهم وفلاحهم، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ـ ٤] الإنسان هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي نزل عليه القرآن، وعلّمَه الله تعالى بيان القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ـ ١٩] أي: بيانه لك يا رسول الله.

ثم أمره سبحانه أن يبين للناس ما نزل إليهم على حسب ما يحتاجونه، وما فيه صلاحهم وسعادتهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

أما ذكر آدم عليه السلام فقد جاء في الآيات بعدها من سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الإنسان الأول من حيث الجسم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] فقد ذكر سبحانه الأب الروحاني الأول لبني الإنسان، ثم ذكر الأب الجسماني، وذلك لأن الأرواح مخلوقة قبل الأشباح، وإنّ أول روح خلقها الله تعالى هي روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبأه في ذلك العالم [1].

ونسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يوفقنا لاتباعه صلى الله عليه وآله وسلم على أكمل الوجوه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) كما يدل لذلك الحديث الذي رواه ابن حبان في (صحيحه) /٦٣٧٠/ (١٠٦/٨) عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته» الحديث، وله شاهد عند الترمذي /٣٦١٣/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والطبراني عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في (مجمع الزوائد) (٢٢٣/٨) وينظر (كشف الخفاء) للإمام العجلوني.

الترغيب بقراءة القرآن الكريم
في شهر رمضان المبارك
والتوبة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لقد فرض الله تعالى الصيام في كل الشرائع، إلاَّ أنه سبحانه خَصّ هذه الأمة بصيام أفضل شهر وهو شهر رمضان، وذلك لأنّ هذه الأمة هي أفضل الأمم، ورسولها هو أفضل الرسل صلى الله عليه وآله وسلم وشريعتها هي أفضل الشرائع.

وقد أنزل الله تعالى القرآن في هذا الشهر، وفي أفضل ليلة فيه، ونزلت معه ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، ونزلت معه الرحمات والأسرار والأنوار، فكان شهر رمضان ظرفاً لنزول القرآن وترك أثراً بخيراته وأنواره وروحه وأسراره باقياً إلى يوم الدين.

ولما كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تنزل معه ملائكة عظام، وقد ورد أنّ سورة الأنعام لمّا نزلت نزل معها ملائكة سدت آفاق الأرض كلها، وامتلأت الأرض بأنوار الملائكة[1]، ومن هذا تعلم فضل نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) كما روى الطبراني وغيره، انظر (مجمع الزوائد) (١٩/٧و٢٠) عن سيدنا عبد الله ابن عمر وسيدنا أنس رضي الله عنهم، وانظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي.

وإنّ في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ تنبيهاً للأمة أن تعلم أن هذا الشهر شهر القرآن، فينبغي لهم أن يكثروا من تلاوة القرآن في هذا الشهر، فإنّ مَنْ أكثر من تلاوته في هذا الشهر، ضاعف الله له الأجر أضعافاً أكثر من المضاعفات في غير رمضان، ثم غرس هذا القرآن في قلبه وروحه وعقله، ثم فتح الله له مفاهيم ومعارف قرآنية ينالها بقراءة القرآن في هذا الشهر، لأنّ لتلاوة القرآن في هذا الشهر آثاراً أعظم من بقية الأشهر، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم، والسلف الصالح يكثرون تلاوة القرآن في هذا الشهر، وقد نقل أن الأئمة الأربعة المجتهدين رضي الله عنهم، وهم أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، كانوا إذا دخل شهر رمضان تركوا كل شيء من الأعمال وانصرفوا إلى القرآن، تلاوة وفهماً وتعلماً، حتى أنّ أحدهم كان يختم القرآن كل يوم وكل ليلة، وربما أكثر من ذلك، فكانوا أئمة في العلم، وأئمة في العمل رضي الله عنهم.

وإنّ شهر رمضان شهر الرحمة والمغفرة والإحسان والعتق من النار.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى يعتق في كل يوم - وفي رواية وفي كل ليلة[1] ألفَ ألفِ رقبة من النار، فإذا كان آخر ليلة من رمضان أعتق في تلك الليلة مقدار ما أعتق في شهر رمضان كله[2]، وذلك لأن رمضان شهر الغفران والمنح الإلهية.

---

(١) كما في (سنن) الترمذي في كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان /٦٨٢/ (٣/٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في (شعب الإيمان) للحافظ البيهقي /٣٦٩٥/ (٣/٣٣٥) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

وإذا علمت ذلك فاغتنم هذا الموسم الكبير، وتب إلى الله تعالى من ذنوبك، وعاهد الله تعالى على أن لا تعود لها، واطرق أبواب رحمته سبحانه، حتى تشملك نفحات الحق في رمضان. ولا تكن من الذين حُرموا رحمة الله في هذا الشهر المبارك.

* * *

من فضائل شهر رمضان المبارك
مضاعفة الأجر والثواب فيه
وإجابة الدعاء

اعلم أن الله تعالى يُضاعف الحسنة إلى أضعاف كثيرة، ولكنّ مضاعفته سبحانه للعمل الصالح والقرض الحسن في رمضان إنما هي أضعاف ما هو مضاعف في غير رمضان، وقد ورد أن التسبيحة في رمضان تضاعف إلى سبعين، فإذا كان الله تعالى ضاعف الحسنة في غير رمضان إلى عشر، أو سبعين، أو سبعمائة، أو أكثر، فإنّها تضاعف في رمضان سبعين ما هي عليه من الأضعاف في غير رمضان.

أما ما ورد في المضاعفة العامة فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

روى الإمام أحمد في (مسنده)[١] عن أبي عثمان النهدي قال: بلغني عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ تعالى يُعْطِي عبده المؤمن بالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» قَالَ: فقضي أني خرجت حاجاً أو معتمراً، فلقيته فقلت له: بلغني عنك حديث أنك سَمِعْتَ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إن الله عز وجل يعطي عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة».

فقال أبو هريرة رضي الله عنه: لا، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله عز وجل يعطيه ألفي ألف حسنة» ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) (٢/٥٢١).

أي: أنك سمعت ألفَ ألفِ حسنة، لكنّ الوارد الذي سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلْفَي ألفِ حَسَنَة».

وهذه المضاعفات عامة، وهي تُضاعف في رمضان إلى سبعين ما ضوعفت إليه في غير رمضان، دل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ» أي: في رمضان «بِخَصْلَةٍ مِنَ الخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيْضَةً فِيمَا سِواهُ، وَمَنْ أَدَّى فَرِيْضَةً فِيْهِ كَانَ كَمَنْ أدى سَبْعِيْنَ فرِيْضَةً فِيْمَا سِواه» الحديث(١).

وعلى المؤمن أن يسعى جاهداً في فعل الخيرات خاصة في شهر رمضان، وأن يتقرب إلى الله تعالى، وأن يُحَسِّن الظن به سبحانه، فإنّ مِنْ كرم الله تعالى أنه من ظن به خيراً أعطاه الله تعالى وحقق ظنه، ولا يَمنع هذا أن تنظر إلى تقصيرك مَنْ ناحية، ولكن من ناحية أخرى اطمع برحمة الله وحَسِّنِ الظن به، وأقبل عليه سبحانه راجياً منه كل خير ورحمة وفضل، ألا ترى إلى الحديث القدسي الذي أرشد فيه الله تعالى عباده إلى طريق القرب إليه وهي النوافل، كيف افتتحه سبحانه بقوله: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حين يذكُرُنِي»(٢) وذلك حتى تتقرب إليه وأنت على حسن ظن به أنه يقربك ولا يقطعك، ويعطيك ولا يحرمك.

---

(١) رواه ابن خزيمة في (صحيحه) /١٨٨٧/ والبيهقي في (شعب الإيمان) /٣٦٠٨/ عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث قدسي رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] /٧٤٠٥/ (١٣/٣٨٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في أول كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار /٢٦٧٥/ (٥/٢٥٨٧)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب حسن الظن بالله تعالى /٣٥٩٨/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاء في الصحيح[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي».

وفي رواية[2]: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بي خَيْراً فَلَهُ، وَإِن ظَنَّ شَرَاً فَلَه».

فَمَنْ ظَنَّ بالله خيراً حَقَّقَ الله ظنه وأعطاه، وَمَن ظن به شراً عاد سوء ظنه عليه.

وفي رواية[3]: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حيث يَذْكُرُني».

وفي رواية[4]: «وَأَنَا مَعَهُ إذا دَعَاني».

«فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ» أي: جماعة «ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ» أي: في جمع أعظم منه وأكثر، بأن يُثني عليك في الملأ الأعلى «وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ منه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

وفي رواية[5]: «وَالله أَسْرَعُ بِالمَغْفِرَةِ».

---

(١) عند الإمام البخاري /٧٤٠٥/.

(٢) في (المسند) للإمام أحمد (٢/٣٩١)، وابن حبان /٦٣٨/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) عند الإمام مسلم في أول كتاب التوبة /٢٧٤٣/ (٥/٢٦٢٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) في (المسند) (٣/٢١٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وعند الترمذي /٢٣٨٩/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) عند ابن حبان /٣٧٧/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الفتح) (١٣/٥١٤) والله أعلم.

وليس المراد من قوله شبراً أو ذراعاً قُرب المكان، لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن المكان والزمان، بل إن هذا من باب ضرب المثل في قرب العمل، والمعنى: أنه سبحانه يتقرب إلى العبد ضعف ما يتقرب إليه العبد. وهذا لأنه سبحانه كريم يُحب من العبد أن يتقرب إليه، فمن تقرب إليه قرَّبه ضعف ما تقرب إليه.

وما طريق التقرب إلى الله إلا العمل الصالح بأنواعه، ومن جملته الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩] مما يدل على أن السجود يقرب إلى الله تعالى، وكذلك الصيام قربة إلى الله تعالى، وكذا الزكاة، والحج، وذكر الله تعالى، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قربة إلى الله تعالى.

وعليك أن تعمل وتتقرب إلى الله تعالى وأنت على حُسن ظَنٍّ به سبحانه بأنه يتقبل منك، وأنه يُضاعف لك هذا العمل الذي عملته.

وفي الأثر عن الله سبحانه: «من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ـ أي: مَنْ عمل ولو قليلاً أخذ الله بيده وقربه إليه ـ ومن تصرَّف بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مُرادي أردت له ما يريد، أهل شكري أهل زيادتي، وأهل ذكري أهل مجالستي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب».

واعلم أن شهر رمضان شهر العطاء الإلهي، وإجابة الدعاء، فقد قال سبحانه في شأن الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فلقد أمر سبحانه عباده بدعائه، وتكفل لهم ووعدهم بالإجابة.

وَمِنَ المؤسف والمحزن أن كثيراً من المسلمين قد غفلوا عن الدعاء، وإذا دعوا الله دعوا قليلاً، وَرُبما أعرضوا عن الدعاء، وربما اعتقدوا أن الدعاء لا ينفع شيئاً، وما هذا إلا لانتشار الجهل بين المسلمين في أمور دينهم.

ولقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة، وأمرنا الله تعالى باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثير الدعاء لرب العالمين، وإنّ الأدعية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرةٌ جداً، وكذا ذكر لنا سبحانه عن رسله وأتباعه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقد ذكر سبحانه في صفة أوليائه أنهم يدعونه دائماً، كما دلت على ذلك كثير من الآيات، كما في آخر البقرة وآل عمران وغيرهما.

ومن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وإنّ من جملة ما وعد الله عباده على لسان رسله أن يجيب دعاءهم، وهو سبحانه لا يُخلف الميعاد، وقد وعد بالإجابة في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

واعلم أن الدعاء عبادة لله تعالى، فكون المؤمن يدعو ربه ويسأله فهذا عبادة لله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾

أي: التي من جملتها الدعاء، وهو عبادة أيضاً ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: ذليلين، لأنهم تكبروا عن الدعاء؛ وأن يقولوا يارب، ولم يرفع أحدهم يديه إلى الله، ولذلك كان جزاؤهم مناسباً لعملهم بأن يدخلوا جهنم ذليلين صاغرين.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»(١) أي: أن الدعاء هو العبادة الخالصة لله تعالى.

وفي الحديث أيضاً: «الدُّعَاءُ سِلاَحُ الْمُؤمِنِ، ونُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»(٢).

فلا تهمل الدعاء أيها المؤمن، وادع الله تعالى دائماً حتى تكون في عبادة له دائماً، بل تكون في مخ العبادة، أي: خلاصتها، وتكون على سلاح سَلّحك الله به.

وإذا أردت أن يُحبك الله تعالى فكن على دعائه دائماً، فإنّ الله تعالى يحب أن يُسأل، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يُسأَلَ، وأَفْضَلُ العِبَادَةِ انْتِظَارُ الفَرَجِ»(٣) أي: كون المؤمن يدعو ربه وينتظر الفَرَجَ فهذا من أفضل العبادة. ويجب أن تعلم أن الله تعالى قال قولاً وقول الله حق: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات /٣٣٦٨/ (٩/٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو يعلىٰ كما في (مجمع الزوائد) (١٠/١٤٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/٤٩٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك /٣٥٦٦/ (٩/٢١٤) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٦٠] فبعد هذا الوعد والضمان الإلهي لا ينبغي أن ينتابك شك أن الله لا يجيب، لأنه سبحانه لا يخلف وعده، ولا يرفع كفالته.

ولقد بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو صاحب البيان عن القرآن ـ بَيَّن للأمة معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ وما فيها من كفالة الله بالإجابة.

فقد روى الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قَطِيعَةُ رَحِم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمَّا أن يُعَجِّلَ لَهُ دعوته، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ من السُّوءِ مِثْلَهَا»(١).

وروى مسلم في صحيحه(٢): «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم؛ ما لم يستعجل».

فمن دعا بإثم فإنّ الله لا يستجيب له، كَمن دعى الله أن يوفقه في الميسر، فإن الله لا يستجيب له لأنه محرم، ولو دعا بذلك وتحقق مراده فليس ذلك من دعائه، ولكن الأمر جاءه بقدر الله تعالى وهو وبال عليه.

وَمَن دعا بأمر فيه قطيعة رحم فإن الله تعالى لا يُجيب دعاءه، لأن القطيعة تحول بينه وبين الإجابة، ومن استعجل في الدعاء فإن الله لا يجيبه،

---

(١) (المسند) (١٨/٣) و(مجمع الزوائد) (١٠/١٤٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وله شاهد عند الترمذي /٣٥٧٣/ عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل /٢٧٣٥/ (٥/٢٦٢١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى: «يَسْتَعْجِلْ» بَيَّنَهُ صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «وَذَلِكَ بِأَنْ يَقُولَ قَدْ دَعوتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي»(١).

فهذا الكلام الصادر ممن استبطأ الإجابة يمنع حصول الإجابة، فليحذر المؤمن في دعائه وكلامه من أن يقول ذلك.

وما أدراك أيها المستعجل في دعائك أن الله لم يُجِبْك، وما أدراك أن إجابتك حصلت ولكن تَنَزّلها في العوالم حتى يصل أثرها إليك يستغرق مدةً؛ وأنتَ غافل عن هذا كله، قال تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد يؤخر الله سبحانه إجابة دعوة الداعي إلى الآخرة، لأنه في الآخرة أحوج إليها من الدنيا. وهذا يرجع إلى علمه وحكمته ورحمته سبحانه.

وقد يصرف عنك من السوء مثلها، أي: من أمر مكروه أو ضرر سيصيبك ولا تعلمه، فجاء دعاؤك ودفعه عنك.

ومن هنا تفهم أن الإجابة لا محالة محققة كما وعد سبحانه وتعالى.

ولما كان الدعاء عبادة، والعبادات قربات إلى الله، وإنّ كل قربة يتقرب بها المؤمن لابد أن يلقى جزاءها في الآخرة، لذلك لابد أن يلقى جزاء دعائه في الآخرة.

وقد روى الحاكم في (مستدركه)(٢)، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَدْعُو الله بالمُؤمنِ يَومَ القِيَامَةِ» أي: يأمر الملائكة أن تحضر

---

(١) كما في (مسند) الإمام أحمد (٣/١٩٣) و(مجمع الزوائد) (١٠/١٤٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وانظر البخاري كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد مالم يَعْجل /٦٣٤٠/ (١١/١٤٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (١/٤٩٤) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

عبده المؤمن «حتى يوقفه بين يديه، فَيَقُولُ الله تعالى: عَبْدِي إني أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَنِي، ووعدتك أَنْ أَسْتَجِيْبَ لَكَ، فَهَلْ كنت تدعوني؟

فَيَقُولُ: نَعَمْ يا رَبِّ.

فَيَقُولُ الله تعالى: أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجيب لك، أَلَيْسَ دَعَوتَنِي يَومَ كَذَا وكذا لغَمٍّ نزل بك أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ ؟ ففرجت عنك.

فَيَقُولُ العَبْدُ: نعم يَارَبِّ.

فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا.

ودَعَوتَنِي يَومَ كَذَا وكذا لغَمٍّ نزل بك؛ فِي أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ فَلَمْ تَرَ فَرَجاً؟

فَيَقُولُ: نعم يَا رب.

فَيَقُولُ اللهُ تعالى: إني ادَّخَرْتُ لَكَ بها فِي الجَنَّةِ كذا وكذا» أي: وأنت أحوج إليها من الدنيا.

«ودَعَوتَنِي يَوم كَذَا وكذا في حاجة أقضيها لك ؟ فقضيتها.

فَيَقُولُ: نعم يَارَبِّ.

فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا.

ودَعَوتَنِي يوم كذا وكذا فِي حَاجَةٍ أَقْضِيَهَا لَكَ فلَمْ تَرَ قَضاءَها.

فَيَقُولُ: نَعَم يَارَبِّ.

فَيَقُولُ: إني ادخرت لك بها في الجَنَّةكذا وكذا».

قَال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلاَ يَدَعُ» أي: لا يترك «اللهُ دَعْوَةً دعا بها عبده المؤمن إلا بَيَّن له» الحديث.

واعلم أن الدعاء باب رحمة، فقد روى الترمذي، والحاكم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ منكم بابُ الدُّعَاءِ

فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحمة، وَمَا سُئِلَ الله تعالى شَيْئاً يعطى أحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسأَلَ العَافِيَةَ»[(١)]. اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ادعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله تَعَالَى لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ»[(٢)].

وكما تريد أيها المؤمن أن يجيبك الله إذا دعوته، فهو سبحانه يحب منك ويأمرك أن تستجيب له إذا دعاك، وقد دعاك تعالى لعبادته وطاعته فقال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وروى مسلم والبيهقي[(٣)] ـ والرواية له ـ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبريل عليه السلام، عن رب العزة أنه تعالى قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» أي: قولوا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أطعَمْتُهُ، فَاستَطْعِمُونِي أطعِمكُم» أي: اطلبوا مني.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُم، يَاعِبَادِي إِنَّكُم تُخْطِئونَ بِالليْلِ والنَّهَارِ» أي: أنكم معرضون للخطأ في الليل والنهار «وأَنَا أَغْفِرُ الذنُوبَ جَمِيعاً فاستَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُم».

---

(١) الترمذي في كتاب الدعوات /٣٥٤٢/ (٩/١٩٩) والحاكم (١/٤٩٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات /٣٤٧٤/ (٩/١٥٦)، والحاكم (١/٤٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) (صحيح) مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم /٢٥٧٧/ (٥/٢٠٢١)، والترمذي /٢٤٩٧/ والبيهقي في (الأسماء والصفات) (١/٢٦٣).

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ» ـ وفي رواية[1]: «وحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُم وَرَطْبَكُمْ ويَابِسَكُم» ـ «كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا» ـ وفي رواية: «مازادوا فِي سُلْطَانِي مثل جناح بَعُوضَةٍ» ـ.

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ من سُلْطَانِي مثل جناح بَعُوضَةٍ.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ» ـ وفي رواية: «وحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُم وَرَطْبَكُمْ ويَابِسَكُم» ـ «قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَأَلُونِي حَتَى تنتهي مَسأَلَةُ كُلِّ وَاحد مِنْهُم» أي: سأل جميع ما يعلمه ويتمناه من أسئلة وأماني «فَأَعْطَيْتُ كُلًّ واحد منهم مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» والحق أنه لم ينقص من ماء البحر شيئاً، لأنه ولو أُخذت نقطة لابد أن تعود إلى البحر. فانظر إلى سعة كرم الله تعالى وعطاياه لعباده سبحانه.

فانهض بهمتك أيها المؤمن، واصدُق في السؤال والطلب من الله تعالى، فهو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وكن على يقين أنه سيعطيك ولا يحرمك، ولاسيما الدعاء في شهر رمضان، الذي وعد الله فيه الصائمين بإجابة دعائهم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الصَّائِمُ حَتَى يُفْطِر»[2] أي: لأنه في عبادة والعابد مجاب دعاؤه.

---

(١) في (المسند) (٥/١٤٥)، و(سنن) الترمذي /٢٤٩٧/.

(٢) الحديث: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم» رواه ابن خزيمة /١٩٠١/، وابن حبان /٣٤١٩/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وهناك دعوة للصائم مجابة حين فطره، كما دلت عليه رواية[1]: «الصَائِم حِيْنَ يُفْطِر». فلا تنس ذلك، وسل الله بعد إفطارك، واطرق أبواب رحمته وإحسانه سبحانه وتعالى.

كما أن الدعاء مجاب أيضاً في وسط الليل، وفي السحر، ووراء الصلوات. فقد قال رجل: يا رسول الله أيُّ الدعاء أسمع. أي: أسمع للإجابة والقبول؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جوفُ الليْلِ الأخير، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ» الحديث[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سَاعَتَانِ تُفْتَحُ فِيهِمَا أَبْوَاب السَّمَاء وقلما ترد على داع دعوته: عند حُضُور النِّدَاء، والصَّفِّ فِي سَبِيْلِ الله»[3].

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أهمهم أمر تربصوا وتحينوا وقت الأذان، حتى إذا نادى المؤذن راحوا يدعون، ويصغون للأذان مع إجابة المؤذن.

وفي الحديث[4]: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

فاحرص على ذلك أيها المؤمن، واغتنم أوقات السحر والإجابة لتسعد في الدنيا والآخرة.

---

(١) عند الإمام أحمد (٢/٤٤٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، /٣٤٩٤/ (٩/١٦٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود /٢٥٤٠/، وابن خزيمة (١/٢٢٢)، وابن حبان /١٧١٧/ (٣/١١٠) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٤٨٧)، والبخاري /١١٤٥/ ومسلم /٧٥٨/، والترمذي /٣٤٩٣/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث[1]: «إِنَّ رَبَّكُمْ تبارك وتعالى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيي من عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صُفْراً» أي: حياء كرم منه سبحانه، فلا يرد سائله ولا يخيب آمله. اهـ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء/ ١٤٨٨/، والترمذي /٣٥٥١/، وابن ماجه /٣٨٦٥/ عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه.

محاضرة حول

فضائل وخصائص
الأيام العشر الأوائل من ذي الحجة
بما فيها يوم عرفة

فضائل وخصائص

الأيام العشر الأوائل من ذي الحجة

بما فيها يوم عرفة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ـ٥].

أما الفجر فهو: الوقت الذي يَنْفَجِرُ فيه النور، ويُشرِق على هذا العالم الأرضي، ويَذْهب بظلام الليل. وهذه آية من آيات الله تعالى تدل على قدرته وتدبيره سبحانه لهذا العالم.

وقال بعض السلف: المراد بالفجر في الآية فجر يوم النحر. نعم ويشمل هذا جميع الأيام التي ينفجر فيها الفجر.

وعلى المؤمن أن يعتبر في شأن هذا الفجر، الذي راح يَشُقّ الظلام المُسْتَحْكِم بنوره الباهر القاهر، وينتشر النور ويقوى حتى يعمَّ الأرض كلها.

إنّ هذا كله بسبب التجلي الإلهي الذي أخبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث الذي رواه الشيخان[١]، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا حِيْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيْبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيْمٍ وَلاَ ظَلُومٍ؟ حَتَى يَنفجر الفَجْرُ».

---

(١) تقدم تخريجه قريباً ص /٣٧٠/.

وإن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» دليل على أنه تَنَزُّل بالربوبية التي فيها تربية العالم وإمداده، وَمِنْ جملة ما يترتب على هذا التنزل انفلاق الفجر، ولولا هذا التنزل الإلهي في كل آخر ليلة لما انتظم أمر هذا العالم، ولَمَّا يريد الله تعالى خراب هذا العالم ينقطع هذا التجلي الرباني.

ويرحم الله تعالى القائل:

أَبَرْقٌ بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

نعم أسفرت ليلاً فصار بوجهها ... نهاراً به نور المَحاسن ساطع

فلما تجلى سبحانه في الثُّلُث الأخير، وتنزلت أنواره بهذا التجلي، وتنزلت رحماته وإمداداته، واتصلت بهذا العالم الدنيوي، كان منها ظهور الفجر، مُؤذناً بنهاية التجلي.

وإن لوقت الفجر خصائصه الشرعية، فقد قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: أن عبادة الله تعالى والصلاة له سبحانه وقت الفجر، تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهدها الذي هو على كل شيء شهيد سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وقد أجمع المفسرون على أنها الليالي العشرة من ذي الحجة، وقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري[(١)]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عز وجل مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ» يعني: عشر ذي الحجة.

---

(١) في كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق /٩٦٩/ (٢/٤٥٧)، وأبو داود /٢٤٣٨/، والترمذي /٧٥٧/.

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟!

قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فلم يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

فهذا الذي خرج بنفسه وماله مجاهداً في سبيل الله تعالى، ثم استشهد وقد أنفق ماله في سبيل الله تعالى، فعمله هذا يساوي العمل الصالح في هذه الأيام، فما أعظم العمل الصالح في هذه الأيام! فهو أحب الأعمال إلى الله تعالى وأعظمها. كما روى الطبراني بإسناده الجيد[1]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعظَمُ عندَ الله، وَلاَ أَحَبَّ إِلَى الله العَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ أَيَام العَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فيهن مِنَ التَّسْبِيْحِ وَالتَّحْمِيْدِ وَالتَّهْلِيْلِ وَالتَّكْبِيْرِ» يعني: أَكْثِرْ فيها من عبادة الله تعالى ما استطعت، كالصلاة مثلاً، ففيها التسبيح والتكبير وهكذا.

واعلم أن أجور الأعمال مُضاعفة في هذه الأيام: في ليلها ونهارها، وأقل مضاعفة في هذه الأيام إلى سبعمائة كما دل عليه الأثر[2].

فلو قلت في هذه الأيام: سبحان الله مَرَّة، فكأنك قلت في غيرها من الأيام سبعمائة مرة: سبحان الله، وهكذا.

ولقد كان السلف رضي الله عنهم يتسارعون إلى العمل الصالح في هذه الأيام، سيما في فَصِّ هذه الأيام، وهو يوم عرفة.

وقد روى الترمذي وصححه[3]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) (مجمع الزوائد) (١٧/٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في (شعب الإيمان) للحافظ البيهقي /٣٧٥٨/ (٣٥٦/٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) في كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر /٧٥٨/ (١٠٤/٣) عن=

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِن أَيَّامٍ أَحَبُّ إلى الله تعالى أن يُتعبد له فيها من عشر ذي الحجة، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر» ورواه البيهقي أيضاً[1]، وهذا من حيث الثواب الإجمالي.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ فالليالي عشرة، والأيام تسعة ولكن غلب عليها العلمية، فيقال: إن الليالي عشرة أيضاً.

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ أقسم سبحانه بالشفع والوتر وهما صفتان للعدد ونوعان، فإنَّ العدد لا يَختلف أن يكون شفعاً أو وتراً، وهذان النوعان والوصفان يشملان جميع الأشياء.

فأقسم الله سبحانه بصفتين جامعتين شاملتين لسائر أنواع المخلوقات المكونات، وسائر أنواع المشروعات المأمورات، فهو قَسم بالأحكام الشرعية والأحكام الكونية.

وذلك لأنّ الأوامر الشرعية منها الشفع ومنها الوتر، فالصلاة منها الشفع ومنها الوتر، وكذلك مناسك الحج، ومواضع مناسك الحج، وأزمنة مناسك الحج كلها تدور بين الشفع والوتر.

أما المواضع فهناك الصفا والمروة شفع، والكعبة المشرفة وتر، ومواضع الجمرات ثلاثة فهي وتر.

وأما أعمال الحج: فالطواف وتر، وبعده ركعتان وهما شفع.

وكذلك الأزمنة: فيوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع؛ لأنه اليوم العاشر من ذي الحجة.

= سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) في (شعب الإيمان) /٣٧٥٧/.

وهكذا أقسم سبحانه بالشفع والوتر الشاملين لسائر المشروعات والمأمورات، والشاملين لسائر المخلوقات والمكونات، فإن جميع المخلوقات تدور بين الشفع والوتر من الذوات والصفات.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صفتين متقابلتين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] فما من شيء إلا وله مقابل، فهناك الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والليل والنهار، والظلمة والنور، والحياة والموت، والعلم والجهل، والعزّ والذُل، والفقر والغنى إلى آخر هذا.

وقال بعض السلف: المراد بالشفع المخلوقات، والمراد بالوتر الخالق جل وعلا، لأنّك إذا نظرت في المخلوقات ترى أنه ما منها إلا وهو شفع، ولا وتر على الحقيقة، إنما الفردية والأحدية ذاتية لله وحده.

وأما الإنسان مثلاً فهو شفع في ذاته وفي صفاته، فأنت تسمع بالسمع مثلاً ولكنك موصوف بالصم أيضاً، فأنت تسمع ولا تسمع، فأنت تسمع إلى جهة معينة وإلى حد معين، ولكن إذا بَعُدَ الشيء عن سمعك فلا تسمع مع أنّ فيك صفة السمع، فأنت إذاً في صفاتك شفع، وهكذا أنت تبصر ولا تبصر، وأنت حي وأنت تموت وهما صفتان عارضتان عليك، وأنت عالم وجاهل فيما لا تعلمه، فجميع صفاتك فيها صفة التقابل والتضاد.

وأما الصفة الوترية الأحدية التي لا تقبل التعدد ولا المقابلة فهي صفة الله وحده، فهو سبحانه حي ولا يموت، وهو سميع بالسمع المطلق الذي لا يتصف بقيد ولا حد ولا انتهاء، كذلك سائر كمالاته سبحانه وتعالى.

وهناك قراءة متواترة بكسر الواو: ﴿والْوِتْرِ﴾ والوِتر والوَتر بمعنى واحد في لغة العرب.

كما أن الإنسان في ذاته شفع، إذ أن له عينان، وشفتان، ومنخر له ثقبان، وله في الحقيقة لسانان: لسان صغير وهو البلعوم الداخلي، ولسان كبير وهو اللسان المعروف، وكذلك قلبك له وجهان: وجه للعلو ووجه للسفل، ولك جهتان اليمين والشمال، فالشفعية محيطة بذاتك وصفاتك، وأما الأحدية والوترية فهي لله وحده.

واعلم أنه ليس للشفعية مَرتبة حقيقية، وإنما المرتبة الأصلية الذاتية الحقيقية للوتر، وإليك ما يُوضح ذلك: فالعدد كله مركب من الواحد والمرتبة الذاتية للواحد، وقد تركبت جميع رتب الأعداد من الواحد، فتقول: اثنان، ثلاثة، أربعة، مائة، كل ذلك مؤلف من الواحد، لأن الاثنان هما واحد وواحد. وهكذا بقية الأعداد.

فالواحد يدور على كل المراتب، وقد تألفت منه كل المراتب، ولولا الواحد لَمَا كان للمراتب وجود، فالواحد هو الأصل والكل فرع عنه.

فجميع الرتب للواحد أصلية ذاتية حقيقية، وأما الرتب لغير الواحد فهي نسبية اعتبارية. فما أعجب أمر الواحد مع الشفع، وما أعجب أمر الواحد في مراتب العدد وفي هذا عبرة لأولي الألباب.

وجاء في الحديث[1]: «إنَّ لله تِسعَةً وتِسْعِيْنَ اسماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، إِنَّ الله وتْرٌ يُحبِ الوِتْرَ».

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: سرىٰ مُدْبراً عن هذا العالم، لأن الفجر قد انفجر وأخذ نوره بالانتشار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة /٦٤١٠/ (١١/٢١٤)، ومسلم في كتاب الذكر والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها /٢٦٧٧/(٢٥٨٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[المدثر: ٣٣ـ٣٤] فاعتبر أيها الإنسان في قدرة الله تعالى الذي أتى بالنور البَاهر والقاهر، وجعل الليل يسري عن هذا العالم مدبراً.

واعتبر في أصل ومبدأ الأشياء، إذ كانت كلها في العدم، والعدم ظلمة، ثم أفاض الله تعالى عليها نور الوجود فصارت موجودة به سبحانه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ وهو استفهام تقريري، أي: إنَّ في انفجار الفجر وظهور الضياء، وإدبار الليل بظلامه، في هذا كله قسم لذي حِجْر، لأنّه أمر واقع مشهود، يَحق أن يُقسم به لكل صاحب عقل.

وإنما يقال لصاحب العقل: ذي حجر، لأنه يَحْجُر ـ أي: يمنع ـ صاحبه عن الرذائل.

ويقال له: عقل، لأنه يَعقل صاحبه كالعقال.

ويقال له: نُهْية، لأنه ينهى صاحبه عن المضارّ.

وفي هذه الآيات المشهودة يقيم الله تعالى الحجة على كل من له عقل وحِجْر وفهم، لأن عقله يمنعه عما نهى الله تعالى، لأنه عرف الدلائل الدالة على الله تعالى، وعلى وحدانيته وقدرته، فما عليه إلا أن يمتثل أمر الله تعالى فيما أمر أو نهى.

ولا تكن أيها العاقل كالذين استكبروا واستنكفوا عن أمر الله تعالى واعتمدوا على علمهم وفهمهم فدمرهم الله، ومَنْ هؤلاء؟ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] الذين ادعوا أن لهم القوة ولا أحد أشد منهم، كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ [فصلت: ١٥] فلقد افتخروا بقواهم وما عندهم من العلم والمصنوعات والأسباب.

فرد الله تعالى عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فما عليك يا صاحب العقل إلا أن تمتثل أمر الله تعالى، ولا تستكبر عن عبادته وطاعته، ولا تستهين بعقابه وعذابه، أَوْ تظن أنه غير قادر على إهلاكك وتعذيبك، فلقد أهلك سبحانه من هو أقوى منك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أي: في قوتها وآلاتها وأسبابها ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٦ــ٩] أي: قطعوا الصخور من الوديان، ونقلوها حتى يبنوا منها الأبنية العالية الشامخة، وأنت تعلم أنه لقطع الصخر لا بد من أسباب وآلات ومخترعات؛ وإن كانت على هيئة تختلف عن التي في زماننا.

وهذه عادة الأمم الكافرة على وجه الأرض، فلكل أمة مخترعاتها وأسبابها التي تفتخر بها، ويسخرون بها من المرسلين صلوات الله عليهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي العلوم الكونية الأرضية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فلا تعجب من الكفار إذا اخترعوا وابتدعوا، وتطوروا في علومهم الكونية ومخترعاتهم، فلقد كانت الأمم الكافرة قبلهم، والتي ذكرها الله تعالى لنا في القرآن، كانت أقوى منهم وأشدَّ تأثيراً، وأنكل قوة في الأرض.

وعلى هذا فعلى صاحب الحِجْر أن يحجره عقله، ويمنعه عن ارتكاب ما نهى الله تعالى، وإلا فإنّ الله تعالى سيعاقبه كما عاقب من قبله ممن هو أشد قوة وآثاراً في الأرض، وذلك لأن الله تعالى لهم بالمرصاد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] أي: بالرصد والترقب لك، فلا تظن أن الله غافل عنك سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وأول ما يشمل هذا فجر يوم النحر وليلة عرفة، وإنّ يوم عرفة وليلة عرفة هي فَص خاتم العشر.

واعلم أنَّ ليلة عرفة هي ليلة العيد، وليست هي الليلة السابقة عن يوم عرفة، وليلة العيد هي تابعة ليوم عرفة، ولها حكم يوم عرفة، ولذلك مَنْ أدرك الوقوف في عرفة ليلة العيد كفاه، ولكنه ترك واجباً وهو الوقوف بجزء من الليل وجزء من النهار.

وقد خص الله تعالى يوم عرفة بالخصائص والأسرار منها: أنه يوم التعارف، إذ يَتعرف الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعطاء، وهو يوم يتعرف فيه العباد إلى الله بالعبدية والذل والافتقار، والاعتراف بالذنوب والافتقار إلى الله تعالى.

وهو يوم عرف فيه آدم بأنه ظلم نفسه، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتعرف الله إليه بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

فهو يوم اعتراف العبد بذنبه: ليعرفه الله بمغفرته، واعتراف العبد بفقره وذله: فيعرفه الله برحمته وعطائه وهكذا.

وقد روى الطبراني[1]، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

---

(١) (مجمع الزوائد) (٣/٢٥٧).

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله تعالى قَدْ تَطَوَّلَ عَلَيْكُم فِي هَذَا اليَوم فَغَفَرَ لَكُم، إِلاَ التَّبِعَات فيما بينكم» أي: حقوق العباد فيما بينهم «وَوَهَبَ مُسِيْئكُم لِمُحْسِنكُم» أي: فهو سبحانه قَبِل المحسن، وتجاوز عن المسيء «وَأَعْطَى لِمُحْسِنِكُم مـا سـأل، فَـادْفَعُوا بِاسْمِ الله» أي: إلى مزدلفة.

فَلَمَّا كان في مُزدلفة قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الله تعـالى قَـدْ غفَرَ لِصَالِحِيكُمْ، وَشَفَّعَ صَالِحِيكُم فِي طَالِحِيكُم، تَنْزِلُ الرحْمَةُ فَتَعُمُّهُم، ثُمَّ تفرق الرَّحْمَةُ في الأَرْضِ، فَتَقَعَ عَلَى كُـلِّ تَائِبٍ مِمَّـنْ حَفِـظَ لِسَانَهُ وَيَـدَهُ، وَإِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ يَنْظُرُونَ عَلَى جِبَالِ عرفات، ينظرون مَـاذَا يَصْنَعُ الله بِهِـم، فَإِذَا نَزَلَتِ الرَّحْمَةُ دَعَا إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ بالوَيـلِ والثُبُـور» أي: فـتنزل المغفـرة والرحمة في يوم عرفة أولاً على أهل عرفة، ثم تَعـم جميـع المـؤمنين علـى وجه الأرض.

كما أن يوم عرفة هو أشد يوم على إبليس وأعداء الله تعالى، لِمَـا روى مالك في الموطأ[1]، عن طلحة بن عبيـد الله رضـي الله عنـه، أن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَا رُؤي الشـيطان يَومـاً هُـوَ فيـه أَصْغَرُ وَلاَ أدحر، ولا أَحْقَرُ، ولاَ أغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوم عَرَفَـةَ، ومـا ذاك إلا لِمَـا رأى مِـنْ تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذُّنُوبِ العِظَام، إِلا مَا أُرِي يَومَ بدرٍ» الحـديث. أي: فكان غيظه أعظم، لأنه رأى جبريل عليه السلام يَزَعُ[2] الملائكة.

وهكذا تجلى الله تعالى على أهل عرفة بالمغفرة والرحمة، بعدما اعترفـوا

---

(١) (الموطأ) في كتاب الحج، باب جامع الحج (١/٣٦٩) بشرحه (تنوير الحوالك) للحافظ السيوطي.

(٢) أي: يصفهم.

له بالذنوب والافتقار إلى رحمته، فلما غفر لهم ورحمهم جعل لهم اليوم الثاني عيداً، فالعيد هو عِيْدٌ حقيقي سعيد لمن شملته مغفرة الله ورحمته.

ومعنى أن يكون اليوم الثاني عيداً لِمَنْ شملته مغفرة الله ورحمته يعني: أن فيه معَايدة الله عليك بالإحسان وبالوصال والوداد والمحبة.

وهذا معنى العيد، أن يصلك ربك ويتجلى عليك بالرضا والسرور وهذا هو العيد السعيد، وليس العيد بلبس الجديد، والتبرج في مواضع الوعيد.

وقد خرج يوم العيد الإمام الشبلي رضي الله عنه من المسجد، ورأى الناس قد فرحوا فقال مخاطباً ربه:

إذا ما كنت لي عيداً ... فما أصنع بالعيد
جرى حبك في قلبي ... كجري الماء في العود

وأنت تعلم أن حياة العود بجريان الماء فيه، فَمَنْ سرى حب الله في ذرات قلبه حَيِيَ قَلبه حياة الأبد، وفرح وسعد سعادة الأبد. وهذا العيد السعيد.

ودخل مرة على الإمام الجنيد رحمهما الله تعالى، ووقف أمامه، وجعل يميل ويقول:

عَوّدوني الوصال والوصل عَذْب ... ورموني[(١)] بالصدِّ والصدُّ صعب
زعموا حين أجمعوا أن ذنبي ... فرط حبي لهم وما هو ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي ... ما جزا من يُحِبُّ إلا يُحَبُّ[(٢)]

---

(١) من رمى: بفتح الميم.

(٢) الأول مبني للمعلوم، والثاني للمجهول.

أي: إذا أحببت الله تعالى أحبك الله سبحانه، ومن ذاق ذَرّة من حب الله زهد في كل ما خلق الله تعالى من الدنيا وزخارفها.

كما أنّ يوم عرفة هو يوم قبول القاصدين لحضرة رب العالمين، فهو سبحانه يَقبل في هذا اليوم كل مَنْ قصده، وفي الحديث[1]: «الحَجُّ عَرَفة».

والحج هو: القصد، وأنت مأمور أن تحج البيت، أي: تقصده، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: قصد البيت بالجسم لكن القلب قاصد ربّ البيت، كما تقول: ذهبت إلى بيت فلان، فهل أنّ مرادك البيت؟ أم صاحب البيت؟

ويقال: اذهب إلى بيت فلان فلا يخيبك، أي: إلى صاحب البيت.

فلما دعانا سبحانه إلى البيت بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فالجسم يذهب إلى الجسم، والقلب يتوجه إلى الرب، ومَنْ قصد بيت الكريم فلا يخرج منه إلا وقد شمله الكرم والعطاء، وأعظم يوم الحج والقبول الإلهي هو يوم عرفة، وهذا معنى: «الحَجُّ عَرَفَة».

ومَنْ لم يتيسر له الحج بالذهاب الحسي فعليه أن يقصد ربه بقلبه وروحه.

والحاج على ثلاثة مراتب: رجل يحج بجسمه وروحه فهو في أعلى المنازل. ورجل يحج بروحه لا بجسمه؛ لعدم استطاعته، فله أجر الذي ذهب بجسمه وروحه. ورجل حج بجسمه لا بروحه وقلبه، وهذا شأن كثير

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، وأبو داود في كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة /١٩٤٩/ (٢/ ٤٨٥)، والترمذي /٨٨٩/ وغيرهم، عن سيدنا عبد الرحمن بن يَعْمر رضي الله عنه.

من أغنياء الزمان ومترفيهم، إذ يتضايقون من أداء مناسك الحج، ويتأففون من الحر وزحمة الناس، وغفلوا عن الأجر الكبير والثواب العظيم الذي ادخره الله تعالى لمن تَحَمّل تلك المشاق والمصاعب لأداء مناسك الحج.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ بالمدِينَةِ أَقْوَامَاً مَا سِرتُم مَسِيْراً وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيَاً إِلاَ كانوا مَعَكُم».

قالوا: يا رسول الله وهم في المدينة؟

قال: «وهم في المدينة، حَبَسَهُم العُذْرُ»[1].

واعلم أن فريضة الحج لا تسقط عن المكلف المستطيع إلا بالذهاب بجسمه لأداء مناسك الحج.

وكما أنك تحج بيت الله تعالى بقلبك وروحك، فكذلك تزور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقلبك وروحك، وتسلم عليه صلى الله عليه وآله وسلم وتخاطبه وتستشفع به.

وفي هذا يقول القائل:

شدوا المطي وقد نالوا المُنى بمنى
وكلهم بأنين الشوق قد باحا
سارت ركائبهم تندى روائحها طيباً
بما طاب ذاك الوفد أشباحاً

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي /٤٤٣٢/ (١٢٦/٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ـ وهذا نصه ـ وانظره فيه أيضاً /٢٨٣٩/، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر /١٩١١/ (١٩٩١/٤) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وأبو داود /٢٥٠٨/ وغيرهم.

نســـيم قـــبر الـــنبي المصـــطفى لهـــم

رَوحٌ إذا شـــربوا مـــن ذكـــره راحـــا

يـــا راحلـــين إلى المختـــار مـــن مُضَـــر

ســـرتم جســـوماً وســـرنا نحـــن أروحـــا

وقـــد أقمنـــا علـــى عُـــذر وعـــن قَـــدَرٍ

ومـــن أقـــام علـــى عُـــذر كمـــن راحـــا

كما أنَّ يوم عرفة هو اليوم الذي أكمل الله فيه هذا الدين، وأتم النعمة على عباده المسلمين، وحفظ دينهم، وَأَمَّنَهُم من أن ينال الكفار هذا الدين بالأذى والضرر، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة، يوم حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة الوداع، وقد كان يوم نزولها يوم عيد وفرح للمؤمنين، حتى جاء بعض اليهود إلى عمر رضي الله عنه حينما كان خليفة.وقالوا له: آية في كتابكم لو نزلت علينا لاتخذنا لها عيداً.

قال: أيّة آية؟

قالوا: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية.

فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم أين نزلت، وفيما نزلت، وأين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلت، نزلت يوم جمعة في عرفة،

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعرفة. فكان يوم فضل على فضل [1].

ولقد بَشَّر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية أن دِيْنَ سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم لا يُمحى من وجه الأرض ما دام هذا العالم موجوداً، وإنْ قوي في بقعة فقد يضعف في أخرى، وإن اختفى في بقعة ظهر في أخرى، ولكنه لا يزول من وجه الأرض حتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي: يئسوا من أن يَخذلوا هذا الدين ويمحوه ويتغلبوا عليه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْن عَلَى الَحقِّ، لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خذلهم، حَتَى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُم عَلَى ذَلِكَ» [2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ والكمال لا يقبل الزيادة بل هو منتهى الزيادة في الأمر.

فتقول: أتممت الكأس بالماء، أي: جعلتها غير ناقصة، لكن الكمال إذا أفرغت عليها الماء حتى سال على جوانبها، وهذا الفرق بين الكمال والتمام، فتمام الكأس بالماء ملؤها بالماء وعدم نقصها، ولكنّ كمالها أن تزيد الماء فيها حتى يسيل على جوانبها.

---

(١) الخبر في البخاري في كتاب المغازي باب حجة الوداع (٨/١٠٨)، ومسلم في كتاب التفسير /٣٠١٧/ والترمذي /٣٠٤٦/ وغيرهم.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) /٤/١٠٤/ عن سيدنا سلمة بن نفيل رضي الله عنه، والبخاري في كتاب المناقب /٣٦٤١/ (٦/٦٣٢) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة...» /١٩٢٠/ (٤/١٩٩٧) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

فلقد بلغ دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوج الكمال، ولا دين أكمل منه، ولا شرع ولا حكم أكمل منه، ولا أسعد للبشرية منه، في عقيدته وأحكامه، يَعرف هذا كل من تعقل وأنصف وعرف الحق واعترف به.

ولقد نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ناقته العضباء يوم عرفة في حجة الوداع.

ولما نزلت الآية بركت الناقة على الأرض، ووضعت جِرانها لثقل القوة الروحية حالة الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تتحمل الناقة ذلك، حتى بركت، ونزل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]، وتدبر وتأمل في القوة التي أمد الله تعالى بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى ثبت وتحمل نزول هذا القرآن العظيم عليه في حين لو نزل شيء منها على الجبال الرواسي لتصدَّعت.

ولما نزلت هذه الآية فَهِمَ منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد اقترب أجله، باعتبار أنّ الأمر قد بلغ حد الكمال، وقد انقضى أمر تبليغك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد بلّغت وأَدَّيْتَ ونصحت، حتى بلغ هذا الدين كماله.

وقد فهم هذا أيضاً كبار الصحابة رضوان الله عنهم، حتى جعل عمر رضي الله عنه يبكي، لأنه فهم أنها نعي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإيذان بقرب وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا اليوم بواحد وثمانين يوماً صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير.

ولما نزلت هذه الآية وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرب أجله، وَدَّعَ الصحابة وَوَدَّعَ الأمة، وذلك يوم حجة الوداع، وقد اجتمع وقتئذٍ عدد كبير من المسلمين، فخطب فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووعظهم ونصحهم وأرشدهم إلى ما فيه مصالحهم الدنيوية والأخروية، فأفاض عليهم من علومه وأسراره صلى الله عليه وآله وسلم، وأفاض عليهم من أجزائه الشريفة، إذ وزع عليهم شعره(1) وأظفاره(2) الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة، ويوم النحر وأيام التشريق، وأكثر وأطال في ذلك، مُودعاً لهم، فكان أول ما خطبهم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاس اسمعوا قولي حَتَى أُبَيِّنَ لَكُم، فإني لا أدري لَعَلِّي لاَ أَلْقَاكُم بَعْدَ عَامِي هذا»(3).

وقال لهم يوم النحر: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا» ؟ قَالُوا: يَوْم الحج الأكبر، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟

أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ، وَلاَ يَجْنِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ ؛ وَلاَ وَلَدٌ عَلَى وَالِدِهِ، أَلاَ لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلاَّ مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ، أَلاَ

---

(1) كما في (المسند) (٣/ ٢١٤) و (صحيح) البخاري في كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغسل به شعر الإنسان /١٧١/ (١/ ٢٧٣)، و(صحيح) مسلم في كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم .../١٣٠٥/ (٣/ ١٣٣٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) كما في (مسند) الإمام أحمد (٤/ ٤٢) عن سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(3) كما في سيرة ابن هشام.

وَإِنَّ كُلَّ رِباً فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، لَكُمْ رُؤوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ» أي: أسيرات «عِنْدَكُمْ» أي: تحت ولايتكم وأمركم «لاَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، ألا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، أَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ: فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ» أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل بيت زوجها من لا يرضاه «وأما حَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ: أَنْ تُحْسِنُوا فِي طَعَامِهِنَّ وكِسْوَتِهِنَّ بالمعروف، لكم مثل الذي عليهن بالمعروف ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨][(١)]».

وقد خطبهم صلى الله عليه وآله وسلم يوم النحر، كما جاء في الصحيح[(٢)] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوات وَالأَرْضَ» إذ كان المشركون في الجاهلية يتلاعبون في أوقات الأشهر الحرم، لأنها كانت حُرماً عندهم مما وصلهم من شرع إسماعيل عليه السلام، فيتلاعبون فيها تقديماً أو تأخيراً عن وقتها حتى يستمروا في قتالهم، فلما بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل الأشهر كلها في أوقاتها التي خلقها الله تعالى عليها، فاستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.

وهكذا استدار الزمان الشهودي على الزمان الغيبي الروحاني، فإنّ الزمان الغيبي الروحاني بدأ أوّلاً برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) ينظر (مجمع الزوائد) (٣/٢٦٥) وما بعدها.

(٢) (صحيح) البخاري في كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رب مبلغ أوعى من سامع» /٦٧/ (١/١٥٧) وانظر فيه /٣١٩٧/، ومسلم في كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدعاء والأعراض والأموال /١٦٧٩/ (٤/١٧٤٧) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أوّل نبي في عالم الأرواح، ثم استدار الزمان حتى بعث صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بعث صلى الله عليه وآله وسلم نبياً إلى جيمع الأنبياء، ورسولاً إلى كل الرسل، وأمر الله تعالى جميع الرسل والأنبياء أن تؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أيُّ يوم هَذَا» ؟ قال: فَسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بِغَيْرِ اسْمه، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ» ؟ قُلْنَا: بَلَى، ثم قال: «أيُّ شَهْرٍ هَذَا» ؟ فظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بِغَيْرِ اسْمه، قَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّة» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأيُّ بَلَد هَذَا» ؟ فَسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْرِ اسْمه، قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدُ الحرام» ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَة يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» فحرمة المؤمن على المؤمن أعظم من هذه الحرمات الثلاثة مجتمعة.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالكُمْ، ألاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، ألاَ هَلْ بَلَّغْتُ، ألاَ هَل بلغتُ، ألاَ هَل بلغتُ، ألا فَلِيُبَلِّغْ الشَّاهدُ الْغَائبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمعَ» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اشهد».

وقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أبداً: كِتَابُ اللَّهِ تعالى فَاعْمَلُوا به.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، ولا لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ؛ وَلاَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلاَّ بِتقْوَى الله».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَامَعْشَرَ قُرَيشٍ لاَ تَأْتُونِي يَومَ القِيَامَةِ تَحمِلُونَ الدُّنْيَا على رِقَابِكُمْ، وَتَحْملُ النَّاسُ الآخِرَةَ، فَإِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئاً» أي: لا تكفروا وتتهافتوا على الدنيا وتنتظروا شفاعتي بكم بعد ذلك، بل عليكم أن تؤمنوا وتعملوا فأنا أشفع بكم عندئذٍ.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَسَأُخْبِرُكُمْ مَنِ المُسْلِمُ: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنِ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّه تعالى».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّكُمْ مَسؤولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُم قائِلُونَ»؟

قالوا: نشهدُ يا رسول الله أنكَ قد بلَّغْتَ وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ.

فَرَفَعَ بَصَرَهُ صلى الله عليه وآله وسلم إِلَى السَّمَاءِ وَجَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ وَيُحَرِّكُهَا عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ»(١).

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم تحلل، وحلق شعره، وأمر الحلاق أن يأخذ الجانب الأيمن من شعره ـ وهذا من سنته صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأمر أن يعطىٰ هذا لأبي طلحة رضي الله عنه، ثم أمر أن يُحلق الشق الأيسر، وأمر أن يعطى لأمِّ سليم زوجة أبي طلحة، ثم قسم أبو طلحة رضي الله عنه شعره الأيمن على الصحابة، وكذلك أمُّ سُليم قسمت على نساء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

(١) تقدم التخريج للخطبة ص /٣٩١/.

قال جابر رضي الله عنه: فكان الواحد يأخذ الشعرة والشعرتين حتى توزع شعره صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا دليل كثرة الصحابة وقتئذ.

وهكذا أودع عندهم صلى الله عليه وآله وسلم أجزاء منه، وفي تخصيص أبي طلحة رضي الله عنه إشارة إلى أنه هو الذي يحفر قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وقد حفره بالواقع لما توفي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قَصّ صلى الله عليه وآله وسلم أظفاره وأعطاها لبعض الصحابة[1]، باعتبار أن الأظفار قلائل، فأعطاها للقلائل.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبركون ويستشفعون إلى الله تعالى ببركة شعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، ويستنصرون الله تعالى بشعره صلى الله عليه وآله وسلم، كما فَعل خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما كان يضع شعرته صلى الله عليه وآله وسلم في قلنسوته، ويتوجه بها إلى الله، ويباشر المعارك في سبيل الله تعالى[2].

وقد أوصى سيدنا معاوية رضي الله عنه أن تُوضع شعرته صلى الله عليه وآله وسلم تحت لسانه بعد وفاته رجاء أن يغفر الله له[3].

وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعره وأظفاره إلا لهذه الغاية، وهي التبرك بها، والاستشفاء والاستفتاح، وإذا كانت أجزاؤه صلى الله عليه وآله وسلم يُتبرك بها ويستشفى بها؛ فما بالك بذاته صلى الله عليه وآله وسلم، فهذا من باب أولى. فافهم.

---

(١) تقدم تخريج ذلك ص /٣٩٤/.

(٢) رواه الطبراني وأبو يعلىٰ كما في (مجمع الزوائد) (٩/٣٤٩).

(٣) ينظر (سير أعلام النبلاء) للحافظ الذهبي (٣/١٥٨) وينظر فيه أيضاً (٣/١٤٨).

وقد روى البخاري وغيره[1]، أنه لَمّا أرسلت قريش يوم الحديبية رجلاً للمفاوضة، فلما رجع إلى قومه قال لهم: ما رأيت مَلكاً يعظمه أصحابه مثل تعظيم أصحاب محمدٍ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ما بصق بصاقاً، ولا تنخم نُخامة إلا أسرعوا إليها وأخذوها، ودلكوا بها أجسادهم.

وإنا نتوسل إلى الله تعالى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن يشفعه فينا، وأن يرزقنا مِنْ مسحاته ونفحاته صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يُلْهِمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينظر إلينا نظرة مُحَمَّدية، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فانظرنا يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أَنّ نظرة منه صلى الله عليه وآله وسلم تَجعل الحديد إبريزاً، وتجعل القلب القاسي قلباً نورانياً.

ورحم الله القائل:

فَنظرةٌ من رسول الله تلحقني ... بالسابقين وإن أمشي على مَهَلِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد /٢٧٣١و٢٧٣٢/ (٥/ ٣٣٠) وينظر في شرح المواهب وكتب السيرة النبوية.

محاضرة

حول

بعض أسرار مناسك الحج

بعض أسرار مناسك الحج

إن عادة الله تعالى في خلقه، أن يخلق الخلق ثم يختار منهم ويصطفي من يشاء، ويفضله على من يشاء، وهذه عادة الله تعالى في سائر مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من المخلوقات﴿وَيَخْتَارُ﴾ منها خِيَرة، ويصطفي صَفْوة، وليس المراد بالاختيار في الآية المشيئة، لأنه قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾بل المراد في الآية من الاختيار، أخذ الخيرة واصطفاء الصفوة: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي: مما خلق ما شاء، ويصطفي مما خلق ما شاء.

وينطبق هذا على: الأمكنة، والأزمنة، والأشخاص، وسائر المخلوقات، فقد اختار سبحانه بعضها على بعض، وفضل بعضها على بعض وهكذا.

ولقد خلق الله تعالى الملائكة بمشيئته ثم اختار واصطفى منهم فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: «اللهمَ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ اهْدِني لِمَا اخْتُلِفَ فِيْهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِيْ مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1] وذلك لِمَا لهؤلاء الملائكة من الفضل والرتبة على غيرهم من الملائكة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه /٧٧٠/ (٨٥٦/٢)، والترمذي /٣٤١٦/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولقد خلق الله تعالى البشر واصطفى منهم الأنبياء، وقد جاء في بعض الآثار[1] أن عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ونحن نؤمن بأنبياء الله كلهم سواء كان هذا عددهم أو أكثر.

وقد اصطفى الله تعالى من الأنبياء صفوة وهم المرسلون، وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن حبان وأحمد[2]، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنَّ عَدَدَ المرسلين ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، ونحن نؤمن برسل الله كلهم.

وقد اصطفى سبحانه من المرسلين أُولي العزم، وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

وقوله تعالى ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد اختار واصطفى سبحانه من أولي العزم الخليلين العظيمين السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وسيدنا إبراهيم عليه السلام، واختار منهما السيد الأعظم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وفضله، وخصَّه بالمقامات، منها: مقام الوسيلة، والمقام المحمود والشفاعة العظمى.

---

(١) عند الإمام أحمد في (المسند) (٥/٢٦٥)، والطبراني (مجمع الزوائد) (١/١٥٩) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه، وابن حبان /٣٦٢/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (المسند) (٥/١٧٨و١٧٩)، ابن حبان /٣٦٢/ (١/٢٨٧) في حديث طويل.

فهو سبحانه خلق الأزمنة واختار منها، وخلق الشهور واختار منها شهر رمضان، وخلق الأشهر واختار منها العشر الأخير من رمضان، وخلق الأيام واختار منها يوم الجمعة ويوم عرفة وهكذا، وخلق الأمكنة والبقاع واختار منها بقعة مكة، وأفضل بقاع مكة بقعة البيت الحرام.

وقد جاء في الحديث، لَمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة، أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف بعيداً عن مكة والتفت إليها وقال: «والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرضِ الله، وَإِنَّكِ لأَحَبُّ أَرضِ الله إلى الله، وَلولاَ أَني أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»(١).

أما البقعة التي حوت وضمت جسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي موضع قبره الشريف فهي أفضل الأماكن على الإطلاق، لأنَّ هذا المكان شَرُفَ بشرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما كانت مكة المكرمة هي أم القرى ـ أي: عاصمة العواصم ـ ومرجع الأمصار كلها في عباداتها، اقتضت حكمة الله تعالى أن يُرْسِلَ فيها رسولاً إلى جيمع القرى وجميع العالمين.

وقد أقام الله تعالى في هذا البلد الأمين بيتاً وهو الكعبة المشرفة، كما قال سبحانه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

* * * * *

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/٣٠٥)، والترمذي في (السنن) في كتاب المناقب، باب في فضل مكة /٣٩٢١/ (٩/٤١٥) وغيرهم عن سيدنا عبد الله ابن عدي بن حمراء الزهري رضي الله عنه.

ومن حِكَم أعمال الحج وأسرارها

إنه مما لا شك أنك عَبْدٌ والله ربك، ولا شك أن العبد يحب الرّبَّ، هذا إذا أنصف وتفكر، علم أنّ محبة الرب لازمة واجبة عليه، لأنه يربيه ويمده ويغذيه ويعطيه.

وقد علم الله تعالى أن من عباده من يحبه والمحبة تقتضي الشوق إلى المحبوب، فالعبد يشتاق إلى رؤية ربه سبحانه، ولكن هذا لا يمكنه في هذا العالم بهذا البصر.

ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى ليس جسماً حتى تَسعى إليه بجسمك، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يقيم في هذا البلد الأمين بيتاً، يشرفه ويكرمه، ويتجلى فيه على عباده، قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وفي هذه النسبة والإضافة تشريف وتقدير لهذا البيت مالا تحيط به العقول، فأقام سبحانه في هذه الأرض بيتاً جسمانياً، وأمر العباد أن يسيروا ويتوجهوا إلى هذا البيت الجسماني بأجسامهم وأن يتوجهوا ويقصدوا رب هذا البيت بقلوبهم، وهذا هو الحج، وهو القصد وهو قصد الفقير إلى الغني وقصد الضعيف للقدير، وقصد المذنب للغفار، ولا يقال على لسان العرب حج فلان إلى فلان إلا إذا قصده في حاجة.

فلما تَحجّ بيت الله تقصد البيت جسماً؛ وتقصد ربّ البيت قلباً وهذا هو الحج. أي: قصد العبد لربه.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ولم يقل وللبيت على الناس، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فهو حق لله على الناس

أن يقصدوا بيته، وَمَنْ قَصَد بيتك ماذا يريد؟ نعم يريد صاحب البيت، فلما يقول فلان: قصدت بيتك، أي: قصدتُكَ أنتَ لحاجاتي.

فلما قصد العباد البيت فقد قصدوا ربّ البيت، ليتجلى عليهم بالمغفرة والرحمة، والكرم والعطاء، ولينالوا ما أرادوا، فإنَّ مَنْ قصد بيت الكريم لا يخيب فما بالك بِمَنْ قصد رب البيت الذي هو رب السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

ولما قال تعالى لعباده: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ راح هذا العبد يجيب دعوة الرب إلى بيته، لأجل أن ينال كرم ورحمة وعطاء ومغفرة رب البيت، ولينال ضيافة رب البيت.

ولكنه سبحانه شرع لهم أن يحجوا بيته، ويقصدوه سبحانه وعليهم شعار العبودية، وكأنه قال لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنتم معشر العباد قصدتم بيتي ابتغاء مرضاتي، فعليكم أن تقصدوني وعليكم شعار العبودية والذل والانكسار، فتتركوا تقاليدكم السابقة، وعاداتكم المألوفة فتحرموا إحراماً.

والإحرام هو: ترك العادات والتقاليد المستحكمة، وترك الشهوات ورغبات النفس.

فيذهب العبد فيحسر عن رأسه، ويخلع لباسه المعتاد، ويلبس الإزار والرداء، ولولا رحمة الله بهم لأمرهم أن يسيروا حفاة، لكنه سبحانه أباح لهم أن يلبسوا النعال في أرجلهم لكن على شكل غير معتاد أيضاً.

فلما أحرموا حَرّموا على أنفسهم العادات والتقاليد المستحكمة فيهم، والشهوات النفسية، وتوجهوا بالذل والانكسار، وعليهم شعار العبودية،

حتى صاروا عباداً يقصدون ربهم، وأجابوا دعوته، وقالوا: لبيك اللهم لبيك ـ أي: أجبت دعوتك إجابة بعد إجابة ــ ولم يقل العبد: لبيك أيها البيت بل قصد ربّ البيت، وأجاب دعوته وقال: لبيك اللهم لبيك.

فلما دخل مكة بعمرة أو حج راح للطواف، وهذا من جملة تفضيل الله لهذا المكان، أنه سبحانه حَرّم دخوله لأيٍّ أحد كان إلا بعمرة أو حج، إلا ما كان من أهل مكة الذين يخرجون منها ويدخلون إليها لحاجاتهم المتكررة، كما أنه سبحانه جعل في هذا البلد الأمين جعل الهمة بالسوء سيئة، وذلك لفضل المقام، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] ولم يقل: ومن يرد فيه إلحاداً، بل قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ لأنه سبحانه ضَمَّن الإرادة معنى الهمة، وكأنه قال: وَمَنْ يهم فيه بإلحاد بظلم، يعني: من هم فيه بفعل سيئة كتبت عليه سيئة، بخلاف بقية البقاع.

ولما دخل العبد المُحْرِم مكة، ولبى دعوة الله تعالى، وتوجه إلى المسجد الحرام، وقبل أن يشرع بالطواف حول البيت عليه أن يستلم الحَجَر، وإنْ لم يتمكن من ذلك أشار إليه بيديه مستلماً، وراح يطوف حول البيت، متشبها بالملائكة الذين يطوفون حول عرش الله تعالى، وكما أن لله تجلياً على العرش فله تجلٍّ على البيت، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وينبغي للطائف أن يُسبح الله في طوافه كما تفعل الملائكة، وأن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وإنّ الملائكة لمّا تطوف حول عرش الله، فإنها تراقب وتشاهد أنوار

ربها جل وعلا، وهذا ما ينبغي على الطائف حول الكعبة أن يشاهد ربه بقلبه، وَمِنْ هذا ما جاء أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يطوف حول البيت، فسلم عليه رجل فلم يرد عليه السلام، فرفع ذلك إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فجيء بابنه فلما قيل له ذلك، قال: يا أبت كنا نطوف حول البيت نتراءى الله تعالى. أي: كنا نشاهد الله بقلوبنا.

وأما استلام العبد للحجر الأسود فينبغي عليه أن يستلمه ويقبله واضعاً جبهته عليه، ساجداً لله عليه، وإن لم يتمكن أشار إلى ذلك إشارة فيها هذا المعنى، وأما استلام الركن اليماني فهو مَسكه باليدين تبركاً وتيمناً، على أنه موضع اليُمن والبركة، ويؤمِّنُ عنده سبعون ملكاً على كل دعوة يدعو بها المؤمن الطائف حول الكعبة. كما ورد ذلك[1].

أما الحكمة من استلام الحجر الأسود وتقبيله، والسجود لله تعالى عليه: فاعلم أولاً أن هذا الحجر قد نزل من الجنة، كما جاء في (سنن) الترمذي[2]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ».

أما قوله «فَسَوَّدَتْه» أي: جعلته أسود اللون من السواد إذ أثرت فيه معاصي وخطايا بني آدم فصار أسوداً.

وقد يقال: إنه في العهد الذي بُعث فيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وطهَّر الأرض من الشرك والدنس، فَلِمَ لَمْ يعد إلى أصله الأول وهو البياض؟

---

(١) في (سنن) ابن ماجه كتاب المناسك، باب فضل الطواف /٢٩٥٧/ (٢/٩٨٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الحج، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود... /٨٧٧/ (٣/٢٣٢)، وابن خزيمة /٢٧٣٣/ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وقد أجاب العلماء على ذلك: بأن الحجر بقي أسوداً عِبْرة للناس حتى يعتبروا، ويعلموا أن المعاصي تؤثر في الحجر، فَمِنْ باب أولى أنها تؤثر في القلوب، وتجعلها سوداء مظلمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقد قال العارفون رضي الله عنهم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ» أي: جعلته سيدا من السؤدد، وذلك لَمّا خالف بعض بني آدم ربهم وعصوه، وجاؤوا تائبين قاصدين هذا البيت، وقبلوا هذا الحجر، راجين مغفرة الله وفضله، وبذلك صار الحجر سَيِّداً، نعم فلقد لبس هذا الحجر لون السواد، لأنه شعار الأسياد فهو سيد اكتسى سواداً.

ومن ناحية أخرى: فإنّ استلام الحجر الأسود بمنزلة المبايعة مع الله تعالى، كما روى الترمذي(١)، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: الحجر الأسود «لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ» فَمَنِ استلمه بحق فقد بايع الله؛ كما في رواية ابن أبي حاتم.

وفي الحديث الذي رواه الديلمي وغيره(٢) «الحَجَرُ يَمِينُ اللهِ في الأرض، فمَنْ مَسَحَ يده على الحجر فَقَدْ بَايَعَ اللهَ أن لا يعصيه».

وليس معنى اليمين: الجارحة المعروفة، كما أنه لَمّا قال سبحانه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] فليس المراد منه موضع المبيت كما يبيت

---

(١) في أواخر كتاب الحج /٩٦١/ (٣/٣٢٩) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الفردوس /٢٨٠٧/ عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، وعزاه السيوطي في (الجامع الصغير) إلى الأزرقي في (تاريخ مكة المكرمة) عن عكرمة موقوفاً، كما في (كنز العمال).

الإنسان في بيته، ولكن المعنى بَيْتَ عبادتي، وبَيْتَ طاعتي، وبيت معرفتي، وهي البقعة التي يتجلى فيها الله على عباده؛ وهي الكعبة المشرفة.

وقد أمر الله تعالى عباده أن يتوجهوا إلى بيته المعظم في صلواتهم لأنه لَمّا يدخل وقت الصلاة يتجلى الله في هذا البيت على عباده بالإقبال، وهذا معنى قول المؤذن: حي على الصلاة. أي: أقبل على الصلاة لأن الله قد توجه إليك، وأقبل عليك في بيته المعظم سبحانه، وما دام العبد متوجهاً إلى ربه في صلاته فالله تعالى متوجه إليه ومقبل عليه، كما في الحديث: «فإنَّ الله يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاَتِهِ» (١).

وعلى هذا فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحَجَرُ يَمِينُ الله في الأرض» أي: موضع يُمن الله وبركة الله تعالى، وموضع المبايعة مع الله، فمن استلم هذا الحجر بِحَقٍّ، وقبله بحقٍّ فكأنما بايع الله تعالى.

وهنا يظهر لك الفرق جلياً بين استلام الركن واستلام الحجر، فاستلام الركن للتبرك، واستلام الحجر للمبايعة، فمن استلمه بحق فكأنما بايع الله تعالى على التوبة، وأن لا يعصي الله تعالى، ومَنْ فعل ذلك فإن الله تعالى يُجيبه بالمغفرة على ما سبق منه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رجع مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَومَ وَلَدَتْهُ أمهُ» (٢).

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة /٢٨٦٧/ (٨/٧٦)، وابن حبان /٦٢٠٠/ عن سيدنا الحارث الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور /١٥٢١/ (٣/٣٨٢)، ومسلم /١٣٥٠/ وغيرهما عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ولقد جعل الله تعالى هذا الحجر الأسود يمين الله في الأرض، أي: موضع يمنه وبركته سبحانه، وجعل هذا البشر الأسعد، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خليفة عنه في الأرض، وأمر أن يبايعوه وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فانظر في فضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خليفة الله الأعظم في أرضه.

وإن نسبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بقية الأنبياء كنسبة الحجر الأسود إلى بقية أحجار الكعبة، إذ أنَّ بيت الله هو الكعبة المشرفة، مؤلف من أحجار ولبنات، وأفضلها الأسود، كما أَنَّ بيت النبوة الذي حوى جميع الأنبياء قد فضله وجمَّله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في الحديث(١): «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوضِعَ لبنة من زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يطوفون بِهِ وَيَعَجبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَة».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَنَا اللبنةُ، وَأَنَا خَاتَم النَّبِيينَ» فهو صلى الله عليه وآله وسلم جمال الأنبياء، وهو فَصُّ خاتمهم، وهو ياقوتهم، وهو وجههم الجميل صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وعلى هذا فكأن كل لبنة من أحجار الكعبة قائمة مقام نبي، وكما أن أحجار الكعبة متفاوتة في العلو والحجم، وكذلك تتفاضل الأنبياء فيما بينهم، وهناك حجر وسطي ـ وخير الأمور أوساطها ـ في ركن قوي ثابت،

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم /٣٥٣٥/ (٦/٥٥٨) واللفظ له، ومسلم /٢٢٨٦/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي /٢٨٦٦/ عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وهذا هو الحجر الأسود، وأفضل لبنات النبوة لبنة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن مبايعة الله تعالى عند استلام الحجر، إنما على ترك المعاصي والذنوب، وكأن العبد يقول: يا رب اغفر لي ما مضى، وأعاهدك على أن لا أعود إليها.

أما مبايعة الله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهي مبايعة على أصل الإيمان والدخول في الإسلام.

وهكذا لما استلم العبد الحجر، وبايع الله تعالى على ترك الذنوب والتوبة إلى الله تعالى، راح يسعى بين الصفا والمروة، فقد صفا من ذنوبه، وتخلص من أكداره، وعاهد ربه على أن لا يعود إلى الذنوب، راح يسعى بين الصفا والمروة إلى مغفرة الله، ورحمة الله، وإلى رضوان الله، والله تعالى يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١).

فراح هذا العبد يسعى ـ أي: يمشي ـ ويهرول إلى الله تعالى، أي: إلى مغفرة ربه ورحمة ربه، كما أخبر سبحانه عن الخليل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] أي: ذاهب بقلبي وروحي ومتوجه إلى الله تعالى.

ثم يذهب العبد إلى عرفات، وهو موقف يَعْرِف فيه العبد أنه عبد، ويعرف فيه مقام الربّ، وهذا موقف ينبغي على العبد أن يعرف فيه نفسه

---

(١) تقدم تخريجه ص /٣٦١/.

بالذنوب، ويعرف ربه بالمغفرة، ويعرف العبد أنه مسيءٌ، وأن ربه العفوّ، وهكذا فهو مَوْقِفُ عَبْدٍ عليه شعار الذل والمسكنة، يستمطر مغفرة الله ورحمته، إذ أن في عرفات عرف آدم عليه السلام بأنه ظَلَم نفسه، ورجع إلى ربه سائلاً المغفرة، قال تعالى مخبراً عن آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وهذا اعتراف بالذنب ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ وهذا رجوع إلى الله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ولما وقف العباد هذا الموقف، حتى أتت عليهم عشية عرفات، ولم يُخَيِّبْهم الله تعالى، بل تجلى عليهم بالمغفرة والرحمة، وباهى بهم الملائكة فيقول: «انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين» بارزين للشمس غير مستترين منها «من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم»[(١)].

ثم تعم الرحمة جميع المؤمنين على وجه الأرض، ولذلك راح إبليس يدعو على نفسه بالويل والثبور[(٢)]، لِمَا رأى من سعة مغفرة الله تعالى في ذلك اليوم.

فلما أفاضوا من عرفات وقد غفر الله لهم، وقد ارتفعت وزالت الموانع والعوائق التي كانت تمنعهم من التقرب إلى الله تعالى، وهي الذنوب والمعاصي، وأصبح العبد صافياً نقياً، صار أهلاً عندئذٍ أن يدخل في مقامات القرب من حضرة الله تعالى، فراح إلى المزدلفة. ومعنى زَلَف

---

(١) كما في (شعب الإيمان) للبيهقي /٤٠٦٨/ (٣/٤٦٠) واللفظ له، وابن حبان /٣٨٤٢/ وغيرهما عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) كما رواه الطبراني في (الكبير) (مجمع الزوائد) (٣/٢٥٧) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وازدلف: أي اقترب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٤٠] أي: قُرب، فيقال: زلف، أي: قَرُب، وازدلف إذا اقترب أكثر فأكثر، فالمزدلفة موضع الاقتراب والتقرب من حضرة الله تعالى.

ثم مضوا إلى مِنى لينالوا المُنى، وينالوا ما يتمنون وما يطلبون ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَيَّامُ التَّشْرِيْقِ أَيَّامُ أكلٍ وشُربٍ وذكر لله»[(١)].

فهي أيام ضيافة رب العالمين لعباده المؤمنين، فلا يجوز لأحد الصيام في تلك الأيام لأنها أيام ضيافة الله تعالى، وإكرامه لعباده بأنواع المكارم والعطايا والمواهب الربانية، والمعارف الإلهية.

وهكذا راحوا إلى مِنى لينالوا المُنى، لأنهم لَمّا دخلوا مقام القرب قيل لهم: تمنوا فتُعَطوا، فراحوا يتمنون والله يعطيهم، ثم قيل لهم: [(٢)] إن إبليس يُريد أن يضركم بشيء من وساوسه وإزعاجه، فنهضوا بقوة، وأخذوا الجمرات التي جمعوها من مزدلفة، وكانت بمنزلة السلاح في يدهم، وراحوا يرمونه ويقولون له: اخسأ يا عدو الله، فما تضرنا وسوستك بعد اليوم، فلقد قَصَدْنا ربّنا فغفر لنا، ورحمنا، وقَرَّبنا من حضرته، وأعطانا مُنانا وفوق منانا، فالتقم الحجر يا عدو الله ـ ومثال ذلك كالكلب يعوي، وأنت في حضرة الملك تَنْعم بقربه وعطائه، فما يضرك عواء ذلك الكلب، بل تُلقمه بيدك الحجر لإبعاده عنك وإذلاله ـ فيرمونه سبعاً. وهو من أعداد الكثرة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق /١١٤٠/ (١١٥٩/٣) عن سيدنا نبيشة الهذلي رضي الله عنه، وأبو داود /٢٤١٩/، والترمذي /٧٧٣/ عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) ينظر (صحيح) ابن خزيمة /٢٩٦٧/، و(المستدرك) (١/٤٦٦).

وهكذا مَنْ عرف الحُكْم والحِكمة من أعمال الحج طار إلى الله بجناحيه، وَمَن عرف الحُكم بلا حِكْمة عرَج بجناح واحد.

ولما أراد أبرهة أن يهدم بيت الله الحرام، ليرغم الناس أن يحجوا إلى بيتٍ بَناه في صنعاء اليمن، وقد بناه من ذهب، وكلَّلَهُ بالأحجار الثمينة، ولما بلغ العرب أن أبرهة يريد أن يصرف الناس إلى حج بيته، راح رجل من بعض قبائل العرب إلى هذا البيت وبال وتغوط فيه، ثم انصرف هارباً، فلما علم أبرهة بذلك، عزم على أن يذهب ويهدم الكعبة، حتى إذا وصل إلى المغمِّس ـ بشد الميم وكسرها وفتحها، وهو موضع قريب من مكة، على ثلثي فرسخ ـ أرسل رجلاً يُخبر أهل مكة أنه ما جاء محارباً لهم، بل يريد هدم البيت فقط، وكان كلّما مَر في طريقه على دواب وأنعام اغتصبها، حتى إنه اغتصب أموالاً لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وطلب من أهل مكة أن ترسل إليه بأشرافها، فجاء إليه عبد المطلب، وكان رجلاً مهيباً، فنزل أبرهة عن كرسيه وجلس إلى جانبه.

وقال له عبد المطلب: إنك أخذت لي مائتي جمل فأريد ردها.

فقال أبرهة: إنك لما دخلت عَليّ عظمت في عيني، والآن صغرت.

قال: لِمَ؟ قال: لقد سألت عن إبلك، ولم تسأل عن هذا البيت الذي أريد هدمه.

فقال عبد المطلب: أما الإبل فأنا ربها ـ أي: صاحبها ـ وإن لهذا البيت رباً سيحميه. فقال أبرهة: ما يمتنع مني.

فقال عبد المطلب: أنت وذاك ـ أي: أنت ورب البيت ـ فلينظر الغالب.

وقد كان عبد المطلب عَرَض على أبرهة أن يُعطيه ثلثي أموال تهامة ـ مكة وما حولها ـ على أن يرجع فلم يفعل ولم يرض، فرجع عبد المطلب إلى الكعبة.وأخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه جماعة من أشراف قريش، فجعلوا يدعون الله ويستنصرونه. و كان فيما قال عبد المطلب:

لا هـمَّ[1] إن العبـد يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
إن كنت تاركهم وقبلتـ ـنا فأمر ما بدا لك[2]

وراح رجل من العرب ـ وكان أسيراً ـ وجاء إلى أذن الفيل الذي أراد أبرهة أن يُسلطه على البيت، وكان أبرهة قد سمى هذا الفيل (محموداً) وجاء هذا الرجل، وأخذ أذن الفيل وفركها وقال له: اقعد محمود، وإن شئت فارجع من حيث جئت؛ فإنك في بلد الله الحرام.

فلما جاء جيش أبرهة إلى الفيل ليقوم معهم فلم يقم، وحاولوا مراراً فلم يفعل، حتى إنهم ضربوه وحرقوه بأسياخ الحديد المحماة بالنار فلم يقم، ولكنهم لَمّا يُحَوِّلون جهته يقوم حالاً، كما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حَبَسَهُ حَابِسُ الفِيْل» أي: أن الله رب البيت وخالق الفيل حبس هذا عن هذا.

وَهُمْ على ذلك أرسل الله تعالى طيوراً أبابيل ـ جمع أُبّولة ـ أي: جماعة بعد جماعة، وكل منها تحمل ثلاثة أحجار من طين، وَجَعلت ترمي بها هؤلاء الذين أرادوا هدم الكعبة حتى قضت عليهم، ثم أصابت أبرهة وجعل جسمه يتفطر، وأعضاؤه تتقطع، وهو ينهزم ويسأل عن طريق

---

(١) وهي تخفيف اللهم، والمعنى: يا الله.
(٢) أي: أنت تفعل ما تريد يا الله.

الرجعة، وجعل نفيل بن حبيب يقول:

أيـن المفـر والإلـه الطالـب والأشـرم المغلـوب لـيس الغالـب

والأشرم هو أبرهة، لأنه كان أشرم الأنف

ووصل أبرهة إلى بلده مهزوماً، وهو يذوق أنواع العذاب ومات فيها، وقد هلك كل الجيش الذي كان معه، إلا واحداً بقـي حيـاً إلى أن رجـع إلى الحبشة، ودخل على ملكهـا وأخـبره الخـبر، وكـان هنـاك طـيرٌ مـن الطـير الأبابيل يتتبعه، حتى إذا بلَّغ الرجل الرسالة للملك، وأنه هكذا فعل الله بهم وأهلك الجيش كله، هناك رمى الطير حجرته علـى هـذا الرجـل، فخرقـت السقف وأصابت رأسه وخرجت من دبره ومات[1].

ولقد امتن الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسـلم مـذكراً لـه فضله عليه، وعنايتـه بـه فقـال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد صلى الله عليه وآله وسـلم علمـاً يقينـاً كأنهـا رؤيـة عيـان ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الـذي هـو ربـك وسـيدك ومـولاك، والـذي هـو ربـاك ويربيك، والذي لـه بك عناية خاصة، ومنها أنه حفظ لك هذا البيت، الذي يكون لك ولأمتك مُصَلّى ومرجعاً. تشريفاً لك وتكريماً.

وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم وُلد في ذلك العام الذي حصلت فيـه حادثة الفيل، وَحَفِظ الله فيه بيته، تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: جعله في إبطال وضياع، وردَّه عليهم.

---

(١) ينظر الخبر في سيرة ابن هشام وابن كثير وشرح المواهب وغيرها.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: جماعات بعد جماعات، كالغارة تلي الغارة.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين مطبوخ، وجعلت ترميهم بإتقان وإحكام، حتى أنها ما أخطأت واحداً منهم.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: كزرع أُعد للحيوانات أن تأكله كالتبن الذي ترعاه الدواب.

وقد كانت هذه الحادثة مُقدمة وبشارة لبعثة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يُذَكِّر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك المنة والفضل الإلهي العظيم عليه صلى الله عليه وآله وسلم، بأنْ حفظ له هذا البيت كما تقدم.

وكَم هناك مِنْ بشائر ومقدمات سبقت بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكلّها مُؤذنة بقرب ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم، وانتشار دعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

محاضرة حول

حياة القلوب بالروح القرآني والروح النبوي المحمدي

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدم الكلام على أن الله تعالى قد أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هذه المواقف المحمدية أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ومن مواقفه أيضاً أن الله تعالى أرسله ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ـ ٤٦] وأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، وأرسله هادياً للعالمين.

ومِنْ مواقفه أيضاً موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في الوعظ والتذكير، وقد تقدم بيان ذلك مفصلاً.

ومن مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أن الله تعالى أرسله بحياة العالم كله، فقد جاء ومعه الروح الرباني ليُحييَ به العالم، فَمَنِ اقتبس من الروح المحمدي وتحقق بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم فقد حَيِيَ حياة الأبد، ومَنْ فَقَدَ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الحياة، ولم يتبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فقد مات ميتة الأبد، وفيما يلي كلمات جامعة تدل على هذه المعاني، تُبين معاني الروح القرآنية الربانية، وأثرها في حياة الروح الإنسانية حياة الأبد، ومن وجوه متعددة:

الوجه الأول: لقد بَيَّن سبحانه أنه أرسل رُسله بروح أمرية ربانية إيمانية، تحيا بها أرواح وقلوب من استجاب لدعوتهم مِنْ أممهم، قال سبحانه: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وأعظم رسول جاء بأعظم روح ربانية أمرية قرآنية، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أرسله الله سبحانه إلى الناس جميعاً إلى يوم الدين.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٤] فالوحي الرباني على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بما فيه من وحي قرآني ووحي نبوي، إنما هو رُوح تحيا بها الأرواح والقلوب الإنسانية، التي استجابت لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واقتبست من الروح التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالقرآن الكريم النازل على رسول الله فيه روح أمرية ربانية، وأحاديثه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم التي هي بوحي من الله تعالى، فيها أيضاً روح ربانية محمدّية، لأنّ القرآن والحديث كلاهما بوحي من الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلاَ وَإِنِي أوتِيْتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١) أي: وحياً أيضاً، وهو الأحاديث النبوية التي سمَّاها القرآن بالحكمة، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهي: السنة بما اشتملت عليه من أقواله صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وأخلاقه وآدابه الشريفةصلى الله عليه وآله وسلم.

إلا أنّ القرآن نَزل به جبريل عليه السلام على سيدنا رسول الله بالوحي القرآني، وأما الوحي النبوي فله أنواع ومراتب:

فمنها ما نزل به جبريل عليه السلام، ومنها غيره من الملائكة، ومنها ما يتمثل به جبريل بصورة رجل، ومنها بواسطة النَفْث في الرَّوْع، ومنها بواسطة الرؤيا المنامية وهكذا.

الوجه الثاني: إنّ مِنْ شأن الروح أن تعطيَ الحياة لمن سرت إليه، ولَمّا كانت الروح على مراتب فالحياة على أنواع:

فهناك حياة لا روح فيها: وهي حياة النموّ كحياة النبات والشجر.

وهناك الحياة المتوقفة على الروح: كالحياة الجسمانية التي تتوقف عليها المدارك والقوى الحسّيّة، كالسمع والبصر والشمّ والذوق، واللمس والحركة وهكذا.

---

(١) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة /٤٦٠٤/ (٥/ ١٠)، والترمذي /٢٦٦٦/ عن سيدنا المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.

وهناك **الروح العالية** التي تكون بسبب الروح الربانية الأمرية الإيمانية، والتي تحيا بها الأرواح والقلوب الإنسانية حياة سعيدة طيبة أبديَّة، وهذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فليس المراد لما يُحيي أجسامكم، إذ أنكم أحياء الجسم والمدارك، بل المراد استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما فيه حياة قلوبكم وأرواحكم، حياة الأبد العالية.

وَمَنْ زعم أنّ الحياة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ أنها حياة مجازية لا حقيقية، فيقال: إن الحياة على مراتب وأنواع، وكل مرتبة منها هي حياة حقيقية، كما قال سبحانه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] فهل كانت مَيتة على الحقيقة وأحياها الله على الحقيقة؛ أم على سبيل المجاز؟!

فهي لما حييت أنبتت وأعشبت، وأزهرت وأينعت، وهكذا كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

وكذلك الإنسان لَمَّا يكون جنيناً في بطن أمه، فيرسل الله إليه ملكاً بعد مضي مائة وعشرين يوماً على تخليقه وتصويره ونموِّه، فينفخ فيه الروح، فتدب فيه الروح الجسمانية وهي حياة حقيقة، بحيث أنه إذا كبر وفارقت روحه بدنه مات في أجله الذي أجَّلَه الله له.

وهكذا حياة القلوب والأرواح الإنسانية، فإنها تحيا بروح الوحي الرباني المحمدي حياة الأبد، وهي حياة إيمانية طيبة سعيدة، وهي حياة حقيقية، يشعر بآثارها كل مؤمن اطمأن قلبه على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] أي: في الدنيا والآخرة.

الوجه الثالث: لقد أشار الله سبحانه إلى إحيائه لأرض القلوب القاسية الميتة بقوله سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧].

فقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تنبيه للعقلاء أن يتدبروا ويتفكروا في كلامه سبحانه، إذ أنّ أرض الأجسام الحسِّيَّة تحيا بماء السماء، وهذا أمر يشهده كل عاقل ولا يحتاج إلى جهد وإعمال للفكر.

أما مَنْ تدبر في الآية قبلها، وأنّ أولئك طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، حتى صارت صمّاء كالأحجار القاسية، فإنّ الذي يُلين هذه الأرض الجامدة الهامدة القاسية، ويحييها بماء السماء، ويجعلها تُنبت وتخضر، وتزهر وتثمر هو الله سبحانه، الذي يُحيي أيضاً أرض القلوب الجسمانية بوحي السَّماء، الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدْىٰ وَالعِلْم كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ

أَرْضاً: فَكَانَت مِنْهَا طَائِفَةٌ طيبةٌ قَبِلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَـتِ الْكَـلأَ وَالْعُشْـبَ الْكَـثِيرَ، وكَان مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ؛ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُـوا. وَأَصَاب مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1].

فماء السماء قد يصيب أرضاً تمسك منه شيئاً وتخضر وتنبـت، ومنـها ما يمسك الماء لكنها لا تخضر ولا تنبت ولا تزهر، ومنـها قاسـية صـلبة لا تمسك الماء ولا تخضر ولا تنبت.

وهذا مثل مَنِ استفاد وانتفع بالعلم والهدي المحمدي؛ ونفـع غـيره، ومثل مَنِ انتفع ولم ينفع غيره، ومثل مَنْ لم يستفد ولم ينتفع ولم ينفع غيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنـهما في قولـه تعـالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: ١٧] إنّ الله تعالى يُحيـي القلـوب الميتـة بنـور الإيمان والعلم، وإلاّ فقد عُلِمَ إحياء الأرض بالمطر مشاهدة. اهـ

وَرُوِيَ أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يابني جـالس العلمـاء واسمـع كلام الحكماء، فإنّ الله تعالى يحيي القلب الميت بنور العلم والحكمة، كما يُحيي الأرض بوابل المطر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أيُّ جلسائنا خير؟

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل مَنْ عَلِـمَ وعَلّـم /٧٩/ (١/١٧٥)، ومسـلم في كتـاب الفضـائل /٢٢٨٢/ (٥/٢٣١١) عـن سـيدنا أبي موسـى الأشعري رضي الله عنه.

قال: «مَـنْ ذَكَّـركُم الله رؤيَتُـهُ، وَزَادَ فِـي عِلْمِكُـم مَنْطِقُـهُ، وَ ذكَّـركُم بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ»[(١)].

وقوله صلى الله عليـه وآلـه وسـلم: «مَـنْ ذَكَّـركُم الله رؤيَتُـهُ» أي: إذا نظـرت إليـه ذكـرت الله تعـالى، لِمَـا عليـه مِـنْ علامـات التقـىٰ والصـلاح والإخلاص مع الله تعالى، كما قال تعالى في أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسلم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩].

وإن لكل مؤمن سيما تُعـرف في وجهـه، وتكـون قـوة ظهورهـا علـى حسب إيمانه وصلاحه.

ويقول سبحانه في بيان سيما المؤمنين وسيما الكافرين: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

فكلٌّ من أهل الجنة له سيما، وكل من أهل النار له سيما.

الوجه الرابع: إنّه لَمّا كانت الأجسام الإنسـانية تحيـا بـالروح الإنسـانية فكلما كان الجسم صحيحاً سليماً؛ كلما قويـت مداركـه وحواسـه، كبصـره للمشهودات وسمعه للمحسوسات أقوى وأشد.

وكلما ضعف الجسم كلما ضعفت مداركه وحواسه، أي: ضعفت آثار الحياة فيه، وكذلك أيضاً الحياة الإيمانيـة، فكلمـا قويـت حيـاة الإيمـان في قلب المؤمن؛ كلما زادت وقويت تطلعاته الغيبية وقويت بصيرته، فيرى مـا لا يراه غيره، ويسمع ما لا يسمعه غـيره، كـل ذلـك لقـوة نـور الإيمـان في قلبه، وقوة الروح الإيمانية التي أمدَّته بالحيـاة الإيمانيـة العاليـة، وَمِـنْ هـذا

(١) رواه أبو يعلىٰ (مجمع الزوئد) (١٠/٢٢٦) و(مسند) أبي يعلى /٢٤٣٦/.

تدرك معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»[1].

أي: بنور الإيمان الذي أودعه الله في قلبه، فينظر بنور الله، ويسمع بنور الله، وهكذا تندرج كرامات الأولياء رضي الله عنهم في هذا المضمار، لأنّ قوة الإيمان في قلوبهم جعلت آثار الحياة الإيمانية في مداركهم وحواسهم أقوى وأشد.

الوجه الخامس: إنّ مَنِ استجاب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسرت الروح الربانية القرآنية المحمدية في قلبه، فقد نال حياة الأبد، فإنّه وإنْ مات جسمه، وفارقت روحه الإنسانية جسدَه؛ إلا أنّ قلبه حيٌّ، وإنما انتقل إلى حياة برزخية أخرى، وهي أقوى وأعلى من الحياة الدنيوية المقيّدة، وهكذا يتنقل في برازخ الآخرة، حتى يدخل دار الخلد في جنة الله ليحيا حياة الأبد.

وأما الكافر الذي أعرض عن قبول الروح الرباني القرآني المحمدي، فقد مات مِيتة الأبد، وفقد مداركه وحواسه الإيمانية، واقتصرت حياته الجسمانية في الدنيا على الأكل والشرب، والانغماس في شهوات النفس، حتى صار كالبهائم في حقيقته، وإن كان آدمي الصورة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [القتال: ١٢].

وقال تعالى في الكافرين الذين فقدوا حياة القلوب والأرواح:

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الحجر /٣١٢٥/ (٨/٢٨٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وإنّ شأن الميت أنْ تتوقف حواسه عن الإدراك والعمل، فلا يُبصر ولا يسمع، ولا يشعر بجسمه الذي فارقه الروح، فكذلك الكفار الذين فقدوا الروح الإيمانية، قال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وقال فيهم سبحانه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ [الأنعام: ٣٦] أي: إنما يستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ الذين يسمعون بآذانهم سماع قبول وتفكر وتدبر، فيؤمنون ويذعنون، وأما الكفار المعرضون فهم أموات لا يسمعون بقلوبهم بل بآذانهم فقط.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي: حيّ القلب، يقبل الموعظة وينتفع، أما الكافر فهو ميت القلب فيعرض عن الحق، ويحق عليه العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن الكريم وتذكيره.

﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: قلب حيٌّ سليم، إذ لا يخلو أحد من القلب الجسماني اللحماني الصنوبري الشكل.

وقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: موتى القلوب والأرواح ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾

لأنهم تصاموا عن سماع وقبول الحق ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ لأنهم تعاموا وآثروا العمي على الهدى ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٢ـ٥٣] أحياء القلوب والأرواح، استسلموا للحق لمّا ظهر لهم.

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الوجه السادس: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: أن مقتضى إيمانكم يقتضي منكم ويحتم عليكم أن تستجيبوا لدعوة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يقل سبحانه: إذا دعاكم الله ودعاكم رسول الله.

وفي هذا بيان من الله تعالى إلى أنّ دعوة الله تعالى هي دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَمَنْ أجاب دعوة رسوله فقد أجاب دعوته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

لأنه هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناطق عن الله تعالى، والمعبِّر عن الله تعالى، والمبلّغ عن الله شرعه وأوامره، فالاستجابة له صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي استجابة لله تعالى، **ولم يقل سبحانه**: إذا

دعواكم، بل قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَبَيّن وجوب الاستجابة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فَمَنْ أجابه فقد حصل على الحياة، وَمَنْ لا: فهو في الممات.

وتفكّر لَو أَنّ طبيباً عالماً حاذقاً دعاك لعلاج عِلة فيك، أفلا تُسرع إليه وتجيب دعوته، وتذعن لنصائحه لتشفى وتبرأ؟!

نعم فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء يدعو الناس كلهم لما فيه حياتهم الطيبة السعيدة، فينبغي عليهم أن يُسرعوا لإجابة دعوته وامتثال أمره صلى الله عليه وآله وسلم.

فقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يحييكم حياة طيبة إيمانية سعيدة في الدنيا، ويحييكم حياة سعيدة أبدية في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يُحيي قلوبكم فتدركون بسمع قلوبكم وبصرها ما لا يدركه غيركم، وتشهدون ما لا يشهده غيركم، وتعقلون ما لا يعقله غيركم.

ولذلك تجد أنّ عقلية المؤمن ومداركه ليست كمدارك الكافر، إذ أنّ مدارك الكافر محدودة؛ وإن بَرع في الدنيا، ولكنه ضِمْن حدود الدنيا.

أما عقلية المؤمن فهي نافذة من الدنيا إلى ما وراء هذا العالم إلى الآخرة، تنفذ من عالم الخلق إلى عالم الأمر، وتنظر في عواقب الأمور كلها.

الوجه السابع: في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يأمر سبحانه العقلاء أن يستجيبوا لدعوة رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم استجابة مطلقة عامة، في جميع ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا معنى الاتباع المطلق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى لو أن أحداً زعم أنه يؤمن بوجود الله تعالى من خلال فكره وتدبره في المخلوقات الكونية، وأنه لا يتبع رسول الله في ذلك، بل انتهى بفكره وعقله إلى وجود الخالق، فيقال له: إيمانك غير صحيح، وغير مقبول؛ إلا من كان في زمن الفترة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيجب على كل عاقل مكلّف أن يتبع رسول الله، وأن يؤمن بالله تعالى على الوجه الذي دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ هذا شأن كل من أدرك رسالة رسول الله، ولهذا قال تعالى مخبراً عن سحرة فرعون: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢] ولم يقولوا: آمنا برب العالمين فقط، بل ربّ العالمين الذي هو رب موسى وهارون، والذي دعا موسى وهارون إلى الإيمان به وعبادته جلّ وعلا.

كما أنّ موسى عليه السلام مرسل إلى فرعون وإليهم أيضاً، فآمنوا بالرب الذي دعا إليه موسى وهارون عليهما السلام اتباعاً لهما.

ومما تقدم يَعلم العاقل أنّه لا حياة طيبة ينشدها، ولا خير يرجوه ولا نجاح ولا فلاح يؤمّله، ولا علمٌ ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة؛ إلا ما كان من طريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الوجه الثامن: إنّ الحياة الإيمانية المحمدية تحفظ على المؤمن صورته الإنسانية الآدمية الكاملة، فَمَن مات على الإيمان فإن الله تعالى

يحشره على صورة إنسانية آدمية كاملة، وَمَنْ فقد الحياة الإيمانية ومات على الكفر فإن الله تعالى يحشره على صورة البهائم.

ويدل على ذلك ما رواه الإمام البخاري(١)، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يلقىٰ إِبْرَاهِيْمَ أَبَاهُ آزر يوم القيامة وعلى وجْهِ آزر قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ» أي: عمه وكان قد مات على الكفر(٢)، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لإِبرَاهِيمَ عليه السلام أَنَّ الجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الكَافِرِيْنَ، وأَنَّهُ لاَ اسْتِعْدَادَ وَلاَ قَابِلِيَّةَ عِنْدَه لِدُخُولِ الجَنَّة «فيقول الله تعالى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ على الكافرين، ثم يقال: يَاإِبْرَاهِيْمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ، فَيَنْظُرُ فإذا هو بِذِيْخ متلطخ» وهو: ذَكَرُ الضباع، فلما يرى إبراهيم حقيقته تبرأ منه «فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار». أي: أن الجنة لا يدخلها إلا الإنسان الكامل في إنسانيته: معنىً وصورةً، وهو الإنسان المؤمن الكامل الإيمان.

أما الكافر فهو في الدنيا بصورة الإنسان، ولكن حقيقته حيوان بهيم فإذا جاء يوم القيامة ظهر على حقيقته ونال جزاءه.

قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] فلما اتصفوا في الدنيا بصفات البهائم، حشرهم الله يوم القيامة على صورتها.

وأما الجنة التي هي دار ضيافة الله وفي جواره فلا يليق أن يدخلها

---

(١) في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [النساء: ١٦٥] /٣٣٥٠/ (٦/٣٨٧) وينظر في /٤٧٦٨و٤٧٦٩/.

(٢) وتطلق كلمة الأب على العم، وعلى ذلك أدلة كثيرة ذكرها الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به.

البهائم والحيوانات، ولا يليق أن يكون في جواره سبحانه إلا الطيبون الأخيار. اللهم اجعلنا منهم، وما طريق الفوز بذلك إلا اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليحيا الإنسان حياة الأبد، وينال كرامة الأبد.

وإنّ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، أي: في البهاء والنور، إذ أنهم أجمل وأحسن من القمر، ثم على أشد كوكب دريٍّ في السماء إضاءة؛ وهكذا. يكون طول أحدهم ستون ذراعاً بعرض سبعة أذرع، على صورة أبيهم آدم عليه السلام[1].

الوجه التاسع: قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ ولَما فقد الكفار هذه الحياة الإيمانية، وصاروا في الآخرة، جعلوا يتحسّرون على فواتها، حتى جعل الكافر يقول كما أخبر سبحانه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] أي: ياليتني في الدنيا كنت قد آمنت وعملت صالحاً، حتى أحيا في الآخرة الحياة الإيمانية الطيبة السعيدة الأبدية.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢١ـ٣٠].

---

(١) كما في (المسند) (٢/٢٥٣) و(صحيح) البخاري أول كتاب أحاديث الأنبياء /٣٣٢٧/ (٦/٣٦٢)، ومسلم (٢٨٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر (المسند) (٢/٢٩٥ـ٩٤٩) و(المجمع) (١٠/٣٩٩).

يُخبر سبحانه عن أهوال يوم القيامة، إذ تسوى يومئذ الأرض وتمهد، فلا ترى جبلاً ولا بُرجاً، بل هي أرض ممهدة.

ثم يتجلّىٰ سبحانه على أرض المحشر لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد أن شفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل الموقف، وانفض أمرهم إلى الحساب.

ثم يجاء بجهنم أي: تُقَرَّبُ إلى الكفار، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتىٰ بجهنم يومئذ» أي: تُقرب من الكفار وهم في أرض الحساب «لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَام» أي: سلسلة وحبل «مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[1].

وهذا يعني أنها عالم كبير، يقوم على أمره ويحرسه ملائكة الله، بأمر الله تعالى، وهذا شأن كل عالم من عوالم الله تعالى، كالأرض والجبال والنجوم، فقد وكَّل الله تعالى بها ملائكة يقومون بتدبيرها، بأمر الله سبحانه وإمداده لهم[2].

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: يتذكر جميع ما فعله في الدنيا لا ينسى شيئاً، ولا ينفعه ذلك، فقد فات الأوان، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؟!!. ﴿يَقُولُ﴾ أي: الكافر. ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ أي: ياليتني قدمت في الدنيا حتى أحيا الحياة الطيبة السعيدة مع أهل الجنة، في جوارهم لرب العالمين جل وعلا.

وما طريق الحصول على تلك الحياة؟

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب شدة حر نار جهنم /٢٨٤٢/ (٥/٢٧٠٨)، والترمذي /٢٥٧٦/ عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر كتاب الإيمان بالملائكة عليهم السلام للشيخ الإمام رحمه الله تعالى.

نعم هو الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ أي: لا أحد يومئذ يعذب الكافر مثل تعذيب الله له، ولا أحد يوثقه في الأغلال مثل وثاق الله له.

أما حال المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم على الإيمان، وأقامت على شرع الله فهم في نعيم الله وجواره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ نسأل الله ذلك من فضله.

الوجه العاشر: إنّه مما تقدم بيانه يتبين للعاقل أنَّ الحياة الإيمانية الربانية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والروح القرآنية التي جاء بها صلى الله عليه وآله وسلم، إنما هي رُوح العالم وسر بقائه، وإذا ذهبت آثارها من العالم مات العالم وخرب، وقامت الساعة على عالم الدنيا، كما يموت الإنسان إذا فارقت الروح الإنسانية جسمه.

فإذا فُقِدت الآثار الروحية القرآنية الإيمانية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذا فقدت من هذا العالم خرب العالم وقامت الساعة.

وَمِنْ هنا يعلم العاقل أَنه لا يمسك العالم عن الخراب إلا الروح القرآني المحمدي، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلو أنه لم يبق على وجه الأرض إلا مؤمن واحد فإنّ الساعة لا تقوم، حتى إذا فُقد مَنْ على وجه الأرض من المؤمنين قامت الساعة، وهذا قوله

صلى الله عليه وآله وسلم في رواية (المسند)[1]: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى لاَ يقال في الأرضِ: لاَ إله إلاَّ الله» يعني: يقولها اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي رواية[2]: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى لاَ يقال في الأَرْضِ: الله الله».

وقد[3] ثبت عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله: من أحبني فليحفظ وصيتي، فإنني سأطلب من الرب جل وعلا أن يَبْعث فارقليط آخر من بعدي ـ يعني: رسولاً حامداً محموداً، يقُدم الخير للعالم كله وهو سيدنا محمد الذي بشر به سيدنا عيسى عليهما أفضل الصلاة والسلام ـ يثبت مَعكم إلى الأبد. أي: تبقى رسالته إلى يوم الدين ولا رسول بعده.

وفي رواية: يبقى معكم الدهر كله، هو روح الحق ـ أي: التي يُحيى الله تعالى بها العالم ـ فإذا جاء روح الحق فلا يتكلم من تلقاء نفسه، بل يتكلم بما يُسمِعه الله، ويخبر عن الغيوب، وعما هو كائن إلى يوم القيامة.

وهذه هي أوصاف سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ـ٤].

ومما تقدم يتبين للعاقل أنّ حياة العالم وبقاءه متوقفة على الروح القرآني المحمدي، فإذا فُقِدت آثار هذا الروح القرآني من على وجه الأرض خرب العالم. كما يموت الجسم إذا فارقته الروح الإنسانية.

فما أعظم مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع

---

(١) (٣/٢٦٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) في (المسند) (٣/١٦٢)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان /١٤٨/ (١/٣٠٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) كما في شرح المواهب للحافظ الزرقاني.

العالم، حتى إنّ حياة العالم ونظامه واستمراره وصلاحه كل ذلك موقوف على المبادئ التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

حتى إن من مواقفه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم أنه روح العالم، وجاء بحياة العالم، وإنّ الحياة السعيدة الأبدية هي تلك التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما أخبر سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولذلك يتحتم على كل مؤمن أن يكون شأنه الاستجابة الدائمة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تقوى فيه آثار الحياة الإيمانية الطيبة.

وكلّما قويت الحياة في القلب والجسم قويت المدارك والحواس، وكلما قويت المدارك قوي التعقل والتدبّر في الأمر، وصحت الاعتبارات وانكشفت المغيبات، وارتقى مقام المؤمن في الجنة.

ونسأل الله ذلك من فضله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

جملة محاضرات

حول عالم الروح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

امتن الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبيَّن الحكمة في إرساله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن الله تعالى أرسله إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وَمِنْ هذه المواقف أنه جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها.

ومن جملة العوالم التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم عالم الأرواح، وقد جاء بيان ذلك في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم التي هي بيانات للقرآن الكريم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

إنّ كلمة الروح جاءت في القرآن الكريم على عدة معاني:

فقد تطلق الروح على الروح الإنساني، وهي التي تنشأ عنها الحياة الجسمانية، وتقوم على تدبيرها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد تطلق الروح على الروح الملكي الجبريلي، كما قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وقد تطلق الروح على الروح القرآني كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] أي: وهو الوحي الرباني الذي أوحاه الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بما تضمنه من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية التي هي أيضاً بوحي من الله تعالى.

فَمَنْ تشربَّت روحه الإنسانية روح القرآن: صارت روحه الإنسانية حَيَة بالحياة الأبدية.

وهناك الروح الإيماني الذي تحيا به القلوب، بحيث إذا حل الروح الإيماني في قلبٍ صار حياً، وجاءت روح القرآن لتغذيه وتنميه، وهذا قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والمعنى: أومن كان ميتاً فأحييناه بالإيمان وهي الروح الإيماني التي قال فيها سبحانه: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهذا الروح الإيماني أحيا الله تعالى به قلوب المؤمنين، ولما صار القلب حياً صارت المدارك والحواس حية فصار المؤمن سميعاً بصيراً لما ينفعه، وصار عاقلاً يتعقل في الأمور النافعة.

وَمَنْ فَقَد هذه الحياة الإيمانية بقي قلبه ميتاً وصارت مداركه وحواسه ميتة كما قال سبحانه في الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والمراد: صم وعمي القلب، وإلا فهم يسمعون ويبصرون لكن في أمور معاشهم، وتدبير حياتهم فقط، كالبهائم التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والشهوة، أما التطلع إلى الأمور الغيبية، والتفكر بما ينفع النفس ويرتقي بها في الكمالات؛ فَقد حُجب الكافر عن ذلك، لأنه استحب العمى على الهدى، والصم على سماع القبول.

وهذا قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: كان كافراً فأحيا الله تعالى قلبه بالإيمان، فصار قلبه حياً سميعاً بصيراً عاقلاً.

وإنّ الإيمان ينزل في القلب كنزول النواة في بطن الأرض، فيحتاج إلى سقيا، وإلى تغذية وتنمية، حتى يُثمر الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة وهذا لا يكون إلا باتباع القرآن الكريم، والسنة المطهرة النازلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا ضرب الله تعالى مثل الإيمان في القلب كمثل الشجرة فقال

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ـ٢٥].

أي: فليتذكر الإنسان وليعبر من هذا المثل إلى ما وراءه، والكلمة الطيبة هي: لا إله إلا الله كما جاء بيان ذلك عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما(١)، لأنّ كلمة لا إله إلا الله هي نواة شجرة الإيمان في القلب.

ثم يأتي الوحي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيسقي هذه النواة الإيمانية، فتنمو وتُزهر وتثمر.

ولهذا قَرن سبحانه الإيمان بالقرآن وأنهما متلازمان فقال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] أي: أن الكتاب وتفاصيل شعب الإيمان لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمها من تلقاء نفسه، حتى علمه الله تعالى إيَّاها.

وهذا مدح لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أن الله تعالى هو الذي علَّمه وأوحى إليه، وليس الأمر كما زعم الكافرون مِنْ أنه صلى الله عليه وآله وسلم استمع لغيره، أو افتراه من تلقاء نفسه، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أُمِّيّاً لا يُتصور أن يأتي بمثل هذا القرآن من تلقاء نفسه فَمَنِ الذي علمه وأدراه وفهمه؟! نعم إنه الله رب العالمين الذي قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) كما في تفسير الطبري و(الدر المنثور)، وهذا له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه.

وروى الشيخان[1]، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نزل الْقُرْآنِ، فعلموا من الْقُرْآنِ وعَلِمُوا مِنْ السُّنَّةِ».

ثم حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأمانة قال: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مثلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فنفط، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

فلقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نزول الإيمان في القلب وعن رفعه من القلوب، وهذا ما يجري آخر الزمن، حيث تكثر الفتن، نسأل الله العافية.

قول حذيفة رضي الله عنه: رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ.

أما الذي رآه فهو نزول الإيمان في القلوب، فرأى كيف كان الصحابي يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويصير من الصديقين بعد أن كان مشركاً، فكم منهم من أصبح كافراً ثم أمسى مؤمناً صِدِّيقاً، بعد أن أجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمن.

والأمانة هي الإيمان، نزلت في جذر قلوب الرجال ـ أي: نزل الإيمان في أصل القلب ـ ثم بعد ذلك جاء القرآن والسنة لتنمو بهما نواة الإيمان في القلب، وتصير كالشجرة بأوراقها وأغصانها، وأزهارها وثمارها.

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة /٦٤٩٧/ (١١/٣٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة... /١٤٣/ (١/٢٩٣).

وإنما أطلق على الإيمان: الأمانة، لأن الإيمان أعظم أمانات الله تعالى عند الإنسان.

وهذه الأمانة الكبرى ـ أي: الإيمان بما فيه من جميع التكاليف الشرعية ـ هي التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خافت أن تحملها ولا تقوم بحقها.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] أي: تقدم الإنسان لحملها دون أن تُعرض عليه، لأنه كان ظلوماً جهولاً.

ولا يرفع الظلم عن نفسه، ولا يدفع الجهل عنه إلا بحمل الأمانة فتقدم وحملها حتى يصير عادلاً عالماً.

وبيان ذلك قولك مثلاً: إنه لقد أكل كذا وكذا من الطعام، إنه كان جائعاً، أي: لأنه كان جائعاً. فالذي حمله على الأكل هو الجوع، وما أكل إلا لحاجته إلى الطعام.

فكان ظلم الإنسان لنفسه وجهله في الأمور قد حتَّم عليه، ودفعه إلى حمل الأمانة حتى يُزيل عنه الظلم والجهل، ويرتقي في الكمال.

ويقال مثلاً: إنّ فلاناً تحمّل أمانة التعلم، والتزام النظام في المدرسة، لأنه جاهل يريد أن يتفقه ويتعلم، فالتزم المدرسة حتى يزيل الجهل عن نفسه. وهكذا.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأَمَانَةَ» أي: الإيمان.

«نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نزل الْقُرْآنُ، فعلموا من الْقُرْآنِ وعَلِمُوا مِنْ السُّنَّةِ» أي: تفاصيل قضايا الإيمان، فنمت وأثمرت شجرة الإيمان.

وقال سيدنا حذيفة رضي الله عنه: وحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأمانة «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةَ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فنفط، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ» ليس المراد النوم المعروف، وإنما الغفلات التي تأخذ القلوب لكثرة الفتن آخر الزمن، فينغمس الإنسان في الشهوات والمحرمات، فيضعف الإيمان في قلبه، حتى يصير في قلبه كأثر الوكت. أي: كالنقطة على اللوح.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ» أي: في الانهماك في المعاصي والمحرمات، حتى يصل إلى استحلال ما حرم الله تعالى، فَيُقْبَضُ ما تبقى من إيمان في قلبه، لكن ظاهره الإسلام.

ومثال ذلك: كجمر دحرجته على رجلك، فاحترق الجلد، فانتفخ وتورَّم، وامتلأ من المفرزات والصديد، فإذا رآه جاهل ظنَّ أنه سِمَن، ولكنه في حقيقته لا شيء من هذا فيه.

وفي هذا تحذير لكل مؤمن أن يُحافظ على إيمانه بالبعد عن المعاصي والشهوات المحرمة، وإنّ مِنْ أصَرَّ على الحرام جره إلى الاستحلال، ومتى استحل الحرام القطعي خرج عن الإيمان والعياذ بالله تعالى.

ومما تقدم يتبين للعاقل أَنّ الإيمان والقرآن متلازمان، إذ لا بد لشجرة الإيمان بسقيا من ماء القرآن، حتى تنمو وتخضر وتزهر وتثمر.

ولا غنى لأحد أبداً عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يحفظ عليه الإيمان.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُعلم الناس الكتاب والحكمة، أي: يُعلمهم معاني القرآن الكريم ويعلمهم السنة، لأنهم محتاجون إليها، ولولا أنهم بحاجة إليها لما علمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك.

ولهذا قال ابن عمر رضي الله عنهما: (لقد لبثنا دهراً طويلاً وإنَّ الإيمان ينزل في قلوبنا قبل القرآن، ولقد كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن)[1] أي: يأتي القرآن فيفصل قضايا الإيمان وأحكامه وفروعه.

وَمَنْ زعم أنه أمّي لا يقرأ القرآن حتى يتفهم شيئاً من معانيه، فيقال له: عليك بالاستماع إلى تلاوة القرآن، ولابد لك من فهم بعض آياته، فيزيد ذلك في إيمانك، كالماء الذي ينزل من السماء فيسقي الأرض فتتغذى النوى، وتنمو وتُثْمِرُ.

ولَمَّا ضرب سبحانه مثلاً للإيمان في القلب كالشجرة في الأرض ضرب مثلاً آخر للماء الذي يَسقي تلك الشجرة، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] أي: أن كل واد أخذ من الماء على حسبه، وهكذا القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وراحت القلوب تستقي وتستمد من قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، وكل قلب أخذ على حسب توجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتمسكه بما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك تنمو وتثمر شجرة الإيمان في القلب.

وروى الشيخان عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مثلي ومَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا»[2].

---

(١) رواه الطبراني في خبر طويل (مجمع الزوائد) (١/١٦٥) والحاكم في (المستدرك) (١/٣٥).

(٢) تقدم تخريجه ص /٤٢٤/.

قولـه تعـالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ أي: أحيينـا قلبـه بـروح الإيمـان﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعـام: ١٢٢] أي: أن الإيمان لـه نور إذا حلّ في القلب انتشر هذا النور في سائر المدارك والحواس.

وإن هذا النور يهدي صاحبه إلى حقائق الأمور.

وهذا النور الإيماني الذي تنكشف به حقائق الأمور، ليس من الأنـوار المحسوسة، وإنما هو نور من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولما قرأ صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعـام: ١٢٥] قالـت الصحابة: وكيـف يشرح الصدر؟

قال: «نُورٌ يُقْذَفُ فيه فَيَنْشَرِحُ لَهُ وينفسح»(١).

وفي رواية(٢): «إِذَا أدْخَلَ الله النُّورَ القَلْبَ» أي: نور الإيمان النازل من عند الله تعالى «انْشَرَحَ وانفسح» والانشراح هو الاتساع.

قالوا: فهَل لِذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ يعرف بها ؟ أي: علامة.

قال: «الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلْودِ، وَالتَجَافِي عَن دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدَادُ للمَوتِ قَبْلَ لِقَاءِ المَوْتِ».

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن أبي شيبة، والحاكم، (٤/٣١١) والبيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ٣٥٢) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه[1] عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قَالَ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» أي: حاسب نفسه «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّه الأَمَانِي».

فالكَيِّسُ هو الفطن العاقل، صاحب الذكاء والنظر، هو الذي يسعى في تحصيل سعادة مستقبله المحتم الوقوع، وهو ما بعد الموت، وهو المستقبل الذي لا بدّ لكل إنسان أن يدركه، أما مستقبل العمر في الدنيا فهو محتمل الوقوع، قد يدركه الإنسان، وقد يموت قبل ذلك حسب ما قدَّر الله له.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: إنّ خير وأفضل ما تتزودون به لسعادة آخرتكم هو تقوى الله تعالى، وأما زاد الدنيا فأمره مقيد محدود.

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الزمر: ٢٢] [الحشر: ١٨] ما الذي قدمته لغد الآخرة المحقق الوقوع.

قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ فكل مؤمن على نور من ربه.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيهِم نُوراً مِنْ نُورِهِ».

أي: لم يتركهم في ظلمة الهوى والنفس والدنيا.

«فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يومئذ اهْتَدَى» أي: اهتدى إلى الله فعرف

---

(١) الترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٤٦١/ (١٦٥/٧) وابن ماجه /٤٢٦٠/.

الله، وآمن به بنور من الله تعالى «وَمَن أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[1].

ومعنى: «أَلْقَى عَلَيهِم نُوراً مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يومئذ اهْتَدَى» أي: أرسل الرسل في الخلق، وأنزل عليهم الشرائع وهي أنوار من الله تعالى، فمن أجاب دعوة الرسل اهتدى إلى الله تعالى، وَمَنْ أعرض عنهم بقي في ضلاله.

وإن أول مَشرق من مشارق أنوار رب العالمين الإيمانية، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول المرايا التي ظهر فيها نور رب العالمين، ومنه تستمد القلوب وتستنير.

وفي الحديث الذي رواه أبو يعلى في مسنده[2] عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه، أنه قال يوماً لمن حوله: ألا يقوم أحدكم فيصلي أربع ركعات، ثم يدعوا بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيتَ فَلَكَ الحَمْدُ، عَظُمَ حِلْمُكَ فَعَفَوتَ فَلَكَ الحَمْدُ، بَسَطْتَ يَدَكَ فَأَعْطَيْتَ فَلَكَ الحَمْدُ، رَبَّنَا وَجْهُكَ أَكْرَمُ الوجُوه، وَجَاهُكَ أَعْظَمُ الجَاه، وَعَطِيَّتُكَ أَفْضَلُ العَطِيَّةِ وَأَهْنَاهَا، تُطَاعُ رَبَّنَا فَتَشْكُر، وَتُعْصَىٰ ربنا فَتَغْفِر، تُجِيبُ المُضطَرَّ، وتكشف الضُّرَّ، وَتَشْفِي السَّقِيمَ، وَتَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَتَقْبَلُ التَّوبَةَ، ولاَ يَجْزِي بِآلاَئِكَ أحد، وَلاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَكَ قَولُ قَائِلٍ» جلَّ وعلا.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيتَ» أي: تم نورك المفاض علينا، فهديتنا إليك بنورك الذي أفضته على قلوبنا، فلك الحمد على ذلك.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/١٧٦)، والترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٧/٢٩٨)، والحاكم (١/٣٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/١٥٨).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تُطَاعُ رَبَّنَا فَتَشْكُر» فهو سبحانه يشكر عبده المؤمن إذا أطاعه وعبَده، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾.

وفي الحديث [(١)]: أن أعرابياً سقى كلباً كان يلهث من العطش فشكر الله له فغفر له.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولاَ يَجْزِي بِآلاَئِكَ أَحد» أي: لا أحد يستطيع أن يُحصي ثناء عليك لكثرة نعمك، فإنَّ نعمهُ تعالى لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] وإنّ نور الإيمان في قلب المؤمن نور قوي باهر، يظهر له ذلك في عالم الآخرة وأوله بعد الموت، وذلك لأنَّ عالم الآخرة عالَمٌ تظهر فيه الحقائق، وتنجلي فيه الدقائق، أما عالم الدنيا فهو عالم مقيد، قائم على الظلال والستر، لأنه عالم تكليف وامتحان، ولو انكشفت فيه حقائق الأمور لضاعت حكمة التكليف، ولَمَا تخلّف عن الأوامر الشرعية أحد، وفي هذا النور الإيماني يقول سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢] وهو نور الإيمان الذي أضاء للمؤمن ما حوله على حسب قوة إيمانه.

وفي الحديث [(٢)] يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أَولَ زُمْرَة يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةِ البَدْرِ، ثُمَّ الَّذيْنَ يَلُونَهُم عَلَى أَشَدِّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب المساقات، باب فضل سقي الماء /٢٣٦٣/ (٥/ ٤٠)، ومسلم /٢٢٤٤/، وأبو داود /٢٥٥٠/ وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص /٤٣٢/.

كَوكَبٍ دُرِّيٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ» وذلك لأن الله تعالى يُنشئهم نشأة أخرى طيبة، بلا دَرَنٍ ولا قذر، بل كلهم طُهر وطِيْبٌ ونقاء.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُم المِسْكُ عَلَى صُورَةِ أَبِيْهِم آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعَاً فِي السَّمَاءِ».

ولم يكن أحد خَلَقَهُ الله تعالى أجمل وأحسن من صورة آدم عليه السلام، إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو أجمل خلق الله على الإطلاق.

وما نال يوسف عليه السلام شطر الحسن إلا لأنه يشبه آدم عليه السلام.

وإن أنوار الحور العين في الجنة أنوار قوية باهرة، أقوى من نور الشمس، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ أشرفت لملأت الأَرْضِ ريح مسك، ولأَذْهَبت ضَوء الشَّمْس والقمر»[(١)].

وأما زوجات المؤمنين من أهل الجنة فأنوارهن أقوى وأبهر، لأن مقام المؤمنة في الجنة أعلى من مقام الحوراء، وما الحوراء إلا نعيم لأهل الجنة، وفي الحديث يقول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتحدث عن الرجل في الجنة: «فبينما هو متكئٌ معها على أريكته، إذا أشرف عليه نور من فوقه، فيظن أن الله عز وجل قد أشرف على خلقه، فإذا هي حوراء تناديه...» الحديث[(٢)].

---

(١) رواه الطبراني والبزار (مجمع الزوائد) (١٠/٤١٧) عن سيدنا سعيد بن عامر بن خزيمة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الطبراني في (الأوسط) (مجمع الزوائد) (١٠/٤٨١).

فلقد أعطى الله تعالى أهل الجنة لإيمانهم نوراً في قلوبهم، ونوراً في أسماعهم وأبصارهم وجوانبهم، وبهذا النور صاروا أهلاً لسماع كلام رب العالمين ورؤيته جلَّ وعلا.

قال عكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما[1]: لو أنّ إنساناً أعطاه الله أبصار الخلائق من الإنس والجن والحيوان، ثُم كشف الله له عن حجاب واحد من سبعين حجاباً من حُجب الشمس لَمَا تحمَّل أن يرى الشمس.

يعني: أن الناظر إلى نور الشمس في الدنيا إنما يراه من وراء سبعين حجاباً.

قال: ونور الشمس هو جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي هو جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش هو جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب.

وهو الحجاب الذي أشار إليه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَو كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيهِ بَصَرُهُ مِن خَلْقِه»[2].

قال عكرمة: فانظروا ما أعظم نور بصر الإنسان حين ينظر إلى ربه عياناً.

واعلم أن رؤية أهل الجنة لربهم جلَّ وعلا إنما هي على مراتب، وكلٌّ منهم يرى على حسب قوة نوره، وقوة النور تكون على حسب قوة الإيمان، ونسأل الله ذلك من فضله.

---

(١) كما في (الدر المنثور) (٨/ ٣٥٠) معزواً إلى عبد بن حميد.

(٢) طرف من حديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينام» /١٧٩/ (١/ ٣٤٦) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ولما ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَثَلَ أنوار أول زمرة يدخلون الجنة بنور القمر [1]، مع أنّ القمر يستمد نوره من الشمس ولا نور له من ذاته، دلَّ ذلك على أَنّ شمس تلك الأقمار والكواكب الدرُّيِّة التي تدخل الجنة، والتي تستمد منها النور؛ إنما هو سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، الذي وصفه الله تعالى بالسراج المنير، والذي أفاض الله عليه النور لتستنير منه قلوب المؤمنين.

ونسأل الله تعالى أن يفيض علينا من أنواره وأسراره صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

(١) الحديث تقدم قبل قليل.

عالم الروح الإنساني

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فلقد أثبت القرآن الكريم أنّ هناك عالماً يسمى: عالم الروح، وليس هذا العالم من العوالم المادية المتوالدة، وإنما هو من عالم الأمر الرباني، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من عالم مخلوق بقول الله تعالى له ﴿ كُن﴾ دون أن يكون هناك مادة عنصرية، ولا توالد، وإنما هو مُبْدَع إبداعاً بقول الله تعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فقد أثبت الله سبحانه للروح الإنساني وجوداً وتحققاً، وأحكاماً تتعلق بالبدن في عدة عوالم، بدءاً من عالم الجنين، ثم تصحب الإنسان إلى أبد الآبدين، وكلما انتقل الجسم في عالم فإنّ للروح تعلقاً بالجسم، ولكن أنواع تعلقاتها مختلفة.

قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ فقد وَرَدَ أَنّ مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح، ثم سألته اليهود عنها لَمّا هاجر إلى المدينة.

فقد ذهب مشركو مكة إلى أحبار اليهود حتى يعلِّموهم سؤالاً غامضاً دقيقاً لا يعلمه إلا من أطلعه الله عليه، فقالت اليهود لهم: سلوه عن الروح، فنزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ...﴾ الآية.

وذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا دعا المشركين في مكة إلى عبادة الله تعالى، وأقام عليهم الحجة والبرهان، وكان من دهاة قريش النضر ابن الحارث فقال: يا معشر قريش: لقد جاءكم محمد بأمر لا تقدرون على رده بأية حيلة، والله تعلمون أن محمداً حين كان حدثاً شاباً، تعلمون أنه أصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، فلما وخط الشيب في صدغيه ـ أي: قارب أن يشيب ـ لم يكن ليكذب، ولم يكن ليخون الأمانة.

ولما وخطه الشيب وقال لكم: إني رسول الله، قلتم عنه: ساحر، والله ما هو بساحر. وقلتم عنه: شاعر، والله ما هو بشاعر. وقلتم عنه: كاهن، والله ما هو بكاهن. وقلتم عنه: مجنون، والله ما هو بمجنون.

قالوا[1]: اذهب أنت وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة، وأخبراهم عن شأن هذا الرجل، وأنه يقول إنّه رسول الله، وخذا عنهم سؤالاً.

فذهبا إلى اليهود، وذكرا لهم أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال اليهود: سلوه عن ثلاثة أمور، فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإنْ لم يجبكم عنها أصلاً ـ أي: جواباً تفصيلياً ـ فليس بنبي ولا رسول.

سلوه عن فِتية ذهبوا في الأرض، وسلوه عن ذي القرنين طاف الشرق والغرب، وسلوه عن الروح وانظرا ماذا يجيبكم؟

فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الأرض، وعن رجل طاف الأرض، وأخبرنا عن الروح؟

فنزلت الآيات في الجواب بعد هذا: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٩ـ١٠].

---

(١) الخبر في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٠).

وذكر لهم قصة الفتية الذين ذهبوا في الأرض وهم أهل الكهف والرقيم، فأما الكهف فهو الغار في الجبل، وأما الرقيم فهو اسم للجبل، وقيل: للوح الذي رَقَموا عليه أسماءهم، وعلَّقوه على الباب.

ثم أجابهم صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل الذي طاف الأرض بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ ويقال له: ذو القرنين لأنه عاش قرنين من قرون زمنه، وطاف قرني الأرض غرباً وشرقاً.

ثم سألوه عن الروح، فنزل قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وهذا جواب فيه إجمال، لأنه لا يمكن للعقل الإنساني أَنْ يحيط علماً بحقيقة الروح؛ إلا من أطلعه الله تعالى من رسله وأنبيائه، ومن خصه الله تعالى من أوليائه كرامة لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: أن الروح من عالم الأمر الوجودي الإبداعي، مخلوق بأمر الله ﴿كُن﴾، دون مادة أو توالد أو تكاثر أو تجزئ من غيره.

فالروح من عالم الأمر الإبداعي اللطيف الرباني، الذي يخلقه الله بقوله: ﴿كُن﴾ وبدون مدة أو مادة، وأما تفصيل حقيقة الروح فلا يعرفه إلا مَنْ عَرَّفَهُ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أنَّ علم جميع الخلائق بأجمعه هو قليل من كثير لا يتناهى؛ وهو علم الله تعالى.

وفي هذا قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام لما رأيا عصفوراً

نقر من ماء البحر نقرة ثم طار، قال الخضر: يا موسى ما علمي وعلمك مِنْ علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر[(١)].

وليتفكر الإنسان وليتدبر، في أنّ روحه التي يحيا بها جسمه الإنساني؛ هو عاجز عن إدراك حقيقتها، ومعرفة تفاصيلها إلا ما علمه الله إجمالاً، مِنْ أنّ الروح الإنساني هي من عالم الأمر اللطيف الرباني كما تقدم.

فأنّى للإنسان إذاً أنْ ينطلق بأفكاره ليحيط علماً بكمالات الله تعالى؟!! وأنّى له أنْ يدرك حقيقة ذاته سبحانه؟!! بل إنّ الإنسان على الحقيقة عاجز عن إدراك كثير من العوالم المادية حوله، وما عَلِمَ منها إلا ما أذن الله تعالى له.

وليعلم كل إنسان أنّما هو إنسان معروف بروحه لا بجسمه، وجسمه تابع لروحه، لأنّ الروح هي التي تنشأ عنها قوى الإنسان ومداركه وحواسه، فبروحه يسمع، وبروحه يبصر وهكذا.

حتى إذا ما فارقت الروح الجسم لمَ يعد هذا الجسم يسمع أو يبصر، أو يتحرك، بل تجرى عليه أحكام البرزخ الذي انتقل إليه.

ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم، سأله اليهود عن الروح، كما روى البخاري في (صحيحه)[(٢)]، عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ نَفَراً مِنْ الْيَهُودِ أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في طريقه إلى

---

(١) ينظر الخبر بتمامه في (صحيح) البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ /٤٧٢٥/ (٨/٤٠٩)، ومسلم في الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام /٢٣٨٠/ (٥/٢٣٧٣) عن سيدنا أُبيّ بن كعب رضي الله عنه.

(٢) في كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿وما آوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] /١٢٥/ (١/٢٢٣)، وينظر /٤٧٢١ و٧٤٥٦ و٧٤٦٢/.

المدينة، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَسْأَلُوهُ، يستقبلكم بشيءٍ تَكْرَهُونَهُ . أي: ربما أجابكم بما تكرهون، وذلك لأنهم يعلمون أنه رسول الله حقاً، وأنه سيجيبهم عن سؤالهم جواباً نبوياً بوحي من الله تعالى، وإذا أجابهم كرهوا ذلك حسداً من أنفسهم.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ما رابكم؟ أي: ما رابكم من أمره، وهل ترتابون في رسالته؟ فهو حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لكنهم لم يعترفوا حسداً وبغياً، كما قال سبحانه فيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وفي رواية لغير البخاري: ما رأيكم؟

فلما سألوه نزل الوحي بالجواب، ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وقد نزلت هذه الآية مرتين: أولاً في مكة جواباً للمشركين، وثانياً في المدينة جواباً لسؤال اليهود.

وهذا يدلُّ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يتكلم من تلقاء نفسه إن هو سُئل عن أمر، ولم يُجب اليهود حتى أوحى الله إليه بالجواب، وأنّ الجواب هو نفس الجواب الذي علّمه الله تعالى له، وأجاب به مشركي مكة.

ولما كانت الروح من عالم الأمر اللطيف الرباني، وليست من العالم الكثيف المادي، فهي لا تُرى ولا تدرك بالحواس، وَمَنْ أنكر وجودها لأنه لا يراها فيقال له: إنّ حَقيَّة وجود الشيء لا تتوقف على رؤيتك له، فكم مِنْ مخلوقات لطيفة تُثبت وجودها لوجود آثارها مع أنك لا تراها ببصر عينك،

كالهواء مثلاً الذي يحيط بك من كل جانب، فلا يمكنك إنكار وجوده مع أنك لا تراه، ولكن آثاره تدل عليه، فهو يُحرِّك الأشجار، ويثير الغبار، ويدفع الأمواج وهكذا.

فإنّ حقيقة الروح موجودة، وآثارها ظاهرة في جسم الحي، وعن الروح نشأت الحياة الجسمانية، وعملت المدارك والحواس والحركة، بحيث لو فارقت الروح البدن صار هامداً جامداً، مع أنه لم يَفقد عضواً من أعضاء جسمه! فما الذي كان فيه ثم فارقه حتى مات؟!

إنها الروح الإنسانية اللطيفة المخلوقة بقول الله تعالى: ﴿كُن﴾.

وإنّ أول تعلق للروح في الجسم لَمّا يكون جنيناً في بطن أمه، كما رواه الشيخان[1]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ فقَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّه أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرسَلُ إِلَيه المَلَكُ، فينْفُخُ فِيهِ الرُّوحُ» أي: فصار جسم الجنين حياً بحياة روح نُفخت فيه، أما حركته قبل ذلك ونبض قلبه إنما هي الحياة النامية، لأنّ الحياة على أنواع: فحياة الشجر والنبات حياة نمو وحركة، إذ يطول ويكبر من كافة جهاته.

وإنّ تعلق الروح بالجسم تعلق عَشَاقة، لقوة المناسبة بين كل جسم وروحه، وإذا انفصل الجنين عن بطن أمه، وخرج إلى عالم الدنيا راح ينمو ويقوى، حتى إذا بلغ سن الاحتلام ظهرت فيه كمالات الروح سمعاً وبصراً

---

(١) البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة عليهم السلام /٣٢٠٨/ (٦/٣٠٣)، ومسلم في أول كتاب القدر / ٢٦٤٣/ (٥/٢٥٦١)، والترمذي ـ واللفظ له ـ /٢١٣٨/.

وعقلاً، فصار موضعاً لخطاب رب العالمين، تتوجه عليه التكاليف الإلهية الشرعية، أما قبل بلوغه سن الاحتلام فقد كانت الأوامر الشرعية تتوجه على وليه أَنْ يأمره، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مُرُوا أَولاَدكُم بِالصَّلاةِ وَهُم أَبْنَاء سَبْع»(١).

واعلم أنّ بين الجسم والروح ارتباطاً وثيقاً، وأنّ التكاليف الشرعية تتوجه عليهما، فالروح هي التي تدير قوى الجسم ومداركه، ولكن للجسم أيضاً تدخلاً في التكليف، وهو الذي يباشر الأمور، ولهذا لما نزل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الناس يختصمون يوم القيامة بين يدي رب العالمين، حتى تختصم الروح مع الجسم.

فالخصام يجري يوم القيامة بين المظلوم والظالم، وبين المبغيِّ عليه والباغي، وبين المهتدي والضالِّ وهكذا.

ولما نزلت هذه الآية، وقرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصحابة، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: يا رسول الله أتُعادُ علينا الخصومة بعد ما كان بيننا في الدنيا؟

قال: «نَعم حَتَى يُؤدِّي إلى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» يعني: كل منهم يُدلي بحجته، ويحكم الله بينهما.

قال الزبيررضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/١٨٠و١٨٧)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة /٤٩٥/ (١/٣٣٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير، وابن مردويه، والطبراني (مجمع الزوائد) (١٠٠/٧).

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ألاَ وإنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يأكُلُ مِنْهُ البَرُّ والفَاجِرُ، وإنَّ الآخِرَةَ أجَلٌ صَادِقٌ يَقْضِي فيه مَلِكٌ قَادِرٌ»[1].

أمّا اختصام الروح مع الجسد: فتقول الروح للجسد: أنتَ فعلت، ويقول الجسد للروح: أنتِ أمرت وأنت سوّلت[2]. فيرسل الله تعالى ملكاً فيقول الملك: سوف أقضي بينكما، مَثَلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستاناً، فنظر المقعد فرأى ثماراً فقال للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً، ولكن لا أستطيع أن أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني وتناولها، فحمل الضرير المقعد فأخذ الثمار بيده، فقال الملك للروح والجسد: مَنِ المعتدي؟

فقالت الروح والجسد: كلاهما مذنب.

فقال الملك: أنتما قضيتما على أنفسكما[3] أي: أنَّ كليهما مسؤول، إذ لم يتوجه التكليف عن الجسد إلا بعد أن نفخت فيه الروح وبلغ حدّ كماله.

ولو كانت المسؤولية والتكاليف على الروح فقط، لتوجّه عليها قبل أن تنفخ في الجسد، إذ أنّ الأرواح مخلوقة قبل الأجسام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: أرواحاً ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] أي: أشباحاً، فبين خلق الروح والجسم أزمان كثيرة، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «خَلَقَ الله الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَادِ بِأَلفِي عَام»[4].

---

(١) عزاه في (المشكاة) إلى الإمام الشافعي عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وروى نحوه أبو نعيم عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) الروح في اللغة: تذكر وتؤنث من ناحية اللفظ.

(٣) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن منده، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) كما رواه ابن منده عن سيدنا عمر بن عبسة رضي الله عنه.

وإذا انْتَقَل الإنسان إلى عالم البرزخ، وهو عالم ما بعد الموت، صار لروحه ارتباط بجسده، وتعلق يختلف عما كان عليه في الدنيا، إذ أنّ عالم الدنيا عالم تكاليف شرعية، تتوجه على الروح والجسد بالأمر والنهي.

وأما في عالم البرزخ فإنّ تعلق الروح بالجسد تعلق ثانٍ لا ينفك، وله أحكام خاصة.

فيتحسس ويشعر الجسد بالنعيم تبعاً للروح، ويتحسس بالألم والعذاب تبعاً للروح، وإنْ فني الجسد وبليت عظامه وغاب عن النظر أثره فإنّ له وجوداً في عالم البرزخ، ويتحسس بالنعيم إن كان مؤمناً وبالعذاب إن كان كافراً.

وإذا أطلق عالم البرزخ فيُراد منه عالم ما بعد الموت لقوله سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهو عالم وسطي بين عالم الدنيا وعالم الآخرة.

وأما برازخ الآخرة فهي العوالم التي يمرُّ عليها الإنسان، كعالم الحشر، وعالم النشر، والموقف، والصراط، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى دار الخلود، إما الجنة وإما النار، اللهم اجعلنا من أهل الجنة.

وَمَنِ انتقل إلى عالم البرزخ ولم تكن الذنوب وحقوق العباد تُقَيّده عن الإطلاق، فإنه يُشرف على عالم الدنيا وعالم الآخرة، وهذا شأن مَنْ وقف في الوسط بين شيئين.

وأما مَنْ تراكمت عليه الذنوب فيبقى مشغولاً بنفسه، كالمريض المتألم الذي لا يهمه إلا أمر نفسه.

وإن لعالم البرزخ أحكامه واعتباره: ففيه النعيم والألم، وفيه الثواب والعقاب، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ

﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾
تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ
نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة ٨٣ـ٩٦] صدق الله العظيم.

وفي هذا يخبر سبحانه عن أحوال الموتى بعد أن تفارق أرواحهم أجسادهم إلى عالم البرزخ.

قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: بلغت روح المحتضر حلقومه، ودخل في الغرغرة.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى المحتضر ولا تستطيعون أن تقدموا له شيئاً يمسك عليه روحه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بقدرتنا وعلمنا وملائكتنا.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: خاضعين لسلطة وتصرف رب العالمين.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فلا تستطيعون أن تردوا على الميت روحه، ولا يمكنكم أن تُمسكوا على أجسادكم أرواحكم، بل أنتم جميعاً تَحت قهرٍ وسلطان رب العالمين جلَّ وعلا.

قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان هذا الميت الذي فارقته الروح إن كان من المقربين.

﴿فَرَوۡحٌ﴾ والفاء للتعقيب، أي: أنه ينقل إلى الروح والريحان فور انتقاله إلى البرزخ.

والرَّوْح ما ترتاح به النفس وتُسرُّ لـه، وأعظم ما يكون هذا حين تصعد روح الميت، وتلقى الله تعالى وهو عنها راض. والريحان هي الأرزاق العلوية التي تتوارد عليه من حضرة رب العالمين.

وهذا قوله سبحانه: ﴿فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ لينعم فيها.

قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهـم الأبـرار، الـذين هم دون المقربين في الرتبة والمقام.والأبرار هم أهل الإيمان الكامـل الـذين تحققـوا بشـعب الإيمـان كلـها، وأمـا المقربـون فـزادوا علـيهم في فعـل الصالحات فسبقوهم في الأجر والفضل.

قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي: يا مؤمن.

﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ يعني: أنّ أصحاب اليمين الذين هـم في الـبرزخ أقبلوا يسـلِّمون علـى هـذا المـؤمن الـذي هـو أيضـاً مـن أصـحاب الـيمين ويستقبلونه ليأنس معهم بعد أن خرج من الدنيا وفارق أهله.

قوله تعـالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ أي: فور انتقاله إلى البرزخ تكون ضيافته المعجلة له هي الحميم.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: نوعاً من الصَّلْي . أما الصَّلْيُ الأكـبر فيكـون في جهنم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٥].

ثم بَيّن سبحانه أنّ ذلك حَقٌّ وحقيقة، فعلى الإنسان أن يوقن به قبل أن ينتهي ويصير إليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾.

ومما تقدم يتبين للإنسان أنّ أهل الإيمان في البرزخ على مراتب، وإن أعلى مرتبة في عالم البرزخ هي للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهو مقامهم في الرفيق الأعلى، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي اجتمع ليلة الإسراء والمعراج مع الأنبياء والرسل، وأطلعه الله على مراتبهم، ولقد كان آخر كلامه صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا حين احتضاره: «اللهم الرَّفِيقَ الأَعَلى»[1] ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم سيد الملأ الأعلى، ولقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ أي: من الملأ الأعلى من أرواح الأنبياء والرسل وكبار أوليائه سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ...﴾ الآية [غافر: ٧].

ثم هناك مقام الشهداء ومنهم شهداء بدر وأحد.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود[2]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ««لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ، جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ فِيْ جَوفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّة، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِيْ إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَة فِي ظِلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيْبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيْلِهِم قَالُوا ـ أي: لبعضهم ـ: مَنْ يبلِّغُ عَنَّا إِخْوَانَنَا أَنَّنَا أَحْيَاءٌ فِيْ الجنة نُرزَقُ؟ لِئَلاَ يَزْهَدُوا فِيْ الجِهَاد، وَلاَ يَنْكلُوا عِنْدَ الحَرْبِ.

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل السيدة عائشة رضي الله عنها /٢٤٤٤/ (٥/٢٤٢٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) (المسند) (١/٢٦٦)، أبو داود في كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة /٢٥٢٠/ (٣/٣٢)، والحاكم (٢/٢٩٧).

فَقَالَ سبحانه: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، فأَنْزَلَ الله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾» [آل عمران: ١٦٩] الآيات.

وفي هذا دليل على اجتماع الأرواح المتناسبة إلى بعضها في عالم البرزخ، وأنّ كل روح تأوي إلى جنسها وصنفها ونوعها، فالصِّدِّيق مع الصديقين، والصالح مع الصالحين، والشهيد مع الشهداء، وهكذا كلٌّ مع زمرته.

ولما قتل عبد الله بن حرام رضي الله عنه شهيداً قال صلى الله عليه وآله وسلم لولده جابررضي الله عنه: «أَلاَ أُبَشِّرُكَ بما لقي الله به أباك» ؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيىٰ أباك فكلمه كِفَاحًا» أي: بلا حجاب، وهذا التجلي بالرؤيا من الخصائص التي يخص الله بها من يشاء من عباده الصالحين، وأما في الجنة فإن أهل الجنة كلهم ينالون هذا النعيم بالرؤيا.

«فَقَالَ: يَا عَبْدِيْ تَمَنَّ عَلَيَّ أعطيك؟

فَقَالَ: يَارَبِّ تحييني فأُقْتَلَ فِيْكَ ثَانِيَةً.

فقال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سَبَقَ القَولُ مِنِّيْ ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[1].

وقد بَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في عدة أحاديث تفاصيل أحكام

---

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير /٣٠١٣/ (١٨٧/٨)، وابن ماجه في المقدمة /١٩٠/.

البرزخ، ونعيم أهله من المؤمنين، وعذاب الكافرين، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَى يَبْعَثَكَ الله يوم القيامة»(١) أي: وَتَرِدُ عليه ألوان من النعيم الجناني، فينعم بها إلى يوم الدين.

ومن أنواع النعيم في البرزخ أيضاً، أَنّ منهم مَن ينعم بالصلاة لرب العالمين، وبذكره سبحانه، وبتلاوة القرآن الكريم، وهذا من جملة نعيم أهل الإيمان الكامل، وأعظم من جمع هذه المقامات هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم الأنبياء والرسل، ومن خصَّه الله تعالى من كبار الأولياء.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِم يُصَلُّونَ»(٢) أي: يصلون لله تنعماً.

وروى مسلم في (صحيحه) (٣)، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ».

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي /١٣٧٩/ (٣/٢٤٣)، ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت... /٢٨٦٦/ (٥/٢٧٢٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو يعلىٰ والبزار (مجمع الزوائد) (٨/٢١١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم /٢٣٧١/ (٥/٢٣٧١) و(المسند) (٣/١٢٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد خصَّ صلى الله عليه وآله وسلم القبر بالذكر ليُبين أنّ للروح علاقة بالجسم وهو في قبره.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى موسى في بيت المقدس لَمَّا صلى إماماً بالأنبياء والرسل كلهم، ورآه أيضاً في السماء السادسة لما عَرَج إليها(١).

فموسى عليه السلام هو نفسه يصلي في قبره، وهو نفسه صلَّى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت المقدس، وهو نفسه في السماء السادسة، وهذا لأن النشأة البرزخية الأخروية تختلف عن النشأة الدنيوية، فيظهر في النشأة البرزخية أحكام الروح اللطيفة وتتعدد مظاهر وجودها في آنٍ واحد، وهذا هو شأن المؤمن في الجنة.

ففي الحديث: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعيَ من باب الصلاة، ومَن كان مِنْ أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة».

فقال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على مَنْ دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟

قال: «نعم وأرجوا أن تكون منهم»(٢).

---

(١) كما في أحاديث المعراج، انظر (صحيح) البخاري أول كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء /٣٤٩/ (١/٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء /١٦٢/ (١/٣٢٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢/٢٦٨ و٤/٣٨٦)، والبخاري في كتاب الصيام، باب الريان للصائمين /١٨٩٧/ (٤/١١١)، ومسلم /١٠٢٧/ عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا عمرو بن عبسة رضي الله عنهما.

ومما جاء في سياق نعيم أهل البرزخ بالصلوات والعبادات، وتلاوة القرآن، ما روى الترمذي[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رَجُلاً ضَرَبَ خَيْمَةً عَلَى قبرٍ في الليل ـ ولم يعلم أنّ في المكان قبراً ـ فَسَمِعَ قَارِئاً يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتى ختمها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «هِيَ المَانِعَةُ، هِيَ المُنْجِيَةُ، تُنْجِيه من عَذَابِ القَبْرِ».

وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: ذهبت في بعض الجهات أُدْرك مالي ـ أي: يبحث عن بعض تجاراته ـ فأدركني الليل، فلجأت إلى قبر عبد الله بن حرام رضي الله عنه، فأقمت هناك، فسمعت قراءة لم أسمع أحسن منها، فلما أصبح الصباح ذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ذَاكَ عَبْدُ الله، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله تَعَالَى قَبَضَ أَرْوَاحَهُم فَجَعَلَهَا في قَنَادِيلَ مِنْ زَبَرجَدٍ وَيَاقوتٍ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ رَدَّ أَرْوَاحَهُم إِلَى مَكَانِهَا»[2] أي: صار لها نوع خاص من الاتصال بأجسامها، وهذا يكون في الليل، وإن كان هذا الاتصال موجوداً أصلاً.

وفي هذا دليل على أنّ من أَحَبَّ عبادة وتعشَّقها أكرمهُ الله تعالى بالمواظبة عَليها في قبره حتى يتنعم بها.

كما رؤي ثابت البناني[3] يُصلي في قبره، فسُئِلَتْ ابنته عن ذلك؟

---

(١) في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل سورة الملك /٢٨٩٢/ (١٣٠/٨).

(٢) عزاه الحافظ ابن رجب الحنبلي في أهوال القبور إلى ابن منده.

(٣) الإمام القدوة، شيخ الإسلام، ثابت بن أسلم أبو محمد البناني، أحد أئمة العلم والعمل المتوفي سنة /١٢٣ أو١٢٧/ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر قال في دعائه: اللهم إنْ كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره فأعطنيها، فما كان الله ليردَّ ذلك الدعاء.

الأرواح الإنسانية مخلوقة قبل الأجسام

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ اللهَ خَلَقَ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَامِ بِأَلفَي عَامٍ»[1].

وإنّ أول روح خلقها الله تعالى في عالم الأرواح هي روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبَّأه في ذلك العالم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في حديث جاء بعدة روايات: «كُنْتُ نَبِياً وَآدمُ بَيْنَ الرُّوحِ والْجَسَدِ»[2] أي: وآدم لم تُخلق روحه بعد ولا جسمه.

ولَمّا خلق الله تعالى الأرواح ألَّف بين بعضها، ونكَّرَ بين بعضها، فما تآلف منها في ذلك وتعارف ائتلف في عالم الدنيا؛ واجتمع إلى بعضه، وما تناكر منها في ذلك العالم اختلف في هذا العالم.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث الذي رواه

---

(١) تقدم تخريجه ص /٤٦١/.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في (المسند) (٥/٥٩) وابن سعد في الطبقات (٧/٦٠)، والحاكم في (المستدرك) (٢/٦٠٨) وصححه ووافقه الذهبي عن سيدنا ميسرة الفجر رضي الله عنه، وابن حبان في (صحيحه) /٦٣٧٠/ عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه بلفظ: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته» وهو عند الترمذي /٣٦١٣/ (٩/٢٣٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه وانظر (كشف الخفاء) ففيه كلام قَيِّمٌ عن الإمام التقي السبكي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

الإمام أحمد ومسلم وأبو داود[1]: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعارَفَ مِنهـا ائتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

ومعنى: «جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ» أي: أنها أصناف مصنفة، وعلى مراتب مرتبة.

ومن هذا الحديث يَعلم المؤمن فضل الله تعالى عليـه، وذلـك أَنَّـهُ لَـمْ يؤمن برسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم ويحبـه؛ إلا لأنّ روحـه قـد تعارفت مع روح سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عـالم الأرواح، قبل أن تظهر في عالم الدنيا.

وفي رواية ابن منده، عنه صلى الله عليـه وآلـه وسـلم: «إنَّ الله تعـالى خَلَقَ أَرْوَاحَ العِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ العِبَادَ بِأَلْفَيْ عَام، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَـا ائتَلَـفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

وقد تقدم في الحديث[2] قوله صلى الله عليه وآله وسـلم: «ثُـمَّ يُرسَـلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيْهِ الرُّوحُ» أي: ينفُخُ في الجـنين الـروح المخلوقـة، الـتي خلقها الله تعالى قبل أن يخلق جسم الجنين.

والنفخ هو: إيصال شيء موجود إلى شيء آخر.

وإنّ لكل جسم روحاً تناسبها، واسـتعداداً لتقبُّلِهَـا، وبـين كـل جسـم وروح علاقة عشاقة قوية كما تقدم.

* * * * *

---

(١) (المسند) (٢/٢٩٥)، ومسلم في كتـاب الـبر والصـلة والآداب، بـاب الأرواح جنود مجندة /٢٦٣٨/ (٥/٢٥٥٧)، أبو داود /٤٨٣٤/ عن سيدنا أبي هريـرة رضي الله عنه، وهو عند البخاري في كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة /٣٣٣٦/ (٦/٣٦٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) ص /٤٥٩/.

حياة الروح الإنساني بالروح القرآني
الذي أُنْزِل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

إذا كانت حياة الأجسام تنشأ عن الأرواح الإنسانية، والتي هي من وظائف ملك يرسله الله تعالى إلى الجنين في بطن أمه، بعد أربعة أشهر من حمله، وينفخ فيه الروح فيحيا جسمه بالروح الإنساني، فإنّ حياة الروح الإنساني لا تكون إلا بروح الوحي الرباني، الذي أنزله الله على رسله عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وإنّ أعظم من جاء بروح رباني قرآني، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال تعالى فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ القرآن على المشركين، ليوصل الروح القرآني إلى أرواحهم وقلوبهم، فمن استجاب وتقبل دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آمن وأذعن، وحييت روحه، وحيي قلبه حياة الأبد. وَمَنْ أعرض وأبى بقي على كفره ميِّتَ القلب ميتة الأبد.

ولما كان المشركون يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت قلوبهم تتأثر وتخشع، إلا أنّ منهم من كان يؤمن، ومنهم مَنْ كان يعارض ويعاند، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: أدخلنا هذا القرآن في قلوب المشركين لكنهم كما أخبر

سبحانه بقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: وقد ذاقوا حلاوته حتى قال قائلهم: إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر ومع هذا كله عارضوا وعاندوا كما قال سبحانه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] أي: لا يؤمنوا به ظلماً منهم؛ وعلواً وتكبراً؛ بعد أن عرفوا أنه الحق؛ ولكنهم لم يعترفوا ولم يؤمنوا.

وقال سبحانه في بيان أثر حياة القلوب والأرواح، بالهدي الذي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقد تقدم تفصيل ذلك.

الروح الجبريلي

قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الكريم ﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

فجبريل عليه السلام هو روح القدس، أي: الروح المقدسة الطاهرة عن كل دنس، وهو روح القدس، أي: روح التقديس، يعني: التطهير وتزكية النفوس، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ينزل بالشرائع الإلهية على الرسل، وفيها تطهير نفوس العباد وتزكيتها.

وقد سُمِّيَ جبريل عليه السلام روحاً، مع أنّ لِكل مَلَكٍ روحاً، بل ولكل إنسان روح!

نعم سمَّاه الله بذلك ليبين سبحانه أن جبريل عليه السلام، هو أعظم الأرواح الملكية وأقواها، وتَتَشَعُّ عنه الحياة.

ولذلك لَمَّا أرسل الله سبحانه جبريل عليه السلام على فرس إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ليصحبه إلى الميقات الذي وقَّته الله له لتكليمه ومناجاته سبحانه، لَمّا كان فرسه يمشي على الأرض كانت تدبُّ الحياة عند مواقع أقدام الفرس، فتخضر الأرض تحته، فكشف ذلك سبحانه للسامري، فأخذ قبضة من التراب الذي وطئته أقدام فرس جبريل عليه السلام ـ وقد دبَّت الحياة في التراب ـ واحتفظ به، حتى صنع عجلاً من ذهب، وألقى هذه القبضة الترابية الحيوية في جوف العجل الذهب، فصار العجل يتحرك وله خوار، فقال السامري لبني إسرائيل: هذا إلهكم و إله موسى[1].

فصدَّقه مَنْ صدَّقه، وكذبه وردَّ عليه آخرون.

فانظر في قوة الروح الجبريلي، حتى إن الحياة صارت تدب في كل شيء تطؤه أقدام فرسه !

وروى الحاكم في (مستدركه)[2]، أَنَّ مِنْ دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيل ومُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم أعوذ بك مِن النَّار».

وَمَنْ تدبَّر في كلامه صلى الله عليه وآله وسلم، يعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جمع في الذكر بين هؤلاء الملائكة، وذكر نفسه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ كلاً منهم تنشأ عنه حياة.

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند تفسير الآية /٩٦/ من سورة طه.

(٢) (٣/٦٢٢) عن سيدنا أسامة بن عمير رضي الله عنه.

أما سيدنا جبريل فهو روح القدس، وهو الروح الأمين، فكان ينزل بالشرائع على الرسل، لتحيا بها قلوب العباد وأرواحهم.

أما ميكائيل عليه السلام فإنّ مِنْ وظائفه التي أمره الله بها أن يُسَيِّرَ السُّحب الماطرة إلى أماكنها التي أمره الله تعالى بها؛ لتحيا بها أرض الأجسام.

أما إسرافيل عليه السلام فَمِنْ وظائفه أن يَنْفُخَ الأرواح في الأجساد الميتة، فتحيا بإذن الله تعالى، وهذا يوم يبعث الله الخلائق، فيأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور، فتطير كل روح إلى جسدها.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء بروح العالم كله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وبهذه الروح القرآنية المحمدية تحيا القلوب والأرواح، وعلى هذه الحياة الإيمانية يتوقف بقاء العالم، حتى إذا لم يبق على وجه الأرض مؤمن حيَّ القلب بالروح القرآني المحمدي خرب العالم، وقامت الساعة كما تقدم بيانه.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] يعني: أن أعظم روح ملكي، نزل بأعظم روح ربَّاني قرآني، على أعظم روح إنساني وأعظم قلب إنساني، وهو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

والقلب هو همزة الوصل بين الروح والجسد، فالحياة الجسمانية منوطة بحركات القلب الجسماني، وأول ما تتوجه الروح إلى القلب.

وكذلك الواردات والمعاني إنما تدخل الجسم عن طريق القلب وهو

اللطيفة الربانية التي أودعها الله تعالى في القلب الجسماني الصنوبري، وهي موضع الإدراك والتبصر.

قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فقد ذكر كلمة ﴿قَلْبِكَ﴾ حتى يُبين سبحانه أنّ هذا القرآن لا يمكن لأحد أن يتحمله، ولا لقلب أن يتسع له إلا قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعن فيض قلبه صلى الله عليه وآله وسلم تستفيض وتستمد القلوب.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد بالسند الجيد [1]، أن سيدنا عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ - أي: من لدن آدم عليه السلام إلى آخر مَنْ على وجه الأرض - فَوَجَدَ قلب مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَاد فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِه - أي: اصطفاءً خاصاً - وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَته - أي: العامة - ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَاد بعد قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابه خَيْرَ قُلُوبِ العِبَاد فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم) يعني: هذا من بعد اصطفائه سبحانه لأنبيائه ورسله.

وروى الدارمي في (سننه)[2] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله كيف عَلِمْتَ أنك نبي حِيْنَ اسْتُنْبِئتَ؟ أي: ما هي العلامات التي عرفت منها أنك نبي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَتَانِي مَلَكَانِ وَأَنَا بِبعض بَطْحَاءِ مَكَّةَ، فَوقع أَحَدُهُمَ على الأَرْضِ، وكان الآخَرُ بَينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ.

فَقَالَ أَحَدُهُمَا لصاحبه: أَهُوَ هُوَ؟ فَقَال نعم.

---

(١) (٢٧٩/١).

(٢) المقدمة حديث رقم /١٤/.

فقالَ: فزِنْهُ برجل. فَوزِنتُ به فوزنته - وهذا وزن اعتباري في الفضائل والكمالات لا في الأجسام.

ثم قَالَ: فزِنْهُ بِعَشَرَةٍ. فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ.

ثم قَالَ: زِنْهُ بِمِائَةٍ. فَوُزِنْتُ بِهم فَرَجَحْتُهُمْ.

ثم قَالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ. فَوُزِنْتُ بِهم فَرَجَحْتُهُمْ، كأني أنظر إليهم ينتثرون عَلَيّ من خِفّة الميزان.

قال: فقَال أحدهما لصاحبه: لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِه لَرَجَحَها».

وإن أعظم أواني ربِّ العالمين، التي أفرغ فيها الأنوار والأسرار، إنما هو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ لله آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأرضِ، وآنِيَةُ رَبِّكُم قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَأَحِبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَ أَرَقُّهَا»[(١)].

وإنَّ شأن الإناء أن يكون مُستعداً للإملاء، فليتوجه قلب كل مؤمن إلى ربه حتى يملأه، ويفيض عليه سبحانه من أسراره وأنواره، ومعارفه وتجلياته ومشاهداته، ولا يمكن للآنية أن تستمدَّ وتستفيض إلا من قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه أوسع وأعظم وأجمع آنية رب العالمين.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نور الله في قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ يعني: أن أعظم مَظهر نوراني لأنوار رب العالمين، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال فيه تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ فقلبه الشريف صلى

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني عن سيدنا أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه.

الله عليـه وآلـه وسـلم هـو المشـكاة الأولى، الـتي تتجلـى فيهـا أنـوار رب العالمين، وعن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم تستمد القلوب الأنوار.

نسأل الله تعالى أن يمدنا من مدده، ويفيض علينا من أنـواره صـلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

من خصائص القلب

اعلم أنّ القلب الذي يُطلب من العبد المؤمن تزكيته وتطهيره من الأوساخ والأمراض، إنما هو القلب اللطيف الروحاني الرباني، الذي أودعه الله تعالى في مكان القلب الجسماني الصنوبري، فصورة القلب وظاهره هو جسم صنوبري الشكل، وهو يبحث عنه أطباء الأجسام، لكنّ هذا القلب الجسماني أودع الله فيه روحانية ربانية، وهو ما يعبر عنه باللطيفة الإنسانية، أو المدركة والمفكرة العاقلة، وهو القلب المعنوي القائم في موضع القلب الجسماني، وهذا هو موضع الاعتبار وبه يكون الإنسان إنساناً.

ونسبة هذا القلب للجسم كنسبة المَلِك، وبقية أعضاء الجسم وقواته المختلفة، من الشهوة والغضب وغيرهما؛ كلها جنود تحت أمر هذا الملك، فكل إنسان مَمْلكة خاصة، فالقلب مَلك، والجوارح والحواس رَعِيّة، فماذا يجب على الملك حتى يحسن التصرف في هذه الرعية؟

يجب أن يكون هذا القلب الذي هو مَلك الجوارح والقوى الشهوانية، يجب أن يكون عالِماً قوياً، حتى تتحقق فيه صفة المُلْكية على أكمل وجه.

أما إذا افتقد القلب صفة العلم والقوة فلا مُلك له على الجوارح والحواس، وربما تسلطت عليه وأفسدته.

أما صفة العلم وهي أن يكون عالماً بتدابير وشؤون الرعية، وما فيه صلاحها.

ثم يجب أن يكون قوياً في التنفيذ، فإذا اجتمعت هاتان الصفتان في شخص صار مَلكاً، لأنه لا يصل إلى الملك إلا من كان عنده علم بسياسة

الأمة، وحسن التصرف مع الرعية، وإيصال المنافع إليها، وعنده قوة في العزيمة، وقوة في التنفيذ والعمل.

كما قال الله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي أعطاه الله تعالى علماً بشؤون الملكية وتدابير الرعية وأعطاه قوة في التنفيذ والعمل، وهذا كما قال تعالى في حق يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥] أي: عنده قوة على الحفظ، وعلم بشؤون الملكية.

فإذا كان القلب هو المَلك، والأعضاء والحواس والشهوات هي الرعية، فماذا يجب على الملك أن يكون متحققاً فيه حتى يصلح هذه الرعية في دينها ودنياها؟

أولاً: يجب أن يكون عالماً بتدابير الرعية، وما فيه صلاحها، بأن يعلم ما فيه سعادة هذا الجسم في الحال والمآل. أي: في الدنيا والآخرة.

ولا يستطيع هذا المَلك فعل ذلك إلا إذا تعلم شرع الله تعالى وأوامره التي هي نظام هذا الجسم، ومصلحته في الدنيا والآخرة.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»(١). والمراد بالعلم: العلم الذي يَصلح فيه أمر دينه ودنياه.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطلب العلم، ومجالسة العلماء فقال: «إِذا مَرَرتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارتَعُوا»

قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة /٢٢٤/ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

قَالَ: «مَجَالِسُ العِلْم» كما في الطبراني[١] وفي رواية[٢]: «حِلَقُ الذِّكر».

وفي الحديث الآخر[٣]، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لُقْمَان قال لابْنِهِ: يَابُنَيَّ عَلَيْكَ بِمُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ، وَاسْمَعْ كلام الحُكَماء، فَإِنَّ الله تَعَالى يُحيي القَلبَ الميِّتَ بِنُورِ الحِكْمَةِ، كَمَا يُحْيي الأَرضَ المَيْتَةَ بِوَابِلِ المطر».

فيجب على المؤمن أن لا يزهد في حُضور مجالس العلم، فإنّه وإن لم يفهم شيئاً، بل لو خشع قلبه ودمعت عينه من ذكر حديث أو موعظة لكفاه ذلك.

ولو فرضنا أَنَّهُ ما فهم شيئاً، وما خشع قلبه، وما دمعت عينه، فإنّ حضوره مجلس العلم الذي تُتلى فيه آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، يُعرضه لرحمة الله ومغفرته، فقد أخبر الله في الحديث القدسي عن أهل هذا المجلس: «وَلَهُ قَدْ غَفَرتُ هُمُ القَومُ لاَ يَشْقَى بِهِم جَلِيْسُهُم»[٤].

ثانياً: لابد لهذا القلب أن يكون قوياً على التنفيذ. أي: يعرف الحق وينفذ، ويعمل بموجب هذا العلم الذي عنده.

---

(١) (مجمع الزوائد) (١/١٢٦) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) طرف من حديث طويل رواه أبو يعلىٰ والبزار والطبراني، (مجمع الزوائد) (١٠/٧٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في (الكبير) (مجمع الزوائد) (١/١٢٥).

(٤) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى /٦٤٠٨/ (١١/٢٠٨)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر /٢٦٨٩/ (٥/٢٥٩٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وربما يقال: إن القلب يكتسب العلم من طريق الشريعة، لكن من أين له اكتساب القوة على العمل بموجب عِلْمِهِ؟!

نعم إنه يحصل على هذه القوة إذا اعتصم بالله مَلك الملوك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] لأن هذا القلب مُستخلف، ولابد للوكيل أن يرجع للأصيل ويلوذ به، وتحقَّق بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: على موجب ما تعلمنا من الشريعة، مستعينين بالله على ذلك. فإذا حقق القلب هذين الأمرين: العلم والقوة على التنفيذ؛ صار مَلِكاً صالحاً، يرجى منه صلاح الرعية.

وأما إذا فقد القلب أحد هذين الوصفين فهو لا يستحق الملكية، وهو معزول عنها.

فالجهل والضعف إذا تمكنا في القلب تغلبت الرعية على هذا القلب، وسيطرت عليه شهواته البهيمية، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، وانقلبت عيشته إلى عيشة البهائم، لا يعرفُ مِنْ أمره إلا الأكل والشرب والشهوات، كما قال تعالى في الكفار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وأما إذا كان هذا القلب عالماً بمنافع ومصالح دينه ودنياه، قوياً على التنفيذ والعمل بما هو عالم به، فإنه يرتقي بذلك إلى صفوف الملائكة، كما قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: أن هذا الخُلُق العظيم في يوسف عليه الصلاة والسلام، خلق ملائكي، لأنه لا شهوة بهيمية عنده، فقد اجتمعت نساء المدينة لينظرن إليه، لكنه لم ينظر إليهن، ولم يعبأ بهن؛ فحينئذٍ قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

ولهذا جاء في الحديث: «أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

أي: إذا صلح القلب حِسّاً صلح الجسم حساً، وإذا فَسَدَ حساً فسد الجسم حساً، وكذلك إذا صلح القلب معنىً وقُوَّةً وإيماناً صلح الجسم أيضاً.

واعلم أن هذا القلب الصالح هو موضع نظر الله تعالى، ومنزل أنواره، لذا كان أشرف أعضاء الإنسان، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وأموالكم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعْمَالِكُم» الحديث(٢).

كما أنّ القلوب تختلف عن بعضها في سعتها واتساعها، وأوسع قلب وأعظم قلب هو قلب السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ١٩٤] فاتسع قلبه الشريف لهذا القرآن العظيم ومعانيه، ولَمَّا وزنه الملك بعشرة من قلوب أمته الكُمَّل رجحهم، حتى إنه قال: «لَو وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَهَا»(٣).

لهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم قلب القلوب بل قلب الأكوان لذا ذكره الله تعالى في سورة ﴿يسٓ﴾ التي هي قلب القرآن الكريم.

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه /٥٢/ (١/١٢٦)، ومسلم في كتاب المساقات، باب أخذ الحلال وترك الشبهات /١٥٩٩/ (٣/١٦٤٧) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم... /٢٥٦٤/ (٥/٢٥١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كما في الحديث الذي تقدم ص /٤٧٦/.

فَحُقَّ لقلب الأكوان أن يُذكر في قلب القرآن، كما قال عليه الصلاة والسلام، في الحديث الذي رواه الترمذي[1]: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ القُرْآنِ ﴿يسٓ﴾ وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿يسٓ﴾ كَتَبَ الله لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ القُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ».

ولقد ضرب الله تعالى مثلاً في اختلاف سعة القلوب، فقال جلَّ وعلا: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فالقلوب كالأودية، منها الصغير ومنها الكبير، وهناك قلب نظيف، وهناك وادٍ ممتلئ بالأقذار، ووادٍ فيه شيء قليل من الأوساخ والأقذار، فإذا نزل المطر على الوادي النظيف امتلأ بالماء، وأخذ من الماء ما يناسب سعته، فهو القلب النظيف الخالي من الأكدار والأغيار، فهو يأخذ من الروح القرآني ما يزيد في معرفته بالله وإيمانه به.

وأما الوادي الذي فيه بعض الأوساخ والأقذار، فعندما يمتلئ بالماء تطفو هذه الأقذار، وتنزاح عن هذا الوادي، ليبقى فيه الماء النظيف فقط، فهو بمثابة القلب الذي كَدّرت صفاءه الشهوات الدنيوية، والأمراض النفسية، فعندما يُعَرِّض صاحب هذا القلب قلبه للروح القرآني، فإنها ستُزيل عن قلبه ظلمة الأكدار، وتنوِّره بنور الله الواحد القهار.

---

(١) في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل ﴿يسٓ﴾ /٢٨٨٩/ (٨/١٠١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

وأما الوادي الممتلئ بالأقذار والأوساخ، فلا مجال لشيء من ماء المطر أن يمكث فيه، بمثابة القلب الملطخ برعونات الدنيا، والمنغمس في ظلمات الكفر والجهل، فعندما ترد الروح القرآني إلى قلبه يعرض عنها فلا يؤثر في قلبه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الحجر: ١٢] أي: بسبب إعراضهم وكبرهم وعنادهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥].

ولقد جاء بيان أنواع القلوب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره[١]، بالسند الجيد، عنه عليه الصلاة والسلام: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مربوط عَلَى غِلافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ.

فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ» أي: المجرد عن العلاقات والظلمات «فقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ نُورُهُ» أي: نور الإيمان. ومعنى يزهر: يضيء.

«وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ: فقَلْبُ الْكَافِرِ.

وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ.

وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ» أي: له صفحتان، أي: جهتان «فقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ».اهـ

---

(١) (المسند) (٣/١٧) والطبراني في (الصغير) (مجمع الزوائد) (١/٦٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

واجبات القلب الذي هو المَلِكُ تجاه رعيته :

يجب عليه أن يتعهد أمور الرعية بالمحاسبة بالعدل والميزان، وكذلك موقف القلب تجاه الأعضاء والجوارح، والقوات الشهوانية، يجب أن يكون موقفه موقف المحاسبة.

والمراد أن يُحاسب المؤمن نفسه في كل وقت وهو في الدنيا بالتوبة والاستغفار.

وإذا فعل المؤمن ذلك في الدنيا فلا حساب عليه في الآخرة، لأنّه قام بمحاسبة نفسه وهو في الدنيا، وأدّى مالها وما عليها، فعلام يحاسب؟

كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الْكَيِّسُ» أي: الفطن و النبيه «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» أي: جازاها وحاسبها «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّه الأَمَاني»(١).

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وَزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] أي: العرض على رب العالمين.

فعلى المؤمن أن يكون موقفه مع نفسه موقف المحاسب المدقق، وأن يُسارع إلى التوبة والاستغفار، وأن يتعرض لنفحات الله، بأن يُفرِّغ قلبه عما سوى الله تعالى، لتصيبه تلك النفحات، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لِرَبِّكُمْ فِيْ أَيَّام دَهْرِكُمْ نَفَحَات، ألاَ فَتَعَرَّضوا لَهَا، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيْبَكُم نَفْحَةً لاَ تَشْقَونَ بَعْدَهَا أَبَدَاً» الحديث(٢).

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٤٦١/ (٧/١٦٥)، وابن ماجه /٤٢٦٠/، والحاكم (٤/٢٥١) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط والكبير)، (مجمع الزوائد) (١٠/٢٣١) عن سيدنا محمد بن مسلمة رضي الله عنه.

شواهد من أفعال الصحابة رضي الله عنهم في محاسبة أنفسهم

لما سمع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ: «مَن جرَّ ثَوبَهُ خُيَلاَءَ: لَمْ يَنْظُر الله إليهِ يَومَ القِيَامَة» وهو إرسال الثوب دون الكعبين اختيالاً وكبراً.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إنَّ ثوبي يسترخي حتى أتعاهده ـ أي: إن طرفاً من أطراف ثوبه يسترخي أحياناً حتى يتعهده بالرفع ـ فهل هذا من الخيلاء؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ لست تَصْنَعْ ذَلِكَ خيلاء»(١).

ودخل يوماً رضي الله عنه على السيدة عائشة رضي الله عنها(٢)، وكانت قد لبست ثوباً جديداً من ثيابها، وجعلت تنظر إليه وتمشي به ـ أي: بشيء من الإعجاب بهذا الثوب، وليس كبراً واختيالاً ـ .

فقال لها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: ياعائشة ألم تعلمي أن الله لا ينظر إليك الآن؟! قالت: ولِمَ؟!!

قال: لأنّ مَنْ دخله العجب بزينة مِنْ زينة الدنيا مَقته الله تعالى.

فنزعت السيدة عائشة رضي الله عنها ثوبها وتصدقت به.

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً» /٣٦٦٥/ (١٩/٧) ومسلم /٢٠٨٥/ عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كما في الحلية (١/ ٣٧).

فقال أبو بكر رضي الله عنه: عسى أن يُكَفِّرَ الله ذلك عنك.

وَمَرّ عمر رضي الله عنه عند رجوعه من الشام على عجوز في خباءٍ لها ـ وهي في طرف من أطراف المدينة ـ فقالت له ـ وهي لا تعرفه ـ: ما فَعل عمر؟

فقال: رجع من الشام سالماً. فتكلمت فيه كلاماً ـ أي: فيه ذم.

قال: ولِمَ؟

فقالت: إنه منذ وُلِّيَ الأمر ما أعطانا ديناراً ولا درهماً.

فقال: وما يدري عمر بشأنك ؟!

فقالت: يا هذا سبحان الله، إني ما ظننت أنّ أحداً يلي الأمر إلا وهو يعلم ما بين مشرقها ومغربها. ومرادها أنه هكذا يجب أن يكون شأن الخليفة.

فقال عمر في نفسه: واعمراه، كل أحد أفقه منك ياعمر حتى هذه العجوز، ثم قال لها: أناشدك الله أما تَبِيعيني ظلامتك من عمر حتى أنقذه من النار؟

فقالت: أنت تهزأ بي؟

فقال: لا، وصار يَعُدّ لها، حتى وافقت على خمس وعشرين ديناراً، وقالت: عفوت عنه.

وبينما هم على ذلك إذ مرَّ علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فضربت المرأة وجهها بيديها وقالت: واسوأتاه من عمر؟ أي: هذا العمل السيئ الذي فعلته مع أمير المؤمنين عمررضي الله عنه.

فقال عمر: يرحمك الله لا بأس عليك، ثم دعا عمر رضي الله عنه برقعة يكتب فيها نصَّ اتفاقه مع العجوز فلم يجد، فقطع قطعة من مُرقَّعتِه

ـ وكان يلقيها على ظهره ـ وكتب عليها بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما باعته العجوز ظلامتها من عمر بخمس وعشرين ديناراً، فإذا وقفت في المحشر بين يدي الله تعالى فإن عمر بريئ مما عندها ـ أي: بريء الذمة منها ـ وَأَشْهَدَ على ذلك علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعودرضي الله عنهما، ورفع الرقعة إلى سيدنا علي رضي الله عنه وقال له: إذا مت فضعها تحت كفني.

وقام عمر رضي الله عنه يوماً خطيباً فقال: يامعشر المسلمين ماذا تقولون لو أني مِلتُ برأسي إلى الدنيا. وأمال رأسه رضي الله عنه. ومراده: زينة الدنيا، ومال عن الحق شيئاً.

فقام رجل ورفع سيفه وقال: والله نعمل هكذا: يريد أننا نضرب عنقك.

فانتهره عمر وقال: ياهذا إياي تريد؟ فقال الرجل: نعم أريدك أنت، فانتهره ثانية وثالثة والرجل يقول: أنا أريدك، وعمر رضي الله عنه يريد بذلك تثبيت الرجل على الحق، فرآه ثابتاً، فقال عندئذ: الحمد الله الذي جعل في رعيتي من إذا اعوججت قَوَّمَنِيْ.

وقرأ مرة قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

فخاف أن يكون منهم، فخرج من بيته ودخل على أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأقرؤها لكتاب الله أُبَيّ»[(١)] وكان أُبيّ جالساً على وسادة، فقام وقدَّمها لأمير

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ١٨٤)، والترمذي في =

المؤمنين، فدفعها عمر وقال: ما هذا أريد ـ أي: ما أريد منك أن تقوم ـ بل جئت أسألك هل أنا من الذين ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؟

فقال أبي: لا يا أمير المؤمنين، إنه لابد أن تحكم بالحق، وأن تعمل بالحق ـ أي: وقد يوافق عملك بالحق هوى رجلٍ أو يخالفه، لكن ما دام بالحق فأنت لست من الذين ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ـ فهنا سكن روعه رضي الله عنه.

وكان مرة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه جالساً عند أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فسمعها تقول عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ من أصحابي مَن إذا مِتُّ لا يراني بعد مماتي أبداً» ومراده صلى الله عليه وآله وسلم بعض المنافقين الذين ظاهرهم الصحبة وباطنهم الكفر.

فخاف عبد الرحمن رضي الله عنه، فراح ودخل على عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أما سمعت أمك ماذا تقول؟

قال: ماذا تقول؟

فأخبره عبد الرحمن رضي الله عنه، فنهض عمر رضي الله عنه مسرعاً إليها رضي الله عنها، وقال لها: يا أماه هل أنا منهم؟

= كتاب المناقب/٣٧٩٣/ (٩/٣٤٤) ونص (المسند) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أبيّ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين؛ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» رضي الله عنهم أجمعين.

فقالت: أنت لست منهم، ولكن لا أبرئ بعدك أحداً. أي: حتى لا تفتح المجال للسؤال، وربما أتى المنافق وسأل. فسدت الباب رضي الله عنها[1].

وصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّدٍ
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ.

(١) انظر هذه الأخبار في (مناقب سيدنا عمر رضي الله عنه) لابن الجوزي، و(الرياض النضرة) للمحب الطبري.

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ٥
جملة محاضرات حول الوعظ والتذكير القرآني ٩
المحاضرة الأولى في الوعظ والتذكير ١١
الوعظ والتذكير من جملة مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم. ١٣
كل موقف من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم يتطلب من المسلم جواباً ١٣
فائدة الوعظ والتذكير ١٤
أنواع القلوب بالنسبة للوعظ والتذكير ١٦
للقلوب أمراض لا تعالج إلا بالقرآن ومواعظه ١٦
صاحب القلب السليم تنكشف له أنوار الذات والصفات ١٨
ثلاثة لا ترد دعوتهم ٢٠
سيدنا حنظلة مع سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ٢٠
المحاضرة الثانية التذكير القرآني ـ أنواعه ـ مراتبه ٢٣
التذكير بالله تعالى وبأيامه سبحانه وتعالى ٢٥
التذكير بآلاء الله تعالى ٢٦
ذَكَرَ سبحانه وتعالى في سورة ﴿قٓ﴾ أنواعاً من التذكير ٢٨
بيَّن الله تعالى أن الذكرى تنفع المؤمنين ٢٨
تفسير موجز لآيات من سورة ﴿قٓ﴾ ٢٨
الملكان اللذان وُكِّلا بكتاب أعمال الإنسان كل منهما عتيد ٣٠
بيان حال الإمام أحمد رحمه الله تعالى لما اشتد مرضه ٣١
حال الإنسان في البرزخ هو حال أعماله في الدنيا ٣٢

بيان حال الكافر عندما يساق إلى جهنم ـ أعاذنا الله منها.................. ٣٤
كل إنسان له قرينان؟ ٣٤
بيان المراد من دعاء الملكين: «وأعط ممسكاً تلفاً» ٣٥
ذكر جملة من صفات نار جهنم.. ٣٦
بيان المراد من قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾............................ ٣٦
احتجت الجنَّة والنَّار.. ٣٧
بيان معنى الحديث: «حتى يضع الله تعالى قدمه عليها».......................... ٣٨
الجنة مظهر الفضل الإلهي وهي واسعة.. ٣٩
المؤمن في قبره يعرض عليه مقعده في النار ومقعده في الجنة ٣٩
بيان حال أهل الجنة وهم في الحشر ٤٠
بيان المتقين والأوابين ٤٠
هناك مرتبة عالية في الأوب إلى الله تعالى ـ بيان السبيل إليها ٤٠
بيان المراد من الحفيظ في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ مفصلاً.......... ٤١
حسن العهد من الإيمان ٤٢
إنها كانت تأتينا زمان خديجة رضي الله عنها ٤٢
استحيوا من الله حق الحياء... ٤٣
احفظ الله يحفظك ٤٤
من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم في الصباح والمساء........................ ٤٤
ذكر دعاء علَّمَه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا عمر بن
الخطاب رضي الله عنه ٤٥
﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؟! ٤٥
بيان المراد من القلب المنيب ٤٦
نعيم الجنة متجدد أم محدود؟... ٤٧
﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾... ٤٧
يوم الجمعة هو يوم المزيد ٤٨

زمان الجنة مناسب لعالم الجنة..٤٨
التجليات الخاصة لأهل الجنَّة على حسب مراتبهم ٤٨
أهل الجنة يحبون يوم الجمعة ٤٩
أهل الجنة يمرون على أسواق؟!...٤٩
كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الصحابة رضوان الله
عليهم بأيام الله تعالى وفي هذا تذكير للأمة ٥٠
المحاضرة الثالثة التذكير القرآني ٥٣
من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنه جاء
مذكراً وواعظاً للعالمين...٥٥
التذكير بنعم الله تعالى ٥٥
التذكير بأيام الله تعالى ٥٥
التذكير بالآيات الكونية..٥٦
بيان مراتب الناس في انتفاعهم من الذكر ٥٧
أثر التذكير النبوي في النفوس..٥٩
من جملة التذكير بآيات الله تعالى الكونية والآفاقية..........................٦٠
كل ما حول الإنسان يدل على أنه لا إله إلا الله............................٦١
﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾......................................٦٣
قصة المكاري مع الرجل الظالم...٦٣
دعاء علمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصديق الأكبر رضي الله
عنه ـ بيان فوائد هذا الدعاء ٦٤
سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مَ تدعو....................٦٥
من جملة التذكير بآيات الله تعالى قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾
الآيات الكريمة..٦٥
ذكر قصة سيدنا ضمام بن ثعلبة ووفوده على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٦٦
المحاضرة الرابعة التذكير بأيام الله تعالى..................................٦٩
بيان المراد من التذكير بأيام الله تعالى ٧١

كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الناس بأيام وعده
ووعيده سبحانه وتعالى ـ أمثلة ذلك ٧١
الترغيب بذكر الله تعالى كثيراً ٧٢
بيان عظم صلاة الله والملائكة على العبد المؤمن الذاكر ٧٢
الكلام حول قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الآيات ٧٣
بيان المراد من الأخلاء ٧٤
ذكر قول سيدنا علي كرم الله وجهه خليلان مؤمنان وخليلان كافران ٧٤
المحبة الإيمانية تنفع في الدنيا وفي كل العوالم ٧٥
بيان الطريق إلى محبة الله تعالى للعبد ٧٥
سيدنا أبو إدريس الخولاني وسلطان العلماء من الصحابة سيدنا معاذ بن
جبل رضي الله عنه ٧٦
لله تعالى ظلال كثيرة متنوعة ـ بيانها مع الأدلة ٧٧
«سبعة يظلهم الله في ظلِّه» ٧٨
دخول الجنة موقوف على صفاء القلب تجاه خلق الله المؤمنين ٧٩
ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن إذا بلغه شرع عن الله تعالى ورسوله صلى الله
عليه وآله وسلم ٨٠
التحذير من الحقد والبغض والحسد ٨٠
مما جاء في فضل ليلة النصف من شعبان ٨١
قوة وعظه وتذكيره صلى الله عليه وآله وسلم ٨٤
المحاضرة الخامسة التذكير بآلاء الله تعالى ٨٧
فضل الله تعالى ونعمه لا تحصى ٨٩
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الناس بآلاء الله تعالى
أدلة ذلك ٩٠
ذكر الحديث القدسي الجليل: «يا عبادي إني حرمتُ الظلمَ على نفسي» ٩٠
أمر الله تعالى عباده بالدعاء وفتح لهم باب الرجاء ٩٢
المحاضرة السادسة التذكير بأيام الله تعالى ٩٥

التذكير بوعد الله ووعيده سبحانه وتعالى ٩٧
ذكر جملة من أوصاف الجنة ـ جعلنا الله من أهلها.................. ٩٧
بيان جملة من نعيم الجنة.. ٩٨
ينبغي على كل مؤمن أن يسأل الله الجنَّة ٩٨
«حولها ندندن» ٩٩
رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى هذه الأمة ليلة الإسراء............ ٩٩
كيف نرد السلام على سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ١٠٠
الترغيب في الإكثار من التسبيح والتحميد ١٠٠
من التذكير بأيام الله تعالى ؟! ١٠١
الأعمال والأقوال والنيات والمعاني تتمثل بصور محسوسة يوم القيامة ـ أدلة ذلك١٠٢
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.......................... ١٠٤
أسماء الله تعالى ما لها نهاية ـ أدلة ذلك مفصلاً ١٠٤
تفكروا في الخلق ولا تفكر في الخالق.................................. ١٠٥
القصاص يوم القيامة يكون بين جميع المخلوقات ١٠٦
يُحشر العباد حفاة عراةً ١٠٧
المحاضرة السابعة التذكير القرآني بأيام الله تعالى.......................... ١٠٩
الكلام حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية............. ١١١
الأعمال الصالحة لها آثار نوارنية ينصبغ بها العامل ـ أدلة ذلك............. ١١١
مَنْ هم عباد الله تعالى وما هي صفاتهم................................. ١١٣
مِنْ نعيم أهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ١١٤
من جملة أيام الله تعالى وعداً ووعيداً قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ الآيات الكريمة.................................... ١١٦
أعظم شافع ومشفع هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ١١٦
بيان العهد الذي يخوِّل المؤمن أن يَشْفع ويُشَفَّعَ.......................... ١١٧
يحشر الله المتقين من قبورهم إلى الجنة ـ أدلة ذلك........................ ١١٨

قُوَّام الليل يدخلون الجنة بغير حساب ١١٩
بيان حال أهل الورع والبكاء من خشية الله تعالى ١١٩
كان الصحابة رضوان الله تعالى يكثرون البكاء من خشية الله تعالى ١٢٠
ما هي التقوى ؟ وما هي آثارها ١٢١
أول خطبة جمعة خطبها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ١٢١
سأل رجل من التابعين سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه عن التقوى فقال؟ ١٢١
مراتب التقوى ١٢٢
من آثار التقوى ١٢٤
التقوى وصية الله تعالى لعباده ١٢٥
من فضائل التقوى ١٢٥
معنى التقوى ١٢٦
بيان سيدنا علي رضي الله عنه معنى التقوى ١٢٧
الأمور التي يجب توقيها والابتعاد عنها ١٢٧
١ـ تقوى الكفر وما يجر إليه ١٢٧
٢ـ تقوى المعاصي ١٢٨
٣ـ تقوى الشبهات ١٢٩
٤ـ تقوى المباحات ١٣١
٥ـ تقوى الله حق تقاته ١٣٢
٦ـ تقوى الأغيار كلها ١٣٢
الأسباب التي تحمل الإنسان على تقوى الله تعالى ١٣٣
١ـ أن يراقب العبد أن الله رقيب عليه ١٣٣
٢ـ أن يوقن العبد أن الله مطلع عليه ١٣٣
بيان الحارث المحاسبي والإمام الجنيد معنى التقوى وما يعين عليها ١٣٣
وصية سيدنا سول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ١٣٤
بيَّن الله تعالى طريق الولاية الكبرى بقوله؟ ١٣٥
المحاضرة الثامنة في التذكير بأيام الله تعالى ١٣٧

الكلام حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم...﴾ الآيات الكريمة ١٤٠
بيان حقيقة الإيمان في القلب ١٤١
نور المؤمن يكون معه في حياته وفي قبره وغداً يوم القيامة ١٤٢
مِنْ دعائه صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه إلى المسجد ـ وبعد صلاته بالليل ١٤٣
الكلام حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ١٤٣
ما يقوله المؤمنون وهم على الصراط ١٤٤
الكلام حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.... ١٤٥
يجب على المؤمن أن يكون ظاهره وباطنه واحداً ١٤٦
من مقامات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه **أحمد** صلى الله عليه وآله وسلم ١٤٧
الكلام حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾..... ١٤٧
بيان فضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ١٤٨
قصة سيدنا حذيفة رضي الله عنه يوم الخندق ١٤٩
قصة سيدنا المقداد بن الأسود رضي الله عنه مع جماعة من التابعين ١٥١
المحاضرة التاسعة في التذكير القرآني ١٥٣
الكلام حول آيات كريمة من أول سورة الطور مفصلاً ١٥٥
بيان البيت المعمور ـ لكل سماء بيت معمور ١٥٨
الإنسان عالم وفيه بيت معمور ـ بماذا يعمر بيته؟ ١٥٩
بيان حال البحر مع أهل الأرض ١٦٠
بيان حالات البحر ١٦٠
متى يكون عذاب الله تعالى ومتى تقوم الساعة ١٦١
بيان حال سيدنا عمر رضي الله عنه عندما سمع الآيات من سورة الطور ١٦١
وحال سيدنا جبير بن مطعم مع أيات من سورة الطور ١٦٢
حذر الله تعالى من الكذب ومن الخوض في الباطل ١٦٢
بيان أحب الأعمال إلى الله تعالى ١٦٣

كان كثير من السلف الصالح يذكرون الله في مزدحم الأسواق ١٦٤
بيان مراتب ذاكر الله تعالى في الغافلين ١٦٤
كيف يساق أهل النار إلى جهنم ـ أعاذنا الله منها ١٦٤
بيان صفات المتقين وما أعد الله تعالى لهم ١٦٥
زوجة المؤمن في الدنيا تكون معه في الجنة ١٦٦
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ وما فيه من البشائر ١٦٦
الحسن البصري وسعيد بن المسيب رضي الله عنهما.......................... ١٦٦
الله تعالى يكرم الأبناء لصلاح الآباء ـ أدلة ذلك ١٦٦
الله تعالى يكرم الآباء بالأبناء ـ أدلة ذلك.................................. ١٦٧
ذكر مقالة السيدة عائشة رضي الله عنها عند ما قرأت قول الله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾.................................... ١٦٩
المحاضرة العاشرة ومن مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنه جاء واعظاً لهم . ١٧١
وعظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوعظ القرآني وبالوعظ النبوي. ١٧٣
كانت مواعظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تهز قلوب الصحابة بل تهز الجمادات ـ أدلة ذلك ١٧٤
الترغيب في سماع أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٧٥
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ١٧٥
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ الآيات في الكريمة ١٧٦
كان الصحابة يتبعون سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم اتباعاً مطلقاً ظهر لهم حكمة الأمر أم لا ١٧٧
أثبت الشارع أثراً كبيراً للمواجيد القلبية ـ أدلة ذلك.......................... ١٧٨
سماع تسبيح الطعام بحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.......... ١٧٩
حكم المجيء إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حكم عام في حياته الدنيويَّة وبعد انتقاله صلى الله عليه وآله وسلم ١٧٩
مناظرة الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور............................... ١٨٠

قصة العتبي والأعرابي ؟! ١٨٠
قصة سيدنا علي رضي الله عنه والأعرابي.................................. ١٨١
سيدنا سعيد بن المسيب وسماعه الأذان من القبر الشريف ١٨١
بيان ما يجب أن يكون موقف المؤمن مع سيدنا سول الله صلى الله عليه وآله وسلم١٨٢
مَقَالةٌ نفيسة لسيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه ١٨٣
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ١٨٣
حال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مع هذه الآية الكريمة ١٨٣
بيان ثواب الطائعين لله ورسول صلى الله عليه وآله وسلم.................. ١٨٥
ذكر الدليل على حرص الصحابة على مرافقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم ١٨٦
سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: و«سل تعطه»...................... ١٨٧
سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه (أسألك مرافقتك في الجنَّة)..١٨٧
المحاضرة الحادية عشرة في المواعظ القرآنية............................ ١٨٩
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ١٩١
ذكر حديث: «لما خلق الله الجنة» وما خصها به ١٩٢
بيان صفات المتقين ومراتبهم.. ١٩٣
السيدة أم بجيد رضي الله عنها والمسكين؟................................ ١٩٤
«سبق درهم ألف درهم» ١٩٤
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾........................ ١٩٥
الحث على كظم الغيظ والعفو عن المسيء................................... ١٩٥
سيدنا زين العابدين رضي الله عنه وجاريته ١٩٦
بيان حال الأبرار من أهل الجنة ١٩٧
بيان ما ينجي العبد من عذاب الله تعالى وسخطه ١٩٧
بيان أثر الذنوب الظلمانية على القلب وطريق التخلص منها.................. ١٩٨
بيان حال إبليس عندما نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ... ١٩٩

الترغيب بالتوبة وبيان سعة رحمة الله تعالى ١٩٩
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية الكريمة . ٢٠٣
قصة إسلام سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه ٢٠٣
قصة إسلام أكثم بن صيفي رضي الله عنه ٢٠٤
أجمع آية في الخير؟ ٢٠٥
بيان ما في الآية الكريمة من أوامر ومناهي ٢٠٦
بيان المراد بالعدل ٢٠٧
كل ما يصدر عن الله تعالى إنما هو بالحكمة والعدل ٢٠٩
الحث على صلة الرحم ٢٠٩
الجواب على سؤال كيف يوسع في الرزق والرزق محتوم ٢٠٩
الإحسان نوعان ٢١١
١ـ الإحسان في عبادة الله تعالى ـ أدلة ذلك ٢١١
وصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض الصحابة رضوان الله عليهم ٢١١
سيدنا عثمان رضي الله عنه والرجل؟ ٢١٤
الإمام الجنيد وخاله السيد السري السقطي رحمهما الله تعالى ٢١٤
٢ـ الإحسان مع خلق الله تعالى وبيان مراتبه ٢١٥
بيان المراد من الجار بأنوعه ٢١٦
بيان المراد من ﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ ٢١٦
سيدنا أبو ذر رضي الله عنه ومملوكه ٢١٦
الترغيب بالإحسان إلى الحيوان ٢١٧
أهل الإحسان لهم معية ومحبة خاصة ٢١٨
جملة محاضرت حول التذكير ببعض أسرار الصلاة ٢١٩
الصلاة مشروعة في جميع الشرائع السماويَّة وعلى جميع الأمم ٢٢١
بيان أول ما فرض الله تعالى من الصلاة ٢٢٢
فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ٢٢٣
أول صلاة صلاها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد فرض الصلاة ٢٢٣

الدليل على أن الصلوات خمس ٢٢٤
الأمر بالصلاة ٢٢٥
من حافظ على الصلوات الخمس أعد نفسه لرؤية الله تعالى ٢٢٦
يجب أمر الزوجة والأولاده بالمحافظة على الصلاة ٢٢٧
متى يؤمر الولد بالصلاة ومتى يضرب عليها ٢٢٨
يجب على المؤمن أن يأمر أولاده بالتخلق بآداب الشرع الحنيف ٢٢٨
من أسرار الصلاة ٢٣٠
بيان كل ركن أركان الصلاة وما فيه من الأسرار مفصلاً ٢٣٠
بيان عمل القلب في الصلاة ٢٣٣
بيان حاله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الصلاة ٢٣٥
بيان حال بعض السلف الصالح وهم في الصلاة ٢٣٥
الصلا دليل الإيمان ٢٣٦
الصلاة أفضل الأعمال الإيمانية ٢٣٨
جاء ذكر الصلاة في القرآن الكريم أكثر من مائتي مرة ٢٤٠
لِمَ سميت الصلاة صلاةً ٢٤٠
الصلاة فيها مناجاة رب العزة جلَّ وعلا ٢٤٠
أهم مطالب الصلاة الحضور والخشوع ٢٤١
الأذان فيه إعلان أن الله تعالى تجلىٰ على عباده ٢٤٢
الوضوء فيه تخلية وتحلية ٢٤٢
الحكمة من السنن قبل الصلاة وبعدها ٢٤٢
الخشوع في الصلاة ٢٤٤
اختلف العلماء هل الخشوع شرط لصحة الصلاة أم شرط قبول وكمال ٢٤٤
رغبَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخشوع في الصلاة ٢٤٥
أسباب الخشوع في الصلاة ودواعيه ٢٤٦
من فضائل الصلاة وأسرارها ٢٤٨
من ضَيَّع الصلاة ضيعه الله تعالى ٢٥٠

الصلاة أهم الأعمال الشرعية ٢٥١
الصلاة تكفر الخطايا والذنوب ٢٥٢
الصلاة معونة كبرى للإنسان على أمور دينه ودنياه ٢٥٣
بيان أنواع الجهاد ٢٥٤
من خطبته صلى الله عليه وآله وسلم يوم الوداع ٢٥٦
الاستعانة بالصلاة على سائر الأمور الدنيوية والأخروية ٢٥٦
ما فعله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ؟؟!! ٢٥٧
سنة الأنبياء والمرسلين أن يستعينوا بالصبر والصلاة ٢٥٨
سيدنا إبراهيم وأرض الجبار ٢٥٨
سيدنا جابر ووالده رضي الله عنهما ٢٦٠
محاضرات حول التذكير ببعض أسرار الصوم ٢٦٣
كثيراً ما خص الله تعالى هذه الأمة بفضائل إكراماً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢٦٦
أعد الله تعالى للصائم أجراً كبيراً لا يعلمه أحد حتى الملائكة ٢٦٧
الصيام مفروض في كل الشرائع ٢٦٧
نفس المؤمن وماله وجسمه لله تعالى ٢٦٨
صفة المعاهدين لله تعالى ٢٦٨
الصيام سياحة ـ بيان سبب تسميته بذلك ٢٦٩
الإيمان عهد بين العبد وربه ٢٧٠
بالصيام ينال العبد مراتب التقوى ٢٧١
الصيام جنة ٢٧٢
للصائم عند فطره دعوة مستجابة ٢٧٣
صوم القلوب ٢٧٣
أنا عندالمنكسرة قلوبهم من أجلي ٢٧٤
جاءت الشرائع ملطفة للإنسان وناهضة بهمته ٢٧٦
الجواب عن سؤال لِمَ لَمْ يترك الشارع تحديد وقت الصيام للبشر ولِمَ نصوم نهاراً كاملاً ٢٧٦

الملائكة تجالس الصائمين وتشم رائحتهم........................ ٢٧٧
كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشمون رائحة الجنة ٢٧٨
كان سيدنا الجيلاني يشم رائحة الأولياء ٢٧٨
الصيام سبب عظيم لتقوية الروح وصفاء القلب........................ ٢٧٩
ليلة القدر ليلتان ـ بيانهما.. ٢٨٠
نزول القرآن الكريم ٢٨١
بيان تنزلات القرآن الكريم.. ٢٨٢
بيان الليلة التي نزل فيها القرآن الكريم ٢٨٣
الكلام حول قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ ٢٨٤
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ٢٨٥
القرآن الكريم يبين الحق ويدفع الباطل بالأدلة والبراهين ـ ذكر نماذج من ذلك.... ٢٨٦
الحِكم في نزول القرآن منجماً...................................... ٢٨٨
للقرآن تنزلات ثلاثة ـ بيانها مفصلاً.................................. ٢٨٨
دعا الله تعالى عباده للرجوع إليه سبحانه.............................. ٢٩٠
١ـ تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٩١
عتبة بن ربيعة يكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.................... ٢٩١
٢ـ تلقين الحجة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٢٩٣
أمية بن خلف وعقوبته.. ٢٩٣
نار جهنم لها رؤية واطلاع ـ دليل ذلك.................................. ٢٩٤
أبو جهل وشجرة الزقوم... ٢٩٤
النضر بن الحارث وحاله مع القرآن الكريم ٢٩٥
حفظ الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من أذى قريش والأعداء كلهم ٢٩٦
الحكمة في كون غزوة بدر في منطقة بدر................................ ٢٩٦
اليهود وحقدهم على الإسلام.. ٢٩٦
ذكر آيات نزلت في تثبيت فؤاد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم....... ٢٩٧
٣ـ ما فيه منفعة الأمة وصلاحها ـ أدلة ذلك مفصلاً...................... ٢٩٩

بيان الدليل على تحريم الخمر.. ٣٠٠
من خصائص ليلة القدر ٣٠٣
موعد ليلة القدر ٣٠٤
أماراتها السابقة وعلاماتها اللاحقة ٣٠٥
«أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً» ٣٠٥
الحكمة من مشروعية صلاة العيد...................................... ٣٠٦
الترغيب بالتوبة النصوح ٣٠٧
من فضائل شهر رمضان المبارك نزول القرآن الكريم فيه ٣٠٨
أوقات السَّحَر لها فضل على غيرها.................................... ٣٠٩
نزل القرآن الكريم وله روح تحيا بها الأرواح............................ ٣١٠
الروح القرآنية تسري في كل مستمع للقرآن الكريم ٣١١
قصة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه......................... ٣١٢
الاستدلال من قصة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على
عدم جواز مس المصحف للمحدث.. ٣١٣
قصة إسلام سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه ٣١٤
النجاشي مع المهاجرين ٣١٤
استماع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.... ٣١٥
نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حقيقة نور القرآن للقلب والمدارك .. ٣١٧
قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم القلوب............. ٣١٨
تنزل القرآن الكريم.. ٣١٩
حديث بدء الوحي بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم............ ٣٢٠
فضائل ليلة القدر وفضائل تلاوة القرآن الكريم ٣٢٢
التحذير الشديد في التهاون في صحف القرآن الكريم..................... ٣٢٧
قصة بشر الحافي رضي الله عنه ٣٢٨
الترغيب بتلاوة القرآن الكريم ٣٢٩
ذكر آيات القراء... ٣٢٩

ترغيب سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أهل السوق بتعلم وتلاوة القرآن الكريم .. ٣٣١
القرآن والسنة متلازمان.. ٣٣٢
فائدة مهمة: سلَّم الله تعالى على هذه الأمة سلاماً خاصاً.............. ٣٣٢
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ الآية الكريمة مفصلاً . ٣٣٣
في تلاوة القرآن الكريم قضاء للحاجات الدنيوية والأخروية.............. ٣٣٦
القرآن الكريم يشفع بصاحبه.. ٣٣٦
تلاوة القرآن الكريم تنزل الملائكة على البيت الذي يُقرأ فيه.............. ٣٣٧
الملائكة تزور قبر قارئ القرآن الكريم.............................. ٣٣٨
الله تعالى يستمع لقارئ القرآن الكريم.............................. ٣٣٩
من فضائل شهر رمضان مضاعفة الأجر فيه.......................... ٣٤٠
الترغيب في اغتنام مواسم العبادة والكرم الإلهي........................ ٣٤١
«أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً»................................ ٣٤٢
يستجاب الدعاء في شهر رمضان.................................... ٣٤٥
نزل القرآن الكريم هدى للناس...................................... ٣٤٧
لا يمكن أن نفهم القرآن إلا من طريق سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم..... ٣٤٨
نزل القرآن الكريم ومعه نور من الله تعالى............................ ٣٥٠
ما يكرم به والدي تالي القرآن الكريم................................ ٣٥١
الاستدلال على انتفاع الأموات بتلاوة القرآن الكريم وإهدائها لهم.......... ٣٥٢
سيدنا عمر رضي الله عنه والصحيفة.................................. ٣٥٣
من ابتغى الهدىٰ بغير القرآن أضله الله تعالى.......................... ٣٥٤
الترغيب بتلاوة القرآن الكريم في رمضان والتوبة إلى الله تعالى.......... ٣٥٦
من فضائل شهر رمضان مضاعفة الأجر والثواب فيه وإجابة الدعاء.......... ٣٥٩
طُرُق حديث: «أنا عند ظن عبدي بي»................................ ٣٦١
الحث على الدعاء وعدم اهماله وبيان أثره.............................. ٣٦٢
الدعاء باب رحمة من الله تعالى...................................... ٣٦٧
حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» .. ٣٦٨

أوقات إجابة الدعاء........................ ٣٦٩
محاضرة حول فضائل العشر الأوائل من ذي الحجة ويوم عرفة............ ٣٧٣
الكلام حول أوائل سورة: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ٣٧٥
لكل شيء شفع ووتر ٣٧٨
ليلة عرفة هي ليلة العيد ٣٨٣
بيان بعض خصائص يوم عرفة ٣٨٣
الحجاج على ثلاث مراتب........................ ٣٨٦
يوم عرفة يَوْمٌ أكمل الله تعالى فيه هذا الدين ٣٨٨
دين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يُمحىٰ من وجه الأرض ما دام العالم موجوداً ٣٨٩
ذكر خطبته صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة ويوم العيد وأيام التشريق ٣٩١
حول شعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ٣٩٤
حال الصحابة مع أجزائه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ٣٩٥
محاضرة حول بعض أسرار مناسك الحج ٣٩٧
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ ٣٩٩
من حكم أعمال الحج وأسرارها. وهو بحث نفيس يدور مع الحاج خطوة خطوة من الإحرام إلى آخر أعمال الحج ٤٠٢
استلام الحجر الأسود بمنزلة المبايعة لله تعالى ٤٠٥
في عرفات تعم الرحمة جميع المؤمنين........................ ٤١٠
قصة أبرهة لما أراد هدم الكعبة المشرفة........................ ٤١٢
محاضرة حول حياة القلوب بالروح القرآني........................ ٤١٧
الروح على مراتب والحياة على أنواع ٤٢٠
القلوب والأرواح حياتها بروح الوحي الرباني المحمدي ﷺ ٤٢١
نصيحة سيدنا لقمان لابنه ٤٢٤
من استجاب لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسرت الروح القرآنية فيه نال حياة الأبد........................ ٤٢٦

دعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي دعوة الله تعالى ٤٢٨
أمر الله تعالى العقلاء أن يستجيبوا لدعوة سيدنا رسول الله ﷺ استجابة مطلقة ... ٤٢٩
الحياة الإيمانية تحفظ على المؤمن صورته الإنسانية ٤٣٠
الكلام حول قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ الآيات الكريمة ٤٣٢
الحياة الإيمانية والقرآنية روح العالم وسر بقائه ٤٣٤
جملة محاضرات حول عالم الروح ٤٣٧
بيان معاني الروح في القرآن الكريم ٤٤٠
الإيمان والقرآن متلازمان ٤٤٢
الأمانة ورفعها ٤٤٣
حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ٤٤٤
حول قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ٤٤٧
حول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ٤٤٨
حديث: «تم نورك فهديت فلك الحمد» ٤٤٩
بيان حال أول زمرة يدخلون الجنة ـ جعلنا الله منهم ٤٥٠
الحور العين وحال زوجات المؤمنين في الجنة ٤٥١
رؤية رب العزة جل وعلا في الجنة ٤٥٢
عالم الروح الإنساني ٤٥٢
الكلام المفصل حول قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية مفصلاً ٤٥٤
بعثت قريش تسأل اليهود عن أسئلة يسألونها لسيدنا رسول الله ﷺ ٤٥٥
الخضر عليه السلام والعصفور ٤٥٦
سؤال اليهود عن الروح ٤٥٧
أول تعلق للروح في الجسم عندما يكون جنيناً ٤٥٩
بين الجسم والروح ارتباطاً وثيقاً في كل العوالم ٤٥٩
اختصام الروح مع الجسد ٤٦١
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ الآيات الكريمة مفصلاً ٤٦٣

أهل الإيمان في البرزخ على مراتب........................ ٤٦٥
الأرواح المتناسبة تجتمع مع بعضها في البرزخ........................ ٤٦٦
بيَّن سيدنا رسول الله تفاصيل أحكام البرزخ ٤٦٦
من جملة نعيم البرزخ الصلاة لله تعالى ٤٦٧
الصديق الأكبر رضي الله عنه يدخل من أبواب الجنة الثمانية ٤٦٨
فضائل تلاوة سورة تبارك كل ليلة........................ ٤٦٩
الأرواح الإنسانية مخلوقة قبل الأجسام ٤٧٠
حياة الروح الإنساني بالروح القرآني........................ ٤٧٢
الروح الجبريلي........................ ٤٧٣
بيان وظائف بعض الملائكة عليهم السلام........................ ٤٧٥
عظم وسعة قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٤٧٥
بيان رفعة وعلوّ شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ٤٧٦
من خصائص القلب ٤٧٩
متى يكون القلب مَلِكَ الجوارح ـ بيان شروط ذلك........................ ٤٧٩
الحث على طلب العلم........................ ٤٨٠
الترغيب بحضور مجالس العلم ٤٨٠
القلب الصالح موضع نظر الله تعالى........................ ٤٨٣
أعظم القلوب قلب السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ٤٨٣
قلب الأكوان ذكر في قلب القرآن........................ ٤٨٤
القلوب أربعة ٤٨٥
واجبات القلب تجاه رعيته ٤٨٦
شواهد من أفعال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في محاسبة أنفسهم.......... ٤٨٧
الصديق رضي الله عنه وثوبه ٤٨٧
السيدة عائشة رضي الله عنها وثوبها الجديد ٤٨٧

سيدنا عمر رضي الله عنه والعجوز.. ٤٨٨
سيدنا عمر رضي الله عنه ونصيحة الناس له ٤٨٩
سيدنا عمر رضي الله عنه وموقفه عند ما قرأ قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.. ٤٨٩
سيدنا عمر وعبد الرحمن بن عوف وأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنهم....... ٤٩٠

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّد
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمَدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * * *

كتب فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
* شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .

* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني .
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .
* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

* * * *

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم

الجزء الأول والثاني

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
* دروس حول مقتضيات الشهادة .

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب : أقيول
أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه هاتف :
٣٢٢٤٩٠٠ ـ ٣٢١٧٣٠٠

مُحاضَراتٌ حَوْلَ

مَواقِفِ سَيِّدِنا رَسُولِ الله

صلّى الله عليه وآله وسلّم

مع العالَمِ

موقف تعليم الكتاب

ألقاها

الإمام المُفسِّر المُحدِّث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى ورضي عنه

تقديم وجمع

ولده

محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط

تلميذه

محمد علي الإدلبي

الجزء الثالث

مكتبة

دار الفلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام الحافظ المفسر الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

وإلى والده العارف الكبير

حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة الشيخ

محمد نجيب سراج الدين الحسيني

رضي الله عنهما

وجزاك الله خيرا

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات حول

مواقف سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم

موقف تعليم الكتاب

ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

جمع وتقديم
ولده
محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط
تلميذه
محمد علي إدلبي

الجزء الثالث

الطبعة الأولى
١٤٢٩ - ٢٠٠٨
حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الصباح
دمشق ـ هاتف ٢٢٢١٥١٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن مِنْ أعظم العلوم القرآنية علمَ الحجة والبرهان.

ذلك لأن القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة، على حَقِّيَّة قضايا الإيمان، وأولها: الإيمان بأنه لا إلّه إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الكتاب يتناول جُملة مِنَ المحاضرات التي ألقاها الشيخ الإمام رضي الله عنه في جامع بانقوسا في حلب، وبحث فيها بالتفصيل في مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم.

ومن جملة ذلك موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تعليم الكتاب. أي: معاني الكتاب، وهو القرآن الكريم. وذلك لأن أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم هي بيانات لمعاني القرآن الكريم، يَعْرف هذا من لَهُ علم بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واطلاع عليها.

وهناك قضايا إيمانية أخرى، تكلّم عنها الشيخ الإمام رضي الله عنه

في محاضرات كثيرة، منها عالم الآخرة وبرازخها، وعالم الملائكة... وما هناك من عالم العرش والكرسي والسماوات... إلخ. وسيأتي ذكرها في كتب أخرى إن شاء الله تعالى.

وقد اخترت مقدمة هذا الكتاب مِن كلام شيخنا الإمام رضي الله عنه في محاضراته التي تتعلق بهذا البحث. والتي أكرمني الله تعالى بالعثور عليها وجمعها.

وإنّ هذا كله يندرج فيما تركه الشيخ الإمام رضي الله عنه من إرث علميّ نافع لمن بعده. وأسأل الله تعالى أن يجعل ثواب ذلك في صحيفة سيدنا الشيخ الإمام وكتاب أعماله الواسع آمين.

وبعد: فقد تقدم في الأبحاث السابقة أنّ منْ جملة مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أَنَّ الله تعالى أرسله إلى العالمين لِيُعَلّمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فلقد جاء عليه الصلاة والسلام ليرفع الجهل وينشر العلم. وإنّ هذا الموقف هو الذي دعا به إبراهيم الخليل عليه السلام، كما ذكر سبحانه عنه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وقد دعا بهذا عليه السلام في أهم مواقف الإجابة؛ لَمّا فرغ من بنيان الكعبة، فهذا الموقف موقف عظيم، وأثره في العالم كبير، وهو تعليم الكتاب الجامع، وتعليم

الحكمة النازلة من عند الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه في أمورهم، وما فيه سعادة دنياهم وآخرتهم.

ويقول سبحانه في بيان موقفه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: بَشَرٌ يتكلم وتفهمون عنه وترونه، وتعملون بهديه، وآدابه، وأقواله وأفعاله ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

وإنّ العلوم التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي علوم وافية كافية، تتوقف عليها سعادة العباد في الدنيا والآخرة، وما ترك صلى الله عليه وآله وسلم أمراً فيه خير في الدنيا والآخرة إلا دلّ عليه، وعلّمه صلى الله عليه وآله وسلم.

وما مِنْ أمر فيه شرّ وشقاء في الدنيا والآخرة إلا حذّر منه.

وما ترك صلى الله عليه وآله وسلم علماً من العلوم إلا وذكر منه أو أشار إليه، حتى قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما في السماء طائر يطير بجناحيه إلا وذكر لنا منه علماً»(١). فلقد بحث صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن وعلَّم، حتى بحث لهم في عالم الطير وشؤونه.

وتأمّلْ هنا تعلمْ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم وفّى البشرية ما تستحقه مِنْ معلومات، وما تحتاجه من علوم ومعارف وإرشادات،

---

(١) قال في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٤) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

حتى راح يَذكر لهم مِنْ عالم الطير وغيره من العوالم. لأنه لا يُعقل أن يترك الناس محتاجين إلى العلم والنصح، ويبحث لهم في عالم الطير!!!

ولقد علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة معاني القرآن حسب ما يستطيعون من الفهم والعلم، وهذا بتعليم من ربِّ العالمين، لأنّ الله تعالى علّم نبيّه القرآن الكريم، وفهّمه المعاني والعلوم.

ولقد جمع الله تعالى في هذا الكتاب جميع الكتب السماوية السابقة كما قال سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ وهذه الكتب هي الكتب الإلَهية السابقة، فقد جمع القرآنُ الكريمُ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ، وإن التوراة والإنجيل والزبور قد تضمنت كتباً سابقة قبلها.

وإنّ علوم القرآن الكريم لا تنتهي، وإنّ الناس في فهم القرآن وعلومه على مراتب، وكلٌّ منهم يَفهم حسب ما يُفَهِّمُهُ الله ويعلّمه، والكل يأخذون من مشكاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. هذا لأن القرآن جامع لكل شيء، كما قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. كما أن فيه بياناً لكل شيء، قال تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ أَراد علم الأولين والآخرين فلْيُثَوِّرِ القرآن»[1] أي: فليبحث في القرآن.

وإنّ في القرآن الكريم الإخباراتِ عن الأمم الماضية والآتية، وفيه ذكر المبدأ والمعاد، وأطوار المبدأ، وبرازخ المعاد، وفيه ذكر

---

(١) شعب الإيمان (٤/ ٤٧٠) مجمع الزوائد (٣/ ٢٤٦).

الكائنات والخليقة؛ من عالم العرش والكرسي وغير ذلك. وفيه علم الأحكام التي تترتب عليها مصالح الإنسان في الدنيا، وفيه علم أمزجة النفوس، وفيه علم الآداب والأخلاق، وفيه علم التوحيد والإيمان بربِّ العالمين، وفيه أبواب التعرّف إلى الله تعالى، والمعرفة بربّ العالمين.

ولم يترك القرآن شيئاً مِن أمور الدنيا وآلاتها إلا وذكره حسب المناسبة.

واعلم أنّ الوصول لفهم ذلك كلّه إنما يحتاج إلى العمل بما جاء به القرآن الكريم، والتمسّك به كما أمر سبحانه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فما الفهم إلا من عند الله تعالى، وفي هذا يقول سيدنا عليّ رضي الله عنه لما سئل: هل خصّكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء؟ أي: من القرآن الكريم دون الناس.

قال: لا. إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه[1].

فالقرآن الكريم هو خزانة الله الكبرى التي لا حدّ لها ولا نهاية، ومفتاح هذه الخزانة هو الفهم الذي يؤتيه الله تعالى مَنْ أراد من عباده. وَمَنْ حصل على الخزائن ولم يحصل على المفاتيح فما أغنته الخزائن.؟!! كمن أعطاك خزائن مليئة بالنفائس ومنع عنك مفاتيحها، فما وجه فائدتك من هذه الخزائن حينئذ؟!!!.

فالفهم هو المفتاح لأسرار وعلوم القرآن. وأول الفهم أن تعلم مجملات معاني القرآن، ثم بعد ذلك يفتح الله عليك من باب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) أضواء البيان باب (١) (٩/٢٤٢).

واعلم أنّه لا بدّ لصحة فهمك أنْ ترده إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن وافق فهو حقّ، وإنْ خالف فهو مردود، لأنّ المعاني القرآنية بظاهرها وباطنها إنما ميزانها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا القرآن فيه الإخبار عمّا مضى وعمّا هو آت، وفيه ذكر كل شيء. ومن هذا ما روى الترمذي(١)، عن علي رضي الله عنه وكرّم وجهه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنها ستكون فتنة».

قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: «كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وَخَبَر ما بعدكم، وَحُكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ جبّار قصمه الله تعالى، وَمَنِ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله تعالى، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلق على كثرة الرد» أي: مهما قرأته وردّدته فإنك لا تملّ منه، بل له دوماً الحلاوة والطلاوة.

قال: «وهو الذي لم تنته الجنّ حين سمعته إلا أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾، مَنْ قال به صَدَق، وَمَنْ حكم به عدل، ومن عمل به أجر» الحديث.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُعلن هذا، ويبيّن للناس أنه جاء يعلّمهم، وأن الإنسان محتاج إلى التعاليم الإلّهية، وإلى

---

(١) في كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٨).

الإرشادات السماوية. فقد ورد في صحيح مسلم[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوماً فقال في خطبته: «إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مِمّا علّمني في يومي هذا».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ممّا علّمني في يومي هذا» أي: أن الله تعالى يُفيض عليه علوماً ومعارف جديدة في كل يوم، وإنما أمره أن يُعلّم الناس ما يحتاجون إليه وما يجهلونه، أما العلوم المفاضة عليه بالخصوص فهي خاصة به صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يمكن لكل إنسان أن يتحمّلها، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ممّا علّمني في يومي هذا». فما يتعلق بالرسالة أدّاه صلى الله عليه وآله وسلم كاملاً، وأما ما يتعلق بمعارف وعلوم النبوّة فهي بينه وبين رب العالمين، ويكون ذلك على حسب الإذن من ربّ العالمين، كما ورد في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم: «أُذن لي أن...»[2].

ولقد ذكر القرآن الكريم جميع العلوم الأخروية مفصلة، كما ذكر جميع العلوم الأرضية والدنيويّة، وعرّض بذكرها لما فيها من مصلحة المخلوقات. ومن ذلك ذِكر ما يشير إلى فنّ الهندسة بقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾ وما يفهم هذا إلا من يفهم شكل المثلث.

---

(١) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٢٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وذكر ما فيه علم الهيئة والفلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: أنّ المسافات والنسب والحركات الفلكية إنما هي بتقدير من الله العزيز الحكيم. وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: وهي السفينة التي علّم الله تعالى صنعها لنوح عليه السلام. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: مِنْ مثله ما يركبون في البرّ. وإنّ لكل زمن نسبة مِن المركوبات، فيشمل هذا القطارات والسيارات وغيرها.

ومن جملة ما ذكر سبحانه في القرآن الكريم عالم الطير، وعالم النمل، وعالم النحل، وذكر نظامهم ومعاشهم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: في معاشها ونظامها، وترتيب حياتها، وتناسلها، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

ومن جملة ما ذَكر سبحانه في القرآن الكريم أيضاً عالم الدنيا وشأنها، وانقضاء أمرها، وأشراط الساعة الكبرى، كما قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾.

وذكر سبحانه عالم البرزخ وأحكامه، وما يجري فيه من سؤال وامتحان، وثواب وعقاب.

وذكر سبحانه عالم الحشر والنشر، وأهوال الموقف.

وذكر عالم الحوض، وعالم السؤال والحساب، وعالم الصراط، وأحوال الناس على الصراط.

وذكر عالم الجنة وعالم النار.

وذكر سبحانه المبدأ والمعاد، وذكر النوع الإنساني بالتفصيل، وكيف أنشأه الله تعالى، وخلقه وطوّره، ونقله من أصلاب إلى أرحام... إلخ.

وإذا علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُعلّم الناس الكتاب الجامع لكل العلوم والعوالم، وجاء يُعلّم الناس الحكمة، ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون. إذا علمت هذا يتبيّن لك أنّه مِنْ واجبات الدين عليك أنْ تَعلم وتتعلم وتتفهم كتاب الله تعالى، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو علماً إجمالياً ببعض السور التي تُردّدها في صلواتك. وعارٌ على مسلم يعيش عمراً مديداً في الدنيا، ثم ينتقل إلى الآخرة؛ وهو لا يفهم شيئاً من معاني كتاب الله تعالى.

ومن جملة العوالم التي ذكرها القرآن الكريم: عالم الغيب، وعالم الشهادة، وعالم الملك، وعالم الملكوت. بما فيه من عالم المعاني وعالم الأرواح.

أما عالم الملك فهو عالم الشهود المحسوس، والمباني والحروف.

وهناك عالم الجبروت، والعوالم البرزخية بأنواعها، ومن جملة العوالم البرزخية عالم المنام، الذي هو برزخ بين الموت واليقظة. وإنّ لعالم المنام أحكاماً وتفاصيل، وهناك مبادئ وأصول في تعبيره، قد أشار إليها القرآن الكريم. وهذا باعتبار أنّ البرزخ له حكم الطرفين، ولذلك ترى أن النائم مغيّب عن هذا العالم، ولكن له حكم منوط

بهذا العالم، فيرى رؤيا مُفرحة فيظهر أثر الفرح على وجهه، وربما يضحك، ويرى رؤيا محزنة فيظهر أثرها على وجهه، وربما يبكي.

وهناك بَرْزَخٌ وهو ما بعد الموت، وهو برزخ ما بين الدنيا والآخرة، وهو عالم القبر، وهناك برازخ الحشر والنشر. وإن كل عالم هو برزخ بالنسبة لما بعده وما قبله، حتى ينتهي بك القرار إلى عالم المأوى، فإما الجنة للمؤمنين، وإما النار للكافرين. ونسأل الله تعالى الجنة من فضله. آمين.

فلقد جمع الله تعالى في هذا القرآن الكريم ذكر الأكوان كلها، ولهذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يَفهمون من القرآن مفاهيم عالية، لِما أعطاهم الله تعالى من نور الفهم والحكمة، اقتباساً من نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته، فكانوا يفهمون من مقاصد القرآن الكريم وآياته وإشاراته المفاهيم الواسعة الكبيرة. رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة الأولى

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

امتن الله على العباد ببعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وَبَيَّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أنّ الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن هذه المواقف أنه جاء عليه الصلاة والسلام يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها.

وتقدم الكلام على بعض العلوم القرآنية، وأن من جملة العلوم القرآنية بل أعظم العلوم القرآنية وأوسعها إنّما هو علم التوحيد وعلم الإيمان.

ولقد بين سبحانه قضايا الإيمان في آيات من القرآن الكريم، وأورد لها أدلة لا تقبل النقض، وكذلك آيات التوحيد الدالة على أنه لا إلّه إلا الله، وكذلك قضايا الإيمان بأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تقدم الكلام على أنّ مرجع الإيمان وعنوان الإيمان وأصله يعود إلى هاتين الشهادتين وهي: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، فكلمة: محمد رسول الله هي الملازمة التي لا تنفك عن لا إلّه إلا الله.

وقد أمر الله تعالى العباد أنْ يشهدوا هاتين الشهادتين. ومعنى لا إلّه إلا الله: أي: لا معبود بحق إلا الله، ولا واجب الوجود من ذاته إلا الله، وإن العالم كله فقير إلى الله تعالى. كما سنبيّن فيما بعد إن شاء الله تعالى في معاني لا إلّه إلا الله.

وإنّ أوّل ما يجب على العاقل المكلف أن يشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، لأنها أول الإيمان وآخر الإيمان، وهي أول الدين، وجامعة الدين، وهي عنوان الإسلام والإيمان.

وإنما أمر الله تعالى العباد أنْ يشهدوا شهادة حق أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، بعد أنْ أشهدهم مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، أشهدهم ذلك في مشاهد متعددة، في الآيات التكوينية، وفي الآيات التدوينية.

فلما أشهدك أيها العاقل: لا إلّه إلا الله في الكائنات، وفي الآيات القرآنية البينات الواضحات، وأشهدك أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات التكوينية: السماوية، والفلكية،

والأرضية، والنفسية، وهي المعجزات وخوارق العادات، وأشهدك أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مشاهد الآيات التدوينية القرآنية، الدالة حقاً وصِدقاً على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أشهدك لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في جميع المشاهد الكونيّة والقرآنية، فكيف لا تَشهد بعد ما شَهِدْتَ المشاهد! كيف لا تشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله؟!.

فلم يأمر الله تعالى العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله إلا بعد أن أشهدهم مَشاهدها في الآيات الكونية، وفي الآيات التدوينية القرآنية.

وقد بين سبحانه هذه المشاهد في آيات من القرآن الكريم، يذكر فيها أنه لا إلّه إلا الله، ويبيّن فيها أنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويلفت نظر العاقل وَفِكْر المفكر إلى شهود هذه المشاهد، حتى يعلم يقيناً أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، فإنّ الشهادة لا تكون إلا عن علم كما قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١] والعلم إنما يكون عن دليل وبرهان.

فلقد أشهدك الله تعالى الأدلة القاطعة الجازمة في مشاهد متعددة، كلها تُلزمك أنْ تَشْهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله. ومن هذه المشاهد: يقول سبحانه في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

في هذه الآية الكريمة يُشهد الله عباده مَشهداً واقعياً مرئياً أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك ينبغي على المؤمن أن يتدبر في كلام الله تعالى وآياته كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وذلك حتى يزداد إيمان المؤمن، وتقوى معرفته، ويتفهم أدلة الله وبراهينه التي ذكرها سبحانه، والتي تَدل دِلالة قطعية جازمة على حقية وجوده ووحدانيته، وأنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا تقل: إنّ هذه الأبحاث لا فائدة منها، ولا منفعة فيها، فهذا دليل على حماقتك وجهلك، لأنه إذا كان البحث في آيات الله وتفسيرها، وتعلّم الكتاب لا يفيد ولا يزيد في الإيمان، فلِمَ أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم الناس الكتاب؟!. كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ مع أن الناس الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وآله وسلم، وَعَلَّمهم الكتاب هُم خيرة الناس، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلقد علمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاني الكتاب؛ بعد أنْ علمهم نصه وتلاوته.

قال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: معاني الكتاب. وعلى هذا فإنّ تَعلم معاني الكتاب أمر واجب على كل مؤمن، على حسب اتساعه وفهمه، حتى تقوى معرفته بالله تعالى ويزداد إيمانه.

وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أي: قل يا محمد يا رسول الله، قل للناس كلهم على مختلف طبقاتهم وأجناسهم: إني رسول الله إليكم جميعاً. أي: عربهم وعجمهم، وأحمرهم وأصفرهم وأبيضهم، ومَنْ هم في زمنه ومَنْ بعدهم إلى يوم القيامة. وفي هذا أمْرٌ بإعلانه صلى الله عليه وآله وسلم على عموم رسالته، بعد أن كانت الرسالات السابقة خاصة بأممهم، فلقد كان كل رسول يُبعث إلى قومه خاصة كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] أي: بالأخوة الآدمية الإنسانية. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وهكذا أُرسِل كل رسول إلى أُمَّةٍ معينةٍ، فموسى إلى بني إسرائيل والأقباط، وعيسى إلى بني إسرائيل، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو رسول الله إلى الناس جميعاً، أي: على مختلف طبقاتهم، وأممهم، وأزمنتهم، وأمكنتهم إلى يوم الدين.

وكما أنه صلى الله عليه وآله وسلم رسول إلى الناس جميعاً، فهو رسول إلى الجن جميعاً، ولهذا قال سبحانه إخباراً عن الجن لما سمعوا القرآن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وذلك لأنهم مُبشرون به ومكلفون باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم على لسانِ الرسل قبله، فلما بُعث صلى الله عليه وآله وسلم انصرفوا إليه يستمعون القرآن، فلما سَمع قِسْمٌ منهم رجع إلى قومه يقول: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الرسول الذي أُمرنا باتباعه، وبشرتنا به الرسل السابقة.

قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] أي: الجن والإنس، وذلك لأنّ الجن مُكلفون بالقرآن والعمل به على حسب نشأتهم.

وقد بلّغ صلى الله عليه وآله وسلم الجن، فتارة كانوا يأتون إليه ويستمعون، وذهب إليهم صلى الله عليه وآله وسلم عدّة مرات وبلغهم، وسألوه عن أحكام وَبَيَّنها لهم كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية.

ولما كانت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عامَّة اقتضت حكمة الله تعالى أَنْ يرسله في عاصمة العواصم، لأنّ العادة الإلّهية جرت أن يرسل سبحانه كل رسول في عاصمة بلاده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩] أي: في عاصمتها. فكانت الرسل عليهم السلام تُبعث في العواصم العامرة التي تسمى الأمهات، وأُمّ الشيء: أصله ومرجعه.

فلقد بَعث الله تعالى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من أم القرى كلها، وهي مكة المكرمة، فهي أُم الأمهات، وعاصمة العواصم، لأن فيها الكعبة بيت الله الحرام، ولهذا قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وكذلك لَمّا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامة وباقية إلى يوم الدين، تكفل سبحانه أن يحفظ رسالته وهي القرآن الكريم، وبيانه من الأحاديث النبوية، وطائفة من العلماء الذين يُبينونه ويبلغونه: كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»(١).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٠٤)، عن سيدنا سلمة بن نفيل=

وفي رواية[1]: «فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام».

واعلم أنّ رسالة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي: **القرآن**، النازل عليه بالوحي القرآني، **والأحاديث** الموحاة إليه صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي النبوي، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد حفظ الله تعالى القرآن وبيانه من الأحاديث كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. أما الرسالات السابقة فلم يتكفل سبحانه بحفظها بنفسه، لأنها في زمن معين، لأقوام معينين، بل وكَل حفظها إلى أحبارهم فلم يستطيعوا، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أما رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهي عامة باقية إلى يوم الدين، فلا بد أن تكون محفوظة كما أنزلها الله تعالى، ولا يقدر على ذلك إلا الذي أنزلها وهو الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. أي: نصاً وتلاوة وبياناً، أي: بحفظ الأحاديث المبيِّنة لمعانيه. ويقول سبحانه: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، أيّ شيء من المخلوقات أكبر شهادة أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله

= رضي الله عنه، والبخاري في آخر كتاب المناقب (٣٦٤٠) عن سيدنا المغيرة رضي الله عنه، ومسلم في آخر كتاب الإمارة (١٩٢٠) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(١) عند الإمام أحمد (٣/٣٤٥)، والإمام مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول سيدنا عيسى عليه السلام (١٥٦) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: شهادة الله أني رسول الله أكبر مِنْ شهادة جميع الأشياء والمخلوقات، وقد ظهرت شهادة ربّ العالمين بهذا القرآن، وبحفظ هذا القرآن، وبقاء هذا القرآن، وجميع معاني هذا القرآن، والعلوم التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عجز عنها الأولون والآخرون، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]. أي: لينذر أهل زمنه صلى الله عليه وآله وسلم وَمَنْ بعدهم من القرون إلى يوم الدين، ولهذا كان القرآن ظاهراً منشوراً محفوظاً باقياً؛ حتى تقوم حجة الله على خلقه.

وقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ بلغه القرآن فكأنما شافهته»(١). أي: كأنه رآني وبلغته الرسالة والشريعة.

وذلك لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله، والرسول هو صاحب رسالة، وإنّ رسالته صلى الله عليه وآله وسلم هي هذا القرآن، وبياناته من أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الصحيحين(٢): أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وَجعلت لي الأرض طيبةً طهوراً ومسجداً؛ فأيما رجل أدركته الصلاة

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن مردويه، وأبي نعيم، والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري في أول كتاب التيمم (٣٣٥)، ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، ـ واللفظ له ـ عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

صلى حيث كان» لأنّ الأمم السابقة كانت لا تصح صلاتهم إلا في معابدهم وكنائسهم «ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر» أي: أنّ الله تعالى يُلقي الرعب في قلوب أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو كانوا في مكان يبعد عنه مسافة شهر، ولكن هناك من المحققين من قال: إنّ الأمر أعظم من ذلك، إذ إنّ المراد بقوله: «مسيرة شهر» أي: مدة سير القمر، لأنّ الشهر يُطلق على القمر، والحديث يقول: «مسيرة شهر» ولم يقل مسافة شهر، والشهر يُطلق على القمر كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: فمن شهد منكم القمر. وعلى هذا فالمراد أنّه حيثما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتوجه إلى أعدائه، ولو كانوا في أقصى الغرب؛ فإنّ الله يُلقي الرعب في قلوبهم، لأنّ القمر يَسير حول الأرض كلها في شهر.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأعطيت الشفاعة».

ولما كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامة إلى جميع الناس، على مختلف طبقاتهم ومراتبهم إلى يوم الدين، اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون رسالته صلى الله عليه وآله وسلم جامعة لجميع المصالح والسعادات البشرية في الدنيا وفي الآخرة، كما أنّ فيها الحجة على جميع الطبقات، بمن فيهم المتعلم والعامي، والفَلَكي والجغرافي والطبيب، وهكذا جاء القرآن بعلوم عجز عنها الأولون والآخرون، ولقد أوجب الله على الأمم السابقة إنْ هم أدركوا رسول الله ـ أوجب عليهم ـ اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أوجب

الله تعالى على الأنبياء قبله أنهم إذا أدركوا زمنه يجب عليهم أن يَتركوا العمل بهديهم وبكتابهم ورسالاتهم، وأنْ يعملوا بهدي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يَتَّبعني»[1] أي: لَمَا وسعه إلا أن يترك العمل بتوراته وشريعته، ويعمل بالقرآن النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الله تعالى جمع له الهدي كله فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ولم يقل: بهم اقتده، وإنّما بهداهم. أي: الذي هداهم الله إليه. فقد جمع الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنواع الهدي، ومراتب الهدي الذي هدى إليه مَن قبله من الرسل، وزاده بالهدي المحمدي الخاص به صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامة باقية إلى يوم الدين.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ [الأعراف:١٥٨]

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٨٧)، وانظر مجمع الزوائد (١/١٧٣) و(٨/٢٦٢) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

يعني: أن رسالته صلى الله عليه وآله وسلم للعالم هي مقتضى حكمة رب العالمين. وذلك أنه سبحانه هو الإله الحق، بدليل أنّ له ملك السماوات والأرض ـ أي: ومن فيهن ـ كما صرح بذلك في آية أخرى.

فهو سبحانه مالك السماوات والأرض، وهي مملوكة له، وهو الملك فيها، أي: له التدبير والتصرف فيها على مقتضى علمه وحكمته سبحانه.

وهذا مَشهد يُشهد الله به عباده أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله. ففكر أيها العاقل في لَفت النظر إلى التصرف في السماوات والأرض، والتصرف في الإحياء والإماتة، وبين مصدره ومردِّه؟!.

نعم: إنّ الأمر بيد الله تعالى، الذي بيده ملك السماوات والأرض، وهو مالك الملك، وبيده ملكوت كل شيء، وما لأحد ملك معه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

فتأمل أيها العاقل في هذا العالم الكبير، بسماواته وأرضه، وأفلاكه ونجومه، وشموسه وأقماره، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وجباله، مَنْ خَلَق ذلك؟! وَمَنْ أوقع النجوم في مواقعها؟ وخصّص كلاً منها بخصائص معينة، وأجواء معينة؟ وَمَنِ الذي يُسَيّر النجوم والشمس والقمر؟ وبقدرة مَن يكون ذلك؟ إنّه الله وحده سبحانه، الذي له التصرف والتدبير في هذا العالم، على موجب الحكمة الإلّهية.

وَمَنِ الذي بَسط الأرض ودحاها، وأودع فيها الخصائص والعجائب، وأرسل الرياح، وأنزل الأمطار؟ إنّه الله الذي له ملك السماوات والأرض، ولذلك قال سبحانه: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ

ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦]. أي: لا كما يقول الجاحدون، ﴿أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ـ إذ إن ذلك آية كبيرة دالة على قدرة الله تعالى، لأن إيقاع النجوم في مواقعها، وتسييرها في أفلاكها المحدودة أمر ليس بقدرة البشر، إنه بيد من له القدرة التي لا تتناهى، قال سبحانه: ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وتأمل أيها العاقل في أمر الإحياء والإماتة، إنه مشهد كبير، يُشهد الله به عباده أنه لا إلّه إلا الله يحيي ويميت.

ألا ترى إلى رجلين بعمر واحد، وهمة قوية، يتعرضان لخطر واحد فيموت أحدهما ويبقى الآخر حياً؟! وما ذلك إلا بحكمة الله تعالى وقدرته.

وكم يتعرض المرء لأهوال ومخاطر شديدة، ويظن أنّ الموت أدركه؛ ولكنها تنجلي ويبقى حياً، وكم مِن أُناس قوية أجسامهم، عامرة بالصحة والشبوبية يموت أحدهم فجأة بدون سبب ظاهر. إنّ أمر الإحياء والإماتة مشهد يدل على قدرة الله، وأنّ له التصرف والتدبير في عباده، على موجب علمه وحكمته سبحانه وتعالى.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى الذي خلق هذا الكون وأحكمه، وأسكن فيه بني آدم، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، اقتضت حكمته سبحانه أن يبعث فيهم رسولاً يُشرع لهم ما فيه صلاح وسعادة دنياهم وآخرتهم، ولذلك قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: فآمنوا بالله

الذي أشهدكم مشاهد وحدانيته، وملكه وتدبيره في خلق السماوات والأرض، وآمنوا برسوله الذي أرسله إليكم ليبين لكم ما فيه صلاحكم في الدنيا والآخرة. وإن آيات صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة بينة في ما جاء به من الآيات التدوينية القرآنية، وفي الآيات الكونية، وهي المعجزات المشهودة التي جرت على يده صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: لهواً ولعباً دون تكليف، أو أمر ونهي، وشريعة ونظام تضمن لكم سعادة الدارين ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: للحساب والجزاء ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦] أي: تَنزَّه الله تعالى عن فعل ذلك، لأنّه الملك الحق، ولا يخلق إلا بالحق وللحق، ولو كان الأمر كما ظنوا وحسبوا، وأنه لا آخرة ولا حساب أو عقاب، لتساوى المُحسن والمسيء، والظالم والمظلوم، ولصار حال العالم إلى الفوضى، فأين حكمة الله تعالى حينئذ؟!.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وهكذا: فَمِنْ شأن المَلك الحَقّ أن يتعهد خَلْقه بما فيه مصالحهم وسعادتهم، في أمر الدنيا وأمر الآخرة، ولذلك اقتضت حكمته سبحانه أن يرسل إليهم رسولاً يُرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، ولذلك اقتضت: لا إلّه إلا الله، وأنّ الله هو الملك، وله الأمر والتدبير؛ اقتضى ذلك أن يُرسل رسولاً إلى العالمين، يعلمهم

ويرشدهم لما فيه سعادة دنياهم وآخرتهم، أي: اقتضت لا إلّه إلا الله: أن يكون محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ولا تظنن أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُخْرِبُ الدنيا ويعمر الآخرة، بل إنَّ دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء في عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، وقد ظهر ذلك في شرعه، وما فيه من أحكام، وبيان للحلال والحرام، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وما فيه من قصاص كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي: إنْ أنتم أقمتم أحكام الله في الأرض، ونفذتم القصاص لكانت حياتكم التي تَحْيَوْنها حياة طيبة آمنة، بحيث يأمن المرء على نفسه ودمه وعرضه، لأنّه يعلم إنْ هو اعتُدِيَ عليه فهناك مَنْ يرد له حقه وينتصر له. ولذلك يقول تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢] أي: تعم الحياة الطيبة الآمنة في نفوس الناس، لأنهم آمنون على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وإن تُرِكَ القصاص عَمَّ الخوف والذعر في نفوس الناس كلهم، لأنه ليس هناك مَنْ يأخذ لهم حقهم إنِ اعتُدِيَ عليهم.

وروى أحمد في مسنده(١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ

---

(١) (٢٦٧/١).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أتاه فيما يرى النائم ملكان ـ وهذا نوع من أنواع الوحي، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تنام عيناه؛ وقلبُهُ لا ينام ـ فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته ـ أي: معه. أي: مثالاً يُبين منزلة شريعته بالنسبة للأمة، ولبيان أنه جاء بشريعة فيها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ـ فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفر ـ أي: مسافرين ـ انتهوا إلى رأس مفازة ـ أي: رأس الصحراء ـ فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به ـ أي: وصار حالهم حال هلاك ـ فبينما هم كذلك آتاهم رجل في حلة حَبِرَة ـ أي: رجل مَهيب ذو خَلْقٍ وخُلُقٍ عال، ومظهر حسن ـ فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء، أتتبعوني؟ ـ فنظروا في حاله وحالهم فرأوْا أن حالهم حال يأس وهلاك، وحاله حال صدق، ومحبة خير لهم، ونصح لهم؛ دون مقابل ـ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رواءً، فأكلوا وشربوا وسمنوا. فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبةً وحياضاً رواءً أن تتبعوني؟. ـ أي: وقد صدقتكم وأنقذتكم ـ فقالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

وهذا مثل لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومبادئه و تشريعه، وتوجيهاته وإرشاداته التي فيها سعادة الدنيا وفيها

سعادة الآخرة، ولفت النظر إلى أنّ أمر الآخرة أهم، وأن الرياض أعشب والحياض أروى، والحال ألذ والنعيم أقوى.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: بعد أن أشهدكم سُبحانه مشهداً تجزمون فيه بالعلم بلا إلّه إلا الله ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن الله الملك الحق، وشأن الملك الحق أن يتعهد الخلق بما فيه سعادتهم، يدلهم على كل خير لهم، ويحذرهم من كل شر لهم. وهذا يكون بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم، وينذرهم ما يعلمه شراً لهم»(١). فكل رسول مأمور من جانب الحق أن يدل أمته على كل خير لهم في الدنيا وفي الآخرة، ويحذرهم من كل شر لهم في الدنيا والآخرة.

وإن أعظم رسول دل على الخير في الدنيا والآخرة، وهو الخير المستمر الموافق لجميع الأمم، وعلى مر الزمان إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والرسول لا بد له من رسالة جاء بها من عند مَنْ أرسله، وإن القرآن هو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، التي جاء بها من عند الله تعالى، والسنة النبوية مبينة للقرآن،

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٩١)، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء... (١٨٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فهي من عند الله أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

فانظر أيها العاقل في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي: القرآن والسنة، هل فيها مصالح العباد؟ وهل فيها كل خير؟ تجدْ ذلك حقاً.

وانظر في رسالته صلى الله عليه وآله وسلم هل يمكن أن تكون من مصطنعات البشر؟ تجد أنه لا يمكن ذلك لأن القرآن أعجز الإنس والجن ببلاغته وفصاحته وعلومه وإخباراته وأحكامه، فما هو إلا رسالة من عند الله تعالى، جاء بها رسوله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فحقاً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولذلك قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن الرسالة معه ظاهرة على صدقه.

وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فلقد وصفه تعالى بالرسالة، ووصفه بالنبوة، ولكل من هذين الوصفين معنى خاص ومقام خاص، وليس هذا من باب التأكيد والتكرار، إذ إن القرآن لا تكرار فيه ولا فضول ولا عبث ولا مبالغة، فهو كلام الله الذي قال فيه: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فلا ينبغي لمسلم في قلبه مثقال ذرة من إيمان أن يستهين بكتاب الله تعالى، أو يعتبره كلاماً عادياً سهل المنال، ولا يحتاج في تفسيره إلى علم وتحقيق، وتدقيق، بل إنه كتاب محكم لابد لفهمه

من رد الآيات إلى بعضها، لأنها محكمة كالثوب المنسوج إلى بعضه. ولقد قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: (إن الله تعالى تجلى لعباده في كلامه). اهـ

فمن كان صاحب إيمان حق فإنه يشاهد المتكلم بالقرآن وهو الله تعالى، يشاهده بقلبه حين يقرأ كلامه أو يسمعه.

ولكي يسهل عليك فهم ذلك فلابد لك من مثال: فإذا أرسل إليك أحد أصدقائك كتاباً، فإنك تشاهد صاحب الكتاب ما دمت تقرأ كتابه الذي أرسله إليك.

وعلى هذا: فالنبي هو المُنَبَّأُ من جانب الحق، والمُخْبِرُ الخلق، فهو نبي ـ على وزن فعيل ـ ينبئه الله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وهو نبي ينبئ الخلق ويخبرهم، كما قال تعالى: ﴿۞نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ أي أخبرهم.

والنبوة: إخبار غيبي عن أمور لا يعلمها البشر، ولا ينالون العلم بها لقصور علمهم، فيأتي هذا النبي بأمور وإخبارات من جانب الحق ويخبر عنها الخلق، على حسب ما يأمره الله تعالى ويأذن له.

فمقام النبوة مقام كبير، تَرِدُ فيه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم علوم ومعارف وأسرار خاصة به صلى الله عليه وآله وسلم، قد يأذن الله له أن يُطلع العباد منها بالشيء الذي أراده الله. فما كان من باب النبوة فلا يتكلم به رسول الله إلا بإذن من الله، وما كان من باب الرسالة فما كتم رسول الله منها شيئاً، بل بلغها على أكمل الوجوه.

وعلى هذا: فالدليل على رسالته صلى الله عليه وآله وسلم:

الرسالةُ التي جاء بها وهي القرآن والحديث، أما الدليل على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم: فلقد أظهر لنا صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ موارد النبوة أموراً وعلوماً وإخبارات كثيرة، حسب ما أذن الله له، فمن ذلك إخباره عن أمور غيبية مضت، وأمور غيبية لاحقة، وتحدث عن العالم الماضي والآتي، وما من شيءٍ كان أو سيكون إلى يوم الدين إلا أنبأ عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: ما قاله حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدَّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه)[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (قام فينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم)[2].

وروى مسلم في صحيحه[3] عن أبي زيد قال: «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم

---

(١) رواه البخاري في كتاب القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (٦٦٠٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اخباره ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري في أول كتاب بدء الخلق (٣١٩٢).

(٣) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر (٢٨٩٢)، عن سيدنا عمرو بن أخطب رضي الله عنه.

نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن».

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم لَمَّا يرى أحدهم أمراً يقول: هذا كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو أنك اطلعت على أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم وإخباراته لرأيت الأمور كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما هذا إلا مِنْ باب أنه صلى الله عليه وآله وسلم نبي الله، المخبِرُ عن الله، والمُنَبَّأُ من جانب الله تعالى.

ومن جملة ذلك: أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري به وأخبر عن ذلك كذبته قريش، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لما كذبتني قريش» وقالوا له: إذا كنت حقاً سريت إلى بيت المقدس فأخبرنا عما هنالك، بين مكة وبيت المقدس، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يُسْرَ به إلى بيت المقدس ليَطلع على الأحجار والجبال، والطرق بين الحرمين، إذ إنّ إسراءه كان لأمور أجل وأعلى كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾. ومع ذلك سأله المشركون أن يصف لهم بيت المقدس.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لما كذبتني قريش، قمت في الحِجْر - أي: حجر الكعبة - فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[1]. وهذا من باب أنه نبي الله، فيطلعه الله ويخبره ويعلمه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء (٣٨٨٦) ومسلم في كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم (١٧٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وكثيراً ما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن أمور نفسية أضمرها المشركون، فأطلعه الله عليها، وأخبرهم بها، فعرفوا حقاً أنه رسول الله ونبي الله فآمنوا.

ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وآله وسلم، لما كان في مكة وبَشّر المسلمين بانتشار الإسلام: «إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِي لي منها، وأعطيت الكنزين الأبيض والأحمر»[1] أي: أن أتباعه مِنْ بعده سيبلغ ملكهم كنوز هرقل عظيم الروم، وكنوز كسرى في بلاد الفرس، فالأبيض والأحمر يعني الذهب والفضة. وقد كان الأمر كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي صحيح البخاري[2] عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءه رجل فشكا إليه الفاقة ـ أي: الفقر ـ ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. أي: أنهم مستضعفون يشكون الفاقة وأذى المشركين.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عدي هل رأيت الحِيْرَة»؟ موضع قريب من الكوفة.

قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٨٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

(٢) في أواخر كتاب المناقب (٣٥٩٥)، وأول موضع ذكره البخاري في كتاب الزكاة (١٤١٣).

قال: «فإن طالت بك حياة لتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله تعالى» فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بانتشار الأمان.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى».

قلت: كسرى بن هرمز؟!!.

قال: «كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملءَ كفه من ذهب أو فضة، يطلب مَنْ يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه. وليلقين اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن ـ أي: لكل إنسان ـ: أَلَمْ أَبْعث إليك رسولاً فيبلغك؟ ـ أي: فما موقفك تجاه هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ ـ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطك مالاً وأُفضل عليك؟ ـ أي: فما عَمِلت فيما أعطيتك؟ ـ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم».

قال عدي رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي رضي الله عنه: فلقد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله تعالى. أي: كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قاله النبي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم: «يُخرج مِلء كفه» وهذا يكون آخر الزمن، إذ يكثر المال، وتفتح على الناس أبواب الدنيا.

وهذا كله من باب الإخبارات الغيبية التي ترد على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى أنه نبي الله تعالى، أي: مُخبر عما أخبره الله وأعلمه. فكيف لا يشهد الجاحد أنه نبي، وقد أنبأ عن أمور وإخبارات ومغيبات كثيرة!! وقد كانت كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ أي: ودلائل صدق رسالته ونبوته أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب، ويَعرفه قومه أنه أمي لم يسمع إلى مُعلم، ولم يقرأ ولم يتعلم الكتابة، ثم جاء بهذا الكتاب وهو القرآن الكريم، الذي تضمن علوماً عجز عنها الأولون والآخرون وجاء يتلو عليهم هذا القرآن المعجز بنصه وتلاوته، وعلومه وبلاغته، وإخباراته، وقد أقام الحجة سبحانه على المنكرين لرسالته ونبوته صلى الله عليه وآله وسلم بأنه نشأ أمياً، وبقي كذلك حتى الأربعين مِنْ عمره صلى الله عليه وآله وسلم، ثم جاءهم بهذا القرآن المعجز، وهذه الأحاديث والإخبارات، فَمِنْ أين له ذلك؟ فإذا تَعقَّلوا وتَفَكَّروا في أمر هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيقنوا حقاً أنه رسول الله ونبي الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] أي: لقد لبثت فيكم أربعين سنة لم آتكم بآية واحدة، وأنتم تعرفون أني أميّ، ثم على تمام الأربعين أوحى الله إليّ هذا القرآن وتلوته عليكم، فتعقلوا في هذا الأمر وتفكروا، حتى يحملكم ذلك على الاعتراف أني حقاً رسول الله، وأنّ هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى.

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي: والحال أنك يا رسول الله لم تكن تقرأ، ولم تكن تعرف الكتابة، ومع ذلك فقد ارتاب المنكرون وجحدوا رسالتك والقرآنَ الذي جئت به. نعم لأنّهم مبطلون يُبطلون الحق ولا يعترفون به. أما العاقلون المنصفون فسيؤمنون ويوقنون برسالتك والقرآن الذي جئت به، سواء كنت أمياً أم كنت تعرف القراءة والكتابة، لأنهم سيدركون أن هذا القرآن معجز، وليس بقدرة البشر الإتيان بمثله.

وإن بَيِّنات صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة جلية فما جاء به من آيات قرآنية، ومعجزات كونية. أما المبطلون المنكرون للحق فشأنهم الجحود والإعراض دائماً، لأن اتباع الهوى والعجب والكبر والعناد صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ويشمل هذا جميع شُعب ومراتب الإيمان: الاعتقادية، والقولية، والعملية، والخلقية. وهذا الإيمان بتفاصيله يَحتاج إلى عِلم ومعرفة، فمن أين له ذلك صلى الله عليه وآله وسلم وقد نشأ أمياً؟

نعم لأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونبي الله تعالى يعلمه الله تعالى، ويوحي إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: أحكام الإيمان العملي من: صلاة

وزكاة وحج وغيرها، ولكن الله تعالى أوحى إليك هذا القرآن، وعلمك تفاصيل الإيمان بمراتبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يؤمن بكلمات الله تعالى النازلة عليه، وعلى مَنْ قبله من الرسل عليهم السلام، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، فهو صلى الله عليه وآله وسلم مؤمن بها، عالم بمقاصدها ومنافعها، بتعليم من الله تعالى، فَمِنْ أين له ذلك مع أنه نشأ أمياً لم يقرأ التوراة أو الإنجيل؟!!

نعم لأنه رسول الله، أوحى الله إليه وعلمه ما لم يكن يعلمه.

وإن أعظم معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم الدالة على صدق رسالته ونبوته هو: هذا القرآن الذي جاء به، والذي هو كلام الله تعالى أوحاه إليه، فقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يتلوه على الناس بلهجة خاصة، وأسلوب معين لم يكن معروفاً عند فصحاء العرب. ومن ذلك أنه جاء يقرأ الحروف بأسمائها مثل ﴿الٓمٓ﴾ ألف لام ميم، وهكذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ولم تكن العرب تقرأ الحروف بأسمائها، وفي هذا نوع من التحدي الذي يعني: إن هذا القرآن مؤلف من حروف من ألف ولام وميم، وكاف وعين وهاء وصاد وغيرها، فإن زعمتم أنني أَلَّفته واصطنعته فهاتوا مثل هذا الكلام، واصنعوا من هذه الحروف مثل هذا الكلام. إنهم عاجزون إلى أبد الآبدين لأنه كلام الله المعجز.

ومن هنا تفهم أنّ القرآن كله حجة تُشهدك أَنْ لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وكما أشهدكم الله تعالى صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التدوينية القرآنية، فقد أشهدكم صدقه صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التكوينية، وهي المعجزات وخوارق العادات، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا يُجري الله على يده المعجزة الخارقة للعادة؛ كان يشهد أن لا إلّه إلا الله وأنه محمد رسول الله. لأنّ ذلك مِنْ مشاهد صدقه صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمِن ذلك ما روى مسلم في صحيحه[١]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسير ـ أي: في سفر ـ قال: فنفدت أزواد القوم. قال: حتى هَمَّ بنحر بعض حمائلهم ـ أي: الإبل ـ.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم ودعوت الله عليها. قال: ففعل. قال: فجاء ذا البُرِّ ببره، وذا التمر بتمره ـ قال مجاهد: وذا النواة بنواه ـ فدعا عليها حتى ملأ القوم أزودتهم. قال: فقال صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة» أي: لا بد أن مآله إلى الجنة، إما مباشرة إنْ لم يكن له ذنوب، أو كان له وتَابَ منها، وإن لم يتب منها فقد عَرّض نفسه لأهوال البرازخ الأُخروية، وقد يدخل جهنم مدة ثم يخرج إلى الجنة.

ومن ذلك ما ورد في الصحيحين[٢] عن جابر رضي الله عنه قال:

---

(١) في كتاب الإيمان (٢٧).

(٢) البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٦)=

عطش الناس يوم الحديبية، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه رِكوة ـ إناء صغير ـ فتوضأ، فجهش الناس نحوه. فقال: «ما لكم»؟ قالوا: ليس عندنا ماء فنتوضأ ولا نشرب؛ إلا ما بين يديك فوضع صلى الله عليه وآله وسلم يده في الرِّكوة فجعل الماء يثور ـ ينبع ـ بين أصابعه كأمثال العيون؛ فشربنا وتوضأنا.

قيل لجابر لَمّا حَدَّث بهذا: كم كنتم؟

قال: لو كُنّا مائة ألفٍ لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والبخاري[1] عن جابر رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كيدية ـ صخرة ـ شديدة. ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً.

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً ما كان في ذلك صبر. فعندك شيءٌ؟!!!.

فقالت: عندي شعير وعناق ـ الأنثى من المعز ـ فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة ـ القِدْر ـ ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبمن معه. ـ أي: لأن الطعام قليل، لا يكفي بنظرها الجيش الكثير ـ.

= ـ واللفظ له ـ ومسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش... (١٨٥٦).

(١) المسند (٣/٣٠٠)، البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠١ ـ ٤١٠٢).

قال جابر رضي الله عنه: فجئته صلى الله عليه وآله وسلم فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمةً لنا، وطحنا صاعاً من شعير فتعال أنت ونفرٌ معك. فصاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أهل الخندق إنِ جابراً قد صنع سوراً ـ أي: طعاماً ـ فَحيَّ هلا بكم».

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُنْزِلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقدُمُ الناس، حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قُلتِ. فأخرجَتْ له عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك. ثم قال: «ادعُ خابزة فلتخبز مَعَكِ، واقدحي من بُرمتكم ولا تُنزلوها» وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإنّ برمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا لَيُخْبَزُ كما هو.

وكم من معجزة جرت على يده صلى الله عليه وآله وسلم تَشهد أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى هذا: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فَمِنْ أعظم الدلائل على صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم أنه أمي، ثم جاء بالقرآن، وجاء بعلوم عَجز عنها الأولون والآخرون، فأمّيّته صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أكبر الدلائل على صدق رسالته ونبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يدل على أن هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُسرع في تلاوته لَمّا ينزل عليه به جبريل عليه

السلام؛ خشية أن يتفلت منه شيء، أو ينسى كيفية تلاوته ولهجته، فنزلت الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في قلبك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن نقرئك إياه كما أنزلناه، باللهجة والأسلوب المبين ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] أي: أن نبين معانيه لك. فلو كان من تأليفه صلى الله عليه وآله وسلم لَما أسرع في تلاوته حال وحيه إليه. فافهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بكلمات الله القرآنية النازلة عليه وعلى الرسل قبله، ويؤمن بكلمات الله التكوينية. إذ ما من شيء يكون ويوجد إلا بقول الله: ﴿كُن﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] ولا يعلم مخلوقات الله إلا الذي خلقها وأوجدها، وأعطاها كونها بقوله: ﴿كُن﴾ وهو الله تعالى.

وكل ذرة في جسمك تحتاج في كل لمحة إلى قول الله لها: كن، ليبقى عليها كيانها ووجودها، ولو قَطع عنها مَدد التكوين: كن كن لصارت إلى العدم. ولا تظن أن عوالم الله محدودة في السماوات والأرض فقط. بل لله عوالم لا يعلمها إلا هو. فهو الخالق، ويخلق ويخلق، ولا ينتهي خلقه، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جنس الأرض ﴿مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] أي: ما نفدت كلمات الله التكوينية؛ التي تُعطي كوناً ووجوداً لِمَا توجهت إليه. فما أكثر عوالم الله؟!! وما أعظم قدرة الله؟!! ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما نفدت

معاني كلمات الله القرآنية التدوينية. أي: ما نفدت كلمات الله من معانيها، لأنها معاني كلام صادر عن الذي عِلْمه لا يتناهى، وهو الله تعالى، فَحَملت معاني لا تتناهى.

ونظير هذا قولك: ما نفد البحر. أي: ما نفد ماء البحر، أو ما نفد البحر من مائه.

والقرآن كلام الله لا تنفد معانيه، ولا تنتهي أسراره، ولا تنقضي عجائبه، لأنه كلام مَنْ لا ينفد علمه، وهو الله تعالى. وفي الحديث: «منه صدر وإليه يعود» أي: منه بدأ لا من جبريل، وإليه يعود وصفاً على أنه كلامه وصفته سبحانه.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أي: أيها الثقلان ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ﴾ أي: إلا كخلق وبعث نفس واحدة. أي: وذلك بالنسبة إلى قدرة الله التي لا تتناهى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٧ـ ٢٨].

وعلى هذا: فقد أشهد سبحانه العباد في هذه الآية مشهداً مِنْ مشاهد وحدانيته وملكه، وأنَّه حقاً لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وكأنه قيل: وما هي مشاهد ربوبيته سبحانه فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: الذي له وَحده التصرف والتدبير في أمر السماوات والأرض وما فيهن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لأنكم شهدتم ذلك في ملكه وتصرفه، وتدبيره لأمور الخليقة، مما يحملكم على العلم الجازم بأنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله،

ولا بُدّ لهذا الإلّه الملك الحق أن يبعث في خلقه رسولاً يدلهم على مصالح الدنيا والآخرة ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: وقد شهدتم صدق النبي وحقيقة رسالته فيما جاء به من قرآن معجز، ومن آيات كونية، كخوارق العادات التي جرَت على يده صلى الله عليه وآله وسلم، والإخبارات الغيبية التي وقعت وستقع كما أخبر عنها صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: واتبعوا هذا الرسول فيما جاء به، بالعمل فيما أمر، واجتناب ما نهى، وتحققوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ واعملوا به ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر:٧] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: إن أنتم اتبعتموه ستهتدون، وتنالون خير الدنيا وخير الآخرة، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم المشرع عن الله، والناطق عن الله ما أراده سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم ما ينطق وما يتكلم عن هوى نفس، وإنما ينطق بوحي الله له ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: كلامه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يوحيه الله إليه، وهناك الوحي النبوي، فكيف يجوز الخطأ على مَنْ كانت أفعاله وأقواله بوحي الله تعالى له؟ حقاً إنّه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم بعصمة اللهُ تعالى له.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة الثانية

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

لقد امتنّ الله على العباد ببعثة النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، وبيّن الحكمة في إرساله وذلك: أن الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم، وله معهم مواقف متعددة، تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن هذه المواقف: المواقف الأربعة التي ذكرها سبحانه في الآية المتقدمة، ومنها أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُعلم الناس الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها، ومن جملة العلوم القرآنية العِلمُ بقضايا الإيمان والتوحيد، مع الأدلة والبراهين القاطعة. وإنّ أصل الأصول الإيمانية، وعنه تتفرع جميع الشعب الإيمانية هو الإيمان بلا إلّه إلا الله محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك أمر سبحانه العباد أولاً بهاتين الشهادتين، وذلك بعد أنْ أشهدهم مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، في مشاهد آياته التكوينية المرئية المعاينة، وفي آياته التدوينية المتلوة، وبعد أنْ أشهدهم ذلك صار عندهم عِلم جازم قاطع أنَّه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله. فأمرهم أن يَشهدوا بما علموا، لأن الشهادة تقوم على علم جازم بالشيء كما قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف:٨١] وإن العلم القاطع بالشيءِ يحتاج إلى دليل وبرهان عليه، ويكون ذلك بالحجج العقلية المقبولة عند أهل العقول السليمة، وبالآيات المشهودة المرئية التي يُعاينها كل إنسان. وبعد البرهان والعيان لا ينفع مع المعاند بيان.

ولقد أشهد سبحانه العباد مشاهد: (محمدٌ رسول الله) في المعجزات وخوارق العادات التي أجراها الله تعالى على يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم؛ تصديقاً له. ومن ذلك انشقاق القمر ليلة البدر، وهي آية ومعجزة أعظم من انشقاق البحر لسيدنا موسى عليه السلام. إذ إنَّ القمر أعظم بجرمه وأبعاده، كما أنّ انشقاق القمر آية ظهرت، شهدها أهل الأرض كلهم، فهي أَبْيَنُ وأظهر من آية انشقاق البحر. وذلك إشارة إلى أن نبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة بينة ساطعة بأنوارها كالقمر، وأنها عامة لأهل الأرض كلهم إلى يوم الدين.

وقد ظهر على يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم الكثير من المعجزات المتعددة: كنطق الجمادات والأشجار والبهائم، وتسليمها على رسول الله بوصفه بالرسالة، فتقول: السلام عليك يا رسول الله، ومنها تكثير الطعام والشراب. فكيف لا يشهد العاقل أنّ محمداً رسول الله وقد أراه الله تعالى وأشهده مشهد: (محمد رسول الله) في آيات الكون.

وقد تقدم الكلام أنّ خبر التواتر في صحته وثبوته بمنزلة رؤية العيان، فطالما أن جماهير الصحابة عاينت معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونُقل إلينا ذلك بالتواتر، مِمَّا يَعني أَنْ يكون ثبوت ذلك عندنا كأننا عاينا الأمر وشهدناه. فافهم.

ولقد أشهد سبحانه العباد مشهداً يُثبت أن محمداً رسول الله في الآيات التدوينية القرآنية، فحقاً عليهم بعد ذلك أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

ومن هذه الآيات والمشاهد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨] وقد تقدم بعض الكلام على وجه مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية الكريمة.

ثم قال سبحانه بعد أن أثبت أنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمشاهد كونية، ومشاهد تدوينية قرآنية قال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ يعني لَمَّا أشهدكم سبحانه أنه لا إلّه إلا الله

﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: وآمنوا برسوله الذي أشهدكم صدقه بمشاهد التكوين والتدوين ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلقد أمر الله سبحانه العباد بأمرين: بالإيمان وبالاتباع.

أما **الإيمان** برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أن تعتقد جازماً أنَّ سيدنا محمداً هو حقاً رسول الله، وأنْ يكون هذا مِنك اعتقاداً قلبياً صادقاً جازماً.

وأما **الاتباع** فهو اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأقوال والأعمال، والأخلاق والآداب. ثم بَيّن سبحانه ثمرة ذلك وفائدته فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: من أجل أن تهتدوا إلى ما ينفعكم ويسْعدكم في الدنيا وفي الآخرة، فإن كنتم ترجون الهداية إلى السعادة والفلاح في الدنيا وفي الآخرة، فلا سبيل إلى ذلك إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما وجوه الحاجة إلى اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم فإنها كثيرة ومتعددة، ونكتفي في هذا المجال بذكر وجوب اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع ما جاء به من أقوال وأعمال وأخلاق وآداب؛ إلا فيما خصه الله تعالى به من أحكام.

فاعلم أيها العاقل أنه إذا لم يتبع بصرك نور المحسوسات النيرة من حولك، فإنك لا تهتدي إلى معرفة الأشياء وإدراك الأمور، وأنت وفاقد البصر سواء. أرأيت إذا دخلت مكاناً مظلماً وفتحت عينيك جَيِّداً، فإنك لَنْ ترى شيئاً حتى تَستعين بنور يَتبعه نور بصرك، فتُهدى

إلى رؤية الأشياء. ومن هنا تعلم أن نور البصر لا يكفي وحده لرؤية المحسوسات، ولابد من نور آخر يلتقي مع نور البصر فتظهر الأمور وتراها الأبصار. وبالنور يهتدي الإنسان إلى معرفة الأمور ورؤية الأشياء. فمن ذلك نور الشمس، ونور النجوم النيرة في الليل المظلم، قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: يَهتدون إلى معرفة الجهات ليتوجهوا حيث يُريدون، وذلك لمن كان عنده علم بالنجوم ومواقعها. وهكذا.

وإن الله تعالى خلق الإنسان وخلق فيه العقل، والعقل نور يهتدي به الإنسان إلى ما فيه صلاحه وسعادته، ولابد لنور العقل أن يتبع نوراً آخر يهديه إلى ما فيه خيره ونجاحه، وصلاح أمره في الدنيا وفي الآخرة، وهذا النور هو النور الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: أكرموه ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: أنزل عليه وهو معه صلى الله عليه وآله وسلم لا يفارقه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: أولئك المتبعون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هم الذين ظفروا بالمراد، ونالوا بغيتهم بسعادة الدنيا والآخرة.

وكما بين سبحانه أن الفلاح والظفر بالسعادة لا يكون إلا باتباع رسول الله، فقد بين أيضاً أن دليل المحبة الصادقة، ونيل محبة الله تعالى لا يكون إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]. أي: قل يا رسول الله للعباد معلناً لهم:

إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يعني: أن دليل وبرهان وعلامة المحبة الصادقة لله تعالى هي اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد نزلت هذه في أناس زعموا أنهم يحبون الله ويعبدونه كما يريدون، لكنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولم يتبعوه، وكان منهم أمية بن أبي الصلت.

فنزلت هذه الآية امتحاناً لأدعياء محبة الله، وَبَيَّنَتْ أَنَّ علامة صدق محبة الله تعالى هي اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى قدر اتباع المؤمن لرسول الله تكون محبته لله تعالى. وكما بينت الآية علامة المحبة الصادقة لله تعالى، بينت نتيجة ومنزلة المحبة واتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الظفر بمحبة الله تعالى ومغفرة الذنوب، قال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتسارعون إلى اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويحرصون كل الحرص على اتباعه فيما قال أو فعل، حتى في عاداته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، لأن عادات السادات هي سادات العادات، فما بالك بعادات سيد السادات صلى الله عليه وآله وسلم، إنها عادات أفضل وأكمل خلق الله الذي قال فيه سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

فكان الصحابة يَحرصون على اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم في كل شيء، حتى في مشيه ونومه، وأكله وشربه وجلوسه، بقصد أن ينالوا الفلاح والهداية، لأنها منوطة باتباعهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك: ما روى الترمذي[1]، عن علي بن ربيعة، أنّ أمير المؤمنين سيدنا عليّاً رضي الله عنه وكرم الله وجهه أمر بدابّة فجيء بها، فلما وَضَعَ رِجْله في الرِّكاب قال: (بسم الله) ثلاثاً. فلما استوى على ظهرها قال: (الحمد لله) ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحانك إني قد ظلمت نفسي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ثم ضحك ـ أي: ضحك سيدنا علي رضي الله عنه ـ.

فقلت: مِنْ أيّ شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟!

قال سيدنا علي رضي الله عنه: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صنع كما صنعت ثم ضحك. أي: لقد ضحكت كما ضحك.

فقلتُ: مِنْ أيِّ شيء ضحكتَ يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربك ليعجب» لا يعني عَجَبَ الحيرة والدهشة الذي هو مِنْ صفة الخلق، ولكن عَجَب إكرام وتعظيم. يعني: أنه سبحانه ليُعظم هذا الأمر من عبده، ويعظم له أجر هذا الدعاء بالمغفرة، لأنّ العبد أيقن أنه لا أحد يغفر الذنوب إلا الله تعالى.

ولقد فعل سيدنا علي رضي الله عنه كما رأى رسول الله صلى الله

---

(١) في كتاب الدعوات، باب /٤٩/ (٣٤٤٣) وهو عند أبي داود (٢٦٠٢) وغيرهما.

عليه وآله وسلم يفعل، حتى ضحك كما رأى رسول الله قد ضحك، مما يدل على شدة اتّباعه رضي الله عنه، وكذا سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الإمام أحمد وغيره(١)، أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُتِيَ بثوب جديد فلبسه، فقال: «الحمد الله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي» ثم عمد إلى الثوب الذي أَخْلَقَ فتصدق به. ثم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي. ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق» أي: بَلي «فتصدق به: كان في كنف الله، وفي حفظ الله، وفي سِتْر الله حياً ومَيْتاً» بتسهيل الياء. فلقد فعل سيدنا عمر رضي الله عنه كما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل، مُتَّبعاً له صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا سائر الصحابة كانوا يبذلون جهدهم في اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم أدركوا أنّ فلاحهم على قدر اتباعهم له صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني: لأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاءكم بمراتب الهدي كلها، فلقد جمع الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الهدي كله، بأنواعه ومراتبه، قال تعالى بعد أن ذكر طائفة كبيرة من رسله عليهم السلام قال:

---

(١) المسند (١/٤٤)، وسنن الترمذي في كتاب الدعوات، باب /١١٩/ (٣٥٥٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: هداهم بالهدي النبوي والهدي العام لأممهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ فلقد جمع الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هَدْي من قبله من الرسل، وزاد عليهم بالهدي المحمدي. وإنّ هديه صلى الله عليه وآله وسلم الذي هداه الله إليه هو صالح ومُسْعد لكل قوم على مَرِّ الزمان، فهو صاحب الهدي العامِّ لجميع الأنام، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً» أي: بالحياة الدنيوية «لَمَا وسعه إلا أن يتبعني»[1].

ولقد أخذ الله تعالى العهد على جميع الرسل أن يتبعوا هدي رسول الله إنْ هم أدركوا زمانه، وأمر سبحانه كل رسول أن يأخذ العهد على أمته أن يتبعوا رسول الله إنْ هم أدركوا زمنه في الدنيا، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ...﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه في هذه الآية: (أخذ الله تعالى العهد على كل رسول أن يتبع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إنْ هو أدرك زمنه، وأخذ العهد على كل رسول أنْ يأخذ العهد على أمته أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إنْ هم أدركوا زمنه)[2].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٣٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وينظر مجمع الزوائد (١/ ٦٧٤).

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير، وانظر فيه أقوال السلف عند هذه الآية الكريمة.

ولقد كان من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، والتي أرسله الله تعالى بها أنّه جاء هادياً لكل الأمم على مر الزمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: إنما أنت منذرٌ وهادٍ لكل قوم. وذلك لأن الهدي المحمدي هو الهدي العامُّ لجميع الأنام.

ولما اجتمع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء، تقدم وصلَّى بهم، كما دلت على ذلك أحاديث الإسراء والمعراج، كما أنّه صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأنبياء والمرسلين في الآخرة أيضاً، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم»(١) يعني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يتقدم ويفتح لهم باب الشفاعة، فهو الشفيع الذي لا شفيع له، وهو الإمام الذي لا إمام له.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وإنّ حقيقة الاتباع أن يكون الإنسان مقتدياً متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما جاء عنه: من السنن والأحكام، سواء ظَهرت حكمة هذه الأحكام أم لم تظهر. لأن الأحكام الشرعية المحمدية، والأفعال المحمدية، قائمة ومبنية على حكم عالية، وقد تقدم بيان شيء مِنْ ذلك، فمنها قضية جلوسه صلى الله عليه وآله وسلم حول بئر أريس وما ظهر وراء ذلك مِنْ حِكَم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/١٣٧)، والترمذي في أول كتاب المناقب (٣٦١٧) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه.

وقال تعالى في وجوب اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]

والمعنى: إنّ مقتضى إيمانكم يأمركم أنْ لا تتقدموا على الله ولا على رسول الله: لا بقول ولا بعمل، بل كونوا متبعين لله فيما أمر في كتابه، ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه وسنته.

وقال بعض السلف: المراد من الآية: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي: كونوا وراءه صلى الله عليه وآله وسلم متبعين له صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنما ذكر سبحانه اسمه أوّلاً تكرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتشريفاً له، ورفعة لذكره صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يَقرن ذكر رسوله باسمه سبحانه وتعالى، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. وجاء بيان ذلك في الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»(١).

وَمَنْ تَقَدَّم بأمر أو رأي أو فهم مخالف لِمَا جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد بلغ من الوقاحة والقباحة كأنه تقدم بالمشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، متعالياً متكبراً، وليس هذا من صفة المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بقلوبكم وأعمالكم. فاحذروا أنْ تعملوا عملاً

---

(١) عزاه الحافظ السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وأبي نعيم في الدلائل، وذكر له طرقاً متعددة.

نهاكم عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل اتبعوه اتباعاً كلياً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بعد أن أمر سبحانه المؤمنين وأوجب عليهم التزام الأدب الإيماني باتباع رسول الله، ذكر في الآية بعدها وجوب الأدب مع جناب رسول الله وتكريمه واحترامه صلى الله عليه وآله وسلم، ونهى عن رفع الصوت فوق صوته الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يكون صوت المؤمن منخفضاً عن صوته صلى الله عليه وآله وسلم. ويُفهم مِنْ هذا بالدليل الأَوْلوي أَنْ لا يَرفع مؤمن رأيه أو فهمه فوق ما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وأن لا يستحسن إلا ما حسنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولَمّا نزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة رضي الله عنهم أن يكون أحدهم قد وقع في النهي، والتزموا جانب الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: (يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخ السِّرار)[1] أي: سراً وهمساً.

وكان عمر رضي الله عنه يخفض صوته حتى يستعيده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2] أي: يطلب منه أن يرفع صوته ليسمع كلامه. وذلك لأنّ الله تعالى أَوْعد مَنْ رفع صوته فوق صوته صلى الله عليه وآله وسلم؛ أوعده بحبوط عمله، وبطلان أجر صلاته وصيامه

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى عَبْد بن حميد، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في صحيح البخاري في كتاب التفسير، سورة الحجرات (٤٨٤٥).

وسائر عباداته، فقال تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه جَهْوَرِيَّ الصوت، بحكم نشأته وفطرته، دون تكلف منه برفع صوته، فلما سمع هذه الآية التزم بيته، وجعل يبكي وقال: حبط عملي وأنا من أهل النار. حتى استفقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أيام وقال: «إنك لست من أهل النار»[1]، وقال له: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة» وقد قتل رضي الله عنه شهيداً أيام خلافة أبي بكر رضي الله عنه في حروب الردة. [وانظر تفاصيل ذلك في كتاب الشيخ الإمام حول تفسير سورة الحجرات].

ولابد من معرفة أن التزام الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو في حقيقته أدب مع الله تعالى، لأنه رسول الله، وَمَنْ أساء الأدب مع رسول الله فقد أساء الأدب مع الله تعالى، وقد أغضب الله تعالى، فأحبط الله عمله. فليحذر المؤمن من ذلك.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) كما في صحيح البخاري في كتاب التفسير (٤٨٤٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه وهذا لفظه، وهو عند الإمام أحمد (١٣٧/٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩).

المحاضرة الثالثة

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين.

تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لقد امتن الله على العباد ببعثة النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، وَبَيَّنَ الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أَنَّ الله تعالى أرسله إلى العالم وَلَهُ معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وَمِنْ هذه المواقف: أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها. وقد تقدم الكلام على بعض العلوم القرآنية.

وإن مِنْ أعظم العلوم القرآنية: علم التوحيد والإيمان برب العالمين. وأصل التوحيد هو: العلم الجازم أنّه لا إلّه إلا الله.

ولقد جاء القرآن الكريم يُثبت أنه لا إلّه إلا الله، ويأتي عليها بالأدلة والبراهين التي لا تقبل الشك أو الارتياب. وذلك لأن أول ما يجب على العاقل: الاعتقاد الجازم أنه لا إلّه إلا الله وعن هذه الشهادة تتفرع الشهادة بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الشهادة هي أصل أصول الإيمان، وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان. فمن أهم العلوم القرآنية ـ وهو العلم الأول وهو أوجب العلوم وأفرضها ـ: العلمُ بـ لا إلّه إلا الله.

قال جل وعلا: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [القتال: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [هود: ١٤] أي: فاعلموا أنه لا إلّه إلا الله.

وإنما أمر الله تعالى العباد العقلاء المكلفين أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، أمرهم سبحانه بهذه الشهادة بعد أنْ أشهدهم مشاهد: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، في آياته التكوينية، وفي آياته التدوينية المتلوة القرآنية.

فلما أشهدك سبحانه مشاهد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في آيات القرآن التدوينية، وفي آياته التكوينية والآفاقية والنفسية، فما عليك بعد ذلك إلا أن تشهد أنه لا إلّه إلا الله.

وكذلك بعد ما أشهدك سبحانه أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في آيات القرآن التدوينية، وفي الآيات التكوينية، وهي المعجزات المتعددة التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فما عليك إلا أنْ تشهد حقاً أن محمداً رسول الله.

وقد يقال: إنّ الشهادة بشيء تحتاج إلى علم جازم بذلك الشيء، والعلم يحتاج إلى دليل قاطع يُثبته ويؤكده.

فيقال: إن الله تعالى لم يأمرك أن تشهد أن لا إلّه إلا الله إلا بعد أن أعلمك وأشهدك مشاهد لا إلّه إلا الله، مِمَّا يحملك قطعاً على أن تشهد أنه لا إلّه إلا الله.

وقد بين سبحانه في القرآن الكريم مشاهد كونية تُشهد العاقل أنه لا إلّه إلا الله، وذكر تلك المشاهد التكوينية صراحةً، ولفت العباد إلى مشهدها، فذكر مشهد لا إلّه إلا الله في تخليقك، وفي تصويرك، وفي خلقه للسماوات والأرض، وفي المشارق والمغارب، وفي خلق كل شيء، وحين يَشهد ذلك العاقل؛ يعلم يقيناً أنه لا إلّه إلا الله، ويشهد بذلك شهادة قائمة على علم جازم قاطع.

ومن المشاهد التي نبه إليها سبحانه، والتي تُشهد العاقل أنه لا إلّه إلا الله، هو مشهد تخليقه سبحانه للإنسان وتصويره له، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

ففي هذه الآية الكريمة ذكر سبحانه مشهداً من مشاهد لا إلّه إلا الله، مما يحمل الإنسان ويُلزمه أن يشهد أنه لا إلّه إلا الله.

قد ذكر سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم، وفي مناسبات متعددة، ذكر صيغاً من التهليل وهي: لا إلّه إلا الله. ولا إلّه إلا هو. وذلك بعد أن أشهد العباد مشهداً من مشاهد لا إلّه إلا الله. سواء في خلقه سبحانه للإنسان وتصويره له، أو في الإحياء والإماتة، أو في خلقه تعالى للسماوات والأرض وما بينهما، وفي المشارق والمغارب، وغير ذلك من مشاهد وحدانيته سبحانه وقدرته وعظمته.

ففي الآية المتقدمة يقول سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: تفكروا أيها العقلاء وانظروا، فلقد خلقكم سبحانه من نفس واحدة، وذلك على اختلاف ألوانكم وأجسادكم، وصوركم، وعقولكم، وأمزجتكم، وهيئاتكم. مع هذا الاختلاف كله فلقد خلقكم سبحانه من نفس واحدة، وهو آدم عليه السلام.

وقوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي: حواء.

أما آدم عليه السلام فلقد خلقه الله تعالى من أديم الأرض أي: من وجه الأرض وترابها، ثم خلق سبحانه حواء من آدم، خَلْقاً لا ولادة، خلقها سبحانه مِنْ مادة في ضِلْعه الأيسر، وهذا معنى: حواء. أي: أنها منسوبة لحي، وخلقت من حيّ، وهو آدم عليه السلام، كما بيّن ذلك سبحانه في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ الآية.

قوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يعني: أنزل لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المعروفة: زوجان من الإبل، ومن الغنم، ومن البقر، ومن المعز.

قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: يُطوركم في التخليق من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم يصور كل واحد منكم على هيئة معينة، من عظام يكسوها لحماً، وكل جنين يختلف عن الآخر في حجمه، وصورته، وهيئته، ومداركه. فهل أنّ هذا الأمر يجري بذاته من طبيعته؟! وكيف يكون ذلك ومن البديهي عند العقلاء أنه لابد لكل متحرك من محرك، ولابد لكل صنيعة من صانع، ولابد لكل مخلوق من خالق، ولابد للترجيح من مرجح، كما لابد للتطوير من مطور، ولكل صورة من مصور. وهذا هو الله تعالى، الذي أشهد العباد مشهداً من مشاهد وحدانيته وربوبيته سبحانه، فقال جلَّ وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: التدبير والتصرف في شؤون مخلوقاته كلها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يعني: أين تصرفون عقولكم وأفكاركم، ولا تَشهدون أنه لا إلّه إلا الله وقد أشهدكم سبحانه ذلك، وألزمكم هذه الشهادة؟؟!!!.

وكيف لا تشهد أيها الإنسان أنه لا إلّه إلا الله وأنت الشاهد على أنه لا إلّه إلا الله؟!!! ظهر ذلك في خلقك وتصويرك وتطويرك، وجميع ما أودع الله فيك، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات: ٢١] وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة والأغشية الرقيقة المحيطة بالجنين في بطن أمه.

وكما أشهد سبحانه الإنسانَ مشهداً مِنْ مشاهد وحدانيته في تخليقه للإنسان، وتطويره له، أشهده ذلك أيضاً في تصويره للإنسان فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وإنّ مشيئته سبحانه بمقتضى علمه، وعلمه هو العلم الذي لا حدَّ ولا انتهاء له، وَمِنْ علمه سبحانه العلم بصور المخلوقات، فترى كل إنسان يختلف عن الآخر بهيئته وصورته. ولو كان لعلمه سبحانه حد وانتهاء لتكررت صور بني الإنسان، مع أن الواقع يُثبت اختلاف كل إنسان عن الآخر في الهيئة والصورة.

كما أشهد سبحانه العباد مشاهد وحدانيته، وهي مشاهد: لا إلّه إلا هو أشهدهم ذلك في خلقه لكل شيء، حتى في الذرة وما هو أصغر منها مما يُمكن تجزئته إلى أدق ما يمكن.

وذلك لأن كل شيء مخلوق بعد عدم، فَمَنِ الذي رَجّح وجوده على عدمه؟؟!! لابد مِنْ مرجح، إذ إنّ العدم من ذاته لا يعطي وجوداً، وإنّ الموجود لا يمكنه الرجوع إلى العدم من ذاته، إلا إذا أعدمه الله تعالى. أي: أعاده إلى العدم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وكما أن الآيات التكوينية تشهدك أن لا إلّه إلا الله، فكذلك أشهدك سبحانه مشاهد لا إلّه إلا الله في آياته القرآنية التدوينية المتلوة، وفي هذا يقول سبحانه في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

هذه الآيات تُشهد العاقل أنه لا إلّه إلا الله، وتُشهده أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، شهادة قائمة على علم قاطع جازم لا يقبل الريب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يُنْكر على أولئك الذين زعموا أن القرآن هو من افتراء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الله تعالى، وأنه من تلقاء نفسه صلى الله عليه وآله وسلم، فرد عليهم سبحانه بالتحدي المعجز لهم فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي: إن قلتم إنّ هذا القرآن مِنْ تلقاء نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو بشرٌ أيضاً، وأنتم من البشر، فبإمكانكم إذاً أن تأتوا بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولو بعشر سور، بل فأتوا بسورة واحدة، كما تحداهم سبحانه بذلك في آية أخرى فقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] بل تحداهم

أيضاً أن يأتوا بحديث مثله. أي: بموضوع ولو يسير مثل ما جاء به القرآن من علوم وإخبارات. ولقد عجزوا عن ذلك، مع أنهم عرب، وفيهم الفصحاء والبلغاء والحكماء، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤].

فتحداهم سبحانه على أن يأتوا ولو بسورة مثله؛ ولو اجتمع بلغاؤهم وعلماؤهم وحكماؤهم على ذلك، وأثبت عجزهم عن ذلك، وسجل عجزهم إلى يوم الدين. فلو كان هذا القرآن مِنْ كلام البشر لاستطاع فصحاء البشر أن يأتوا ولو بسورة مثله، لكنهم عجزوا، فهوَ إذاً كلام رَبّ البشر، أنزله على خير البشر صلى الله عليه وآله وسلم، وأمره أن يبلغه.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ يعني بعد أَنْ دعوتموهم للإتيان بعشر سور مثل القرآن وعجزوا عن ذلك ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن هذا الكلام هو كلام رب البشر، أنزله سبحانه بعلم منه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أن الله حقاً لا إلّه إلا هو جل وعلا. وهذا مشهد يَحمل العاقل ويُلزمه أَنْ يشهد أن لا إلّه إلا الله، ولا يترك هذا المشهد مجالاً للعقل في المحاولة والمشاغبة في الدليل والحجة.

وهذا المشهدُ أيضاً يُشهد العاقل أَنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو حقاً رسول الله، خصه الله بالرسالة، وأنزل عليه القرآن، وجاء القرآن يَشهد ويقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ثم بَيّن سبحانه في الآية بعدها سبب إعراض المنكرين

وجحودهم بعد أن عرفوا الحق ولم يعترفوا به، ولم يشهدوا بما علموا، وأنّ ذلك بسبب دواعي الهوى والشهوات الدنيوية، التي سيطرت على عقولهم وأفكارهم، ولو أنهم جردوا عقولهم وحرروها مِنْ أسر الأهواء الفاسدة والشهوات، لأنصفوا واعترفوا وشهدوا بالحق الذي علموه.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧] أي: هل يتساوى هذا الذي هو على بينة من ربه، هل يتساوى مع غيره؟!!! وإن الذي هو على بينة من ربه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاء ومعه بَيِّنة من ربه تَشْهد له أنّه رسول الله، وهذه البينة هي القرآن الكريم الذي أُنزل عليه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتبع هذه البينة التي هي القرآن الكريم، يتبعها شاهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تشهد أنّه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي المعجزات الكونية التي أيّد الله بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وكلها شواهد صِدق تشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وقد سُمِّيت البينة بذلك لأنها أولاً ظاهرة بنفسها لا خفاء فيها، وتُظْهِرُ

الحق والصدق في غيرها. ومن ذلك سميت شهادة الرجلين العدلين بَيّنة، لأنهما ثقتان عدلان، ظاهر ذلك فيهما وَبَيِّنٌ عليهما، ثم إنهما يشهدان على غيرهما لإظهار الحق الذي يَعلمانه؛ فالصدق بَيّن فيهما، وأَبَانَاه في غيرهما، فبان بهما الحق.

ولما جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وادعى أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما هي البينة الشاهدة له أنه رسول الله حقاً؟؟؟

نعم لقد بين ذلك القرآن الكريم، فهو البينة على صدق رسول الله، وهناك الشاهد منه صلى الله عليه وآله وسلم على صدقه، وهي المعجزات وخوارق العادات، التي جرت على يده الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] وهو القرآن الكريم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى، بدليل أنه أعجز البشر عن الإتيان ولو بسورة مثله، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهكذا شهد سبحانه له أنّه على الهدى، وعلى الصراط المستقيم، وعلى الحق المبين. ولا يمكن لأحد أنْ يخدش أو يطعن في هذه البينة، التي تشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إما أَنْ يكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يقرؤه، أو بمعنى: يتبعه كما هو في لغة العرب. فتقول: تلوته أي: قرأته، وتلوت الأمر إذا اتبعته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: تبعها.

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يعني: يقرؤه شاهد منه. أي: على صدق رسالته، وهذا الشاهد هو لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يقرأ وينطق بالقرآن، يعني أَنّ نطقه صلى الله عليه وآله وسلم وقراءته للقرآن هي شاهد من رسول الله تشهد له أَنّه حقاً رسول الله. **وذلك من عدة وجوه؛ منها :**

إنّ هذا القرآن لا يمكن أن يقرأه كل لسان ولو كان عَربياً إلا بتعليم من الله تعالى، يظهر ذلك في كيفية قراءته الخاصة: بالمد والشد، والإظهار والإخفاء، وسائر الأحكام التجويدية. كما يظهر ذلك في رسمه وخطه، إذ إن ألف لام ميم تكتب ألم وتقرأ: ألف، لام، ميم. وغير ذلك مِنْ فواتح السور المفتتحة بالأحرف، كل ذلك بوحي الله وتعليمه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أَنْ نجمعه في صدرك وقلبك، فلا يغيب عنك شيء منه، كما أَنّ علينا أن نُقرِئك إياه كما أنزلناه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يعني: ويتبعه كما قاله كثير من السلف، ويكون المعنى: ويتبع البيِّنَة القرآنية الشاهدة أَنَّ محمداً

رسول الله يتبعها أيضاً شاهد آخر هو من رسول الله، صادر عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الشاهد هو آيات التكوين، وهي المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الشاهد أيضاً من رسول الله، الذي يشهد أنه حقاً رسول الله هو إبداع الله تعالى لجمال ومحاسن وجهه الشريف، وأنواره البهية، وأخلاقه الزكية صلى الله عليه وآله وسلم، وعلومه، وجميع ما فيه صلى الله عليه وآله وسلم، كلها شواهد صِدْقٍ صادرة من رسول الله، مُبتدَأَةٌ منه صلى الله عليه وآله وسلم، تشهد أَنَّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ المعجزات الكونية التي ظهر أثرها في الكون، والتي صَدرت من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متنوعة كثيرة، منها الأرضية، والسماوية، والشجرية، والمائية وغيرها.

فمن جملة المعجزات السماوية الفلكية: انشقاق القمر، إذ إنّ انشقاق القمر معجزة شاهدة أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورأى ذلك جمهور الصحابة، وبَلَّغوا مَنْ بعدهم، حتى وصل خبر ذلك إلينا كما هو في كتب الحديث.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

ومن المعجزات الجوية التي صدرت منه صلى الله عليه وآله وسلم نُزول المطر، بعد أن شكا الناس إليه صلى الله عليه وآله وسلم

شدة القحط، إذ رفع صلى الله عليه وآله وسلم يديه إلى السماء، ودعا الله، ولم يضع يديه حتى أجابه الله تعالى، ونزل المطر وهو صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر، وبقي المطر حتى الجمعة المقبلة، فشكا بَعض الأعراب إليه صلى الله عليه وآله وسلم تقطّع السُّبل. فرفع يديه الشريفتين صلى الله عليه وآله وسلم، فانجلت السحب عن المدينة المنورة، وتفرقت في جو السماء[1].

ومن المعجزات الحجرية والشجرية، ما رواه الترمذي[2]، عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبلهُ جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله).

وَمَنْ زعم أنه لا يُصدق ولا يؤمن إلا إذا سمع أو رأى.

فيقال له: يلزمك مِنْ ذلك أن تنكر وجود جميع البلاد التي لم ترها عينك، وجميع الخلائق التي لم ترها عينك، وهذا ضرب من الجنون. فإن وجود الشيء لا يتوقف على رؤيتك له، أو سماعك له، بل إنّه إذا تواترت الأخبار والنقول على حصول شيء أو وجوده؛ كان دليلاً كافياً لدى العقلاء على التسليم والتصديق به.

ولما كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم عدولاً ثقات، بشهادة الله تعالى ورسوله لهم، وقد رأوا وعاينوا

---

(١) ينظر الخبر في مسند الإمام أحمد (٣/١٠٤ و١٩٤)، وصحيح البخاري كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة (٩٣٣)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.
(٢) في كتاب المناقب باب /٨/ (٣٦٣٠)، وانظر المسند (٥/٨٩).

وسمعوا معجزات كثيرة جرت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَحَدّثوا بذلك التابعين، وتواترت الأخبار والنقول عنهم إلى يومنا هذا، فكل ذلك يُحتِّمُ على العاقل أنْ يكون موقفه مع تلك الأخبار موقف المصدق المسلم بها، فيؤمن ويزداد إيماناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى مسلم في صحيحه[1]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث. إني لأعرفه الآن» ـ وهذا الحجر داخل مكة ـ.

ومن شواهد الصدق على حقيقة رسالته صلى الله عليه وآله وسلم، والتي صدرت منه صلى الله عليه وآله وسلم، ما رواه أحمد والترمذي[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بم أعرف أنك نبي؟؟.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنْ دعوتُ هذا العِذْق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله» والعِذْق هو: غصن النخلة المثمر بالتمر.

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل ينزل من النخلة، حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «ارجع» فعاد. فأسلم الأعرابي؛ يعني بعد أنْ شَهِدَ مشهداً يُشهده ويلزمه أن محمداً حقاً رسول الله، فشهد بما علم ورأى.

وإن حديث حنين الجذع الذي بلغ حد التواتر في ثبوته، لهو أيضاً

---

(١) في أول كتاب الفضائل (٢٢٧٧) عن سيدنا جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) المسند (١/٢٢٣)، وسنن الترمذي في كتاب المناقب، باب /٩/ (٣٦٣٢).

من المشاهد الكونية التي تَشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث الذي رواه البخاري[1] عن جابر رضي الله عنه قال: (كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ـ يعني: أنّ الجذوع كانت كالأعمدة له ـ فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضع يده عليها فسكَنَتْ).

قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتبعه شاهد من رسول الله يشهد أنّ محمداً رسول الله، وهذا الشاهد هو أنوار ومحاسن وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، التي تُشهد العاقل أنه حقاً وجه نبي صادق.

كما أنّ أخلاقه العظيمة تشهد أنه رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم، وَمَن نظر في وجه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرف أنه وجه رسول رب العالمين. وهذا لمن نظر بعين التعقل والإنصاف، كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ أول ما وقع نظره على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: (فلما استبنت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرفت أنه ليس بوجه كذاب)[2] يعني: بل وجه رسول صادق صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٥).

(٢) كما في المسند (٥/٤٥١) وسنن الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب /٤٣/ /٢٤٨٧/.

ويرحم الله القائل:

لَـو لم تكـن فيـه آيـات مُبَيِّنـة كانـت بديهتـه تأتيـك بـالخبر

ولقد أجمعت كلمة الصحابة رضي الله عنهم من باب ضرب المثل ـ على تشبيه نورانية وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس والقمر، ومن ذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله أحسن الناس وجهاً، وأنورهم لوناً، ما وصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر)[(١)].

وقال هند بن أبي هالة لما قيل له: صِفْ لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[(٢)].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[(٣)].

ولما سئل البراء بن عازب رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟؟ أي: في لمعانه وإشراقه.

قال: «لا بل مثل القمر»[(٤)].

وسأل رجل جابر بن سمرة رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟

---

(١) رواه أبو نعيم وغيره.

(٢) رواه الإمام الترمذي في كتاب الشمائل له، والبيهقي في دلائل النبوة (١/٢٨٦) عنه.

(٣) كما في مسند الإمام أحمد (٢/٣٨٠).

(٤) كما في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٢).

قال: «لا بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً»[1].

وسأل بعض التابعين الرُّبَيِّعَ بنت معوذ رضي الله عنها أن تصف لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة»[2].

ولقد نطق الصحابة رضي الله عنهم بالحق والحقيقة لما شبهوا أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس والقمر، ولم يُبالغوا أو يتكلفوا، لأن حكاية أوصافه الشريفة هي من جملة الحديث، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3] فلو نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوصف ما ليس فيه لكذبوا عليه ـ وحاشاهم من ذلك ـ بل إن أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الساطعة جعلتهم يتكلمون بها، ويصفونها بالشمس أو القمر، ولو كان هناك من المحسوسات ما هو أشد نوراً من نور الشمس أو القمر لذكره الصحابة رضي الله عنهم.

فإن قيل: ولِمَ أعرض كفار قريش ولم يؤمنوا؟؟!.

---

(١) كما في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شيبه ﷺ (٢٣٤٤).

(٢) أورده البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٠)، وعزاه في مجمع الزوائد (٣/ ٢٨٠) إلى الطبراني في الكبير والأوسط وقال: ورجاله وُثِّقوا.

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المتواترة، وينظر في المسند في مواضع: منها (١/ ٧٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه، والبخاري في كتاب العلم، باب /٣٨/ (١٠٧) عن سيدنا الزبير رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب التثبت من الحديث (٣٠٠٤) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فيقال: لقد كانوا ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظراً قاصراً، نظر المعاند المعارض، الذي لا يرى في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه يتيم أبي طالب. ولو أنهم أنصفوا وتعقلوا لشهدوا أنواره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] أي: يتوجهون إليك بأعينهم، ولكنَّ كبرهم وعنادهم حال بينهم وبين أن يبصروا أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومحاسنه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجمل خلق الله على الإطلاق، آتاه الله الحسن والجمال كله؛ ولكن جماله الشريف كان مصحوباً بالهيبة والجلال، ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه: «مَنْ رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه»[1] فلم تفتتن به النساء، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: «لم يُر قبله ولا بعده مثله»[1] أي: أنه فرد في محاسنه وجماله وكماله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

متى يبدُ في الليل البهيم جبينه
يَلُحْ مثل مصباح الدجى المتوقد
مَن كان أَوْمَنْ قد يكون كأحمدﷺ
نظام لحق أو نكال لملحد

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب /١٩/ (٣٦٤٢).

أما سيدنا يوسف عليه السلام فقد آتاه الله شطر الجمال ـ أي: جزءاً كبيراً من الجمال ـ فافتتنت به النساء لَمّا رأوا حسنه وجماله، وأخذهن الهيام والشطح حتى قَطَّعْنَ أيديهن ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. وفي ذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

ولـو علمـوا في مصـر أوصـاف خـده ﷺ
لمـا بـذلوا في سـوم يوسـف مـن نقـد
دواعـي زليخـا[١] لـو رأيـن جبينـه
لآثـرن في قطـع القلـوب علـى الأيـدي

وتقول السيدة خديجة رضي الله عنها:

ولو أن لي في كـل يـوم وليلـة ... بساطَ سليمان وملكَ الأكاسـرة
لما عدلت عندي جناح بعوضة ... إذا لم تكن عيني لوجهك ناظرة

لأن نظرة إلى وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومحاسنه وكماله فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ويرحم الله القائل لما صدق فقال:

إنّ قلبـاً أنـت سـاكنه ... غـير محتـاج إلى السـرج
ومريضـاً أنـت عائـده ... قـد أتـاه الله بـالفرج
وجهـك المـأمول حجتنـا ... يـوم يـأتي النـاس بـالحجج

ويكفيك لمعرفة وجاهة وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) دواعي زليخا: هن النساء اللاتي دعتهن زليخا وأشهدتهن طلعة سيدنا يوسف عليه السلام.

وآله وسلم عند الله تعالى، وكرامته على الله تعالى، أنّ الله تعالى ذكر وجهه الشريف، وأنه سبحانه حقق رجاءه لِمَا له من وجاهة وكرامة ومنزلة عند الله تعالى، وذلك بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، قال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾ أي: كثيراً ما نرى ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية.

وفي الآية الكريمة يلفت سبحانه الأنظار، وينبه الأفكار إلى عظمة شرف وأسرار وأنوار وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأنّ نور كل وجه وشرفه يكون على حسب توجه ذلك الوجه، وإنّ وجهة وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع اللحظات والشؤون هي لله رب العالمين، وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض»[1].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من توجه إلى الله تعالى بكليته، بوجه جسمه، ووجه قلبه، وبوجوهه كلها.

ومن توجه إلى النور شمله النور، وإنّ الله تعالى هو نور السماوات والأرض، ولذلك كان لوجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم أسرارٌ وأنوارٌ وآياتٌ بينات في الحسن والجمال والكمال.

وكان سبب نزول الآية المتقدمة أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا

(١) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل (٧٧١) وأصحاب السنن عن سيدنا علي رضي الله عنه.

هاجر إلى المدينة المنورة، وكانت القبلة وقتئذ إلى بيت المقدس، وبقي على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً بعد هجرته الشريفة، فكان صلى الله عليه وآله وسلم عقب صلاته إذا سلم رفع وجهه إلى السماء متوجهاً إلى الله تعالى أن يجعل قبلته نحو الكعبة المشرفة، وذلك لأنّ الكعبة هي قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وهي محج جميع الأنبياء والمرسلين.

ولقد حجها آدم وَمَنْ بعده من الأنبياء والمرسلين، ولم يكن ذلك مفروضاً على أممهم، ولقد فُرض حجها على الأمة المحمدية.

والكعبة هي أشرف بقاع الأرض، وهي أول ما خلق الله من الأرض، ثم دحى الأرض من تحتها، فهي قلب الأرض.

لكنك يجب أن تعلم أن أشرف وأفضل بقاع عالم الدنيا على الإطلاق هي البقعة الطاهرة التي ضمت جسد خير خلق الله، وأفضلهم وأشرفهم على الإطلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حقق الله تعالى رجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ لأنّ وجه رسول الله هو الوجه المقبول عند الله تعالى، فإذا توجه إلى مُهمة كشف الله تعالى تلك المهمة، وإذا توجه في شفاعة شفعه الله تعالى، وإذا توجه في استنزال رحمة أنزل الله تعالى الرحمة.

وفي هذا يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ولما يتوجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الموقف إذا اشتدت الكربات والأهوال على أهل الموقف، يتوجه إلى الله تعالى ساجداً لكشف الغمة، يقال له: «يا محمد ارفع رأسك» فأنت صاحب الرأس المرفوع، «وقل يسمع لك» لأنك صاحب القول المسموع المجاب عند الله تعالى، «وسل تعطه» فإنّ رجاءك لا يخيب «واشفع تشفع»[1] أي: تُقبل شفاعتك.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) هذا طرف من حديث الشفاعة، وهو عند البخاري في كتاب التفسير، أول تفسير سورة البقرة (٤٤٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان باب ٨٤/ (١٩٣) وحديث الشفاعة من الأحاديث المتواترة.

المحاضرة الرابعة

حول مشاهد

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

امْتَنَّ الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم ليتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وتعتبر هذه المواقف من جملة مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم، لأنّ الله تعالى أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، ومن هذه المواقف المحمدية أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُعلم الناس الكتاب والحكمة.

أما الكتاب: فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها. ومن جملة العلوم القرآنية كما تقدم معنا: علم الحجة والبرهان. وإنّ أعظم العلوم القرآنية وأهمها هو: العلم بقضايا الإيمان، فهو يُبيِّن لك حقيقة الإيمان في القلب، ويبين حقائق الإيمان التي يجب على المؤمن أن يتحقق بها، ويبين صفات المؤمنين وخصالهم، ويبين مراتب إيمان أهل الإيمان، ومقامات أهل الإيمان عند ربهم. وكل هذا يحتاج إلى تفصيل سنأتي على بيانه إن شاء الله تعالى.

وإن أصل قضايا الإيمان وأولّها وجامعها إنما هو: العلم الجازم القطعي أنّه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

وقد أمر الله تعالى العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله، بعد أن أشهدهم مشاهد لا إلّه إلا الله في أنفسهم، وفيما حولهم من الأكوان.

فكما أشهدهم سبحانه لا إلّه إلا الله في الآيات التكوينية، أشهدهم ذلك أيضاً في الآيات التدوينية، وهي آيات القرآن الكريم، النازلة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه سبحانه لَمّا أمر العباد أن يَشهدوا أنّ محمداً رسول الله، والشهادة لا تكون إلا عن علم جازم، فقد أشهدهم سبحانه أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التكوينية، وهي

المعجزات الخارقة للعادة، ومنها السماوية، ومنها الأرضية، ومنها المائية والطعامية، ومنها الإخبارات العلمية، ومنها الغيبية ومنها ومنها.

وكلها شواهد صدق تَشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

ولقد نبه سبحانه إلى مشاهد لا إلّه إلا الله، ونبه إلى مشاهد محمد رسول الله ـ أي: إلى مواضع تُشهد الإنسان أن الله حق، وأن محمداً رسول الله حقاً. وهذا هو معنى المشاهد ـ.

فقد أشهد سبحانه الإنسان أنه لا إلّه إلا الله في تخليقه وتصويره فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦] أي: فأنتم تُشاهدون أثر لا إلّه إلا الله، وأنّ الله هو الإلّه الخالق المصور، تَشهدون هذا في خلقكم وتصويركم، فلقد كنتم نُطفاً في أرحام أمهاتكم، فَمَنِ الذي طَوّر خلقكم، وصور كل واحد منكم بصورة تختلف عن صورة الآخر؟؟!!.

وترى أولاد الرجل الواحد يختلفون في الصورة والهيئة والطول والتفكير، مع أن ماء الرجل واحد وهو ماء أبيهم، ورحم المرأة واحد وهو رحم أمهم، فَمِنْ أين نشأ الاختلاف والتباين؟!!. ولو كان الأمر من ذاته وطبيعته لجاء الأولاد كلهم على شكل واحد، وصورة واحدة، فلابد إذاً للطبيعة من طابع، وللخليقة من خالق، وللصورة من مُصَوِّر، يخلق ويصور كما يشاء وهو الله وحده جل وعلا.

فلقد أشهدك الله تعالى مشهداً مِنْ مشاهد وحدانيته، وأن لا إلّه إلا الله في خلقك وصورتك، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ

يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا مشهد من مشاهد لا إلّه إلا الله؛ لا يمكن للمرء أن يجادل في هذا الدليل المشهود.

كما أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله في كل الآيات التكوينية: السماوية منها والأرضية، وفي خلق كل شيء، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:١٠١-١٠٢].

فكل شيء في الكون هو مَشهد على أنّه لا إلّه إلا الله، إذ إنّ الشيء المخلوق لابد له من خالق أوجده بعد عدم، والعدم مِنْ ذاته لا يُعطي وجوداً، فَمَنِ الذي رَجَّح وجود الشيء على عدمه فأوجده وخلقه قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وكيف لا يشهد عاقل أن لا إلّه إلا الله؟! وقد أشهده سبحانه مشاهد وحدانيته وقدرته في كل شيء!؟.

كما أشهد سبحانه العباد مشهد لا إلّه إلا الله في المشارق والمغارب، وأنّ مشرق الشمس ومغربها يختلف من يوم لآخر، وكل ذلك يجري بدقة وانتظام، وتقدير وإحكام قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

ولقد لَقّن سبحانه سيدنا إبراهيم عليه السلام الحجة والبرهان القاطع لَمَّا ناظر النمروذ الظالم، قال تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿قَالَ

إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كما لَقَّنَ سبحانه الحجة لموسى عليه السلام لَمَّا أرسله إلى فرعون، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣ـ٢٤] أي: إن كنتم معتقدين ومصدقين بوجود السماوات والأرض وما بينهما، فيجب أن يكون تصديقكم بوجود رب السماوات والأرض أقوى وأشد، لأنّ مَنْ أثبت وجود المصنوعات فهو بوجود الصانع أشد تصديقاً وإثباتاً.

فهذه أرض تُقِلُّ[1] الإنسان، ويمشي ويقوم عليها، وهذه السماء تُظلُّه، وهذه الشمس والقمر والكواكب، لا يسعه إنكارها، فَمَن كان موقناً بوجودها فيجب أن يكون أشد إيقاناً وتصديقاً بوجود خالقها ومدبرها وهو الله تعالى.

وأما من زعم أن هذه المكوَّنات والمخلوقات حوله كلها أوهام وخيالات، وليس هناك حقيقة لشيء موجود، فيقال له:

أولاً: إنّ كلامك وهم وخيال أيضاً، ولا حقيقة ولا وجود له، وكيفَ تستدل على حقيقة بوهم وخيال؟ وكيف تطلب من غيرك أن يُصدق بكلامك الموهوم على أنه لا وجود لشيء ولا حقيقة لشيء؟؟!

ثانياً: لو أتينا بعصا، وجعلنا نضربك بها على رأسك وجسمك، فجعلت تتألم و تصيح. فيقال لك: لِمَ تتألم وتصيح، مع أنه لا وجود

---

(١) أي: تحملُ.

للضارب ولا للعصا ولا للألم؟!. ولو أن إنساناً سلب من جيبك مالاً فزجرته ونهرته فيقال لك: لِمَ تفعل ذلك مع أنه لا وجود للسارق ولا للمال ولا لشيء على زعمك؟؟ فربما أذعن وقال: نعم هناك وجود وحقيقة للألم وللمال. فيقال: لك متى أثبت حقيقةً من الحقائق فيجب عليك أن تُثبت جميع الحقائق. ومتى أيقن الإنسان بوجود المخلوقات والسماوات والأرض وما بينهما؛ فيجب عليه أن يكون أشد يقيناً بوجود الله تعالى ربّ السماوات والأرض، وخالق كل شيء.

ثم ذكر سبحانه موقف فرعون من جواب موسى عليه السلام فقال: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: انظروا وتفكروا مَنِ الذي أوجدكم بعد أن لَمْ يكن لكم وجودٌ؟ وَمَنِ الذي نقلكم من العدم إلى الوجود؟ وهل كان لكم اختيار في وجودكم؟ فهناك إذاً مَنْ أوجدكم واختار وجودكم على العدم؛ وهذا هو الله سبحانه وتعالى.

ولَمّا ضاق الأمر على فرعون راح يتهم موسى عليه السلام بالجنون، كما أخبر سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تَعقَّلُوا وتفكروا في أمر مشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه، ومشرق كل كوكب ومغربه، وانظروا في انتظام ذلك وإحكامه وتقديره؛ حقاً إنه تقدير العزيز العليم.

ولقد أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التدوينية، وهي آيات القرآن الكريم، النازل على سيدنا

محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد ما أشهد العباد ذلك أمرهم أن يشهدوا: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله.

ولقد نبه سبحانه العقلاء أن ينظروا في آيات القرآن الكريم، ويتفكروا فيها، هل هي من كلام بشر؟ وهل يستطيع بشر أَنْ يأتي بمثله، لقد أثبت عجزهم بعد أن تحداهم أن يأتوا ولو بسورة مثله، وطالما أَنَّه ليس بكلام بشر فكلام مَنْ إذاً؟ إنه كلام رب البشر قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الآيات من سورة هود.

فالقرآن الكريم يُشهدك أن لا إلّه إلا الله، ويشهدك أنّ محمداً رسول الله.

فلقد زعم كفار قريش وغيرهم أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد افترى هذا القرآن ـ أي: اختلقه وابتدعه من تلقاء نفسه وليس بوحي الله له ـ فرد عليهم القرآن زعمهم، ودعاهم إلى أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وليدعوا لذلك خلق الله كلهم، بمن فيهم من الفصحاء والبلغاء والحكماء، وطالما أنّ القرآن من كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو بشر وأنتم بشر أيضاً، فاجتمعوا على الإتيان ولو بعشر سور مثله. وقد تحداهم في آية أخرى أن يأتوا ولو بسورة مثله، وهذا تدرج في التحدي ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: إن أنتم دعوتم خلق الله كلهم، بمن فيهم من العلماء والفصحاء والبلغاء،

وعجزوا أن يأتوا ولو بعشر سور مثله، بل ولو بسورة مثله، فعجزهم يعني أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام ربّ البشر، واعلموا علماً جازماً لا يحتمل الشك أنّ هذا القرآن إنما أُنزل بعلم من عند الله تعالى لا تعلمونه أنتم، فنزل هذا القرآن يُخبر عَمّا مضى وعَمَّا هو آت، ويخبر عن كل شيء، ونزل بعلم الأحكام التي فيها صلاح وسعادة البشر، وهكذا نزل بعلوم لا يستطيعها البشر.

واعلموا أيضاً أنه لا إلّه إلا الله، إذ عجز من دونه عن الإتيان ولو بسورة ككلامه سبحانه.

ولقد رد سبحانه على كفار قريش وغيرهم مِمّن زعم أنّ هذا القرآن هو من باب الكهانة والسحر، وقد تنزلت به الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ١٩٤] فنزل به جبريل على قلبك يا رسول الله دون سائر القلوب، لقوة الاستعداد والمناسبة بين جبريل الأمين وبين قلبك الطاهر الطيب، والتنزلات الملكية العالية عليه، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنّ الشياطين نفوس شريرة فاسدة لا تأتي بخير، فكيف تنزل الشياطين بقرآن فيه كل خير وسعادة؟ ولذلك ما ينبغي لهم أن يتنزلوا به، إذ لا مناسبة بين نفوسهم الشريرة وبين القرآن الجامع لكل خير، مع أنهم لو أرادوا أن يتنزلوا به فلا يستطيعون لأنهم ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فلا يسترقون سمعاً حين تَنَزُّل القرآن، بل تُحرقهم الشهب إن حاولوا ذلك.

ثم بَيّن سبحانه أن الشياطين لا يمكن أن تصل إلى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا مناسبة بينه وبينهم، بل إن المناسبة بينه وبين جبريل الأمين والملائكة العالين.

قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١ـ٢٢٢] لوجود المناسبة بين نفوس الشياطين الشريرة الفاسدة وبين أهل الدجل والإفك والإثم، لأن الطيور على أشكالها تقع، والجنس يألفه الجنس. أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو الصادق الأمين باعتراف أعدائه، فهو صلى الله عليه وآله وسلم صادق في أقواله، أمين في أفعاله، فلا إفك ولا خيانة تصدر عنه، فأيّ مناسبة بين الشياطين وبين سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!! وإنما الشياطين تتنزل على مَنْ هو على شاكلتها. أي: على كل ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كاذب فاجر. وهذه حجة مفحمة، ودليل ساطع على أنّ القرآن الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّما هو مِنْ لدن حكيم عليم، وهو رب العالمين.

وكل هذا مشاهد يُشهدك الله فيها ـ أي: في الآيات ـ أنه لا إلّه إلا الله، كما يُشهدك وَيعلمك علماً قاطعاً أَنّ محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم بين سبحانه أن سبب عناد الكفار وكفرهم إنما هو حبهم للدنيا وانغماسهم فيها، فأعرضوا عما أشهدهم الله إياه من مشاهد وحدانيته، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: المالَ والبنين ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ أي: أن أعمالهم التي عملوها في الدنيا وفيها نفع للعباد يعطيهم الله تعالى جزاء أعمالهم هذه في الدنيا، أما في الآخرة قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لأنهم كافرون، ما أرادوا من أعمالهم ثواب الآخرة. وهذه الآية تحذر المؤمنين من الرياء أو النفاق في أعمالهم، وتحثُّهم أن تكون أعمالهم خالصة لوجه الله تعالى.

وقد روى مسلم[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول من يُقضى يوم القيامة عليه» أي: للحساب.

«رجل استشهد، فأتي به، فَعَرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريءٌ فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وَعلّمه وقرأ القرآن. فأتي به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئٌ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

---

(١) في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

ورجل وَسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها. قال: فما عملت فيها؟. قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار».

ولما نبه سبحانه إلى خطر تأثير الدنيا على الإنسان، بَيّن شهادة القرآن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة والنبوة، فكما أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التدوينيّة القرآنية، أشهد العباد أيضاً مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التكوينية، وهي المعجزات وخوارق العادات التي صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها انشقاق القمر، وتفجير الماء، وتكثير الطعام والشراب، وتسبيح وتسليم الجمادات على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وغير ذلك مما شاهده الصحابة رضي الله عنهم.

فلما نبه سبحانه إلى مشاهد لا إلّه إلا الله في القرآن، نبه إلى مشهد محمد رسول الله في القرآن والأكوان فقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أفمن كان على بينة من ربه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو على بينة من ربه تَشهد له أنّه رسول الله، وهذه البينة ظاهرة واضحة لكل عاقل إن هو نظر وتفكر بَانَ له أن محمداً حقاً رسول الله، وهذه البينة هي القرآن الكريم، الذي جاء به رسول الله بوحي من الله تعالى، فالقرآن بَيِّنة

صدق تشهد أنّ سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: وهو القرآن الذي كذب به المشركون.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ والتلاوة تأتي على معنيين: القراءة والاتباع. وعلى المعنى الأول تكون الآية: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ويقرأ هذا القرآن ـ وهو البينة المذكورة في الآية ـ ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: من هذا الرسول الذي هو على بينة من ربه. يعني: أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن، ولسانه الناطق بالقرآن؛ دليل شاهد على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لأنّ للقرآن قراءة خاصة، بأسلوب لم يكن معروفاً عند العرب، كما هو في فواتح السور نحو: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿طسٓمٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ وهذا من جملة إعجاز القرآن، وذلك بأنْ علَّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يقرأ القرآن ويتلوه على الناس، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أن نجمع القرآن في صدرك يا رسول الله، فلا يغيب عنك منه شيء، كما أنَّ علينا أن نُقرئك إياه بأسلوب خاص، وطريقة متميزة عن قراءة غيره.

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوة ومعنى، لأفضل إنسان وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: البيان عن القرآن.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾

﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ أي: يتبعه من المتابعة، ويكون معنى شاهد منه: هي المعجزات وخوارق العادات التي صَدرت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تشهد أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حقاً رسول الله.

فالقرآن الكريم يُشهدك أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك المعجزات والآيات التكوينية التي صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تُشهدك أنّ محمداً رسول الله حقاً.

وإنّ طلعة مُحَيّاه صلى الله عليه وآله وسلم، ونورانية وجهه الشريف صلى الله غليه وآله وسلم، شاهد صدق أنه رسول الله حقاً، وكَمْ مِنْ أناس عقلاء آمنوا وأسلموا منذ أن وقع نظرهم على وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ وكان من أحبار اليهود ـ: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه ـ أي: أسرعوا إليه ـ فكنت معهم، فلما نظرت إلى وجهه واستبنته؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: بل هو وجه رسول صادق، يعلوه الحسن والنور. يعني: وهو الشاهد منه على أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكان أول ما سمعته منه: «أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[1].

---

(١) تقدم تخريجه ص /٨١/.

وروى الترمذي أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

ولقد شاهد كل هذا، وعرفه كل إنسان، حتى الكفار؛ لكنهم عاندوا وأعرضوا ولم يعترفوا بالحق بعد ما عرفوه، كما أخبر عن ذلك سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: يعرفون صدقك وصدق ما جئت به، ولكن سبب إعراضهم هو التكبر والعناد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ولما سئلت الصحابيةُ الرُّبَيِّعُ بنت معوذ رضي الله عنها، صِفِي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا لما سألها بعض التابعين[2] باعتبار أنّهم لم يروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالت: «يا بني لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرأيت الشمس طالعة»[3] يعني: وبظهور الشمس يظهر النهار ورونقه وجماله، وينتشر النور.

قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو القرآن الشاهد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتبعه ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أحاديثه،

---

(١) تقدم تخريجه ص /٨٢/.

(٢) وهو أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر رضي الله عنهم.

(٣) تقدم تخريجه ص /٨٣/.

وحكمته، ومعجزاته، ومن صورته، وخُلُقِهِ، ومحاسن وجهه صلى الله عليه وآله وسلم، كل هذا شواهد صادرة منه صلى الله عليه وآله وسلم تُشهد العاقل أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد أن أشهدك سبحانه وأعلمك مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في الآيات التكوينيّة، وفي نفسك، وفي الآيات القرآنية، وفيما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن أشهدك ذلك كله سبحانه، أمرك أَنْ تشهد أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، فكيف لا تشهد؟!!.

ومِنْ هذا كله يتبين لك أنّ قضايا الإيمان مبنية على علم وحجة، ودليل وبرهان، يستسلم لها العقلاء، ولا يجادل فيها إلا أهل العناد.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة الخامسة

حول مشاهد

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: فاعلم علماً قاطعاً جازماً لا يحتمل الشك أنه لا إلّه إلا الله، وإن السبب الموجب لهذا العلم الجازم بـ لا إلّه إلا الله، هو ما أشهده الله لعباده من مصنوعات ومخلوقات، وعوالم يعلمون بها أنه لا إلّه إلا الله، وهذا لأن العلم بالشيء له أسباب تُعلم به، فلما قال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا شك أنّ هناك أسباباً تُوجب العلم بـ لا إلّه إلا الله، وتَحْمِلُ الإنسان ضرورة على العلم القطعي بـ لا إلّه إلا الله.

ولقد ذكر سبحانه كلمة لا إلّه إلا الله في مواضع متعددة من القرآن الكريم، وبيّن فيها سبحانه مَشاهد تُشهد الإنسان أنه لا إلّه إلا الله. فلما قال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نَصب لك أسباب وجوب هذا العلم، وأنّ هناك ما يوجب على العاقل أن يُقِرَّ ويعترف، ويعلم علماً جازماً أنه لا إلّه إلا الله، فَمِنْ هذه الآيات التي تُشهد أنه لا إلّه إلا الله، وتحمل الإنسان على العلم القاطع أنه لا إلّه إلا الله، فيشهد عندئذ أنه لا إلّه إلا الله، ما أشهدك سبحانه في المشارق

والمغارب، وأشهدك ذلك في السماوات، وفي الأرض، وأشهدك ذلك في وجودك وصورتك الخلقية، وأشهدك ذلك في تصرفه سبحانه في الإحياء والإماتة، والإمداد والإعداد، وفي مواضع كثيرة نبه إليها سبحانه في القرآن الكريم.

من ذلك ما أشهدك سبحانه أنه لا إلّه إلا الله في خلقه للمشارق والمغارب، قال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ لِمَ جاء هنا بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟.

نعم لمّا أشهدك سبحانه المشارق والمغارب، فمشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه، وإنّ لكل من الشمس والقمر في كل يوم مشرقاً ومغرباً، لا يُنكر ذلك عاقل. فَمَنِ الذي قَدَّرَ هذه المشارق والمغارب للشمس وللقمر في كل يوم، على وجه الدقة والإحكام، دونما تخلّف ولا لحظة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي: أقسم برب المشارق والمغارب، ففي الآية الأولى ذكر المشرق والمغرب؟ أي: جنس المشارق وجنس المغارب.

ومَنِ الذي بحكمته وقدرته قَدّر سَيْر الشمس والقمر على نسب مُعَيَّنة، بنظام معين؟ وعلى مسافات فيما بينها معينة، وهناك الكواكب والأجرام، وكل منها لها فلكها ونظامها وخصائصها، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: أنه سبحانه هو الذي قدر لها هذه المقادير الدقيقة، والنسب المعينة، في شروقها وغروبها وفلكها، وهكذا...، بحيث لو كانت أقرب إلى عالم الأرض لما عاش عليها كائن حي، ولا نبات أخضر،

ولو كانت أبعد عن عالم الأرض لأضر ذلك بحياتهم ومعاشهم. إنّ هذه المقادير المكانية والزمنية إنما هي ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

فلقد أشهدك الله رب العالمين، أشهدك لا إلّه إلا الله في المشارق والمغارب، ومَنْ نظر وفكّر في المشارق والمغارب شهد أنه لا إلّه إلا الله، كما قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

كما أنّ الله تعالى أشهدك لا إلّه إلا الله في خلقك وصورتك، فحينما تنظر في نفسك، وتتفكر في وجودك وخلقك، فإن هذا يُشهدك أنه لا إلّه إلا الله. وقد نبه القرآن إلى هذا المشهد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وفي هذا بيان للعاقل أن يَشهد يقيناً أنه لا إلّه إلا الله، لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقد يقال: ما هو الطريق الموصل لهذا العلم الجازم بـ لا إلّه إلا الله؟

فلقد قال تعالى مبيناً مشاهد هذا العلم، ومثبتاً لحقّيَّة هذا العلم القاطع: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ الآية.

فلينظر الإنسان إلى أصل خلقه، كيف أنّ الله خلقه مِن نطفة من ماء أبيه، ثم نقله في الرحم، وصوّره بصورة معينة، وله مدارك وحواس معينة ومتميزة، ثم جاء أخوه مِنْ بعده وله مدارك وحواس معينة ومتميزة، ثم جاء أخوه من بعده وله صورة وصفات متميزة عن أخيه السابق، وهكذا سائر الإخوة اختلفت صورهم وأشكالهم وصفاتهم. وأبوهم واحد والماء واحد. ولو كان الأمر من طبيعته

دونما وجود خالق ومصور؛ لجاء جميع الإخوة على صورة واحدة. فليفكر العاقل مَنِ الذي مَيّز هذا عن ذاك؟ وَصَوّر هذا بصورة، وذاك بصورة وهكذا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا كما تشاؤون وتريدون ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولقد ذكر هنا لا إلّه إلا هو بعد ذكر اختلاف الصور في الأرحام، وذلك حتى يُشهد الإنسان أنه لا إلّه إلا الله، الخالق المصور.

ولو كان الأمر بطبيعته لتشابه الإخوة في الصور والهيئات والأفكار، وسائر المدارك والحواس، إلا أنه ليس هناك مخلوق يُشبه مخلوقاً آخر من كل الوجوه، منذ خلق الله آدم إلى يوم الدين، لأن الله تعالى مِنْ أسمائه الخالق والبديع، فيخلق الشيء ويخلق غيره وغيره وهكذا. حتى يُشهدك أنّ قدرته سبحانه لا تتناهى، ولو كان يخلق الشيء ومثله تماماً مِنْ كل الوجوه لكانت قدرته محدودة.

وكما أن صُور الإنسان مختلفة، فكذلك تختلف جميع صور المخلوقات، فليس هناك نحلة تشبه نحلة من كل الوجوه، أو عصفوراً يشبه آخر من كل الوجوه ولا حتى ذبابة أو بعوضة.

وكل مخلوق ضمن عالمه يرى ذلك الاختلاف، في حين لا يبدو للإنسان ذلك. ولو كنت أيها الإنسان في عالمها لمَيَّزْتَ بين أفرادها كما تميز بين أفراد الإنسان؛ لأنك من الإنسان.

وهكذا الجن فإنهم مختلفون في الصور والهيئة والوصف، ويميزون بعضهم بذلك.

كما أنّه سبحانه أشهدك لا إلّه إلا الله في الإمداد والرزق، وما

هنالك من العطاء؛ فترى نفراً متفاوتين في الرزق، وقد يسعون سعياً واحداً، إلا أنّ لكل واحد منهم رزقه الذي قَدَّره الله له. ولو كان أمر الرزق من طبيعته لكان رزق مَن يعملون عملاً واحداً؛ في سنة واحدة؛ وبتجارة واحدة؛ لكان رزقهم واحداً، إلا أن الواقع غير ذلك، مما يدل على وجود الرزاق، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: أين تصرِفون عقولكم وأفكاركم، بل فكروا وانظروا في أمر الرزق، فلولا أنه سبحانه يَرزقكم مِنَ السماء ماء مَنْ غَير الله يخلق سحاباً وينزل ماءً؟؟.

ولو أقحطت الأرض فأي قدرة تقدر على إنباتها وإخصابها؟؟.

فهو سبحانه وحده الذي يرزقكم من السماء والأرض، بالأرزاق الجسمانية، والروحية، والقلبية، والعقلية، على مقتضى الحكمة الإلّهية.

وقد أشهدك سبحانه أنه لا إلّه إلا الله في خلقه للأشياء كلها، إذ إنَّ كل شيء في الوجود سواء كان ممَّا يَشهده البصر، أو يَثبت في العقل، فهو شاهد يُشهدك لا إلّه إلا الله. فترى أنّ لا إلّه إلا الله مشهودة في كل شيء، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: أنه سبحانه خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ﴾ أي: كيف يكون له ولدٌ والحال أنه ليس له صاحبة، أي: ليس له صاحبة، إذ لابد في التوالد من صاحبة تشبه وتصحب من هو صاحبها. فالإنسان له من جنسه امرأة فيمكن أن يأتي منهما ولد. أما رب العزة فما له صاحبة، أي:

ليس هناك آلِهَةٌ تشبهه سبحانه، إذ ليس كمثله شيء. فكيف يكون التوالد؟!!.

فإن قيل: إنه يتخذ من إناث أهل الأرض صاحبة له.

فيقال: لا تجانس ولا تشابه بينهما، إذ هي مخلوقة وهو الخالق، فلا يتصور أن يلد جل وعلا. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إن هذا الخلق دليل على علم الله بجميع الأشياء. وذلك لأن الخلق يقتضي العلم بالشيء قبل خلقه، وإنّ علم الله تعالى أزلي غير مكتسب، بدليل إيجاده للأشياء والمخلوقات، فلولا أنّ الله عالم بك وبتراكيبك ومادتك، وبما يعتريك، لولا يعلم ذلك من الأزل فكيف يخلقك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؟؟.

ولكي يتضح لك ذلك فإليك مثال يُقرب فهم ذلك: إذا أردت أن تصنع شيئاً كساعة أو كرسي مثلاً، فإنك ستدرس ما ستصنع قبل كل شيء، وتتعلم تراكيبها ثم تصنعها.

وإذا قيل لك: اصنع الكرسي أو الساعة وليس لديك سابق علم بصناعتها لَما استطعت ذلك، ولو قيل لك: اصنعها ثم تعلم تراكيبها لاتهمت من قال لك ذلك بالجنون.

وعلى هذا تبين لك أنه بعد العلم يكون الوجود، وبعد العلم يكون الصنع، والذي أوجد هذه الموجودات لابُد أنه عليم بكل شيء قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فجاء بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعدما عَرّفك الخلق، وأشهدك المخلوقات فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حتى

تَشهد لا إلّه إلا الله في جميع الموجودات، من محسوسات ومعقولات وسماويات وإلخ.

ولقد أعلمك الله بكلامه وقرآنه أنه لا إلّه إلا الله، فهو سبحانه الدليل على نفسه، وهو الشاهد على أنّه لا إلّه إلا الله فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

ولقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في خلقك وتصويرك، وتطويرك من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى أنْ سواك إنساناً كاملاً، ذا مدارك وحواس، وجوارح وأعضاء متميزة، وأوقع كلاً منها في موقعها على أحسن صورة في الخلق.

ولقد مَرَّ على المضغة زمن في الرحم وهي متساوية الأجزاء، متماثلة الأطراف، ثم إنه سبحانه شَقّ لها مكاناً للسمع والبصر، والشم والذوق، وميز الأعضاء عن بعضها كالرأس واليدين والرجلين، وكذا سائر الأجزاء في الإنسان. فلو تأملت أيها العاقل مَنِ الذي مَيّز هذه المضغة، وميز أجزاءها عن بعضها، وخصص كلاً منها بنوع من الإدراك كالسمع والبصر واليدين، ولو كان الأمر مِنْ طبيعته فيقال: لِمَ كان الرأس من الأعلى والرجلين من الأسفل مثلاً، فالقضية تحتاج إلى مرجح ومميز، ولا يصح أن يكون هناك ترجيح بلا مرجح، كما لو كانت كفّتا الميزان متساويتين، فلا يصح لإحداهما أن ترجح على الأخرى إلا بمرجح، كثقل يوضع عليها، أو ضغطة يد أو هواء. فلا ترجح بلا مرجح، ولا تميز بلا مميز، ولابد من وجود خالق مصور وهو الله سبحانه.

ولقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أعقل العالمين إلى هذا الجانب، فكان إذا سجد يقول: «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[1] فلقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في خلقك وصورتك ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ولقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان:٨] أي: أنكم تشهدون أنه لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة، فترى أنَّ هناك رجلان في سن واحدة، وشبوبية واحدة، ووقع عليهما الخطر بنسبة واحدة، إما مرضا مرضاً خطيراً واحداً، أو تعرضا لكارثة خطيرة واحدة، فترى أنّ أحدهما يموت وأن الآخر يبقى حياً، فَلِمَ لَمْ يمت الاثنان!! وهذا يدل على أنّ هناك مَنْ يُحيي ويميت، وبيده الأمر كله، وهو الله سبحانه، ولو زعمت أيُّها الإنسان أنّك قد خَلَقْتَ الحياة بنفسك فأمسك عليك حياتك، وأبق نفسك حياً إلى متى تشاء. فكما أنّه لا قدرة لك على إحياء نفسك؛ وإبقاء الحياة عليها، فكذلك لا قدرة لك على إماتة نفسك، وقد تريد الموت أحياناً وتُعرِّض نفسك للموت إلا أنّك لا تموت إلا إذا أراد الله ذلك. ولو كان أمر الحياة والموت مِن طبيعته فلِمَ لَمْ يمت الرجلان اللذان تعرضا للخطر بنسبة واحدة، وهما في سن واحدة، بل مات أحدهما وبقي الآخر؟؟

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل (٧٧١) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

وكثيراً ما ترى شباباً يموت أحدهم وهو يتمتع بقوته وكامل صحته، علماً أن هناك رجلاً مسناً هرماً يُعاني من الأمراض ولا يموت.

ولو كان الأمر من طبيعته لمات هذا الرجل الهرم ولبقي الشاب حياً.

ولو قلت: إنّ الشاب أصابته سكتة قلبية. فيقال: مَنِ الذي أوقف القلب عن الحركة بعد ما كان يتحرك بالنبض، ولو كنت أنت أيها الإنسان تحرك قلبك فأعد إليه حركته عندما يتوقف. كل ذلك يدل على وجود مَنْ يحرك ويسكن وهو الله الذي ﴿لَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وعلى هذا فقد أشهد سبحانَه العباد أنّه لا إلّه إلا الله بالإحياء والإماتة، اللذين يقعانِ على وجه الأرض فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

ولقد استشهد سيدنا إبراهيم عليه السلام بمشاهد لا إلّه إلا الله ومظاهر وحدانيته وقدرته، وأقام الحجة على النمروذ لَمّا حاجّه في الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ ويسمى النمروذ ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ وكان في قصره وحوله جماعته، وجيء بإبراهيم فقال له: مَنْ ربك؟ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت. فأراد النمروذ المشاغبة وتشويش الحاضرين فقال: أنا أحيي وأميت. وكان في سجنه رجلان فقتل واحداً وأطلق الآخر، وادعى أنه أمات الأول

وأحيا الآخر ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الله الذي يُحيي ويميت على الحقيقة، هذا من شأنه وقدرته أن ﴿يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وقد ذكر هذا إبراهيم عليه السلام حتى يقطع عليه الحجة، ويقيم عليه الدليل الذي لا يقبل المشاغبة والجدال، لأنه لما قال: أنا أحيي وأميت، أوهم أفكار الحاضرين وموّه عليهم؛ فلفته إبراهيم عليه السلام إلى دليل قاطع مفحم، أدهشه وأبهته وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: إن كنت أنت رباً متصرفاً فافعل ذلك، وأرنا قدرتك ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ﴾.

فلقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة، وفي المشارق والمغارب فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ولقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله في السماوات والأرض، وفيما بينهما، وفيمن هو في السماوات والأرض. وهذا هو مَشهد القيُّوميَّة، وهو إقامة السماوات والأرض ومَنْ فيهن، وتدبير أمرهما. فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ..﴾ وهذه هي آية الكرسي أعظم آية في القرآن الكريم، كما ورد في الحديث[1]، وأنها

---

(١) كما في مسند الإمام أحمد (١٤٢/٥)، وصحيح مسلم أواخر كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠)، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي (١٤٦٠) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه.

سيدة آي القرآن. وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم كما في سنن الترمذي[1]: «لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آيِ القرآن، هي آية الكرسي».

ولقد كانت هذه الآية سيدة آي القرآن، لأنها جامعة لأسماء وصفات إلّهية كثيرة، فهي آية واحدة جُمع فيها ستة عشر اسماً من أسماء الله جل وعلا، وقيل جَمَعت عشرين اسماً ما بين مُظهر ومضمر.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فلقد أشهدك سبحانه لا إلّه إلا الله بالقيومية التي أقام بها السماوات والأرض، فالله سبحانه هو الحي بالحياة الذاتية الأبدية، القيوم: الذي قامت به جميع الأشياء أي: وُجدت واستقام أمرها بقوته وأمره وإرادته سبحانه.

فبه سبحانه قامت، وتقوم الأشياء، وبه مَددها واستقامة أمرها، وبه سبحانه أَخذ كل شيء خلقه وَحُكمه وأحكامه، وجميع الأشياء مُقامة بإقامة الله لها.

ويقال في لغة العرب: قَيّم وقيّام وقيّوم بمعنى واحد، وقد وردت هذه الأسماء على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيتضح لك من خلال الحديث.

فالقيوم هو الذي قامت بقوته وقدرته جميع الأشياء، ومظاهر القيومية كثيرة ظاهرة في جميع الأشياء، فمن ذلك: أن أثر وَمَشْهَدَ القيومية ظاهر فيك أيها الإنسان، فلست أَنت قَيّماً لنفسك، بل مُقام بقوة غيرك. وإذا أنكرت هذا وقلت: إنك قيم نفسك ومقيمها فيقال:

---

(١) في أول كتاب ثواب القرآن (٢٨٨١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا أصابك تعب، أو شُلّ فيك عضو من الأعضاء، فهل أنت الذي أرخيت ذلك العضو، وهل أنت الذي أذهبت عزيمتك وقوتك، أم أنّ هناك مَن كان يشد عليك قوتك، ويحفظ عليك عزيمتك ونشاطك؟؟

وإذا كنت أَنْتَ الذي تُقيم نفسك فأمسك عليك قوتك ومتانة أعضائك، ولا تدع للتعب والانهيار والشلل سبيلاً إليك، ولكنك تعترف بعجزك عن ذلك إلى القيُّوم الذي استقام به أمر الأشياء كلها، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: نحن الذين خلقناهم مِنْ بعد عدم، وأعطيناهم القوة في السمع والبصر والمدارك، وشددنا أسرهم أي: قواهم وعافيتهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أوصافهم وأشكالهم، وهذا أمر ظاهر، إذ تختلف صورة الإنسان من صغره، إلى شبابه، إلى شيخوخته بشكل واضح. وكما يُبدل سبحانه أمثالك في الدنيا، يبدل أمثالك يوم القيامة، مِنْ صورة إلى صورة كما يشاء سبحانه.

فلقد أشهدك سبحانه قيوميته في خلقه لك، وتصرفه فيك سبحانه كما يشاء.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ إذا قام يتهجد من الليل قال ـ أي: حين يفتتح الصلاة في التهجد. وقال بعضهم: قبل أن يصلي. إلا أنّ الأكثرين على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حين يفتتح الصلاة كان يقول ـ: «اللهم ربنا لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات

والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قَيَّام السماوات والأرض ومن فيهن»، وفي رواية أخرى: «أنت قَيِّم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق» أي: واجب الوجود «وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حق» لأنّ الله أمره أن يَشهد لنفسه أنه رسول الله حقاً «والساعة حق. اللهم لَكَ أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، أنت إلٰهي؛ لا إلٰه إلا أنت، ولا إلٰه غيرك»[1].

وهذا حَمْدٌ وثناء على الله سبحانه، وإنّ حمد كل حامد على حسبه، ولقد حمد هذا الحمد سيدنا أحمد، وهو أحمد الحامدين لرب العالمين، فكان حمده صلى الله عليه وآله وسلم حمداً جامعاً وليس فوقه حمد.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) الحديث له طرق وروايات متعددة، ينظر المسند (١/٢٩٨ و٣٠٨)، والبخاري أول كتاب التهجد (١١٢٠)، ومسلم في كتاب الصلاة (٧٦٩)، وأبو داود (٧٧١)، والترمذي (٣٤١٤)، والنسائي (٣/٢٠٩)، وابن ماجه (١٣٥٥)، وجامع الأصول (٢٢١٢) والله ولي التوفيق.

المحاضرة السادسة

حول العلم

بـ لا إلّه إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إنّ مِنْ أعظم العلوم التي جاء بها القرآن الكريم، هو العلم بـ لا إلّه إلا الله، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهكذا وجّه الله تعالى الأمر لأفضل الناس، وسيد الناس عليه الصلاة والسلام، وأمره أنْ يُعلِّم الناس لا إلّه إلا الله.

وإنّ العلم بـ لا إلّه إلا الله هو أصل العلوم، وعنه تتفرع جميع العلوم، وهو العلم الذي لا نهاية ولا حد له.

والله تعالى يقول لعباده دائماً: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فمهما علمت مِنْ معاني لا إلّه إلا الله، فإنّ الله تعالى يقول لك: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنّ هذا علم لا نهاية له ولا حد له.

﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ أي: علماً جازماً قاطعاً ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وإنّ العلم بـ لا إلّه إلا الله هو أول أبواب المعرفة برب العالمين، وهو أصل الإيمان، وَمَنْ حصل عليه حصل على الإيمان كله، لأنّ لا إلّه إلا الله هي أصل أصول الإيمان، وهي نواة الإيمان، وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان.

وإنّ العلم بـ لا إلّه إلا الله هو العلم الأول، وهو العلم الآخر، وهو العلم الذي لا نهاية له.

وإنّ مَنْ عَرفَ أنه لا إلّه إلا الله فقد عرف الله حقاً، لأن الله سبحانه لم يكلف العباد أن يتعرفوا إلى حقيقة ذاته سبحانه، ولم يقل فاعلم ما هي حقيقة الله، أو مَنْ هو الله، لأنّ حقيقة ذات الحق لا تُدرك، ولا يمكن للمخلوق أن يحيط علماً بحقيقة ربِّ العالمين، ولا أَنْ يعلم كُنْهَ ذاته سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: احذروا أَنْ تبحثوا عن حقيقة ذات الله سبحانه.

وإنما أمر سبحانه العباد أَنْ يعرفوه بصفاته، ومقام ألوهيته، فقال سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فأحال سبحانه العباد إلى العلم والتعرف إلى صفات الحق ووحدانيته سبحانه وتعالى، ولا يمكن للمخلوق أَنْ يحيط علماً بحقيقة ذات الله، ومعرفة كنهه سبحانه، لأن إدراك المخلوق محدود مقيد، فكيف يُمكنه أن يحيط بمن لا نهاية له سبحانه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: لا تدركه الأبصار العينية، ولا البصائر القلبية، ولا يمكن أَنْ تدرك كُنه حقيقة رب العالمين سبحانه وتعالى. وهو سبحانه يدرك الأبصار إدراك الكنه الحقيقي.

وقد **يقال**: وكيف يرى المؤمنون ربهم في الجنة؟!.

فيقال: نعم إنّهم يرونه سبحانه، ولكن لا يُدركونه، لأنَّهُ لا يلزم من الرؤيا إدراك الحقيقة والكنه.

ولما سئل سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما عن رؤية رب العالمين؟ قال: نعم.

فقيل له: وكيف وهو سبحانه لا تدركه الأبصار؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ويحك يا هذا أما ترى السماء؟

قال: نعم.

قال: هل أدركت حقيقتها؟ قال: لا.

قال: هل أحاط بصرك بها؟ قال: لا.

قال: فالله أعلى وأجل. اهـ.

فكما أنك ترى السماء، وترى الشمس، ولكن لا يلزم من رؤيتك للشمس أو السماء أن تُحيط بصراً بالسماء، أو تدرك حقيقتها، وكذلك الشمس.

فالمؤمنون يرون ربهم في الجنة، لكن بلا إدراك إحاطة، أو إدراك كُنه، وإنما برؤية بصرية على حَسب مراتبهم في الإيمان.

وإنّ قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: اعلم وفكر في هذا وتدبر، فإنك تزداد علماً بـ لا إلّه إلا الله، والحق سبحانه دائماً يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره»[1] سبحانه وتعالى. أي:

---

(١) عزاه في الفتح الكبير إلى أبي الشيخ عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تُفكر في معرفة حقيقة وكنه رب العالمين، وَمَنْ سلك هذا فقد سلك باباً من الضلال، لأنه لا يُمكنه أَنْ يصل إلى حقيقة في هذا أبداً.

ولو تفكرت وتأملت أيها العاقل لرأيت أنك عاجز عن إدراك كنه حقيقتك الإنسانية، فكيف يُمكنك إدراك حقيقة ربك وخالقك؟؟!!

فأنت أيها الإنسان لقد عرفت نفسك بأوصافها ولم تعرفها بحقيقتها، لأنك لو سئلت مَنْ أنت؟ بروحك أم بجسمك؟ فالحق أنّك بروحك، وإنّ جسمك تابع لروحك، فما هي حقيقة روحك التي حَيِيَ بها جسمك؟

فأنت تجهل حقيقة روحك التي هي حقيقتك الإنسانية، فَمَن أنت أيها الإنسان؟ لقد عجزت عن إدراك حقيقتك فكيف تدرك حقيقة ربك؟؟!!!.

أما روحك فهي مِن عالم الأمر الرباني: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ولا يمكن إدراك حقيقتها إلا لِمَن أطلعه الله، كالأنبياء والرسل عليهم السلام.

ويمكن للإنسان أَنْ يعرف شيئاً عن حقيقة روحه يوم القيامة، أما أَنْ يعرف حقيقة رَبِّ العالمين فلا يمكن أبد الآبدين.

وإن العلم بـ لا إلّه إلا الله هي نواة الإيمان الأولى، ومعناها: لا واجب الوجود؛ الذي هو الفرد المعبود؛ والصَمَدُ الذي ليس بوالد ولا مولود؛ إلا الله تعالى.

لا واجب الوجود: فليس هناك واجب الوجود مِنْ ذاته بالوجود الواجب الذي لا أول له ولا نهاية له إلا الله تعالى.

الفرد المعبود: الذي هو حقاً يجب أن يُعبد، لأنه واجب الوجود وحده، وإنّ جميع الموجودات إنّما وجدت بإيجاد الله تعالى.

والصمد: أي: الغني بذاته عن غيره، وغيره محتاج إليه.

وهو ليس بوالد ولا مولود، وهذا هو قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وهذه السورة هي تفسير وبيان قوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولهذا تسمى سورة الإخلاص. أي: إخلاص توحيدك لله. وتسمى سورة التجريد. أي: تجريد التوحيد عن الشرك والشّبَه.

[وسيأتي البحث في سورة الإخلاص في محاضرات لاحقة إن شاء الله تعالى].

أما كلمة لا إلّه إلا الله فلها فضائل وأسرار وأنوار، فهي كلمة التقوى، وكلمة التوحيد، وكلمة الإيمان، وكلمة الأمان، وكلمة الإسلام. وقد كتبها سبحانه على جميع ذرات الموجودات، وعلى صفحات العرش، وعلى جوانب الكرسي، وعلى أطراف السماء والأرض، وعلى أوراق الأشجار، وأمواج البحار، وعلى كل شيء موجود.

وإذا كنت أيها الإنسان لا تقرؤها نصاً فاقرأها حالاً وَدِلالة، لأنّ كل كتابة تحتاج إلى علم خاص لقراءتها.

وقد خصص سبحانه قلب المؤمن على سائر الموجودات؛ بأن

كتب سبحانه بنفسه على قلب المؤمن لا إلّه إلا الله، ونال المؤمن بهذا الشرف الأكبر، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وإنَّ أول الإيمان وأصل الإيمان هو لا إلّه إلا الله، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها» أي: أولها وأصلها «قول: لا إلّه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1]. وإنّ الشيء الذي يَكتبه الله لا يُمحىٰ أبداً، فليستبشر المؤمن أنّ الله رب العالمين هو الذي كتب في قلبه لا إلّه إلا الله وما كان بكتابة الله فلا يُمحى. ونسأل الله ذلك من فضله.

فموضع لا إلّه إلا الله من الإنسان هو القلب، وهي النواة الأولى التي نزلت في قلب المؤمن، كما قال سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثين:

قال: أما أحدهما فرأيته، وأما الآخر فلم أره وأنتظره.

حدثنا: «أنّ الأمانة ـ أي: الإيمان ـ نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من الكتاب، وعلموا من السنة»[2] أي: إن الإيمان نزل في أصل القلوب ثم نما وزاد وقوي بالكتاب والسنة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (٩)، ومسلم في كتاب الإيمان (٣٥)، وأبو داود (٤٦٧٦)، وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة... (١٤٣).

وإن كلمة لا إلّه إلا الله تطالب قائلها أن يعمل بمعناها ومقتضاها، وهو أَنْ يعبد الله حقاً. وإنّ مَنْ عَبَدَ الله كما أمره الله فهو يُحقق معنى قوله: لا إلّه إلا الله، ويطبق مقتضاها عليه، فعندئذ يقوى إيمانه ويزداد، وإنّ ما يُقوي الإيمان في القلب الإكثار من كلمة: لا إلّه إلا الله، وإلى هذا نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الإيمان لَيَخْلَق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»[1] أي: إن مَنْ لم يتعهد إيمانه بالتقوية والتجديد فإنّ الإيمان في قلبه مُعرض للنقصان والبلى.

وأما تجديد الإيمان فهو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جددوا إيمانكم» ليس المراد أن تأتوا بإيمان جديد، وإنما أن تتعهدوا إيمانكم بالجدة والقوة.

قالوا: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟؟

قال: «أكثروا من قول: لا إلّه إلا الله» رواه الإمام أحمد[2].

فمن أكثر من قول: لا إلّه إلا الله فقد أعاد الإيمان في قلبه إلى جِدته وقوته وحسنه وكماله.

وروى الإمام الترمذي في سننه[3]: «ما قال عبد: لا إلّه إلا الله

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، ينظر مجمع الزوائد (١/٥٢)، والحاكم في المستدرك (١/٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) المسند (٢/٣٥٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مجمع الزوائد (١٠/٨٤) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

(٣) في كتاب الدعوات، باب /١٣٧/ (٣٥٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قط مُخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء؛ حتى يُفْضِيَ إلى العرش؛ ما اجْتُنِبَتِ الكبائر». أي: أن لا إلّه إلا الله تَشفع لقائلها عند الله؛ إذا كان قائلها مخلصاً فيها، وما لم يَحجبها حُجُبٌ من الكبائر.

وروى البزار في مسنده، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ لله تبارك وتعالى عموداً من نور، فإذا قال العبد: لا إلّه إلا الله، اهتز ذلك العمود. فيقول الله تبارك وتعالى: اسكن. فيقول: كيف أسكن ولم تغفر لقائلها؟ فيقول: إني قد غفرت له؛ فيسكن عند ذلك»(١).

وهذا لأن لا إلّه إلا الله هي نور السماوات والأرض، وهي نور العرش، فمن قال: لا إلّه إلا الله، اتصل نورها بذلك العمود النوراني الذي هو بين يدي العرش، ولم يسكن حتى يُغفر لقائل: لا إلّه إلا الله.

وإن المؤمن يترقى كلما ازداد علماً بـ لا إلّه إلا الله، لأن الله تعالى دائماً يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حتى في البرزخ، والحشر، وفي الجنة، فهو سبحانه أزلاً وأبداً يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وإن علوم لا إلّه إلا الله لا تتناهى، وإنّ أهل الجنة يترقون كلما ازدادوا علماً بها. وهذا لأنّ معنى: لا إلّه إلا الله تتعلق بالله سبحانه الذي لا حد له ولا نهاية، وإنّ جميع العلوم مِنْ حلال وحرام وأحكام ومعاملات إنما تنتهي بانتهاء عالم الدنيا. أما العلم بـ لا إلّه إلا الله فهو باق ببقاء الله سبحانه الباقي.

---

(١) ينظر مجمع الزوائد (١٠/ ٨٢).

هذا هو العلم الذي يَصحب المؤمن ويدوم معه، ويخلد إلى ما لا نهاية.

وقد أمر سبحانه بطلب الزيادة من هذا العلم، وهو العلم بـ لا إلّه إلا الله، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: علماً بك.

ومن **فضائل** كلمة لا إلّه إلا الله: نيل الشفاعة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله مَنْ أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

قال: «يا أبا هريرة لقد ظننت ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لِمَا رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلّه إلا الله خالصاً من قلبه ـ أو نفسه ـ»[(١)]. أي: قال: لا إلّه إلا الله وعمل بمقتضاها. أي: عَبَدَ الله حق العبادة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يُكفر بالله جهراً»[(٢)] وذلك من كلامهم في ربهم. أي: يوسوس لأحدهم شيطانه الإنسي أو الجني ويقول له: مَنْ هُو الله؟ وأين الله؟ وهكذا من الوساوس الضّالة حتى يكفر أحدهم. ومن كثرت عليه الوساوس فليكثر من قول: لا إلّه إلا الله. ومن لم ير في نفسه انشراحاً في قلبه للعبادة؛ فليكثر من قول: لا إلّه إلا الله. وَمَنِ اعترته الوحشة الفكرية أو القلبية؛ فليكثر من قول: لا إلّه إلا الله.

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (٩٩).

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (١/ ٨١) إلى الطبراني في الأوسط، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنّ كلمة لا إلّه إلا الله سبب الإيمان، ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من المؤمن»[١].

وأعظم الخلق إيماناً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو أكرم الكرماء على الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[٢].

ونظر سيدنا عمر رضي الله عنه يوماً إلى البيت وإلى الكعبة فقال: (ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك)[٣] وما ذلك إلا للإيمان الذي وضعه الله في قلب المؤمن.

فليحفظ المؤمن كرامة الله عليه، وهذا النور الذي أيده الله به، وليفرح به وليستبشر به، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: قل يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قل للعباد المؤمنين: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ عليكم بالإيمان، كما قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أنْ بَعث فيكم الرحمة العامة وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) كما في كنز العمال (١/١٤٥) حديث رقم /٧١٢/ وعزاه للطبراني عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) طرف من حديث رواه الترمذي في أول كتاب المناقب (٣٦٢٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) كما في سنن الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٣).

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من أموال الدنيا وحطامها.

وقد أخبر سبحانه أنه يعطي أهل الجنة بسبب إيمانهم، يعطيهم عطاء بغير حساب، لأنّ قيمة الإيمان لا تدخل تحت حساب الحاسبين.

فليحمد المؤمن ربه على نعمة الإيمان التي أنعم بها عليه، وأن جعله من أمة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، وليسأل ربه أن يميته على الإيمان، ويبعثه على الإيمان، ليكون من أهل الأمان.

ونرى أهل الدنيا يفرح أحدهم إذا رزقه الله شيئاً من المال في يومه، وما ذلك إلا لجهله وحماقته، لأن فرحه الحقيقي يجب أن يكون إذا أصبح على الإيمان، أو أمسى على الإيمان، وتقوى الله سبحانه.

وَمَن حصل على ذرة مِن الإيمان، أو قَدْر حبة خردل من الإيمان؛ ومات على ذلك ـ وإن دخل جهنم مؤقتاً لذنوب ارتكبها ولم يتب منها ثم دخل الجنة ـ فإنه ينال قدر الدنيا وعشرة أمثالها[1]، بما فيها من ذهب وفضة ويقال له: طَأْ برجلك فوق الذهب والفضة في الجنة، لأن رِجْلَ المؤمن أغلى من الذهب والفضة عند الله تعالى.

وإذا كان هذا أقل الناس إيماناً، فما بالك بمن إيمانه كالجبال الرواسي، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من أمتي رجالاً الإيمان في قلوبهم أقوى من الجبال»، وقال صلى الله عليه وآله

---

(١) ينظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلةً (١٨٨ و١٨٩)، والترغيب للحافظ المنذري.

وسلم: «ذاق طعم الإيمان من: رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً»[1] فالإيمان له طعم يتذوقه القلب، إذا كان صاحب القلب صاحب ذوق، أما إذا كان القلب مُعكراً ومكدراً فأنى له أن يتذوق حلاوة الإيمان. ومثاله كمن تغير مزاجه بسبب مرض، وراح يجد للماء الزلال مَراراً في لسانه، وما ذاك إلا لتغير مزاجه وفساد ذوقه لا لمرارة الماء.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[2]. ومن لم يتحقق بهذه الخصال لا يجد حلاوة الإيمان، ومن لم يجد حلاوة الإيمان فليرجع إلى نفسه وليبحث عن السبب، فربما كان المال أحب إليه من الله ورسوله، أو لربما أحب أحداً لماله أو جاهه أو مكانته وهكذا، فإنّ مثل هذه الأمور تحجب القلب وتمنعه عن تذوق حلاوة الإيمان.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/٢٠٨) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي... (٣٤) عن سيدنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب الإيمان /١٦/ ومسلم في كتاب الإيمان /٤٣/ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

نور الإيمان

إنّ للإيمان في القلوب نوراً أقوى من نور الشمس والقمر، ويظهر جلياً في العوالم الأخرى، ولو ظهر نور الإيمان للعيان في هذه الدار لما أنكر منكر أو جحد جاحد، لكن هذا العالم عالم تكليف واختبار واختيار، والأمور فيه محجوبة، وإنما خوطبت العقول للتعقل والتفكر. والتكليف يكون بالأمور الغيبية، إلا أنّ للعقل فيها مجالاً وبحثاً.

وقد جاءت التكاليف الشرعية تُكلف الإنسان أنْ يؤمن بأمور لا يراها بالعين، ولكن العقل والقلب يَشهد بصحتها، وجاء النقل عن ربّ العالمين يُلزم الإيمان بها، ودلت الآيات عليها، وأخبر عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه رأى جميع ما هنالك بعينه، وأخبر عما رأى، فكان مِن المحتم على العقلاء أن يصدقوه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع ما أخبر عنه، فإن كنت أيها العاقل ما رأيت الجنة والنار فقد رآهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كنت ما رأيت عالم البرزخ وما هنالك مِنْ سدرة المنتهى وغيرها مِنْ عوالم، فقد رأى جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كنت ما رأيت الله تعالى بعيني بصرك فقد رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أفما يكفيك أنَّ أصدقَ العالمين وأعلمهم وأزكاهم وهو المعصوم عن الخطأ والخطيئة، أما يكفيك أنه قال لك: آمن، فقد صَدقتك أيها الإنسان فيما أخبرتك عنه، وقد رأيت جميع ذلك؟؟

وقد ورد في الأحاديث ما بين مرفوع وموقوف ـ والوقف في مثل هذا له حكم الرفع لأنه لا مجال للرأي فيه ـ ورد: أنّ أهل السماوات العلى يستضيئون بأنوار قلوب المؤمنين، كما يستضيء أهل الأرض بأنوار الكواكب في السماء، وهذا لأنّ أنوار الإيمان في قلوب المؤمنين تظهر جلية في عالم الملكوت. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءةً»[1].

وإن شمس هذه الأقمار والكواكب إنما هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله أن يزيدنا إيماناً ونوراً.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في أول كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنّة (٢٨٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

المحاضرة السابعة

حول العلم

بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، تقدم الكلام أنّ الشهادة بـ لا إلّه إلا الله تتضمن حقائق الإيمان ومراتبه، وتتضمن ما يتطلبه الإيمان من حقوق وواجبات.

ولقد بيّن سبحانه أنه ما خلق العالم إلا ليُعْلَم أنّه لا إلّه إلا الله، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما مفسراً قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: أي: ليعرفونِ. وهذا لأنهم إذا عرفوه عبدوه، وأما إذا لم يعرفوه فكيف يعبدونه؟! فالأصل هو المعرفة بـ لا إلّه إلا الله والإيمان بها.

وَمَنْ عرف أنه لا إلّه إلا الله عرف أنّ لله حقاً عليه، وهو العبادة فعبد الله تعالى. ومما يدل على هذا، أي: على قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

أي: ليعرفونِ فيعبدوني، ما جاء في الحديث المتفق عليه[1]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بَعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «فليكنْ أول ما تدعوهم إليه أن يُوحِّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا الله فأعلِمْهُم أن الله فرض عليهم خمس صلوات».

وجاء في رواية ثانية[2]: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم الزكاة: تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» الحديث.

فهم إذا عرفوا كلمة لا إلّه إلا الله، وآمنوا بها، وفهموا معناها، عرفوا الله جل وعلا. أي: عرفوا أوّل ما يجب أن يعرفوه، وعرفوا الواجب عليهم، ثم تزداد معرفتهم وإيمانهم برب العالمين. فإنّ المعرفة برب العالمين لها أول وليس لها نهاية.

واعلم أنّ مَنْ عرف أن الله هو رب العالمين عرف أنَّ الله إلّهٌ حقاً يُعبد، كما جاء في الصحيحين[3]، عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كنت رِدْفَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حمارٍ ـ أي: رديفاً وراءه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال لي: «يا معاذ»

---

(١) البخاري في أول كتاب التوحيد (٧٣٧٢)، ومسلم كتاب الإيمان (١٩) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس.. (١٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان (١٩).

(٣) البخاري في كتاب الجهاد، باب اسم الفرس (٢٨٥٦)، ومسلم في كتاب الإيمان (٣٠).

فقلت: لبيك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمضى ساعة ـ أي: مدة ـ ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمضى ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» فقلت: لبيك وسعديك يا رسول الله ـ وفي هذا استحضار لِكُلِّيَّةِ معاذ، بعقله وقلبه وروحه ـ فقال: «أتدري ما حق الله على عباده»؟ قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق الله على عباده أَنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ـ أي: وهذا حق معقول ومحكم ومشروع، وذلك لأنّ الله هو الرب الخالق والمُمِدّ، فيجب على العباد أن يعبدوه حقاً ـ.

ثم مضى ساعة، وقال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله.

قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق العباد على الله أن لا يعذبهم» وهذا حق تفَضُّلِيٌّ، تفضل الله به على عباده، وحَقٌّ على نفسه لعباده المؤمنين إذا عبدوه ولم يُشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم.

واعلم أنّ الله تعالى أمر العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله مع شقيقتها الملازمة لها وهي: محمد رسول الله، فهي لا تنفك عن قولك لا إلّه إلا الله، وهي ملازمة لها، وذلك لأن شهادتك أن لا إلّه إلا الله أي: أن الله هو الإلّه الحق الذي يجب أن يُعبد، وإنّ شأن الإلّه الحق أن يُعرِّف عباده كيف يَعبدونه، ولمعرفة كيفية عبادته، اقتضى هذا أن يُرسل رسولاً لعباده فيعرف العباد كيف يعبدونه سبحانه، لأن الإنسان

مِنْ نفسه لا يعرف كيف يعبد الله تعالى. ولو تُرِكَ الإنسان ووكل إلى عقله في عبادة الله وحمده والثناء عليه؛ فربما يأتي بكلام يظنه مدحاً وثناءً في حق الله ولكنه ذم ونقص. كرجل جاهل أراد أن يمدح الله فقال: ما أعظمك يا رب وأكرمك فأنت كالبحر، وما أقواك يا رب فأنت كالبطل. وما هذا إلا تشبيه للخالق بمخلوقاته سبحانه وتعالى عما يصفون.

وإنما يجب أن يُمدح ويحمد سبحانه بما ارتضاه هو لنفسه، وبما عَلَّم عباده على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: ولا تبتدعوا شيئاً من أنفسكم، بل ادْعُوا الله بأسمائه وصفاته التي أخبركم عنها في القرآن، وعلى لسان سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى هذا فإنّ مِنْ حكمة الإلّه الحق أن يُرسل رسولاً إلى الخلق، ولا يتركهم عبثاً، بل يدلّهم على مصالح دنياهم وآخرتهم. ولابد إذاً مِن رسول يأتي من عند الله.

وبذلك تعلم أنّ شهادتك أنّ سيدنا محمداً رسول الله ملازمة كل الملازمة لقولك: لا إلّه إلا الله وهي مقتضاها.

واعلم أن لا إلّه إلا الله هي أصل الإيمان، وعنها تتفرع جميع شُعب الإيمان. وإنّ مقر الإيمان هو القلب، وهو الإيمان الاعتقادي التصديقي، ثم ينشأ عنه الإيمان العملي، وهي الأوامر الإلّهية، والتعبدات الفعلية والقولية كالتسبيح والتحميد والتكبير.

كما يتفرع عن لا إلّه إلا الله الإيمان الأدبي الخلقي كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحياء شعبة من الإيمان»[١].

---

(١) تقدم تخريجه ص /١٣٠/.

حقائق الإيمان

اِعلم أنّ للإيمان حقائق ثابتة، وليس الإيمان تخيلات أو تصورات أو نظريات وآراء. ومن هذا[1] لَمَّا مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حارثة الأنصاري رضي الله عنه وقال له: «كيف أصبحت يا حارثة»؟

قال: أصبحت مؤمناً حقاً.

قال: «انظر ماذا تقول! فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ أي: إن الإيمان أمر حق، وله حقيقة، فما هي الحقيقة التي تحققت بها وانتهيت إليها، حتى قلت: إنك مؤمن حقاً؟.

فقال: يا رسول الله عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا ـ العزوف عن الشيء هو الإعراض عنه مع الكره له ـ فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ـ أي: أن قلبه زهد في الدنيا، وتوجه إلى الله تعالى فصار في حال كأنه ينظر إلى عرش الرحمن ـ وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغَوْنَ ـ أي: يصيحون ـ فيها. وفي رواية: يعذبون فيها.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عرفت فالْزَمْ» أي: عرفت هذه الحقيقة وانتهيت إليها فالزمها.

---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (١/٥٧) إلى الطبراني والبزار.

ويقول سبحانه في وصف أهل الإيمان الحق الذين تحققوا بالإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ـ٤].

حقيقة الإيمان في القلب

إن الإيمان بالنسبة للإنسان المتصف به إنما هو اعتقاد وتصديق، وقول وعمل بمقتضى الإيمان بـ لا إلّه إلا الله.

أما الشيء الذي حملك على الإيمان فهو العلم بـ لا إلّه إلا الله، العلم الجازم القاطع، ولما اعتقدت هذا وأيقنت به حَلّ في قلبك نور من عند الله تعالى، وهو نور الإيمان.

فحقيقة الإيمان في القلوب نور يُظهر الأمور، ويُعرف الحقائق، فيقول صاحب هذا القلب: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولقد أشرق هذا النور على قلب المؤمن، ولم يُشرق على قلب الكافر لأنّه حجب قلبه عن ربه، لأنّ نور الله ظاهر في جميع المظاهر، ومشهود في كل المشاهد. لذلك فإنّ هناك قلوباً وعقولاً نظرت وأيقنت، وأنصفت فشهدت لا إلّه إلا الله. وهناك قلوب تعامت فعميت.

وإليك مثالاً تقريبي للعقول للتمثيل والتشبيه: إنّ الشمس ونورها المنتشر على الموجودات ظاهر لمن رفع حاجباه عن عينيه، فنظر ورأى نور الشمس، ولكنك إذا تعاميت بأن أسدلت حاجب عينك، ورحت تُنكر وجود الشمس ونورها، فيقال لك عندئذ: لقد تعاميت فعميت. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بيّنا لهم، وهديناهم للإيمان ومعرفة لا إلّه إلا الله بالشواهد الكونية والنبوية التي جاء بها رسولهم، لكنهم أعرضوا وتعاموا حتى عموا، فلما استحبوا العمى أعطاهم ما أحبوا وحكم عليهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

هذا لأن مَنْ تعامى عمي، ومن تجنن جُن، ومن تبصر فقد أبصر، ومن تعقل فقد عقل.

ويقول سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وإذا امتلأ القلب بنور لا إلّه إلا الله أفاض على المدارك والجوارح والذرات.

ويقول سبحانه في نور الإيمان: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن بالله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾، وإن أعظم قلب أشرق فيه نور الله هو قلب سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي:

في قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعن قلبه الشريف أخذت القلوب، واستمدت نور الإيمان، لأنه القلب الأول الذي استنار بنور الله سبحانه.

وقد جاء الحديث يبين أنّ الإيمان في القلب نور مشرق من الله تعالى على القلوب: روى الترمذي، وأحمد[1]، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الله خلق الخلق في ظلمة» أي: ظلمة الهوى والنفس والدنيا «ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل» فلم يتركهم سبحانه في الظلمة، بل ألقى عليهم بنور من عنده، فمن تعرض لذلك النور استنار بنور الله، واهتدى إلى الله تعالى. ومن أعرض عن هذا النور بقي في الظلمة والضلال.

ومثال هذا كمن أظلم عليه الليل؛ ورأى نوراً، لكنه استدار ولم يتوجه إليه، فإنه يبقى في الظلمة، لأنَّ من شأن النور أن يُنور مَنْ تعرض له، أو توجه إليه. فمن أراد أن يستنير بنور الله فعليه أن يتوجه إلى مهبط ذلك النور الإلٓهي ومشرقه، وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله فيه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] أي: منيراً للعقول والقلوب، والأرواح والأشباح، والعوالم كلها.

---

(١) الترمذي في آخر كتاب الإيمان (٢٦٤٤)، والمسند (٢/١٧٦).

وروى أبو يعلى[1]، عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: ألا يقوم أحدكم فيصلي أربع ركعات، ثم يدعو بما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو به في صلاته ـ أي: في النوافل ـ.

قيل: وماذا كان يدعو؟

قال: كان صلى الله عليه وآله وسلم: ـ أي: من جملة ما يدعو به في الصلاة ـ يقول: «تَمَّ نورك فهديْتَ فلك الحمد، عظم حلمك فعفوت فلك الحمد، بسطت يدك بالعطاء فأعطيت فلك الحمد، ربنا وجهك أكرم الوجوه وجاهك أعظم الجاه، وعَطِيَّتُكَ أفضل العطية وأهناها.

تطاع ربنا فتشكر، وتعصى فتغفر» أي: إن تاب العاصي «تكشف الضر، وتجيب المضطر، وتشفي السقيم، وتغفر الذنب، وتقبل توبة التائب، ولا يجزي بآلائك أحد، ولا يبلغ مِدْحتك قول قائل» أي: لا أحد يحصي ثناء عليك.

«تَمَّ نورك فهديت فلك الحمد» أي: تم نورك الذي أفضته على القلوب فَهُدِيَتْ به إليك فعرفوك «فلك الحمد» يا رب.

أما الكافر فقد عرف الحق وأعرض ولم يعترف به كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] أي: ولكنهم أعرضوا.

فليستبشر المؤمن أنّ قلبه مَشرق من مشارق أنوار رب العالمين، وإن قلب المؤمن مِرآة انعكس فيها نور الله تعالى، وإن قلبه مخزن

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/١٥٨).

المعرفة برب العالمين، وإنك أيها المؤمن موضع شرف خدمة رَبّ العالمين أي: عبادته سبحانه وتعالى.

الإيمان به الأمان

لأن كلمة لا إلّه إلا الله، هي أصل الإيمان والأمان، وإن الأمان يكون على قدر الإيمان وقوته.

كما أن لا إلّه إلا الله بها أمان الكائنات كلها، فمادامت لا إلّه إلا الله تقال على وجه الأرض ـ ولو متمثلة بواحد من خلق الله ـ فالعالم في أمان، ولا يخرب ولا تقوم الساعة حتى لا يبقى أثر لا إلّه إلا الله في الأرض، ولا في أحد من خلق الله، حينذاك تقوم الساعة، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في رواية المسند[1]: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إلّه إلا الله» فما دام هناك ولو واحدٌ مِن خلق الله يقول: لا إلّه إلا الله فالعالم باق بسماواته وأرضه، حتى إذا لم يبق أحد يقولها خرب العالم وقامت الساعة.

ومن هنا تعلم أنّ قِوَامَ السماوات والأرض بـ لا إلّه إلا الله، كما أنّ لا إلّه إلا الله أمان للمؤمن من الطغيان والكفران، ومن الأذى وضرر الشيطان، كما ورد في الحديث المتفق عليه[2]: «من

---

(١) (٢/٢٦٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب بدء الخلق باب /١١/ (٣٢٩٣)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل (٢٦٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علي كل شيء قدير. في يوم مائة مرة! كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به؛ إلا أحد عمل أكثر من ذلك» أي: زاد عليه في العدد.

وروى الترمذي في سننه[1]، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قال في دبر صلاة الفجر وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم» أي: قبل أن يتحرك من جِلسته بعد فراغه من الصلاة «لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير. عشر مرات: كُتبت له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورُفع له عشر درجات، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه» أي: مما تكرهه نفسه «وحُرس من الشيطان» الحديث.

وذلك لأن لا إلّه إلا الله لها نور وقوة، ولها معاني، وإنّ للمعاني تأثيراً كبيراً، وإذا أنكر أحد تأثير المعاني فقل له: أنت حمار. فتراه تغير وغضب، فقل له: ليس للكلام تأثير على زعمك، فَلِمَ تغير لونك وغضبت؟!!. وتراه إذا قلت له: أنت رجل عاقل ذكي. تراه ينشرح لذلك ويرتاح. وما هذا إلا لأَن للكلام معانِيَ لها أثر كبير ظاهر. فلا تُنكر ما ورد عن الشارع في أسرار بعض الكلام وخصائصه.

---

(١) في كتاب الدعوات باب /٦٤/ (٣٤٧٠).

* كلمة لا إلّه إلا الله أمان مِنْ وحشة الموت، ومن وحشة القبر :

روى الطبراني[1]، عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة عند الموت، ولا عند القبر».

وفي رواية[2]: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم، ولا منشرهم، وكأني أنظر إلى أهل لا إلّه إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

* كلمة لا إلّه إلا الله أمان لصاحبها على الصراط :

وذلك لَمَّا يمر المؤمنون على الصراط، يمرون بأمان، ويتفاوت الأمان بتفاوت الإيمان وقوته، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال: لا إلّه إلا الله مُخلصاً دخل الجنة».

قيل: وما إخلاصها؟

قال: «أن تحجزه عن محارم الله»[3].

وأما المؤمن الذي ارتكب المخالفات، ومات ولم يتب منها فهو في أمان، إلا أنه تعتريه الشدائد والمخاوف، على حسب ذنوبه؛ إن لم يغفر الله له، أو يعف عنه.

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/٨٣)، وهو عند البيهقي في الشعب (١٠٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (١٠/٨٢) إلى الطبراني، وينظر في شعب الإيمان (١/١١١) حديث رقم (١٠٠).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط والكبير، مجمع الزائد (١/١٨) عن سيدنا زيد ابن أرقم رضي الله عنه.

ومن قال: لا إلّه إلا الله بلسانه ولم يؤمن بها بقلبه كما هو شأن المنافقين: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة:٤١] فإنّ كلمة لا إلّه إلا الله تعطيهم الأمان في أول خطوة يمشونها على الصراط، وتضيء لهم، ثم ينطفئ نورهم، كما أخبر سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ إلى قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ أي: تمهلوا ولا تتعجلوا بالسير حتى نسير على نوركم ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد:١٢-١٣] أي: ارجعوا إلى الدنيا وآمنوا حق الإيمان، وأخلصوا لله في إيمانكم حتى يعطيكم الله نوراً. وأنى لهم الرجوع إلى الدنيا؛ إلا أن هذا من باب التهكم بهم.

وروى أبو نعيم وغيره(١)، أن الإمام علياً الرضا رضي الله عنه لما قَدِم نيسابور، خرج علماؤها وصلحاؤها لاستقباله، وطلبوا منه أن يحدثهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال لهم: حدثني أبي الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه، قال حدثني أبي الإمام جعفر الصادق، قال حدثني أبي محمد الباقر، قال حدثني أبي زين العابدين علي رضي الله عنه، قال حدثني أبي الإمام الحسين رضي الله عنه، قال حدثني أبي الإمام علي رضي الله عنه، قال حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) أورده أبو نعيم في الحلية (٣/١٩٢) في حديث طويل، وعزاه في الجامع الصغير إلى الشيرازي، ينظر فيض القدير (٤/٤٨٩) وعزاه في كنز العمال (١/٥٢) إلى ابن عساكر.

قال: «حدثني جبريل عليه السلام، عن رب العزة أنه قال: لا إلٓه إلا الله حِصْنِي، فمن قال: لا إلٓه إلا الله دخل حصني، ومن دخل حصني أَمِنَ عذابي».

وهذا كما دلت عليه الأحاديث السابقة أنه من قال: «لا إلٓه إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة» وذلك لأنّ الأحاديث يفسر بعضها بعضاً.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة الثامنة

حول الشواهد والدلائل

على أنه: لا إله إلا اللّٰه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

*** العالم كله شاهد على أنه لا إلّه إلا الله:**

إن مِنْ جملة ما جاء في القرآن الكريم من علوم، إنما هو علم البرهان والحجة والبيان، وذلك أنّ الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أنواعاً من الأدلة على أنّ الله تعالى هو حق، بمعنى: أنّه واجب الوجود، وأنه سبحانه واحد، بمعنى: أنه لا شريك له، وأنه متصف بالكمالات المطلقة، ومنزه عن الآفات، كما ذكر سبحانه الأدلة والبراهين القاطعة على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله حقاً لا يحتمل غير ذلك.

كما ذكر القرآن الكريم الأدلة على أنّ الله تعالى قادر على إعادة الخلق وجمع الناس ليوم لا ريب فيه، بأدلة معقولة محكمة مبرمة لا تقبل النقض.

وهكذا ذكر سبحانه أنواعاً من الأدلة على حَقِّيَّة قضايا الإيمان، حتى تزيد المؤمن إيماناً، والموقن يقيناً، وتزول شبهة المشكِّك والمنكر، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: وجاهدهم بالقرآن وحججه وأدلته

جهاداً كبيراً. فسمى الجهاد بالقرآن وأدلته جهاداً كبيراً، وذلك لأنّ أدلة القرآن أدلة معقولة محكمة، وهي حجة الله البالغة، التي لقنها للرسل عليهم السلام، وجمعها كلها لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإنّ حجج الله لا تُنقض ولا ترد.

ولقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أنّ جميع العوالم بأنواعها هي شواهد على أنّ الله تعالى هو حق، وهي دلائل على أن الله حق، وأنه لا إلّه إلا الله.

والعالم: هو ما يعلم به الشيء، وهو علامة تدل على الشيء، فالعوالم كلها دلائل على صانعها وخالقها وهو الله سبحانه.

ومن نظر إلى العالم عَلِمَ أنّ له خالقاً كبيراً، ورباً عظيماً.

فلقد بين القرآن أنّ العالم كله شاهد أنه لا إلّه إلا الله، وأن العالم كله دليل على أنه لا إلّه إلا الله. وهناك فرق بين الشاهد والدليل بيّنه القرآن الكريم.

فلقد بَيَّن القرآن الكريم أنّ العالم كله شاهد يَشهد بأنْ لا إلّه إلا الله، إذ إنه سبحانه خَلق المخلوقات كلها، وفطرها على معرفته، والعلمِ بأنّه لا إلّه إلا الله. فلو أنك استنطقت العالم كله، وكان عندك قوة لِسماع وفهم جواب العالم بسماواته وأرضه وجباله، وأشجاره وحيوانه، فلو استنطقت جميع ذلك لكان جوابهم: خَلَقنا الله الذي لا إلّه إلا هو.

وإليك الأدلة على أنّ هذه المخلوقات من سماوات وأرض وجبال، وشجر وطير وحيوان، قد نطقت وتكلمت، وسَمِعَ نُطقها مَنْ

هُم أهل السماع، والذين لا يمكن أن يكذبوا أبداً، ولم يكذبوا أبداً قط في حياتهم، وهم خيار الناس وثقات الناس.

يقول سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] أي: أن الذي فطر السماوات خلقاً وتكويناً، إنما هو الله تعالى، ولما خلقها فطرها على معرفته، فلما أوجد الأشياء وصار الشيء موجوداً، فإنّ أول ما أدرك هذا الشيء الموجود إنّما أدرك وعرف الذي خلقه وهو الله تعالى.

وإن أول ما عرف ذلك الموجود من الوجود عَرف مَنْ أوجده، وذلك قبلَ أن يَعْرف نفسه ووجوده، فجميع الأشياء مفطورة على أنه لا إلّه إلا الله.

وعلى هذا فلما بَيّن سبحانه فاطر السماوات والأرض قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١].

وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وذلك لأنه سبحانه فطرها على معرفته، وأنه حق، وشهدتْ وجود مُوجِدها قبل أن تَشهد وجودها، ولذلك راحت تسبح بحمد ربها. وما من شيء إلا يسبح بحمد ربه.

فإذا سألت السماوات مَنْ خَلَقَك؟ لقالت: الله، وكذلك الأرض، والجبال، وسائر المخلوقات، وإن قُلتَ: هل سُمع هذا الجواب منها؟

فيقال: لقد سُمع هذا الجواب ودُوِّن، وأعلن، وفي هذا قال

صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج: «سبحت السماوات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلُوِّ بما علا، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى»[1]. فلقد سمع صلى الله عليه وآله وسلم تسبيح السماوات حين عُرِج به إليها، وأنها تسبح بصيغة معينة وتقول: «سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى».

فإن قلت: إنني لم أسمع!!.

فيقال: إن كونك لم تسمع ليس دليلاً على أنها لا تسبح، لأن هناك مَنْ سمع، وهو لا يُشك في صدقه، بل هو أصدق العالمين، باعتراف أعدائه الكافرين على أنه الصادق الأمين، حيث قالوا: ما جربنا عليه إلا صدقاً. فماذا يكون موقفك مع خبره صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا أخبر عن تسبيح السماوات وأنّه سمع تسبيحها؟؟.

أما إذا لم تصدق ذلك وتؤمن به، فتكون قَد كَذَّبت من هو أوثق منك، وأصدق منك، وأعلم منك، بل تكون قد كذبت أصدق وأعلم خلق الله؛ وما هذا إلا مكابرة ومعاندة.

ولو كنت عالماً بفن من الفنون كالطب أو الهندسة، ووُجِدَ من هو أجدر منك وأعلم منك في ذلك، لرحت تثق به، وتصدقه فيما يقول، لِعلْمك أنّه أعلم منك في ذلك الفن.

فإذا كنت تترك ما عندك وتصدق من هو أعلم منك بالفن الذي

---

(١) عزاه في الدر المنثور عند تفسير الآية (٤٤) في سورة الإسراء إلى سعيد ابن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني مجمع الزوائد (١/٧٨)، وأبي نعيم في الحلية (٢/٧).

درسته، أمَا يجب عليك أن تُصدق من هو أصدق الناس قيلاً، وأصحهم خبراً، وأعلمهم وأعرفهم علماً ومعرفة، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا كنت لَم تَسمع فصدق الذي سمع واستسلم له.

فهذه الأرض تُسبح الله، وهذه الجبال تسبح الله، وهذه الحيوانات تسبح الله، وقَد سمع ذلك مَنْ سمعه، وفي هذا يقول سبحانه في الجبال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ أي: في النبوة والرسالة والملك وما هنالك، ومن جملة الفضل ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ فأمر الله الجبال أَنْ تردد مع داود تسبيحه حين يسبح الله بالعشي والإشراق كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] أي: لقد أمرنا الجبال ـ وإن كانت هي دائماً تسبح ـ لكن قُلنا لها: ياجبال متى جلس داود وقت الإشراق ـ أي: عند صلاة الضحى ـ وفي العشي فسبحي معه، ورددي معه تسبيحه، وكوني تابعة لداود في تسبيحه بالصيغة التي يسبح بها.

وكان أتباع سيدنا داود عليه السلام يخرجون معه إلى الجبال فيسبح الله وتردد الجبال معه تسبيحه، ويسمع ذلك أتباع داود، ومعهم سليمان عليه السلام، وتعتريهم كبير الخشية، حتى تأخذهم الغشية، ومنهم من يُغمى عليه من المهابة والخشية، فيأتي سليمان ويقول: يا أبتاه قف عن ذلك فإن الناس قد أغمي عليهم.

فلو سألت الجبال: مَنْ خلقك؟ لقالت: الله، وأما كونك لا تسمع أو تفهم عنها فإنّ هذا أمر آخر، إلا أنّك مكلف أنْ تؤمن بذلك، كما أنك مكلف أن تُؤمن بالغيب.

وكذلك فإنّ الحيوانات والبهائم والطيور تشهد أنه لا إلّه إلا الله، كما أخبرك الله في قرآنه، وثبت ذلك عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويجب عليك أيها الإنسان أنْ تفهم وتعلم أن كل إخبارات القرآن الكريم محكمة مبرمة معقولة، ولا تقل: إنّ هذا قرآن وليس هناك دليل عقلي، وما هذا إلا لجهلك وحمقك، لأن خبر القرآن هو الخبر المعقول، لأنه ثبت عقلاً أنه كلام الله، إذ لا يمكن أنْ يكون كلام بشر، بل عجز البشر عن الإتيان بمثله، فلما عجز البشر عن الإتيان بمثله فكلام مَنْ هو إذاً؟ إنه حقاً كلام الله، وما دامَ أنه كلام الله، فإن جميع ما ورد فيه فهو حق، لأنه ثبت بالدليل العقلي أنه كلام الله.

ولو كان من كلام البشر لأتوا بمثله، ولقد تحدى الله بلغاء البشر وعلماءهم أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي: لا يأتون بمثله نصاً بلاغياً، ولا معنى علمياً، ولا حكماً تشريعياً كحكم القرآن، ولا إخباراً غيبياً، وللإعجاز أنواع ووجوه يعجز الخلق عن إدراكها.

فلقد أخبر القرآن عن قصة داود عليه السلام وتسبيح الجبال معه، ولو كان هذا غير واقع لاتخذها الكفار وأهل الكتاب حجة على كفرهم وإعراضهم، إذ إنّ قصص أنبيائهم مذكورة في كتبهم، ولقالوا:

يا محمد أنت تأتينا بأخبار غير موجودة في كتب أهل الكتاب، إلا أنّ أهل الكتاب يعترفون بذلك، لأن قصة داود عليه السلام مذكورة في كتبهم، فلا يسعهم إنكارها.

وكذلك فإن الحيوانات والبهائم والطيور لو أنك سألتها من خلقها؟ لقالت: الله. إلا أَنك أيها الإنسان تُحب الشيء العجيب، والأمر غير المعتاد، فيأتيك الرسول البشري صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول لك: لا إلّه إلا الله. فتتبع شيطانك، وخبث نفسك، فتتلاعب وتشاغب في صحة ذلك، وتقول في نفسك: لو أَنّ الحجر نطق أنه لا إلّه إلا الله لصدَّقْتُ، ولو أَنّ الحيوان نطق لا إلّه إلا الله لصدَّقت، وهكذا لأنّ هذا أمر عجيب غير معتاد.

فيقال: إنّ الأمور التي تفترضها قد وَقعت وحصلت، فقد سبحت الحصى في كف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأعطاها لأبي بكر رضي الله عنه فسبحت في كفه، وكذلك في كف عمر رضي الله عنه، وفي كف عثمان رضي الله عنه، وسمع ذلك الصحابة رضي الله عنهم، وليس العجب أنها سبحت إذ إنّها دائماً تسبح، إلا أَنّ الأمر العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كشف للصحابة عن ذلك التسبيح، وسمعوا تسبيح الحصى[(١)] وذلك حتى يبقى ذلك حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

وروى البخاري[(٢)] عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنا نسمع

(١) الخبر في مجمع الزوائد (٢٩٨/٨) وعزاه للبزار والطبراني عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).

تسبيح الطعام وهو يُؤْكَل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالحصى والطعام يُسبح الله تعالى، وإنما كشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة عن ذلك وسمعوه وفهموه، وليس كل إنسان يستطيع سماع ذلك؛ لعدم استعداده وقابليته ونشأته الإنسانية، إذ لا قوة عنده، ولا توافق في وَحدة الطبع والوصف بين الإنسان وغيره من الموجودات حتى يسمع ويَفهم تسبيحها.

أما الأنبياء والرسل فقد أعطاهم الله تعالى قوة على سماع ذلك، وإنّ من جملة علوم النبوة سماع الأنبياء تسبيح الأشياء كلها.

ولقد سمعت الصحابة تسبيح الحصى والطعام بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والصحابة إنما هم وجه الأمة، فكان ذلك حجة على جميع الأمة، لأن الصحابة هم عدول وثقات، اختارهم الله من بين خلقه لصحبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان سماعهم لذلك ليس كسماع غيرهم، بل إن سماعهم حجة على غيرهم إلى يوم الدين.

أما تسبيح الحيوانات فلقد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، وأخبر عنه، فمن ذلك ما جاء في الصحيحين[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينما هو جالس بين أصحابه قال: «بينما رجل يسوق بقرة له» أي: من بني إسرائيل «قد حمل عليها» ـ وفي رواية[2]: «راكب على بقرة» ـ التفتت

---

(١) البخاري في أول كتاب الحرث والمزارعة (٢٣٢٤)، ومسلم في أول كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٨).

(٢) عند البخاري أول كتاب الحرث والمزارعة (٢٣٢٤).

إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث».

فقال الناس: سبحان الله ـ تعجباً وفزعاً ـ أبقرة تَكَلَّمُ!!.

فقال: «فإني أومن به وأبو بكر وعمر» وما هما يومئذ في القوم. الحديث.

ولم ينكر الصحابة خبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كلام البقرة، وإنما تعجبوا من ذلك.

فلقد تكلمت البقرة وقالت: «إني لم أخلق لهذا» أي: إنّ خالقي ما خلقني لهذا، وإنما خلقني للحرث، إذ إنّ الله أعطاها قوة في الجر، ولم يخلقها للحمل أو الركوب. أما كونك أيها الإنسان لم تسمع تسبيح الأشياء فليس عدم سماعك دليلاً على أنها لا تسبح. لأنك ربما تُنكر وجود أشياء وتستبعد وقوعها إذا أُخبرت عنها لضعفك وقلة علمك، ومثال ذلك جهاز الراديو والهاتف قبل اختراعهما، لو أخبرك إنسان أنه سيتم اختراع جهاز صغير تسمع فيه أصوات أهل المشرق والمغرب متى شئت، فإنك تُنكر ذلك وتستبعده، إلا أنّ ذلك قد حصل. وما هذا إلا أمر دنيوي، مبني على الاختراعات والتركيبات العلمية، فما بالك بأخبار النبوة المحمدية، والمعجزات وخوارق العادات، فلا تنكر أن الجمادات نطقت وتنطق، وكذلك سائر الموجودات، وَيَفهم ذلك مَنْ أطلعه الله على ذلك.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يفهم كلام الحيوانات، فقد شكا إليه الجمل وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شكواه[1].

---

(١) ينظر مسند الإمام أحمد (١/٢٠٤)، وينظر السيرة الشامية الجزء العاشر فقد ذكر فيه أخباراً كثيرة حول هذا.

وشكت إليه الحُمَّرَة ـ نوع من الطيور ـ لما أخذ بعض الصحابة فرخيها فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ فجع هذه بفرخيها»[1].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تسبيح الأشجار، والأحجار، وتُسلم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو أنك سألت الطير مَنْ خالقك؟ لقال الله، ولأقام لك الأدلة على ذلك، كما حصل مع هُدهد سليمان عليه السلام، وأخبر القرآن الكريم عن ذلك.

وإذا كنت تُنكر خبر القرآن فيقال لك: إذا لم يكن عندك إيمان بالقرآن فأين عقلك؟؟ فإنك تُصدق أخبار التاريخ عن الأمم السابقة وما جرى عليها، وما كتبَ هذا التاريخ إلا أناس من أمثالك. أما خبر القرآن فقد وصلك بالتواتر، وبَلّغك إياه أصدق خلق الله تعالى، فإذا كنت صاحب عقل وتفكير فَما عليك إلا أنْ تصدق خبر القرآن الكريم على وجه أقوى وأشد من تصديقك لخبر المؤرخين الذي يحتمل الخطأ.

ولقد شهد الهدهد أنه لا إلّه إلا الله، وأتى بالدليل والبرهان على أنه لا إلّه إلا الله، وأنكر على مَنْ أشرك بالله وعبد غيره سبحانه.

ولقد ذكر سبحانه هذه القصة التي وقعت في عهد سيدنا سليمان عليه السلام، حتى تكون موضع تفكر واعتبار، وحتى يجعلها الله حجة على العباد، فإنّ الطيور تشهد بأنه لا إلّه إلا الله، فكيف يُنكر

---

(١) كما في سنن أبي داود كتاب الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار (٢٦٧٥)، والمستدرك (٤/٢٣٩) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الجاحد وجود الله؟!! والحال أنّ الطيور تشهد أنه لا إلّه إلا الله وتأتي بالأدلة والبراهين على ذلك. قال سبحانه مخبراً عن سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: تملك رجالاً وهذا شيء عجيب ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾. وهنا انتهى جواب الهدهد، وقال سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ﴾ ولقد كان سيدنا سليمان عليه السلام إذا أراد السفر جهز الجيش من الجن والإنس والطير ـ لأنّ الله أعطاه ملكاً على هؤلاء ـ وكان يأخذ من كل فرقة من الطير قوادها ورؤساءها، وكانت الطيور تطير فوقهم مظلة لهم، ولكل طير مقام وموضع يتقيد به، فأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يصحب معه الهدهد، لأن هناك نوعاً من الهداهد ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ـ عنده خبرة ومعرفة بينابيع الماء في تخوم الأرض، فإذا احتاج الجيش إلى الماء دلهم على ذلك الهدهد، فيأمر سيدنا سليمان الجن بالحفر وهكذا.

فلما تفقد سليمان عليه السلام الطير رأى الهدهد غائباً ﴿مَالِيَ

﴿لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أي: ذهب بغير إذني ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ وقيل: إن العذاب الشديد الذي أوعد به سليمان للهدهد هو أن ينتف ريشه، وقال بعضهم: العذاب الشديد أن يحبسه مع أعدائه وأضداده ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بحجة تجعل له قوة وسلطة على ما فعل ﴿مُّبِينٖ﴾ أي: بسلطان بَيّن ظاهر وليس خفي، ثم إن سليمان عليه السلام انتدب النِسْر لكي يبحث عن الهدهد. فقال: لا علم لي به يا نبي الله.

فأمر العُقاب أن يتعقب الهدهد ويبحث عنه، فارتفع العقاب في الفضاء فرأى الهدهد مقبلاً من بعيد، فأراد العقاب أن يعاقبه، فناشده بالله أن يتركه فتركه، وقال له: ويحك لقد أوعدك نبي الله فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ أي: فاحترز وقَدّر موقفك.

فقال له الهدهد: أَلَمْ يستثن ـ أي: ألم يقل إن شاء الله ـ قال: لم يستثن ولكن قال: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

فقال الهدهد: نجوت بإذن الله. ولقد فكر الهدهد في كيفية دخوله على نبي الله سليمان عليه السلام، حتى يرعى لمقام الملك حقه؛ فدخل ذليلاً، ودعا وصلى، وقال: يا نبي الله اذكر موقفك بين يدي الله ـ أي: إذا كنت مَلكاً فاذكر موقفك بين يدي الله ملك الملوك ـ فَرَقّ له سيدنا سليمان وقال: تكلم.

فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي: أنا الهدهد أحطت بشيء

لم تحط به أنت ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر يقيني واقعي.

وبعد ما أجمل الهدهد الكلام حتى يستعطف سليمان عليه السلام، ويلفت اهتمامه إلى ذلك الخبر، راح يفصل الخبر: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما تؤتاه الملوك من الأسلحة والعتاد ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وكانت عادة الملوك وقتذاك أن يحضروا بقصورهم الجواهر واليواقيت والذهب والفضة، وكلما كثرت هذه النفائس دل ذلك على غنى المَمْلكة ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: قصر مليء باليواقيت والجواهر والذهب.

ولقد ذكر العلماء أنَّ عرش بلقيس في اليمن كان كبيراً فخماً، وكان مبنياً على شكل هندسي دقيق، وله من ناحية المشرق ثلاثمائة وستون نافذة، وكذلك من ناحية المغرب، بحيث إنّ الشمس تُشرق كل يوم من نافذة، وتغرب كذلك من نافذة، على عدد أيام السنة الشمسية، وكلما أشرقت الشمس سجدوا لها، وكلما غربت سجدوا لها ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهذا أمر عجيب، إذ كيف يسجدون لشيء مخلوق ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: حببهم في هذا العمل، حتى إنهم رأوا أن ما يفعلون هو الصواب ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ ثم بين لهم مَن هو الله ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلقد أتى الهدهد بالدليل على أنّ الله تعالى هو الإله، وأما الشمس فليست إلهاً، لأنه سبحانه ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

والمعنى: إن الله تعالى هو الإلّه الحق، لأنه هو الذي يُخرج خبايا السماوات وخبايا الأرض.

أما خبايا الأرض فهي ما يخرجه سبحانه من الأشجار والزرع والثمار والمياه، والمعادن، وغير ذلك، وإنّ الذي أخرجها هو الذي خلقها وأودعها سبحانه.

وأما خبايا السماوات فمن جملتها الشمس، لأنه سبحانه يُظهرها تارة ويخبئها تارة، فهي لا تُعبدُ بل يجب أن يُعبد الذي خبأها وأظهرها. ومن خبايا السماوات: الكواكب، والنجوم، والسّحب، إذ ينشئها الله تعالى مَتى أراد، وفي المكان الذي أراد، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

وإذا قلت: إن هذه السحب إنما هي بخارات أرضية تجمعت في السماء.

فيقال: مَنِ الذي جعلها تتبخر وجمعها إلى بعضها؟ ولو كان الأمر مِنْ ذاته وطبيعته فَلِمَ اجتمعت هنا ولم تجتمع هناك؟ ولِمَ هطل المطر هنا ولم يهطل هناك؟ ولو كان ذلك من طبيعته لصار تخصيصاً بلا مُخصص، وترجيحاً بلا مرجح وهذا ينافي العقل.

فالله سبحانه هو الخالق، وهو الذي خصص وميّز ورجح، وحكم بما أراد سبحانه.

ومن جملة خبايا السماوات: أن الأمور الحسية المشهودة في الأرض إنما هي أوامر في السماوات، وإنّ جميع ما يظهر في الأرض

من موجودات إنما كانت في السماوات أوامر، ولَمّا نزلت إلى عالم الأرض صارت لها حقائق وجودية، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾.

فالمباني في عالم الأرض كانت معاني في عالم السماء، ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذا لأنّ الشيء يكون في السماء أمراً معنوياً، فيظهر في الأرض شيئاً له وجود حِسِّيّ مشهود، كالحجر والشجر والبشر وهكذا.

فأوحى سبحانه في كل سماء أمرها، ثم إنّه يُخرج الخبايا في عالم الأرض، فهو الذي يُخرج الخبء في السماوات والأرض.

أما وجه ترجيح الهدهد لهذا الدليل على غيره من الأدلة، لأنّ الهدهد مِنْ جملة مَنْ أطلعه الله على بعض خبايا الأرض، وهو أنْ أطلعه الله على ينابيع الماء في خبايا الأرض، ويرى الماء في تخوم الأرض، فجاء بدليل مناسب لِمَا خصه الله به، وجاء بدليل أثره ظاهر فيه، وهذا من جملة ذكاء الهدهد وفطانته.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ فالذي يعلم خبايا السماوات والأرض، وأظهر خبايا السماوات والأرض، وهو يُظهر خبايا نفسك في عالم الوجود، إذ تكون القضايا في نفسك خبايا خفية ثم تُظهرها. كَمن قَدّر في نفسه أنه سيبني بناء، فيقال: إنّ البناء موجود في نفسك على صورة أمر معنوي، ثم لما شَيّدتَ البناء صار لهذا الأمر المعنوي وجودٌ حسيٌّ مشهودٌ.

فلما ظهر البناء ظهر ما في نفسك من خبايا كانت خفية، وهو سبحانه يعلم ما أخفيت وما أظهرت، وما نويت أن تفعله في مستقبل الزمان، فكما أنه يعلم الموجودات في الحس الظاهر؛ يعلم المكنونات في النفس، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يُراقب الله في الباطن والظاهر، لأنه لا يخفى عليه شيء سبحانه، ولا فرق عنده بين النفس وبين الحسّ.

واعلم أيها الإنسان أنّ جميع الأمور التي سترد عليك إلى آخر لحظة في حياتك، كل هذه الأمور مكنونة في نفسك الآن، ولها أوان تظهر فيه، فهي مُجملة في نفسك، وستظهر على مَرِّ ساعات عمرك، وهو سبحانه يعلم كل هذا قبل وقوعه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ أي: مهما يكن في الأرض من عروش كبيرة فإنّ عرش الله هو أكبر وأعظم، وإن عظمة عرش الله لا يتصورها عقل، إلا كما أخبر عن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»(١).

وقد خلق الله العرش، وخلق له حملة من الملائكة إظهاراً لعظمته وقدرته سبحانه، ولقد أمر الله ملكاً مِن حملة العرش أن يقطع جانباً من جوانب العرش إلى الجانب الآخر، فطار الملك سريعاً مدة

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير، وأبي الشيخ، وابن مَرْدُوْيَهْ، عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

ثلاثين ألف سنة ولم يقطع للجانب الآخر، ثم طار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل، ثم طار ثلاثين ألف سنة أخرى فلم يصل إلى الجانب الآخر، ولا تتوهم أنّ الله محتاج للعرش، أوْ أنه جالس عليه، فلقد تنزه سبحانه عن ذلك، فكما كان غنياً عنه قبل أن يخلقه، فهو غني عنه بعد أن خلقه.

وما العرش وما حملة العرش إلا مَظهر لملك الله وسلطانه وقدرته.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أُذن لي أن أُحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه» أي: كتفه «مسيرة سبعمائة عام»[(١)].

وفي الحديث: «وإن لله ملكاً لو قيل له: التقم السماوات والأرضين السبع بلقمة لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت» الحديث[(٢)].

واعلم أنّ كل هذه العوالم مما حواه العرش وحملة العرش إنما هي بالنسبة لقدرة الله كنقطة من بحر لا يتناهى.

وعلى هذا فلو استنطقت العالم كله مَنْ خَلَقَكَ؟ لقال: الله، وإنه لا إلّه إلا الله.

وقد يكرم الله تعالى بعض أوليائه، ويكشف لهم الحجاب، ويسمعون تسبيح الأشياء، كما ورد[(٣)] أنّ الصحفة، سَبّحت عند

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب /١٩/ (٤٧٢٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (١/ ٨٠) إلى الطبراني في الأوسط والكبير.

(٣) في الحلية (١/ ٢٢٤).

سَلْمان الفارسي رضي الله عنه وكان معه أبو الدرداء رضي الله عنه، وكان واحدهم إذا كتب إلى الآخر يذكره بآية الصحفة. قال: وكنا نتحدث أنه بينما هما يأكلان من الصحفة، فسبحت الصحفة وما فيها.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة التاسعة

حول

معرفة الأشياء بخالقها سبحانه

وشهادتها أن لا إله إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

تقدم الكلام أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أنواعاً من الحجج والأدلة العقلية التي لا تقبل الرد أو النقض على أنه لا إلّه إلا الله.

كما أنه سبحانه ذكر الشواهد الشاهدة على أنه لا إلّه إلا الله.

فلقد بَيَّن سبحانه أَنَّ جميع الأشياء تعرف ربها، وهي تسبّح الله بحمده، وتسجد له سبحانه، وإن كل هذا العالم: بسماواته وأرضه وجباله، وشمسه وقمره، ونجومه وكواكبه، وبره وبحره، وأشجاره، ودوابه وطيوره، كل هؤلاء يَعلمون ويوقنون أن لا إلّه إلا الله، وكلهم يسبّحون الله بحمده، وكلهم يسجدون لله تعالى، وهناك كثير من الناس مَنْ يَعبد الله ويسبّحه ويسجد له، وهناك كثير مِنَ الناس من لا يحمد الله تعالى ولا يسجد له ولا يسبّحه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨].

فبيّن سبحانه أنّ جميع المخلوقات تعرف ربها، وتسجد له سجود

عبادة. أي: سجود مخلوق لخالق، وسجود مربوب لرب، وهو رب العالمين.

وربما يقال: إن هذا الدليل دليل نقلي فهل لهذا شواهد واقعية؟.

فيقال: إن جميع ما أخبر الله تعالى به، وجميع ما ذكره سبحانه في مقام الاستدلال والحجة على العباد، إنما هو براهين معقولة، ومنها ما هو حجة عقلية لدى أهل العقل، ومنها ما هو أمر واقعي يثبته سبحانه وتعالى. فمن جملة هذه الوقائع سجود المخلوقات كلها لله سبحانه.

وقد يقال: إننا لا نرى سجود الأشياء لرب العالمين؟

فيقال: إذا كنت لا ترى فإنّ عدم رؤيتك ومعرفتك بذلك ليس هذا دليلاً على أنها لا تسجد، ولكن هناك من رأى ومَنِ اطلع وسمع وحدّث بما رأى وسمع، وخاصة أنه أصدق العالمين حديثاً، وأوثقهم خبراً، وذلك بشهادة أعدائه، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فماذا يجب أن يكون موقفك أيها المكلف مع هذا الخبر الواقع الذي أخبر الله عنه؟؟

يقول سبحانه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٥ـ٦] أما الشجر فهو ما كان له ساق، وأما النجم فهو ما نَجَم أي: ما ظهر وامتد من الزرع على الأرض، دون أن يكون له ساق. وهما يسجدان لله تعالى.

كما أنّ نجم السماء ظاهر فيها يسجد لله تعالى.

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، كما ورد في الصحيحين[1]، عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسٌ، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر هل تدري أين تذهب هذه»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنها تذهب تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها. فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾» [يس: ٣٨].

وعند مسلم[2]: «أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾» [الأنعام: ١٥٨].

فلقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن سجود الشمس لله تعالى كلما غربت، وأنها تسجد لله تعالى تحت العرش.

وربما يقال: إنها إذا غربت عن مكان أشرقت على مكان آخر، فكيف تسجد؟

فيقال: يجب أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الحكمة الكبرى، وهو يعلم مشارق الشمس ومغاربها، وهو

---

(١) البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمان الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

(٢) في كتاب الإيمان (١٥٩).

يعلم أنها كلما غربت عن قوم أشرقت على آخرين، ولقد أعطاه الله تعالى علم الأولين والآخرين، فلا تظنن بسبب جهلك أنّ هذا أمر غفل عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن سجود الشمس عند غروبها فهو يعلم بما أخبر، فلا يلزم أنها إذا غربت وأشرقت على آخرين أنها لا تسجد، بل هي تسجد وإن كنت لا تراها، لأنك لا تعرف كيفية سجودها، والشمس كما هو معروف كرة كبيرة، وليس سجودها كسجود الإنسان، لأنَّ هيئتها ليست كهيئة الإنسان، وإنما هي تسجد سجوداً مناسباً لها في وضعها وحركتها. ومادامت الشمس دائماً في غروب وشروق، فهي دائماً تسجد لله تعالى في جميع أوضاعها وحركاتها.

وإنّ سجود الشمس تحت العرش حتى تستمد من نور العرش، لأنه كما ورد[1] أن «نور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش». ويوشك أن تستأذن في شروقها كما هو عادتها فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، وهذا حين تطلع الشمس من مغربها، وهو مِنْ علامات الساعة الكبرى.

واعلم أنه لا يقع هذا الانعكاس الفلكي إلا بعد انعكاس مزاج بني آدم على وجه الأرض، إذ تفسد إنسانيتهم، ويصيرون كلهم كالحيوانات الضالة على وجه الأرض.

فلما خرجوا عن الطور الإنساني، وتبدلت أمزجتهم وانعكست؛ تغير نظام الفلك وانعكس.

---

(١) عند ابن أبي حاتم عن سيدنا عكرمة رضي الله عنه.

وعلى هذا فإن الشمس تسجد لله تعالى، وأطلع الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، وأخبر به صلى الله عليه وآله وسلم بياناً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ الآية.

أما سجود البهائم لله تعالى، فقد أطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبيَّن له أنّ لها سجوداً مناسباً لها، ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، وأطلع الصحابة على ذلك.

فقد روى أحمد في مسنده[1] بالسند الجيد، ورواه النسائي أيضاً، عن أنس رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار عندهم بعير ـ أي: جمل ـ يَسنون عليه نخيلهم وزرعهم، فاستصعب عليهم الجمل ـ أي: استوحش ـ حتى عطش الزرع والنخل وكاد أن يجف. فشكوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى البستان وفيه الجمل. فقال الأنصار: يا رسول الله إنّ الجمل صار كالكلب الكلِب ـ أي: كالكلب العقور ـ ونحن نخاف عليك مِنْ صولته.

فقال: «لا بأس عليَّ منه». فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البستان، فلما وقع نظر الجمل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذَلّ وخضع وسجد ـ أي: وضع رأسه على الأرض ساجداً ـ. فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ بزمامه، وسلّمه لأصحابه ليسقوا عليه وصار أذلّ حيوان.

---

(١) (١٥٨/٣).

فلما رأى الأنصار أنّ الجمل سجد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قالوا: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل قد سجدت لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك! أي: سجود التعظيم والتكريم، لأن الجمل سجد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعظيماً وتوقيراً لا سجود عبادة؛ إذ إنّ سجود العبادة لا يكون إلا لرب العالمين.

وإن الفرق بين سجود العبادة وسجود التعظيم هو أن سجود العبادة أن يَعلم الساجد أنه عبد مخلوق يسجد لرب خالق، والجمل يعلم أنه مخلوق، وأنّ هذا محمد رسول الله، فسجد له تعظيماً له وتوقيراً، وهو يعلم أنّ خالقه وربه هو الله تعالى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» ولقد حرم الله تعالى أن يُسْجَدَ لغيره سجود تعظيم وتكريم في هذه الشريعة المحمدية. ولقد كان سجود التعظيم مشروعاً في الشرائع السابقة ثم نسخ في هذه الشريعة المحمدية كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: لسيدنا يوسف عليه السلام.

فلقد عرف الصحابة ورأوا سجود الجمل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى راحوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسجدوا له. فلم يأذن لأحد أن يسجد لأحد.

فالبهائم والدواب تعرف الله، وتشهد أن لا إلّه إلا الله، وتعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جاء في الحديث الآخر، الذي رواه الإمام أحمد[١]، أن

(١) المسند (١/٢٠٤).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل حائطاً ـ أي: بستاناً ـ لبعض الأنصار من بني النجار، وفيه جمل يسقون عليه، فجاء الجمل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجرجر[1] وذرفت عيناه، فمسح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سراته وذفريه فسكن.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ صاحب الجمل»؟ فجيء به وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلّككَهَا الله، إنه شكا إليّ» فلقد عرف الجمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشكا له أمره، وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شكايته، وأوصى به صاحبه.

وهكذا أخبر سبحانه عن سجود المخلوقات كلها لله سبحانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وهم الكافرون.

وربما يقال: إنّ هذا ليس سجوداً حقيقياً، بل من باب ضرب المثل.

فيقال: إن سجود هذه المخلوقات سجود حقيقي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كثير من الناس يسجدون لله، فهل أنهم يسجدون لله حقيقة أم من باب ضرب المثل ولسان الحال؟.

ولقد ذكر سبحانه هذا السجود الحقيقي في ضمن السجودات له، فكما يسجد المؤمن لله سجوداً حقيقياً، فكذلك الشمس والقمر والنجوم، والجبال، والدواب، والشجر تسجد لله سجوداً حقيقياً.

---

(١) ردد صوته.

وهناك كثير من الناس حق عليهم العذاب، لأنهم لم يسجدوا لله حقيقة، ولا عبادة ولا خضوعاً، وهم الكافرون الجاحدون.

أما سجود الجبال، فلقد أخبر سبحانه أنها تسجد لله، وإن لسجودها كيفية خاصة بها ومناسبة لها. ولا يلزم من عدم رؤيتك سجود الجبال أنها لا تسجد، إذ لو كان وجود الأشياء وثبوت الحقائق موقوفاً على رؤيتك؛ لأنكرت كثيراً من الأشياء المُسَلَّم بوجودها، ولكَذَّبْتَ كثيراً من الحقائق المبرهن على صحتها.

فأنت لم تر الهواء، ولكنك تُثبت وجوده من خلال آثاره، وأنت لم تر كثيراً من بقاع الدنيا وبحارها وبلادها، ولكنك تُصدق بوجودها لأنّ هناك من أخبرك عنها.

فكيف لو أخبرك أصدق خلق الله تعالى عن أمر؛ ألا يجب عليك عقلاً أن تصدقه.

فالجبال تعرف خالقها، وتسبّح بحمده سبحانه، وتسجد له، وتفتخر بمن ذَكر الله عندها.

ولقد أخبر سبحانه عن تأثر الجبال وغضبها على من أشرك بالله ونسب له الولد فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٣].

فلقد أخبر سبحانه أن النصارى وغيرهم لما نسبوا للرحمن ولداً اغتاظت الجبال والسماوات والأرض، وكادت الجبال أن تتشقق وتَنْهَدَّ من غيظها وغضبها على الذين نسبوا الولد للرحمن، مِمَّا يدل على أن الجبال تغضب لله تعالى.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ إذ لو أن للرحمن ولداً، لكان هذا يعني: أنه تجزأ، لأن الولد جزء من أبيه، ومن جاز عليه التجزّؤ جاز عليه التشقق والفناء والزوال، والله سبحانه أزلي أبدي باق جل وعلا.

ثم إنّه سبحانه لو اتخذ ولداً لمحبته للأولاد، فلِم اتخذ ولداً واحداً؟ بل يتخذ عدداً من الأولاد إن كان يحبهم، وإن كان سبحانه لا يحب الأولاد فلا يتخذ ولا ولداً.

ثم إذا كان اتخاذه للولد للاستعانة به والحاجة إليه؛ فما وجه ذلك، لأنّه هو الذي سيخلقه ويصوره، ويمده ثم يستعين به؟!!.

فلما خلق الله تعالى عيسى عليه السلام في بطن مريم عليها السلام، ثم ولدته جاء على صورة معينة، فهناك مَنْ خلقه وصوره وهو الله سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:٦].

ولقد كان عيسى عليه السلام يأكل الطعام لحاجته إليه، كما قال تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥] وإنّ الذي يأكل الطعام لابد له من تبول وتغوط، وكيف يجوز هذا في حق مَنْ كان إلهاً؟!!!.

وكيف يكون إلهاً يأكل الطعام لحاجته إليه، والحال أنه هو الذي خلق الطعام. يعني: أنه محتاج لِمَا يخلق، وكيف يَصح هذا في العقل؟؟!!. ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: تفكر أيها العاقل إذ كيف يَصح للإلّه أن يأكل ثم

يتبول ويتغوط وهو محتاج للطعام الذي يخلقه، فلقد بَيّن سبحانه الوجه العقلي في استحالة اتخاذه للولد، أو أن يكون عيسى إلّهاً، إلا أن الذين نسبوا للرحمن ولداً قد صرفوا عقولهم في الضلالات والأباطيل.

وكما أن الجبال تغضب للكفر والفسق كما أخبر سبحانه عنها، فإنها تفرح وترضى وتَطرب لذكر الله والإيمان به سبحانه، يدل على هذا ما ورد[1] عن ابن المنكدر ـ وهو من سادات التابعين ـ وغيره قال: بلغني ـ أي: عن أصحاب رسول الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن هذا لا مجال للرأي فيه ـ أن الجبلين إذا أصبحا نادى أحدهما صاحبه. يناديه باسمه فيقول: أيْ فلان هل مَرَّ بك اليوم ذاكر لله؟ فيقول: نعم. فيقول: لقد أقر الله عينك، لكن ما مر بي ذاكر لله عز وجل اليوم.

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقد وقّت الله تعالى لموسى عليه السلام ميقاتاً يكلّمه فيه، ويُنزل عليه فيه ألواح التوراة، وأمره أن يصوم ثلاثين يوماً، وهي أيام ذي القعدة. وبعد أن أتم موسى صيامها، رأى أنّ رائحة فمه قد تغيرت بسبب الصوم، فاستعمل السواك وأزال الرائحة، فأوحى الله إليه: أن

---

(١) الخبر في الحلية (٣/١٤٧).

ياموسى كانت الملائكة تَشم منك رائحة المسك فلِمَ أزلتها؟ فأتمّ له صيام عشرة أيام فوق الثلاثين. ولهذا قال: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. فزاد عليه عشراً من ذي الحجة ـ أي: إلى يوم عرفة ـ ولما كلمه سبحانه سَمع موسى كلام الله تعالى حقيقة، وإن كان كلامه سبحانه منزهاً عن الشبه لكلام المخلوقات، إلا أنّ موسى سمع كلاماً حقيقياً من حضرة الله تعالى، وصار موسى كله سماعاً. ولقد كلّمه سبحانه قبل هذا عند الوادي الأيمن، كما أخبر عن ذلك سبحانه في سورة ﴿طه﴾، وكان ذلك التكليم عن غير توقيت وميعاد، أما التكليم الآخر فكان عن ميعاد، وفي كل مرة كان لله تعالى تجلٍّ خاص بالكلام.

ولما سمع موسى كلام الحق قال: يا رب هذا كلامك؟ قال: «هذا كلامي يا موسى» أي: أنا الذي كلّمتك هناك، وأنا الذي أكلمك هنا. قال: «يا موسى إني كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأقوى من ذلك»[1] ولم يقل سبحانه كلمتك بعشرة آلاف لسان، بل بقوة عشرة آلاف لسان، وفي هذا دليل قوة موسى لتحمّل هذه القوة في التكليم.

وقال موسى في مناجاته لله تعالى قال: «يا رب علمْنِي شيئاً أذكرك وأدعوك به» أي: خصّني به.

«قال: يا موسى قل: لا إلّه إلا الله.

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى البزار مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

قال: يا رب كل عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إلّه إلا الله.

قال: إنما أريد شيئاً تخصني به.

قال: يا موسى لو أن السماوات السبع؛ والأرضين السبع في كفة، ولا إلّه إلا الله في كفة مالت بهم لا إلّه إلا الله»[1] أي: لثقلت عليهن، لأن الأمور بمعانيها. وإنّ القوى الحقيقية إنما هي بالمعاني لا بالمباني.

وكان من جملة مناجاة موسى قال: «يا رب أين أبغيك»؟ وفي رواية: «أين أجدك»؟ قال: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[2].

فلما سمع موسى عليه السلام كلام الحق وتلذّذ به، أخذت نفسه النشوة من سماع كلام الحق، حتى اشتاق إلى الرؤيا، وطلبها كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: ارفع الحجاب بيني وبينك حتى أراك ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ أي: دون أن تُصعق أو يغشى عليك، فإن ثَبت الجبل ثَبتَّ، وإن لم يثبت فليس عندك قوة على ذلك في هذا العالم الدنيوي، ولما أعلن الله تعالى لموسى أنه سوف يتجلى للجبل، تطاولت جبال الأرض، وتطامح كلٌّ منها أن يكون هو موضع التجلّي؛ إلا جبل الطور فقد خضع وتواضع لله تعالى، ورضي بما قسم الله فنال التجلي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: ساخ

---

(١) رواه ابن حبان (٦٢١٨)، والحاكم في المستدرك (١/٥٢٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ينظر في الحلية (٦/١٧٧)، وكشف الخفا للإمام العجلوني.

ولم يبق له أثر في الأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ ولولا روح موسى القائم بها جسده لزال جسمه كما زال الجبل، إلاّ أنّ الروح التي هي من أمر الله أمسكت عليه جسمه، فأغمي عليه ولم يتفتت.

وقد اختلف العلماء: هل رأى موسى ربه فصعق ولم يتحمل، أم أنّه صُعق ورأى حال صعقته وغشيته؟.

والتحقيق: أنّ موسى عليه السلام لم تحصل له رؤية الله تعالى، لأنه سبحانه أناط الرؤية على استقرار الجبل فقال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ فلما لم يثبت الجبل للتجلّي بل صار دكّاً، دل ذلك على أنه لم تحصل الرؤية لموسى عليه السلام.

وقد جاء في الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يُبيّن نسبة تجلّي رب العالمين للجبل، فقد روى الترمذي، والبيهقي، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، وغيرهم[1]، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هكذا» وأشار بإبهامه إلى طرف الخنصر «فساخ الجبل وخرّ موسى صعقاً» الحديث. أي: أن التجلّي على الجبل كان تجلّياً يسيراً من رب العالمين، فاندكّ الجبل. فكيف لو كان التجلي أعظم من ذلك؟!! وهذا يدل على عظمة سطوة أنوار رب العالمين.

---

(١) سنن الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الأعراف (٣٠٧٦)، المستدرك للحاكم (٢/ ٣٢٠)، وينظر الدر المنثور عند هذه الآية الكريمة.

وجاء في الحديث أيضاً[1] عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله: يا موسى إنّه لا يراني حيّ إلا مات» أي: في الدنيا «ولا يابس إلا تَدَهْدَه، ولا رطب إلا تفرّع، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم، ولا تبلى أجسادهم».

ولقد خُصّ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرؤيا العيانية في هذا العالم، لَمَّا عُرج به إلى الملأ الأعلى، وهو عند سدرة المنتهى في عالم البقاء. وهناك تجلّى رب العزّة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجلّياً أكبر؛ وأعظم من تجلّيه على موسى عليه السلام؛ ومع ذلك فقد ثبّته الله تعالى وأعطاه قوة التحمل والثبات، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وقد ورد في صحيح مسلم[2]: قيل: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نوراً».

أي: تجلّى عليّ تجلّياً نورانياً باهراً قوياً، ولقد كان التجلّي لرسول الله أعظم من التجلي عند الجبل، لأنّه كان عند السدرة، وإنّ عالم السدرة أعظم وأكبر، وهي محيطة بالسماء السابعة، حتى غشيتها ألوان من الجمال ما يعجز عنه وصف واصف. كما ورد في الحديث[3].

أما التجلّي لموسى عليه السلام فكان عند الجبل. وفرق كبير بين الجبل وبين سدرة المنتهى.

---

(١) عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (الأصل الرابع بعد المائة)، وأبي نعيم في الحلية (١٠/٢٣٥).

(٢) في كتاب الإيمان باب /٧٨/ (١٧٨) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) عزاه في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.

فلقد عرف الجبل ربه لمّا تجلّى ربه عليه، وتأثر بذلك، حتى ساخ وفني من تأثّره وخشيته من رب العالمين.

وقد ورد في صحيح البخاري، وسنن الترمذي وغيرهما[١]، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صعد يوماً جبل أُحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فاهتز الجبل ـ وفي رواية: فرجف الجبل ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم وضربه برجله: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان». وفي رواية[٢]: «اسكن أُحد» فسكن الجبل.

فلقد اهتزّ أُحد طرباً وفرحاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصعوده عليه، ولولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثبّته لبقي مهتزاً.

فلقد عرف الجبل مَنْ علاه، وسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسكن، فالجبل يعلم أنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لما رجع من غزوة تبوك:

---

(١) البخاري في أول كتاب فضائل الصحابة (٣٦٧٥)، وأبو داود في السنة (٤٦٥١)، والترمذي في كتاب المناقب، مناقب سيدنا عثمان رضي الله عنه (٣٦٩٧).

(٢) عند البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سيدنا عثمان رضي الله عنه (٣٦٩٧).

«هذا أُحد وهو جبل يحبنا ونحبه»[1] فالجبل يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولمّا مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جبل جُمدان كما روى مسلم في صحيحه[2]، قال لأصحابه: «هذا جمدان سبق المفرّدون».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفي رواية الترمذي[3]: قالوا: وما المفردون؟

قال: «المستهتَرون بذكر الله تعالى» بفتح التاء أي: المولعون بذكر الله تعالى «يضع عنهم الذكر أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافاً» أي: يضع عنهم أوزارهم وذنوبهم، فيأتون يوم القيامة ولا ذنوب عليهم.

فلقد كان جبل جُمدان مِمّن نال رتبة التفريد بذكر الله تعالى، وهو جبل مفرِّد أي: موحّد مولع بذكر الله تعالى.

وهكذا فإن المخلوقات كلها شاهدة أنه لا إلّه إلا الله، كما أنها أدلة تدل عقلاً وفكراً على أنه لا إلّه إلا الله.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

(١) كما في صحيح البخاري في كتاب الزكاة، باب خرص التمر (١٤٨١)، ومسلم في كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (١٣٩٢) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، والترمذي في أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل المدينة (٣٩١٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) في أول كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٢٦٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الدعوات باب /١٣٩/ (٣٥٩٠).

المحاضرة العاشرة

حول تسبيح جميع الأشياء
بحمد ربها جل وعلا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد بَيّن القرآن الكريم في سياق الأدلة والبراهين القاطعة على حَقِّيَّة قضايا الإيمان، وعلى أن الله تعالى حق واجب الوجود، بَيّن أنّ العوالم كلها: الشمسية والقمرية، والكوكبية، والأرضية، والبحار والأنهار، والأشجار والجمادات، وجميع الأشياء، تدل دلالة قاطعة على أَنّ الله تعالى حقٌّ، وأنّ هذا العالم مخلوق وله خالق هو الله سبحانه.

فجميع الأشياء تدل على أَنّ الله حق، وهذا وجه الاستدلال العقلي الذي جاء القرآن بالبراهين القاطعة على حَقِّيَّته.

وَمِنْ وجه آخر فإنّ جميع الأشياء تشهد شهادة قاطعة أَن الله حقٌّ، وأنه رب العالمين ـ أما أن الأشياء كلها تدل دلالة قاطعة على أنّ الله حق، وأنه رب العالمين فسيأتي بيانه لاحقاً في محاضرات خاصة. وأما شهادة جميع الأشياء أنه لا إلّه إلا الله فقد تقدم بيان بعض ذلك في المحاضرات السابقة ـ وإن جميع الأشياء تشهد أنه لا إلّه إلا الله شهادة حق، وشهادة قول ونطق وإدراك، لا أنها تَشهد بدلالة الحال ـ فإن هذا سيأتي بيانه لاحقاً ـ بل إنها تشهد شهادة قول

عن علم وإدراك ومعرفة أنّ خالقها هو رب العالمين، وهذا أمر أخبر عنه القرآن وشهدت له الوقائع، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: وما من شيء ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن جميع الأشياء تعرف ربها، وأنه لا إلّه إلا الله، وهي تسبح ربّها تسبيحاً حقيقياً.

ولا تتأول أيها الإنسان هذه النصوص القرآنية التي تخبر عن تسبيح الأشياء لله تعالى، وتزعم بأن تسبيحها ليس تسبيحاً حقيقياً؛ وإنما هو من باب الاستدلال، أو تُسَبِّحُ بلسان الحال أو من باب اللزوم.

واعلم أنّ الله تعالى أنزل هذه الآيات، وبَيَّن فيها أنّ جميع الأشياء تسبح بحمد ربها، ليجعل ذلك حجّة على المنكرين إلى يوم الدين.

ولقد أوقع الله وقائع وأموراً تُسمع فيها تسبيح الأشياء لربها، وأقام الله بها الحجة على المنكرين، ولو لم يكن هناك وقائع تثبت ذلك لما قامت الحجة على المعاندين. فلابد إذاً لهذا الخبر الذي أخبر الله به عن تسبيح الأشياء لابد له من وقائع وحقائق تثبته وتؤكد حَقِّيَّتَهُ.

وقد يقال: إننا لا نَسمع ذلك ولا نفقه هذا التسبيح، فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: لأن اللغة تختلف عن لغتكم، والإدراك يختلف عن إدراككم، ومنطق الأشياء يختلف عن منطقكم، فلا تفاهم بينكم وبينها.

وليس عدم سماعك أيها الإنسان تسبيح الأشياء دليلاً على أنها لا تسبح، إذ إن هناك أناساً هم صفوة الخلق، وخيرة الخلق، وأصدق الخلق، قد سمعوا ذلك، وأخبروا عن ذلك، وهم أنبياء الله ورسله، وأعظمهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان يَسمع تسبيح الأشياء، وسمع الصحابة ذلك، حتى نُقل ذلك إلينا، فلا فرق بين أننا سمعنا أو سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، بل إنّ سماعه صلى الله عليه وآله وسلم أشد وأقوى من سماعنا، لأنه أصدق خلق الله، وأوثقهم، وأقواهم على سماع وفهم ذلك.

فخذ هذا الخبر بالتصديق وكأنك سمعته، لأنّ الأمر ليس موقوفاً على سماعك أو فهمك، فقد تسمع أصوات الطيور وهي تسبح الله ولا تفهم ذلك، ولكنك لا تسمع تسبيح الجمادات وغيرها، ولكن هناك من أسمعه الله ذلك، وفَهَّمَهُ منطق كل شيء، فسمع وفهم، وهم رسل الله تعالى، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن الأمور الواقعية في ذلك:

روى الترمذي والدارمي في سننهما، وغيرهما[1]، عن سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الترمذي في كتاب المناقب، باب /٨/ (٣٦٣٠)، والدارمي في المقدمة ص (١٢)، وينظر دلائل النبوة للإمام البيهقي (٢/١٥٣).

فالأشجار والأحجار تَعلم خالقها، وأن لا إلّه إلا الله، وأنّ هذا محمدٌ رسول الله، فراحت وسلمت عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وسمع ذلك سيدنا علي رضي الله عنه بنور من رسول الله؛ كَشف له عن ذلك فسمع وفهم.

وروى الإمام أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه [1]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»

وفي الحديث [2] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبع حصيات أو قال: تسع حصيات، فأخذهن في كفه فسبحت في يده صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأراد أن يسمع الصحابة ـ ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحت، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان فسبحن) والصحابة يسمعون تسبيح الحصيات ويفهمون تسبيحها ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الأشجار تعلم خالقها وربها، ولو أنك سألتها مَن خلقك وَشَجَّرك وَفَرَّعك وثمرك؟ لقالت: الله، ولكن الله جعل حجاباً يحول بينك وبين فهم ذلك، لحكمة منه سبحانه، منها: أن الإيمان في

---

(١) المسند (٥/٨٩)، صحيح مسلم في أول كتاب الفضائل (٢٢٧٧) عن سيدنا جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) عزاه في مجمع الزوائد (٨/٢٩٨) إلى البزار والطبراني، وانظر السيرة الشامية (١٠/١٣٥).

هذا العالم يجب أن يكون غيبياً، حتى يظهر اختيار الإنسان في قضايا الإيمان، وأخبار القرآن، ولو كان الأمر عياناً لَمَا عاد هناك اختيار في الإيمان بل صار اضطرارياً، إذ إن الكل عندئذ يسمعون ويرون ولم يعد للتكليف سرٌ.

ومن ناحية أخرى لو كشف لك الحجاب عن تسبيح جميع الأشياء، وسمعت ذلك وفهمت؛ لطاش عقلك من كثرة الأصوات وقوتها، وهذا لضعف نشأتك الإنسانية التي أنشأك الله بها، فمن رحمته سبحانه ستر ذلك عنك.

ومما ورد في شأن الأشجار، ما روى الترمذي وأحمد وغيرهما[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بم أعرف أنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قال: «أرأيت إن دعوت هذا العذق ـ جذع شجرة ـ من هذه الشجرة تشهد أني رسول الله».

قال: نعم. فدعاه صلى الله عليه وآله وسلم فنزل من النخلة حتى سقط إلى الأرض، وتوجه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالرجوع فرجع. فآمن الأعرابي.

وعن يعلى بن مرَّة الثقفي رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في مسير ـ فذكر الحديث إلى أن قال ـ: ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً، فنام

---

(١) المسند (١/ ٢٢٣)، والترمذي في كتاب المناقب باب /٩/ (٣٦٣٢)، وينظر في السيرة الشامية (١٠/ ١٢٣).

رسول الله ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ـ وفي رواية[1]: حتى طافت به ـ أي: دارت حوله ـ ثم رجعت إلى مكانها.

فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرتُ له ذلك.

فقال: «شجرة استأذنت ربَّها في أنْ تسلم علَيَّ فأذن لها»[2].

وفي هذا دليل على أنه ﷺ عَلِمَ بمجيئها قبل إخبار يعلى له بذلك، وكان ذلك وهو ﷺ نائم، فكان ﷺ تنام عيناه وقلبه يقظان، فحين زارته الشجرة وسلمت عليه عَلِمَ بذلك وشعر؛ فحصل مقصودها.

وروى الدارمي، وابن حبان، والحاكم وصححه[3]، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فأقبل أعرابي فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أين تريد»؟

قال: إلى أهلي.

فقال: «هل لك إلى خير»؟

قال: وما هو؟

قال: «تشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» أي: دعاه إلى الإسلام.

---

(١) كذا في شرح الزرقاني على المواهب (٦/ ٥٢٠) وحجة الله على العالمين للشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى.

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٧٣)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٣).

(٣) الدارمي في المقدمة ص (١٠)، وابن حبان (٨/ ١٥٠)، والمستدرك (٢/ ٦٢٠).

فقال الأعرابي: هل مِنْ شاهد على ما تقول؟

قال: «هذه الشجرة» ـ وأشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى شجرة على شاطئ الوادي ـ فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشجرة فجاءت تخدُّ الأرض خداً، حتى وقفت أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستشهدها ثلاث مرات أنه رسول الله فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها؛ والأعرابي يسمع.

فقال الأعرابي: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله. ثم استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يمضي إلى قومه ليدعوهم إلى الله تعالى. ولقد سمع ذلك الصحابة رضي الله عنهم، وحدَّثوا بذلك، ليبقى حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

ومن ذلك حنين الجذع وصياحه شوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَمّا فارقه إلى المنبر. وإن حديث الجذع متواتر[1]، وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة يابسة في جهة القبلة من المسجد النبوي، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يجعل ظهره الشريف إليها، ويستقبل الناس، فاستأذنه بعض الصحابة أن يصنع منبراً بثلاث درجات، فلما جاوز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجذع وصعد المنبر، صاح جذع النخلة ـ وفي رواية: فحن الجذع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حنين الناقة ـ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة علىالمنبر (٩١٨)، وينظر السيرة الشامية (١٠/١١٣) وما بعدها فقد توسع في تخريج حديث حنين الجذع إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وسمع الصحابة ذلك، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فضمه إليه كالصبي المسكِّن ـ أي: وكأنه يُسكن صبياً من روعه ـ فهدأ الجذع، وأعلن صلى الله عليه وآله وسلم أنه حَنّ لفراقه، ولأنه كان يسمع الذكر.

فلقد تألم الجذع لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحزن لِمَا فاته من قُرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأثره وطربه بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يخطب.

ومما جاء في تسبيح الطيور قوله سبحانه فيما أعطى لسليمان عليه السلام قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] فالطير لها منطق ثابت بنص القرآن الكريم، وقد علّم الله سليمان عليه السلام منطق الطير، ولقد أعطى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، فكان يَسمع تسبيح الطيور ويفهم عنها، كما ورد في الحديث الذي رواه الخطيب(١) والبيهقي وغيرهما، عن أبي ضمرة قال: كنا عند علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين صباح يوم، فمرت عصافير وهي تصيح، فقال الإمام زين العابدين لمن حوله: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا ندري.

قال: أما إني لا أقول لكم إني أعلم بالغيب، ولكن حدثني أبي، أنّ أباه حدثه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الطير إذا أصبحت سَبَّحت ربَّها وسألته قوت يومها» وكل إنسان يشهد هذا صباحاً.

قال الإمام زين العابدين: وهذه العصافير تسبح الله سبحانه.

---

(١) في تاريخ بغداد (٥/٦٦).

ويقول سبحانه: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ أي: إن كل مَنْ هو في السماء ومَن هو في الأرض، من إنسان وطير وغير ذلك، كُلٌّ قد علم صلاته لله، وتسبيحه لله، بتعليم مِن الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] أي: عليم بتسبيحهم وصلاتهم وسؤالهم وعليم بالمَسبِّح منهم، والغافل منهم، وهكذا هو سبحانه عليم بما يفعلون.

وإذا غفل الطير عن تسبيح الله اعترته آفة أو صاده إنسان، كما ورد في الحديث الذي رواه ابن راهويه، عن الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صِيدَ صيدٌ إلا لقلة التسبيح»(١).

وقد روي أن سليمان عليه السلام كان جالساً وحوله أتباعه فصاح القمري فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: ما ندري يا نبي الله.

فقال: إنه يقول: سبحان ربي الأعلى.

ثم صاحت القنبرة فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا ندري يا نبي الله.

قال: إنها تقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما صاح الديك قال: أتدرون؟

قالوا: ما ندري يا نبي الله.

---

(١) ينظر في المطالب العالية (٣/ ٢٥٤)، رقم (٣٤١٥) وقد ذكر له قصة.

قال: يقول: اذكروا الله يا غافلون. أي: أمرهم بذكر الله في ذلك الحين؛ وإلا فهو يسبح في حين آخر.

وروي في الصحيح[1]، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً» فالديك إذا تراءى له ملك صاح وسبح الله تعالى، لما رأى من الجمال والمهابة، وإذا سمعتَ ذلك فاسأل الله لأنّ الملك حاضر، ويسمع دعاءك، ويؤمّن عليه، وإنّ تأمين الملك مُجاب عند الله تعالى فافهم.

ومما ورد في سماع الصحابة لتسبيح الطعام والشراب في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما روى البخاري[2]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فطلبوا الماء فلم يجدوه، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا بفَضل ماء ـ أي: بما بقي عندهم من ماء ـ فجيء بإناء فيه ماءٌ قليل، فأدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده في الإناء، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: «حي على الطهور المبارك، والبركة من الله تعالى».

---

(١) شطر حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٣٢١)، وهو في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق باب /١٥/ (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك (٢٧٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩)، وهو في المسند للإمام أحمد (١/٤٦٠)، وينظر سنن الترمذي أبواب المناقب، باب /١٤/ (٣٦٣٧) والنسائي (١/٦٠).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي رواية ابن مردويه وغيره: «كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه وهو يشرب» الحديث[(١)].

كما أَنّ الحيوانات والبهائم تَشهد أن الله خالقها، وأنه لا إلّه إلا الله وأَنّ محمداً رسول الله، ومما ورد في ذلك، ما روى أبو الشيخ وابن مردويه ـ كما في الدر المنثور ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله عن قتل الضفادع وقال: «نقيقها تسبيح».

وقالت الضفدع يوماً لسيدنا داود عليه السلام ـ وكان جالساً إلى جانب النهر في بيت المقدس في تلك الليلة يصلي، فقالت له الضفدع ـ: يا نبي الله نحن طائفة الضفادع لَمْ نزل من أول الليل حتى الفجر نُسبح الله على رِجْلٍ واحدة. أي: إن الضفادع اجتمعت في تلك الليلة وأحيت الليلة مع داود عليه السلام وهي تسبح الله على رِجْلٍ واحدة.

فلا تغتر أيها العابد بنفسك، إن أحييت ليلة بذكر الله، فالضفادع تمكث ليالي وهي تسبح الله بصدق وإخلاص.

وروى أحمد في مسنده وغيره[(٢)]، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل. أي: وهم يتحدثون مع الناس.

---

(١) تنظر السيرة الشامية (١٠/ ١٥).

(٢) المسند (٣/ ٤٣٩)، وعزاه في مجمع الزوائد (٨/ ١٠٧) إلى أحمد والطبراني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الأسواق والطرق» أي: لأن وقوف الدابة فترة طويلة أمرٌ يتعبها ويشق عليها «فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تعالى منه».

كما لو ركب كافر دابة فهي خير منه، لأنّها تذكر الله تعالى وهو لا يذكر الله تعالى.

وروى أحمد بالسند الجيد، والترمذي وصححه، والحاكم وصححه، ورواه البيهقي وغيرهم[1]. وقد روي هذا الحديث عن أربعة من الصحابة: أبي هريرة وابن عمر وأنس وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم.

ففي رواية أبي سعيد رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي ـ وكان الراعي مشركاً ـ فانتزعها منه. فأقعى الذئب على ذنبه وقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟!!.

فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس.

فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. وفي رواية: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النخلات بين الحرتين، يحدث الناس عن نبَأِ ما سبق وما يكون بعد ذلك.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/٣٠٦) و(٣/٨٣ ـ ٨٤)، وفي سنن الترمذي (٢١٨٢) بعضه ـ شطره الآخر ـ، المستدرك (٤/٤٦٧)، وصحيح ابن حبان (٨/١٤٤)، وفي دلائل النبوة للبيهقي (٦/٤١).

قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره.

وفي رواية: وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا صليت الصبح معنا غداً، فأخبر الناس بما رأيت..» الحديث، ففعل ذلك وأخبر الصحابة عما سمع من الذئب. فالذئب يعلم أن محمداً رسول الله فهو يعلم أن لا إلّه إلا الله ونطق بذلك.

وهذا من جملة معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي أظهرها الله تعالى حجة على المشركين، أنْ أنطق كثيراً من الجمادات وأسمع ذلك للبشر، حتى يكون ذلك حجة على المنكرين باقية إلى يوم الدين.

وكذلك النمل تشهد أن لا إلّه إلا الله وهي تَعلم خالقها:

فقد روى البخاري ومسلم[1]، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء» أي: من أنبياء بني إسرائيل «فأمر بقرية النمل فأحرقت» أي: محل اجتماعها أو سكنها «فأوحى الله إليه أنْ قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح».

فالنمل أمة من الأمم تسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: لا تفهمون تسبيحهم رحمة بكم،

(١) البخاري في كتاب الجهاد والسير باب /١٥٣/ (٣٠١٩)، ومسلم في آخر كتاب السلام (٢٢٤١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكن لأجل أن توقنوا بذلك كشف للأنبياء والرسل وأسمعهم ذلك، وأسمعوا أصحابهم ذلك، حتى يكون سماعهم حجة على المنكرين إلى يوم الدين.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة الحادية عشرة

حول الأدلة والبراهين

على

وحدانية الله تعالى وقدرته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ومربيهم.

لقد تقدم الكلام على الأدلة القرآنية الدالة على أن الله تعالى حق، وأنه هو الواحد الأحد، وأنه المتصف بالكمالات والأسماء الحسنى. وتقدم أن الأدلة القرآنية في ذلك على أنواع: منها استعراض الشواهد الواقعية التي تشهد أن لا إلّه إلا الله. ومنها إقامة الحجج والبراهين العقلية على أنه سبحانه وتعالى واجب الوجود، وأنه أحد، فرد، صمد، وأنه متصف بجميع الكمالات، ومنزه عن النقائص والآفات جل وعلا سبحانه وتعالى.

أما ما يتعلق بالأدلة التي تدل دلالة قاطعة معقولة مُبرمة لا تحتمل التأويل أو النقض، فقد ذكر القرآن الكريم وجوهاً من الأدلة والبراهين العقلية على أنه لا إلّه إلا الله، وعلى حقية قضايا الإيمان.

فمن جملة ذلك ما ذكره سبحانه في فاتحة هذا القرآن الكريم وهي فاتحة سورة الفاتحة فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن جميع المحامد والكمالات لله وحده. وكأنّ هناك مَنْ يقول: وَمَنْ هو الله؟ فقال سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أما الرب فهو: الخالق والمربي بالتربية الدائمة المستمرة.

والعالمون جمع عالَمْ، وهو ما يُعلم به الشيء، كخاتم وهو ما يُختم به الشيء. فماذا يُعلم من العالَم؟ نعم يُعلم منه خالقه وربه، وما العوالم إلا علامات دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

ولقد افتتح الله فاتحة الفاتحة بالدليل القاطع على أنه هو الرب فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والعالم هو: كل موجود سوى الله سبحانه، سواء كان مُغَيَّباً أو مشهوداً.

فالله سبحانه هو الذي خلق العوالم، ورباها، ويربيها وينميها، ويمدها ويعطيها، ويدبر أمورها، ويميتها ويحييها.

وقد سُمي العالَمُ عَالَماً لأنّه علامة ظاهرة بَيِّنَةٌ كالعَلَمِ الظاهر، يدل على مُوْجده وخالقه سبحانه وتعالى.

وإنّ الإنسان هو من جملة العوالم التي خلقها الله تعالى، بل إن الإنسان هو خلاصة العالم، لأنّ السماوات والأرض مسخرة له.

ولقد نبه الله سبحانه في القرآن إلى خلقه للإنسان، وأنّه هو الذي رباه أول مرة، فخلقه وبرأه، وهذا معنى الرب الخالق جل وعلا.

ثم رباه بالتنمية والتنشئة، ثم طوره وأنشأه نشأة بعد نشأة، وخلقاً بعد خلق فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

فلقد بين سبحانه أنّ الإنسان دائماً في تخليق الله، وأنّ الله يخلقه خلقاً من بعد خلق كما قال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ [الزمر: ٦].

فهو سبحانه خلقك، ولازال يخلقك، ولازلت محتاجاً إلى تخليقه، ولا تزال أنت في تخليقه وتطويره وتربيته وتنشئته.

ولقد كان الإنسان في بطن أمه جنيناً على هيئة معينة، ولا استعداد عنده أن يأكل ويشرب مِنْ مآكل الدنيا مباشرة، أو يتنفس من هوائها، بل يأخذ الغذاء عن طريق أمه، وكانت عظامه طرية لينة، وبقي في رحم أمه تسعة أشهر، حتى إذا أدخله الله في عالم الدنيا، وخرج من رحم أمه، خلق فيه الاستعداد والقوة على أنْ يشرب لبن أمه مباشرة، وأن يتنفس الهواء مباشرة، وراحت عظامه تتصلب شيئاً فشيئاً، وهذا كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ أي: خلقناه خلقاً جديداً يختلف عما كان عليه في رحم أمه، فخلقنا فيه القوة والاستعداد للأكل والشرب وتنفس الهواء وغير ذلك.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ثُمَّ﴾ أي: بعد بقائه في الدنيا عمراً معيناً ﴿إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ﴾ أي: وبعد انتقالكم إلى عالم البرزخ ﴿إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾.

فإذا حشرك سبحانه يوم القيامة أنشأك نشأة تختلف عن نشأتك الدنيوية كما قال: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وإذا ارتبت وشكّكْت في ذلك، فقد أشهدك سبحانه الدليل المعاين والمشهود لديك، وهو خلقه لك، وتنشئته لك نشأة بعد نشأة وخلقاً بعد خلق، وذلك لما كنت جنيناً، ثم رضيعاً، ثم طفلاً، ثم شاباً وهكذا.

وإنّ نشأة الإنسان الأخروية أعظم وأقوى من نشأته الدنيوية في المدارك والحواس، لأنها نشأة باقية، وإن نسبة نشأة الإنسان في الآخرة إلى نشأته في الدنيا كنسبة نشأته في الدنيا إلى نشأته في عالم الرحم.

واعلم أنّ الله تعالى دائماً يخلقك خلقاً بعد خلق، بشكل دائم مستمر في الدنيا؛ وفي كل العوالم.

ولكي يتوضح لك ذلك: فالإنسان يمر عليه سنون تتغير فيها هيئته وصورته، وهذا أمر واقعي لا ينكر، وما هذه السنون إلا أشهر عديدة، وما الأشهر إلا أيام، والأيام ساعات، والساعات دقائق، والدقائق ثوان وهكذا. إلا أنّ الإنسان لا يَشعر بتغير صورته وهيئته إلا إذا مر عليه سنون عديدة، ورأى الاختلاف الكبير في ذلك، وهو في الحقيقة لم يكن تغيره مفاجئاً، بل كان بشكل مستمر دائم، لكنه خفي عليه لسرعته واستمراريته. فهو دائماً في خلق جديد، وتربية جديدة، وتنشئة جديدة، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥] أي: هل أصابنا التعب والعجز لَمّا خلقناهم أول مرة؛ ولم نعد نقدر على خلقهم وإعادتهم بعد موتهم وتفرقهم؟؟!!!. لا بل إنّنا قادرون على بَعثهم وجمعهم، لأننا دائماً نخلقهم خلقاً جديداً، لكن هذا الأمر التبس عليهم، إلا أنّهم إذا تفكروا وتأملوا

عرفوا ذلك وأيقنوا به، كما يشهدون ذلك في تخليق الله لهم، وتربيته لهم. فقد كانوا في الرحم إلى أن صاروا في عالم الدنيا وهكذا.

فهم في كل لحظة يُخلقون خلقاً جديداً، إلا أنّهم لا يظهر لهم ذلك حتى تمضي عليهم سنون، ويرون الفرق بين ما كانوا عليه وبين ما صاروا إليه؛ من الخلق والهيئة والصورة والقوة وغير ذلك. وإليك ما يوضح ذلك:

إن نور المصباح الذي تراه هو نور متقطع، كما يعلم هذا من عنده علم بفن الكهرباء، لأنه نُور مؤلف من مَوْجات وذبذبات متلاحقة مستمرة، إلا أنّ الناظر إليه يحسبه نوراً مستمراً، خفي عليه انقطاعه لسرعة موجاته وذبذباته، كما أنّ الشمعة التي تُضيء لك البيت نُورها متقطع وليس ثابتاً، وإلا لو كان ثابتاً لما ذابت الشمعة، إلا أنّ هذا أمر يلتبس على الناظر لسرعته، وإنما يعرفه من درس وتفكر وتدبر وتأمل.

وكذلك من تدبر في وجوده وخلقه، وتطوير الله له، وتربيته له، من طور إلى طور، ومن صُورة إلى صورة، علم أنّ الله تعالى يخلقه في كل لحظة خلقاً جديداً مستمراً متوالياً، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

فلا تنكر أيها الإنسان وجود الرب المربي للعالمين، وهم بحاجة إلى تربيته سبحانه وتنشئته. فهو الذي يربي العالمين كلهم، فيربي عالم الشجر، وعالم البشر، وعالم الحجر؛ بأن يمده ويمسك عليه صلابته، ولو سلبه الإمداد لتلاشى.

وكذلك أهل السماوات محتاجون إلى تربية رب العالمين وإمداده لهم.

ولقد لَقَّن الله تعالى موسى عليه السلام الحجة والدليل على وجود الله سبحانه، لَمَّا سأله فرعون عن ذلك، كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢].

وقد جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عدة مناظرات، في عدة مجالس، وفي كل منها كان فرعون يسأل موسى عليه السلام ويلقن الله تعالى الحجة لموسى عليه السلام، كما ذكر عنه في آية أخرى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣ـ٢٤].

ولا تظن أنّ قصة فرعون مكررة في القرآن، إذ لا تكرار في القرآن، وإنما يذكر الله تعالى في كل مرة ما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون من مناظرات واقعية، وكان فرعون في كل مناظرة يسأل موسى عليه السلام ويلقن الله الجواب لموسى عليه السلام، ويقيم الحجة على فرعون.

فمن ذلك ما ذكر الله عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: أنت تسأل عن ربنا الذي ندعوك إليه، والذي نَدين له ونؤمن به ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩ـ٥٠] أي: هذا هو الرب

المربي والخالق، هو الذي أعطى كل موجود وجوده وكماله الخَلْقي اللائق به، ثم هداه لما فيه مصلحة بقائه وحياته.

فنظر فرعون في هذا الجواب وهل أنه أمر واقع؟؟ فرأى أَنّ هذا أمر حق، إذ إن الله أعطى كل كائن موجود كماله الخلقي الوجودي، ثم دَلّه وبَيّن له ما فيه معاشه ونظامه ومصلحته وبقاء حياته.

فترى أَنه سبحانه أعطى العصفور مثلاً كماله الخلقي بصورته وهيئته، ثم هداه لطريقة معاشه وحياته وتناسله، وكيفية حصوله على الغذاء، وهكذا علمه سبحانه ما ينفعه من المآكل وما يضر به، وكيف يَفرّ من عدوه من الطيور الأخرى كالنسر، وكيف يأتلف مع بني جنسه كالحمام وغيره وهكذا.

ثم إنّه سبحانه أعطى النملة خلْقها وصورتها الخلقية اللائقة بها، وهداها لما فيه معاشها ونظامها، وكيف تحصل على غذائها، وتجمع الحبوب وتختزنها في وكرها، وإذا تعرضت الحبة للرطوبة انتظرت يوماً مشمساً فأخرجتها وعرضتها للشمس حتى تجف، ثم اختزنتها حتى لا تُصاب بالعفونة. كما أنها تلجأ أحياناً إلى شَق الحبة نصفين أو أكثر حتى لا تصيبها الرطوبة والعفونة فتنبت.

وتمتاز النملة عن غيرها من الدواب بالحرص والتدبر والتموين.

ويحكى أنّ نبي الله سليمان عليه السلام الذي أعطاه الله الفهم عن الحيوانات، أُتي يوماً بنملة ذات شأن، وسألها كم يكفيها من الحبوب في السنة لغذائها؟ فقالت: ثلاث حبات. فلما مضت سنة أخرجها وقد أكلت حبة ونصف الحبة فقط، فلما سألها عن ذلك

قالت: يا نبي الله أنت ملك مشغول بشؤون الرعية، وربما نسيتني لكثرة مشاغلك، فاقتصرت على حبة ونصف، وادخرت حبة ونصفاً. فتأمل أيها العاقل في عالم النمل، وكيف يقوم بتدبير معاشه وغذائه، حتى يوفر الحياة اللائقة به؛ تَجد أن هناك مَنْ عَلّمها ذلك، وهداها لما فيه بقاؤها ومصلحة حياتها وهو الله سبحانه الذي قال مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ولما مر سليمان عليه السلام بجنوده على وادي النمل ـ أي: جب النمل ـ نادت النملة التي كانت تترأس جب النمل، نادت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وكأن النمل تساءلت: وكيف يطؤها سليمان وجنوده وهو نبي الله؟ وهم أتباعه فقالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] أي: لا يشعرون بكم إنْ وطِئتكم أقدامهم، لأنّ الجيش عرمرم، وهم يسيرون وينظرون أمامهم لا تحت أرجلهم.

وكذلك النحلة، فقد أعطاها الله خلقها اللائق بها، وهداها لما فيه مصلحة وجودها ونظام معاشها، وذلل لها سُبل وطرق الوصول إلى الأزهار والثمار، حتى تحصل على غذائها، فهي تعاكس الريح في سيرها، وتمضي إلى رزقها وهكذا. كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

وهكذا فإنّ فرعون تَفكر في جواب موسى عليه السلام ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فرآه حقاً، ولم يسعه إنكار هذه

الحقيقة الظاهرة في جميع المخلوقات والكائنات، فسأل موسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: التي جحدت وكفرت بربها كقوم عاد وثمود وغيرهم.

فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: إنما كفرت الأمم السابقة جحوداً وعناداً وكبراً وإعراضاً، وقد ظهر لهم الحق وكفروا به، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولم يؤمنوا بها؛ بل أعرضوا واتبعوا أهواءهم، ولذلك فإنّ علمهم عند ربي في كتاب. أي: إن كفرهم وفسقهم وأعمالهم مسطورة عند ربي في كتاب، وهو كتاب الإحصاء الذي يُحصي على العالم أعمالهم، ويُبْرِزُ لهم يوم القيامة هذا الكتاب، كما قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي: لا يترك ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهكذا قال له موسى: أنت تسألني عن كفر الكافرين فلقد كفروا بعد علم، وجحدوا بعد معرفة، ولذلك فإنّ علمهم عند الله تعالى، فهو سبحانه يجمعهم ويحاسبهم كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾.

واعلم أن الله تعالى لَمْ يكتب عليهم ذلك الكتاب لأنه ينسى، أو لأنه يسهو جل وعلا ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ وإنما سطر عليهم أعمالهم في كتاب الإحصاء[1] ليكون حجة عليهم، ويروا أعمالهم

---

(١) هناك كتابان: كتاب القضاء السابق، وكتاب الإحصاء اللاحق. وإن حجة الله على خلقه هو كتاب الإحصاء لا كتاب القضاء.

مسطورة في هذا الكتاب، حتى إذا أشكل على أحدهم واضطرب مما وجده في الكتاب فيقال له: انظر في كتاب الإحصاء، وانظر في لوحة نفسك، فإنّ أثر العمل المسطور عليك في الكتاب أثره موجود في لوحة نفسك ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: مسطوراً في الكتاب، وأثره ظاهر عليهم. ويقال لكل إنسان: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

فلقد وافق الكتاب ما هو ظاهر عليهم من آثار أعمالهم؛ فلا يسعهم الإنكار، وليس لهم سبيل إلا الاعتراف والإقرار.

وهكذا ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وهذا معنى الرب وهو أنه رب العالمين. أي: ربهم أعطاهم خلقهم ووجودهم اللائق بهم، وهداهم لما فيه مصلحة بقائهم ومعاشهم وحياتهم.

ومن كمال تربيته سبحانه للإنسان أنْ هداه، وأنزل عليه الشرائع، وأعظمها الشريعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا لأن في الشريعة تربية للإنسان، وترقية له في كمال الإنسانية، حتى يُصبح إنساناً علوياً ربانياً، وكلما تَمَسَّكَ الإنسان بالشريعة وأحكامها كلما ارتقى في كمال الإنسانية. أما إذا أهمل أحكام الشريعة وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فيصير أضل من البهائم، ويظهر هذا لك: إذا أمسكت حماراً من زمامه وقربته إلى حفرة هاوية لَمَا تقدم إليها، أما إذا أمسكت بيد إنسان شرب الخمرة وعصى أمر الشريعة حتى أسكرته الخمرة، وقربته من الحفرة وقلت

له: إنّ هذه الحفرة عبارة عن درجة بسيطة لتقدم إليها وهوى فيها، وبذلك صار أضل من الحمار، لأنه عصى ربه وخالف أوامر الشريعة.

وهكذا فإن تربية الله للموجودات ظاهرةٌ فيها، كما أَنّ العالم كله محتاج ومفتقر لتربية الله تعالى، أن يمده بالوجود والحياة وأسباب الحياة.

وإن الحاجة والفقر في المخلوق حاجة ذاتية حقيقية، فترى الإنسان مفتقراً إلى الهواء والغذاء والشراب، ومفتقراً إلى الراحة واستقرار الأرض تحته أَن تضطرب وتتزلزل أو تخسف.

فهو سبحانه الذي يرسل الهواء، ويمد بالغذاء والماء، ويمسك الأرض أن تتزلزل أو تضطرب.

فإذا ثبت لك أن العالم كله مفتقر ومحتاج فلا بد أن يكون هناك بحكم الضرورة مَنْ يَسد حاجاتهم، ويدبر أمورهم، ولابد أَن يكون هذا غنياً وغير محتاج إليهم، وهذا هو الله سبحانه الصمد. أي: الغني بذاته، والمفتقر إليه كل ما عداه، والعالم كله صامد له، أي: قاصد له في مهماته وحوائجه.

وهكذا ترى أَنّ الله سبحانه يُمسك الأرض أَن تزول أو تضطرب في فلكها وسيرها فيه، فقال سبحانه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي: عن أماكنهما ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: عن أماكنها ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۗ﴾ [الحج: ٦٥].

ولقد بين سبحانه آثار ومظاهر اسم الصمد في العوالم فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي: يسألونه حاجاتهم، سؤالاً ذاتياً، بحقائقهم وذواتهم، يسألون الله أنْ يمدهم بالوجود وأسباب الوجود، وهذا السؤال في كل يوم شأني. أي: في كل لحظة، بل في أقل من اللحظة، وقد جاء بيانه في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾.

فجميع المخلوقات والعوالم تسأل ربها في كل لمحة بصر، بل أقل من لمحة البصر؛ تسأله أن يمدها بالوجود، وهو سبحانه يَسُد حاجاتها، ويمدها ويرزقها، كما ورد في الحديث الذي رواه الطبراني والبزار[(١)]، أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فقال: «شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويجيب داعياً، ويضع قوماً ويرفع آخرين» أي: أن هذا من جملة الشؤونات الإلّهية، وإنّ لله في كل لمحة شؤونات لا تعد ولا تحصى، ومن جملة شؤوناته كما بيّن صلى الله عليه وآله وسلم:

لما سأل اليهود[(٢)] وكفار قريش[(٣)] سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: انسب لنا ربك ـ أي: ما هي نسبة العالم إلى الرب، وما هي نسبة الرب إلى العالم، هل هي نسبة والد إلى

---

(١) مجمع الزوائد (٧/١١٧).

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه.

(٣) كما في مسند الإمام أحمد (٤/١٣٤)، وسنن الترمذي آخر كتاب التفسير (٣٣٦١) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه.

مولود؟؟ وفي رواية: صف لنا ربك؟؟ فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هو كما هو، ولا يعلم حقيقته وكنهه إلا هو، فهو سبحانه مِن حيث الحقيقة والذات هو في الغيب المطلق عن إدراك المخلوق، وذلك لأن حقيقته سبحانه لا تتناهى، وإن المخلوق متناه، وكيف يُحيط المتناهي بما لا يتناهى؟؟ كما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما سيأتي عليهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: وما مضى. أي: أنه محيط بهم علماً، أما هم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

فهو سبحانه محيط علماً بك، ومحيط قدرة بك، ومحيط بك من كل الوجوه، إحاطة لائقة به سبحانه، فكيف يَصِحّ عقلاً أن تخرج مِن حِيطته فتحيط به؟؟!!

فالله سبحانه وتعالى لا تدرك حقيقته، وإنما تَعَرَّف إلى خلقه بالصفات والكمالات، وأمرهم أن يَعرفوه بالصفات التي عَرَّفهم إليها. كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقد نصب سبحانه العوالم وهي شواهد ومظاهر وآثار صفاته وكمالاته وقدرته سبحانه.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق؛ فإنكم لا تقدرون قدره»[1] أي: لا يُمكن أن

---

(١) عزاه في الفتح الكبير إلى أبي الشيخ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

تحيطوا به علماً، كما لا يمكن أن تعرفوا حقيقته وكنهه سبحانه. وإنما يجب عليكم أن تعرفوه بصفاته الظاهرة آثارها في خلقه.

أما لفظ الجلالة (الله) فهو: الاسم الدال على الذات، المتصف بجميع الكمالات، وهو ليس بمتعدد، أو متجزئ، أو مركب، أو بسيط، بل هو واحد أحد من كل الوجوه والاعتبارات.

وهو أحد لا ثاني له، وهو القديم الذي ليس قبله شيء، والباقي الذي ليس بعده شيء.

وإذا كان الواحد العددي ليس قبله أحد، فما بالك بالواحد الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى؟

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المصمود ـ فَعَل بمعنى مفعول ـ فهو سبحانه مصمود له، ومصمود إليه أي: هو المقصود في الحاجات، والعالم كله قاصد صامد إلى ربه في حاجاته ومهماته.

ومن كان مقصوداً في جميع الحاجات كان غنياً بذاته؛ ومفتقراً إليه جميع ما عداه.

وإن الفقر والحاجة في المخلوق ذاتية فيه، سواء اعترف أم جحد، كما قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي: أنتم الفقراء إلى الله بذاتكم ووجودكم وحقائقكم، والله الصمد الذي يُمدكم ويربيكم ويدبر أموركم.

وإذا ثبت عقلاً وذوقاً وفطرة وجود الحاجة والفقر إلى الغير، كفقرك وحاجتك إلى الهواء والغذاء وغير ذلك، وتراها أنها مبذولة

لك، فلابد إذاً من وُجود مفتَقَرٍ إليه، تقوم به الحاجات وكفاية الخلائق، وهو الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أي: سؤالاً ذاتياً وجودياً بحقائقكم.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي: لم يلد غيره ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم يُولد من غيره. فهو سبحانه لم يَلد ولم يولد: لا حسّاً ولا عقلاً، وإنّ التولّد الحسي ينشأ عن التولد العقلي، إذْ لما ادعت النصارى أنّ عيسى ابنُ الله، وأنّ الله يلد، وقَد وَلَد عيسى، فهي ولادة حِسّية، إلا أنهم ما قالوا ذلك إلا بعد أن وَلّدوه وِلادة عقلية، وجوَّزوا على الله الولد، وحكموا أنه وَلَد عيسى. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم تُولده العقول والأفكار.

فلا يكن معبودك وليد عقلك وفكرك، بل يجب أن تعرف الله كما عَرّفك سبحانه عن نفسه، وعَرّفك به أعظم مُعرف بالله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. واترك أوهامك وأفكارك الباطلة، واجعل عقلك تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تعرف الله كما هو، لا كما يدور في فكرك وعقلك.

ومهما عرفت وعرفت فالله أجل وأكبر سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: ولم يكن أَحد كفواً له، أو نظيراً له، أو مكافئاً له، أو شَبيهاً له، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فلا يُشبه خلقه، ولا الخلق يشبهونه، بل هو كما هو جلَّ وعلا.

وهكذا افتتح سبحانه فاتحة سورة الفاتحة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وما العوالم إلا علامات دَالّة على الله تعالى، وعلى قدرته ووحدانيته.

فلينظر الإنسان في هذه العوالم، وليتفكر فيها، ليَعْبُرَ فيها إلى ربها وخالقها وممدها كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

فترى السماوات بأفلاكها ونجومها وكواكبها، وما أودع الله فيها من خصائص وأسرار، ولقد سَمّى الله تعالى هذه العوالم السماوية بالمصابيح فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وإن جميع ما تراه؛ وما لم تَرَهُ من النجوم والكواكب؛ إنّما هو تابع لعالم الدنيا.

وهذا العالم إذا ما نسب إلى ما وراءه مِنْ عالم كانت نسبته كحلقة في فلاة، كما دلت على ذلك الأحاديث، حتى ينتهي الأمر إلى عالم العرش.

وفي الحديث: «ما الدنيا في الآخرة» أي: ما نسبة الدنيا إلى الآخرة في سعتها وعظمتها «إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، ثم لينظر بم ترجع»[١].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة أهلها، باب فناء الدنيا /٢٨٥٨/ والترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله تعالى /٢٣٢٤/ وابن ماجه /٤١٠٨/.

أما العوالم العرشية فتسمى بالقناديل، كما دل على ذلك الحديث: «لما أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: » - أي لبعضهم - «مَنْ يبلغ عنا إخواننا» أي: في الدنيا «أننا أحياء في الجنة نرزق؟ فقال تعالى: أنا أبلغهم عنكم» وأنزل قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما(١).

أما تفصيل البحث في العوالم [فانظر كتاب هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان لمولانا الوالد رضي الله عنه].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/٢٦٦)، وسنن أبي داود في كتاب الجهاد (٢٥٢٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٩/١٦٣)، ودلائل النبوة له (٣/٣٠٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

المحاضرة الثانية عشرة

حول الأدلة والبراهين
على أَنّ الله تعالى حق
وأنه لا إله إلا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إن من جملة البراهين التي لقنها الله تعالى حجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على الكفار المشركين، والكفار المنكرين الجاحدين قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

[النمل: ٥٩ـ٦٤]

فلقد ذكر سبحانه هذه البراهين، ولقنها حجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على العالم، وبَيّن في آخر الأمر قوله: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: إنّ هذه البراهين دالة على أنّ الله حق، وأنه واحد أحد لا شريك له، فإن كنتم تُنكرون أو تَدّعون أنّ معه إلهاً آخر فهاتوا البرهان على أن له شريكاً. وإن كنتم تنكرون وجود الله إنكاراً كلياً فهاتوا برهاناً عقلياً على نفي واجب الوجود سبحانه وتعالى. ولا شك أنّه ليس هناك دليل يُثبت الشريك؛ أو يُنكر أنه لا إلّه إلا الله. بل إنّ الأدلة القاطعة العقلية الواقعية كلها شواهد أنّ الله حق، وأنه لا إلّه إلا الله.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد يا رسول الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه هو الله المتصف بكل الكمالات، والمنزه عن النقائص والآفات ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: العباد الذين اصطفاهم بالرسالة والنبوة، والعباد الذين اصطفاهم لصحبة الأنبياء والرسل، والعباد الذين اصطفاهم بمتابعة الرسل صلوات الله عليهم. وهذا لأنّ الاصطفاء على أنواع، وقد جاء السلام من ربِّ العالمين على المصطفين الذين اصطفاهم.

فأولهم الذين اصطفاهم بالرسالة والنبوة، وهم الرسل والأنبياء، لأنهم صفوة الله من خلقه.

ثم أصحاب الرسل، الذين اتبعوهم ونصروهم في زمنهم، وأولهم وأفضلهم أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي

هذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ كما في المسند وغيره ـ[1]: (إن الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجد قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، يقاتلون عن دينه. فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ).

فأصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبر الناس قلوباً، وأوسعهم علماً، وأشملهم إيماناً، اصطفاهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ولنشر دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، فإنهم على الهدي المستقيم. وأصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم خير الناس بعد الرسل والأنبياء، وقرنهم أفضل القرون، ولقد انعكست في مرايا قلوبهم أنوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ ويشمل هذا الذين اصطفاهم الله لاتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهم أمته المتبعة له إلى يوم القيامة، ولذلك كانوا خير أمة، وخير القرون، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: يا أمة محمد عليه الصلاة والسلام، والمراد بهم أمته المتبعة له، بدليل قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

---

(١) المسند (١/٣٧٩)، وعزاه في مجمع الزوائد (١/١٥٧) إلى البزار والطبراني.

فالمتبعون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم صفوة الله من الأمم. اللهم اجعلنا منهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: انظروا وتفكروا مَنْ خلق السماوات وما فيها مِنْ آيات ومعجزات، وَمَنْ خلق فيها هذه الكواكب والنجوم، وأودع فيها الخصائص والأسرار؟

وَمَنِ الذي أوقع هذه النجوم والكواكب في أفلاكها؟؟

وَمَنِ الذي قَدّر بينها الأبعاد والمسافات والنسب، على وجه دقيق مُحكم، في شروقها وغروبها وحركاتها ودورانها.

وَمَنِ الذي قدر الأبعاد بينها وبين بعضها، وبينها وبين الأرض، وأودع فيها الخصائص والآيات، فجعل منها السهل والوعر، والخصب والجدب، والأحمر والأبيض، وخلق فيها المعادن والينابيع المختلفة وهكذا؟؟.

فالبشر عاجزون عن خلق ذلك، فلابد إذاً مِنْ وجود خالق عليم قدير، وهو الله سبحانه، ولو كان الأمر بلا صانع ولا خالق مُدبر لكانت الأرض على لون واحد، وخصوصية واحدة، وطبيعة واحدة، لكن الاختلاف في نظامها أمر ظاهر، فمنها الوعر ومنها السهل، ومنها البارد ومنها الحار، ومنها المجدب ومنها المخصب، ومنها ومنها وهكذا. فلابد إذاً مِنْ وجود خالق ميَّزَ بعضها عن بعض، وخص بعضها دون بعض، لحكمة منه سبحانه؛ فيها مصلحة للإنسان.

وترى أنّه سبحانه دائماً يذكر السماوات مقرونة بالأرض، والأرض مقرونة بالسماوات، وذلك لشدة الارتباط بين السماوات والأرض، الارتباط الخَلْقي والروحي والأمري كما سيأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ أي: أنزل من السماء ماء واحداً، فأنبت به الأشجار والزروع، المختلفة في شكلها ولونها وطعمها.

فالماء واحد، والهواء واحد، والأرض واحدة، لكن اختلفت النباتات في أشكالها وألوانها ومذاقها، فَمَنِ الذي أوجد هذا الاختلاف بينها؟؟ نعم إنه الله الخالق البارئ المصور، الذي فَضّل بعضها على بعض، وميز بعضها عن بعض كما قال تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرعد: ٤].

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي: إن لم ينبتها ربّ العالمين لكم لَمَا استطاع أحد منكم أن ينبتها، ولو اجتمع أهل الأرض على إنباتها لما نبتت إلاّ بإذن الله تعالى. وهذا أمر معقول مشهود، فترى المزارع يزرع حبوباً كثيرة، ولا ينبت منها إلا ما أراد الله، وكذلك عجم الشجر فلا تُنبت شجرة إلا بإرادته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هل هناك بعد هذا جحود بالله؟ أو إشراك له بإلّه آخر ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون فيعلمون أن الله حق، وأنه لا إلّه إلا الله.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ والمضطر هو: الذي انقطعت به الأسباب، ووقع في الضرورة والاضطرار، ولجأ بكليته إلى مُغيث يغيثه. فَمَنِ الذي يُجيب هذا المضطر؟

وترى أن المضطر يجد في قلبه توجهاً نحو مغيث يغيثه وهو لا

يراه بعينه. والمؤمن يوقن أن هذا المغيث هو الله تعالى. وأما الكافر الجاحد فهو يجد في قلبه توجهاً نحو مغيث يُغيثه، وأملاً كبيراً في كشف الضر عنه، لكنه لا يعلم مَنْ هو هذا المغيث!! فقل له: هذا هو الله الذي جَحَدت بوجوده، أو أشركت معه، فقد لجأت إليه وقت الشدة والاضطرار، فكيف تُنكر وجوده أو تشرك به، وقد لجأت حقيقتك وذاتك وقلبك إليه سبحانه وتعالى؟؟!!.

وقد وردت كثير من الوقائع التي تُثبت أنه سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه، فمن ذلك:

ما روى ابن عساكر بسنده[1]، أن رجلاً مؤمناً ـ في عصر السلف الصالح رضي الله عنهم ـ كان يكاري على بغلة له، وكان يعمل ما بين دمشق والغوطة، فجاءه رجل وطلب منه أن يحمل له، فلما فعل وهما في الطريق، طلب منه الرجل أن يُغَيّر طريقه، زاعماً أنه أقرب، فلما فعل وقطعا مسافة معينة، نزل الرجل وأرغم صاحب البغلة على النزول وأراد قتله، ونظر الرجل فرأى وادياً وفيه قتلى، فقال له: خذ المال والبغلة ودعني وشأني.

فقال له: إنه يريد قتله.

فقال له صاحب البغلة: دعني أُصلّي. فقال له: افعل.

فلما دخل في الصلاة أُرتج عليه، وجعل يكرر قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وبينما هو كذلك أقبل رجل على فرس،

(١) كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية الكريمة.

وبيده حربة، وصاح في الرجل، وطعنه في رأسه فقتله، فتعلق الرجل بأذياله وقال له: بالله عليك مَنْ أنت؟ قال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

فعاد الرجل إلى بلدته، وحدث جماعته، وسمعها منه رجل من أكابر الصوفية في عصره، ونقل هذا عنه وحدث به.

وروى ابن أبي الدنيا[1]، عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: كان رجل من الأنصار[2] تاجراً، فكان يَذهب في الآفاق، فذهب في طريقه فلقيه لص وأراد سَلْبه وقتله، فاستأذنه أن يُصَلِّي فأذن له، فقام فصلى أربع ركعات، ودعا في سجوده الأخير: (يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما يريد، أسألك بعزك الذي لا يُرام، وبركنك الذي لا يُضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك: أن تكفيني شر هذا اللص. يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني).

فإذا بفارس أقبل على فرس، ورمحه ملقى عرضاً على أذن الفرس، حتى لا يُرى. فصاح به، فظنه اللص أنه لا سلاح معه، فلما دنا منه رماه برمحه وقتله.

فقال الأنصاري لذلك الفارس: أنشدك الله مَنْ أنت؟ وَمِن أين جئت؟

قال: إني ملك من أهل السماء الرابعة، لما دعوتَ سمعتُ

---

(١) في كتابه مجابي الدعوة ص (١٦).

(٢) وكنيته أبو معلق كما في الإصابة باب الكنى.

لأبواب السماء قعقعة، فلما دعوتَ ثانياً سمعتُ لأهل السماء ضجة ـ أي: اهتمت الملائكة بالأمر ـ ثم دعوتَ ثالثاً فقيل: دعاء مكروب. فسألت الله أن يوليني قتله[1].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فمتى صح التوجه حالة الاضطرار أجاب الله المضطر.

ولما أسلم عمران بن حصين رضي الله عنه قبل والده حصين[2]، وكان حصين ذا وجاهة وزعامة في قومه، فجاء المشركون إلى حصين وقالوا له: اذهب بنا إلى محمد وكلمه أن يكف عن سب آلهتنا.

فذهبوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستأذنوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأذن لهم. وكان حصين رجلاً مسناً، وكان ابنه عمران في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتئذ. فلما دخل حصين وجماعته ينتظرونه على الباب؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوسعوا للشيخ» لأنه كان مسناً. فدخل وجلس ولم يقم له ابنه عمران، ولم يسلم عليه، ولم ينظر إليه.

فقال حصين: يا محمد بلغنا أنك تسب آلهتنا.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حصين كم تعبد من إلّه».

قال: سبعاً في الأرض، وواحداً في السماء.

---

(١) وتمامه في الإصابة: ثم قال أبشر. واعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء استجيب له. مكروباً كان أو غير مكروب.

(٢) الخبر في الإصابة، وعزاه لابن خزيمة، وينظر في المسند (٤/ ٤٤٤)، وسنن الترمذي في كتاب الدعوات باب /٧٠/ (٣٤٧٩).

قال: «فإذا أصابك الضرّ مَنْ تدعو»؟ قال: الذي في السماء.

قال: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو»؟؟ قال: الذي في السماء.

قال: «فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟ أرضيته بالشكر» أي: هل ترضى أن يكون شكرك له بأن تشرك معه غيره «أم تخاف أن يُغلب عليك» أي: أم تخاف من الأصنام أن يمسوك بسوء.

فقال: ولا واحدة من هاتين. أي: أنا لا أخاف أذى الأصنام، ولا أرضى من نفسي أن أشكر الله الذي يُجيبني وأجعل معه آلهة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حصين أسلم تسلم».

فقال: إن لي قوماً وعشيرة ـ أي: إن أسلمت فإن ورائي قوماً يتبعونني فإن أسلمت فقد تزول زعامتي عليهم ـ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وزدني علماً ينفعني».

وعند الترمذي(١): «اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي» أي: حتى لا تكون نفسه وشهواتها مانعة له عن الإيمان بالله تعالى.

فدعا حصين بما علمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما لبث أن قام وقال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقام ابنه عمران رضي الله عنه فقبل رأس والده ويديه ورجليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم

---

(١) في كتاب الدعوات باب / ٧٠/ (٣٤٧٩).

يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته. فلما أسلم قضى حقه» وهكذا دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حناناً وعطفاً.

ثم قام حصين فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قوموا فشيعوه إلى منزله» أي: ودِّعوه لأنه كان كبير السن، وزعيماً في قومه، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يكرم كرام القوم.

فلما خرج إلى جماعته وأعلن إسلامه قالوا: صبأ صبأ حصين أي: رجع عن الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: تخلفون غيركم، ويخلفكم غيركم، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن. فَمَنِ الذي يُذهب بذلك الجيل ويأتي بهذا دون انقطاع أو تخلف؟ بل على وجه منتظم مستمر. وَمَنِ الذي يَجعلكم خلفاء في الأرض تتصرفون فيها، وتنتفعون منها؟!! إنّه الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يهديكم في ظلمات البر حين تُمسون في البر، ويهديكم في ظلمات البحر حين تمسون في البحر. فهو سبحانه يهديكم بأسباب: إما بالكواكب، أو الرياح.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ﴾ وهذا أمر مشهود، فبينما تكون السماء صافية إذ هبت الريح، وتراكمت السحب، حتى استحكمت وأرعدت ونزل المطر.

فَمَنِ الذي أنزل المطر في هذه البقعة ولم يُنزله في غيرها؟ إنه الله الحكيم المدبر.

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الله سبحانه هو الذي بدأ خلق الإنسان، ثم يعيده بعد مماته وتفرق أجزائه ﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: يسوق لكم الأرزاق السماوية والأرضية.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إنّ هذه البراهين تُثبت أنّ الله حق، وأنه واحد أحد، أما إذا ادعيت أنّ معه إلهاً آخر، أو آلهة أخرى، فزعمك باطل مردود، لأنّ الأدلة والبراهين العقلية تُثبت وجود الله، وأنه واحد أحد، أما دعوى الإلّه معه فلا دليل ولا برهان عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: بل إنّ البرهان والدليل يثبت أنه واحد سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ [المؤمنون:١١٧] وهذا الإله الواحد ذو قدرة على كل شيء، فما الحكمة في وجود إله ثان معه؟؟!!.

ويقال لمن ادعى أنّ مع الله إلهاً آخر: لِم لَم يكونوا ثلاثة آلهة؟ وإن قلت: هم ثلاثة فلِمَ لَمْ يكونوا أربعة، أو خمسة، أو أكثر. وما هو وجه الحصر العقلي في أنّ الآلهة ثلاثة فقط. ومادام أمر الآلهة قابلاً للتعدد فما هو الدليل العقلي على أنّه لا يصح أن يكون هناك إلا ثلاثة آلهة؟؟.

وإذا كان هذا الإلّه يُحب الأولاد فاتخذ له ولداً، فلِمَ اتخذ له ولداً واحداً فقط مع أنه على زعمهم يُحب الأولاد؟؟ ولِمَ لَم يتخذ عدة من الأولاد؟؟.

فإذا كان يُحب الأولاد فهل يُعقل أن يتخذ ولداً واحداً، ويدع

اليهود تقتله وتصلبه كما زعموا. فأين قدرته وأين محبته لهذا الولد؟؟ فما هذا إلا افتراء على الله سبحانه الواحد الأحد ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وإنّ الأحد لابد منه عقلاً وذوقاً، وفطرة ودليلاً وبرهاناً، وأما التعدد فلا دليل عليه ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا دليل له على ذلك، بل إنّ الدليل والبرهان على أنه سبحانه واحد أحد ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

ومن الأدلة والبراهين القاطعة على أن الله تعالى حقّ واجب الوجود، وأنه واحد أحد، ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢] ينبّه الله تعالى في هذه الآيات، ينبه العقلاء إلى النظر في العوالم، وأنّ هذه العوالم هي علامات تَدل على وجود الله، وعلى قدرته وحكمته وسعة علمه سبحانه وتعالى.

وقد أنزل الله تعالى هذه الآية حجة على المشركين، ولقّنها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرأها عليهم.

وكان سبب نزولها[1] أنّ كفار قريش اجتمعوا فقال بعضهم

---

(١) ينظر الدر المنثور عند تفسير أول سورة فصلت. فقد ذكر طرق الحادثة.

لبعض: مَنْ يذهب إلى هذا الرجل ـ أي: سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيكلمه، فإنّه شتم آلهتنا، وعاب ديننا، فَمَن يكلمه حتى يكف عن مقاله وشتمه للأصنام؟ وقالوا: مالنا إلا عتبة بن ربيعة. وكان أدهاهم وأمرّهم، وكان يكنى بأبي الوليد.

فذهب عتبة واستأذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأذن له، فجلس وقال: يا بن أخي لقد علمتَ مكانتك فينا ـ أي: إنك تعلم أن لك مكانة فينا وجاهاً وفضلاً علينا في بسط العشيرة، وفي شرف النسب ـ فأنا أعرض عليك أموراً فانظر فيها.

قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل».

فقال: إنْ كنتَ تريد الملك مَلَّكْنَاكَ علينا، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من مال قريش حتى تكون أكثرنا مالاً، وإنْ كنت تريد الشرف فنحن مُشَرِّفوك علينا ـ أي: نجعلك سيداً علينا ـ فلا نخالف أمرك، وإنْ كنت تريد الباءة ـ أي: الزواج وحب النساء ـ زوجناك أحسن نساء قريش.

وكان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أفرغت يا أبا الوليد»؟؟.

قال: نعم يا بن أخي.

قال: «فاسمع مني» قال: أفعل ـ أي: أسمع ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ

يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا
فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ
إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ
لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي
يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١-١٢].

فلما سمع عتبة هذا الكلام ارتجف وخاف، وقال: يا محمد أناشدك الله والرحم إلا كففت عن هذا ـ أي: أسألك بالله والرحم ـ أي: القرابة الرحمية بينك وبين قبائل العرب إلا كففت عن هذا التهديد والوعيد، وذلك لأنّهم يعلمون أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما قال شيئاً إلا وصَدَق فيه.

ثم مضى عتبة إلى بيته، ولم يقابل قومه؛ حتى استبطؤوا الخبر منه. فقاموا إليه فقالوا: مالَكَ يا أبا الوليد؟

قال: والله يامعشر قريش إني لأعلمكم بالشعر والسّحر والكهانة؛

وأنتم تعلمون ذلك، والله لقد أسمعني كلاماً ما هو بالشعر، ولا هو بسحر، وليس هو بكاهن، والله إنّ له نبأ سيظهر بعد.

يا معشر قريش اجعلوها بي، اسمعوا مني وأطيعوا، اتركوا الرجل وأمره، وخلوا بينه وبين دعوته، فإن تصبه العرب تكونوا قد كُفيتم أمره بغيركم، وإن يظهر على العرب يكون عزه عزكم، وتكونوا أسعد الناس به. فدعوا الرجل وأمره.

قالوا: لقد سحرك يا أبا الوليد.

فقال: هذا رأيي. فافعلوا ما استطعتم.

وهكذا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فهذا العالم الذي تشهده بسماواته وأرضه، وأقواته ومعاشه وأرزاقه، مَنِ الذي دبّره وخلقه، وبرأه وصوره؟؟.

فهذه الأرض التي هي مِن جملة العالمين مَنِ الذي خلقها وأودع فيها هذه العجائب والخصائص والينابيع والمعادن ؟؟!.

ومن الذي خصّ الأرض بالصلوحية للزراعة والمعاش، ومن ميّز بعض بقاعها عن بعض، ومَنِ الذي لوّن بقاعها وأشكالها؟؟

ومن الذي خص الناحية الفلانية أن تُزرع كذا، والناحية الفلانية بزرع كذا؟؟ ومنها ما لا يصلح للزراعة والتشجير.

ومَنِ الذي قَدّر فيها الأقوات، ورتب فيها الحياة على شكل يعيش عليها الإنسان وغيره من الكائنات؟؟.

هذا هو الله، الذي خلق الأرض في يومين. أما المراد باليومين في الآية فقد اختلف العلماء في ذلك: فمنهم من قال: تلك الأيام إنما هي من أيام الرب، التي جاء ذكرها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وهناك من قال: إنها مِنْ أيام الشؤون الإلّهية. وهو اليوم الشأني المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

واليوم الشأني هو: الزمن الذي لا يتجزأ، والذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ﴾ أي: بل ﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾.

وكلما قدرت لليوم الشأني مقداراً فإنّ الحق يقول لك دوماً: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وهكذا. فاليوم الشأني هو جزء من الزمن ملحوظ معقول، ولكنه غير مدرك ولا محدد، وإنما هو معقول عقلاً.

فلقد خلق الله تعالى الأرض وطوّرها مِنْ زبد الماء في يوم، ثم خلق الجبال التي عليها في يوم آخر فصار يومين.

ثم فجر الأنهار عليها، وأخرج الأشجار في يوم، ثم قدّر الأقوات والمعايش عليها في يوم فصار يومين.

ثم توجه سبحانه بقدرته على إيجاد السماوات فخلقها من إحالة البخار إلى سماء في يوم، ثم فصلها إلى سبع سماوات في يوم آخر.

ولقد عَجز أهل الأرض عن الإحاطة علماً بخصائص الأرض

وأسرارها، ولا يزالون يبحثون ويبحثون. ولله أسرار وخصائص مودعة في أرضه.

ولو كان أمر الأرض طبيعة لكان أمرها واحداً، ونظامها واحداً في الخصوصية والشكل واللون، إلا أنّ الاختلاف والتمييز موجود في الأرض، وما هذا إلا بخلق خالق، وتدبير حكيم خبير، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد:٤].

فإذا فكر الإنسان في الأرض التي هو عليها استدل على حكمة الله، وعظمة الله سبحانه.

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ وهي الجبال المُوَزَّعة في نواحي الأرض، ولقد خلقها الله وفيها من الحكم والأسرار ما فيها، فهي تُثبت الأرض من الاضطراب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

وهناك الجبال التي حوت أنواعاً من المعادن والينابيع، التي فيها مصلحة للإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: بارك في الأرض، ومنتجات الأرض، وثمرات الأرض، ومايخرج من الأرض من الماء والضرع والزرع.

وإن أثر هذه البركة ظاهر مشهود، فترى أنك تزرع الحبة فتنبت حبوباً كثيرة، وتزرع الثمرة فتنبت شجرة فيها ثمار كثيرة. وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ وهي أقوات

المقتاتين على ظهرها، من إنس وجن وحيوان وطير. بل إنه سبحانه قدر أقوات الأشجار والزروع وما تحتاجه من الماء والهواء.

ولقد قدر سبحانه فيها أقوات مَنْ عليها بمقادير ونسب وافية كافية، حتى آخر مخلوق يُخْلق على وجه الأرض.

كما أنه سبحانه قَدّر هذه الأقوات على وجه يُناسب مَنْ على ظهرها إلى يوم القيامة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

فلقد قَدّر الله رزقها قبل أن يَخلقها، فلا خلل ولا نقص في خلق الله سبحانه.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في جملة أربعة أيام تتضمن خلق الأرض في يومين، وإنّ الأقوات الأرضية في كل زمن كافية لأهل ذلك الزمن إنْ هم أحسنوا التصرف فيها، وفي زرعها وضرعها، وتدبير أمرها.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: تقديراً مساوياً مكافئاً لحاجة المحتاجين، وحياة الأحياء.

واعلم أنّه لا تموت نفس حتى تستكمل الرزق الذي قَدّره الله لها في عالم الدنيا، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: إنه جعل لكم الأرض مذلّلة لسيركم ومشيكم، ونومكم وجلوسكم، وتنقلاتكم،

وزرعكم ومراعيكم ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: في أطرافها ذهاباً ومجيئاً في طلب معايشكم، وإن كان الأمر يحتاج إلى أسفار بعيدة فامشوا في مناكبها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ أي: من رزقه الذي قَدّره لكم في مناكب الأرض؛ يوم قدر فيها أقواتها.

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: فلا تغرنكم الدنيا وما عليها، ولا يكن هَمّ أحدكم جمع المال والأكل والشرب، بل يجب أنْ تعلموا وتؤمنوا أنّ أمر هذه الدنيا مؤقت، ولابد من يوم تُرجعون فيه إلى الله، وهو يوم ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ أي: الحشر فاستعدوا لذلك. وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن روح القدس» أي: جبريل عليه السلام «نفث في
3 روعي» أي: ألقى في قلبي «أن نفساً» يعني: أيّ نفس كانت «لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله؛ وأجملوا في الطلب» أي: طلباً جميلاً «ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله تعالى، فإن الله لا ينال ما عنده» أي: من الرزق الحلال النافع «إلا بطاعته»(١).

فلا تموت نفس حتى تستكمل رزقها المقدر لها يوم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ وإنّ لكل إنسان قوتاً وزرقاً مُعيناً من الموازنة الإلٓهية التي وضعها الله يوم قَدّر الأقوات.

فليوقن الإنسان بأنّ رزقه مقدر، ولْيَسْعَ إليه وليطلبه طلباً جميلاً كما أمر الله تعالى.

---

(١) عزاه في الفتح الكبير إلى الحلية (١٠/٢٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

وروى الترمذي في سننه[1]، عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً» أي: إن الطير مِن جملة من قَدّر الله لها قوتها ورزقها يوم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ لكن الطير يخرج مِنْ وكره صباحاً وهو جائع، فيخرج مِنْ وكره متوكلاً على ربه؛ لا معتمداً على نفسه ومهاراته، فيسوق الله إليه رزقه، حتى يرجع آخر النهار وهو ممتلئ البطن.

وفي هذا دليل على أنّ العمل لا ينافي التوكل على الله حق التوكل، إذ إنّ الطير متوكلة على ربها حق التوكل، إلا أنها خرجت من وكرها وسعت في طلب رزقها.

ومما ورد في صدق مَنْ توكل على الله، وأيقن أن الله رازقه، وسعى ما يمكنه في طلب ذلك، ما روى الحكيم الترمذي[2]، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّه أصابه وجماعة الأشعريين مجاعة حين هاجروا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مَن يَسْتطعمه ـ أي: يأتيهم بطعام ـ فجاء الرجل، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعه يقرأ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فقال الرجل: وما الأشعريون بأهون الدواب على الله.

---

(١) في كتاب الزهد باب /٣٣/ (٢٣٤٥).

(٢) كما في الدر المنثور للحافظ السيوطي.

إذ إن الله تكفل بالرزق لكل من يدب على وجه الأرض، فليس الأشعريون بأهون الدواب على الله حتى ينساهم الله من الرزق.

فرجع الرجل ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودخل على الأشعريين وقال: أبشروا أتاكم الغوث. ولا يظنون إلا أنه أتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فوعده.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما؛ مملوءةً خبزاً ولحماً، فأكلوا منها ما شاؤوا، ثم إنهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلْتَ به.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أرسلت إليكم طعاماً»!! فجيء بالرجل وقالوا له: ما الخبر؟.

قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعته يقرأ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية. فقلت: الأشعريون ليسوا بأهون الدواب على الله، فرجعت وكان الأمر ما كان. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ذلك شيء رزقكموه الله».

وما هذا إلا ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم ما نالوا ذلك إلا بعد سعيهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: مساوياً لحاجة المحتاجين على ظهرها.

فَقَدَّر الأقوات التي فيها الحاجة والكفاية والغاية، لكل من على

ظهرها، في قوته ووقايته وحفظه، من طعام وشراب ولباس ودفء وغير ذلك.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: للسائلين بحالهم وذواتهم وحقائقهم. وهذا هو سؤال الحال والحاجة والفقر الذاتي في كل مخلوق خلقه الله تعالى، إذ إنه يسأل ربه دوماً أن يُمده بالغذاء والهواء، وما فيه حياته ووجوده.

والكافر وإنْ لم يسأل ربه بلسانه اختياراً فإن حاله وحقيقته تسأل الله أن يمدها.

وإذا أنكر الجاحد سؤال حقيقته لربه وقال: أنا لا أسأل الله بلساني، وليست ذاتي مفتقرة إلى الله، ولست محتاجاً إليه، فيقال له: إن سؤال الحقيقة والحال أصدق من سؤال المقال، ومثالك مثال الجائع العطشان، الذي يقول بلسانه: لست جائعاً ولا عطشاناً، فإن ذاته وحقيقته تُكذب مقاله، لأن آثار الجوع والعطش ظاهرة عليه.

وإن ذاتك وحقيقتك ومعدتك وذراتك تَطلب الطعام والشراب. سواء اعترفت بلسانك أم جحدت.

وهكذا شأن كل مخلوق، فهو محتاج مفتقر إلى ربه، وإنّ ذاته وحقيقته وحاله تسأل ربها أن يُمدها ويرزقها، ويُسَهِّل عليها أسباب البقاء والحياة. سواء اعترف ذلك المخلوق بلسانه أم لم يعترف.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: كفاية مساوية لحاجة المحتاجين، حسب ما تتطلبه حياتهم ووجودهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: علا وتوجه

بقدرته ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إلى العلو ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: والحال أنّ السماء كانت دخاناً، وهو بخار الماء الذي تَبخر من الماء الذي خَلق الله سائر الأشياء منه.

فَمِنْ زبد الماء خلق الأرض، ومن بخاره خلق السماء، وقد سمى هذا البخار بالدخان، لأنّه للجفاف أقرب منه إلى الرطوبة.

وإن الماء الذي خلق الله منه الأشياء إنّما هو ماء الحياة، الذي حوى العناصر التكوينية كلها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل شيء خلق من الماء»[(١)].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي: خلقهن سبع سماوات. أي: سبع عوالم، وليس جنس السماوات من جنس الأرض، إنما هي عالم آخر.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: ائتيا طوعاً أو كرهاً بما أودعت فيكما من خصائص ومنافع وأسرار. أي: أن تطيع كل منهما أمر الله، وتُقدم ما أودع الله فيها ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ فلقد قَدَّرَ

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٣٢٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

في الأرض أقواتها، أما في السماوات فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ففي السماء أوامر، وفي الأرض كائنات وجودية، وإنّ لكل سماء سكاناً من الملائكة، ولكل سماء أمور وخصائص اختصت بها عن غيرها.

ولما قال سبحانه في الأرض بعد أن خلقها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ لأن فيها مقتاتين ومحتاجين للطعام والشراب، أما السماوات فقال بعد أن خلقها: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

وقد جعل سبحانه لكل سماء خَزَنَةً وأبواباً وبواباً، وإنّ لكل سماء خصائص وأوامر يظهر أثرها في عالم الأرض، وكل شيء يقع في الأرض إنّما له أمر في عالم السماوات، وذلك لشدة الارتباط بين عالم السماوات وعالم الأرض. كما سيأتي بيانه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة الثالثة عشرة

حول

الارتباط بين

عالم السماوات وعالم الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد قرن الله سبحانه في كثير من الآيات ذكر السماوات بالأرض، لما بينهما من ارتباطات كونية، ومعاشية، وحيوية، وقلبية، وروحية، وتدبيرية.

وَمِنْ ذلك ما أخبر سبحانه أن التغيير والتبديل يوم القيامة إنما يجري على عالم السماوات والأرض فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ويقول سبحانه في ارتباط عالم الأرض بعالم السماوات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

أما عن ارتباط عالم الأرض بعالم السماوات وما فيها من أجرام وكواكب، فهو ارتباط حقيقي؛ أخبرت عنه الآيات والأحاديث، لكن هذا الارتباط ليس مشهوداً بالعيان.

ولا يسعك أيها الإنسان أَنْ تُنكر وجود هذا الارتباط بين عالم السماوات وعالم الأرض؛ وإنْ لم تره بالعيان، كما لا يسعك إنكار

الارتباط بين أصابع يديك ورجليك، وبين رأسك الذي حوى الدماغ وهو آلة التدبير للجسم كله.

فليس هناك ارتباط مادِّي مشهود بين رأسك ويديك، ولكنك تستطيع تحريك أصابعك ورجليك إذا أردت ذلك.

وإن مصدر التدبير والتحريك في الجسم إنما هو الدماغ الموجود في الرأس، فهناك ارتباط خفيٌّ حقيقي بين رأسك وسائر أعضاء جسمك، وهو ارتباط تدبيري وظيفي لا ينكر.

فلما أوعز الرأس للرِّجْل أن تتحرك تحركت مباشرة، بدون أن يُحركها بشيء مادي مشهود وهكذا.

فهناك ارتباطات بين الرأس وما حوى، وبين المدارك والحواس الموجودة في الإنسان.

واعبُرْ من هذا إلى فهم وإدراك الارتباطات بين السماوات والأرض، فإن جميع ما يجري على وجه الأرض من وقائع وحوادث، وأنظمة معاشية وحيوية، وموت وحياة، كل هذا له علاقة بأمر السماوات التي قال فيها سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾.

فلقد أودع سبحانه في السماوات الأوامر، وخص كل سماء بأوامر وخصائص؛ يظهر أثرها في عالم الأرض.

وإنّ كل شيء يقع في الأرض من قول وعمل، ومن حال، ومن حياة ومن موت، ومن صور وهياكل، ومن أصوات؛ وجميع ما يقع فيها إلى يوم القيامة إنّما له علاقة بالسماوات، فهناك أوامر تظهر في الأرض كائنات مكونة.

وقد خص سبحانه كل سماء بملائكة معينة، تتوجه عليهم أوامر إلٰهية معينة.

وقد جعل سبحانه لكل سماء أبواباً معينة، كما دل على ذلك حديث المعراج[1]، قال: «فلما أتينا السماء الأولى استفتح جبريل فقيل له مَنْ: فقال جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال: وقد أرسل إليه»؟ أي: هل دعاه الله إلى حضرته؟؟ «قال: نعم. قال: ففتح لنا» وهكذا في كل سماء.

فالسماوات لها أبواب، ولا يدخلها مخلوق إلا بإذن من رب العالمين. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [الأعراف: ٤٠].

فلقد أخبر سبحانه أن السماء لا تُفتح أبوابها لأرواح الكفار بعد موتهم، فَمِنْ باب أولى أنّهم لا يدخلونها بأشباحهم. وذلك لأنّ الملائكة تَرقى بروح المؤمن بعد مماته إلى السماوات، فتفتح لها، وتتلقاها الملائكة بالترحيب والسلام والبشائر، كما دلت على ذلك الأحاديث[2]، حتى يلقى الله تعالى. أما روح الكفار فلا تفتح لها أبواب السماء، بل تُرد إلى سِجِّين في أسفل سافلين.

وذلك لأنّ السماوات عوالم سامية قدسية مَلَكية، لا يمكن أن يدخلها إلا المقدس الطاهر وهو المؤمن.

---

(١) كما في صحيح البخاري، أول كتاب الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء (١٦٣).

(٢) منها ما جاء في المسند (٤/٢٨٧) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه.

أما عن بعض خصائص السماوات وأوامرها الموحاة إليها، والتي يظهر أثرها في عالم الأرض، فمن ذلك السماء الأولى:

فمن خصائص وأوامر السماء الأولى أمر التوالد الذي يَجْري على الأرض، وأنّ فلاناً يَلد، وفلاناً عقيم لا يلد، وهذا يلد ذكراً وأنثى، وآخر وآخر.

كما أنّ في السماء الأولى أوامر التصوير، واختلاف صور وهيئات الناس عن بعضهم البعض.فهي في السماء أوامر، وتظهر في الأرض مكونات ووقائع.

ومما يدل على أنّ أمر التوالد والنسل إنما هو من خصائص السماء الأولى، يدل على ذلك أنّ الله تعالى أسكن آدم عليه السلام في السماء الأولى، وقد رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج.

وهناك مناسبة بين أوامر كل سماءٍ وبين تخصيص وجود كل نبي فيها.

ولقد خلق الله الأرواح قبل الأشباح، كما دلت عليه الأحاديث، وأودع الأرواح في السماء الأولى، وجعل أرواح السعداء عن يمين آدم، وأرواح الأشقياء عن يساره، فإذا نظر إلى يمينه ضحك ـ فرحاً ـ وإذا نظر إلى يساره بكى ـ ألماً وحزناً ـ.

ولَمّا يخلق الله الجسم في زمن معين، ويستعد هذا الجسم لتقبل الروح، فتنفخ فيه الروح على تمام أربعة أشهر وهو في رحم أمه.

فروح هذا المخلوق مخلوقة قبل جسمه، وينزل بها ملك من ملائكة السماء الأولى، ويوصلها إلى هذا الجسم بأمر الله تعالى.

ويدل على هذا الحديث الصحيح[1] لما عُرج بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ودخل السماء الأولى «قال: فإذا فيها آدم. فقال لي جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه. فسلمت عليه فرد عليَّ السلام وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. فإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ـ أي: أرواح متلبسة في أشباح مثالية ـ وفي رواية: «قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هم نسم بنيه ـ أي: أرواح بني آدم ـ فإذا نظر إلى يمينه ضحك، وإذا نظر إلى شماله بكى» أسفاً وحزناً.

فهذه الأرواح مَقرها في السماء الأولى، ثم تنزل إلى أجسادها حسب الزمن والاستعداد، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقِيٍّ أو سعيد»[2].

ومن أوامر وخصائص السماء الأولى أنَّ الله سبحانه أمر ملائكة

---

(١) الذي رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٨٨٧)، وينظر في صحيح البخاري (٣٤٩).

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، ومسلم في أول كتاب القدر (٢٦٤٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

معينة في السماء الأولى أن يكونوا سبباً في حفظ هذا القرآن من التبديل والتغيير، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قال: أُنزل القرآن كله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا فوضع في بيت العزة، ثم بدأ ينزل تدريجياً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[(١)]. اهـ

وقد بدأ أيضاً نزوله على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان، واستمر مدة ثلاث وعشرين سنة.

وذلك لأنّ من أوامر الله الموحاة في السماء الأولى أنّ هذا القرآن سوف يكون محفوظاً إلى يوم القيامة، فكما هو محفوظ في بيت العزة في السماء الأولى، فهو محفوظ في الأرض إلى يوم القيامة، ولا يجري عليه تبديل أو تغيير أو تلاعب.

وإنّ لكل سماء قبلة، وبيت العزة هو قبلة أهل السماء الأولى، وإنّ قبلة أهل الأرض هي الكعبة المعظمة، وهي تُسامت بيت العزة في السماء الأولى، كما أنها تُسامت قبلة كل سماء حتى ينتهي الأمر إلى البيت المعمور قِبلة السماء السابعة. لأن هناك عموداً نورانياً ممتداً من الكعبة المشرفة إلى البيت المعمور في السماء السابعة.

ولقد شرف الله تعالى هذه الأمة المحمدية، وشرع لهم التوجه في صلاتهم إلى الكعبة المشرفة، وذلك لحكم عالية منها: جمع شملهم حول هذا البيت المعظم، وتشبهاً منهم بملائكة الله في

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم، والضياء في المختارة.

السماوات، فإن الملائكة في كل سماء حين يُصلون يتوجهون إلى قبلة تلك السماء، وجميع تلك القبل على خط مستقيم، نوراني واحد، متصل بقبلة أهل الأرض، وهذا قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ وهم الملائكة. وقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ إخباراً عن صفوف الملائكة في صلاتها.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة»[1] أي: لقد خُصت هذه الأمة المحمدية بالتشبه بالملائكة في صلاتها. وإنْ هم تمسكوا بشرع الله وأوامره فهم كالملائكة على وجه الأرض.

كما أنّ ملائكة كل سماء تحج إلى كعبتها، وتأوي إليها، وتتبرك بها، كذلك شرع الله لهذه الأمة أن تحج البيت وتتبرك به. وذلك تشبهاً بالملائكة في السماوات.

وكما هو مشروع للمؤمن أنْ يتبرك بالكعبة المشرفة، وأن يدخلها إن تيسر له ذلك، كذلك فإن ملائكة السماء يَدخلون البيت المعمور الذي هو قبلة أهل السماء السابعة؛ يدخلونه للتبرك، كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون»[2].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٨٣)، والإمام مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٢) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء (١٦٢) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

ومن خصائص السماء الأولى: أنَّ فيها ظهور آثار أعمال بني آدم على وجه الأرض من مخالفات ومحرمات، وهذا ما دل عليه حديث المعراج، كما روى البيهقي[1] وغيره[2]، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتيت ليلة أسري بي ـ أي: في السماء الأولى ـ على قوم لهم بطون كالبيوت منتفخة. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: أكلة الربا» وهذا وجود مثالي لهم، لأنه لا وجود لهم بذواتهم في السماء الأولى، لأنها مقدسة سامية.

«ومررت على نساء معلقات من ثديهن. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: الزانيات.

ومررت على قوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون بها وجوههم. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: هؤلاء الذين يقعون في أعراض الناس ويغتابونهم.

ومررت على قوم يأكل أحدهم الجمرة من النار، فتدخل من فيه وتخرج من أسفله. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟؟. قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً».

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ أي: في البرزخ ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠] أي: يوم القيامة.

---

(١) في دلائل النبوة (٢/٣٩٢).

(٢) كابن جرير وابن أبي حاتم.

ومن خصائص السماء الثانية وأوامرها الموحاة فيها: خرق العادات، وتكوين المعجزات، ولذلك ناسب أن يكون فيها عيسى ابن مريم عليه السلام، الذي خُلق على وجه خارق للعادة، وأعطاه الله إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله.

كما أنّ في السماء الثانية قضايا أشراط الساعة وعلاماتها الكبرى. ولذلك فإن نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمن هو من علامات الساعة الكبرى، فينزل وهو على عِلْم بقضايا الساعة وأشراطها.

ولقد أعطى الله عيسى ابن مريم أن يُكلم الناس في المهد، قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] أي: يكلمهم في الصغر كما يكلمهم في الكبر والكهولة، على حد واحد لا فرق بينهما؛ فكلامه في المهد ككلامه في الكبر والكهولة. وهذا أمر خارق للعادة.

وكذلك فإن رفعه للسماء أمر خارق للعادة وهكذا.

وفي الحديث: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى عيسى. فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله؛ ذلك ـ أي: وقت وقوعها ـ وفيما عهد إلي ربي: أنّ الدجال خارج، فأنزل ومعي قضيبان، فإذا رآني عدو الله ذاب كما يذوب الرصاص»(١).

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (١/٣٧٥)، وابن ماجه في كتاب الفتن (٤٠٨١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولقد رأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عيسى ابن مريم في السماء الثانية، وهو حي لم يمت، بل رفعه الله إليه، وسينزل قبيل الساعة، وإنّ نزوله إلى الأرض هو من علامات الساعة كما دل على ذلك القرآن والحديث.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١] أي: إن نزول عيسى إلى الأرض علامة من علامات الساعة الكبرى.

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] أي: ما مِنْ أحد مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ بعيسى حق الإيمان قبل موته ـ أي: قبل موت عيسى ـ ولم يتحقق هذا الخبر فيما مضى، إذ لم يُؤمن جميع أهل الكتاب الإيمان الصحيح بعيسى عليه السلام، وقد أخبر الله تعالى أنّه ما من أحد منهم إلا سيؤمن به قبل موته، فيدل هذا على أن عيسى لم يمت، بل رفعه الله إليه كما أخبر سبحانه، وسينزل في آخر الزمن ويضع الجزية ـ أي: لا يقبلها من أهل الكتاب ـ.

فلا يموت عيسى عليه السلام حتى يُؤمن به أهل الكتاب كلهم إيماناً صحيحاً.

وجاء في الصحيحين وغيرهما[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» أي: إن الجزية قد شرعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى زمن نزول عيسى، ثم ينتهي حكمها بنزول عيسى عليه السلام.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ويفيض المال» أي: يكثر المال في زمن عيسى عليه السلام «حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها» أي: إن الإيمان يقوى، ويعظم الصلاح، وتزداد التقوى، حتى يرى الرجل المؤمن أن السجدة لله تعالى خير وأفضل عنده من الدنيا وما فيها، وهذا بعد ما يمضي زمان على تزاحم الناس على الدنيا، وتكالبهم عليها. وذلك قبل نزول عيسى عليه السلام، ويكون الدينار والدرهم أفضل عندهم من السجدة والصلاة لله، ثم بعدما ينزل عيسى عليه السلام ينشر الإيمان في القلوب، حتى إنّ السجدة عند أحدهم خير من الدنيا وما فيها.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾».

وفي صحيح مسلم وغيره[2]، عن حذيفة بن أسيد الغفاري

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد (٢/٢٧٢)، وصحيح البخاري في كتاب البيوع، باب قتل الخنزير (٢٢٢٢) وفي كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٤٨)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب نزول سيدنا عيسى عليه السلام (١٥٥).

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد (٤/٧)، وصحيح مسلم في كتاب الفتن=

رضي الله عنه قال: كنا نتذاكر أمر الساعة ـ أي: جماعة من الصحابة ـ فاطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف في المشرق، وخسف في المغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تَحشر الناس، فتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا».

فلقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أنّ نزول عيسى ابن مريم آخر الزمن هو من علامات الساعة الكبرى. وإنّ الإيمان بذلك من الأصول الإيمانية الواجبة الثابتة في القرآن الكريم، وفي الأحاديث المتواترة.

وإنّ عيسى عليه السلام الآن هو في السماء الثانية، لأنَّ أوامر آخر الزمن، وتعيين الساعة، وأشراط الساعة، والتغيرات التي تجري قبل الساعة، كل هذا منوط بأوامر السماء الثانية، التي أوحاها الله فيها بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾.

فكل أمر في السماء له مظهر في عالم الأرض، وكل مظهر وأثر له وقته المحدد الذي يُظهره الله تعالى فيه.

وقد رفع الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء الثانية، حفظاً له من أعدائه اليهود، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

= وأشراط الساعة، باب في الآيات تكون قبل الساعة (٢٩٠١)، وسنن أبي داود كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة (٤٣١١)، والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف (٢١٨٤).

فقد رفعه الله وَعرج به إلى السماوات، وسدرة المنتهى، وما فوقها، تشريفاً وتكريماً، وليطلعه على العوالم الغيبية، ولأجل أنْ يسمع كلام الله ويراه.

أما سيدنا عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إلى السماء الثانية من باب الحفظ والوقاية إلى آخر الزمان كما قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٧ـ ١٥٨] وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٤ـ٥٥].

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: مكرت اليهود، وحاولوا أن يغتالوا عيسى خفية ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي: بهم ولم يمكنهم من اغتيال عيسى ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: لأنه دفع مكرهم السيئ ورده عليهم، فكان مكره بهم خيراً.

ثم بيّن سبحانه كيف مكر بهم فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰ﴾ وهذا بيان لمكر الله باليهود إذ لم يُمكِّنْهُمْ من عيسى بل رفعه إليه ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إليّ جسماً وروحاً، لأن التوفية هي القبض، وقد جاءت في القرآن على معاني:

فهناك توفية النوم: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وذلك لأنّ في النوم قبضاً للروح عن التصرف بالجسم في هذا العالم، وتوجيهها إلى عالم آخر مع بقائها في الجسم.

وهناك **توفية الموت** وهي: قبضٌ الروح وفصلها عن الجسد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ أي: الأرواح ﴿حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وهناك **التوفية العامة** بقبض الروح والجسم معاً، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

فأرسل الله تعالى جبريل عليه السلام، وحف بسيدنا عيسى عليه السلام، ورفعه إلى السماء الثانية.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وفي هذا بيان لحكمة رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء الثانية. أي: ليحفظه من أعدائه اليهود حتى لا تصل أيديهم إلى جسمه، ولا يمسوه أبداً، فلقد رفع الله تعالى عيسى ابن مريم إلى السماء الثانية حفظاً له، وهو حيّ موجود فيها، وسينزل آخر الزمن، ويَحكم بشرع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، على أنه متبع لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيحكم بالقرآن والسنة التي يُعَلِّمُهَا الله له، كما أخبر تعالى. ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: القرآن الكريم والسنة المحمدية. ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي: حين كان في الدنيا.

ومن شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ شرع لعيسى أنْ يضع الجزية، ولا يقبل إلا الإيمان في آخر الزمن عند نزوله.

ولَمّا يُحشر سيدنا عيسى عليه السلام يوم القيامة فإن لَه مَحشرين: يُحشر مع الرسل مِن حيث إنَّه رسول الله، ويحشر مع أكابر أولياء الأمة المحمدية على أنه منهم.

ولقد قالوا: إنّ قبر سيدنا عيسى عليه السلام لما يتوفاه الله يكون في حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقد ذكر المحدثون ذلك، ونصوا على أنّه قد بقي موضع قبر في الحجرة الشريفة، يُدفن فيه عيسى عليه السلام.

وجاء عن النجاشي أنَّه لَما أسلم قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنّ عيسى ابن مريم يدفن معه. اهـ

كما أَنّ مِنْ خصائص السماء الثانية والأوامر الموحاة إليها تلطف الكثيف، وتكثيف اللطيف، وهذا ما عبر عنه العارفون: بـ تروحن الأجسام وتجسد الأرواح.

ولذلك فإن عيسى لما رُفع إلى السماء الثانية لم يَعد محتاجاً للطعام والشراب لتبقى عليه حياته، وإنما تطور إلى طور أهل السماء الثانية، وأخذ حكم ذلك العالم، وهو هو بنفسه وجسمه وروحه.

وإذا صعب عليك فهم هذا فافهم أنّ الذي جعل حياة عيسى في الأرض منوطة بالطعام والشراب؛ هو الذي كفاه عن الطعام والشراب وأبقاه حياً، ورفعه بجسمه وروحه إلى السماء.

وكما أنّ حياة الملائكة لا تتوقف على الطعام والشراب، فَإن الله يجعل هذا الحكم في مَنْ تتوقف حياتهم على الطعام والشراب، ويجعلهم أحياء بدون طعام وشراب.

ولَمّا ينزل سيدنا عيسى عليه السلام إلى عالم الأرض يعود ويأخذ حكم أهل الأرض من طعام وشراب؛ كما نص العارفون: على أن كل مَنْ دخل في عالم أخذ حكمه.

فالإنسان لَمَّا كان في عالم الرحم كان تجري عليه أحكام عالم الرحم من طعام وشراب، وهواء للتنفس، وهكذا لَمّا خرج إلى عالم الدنيا فأكل عن طريق فمه وتنفس الهواء مباشرة، وهكذا إذا انتقل إلى عالم البرزخ أخذ حكمه، وهكذا عالم الحشر والصراط، إلى عالم المأوى: الجنة أو النار كما قال سبحانه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

فهو سبحانه يُنشئ الإنسان في كل عالم نشأة جديدة تناسب أحكام ذلك العالم ونظامه، وما يتطلبه من قوة في الحواس والمدارك.

ومن الأوامر التي أوحاها الله في السماء الثالثة أنها موضع الجمال الشكلي والصوري والصوتي الذي يظهر في عالم الأرض.

فكل ما له علاقة بالجمال إنما يتنزل من السماء الثالثة، ولهذا ناسب أن يكون فيها يوسف عليه السلام، لَمّا رآه صلى الله عليه وآله وسلم فيها، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا فيها يوسف وقد أعطي شطر الحسن» أي: إن الله تعالى أعطى يوسف جانباً كبيراً من الحسن بأنواعه، ولذلك لما رأته صواحب زليخا قلن كما أخبر سبحانه: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: إنه في جماله وصورته وأخلاقه كالمَلَك، إذ لم ينظر إليهن وهن متزينات متبرجات ولم يعبأ بهن.

فقد أُعطي سيدنا يوسف الصديق بعض الحسن، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعطي الحسن كله، فهو صلى

الله عليه وآله وسلم أجمل من يوسف وأحسن منه في الخَلق والخُلُق.

وفي هذا يقول أنس بن مالك رضي الله عنه، كما روى الترمذي[1] عنه: «ما بعث الله نبياً إلا حَسَن الوجه حسن الصوت، وإنّ نبيكم ـ أي: سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ أحسنهم صوتاً وأحسنهم وجهاً». اهـ

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ بالقلوب لحسنه وجماله، كما قال جبير بن مطعم لما سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان مشركاً وأسلم بعد ذلك ـ قال: ما سمعت صوتاً أحسن منه، والله إنّ قلبي كاد يطير له، ومن ذلك الحين أدخل الله الإيمان على قلبي.

ولقد أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وصف نورانية وجه رسول الله وجماله وبهائه صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس والقمر في ليلة البدر. ولم يضربوا له الأمثلة بالغصن والغزال.

ولما سئل جابر بن سمرة رضي الله عنه من بعض التابعين: هل كان وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ أي: إضاءة ولمعاناً.

قال: «لا. بل مثل الشمس والقمر»[2].

فلم يرضَ سيدنا جابر رضي الله عنه أن يصف نور وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلمعان السيف البَرَّاق، بل بالشمس والقمر[2].

وهذا كما سئلت الرُّبيع بنت المعوذ الأنصارية: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل، كما في الشفا وقد عزاه فيه للدارقطني أيضاً.

(٢) كما في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شيبه ﷺ /٢٣٤٤/.

فقالت للسائل: يا بني لو رأيته رأيتَ الشَّمسَ طالعةً[1].

ويقول سيدنا حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

متى يَبْدُ في الليل البهيم جبينه   يَلُحْ مثل مصباح الدجى المتوقد

والمصباح هو الذي يُضيء بنوره كالصباح، فكانت جبهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تضيء كالصباح إذا ظهرت من بين شعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا فإنّ من خصائص وأوامر السماء الثالثة أوامر الجمال والكمال، والحسن والبهاء بأنواعه الحسي والصوري والمعنوي والصوتي. فإذا تأثرت بصوت جميل فإنّ ذلك أثرٌ لأمر تنزل من السماء الثالثة.

وهكذا ففي السماوات أوامر، وتظهر في الأرض كائنات ووقائع وصوراً.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) كما في سنن الدارمي في المقدمة، وعزاه في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٠) إلى الطبراني.

المحاضرة الرابعة عشرة

حول الأدلة والبراهين

على حَقِّيَّة قضايا الإيمان

وأنه لا إلٓه إلا اللّٰه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد أقام الله تعالى الحجج والبراهين القاطعة على أنه سبحانه حَقٌّ واجب الوجود، وأنه واحد أحد، متصف بالكمالات، ومنزه عن الآفات، وعلى حَقِّيَّة قضايا الإيمان، وقد لَقَّن هذه البراهين لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون حجة قاطعة على المشركين والمنكرين، قائمة إلى يوم الدين.

فمن جملة البراهين الدالة على وجود الله ووحدانيته سبحانه قوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥ـ٣٧].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: قل يا رسول الله للمنكرين والجاحدين: هل خُلقوا من غير خالق؟ فهذا لا يُتصور في العقل، لأنّهم خَلْقٌ ولهم وجود، فكيف يحصل هذا الموجود بالوجود من العدم بلا موجد؟!!.

فإن العدم لا يعطي الوجود، فلابد أنْ يكون هناك مُوْجدٌ فَمَنْ هو هذا الموجد؟

- هل هم الذين أوجدوا أنفسهم؟

- إنهم لم يكونوا موجودين حتى يخلقوا أنفسهم!!

فإن قالوا: جئنا وَوُجِدْنا عن عدم. فإنّ العدم لا يعطي وجوداً، فلابد إذاً مِنْ موجد أوجدهم، فإما: هم، أو غيرهم.

أمّا أنهم أَوْجدوا أنفسهم فهذا باطل، فلابد إذاً أَنّ هناك واجب الوجود الذي أوجدهم وخلقهم بعد عدم وهو الله سبحانه.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ وهذا غير صحيح أيضاً، إذ إِنَّهم لم يَخْلقوا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ فبعد ما بَيّن لهم سبحانه البرهان النفسي، ذكر لهم البرهان الآفاقي ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالنفس الإنسانية حَوَت آيات تدل على أنه لا إلّه إلا الله، وتُشْهِد أن الله حق. وذلك إذا تعقل الإنسان، وأنصف وتدبر، ولم يتعامَ أو يتصامم. أما من تعامى وتصامم فله حكم الأعمى والأصم.

وأما مَنْ تعقل وتدبر، وشهد آيات نفسه فأيقن فيقول: لا إلّه إلا الله حقاً.

فهذه الآيات الآفاقية مِنْ سماوات وأرض، وما أودع الله في الأرض من بحار وأنهار، وأشجار ومعادن، وينابيع، وخصائص وعجائب كبرى، وما خلق في السماوات من كواكب ونجوم، وشموس وأقمار، وأوقعها في مواقعها بدقة وإحكام، على نِسب وأبعاد معينة،

وتقادير منتظمة محكمة، لا يمكن ذلك لمخلوق، كما قال: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. أي: لا كما يقول ويزعم المنكرون الجاحدون: ﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة ٧٥ـ٧٦].

إذ إن في ذلك مَظهراً لقدرة الله تعالى وعظمته، وسعة علمه وحكمته، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: هل عندهم خزائن ربك التي يُمد بها العالم فيربيهم، ومنها يُنزل ما يشاء بمقادير على نسب معينة، فيها تربية العالم وحياته ومصالحه. فهل هذه الخزائن عندهم؟

وهذه الخزائن الربانية يُربي بها سبحانه العالم بالتربية والتغذية، والإيجاد والإمداد والإعداد، وبالأقوات والقُوَّات، وما هنالك من أمطار ورياح وأجواء، وكلما زاد البشر بالأعداد زاد إمداد الله لهم بالأقوات والقُوَّات، وما هناك من أمطار ورياح وأجواء، وكلما زادت البشرية كلما زادت أسباب الإمداد والتغذية، وهداهم لأمور كانوا يجهلونها من قبل حتى تكون هناك الكفاية لهم.

فَمَنْ يملك هذه الخزائن الربانية غير الله سبحانه وتعالى؟!!

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾؟ وقد اختُزِنَتْ في هذه الخزائن حاجات الخلائق مِنْ أهل السماوات والأرض وما هنالك من عوالم. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١] أي: ما مِنْ شيء في الوجود إلا عندنا

خزائنه ـ في حضرة العندية ـ وما ننزله من الخزائن إلى العوالم حسب حاجتهم إلا بقدر معلوم. أي: بنسبة معينة تقتضيها حاجة العالم ومصلحتهم.

ولا تقل أيها الإنسان إنّ هذه الأبحاث فضولية، أو أنها وظيفة العلماء، فأنت وإنْ كنت مؤمناً بالفطرة فيجب أنْ تتعرف وتتفهم بعض الأدلة والبراهين التي ذكرها الله في القرآن، حتى يزداد إيمانك ويقوى.

ويقول سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وعار على المسلم أن يَعيش عُمُراً مديداً في الدنيا، ثم ينتقل إلى الآخرة ولا يفقه شيئاً من معاني كلام الله، فإنّ الملائكة تسخر منه لحماقته وجهله. وإنّ الملائكة يدرسون كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾.

والإنسان المؤمن أولى من الملائكة بدراسة القرآن، وتفهمه وتلاوته، والتدبر فيه، لأنه نزل على هذه الأمة بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكُلِّفُوا بالعمل بما فيه.

ولهذا كان مِنْ مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُعلم الناس الكتاب والحكمة. أي: معاني الكتاب وأسراره ومعارفه، وكل إنسان يفهم على حسبه. فكن أيها العاقل مِمّن ناله حَظّ في تعلّم الكتاب وتفهمه ما استطعت.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: في الحضرة العندية، التي

هي فوق العوالم، ومنزهة عن الدخول في العوالم، بل إنّ العوالم كلها تستمد من تلك العندية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ما ننزله في العوالم إلا بمقادير معينة معلومة في الأزل، على ما فيه مصلحة العالم. وإن تقدير المقادير وتعيين النسب المحددة لحاجة العالم ومصلحته يحتاج إلى عِلْم وحكمة، كما قال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: معلوم عند الله بنسب معينة، وتقادير محددة، وذلك بالعلم الأزلي الذي لا أول له.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ﴾ يدل على أنّه هناك تنزلات مِنْ حضرة العندية إلى حضرة الأمر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ثم حضرة الرحمانية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] لأنّ الحضرة الرحمانية محيطة بالعرش، والعرش حوى جميع العوالم، فكانت الحضرة الرحمانية محيطة بجميع العوالم.

وفي الحديث(١): «لمّا خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

ثم تتنزل الأمور من عالم العرش إلى عالم الكرسي وتتفصل، ثم إلى سدرة المنتهى فتوزع على العوالم على حسب علاقة ذلك الأمر.

وإن كان لذلك الأمر علاقة بالأرض؛ فإنّه ينزل من سماء إلى سماء، حتى يظهر أثره في عالم الأرض كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٦٠)، والبخاري في أول كتاب بدء الخلق (٣١٩٤)، ومسلم في أول كتاب التوبة (٢٧٥١) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢] فالقضية مستندة إلى العلم الإلٓهي، وإلى القدرة المنفذة بموجب العلم.

وإنّ خزائن رب العالمين التي فيها إمداد العوالم لا يَعتريها النقص على مر الزمان، وذلك لأنّ الخزائن هي في حضرة العندية ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ وقد بَيّن سبحانه حكم الحضرة العندية فقال: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ أي: لا نفاد ولا نقصان فيه، بل هو كما هو، وذلك لأنّ مُمد الخزائن وموجدها هو الله سبحانه.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم معنى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ وأنّ خزائن الله لا يعتريها النقص، فقد جاء في الصحيحين[1]، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يمين الله ملأى» وهي اليمين التي يُمد بها العالم، وهي اليُمن والبركة والقوة الإلٓهية «لا تَغيضها نفقة» أي: لا تنقصها نفقة. أي: إنعامه وإمداده للعالم لا يُنْقِص شيئاً مما هو عنده سبحانه «أرأيتم ما أنفق» أي: على العالم «منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه. وعرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع» ـ أي: يتصرف بالعالم بموجب العدل والقسط الإلٓهي ـ الحديث.

---

(١) البخاري في كتاب التفسير سورة سيدنا هود عليه السلام (٤٦٨٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة (٩٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث القدسي[1]: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ـ وفي رواية[2]: «وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم» ـ قاموا في صعيد واحد، فسألوني ـ وفي رواية[3]: «فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته» ـ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر».

وهذا من باب ضرب المثل، كما لو أدخلت موضع الخياطة وهو رأس الإبرة في البحر، ثم أخرجته فكم نقص من البحر؟! وقد بيّن سبحانه أن هذه الخزائن التي يُمد بها العالم إنما هي خزائن الرحمة الإلّهية، التي يرحم بها العالم بالرحمة العامة والرحمة الخاصة فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾.

ومن جملة خزائن رحمته العامة الإمداد بالحياة والوجود.

فالوجود هو من جملة خزائن الجود الإلّهية، فلقد جاد عليك سبحانه بالوجود وأوجدك من العدم. وإنّ الوجود بالنسبة للعدم إنّما هو نعمة كبرى من الله عليك. ولله عليك فضل كبير أنْ أفاض عليك بالوجود بعد أنْ لم يكن لك وجود، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٤ـ١٦] أي: يا معشر الإنس والجن

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) عند الإمام أحمد في المسند (١٥٤).

(٣) في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب /٤٩/ (٢٤٩٧).

هل تُكذبان بنعمة الله عليكم بالوجود والخلق، إذ إنه هو الذي أنعم عليكم وخلقكم وأوجدكم بعد عدم.

وقد ذكر سبحانه أصنافاً من الجود الإلّهي على عباده في سورة الرحمن.

ومِنْ جملة الرحمات الخاصة، بل من أعظم الرحمات الخاصة إعطاؤه سبحانه النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

وإن النبوة والرسالة هي رحمته للعالم، وأعظم الأنبياء والمرسلين وأفضلهم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فكل نبي كان رحمة لأمته وقومه، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو رحمة للعالمين كلهم، من أولهم إلى آخرهم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة»(١).

وقد بُدِئَتْ به النبوة في عالم الأرواح، فأول نبي نَبأه الله تعالى، وفتح به باب النبوة على العالم؛ ليرحم العالم إنّما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما في الحديث الذي رواه الترمذي(٢)، والإمام أحمد(٣) والحاكم(٤) لَمّا سأله بعض الصحابة يا رسول الله متى

(١) كما في مسند أبي يعلى والبزار.

(٢) في أول كتاب المناقب (٣٦١٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في المسند (٤/٦٦) عن رجل؟ و(٥/٥٩) عن سيدنا ميسرة الفجر رضي الله عنه، وينظر مجمع الزوائد (٨/٢٢٣).

(٤) المستدرك (٢/٦٠٩).

كُنت نبياً؟. قال: « وآدم بين الروح والجسد». أي: إن الله أعطاني النبوة قبل خلق آدم، وذلك في عالم الأرواح.

وفي رواية(١): متى استنبئت؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي رواية(٢): متى وجبت لك النبوة؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

فَلَقد خلق الله روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الأرواح كلها، ونبأه في ذلك العالم، فهو فاتح باب النبوات صلى الله عليه وآله وسلم.

أما أن النبوة هي رحمة من الله أرادها للعالمين، فقد قال سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ [مريم: ٢١].

وفي الخضر قال سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهي النبوة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

ويقول سبحانه في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرحمة العالمية العامة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم فاتح باب النبوة على العالم ليرحمهم، وهو الجامع لمراتب النبوة، وهو خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) عند ابن سعد في الطبقات (١/١٤٨).

(٢) عند الترمذي باب أول كتاب المناقب (٣٦١٣).

ويقول سبحانه في بيان أن النبوة هي رحمة من الله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا نزل هذا القرآن على رجل من مكة أو الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب ملك ومال وزعامة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: إن قسمة رب العالمين بالنبوة وخزائن النبوة هل هي بيدهم؟؟. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣١-٣٢] أي: إن قسمة أرزاقهم في الدنيا ليست موكولة إليهم؛ مع أن الدنيا دنيَّةٌ بالنسبة للآخرة، فمن باب أولى أن لا يُوكل سبحانه قسمة النبوة إلى رأيهم وعقولهم. وإنما المعطي هو الله تعالى الذي هو أحكم الحاكمين ورب العالمين، ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] فهو عالم بمن تليق به الرسالة فأعطاه ذلك، وهو عالم سبحانه بمن يليق بختم الرسالة فخص به سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] أي: إنه عالم بالعلم الذي لا أول له أنه لا يليق بختم النبوة والرسالة إلا سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى هذا فإن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي: للعالمين كلهم في جميع العالمين، في العالم الروحي، والعالم الجسماني الشهودي والدنيوي، والعالم البرزخي، وما هنالك من عالمين. فهو صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين في جميع العالمين.

ويدل على هذا شفاعته يوم القيامة في أهل الموقف، لَمَّا تشتد

عليهم الأهوال والكربات والمخاوف، فيتقدم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويفتح لهم باب الرحمة الإلّهية، ويشفع فيهم، ويخلصهم من أهوال الموقف.

ومن أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم: نبي الرحمة. أي: الرحمة العامة لخلق الله كلهم، والرحمة الخاصة لأهل الخصوص.

ويدل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه[1]، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسَمِّي لنا نفسه بأسماء فيقول لنا: «أنا محمد، وأحمد، والمقَفِّي» أي: خاتم الأنبياء «والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة».

ومن ذلك الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد، وغيرهم[2]، عن سيدنا عثمان بن حنيف رضي الله عنه، وفيه كيف علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الضرير دعاء وهو: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقْضَى. اللهم فشفعه فِيّ» ففعل ذلك الضرير فرد الله عليه بصره من ساعته.

وقد اشتهر هذا الدعاء بين الصحابة بأنه دعاء الحاجة لمن له حاجة عند الله تعالى. ولذلك دعا به الصحابة والتابعون مِنْ بعدهم، كما رُوي[3] أنّ عثمان بن حنيف رضي الله عنه، عَلّم هذا الدعاء

---

(١) في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٢٣٥٥).

(٢) سنن الترمذي في كتاب الدعوات، باب /١٢٩/ (٣٥٧٣)، وابن ماجه في الصلاة (١٣٨٥)، والمسند (٤/١٣٨).

(٣) عزاه في مجمع الزوائد (٢/٢٧٩) إلى الطبراني.

لرجل مِنَ التابعين، كانت له حاجة عند أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فدخل عليه وقضاها، وقد كان البواب يمنعه من الدخول على سيدنا عثمان رضي الله عنه.

ولقد أوردَ المحدثون هذا الحديث تحت عنوان: باب في دعاء الحاجة، أو باب في صلاة الحاجة.

ولا يلزم من كل ضرير أنّه إذا دعا به أَنْ يرد الله عليه بصره، لأن ذلك الضرير كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفعله هذا يدخل تحت خوارق العادات والمعجزات، إلا أنّ الله تعالى يُكرم مَنْ دعا به في أيّ حاجة كانت، سواء في رد بصره، أو أيٍّ حاجة أخرى، وذلك على حسب صِدقه وإخلاصه مع ربه.

ولقد عمّت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم العالمين، حتى شملت الكفار، فبسببه صلى الله عليه وآله وسلم رحم الله الكفار أَنْ يُسلط عليهم عذاباً عاماً يستأصلهم فيه؛ كما فعل سبحانه بالأمم السابقة لَمّا كفروا. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فلا يعذب الله كفار هذه الأمة عذاب استئصال عام رحمة بهم، وإكراماً لرسولهم صلى الله عليه وآله وسلم، بل قد يعذبهم عذاباً جزئياً في بعض أطراف الأرض.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان رحمة للمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فَحَصَّنَ دماءهم وأموالهم، وقَبِل منهم ظاهر الإسلام، ووكل أمرهم يوم القيامة لله تعالى.

كما شَمِلت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم جميع خلق الله من إنس وجن، وحيوان وطير، وأطفال ونساء وعيال.

فمن رحمته بالنساء والعيال أنّه كان يعاشر زوجاته الطاهرات معاشرة حسنة، فيها الحشمة والتكريم والمؤانسة، وفي هذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان صلى الله عليه وآله وسلم يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)[١].

أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُساعد أهله رحمة منه صلى الله عليه وآله وسلم وشفقة بهم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتألف الصبيان، ويفرحهم، ويلاعبهم، ويمازحهم، ويُقَبِّل الصغار، ويمسح رأس الصبي رحمة وعطفاً.

وقد وضع صلى الله عليه وآله وسلم مَرّة الحسن في حجره، وجعل يقبله، فدخل الأقرع بن حابس وقال: يا رسول الله إن لي عشرة مِن الأولاد ما قَبّلت ولا واحداً منهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ لا يرحم لا يُرحم»[٢].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُقبل الحسن والحسين ويقول: «اللهم إني أُحِبُّهما فأحِبَّهما»[٣].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول للسيدة فاطمة رضي الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب من كان في مهنة أهله... (٦٧٦).

(٢) الحديث رواه البخاري في الآداب، باب رحمة الولد.. (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ (٢٣١٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر المسند (٥/٢١٠)، والبخاري في الفضائل، باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنه (٣٧٣٥).

عنها: «ادع الحسن والحسين» فيؤتى بهما فيضمهما إلى صدره الشريف ويقول: «هما ريحانتاي في الدنيا»[1].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٥٣)، والترمذي في أبواب المناقب، مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٧٣) و(٣٧٧٤).

المحاضرة الخامسة عشرة

حول

حَقِّيَّة قضايا الإيمان

وأَنه لا إله إلا الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

اِعلم أنه لَمّا أمر الله تعالى العباد بالإيمان بالله، ورسله، والملائكة، والكتب السماوية، واليوم الآخر، لَمَّا أمرهم سبحانه بالإيمان بذلك كله بَيَّن لهم الأدلة القاطعة التي تَدل على حقية قضايا الإيمان، حتى إذا أراد كل إنسان أَنْ يدخل في الإيمان، فيكون إيمانه مَبْنياً على أدلة قاطعة، وبراهين ساطعة، تُثبت حقية إيمانه وإيقانه.

ولهذا فإنّ قضايا الإيمان ليست وهمية أو خيالية، وإنما الإيمان هو اعتقاد جازم مبني على دليل قاطع لا شك فيه، وقد بَيَّن سبحانه في كثير من الآيات القرآنية ما يدل دِلالة قاطعة على تقرير التوحيد، وأنّه لا إلّه إلا الله، ثم بين سبحانه قضايا وبراهين قاطعة تدل على حَقِّيَّة أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك حتى إذا أمر العبد بالشهادة كانت شهادته على علم يقيني واعتقاد يقيني.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى في الآيات القرآنية بين الأدلة الدالة على قضايا التوحيد، والأدلة الدالة على أن محمداً رسول الله حقاً. ومن هذا قوله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٤].

يُبين الله تعالى في هذه الآيات جملة من البراهين والأدلة التي تدل على وجود الله، وأنّه واحدٌ أحد. ثم يذكر الأدلة بالتحدي والأمر القاطع على أنْ محمداً هو حقاً رسول الله، ونبي الله. وبهذا يتم تقرير الشهادتين، حتى إذا أُمر الإنسان بالشهادة فشهد عن علم ويقين وشواهد وأدلة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: أنتم كلكم عباد، ولا يمكن لأحدكم أنْ يزعم أنه رب نفسه. ولو ادعى إنسان أنّه رب نفسه فيقال له: إذا كنت رَبّ نفسك فأعط نفسك ما تريد!!، وأمسك عليك حياتك ووجودك، لكنك عاجز عن تحقيق ما تريد، أو نيل ما تهوى، مما يدل على أنك عبد مخلوق، وأنّ هناك مَنْ خلقك، وهو يتصرف بك بالحكمة، وله القدرة التي لا تتناهى.

ولو كنت أيها الإنسان أنت رب نفسك لخلقت نفسك في العصر الذي تريد، لكن الله تعالى أوجدك وخلقك في الوقت الذي يريده هو سبحانه.

ولقد كنت قبل وجودك في العدم، والعدم لا يُعطي وجوداً، فَمَن خلقك وأوجدك بعد عدم؟، فلابد إذاً من مُوجد وهو الله سبحانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ لأنه هو ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ فأنتم مخلوقون موجودون بعد عدم، فلابد إذاً من موجد خالق.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: خلقكم وخلق مَنْ قبلكم، فإنهم مثلكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: إن أنتم عبدتموه لعلكم تتقون سخط الله تعالى، وعقاب الله، وعذاب الله سبحانه وتعالى.

فهو سبحانه الذي خلقكم، وخلق ما يحيط بكم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ وفي هذا لفتة إلى دليل آفاقي، بعد ما ذكر الله سبحانه الدليل النفسي على وحدانيته وقدرته.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: تفترشونها في سيركم ونومكم وزراعتكم وما هنالك.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ مشهوداً فوقكم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ فإنْ أمسك سبحانه ماء السماء عن النزول مَنْ غيره يُمطر العباد ويغيثهم؟ وإنْ أمسك سبحانه الهواء والرياح مَنْ غيره يُرسلها؟؟!!.

ولقد أنزل سبحانه من السماء ماء واحداً، فأخرج به ـ أي: بهذا الماء الواحد ـ من الثمرات المتنوعة المختلفة في أشكالها وألوانها ومذاقها. فالماء واحد، والأرض واحدة، ولكن اختلفت منتوجاتها

وثمارها وأشجارها، ولو كان الأمر مِنْ ذاته وطبيعته لأعطت الأرض نمطاً واحداً، لكن الواقع غير ذلك، فلابد إذاً من خالق يُميز هذا، ويخرج هذا، وهكذا. ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شركاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الشركاء والأصنام لا تضر ولا تنفع، وإنما الخالق البارئ هو الله وحده.

وقد جاء جماعة من المنكرين لوجود الله إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه يريدون الدليل على وجود الصانع.

فقال لهم: يا قوم دعوني فإني أفكر.

قالوا: بماذا تفكر؟؟!!.

قال: بلغني أن هناك سفينة كبيرة مملوءة بالأمتعة والبضائع الكثيرة، وأنها تمخر البحار وتسير هكذا من نفسها من بحر إلى بحر، ومن شاطئ إلى آخر، بدون أن يكون هناك من يسوقها.

قالوا: يا إمام أَتُصَدِّقُ بهذا الخبر؟

قال: أنتم تُصدقون إذاً أن هناك سماواتٍ وأرضاً وشموساً وكواكب وبحاراً قد وُجدت بنفسها بدون أن يكون هناك إله أوجدها وخلقها، وهو يدبر أمرها؟!!

فقالوا: نشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وهكذا انتقل بهم من الأمر الجزئي إلى الأمر الكلي.

ولما سئل الإمام مالك يرحمه الله تعالى عن الدليل على وجود الصانع قال: انظروا إلى اختلاف الألسنة والألوان ـ أي: إلى اختلاف

الهيئات والصور والأصوات ـ ولو كان الأمر بذاته وطبيعته لكان الكل على نمط واحد، وصورة واحدة، وصوت واحد.

وهذا يدل على أنّ لله القدرة التي لا تتناهى، فهو سبحانه يخلق الشيء ويخلق غيره، وليس هناك مخلوق يُشبه مخلوقاً آخر من جميع الوجوه والاعتبارات.

وكما اختلفت صور بني آدم وهيئاتهم، كذلك فإن صورة كل مخلوق تختلف عن الآخر. فالطيور تختلف عن بعضها وهي من جنس واحد، إلا أنّ الإنسان لا يَرى ذلك، ولو كان من عالم الطير لرأى هذا الاختلاف، وكذلك النمل والنحل وسائر الحيوانات والبهائم. وهذا يدل على أن قدرة الله لا تتناهى، فيخلق الشيء ويخلق غيره وهكذا، ولو كان لقدرته تعالى حدّ لَخَلَقَ الشيء وخلق مثله تماماً. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والمراد بالألوان: الهيئات والصور.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن الدليل على وجود الصانع فقال: يا قوم إن الأمر أيسر من ذلك: هاهنا حصن حصين أملس لا منفذ فيه، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك انشق فخرج منه حيوان يمشي على وجه الأرض، له شكل حسن، وله صوت حسن.

قالوا: وما هو ذلك؟

قال: هو البيضة، بيضة الدجاج إذ تَمضي عليها مدة وهي ملساء

رصينة محكمة، ثم تنشق يخرج منها صوص، فينمو حتى يمشي، وله شكل حسن، وصوت حسن.

وفي هذا دليل على وجود الصانع الحكيم الخبير، القادر العليم جل وعلا.

ويرحم الله القائل:

فوا عجباً كيف يُعصى الإلّه	أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تحريكة وتسكينة	أبداً له شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

فكل تحريكة وتسكينة تجري في الكون تَدل على وجود المحرك والمسكن.

قال تعالى: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [الأنعام: ١٣].

أي: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ مما تشاهدون أنتم ومما لا تشاهدون.

ولَمّا ذكر سبحانه الدليل على حقية وجوده سبحانه، وأنه لا إلّه إلا الله، وأتى بالدليل النفسي والدليل الآفاقي، ذكر سبحانه الدليل على صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ محمداً هو حقاً رسول الله؛ لا يحتمل غير ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ أي: شك ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ وقد وَصفه بالعبدية لأَنّه أشرف مقاماته صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد نال صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً في العَبْدية والعبودية وعبادته لله تعالى لم ينله أحد غيره.

واعلم أنّه على نسبة التحقق بمقام العبودية يكون التقرب من حضرة الربوبية.

ولَمَّا نال صلى الله عليه وآله وسلم أعلى مقامٍ في العبدية لله تعالى، نال أعلى مقام في القرب من حضرة الربوبية، حتى نال مقام قاب قوسين أو أدنى.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وهو القرآن النازل عليه، وادعيتم أنه ليس بنبي، وأنّ هذا القرآن من أقواله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: بسورة تُشبه سور القرآن.

وقال كثير من المحققين في قوله تعالى:﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾: إنّ الله تعالى يقول ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، ولم يقل مثله كما هو في الآيات القرآنية الأخرى، وهذا يَدل على أنّ المراد من قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. أي: مِنْ مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والمعنى: كأن الله تعالى يقول: يا أيها الناس أنتم تعلمون أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً، ولم يقرأ ولم يدرس، ولم يستمع إلى مُعلم، وبقي أربعين سنة على هذه الحالة، ثم على تَمام الأربعين سنة وفي ليلة واحدة أوحى الله إليه، وأنزل عليه النبوة والرسالة والقرآن، فأصبح يقرأ على الناس كلام الله تعالى، فإنِ ارتبتم في نبوته ورسالته، والقرآن الذي نزل عليه، فَأْتوا بسورة واحدة مِنْ مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أي: من رجل أمي لم يقرأ ولم يتعلم.

بل هاتوا سورة مِنْ علمائكم وأكابركم وخواصكم، بل وأجمعوا

أمركم وشهداءكم وهاتوا سورة واحدة تشبه سورة من سورة القرآن.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ لم تستطيعوا ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي: ولن تستطيعوا ذلك، أنتم ولا من بعدكم إلى أبد الآبدين، فاعلموا أنّ هذا القرآن هو بوحي من عند الله، نزل على محمد رسول الله، فالواجب عليكم أن تُؤمنوا برسول الله حتى تتقوا عذاب الله.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ ويكون المعنى: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فآمنوا بهذا الرسول وما نَزل عليه حتى تتقوا عذاب الله وسخطه، وتتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة.

والوقود هو الشيء الذي يُوقد ويتوقد ـ أي: يشتعل ـ فإن وقود جهنم هم الكفار بأنفسهم، والحجارة وهي الأصنام التي عبدوها في الدنيا، وهناك حجارة الكبريت الجهنمي الذي يتفجر في جهنم. ونسأل الله العافية.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم» أي: إن أشد نار في الدنيا «جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم»[(١)].

وجاء في الحديث المتفق عليه[(٢)]: «اشتكت النار إلى ربها

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النَّار (٣٢٦٥)، ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب الإبراد في الظهر (٢٨٤٣)، وغيرهم، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب استحباب الإبراد في الظهر (٥٣٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد في الظهر (٦١٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فقالت: يا رَبِّ أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف. فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير».

وهذا النفس الحار يتجه إلى أشد بقاع الأرض حرارة، وهذا بعد التلطيف والتخفيف، والتنزل في العوالم. وهو نفس من أنفاس جهنم، وليس اندلاعاً، إذ لو كان اندلاعاً لأحرق الأرض ومَن عليها.

فيتوجه هذا النفس إلى أشد بقاع الأرض حرارة أو برودة، على حسب النفس، ثم يتوزع على بقاع الأرض على نسب معينة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أعدها الله يوم خلق السماوات والأرض أعد جهنم للكافرين. وهذا يدل على أن جهنم مخلوقة موجودة، كما قال سبحانه في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يوم أعدها الله تعالى.

وهكذا لما بَيّن سبحانه أدلة التوحيد، بَيّن الأدلة على أن محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حَكَم سبحانه وتعالى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو البرهان القاطع، وقد سماه الله تعالى برهاناً لِحَقِّيَّة وحقيقة ما جاء به ـ أي: لحقية نبوته وحقية ما نزل عليه ـ وفي هذا يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] والبرهان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأما النور المبين فهو: القرآن.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم البرهان. أي: الحجة القاطعة، والدليل الساطع، الدال على أنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وإنّ أعظم آية تدل على أنه لا إلّه إلا الله هي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم دليل وشاهد على أنه حقاً رسول الله.

فمن نظر إلى خَلْقه وخُلُقه، وسعة علومه، وكمال عقله، ومحاسن صفاته؛ عَلِم حقاً أنه رسول الله، فهو بنفسه البرهان الصادق على أنه رسول الله، في سِيَرِه، وشمائله، وخَلْقه، وخُلُقه، وقوله وفعله، وفيما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم.

كما سمّاه الله تعالى بالبينة، لأنه بينة الله الكبرى، وحجة الله العظمى على العالم.

وقد رَد الله تعالى على الكفار ومشركي قريش حين زعموا وطعنوا ـ وإن كانوا يعلمون صدق رسول الله إلا أنهم من باب الطعن والافتراء ـ قالوا عن رسول الله: مجنون، وهم يعلمون أن عقله فوق عقول العالمين كلهم، إلا أنّهم من باب الاستهزاء والطعن قالوا عنه ما قالوا.

فقال سبحانه رداً عليهم، وتنبيهاً للعقلاء في ملحظ دقيق: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ وتقدير الكلام: وقالوا ـ أي: كفار قريش ـ: إنك لمجنون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾.

وكيف يصح أن تكون مجنوناً ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾؟ فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ من خطاب الحق، حتى

يردّ ما قاله المشركون. أي: أنت الذي نَزل عليه الذكر، وهو القرآن الذي ذُكر فيه كل شيء، كيف يَصِحّ أن يقولوا عنك: مجنون؟ بل هذا كلام متناقض مردود عليهم. وإليك ما يقرب لك فهم ذلك:

إذا كان هناك طبيب ماهر، وقالوا عنه: إنه مجنون. ثم جئت إليه وقلت له: قالوا عنك يا أيها الطبيب الماهر: إنك لمجنون. وهذا أمر ينافيه الواقع. مما يدل على أن قولهم ذلك قول باطل وكاذب، وأنهم هم المجانين.

كما يقال للرجل العاقل الحكيم إذا تكلموا فيه: وقالوا يا أيها الرجل الحكيم إنك لمجنون. أي: والحال: أنْتَ رجل عاقل حكيم، فما كلامهم إلا جنون في جنون.

وهكذا قالت كفار قريش كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦] وكيف ينزل الذكر، وهو: القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها، وفيه الإخبارات الماضية واللاحقة، وفيه الإعجاز النّصيّ والخبري والتشريعي؛ كيف يصح أن ينزل هذا الذكر على رجل مجنون؟!!!

هذا يدل على جُنون مَنْ نَسب إليه الجنون، لأنك لو سألت المجنون: مَن المجنون أنت أم هؤلاء الناس؟

لقال: أنا العاقل وهم المجانين، وهذا لجنونه.

ولقد وصف الله تعالى القرآن بالذكر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد ذكر سبحانه في هذا القرآن الكريم كل شيء، حتى ذكر أحوال الأشقياء وصفاتهم وعواقبهم، كما ذكر أحوال الأتقياء وصفاتهم وعواقبهم. ولذلك لَمّا سمع الأحنف بن قيس رضي الله عنه قارئاً يقرأ الآية: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] راح يبحث عن صفاته في القرآن الكريم. حتى إذا مرّ على قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠١] فقال: اللهم أنا من هؤلاء.

وهناك كتاب أوّل وهو اللوح المحفوظ، ويُسمى بالذكر الأول كما قال صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله أهل اليمن: جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ ـ أي: هل هذا العالم مخلوق بعد عدم؟ ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كان الله ولم يكن شيء غيره» أي: إن هذا العالم مخلوق بعد عدم «وكان عرشه على الماء» أي: بالكينونة المخلوقة الحادثة «وكتب في الذكر كل شيء» أي: في اللوح المحفوظ «وخلق السماوات والأرض»[١].

وقد سمّى اللوح المحفوظ: ذِكراً لأنّه ذُكر فيه جميع القضايا والمقادير.

وهكذا نفى سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم دعوى المشركين واتهامهم له بالجنون، وأثبت له كمال العقل، وأنّه

(١) الحديث في المسند (٤/٤٣١)، وصحيح البخاري في أول كتاب بدء الخلق (٣١٩١) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما.

صاحب العقل الأول الذي استفاض عن رب العالمين، وهو صاحب العلم الأول والمقام الأول. كما بيّن تعالى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم هو البرهان الصادق الدالّ على وحدانية الله تعالى، وعلى أن محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. ولذلك فإن الإنسان مأمور أن يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. وهذه الشهادة عن علم ويقين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١].

فلما أمر سبحانه العبادَ بشهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. أشهدهم مشاهد: لا إلّه إلا الله، وأثبت لهم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أنّ الله حق، وأن لا إلّه إلا الله، وذكر لهم أدلة صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلمَّا علموا ذلك يقيناً شهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. فكانت شهادتهم عن علم جازم قاطع.

فالشهادة تتضمن اليقين القلبي العملي بما تشهد به، وتتضمن الإقرار القولي باللسان، فيقول العبد: أشهد.

وإن قول الإنسان: أشهد. هو: إشهادٌ أمام الله تعالى أنه يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالشاهد لَمّا يشهد إنما يشهد ويعترف بقلبه، كما أنه يُشهد الله ورسوله والمؤمنين وخلق الله أجمعين، أنَّه يَشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. كما هو في تَشهّد الصلاة.

وإنّ الله تعالى يسمع هذه الشهادة، ويكتبها لك في ديوان الشاهدين، حتى إذا انتقل إلى الآخرة فتظهر له شهادته في أول برازخ الآخرة.

وكفى بالقرآن معجزة تدل على صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه حقاً رسول الله، فإنْ لم تكن رأيت معجزاته المتنوعة عياناً؛ فهذا القرآن مشهود بين يديك، ثم إنّ أخبار معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم وبينات صدقه قد نقلت إليك بالتواتر، وخبر التواتر أقوى من رؤيا العيان.

أما إذا كنت لا تصدق إلا بما تَرى؛ فيجب عليك أن تُنكر وجود كثير من بقاع الأرض وأنهارها وبحارها، لأنك ما رأيتها بعينك ولكنها موجودة، بدليل أنّ هناك كثيراً من الناس رأوها وعاينوها؛ وأخبروا عن وجودها. فلا يسعك إلا التصديق.

كما أن هذا القرآن قد نُقل إلينا بالتواتر، ولم يجرِ عليه أيّ تبديل أو تحريف، لأن الله تعالى قد حفظه، وقد ذكر هذا القرآن كثيراً من المعجزات التي جرت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فما عليك إلا التصديق والتسليم إذا كنت ذا عقل سليم، وإذا صدّقت وعلمت آمنت وأيقنت عن علم، فشهدت عن علم أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً.

ولهذا لما قال الأسود العنسي ـ الذي ادّعى النبوة ـ قال لأبي مسلم الخولاني رضي الله عنه: أَتَشْهد أني رسول الله؟

قال: ما أسمع.

قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم. لأنه ثبت عنده يقيناً بالعلم الجازم القاطع أن سيدنا محمداً هو حقاً رسول الله فشهد على ذلك، وأما دعوى الأسود العنسي النبوة فهي دعوى كاذبة باطلة فكيف يشهد على زُوْرٍ.

فأمر بنار عظيمة فأججت، وأدخله فيها فلم تضره، فأبعده عن اليمن لئلا يُفسد عليه أمره، فجاء إلى المدينة المنورة، وكان الخليفة سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فدخل المسجد وصلّى، فنظر إليه عمر رضي الله عنه ـ وكان قد سمع أن هناك رجلاً أدخله الأسود العنسي في النار ولم تضرّه ـ فقال له سيدنا عمر: ما اسمك؟

قال: عبد الله ـ وكان اسمه عبد الله ـ.

فقال: مِنْ أين أنت؟ قال: من اليمن.

قال: أنت ذاك الرجل الذي عُرِض على النار فلم تضرّه.

قال: ذاك عبد الله. ذاك عبد الله.

قال: أخبرني بالله عليك. فقال: نعم. فأخذ بيده وذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال له: اذكر لنا القصة. فذكرها لهم.

فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مَنْ يكرمه الله تعالى كما أكرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام (١).

وكان أبو مسلم الخولاني من التابعين، آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الخبر في الحلية (٢/١٢٨)، وسير أعلام النبلاء (٤/٨).

وهو في اليمن، ولما جاء إلى المدينة المنورة كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد توفي.

وهكذا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو البرهان على أنه رسول الله، وقد ظهر هذا في عقله، وعلمه، وَخُلُقه، ومعجزاته، وجمال طلعته، وبهاء منظره صلى الله عليه وآله وسلم، فكانت أحواله كلها شواهد حق أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ وهو القرآن الكريم النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة السادسة عشرة

حول

حَقِّيَّة قضايا الإيمان

وأنه

لا إله إلا الله محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٩ـ ١٠]. لقد ذكر الله تعالى هذه الآيات في سورة إبراهيم وهي السورة التي افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فلقد بيّن الله سبحانه في فاتحة هذه السورة أن في هذه السورة براهين قاطعة على قضايا التوحيد ولهذا قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلال والريب، إلى نور الحق الواضح ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو صراط توحيد رب العالمين، وهو صراط الإيمان برب العالمين.

ثم ذكر سبحانه آياتٍ وآيات ثم قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِنْ بعْد قوم عاد ونوح وثمود ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: أن هناك أمماً لَمْ نذكرها لكم بأعيانها، ولم تكونوا تعرفونها، ولكنها أمم كثيرة انتشرت على وجه الأرض، وأرسل الله فيها رسلاً، ولكنه سبحانه بيّن أنّه لم يذكر جميع الأمم بأعيانها، ولهذا لم يَذكر جميع الرسل بأشخاصهم، وإنما ذكر طائفة عظيمة من الرسل بأعيانهم وسماهم، وذكر مجموعة كبيرة من الأمم وسماهم، ولكنه سبحانه بَيّن أن هناك أمماً لم يذكرها بأعيانها فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهناك أمم لَمْ يذكرها الله بأعيانها، ولكنهم ذكروا بالإجمال كما قال في الرسل: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] أي: لم نذكرهم بأعيانهم وأسمائهم، وإنما أرسل الله رسلاً إلى أمم لم تُعرفْ، ولكن الله يعلمهم جَلَّ وعلا.

ومِن هذا تَفهم ما قَد يُشكل عليك هَل هناك أمة كانت مجهولة ما جاءها رسول من الرسل؟!!

فالجواب: لا. بل إنّ جميع الأمم أرسل الله إليهم رسلاً كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وبيّن القرآن أَنّ هناك أمماً انتشرت في نواحي الأرض من زمن بعيد، ولكن بَعد ذلك تعارفَ أهل الشرق على أهل الغرب.

وهكذا فلقد أرسل الله رسلاً إلى جميع أمم الأرض، ولكن منهم مَنْ سماهم بأعيانهم وسَمّى رسلهم، ومنهم مَنْ لم يذكرهم بأعيانهم ولم يُسمِّ رسلهم، وإنما ذكرهم إجمالاً كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: إن كل هذه الأمم التي ذكرها الله بأعيانها والتي لم يذكرها؛ إنما ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلة والحجج والبراهين القاطعة مِنْ ربِّ العالمين، التي تثبت أن الله حق، وأنه واحد أحد، وأن الرسل حق، وأن الآخرة حق، وأن شرائع الله حق.

فلقد جاءتهم رسلهم بالبينات لا بالمجاملات والمخادعات، وإنما بالبينات. أي: البراهين العقلية القاطعة، والبينات الفعلية، وهي المعجزات وخوارق العادات التي أجراها الله على أيدي الرسل.

ـ فماذا كان موقف الأمم؟

ـ منهم من اعترف بالحق وآمن، وهناك كثيرون كفروا وأعرضوا، كما قال سبحانه: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾.

فلقد بيّنت الرسل البيانات، وجاءت بالأدلة، ولكن هناك مَنْ عاند وكفر جاحداً متكبراً بعد أَنْ عرف الحق ورآه، ولكنه لم يعترف به، ولم يُقرّ به. بل رَدوا أيديهم في أفواههم. أي: أَنّ الأمم الكافرة وضعوا أيديهم على أفواههم، وقالوا للرسل: نحن هكذا لا نقبل الحق ولا نسمع إليكم، وإنما جوابنا: أن نعرض عنكم، ولا نقبل

منكم، وهذه أيدينا على أفواهنا، وليس عندنا غير ذلك، فقولوا ماذا تريدون أيها الرسل، وافعلوا ما شئتم، فنحن لا نرضى إلا بالكفر.

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال بعض السلف: يعني أنهم لَمَّا جاءتهم رسلهم بالبينات قالت لهم الأمم الكافرة: نحن ما نقبل.

قال لهم الرسل: إذا كانت هذه البينات غير صحيحة فردوها.

فقالوا: لا تأتونا بالبينات ولا بالأدلة، بل اسكتوا ولا تجادلونا يا رسل، فنحن هكذا لا نترك ما نحن عليه من الكفر.

وهذا شأن المعاند المكابر، لأنه عند ظهور البينة والدليل: إما أَنْ يذعن الإنسان. أو يردّها إنْ كانت عنده حجّة. أما إذا ذُكِّرَ وظهر الحق، وبانت البيّنة؛ ولم يقبل بها الإنسان بل أعرض؛ فهو معاند مكابر جاحد كافر. نسأل الله العافية.

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: لَمّا جاءتهم الرسل بالبينات والحجج لم يكن بِوُسع الأمم الكافرة أن تردها على الرسل، فقالوا للرسل: اسكتوا ولا تتكلموا ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: في أفواه الرسل صلوات الله عليهم، حتى لا يأتوا بشيء من الأدلة والبينات. فما أرادوا أن يسمعوا الحق من الرسل، بل أعرضوا ومانعوا ذلك، وهذا غاية الكفر.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنتم تقولون إنكم في شك مما ندعوكم إليه، وهو توحيد الله والإيمان

به، فهل في وجود الله شك؟!!. لا شك فيه. لِمَ؟ لأنه فاطر السماوات والأرض.

فانظروا في هذه السماوات وهذه الأرض، وما فيهما من آيات وعجائب، ومخلوقات وعوالم، مَنِ الذي فطرها وخلقها وأبدعها، وأودع فيها العجائب!؟

وهذه السماوات وهذه الأرض موجودة حقاً وليست معدومة. فَمَنِ الموجد لها؟

أما أنكم تقولون هي: موجودة بنفسها فهذا كلام باطل، إذ لا شيء يوجَدُ من تلقاء نفسه. وهذا أمر معروف ببداهة العقل. إذ إن كل بناء لابد له من بانٍ، وكل متحرك لابد له من محرك، وكل أثر لابد له من مؤثر، وهذه الأمور مُسَلَّمة ببداهة العقل، ولا تحتاج إلى تفكر أو تأمل.

فلو أنك مَررت ببناء أو مسجد فإنك لا تشكك أو ترتاب في أن هناك مَن بناه، بل لا يخطر ببالك ذلك.

فإذا كنت مُوقناً بوجود البناء فيجب أن تكون موقناً بوجود الباني أشد يقيناً.

ولهذا لقّن سبحانه الحجة لموسى عليه السلام في مناظراته ومحاولاته مع فرعون، وكان له مع فرعون عدة محاولات، وكان في كل مرة يطرح أسئلة على موسى عليه السلام، ويلقن الله الحجة لموسى. ومن ذلك قوله سبحانه فيما ذكر عن موسى عليه السلام مع

فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤]. أي: إن كنتم موقنين بوجود السماوات والأرض ـ ولا شك أنهم موقنون بوجودها ـ فيجب أن تكونوا أشد يقيناً بوجود خالقها وبارئها.

فلما ترى أيها العاقل بناءً فإنك لا ترتاب ولا تشكك بوجود مَن بناه، ولا يَنْتابُك أيّ خاطر في ذلك، بل إنّ وجود الباني أمرٌ مُسَلَّم عندك ببداهة العقل.

وكذلك إذا رأيت متحركاً فلابد هناك مِنْ مُحرك يُحركه.

وهكذا فأنت تحكم ببداهة العقل أنّه لابُدَّ لكل حركة مِنْ محرك، ولابد لكل أثر من مؤثر، ولابد لكل بناءٍ مِن بَنّاءٍ، فانظر في هذا العالم بسماواته وأرضه، وكواكبه ونجومه، وشموسه وأقماره، وعجائبه فمن أوجده؟؟

قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

فلابد لهذا الكون مِنْ خالق مُبدع، قدير عليم خبير، إذ لا يستطيع البشر أَوْ غيرهم على أَنْ يخلقوا سماوات وأراضيَ، بل إنهم عاجزون عن خلق أنفسهم، فَمَنِ الذي خلقهم، وخلق هذه العوالم الكبرى؟؟.

هذا هو الله تعالى، الذي لَه القدرة التي لا تتناهى.

قوله تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾. أي: لا شك فيه. لِمَ؟ لأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وموجدهما. ولكي يتّضح لك المعنى

أكثر من ذلك: فأنت لما تمر على بناء أو مسجد فتقول: أفي وجود الباني شك؟ أو أفي البنّاء شك؟ باني المسجد. فلا شك إذاً في وجود الباني لَما وُجدت البناية، لأنّ وجود البناء شاهد يُثبت يقيناً على أن هناك بنّاء بناها.

ولقد بيّن سبحانه في حججه التي لقّنها لخليله إبراهيم عليه السلام، وحاجّ بها قومه، وقد ذكرها لنا سبحانه في القرآن، كما لقّنها حجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الكافرين والمنكرين، وذلك حتى تعلم أنّه سبحانه قَد ذكر أنواعاً من الحجج والبراهين، والأدلة الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وعلى حقيقة قضايا الإيمان.

وإن حجج الله بالغة، تبلغ العقل الصحيح والقلب، ولا يمكن ردها أو نقضها ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقد أعطى سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وَجَمع الله له جميع الحجج التي أعطاها لرسله عليهم السلام، فمن ذلك يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فما هي تلك الحجة؟

لقد ذكرها في الآيات التي قبلها وهي: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩] أي: وجهت وجهي للذي خلق السماوات والأرض.

وهذه مناظرة أوردها إبراهيم عليه السلام حجة على قومه، وكان قومه منهم مَنْ ينكر وجود الله، ومنهم مَنْ يعتقد أنّ الخالق هو الكوكب، ومنهم مَنْ كان يَعبد القمر، ومنهم مَن كان يعبد الشمس، فراح سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبطل جميع هذه المزاعم، وأثبت لهم أن الإله هو الله الذي خلق السماوات والأرض.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: أظلم عليه الليل وستره ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهو كوكب الثريا المنير، الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ وفي هذا يُعرِّضُ سيدنا إبراهيم بالذين يعبدونه، وليس المراد أنّ الكوكب رب إبراهيم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب هذا الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ أي: كيف لهذا الإلٓه أن يغيبَ عن خلقه ويغرُب عنهم.

وإذا صح للإلٓه أن يغيب فَمنِ الذي يُمد خلقه في حال غيبوبته عنهم؟ فإما أن يكون خلقه غير محتاجين إليه؛ فهذا ليس بإلٓه خالق رازق حق، لأن شأن الإلٓه الحق أن يكون خلقه مفتقرين إليه. وإذا غاب عنهم وهم بحاجة له فَمَنِ الذي يُمدهم ويسدد حاجاتهم في حال غيابه عنهم؟؟.

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ يعني بذلك: أَنّ شأن الإلٓه والرب

الحق أن خلقه دائماً محتاجون إليه، ولا يستغنون عنه، وهو دائماً يمدهم. أما الكوكب فيُستغنى عنه مُدة من الزمن، وكذلك القمر والشمس، ومع ذلك يبقى نظام الخلق مستمراً، ولا يضطرب أمرهم.

أما حاجة الخلق إلى ربهم فهي حاجة حقيقية، ولا غنى لهم ولا لحظة عن ربهم، فلا يصح أن يغرب عنهم ولا لحظة، وذلك لأنه سبحانه إذا غاب عن العالم؛ أو غرب عنهم؛ أو نام؛ فمن يقوم بتدبير العالم وإمداداته!؟؟.

ولذلك فإنّ الله تعالى لا يغيب أبداً، بل هو شاهد وعلى كل شيء شهيد.

كما أنه سبحانه لا ينام، لأنّه إذا جاز له أن ينام فمن يتولى أمر العالم بالإمداد والتدبير؟ ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(١)].

ومعنى: «يخفض القسط ويرفعه» أي: يُدبر أمر العالم، ويمده بموجب العدل والقسط، إما خفضاً أو رفعاً، فهو يخفض الخفض

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٣٩٥و٤٠١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب /٧٩/ (١٧٩) عن سيدنا أبي موسى رضي الله عنه.

القسط، ويرفع الرفعَ القسط، على موجب الحكمة الإلّهية.

واعلم أنّه لا يصح أن يقال: إن الله غائب، بل هو شاهد وشهيد كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:٧] أي: إننا نجمع الناس يوم القيامة، ونخبرهم بأعمالهم ونقول لهم: أنت فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي: أخبارهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: منا، ونقول لهم: نحن ﴿مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿غَائِبِينَ﴾ عنكم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

وقد يقال: إذا كان الله شاهداً غير غائب، فَلِم لا نراه؟؟ وهذا إشكال؛ إنْ لم يَدل على نقص عقل، فهو يدل على نقص علم وجهل. فإذا كنت في بيتك ورأيت نور الشمس من النافذة ظاهراً على الأسطحة والجدران، فهل تستطيع أن تُنكر وجود الشمس، لأن عينك لم تُعاين عين الشمس.

فالشمس موجودة، لكن سقف بيتك حجبك عن رؤية عينها، ولكنك أثبت وجودها وطَلْعَتَهَا بأنوارها المنتشرة وتقول: إن الشمس طالعة وليست غائبة.

وكذلك فإن الإنسان محجوب عن رؤية ربه، وليس عنده قوة أن يُعاين ذاتَ الحق ببصره. وهو الآن في غطاء وحجاب جسماني، وسيأتي عليه يوم ينكشف عنه هذا الغطاء في عالم آخر ـ وتزول عنه الحجب التي تمنعه عن رؤية ربه مِنْ ذنوب وآثام ـ فهناك يرى ربه.

كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فلا يمكن للإنسان أن يرى ربه في عالم الدنيا بعين بصره؛ إلا إذا انكشف عنه الحجاب الجسماني والظلماني. أما انكشاف الحجاب الجسماني فهو بانتقاله إلى برازخ الآخرة، وأما انكشاف الحجاب الظلماني فهو بالتخلي عن الذنوب والآثام فيها.

وهكذا ردّ إبراهيم عليه السلام زعم مَن عَبَدَ الكواكب، ثم ردّ على من عبد القمر؛ إذ إنه يغيب ويَغرب، ثم ردّ على من عَبَدَ الشمس؛ لأنها تغيب وتغرب، ونظام الكون والعالم لا يتأثر بغيابها، والخلق يستغنون عنها، وكيف يصح للخلق أن يستغنوا عن خالقهم؟!!.

ـ فمن هو إذاً الإلّه الحق؟

ـ لقد لفت إليه النظر إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

ـ فالإلّه الحق هو الذي فطر السماوات والأرض، وما فيها من عوالم وآيات وعجائب.

وهكذا أتى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحجة على قومه، ونقلهم من حال الضلال إلى حال النور، وسلك بهم طريقاً في الحجة بحيث ردّ على مَنْ عبد الكوكب أو القمر أو الشمس بأسلوب لا تنفير فيه؛ وإنما فيه الإقناع والبرهان، حتى أوصلهم إلى نتيجة مفحمة، وهي: أنّ الشمس لا يُمكن أن تكون إلّهاً، وأنّ القمر لا يُمكن أن يكون إلّهاً، وأن الكوكب لا يمكن أن يكون إلّهاً. فمن الإلّه إذاً؟

إنّ الإلّه الحق هو الذي خلق السماوات والأرض، فهو الذي يَجب أن يُعْبَد ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ولقد آتى الله هذه الحجة لإبراهيم على قومه، وليست هي حجة له حتى يتعرّف إلى الله، لأنّه عليه السلام نشأ على التوحيد والإيمان منذ صغره، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن نؤتيه النبوة والرسالة ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ولقد ذكرها سبحانه في القرآن، وبلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تكون حجة على المنكرين من الأمة، فيعلموا أنه لا إلّه إلاّ الله.

وهكذا يبيّن سبحانه الدليل على أنه حق فقال: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٥-٦].

ولقد أشهد ذلك في آياته بإنزال المطر من السماء، ثم أخرج بهذا الماء الواحد الثمار المختلفة، والزروع المختلفة، في أشكالها وطعومها، وأوان خروجها، والحال أنّ الماء واحد، والأرض واحدة. وإذا كان الأمر بنفسه وطبيعته فيكون الناتج واحداً، والأثر واحداً، لكن الواقع غير ذلك.

فالقضية ليست طبيعةً، وإنما القضية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾

يخلق ما يشاء، ويحكم ما يريد سبحانه وتعالى.

ومعنى أن الله هو الحق: أي: واجب الوجود، وهذا أول الاعتقاد، وإذا كنت موقناً بوجود شيء وأنّه حقاً موجود، كالشمس والقمر والأرض، ونفسك أنت، فإن الذي أوجدها أحق وجوداً منها.

فإذا كنت تُثبت يقيناً من اليقينيات، أو حقيقةً من الحقائق، فيجب أن تُثبت وجود الذي أوجدها مِنْ باب أولى وأحق، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]. أي: إن كنتم موقنين بوجود شيء من اليقينيات المسلَّمة، فيجب أن تكونوا بوجود من أوجدها أشد يقيناً. ولذلك فإنّ الله حقٌّ فوق كل حق.

ومعنى واجب الوجود: أي: إن وجوده واجب ذاتي، لا أول له، ولا آخر له، وما مِنْ أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، وهو القديم الذي لا بداية له، والباقي بلا نهاية.

ويقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ومعنى أنه ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾: أي: القديم الذي لا بداية له، ولا أول لأولية الله، وما مِن أول إلا والله أوّله وقبله. وهو قبل القبل وبعد البعد.

وهو ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي: الباقي بلا نهاية.

وروى البيهقي في سننه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّم سيدنا علياً رضي الله عنه دعاءً في المهمات فقال له: «قل: اللهم

يا كائناً في كل شيء، ويا مُكَوِّن كل شيء، ويا كائناً بعد كل شيء» ثم تسأل الله حاجتك.

وروى مسلم في صحيحه[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن ينام دعا بقوله: «اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كل شيء، فالق الحب والنوى، مُنزل التوراة والإنجيل والفرقان: أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء؛ اِقضِ عنا الديْن، وأغننا من الفقر» أي: أغنني من الفقر أن أفتقر لخلقك؛ بأن لا تجعل لي حاجة إليهم والمعنى: أغنني من الافتقار إلى الناس، واجعلني مفتقراً لك يارب.

وروى الترمذي[2] أن السيدة فاطمة رضي الله عنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تَطلب خادماً يُعينها في أمور البيت ـ إذْ إنها كنست البيت، وطحنت حتى أثّر في يدها ـ فجاءت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خادماً من العبيد والإماء والأرقاء.

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم، من جملة ما قال لها وعلّمها: «قولي: اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم،

(١) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم (٢٧١٣)، وهو في السنن الأربعة أيضاً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في كتاب الدعوات باب /٦٨/ (٣٤٧٧).

ربنا وربَّ كل شيء، مُنزِل التوراة والإنجيل والقرآن، فالق الحب والنوى، أعوذ بك مِنْ شر كل شيء أنت آخذ بناصيته. أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين وأغنني من الفقر».

ربما يقال: ما وجه المناسبة في هذا الدعاء، وهي تسأل خادماً يُعينها ويساعدها!؟.

فاعلم أن قوله: «أغنني من الفقر» أي: أغنني أن أكون مفتقراً لعون أحد من خلقك، بل اجعل فقري إليك، وعوني بك يا رب، ولا تحوجني إلى مَن يعينني.

وأما معنى أنه سبحانه «الظاهر» أي: ليس فوقه شيء في الظهور. وهو «الباطن» المحتجب عن خلقه، ومعنى الظاهر أنه الظاهر بصفاته وآياته. والباطن بحقيقة كنه ذاته سبحانه.

فآياته سبحانه وصفاته ظاهرة في خلقه، فقدرته ظاهرة في مصنوعاته، وإبداعه ظاهر في مبدعاته، وعلمه وحكمته وهكذا.

فهذا العالم يَدل على عظيم إرادة الله، وعلى جميع صفاته، فهو سبحانه الظاهر بصفاته، وهو أظهر الظاهرات؛ لأنه ما مِنْ ظاهر إلا والله أظهره، فهو سبحانه أشد ظهوراً منه. والقاعدة معروفة: وهي إن الذي يُظهر الشيء هو أظهر منه. وإذا كانت الشمس تُظهر الأشياء، وما ظهرت الأشياء إلا بنور الشمس، فإنّ الشمس أشد ظهوراً من

الأشياء التي أظهرتها، فهو سبحانه الظاهر ليس فوقه شيء في الظهور، بل هو أظهر من كل ظاهر جلّ وعلا.

وهو الباطن في حقيقة كنه ذاته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ويقول سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠] أي: احذروا أن تبحثوا عن حقيقة كُنْه رب العالمين، فإنكم لا يمكنكم الوصول إلى ذلك، لأنه سبحانه لا نهاية له، وكيف يُحيط المخلوق المتناهي بمن لا يتناهى!؟.

ويقول سبحانه في الدليل على وجود الله تعالى، وأنه حق لا شك في وجوده: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

ثم ذكر سبحانه من جملة هذه الآيات فقال: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي هذا برهان ساطع لامع على أنّ الله حق، وأنه واجب الوجود.

والنور هو: ما كان ظاهراً بنفسه، مُظهراً لغيره. والأنوار متعددة، ولا تفهم مِنْ معاني النور نور المصباح فقط، بل هناك أنوار وأنوار.

وإذا كان نور المصباح يُسمى نوراً، لأنه يُظهر الأمور؛ فإنّ نور البصر أحق أن يُسمى نوراً، إذ لولاه لما رأيت الأمور. ولكن نُور البصر لا يُريك ما وراء الحجب، كما لا يُريك الأشياء البعيدة على حقيقتها، فإذا وجد شيء يكشف لك ما وراء الحجب، ويريك الأشياء البعيدة على حقيقتها، ألا يستحق أن يسمى نوراً؛ وهذا هو العقل. فالعقل نور يهديك لمعرفة الأمور.

وإن العقل مُقيد بالمدارك والحواس في معرفة الأمور. فإذا وُجد شيء آخر، وكشف لك عن أمور عجز العقل عن الوصول إليها؛ ألا يستحق أن يُسمى نوراً؟ بل هو أقوى من نور العقل، وهذا هو نور الشرع المحمدي الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهناك نور أظهر الأشياء من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وهذا هو قوله سبحانه: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥] أي: مُوجِدُ السماوات والأرض، ومظهر السماوات والأرض، وبه وجودها، وبه ظهورها.

وقد ذكر سبحانه السماوات والأرض لأنّ الإنسان يُشاهدها، وإلا فهو سبحانه الذي أظهر جميع العوالم وبه وجودها.

فهو سبحانه الذي أظهر الموجودات بعد أن كانت ظلمات معدومات، فأفاض عليها نور الإيجاد فاستنارت بالوجود، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم من جملة دعائه في قيام الليل: «اللهم ربنا ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن» الحديث[١] وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[٢] أي: أعوذ بنور وجهك الذي استنارت به

(١) طرف من حديث رواه البخاري في أول كتاب التهجد (١١٢٠)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل (٧٦٩)، وأصحاب السنن عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا طرف من دعاء الطائف عزاه في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) إلى الطبراني.

المعدومات؛ التي كانت في ظلمة العدم فصار لها وجود.

وقد جاء في الحديث الذي علّم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاستعانة على حفظ القرآن وهو: «اللهم بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن: أن تنوّر بكتابك بصري، وأن تُطلق به لساني، وأن تفرّج به عن قلبي» الحديث(١).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض، أن تجعلني في حرزك، وحفظِك، وجِوارك، وتحت كنفك»(٢).

فاعلم: أنه بإشراقات نور وجه الله الكريم ظهرت الموجودات، واستنارت بالوجود.

وهناك نور الهداية الذي أفاضه الله على قلوب المؤمنين، وبهذا النور عرفوا الله وآمنوا به، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «تمَّ نورُك فهديت فلك الحمد»(٣) أي: فهديت بنورك إليك.

فالمؤمن ما عرف الله إلا بنور من الله تعالى أفاضه على قلبه. وهو نور الهداية، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء الحفظ (٣٥٦٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (٨٧/٧)، وعزاه في مجمع الزوائد (١٠/١٨٤) إلى الطبراني.

(٣) طرف من حديث طويل عزاه في مجمع الزوائد (١٠/١٥٨) إلى أبي يعلى.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل»[1]. أي: إنه خلق الخلق في ظلمة الهوى والنفس والدنيا، ولم يتركهم في الظلمة؛ لأنه ربهم وهو أرحم بهم من أنفسهم، بل أفاض عليهم من نوره، فمن تعرض لذلك النور بأن صَدَّق المرسلين واتبعهم: فقد اهتدى، ومن أخطأه ذلك النور بأن أعرض عنه: فقد ضل.

وإنَّ أعظم مَهبط ومشرق لنور رب العالمين، الذي أفاض على جميع القلوب، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو المشرق الأول لنور الله، والمرآة الأولى التي انعكست فيها أنوار رب العالمين وعنها استمدت القلوب. فمن توجه إلى ذلك النور، بأن اتبع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ أشرق ذلك النور في قلبه، وسمعه وبصره، وسائر حواسه ومداركه، حتى ظهر ذلك على وجهه.

وهكذا فقد أثبت سبحانه بالأدلة والبراهين القاطعة على أنه حق واجب الوجود، وأنه لا إله إلا الله فقال: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فكما يُثبت العقل ببداهته أنّ لكل مَصْنع صانعاً، وأنّ لكل أثر مُؤثراً، وأنّ لكل متحرك محركاً، وأن لكل بِناء بانياً، وكذلك فإنّ لكل مخلوق خالقاً، ولكل مَفطور فاطراً، ولكل طبيعة طابعاً.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٦/٢)، والترمذي في آخر كتاب الإيمان (٢٦٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فَمَنِ الذي خلق السماوات والأرض وفطرهما، ومن الذي ميّز الأشياء وخصها بالخصائص والميزات، وخلّف الأشياء عن بعضها، وجعل لكل منها نظاماً ونمطاً معيناً؟؟ هذا هو الله تعالى ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ لا شك فيه سبحانه، لأنه فاطر السماوات والأرض، وهذا أمر بديهي عند العقلاء. حتى كانت العرب في الجاهلية بمن فيهم من أذكياء وفطناء وأعراب، وحتى سفهاؤهم وجهالهم كانوا كلهم يُقرّون بأن هناك إلّهاً خالقاً، ولكن راح قسم منهم وأشرك، وجعل مع الله آلهة أخرى في الأرض، ولكنهم يعلمون أنّ هناك سموات وأراضيَ خلقها فاطر السماوات والأرض.

ومن هذا ما رُوِيَ في الصحيحين[1]، عن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد، فأقبل أعرابي على ناقة فعقلها، ثم دخل فقال: أيكم محمد؟ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقالوا له: هذا الأبيض المتكئ. لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أبيض اللون مشرّباً بحمرة؛ وهذا غاية في الجمال. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتكئ لتواضعه مع الصحابة.

فقال له: ابنَ عبد المطلب. أي: يا بن عبد المطلب ـ نسبة إلى جده، لأن عبد المطلب كان مشهوراً بحلمه وشجاعته وفطانته ونجدته ـ.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أجبتك».

---

(١) الحديث في المسند (٣/١٦٨)، والبخاري في كتاب العلم، باب ما جاء في العلم (٦٣)، ومسلم في كتاب الإيمان (١٢).

فقال الأعرابي: فإني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عَلَيَّ في نفسك.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «سل عما بدا لك».

فقال الأعرابي: فَمَنْ خَلق السماء؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «الله».

قال: مَنْ خلق الأرض؟

قال: «الله».

قال: مَنْ نصب الجبال وجعل فيها ما جعل. أي: من خصائص ومعادن ونفائس؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الله».

قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل؛ آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟

قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟

قال: «اللهم نعم».

قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟

قال: «اللهم نعم».

وفي رواية: ثم سأله عن الحج فقال: «اللهم نعم».

فقال الرجل: آمنت بما جِئْتَ به، وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة. أي: حتى يرجع فيبلغهم لأنه كان سيداً في قومه.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بالحجج على وجود الله ووحدانيته بأساليب متنوعة، فيها الإقناع والبيان.

ومن ذلك[1] لما جاء حُصَيْن والد عمران رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكفّ عن شتم آلهتهم، وتعييب دينهم، فلما دخل حصين إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عنده عمران بن حصين رضي الله عنه، وكان قد أسلم. فلما دخل حصين لَمْ يقم له عمرانُ ابنُهُ، ولم يُسَلِّم عليه، ولم ينظر إليه.

فقال حصين: يا محمد أنت لِمَ تسب آلهتنا وتشتمهم، كفّ عنهم. وراح يطالب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «كم إلَهاً تعبد»؟

قال: أعبد سبعاً في الأرض وواحداً في السماء.

فقال له عليه الصلاة والسلام: «فإذا مَسّك الضر مَنْ تدعو»؟

قال: أدعو الذي في السماء.

قال: «فإذا أصابك الجَدبُ ـ أي: القحط ـ مَنْ تدعو»؟

قال: أدعو الذي في السماء.

(١) تقدم تخريجه ص (٢٣٨).

قال: «فيستجيب لك وحدَه وتُشركهم معه! أرضيته بالشكر أم تخاف أن يُغْلَبَ عليك»؟؟ أي: أنت بهذا العمل لا تُرضي ربك الذي في السماء بالشكر. فالواجب عليك أن تَشكره وحده ولا تُشرك معه غيره، لأنه هو الذي يُنجيك. أم تخاف أن يُغْلَب عليك ـ أي: أن تَمَسَّك الآلهة بسوء ـ؟

قال حصين: لا واحدة من هاتين. أي: لا أنه أنصف بالشكر، ولا أنه يخاف من سَطوة الأصنام.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذاً يا حصين أسلم تسلم».

قال: يا محمد إنّ ورائي عشيرة ـ وإنْ هو دخل في الإسلام ذهبت زعامته عليهم ومكانته لديهم، وإن نفسه تمانعه في ذلك ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي» فجعل يكررها، فما لبث أن قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله.أي:أن الله أعاذه من شر نفسه وألهمه رشده.

فلما أسلم قام ابنه عمران وقبّله من رأسه، وقبّل يديه ورجليه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي. فقيل: لِمَ تَبْكِ يا رسول الله؟

قال: «أبكي لعمران، دخل أبوه وهو مشرك لم يقم له، ولم يسلّم عليه، فلما أسلم قام ووفّاه حقه» فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأفة وحناناً.

ثم استأذن حصين في الخروج والمشركون ينتظرونه على الباب فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال للصحابة: «قوموا

فشيعوه» ـ أي: تكريماً له، لأنه شيخٌ مسنٌّ كبيرٌ وكان كريماً في قومه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكرم كرام القوم ـ فقاموا وشيعوه.

فلما خرج إلى قومه قالوا: ما فعلت؟ قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فقالوا: صبأ صبأ. فآمن معه جماعته، وأعرض عنه الآخرون.

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بالحجج والبراهين المعقولة المقبولة، التي فيها الإفحام والإقناع على حقيقة وجود الله تعالى، وأنه لا إلّه إلا الله.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة السابعة عشرة

حول

إثبات نبوة ورسالة سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

من خلال إعجاز القرآن النازل عليه

صلى الله عليه وآله وسلم

❖- إعجاز القرآن الخبري الغيبي

❖- إخبار القرآن عن أمور، ووقعت كما أخبر عنها القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

إنّ من جملة العلوم القرآنية التي بيّنها الله تعالى في القرآن الكريم عِلمَ الحجة والبرهان، فلقد جاء القرآن الكريم بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، الدالة على حقّيّة قضايا الإيمان. الإيمان بالله تعالى، والإيمان بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإيمان بالآخرة، والحشر والنشر، والجنة والنار وما هنالك. ولقد أثبت القرآن الكريم بالأدلة المعقولة المحكمة المبرمة، التي لا تُرد ولا تُنْقَضُ، بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يحتمل الأمر غير ذلك، بل هو الحق.

ولقد أثبت القرآن هذا وقرّره مِن وجوه متعددة، حتى يَزداد المؤمن إيماناً، أو يزول شك المرتاب ويطمئن قلبه، وحتى يعلم الجاهل المنكر؛ ويَعترف فيعلم أنّ الحق إنما هو بالدليل الذي أقامه الله تعالى.

ولقد بيّن سبحانه موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه بقي في قومه أربعين سنة، وقد نشأ أمّياً، وتربّى بينهم وهو أمّي، لا يقرأ ولا يكتب، وقومه كلهم يَعلمون هذا، وبقي فيهم أربعين سنة

لم يأتهم بآية ولا بشيء مِنْ هذا، ثم على تمام الأربعين يأتيه الوحي من ربِّ العالمين[1]، فينزل عليه جبريل عليه السلام، فيضمه ثلاث ضمات؛ فيها الإفاضات بالمعاني والمعارف، والعلوم والأسرار والأنوار، التي حملها جبريل عن رب العالمين، حتى يُفيضها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فكانت الضمات الثلاث عبارةً عن إفاضات لكلام الله على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعقله، وروحه، وفي المرة الأولى يقول له: «اقرأ. فيقول: ما أنا بقارئ» أي: ما تعلمت القراءة حتى أقرأ، ثم في الثالثة يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أنت ما تقرأ بسابق علم وقراءة؛ بل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الذي ربّاك بالتربية الخاصة، وعناك بالعناية الخاصة، فأنت تقرأ باسمه.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي: إن ربك الذي خلق الإنسان مِنْ عَلَقٍ معروف، وطوّره ونقله في مراحل من التخليق، حتى صار إنساناً فصيحاً، ذا حواس ومدارك، إنّ ربك الذي خلق هذا الإنسان وطوّره، قادر على أن يُطوّرك في المقامات، ويعلمك العلوم والمعارف، ويفيض عليك الأسرار والأنوار؛ وإن كنت أميّاً لم تتعلم القراءة والكتابة، ولم تأخذ عن معلم.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾. فإنَّ ربك الأكرم جاد عليك بكرمه وجوده، وعلّمك وأفاض عليك. ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ أي: إنْ

---

(١) حديث بدء الوحي رواه البخاري في أول الصحيح رقم (٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

كان هو سبحانه قد علّم غيرك بواسطة المعلم والقلم والدراسة، فهو يعلّمك ويفيض دون واسطة القلم والدراسة، بل بواسطة جبريل عليه السلام، الذي نَزل عليك بكلام الله تعالى. وإن واسطة جبريل أعظم مِن واسطة القلم.

فأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قارئاً، عالماً، عارفاً، نبياً رسولاً، وصار يَقرأ على الناس كلام الله تعالى.

ولهذا لقَّن الله الحجّة على مَنِ ادّعى أَنّ هذا القرآن هو من كلام البشر، أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: قل يا محمد يا رسول الله قل للمنكرين: لو شاء الله ما تلوت عليكم هذا القرآن ولا دريتموه. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] أي: لبثت فيكم أربعين سنة لَم أقرأ عليكم ولا آية واحدة، فَتَعَقَّلوا وتدبروا مِنْ أين لي هذا القرآن المعجز الذي أتلوه عليكم؟ حقاً إنّه كلام الله النازل على رسول الله، وحقاً إن محمداً هو رسول الله الذي أنزل عليه القرآن.

ثم إنّ هذا القرآن النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كله آيات وشواهد تَشهد أنّ محمداً رسول الله، كما أنها تشهد أنّ الله حق، وتشهد أنّ هذا القرآن هو كلام الله، وإنّ حقيقة ذلك تأتي مِنْ وجوه متعددة من الإعجاز. وإن إعجاز القرآن على وجوه متعددة: **فهناك الإعجاز النصي البلاغي، وهناك الإعجاز الروحي، وهناك الإعجاز الخبري الغيبي، وهناك الإعجاز التشريعي، وهناك وجوه كثيرة من الإعجاز.**

أما الإعجاز النصي البلاغي: فقد تحدّى الله تعالى بنص القرآن فصحاء العرب وبلغاءهم، حيث انتهت الفصاحة والبلاغة إلى أوجها.

فقد أنزل الله هذا القرآن بلسان عربي مبين، وتحدّى عقلاء العرب وفصحاءهم وقال لهم أولاً: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وهذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤] أي: فليأتوا بموضوع مِنْ مواضيع القرآن، ومثله في الفصاحة والبلاغة، فلم يقدروا ولن يقدروا.

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

ثم تحداهم بسورة واحدة؛ على أن يأتوا بمثلها: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٣] أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أن هذا القرآن هو من أقوال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن كلامه، فَأْتوا بسورة مِنْ مثله ما دام هو كلام بشر ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: تستطيعوا ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أي: ولن تستطيعوا ذلك إلى أبد الآبدين ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: فاعلموا أنّ هذا القرآن كلام الله، وقد نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فآمنوا بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تتوقوا عذاب الله وهو النار.

وهذا تحدٍ ملزم، وحجة مفحمة، تحمل الإنسان على القطع واليقين بأنّ هذا القرآن هو كلام الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولو كان كلام بشر لأتوا بمثله ولو سورة.

ثم سجّل عليهم العجز: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهناك الإعجاز العلمي: وهو تناول القرآن للعلوم كلها.

وهناك الإعجاز الخبري: بإخباراته عما مضى وما هو آتٍ، وإخباراته عن أمور غيبية حالِيّة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء الواقع شاهداً بصدقها.

أما إعجاز القرآن الخبري عن مغيبات: فقد أخبر القرآن عن أمور غيبية ووقعت كما أخبر القرآن عنها. فمنها ما وقع فيما مضى، ومنها ما وقع في زمن نزول القرآن، ومنها ما سيقع إلى يوم القيامة، إلى ما وراء ذلك من العوالم.

ومن جملة وجوه الإعجاز الخبرية الغيبية: أن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم بأنّه هو سيكفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر المستهزئين، وأنه سبحانه هو حافظ بنفسه لهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ويكفيه أمر أعدائه، ويحفظه من القتل.

كما أخبر أنّه حافظ لهذا القرآن إلى يوم الدين، فلا يتبدل ولا يتغير، ولا يزيد ولا ينقص. فهذه إخبارات قرآنية غيبية عن أمور هامة لها شأنها، فهل هي واقعية أم أنها تخلّفت؟؟

فلقد تكفّل سبحانه بعصمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل، وحفظه من سِخْر المستهزئين، وتكفّل سبحانه أن يحفظ هذا القرآن لأنه رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد تحققت هذه الإخبارات الغيبية.

فلقد قال سبحانه في حفظه لهذا الرسول الكريم من القتل: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥].

وقال له: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]. إلى غير ذلك من الآيات التي يُخبر الله تعالى فيها عن حفظه وعصمته لهذا الرسول الكريم، إلى أن أنزل الله سبحانه في المدينة قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: إن الله عصمك ويعصمك من الناس، فلا ينالونك بقتل، أو اغتيال، أو غير ذلك.

ولقد تحققت هذه الإخبارات الغيبية، وحفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكفاه أذى المستهزئين، ومكر اليهود والمشركين، فلم يتمكنوا أن يقتلوه أو يغتالوه.

فمن جملة ذلك أنّه كان هناك جماعة من كفار قريش يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لَمّا يرونه يُصلي أو يطوف حول الكعبة، وكان عددهم أربعة أو خمسة أو سبعة على خلاف الروايات[1] وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتأذى منهم، فشكا أمرهم إلى جبريل عليه السلام، وبينما كان صلى الله عليه وآله وسلم يطوف

---

(١) ينظر مجمع الزوائد (٧/٤٦ و ٤٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٣١٦).

حول الكعبة، فنزل جبريل عليه السلام إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء واحدٌ من هؤلاء المستهزئين وغمز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستهزئاً، فغمزه جبريل. وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشار لجبريل أن فلاناً من المستهزئين، فأومأ جبريل بيده إلى رأس المستهزئ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يا محمد ـ أي: كفيتك أمره ـ.

ثم أقبل الثاني منهم وجعل يهزأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأومأ جبريل إلى عينيه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ فقال: كفيتكه.

فأقبل الرجل الثالث وجعل يهزأ، فأومأ جبريل إلى بطنه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يا محمد.

ثم جاء الرابع وجعل يهزأ، فأومأ جبريل إلى أكحله ـ أي: أكحل قدمه ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يا محمد.

ثم جاء الخامس منهم، وجعل يهزأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأومأ جبريل إلى أخمصِ قدميه ـ أي: بطن قدميه ـ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فعلت يا جبريل»؟ قال: كفيتكه يامحمد.

أما الذي أشار جبريل إلى رأسه فخرج في رأسه قروح وكانت سبب موته عاجلاً.

وأما الذي أشار جبريل إلى عينيه فلما رجع جلس تحت شجرة،

وجعل يستغيث الناس، أن شوك الشجرة دخل في عينيه، فنظروا في عينيه فلم يجدوا شيئاً فيها، وهو يقول: إنّ الشوك في عينيه. فما لبث أن عميت عيناه.

وأما الذي أشار جبريل إلى بطنه، فانتفخ بطنه، وأصابه داءٌ ملأ جوفه بالماء، حتى جعل خرؤه وبوله يخرج من فيه حتى مات.

وأما الذي أشار جبريل إلى أكحل قدمه، فبينما كان يَبْري نبلاً له فأصاب بذلك السكين في أخمصه، ونزف دمه حتى مات.

وأما الذي أشار جبريل إلى أخمص قدميه، فركب دابته وهو في الطريق سقط في حفرة شوك فنزف دمه حتى مات.

وهكذا حقق الله قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. أي: الذين استهزؤوا وسخروا منك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا يدل على أَنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله حقاً، وقد تكفّل الله بحفظه ووقايته.

ومن شواهد حقية الآيات التي أخبرت عن المغيبات، وَصِدْق خبرها، أَنّ المشركين لَمّا حاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد الهجرة إلى المدينة، فخرج مِنْ بَيْن صفوف المشركين، ورماهم بكف من تراب، وهو يقرأ أول سورة يٰس إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فلم يشعروا به، ولم يستطيعوا قتله، وباءت محاولتهم بالفشل(١) وحقق الله قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

(١) ينظر الخبر في المسند (١/٣٤٨)، وكتب السيرة.

ٱلنَّاسِۗ﴾. أي: عصمك ويعصمك أن ينالوك بقتل أو غير ذلك.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فمكر الله بهم، وردَّ مكرهم عليهم، وحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أذاهم.

ولما توجّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، ودخلا غار ثور، واقتصَّ المشركون آثار الأقدام حتى انتهى الأمر إلى غار ثور، فأرسل الله تعالى العناكب والحمام، فوقف المشركون على باب الغار، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١) ثم انصرف المشركون، وحفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والأذى.

ولما تابع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لحق بهم سراقة بن مالك بن جُعْشُم(٢) ـ وكان المشركون قد جعلوا في النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائة ناقة ـ فلما اقترب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا صلى الله عليه وآله وسلم فساخت أقدام فرسه في الأرض، ثم

---

(١) الخبر في المسند (١/٤)، وفي البخاري في أول كتاب فضائل الصحابة (٣٦٥٢)، وغيرهما.

(٢) الخبر في البخاري كتاب مناقب الأنصار، باب /٤٤/ (٣٩٠٦).

توسل سراقة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقامت الفرس، وهكذا مرة ثانية وثالثة، حتى عاهد سراقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدافع عنه، ثم أسلم وآمن بعد ذلك.

ولما وصل صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وكان فيها طوائف من اليهود، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ حذره منهم لئلا يغتالوه أو يمسوه بسوء، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر حراساً أن تحرسه، ثم بعدما تزوج بالسيدة عائشة رضي الله عنها بمدة قليلة، قالت السيدة عائشة: سَهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة ـ أي: وكان مكروباً صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا معنى السهر وهو عدم النوم لكرب أو همّ، وضده السَّمر.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» ـ حذراً من اغتيال اليهود في أول الأمر ـ.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن كذلك سمعنا صوت السلاح ـ أي: رجلاً معه سلاح يَجُرُّ به ـ فأتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من هذا» فقال: سعد بن أبي وقاص.

قال: «ما جاء بك»؟ قال: جئت لأحرسك، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١).

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر الصحابة أن يحرسوه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو (٢٨٨٥)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٢٤١٠).

خوفاً من اغتيال اليهود، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُحْرس حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ الآية [المائدة:٦٧] فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه الشريف من القبة ـ أي: البيت ـ ونادى في الحراس من الصحابة: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله تعالى»(١).

ولقد حاول اليهود مراراً أن يغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن الله حفظه وحقق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

فَمِنْ ذلك لما فَتَح صلى الله عليه وآله وسلم حصن خيبر، وانتصر على اليهود فيه، أهدى إليه بعضهم شاة مَصْلِيّة ـ مشوية ـ فيها سُمٌّ. فلما جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومد يده للطعام، صاحت الشاة: إنها مسمومة. فألقى صلى الله عليه وآله وسلم اللقمة من فمه الشريف إلاّ أن أثر السم قد دخل إلى جوفه؛ ولم يضره لوقاية الله له صلى الله عليه وآله وسلم. وكان أحد الصحابة قد ابتلع لقمة من الشاة فاستشهد من ساعته.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اجمعوا لي مَن هاهنا من يهود» ـ أي: طائفة معينة منهم ـ فَجُمِعُوا. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ فيه»؟

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير (٣٠٤٩).

قالوا: نعم يا أبا القاسم.

قال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أبوكم»؟ قالوا: فلان. فقال: «كذبتم. بل أبوكم فلان» وكانوا قد انتسبوا لغير أبيهم. فقالوا: صدقت. فقال لهم: «مَنْ أهل النار»؟. قالوا: نكون فيها يسيراً ـ أي: العصاة منا ـ ثم تخلفوننا فيها. وهكذا كما أخبر الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً».

ثم قال: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه»؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً»؟ قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك»؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبيّاً لم يضرك[1]. ولقد تبين لهم أنه صادق وأنه رسول الله حقاً، إذ لم يضره السم إلا أنهم لم يؤمنوا عناداً وإعراضاً.

ولما ذهب صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى يهود بني النضير، ليكلمهم في دية مقتول. رحّبوا به وقالوا: مرحباً يا أبا القاسم، وأجلسوه وأكرموه وحوله الصحابة. ثم إنهم أوعزوا إلى رجل منهم أن يعلوَ السطح ويرميَ بحجر كبير على

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٤٥١)، والبخاري في كتاب الجزية، باب إذا غدر المشركون... (٣١٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وأبو داود في كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً... (٤٥١٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه. و(٤٥١٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وهو في دلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٥٦).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلمه بذلك، فنهض صلى الله عليه وآله وسلم من مجلسه فوراً، ورجع مع أصحابه.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم أجلى بني النضير من المدينة لخيانتهم ومكرهم[1].

ونزل صلى الله عليه وآله وسلم وقت الظهيرة في غزوة ذات الرقاع، نزل إلى ظل شجرة وقد تباعد عنه أصحابه، وانتشروا تحت الأشجار طلباً للراحة، وعلّق صلى الله عليه وآله وسلم سيفه واضطجع، فإذا بأعرابي من المشركين تسلل خفية حتى أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخذ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتلّه، ووقف وقال: مَنْ يمنعك مني يا محمد؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الله». فأعاد المشرك قوله ثلاثاً، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: «الله»، فسقط السيف من يد المشرك، فقام صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ السيف ورفعه فوق المشرك وقال: «مَن يمنعك مني»؟ فقال: يا محمد كن خير آخذ ـ أي: خير آخذ للسيف ـ فنادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ حوله من الصحابة فجاؤوا إليه، فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه، لَمْ يعاقبه[2].

---

(١) الخبر في الفتح (٣٢٩/٧) وما بعدها، وسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد (٥٧/٢) وغيرها.

(٢) الخبر في صحيح البخاري كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع=

وهكذا تجد أن خبر القرآن: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ قد تحقق، وعصم الله رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم مِن القتل والاغتيال. وهذا يدل على أنّ هذا القرآن هو كلام الله على الحقيقة، نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد تكفّل سبحانه أن يحفظ هذا القرآن النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر عن ذلك، وجاء الواقع يُثبت صدق ما أخبر عنه القرآن، فلم يجرِ على القرآن أيّ تبديل أو تحريف، أو زيادة أو نقص، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد سمّى سبحانه القرآن بالذكر لأنّ فيه التذكير، وفيه ذكر كل شيء: مما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولقد تحقق هذا الخبر الغيبي، وحفظ الله تعالى القرآن عن التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان، وهذا أمر مشهود لكل إنسان، وقد انتقل لنا هذا القرآن بقراءاته العشر متواتراً محفوظاً كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيحفظه رب العالمين إلى يوم الدين، وذلك لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم المرسلين، ولا نبي ولا رسول بعده، فاقتضت حكمة الله تعالى

= (٤١٣٥ ـ ٤١٣٦)، وصحيح مسلم في كتاب الفضائل، باب توكله ﷺ على الله تعالى (٢٢٨١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٣٧٣)، وما بعدها.

أن يحفظ هذا القرآن إلى يوم الدين، لتبقى رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين، وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وقل لهم يا محمد: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ وهم الذين في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ أي: لأنذر بهذا القرآن مَن بلَغه هذا القرآن إلى يوم الدين. وهذا يدل على أنّ الله حافظ لهذا القرآن من التغيير والتبديل.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فقد شافهته»[1] أي: مَنْ بلغه القرآن فكأنه رآني وتلوت عليه القرآن، وبلّغته الدعوة والرسالة.

أما الكتب السماوية السابقة فلم يتكفل سبحانه أن يحفظها بنفسه، بل وكّل حفظها إلى العلماء والأحبار كما قال تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فلم يستطيعوا ذلك، وجرى عليها التبديل والتغيير.

أما القرآن فقد تكفّل سبحانه بنفسه أن يحفظه: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولقد حفظ الله تعالى هذا القرآن في محافظ لا يجري عليها غرق أو حَرق، ولا تبديل ولا تغيير فقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣] فأوّل محفظة جمعت القرآن هي

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن مردويه، وأبي نعيم، والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الخزانة الأولى الجامعة لجميع الحقائق والمعاني القرآنية، وعن قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم أخذت القلوب، وحفظت القرآن كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فحفظ الله هذا القرآن في صدور القرّاء والعلماء، وحفظ نصوصه في المصاحف، إلا أنّ العبرة لحفظ الصدور، إذ لو أنّ هذه المصاحف التي على وجه الأرض: أُغرقت أو أحرقت فإنّ القرآن لا يُمحىٰ، بل هو في صدور الحفاظ والعلماء، تكفّل الله بحفظه وبيانه. فالحفاظ يحفظون نصوصه، والعلماء يبيّنون معانيه وأحكامه. وهناك مَن يحفظ قسماً منه، وهناك من يحفظ أكثر، وهناك من يحفظ القرآن كله.

ولابد في كل زمن من حفاظ وعلماء يحفظون القرآن ويبيّنون أحكامه ومعانيه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»[(١)] أي: حتى تقوم الساعة.

وجاء في الحديث كما في صحيح مسلم[(٢)]: «وقال ـ الله تبارك وتعالى ـ: إنما بعثتك لأبتليك» أي: أختبرك بنشر الدعوة وتبليغ

---

(١) رواه البخاري في آخر كتاب المناقب (٣٦٤٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب /٥٣/ (١٩٢٠) عن سيدنا ثوبان وسيدنا المغيرة رضي الله عنهما، وله طرق متعددة في المسند وغيره.

(٢) في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥) عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه.

الرسالة «وأبتلي بك» أي: لأختبر العالم في استجابتهم لك «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث. أي: أنزلت عليك كتاباً محفوظاً في الصدور إلى يوم الدين؛ وإن مُحي من السطور.

ولقد أكرم الله تعالى هذه الأمة المحمدية بأن أعطاها حفظ القرآن ظاهراً، بخلاف الأمم السابقة إذ لم يكونوا يستطيعون حفظ كتبهم ظاهراً، وإنما يحفظون أجزاءً منها. أما أنبياؤهم ورسلهم فقد كانوا يحفظون الكتب النازلة عليهم.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه أبو نعيم[١] والبيهقي[٢]: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السماوات والأرض» أي: ليلة الإسراء والمعراج «قلت يا رب: إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد أكرمته: جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسَخَّرْتَ لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي؟

فقال الله تعالى لي: أوَ ليس قد أعطيتك ما هو أفضل من ذلك كله يا محمد؟! إني لا أُذكر إلا ذُكرتَ معي» وهذا قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ أي: رفعت لك ذكرك فوق كل مذكور من الأنبياء، وهذا ما تجده في كثير من الآيات القرآنية، وفي التشهد، وفي الأذان.

قال: «وجعلت صدور أمتك أناجيل» أي: مصاحف «يقرؤون القرآن ظاهراً؛ ولم أعطها لأمةٍ قبلك.

---

(١) كما في تفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة الانشراح.

(٢) في الدلائل (٢/٤٠٢).

وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» أي: إن من جملة عطايا رب العالمين لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن أعطاه كنزاً ـ وهو الشيء المكنوز المخبوء ـ من كنوز العرش وهو: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وهذه الكلمة: فيها معنى التبرؤ من الحول والقوة إلى حول الله وقوّته.

وجاء في الحديث عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا عبد الله بن قيس» وهو اسم سيدنا أبي موسى الأشعري «قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه»[2].

والكنز هو: الشيء المكنوز المستور عن جماعة؛ والمخبوء لجماعة أخرى، وقد كنز الله تعالى هذه الكلمة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤)، وأصحاب السنن.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/٥١٧)، وقال: صحيح الإسناد.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ لـ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما ـ: « ألا أدلك على باب من أبواب الجنة»؟؟ ـ كما في رواية الحاكم[١] ـ. قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» أي: إن أنت أكثرت منها فُتِحَ لك ذلك الباب، وهو من أبواب الجنة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله كان ـ أي: هذا القول ـ دواءً من تسعة وتسعين داء أيسرُها الهمُّ»[٢].

أي: إن أهمَّك أمر مِنَ الأمور المعاشية أو الدينية، أو أيّ أمر كان؛ فأكثر مِنْ: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فَبِها يُفرّج الله عنك، وييسّر عليك الأمور، لأن فيها الالتجاء إلى الله تعالى، والتبرؤ من حولك وقوَّتك إلى حوله وقوته سبحانه.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) المستدرك (٤/ ٢٩٠)، وينظر في المسند للإمام أحمد (٣/ ٤٢٢)، وسنن الترمذي كتاب الدعوات، باب في فضل لا حول ولا قوَّة إلا بالله (٣٥٧٦).

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

المحاضرة الثامنة عشرة

حول

إعجاز القرآن الخبري الغيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد تكفل الله تعالى بحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحفظ رسالته وهي القرآن النازل عليه.

وقد أخبر القرآن الكريم في آيات متعددة عن حفظ الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والاغتيال، كما أخبر سبحانه أنَّه تكفّل بحفظ القرآن من التبديل والتغيير والتحريف والزيادة والنقصان.

ولقد تحقق هذا الخبر الغيبي الذي أخبر عنه القرآن، وجاءت الوقائع والشواهد تُثبت صدق هذا الخبر الغيبي.

فلقد حفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين، ولم يستطيعوا النيل منه، وكم حاولوا قتله أو اغتياله؛ ولكنّ الله عصمه منهم تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]. وفي هذا دليل قاطع على أنّ هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى، وأن الذي نزل عليه هو حقاً سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن ذلك[1]: لَما حاول المنافقون أنْ يقتلوا رسول الله صلى الله

(١) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٥/٢٥٦) وما بعدها.

عليه وآله وسلم لم يستطيعوا، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم بعصمة الله تعالى وعنايته سبحانه: فلما رجع صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ غزوة تبوك، وهو في الليل راكب على الناقة، وكان حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه يُمسك زمام الناقة، وهنا اختبأ بعض المنافقين في الطريق، وأرادوا أن يَخرجوا في وجه ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجأة، فتضطرب الناقة ويقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وينالوه بالقتل، إلا أنّ الوحي نزل، وأعلم جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ فلاناً وفلاناً وعدّد له أربعة عشر رجلاً من المنافقين، وأنهم أرادوا كذا وكذا، فغيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطريق، وسلك طريقاً آخر إلى المدينة. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ [التوبة: ٧٤] أي: همّوا بأنْ يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ أنّ هذا أمر لا ينالونه أبداً.

ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسماء المنافقين، وعددهم أربعة عشر رجلاً، ذكرهم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه. وكان هؤلاء من المنافقين في الدنيا والآخرة.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حذيفة رضي الله عنه أن يكتم هذا الخبر، لأنّه إذا باح بأسمائهم وقتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو صحابته، فإن الناس عندئذ يقولون: إن محمداً يقتل أصحابه المسلمين، لأنّهم لا يعلمون أنهم منافقون.

ولقد حاول المشركون مراراً أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلا أن الله تعالى حفظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تحقيقاً

لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

ومن جملة ذلك لمّا أرسل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة رجلاً ليكلّمه في أسرى بدر على زعمهم، إلا أنّه يُريد أنْ يقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يتمكن من ذلك.

فعندما وقعت غزوة بدر، وقتل فيها صناديد المشركين، تكلم مشركو مكة، فجلس[1] صفوان بن أمية وعمير بن وهب الجمحي وذكرا قتلاهم في بدر، فقال عمير بن وهب الجمحي لصفوان: لولا عيال عندي، وديون عليّ؛ لكنت أخذت هذا السيف حتى أسمّه وأذهب إلى محمد فأقتله.

فقال صفوان بن أمية: أنا أتكفل لك بالعيال وبالمال، فاذهب واقتل محمداً.

فراح عمير ونقع سيفه في السمّ، حتى إذا أخذ حدّه أخذ السيف ومضى إلى المدينة؛ زاعماً أنه سيكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أسير من قراباته.

فلما أقبل إلى المدينة ودنا من المسجد، رآه بعض الصحابة وأبلغ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فقال عمر رضي الله عنه: مالِ هذا الكلب؟ ـ لأنه يعرف كفره وفسوقه ـ فأراد عمر أن يصرفه، واستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، فقال

(١) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (١٤٧/٣).

لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «أدخلوه»، فدخل والسيف على عاتقه، وجلس أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أقدمك يا عمير»؟

قال: جئت يا محمد أكلمك في أسيرٍ لنا.

قال: «ما بال السيف في عنقك»؟

قال: قبّح الله هذه السيوف، ما أغنت عنّا شيئاً يوم بدر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اُصدقني ما أقدمك».

قال: ما قدمت إلا في أسيري. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحِجْر»؟ ـ أي: حجر الكعبة ـ ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟!!.

قال: «تَحَمَّلْت له بقتلي؛ على أن يعول أولادك، ويقضي دينك، والله تعالى حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر ـ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، فأخبرك الله به. ثم حسن إسلامه رضي الله عنه، وأسلم بسببه بشر كثير.

وَلَمَّا فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة[1]، وبينما

---

(١) الخبر في الشفا (١/٦٩٢) وعزاه في السيرة الشامية لابن هشام، والدرر لابن عبد البر.

هو يطوف حول الكعبة، وإذا بفضالة بن عمير بن الملوّح يريد أن يغتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فراح يمشي وراءه، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى فَضالة وقال له: «أَفَضَالة»؟ قال: نعم. قال: «ما كُنْتَ تُحدث به نفسك»؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله تعالى.

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «أستغفر الله لك»، ثم وضع يده صلى الله عليه وآله وسلم على صدره، فقال فضالة: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما أجد على ظهر الأرض أحبّ إليّ منه.

فانظر إلى آثار مسحات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأمّل فيها. فإن المدد الرباني الرحماني إنما يأتي عن واسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخير والرحمة، في ذاته وصفاته، وأقواله وكلامه، وذراته وأجزائه ومسحاته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا حفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحققت إخبارات القرآن الغيبية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] وهذا يدل على أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى، وفيه الإعجاز الخبري الغيبي. وأنّ الذي نزل عليه هو حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إن الوقائع أثبتت ذلك، كما أنّ الشواهد شهدت بصدق نبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

ويقول سبحانه في حفظه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

فقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ أي: بعنايتنا وحفظنا وكلاءتنا وعصمتنا، فلا يمكن لأحد أن يمسّك بسوء أو أذى، أو قتل أو اغتيال.

وهناك فرق كبير بين قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾، وقوله تعالى في سفينة نوح: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾. فإن جريان السفينة وسيرها كان بعناية الله وحفظه وأمانته، فحفظها سبحانه من الأمواج الهائلة، وهي سفينة متواضعة؛ إلا أنها وصلت الشاطئ بسلام وأمان، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ أي: مسامير ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ ولولا أن جريانها كان بعناية الله تعالى لأخذها الطوفان الشديد الذي عمّ الأرض كلها وقتئذٍ.

ولمّا قال سبحانه لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ أي: إنك بعناية الله وحفظه وكلاءته في جميع شؤوناتك وحركاتك وسكناتك ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من النوم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا استيقظ من النوم سبّح الله، وحمد الله، وكبّر الله تعالى بقوله: «سبحان الله وبحمده» عشر مرات، «والحمد لله» عشر مرات، «والله أكبر» عشر مرات، «ولا إله إلا الله» عشر مرات[١].

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم إلى الصلاة، وقبل دخولك فيها، كما ورد[1] عن سعيد بن المسيّب رحمه الله تعالى: أنه قال: حق على كل مسلم حين يقوم أن يقول: (سبحان الله وبحمده).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: في الصلاة، وهذا ما كان يدعو به صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إلّه غيرك»[2].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من المجلس، كما ورد في مصنف[3] عبد الرزاق وغيره، وأصله في السنن[4]، أنّ جبريل عليه السلام علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلا أنت وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك».

وأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة وعلّمهم هذا الدعاء، وبيّن لهم أنه دعاء آخر المجلس، وَمَن قاله آخر المجلس غَفَر الله له ما كان منه في ذلك المجلس. أي: من هفوات وفرطات.

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن المنذر وأبي عبيد.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب /١٢٢/ (٧٧٥)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب /١٧٩/ (٢٤٢) وغيرهم.

(٣) (٢٤/١١) رقم (١٩٧٩٦).

(٤) في سنن أبي داود كتاب الأدب، باب كفارة المجلس (٤٨٥٧)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب مايقول إذا قام من مجلسه (٣٤٢٩) وغيرهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: أكثر من التسبيح في الليل، وحين تُدبر النجوم آخر الليل حين يطلع الفجر. ومن جملة التسبيح إدبار النجوم سنة الصبح إذ إنها تسبيح عملي.

وهكذا تكفّل سبحانه أنْ يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أعدائه، ولم يتمكنوا من أنْ يقتلوه أو يغتالوه رغم محاولاتهم الكثيرة، وحقق الله تعالى قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

وكما تكفّل سبحانه بحفظ رسوله عليه الصلاة والسلام، تكفّل بحفظ رسالته وهي القرآن النازل عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو آخر المرسلين وخاتمهم، ولا رسول بعده صلى الله عليه وآله وسلم وإنّ رسالته عمّت جميع الأمم والملل إلى يوم الدين، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يحفظ هذا القرآن إلى يوم الدين، لتبقى رسالة سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم باقية إلى يوم الدين، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ الآية [الأنعام: ١٩].

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ أي: مَنْ هو أعظم شاهد وأكبر شاهد يشهد أنّ محمداً رسول الله؟؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أي: إن الله هو أعظم شاهد وأكبر شاهد على أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أعلن الله هذه الشهادة في كتبه كلّها، المنزلة على المرسلين كلّهم، وأعلنها سبحانه في الملأ الأعلى بأن محمداً رسول الله، وأعلن ذلك

بإجراء المعجزات الكونية، وأقام الحجج والبراهين الدالة على أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءت شهادة ربِّ العالمين بأنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ جاءت أكبر شهادة.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: يشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: بالخصوص على وجه الإعجاز، وعلى وجه جامع للعلوم كلها.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: لينذر صلى الله عليه وآله وسلم أهل زمنه، ويُنذر مَنْ بلغه القرآن على مرّ الزمان إلى يوم الدين.

وقد يقال: كيف يُنذر صلى الله عليه وآله وسلم به بعد وفاته؟

فيقال: إنّ هذا القرآن هو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدين.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به» ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الحديث [(١)].

ولهذا ورد عن كثير من التابعين ومنهم محمد بن كعب القرظي [(٢)] أنه قال: (من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى ابن مردويه، وأبي نعيم، والخطيب، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

وسلم) أي: رآه وبلّغه القرآن والدعوة، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

فمن بلغه القرآن ولو سورة من سوره فكأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبلّغه القرآن.

وإن هذا القرآن يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوك إلى ما دعا إليه القرآن، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي[1]، وأحمد واللفظ لأحمد[2]، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً» أي: طريقاً مستقيماً «وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مُرْخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداعٍ يدعو من جوف الصراط.

فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ـ الداعي على باب الصراط ـ: ويحك لا تفتحه ـ أي: الباب ـ فإنك إن تفتحه تلجه.

والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله تعالى» أي: القرآن، ولا يؤخذ القرآن ولا تُفهم معانيه إلا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والقرآن الكريم قائمٌ ومتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم القائم على رأس

---

(١) في أول كتاب الأمثال (٢٨٦٣).

(٢) المسند (٤/١٨٢).

الصراط، ينادي بالقرآن الذي أنزل عليه، ويأمر الناس أن يستقيموا على الصراط ولا يعوجوا.

«والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

وإنّ لله واعظاً إيمانياً في قلب كل مؤمن، بحيث لو سَوّلت له نفسه وزين له شيطانه عمل الحرام لوجد من نفسه مَنْ يمنعه مِنْ ذلك ويخوّفه، وهو واعظ الله في قلب كل مؤمن. فإن هو استجاب لذلك الواعظ عاد ورجع، وإن هو تجاهل واستَمَرَّ وقع في الحرام.

فلقد جعل الله لكل مؤمن واعظاً خارجاً عنه وهو القرآن، وواعظاً منه وفيه. وإنّ مَنِ استحكمت فيه المعاصي والمخالفات لم يَعد يشعر بأثر واعظ الله في قلبه، لأنه تمادى في ضلاله وطغيانه، وأصبح قلبه مظلماً.

وهكذا فإنّ الداعي على رأس الصراط هو القرآن، وهو دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾.

وهكذا تكفّل الله سبحانه أنْ يحفظ هذا القرآن الكريم بحروفه ونصوصه ومعانيه، التي جاء بيانها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد مضى على نزول القرآن ما يُقارب ألفاً وأربعمائة عام، وانتقل إلينا جيلاً بعد جيل، وخَلَفاً بعد سلف، وهو محفوظ كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحروفه وكلماته، ووجوه قراءاته العشر، ولهجاته، وكيفية قراءته، ولقد أحصى علماء السلف كلمات القرآن وحروفه، وتواترت إلينا دون زيادة أو نقص.

وهكذا تجد أنّ هذا الخبر القرآني الغيبي قد تحقق، وحفظ الله القرآن كما أخبر سبحانه، وسيحفظه سبحانه إلى يوم الدين.

وكما تكفّل سبحانه بحفظ حروفه ونصوصه تكفّل بحفظ معانيه وأحكامه، التي بيّنها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. فكان إذا نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعجل في تلاوته خوف أن ينسى شيئاً منه، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أَنْ نجمع هذا القرآن كاملاً في صدرك، فلا يمكن أن يذهب عنك منه حرف، وعلينا أَنْ نُقرِئك إيّاه على أكمل الوجوه كما نزل، وكما أراد الله تعالى.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: علينا أَنْ نبين لك معاني القرآن، ونوضح لك الأوامر والأحكام.

وبعد ما بيّن الله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاني القرآن، أمَرَه أن يُبيّن للناس ذلك فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه معاني القرآن وأحكامه.

واعلم أنّ الحق هو أن جميع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وأفعاله التي فعلها وتقرّب بها إلى الله تعالى؛ هي كلّها بيانات لكلام الله تعالى، فلمّا قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لحافظون لحروفه ونصوصه، فلا تغيير ولا تبديل، ولا

زيادة ولا نقص ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لمعانيه وأحكامه، وهي أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المبيّنة للقرآن، فهي محفوظة بحفظ الله تعالى.

فترى أيها الإنسان أنّ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ عليها السنون، ومع ذلك فهي تُنقل بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد اعتنى السلف رضي الله عنهم بجمع الأحاديث النبوية، وبيان أسانيدها، ودوّنوها في كتبهم، فمنها في الصحيح، ومنها في السنن، ومنها في المعاجم، ومنها في المسانيد. وهكذا انتقلت إلينا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محفوظة من التغيير والتبديل؛ لأنها بيان للقرآن الكريم.

وعلى هذا فإنّ خبر القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ هو خبر غيبي مُحقق الوقوع، مِمّا يدل على أنّ هذا القرآن هو كلام الله سبحانه، وأنّ الذي نزل عليه القرآن هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة التاسعة عشرة

حول

الأدلة والبراهين على حقيّة نبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإخبارات الغيبية في القرآن الكريم وقصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

لقد أَنزل الله تعالى في القرآن الكريم عُلوماً وعلّمها النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومن جملة تلك العلوم: عِلْم البيان والبرهان، والأدلة القاطعة الدالة على حقيّة قضايا الإيمان، الإيمان بأنه: لا إلّه إلا الله، والإيمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإيمان بالآخرة وبرازخها وما يتعلق بذلك.

ولقد ذكر القرآن الكريم جميع ذلك، ودلّل عليه بالأدلة العقلية الساطعة، التي تُفحم العقول وتزيل الشكوك.

وَمِنْ جملة ذلك ما بيّنه سبحانه مِنَ الأدلة على حقية صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأَنّ سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً، لا يحتمل أمره غير ذلك، وقد ثبت هذا بالأدلة القاطعة المحكمة.

وَمِنْ جملة هذه الأدلة: أن الله تعالى أنزل عليه القرآن المعجز لجميع المكلفين، من الإنس والجن، فلا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا واتفقوا على معارضته، فهم عاجزون أن يأتوا بمثله، لا بسورة، ولا بسور، ولا بحديث مثله، ولا بموضوع من مواضيعه.

وإن لإعجاز القرآن وجوهاً متعددة:

فهناك الإعجاز العامّ، وهو الإعجاز النصي البلاغي، وهناك الإعجاز الروحي، وهناك الإعجاز الخبري، وهو أنّ القرآن الكريم جاء بأخبار غيبية علّمها الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره عنها مفصّلاً.

فلقد جاء القرآن بأخبار ماضية ـ أي: عن أمور ووقائع مضت وانقضت ـ وهناك أخبار عن وقائع وأمور في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك أخبار واقعة وستقع على مرّ الزمان إلى يوم القيامة.

وليفكر الإنسان في هذه الإخبارات التي ذكرها القرآن الكريم، الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وراح يُبلغه للناس، مع أنّه نَشَأَ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، ولَم يدرس كتباً سابقة، حتى إذا بلغ الأربعين جاء بهذا القرآن الكريم على وجه معجز. فليفكر العاقل في هذا الأمر.

فما هو إلا أنّه رسول الله، يُوحي الله تعالى إليه.

ومن جملة إعجاز القرآن في الإخبارات الغيبية الماضية، التي أخبر عنها مفصلاً، ثم يقول سبحانه متحدياً العقلاء والمكلفين: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

فلما ذكر سبحانه قصة نوح مَع قومه، وذكر مناظراته معهم، وموقف قومه معه، وكيف أدّى الأمر إلى أنْ نزل فيهم العذاب وهو الطوفان، وكيف نَجَّى الله نوحاً وَمَنْ معه، وكيف أغرق قومه الكافرين، وكيف أجرى سبحانه ذلك الطوفان، وكيف أذهبه، ثم بعد ذلك يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ

أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] أي: إنّ هذه إخبارات غيبية مفصّلة إنّما علمك الله إياها يا رسول الله، وما لك بها علم مِنْ قبل، ولا أنّ قومك يعرفون تفاصيلها، فما هذا إلا تعليم من رب العالمين إليك.

وهذا ما يدل على أنّ الله حق، وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً، وأن هناك وحياً من الله يوحيه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك لَمّا ذكر سبحانه قصّة السيدة مريم قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فلقد اختلف أشراف بني إسرائيل أيهم يكفل مريم[1]، وأراد جميع الأحبار والرهبان أنْ يتشرفوا بكفالة مريم، وأجروا بينهم القرعة، واختصموا على كفالة مريم، ولكن الله تعالى كَفَّلَها زكريا عليه السلام.

فقالوا لزكريا: ما نرضى بكفالتك عليها حتى نقترع.

فقال لهم: وكيف الاقتراع؟؟.

فقالوا: نأتي بأقداح ـ أي: ألواح ـ وكل منا يكتب اسمه على ذلك اللوح، ونجريها مع النهر، فإنّ اللوح الذي يجري مع جريان النهر لا يحق لصاحبه أن يكفل مريم، وأما اللوح الذي يجري مخالفاً لجريان النهر فيحق لصاحبه أن يكفل مريم.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير والدر المنثور.

فلما ألقوا أقلامهم ـ وهي الألواح على شكل السهام ـ فجرت أقلامهم مع جريان النهر، وأما قلم زكريا عليه السلام فجرى معاكساً لجريان الماء.

فقال: إذاً الحق لي في كفالة مريم!!.

فقالوا: لا نرضى، بل نعيد القرعة، ونعتبر أنّ كل قلم عاد ورجع لا يحق لصاحبه أن يكفل مريم، وأما القلم الذي يجري مع النهر، فيحق لصاحبه أن يكفل مريم، فلما فعلوا ذلك جرت أقلامهم معاكسة لسريان الماء، وجرى قلم زكريا عليه السلام مع جريان الماء، وتكفل زكريا عليه السلام بمريم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: يا رسول الله ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ولكنا نحن أخبرناك وأعلمناك بذلك الخبر.

وهكذا في كثير من الأمور، ففي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] أي: ولكننا نحن أخبرناك وعرفناك يا رسول الله.

فلو تفكرت في هذه الإخبارات الغيبية التفصيلية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في حين أنّه ما قرأ الكتب السابقة، ولم يقرأ تاريخاً من التواريخ، فَمِنْ أين جاء بهذه الأمور؟؟. إنما هي بوحيٍ من الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم أنواعاً مِن القصص القرآني، وإنّ كل قصة ذكرها القرآن إنّما هي أحسن القصص من حيث

الموضوع الذي تناولته، وما هذا إلا للاعتبار والتدبر كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ومن ذلك قصة نوح عليه السلام مع قومه، وكيف لقّن الله الحجة لنوح عليه السلام في مناظراته مع قومه، وكيف أنّه سبحانه نَجَّى المؤمنين وأغرق الكافرين، وهذا حتى يَعلم الإنسان سُنن الله الكونية، وسنن الله الشرعية، فإن لله سُنناً ـ أي: عادات مطردة ـ كونية كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ولله سنن تشريعية أيضاً، تُعرف من خلال القصص القرآني وأخبار الأمم الماضية.

ويقول سبحانه في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ الآيات [هود: ٢٥ـ٢٨].

فلقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وبَيّن لهم أنّه رسولٌ من الله تعالى.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ﴾ أي: يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: أنت يا نوح تقول: إنك رسول الله، فإذا كنت رسولاً فَلِمَ كنت بشراً؟؟. أي: يجب أَنْ تكون مَلَكاً على زعمهم.

وإن لله تعالى حِكَماً في إرساله للبشر رسلاً منهم بشراً أيضاً، لأنّه لو أرسل مَلكاً لَما استفادوا منْه شيئاً، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] فإما أن يبقى الرسول الملكي على حقيقته الملكية؛ فلا يرونه عندئذ، ولا يستطيعون الأخذ عنه، وإما أنْ يتمثل لهم بصورة رجل يَدعوهم ويبلغهم، ويأخذوا عنه؛ وعندئذ لا يصدقون أنّه ملك تمثل بصورة رجل، بل يُكذبون ويقولون: إنّه بشر مثلهم. ولعاد التباس الأمر عليهم.

وَمِنْ ناحية أُخرى فإنّ المقصود مِنْ إرسال الرسول من البشر أن يتبعوه، ويأخذوا الأخلاق الإنسانية البشرية الكاملة عنه، ويرشدهم إلى ما فيه سعادة البشر في الدنيا والآخرة. ولذلك كان مِنْ مقتضى الحكمة أَنْ يكون الرسول إلى البشر من البشر، ولكنْ للرسل مُستوى فوق بقية البشر، ولهم مِنَ الخصائص والمدارك والأفكار فوق سائر البشر، ورفع سبحانه مستواهم على غيرهم، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: ما نراك اتبعك وآمن بك إلا فقراؤنا وضعفاؤنا، أما الأغنياء والمترفون والفسقة والفجرة فلم يتبعوك، وما عَلِمَ هؤلاء أَنّ القضية ليست قضية غنى أو فقر، وإنّما هي قضية حق، وما دام أمر نوح حقاً فاتبعه هؤلاء ولم يتوقفوا.

﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: دون تفكر أو تعقل، بل كان عليهم أَن ينظروا ويتفكروا، ولا يسارعوا إلى الإيمان واتباع نوح عليه السلام. والمعنى:

أنهم اتبعوك تَعجلاً يا نوح، دون تدبر وتأمل، وإنّ زعمهم هذا باطل مردود، لأنّ الذين اتبعوه ما اتبعوه إلاّ وقد ظهر لهم نور الحق الذي جاء به نوح عليه السلام، فبعد ما ظهر لهم نور الحق، وعرفوا أنه الحق، فلِمَ يتأخرون؟؟ ولِمَ لا يتعجلون إلى الإيمان؟؟!!.

وإذا كنت أيها الإنسان لا تريد التعجل في كل أمر، وتتمهل في الأمور على زعمك، فإن هذا من باب العناد وكبر النفس، كما لو كان هناك رجلان ينتظران طلوع الشمس لمعرفة جهة المشرق، فلما طلعت الشمس قال أحدهم للآخر: لقد طلعت الشمس، وتحددت جهة المشرق بأن ظهرت الشمس منه، وبان نورها. فقال الآخر: لا تعجل في قرارك وتمهل. وهذا يدل على جهله وعناده وكبر نفسه.

وهكذا عاب قوم نوح على الذين آمنوا بنوحٍ، بأنهم آمنوا به بادي الرأي؛ ولم يتأخروا، بل عليهم أنْ يتأخروا ويتمهلوا، في حين أنهم سارعوا إلى الإيمان واتباع نوح عليه السلام لأنهم رأوا الحق، وظهر لهم نوره، وَمَن رأى نور الحق فيجب عليه أنْ يتعجل ويُسارع إلى الإيمان.

ألا ترى إلى السحرة الذين أتى بهم فرعون حين رأوا الحق الذي جاء به موسى سارعوا وسجدوا لرب العالمين: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] ولما سجدوا كشف الله لهم عن مقاماتهم في الجنة؛ وعاينوها، فلا يقال عنهم: إنهم تعجلوا في الإيمان، لأنهم رأوا نور الحق، وقد ظهر لهم الحق، فلذلك أسرعوا إلى الحق.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: قالوا: يا نوح ما نرى لك ولجماعتك علينا مِنْ فضل في المال وكثرة زخارف الدنيا، أما نحن فذَوُو أموال كثيرة. فلقد اعتبروا أنّ الفضل هو بالمال، وما علموا أن الفضل هو بالإيمان والعمل الصالح، والخُلق العالي، وما علموا أنّ الغنى ليس عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غِنى النفس، ولو كان كرم الإنسان وفضله في ما يملك مِنْ مال وذهب وفضة؛ لكانت جبال الذهب والفضة أشرف وأفضل من الإنسان، والحال أنّ الجبال تطؤها البغال والحمير والحيوانات، وقد اختزنت الذهب والمعادن في باطنها.

ولكن فضل الإنسان واعتباره إنما هو بإيمانه وصلاحه، وأخلاقه الفاضلة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: أخبروني: إنكم تقولون هذا الكلام والحال إنما أنا على بينة من ربي. أي: على بَيّنة ألقاها الله إليّ، وحجة مِنَ الله علّمني إياها، وأنا أعرضها عليكم، وقد بَيَّنْتُها لكم، فإن كان عندكم جواب فردوا هذه الحجة والبينة.

وما هي هذه البينة؟؟. إنها حجج الله التي لَقّنها لنوح، وهي الدليل القاطع، والمعجزات العملية التي جرَت على يد نوح عليه السلام.

فهناك البيِّنَات العقلية؛ أي: البراهين العقلية المحكمة، وهناك البينات الفعلية؛ وهي: المعجزات الكونية التي أجراها الله على يد نوح عليه السلام، ولو كانوا يستطيعون رَدّها أو نقضها لكان الأمر كما يقولون، ولكنهم لا يستطيعون ذلك؛ فلِمَ يُكذبون وقد جاءهم بالبينة القاطعة؟!!.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ وهي النبوة والرسالة التي فيها رحمة للعباد.

ولقد جَرت عادة الله في رُسُله أَنْ يؤيدهم بالحجج العقلية القاطعة، والحجج الفعلية، وهي المعجزات وخوارق العادات، وهذه هي البينات التي أرادها الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥] أي: بالبينات العقلية الدامغة، والبينات الفعلية، وهي المعجزات المرئية، فهناك شيء للعقل، وشيء للنظر، حتى تُقام الحجة على أكمل الوجوه.

ولقد بَيّن سبحانه هذه البينات العقلية الدامغة التي آتاها نوحاً عليه السلام، بيّنها سبحانه في سورة نوح عليه السلام فقال، تعالى:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مِنْ قبل أن يأتيهم عذاب أليم في الدنيا، وهو الغرق بالطوفان، وَمِنْ قبل أن يأتيهم عذاب أليم في الآخرة، وهو عذاب جهنم. فجاء نوح عليه السلام منذراً ينذر قومه، وهو أوّل الرسل جاء بالإنذار والتهديد والوعيد، لأنّ أوّل قوم وقع الشرك فيهم هم قوم نوح، وأما الرسالات التي كانت قبل نوح مثل: شيث وإدريس وآدم عليهم السلام فقد كان فيها البشائر، لأنه لم يكن وقتذاك كفر ولا شرك، وإنما حصل الشرك والكفر في قوم نوح عليه السلام، فأرسل الله نوحاً نذيراً.

ولذلك يقال: بدأت الإنذارات الإلّهية من عهد نوح عليه السلام، حين وقع الشرك، وحين خَلقَ الله الدَّجال، وهو دَجّال آخر الزمان.

وهذا كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر الدَّجال ـ أي: دجال آخر الزمن ـ وقال: «ما من نبي إلا أنذره قومه، لقد أنذره نوح عليه السلام قومه» أي: ما من نبي إلا أنذر قومه من فتنة الدجال في آخر الزمن.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾. والمراد من قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: التحقق بلا إلّه إلا الله ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: بامتثال أمره واجتناب نهيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: فيما آمركم به وأنهاكم عنه، لأنّه يبلغ عن الله تعالى ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ مِنْ هنا للبيان أي: يغفر لكم ذنوبكم إنْ أنتم آمنتم واتقيتم؛ ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

ولقد قال سبحانه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾ فالآية الأولى تقول: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾، والثانية أنه لا تأخير.

نعم لا تنافي ولا إشكال في كلام الله تعالى.

فقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: إن أنتم آمنتم بالله واتقيتم الله يغفر لكم من ذنوبكم، ويؤخركم إلى أجل مسمى، بأن يُؤخر في أعمارهم إنْ هم آمنوا، وإلا فإن أجل الله ـ أي:

---

(١) البخاري في كتاب الأنبياء، باب /٣/ (٣٣٣٧) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومسلم في الفتن، باب ذكر الدجال وصفته (٢٩٣٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

أجله لهم في العذاب إن بقوا على كفرهم وضلالهم - لا يؤخر عنهم لو كانوا يعلمون.

فالآية الأولى إن هم آمنوا يُؤخر لهم في أعمارهم، ولا يشكل عليك هذا الأمر، فإنّ قضاء الله تعالى للأمور معلق على أمور، ومِن جملة ذلك أَنه سبحانه قَضى إنْ هم آمنوا أخرهم وأمدهم في عمرهم في هذه الحياة، وإنَّ مَنْ لم يؤمن مِنهم فسوف يعاجله بالعقوبة بعد ما يستحق العقوبة، وإذا حلّت العقوبات فلا تأخير فيها ولا تقديم كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: إنه واصل دعوته لقومه في الليل والنهار، أي: في مجالسهم الليلية والنهارية، فكان يأتيهم ويدعوهم، ويبيّن لهم، ويناظرهم، ويقيم عليهم الحجج.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: كلما دعوتهم للإيمان حتى تغفر لهم كفرهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: إنهم وصلوا إلى حد كبير في الجحود، حتى كرهوا أن يَسمعوا كلام نوح، وأن يروه، فصاروا إذا كلمهم وضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا دعوة نوح وكلامه، وإذا رأوه غشوا ثيابهم حتى لا يَرَوْهُ، وإذا أراد أن يُريهم معجزات وخوارق عادات لا يمكن ردُّها غشوا ثيابهم، وغطوا أعينهم؛ حتى لا يروا المعجزات ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: على كفرهم، وهذا من كِبْرهم وعنادهم،

كما قال: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ فإنّ نفوسهم المتكبرة تكبرت على أنْ تتقبل الحق من رسول الله نوح عليه السلام.

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: إنه دعاهم بأساليب من الدعوة، على أنواع مختلفة، سراً وجهراً ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: في نواديهم ومجالسهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ أي: في بيوتهم ﴿إِسْرَارًا﴾ فكان يأتيهم عَلَناً، ويأتيهم واحداً واحداً سراً، ويدعوه إلى الله ويناظره، وما ترك عليه السلام طريقاً مِنْ طرق الدعوة إلا وسلكه.

أما بياناته معهم ومناظراته لهم فكما أخبر سبحانه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: مِن كفركم ومعاصيكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: أنتم تعلمون أنّ الله طَوّركم في التخليق طوراً بعد طور، فكنتم في طور النطفة فطوركم إلى طور العلقة، ثم إلى طور المضغة، ثم إلى طور العظام واللحم، إلى أنْ أخرجكم إلى الدنيا، وطوركم مِن الطفولة إلى الشباب، إلى الكهولة، وهكذا، فأنتم في تطور وتنقل مِنْ طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومالكم اختيار في ذلك، فَمَنِ الذي يطوركم؟؟.

هذا هو الله ربكم وخالقكم، الذي خلقكم أطواراً في عالم الدنيا، فسيخلقكم أطواراً في الآخرة، فهناك طور البرزخ، والحشر، والنشر، والصراط؛ وهكذا لا انتهاء لهذه الأطوار كما قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: طوراً بعد طور، وحالاً بعد حال، إلى ما شاء الله تعالى.

وبعد ما ذكر لهم الدليل النفسي وهو تَطَوُّرهم، ذكر لهم الدليل الآفاقي المحيط بهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

ولما كفر قوم نوح وأصروا على الكفر، ومضت عليهم مدة، دعا سيدنا نوح فأصيب قومه بالقحط الشديد، وعقم الأرحام، وابتلوا بالفقر الشديد، فقال لهم كما أخبر سبحانه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: حتى يُذْهب القحط عنكم ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ بعد الفقر ﴿وَبَنِينَ﴾ بعد العقم، وقد وقعوا أربعين سنة في العقم.

ومن هذا فهم كثير من السلف الصالح رضي الله عنهم أنّ الإنسان إذا اعتراه العقم فليكثر من الاستغفار بصدق مع الله؛ ولو طالت به المدة، فإن الله يُكرمه ويرزقه البنين.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: ما لكم لا تخافون الله ولا تحسبون لله حساباً، وليس عندكم وقار لرب العالمين ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: والحال قد خلقكم أطواراً.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض، وكل سماء أكبر من التي تليها ومحيطة بها ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في جهتهن وهو دون السماء الأولى ﴿نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ

﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ أي: إنه سبحانه أنبتكم يا بني آدم مِنَ الأرض كما أنبت النبات. فبنو آدم مِنْ آدم، وآدم من تراب، فالإنسان نبات، كما أنّ الشجر نبات، إلا أنّ لكل منهما خصائص وميزات. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ فالمرة الأولى إنبات، وفي المرة الثانية إخراج، وذلك لأنهم موجودون، وإنّما يعيدهم كما بدأهم ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ أي: موضع سيركم وافتراشكم، وقراركم وزراعتكم ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾.

وهذه هي الحكمة في جعل الأرض بساطاً، فلقد بَيّن لهم نوح البيانات، وأتاهم بالمعجزات والأدلة القاطعة، وقال لهم: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: أنا جئتكم بالحجج والبيانات، فَلِمَ تقولون ما تقولون؟!! وإن استطعتم أن تنقضوا هذه البيانات فافعلوا ولا تتكلموا كلاماً فقط.

وبعد المناظرات والحجج أوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ وهذا بعد أن بَقي يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: لا تحزن على أفعالهم مَعك، وإيذائهم لك وجفائهم.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي: واصنع السفينة بأعيننا، ووحينا إليك كيف تصنع الفلك ﴿وَلَا

تُخَاطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: إذا سرى الطوفان فلا تخاطبني فيهم، ولا تَشفع فيهم، ولا تَدْع بأمانهم ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

وروي[1] أنّ الله لما أمره بصنع الفلك قال: «يا رب وما الفلك؟؟. ـ لأنه لم يكن وقتئذ سفينة معروفة ـ قال: هو كالبيت يجري على وجه الماء.

قال: إذا صنعت الفلك فأين الماء؟.

قال: إني ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾» أي: سيأتي يوم الطوفان ويحمل السفينة.

وأوحى الله تعالى إلى نوح وعلّمه أنْ يصنع السفينة، بأن يكون رأسها على شكل رأس الديك، وذنبها على شكل ذنب الديك، وأوسطها يكون على شكل جوف الطير.

وراح نوح عليه السلام وغرس الأشجار التي سيصنع من ألواحها السفينة، وهي شجر الصنوبر وهو في الجبال، وبقي نوح عليه السلام مائة سنة يَقطع أخشاب الأشجار ويصنع منها السفينة[2]. وقد أوحى الله إليه أن يصنعها ثلاث طبقات، أما السفلى فللبهائم والحيوانات، وأما الوسطى فله ولمن معه، وأما العليا فلأنواع الطيور. قال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: بقي مدة طويلة وهو يصنع

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في الدر المنثور معزواً إلى ابن جرير.

الفلك. وقيل: إنه بقي أربعين سنة في صناعتها[1] ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ أي: وقالوا له: ماذا تصنع؟ لأن السفينة لم تكن معروفة وقتئذ، وإن هو أخبرهم أنه سيحصل طوفان يحمل السفينة ويغرقهم؛ جعلوا يسخرون منه ويهزؤون به.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: حتى إذا صنع الفلك وأكملها، ومضت مدة، وجاء أمرنا بالطوفان، وإغراق من هو يستحق الغرق، وإنجاء نوح ومن معه من المؤمنين ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ أي: احملهم في السفينة ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ففي مدة تسعمائة وخمسين سنة لم يؤمن معه إلا قليل، وأصح الأقوال في تحديد هذا القليل أنه آمن معه تسع وسبعون رجلاً.

أما معنى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فقد قال سيدنا علي رضي الله عنه (طلع الفجر) أي: جاء الأمر.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ وهو في الصباح أي: فار تنوير الفجر. والمعنى: جاء الأمر حين طَلَع فجر تلك الليلة، بدأت المياه تنبع والسماء تمطر.

وعلى هذا فيكون ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: نُور الفجر. وأصله من التنوّر وهو نور الفجر[2]. وهذا يدل على أن تنفيذ أوامر الله محتمة في

---

(١) كما في الدر المنثور وعزاه لابن أبي حاتم عن كعب الأحبار.

(٢) ينظر الدر المنثور للحافظ السيوطي فقد عزاه لابن جرير وابن المنذر.

وقت معين، لا تتأخر عنه أبداً، فمنذ طلوع فجر ذلك اليوم بدأ الطوفان.

وقال بعضهم: التنور هو الذي يُحمى ويخبز عليه. والمعنى: إن تنانير الأرض التي هي مواقد للنيران فارت بالمياه، وهذا يدل على أنّ الأرض جُعلت تنبع بالماء؛ حتى إن التنانير جعلت تنبع بالمياه.

وقيل إن المراد: تَنور معين وهو في بلاد الهند، التي كان بها سيدنا نوح عليه السلام.

وقيل[1]: إن التنور هو وجه الأرض كلها، إذ جُعلت الأرض كلها تفور بالمياه. والمقصود من هذا: أن وجه الأرض وما عليها؛ حتى أفواه التنانير جعلت تنبع بالمياه، وكان مبدأ ذلك وقت طلوع فجر ذلك اليوم الذي أراد الله أن يُهلك الكفار فيه.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: احمل يا نوح من كل أصناف الحيوانات المتماثلة زوجين. أي: ذكر وأنثى، لأن الطوفان سيعم الأرض كلها.

واعلم أنّ الطوفان كان عامًّا للأرض كلها، ولو لم يكن الطوفان عامًّا لأوحى الله إلى نوح أن اترك قومك وارحل مَعَ مَنْ آمن معك إلى بلد آخر لا يصيبها الطوفان، كما أمر سيدنا لوطاً عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. ولكن الله سبحانه أمره بصنع السفينة، مما يدل على أنّ الطوفان كان عاماً.

ومن ناحية أخرى لو لم يكن الطوفان عامًّا لما أمره سبحانه أن

---

(١) كما في الدر المنثور، وعزاه لابن جرير، وسعيد بن منصور، وابن المنذر وغيرهم عن سيدنا الحسن وابن عباس رضي الله عنهم.

يَحمل في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

ولما أمر سبحانه نوحاً عليه السلام أنِ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، فأنى له القدرة البشرية أن يجمع هذه الحيوانات المختلفة والطيور كذلك؟؟. والجواب ما قاله الإمام جعفر الصادق عليه السلام، لما قيل له: كيف حمل نوح مِنْ كل زوجين اثنين؟؟.

قال: إنّ نوحاً مأمور بالحمل، وليس مأموراً بالجمع، فقال له تعالى ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾ ولم يقل: قلنا اجمع. أي: إن الحيوانات ستأتي إلى سفينتك فاحملها.

وقال الإمام جعفر رضي الله عنه: إن جبريل عليه السلام هو الذي ساق هذه الحيوانات إلى السفينة، وقام نوح عليه السلام بحملها في السفينة[1].

ولما حمل نوح عليه السلام الحيوانات في السفينة؛ وإنّ في الحيوانات ما هو متنافر مع بعضه: كالذئب والغنم وغيرهما، فقال نوح: يا رب وكيف أجمع في السفينة بين الأغنام والذئاب، وبين الهرة والحمام. فقال: مَنِ الذي ألقى بينهما العداوة يا نوح؟؟. قال: أنت يا رب. فقال: فإني أُؤلِفُ بينها حتى لا يضر بعضها بعضاً.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: احمل أهلك معك في السفينة، إلا زوجتك لأنّ إحدى زوجاته كانت كافرة، وكذلك أحد أولاده.

---

(١) كما في الدر المنثور، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن عساكر.

وهكذا حمل نوح عليه السلام في السفينة ما أمره الله أن يحمل فيها، وكانت على وجه الأرض اليابسة، فلما فار التنور حملها الطوفان، وجرت على سطح الماء، وهنا قال نوح عليه السلام: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: بسم الله جريانها، وبسم الله وقوفها ورسيها ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أنتم أيها المؤمنون الذين ركبتم في السفينة لا تقولوا إنكم نجوتم بأنفسكم من أنفسكم، إذ لا يخلو أحدكم من ذنوب وهفوات، إلا أنّ ربي لغفور رحيم، فهو يغفر ويرحم، ويلطف بعباده المؤمنين.

وروى الطبراني[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفينة أن يقولوا: بسم الله الملك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١]» وفي هذا أمان لكل مَنْ تعتريه المخاوف والمكاره، سواء في البحر أو الجو وغير ذلك.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: إلى جبل شاهق مرتفع ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: إلا من رحم الله، وهم أهل الله يعصمهم، وإلا فلا جبل يعصم ولا غيره.

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/١٣٢).

وقال بعضهم: معنى ﴿عَاصِمَ﴾ في الآية أي: معصوم، مثل كاسٍ بمعنى مَكْسُوّ، وطاعم بمعنى مطعوم، والمعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله؛ إلا من رحمه الله وعصمه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نقص وجف ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي: رست السفينة على الجودي، وهو جبل في الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وقال كثير من السّلف: إن الطوفان بدأ مِنْ أول شهر رجب، واستوت السفينة على الجودي يوم عاشوراء في العاشر من المحرم[1].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: إنك وعدتني بإنجاء أهلي بقولك: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ فكيف غرق؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ أي: ولا معقب لحكمك.

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس من أهلك نسبة وديناً، وإن كان هو منك نسباً ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ فبسبب كفره وعمله غير الصالح انقطعت نسبته إلى نوح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: سلام خاص عليك يا نوح، وسلام على أمم ممن معك سيلدون إلى يوم

(١) كما في الدر المنثور.

الدين وهم المؤمنون، وفي هذه الآية سلام من الله تعالى على كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

﴿وَأُمَمٌ﴾ أي: كافرة ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا﴾ أي: يا رسول الله ﴿أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ فمن أين لك هذه العلوم؟ فما هي إلا مِن عند الله تعالى، مِمّا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حقاً رسول الله، جاء بإخبارات غيبية مفصلة؛ رغم أنه لم يدرس ولم يقرأ كتاباً قط، وإنما أوحى الله إليه هذا القرآن، وفيه علم الأولين والآخرين.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحاضرة العشرون

حول

الأدلة القاطعة على نبوة ورسالة

سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

من خلال الإعجاز الخبري الغيبي

في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

*** قصة السيدة مريم عليها السلام:**

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على وجه معجز بوجوه من الإعجاز، وَمِن جملة ذلك: الإعجاز الخبري، وهو: الإخبارات الغيبية عن وقائع وأمور ماضية، جاء القرآن الكريم بذكر تفاصيلها.

وبلّغ ذلك سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، على الرغم من أنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً لم يقرأ ولم يكتب، ولم يستمع إلى معلم أو مؤرخ، فَمِنْ أين له هذه العلوم والإخبارات الغيبية؟! نعم. إنها بتعاليم الله له، ووحي الله إليه، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩] وهذا يدل على أنّ هذا القرآن هو حقاً كلام الله تعالى، وأن النازل عليه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هو حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن جملة إخبارات القرآن الكريم عن المغيبات والوقائع الماضية، قصة السيدة مريم عليها السلام: قال سبحانه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ

وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى
ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا
مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى
عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ
أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ
وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ
أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾.

[آل عمران: ٣٧-٤٤]

في هذه الآيات الكريمة يُنبه الله سبحانه العقول إلى التفكر في شأن هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث إنه جاء بأمور لم يقرأها من كتاب، ولم يسمعها من مؤرخ، وإنّما أوحاها الله تعالى إليه، فجاء بها خبراً غيبياً مفصلاً، مِمّا يدل على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا يدل على أن هناك وحياً من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليست قضية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضية ذكاء وفطانة فقط، فهو ولا شك أعلم العالمين وأذكاهم وأعقلهم،

ولكن هناك وحي يُوحيه الله إليه، يشمل علوماً ومعارف يعجز البشر عن الإحاطة بها.

أما معنى الآيات: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعل سبحانه زكريا كفيلاً على مريم ضامناً لمصالحها، قائماً بشؤوناتها وحاجاتها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذ إن زكريا عليه السلام أسكنها في غرفة في مَسجد بيت المقدس، ولها سبعة أبواب متتالية ضمن بعضها البعض، وكانت مفاتيح هذه الأبواب مع زكريا عليه السلام، وكان يدخل عليها ويقوم بمصالحها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: غرفة عبادتها وصلاتها. وكل موضع للعبادة والصلاة فهو محراب، لأنّ العبادة فيها محاربة النفس والهوى والشيطان. وأما إطلاق المحراب على موضع الإمام فهو إطلاق عرفي.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: غرفة عبادتها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ مع أنّه لا أحد غيره يدخل عليها ويأتيها بما تحتاج. فكان يجد عندها فواكه وثمار الصيف والشتاء في آن واحد، ويجد عندها الأطعمة، والحال أنّه لم يأتها بهذه الفواكه والأطعمة، إنما أتاها بأشياء معينة.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: مِنْ أين لك هذا؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن جبريل أو بعض الملائكة يأتيها بهذه الأطعمة والفواكه من عند الله، وليست من العالم الأرضي المعروف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير حساب يحتسبه الإنسان من هنا أو هناك، فَقد يحتسب الإنسان رزقه من العمل الفلاني، أو المتجر الفلاني، أو التجارة الفلانية، ولكن الله يرزقه مِنْ حيث لا يحتسب، فقد يحتسب المرء ويحسب رزقه من أمر معين؛ فيأتيه الرزق من أمر لم يكن في حسبانه واحتسابه.

ومن ناحية أخرى: فهو سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير حساب يدخل تحت حساب الحُسّاب، بل يُعطي عطاءً يَعجز عنه الحُسّاب في تقديره وإحصائه.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي: في ذلك المكان وعلى الفور، إذ لمّا رأى الأمر الخارق للعادة، وهو الثمر الذي يُؤتى إليها في غير مَعاده، فراح يدعو بأمر خارق للعادة، وهو أنّه بَلغه الكبر وامرأته عاقر، فالذي قَدَر على أن يُنتج الثمر في غير أوانه من الشجر، فهو قادر على أن يُنتج ثمرة الولد رغم الكبر في السن وعقم الزوجة. وذلك لأن الولد ثمرة والديه.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: هب لي من أمرك اللدني الذي هو فوق الأسباب المعتادة، وهذا معنى الأمر اللدنّي أو العِنْدي، فلا يتوقف على الأسباب الظاهرة.

وقد دعا بذلك زكريا عليه السلام لأن الأسباب الظاهرة والعادة المطّردة أنّه مَنْ كبرت سنّه، وكانت زوجته عقيماً في حال الشبوبية؛ فمن باب أولى أن لا تلد في حالة الشيخوخة، فراح زكريا يطلب الأمر الخارق للعادة، ويسأل الله مِنْ لدنه. أي: من عنده.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ذرية صالحة بالأعمال الطيبة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وقد ختم زكريا عليه السلام دعاءه بهذا اقتداءً بجده إبراهيم عليه السلام الذي قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومعنى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: سَمْعُ الإجابة والعطاء. أي: أنت مجيب دعاء مَنْ دعاك يا رب.

ولقد دعا زكريا عليه السلام بثلاث دعوات فقال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

وقال أيضاً كما ورد في الأثر: «ربِّ ربِّ ربِّ».

فقال تعالى: «لبيك لبيك لبيك يا زكريا».

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: كبرتُ في السن حتى اعتراني الضعف، وعلا الشيب رأسي ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: محروم الإجابة، فلقد عودتني الإجابة في كل دعوة دعوتك بها، وها أنا ذا اليوم أدعوك بهذا الأمر الخارق للعادة، وإن الأمور عندك كلها سواء، فكما أجبتني فيما مضى، فأجبني وحقق لي مرادي الآن.

وفي هذا توسّل إلى الله تعالى بعطائه السابق، ورجاءٌ منه سبحانه في حصول العطاء اللاحق.

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن

﴿لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: إنه عليه السلام خاف أن يتوفّى ولا خلف يرثه في النبوة فتضيع الموالي وهم: أقاربه وأولاد عمّه، أي: خشي أن يضيع أمرهم من بعده إن لم يكن هناك من يرثه.

ودعا أيضاً بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] أي: لا تذرني فرداً كشجرة لا ثمر فيها، بل اجعل لي من يرثني. ولقد دعا زكريا عليه السلام بهذه الدعوات وهو في محراب السيدة مريم. أي: في بيت عبادتها.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال جمهور العلماء: إن الجواب جاء فورياً في المجلس نفسه الذي دعا فيه، بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ والفاء هنا: للتعقيب ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: في محراب السيدة مريم، إذ إنه لما دخل عليها ورأى ما رأى عندها من رزق الله تعالى، قام فصلّى ودعا، وهو في المحراب قائم يصلي نادته الملائكة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: إنّك طلبت من الله مَنْ يرثك من بعدك، ويُحيي ذكرك من بعدك، فأجابك الله، ووهب لك يحيى ليحيا به ذكرك يا زكريا ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مؤمناً بعيسى بن مريم، وذلك لأنّ يحيى وعيسى اجتمعا في زمن واحد.

ويقال عن عيسى عليه السلام: كلمة الله لأنه خُلقَ بقول الله: ﴿كُن﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فعيسى عليه السلام هو أثر قول الله: ﴿كُن﴾ فكان عيسى مثل آدم.

وقد يقال: إذاً يجب أن يكون آدم هو كلمة الله أيضاً؟

فيقال: إنّ آدم أيضاً كلمة الله، وأنت كلمة الله، والعالم كله كلمات الله، أي: كلهم خُلقوا بقول الله: ﴿كُن﴾ وإنما اشتهر عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله تعالى لأنّه أحق مِنْ غيره، باعتبار أنه خُلق على وجه مخالف للعادة المعروفة، إذْ خَلَقه الله تعالى من أم بلا أب. وإلا فجميع المخلوقات هي كلمات الله تعالى. فافهم.

ومعنى: أن المخلوقات هي كلمات الله تعالى، أي: أنهم خُلِقوا بكلمة الله: ﴿كُن﴾ فهم أثر كلمة الله ﴿كُن﴾، كما تقول: المطر رحمة الله أي: أثر رحمة الله. والجنة رحمة الله. أي: أثر ومظهر رحمة الله تعالى.

وهكذا فإنّ عيسى عليه السلام كلمة الله. أي: خُلق بكلمة الله ﴿كُن﴾ لا أن عيسى صفة قائمة بالله تعالى، ولا أنه جزء من الله تعالى. وإنما المراد بـ كلمة الله أي: أثر كلمة الله، كما تقول: الجنة رحمة الله أي: أثر رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] أي: في الجنة هم خالدون. وليس المراد برحمة الله هنا: الصفة القائمة بذات الحق سبحانه وتعالى، وإنما المراد أثر رحمة الله تعالى.

وهكذا إذا نظرت إلى السماوات والأرض فتقول: هذه قدرة الله. أي: أثر القدرة الإلٓهية، وليس مرادك صفة القدرة القائمة بذات الحق.

فهذا العالم كلمات الله. أي: آثار كلمات الله التكوينية ﴿كُن﴾ ﴿كُن﴾ وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: إنّ يحيى عليه السلام سيكون سيداً في قومه ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: لا يميل إلى النساء رغم وجود الداعية فيه إلا أنّه مشغول بعبادة الله تعالى. وهذا لا يعني أنه عنّين بل كان مشغولاً بالعبادة والتوجه إلى الله تعالى منذ صغره، وقد ورد [1] أنه لمّا كان صغيراً مرّ على صبيان يلعبون في الطريق قالوا له: تعال ٱلْعَبْ معنا. فقال: إني لَمْ أُخلق لِلّعب ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من الصالحين صلاح النبوة؛ لا الصلاح العام، إذ إنه نبي فهو من الأنبياء الصالحين بالصلاح النبوي.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ وهذا شيء كبير وأمر عجيب ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: إن الأمر كذلك ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فهو يخلق ويفعل ما يشاء، كيفما يشاء، ولا حظر في تخليقه سبحانه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة تدل على بدء تعلّق الماء بالرحم، وبدء نشوء هذا الجنين في رحم أمّه. وذلك حتى ينصرف إلى الله بالشكر والحمد؛ وإنْ كان هو شاكراً حامداً من قَبْل، وإنما بزيادة الحمد والشكر لرب العالمين.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: أن العلامة على بدء حمل زوجتك بيحيى، أنك تصبح ذات يوم لا تستطيع أن

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى أحمد في الزهد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن معمر بن راشد، وإلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة، وغيرهم.

تتكلم مع الناس، لأن لسانك ممنوع عن الكلام إلا عن ذكر الله تعالى والثناء عليه، وإنما تجيب الناس بالرمز والإشارة. فإذا رأيت هذا الحال مِنْ نفسك، فاعلم أنّه قد تعلق الماء بالرحم وبدأ الحمل.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

وقال سبحانه في سورة مريم: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: ثلاثة أيام بلياليها.

ومعنى: ﴿سَوِيًّا﴾ أي: وأنت سوي القامة، مستقيم الجسم، لا علّة فيك تمنعك من الكلام مع الناس، بل أنت سوي الجسم صحيح البدن.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: إن أَنْت رأيت العلامة فأكثر من ذكر الله وتسبيحه. ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: فأصبح وهو ممنوع من الكلام ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي: سألوه فلم يستطع أن يجيبهم، فأشار إليهم باليد ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: شكراً لله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: انتقاك صفوة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: وطهرك مِنْ دنس النساء وسوء الخلق ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانها فقط، فَأَنْتِ أفضل نساء العالمين في زمنك.

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصحّحه[1]: «حسبك من

---

(١) في كتاب المناقب، باب مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها (٣٨٨٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» إلا أن السيدة فاطمة رضي الله عنها هي سيدة نساء أهل الجنة، كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم [1].

وأخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن فضل السيدة عائشة في جملة الكمّل فقال[2]: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإنّ فضل عائشة على سائر النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: إن هذه الأمور التي ذكرناها لك يا رسول الله من أنباء الغيب ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي: يا رسول الله أنت ما كنت حاضراً في زمن زكريا حضوراً دنيوياً شهودياً، حتى تشاهد ما وقع في زمن مريم من التخاصم أيّهم يكفل مريم، لكن ربّ العزة أخبرك خبراً مفصلاً، فكأنك رأيت الأمر عياناً.

---

(١) كما في صحيح البخاري، آخر كتاب المناقب (٣٦٢٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وعند مسلم في المناقب، باب مناقب السيدة فاطمة رضي الله عنها (٢٤٥٠): «سيدة نساء العالمين. أو سيدة نساء هذه الأمة» رضي الله عنها.

(٢) كما في المسند (٤/٣٩٤)، والبخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب /٣٢/ (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها (٢٤٣١) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ إذاً فمن أين له هذه الإخبارات؟! مع أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن لديهم ولم يقرأ كتبهم. فافهم أيها العاقل أنّ سيدنا محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ هناك وحياً من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فلما أراد زكريا عليه السلام أن يكون كفيلاً على مريم نازعته الأحبار، وكلهم أرادوا أن يتشرفوا بكفالتها، لأنها بنت إمامهم عمران، واختلفوا فيما بينهم، حتى اقترحوا أن يقترعوا بأن يلقي كل منهم بقلمه الذي كان يكتب به التوراة في النهر، فالقلم الذي يعاكس جريان النهر، ولا يجري في الماء يحق لصاحبه أنْ يكون كفيلاً على مريم، فلما فعلوا ذلك جرت أقلامهم مع النهر إلا قلم زكريا. فلم يرضوا بذلك بل قالوا: إن القلم الذي يجري مع النهر يكون صاحبه كفيلاً لمريم، فلما فعلوا وقفت أقلامهم وجرى قلم زكريا عليه السلام. وقبل أن يفعلوا ذلك وضعوا أقلامهم في كيس، وأتوا بغلام لم يبلغ الحلم كان يُصلي في بيت المقدس، وقالوا له: ضم يدك في هذا الجيب ـ الكيس ـ وأخرج قلماً يُصِبْ يدك، ففعل فأخرج قلم زكريا.

وهكذا ظهر الحق لزكريا عليه السلام إلا أنهم راحوا يخاصمونه أولاً وثانياً وثالثاً حتى انقطع خصامهم، ودحضت حججهم، ورضوا بزكريا أن يكون كفيلاً على مريم عليها السلام.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

كرامات الأولياء

لقد أخبر سبحانه عن إكرامه للسيدة مريم عليها السلام بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] وقوله جلَّ وعلا: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وهي صِدِّيقة وليست نبية، كما قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

فلقد أكرمها الله تعالى بخوارق عادات منها: أن ساق إليها فواكه الشتاء، والصيف في آن واحد، وفي هذا نص قرآني بثبوت كرامات الأولياء، كما في قصة أهل الكهف، وإحضار عرش بلقيس وغير ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تُخبر عن إكرام الله لأوليائه، وقد وَردت أيضاً أحاديث كثيرة في إكرام الله تعالى لأصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن جملة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذكر إكرام الله لأوليائه، والصلحاء من عباده، ما جاء في الحديث المتفق عليه[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» أي: هم المشهورون،

---

(١) البخاري في كتاب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها.. (١٢٠٦)، ومسلم-واللفظ له-في أول كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٥٠).

وقد وردت أحاديث في غير هؤلاء الثلاثة، إلا أنّ هؤلاء الثلاثة جاؤوا في حديث واحد. «عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً ـ أي: من عباد بني إسرائيل ـ فاتخذ صومعة فكان ـ يعبد الله تعالى ـ فيها، فأتته أمه وهو يصلي ـ أي: صلاة النفل ـ فقالت: ياجريج ـ وهو في صلاته ـ فقال: يا رب أمي وصلاتي؟! ـ أي: أقدم صلاتي أم أجيب أمي؟ـ فأقبل على صلاته. فانصرفت.

فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي؟! فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ـ أي: حتى يقع نظره فقط على وجه فاجرة زانية، وقد اعتبرت أنّ هذه مصيبة كُبرى، وهي أنْ يقع نظره على فاجرة لا أنْ يفتتن بها ـ فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ـ أي: جماعة من فسّاق بني إسرائيل، وأرادوا أن يفتنوا جريجاً عن عبادته ـ وكانت هناك امرأة بغيٌّ من بني إسرائيل يتمثل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم؟ فتعرضت له فلم يلتفت إليها. فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت هو من جريج. فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟!. فقالوا: زنيتَ بهذه البغيِّ فولدت منك. ـ وهنا وقع نظره على المرأة وتحققت دعوة أمه ـ فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي؛ فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام مَن أبوك؟ فقال: فلان الراعي. قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك

من ذهب. قال: لا. أعيدوها من طين كما كانت. ففعلوا» وهكذا أنطق الله الغلام الرضيع في براءة جريج، إكراماً له من الله تعالى.

وقد يُشكل عليك كيف أن أمه دعت عليه؟ فاعلم أنّ جريجاً كان يعلم أنّ أمه حادة الطبع، ويغلب على مزاجها الغضب، فكان من الواجب عليه أن يقطع صلاته ـ لأنه في صلاة النفل ـ ويجيب أمه فلمّا لم يجبها دعت عليه، وكان ما كان أن وقع نظره على امرأة مومس.

وأما الثالث: «وبينما صبي ـ من بني إسرائيل ـ يرضع من أمه، فمرّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث... قال: إن ذاك الرجل كان جباراً ـ أي: عاقبته وخيمة ـ فقلت: اللهم لا تجعلني مثله. وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها» أي: لأنها امرأة صالحة بريئة، ولكنهم يقولون لها: فعلتِ وفعلتِ. فطلب الصبي من الله تعالى أن يجعله من الصالحين، لا من الجبارين المتكبرين.

وجاء في الحديث المتفق عليه(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما

---

(١) البخاري في كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فَرَضِيَ (٢٢١٥) ـ واللفظ هنا من كتاب الإجارة (٢٢٧٢) ـ (٣٤٦٥)، ومسلم في آخر كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٢٧٤٣).

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فَسدّت عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة: إلا أن تدعوا إلى الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق ـ الغبوق: الذي يُشرب عند المساء ـ قبلهما لا أهلاً ولا مالاً ـ أي: لم يكن يسقي أو يُطعم أحداً قبلهما ـ فنأى بي في طلب شيء ـ أي: تأخّر مرة في المرعى ـ فلم أُرحْ عليهما حتى ناما، فجلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يديَّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما.

اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فَفَرِّجْ عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة؛ فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج».

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**وقال الآخر**: اللهم كانت لي بنت عمّ، وكانت أحب الناس إليّ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمّت بها سنة من السنين ـ أي: قحط وشدة ـ فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أن تُخَلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحِلُّ لك أن تفض الخاتم إلا بحقّه ـ أي: وفِعْلُكَ هذا ليس شرعياً ـ فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها.

اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك؛ فافرّج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها».

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**وقال الثالث**: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ـ وكانت الأجرة كمية من الأرز كما في رواية ـ فَثَمَّرْتُ أجره حتى كثرتْ منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إلَيَّ أجري، فقلت له: كل ما ترى من أَجْرِكَ من الإبل والبقر والغنم والرقيق.

فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلتُ: إني لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً.

اللهم فإن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك؛ فافرّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

ولقد أكرم الله تعالى أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكثير من خوارق العادات، وَمِنْ جملة ذلك ما وقعَ مع سفينة مولى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: عتيق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال سفينة رضي الله عنه: ركبتُ البحر يوماً فانكسرت السفينة، حتى أتت الأمواج بي إلى الشاطئ، فنزلت ولا أدري أين الطريق فمشيت ـ أي: وهو حائر ـ فأقبل إليّ من بعيد سَبع، فلمّا دنا مني قلت له: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ـ أي: أنا الذي اشتراني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعتقني ـ فطأطأ السبع رأسه، وجعل يدفعني حتى أوصلني إلى الطريق، ثم همهم، فعرفت كأنه يودعني ويسلّم عليّ. فمشيت في الطريق حتى رجعت.

ومن ذلك ما وقع مع الصحابي الشهير عاصم بن ثابت رضي الله

عنه لَمّا أسره المشركون وقتلوه، فأرادوا أن يقطعوا رأسه ليدفعوه إلى بعض أهل مَنْ قَتل من المشركين يوم أحد، فأرسل الله تعالى طائفة من النمل، فلما كان الليل أرسل الله تعالى فيضاً من الماء حمل جسد عاصم إلى مكان غير معروف، فلما جاؤوا لم يجدوه.

وهذا لأن عاصماً رضي الله عنه دعا بدعاء قبل أن يموت: أن لا يمس جسده يدُ مشرك، فأجاب الله تعالى دعاءه حياً وميتاً رضي الله عنه.

ومن هذا ما وقع للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، لمّا مشى بجيش المسلمين على وجه الماء، حتى كان إذا وقع سيف أحدهم أخذه كأنما يأخذه من التراب. وهذا لمّا أرسله سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لمحاربة أهل الردة وقتئذ [وانظر تفاصيل ذلك في كتاب: (التقرب إلى الله تعالى) لمولانا الوالد رضي الله تعالى عنه].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات

حول خصائص

الرسل عليهم الصلاة والسلام

أسرار الشرائع

❖ المحاضرة الأولى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن مِنْ جملة علوم القرآن: ما يتعلق بالنبوات والرسالات، ومنها ما يتعلق بالمناقب، وهي ذِكر الله تعالى فضائل عباده المقربين على اختلاف أصنافهم، وأولهم الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، ثم هناك المقربون من أهل الإيمان كالصديقين والشهداء والصالحين.

ولقد جاءت كثير من الآيات القرآنية يَقص سبحانه فيها قصص الأنبياء والرسل، وقصص أوليائه. وإنّ هذا القصص فيه العبر والمواعظ، وتقوية الإيمان، وتثبيت القلب كما قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ أي أخبار ومناقب ﴿ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وأولو الألباب هم: أهل اللباب، وهم أصحاب العقول الصحيحة، الذين دخلوا الباب وانتهوا إلى اللباب، وراحوا يتعقلون في حكم وأسرار الأمور.

وكذلك فإنَّ البحث في قصص الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أمر يجب على المؤمن الاعتناء به، لِمَا فيه من حكم وعبر وتقوية للإيمان. ويتعرف أيضاً إلى ما ذكره سبحانه من مقامات الرسل وفضائلهم ومناقبهم، وكذلك ما ذكره سبحانه من فضائل وخصائص أوليائه على مختلف مراتبهم.

أما ما يتعلق بأمور الرسل صلوات الله عليهم، فإن الله تعالى ذكر رسله وَبَيّن فضلهم ومقامهم، ورفع ذكرهم وشأنهم، وبَيّن أن منصب النبوة والرسالة هما مَنصبان عظيمان كبيران، لهما شأنهما في الملأ الأعلى وفي الملأ الأدنى. ولهذا مدح سبحانه الرسل:

فمن جملة ذلك: مدحه لسيدنا موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

فقد مدحه سبحانه بالنبوة، ومدحه بالرسالة، ولَمَّا ذكر سبحانه فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فذكره سبحانه بالنبوة والرسالة على وجه أعلى من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وبيّن أن منصب نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أعلى مناصب النبوة، وأنّ مقام رسالته هو أعلى مقام في الرسالات، حتى خُتِمَتْ به الرسالات والنبوات صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ختم هذا سبحانه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: إنه سبحانه يعلم بمن هو أحق بختم النبوات

والرسالات، وَمَنْ هو أهل لذلك، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فجعله خاتم الأنبياء والمرسلين.

فلقد جمع صلى الله عليه وآله وسلم جميع النبوات فختمت به وختمها، وجمع جميع الرسالات فاجتمعت له وتحقق بها، ولهذا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل رسالة، ونبوته فوق كل نبوة، ولقد افتتح الله به النبوات، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عندما سئل: متى كنت نبياً؟ فقال: «وآدم بين الروح والجسد»[(١)] ولم يكن لآدم وجود، وإنما كان أمر الله يدور في تخليقه. وجُمعت له النبوات صلى الله عليه وآله وسلم، وختمت النبوات به صلى الله عليه وآله وسلم، فما من نبوة إلا وقد نالها صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولا نبي ولا رسول بعده، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»[(٢)] وإذا أردت أن تتعرف إلى شيء مما يتعلق بالرسالة، وما هي صفة الرسول من رسل الله تعالى، وما هو تعريف الرسول؟

فاعلم أن الرسول هو: إنسان ـ رجل ـ اصطنعه الله لنفسه،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٦٦) و(٥/٥٩ و ٣٧٩)، والترمذي في أول المناقب (٣٦١٣)، عن سيدنا أبي هريرة وميسرة الفجر رضي الله عنهما، وغيرهما، وينظر طبقات ابن سعد (١/١٤٨).

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٢٦٧)، والترمذي في أول كتاب الرؤيا (٢٢٧٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

واصطفاه من خِيرة خلقه: خَلْقاً وخُلُقاً، نسباً وحسباً، عقلاً وفطنةً. ثم أفاض سبحانه وتعالى عليه من الأنوار الإلّهية، والأسرار الإلّهية، وخلع عليه حُلل الكمال والجمال، وأنزل عليه الأمر والنهي والشريعة، وأمره أن يبلغ الناس. فهو إنسان ـ رجل ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣] اصطنعه الله لنفسه. أي: اصطناعاً إلّهياً خاصاً دون الصنع العام.

كما قال لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، وأنت تعلم أنّ العوالم كلها صَنعة ربّ العالمين كما قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٨].

فأنت والعوالم كلها إنما هي مصنوعات ربّ العالمين، لكنه سبحانه صَنعك وصنع العالم صُنعاً عاماً، أما اصطناعه للرسل فهو اصطناع خاص ـ أي: صنعة إلّهيّة خاصة ما نالتها بقية العوالم ـ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، ولم يقل وصنعتك، وهذا أبلغ لِمَا فيه من مزيد الاعتناء والرعاية الإلّهية الخاصة.

وكذلك قال سبحانه لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] أي: على مرأى خاص مني، وعناية خاصة. فلقد اصطنعه الله تعالى اصطناعاً خاصاً، في جسمه وروحه، وعقله وفكره وفهمه، وجميع حواسه، فهو لا يقارن بغيره.

وإن أعظم مَنِ اصطنعه الله تعالى خاصاً إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: إنك دائماً في عين عنايتنا ورعايتنا

يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تزل عين العناية الإلَٰهية الخاصة ترعاك من صغرك، إلى بلوغك، إلى كبرك، وفيما مضى، وفيما هو آت.

وإذا علمت هذا فاعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يُقاس بالناس، لأن الله اصطنعه اصطناعاً خاصاً في جسمه وروحه، وعقله ومداركه وحواسه، وجماله وكماله صلى الله عليه وآله وسلم. فلا يقاس هذا مع مَنْ كان مصنوعاً بالصنع العام.

وأما معنى اصطفاه من خيرة خلقه: فإن كل رسول قد اصطفاه الله من خيرة خلقه، وأعظمهم، وخيرة الكل، وصفوة الصفوات إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[1] أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم انتُقِي واصْطُفِي من قرون وقرون، ومن عهد آدم إلى يوم القيامة، حتى اصطفي من خير قرن، مُصطفىً من خَيْر القرون، فهو صفوة الصفوات، وخلاصة الخلاصات صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ذروة الذروات عليه الصلاة والسلام.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥] أي: اصطفاءَ انتقاء واختيار، فلقد اصطفى الله تعالى الرسل من خيرة خلقه: خَلْقاً وخُلُقاً، ونسباً وحسباً، وعقلاً وذكاءً وفطنةً، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صاحب النسب الأكمل والحسب الأفضل، ثم أفاض عليه من الأنوار والأسرار.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فأفاض سبحانه على الرسل من أسراره وأنواره كل على حسبه، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالرسل هم أنوار الله في أرضه، وهم أسرار الله في أرضه، وهم آيات الله في أرضه، وهم السفراء بين الحق وبين الخلق.

وهذا هو معنى الرسالة: فهي سِفارة من الحق إلى الخلق، بأمور يأتون بها الناس، يحذرونهم من كل شر، ويدلونهم على كل خير، وعلى كل سعادة لهم في الدنيا وفي الآخرة.

أما أن رسل الله تعالى هم أنوار الحق، وهم موضع إشراقات نور الله، فقد قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧] فلقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنور إلٰهي، يهدي به العالم إلى الله تعالى، وقد ورد في التوراة بعد أن عُبِّرت إلى العربية وتناقلها علماء السلف: (تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران)[1].

تجلى الله من طور سيناء أي: ظهر نور الله من جبال طور سيناء، وهي رسالة سيدنا موسى عليه السلام، التي نزلت عند جبال طور سيناء.

وأشرق نور الله من ساعير أي: جبال فلسطين. يعني: رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام.

واستعلن من جبال فاران أي: جبال مكة، فقد استعلن نور الله

---

(١) كما في تفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة التين.

علناً كالشمس وقت الظهيرة في كبد السماء، وهذا يَعني نزول الرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد ظهر نور الله جلياً تماماً مستعلناً برسالة وبعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم مظهر نور الله، وهو أعظم مظهر من مظاهر نور الحق.

وقد نقل العلماء عن الكتب السابقة قوله تعالى: «وعزتي وجلالي لأنزلن على جبال العرب نوراً يملأ المشرق والمغرب ـ ويشمل هذا جبال مكة والمدينة وما حولها من الجزيرة العربية ـ ولأبعثن رسولاً عربياً أمّياً يُؤمن به عدد نجوم السماء، ونبات الأرض. كلهم يؤمنون بي رباً وبه رسولاً».

وهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه، إذ إن أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من أتباع الرسل قبله.

فالرسل صلوات الله عليهم هم مظاهر أنوار الحق، يعكسونها على الخلق حتى يدلوهم على الله تعالى.

ومن هنا يفهم العاقل حاجته إلى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإن موقف العقل مع نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء به؛ ما هو إلا كموقف نور البصر مع نور الشمس وغيرها من الأنوار. إذ لو كان لك عينان بصيرتان فلا يَعني هذا استغناءك عن نور خارجي، إذ لا تستطيع رؤية الأمور إلا إذا التقى نور بصرك مع نور آخر، وإذا عدم هذا النور الآخر فأنت وأعمى البصر سواء.

وكذلك نور العقل فلا يكفي وحده لمعرفة الأمور، إلا إذا التقى بنور آخر واهتدى بنوره، وهو نور الشرع المحمدي القرآني، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فحينذاك يهتدي الإنسان إلى الحق والحقيقة، وإلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولهذا جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليُخرج الناس مِن الظلمات إلى النور؛ ولا يُخرج الإنسان من الظلمة إلى النور إلا النور.

فإذا كنت في مكان مظلم وأردت الخروج إلى النور فما عليك إلا فتح النافذة، أو إيقاد مصباح، فتكون بذلك قد خَرجت من الظلمة إلى النور، فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ بنور من عند الله تعالى.

ولقد جمع صلى الله عليه وآله وسلم جميع مقامات الرسالات قبله، إذ إن كل رسول من الرسل قبله إنما هداه الله تعالى هدياً خاصاً، وعرّفه إلى ما فيه مصالح أمته وقومه، وسعادتهم في الدنيا والآخرة. لأن الله تعالى منذ أهبط آدم وذريته في صلبه إلى عالم الأرض؛ تعهدهم سبحانه بالهدي بواسطة الرسل صلوات الله عليهم: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: يأتيكم مني هدى ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ الآية [طه: ١٢٣]. وما هذا الهدي الإلّهي إلا الرسالات النازلة على الرسل صلوات الله عليهم. ومهمة هذا الهدي سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: عن

هديي وتذكيري الذي جاءت به الرسل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا له معيشة ضيقة شديدة، فيها المقت والسخط، ويشمل هذا عالم القبر أيضاً ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ﴾ أي: هذا الكافر الجاحد ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى البصر ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: هذا هو الجزاء الحكم العدل ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ أي على ألسنة رسلنا في الدنيا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ـ١٢٦] أي: تترك في العذاب.

فلقد أتتك آياتنا على ألسنة رسلنا فتعاميت وأعرضت عنها، قال تعالى: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: ٧١] وكأنك لا رأيت ولا سمعت، فما دام أنك تعاميت عن آياتنا، وعن المعجزات التي جاءت بها الرسل، فجزاؤك اليوم أنك تَعمى وتصم، لأن الجزاء من جنس العمل.

وتمضي عليه فترة في عالم الحشر وهو أعمى، حتى إذا قَدم إلى العذاب وأُدخل جهنم فحينئذ قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أشد سمعهم وبصرهم، فقد أُعطوا قوة في السمع والبصر حتى يذوقوا شدة العذاب. ونسأل الله العافية.

ولقد كان كل رسول يُبعث إلى قومه خاصة دون غيرهم من الأمم، أي: يأتي إلى قوم معينين في بقعة معينة من الأرض. أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلقد أرسله الله تعالى رسولاً عاماً، لجميع أهل الأرض إلى يوم القيامة، ومِنْ هنا يَفهم العاقل أنه

صلى الله عليه وآله وسلم جاء بهدي فيه مصلحة وسعادة الأمم كلها، على مر العصور والدهور إلى يوم القيامة. ولو لم تكن رسالة وشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صالحة مصلحة لكل قوم وفي كل زمان، لأرسل الله بعده رسولاً بشرع جديد، والحال أنه لا رسول ولا نبي بعده صلى الله عليه وآله وسلم، فلا شريعة جديدة بعد شريعته صلى الله عليه وآله وسلم، إنّما شريعته هي الشريعة الباقية، المُصلحة لكل قوم، والمطورة لكل أمة؛ إنْ هُم تمسكوا بما فيها، وعملوا بمقتضاها.

وَلَمّا كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم شاملة عامة لكل الأمم، دل على أنها شملت رسالة كل رسول قبله، وزادت عليها كمالاً وهدياً، وهذا قوله تعالى بعد أن ذَكر جملة كبيرة من أنبيائه ورسله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وَهُدَاهم إنما هو من عند الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ [البقرة: ٣٧] ولم يقل سبحانه: فبهم اقتده، ولكن قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي: بهداهم الذي هداهم الله له. فقد جمع الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم هَدْي كل رسول قبله، وزاد عليهم بالهدي المحمدي الخاص.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم بدأ يهدي الناس بما أوحى الله إليه، وهداه إليه، وأمره بتبليغه للناس.

ولما ذكر الله تعالى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وعمومية شريعته قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

وبَيّن سبحانه أنّ كل رسول قبله جاء إلى قومه خاصة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦١] وهكذا.

فلما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً إلى جميع الناس إلى يوم القيامة، دل على أنّه جاء بمصالح جميع الناس، وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ويقول تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أي: لأهل زمنه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: ولأنذر به مَن بلغه هذا القرآن إلى يوم القيامة، وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته»[(١)] أي: فكأنما رآني واجتمع بي وبَلَّغْتُه الرسالة والدعوة.

ولقد قال بعض السلف رضي الله عنهم: كل مَنْ بلغه القرآن فكأنه عاين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أي: لأن القرآن إنما كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أردت أن تتعرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاقرأ القرآن.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٤).

* حاجة الناس إلى الرسل :

لقد أرسل الله تعالى رسله إلى الأمم كي يُصْلِحوا أمور الناس في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: من عندي أُنزله على رسولٍ من رُسلي يهدي الناس إليه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] أي: ينال سعادة الدنيا والآخرة.

وكل هدي لم ينزل من عند الله على رسوله فلا يعتبر هدياً، لأنه لا يعلم حاجة العباد ومصالحهم إلا مَنْ خلقهم قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وهو الله تعالى، فلذلك خلقهم ولم يتركهم في الجهل والفوضى، وإنما نَزّل عليهم هدياً وشريعة حتى يصلح أمورهم وتنتظم حياتهم، وينالوا سعادة الدنيا والآخرة، كما لو صنع إنسان مَصنعاً فإنه لا يتركه إلى غيره لينظم كيفية عمله ونظامه، بل يَضع المنهاج الذي يسير عليه والذي ينتظم به أمره.

فلا تظنن أن الذي خلقك وأبدعك، وجمّلك وكمّلك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وأبدع كل شيءٍ خلقه قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٨] فلا تظنن أنه سبحانه قد خلقك وأهملك، فلقد خلقك ثم هداك لِمَا فيه مصلحة وبقاء وجودك، وهذا هو الهدي العام ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: لما فيه بقاؤه ووجوده.

ثم هدى سبحانه الناس هدياً خاصاً بواسطة رسله، فدلوهم على كل خير، وحذروهم من كل شر، لينالوا سعادة الدنيا والآخرة، قال

تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد خلق سبحانه العوالم الدالة على وجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: لأنها آياتنا، ومظهر قدرتنا وعلمنا وحكمتنا، فإذا عاينوها فقد شاهدوا الله بقلوبهم ﴿فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن الله حق واجب الوجود. وإنّ أعظم الرسالات الإلٓهية وأجمعها لخير الدنيا والآخرة إنما هي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ مهمة كل رسول أن يدل أمته على كل خير، ويحذرهم من كل شر كما جاء في الحديث[١]: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جُعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تُنكرونها ـ أي: آخر الزمان من أشراط الساعة ـ وتجيء فتنة فيرفق بعضها بعضاً ـ أي: متتابعة ـ تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي؛ ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، ثم تنكشف، فَمَن أحب منكم أن يُزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيته ـ وفي رواية[٢] «موتته» ـ وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه».

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/١٩١)، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٨٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عند ابن ماجه في كتاب الفتن (٣٩٥٦).

فلقد دل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته على كل خير، وحذرهم من كل شر، فلا غنى للإنسان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه سبحانه أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكمل العالم، وليجملهم، ويسعدهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي بإرادته سبحانه وتمكينه لك ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥ـ ٤٦].

ولقد تضمنت هذه الآية جُملة عظيمة من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، ويجب على المؤمن أن يتفهم مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معه، حتى يقابل كل موقف بموقف منه، وإنّ الله تعالى سيسأله عن ذلك، ويحاسبه عن موقفه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به، قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: الأمم ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾؟ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧].

أما قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ أي: بالبشارة العامة لمن استجاب له صلى الله عليه وآله وسلم، وأما قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بالبشارة الخاصة لمن استجاب له، وعمل بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم.

فهناك البشارات العامة، وهناك البشارات الخاصة.

وأما قوله تعالى: ﴿شَـٰهِدًا﴾ يعني: شاهداً لله بالوحدانية، وأنه لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ أعظم شاهد، وأقوى شاهد وبرهان ودليل على أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا كانت السماء مثلاً شاهداً ودليلاً على وحدانية الله، وكذلك سائر العوالم بما فيها الإنسان، فهل أن شهادة ودلالة العوالم على الله أعظم أم شهادة ودلالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فلا شك أنّ دلالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وحدانية الله أعلى وأعظم من شهادتك ودلالتك، لأنّه قد ظهر فيه صلى الله عليه وآله وسلم من إبداع الله وكماله وإتقانه ما لم يظهر فيك أو في غيرك من العوالم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم بَيّنة الله الكبرى على العالم، وهو حُجة الله العظمى على العالم، لذا فإن أعظم بينة على ثبوت وحدانية ربّ العالمين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما اشتمل عليه من أخلاق وعلوم ومعارف، وكمال وجمال ومعجزات. كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم شاهد شهد بالإقرار والتوحيد لرب العالمين، فهو أعظم مَنْ شهد أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنت أيها المؤمن قلت وشهدت أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد قالها وشهد بها رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله

وسلم، فأيّ شهادة أعظم وأكبر؟ شهادتك أم شهادته صلى الله عليه وآله وسلم؟.

لا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم العوالم شهادة أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما شهادتك إلا ظِلٌّ تابع لشهادته صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يَعلم مِنْ خصائص الله له، وفضائله عليه ما لا تعلم أنت، فكانت شهادته أنه رسول الله أعظم من شهادتك له، لأنّ شهادتك متوقفة على حسب ما انتقل إليها علمك.

ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الصلاة[1]: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

وكثيراً[2] ما كان يقول إذا جرت المعجزات على يديه صلى الله عليه وآله وسلم: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله».

وكان يقول وراء كل صلاة[3]: «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا

---

(١) طرف من حديث التشهد، رواه البخاري في كتاب الأذان، باب التشهد في الأخيرة (٨٣١)، ومسلم في كتاب الصلاة (٤٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٣/١١ و ٤١٨).

(٣) كما في سنن أبي داود كتاب الصلاة (١٥٠٨) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه.

شهيد أن محمداً عبدك ورسولك» إلى تمام الحديث.

ولما كان هو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم شاهد لله بالوحدانية، وأعظم مَنْ شهد أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أعطاه الله مقام: أنّ الله سبحانه هو شهد له أنه رسول الله، شهادة كبرى فوق كل شهادة فقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: قل يا محمد للمنكرين الجاحدين: أي شيء من المخلوقات أكبر شهادة تثقون بشهادته، وهو أعظم وأجمع شهادة يشهد لي عليكم، ويقيم الحجة عليكم، فمن تتصورون وتريدون؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: لأنَّ شهادة الله أعظم من شهادة كل مخلوق.

والمعنى: إن أنتم أيها المنكرون تطالبونني بشهيد يشهد لي أني رسول الله فأنا أقول لكم: إن أكبر شاهد وأعظم شهيد يشهد لي أني رسول الله: هو الله تعالى.

فلقد شهد الله له في الكتب السماوية كلها، وفي الألواح القضائية القدرية، وعلى صفحات السماوات والأرض، وعلى زوايا العرش، وعلى أوراق الشجر، وعلى جميع ذرات الكائنات، شهد سبحانه أنّه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، وأعلن سبحانه شهادته بذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: شاهداً على الأمة لمن آمن بك، فتشهد له بالإيمان وبالأعمال الصالحة، فهو صلى الله عليه

وآله وسلم يَشهد على أمته لمن كان في زمنه، ولمن أتى بعده إلى يوم الدين. وهذا قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فهذه شهادة على عموم الأمة.

وفي هذا قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: (ما من يوم إلا وتعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته غدواً وعشياً، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم) ولذلك يشهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أمته يوم القيامة كما جاء في الآية السابقة.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم شاهد يشهد بالعدالة والتزكية لأتباعه الصادقين، وهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومعنى وسطاً: أي: ثقاتٍ عدولاً خياراً، حتى تُقبل شهادتكم على غيركم، وقد جاء بيان هذه الآية على لسان صاحب البيان عن القرآن الذي قال الله تعالى له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]:

فقد روى أحمد(١) وغيره(٢)، وأصله في الصحيح(٣)، عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي

---

(١) المسند (٣/٥٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ينظر سنن ابن ماجه (٤٢٨٤) وعزاه في الدر المنثور إلى سعيد بن منصور، والبيهقي في البعث والنشور.

(٣) عند البخاري في التفسير باب /١٣/ (٤٤٨٧).

ومعه الثلاثة؛ وأكثر من ذلك ـ أي: على حسب أتباع كل نبي ـ، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا ـ أي: الكفار ـ فيقال له: هل بَلّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: مَنْ يشهد لك؟!. فيقول: محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأمته. فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟!! فيقولون: نعم».

فتشهد هذه الأمة: أي: أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحق، قال تعالى: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] فيشهدون أن الأنبياء قد بلغوا أممهم «فيقال: وما علمكم؟» أي: إنكم جئتم في الزمن المتأخر، ولم تكونوا في زمن الأمم السابقة حتى تروا أنهم قد بلغوا، وقد بلغتهم رسلهم، فكيف تشهدون على أمر لم تعاينوه؟!!. «فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه» فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣]. كما في الحديث.

ومعنى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: يزكيكم ويعدلكم حتى تُقبل شهادتكم عند رب العالمين.

وفي هذا بيان وتنبيه إلى أنّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجب أن يكون أقوى من رؤيا العيان، ولذلك فإنّ الشهادة عن الإيمان بالقرآن وما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقوى، لأنّ العيان والسمع والبصر قد يُخطئ، وأما خبر الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يخطئ أبداً، فكيف تتجرأ في البحث في تخطئته صلى الله عليه وآله وسلم وأنت مُكلف ومطالب أن

تُؤمن بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم إيماناً كاملاً، مع التسليم والانقياد له صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!.

وإنّ شأن المؤمن أن يَثق بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقوى مِنْ موثوقاته المتوقفة على سمعه وبصره وعقله، وما هذه الثقة إلا حقيقة الإيمان. ولذلك شهد أهل الإيمان بما هو أعلى من رؤية العيان، وقُبِلَتْ شهاداتهم عند رب العالمين.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ المحاضرة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقدم الكلام على أنّ منصب الرسالة هو منصب عال شريف فوق كل المقامات، ولهذا بيّن سبحانه أن الرسالة إنما هي فضل خاص من الله تعالى، يضعه في المكان اللائق به، كما هو أعلم سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: إنهم ادَّعوا بأنهم لا يؤمنون بآيات الله حتى يُعطيهم الله مثل ما أعطى الرسل، وهي الرسالة الإلّهية، والوحي الإلّهي الخاص. فبيّن سبحانه أنّ الرسالة ليست أمراً سهلاً، وليست مقاماً هيناً، وإنما هي منصب كبير عال لا يليق بكل إنسان، وليس في استعداد كل إنسان أن يتقبل تلك الرسالة؛ إلا إنساناً خصه الله تعالى بخصائص وكمالات، وأعده وحده بالقابلية والاستعداد، واصطنعه الله لنفسه اصطناعاً خاصاً، وتربّى على عناية الله تعالى بعين الله، حتى يصير أهلاً لتقبل الرسالة ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾.

ثم بيّن سبحانه أنّ منصب الرسالة منصب كبير، له فضله وشأنه عند الله تعالى، وعند خلق الله تعالى، وأن أعظم ما امتدحت به الرسل مقام الرسالة، لأنّ مقام الرسالة فوق المقامات كلها، ومع ذلك فإنّ مقامات الرسل تتفاوت في الفضل فيما بينها، كما قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وإن أفضل الرسالات وأفضل الرسل إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، فلقد أثنى سبحانه على رسله، وبَيَّن فضلهم ومقامهم، وبَيَّن وصفهم بالنبوة، وأنهم أنبياء، وأن لهم أعمالاً صالحة، وذكر من مقاماتهم ما ذكر، لكنه ذكر لهم أعلى مقام في الفضل وهو الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] فمدحه بأنه رسول الله. وأنت تعلم أنك إن أردت أن تمدح عظيماً له عدة مكارم وفضائل؛ فإنك تمدحه بأعظم وصف وأكرم مقام، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا﴾ أي: ومقام الرسالة فوق المقامات كلها ﴿نَّبِيًّا﴾.

وهكذا سائر الرسل، فلقد أثنى عليهم سبحانه بأنهم رسل الله، أي: وكفى بهذا شرفاً ومقاماً فوق كل مقام.

ولَمّا مدح سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وصفه بالرسالة، وبأنه خاتم النبيين، مما يدل على أنّ منصب الرسالة لرسول الله انطوت فيه المراتب كلها، وهذا قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ الآية [الفتح: ٢٨-٢٩].

والمعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالهدي العام لمصالح الدنيا وسعادة الآخرة، إلى جميع الناس، على مر الأيام إلى يوم القيامة. فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع من الهدي العام، وإنّ الإنسان بلا هداية يكون ضالاً، ولا غنى للإنسان عن الهداة في كل الشؤونات، فإذا أردت أن تشتري شيئاً ولا تعرف أين يباع فكيف تهتدي إليه؟ إنك تهتدي إليه بسؤالك عنه في أيّ مكان يباع.

وكذلك إذا أردت السفر إلى بلدة ولا تعرف الطريق الموصل إليها، فلابد لك أن تسأل مَنْ له علم وخبرة بذلك، حتى يهديك إلى طريقها.

ومِنْ هذا يتبين لك أنّه لابد لك من الهداية في جميع أمورك؛ وإلا كنت ضالاً.

وإذا كان هذا في أمور الدنيا فمن باب أولى في أمور الآخرة، فلقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهدي العام لمصالح وسعادة الدنيا والآخرة، وهذا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ودين الحق المشتمل على العقائد الحقة، والأعمال الصالحة، والأقوال الصحيحة الطيبة، والمعاملة الصحيحة، والخُلُق العظيم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فلقد امتدحه سبحانه بأعلى مقاماته وأشرفها وهي قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ مما يدل على أنّ منصب الرسالة منصب شريف كبير.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إن صفة الذين اتبعوه وهم حقاً معه: أنهم غلاظ على الكفار، ورحماء فيما بينهم؛ كرحمة الأب على ولده، كما ورد في الحديث[1].

أما حالهم مع الله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: إنك أيها الرائي والناظر إليهم تراهم دائماً ما بين ركوع وسجود، لكثرة تعبداتهم وصلواتهم.

فإن قيل: أين هم من الدنيا وأعمالها إذا كانوا دائماً في صلاة وعبادة لله تعالى؟!

فيقال: لقد أخذوا حظهم من الدنيا ولم ينسوا، واكتفوا منها بما يسد حاجتهم وأمور دنياهم، ومع هذا فَلم تشغلهم الدنيا عن ذكر الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخوف والخشية من الله تعالى.

ثم شهد سبحانه لهم بالإخلاص في طاعتهم، فَبَيّن أنّ مقصودهم وغايتهم من ذلك ابتغاء فضل الله ورضوانه قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون فضلاً من الله تعالى يتفضل به عليهم في الدنيا ـ بأن يزيدهم إيماناً وتوفيقاً للعمل الصالح، وأن

---

(١) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير ابن جرير، والدر المنثور.

يرفع مقامهم، ويرقى بهم في مراتب القرب ـ وفضلاً في البرازخ، وفضلاً في الجنة، وأعظم فضل أنه يتجلى عليهم بالرؤية سبحانه وتعالى، كما أنهم يبتغون رضوانه سبحانه بأن يرضى عليهم رضاً لا سخط بعده أبداً، وهذا من أسمى الغايات، وأجل النهايات، وهي: أن يرضى الله عن عبده رضواناً لا سخط بعده، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من نعيم الجنة وأعظم.

وفي الصحيح[1]، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك.

فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك؟

فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك.

قالوا: يا رب وأيّ شيء أفضل من ذلك؟!.

فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»

فلقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعطاهم حتى أرضاهم، ورضي عنهم رضاً لا سخط بعده.

ولقد أرضوه فرضي عنهم سبحانه، وَمَنْ رضي عنك منحك كل خير يستطيعه، فكيف برضا رب العالمين الذي لا يُعجزه شيء، والذي عنده خزائن كل خير.

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٩).

فلما رضي سبحانه عن أهل الجنة رضاً لا سخط بعده أبداً أتحفهم، وأعطاهم من النعيم: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وعلى هذا: فلما مدح سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: الجامع للرسالات كلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] أي: وكان الله سبحانه حيث لا زمان ولا مكان، وحيث لا يُسأل عنه بمتى، بل كان في أزل الأزل بل حيث لا أزل ولا أبد: هو بكل شيء عليم، وهو عليم بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله، الذي فيه القابلية التامة والاستعداد التام أن يكون رسولاً عاماً، وأن يكون خاتم النبيين، فلقد خصه الله تعالى بختم الرسالة والنبوة دون غيره من الرسل والأنبياء، لما فيه من أهلية وقابلية واستعداد لذلك صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا راجع إلى علمه سبحانه الذي لا أول له، وحكمته بأنه لا يليق لختم النبوة وإعطاء الرسالة الجامعة إلا سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تقدم بيان أنه صلى الله عليه وآله وسلم فاتح النبوات، وجامع النبوات، وخاتم الأنبياء والمرسلين. كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»(١) وذلك في عالم الأرواح قبل خلق الأجساد، فإنّ أول رُوح خلقها الله تعالى هي روح

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٢١).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبأه في ذلك العالم قبل أن يخلق أرواح الأنبياء والمرسلين، والحال أنّ آدم عليه السلام لم يكن روحاً ولا جسداً، بل كان أمر الله يدور في تكوين روحه وجسده، وهذا معنى أنّه أول خلق الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم جامع النبوات كلها، والرسالات كلها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَۗ﴾ أي: جُمعت له النبوات كلها حتى خُتمت به صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يقال عن الشيء: ختمته. أي: بعد أن امتلأ واستوعب كماله وتمامه حتى ختمته ـ فلقد كَمُل به صلى الله عليه وآله وسلم بيت النبوة وجَمُلَ وتَمَّ، فهو جمال الأنبياء وكمالهم.

كما جاء في الصحيح[1]: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي: كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هَلاَّ وضعت هذه اللبنة».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأنا اللَّبنة وأنا خاتمُ النبيين».

فبه صلى الله عليه وآله وسلم كَملت مراتب النبوات، واجتمعت له صلى الله عليه وآله وسلم، وختمت به صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بَيَّن[2] صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا نبي بعده فقال: «وأنا

---

(١) عند البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو داود في أول كتاب الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي آخر كتاب الفتن (٢٢٢٠) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

خاتم الأنبياء ولا نبي بعدي».

وروى مسلم[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما مرِض مَرَض الوفاة، أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلي بالناس، فكشف صلى الله عليه وآله وسلم الستر يوماً؛ ورأسه معصوب صلى الله عليه وآله وسلم فنادى: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له.

ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً ـ أي: لا تقرأ القرآن إلا في القيام دون الركوع أو السجود ـ فأما الركوع فعظموا فيه الربَّ عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فَقَمِن ـ حقيق وجدير ـ أن يستجاب لكم».

ثم إن مقام الرسالة مقام كبير، لما فيه من المسؤولية إذ إن الله تعالى سيسأل كل رسول عن مهام رسالته، وهل أداها وبلغها كما أمره الله تعالى. وسيسأل الله تعالى كل أمة عن موقفها مع رسولها، وهذا قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: وهم الأمم ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فلقد أرسل الله تعالى إلى هذه الأمة سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وسيسأل سبحانه كل فرد من هذه الأمة عن موقفه مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) في كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع (٤٧٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

وأول ما يبدأ هذا السؤال عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عالم القبر فيقال: ما تقول في هذا الرجل؟ ـ أي: في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثم هناك السؤال في برازخ الآخرة.

أما سؤاله سبحانه للرسل فيسألهم هل بلّغوا أممهم بلاغاً تاماً كاملاً؟، ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يقول بعدما يُبلغ الناس ويخطب فيهم؛ ومن ذلك يوم حجة الوداع، فقال بعد البيان الكافي: «أيها الناس إنكم مسؤولون فما أنتم قائلون»؟.

قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت ـ ومعنى النصح أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك خيراً إلا دل عليه، ولم يترك شراً إلا حذر منه ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اشهد» الحديث[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده[2]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا وإن ربي عز وجل دَاعِيَّ ـ أي: يوم القيامة ـ وإنه سائلي هل بلغت عبادي؟ ـ أي: البلاغ الكافي لأول الأمة وآخرها ـ وإني قائل: رب إني قد بلغتهم».

«ثم إنكم مدعُوُّونَ مُفَدَّمة أفواهكم بالفدام» أي: مكممة أفواهكم، ولا تستطيعون الكلام باللسان.

---

(١) كما في السنن الكبرى للإمام النسائي (٤٢٢/٢) حديث رقم (٤٠٠١). وينظر في مجمع الزوائد (١٦٤/٩) والكنز (١٨٨/١) معزواً فيهما للطبراني.

(٢) (٥/٥) عن سيدنا معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه.

«ثم إن أوّلَ ما يُبِيْنُ عن أحدكم لفخذه وكفه» أي: أطرافه فتكون أول مَنْ تشهد عليه يوم القيامة، ثم ينطلق اللسان بالكلام. وهذا لأن اللسان قد لا يحكي الحقيقة، سيما إذا كان صاحبه منافقاً أو كافراً؛ وقد بلغته الدعوة ولكنه ينكر.

وجاء في أول خطبة[1] له صلى الله عليه وآله وسلم خطبها في المدينة بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: «أيها الناس قَدِّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنَّ والله ليصعقن أحدكم ـ أي: بالموت ـ ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ـ أي: يوم يَجمعه في المحشر ـ ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، أَلَم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك»؟.

ومن قال: أنا لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فيقال: لقد قامت الحجة عليك، ولا عذر لك عند الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ بلغه القرآن فكأنما شافهته» الحديث.

وأنت ترى أنّ القرآن يُذاع وينشر في كل مكان؛ حتى في بلاد الكفار. فلا تجعل إعراضك عنه عذراً لك عند الله تعالى.

ومِنْ هنا تَفهم أَنّ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تنقطع، ونبوته لم تنقطع، فهو رسول لأهل زمنه ولأهل كل زمن إلى

---

(١) كما في دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٢٤) عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

يوم القيامة. فهو رسول الله ونبيه إلى يوم القيامة، ودعوته قائمة إلى يوم القيامة، فماذا يجب عليك أن تقول في الإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم؟ نعم. يجب عليك أن تقول: وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أي: الآن الآن هو رسول الله، لا أنه كان رسولاً وانقضت رسالته، بل هو متصف بالرسالة والنبوة أبداً، فهو رسول الله، ورسالته لا تنفك عنه ولا ينفك عنها أبد الآبدين.

ولذلك فهو رسول الرسل، ونبي الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إن الإيمان به أمر كُلِّفت به جميع الرسل وأممها، وإنْ هم أدركوه وجب عليهم اتباعه ومصاحبته، ولو أنّ أحداً من الأمم ما آمن برسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لم يؤمن برسوله وكتابه النازل عليه، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم مذكور في كتبهم كلِّها، ومُخْبَرٌ عنه وعن مقامه وفضله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: أنهم إذا قرؤوا وصفه في التوراة والإنجيل وجدوه كأنهم عاينوه بأعينهم، لأن صفاته صلى الله عليه وآله وسلم موجودة في التوراة والإنجيل، ولكنهم مِنْ شدة ظلمهم بَدَّلوا وغيَّروا وحرَّفوا.

وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله العام إلى جميع الأنام، على مر الزمان، إلى يوم القيامة.

ولقد كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم متضمنة لعدة مواقف، تتوقف عليها سعادة الدنيا والآخرة، فما على المؤمن إلا أَنْ يَعترف ويبحث في ذلك، حتى يكون إيمانه صحيحاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحتى يفهم منهاجه، ويتبع شريعته فيفوز بسعادة الدارين.

فَمِنْ مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: أنه جاء مُذكراً وواعظاً، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يُنور القلوب والعقول والأشباح والأرواح، وجاء رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ المحاضرة الثالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد تقدم الكلام على شيء من خصائص الرسل صلوات الله عليهم، وأنّ منصب الرسالة منصب شريف كبير، يختص الله به مِنْ عباده مَنْ سَبق علمه وحكمته بلياقته واستعداده لذلك. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فالرسل صلوات الله عليهم هم خيرة معادن خلق الله تعالى كلهم، لأنّ الناس معادن كما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١) أي: ليس الناس كلهم على معدن واحد، بل هم مختلفون في المعادن، منهم مَنْ معدنه ذهب، ومنهم من

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

معدنه فضة، ومنهم من معدنه ذهب خالص إبريز، ومنهم من ذهب ولكن الذهب على معايير مختلفة، ومنهم من معدنه فضة والفضة على أنواع، وهناك معادن النحاس والرصاص والقصدير والحديد إلى آخر ذلك.

كما أنّ الأرواح جنود مجندة، جندها الله تعالى في عالم الأرواح قبل عالم الأشباح، فهناك اجتمعت وتجمعت أرواح الأنبياء مع أرواح الأنبياء، وأرواح الأولياء تجندت مع أرواح الأولياء، وهكذا أرواح الأبرار مع الأبرار، وأرواح الأشرار مع الأشرار، فما تعارف منها في ذلك العالم ائتلف في عالم الدنيا، وما تناكر منها هناك اختلف هنا في الدنيا.

وهذا وإن كان الناس كلهم قد خُلقوا من تراب الأرض، إلا أَنهم معادن، إذ إن تربة الأرض مختلفة، ومعادنها متعددة. فخير المعادن البشرية، وأفضل المعادن البشرية إنما هُم رسل الله صلوات الله عليهم، وخير معادن الرسل الإلّهية، وخير معادن أنبياء الله أجمعين، إنما هو مَعدن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: الكفار ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ اللهم إنا نسألك من فضلك: التوفيق لاتباع رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤] أي: إن الرسالة أمرها عظيم، وشرفها كبير لا يتحملها كل معدن من معادن البشر، وإنما لها

معدن خاص له قيمته وشرفه، وهذا هو معدن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يَضعها سبحانه وتعالى إلا في المعدن القابل المستعد لها، وإنّ أعظم قابل ومستعد، وأفضل معدن خلقه الله تعالى، إنما هو معدن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي(1)، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال لي جبريل عليه السلام: قَلَّبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أرَ فيها بني أب أفضل من بني هاشم» أي: من حيث النسب، فإن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنساب على الإطلاق، ولقد اصطفاه الله تعالى وانتقاه من خلاصة الخلاصات، وصفوة الصفوات كلها، حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بُعثتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»(2) أي: بعثني الله تعالى وانتقاني واصطفاني واختارني من خلاصة كل قرن، من لدن آدم إلى يوم الدين؛ فكان صلى الله عليه وآله وسلم صفة الصفوات، وخلاصة الخلاصات، وإنّ معدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أنفس المعادن وأفضلها.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] أي: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله

---

(١) في دلائل النبوة (١/١٧٦) وينظر في مجمع الزوائد (٨/٢١٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وسلم: هلا نزل هذا القرآن الذي تقول إنه نزل عليك ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فَلِمَ نزل عليك وأنت يتيم الأبوين من صغرك، ولم ينزل على رجل ذو ملك ووجاهة ومال؟! ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: مكة والطائف. وظنوا أنّ عِظَم المال والجاه في الدنيا هو المعتبر عند رب العالمين، ولكنهم أخطؤوا في هذا النظر، إذ ليس الرجل العظيم هو عظيم المال، وإنما الرجل العظيم هو العظيم الحال، وعظيم النفس والقلب والخُلُق والعقل والفهم، ومِنْ هنا تفهم أن الرجل العظيم على الحقيقة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال جل جلاله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] فهو صلى الله عليه وآله وسلم عظيم في عقله وعلمه، وشجاعته، وفهمه وذكائه، وسخائه، وسائر سجاياه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا قال الله تعالى في الرد عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: إن الرسالة الإلٰهية إنما هي رحمة ربانية لعباده، فإذا أرسل الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم فقد رحم العالم، فَهَلِ الأمر مَوْكول إليهم حتى يتحكموا فيها، ويُعَيِّنُوا مَنْ تَتنزل عليه؟!!!. فليس الأمر لهم، وإنما هو موكول إلى علم الله تعالى، وحكمة الله تعالى، ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فلو كان غير سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيه

الاستعداد والقابلية لنزلت عليه، ولكن الأمر ليس كذلك، فلا يستعد أحد ولا تستعد هي إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو أهل أن تَنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن في قوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنّ الرسالات الإلٓهية إلى العوالم، إنّما هي رحمات من الله لعباده، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لجميع العالمين، في جميع العالمين، في الدنيا والبرزخ والحشر وهكذا.

وإن مقام الرسالة مَقام كبير عظيم، تنطوي فيه سائر المقامات والفضائل، ولذلك لما مَدح الله تعالى رُسله وَصَفهم بالرسالة، كما في قوله جل جلاله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

ولما مدح الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وكفى بهذا شرفاً وفضلاً وعلواً.

وإن أول ما يجب أن تفهمه مِنْ كلمة ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أن لا تقيسه بالناس، وأن ترفع مستواه فوق مستوى الناس، لأنه رسول الله، ينطق عن الله تعالى، وذلك لِمَا تقدم أنّ الرسالة الإلهية سفارة بين الحق والخلق. أي: وساطة بين الحق والخلق ـ والسفير هو المعبر عَمَّنْ سَفَّره عن دولته ـ فرسول الله هو السفير المعبر الناطق عن الله جل جلاله، فلا ينطق عن هواه ولا عن نفسه، بل إن نطقه وكلامه وأمره

ونهيه وفعله كل ذلك عن وحي من الله تعالى، لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ـ٤] أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن هواه ونفسه، بل هو بوحي من الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى يُلقنه المنطق والكلام، فيتكلم وينطق عن ربِّ العالمين.

وعلى هذا فإنّ معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي: ما ينطق صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن عن الهوى، إنما عن رب العالمين، وهو الوحي القرآني النازل عليه، وما ينطق بحديثه النبوي عن الهوى، إنما هو عن الوحي النبوي، لأن الوحي على مراتب.

ومما يدل على أنّ أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم كلها إنّما هي عن وحي من رب العالمين، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يشفعُ عثمان بن عفان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر» أي: في عدد كبير من بني آدم على عدد قبيلة ربيعة ومضر.

فقال رجل: وما ربيعة من مضر؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أقول ما أُقَوَّل»[1] أي: أنا لا أتكلم عن نفسي، إنما أنطق عن الله تعالى، وما يُنطقني الله ويُقولُني به فأنا أنطق به وأقوله.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة باب /١٣/ (٢٤٤١). وينظر مسند الإمام أحمد (٥/٢٥٧) ولفظه عنده: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحَيَّيْنِ ربيعة ومضر» إلخ.

ولما صعد المنبر مرة عليه الصلاة والسلام قال: «إنّ مما أخاف عليكم مِنْ بعدي ما يُفتح عليكم مِنْ زهرة الدنيا وزينتها».

فقام رجل فقال: يا رسول الله أوَ يأتي الخير بالشر؟. أي: إن مال الدنيا خير، فهل يأتي هذا الخير بِشر، حتى تخاف علينا يا رسول الله إذا فتحت علينا الدنيا وأموالها؟

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، راوي الحديث ـ وهو حديث متفق عليه[1] ـ: فرأينا أن الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذلك لما يعرفونه من حالة نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم، من أنه لا يكلمهم ولا يكلمونه، ويحمر وجهه صلى الله عليه وآله وسلم ويشتد عرقه ـ ثم أفاق صلى الله عليه وآله وسلم فَمسح عنه الرُّحضاء ـ أي: العرق ـ ثم قال: «أين السائل»؟ وكأنه حَمِدَه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه لا يأتي الخير بالشر» أي: إن حقيقة الخير لا تولد شراً لاختلاف بينهما «وإنَّ مما يُنبت الربيع يقتل أو يُلِمُّ» يعني: إن الخير إذا كان خيراً مجرداً فالاستكثار منه لا يأتي بشر، ولكن سوء التصرف بالخير يجلب على صاحبه الشر، وضرب لذلك صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بعشب الربيع إذا أعشب وأخصب، ولبست الأرض حللاً سندسية خضراء، ورعت فيها المواشي وأكلت، فمنها من تأكل حتى تبشم وتموت، وهناك مَنْ تأكل حتى إذا امتلأت استقبلت عين الشمس فأصابتها

---

(١) البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٤٦٥)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب /٤١/ (١٠٥٢).

حرارتها فثلطت، وأخرجت ما أكلت ثم رجعت ورتعت ـ أي: عادت إلى المرعى والأكل ـ، فهنا كان عشب الربيع خيراً للمراعي، ولكن إذا أكلت البهيمة فوق طاقتها واستحقاقها حتى قتلت نفسها فلا يقال: إن العشب أماتها، لأنه محض خير، ولكن سوء التصرف منها، وأخذها فوق طاقتها هو الذي قضى عليها، بدليل أنّ هناك مَن أكلت وما ماتت، وإنما أخذت وشبعت ثم استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رجعت ورتعت.

فَبَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أن مال الدنيا الذي هو من طريقٍ حلال هو خير، ولكن الشر لا ينشأ عنه إلا بسوء تصرف صاحبه، كما لو انهمك الإنسان في الدنيا وأموالها حتى ينسى الله تعالى والدار الآخرة فيهلك.

فيقال له: إن سوء تصرفك وانغماسك فيها، وتحملك فوق طاقتك هو الذي أضر بك، ولو أخذت منها ما يكفيك، بحيث لا تُضيع أمر دينك لَمَا أضرك مال الدنيا. فَسُوء التصرف هو الذي عاد عليك بالشر.

ومن هذا الحديث تَفْهم أنّ الله تعالى هو الذي يُلقن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجواب والحجة، ولا ينطق عن نفسه بل عن ربه، فما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وهكذا ما ورد في مسند أحمد، وأبي داود، والمستدرك [(١)]،

---

(١) المسند (٢/١٦٢و١٩٢)، وسنن أبي داود في أول كتاب العلم (٣٦٤٦)، والمستدرك (١/١٠٦).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لي بعض قريش: كيف تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله بشر يتكلم في الرضا والغضب؟ ـ أي: ظناً منهم أن رسول الله كغيره قد يتكلم في حال الغضب بكلام غير صحيح ـ.

فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكرت له ما قال بعض قريش. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اكتب؛ فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه ـ وأشار إلى فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلا حق» أي: إن كلامه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الأمور والحالات إنما هو كلام مستقيم مُحْكَمٌ، لا خطأ فيه ولا عبث ولا لغو، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم بعصمة الله تعالى له عن الخطأ والخطيئة، وفي هذا بيان لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

ولقد بين سبحانه أن كلام رسله لا يكون إلا بالوحي، ولكن أعظمهم مقاماً وتولية في هذا وغيره إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. والمعنى: لَعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود، وعلى لسان عيسى، فلقد قال داود عنهم: لعنهم الله، وكذلك قال عيسى عليه السلام، إلا أن هذا اللعن ليس من نفس وذات داود أو عيسى عليهما السلام، وإنّما لَعناهم لأن الله تعالى

أنطقهما بذلك؛ وهذا يعني أنّ لسان داود وعيسى إنما ينطق عن رب العالمين، وهذا مِنْ علو مقام الرسالة، وهو أن ألسنة المرسلين تنطق عن رب العالمين، وأن قلوبهم وعقولهم تتوجه بتوجيه رب العالمين، وأن قُواهم ومداركهم تسير على تسيير رب العالمين لهم، وأن أمورهم وشؤوناتهم إنما هي بتولية خاصة من رب العالمين.

وأعظم مقام في ذلك هو مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] فكان رضا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عَمّن رضي عنه إنما هو عن رب العالمين، ولعنته مَنْ لَعَن إنما هي عن رب العالمين، وغضبه عَمَّن غضب عليه هو عن رب العالمين، وكل كلامه ونطقه عن رب العالمين. ومن هنا تفهم أيها العاقل شرف منصب الرسالة، وأن مقام الرسالة مقام مَن أخذ الله بكليته، وتولاه بكليته تَوَلِّياً ذاتياً من لدنه سبحانه وتعالى، فلا تَقِس رسول الله على الناس، وإلا كنت أحمق الناس، بل لا تقس سائر رسل الله على الناس، لأنّ الله اصطنعهم لنفسه اصطناعاً خاصاً، في أجسادهم وعقولهم، وأفكارهم وأرواحهم، وكلامهم وسائر مداركهم، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] وقال تعالى في المخلوقات: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٨] ولم يقل تعالى: صنعتك لنفسي بل قال جل جلاله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ لما فيه من الإتقان والإبداع والإحكام ما ليس في غيره، وكذلك سائر الرسل صلوات الله

عليهم، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ولما كان اصطناع الله لرسله اصطناعاً خاصاً دون سائر الناس، لذلك خصهم بأحكام دون سائر الناس، والله تعالى يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فلقد خلق الرسل خلقاً خاصاً، فخصهم بأحكام دون غيرهم، من أوامر ومناهي، وأمور أباحها لهم وحرمها على غيرهم، لأنّ فيهم خصائص لا توجد في غيرهم.

ويجب على الإنسان أنْ يفهم ويعلم أنّ الله تعالى قد أرسل رَسوله إلى العالم لحكمة كبيرة، وله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، ولما كان الأمر كذلك كان هو صلى الله عليه وآله وسلم مسؤولاً عنك، وأنت مسؤول عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأمم عن مواقفها مع رسلها ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أي: ومواقفهم مع أممهم.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم مَسؤول عن الأمة، والأمة مسؤولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا شَكّ أنه صلى الله عليه وآله وسلم قَد بَلّغ الرسالة على أكمل الوجوه، وأدى الأمانة، ونصح الأمة. أما موقف الإنسان مع ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم فهذا يترتب عليه إما السعادة وإما الشقاء. ونسأل الله العافية.

وهكذا فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: إننا نُخبر الأمم، ونبين لهم ما فعلوه في الدنيا، فنقول لكل منهم: أنت عَمِلْتَ كذا يوم كذا، وكأن العبد يقول: وهل يا رب كنت معي حتى رأيتني في عملي؟، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: كُنْتُ معك ولم أكن غائباً عنك أبداً، وها أنا أُخبرك عما فَعلتَ بعلم مني، وشهود مني عليك.

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المجادلة:٧] أي: يخبرهم بأعمالهم عن علم وشهود منه سبحانه.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] أي: كنا شهوداً عليكم حين تُباشرون ذلك العمل.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

ويجب على الإنسان العاقل أنْ يلاحظ هذا، ويراقب مُشاهدة الله له، وأنه سبحانه وتعالى بَصير به وبأعماله؛ حتى يحمله ذلك على الحياء من ربه، فلا يَجِدْه حيث نهاه.

وَمِنْ هنا قال بعض المريدين لشيخه: أوصني.

فقال له: إذا أردت أن تعصي الله تعالى فاعصه حيث لا يراك.

لأنك إذا عصيته على مرأى منه سبحانه وتعالى فما أقل حياءك منه، وما أقبح فعلك عندئذ، وإن كنت لابد عاصياً له فاعصه حيث لا يراك، وأنى هذا يكون؟!! إذ هو سبحانه وتعالى معك أينما كنت، ويراك حيثما كنت، فاستح منه واحذر مخالفته.

وهو سبحانه يرى البعيد والقريب بنسبة واحدة، وعلى حد سواء، ولا فرق في القرب والبعد، والكبر والصغر في رؤياه سبحانه، فهو سبحانه يرى العرش وعظمته، ويرى الحبة الصغيرة في تخوم الأرض، وكل ذلك عنده سواء، وعلى حَدٍّ واحد، لأنه سبحانه وتعالى بصير بالبصر الذي لا يتناهى.

وإن نسبة المتناهي مهما تعاظم بالنسبة إلى ما لا يتناهى إنما هي على حد واحد.

ولقد أرشد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أعظم الأسباب التي تمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي والمخالفات، وهي مراقبة الله تعالى، وأنْ يعلم الإنسان أن الله تعالى بصير به، مشاهد له على جميع الأحوال، فقد قال رجل: يا رسول الله وما تزكية العبد نفسه؟ أي: ما طريقة تزكية النفس وتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يعلم أن الله معه حَيْثُ كان» الحديث(١).

---

(١) طرف من حديث أورده ابن كثير في أول تفسير سورة الحديد وعزاه لأبي نعيم، وهو عند البيهقي في السنن الكبرى (٤/٩٦) عن سيدنا عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أفضل الإيمان ـ أي: أفضل مراتب الإيمان ـ أنْ تعلم أن الله تعالى معك حيثما كنت»[1].

أما سؤال الرسل: فسَيُسْأل صلى الله عليه وآله وسلم: هل بلغت؟

والمراد من ذلك بلاغات المواقف كلها التي أرسله الله تعالى بها، والتي من جملتها أنه جاء هادياً ومزكياً للنفوس، ومعلماً ومذكراً وواعظاً، وداعياً إلى الله بإذنه، وإماماً يُقتدى به، وهكذا سائر مواقفه ومهامِّه مع العالم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد أدى صلى الله عليه وآله وسلم مواقفه حقها، وبلغها على أكمل الوجوه، فلقد ذَكَّر فهل كنت ممن تذكر بتذكيره؟.

ولقد وعظ صلى الله عليه وآله وسلم وبلّغ الوعظ، فهل كنت مِمّن اتعظ بمواعظه صلى الله عليه وآله وسلم؟.

ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزكي النفوس فهل تزكيت بتزكيته صلى الله عليه وآله وسلم؟.

وهل اهتديت بهديه صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء به بسعادة الدنيا والآخرة؟.

وقد جاء يُعلم الكتاب ـ أي: معاني آيات الله تعالى ـ فهل كنت مِمّن تَعلّم أم أعرضت؟.

وهكذا في سائر مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والكبير كما في مجمع الزوائد (١/ ٦٠) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ولقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم إماماً أكبر وأعظم، فهل اقتديت به واتبعته، وعملت والتزمت اتباعه؟، أم أنك تتبعه في أمور وتعدل عنه إلى هوى نفسك فيما تحب؟!!. وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ولقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم خطورة المسؤولية، وأنّ كل مكلف له موقف مع ربه يسأله الله سبحانه وتعالى عن هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وموقفه معه، لأنّ لكل مؤمن ارتباطاً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وله معه عهود ومواثيق، كما تقول: إن للأب مواقفاً مع ابنه وهي: الحنان والتربية والتوجيه والإنفاق وغيرها، وللولد مواقفاً مع أبيه وهي: السمع والطاعة والأدب والاحترام والاتباع.

وإن الارتباط بين المؤمن ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم من ارتباطات الأب بابنه، أو الولد بأبيه؛ وأمره أخطر وأكبر، ومن هنا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربي داعِيَّ ـ أي: يوم القيامة ـ وإنه سائلي هل بلغت عبادي؟ وإني قائل: رَبِّ إني قد بلغتُ، وإنّكم تأتون مُفَدَّمة أفواهكم بالفِدام»[١] أي: مكممة مختوم عليها، وإنّ حقيقة الإنسان تنطق بما فيه، حتى يُبِيْنَ عنه فخذه وكفه، ويشهد عليه جسمه وجوارحه.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٤٧).

وفي الصحيح[1] قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: أَلَمْ أبعث إليك رسولاً فبلغك»؟ أي: فماذا كان موقفك مِنْ هذه الرسالة المحمدية، وماذا عملت ببلاغاته صلى الله عليه وآله وسلم؟.

ولقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم ببلاغات وبيانات كبرى، تتضمن أمور العقيدة، والأعمال، ومراتب الإحسان، والآداب والأخلاق العالية، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2] وقال: «والحياء شعبة من الإيمان»[3] مع أنّ الحياء خُلق يُتخلق به، لكنه تنشأ عنه أعمال وأقوال يتحقق بها المؤمن.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم شديد الحياء، لأنه كان عظيم الإيمان كما ورد: «أنه أشد حياء من العذراء في خدرها»[4].

وعلى هذا فإذا علمت أنك مسؤول عن مواقفك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبلاغاته وإرشاداته، ووعظه وتذكيره، وجميع ما جاء به، فاتق الله في ذلك، ولتكن مِمّن استجابوا لدعوة

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥) عن سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الإيمان (٩)، ومسلم (٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧٩) والبخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ /٣٥٦٢/ ومسلم في كتاب الفضائل، باب كثرة صيامه ﷺ /٢٣٢٠/ عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واهتدوا بهداه، وتذكروا بتذكيره، واتعظوا بوعظه، وتَزَكَّوْا بتزكيته، وأَعِدَّ نفسك لسؤال الله لك حين يَسألك وليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم عنك، بل تُكلمه سبحانه كفاحاً ـ وهذا أقوى في مقام السؤال، وأشد وقعاً على النفس ـ لأنه لو كان السؤال مِن وراء حجاب أو بواسطة ترجمان لكان الأمر أيسر على النفس ـ فاتق الله في موقفك بين يدي ربك، الذي لا أعظم ولا أكبر منه، ويسألك سبحانه وتعالى: أَلَمْ أبعث فيك رسولاً فبلغك؟ فأعدَّ الجواب، وقَدِّمْ لنفسك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ١١٠].

وأما الكافر والمنافق فيقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] أي: يا ليتني أرجع إلى الدنيا لأعمل صالحاً، وأقدم العمل الصالح، حتى أجد ثواب ذلك عند الله، إذ إنه أيقن أن الحياة هي حياة الآخرة التي لا نهاية لها ﴿فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥ـ٢٦] أي: لأنه كاذب في دعواه قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

❖ المحاضرة الرابعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقدم الكلام على أنّ منصب الرسالة منصب شريف عال، وأنّ مقام الرسل مَقام عظيم فوق كل المقامات، ولذلك لَما امتدح سبحانه وتعالى رسله وصفهم بأعلى مقام لهم وهو الرسالة. كما تقدم بيانه.

ولقد اصطنع الله تعالى رسله اصطناعاً خاصاً، ورباهم على عين عنايته، وأعدهم وهيأهم لتقبّل الرسالة، واختارهم واصطفاهم مِنْ خيرة خلقه عليهم الصلاة والسلام، ولهذا قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] أي: نزع عنك إيواء الأبوين حتى يتولاك بنفسه سبحانه وتعالى، وآواك إليه، وتربيت على عنايته الخاصة، ولا شك أن عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم وأكبر من عناية الوالدين.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: إنك يا رسول الله بعين عنايتنا الخاصة في جميع تقلباتك، من

صغرك إلى كبرك، إلى ما هنالك من شؤوناتك كلها؛ فأنت تتقلب في عناية رب العالمين الخاصة.

وإذا عَلِمْتَ أن اصطناع الله تعالى لرسله اصطناع خاصٌّ ليس كصفته لغيرهم، لذلك كانت أجسادهم وذراتهم ومداركهم وحواسهم لا تقاس بغيرهم.

فهم بشر يأكلون ويشربون، ولكن الله تعالى خَصهم بخصائص دون غيرهم، وبأحكام خاصة لا تنطبق على غيرهم.

ومن هنا كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول لَمَّا واصل الليل بالنهار صائماً، وواصل الصحابة فنهاهم عن الوصال، فقالوا: نراك تواصل يا رسول الله.

فقال: «إني لست مثلكم ـ وفي رواية: «إني لست كهيئتكم»[1] ـ أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[2] وليس المراد بالطعام هنا الطعام المحسوس، ولا الشراب المحسوس المعروف، ولو كان كذلك لأفطر ولما اعتبر مُواصلاً، ولكن هناك طعامٌ وسقيا ربانية خاصة، يغذيها الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وتأمل في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لست مثلكم»

---

(١) عند الإمام مسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال (١١٠٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصيام، باب التنكيل لمن أكثر الوصال (١٩٦٥)، ومسلم في كتاب الصيام، باب /١١/ (١١٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في كتاب الصوم، باب /٦٢/ (٧٧٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

أي: إن الله تعالى قد خَصني بخصائص ليست عندكم، وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] أي: إنما أنا بشر مثلكم في الآدمية والبشرية، ولكن الله تعالى خَصني بخصائص ليست عندكم، وفضلني عليكم بمقتضى ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ولا يوحى إليكم. فقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ رَفْعٌ لمستواه على غيره في الخصائص والفضائل.

ولذلك فإن الله تعالى خصه ببعض الأحكام الشرعية؛ لِمَا خصه من المزايا الجسمانية قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فهو يخلق ويُنزل الأمر على نسبة المخلوق.

ولَمّا كانت رسل الله على اصطناع خاص من الله تعالى، تميزوا في بعض الأحكام عن غيرهم.

ولقد تقدم البيان أن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم مواقفاً، فيجب عليهم أن يَعرفوها حتى يُؤدوها حقها.

فمن جملة مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاء تالياً لآيات الله تعالى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ أي: هذه النعمة عليكم بإرسالي هذا الرسول الكريم ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يتلو الآيات على الناس، وأخذها الصحابة تلقياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتلوها على

التابعين، والتابعون تلوها على مَنْ بعدهم، ومَنْ بعدهم على مَنْ بعدهم؛ حتى انتهى الأمر إلينا. فلقد انتقلت تلاوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلينا نصاً بنص، وحرفاً بحرف، ولهجة بلهجة.

أما الفوائد والحكم في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم آيات الله على الأمة فكثيرة، منها:

إن تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم دليل على حَقِّيَة نبوته ورسالته، وأنه رسول الله حقاً، وأن هذا القرآن كلام الله تعالى حقاً، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة. وهذه مفخرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه لم يتعلم مِنْ مخلوق، ولم يدرس على يد مخلوق، إنما تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه تعليم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا القرآن الكريم الذي عجز عن الإتيان بمثله جميع العالمين؛ مع كونه نشأ أمياً، فإنّ أول ما يدل هذا على أنه رسول الله حقاً.

فكانت تلاوته للقرآن دليلاً وشاهداً على أنه حقاً رسول الله، وذلك لأنّ هذا القرآن جامع للعلوم كلها، ومتضمن لذكر العوالم كلها، فَمِنْ أين جاء به صلى الله عليه وآله وسلم والحال أنه لم يتعلم من مخلوق؟!!.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ الآيات بفصاحة، وبلهجة معينة، والحال أنه لم يتعلم القراءة من أحد المخلوقات، كل ذلك يدل على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو رسول الله

حقاً. وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ـ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: من قبل أن نُنزل عليك هذا القرآن ما كنت تتلو كتاب مخلوق أبداً، لأنك لم تتعلم القراءة ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: وما كنت تكتب كتابة بيمينك، لأنك ما تعلمت الكتابة، وأنت الآن تقرأ القرآن قراءة فصيحة بليغة.

فلو كنت تقرأ مِنْ قَبل أن نُنزله عليك، أو كنت تكتب من قبل ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لقالوا إنه درس وتعلم، وجاء بهذا القرآن البليغ الفصيح، ولكنهم يَعلمون أنّك ما تعلمت القراءة والكتابة، فما مَعْنى أنّك تتلو عليهم القرآن؟؟! فلا شك أنك رسول الله، ولا موضع للشك والارتياب بأنْ يكون هذا القرآن بدراستك أو بسابق علمك.

ولكن هؤلاء الكافرين جَحدوا، وقد عرفوا صدقك وأنك رسول الله حقاً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: بل يعرفون أنك الصادق الأمين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: إنهم عرفوا وأيقنوا أنك رسول الله، وأن هذا القرآن هو كلام الله، ولكنهم جحدوا كِبْراً وعناداً وعتواً، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: إنّ هذا القرآن لم تَتله بدراسة سابقة يا رسول الله، وإنما جمعه الله لك في صدرك جَمْعاً، ونَزّله على قلبك تنزيلاً، ثم أنت قرأته وتلوته على الناس، فسكن في صدور أصحابك وأتباعك وحفظوه، ثم انتقل إلى صدور مَن بعدهم وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] أي: تلقوه عن صدرك يا رسول الله، لأن الله تعالى جمع القرآن في صدرك، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧] أي: لا تُتعب نفسك يا رسول الله حين نزول القرآن عليك؛ بأن تُسرع في التلاوة خَوف أَنْ تَنسى منه شيئاً، بل إنّ علينا جمعه في قلبك وصدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إقراءه، بأن نُنطقك به، ونقرئك إياه على أكمل وجه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨-١٩] أي: إن علينا أَن نجمعه ونحفظه في صدرك وقلبك، وأَنْ نُقرئك إياه على أكمل وجه، وإن علينا أَنْ نُبين لك معانيه كاملة موفرة.

فَمِنْ صدره الشريف أخذت الصدور واستمدت، وفي هذا خبر غيبي على أَنّ هذا القرآن سَيُحفظ في صدور أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، وليست محافظه هي الصحف والسطور، وإنما هي صدور القراء والعلماء، فهي مخازن حِفْظِ رَبِّ العالمين لكلامه تعالى، فلا يَجري عَليه تَبديل أو تحريف، أو زيادة أو نقص، ولا يُمحى مِن وجه

الأرض. ولا يكون هذا إلا في صدور أهل الإيمان من القراء والعلماء.

فلابد في كل زمن مِنْ وجود جماعات يحفظون نص القرآن، أو بعضهم يحفظ أجزاء منه وبعضهم يحفظ أخرى، وهناك مِنَ العلماء مَنْ يحفظ ويُبين معاني هذه الآيات، فما بَين حافظ وعالم إلى يوم القيامة.

وإن الصدر الذي يَحفظ القرآن لا يَمحوه الماء، أما المصحف فيُمحى بالماء أو بالإحراق.

فلو فرض أنّ مصاحف الورق حُرِّقت وغرقت، فلا يقال: إن هذا القرآن قد مُحي من وجه الأرض، وإنما هو محفوظ في الصدور، وهذا مِنْ خصائص القرآن الذي تكفل الله تعالى بحفظه، ومن خصائص أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنْ أكرمها الله تعالى بالقوة على حفظ القرآن ظاهراً، إذْ لم تكن الأمم السابقة يستطيعون حفظ كتبهم إلا في الألواح والسطور، ولا يَحفظ الكتب في الصدور إلا أنبياؤهم فقط، وقد يَحفظ أحبارهم وعلماؤهم أجزاء منها، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أما هذه الأمة المحمدية فقد يسر الله لها حفظ القرآن لكل مؤمن، سواء كان كامل الإيمان أو ناقصه، أو كان فاسقاً، وقد يحفظه من ليس بمؤمن ـ حفظاً ذهنياً ـ.

فلا بد في كل زمن مِنْ وجود طائفة يَحفظون القرآن نصاً ومعنىً، وقد يَحفظ بعضهم النص وبعضهم المعنى؛ وهكذا إلى يوم

القيامة، حتى إذا ظهرت أشراط الساعة الكبرى، وطلعت الشمس مِنْ مغربها: رُفع الإيمان كله من القلوب؛ فَيرفع معه القرآن.

وقد روى أبو نعيم في (الدلائل) بسنده، عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما فرغت مما أمرني الله تعالى به ـ أي: ليلة الإسراء ـ من أمر السماوات والأرض قلت: يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كَرَّمته: جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى؛ فما جعلت لي.

فقال سبحانه وتعالى: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله: إني لا أذكر إلا ذكرت معي، وَجَعلتُ صدور أمتك أناجيل؛ يَقرؤون القرآن ظاهراً ـ أي: عن ظهر قلب، ومعنى: «أناجيل» أي: صحف اتسعت للقرآن ـ ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» الحديث[١].

فلقد شَرّف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وكرمه على غيره من الأنبياء والرسل، فرفع ذكره سبحانه، بمعنى: لا يُذكر الله سبحانه وتعالى إلا قُرِن معه ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وهذا ما تجده في مهمات الأمور وكبرياتها: كما هو في الإيمان قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وفي الطاعة قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ

(١) ينظر في تفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة الشرح.

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وفي قبول الإسلام تقول: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، وفي الأذان، والإقامة، وفي امتثال الأمر قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وفي الإرضاء قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفي القنوت والخضوع قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣١] [وهكذا في كثير من الأمور الهامة التي فَصَّلَ ذكرها مولانا الشيخ الإمام في كتابه: شهادة أن لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فليُرْجَعْ إليه].

وروى مسلم في صحيحه(١): أن الله سبحانه وتعالى قال ـ أي لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «وأنزلت عليك كتاباً لا يَغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظانَ» أي: قرآناً محفوظاً في الصَدر لا يمحوه الماء الذي يمحو السطور.

وعلى هذا فإنّ مِنْ حكمة تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن: الدليل والبرهان على أنه حقاً رسول الله، إذ إِنه نشأ أمياً، ثم نزل عليه هذا القرآن في تمام الأربعين من عمره صلى الله عليه وآله وسلم، وراح يقرأ القرآن بأسلوب خاص متميز عن قراءة غيره من الكتب. وقد جَمع هذا القرآن علوم الأولين والآخرين فَمِنْ أين له هذا؟ حقاً إنه رسول الله، أوحى الله سبحانه وتعالى إليه هذا القرآن وعلمه إياه.

---

(١) في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب /١٦/ (٢٨٦٥) عن سيدنا عياض المجاشعي رضي الله عنه، وهو طرف من حديث طويل.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٦]

أي: قل يا محمد يا رسول الله لهؤلاء الكافرين الجاحدين: لو شاء الله ما تلوت عليكم هذا القرآن، إذ لَبِثت فيكم أربعين سنة مِنْ قبل أن يَنزل عَلَيّ هذا القرآن، ولم آتكم بآية واحدة، فتعقلوا وتدبروا مِنْ أين لي هذا القرآن وهذا العلم؟!.

كما أنّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن: استعراضاً لآيات الله الكونية، والنفسية، والآفاقية، والسماوية والأرضية، وإدخالاً للنور القرآني على قلوب السامعين: فأيّ قلب تَشَرَّب نور القرآن حل فيه الإيمان، وأيّ قلب لَمْ يتشرْبه بل رده بعد ما سقاه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد ظل كافراً جاحداً.

وذلك لأنّ للقرآن الكريم روحاً تسري في قلوب السامعين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وإن للقرآن نوراً تضيء له القلوب، كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: بقلبه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي: قلبه ﴿فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والنور هو الذي يُظهر لك حقائق الأمور، ولذلك سُمي البصر نوراً، والعقل نوراً، ولابد لكل رؤية من التقاء نورين، فلما كان

العقل وحده لا يكفي إلى الاهتداء إلى الأمور ومعرفة حقائقها، جاء نور الإيمان ونَوَّر العقل؛ وأظهر له الأمور، وكشف له عن الحقائق.

وإذا سرى روح القرآن بالروح الإنسانية صار صاحبها حياً حياة الأبد؛ وهم المؤمنون، وإذا فَقَدَ الروح الإنساني الروح القرآني فقد مات صاحبها ميتة الأبد، وهم الكافرون الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠ـ٢١].

ولا تُنال هذه الروح القرآني إلا بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فلما كان يتلو آيات الله على المشركين كان منهم مَنْ يؤمن وَيعترف، ومنهم مَنْ يُعرض ويكفر بعد أن ذاق حلاوة القرآن وطلاوته، وسرت روحه في قلبه؛ فيعرض: كبراً وعناداً وجحوداً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦].

ولقد كان المشركون يتزاحمون على سماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خُفْيَة وخلسة، إلا أَنهم خافوا على منصبهم وزعامتهم أَن تزول إنْ هم آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعرضوا وتكبروا، وما درى هؤلاء الحمقى الجاحدون أنهم لو آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنالوا عزة وكرامة الدارين.

فَمِنْ ذلك لَما كان صلى الله عليه وآله وسلم في مكة يقوم الليل، ويقرأ القرآن في النصف الأخير جهراً، ففي ليلة من الليالي

جاء أبو جهل والأخنس بن شريق وأبو سفيان[1]، وجعل كل منهم يستمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ظناً مِنْه أَنْ لا أحد يراه من أصحابه، فلما طلع الفجر انصرف كل منهم إلى بيته، فجمعتهم الطريق، فسأل كل منهم الآخر أين كنت؟ فقال: كنت أستمع لمحمد. صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال بعضهم لبعض: ولكن لا تعودوا لمثل هذا، فإذا سمعت بكم سفهاء قريش ـ أي: شبابهم وأحداثهم ـ أنكروا عليكم. وتواصوا أن لا يعودوا.

فلما كانت الليلة الثانية مضى كل منهم إلى سماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وظن كل منهم أن صاحبيه لن يشعرا به، فلما طلع الفجر وهم في الطريق لقي بعضهم بعضاً، فتلاوموا وتواصوا على أن لا يعودوا.

فلما كانت الليلة الثالثة حصل منهم هذا، فلما أصبح الصباح جاء الأخنس إلى أبي سفيان وقال له: ماذا تقول فيما سمعت؟.

قال: لقد سمعت منه أشياء أعرفها، وأشياء لا أعرفها.

فقال الأخنس: وأنا كذلك.

فذهبا إلى أبي جهل، فقال ـ لهم مظهراً جهله وحماقته ـ: ماذا سمعت ـ أي: لا تبحثوا في حَقّيَّةِ ما يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولكن: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ـ أي: ما يبرر

(١) وقد أسلم أبو سفيان رضي الله عنه بعد فتح مكة.

على زعمه عدم إيمانه ـ فأطعمت بنو عبد مناف ـ ويروى بنو هاشم ـ فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا في الفضائل كفرسي رهان، ثم افتخرت علينا بنو هاشم وقالوا: فينا رسول الله يَنزل عليه الوحي من السماء. قال أبو جهل: فمن أين ندرك هذه المسألة(١)؟ أي: من أين نأتي بنبي يوحى إليه؟.

وهذا مما حمله على الكفر والإعراض والجحود، وهو العصبية الجاهلية، كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود: هو إنكار بعد علم، فلقد كفروا: جحوداً وكبراً.

ولما استمع الوليد بن المغيرة(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ، رق قلبه وخشع، فلما رجع قيل له: ماذا سمعت؟ قال: والله يا قوم إنّ لهذا الكلام الذي سمعته لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه الحق يعلو ولا يُعلى عليه. فجاء إليه أبو جهل فقال: لعل محمداً أرضاك بالمال، فقال: أنتم تَعلمون أني أغنى أهل قريش. فألح عليه أبو جهل وأصحابه حتى يرجع عن كلامه. فراح يفكر وينظر حتى قال: إنْ هذا إلا سحر، إنْ هذا إلا قول البشر، فجحد بعدما عرف. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: دعه لي فأنا أتولى عقابه

---

(١) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠٦).

(٢) ينظر الخبر في دلائل البيهقي (٢/٢٠٠).

﴿وَحِيدًا﴾ أي: خلقته وحيداً لا مال عنده ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٢ـ١٧] أي: سأجعل عقابه يوم القيامة أن يصعد جبلاً في جهنم. وَصَعُود اسم جبل من جبال جهنم، يتسلقه الكافر بالقوة والتهديد إلى قمته سبعين سنة، حتى إذا وصل إلى القمة هَوى إلى أسفله، وهكذا يؤمر أن يعود ويتسلق ثم يهوي وهكذا. وذلك لأن التصعد فيه التكلفة، وإنّ هذا المعاند المعارض قد تكلف بتكذيبه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وطعن في القرآن بعدما عرف أنه الحق ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ لِمَ ذلك؟ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ﴾ أي: لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٩ـ٢٥].

فلقد تكلف في الكذب بعدما عرف الحق، فكان جزاؤه ما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ لأنها ـ أي: جهنم ـ تَصْفع الكافر في وجهه فتنزع اللحم عن العظم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: للبشر الجسماني فتلوحه بلوح النار.

ولقد دخل قسم كبير من الصحابة بعد أن كانوا مشركين، دخلوا في الإسلام بسبب سماعهم القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فَسَرت روح القرآن إلى قلوبهم وسكنت فيه؛ فآمنوا وأذعنوا للحق.

وأما الكافرون فقد سرت روح القرآن إلى قلوبهم، إلا أنهم تعاموا وتصامُّوا، وأغلقوا قلوبهم، فلم يستقر روح القرآن في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن ندخله كما يدخل السلك في الخرز ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والواجب عليهم أن يؤمنوا به إلا أنهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: عناداً وكفراً. فدخل القرآن في قلوبهم كما يدخل السلك في الخرزات، فيدخل مِن جانب ويخرج من الآخر ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] أي: حتى يذوقوا العذاب، فيذهب عنهم العناد فيؤمنوا في وقت لا ينفعهم إيمانهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: توبوا إلى ربكم وآمنوا به قبل أنْ يأتي عليكم يوم تقول فيه النفس: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ أي: يا حسرتي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: قصرت ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ﴾ أي: وإنه كنت في الدنيا ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ فيعترف أنه كان في الدنيا يَسخر من الإيمان وأهل الإيمان ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: لا تتحسر ولا تَتَمَنَّ الرجوع إلى الدنيا ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤ـ٥٨].

ولما ذهب أبو الوليد عتبة بن ربيعة[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يراجعه ليكف عن سب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، فلما دخل عليه قال له: يا محمد إنك سببتَ آلهتنا، وَسَفَّهْتَ أحلامنا ـ أي: انتقصت عقولنا ـ وَشَتَّتَّ جمعنا، فإنْ كان بك حاجة للمال جمعنا لك أموالاً حتى تكون أغنى قريش، وإنْ كانت بك الباءة ـ أي: حب النساء والزواج ـ قدمنا لك أحسن النساء من قريش، وإن كنت تريد مُلكاً مَلّكناك علينا.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفرغت يا أبا الوليد»؟ قال: نعم.

فقال: «اسمع» فراح صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠

---

(١) ينظر الخبر في دلائل البيهقي (٢/٢٠٣) وكتب التفسير عند أول سورة فصلت.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن ما جئتهم به يا رسول الله ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ الآيات [فصلت: ١-١٣].

فلما سمع عتبة هذه الآيات قام، وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أناشدك الله والرحم إلا كففت عن هذا. لأنه عرف أنّ هذا القرآن كلام الله، وأن محمداً حقاً رسول الله، فخاف أن يَنزل عليه وعلى قريش العذاب.وهم يعلمون أن محمداً ما قال شيئاً إلا وصدق فيه.

ورجع مذعوراً إلى بيته، وجماعته ينتظرونه، فقال بعضهم: أترون أنه صبأ؟ - أي: مال إلى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم - فذهبوا إلى بيته وقالوا: مالك يا أبا الوليد، أصبأت، أم أغراك محمد بالمال؟

فقال لهم: يا قوم اسمعوا مني! والله أنا أعلمكم بالشعر والرجز، وقد سمعت منه كلاماً ليس بشعر، ولا كلام ساحر أو كاهن، لقد قال قولاً خفت على نفسي وعليكم، لقد قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وأنتم تعلمون أن محمداً ما قال قولاً إلا وصدق فيه، ولذلك ناشدته الله والرحم في الكف عن هذا.

ولكن هذا الجاحد ظل على كفره وجحوده بعد أن عرف الحق وبان له، بسبب عناده وتأثير قومه عليه.

وعلى هذا: فَمِنْ حِكَم تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم: إيصال

الروح القرآني إلى القلوب قال عز وجل: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١] أي: حتى ينزل نُورها في قلوبكم، وتسرِي روح الآيات القرآنية في أرواحكم. ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم إذا سمعوا القرآن مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل في قلوبهم واستوطن، كما قال حذيفة رضي الله عنه: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر ـ أما الأول فهو عن نزول القرآن في القلوب، والآخر عن رفع الإيمان من القلوب؛ ولم يروِ هذا حذيفة لأنه سيحصل آخر الزمن ـ حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن ـ أي: في القلوب ـ فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» الحديث(١). فكان القرآن متمكناً مستوطناً في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، بعد أن استقر الإيمان في قلوبهم.

ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا وصدورنا، وجلاء همنا وغمنا، وشفاءنا وإمامنا.

ونسأل الله تعالى التوفيق

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة... (١٤٣).

❖ المحاضرة الخامسة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تبارك وتعالى في بيان شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: الزموا صبغة الله وهي الشريعة المحمدية، حتى تنصبغوا بصبغة الله النورانية.

ولقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وجعله في أحسن صورة وتقويم، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

فالإنسان من حيث الصورة هو أكمل صورة من الخلائق على وجه الأرض، ولهذا أنزل الله تعالى الشريعة حتى يُجَمِّل هذا الإنسان، ويحفظ عليه جماله الصوري الإنساني، ويكمل معناه، حتى يكون في أحسن صورة خَلْقاً وخُلُقاً، مَبْنًى ومعنى، وتبقى عليه جسمانيته الكاملة، لأن الإنسان إذا لم يتمسك بالشريعة راحت الإنسانية تنفلت

منه، حتى يلتحق بالبهيمية والحيوانية. أما إذا تمسك بالشرع الإلّهي فإنه يترقى في كمالات الإنسانية، وتنصبغ روحه وذراته بالنور الرباني الشرعي، حتى يلتحق بصفوف الملائكة، بل يحل ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وحينذاك تدخل الملائكة عليه وتستأذن، وتحييه تحية التكريم والاحترام، لأنه بلغ الكمال الإنساني.

ومن هنا يظهر للإنسان سر التكليف الإلّهي، وسر الشرائع الإلّهية لهذا العالم.

فلقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وركب فيه قوتين: **قوة علوية** ملكية بسبب الروح العلوية الموجودة فيه، قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وهي مِنْ عالم الأمر الرباني، **وقوة أخرى** حيوانية بهيمية، تتطلب من الجسم الأكل والشرب والشهوات من: غضب، وحرص وبخل.

وتتنازع القوتان مع بعضهما وتتعارضان، فجعل الله سبحانه للإنسان صفة الاختيار، لكي يختار ويرجح إحدى القوتين على الأخرى، ثم أنزل عليه نوراً من عنده بواسطة الرسل صلوات الله عليهم، وأعظم الأنوار نوراً نور سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأمره سبحانه أن يُمد للعالم هذا النور، ويبلغهم ويرشدهم لصلاح أمرهم في الدارين، حتى تتغلب القوة الملكية على القوة البهيمية، وحينذاك يترقى الإنسان في الكمالات الإنسانية، ويخرج عن كونه إنساناً بهيمياً حيوانياً، بل يصير إنساناً ملكياً علوياً.

ولهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يكلف هذا الإنسان، ويُنعم عليه بالرسالات الإلٓهية، وما هي إلا أنوار من الله تعالى، تتنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام لأجل هداية الخلق، وفي هذا بَيَّن سبحانه أَنّ هذه التكاليف الشرعية التي تتضمن: التكاليف العملية والتكاليف الاعتقادية والإحسانية، إنما توجهت للإنسان ثم الجان تبع لهم، وأما الملائكة فهم ليسوا مِنْ عالم التكليف بهذه التكاليف، إنما هم عالم التكييف؛ كَيَّفهم الله تعالى على عبادته.

وأما البهائم والحيوانات فليست من عالم التكليف، إنما قام بهذا التكليف النوع الإنساني، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي: التكاليف الشرعية ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فحملها الإنسان لأن فيه الاستعداد للقيام بها، وقد سَلِمَ المؤمنون الذين وفوا حق الله في هذه الأمانة: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولما التزم الإنسان حمل الأمانة وتكاليفها أنعم الله عليه بالرسالات الإلٓهية التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، فاصطفاهم الله تعالى واجتباهم من خلاصات الناس، وخلاصات الآدمية الطاهرة، ثم أفاض عليهم نوراً من نوره سبحانه، وأمرهم أن يُوجهوا هذه الأنوار للعالم، فَمَن كان له قلب حَيٌّ واع: استنار بنور الرسل، واهتدى إلى الله تعالى، وَمَنْ لَمْ يكن كذلك، ولم يوجه قلبه إلى أنوار الرسل وبقي في ضلاله: بقي ظالماً جاهلاً كالأنعام.

فما الرسالات الإلّهية إلا أنوار إلّهية تنزلت على الرسل صلوات الله عليهم لهداية البشر، وأعظم هذه الأنوار وأجمعها وأعلاها إنما هو نُور رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ولقد جاء في الأثر عن التوراة بعد الترجمة إلى العربية[1]: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران».

وفي رواية لبعض السلف في الترجمة: «جاء الله من طور سيناء» أي: جاء نور الله، وفي رواية: «سبحان مَنْ تجلى من طور سيناء» إشارة إلى رسالة موسى عليه السلام، «وأشرق من ساعير» أي: جبال فلسطين، إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام، «واستعلن من جبال فاران» أي: ظهر عَلَناً واضحاً للكل من جبال مكة، وهي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال جل جلاله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال جل وعلا: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨] أي: على هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير عند تفسير سورة التين.

فالرسالات الإلٓهية أنوار ربانية، تجلى الله بالنور، وأظهر هذا النور في الرسالات، وظهرت هذه الرسالات في الرسل، وأقواهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا يقول جل وعلا: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] والنور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فالله تعالى هو نور السماوات والأرض أي: مُوجدها ومظهرها إلى نور الوجود بعد أن كانت في ظلمة العدم. والعدم هو: الظلمة الحقيقية، لأن الليل ما سمي ظلاماً إلا لأنه ما ترى فيه الأشياء، كما أنّ ظلمة الليل جزئية نسبية، فهو ظلمة بالنسبة للنهار، أما الظلمة الحقيقية التي لا تُرى ولا تَرى فيها شيئاً فهي العدم المحض، قبل وجود العالم، وهذا ما ورد عنه[(١)] صلى الله عليه وآله وسلم: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» أي: ظلمات العدم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه)[(٢)] أي: لا نهار يَنشأ عن الشمس، ولا ليل عن غيابها؛ بل أنوار دائمة مستمرة.

وإن الذي أظهر السماوات والأرض وَمَنْ فيهن أشد ظهوراً منها.

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام في الليل: «اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور

---

(١) طرف من حديث عزاه في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) إلى الطبراني عن سيدنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ويسمى: دعاء الطائف

(٢) كما في تفسير ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة.

السماوات والأرض ومن فيهن»[1].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: في قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ﴾ والزجاجة هي قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: إن هذا المصباح يَستمد نُوره مِنْ شجرة كثير خيرها، وهي شجرة الوحي الإلهي ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: متوسطة معتدلة، ليكون استمدادها من النور دائماً طول النهار. وكذلك شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوسطة معتدلة، لا إفراط فيها ولا تفريط، بل هي كاملة، جامعة لمحاسن الشرائع كلها على أكمل الوجوه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ [النور: ٣٥] أي: إن نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونور قلبه الشريف وهو نور الإيمان: يكاد يظهر للناس ويشع على قلوبهم؛ وَلَوْ لَمْ ينزل عليه النور القرآني، فكيف لو اجتمع نور الإيمان ونور القرآن فصارا نوراً على نور، وهذا قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: بهذا النور ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا

---

(١) طرف من حديث طويل رواه البخاري في أول كتاب التهجد /١١٢٠/، ومسلم في صلاة المسافرين، باب /٢٦/ /٧٦٩/ وغيرهما عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر في جامع الأصول (٢٣٣/٤) حديث رقم /٢٢١٢/.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فهذا مثل لتجلي نور الله تعالى المنعكس في قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يهدي العالم إلى الله جل جلاله. وقد انعكس هذا النور في قلوب الصحابة، وأتباعهم من المؤمنين إلى يوم الدين.

فأنوار الإيمان التي يجدها المؤمن في قلبه ما هي إلا إشعاعات من نور قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: إنك تهدي بنورك يامحمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ظهر وانعكس فيك، فعلى قدر التحقق بالإيمان والعمل بما جاء به عليه الصلاة والسلام تنعكس أنواره في هذا المؤمن، وَمَنْ أراد أن يستنير قلبه وعقله وروحه وجسمه؛ فليلتزم طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليوجِّهْ قلبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عملاً واتباعاً وأدباً، وَمِنْ ثَمّ ينصبغ بهذه الأنوار، وتظهر آثارها عليه، لأن الأعمال الصالحة لها صُور نورانية مكتسبة عن نور النبي عليه الصلاة والسلام، والأعمال المخالفة لها صُوَرٌ ظلمانية، وبها يَتميز الخَلق يوم القيامة بعضهم عن بعض، بصبغة النور التي انصبغوا بها، أو بانصباغ الظلمات بالنسبة لأهل المعاصي والفسوق.

قال الله تعالى في سور الدهر ـ وهي سورة بَيّن الله سبحانه فيها المبدأ والوسط والمعاد والنهاية ـ قال جل جلاله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أي: قد أتى ولا محالة، وهذا استفهام تقريري، فكل

إنسان يَعلم أنه قد انقضى عليه زمان طويل ما كان له فيه وجود حسي ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: غير معروف أنّه فلان، أو أنه رجل، أو امرأة أو غير ذلك.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: بعدما طورناه من التراب ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط. فهذه النطفة مُركبة مختلطة، فيها القوة الحيوانية والشهوانية، وفيها القوى المتنافرة، وكأنه قيل: لِمَ فعلنا ذلك؟ قال سبحانه: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: حتى نبتليه، ونكلفه حتى يظهر أمر التكليف، ويظهر اختياره وإرادته في الأمور، ولكن هل اختبره سبحانه وابتلاه وقد حرمه الإرادة والمدارك والسمع والبصر؟ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: كَلّفناه بعدما جَمَّلناه وكَمَّلْناه بالسمع والبصر، والمشيئة والقوة، فلذلك ليس له عذر عند الله سبحانه وتعالى.

وهل هذا يكفي للإنسان في هدايته وترقيته إلى الكمالات؟ كلا. بل أَرسل سبحانه وتعالى رسلاً، وأنزل نوراً وهدى، وأمرهم أَن يبينوا لك الحق من الباطل، ويهدوك إلى السعادة والرَّشاد، فصار باعثٌ من عندك، وحكمة فيك، ونور من عند الله بواسطة الرسل، فبعد هذا إنْ كفرت لا حجة لك عند الله تعالى، وإنْ آمنت وعَمِلْت فأنت المأجور عند الله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بواسطة الرسل، والنور النازل عليهم من الله تعالى، هَدَيناه وبَيَّنَّا له طريق الحق والرشاد، وقد قامت الرسل صلوات الله عليهم بهذا البيان والهدي، وأعظم رسول قام بتبليغ العالم كله والنصح لهم، هو سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم، فَما ترك خيراً إلا دَلّهم عليه، وما مِنْ شر سيقع في هذه الأمة إلا وحَذّر منه صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يدع عذراً لمعتذر.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق خلقه في ظلمة» أي: ظلمة الدنيا وظلمة الهوى وظلمة النفس «ثم ألقى عليهم من نوره» أي: نور شرائعه بواسطة رسله «فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»[1] أي: مَنْ تَعرض لنور الله بتمسكه بشرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدى، وعرف الله عز وجل، ومن أعرض عن النور ضل.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فإنْ كفر فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾. وإن شكر وآمن فجزاؤه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وأعلى مِنهم المقربون قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

فالصِبغُ والآثار النورانية للأعمال الشرعية التعبدية، والصبغ الظلمانية للكفر والفسوق:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٧٦)، والترمذي في آخر كتاب الإيمان (٢٦٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ـ١٠٧].

والمعنى: اذكر ذلك اليوم واحذره أيها الإنسان، فهو يوم عظيم، تظهر فيه الحقائق، ويرتفع فيه حجاب الالتباس الدنيوي.

وقوله سبحانه: ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وأجسامها أيضاً، كما تقول: فلان وجهه أبيض، فهل يعني أنّ جسمه أسود؟ قطعاً لا.

وإنما كان الكلام على الوجه لأنّه مظهر المواجهة، فالمؤمن الصالح يبيض وجهه وجسمه، وروحه وسائر أجزائه، وأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وهذا يقال لهم في كل عالم: في الدنيا، والبرزخ، والحشر، والنشر والآخرة، تُناديهم الملائكة. وكذلك الذين ابيضت وجوههم، ظهر عليهم ذلك في جميع العوالم؛ في الدنيا، والبرزخ، والحشر، ولا يرى ذلك في الدنيا إلا مَنْ كان له قلب تقي عامر بالإيمان، فيرى نور الإيمان في المؤمن، وظلمة المعصية في العاصي، وأما في الآخرة فيظهر واضحاً جلياً للكل.

ومعنى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: أكفرتم بعد أنْ دُعيتُم للإيمان بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، أَوْ ورثته الذين بَلّغوا رسالته، ونشروا دعوته صلى الله عليه وآله وسلم؟. أو المراد: أكفرتم بعدما آمنتم يوم قال لكم الله عز وجل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] حتى إذا جئتم للدنيا كفرتم وجحدتم، والحال أنّ آيات وحدانيته وقدرته ظاهرة لكم في هذا العالم.

ولا عذر لهم إذا قالوا: نسينا ذلك الميثاق، وهو يوم شهدنا له بالربوبية ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ لأنّ الرسل جاؤوا ليذكروهم بذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] وَمِنْ جملة ما ذَكّر به عليه الصلاة والسلام أنه ذَكّر بذلك العهد.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم وهم أهل الإيمان، الذين استنارت قلوبهم وأرواحهم بالإيمان في الدنيا، حتى ظهر ذلك على وجوههم وأجسامهم ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: في الدنيا، وفي القبر، والجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فينتقلون مِن رحمة إلى رحمة.

ولقد بَيَّن سبحانه أن كل إنسان يرى عمله يَوم القيامة، فإنْ كان العمل صالحاً رآه بصورة صالحة جميلة نورانية، وإنْ كان مُخالفاً رآه بصورة قبيحة ظلمانية جداً:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والمعنى: اذكر أيها الإنسان واحذر ذلك اليوم الذي تَجِد فيه أعمالك على حقائقها، فالأعمال الصالحة تَرتفع أنوارها حتى تصل إلى حظيرة القدس الرباني، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وتظهر رشحات من أنوارها على صاحبها في الدنيا، حتى إذا جاء يوم القيامة يرى المؤمن تلك الأنوار

عيـاناً، وقد انصبـغت فيه، قال تعـالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: ٤٩] أي: حتى وجدوا تلك الأعمال وآثارها النورانية حاضرة في نفوسهم.

وما عمل من سوء ومعاصي يَود لو أنّ بينه وبين عمله أمداً بعيداً، حتى لا يرى صورة عمله السيئ، لأنّه لما رأى صُور أعماله السيئة خاف منها، وهذا قبل دخوله جهنم ـ والعياذ بالله تعالى ـ فكيف إذا دخلها؟!!!.

ومِنْ هنا تَفهم ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم(١) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت» أي: أكثر وأنمى ما كان عنده منها، ثم تؤمر البهائم أن تمر عليه «تطؤه بأظلافها وأخفافها، وتنطحه بقرونها» أي: واحدة تلو الأخرى «كلما نَفَذت عليه أُخراها عادت أُولاها، حتى يُقضى بين الناس» أي: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وهكذا صاحب الكنز. أي: الذهب والفضة الذي لم يَعْرف حق الله تعالى فيه. والكنز شرعاً: هو المال الذي لم يُزكَّ، أما إذا زكاه صاحبه فلا يقال عنه: كنز، ومن هنا قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: (كلُّ مال لم يُزكِّه الإنسان فهو كَنْزٌ ولو كان على وجه الأرض،

---

(١) البخاري في كتاب الزكاة، باب زكاة البقر (١٤٦٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة ولا يؤدي الزكاة (٩٩٠). وينظر في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري في كتاب الزكاة باب الترهيب من منع الزكاة.

وكل مال زكاه فليس بكنز ولو كان في خبايا الأرض)[1].

وعن أبي هريرة رض الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من ترك كنزاً فإنه يمثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي: ثعباناً كبيراً جداً ـ يتبعه، له زبيبتان، فما زال يطلبه يقول: ويلك ما أنت؟ قال: يقول: أنا كنزك الذي تركت بعدك. قال: فيلقمه يده فيقضمها ـ أي: يقطعها ـ ثم يتبعه بسائر جسده»[2].

ومن هنا تفهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأعلم أنّ صور الأعمال سواء كانت صالحة أم طالحة تظهر لصاحبها في كل عالم وبرزخ من برازخ الآخرة، وقد بَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم الآثار النورانية للأعمال الصالحة، فمن ذلك:

الصبغة النورانية للوضوء والصلاة، ومن ذلك في عالم الحوض، الذي يشرب مِنْه مَنْ شرب مِنْ شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا، وتحقق وانصبغ بالنور المحمدي في الدنيا، وَيُعرف مِنْ بين الأمم بأنه مِنْ أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وابن حبان[3]: خرج

(١) ينظر الدر المنثور عند تفسير الآية /٣٤/ من سورة التوبة، وعزاه في مجمع الزوائد (٣/ ٦٤) إلى سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كما في المسند (٢/ ٢٨٩).

(٣) مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة... (٢٤٩) وابن حبان (١٠٤٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وهو طرف من حديث فيه طول.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إلى المقبرة ـ أي: البقيع ـ فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إنْ شاء الله بكم لاحقون، وددت أنَّا قد رأينا إخواننا».

قالوا ـ أي الصحابة ـ: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟.

قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض» أي: سابقهم.

قالوا: يا رسول الله كيف تعرف مَنْ لم يأتِ بعدك من أمتك من بين الأمم؟!

قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء» أي: لهم نور في جباههم وعلى أقدامهم.

كما روى الطبراني[(١)] عنه عليه الصلاة والسلام قال: «من صلى الصلوات لوقتها، وأسبغ وضوءها، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها؛ خرجت الصلاة وهي بيضاء مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها، ولم يتم خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها؛ خرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفَّتْ كما يُلَفُّ الثوب الخَلَق ـ أي: البالي ـ ثم ضرب بها وجهه».

ويجب على العبد أن لا ينشغل في الدنيا عن عبادة الله، وإنما يأخذ من الدنيا على وجه لا يشغله عن دين الله، كما قال النبي صلى الله

---

(١) في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ٣٠٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

عليه وآله وسلم: «يا بن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك» أي: حافظ على دينك كما تحافظ على لحمك ودمك «فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا»(١).

ولقد بَيّن سبحانه أنّ للأعمال الشرعية والطاعات آثاراً نورانية، تظهر على صاحبها وتتلبس فيه، وما هي إلا حسناته التي كان يعملها في الدنيا، فيراها بصور حسنة جميلة في الآخرة، كما أنّ للمعاصي والكفر آثاراً ظلمانية، وصوراً قبيحة سيئة، تظهر على صاحبها في الآخرة، وما هي إلا سيئاته التي اكتسبها في الدنيا، ظهرت له بصورة سيئة قبيحة يوم القيامة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: إن الصبغة التي لا تتبدل ولا تتغير إنما هي صبغة رب العالمين، التي يصبغ بها من آمن وأسلم، فَمَنْ تحقق بالإيمان وأعمال الإسلام فقد انصبغ قلبه بنور الإيمان، وانصبغ جسمه بنور الإسلام، وظهرت هذه الآثار عليه.

واعلم أن صبغة الله لا تتبدل ولا تتغير، كما قال جل وعلا: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: جَمَعَ أنواع الإيمان في قلوبهم وثَبَّتَهُ عليهم.

ثم بَيّن سبحانه بأن طريق الانصباغ بصبغة الله تعالى النورانية؛

---

(١) أورده الخطيب في الكفاية، وعزاه في كنز العمال (١٥٢/٣) رقم (٥٩١٨) لابن عدي.

هو العبادة والتقوى بالله فقال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ﴾ أي: نحن مِن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذين نعبد الله تعالى، ونصطبغ بصبغته النورانية الثابتة.

ومما يدل على أنّ للأعمال الشرعية آثاراً تظهر على عاملها، ما جاء في صحيح مسلم وغيره[1]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الطهور شطر الإيمان» يعني: إن الإيمان يتطلب أموراً عملية إيجابية، وأموراً امتناعية سلبية بالتخلي عن الرذائل بأنواعها، ومعنى: «الطهور شطر الإيمان» أي: إن التطهر والتخلي عن الرذائل والمعاصي إنّما هو شطر الإيمان، والشطر الآخر إنما هو الأمور الإيجابية العملية كالصلاة والصدقات وغيرها.

«والحمد لله تملأ الميزان» أي: الحمد الذي حَمِد الله به نفسه، فإذا تقرب العبد إلى ربه بهذا الحمد؛ فإنّ أنوار هذا الحمد تملأ ميزانه يوم القيامة.

«وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض» أي: بأنوارها، ولو كان العبد لا يرى أثر ذلك، فما عليه إلا أن يُصَدِّق الذي رأى ذلك صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر بذلك عن مشاهدة وعيان.

«والصلاة نور» أي: نور في القلب والروح والجسم، ويظهر نورها في الدنيا، وفي القبر، وفي الحشر، وعلى الصراط، وفي

---

(١) مسلم في أول كتاب الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب /٩١/ (٣٥١٢)، والنسائي (٥/٥)، وابن ماجه (٢٨٠) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

الجنة، فمن صلّى انصبغ بصبغة النور، وَمَنْ كان صاحب بصيرة رأى نور الصلاة على المصلي في وجهه وجبهته، وأعضائه التي سجدت لله جل جلاله. ولذا قال سبحانه وتعالى في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: إنّ أنوار الصلاة ظاهرة في وجوههم من كثرة الصلاة.

كما أن الصلاة نور في القبر تضيء لصاحبها: وكان أبو ذر رضي الله عنه يقول للتابعين: (صلوا ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور)[1] أي حتى ترفعوا عنكم ظلمة القبر ووحشته.

كما أنّ الصلاة نور في الحشر وعلى الصراط، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: «بَشِّرِ المَشَّائين في الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[2].

أما الكافر والمنافق فلا نور له، لذلك يقولون يوم القيامة كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

---

(١) كما في ترجمته في الحلية (١/١٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٧٨٠)، وابن خزيمة (٢/٣٧٧)، والحاكم (١/٢٠٢) عن سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

ولقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره[١]، قال سيدنا عبد الله بن عمرو: ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة يوماً فقال: «من لَمْ يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان، وأبيّ بن خلف» ومعنى: «برهان» أي: للمصلي، ذلك أنّ الله تعالى عندما يسأله هل صليت؟ فتكون صلاته حاضرة فتقول: نعم يا رب صَلّى.

ومن هذا ما جاء في الحديث: «والصلاة نور» ومن شأن النور أَنْ يُزيل الظلمة، فالصلاة الخالصة لله تعالى تمحو ظلمة الذنوب، وتكفر خطايا المصلي، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أنّ نَهَراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنِه شيء»؟

قالوا: لا يبقى من درنه شيء.

قال: «فكذلك مَثَلُ الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[٢] أي: الصغائر، أما الكبائر فلابد لها من توبة.

وقد ورد أن المؤمن إذا ارتكب فسوقاً وكبائر، وكان مع ذلك يُصلي ولم يتب من كبائره ومعاصيه؛ فإنه لَما يُعذب في جهنم فإنّ النار لا تأكل أعضاءه السبعة التي كان يسجد عليها في صلاته، لأنّ

---

(١) المسند (٢/١٦٩)، مجمع الزوائد (١/٢٩٢)، ابن حبان (١٤٦٥).

(٢) رواه البخاري في أول كتاب مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة... (٦٦٧)، والترمذي آخر كتاب الأمثال (٢٨٧٢)، والنسائي (١/٢٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الأعضاء الحسية قد انصبغت بالصبغة النورانية[1]، والنار والنور لا يجتمعان.

ومن هذا تعلم أنّ للصلاة صبغة وأثراً جسمانياً نورانياً، يظهر على الجسم والقلب والعقل والروح.

*** العبادة تُكيِّف صاحبها وتهيئُهُ لرؤية رب العالمين:**

جاء في الصحيحين[2]، أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال: «هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟ قالوا: لا.

قال:«فهل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب»؟قالوا: لا.

قال: «فإنكم ترونه كذلك» أي: بالتجلي النوراني الواضح، الذي لا يلتبس ولا يخفى على مؤمن في الجنة أبداً.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «يُحْشر الناس يوم القيامة فيقول: مَنْ كان يعبد شيئاً فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس» وهم عباد الشمس «ومنهم من يتبع القمر» أي: عباد القمر «ومنهم من يتبع الطواغيت» والطاغوت هو كل شيء يُطغي الإنسان، فهناك الصنم الحجري

---

(١) ينظر صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، ومسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

طاغوت لمن عَبده، وهناك الدرهم والدنيا طاغوت لمن عبدها، فيذهب معه. فالطواغيت كثيرة.

«وتبقى هذه الأمة» أي: الموحدة.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «فيُضْرب الصراط بين ظهراني جهنم» والصراط جسر في نفس جهنم، وما هو إلا صراط الدين والشرع المحمدي، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، حيث يتمثل يوم القيامة بطريق محسوس، يؤمر الناس أن يمشوا عليه، فمن كان في الدنيا ماشياً على صراط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشريعته: مَشى يوم القيامة آمناً مطمئناً، وانتهى إلى الجنة. وأما المنحرف في مشيته على الصراط، المحمدي في دنياه؛ فإنه سينحرف في مشيته على الصراط وربما وقع في جهنم.

وأما الكافر الذي ما مشى على صراط الشريعة أبداً، فإنَّ قدمه تزل في جهنم من أول الصراط.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل صلوات الله عليهم، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سَلِّم سَلِّم» الحديث. أي: سلم أمتي، وإلا فالرسل سالمون آمنون بإذن الله تعالى.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «حتى إذا أراد الله سبحانه وتعالى رَحمة مَنْ أراد مِنْ أهل النار» أي: بعد أن أُدخل أهل الكبائر النار، ومضت عليهم مدة «أمر الملائكة أن يُخرجوا مَن كان يعبد الله» أي:

الموحدين لله تعالى «فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود. وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود» الحديث[1].

كما أنّ الأعمال الصالحة تُكَيِّف المؤمن، وتُعده لأَنْ يتجلى الله عليه في عالم القبر، وفي جميع البرازخ الأخروية، وفي عالم الجنة أيضاً، لأنّ التجلي من الحقِّ إنما يكون على حسب التحلي من الخَلق، والتَّحَلِّي إنما هو بالطاعات والعبادات، ومن هنا تفهم سر العبادة، بأنها تُرقي العابد إلى درجات القرب العالية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: ليعبدوني، ويتشرفوا بعبادتي، لأنهم إذا عبدوني انصبغت فيهم أنوار العبادة، فيصيرون أهلاً لمقام القرب، والحلول ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ومن هذا ما قاله عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم ـ أي: يوم القيامة ـ كما ترون هذا القمر» وأشار إلى القمر ليلة البدر «فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[2].

فالمواظبة على الصلاة في أوقاتها تُهيئ المصلي لرؤية الله تبارك

---

(١) تقدم تخريجه ص /٥٠٣/.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٦٠)، والبخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٤)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب /٣٧/ (٦٣٣)، والترمذي في أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الربِّ تبارك وتعالى (٢٥٥٤) وغيرهم، عن سيدنا جرير رضي الله عنه.

وتعالى وتجلياته، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾. يعني: إن سجودك يترتب عليه الاقتراب من حضرة الله تعالى.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم(١)، عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه. وهو أحد خدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خادم الوضوء ـ أي: ماء وضوئه عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدد من الخدام يخدمونه، لأن خدمته عليه الصلاة والسلام عين الشرف والكرامة، فمنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، خادم نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي تمنىَ ملك الحبشة النجاشي أنْ يكون خادم هذا النعل الشريف الطاهر فقال: (لولا ما أنا فيه من الملك ـ أي: سياسة الرعية ـ لأتيته ـ أي: أتيت إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى أحمل نعليه)(٢). وقد أسلم هو وجماعته ؛.

قال سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كنت أخدم النبي عليه الصلاة والسلام نهاري، فإذا كان الليل آويت إلى باب رسول الله ـ أي: باب حجرته عليه الصلاة والسلام ـ فبت عنده ـ أي: حتى إذا استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحضر له الماء ـ فلا أزال أسمعه يقول: «سبحان الله سبحان ربي» أي: كان يسمع تسبيح النبي عليه الصلاة والسلام.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم يوماً: «سلني».

---

(١) المسند (٤/٥٩)، ومسلم كتاب الصلاة، باب فضل السجود (٤٨٩).

(٢) ينظر الخبر كاملاً في دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٠٠).

فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. وفي رواية[1] قال: فقلت: أَنْظِرْني حتى أنظر، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة، فقلت: أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة.

فقال: «أَوْ غير ذلك» قلت: هو ذاك يا رسول الله. أي: ما أحيد عن هذا الطلب.

فقال عليه الصلاة والسلام: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[2] يعني: إن هذا الأمر يحصل، وستنال رفقتي، ولكن أعدَّ نفسك لهذا المقام بكثرة الصلاة.

*** ظهور نور الطاعات والعبادات فيما حول العابد:**

ومن ذلك انصباغ الملائكة الأرضيين بأنوار الطاعاتِ ومجالس الذكر، كما ورد في الحديث المتفق عليه[3]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم.

قال: فيحُفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ـ أي: يرفعون أنوار هذه الطاعات والأذكار إلى رب العالمين ـ قال: فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ ما يقول عبادي؟.

---

(١) عند الطبراني في الكبير. ينظر مجمع الزوائد (٢/٢٤٩).

(٢) ينظر المسند (٤/٥٩)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود /٤٨٩/.

(٣) البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجلَّ (٦٤٠٨)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك.

قال: فيقول: هل رأوني؟

قال: فيقولون: لا والله ما رأوك.

قال: فيقول: كيف لو رأوني؟

قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأكثر لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً.

قال: يقول: فما يسألونني؟ ـ وهو يعلم سبحانه ولكن ليباهي بهم الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: أعلم أنه سيكون هناك عباد وصلحاء وأتقياء وشهداء ـ.

قال: يسألونك الجنة.

قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

قال: يقول: فَمِمَّ يتعوذون؟

قال: يقولون: من النار.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.

قال جل وعلا: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» إذ إنه لما جالسهم جانسهم فنال ما نالهم.

وفي رواية[1]: «هم الجلساء لا يشقى جليسهم» أي: هم جلساء الحق، فلا يشقى بهم جليسهم من الخلق.

*** تأثر الجمادات بنور الطاعات وآثارها النورانية:**

قال عليه الصلاة والسلام: «المؤذن يُغْفَرُ له مَدَى صوته، ويصدقه كل رطب ويابس»[2] لأن الأذان له صبغة نورانية ينصبغ بها مَنْ سمعه، فيشهد يوم القيامة على شيء شاهده؛ وبقي أثره فيه، وهو الصبغة النورانية التي انصبغ بها لَمَّا سمع الأذان.

ومن **ذلك**: شهادة الأرض بما عُمل على ظهرها من خير وشر، فهي تنصبغ وتتأثر بأنوار الطاعات، أو بظلمات المعاصي، وتشهد على ما شهدته وأثَّرَ فيها[3].

ومن **ذلك أيضاً**: شهادة الأعضاء على الإنسان بما عمل، لأن جوارحه انصبغت بآثار تلك الأعمال.

---

(١) ينظر الفتح (١١/٢١٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٤١١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام[1]: «فيلقى العبدَ فيقول ـ أي: الله تعالى ـ أي: فُلْ ـ أي: فلان ـ أَلَم أكرمْك وأُسَوِّدْك، وأزوِّجْك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي ربِّ.

قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ»؟ وهذا الإنسان كان كافراً.

«فيقول: لا. فيقول: فإني أَنساك كما نسيتني» أي: أتركك في العذاب ـ وهو نسيان تَرك ـ كما تَركْتَ شريعتي وديني.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يلقى الثالث ـ أي: المنافق ـ فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع.

فيقول: ههنا إذاً.

قال ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: مَنْ ذا الذي يشهد عليّ؟! فَيُخْتَم على فِيهِ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: اُنطِقِي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق» أي: يقيم الحجة عليه من نفسه، ولا يبقى له عذر عند الله تعالى.

ومن ذلك: تأثر الجمادات بأنوار الطاعات وروحانيتها كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ الآية [سبأ: ١٠]. فكان داود عليه السلام عندما يريد قراءة

---

(١) الحديث في صحيح مسلم أول كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الزبور يَذهب إلى أماكن الجبال ويجلس، وتأتي الطيور فيقرأ الزبور، وإذا بالجبال والطيور تُردد ما يقول، وهو معنى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: رَدِّدي.

ولقد نال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذا المقام، كما ورد في الحديث، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هكذا بيده، ويحركها يُقْبِلُ بها ويدبر: يُمَجِّد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم».

فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (فرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قلنا: لَيَخُرَنَّ به صلى الله عليه وآله وسلم) الحديث(١).

وقد تأثر جبل أحد بأنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وروحانيته، فاهتز طرباً وفرحاً لما صعده صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فضربه برجله وقال له: «اُثبت أحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» كما في صحيح البخاري(٢).

ومن هذا ما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنا نسمع

---

(١) الحديث في المسند (٢/٧٢).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة باب /٥/ (٣٦٧٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه. وينظر فتح الباري (٧/٣٨).

تسبيح الطعام وهو يؤكل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

*** الأثر النوراني للعمل الصالح: يؤهل المؤمن وَيُعده للدخول من أبواب الجنة الثمانية:**

جاء في الصحيحين[2]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله ـ أي: صنفين من المال ـ نُودي يوم القيامة من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير. فَمَنْ كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، وَمَن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، وَمَنْ كان من أهل الصيام دُعي من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما على مَنْ دُعي من تلك الأبواب من ضرورة ـ أي: هل من حرج أن يدخل المؤمن من كل الأبواب ـ فهل يدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلّها؟.

قال عليه الصلاة والسلام: «نعم. وأرجو أن تكون منهم» أي: لا حرج على المؤمن أن يدخل من تلك الأبواب الثمانية، على حسب تحققه بالأعمال التي سُميت أبواب الجنة على أسمائها، ورجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محقق.

---

(١) كما في صحيح البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).

(٢) البخاري في أول كتاب الصوم (١٨٩٧)، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧).

والداخل من أبواب الجنة الثمانية يدخلها دفعة واحدة، لأنّ الله تعالى ينشئه نشأة مَلكية تُناسب عالم الجنة قال الله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى ذلك للرسل في الدنيا قبل الآخرة، ونالت الملائكة ذلك عليهم السلام، وَمِنْ هذا جبريل عليه السلام لَمّا كان ينزل بالوحي، ويجاهد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الغزوات، ولا يفارق مكانه عند سدرة المنتهى، وكذلك عزرائيل لَمّا يقبض أرواح الخلائق في مختلف الأماكن، وفي نفس الوقت؛ لكنه في موضعه العالي مِن السماوات يأخذ الأوامر عن الله تعالى.

وقد يُعطي الله بعض الصالحين مِنْ عباده طَوراً روحانياً يتغلب على حكم أجسامهم وهم في الدنيا؛ وهم الأبدال رضي الله عنهم.

ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنّه رأى موسى عليه الصلاة والسلام يُصلي عند الكثيب الأحمر، ثم رآه في بيت المقدس مع الأنبياء، ثم رآه في السماء السادسة، فالعين واحدة والوجود متعدد، وَمِنْ هذا شأن المؤمن يوم القيامة.

وإنّ الأعمال التعبدية هي زاد العبد ومدده للحياة الأبدية، لأنّه لابد لكل حياة من زاد وسبب، فالزاد الذي يكون سَبب قوت العبد وقوامه وحياته في العوالم الأخروية الأبدية إنما هو الشرع المحمدي، بالتقوى التي هي: امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: وتزودوا لأسفاركم، والزاد يكون على قدر السفر

ومدته، ولابد للمسافر مِنْ زاد حتى يقوم به قِوامه، وتستمر به حياته، والحال أَنْتم أيها العباد على سفر لا رجعة بعده، وهو إلى العالم الأخروي، فهو أحق بالتزود من التزود لأسفار الدنيا الجزئية المؤقتة، فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

والزاد هناك خاص بصاحبه، أما زاد الدنيا فقد يشترك فيه معك مَن لا زاد معه، أما في الآخرة فلا يأخذ الإنسان مِنْ عمل غيره، فكل إنسان زاده لنفسه، وسفر الآخرة طويل أبدي، فيحتاج إلى زاد عظيم؛ وهو تقوى الله تعالى.

ومعنى تقوى الله تعالى: التمسك بشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فمن حصل على زاد التقوى جاء يوم القيامة حياً قوياً غنياً، وَمَنْ فَقَدَ زاد التقوى في الدنيا جاء فقيراً معدوماً شقياً، ويتمنى أَنْ يرجع إلى الدنيا حتى يتزود لحياته الأخروية.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢١-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ هذا المجيء يكون بَعد أَنْ شفع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شفاعته العظمى، وأَنْقَذَ الناس من أهوال الموقف، وانفض الناس إلى الحساب، ومجيئه سبحانه إلى أرض الحساب مَجيء يليق بجلاله سبحانه وتعالى، لا مجيء انتقال، ولا مجيء حركة.

ولما تجلى سبحانه وتعالى على أرض الحساب أشرقت الأرض بنور ربها، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩] فظهرت خبايا الأمور ودقائقها، من الأقوال والأعمال، والنيات والهمم، لأنّ قوة النور تُظهر خبايا الأمور، وانكشفت الأمور، وعلمت كل نفس ما قدمت وأخرت.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: جاء بها الملائكة إلى أرض الحساب، وظهرت جهنم بمظهر من مظاهرها، ويسأل اللهُ تعالى العبدَ عندئذ عَن أعماله كما جاء في الحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه؛ فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة» الحديث(١).

وأول ما يسأل الله تُعالى العبدَ: «أَلَم أبعث فيك رسولاً فيبلغك»؟(٢) أي: فما موقفك معه ومع شريعته؟

قال عليه الصلاة والسلام: «يجاء بجهنم يومئذ ـ أي: يوم القيامة إلى أرض الحساب ـ لها سبعون ألف زمام ـ أي: حبل ـ مع كل زمام

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب كلام الربّ عزّ وجلّ يوم القيامة... (٧٥١٢)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة (١٠١٦)، والترمذي في أول كتاب صفة القيامة (٢٤١٧) عن سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥) عن سيدنا عدي رضي الله عنه.

سبعون ألف ملك يجرونها»[1] وهم من ملائكة الله الكبار العظام، وتظهر جهنم جلية ظاهرة، يخاف منها مَن كان لم يتق الله تعالى في الدنيا، ويأمن منها مَنْ كان مؤمناً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: يتذكر أعماله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: لا تفيده الذكرى.

﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي: يا ليتني تزودت لحياتي الأبدية التي صرت إليها، حتى يحيا حياة طيبة، وكذلك العاصي المصر يَتمنى ذلك.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: مثل عذاب الله أحد.

ثم قال سبحانه في المؤمن الكامل: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي: يُقال لصاحب النفس المطمئنة: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

والنفس المطمئنة هي: النفس التي اطمأنت على شريعة الله تعالى، وسكنت وأقامت، وكأن هذه النفس انفطمت عن الحرام، بل اطمأنت وأقامت على ما يُرضي الله تعالى. وهذا الخطاب للنفس المطمئنة يكون في كل العوالم: في الدنيا، والبرزخ، والمحشر، والصراط؛ مؤانسة له، وتأميناً له، راضية عن الله فيما شرع، مَرضية مِن الله فيما عَمِلت.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة حرّ نار جهنم (٢٨٤٢)، والترمذي في أول كتاب صفة جهنم (٢٥٧٦) عن سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أي: جنة إيمان الله ومعرفته، لأن معرفة الله والعمل المقرب إلى الله جنة في الدنيا. ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا».

قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «المساجد».

قالوا: وما الرتع؟ قال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلا الله، والله أكبر»(١).

وكذلك عند الموت تخاطبه الملائكة بقولهم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾.

ولما نزلت هذه الآية، وقرأها النبي عليه الصلاة والسلام على الصحابة، قال أبو بكر رضي الله عنه: ما أحسن هذا يا رسول الله؟.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه سيقال لك هذا»(٢) أي: عند الاحتضار وبرازخ الآخرة.

وجاء في تفسير ابن كثير، أن ابن عباس رضي الله عنهما لما وُضع في قبره سمع بعض الصحابة الحاضرين والتابعون نداء يقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ الآية(٣).

وقالت زوجة سيدنا داود لابنها سيدنا سليمان عليه السلام: يا بني

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب /٨٧/ (٣٥٠٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر الدر المنثور عند تفسير هذه الآية الكريمة.

(٣) عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٥) رجاله رجال الصحيح.

لا تكثر النوم في الليل، فإنه مَنْ كثر نومه في الليل جاء يوم القيامة فقيراً. ومرادها التزود بالعمل الصالح، والصلاة في الليل، حتى يقدم على الآخرة غنياً بزاد التقوى.

وكما أن الأعمال الصالحة هي الزاد للمؤمن وقوامه وحياته، فكذلك هي لباسه ورداؤه، فَمَنْ أراد أن يكون كاسياً ليس بعار يوم القيامة: فعليه بالتقوى، قال الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والمعنى: يا بني آدم اذكروا نعمة الله عليكم، بأنه أنزل عليكم لباساً يستر عوراتكم ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي: للزينة والتجمل. وقال بعضهم: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ يعني: أثاث البيوت وَسُتُرِها.

ومعنى: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أي: إنزالاً غيبياً بالأسباب والتنقلات، فأنزلنا المطر، وسخرنا الرياح ومعها الملائكة، وزرعتم القطن والعشب، ورَعت الأغنام العشب، حتى أخذتم مِنْ صوف الحيوانات، وَمِنْ قطن النبات وغير ذلك، ونسجتموه ولبستموه.

فكما أنكم محتاجون في الدنيا إلى لباس يستر عوراتكم، وزينة لكم، ولتقيكم الحر والقر، فأنتم أحوج إلى لباس التقوى أشد مِنْ حاجتكم إلى هذا اللباس المعروف، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ وهو لباس لكم في الآخرة، ولباس التقوى هذا لا يَعرف أحد

جنسه حتى يلبسه، وبهذا اللباس يُعرض المؤمن على الله تعالى، كما قال جل جلاله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] أي: بلباس وزي التقوى. وَمَنْ لا تقوى عنده يُعرض عارياً مفضوحاً.

وكما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]

ومن هذا ما قاله سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؛ وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، يَومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية).

وفي الحديث عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: يا أيها الناس اتقوا الله في السرائر، فإني سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «والذي نفس محمد بيده ما عمل عَبْد عملاً قط سِرّاً إلا ألبسه الله رداءه علانية؛ إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر» والرواية لابن جرير.

كما أنَّ ألبسة أهل الجنة على حسب تقواهم، والمتقون على مراتب، فألبستهم وأزياؤهم وصورهم على مراتب، قال الله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] وَمِنْ هنا اختلفت صور أهل الجنة، وكلٌّ له صورة جميلة، لَكِنْ كلٌّ منهم على حسب عمله، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي[١]، عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ في الجنة لَسوقاً ما فيها شراء ولا بيع، إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل

(١) في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة (٢٥٥٣).

صورة دخل فيها» أي: تصير صورته كالصورة التي أعجبته. وهذا يكون لما يذهبون إلى رؤية الله جل وعلا، فهم يَلبسون الألبسة الجميلة، ويتصورون بالصور الجميلة، ويَتَحَلَّوْنَ لذلك التجلي بالرؤية؛ لأن كل تجلٍّ يقابله تَحلٍّ.

كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما[1] عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: لَقيت أبا هريرة رضي الله عنه فقال لي: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة.

قال سعيد: أوَ فيها سوق؟

قال: نعم. أخبرني رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ـ أي: حسب تفاوت وتفاضل أعمالهم، فكل منهم يأخذ مقاماً على حسب عمله، والأعمال متفاضلة فمنازلهم متفاضلة ـ فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون الله، ويَبْرِزُ لهم عرشه، ويتبدَّى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوتٍ، ومنابر من زبرجدٍ، ومنابر من ذهبٍ، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم ـ وما فيهم دنيءٌ ـ على كثبان المسك والكافور، ما يرون أن أصحاب الكَرَاسيِّ أفضلُ منهم مجلساً».

---

(١) الترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنَّة (٢٥٥٢)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وابن حبان (٧٤٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٥) كما في الترغيب للحافظ المنذري.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قلتُ يا رسول الله هل نرى ربنَّا؟

قال: «نعم. هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البَدر»؟

قُلنا: لا.

قال: «كذلك لا تتمارون في رؤية ربِّكم عزَّ وجلَّ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حَاضَرَهُ الله محاضرةً، حتى إنّهُ ليقولُ للرَّجُلِ منكم: ألا تذكرُ يا فلانُ يومَ عملت كذا وكذا؟ يُذَكِّرهُ بعض غَدَراته في الدنيا. فيقول: يا رب أفلم تغفر لي؟

فيقول: بلى، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فبينما هم كذلك غشيتهم سحابةٌ من فوقهم، فأمطرتْ عليهم طيباً لم يجدوا مثلَ ريحه شيئاً قطُّ، ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: قومُوا إلى ما أعدَدْتُ لكم من الكرَامة فَخُذُوا ما اشتَهيْتم» أي: أن الكل راضون بما أعطاهم الله تعالى.

واعلم أنه لما يتجلى ربّ العزة على أهل الجنة يزدادون جمالاً على جمالهم:

جاء في صحيح مسلم رحمه الله تعالى[1]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب عليهم ريح الشمال ـ أي: ريح من ريح الجنة ـ فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، ويرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا

(١) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في سوق الجنة (٢٨٣٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: ـ وهم الحور العين ـ والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً».

ونسأل الله تعالى التوفيق.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته الطيِّبين الطاهرين
وعلينا معهم أجمعين
وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات
في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم. آمين
والحمد لله ربِّ العالمين

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ٥

المحاضرة الأولى

حول مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

لم يأمر الله تعالى العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمد رسول الله إلا بعد أن أشهدهم مشاهدها في الآيات الكونية، والآيات التدوينية القرآنية ـ بيان ذلك مفصلاً ١٩

سيدنا محمد ﷺ بعثه الله إلى الإنس والجن ـ دليل ذلك ٢١

لما كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ عامّة وباقية إلى يوم الدين تكفل الله بحفظ القرآن الكريم وبيانه من الأحاديث النبوية ووو............ ٢٢

رسالة سيدنا محمد ﷺ هي القرآن الكريم والأحاديث الموحاة إليه... ٢٣

ذكر بعض خصائص سيدنا رسول الله ﷺ........................ ٢٤

رسالة سيدنا محمد ﷺ جامعة لجميع المصالح والسعادات البشرية في الدنيا والآخرة ٢٥

أوجب الله تعالى على الأمم السابقة إن هم أدركوا سيدنا محمد ﷺ أن يتبعوه.. ٢٥

أوجب الله تعالى على الأنبياء قبل سيدنا محمد ﷺ إن أدركوا زمنه أن يتركوا العمل بهديهم وبكتابهم وأن يعملوا بهدي ورسالة سيدنا محمد ﷺ.. ٢٦

حول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾... ٢٦
جاء سيدنا محمد ﷺ بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ـ أدلة ذلك ٣٠
حول قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.................. ٣٢
وصف الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ بالرسالة، ووصفه بالنبوة؛ ولكل منهما معنى خاص ومقام خاص ـ أدلة ذلك ٣٣
ذكر بعض الأدلة على نبوة سيدنا محمد ﷺ.......................... ٣٥
من دلائل صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ............................ ٣٩
أعظم معجزات سيدنا محمد ﷺ هو القرآن الكريم..................... ٤١
أشهد الله تعالى صدق رسوله سيدنا محمد ﷺ في الآيات التكوينية .. ٤٢
تكثير الطعام معجزة لسيدنا رسول الله ﷺ ٤٢
من أدلة أن القرآن الكريم حقاً كلام الله تعالى؟!!........................ ٤٤
القرآن الكريم لا تنفد معانيه ولا تنتهي أسراره ٤٦

المحاضرة الثانية

حول مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

أمر الله تعالى العباد بأمرين: بالإيمان بسيدنا رسول الله ﷺ وباتباعه عليه الصلاة والسلام ٥٤
بيان جملة من وجوه الحاجة لاتباع سيدنا رسول الله ﷺ............... ٥٤
حول قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ٥٥
بعض الأمثلة على حرص الصحابة على اتباع سيدنا رسول الله ﷺ... ٥٧
حول قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.............................. ٥٨
أخذ الله تعالى العهد على جميع الرسل أن يتبعوا هدي سيدنا محمد ﷺ إن هم أدركوا زمانه ٥٩

حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ٦١
حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ... ٦٢
حال الصحابة رضوان الله عليهم لما نزلت هذه الآية الكريمة ٦٢

المحاضرة الثالثة

مِنَ المشاهد التي نبَّه إليها سبحانه مشهد تخليقه سبحانه للإنسان وتصويره له ٦٩
حول قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ الآية الكريمة ٦٩
أشهد سبحانه مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله في آيات القرآن المتلُّوه ٧٣
حول قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ الآية الكريمة.............. ٧٣
حول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ الآية الكريمة... ٧٥
نطقه ﷺ بالقرآن الكريم مشاهد على أنه رسول الله ﷺ.............. ٧٧
من مشاهد صدق سيدنا محمد ﷺ إبداع الله تعالى لجمال ومحاسن وجهه الشريف ﷺ ٧٨
حول معجزة انشقاق القمر ٧٨
بعض المعجزات الشجرية والحجرية ٧٩
أخلاقه الغظيمة ﷺ مشاهد على أنه رسول الله ﷺ ٨١
حول محاسن وجه سيدنا رسول الله ﷺ.............................. ٨٢
بيان سبب إعراض كفار قريش عن الإيمان بسيدنا رسول الله ﷺ ٨٤
حول قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ الآية الكريمة.... ٨٦

الكعبة أشرف بقاع الأرض ٨٧
أفضل بقعة في عالم الدنيا على الإطلاق هي البقعة الطاهرة التي ضَمَّت جسده الشريف ﷺ.. ٨٧
حول وجاهة وجه سيدنا رسول الله ﷺ في عالم الموقف؟!! ٨٨

المحاضرة الرابعة

حول مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

لقن الله تعالى الحجة لسيدنا إبراهيم عليه السلام.................... ٩٤
ولقن سبحانه الحجة لسيدنا موسى عليه السلام.................... ٩٥
الردّ على من يزعم أن هذه المكونات والمخلوقات أوهام............. ٩٥
بيان موقف فرعون من حجة سيدنا موسى عليه السلام ٩٦
الردُّ على مزاعم كفار قريش أن هذا القرآن اختلقه سيدنا محمد ﷺ.. ٩٧
بيَّن سبحانه أن الشياطين لا يمكن أن تصل إلى سيدنا محمد ﷺ ٩٩
التحذير من الرياء والنفاق في الأعمال ١٠٠
أشهد الله تعالى آيات صدق سيدنا رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية وفي الآيات التكونية.. ١٠١
حول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ١٠٢
طلعة محياه ﷺ شاهد على أنه رسول الله حقاً ١٠٣

المحاضرة الخامسة

حول مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله

حول قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ١٠٩
ذكر سبحانه وتعالى كلمة لا إلّه إلا الله في مواضع متعددة من القرآن الكريم وبيَّن فيها مشاهد تُشْهِدُ الإنسان أنه لا إلّه إلا الله.............. ١٠٩
بيان الطريق الموصل للعلم الجازم بـ لا إلّه إلا الله ١١١

حول قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ١١٣
حول قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية الكريمة ١١٣
أشهد سبحانه مشاهد لا إلّه إلا الله في خلقه للإنسان وتطويره له...... ١١٥
وأشهد سبحانه مشاهد لا إلّه إلا الله في الإحياء والإماتة ١١٦
مع سيدنا إبراهيم عليه السلام والنمروذ؟!! ١١٧
حول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ١١٨

المحاضرة السادسة

حول العلم بـ لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

الجواب عن سؤال: كيف يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟!! ١٢٦
«تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق» ١٢٧
الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة روحه فكيف يدرك حقيقة خالقه؟!!. ١٢٨
خصَّ الله تعالى قلب المؤمن بأن كتب فيه الإيمان ١٢٩
الترغيب في تجديد الإيمان ١٣١
بعض فضائل لا إلّه إلا الله ١٣١
أمر الله تعالى بالزياة من العلم بـ لا إلّه إلا الله ١٣٣
أعظم الخلق إيماناً هو سيدنا محمد ﷺ ١٣٤
يعطي الله تعالى أهل الجنَّة بسبب الإيمان عطاء بغير حساب ١٣٥
بيان أمور يجد المرء بها حلاوة الإيمان ١٣٦
حول نور الإيمان ١٣٧

المحاضرة السابعة

حول العلم بـ لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ

حق الله تعالى على العباد وحقُّ العباد على الله تعالى ١٤٢

أمر الله تعالى العباد أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله مع شقيقتها محمد رسول الله ﷺ ١٤٣
يُمْدَح سبحانه بما ارتضاه لنفسه، وعَلَّمَهُ لعباده على لسان رسول الله ﷺ . ١٤٤
حقائق الإيمان ١٤٥
حقيقة الإيمان في القلب ١٤٦
قلب المؤمن مشرق من مشارق ربٍّ العالمين ١٤٩
الإيمان به الأمان ١٥٠
كلمة لا إلّه إلا الله أمان من وحشة الموت ووحشة القبر ١٥٢
كلمة لا إلّه إلا الله أمان لصاحبها على الصراط ١٥٢

المحاضرة الثامنة

حول الشواهد والدلائل على أنَّه لا إلّه إلا الله

العالم كله مشاهد على أنه لا إلّه إلا الله ١٥٧
حول تسبيح الأرض والجبال والحيوانات ١٦١
يجب على الإنسان أن يفهم أن إخبارات القرآن محكمة مبرمة معقولة ١٦٢
الطعام يُسَبِّح بحضرة سيدنا رسول الله ﷺ ١٦٤
والحيوانات تسبح بحمد ربها وسمعها سيدنا رسول الله ﷺ ١٦٤
كان سيدنا رسول الله ﷺ يفهم كلام الحيوانات؟!! ١٦٥
سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد ١٦٦
حول خبايا الأرض وخبايا السماوات ١٧٠
المباني في عالم الأرض كانت معاني في عالم السماء ١٧١
حول عظمة العرش ١٧٢
قد يكرم الله تعالى بعض أوليائه فيكشف لهم الحجاب؟!! ١٧٣

المحاضرة التاسعة

حول معرفة الأشياء بخالقها

جميع المخلوقات تعرف خالقها وتسجد له ١٧٧

أخبر ﷺ عن سجود الشمس لله تعالى........ ١٧٩

الحكمة من سجود الشمس تحت العرش ١٨٠

لا يقع الانعكاس الفلكي إلا بعد انعكاس مزاج بني آدم........ ١٨٠

حول سجود البهائم ١٨١

الفرق بين سجود العبادة وسجود التعظيم........ ١٨٢

حول سجود الجبال لله تعالى ١٨٤

الجبال تتأثر وتغضب؟!! ١٨٤

حول ميقات سيدنا موسى عليه السلام ١٨٦

حال سيدنا موسى عندما سمع كلام الحق سبحانه........ ١٨٨

حول رؤية سيدنا موسى عليه السلام ربَّ العزّة جلَّ وعلا ١٨٩

خص الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ بالرؤيا العيانية في هذا العالم ١٩٠

حول جبل أحد المبارك المُحِبُّ المحبوب ١٩١

حول جبل جُمدان المبارك........ ١٩٢

المحاضرات العاشرة

حول تسبيح جميع الأشياء بحمد ربّها سبحانه

الأشجار والأحجار تعرف خالقها وتشهد أن لا إلّه إلا الله محمد
رسول الله ﷺ ـ أدلة ذلك ١٩٨

حول الجذع الذي كان يخطب إليه ﷺ........ ٢٠١

حول تسبيح الطير ٢٠١
ما صيد صيد إلا لقلة التسبيح.. ٢٠٢
حول صياح الديكة ٢٠٣
حول تسبيح الطعام والماء بحضرة سيدنا رسول الله ﷺ........................ ٢٠٤
حول تسبيح الضفدع ٢٠٤
أوصى ﷺ بالرفق بالحيوانات.. ٢٠٥
النمل يعرف خالقه ويشهد أن لا إلّه إلا الله؟!! ٢٠٦

المحاضرة الحادية عشرة

حول الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى وقدرته

حول الآية الأولى من سورة الفاتحة ٢١١
حول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾.................. ٢١٢
الإنسان دائماً بحاجة إلى تربية الله تعالى له.. ٢١٤
لقَّنَ الله تعالى الحجة لسيدنا موسى عليه السلام ٢١٦
أعطى الله كل مخلوق كماله الخَلْقِي.. ٢١٧
حول عالم النمل وسيدنا سليمان عليه السلام.. ٢١٧
الحكمة في الكتاب الأول؟!!! ٢١٩
من كمال تربية الله تعالى للإنسان أن هداه وأنزل عليه الشرائع ٢٢٠
حاجة الخلق إلى الله تعالى حاجة ذاتية حقيقية ٢٢١
جميع المخلوقات تسأل ربّها أن يمدها بالوجود؟!!........................ ٢٢٢
سبب نزول سورة الإخلاص.. ٢٢٢
العوالم شواهد وأثار كمالات قدرة الله تعالى ٢٢٣

يجب على الإنسان أن يعرف الله تعالى كما عرفه هو سبحانه عن نفسه. ٢٢٥
حول سعة عالم الآخرة... ٢٢٦
العوالم العرشية تسمى بالقناديل ٢٢٧

المحاضرة الثانية عشرة

حول الأدلة والبراهين على أنَّ الله تعالى حقٌّ

حول الآيات من سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۖ﴾ ٢٣١
أصحاب سيدنا محمد ﷺ أبر الناس قلوباً ٢٣٣
قصة المكاري وقاطع الطريق ٢٣٦
الأنصاري واللص؟!!... ٢٣٧
قصة إسلام والد سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما ٢٣٨
ما يقال لمن يَدَّعي إلّه آخر مع الله سبحانه وتعالى ٢٤١
حول قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ ...﴾ الآيات الكريمة ٢٤٢
عتبة بن ربيعة يكلم النبي ﷺ؟!!................................ ٢٤٣
لا تموت نفس حتى تستوفي رزقها ٢٤٩
مما ورد في صدق التوكل على الله تعالى ـ قصة الأشعريين ٢٥٠
كل مخلوق محتاج ومفتقر إلى ربه سبحانه.............................. ٢٥٢

المحاضرة الثالثة عشرة

حول الارتباط بين عالم السماوات والأرض

من خصائص وأوامر السماء الأولى ٢٦٠
بيان الحكمة من التوجه للكعبة المشرفة في الصلاة؟!!............... ٢٦٢

من خصائص السماء الثانية وأوامرها ٢٦٥
بيان الحكمة من رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء الثانية ٢٦٨
بيان مراتب التوفية ٢٦٩
بيان حال سيدنا عيسى عليه السلام عندما يُحْشر يوم القيامة.......... ٢٧٠
من أوامر السماء الثالثة وخصائصها ٢٧٢

المحاضرة الرابعة عشرة

حول الأدلة والبراهين على حَقِّيَّة قضايا الإيمان

حول قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ ٢٧٧
من مواقف سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعَلِّم الناس الكتاب والحكمة..... ٢٨٠
حول قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ ٢٨٢
من جملة خزائن رحمة الله تعالى العامة الإمداد بالحياة والوجود ٢٨٣
من أعظم رحمات الله تعالى الخاصة إعطاؤه النبوة والرسالة للأنبياء .. ٢٨٤
سيدنا محمد ﷺ فاتح باب النبوة على العالم ليرحمهم................ ٢٨٥
حول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ .. ٢٨٦
من أسماء سيدنا رسول الله ﷺ؟ ٢٨٧
ضرير يستشفع بسيدنا رسول الله ﷺ فيرد الله له بصره.................. ٢٨٧
حول عموم رحمة سيدنا رسول الله ﷺ ٢٨٨

المحاضرة الخامسة عشرة

حول حَقِّيَّة قضايا الإيمان

حول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ الآيات الكريمة من
سورة البقرة.. ٢٩٤

أنزل الله تعالى من السماء ماء واحداً فأخرج به ثمرات متنوعة ٢٩٥
الإمام أبو حنيفة وجماعة من المنكرين؟!!! ٢٩٦
سُئِل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن الدليل على وجود الصانع فأجاب؟ ٢٩٧
يذكر سبحانه الأدلة على صدق رسوله سيدنا محمد ﷺ............. ٢٩٨
سأل سيدنا محمد ﷺ مقاماً في العبدية والعبودية لم ينله أحد ٢٩٨
حول قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ ٢٩٩
بيان عظم نار جهنم أعاذنا الله منها................................ ٣٠٠
حكم الله تعالى بأن رسوله سيدنا محمداً ﷺ هو البرهان القاطع ٣٠١
بيان أعظم آية تدل على أنَّه لا إلّه إلا الله ٣٠٢
سمَّا الله تعالى رسوله سيدنا محمداً ﷺ البيِّنة ٣٠٢
ردَّ الله تعالى عن رسوله ﷺ مزاعم وطعون الكفار والمشركين........ ٣٠٢
ذكر الله تعالى في القرآن كل شيء.................................. ٣٠٤
حول الكتاب الأول ٣٠٤
أشهد سبحانه العباد مشاهد لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ٣٠٥
القرآن الكريم معجزة تدل على صدق سيدنا رسول الله ﷺ............ ٣٠٦
سيدنا أبو مسلم الخولاني رحمه الله والأسود الكذاب................. ٣٠٦

المحاضر السادسة عشرة

حـول حقِّـيَّة قضـايا الإيمـان

جميع الأمم أرسل الله تعالى لهم رسلاً ـ بيان حالهم مع الرسل....... ٣١٢
لقن الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام الحجة في مناظراته مع فرعون . ٣١٥

أعطا الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ جميع الحجج التي أعطاها لرسله عليهم السلام ٣١٧
حول حجة سيدنا إبراهيم عليه السلام ٣١٧
الله تعالى لا ينام ٣١٩
حول قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ٣٢٢
حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ...﴾ الآية الكريمة ٣٢٣
من دعاء المهمات ٣٢٣
من أدعيته ﷺ عند النوم ٣٢٤
السيدة فاطمة رضي الله عنها تطلب خادماً؟!!! ٣٢٤
العالم يدل على عظيم إرادة الله تعالى ووو ٣٢٥
حول قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية الكريمة ٣٢٦
حول نور الهداية ٣٢٨
سيدنا ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ؟!! ٣٣٠

المحاضرة السابعة عشرة

حول إثبات نبوَّة سيدنا محمد ﷺ من خلال إعجاز القرآن الكريم

حديث بدء الوحي ٣٣٨
القرآن الكريم شاهدٌ أن الله تعالى حَقٌّ وأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ . ٣٣٩
حول الإعجاز النصي البلاغي ٣٤٠
حول إعجاز القرآن الكريم العلمي والخبري وإخباره عن المغيبات ... ٣٤١
حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ ٣٤٢
كفاية أذى بعض كفار قريش ٣٤٢

حِفْظُ الله تعالى لرسوله ﷺ يوم الهجرة........ ٣٤٤
سيدنا سعد رضي الله عنه يحرس النبي ﷺ ٣٤٦
حول الشاة المصلية يوم خيبر ٣٤٧
مكر وخيانة يهود بني النضير........ ٣٤٨
قصة الأعرابي الذي أراد الأذى لسيدنا رسول الله ﷺ ٣٤٩
حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ مفصلاً........ ٣٥٠
أكرم الله تعالى الأمة المحمدية بأن أعطاها حِفْظَ القرآن طاهراً........ ٣٥٣
حول كنزٍ من كنوز العرش ٣٥٤

المحاضرة الثامنة عشرة

حول إعجاز القرآن الكريم الخبري الغيبي

حفظ الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ من المنافقين؟! ٣٥٩
صفوان بن أمية وعمير بن وهب ـ وقتلى بدر ٣٦١
فَضالة بن عمير يحاول الأذى لرسول الله ﷺ وما حصل له بعد ذلك. ٣٦٣
حول قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾........ ٣٦٤
من أدعيته ﷺ عند الاستيقاظ من النوم........ ٣٦٤
تسبيحه ﷺ عند قيامه من المجلس ٣٦٥
تكفل الله تعالى بحفظ رسوله سيدنا محمد ﷺ وحفظ رسالته........ ٣٦٦
الجواب عن سؤال: كيف يُنذر ﷺ به بعد وفاته؟!!! ٣٦٧
من بلغه القرآن الكريم فكأنما رأى سيدنا رسول الله ﷺ........ ٣٦٨
تكفل الله تعالى بحفظ نصوص ومعاني وأحكام القرآن الكريم ٣٧٠
أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ وأفعاله بيانات للقرآن الكريم ٣٧٠

المحاضرة التاسعة عشرة

الإخبارات الغيبية في القرآن الكريم

حول قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه ٣٧٦

حول قصة السيدة مريم وكفالتها؟ ٣٧٧

قصة سيدنا نوح مع قومه ـ مفصلاً ٣٧٩

حول بَيِّنَة سيدنا نوح عليه السلام ٣٨٢

حول بيانات ومناظرات سيدنا نوح عليه السلام ٣٨٦

الترغيب بالإكثار من الاستغفار ٣٨٧

علم الله تعالى سيدنا نوحاً عليه السلام كيف يصنع الفلك ٣٨٩

حول المراد من: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ ٣٩٠

الطوفان كان عاماً للأرض كلها ٣٩١

المحاضرة العشرون

حول الأدلة القاطعة على نبوة سيدنا محمد ﷺ

قصة السيدة مريم عليها السلام مفصلاً ٣٩٨

سيدنا زكريا عليه السلام يدعو ربه؟!! ٤٠١

سيدنا عيسى كلمة الله تعالى لأنَّه خُلق بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ ٤٠٣

آية وعلامة الحمل بسيدنا يحيى عليه السلام ٤٠٥

فضل السيدة عائشة رضي الله عنها ٤٠٧

كرامات الأولياء ٤٠٩

قصة الثلاثة الذين تكلموا في المهد ٤٠٩

قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار ٤١١

أكرم الله تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بكثير من خوارق العادات.. ٤١٣
قصة سيدنا سفينة رضي الله عنه ٤١٣
قصة سيدنا عاصم بن ثابت رضي الله عنه ٤١٣

محاضرات حول خصائص الرسل عليهم الصلاة والسلام

* المحاضرة الأولى ٤١٧
البحث في قصة الأنبياء والرسل فيه حكم وعبر وتقوية للإيمان ٤١٨
ذكر الله تعالى رسله في القرآن الكريم وبيَّن فضلهم ومقامهم.......... ٤١٨
جمع سيدنا رسول الله ﷺ جميع النبوات وختمها ٤١٩
تعريف الرسول.. ٤١٩
حول مصنوعات ربِّ العالمين جلَّ وعلا........................ ٤٢٠
أعظم من اصطفاه الله تعالى اصطفاءً خاصاً هو سيدنا محمد ﷺ...... ٤٢٠
رسل الله تعالى هم أنوار الحق ٤٢٢
حول الإخبارات السابقة عن سيدنا رسول الله ﷺ ٤٢٢
جمع الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ جميع مقامات الرسل قبله ٤٢٤
حول عموم بعثة سيدنا رسول الله ﷺ ـ أدلة ذلك ٤٢٥
حاجة الناس إلى الرسل.. ٤٢٨
مهمة كل رسول أن يدل أمته على كل خير ويحذرهم من كل شرٍّ..... ٤٢٩
حول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ الآيات الكريمة ٤٣٠
كان سيدنا رسول الله ﷺ يشهد أنَّه رسول الله ﷺ ـ أدلة ذلك ٤٣٢
شهد الله تعالى لرسوله سيدنا محمد ﷺ أنَّه رسول الله ﷺ............ ٤٣٣
حول عرض أعمال الأمة على سيدنا رسول الله ﷺ ٤٣٤

حول شهادة هذه الأمة للرسل يوم القيامة ٤٣٤

* المحاضرة الثانية.. ٤٣٧

الرسالة منصب عال شريف يعطيه الله تعالى من يشاء من عباده ٤٣٧

أفضل الرسالات وأفضل الرسل هو سيدنا محمد ﷺ ٤٣٨

لما مدح الله تعالى رسوله سيدنا محمداً ﷺ وصفه بالرسالة.......... ٤٣٨

حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الآية الكريمة.... ٤٣٩

بيان صفة المؤمنين المتبعين لهدي سيدنا رسول الله ﷺ............... ٤٤٠

ما يقوله تعالى لأهل الجنَّة وما يقولون له؟!! ٤٤١

سيدنا محمد ﷺ فاتح باب النبوات وجامع النبوات وخاتمها ٤٤٢

بيَّن ﷺ أنه لا نبيَّ بعده.. ٤٤٣

أرسل الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ إلى هذه الأمة وسيسأل سبحانه كل

فرد عن موقفه معه ﷺ.. ٤٤٤

الله تعالى يسأل الرسل يوم القيامة هل بلغوا أممهم؟!! ٤٤٥

أول خطبة خطبها ﷺ في المدينة المنورة................................ ٤٤٦

رسالة سيدنا محمد ﷺ لم تنقطع ونبوته ﷺ لم تنقطع ٤٤٦

سيدنا محمد ﷺ رسول الله تعالى العام إلى جميع الأنام على مرِّ الزمان. ٤٤٧

بيان بعض مواقفه ﷺ ٤٤٨

* المحاضرة الثالثة.. ٤٤٩

الرسل خيرة معادن خلق الله تعالى..................................... ٤٤٩

الناس خلقوا من تراب إلا أنهم معادن ٤٥٠

الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ٤٥٠

حول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ..﴾
الآيات الكريمة ٤٥١
إنَّ أول ما يجب أن يُفهم من قوله تعالى: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أن لا يقاس
بالناس ٤٥٣
الدليل على أن أحاديثه ﷺ بوحي من الله تعالى ٤٥٤
كان سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يكتب كل
شيء سمعه من سيدنا رسول الله ﷺ ٤٥٦
بَيَّنَ الله تعالى أن كلام رسله لا يكون إلا بالوحي ٤٥٧
بيان عظم مقام سيدنا محمد ﷺ ٤٥٨
اصطنع الله تعالى رسله اصطناعاً خاصاً ٤٥٩
حول قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية الكريمة ٤٥٩
على العاقل أن يراقب مُشاهدة الله تعالى له ٤٦٠
وصية بعض المشايخ لمريده؟! ٤٦٠
أرشدَ ﷺ إلى أعظم الأسباب التي تمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي . ٤٦١
بيان سؤال الرسل يوم القيامة ٤٦٢
بَيَّن ﷺ خطورة السؤال بين يدي ربِّ العالمين يوم القيامة ٤٦٣
جاء سيدنا محمد ﷺ ببلاغات وبيانات كبرى؟!! ٤٦٤
*** المحاضرة الرابعة** ٤٦٦
خصَّ الله تعالى رسله عليهم السلام بخصائص وأحكام دون غيرهم .. ٤٦٧
من جملة مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم أنه جاء تالياً لكتاب
الله تعالى ٤٦٨

بيان بعض الفوائد والحكم في تلاوته ﷺ آيات الله تعالى على الأمة.. ٤٦٩
في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ خبر
غيبي بأن الله تعالى سيحفظ هذا القرآن الكريم ٤٧١
ذكر جملة مما خص الله تعالى به سيدنا رسول الله ﷺ ليلة الإسراء... ٤٧٣
حول قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ٤٧٣
ذكر خبر اجتماع بعض كفار قريش لسماع قراءة سيدنا رسول الله ﷺ
للقرآن الكريم ٤٧٦
خبر استماع الوليد بن المغيرة للقرآن الكريم وما حصل بعد ذلك ٤٧٨
خبر عتبة بن ربيعة وسماعه للقرآن الكريم ٤٨١
من جملة الحكم في تلاوته ﷺ إيصال الروح القرآني إلى القلوب ٤٨٣
* **المحاضرة الخامسة** ٤٨٤
حول قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الآية الكريمة ٤٨٤
خلق الله الإنسان وجعله في أحسن صورة ٤٨٤
ركَّب الله تعالى في الإنسان قوَّتين؟! ٤٨٥
حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآية الكريمة ٤٨٦
الرسالات الإلّهية أنوار تنزلت على الرسل عليهم السلام ٤٨٧
حول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ٤٨٨
أنوار الإيمان في قلب المؤمن من إشعاعات نور قلب سيدنا محمد ﷺ. ٤٩٠
حول أول سورة الدهر ٤٩٠
حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآية الكريمة ٤٩٢
كل إنسان يرى عمله يوم القيامة ٤٩٤
التحذير الشديد من منع الزكاة ٤٩٥
بيان الصبغة النورانية للوضوء والصلاة ٤٩٦

الأعمال الشرعية لها آثار نورانية ـ أدلة ذلك ٤٩٨
الصلاة نور لصاحبها في قبره ٥٠٠
العبادة تُعدُّ صاحبها لرؤية ربِّ العالمين جلَّ وعلا ـ أدلة ذلك ٥٠٢
قصة سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ٥٠٥
ظهور نور الطاعات والعبادات حول العابد ٥٠٦
تأثر الجمادات بنور الطاعات وآثارها النورانية ٥٠٨
حول تأثر المنبر بمواعظ سيدنا رسول الله ﷺ ٥١٠
جبل أحد تأثر بأنوار سيدنا رسول الله ﷺ ٥١٠
الأثر النوراني للعمل الصالح يؤهل المؤمن للدخول من أبواب الجنَّة الثمانية ٥١١
الأعمال التعبدية زاد العبد ومدده للحياة الأبدية ٥١٢
الحثّ على تقوى الله تعالى ٥١٣
حول قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ ٥١٤
حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ٥١٥
نصيحة أم سيدنا سليمان عليه السلام له ٥١٦
الأعمال الصالحة لباس للمؤمن يوم القيامة ٥١٧
ألبسة أهل الجنَّة على حسب تقواهم ٥١٨
حول سوق الجنَّة ٥١٩
عندما يتجلى الله تعالى على أهل الجنَّة يزدادون جمالاً ٥٢٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين
والحمد لله ربِّ العالمين

كتب فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
* حول تفسير سورة الحجرات.
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾.
* حول تفسير سورة الملك.
* حول تفسير سورة الإنسان.
* حول تفسير سورة العلق.
* حول تفسير سورة الكوثر.
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها.
* شهادة لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائلها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة.
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها.
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.

* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني.
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن.
* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها.
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله.

❊ ❊ ❊ ❊

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى (المطبوعة)

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم (الجزء الأول والثاني والثالث).
* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.
* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره ـ فضائله ـ أسراره.
* محاضرات حول هجرة رسول الله ﷺ.
* محاضرات حول الفضائل المحمدية ﷺ.

❊ ❊ ❊ ❊

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح

حلب: أقيول أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه

هاتف: ٣٢١٧٣٠٠ ـ ٣٢٢٤٩٠٠